مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
بإدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الأول — السنة الخامسة والثلاثون — المحرم سنة ١٣٨٣ هـ - يونية ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أمة التوحيد توحد

بقلم : أحمد حسن الزيات

كان العرب في جاهليتهم قوى مبعثرة على رمال البوادي ومياه الأنهار يفني بعضهم بعضا بالغزو والثأر حتى أراد الله الذي يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس أن يجعل منهم أمة وسطاً بين مادية اليهود وروحانية النصارى لتصلح الدنيا بالدين، وتصل الأرض بالسماء، فألف قلوبهم على حبه، ووحد شعوبهم على رسالته، وأخرجهم من الجزيرة يحملون مشاعل الهدى وسيوف الحق ليقيموا الميزان ويحطموا الطغيان ويبينوا معالم الطريق إلى الغاية التي تنتهي إليها الجماعة وتتم عندها الوحدة.

ونفذت إرادة الله على ما سبق من علمه وجرى في حكمه فتوحد الشتات والتأم الشمل وبلغت وحدة العرب والمسلمين غايتها من الشمول والقوة في عهد الرشيد حتى قال يوما لغمامة مرت من فوقه : « امطري حيث شئت فإن خراجك لي ». وظلت هذه الوحدة شاملة قوية حتى خلافة المتوكل، ثم نجمت رءوس الشياطين من الأعاجم في الدولة تنشر

الشعوبية والزندقة والفرقة فانقطع الخيط وانفرط العقد واختلط اللسان وتفرقت الكلمة وانشعبت الخلافة الإسلامية ثلاث شعب : شعبة فى العراق ترفع العلم الأسود ، وشعبة فى مصر ترفع العلم الأخضر ، وشعبة فى الأندلس ترفع العلم الأبيض ، ثم جف الثرى بين الإخوة فتصارعوا على الحكم وتنازعوا على السلطان :

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة
فيها أمير المؤمنين ومنبر

ثم دها العالم العربى الاستعمار الانجليزى والفرنسى مع الحروب الصليبية ففرق ليحكم ، وقسم ليستغل ، وفجر ليستبد فنشأت العصبية الإقليمية لدرء خطره أو تخفيف ضرره ولكنه كان قد استشرى واستضرى وتوقح ، ففسد النظام واختل الميزان وذل الحق وأفلس المنطق وأصبح من فوق الطاقة ووراء الإمكان أن يناضل الهوى المتفرق الرأى الجميع ، وأن ينازل الحق الأعزل عدوان الباطل المسلح ، وكان لا بد للعرب أن يعالجوا ضعف الفرقة بقوة الجماعة ، وأن يتركوا بنيات الطريق إلى سواء الجادة .

وما كان للعالم العربى وهو يرى الخطوب تتواثب على جوانبه والنوازل تتفاقم فى أحشائه أن تظل كل دولة من دوله سادرة فى مشاعب هواها تتلهى بالنظر الغرير إلى حركات زعمائها وهم يتكالبون على عرض الدنيا ويتواثبون إلى كراسى الرياسة كأن السلامة والسلام أمران يجريان من حياتها مجرى الأمور الطبيعيـــة كالنوم واللذة والضحك فهى لا تشغل بهما البال ولا تدير عليهما الفكر . وكأن غريزة حب الحياة التى جعلت من ضعاف النمل أمما متحدة ومن بغاث الطير أسرابا متعاونة لم تكن من غرائز أهله ولا من نحائز حاكميه !

لذلك شعرت كل أمة من أممه فى وسط هذه الكوارث السود التى تتفجر عليها من الداخل والخارج بما تشعر به الشاة الشاردة عن القطيع ركبها الغرور أو الضلال ساعة من الزمن فنسيت أن قرنها الحاد لا يقوى على الناب الأعصل ، وأن عيشها مقيدة مع الراعى خير من عيشها حرة مع الذئب ، وأن أسهل على الطبيعة أن تعيد اتحاداً ألفه الله من صلة الدم ونسب الروح ووحدة المصير من أن تبدئ اتحاداً صنعه الشيطان من جون بول وحسين ، ومن العم سام وسعود . ومن السيدة مريان[1] وعشاقها من هنا وهناك ، فإن هذا الاتحاد الذى ألفه الدينار والدولار والفرنك من

(١) جون بول لقب انجلترا ، والعم سام لقب أمريكا ، ومريان لقب فرنسا .

دول ثلاث ومن أفراد ثلاثة لا يدوم إلا ريثما تأنف الشعوب وتغضب. والأنفة والغضب شيمة الأبي الحر، والإباء والحرية أصلان في طبع العربي لا ينفكان عنه إلا بالقهر. والقهر وما يتبعه من الذل والفقر معناها الاستعمار. فمتى تحلحل كابوسه الفادح عن صدر الأمة العربية وجدت نفسها الضائعة وأدركت وجودها المتميز فنهضت تجمع أطرافها وتصل أجزاءها وتسأل عن صلة القربى الواشجة كيف قطعها الدخيل، وعن رقعة الوطن المتصلة كيف مزقها المستعمر، وعن هذه الأسماء المتعددة لهذه الأمة الواحدة كيف افتعلها الدخلاء والعملاء ليكون لكل اسم منها دخيل في يده أصابع قرد، ولكل دخيل فيها حيل في أصابعه مخلب قط ... وما هذه الثمرات المأكولة بالباطل إلا رزقى ورزقك ورزقه من أبناء هذه الأمة الكادحة المحرومة اقتطعها الملوك بالصوالجة واغترفوها بالتيجان ليقدموها قرابين غير مقدسة إلى آلهة الخمر والقمر والفسق والرذيلة.

• • •

شعر بمخاطر الاستعمار ومخازيه ضباطنا الأحرار، وتبلورت فيهم ثورة الشعب، فدكدكوا حصونه عليه، وكبكبوا سماسرته صرعى من حواليه، وطهروا من أوزاره وآثاره مصر وسورية والعراق، وحطموا من بينها الأسوار والحدود، وكسروا من حولها الأغـلال والقيود، فتلاقى الإخوة وجها لوجه، ولسانا للسان، ويداً ليد، وفي أيديهم أعلام العباسية، والفاطمية، والأموية، مصورة في علم واحد ذي ثلاثة ألوان وثلاثة نجوم يتذاكرون أماني الأخوة ويتناشدون أغاني الوحدة، ويتساقون كئوس المودة مترعة من كوثر النيل ورحيق بردى وسلاف دجلة.

ويمثلون الأقطار الثلاثة في اتحاد عام يتوحد فيه الاسم والرئيس والعلم والجيش والدستور والتعليم والاقتصاد والخطة والغاية، فلا يبقى وراء ذلك كله إلا شئون محلية يختص بها إقليم دون إقليم ويختلف فيها قطر عن قطر.

هذه الأقطار الثلاثة هي أساس الوحدة الشاملة، وضعه الثوار على تقوى من الله ورضوان لتقوم فوقه الجمهورية العربية المتحدة بأقطارها الثانية عشر.

ولو علمت أن كل قطر من هذه الأقطار الأساسية الثلاثة قد قامت فيه خلافة وتمكنت فيه دولة وازدهرت به حضارة، وأن الأقطار التسعة الباقية إنما كانت أقماراً توابع لها تدور في فلكها وتجري لمستقرها، وأن

الحوائل العارضة التى كانت تحول بين الفرع وأصله ، وتفصل بين الجزء وكله ، قد زالت أو كادت ، لعلمت يقيناً أن الوحدة فى الوطن ستتم وإن بعدت فى بعض أرضه الشقة ، وأن النجوم الإثنا عشر ستبزغ فى العلم وإن تراكمت فى بعض سمائها السحب .

* * *

إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة ، ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول . وإن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان، والسلطان يعتريه الوهن فيزول . أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية فى الرزق والحرية فى الرأى والديمقراطية فى الحكم . وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل، وألا تستبد فتطغى، وألا تحكم فتتحكم، والأثرة والطاغية والطغيان والحسد كانت وما زالت علة العلل فى فساد الزمان وهلاك الأمم .

* * *

بعد قرابة ألف سنة من تمزق الوحدة العربية بين الترك والفرس والمغول والكرد والجركس والأسبان والعثمانيين والفرنسيين والانجليز والطليان يعود التراث المحمدى إلى أهله ومعه ما ضيع الجهل والفقر والانحلال من كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة فيسعى بعضه إلى بعضه ، وينضم قاصيه إلى دانيه ، ويشعر ثمانون مليونا من العرب يعيشون بين المحيط والخليج بأن لهم كيانا طبيعياً تميز بالجنس واللغة والدين والتاريخ والموطن والمجد والثقافة ، فمن حقهم أن ينزلوا فى مكانهم من صدر الوجود ، وأن يشاركوا بإمكانهم فى سياسة الدنيا ، وأن يقولوا للكتلتين الرأسمالية والشيوعية : إن الكتلة العربية هى وحدها التى تملك غرس الوئام فى النفوس وإقرار السلام فى العالم ، لأنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتهيمن على الموارد الأولى فى الاقتصاد ، وتدين بالأديان السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ ، فافسحوا لها فى الطريق ، ومدوا إليها يد الصديق ، وأريحوا أنفسكم من الكيد لها والائتمار بها ، فقد جربتم معها كل سلاح ما عدا سلاح الحق فجربوه ولو مرة !

أحمد حسن الزيات

في مطلع العام الهجري

للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

هذا هو الفلك يدور دورته ، فيمضى عام ويقبل عام جديد آخر ، عام مضى لا ندرى ما الله فاعل به ، وعام أتى لا ندرى ما الله صانع فيه ، وبين هذا وذاك ينادى مناد يقول : يا ابن آدم أنا عام جديد وعلى عملك شهيد ، فتزود منى قبل أن أذهب ولا أعود .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

نحن - معشر المسلمين - إذا نظرنا إلى تاريخنا كأمة ، قرأنا كتابا أوله مشرق وحاضره مظلم : أوله أمة قوية فتية تكونت من لبنات صحراوية متفرقة جمع التوحيد بين قلوبها وربطت الأخوة الدينية بين عواطفها ، وجعلت قيمة الإنسان فى عمله وجهاده ، لا فى حسبه ونسبه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ، « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين » .

ثم تركها الرسول الكريم ، والمصلح العظيم ، صلوات الله وسلامه عليه ، بعد أن حول جهالتها علما وحكمة ، وشتاتها قوة واجتماعا ، وشكها إيمانا واطمئنانا ، تركها بين الأمم قوية عزيزة ، لها فى شئون الحياة رأى ، وفى مجال الحياة أعمال وآثار تعرف للضعيف واجبه وللفقير حقه ، وتجعل ذلك نصب أعينها ، وتدعو إليه فى كثير من مواطنها : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، فسموا فى الحياة ، وسمت بهم الحياة ، وظلت على هذه المبادئ ترقى سلم المجد ، وتمضى قدما فى سبيل العز ما دامت حريصة على مبادئها ، قوية الإيمان بفكرتها ، فلما بدلت وغيرت ، وفرطت وضيعت وهانت على نفسها ، وهانت عليها مبادئها ، وأعارت

حوادث الدهر أذنا صماء وعيونا عشواء ، واشتغل أفرادها ورؤساؤها ورجال الفكر والرأى فيها بما لا يجدى من اللهو واللعب وألوان العبث بدل الله عليها ، وغير أحوالها ، فأخذت تتفكك وجعلت تنحدر حتى وصلت إلى موضع الأطماع ، وتطلعت إليها الذئاب والسباع ، وشغلت بنظرات الخوف والحذر « تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » .

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ، « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » .

وصدق رسول الله صلى عليه وسلم إذ يقول : « توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقالوا : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن : قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » .

يجدر بنا أن ننظر فى مطلع كل عام هجرى إلى هذه الصفحات لنعلم أن السبب فى نجاح آبائنا ، وقوة أسلافنا ، يرجع إلى أن قلوبهم قد هاجرت من الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن الباطل إلى الحق ، وأنهم آمنوا بفكرتهم ، وصدقوا فى دعوتهم وجاهدوا فى سبيلها لله وفى الله ، وأن هجرة أبدانهم من مكة إلى المدينة لم تكن فراراً من الاضطهاد أو ضعفا فى مقاومة الأهوال ، ولا التماسا لمال ، ولا طلبا لسلطان ، وإنما كانت تلبية لهذه الهجرة القلبية ، وعملا على إقرار الحق ، وإزهاق الباطل ، متمثلين أمامهم : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

ما أحوجنا معاشر المسلمين إلى أن تهجر قلوبنا ما هجرته قلوبهم وأن نطالع هذه الصفحات ، وأن نذكر هذه العبر ، ما أحوجنا إلى الإخلاص فى الدعوة والصدق فى الكلمة ، والصبر على المكاره لنشق طريق السابقين بعزائم قوية ، وهمم عالية وأخلاق كريمة ، وإصغاء لصوت الحق .

ما أحوجنا ـ وأخص أهل القيادة والفكر وأرباب القلم واللسان ـ إلى أن نكون كما كانوا

العدد فى اللغة العربية

للأستاذ عباس محمود العقاد

مسألة العدد أو مسألة التفرقة بين المفرد والمتعدد ، هى إحدى مسائل الدلالة العقلية التى تتميز بها اللغات فى مقاييس النمو والتقدم ، العلم بدرجتها فى « التجريد » والحسية .

ولا تزال الأصول الحسية لفكرة العدد ملحوظة فى جميع لغات الحضارة ، فوحدة العشرة هى عدد أصابع اليدين ، ووحدة العشرين هى جملة أصابع اليدين والقدمين ، ولا تزال كلمة « ثمانين » الفرنسية تدل على أربعة عشرينات ، وكلمة « تسعين » تدل على أربعة عشرينات تزيد عليها عشرة ، وكلمة (اسكور) Score بالانجليزية تقابل كلمة الحز أو الفاصل بين مقدارين ، لأنهم كانوا يضعون الحز بعد تمام العد بأصابع اليدين والقدمين ، ويقولون (ثلاثة حزوز) بمعنى ثلاثة عشرينات Threescores .

مثلا حية أمام الناس فى السيرة والدعوة والأخلاق واتحاد الكلمة ، ألا إن هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله .

أما بعد . فتلك هى الذكريات الإسلامية الأولى ، نطالع فيها أسباب العزة والمجد ، ونتلقى عنها دروس الحياة القوية الناهضة ، ونعرف بها أن سنة الله فى نهضة الأمم ، واستقرار سلطانها ، ترجع أولا وقبل كل شىء إلى الإيمان المالك للقلوب ، وإلى الصبر الذى يذلل الصعاب ، وإلى الإخلاص الذى يربط الإنسان بربه ، وتهون به وسائل التضحية . بها نعرف أن أسلافنا ما عرفتهم العزة عفواً ولا هبطت عليهم منحاً ، وإنما وصلوا إليها بالجد والعمل والمثابرة ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

فعلينا أن نفقه هذه الذكريات واحدة فواحدة ، وأن نتعرف فيها مواطن العظة والاعتبار ، ونتخذ منها مصابيح الهداية والإرشاد ، فتسمو حياتنا ، وتنظر إلينا أرواح الأولين وهى فى عليين ، نظرة الفرح والابتهاج بمحافظتنا على مقدساتهم وسيرنا فى سبيلهم بما آتاهم الله من فضله ، « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

محمود شلتوت
شيخ الأزهر

ومن المعلوم أن كلمة « رقم » Fingere اللاتينية ترادف كلمة إصبع ، ولا تزال كلمة الرسم أو الرقم Figure باللغات الأوربية مأخوذة من هذا الاشتقاق .

والمتفق عليه أن العالم المتحضر قد نقل عن العرب صور الأرقام في المرحلة الكتابية بعد تلك المرحلة الشفوية التي تخلفت إلى اليوم في اللغات الأوربية ، بين لاتينية وجرمانية .

فهم يسمون الأرقام في اللغات الأوربية « بالصور العربية » وكلمة الصفر لا تزال محفوظة بلفظها في جميع تلك اللغات ، مبتدئة من (سفر) إلى (زفر) إلى (زيرو) إلى (زيرو) كما تنطق اليوم بالانجليزية .

ولا نريد في هذا المقال أن نطيل البحث في أصل هذه الصور العددية ، فقد تكون هندية في أصلها القديم كما هو الشائع بين مؤرخي العلوم الرياضية . ولكن الأمر الذي لا خلاف عليه أنها تأصلت في البلاد العربية وانتقلت منها إلى الأقطار الأوربية ، وأن أهم هذه الأرقام وهو « الصفر » محفوظ باسمه العربي وعلامته النقطة (.) هي العلامة التي تقابل النقطة الهندسية بتعريفها الرياضي الذي يجردها من الطول والعرض والامتداد حيث كان ، ولم تكن لهذا (الصفر) علامة هندية معروفة قبل القرن التاسع للميلاد ؛ وهو القرن الذي شاع فيه استعمالها في كتب الرياضة العربية .

على أن الأرقام لا تعنينا هنا بمقدار عنايتنا بتراكيب الكلمات في بنية اللغة التي سبقت اختراع الأرقام والأعداد ، بل سبقت علم الحساب في أدواره الشفوية وأدواره الكتابية ، لأن تكوين الكلمات في اللغة هو الدليل الأصيل على طبيعة التعبير عند القوم من نشأتها الأولى ، ثم يأتي تكوين القواعد النحوية والصرفية دليلا آخر على أصالة الإدراك العقلي في طبيعة اللغة المتطورة ، لا فرق بينه في هذا الغرض وبين الأدلة العضوية أو الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالأدلة البيولوجية .

ولا توجد في لغات العالم المتحضر لغة واحدة حلت فيها مسألة التفرقة بين المفرد والمتعدد مثل حلها المكين المتأصل من بنية اللغة العربية .

أول علامات التمييز بين الإفراد والتعدد أن اللغة العربية تقسم المتعدد إلى قسمين ، فليس كل ما عدا الواحد جمعاً في التعبيرات العربية ولكن المتعدد قد يتألف من واحد وواحد ، وقد يتألف من الكثرة التي هي زيادة على واحد ومعه واحد آخر .

نعم إن التثنية تلاحظ في بعض اللغات الأوربية عرضا عند تصريف الفعل في بعض الحالات على غير اطراد في جميع الأفعال ولا في جميع مواضع الإعراب .

ولكن اللغة العربية ، وحدها ، بين اللغات الكبرى هى التى قام تركيبها الأصيل على قواعد مطردة للتمييز بين المثنى والجمع ، فى تصريف الأفعال وتصريف الضمائر وتصريف الصيغ التى تستخدم للتكلم أو للمخاطب أو للغائب ، فى جميع مواضع الإعراب .

وقد وضعت اللغة العربية معنى الجمع «عقلا» فى موضعه الصحيح الذى نخلص إليه بعد تحقيقه من الوجهة الفلسفية ، فكل ثلاثة فما فوقها فهو الجمع مميزاً من معنى الإفراد ومعنى الاثنينية .

ولو جاز أن نبدأ الحساب من المئات والألوف لاحتجنا إلى فاصل «عقلى» للتفرقة بين العشرين والسبعة والأربعة والخمسة ، فى معنى «الصفة الجمعية» .

وفى هذه الحالة يجوز للسائل أن يسأل : لماذا تكون العشرون جمعاً ولا تكون الخمسة أو الأربعة أو الثلاثة ؟ . .

ولكننا نبدأ الحساب من الواحد وهو أول العدد ، فإذا جاوزنا الواحد لم يقم أمامنا غير واحد وواحد آخر ، ولم ننتقل من فكرة التوحد والتفرد إلا لنقول إنهما واحدان أو فردان أو اثنان .

ثم نصل إلى الثلاثة فنصل إلى معنى آخر غير معنى الواحد مفرداً أو معنى الواحدين مفردين ، وهذا هو معنى «الصفة الجمعية» بلا اختلاف بين الثلاثة أو الأربعة أو المائة أو الألوف المؤلفة ، وإنما تكون التفرقة هنا تفرقة بين جمع قليل وجمع كثير ، وليست تفرقة بين الفردية والاثنينية ولا بين الاثنينية وما زاد عليها .

ولم تهمل اللغة العربية أن تميز بين جمع القلة وجمع الكثرة فى صيغ كثير من الجموع كما هو معلوم ، بل وجدت فيها الصيغ التى تدل على القليل كما وجدت فيها الصيغ التى تدل على الكثير ، ولم تترك التمييز بينهما للوصف وحده ، كما يقال مثلا طائفة صغيرة وجمهور كبير ... وقد يكون ذكر كلمة الطائفة وكلمة الجمهور فى اللغة العربية مغنياً عن إتباعها بالوصف لما فى معظم هذه الكلمات العربية من الدلالة على القلة والكثرة بغير حاجة إلى الصفات .

* * *

ثم يأتى الجمع باختلاف الصيغ واختلاف المميزات بين الجموع وبين أنواع الكثرة التى لا ينحصر معناها فى مجرد التعدد بغير دلالة أخرى .

فهناك الجمع القياسى فى المذكر والمؤنث ، وهناك الجمع القياسى للعاقل وغير العاقل .

وهناك جمع التكسير على غير قاعدة واحدة تقاس فى جميع الكلمات ، ولكن قواعدها تحصر على كثرتها فلا تخلو من رابطة بينها أو رابطة بين الكلمة والشىء المعدود .

فالغالب فى أسماء الإفراد التى تعرف لها جموع تكسير أن جمعها غير القياسى يشتمل على نوع من التعريف لا يستفاد من جمعها على القياس .

فإذا قيل عاملون وزارعون وحاصدون وفارسون فهذا غير قولنا (عمال وزراع وحصدة وفرسان) لأننا نلبس فى جموع التكسير معنى الفئة ذات الصناعة الخاصة التى تنعزل من جملة الجموع بتلك الصناعة ، فليس معنى (عمال) مائة أو ألف أو ألوف عدة فى حالة العمل الذى يقوم به كل عامل ، ولكن الكلمة تفيد معنى التعريف لطائفة من الناس بين طوائف أخرى لها مثل هذا التعريف بين تنكيرات الجموع على الإطلاق .

ولم تترك اللغة العربية هذه التفرقة لجموع التكسير على اختلاف الصيغ واختلاف الدلالة على القلة والكثرة .

ومما نستدل به على اطراد هذه الدلالة أن صيغة مفعول لا تجمع على صيغة من صيغ جموع التكسير ، ولكنها تشذ أحياناً فيستفاد من اللفظ الشاذ معنى التخصيص ، أو التعريف ، لطائفة خاصة لها صفاتها المميزة لها بين جملة أفرادها ، وكذلك يستفاد من كلمة « ملاعين » غير ما يستفاد من كلمة « ملعونين » التى هى الجمع على القياس ، وينصرف الذهن عند سماع كلمة « ملاعين » إلى أناس تخصهم اللغة لأسبابها ، وليس قصارى الأمر فيهم أنهم ملعون ، وملعون ، وملعون ...

* * *

بل توجد غير جموع التكسير ألفاظ بصيغة المفرد مخصصة لهذا المعنى فى مواضعه ، ونعنى بتلك الألفاظ أسماء الجمع وتلحق بها أسماء الجنس الجمعى من بعض الوجوه .

فأسماء القوم والنساء والخيل والإبل هى أسماء للجموع لا تأتى لمجرد الدلالة على التعدد أو التفرقة بين الواحد والاثنين وما هو أكثر من الواحد والاثنين ، ولكنها تفيد التمييز بين الفرد والنوع كيفما كان عدده أو كيفما كانت كثرته بالنسبة إلى واحده ، ويلحق به اسم الجنس الجمعى الذى يدل اشتقاق المفرد منه على أنه قد وجد ـ أصلا ـ للجماعة ثم أخذ منه المفرد كما ينبغى عقلا بالنسبة إلى الجماعة التى ينسب إليها واحدها ، فكلمات الترك والروم والنمل والشجر لم تؤخذ من المفرد التركى أو الرومى أو من النملة والشجرة ، ولكن العكس هو الصحيح فى هذه الجموع وأمثالها كافة .

ويجب أن نقرر هنا فضل اللغة العربية فى الاستعداد للتفكير الفلسفى فى هذه القضية التى تقدمت جميع القضايا الفلسفية فى بحوث الخلاف العويص بين المفكرين من قبل أرسطو وأفلاطون إلى ما بعد مدرسة

الواقعيين والاسميين فى القرون الوسطى . إذ كان الخلاف بين الطرفين فى كل قضية من تلك القضايا المتلاحقة أيهما أسبق إلى العقل : إدراك الجنس والنوع أو إدراك الفرد والواحد ؟!

فهذه تراكيب اللغة العربية تحسب الحساب لكل من هذين الفرضين ، فيوجد فيها اسم الجنس الذى يتبعه الفرد وتوجد فيها صيغة المفرد الذى يتكاثر بالعدد وصيغة المفرد الذى يتكاثر فى طائفة معينة وعلى وصف محدود .

ونعود فنقول فى هذا الصدد كما قلنا فى بحوث أخرى من قبل إن اللغات الكبرى لم تخل من دلالات على هذه الفوارق فى جملتها ، ولكنها دلالات مبعثرة لم تجتمع لها قواعدها المطردة فى أساس التركيب كما نرى فى قواعد اللغة العربية حيثما بحثناها فى باب العدد أو باب الصفة أو باب الظرف أو باب الجمل الفعلية والجمل الاسمية ، أو غير ذلك من أبواب القواعد النحوية والصرفية التى تناولنا البحث عنها أو نتناولها فيما يلى من الفصول .

* * *

ونحن نؤثر كلما استطعنا أن نفسر هذه المزايا فى لغتنا العربية بتفسيراتها العلمية أو الفكرية التى نستطيع أن ندركها بالقياس إلى الواقع وإلى الحقائق الواقعية أمام أعيننا من قبيلها .

فما هو التفسير العقلى لهذه المزية فى تعبيرات العدد باللغة العربية ؟

إننا نرجح أن تمييز العربى بين المثنى والجمع راجع إلى مزية أخرى فى اللغة سابقة لمزية الإفراد والتثنية وهى مزية التذكير والتأنيث التى تأصلت فى لغة العرب قديما من عهد اشتغالهم بالرعاية وتقسيمهم الأحياء إلى أزواج وإطلاقهم معنى الزوج على الاثنين تارة وعلى الفرد المتمم للجنس الآخر تارة أخرى .

هذا سبب راجح يضاف إليه سبب آخر ، وهو أن مسألة الكثرة والقلة على درجاتهما قد كانت هى مسألة الحياة والموت ، ومسألة القوة والضعف ، ومسألة الثروة والفاقة ، ومسألة الأصول والفروع . عند قوم يعتزون بالقبيلة ويعتزون بما تملك من أنعامها وبما تحسب من أصولها وفروعها ، فلا غرابة فى تخصيص كل عدد بالصيغة التى يتميز بها عما عداه .

وقد تكون لهذه المزية أسباب غير ما تقدم ترجع إلى المطابقة بين الكلمات والأصوات عند النطق بها لا يتسع هذا المقال لتفصيلها وتحقيقها ، ولكننا لا نحتاج إلى تحقيق الأسباب وبراهينها لكى نقرر الواقع من ثبوت تلك المزايا ، لأن بيان هذه المزايا لا يتوقف على تفصيل أسبابها ؟

عباس محمود العقاد

مناهج الإسلام
لتقوية روابط الأسرة

للأستاذ محمد محمد المدنى

— ٤ —

حقوق الزوجية :

لكل من الزوجين حقوق على صاحبه :

١ — فالزوج عليه النفقة وكل ما يحتاج إليه بيت الزوجية :

ومن هدى النبوة فى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، أى فى عتق رقبة — وذلك هو تحرير العبد أو الأمة من الرق — ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، — أى زوجتك — : أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » .

وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لرجل : ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل عن أهلك شىء فلذى قرابتك فإن فضل عن ذى قرابتك شىء ، فهكذا وهكذا » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تصدقوا . قال رجل : عندى دينار ، قال تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر به » وهذه الأحاديث تدل على أن نفقة الزوجة مقدمة على نفقة جميع الأقارب .

وينبغى أن نفهم أن قوله صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام : « تصدق به على زوجتك » ، لا يراد به تقرير أن هذا من قبيل الصدقة التى تعتبر عطاء للفقير المحتاج ، والزوجة ربما أنفت منه إذا كان على هذا الوضع ؛ فإن النبى صلى الله عليه وسلم استعمل لفظ الصدقة فى هذا المقام حتى بالنسبة لمالك الدينار ، إذ يقول له عن الدينار الأول : تصدق به على نفسك ، والمراد أن ينفقه على نفسه ، رضى النفس ، صادق النية ، واضعاً إياه فى موضعه فيكون له به ثواب الصدقة .

وقد أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم للزوجة أن تنفق من مال زوجها ولو بدون علمه على نفسها وأولادها بالمعروف .

وذلك فيما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن هنداً قالت يارسول الله : إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطينى ما يكفينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ،

فقال : خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف .

٢ – وعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف ، وألا يضخم ما عسى أن يجده فيها من نقص يمكن علاجه ، أو الغض عنه ، فإن من ينشد الكمال المطلق لن يجده ، وربما كان فى الزوجة بعض نواح حسنة تجبر ما عسى ألا يعجب الزوج منها .

وفى ذلك يقول الله عز وجل :

« وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم :

« لا يفرك مؤمن مؤمنة – أى لا يبغضها – إن كره منها خلقا رضى منها غيره » .

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » .

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » .

وهذان الحديثان الأخيران يدلان على أن مقياس رقى الرجل هو معاملته بالحسنى لزوجته ، وهذا المقياس النبوى هو الذى يتشدق بعض الناس بأنه مقياس المدنية الأوربية .

٣ – وبلغ الأمر فى رعاية حق الزوجة إلى أن يرشد النبى صلى الله عليه وسلم الرجال إلى عدم مفاجأة النساء بالدخول عليهن بعد القدوم من السفر وذلك لإعطائهن فرصة لإصلاح شأنهن ، والاستعداد لأزواجهن .

ومن ذلك :

ما روى عن أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن النبى صلى الله عليه وسلم كان لا يطرق أهله ليلا ، وكان يأتيهم غدوة أو عشية .

وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا أطال أحدكم الغيبة فلا يطرق أهله ليلا » .

وعنه أيضا قال : كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة ، فلما قدمنا ذهبنا لندخل فقال أمهلوا حتى ندخل ليلا أى عشاء لكى تمتشط الشعثة ، وتستحد المغيبة – وذلك كناية عن التنظف والتهيؤ للزوج .

وعنه أيضا قال : « نهى نبى الله صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم أو يطلب عثراتهم » .

قال الإمام الشوكانى فى نيل الأوطار : والحكمة فى النهى عن الطروق المفاجىء – أن المسافر ربما وجد أهله مع الطروق وعدم شعورهن بالقدوم على غير أهبة من التنظف والتزين المطلوب من المرأة ، فيكون ذلك سبب النفرة بينهما .

٤ – والزوجة عليها طاعة زوجها فى السر والعلانية لا فى المظهر فقط .

وفى ذلك يقول الله عز وجل : « فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

والقنوت : هو الطاعة فى إخلاص وخشوع أى أن على الزوجة أن تطيع زوجها طاعة حقيقية صادقة ، وبعض النساء يخرجن على

هذه الطاعة ، فتفسد العلاقة بينهن وبين أزواجهن وبعض النساء يطعن أزواجهن فى الظاهر ، بينما يخرجن على هذه الطاعة فى السر حين يأمن علم الزوج واطلاعه ، وذلك من شأنه أن يهدد الحياة الزوجية ، ويبعث الشك فى نفس الرجل ، ولذلك يصف الله الزوجات الصالحات بأنهن مع الطاعة الصادقة المخلصة حافظات للغيب أى محافظات على غيب أزواجهن كما من محافظات فى حضورهم ، وقوله : « بما حفظ الله » إما أن يكون المراد به أنهن محافظات على غيب الأزواج بما شرع الله من أحكام وآداب للزوجية يتبعنها وينفذنها فيكون حفظهن بحفظ الله . وإما أن يكون المراد به أن يعمل النساء على حفظ غيبة الأزواج متوسلات بحفظ الله ، طالبات توفيقه ومعونته، فإن الأمر منه وإليه .

وأيا ما كان المعنى فإن المراد هو أن تبذل المرأة كل ما فى وسعها لتحقيق طاعتها الكاملة المخلصة لزوجها مع محافظتها التامة ، فإن ذلك هو الذى يدرأ عن الحياة الزوجية أكبر الخطر ، وإذا تحققت طاعة المرأة لزوجها ، وشعر الرجل بأنه « القوام » حقيقة على المرأة كان ذلك هو صمام الأمان الزوجى ، وإلا فإنه يثور ظاهرا أو باطنا ولا يستريح إلى وضعه الزوجى ، فيعاند ويصادم وإن لم يقصد وربما كانت ثورته الباطنية التى لا تظهر أو المكبوتة ـ كما نعبر الآن ـ أشد خطرا على الحياة الزوجية من الثورة الظاهرة المعربدة وفى كل خطر شديد لو يعلم الناس .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

« إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجىء فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

« لو كنت آمرا أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » .

« لا تصوم امرأة ، وزوجها شاهد ، يوما من غير رمضان إلا بإذنه » .

« لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، وألا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة » .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، وهو من الصحابة الذين دخلوا مصر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إياكم والدخول على النساء » ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحم ؟ قال : « الحم الموت » . . قال العلماء الحم هو أخو الزوج وما فى معناه من أقارب الزوج ابن العم ونحوه كأخيه وابن أخيه وأقارب الزوجة يسمون الأختان وهم فى معنى الحم .

وقال ابن الأثير : « الحم الموت » هذه كلمة تقولها العرب ، كما تقول : « الأسد الموت » ، و « السلطان النار » ، أى لقاؤهما

مثل الموت والنار يعنى أن خلوة الحم أشد من خلوة غيره من الغرباء ؛ لأنه ربما حسن لها أشياء وحملها على أمور تثقل على الزوج من التماس ما ليس فى وسعه . أو سوء عشرة أو غير ذلك ، ولأن الزوج لا يؤثر أن يطلع الحم على باطن حاله بدخوله بيته .

٥ — ولا يجوز للزوجة ان تسأل زوجها الطلاق بدون سبب ، ومع كون الإسلام يبيح « الخلع » وهو الطلاق فى مقابل مال تدفعه المرأة لزوجها ، فإنه ينظر إلى هذا الخلع نظرة كراهية .

فالقرآن الكريم يقول : « ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم الا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به » .

يعنى إن مال « الخلع » هو فى الأصل مما لا يحل للزوج ؛ لأنه يأخذ مما أعطاها من المهر شيئا ، أو يأخذه كله ، والله تعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

لكن أبيح ذلك فيما إذا وصل الأمر بالزوجين إلى حال من القلق لزوجى لا يمكن معها إقامة حدود الله فى الزوجية بأن يظلم الزوج زوجته ، أو تخرج هى على طاعته ، ففى هذه الحال يحل للمرأة أن تختلع ويحل للرجل أن يأخذ مال الخلع .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » .

« إن المختلعات هن المنافقات ، وما من امرأة تسأل زوجها الطلاق من غير بأس فتجد ريح الجنة - أو قال - رائحة الجنة » .

٦ — ومن حقوق الزوج التى جعلها الإسلام له بحكم العقد ملك العصمة ، فمن حقه أن يبقى على عقد الزوجية ، ومن حقه أن يفضه ، ولم يجعل الشارع هذا الحق للزوجة أصالة ولكنه أباح أن يملكها الزوج أمر نفسها ، إما عند العقد . وإما بعده فلها حينئذ أن تفصم عقدة الزواج ، ويكون هذا فى الحقيقة فصما من الزوج لأنه هو الذى أعطاها هذا الحق ، وبإرادته ثبت لها .

وإنهاء الزوجية على هذا النحو هو المعروف بالطلاق ، ومع كون الطلاق من حق الرجل أصالة ، فإن الإسلام لم يتركه دون أن يضع له من الأحكام ما يتمشى مع روح المحافظة على رابطة الزوجية وما يحول بين الزوج وبين اتخاذه وسيلة للظلم وإساءة استعماله بوجه من وجوه التعسف .

ولكى نعرف تشريع الإسلام فى أمر الطلاق ، وتتابع خطواته التى تدل على ما ذكرناه ، نؤجل الكلام عنه إلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ؟

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

نفحات القرآن

العبث بالتاريخ الصحيح ضلالة فى الدين

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا » .
(ب) « يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله » .
(ج) « فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم . والله لا يهدى القوم الكافرين » .

تمهيد :

حدثناك فى المقال السابق عن عناية القرآن باعتماد التاريخ فى تقويم الحياة ، وما للأخذ بالتاريخ من أهمية فى شأن الفرد والجماعة ، بل فى جانب الدنيا بوجه عام .

وكان اعتمادنا فى الحديث على آيات ، وسنة .

فمن الآيات قوله تعالى : « وجعلنا الليل ، والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل ، وجعلنا آية النهار مبصرة ، لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب » . « يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج » . « هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » .

وكذلك ما ورد عن الرسول فى احتسابه الأشهر القمرية ، واستيفاء عددها باثنى عشر شهراً كما قرر القرآن ، وكما كان جاريا فى الشرائع الأولى .

وكما كان تقديره الأشهر القمرية مناط المعرفة لموعد الصوم ، والحج ، وموعد الزكاة ، وأمد المعاهدات بين المسلمين وسواهم ، إلخ . . .

وما كانت شئون الحياة لتأخذ وضعها الصحيح لولا تنسيق الأمور فى نمطها التاريخى كما أسلفنا .

ومن هذا كله يكون الأخذ بالتاريخ سنة حتمية مشروعة من جانب الله ورسوله ، ولا يعتبر وصفا تقليديا ، ولا أمراً اعتباطيا

ويكون العبث بالتاريخ إفساداً لنظام مفروض ، وتعرضا لأضرار جسام . والله

ينهى عن الفساد ، وعن التعرض للأضرار وإن هان شأنها .

١ - ومع ما وضح لنا فى سياق الحديث السابق من توجيهات نحو اعتماد التاريخ فى تقييد أمورنا ، وتقدير أعمالنا : فإن الله تعالى يزيدنا بيانا فى ذلك بما ينكره على الكافرين قديما إذ كانوا يقدمون ، ويؤخرون بين الشهور ، ويبدلون فى أسمائها ، ويتوصلون بهذا النسىء إلى استحلال الحرب فى الأشهر الحرم ، وتحريمها فى أشهر أخرى بدلا منها ، ثم يعكسون هذا فى عام آخر .

ولم يكن هذا النسىء والتلاعب به مرة ، أو مرات ، معدودات بل ظل عشرات من السنين ، حتى استوعب جميع أشهر العام مرة ، أو مرات وبسببه كان موعد الحج يخرج بتقديمه أو تأخيره عن ميقاته الزمنى فى ذى الحجة ، فلم يكن حجهم صحيحاً على دين إبراهيم كما زعموا حتى صادف وقوع الحج فى شهره مرتين متعاقبتين - على ما قيل - .

وإحداهما حجة الوداع التى كان الرسول فيها على رأس الحجيج . وكان الحج صحيحاً على الأصل المشروع من عهد إبراهيم عليه السلام .

وهذا ما قرره النبي صلى الله عليه وسلم - فى خطبته الأخيرة التى ظلت منهجاً إسلامياً بعد وبما قال فيها - صلوات الله عليه - « ... إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ... » .

يريد : أن الزمان عاد إلى ترتيبه بعد دوراته المخالفة ...

ثم لا نسىء بعد ، ولا جاهلية ، ولا عبث بالأحكام ، ولا مزيد فى عدد الأشهر .

فإن ذلك كله زيادة فى الكفر ، ويفتتن به الذين كفروا ، فيسلكون به مسلك التحليل فى عام والتحريم فى عام . ويحتالون فى تحريم أربعة أشهر من السنة حسب اختيارهم ، ويخالون أنهم اتبعوا ما عرف لهم من دين إبراهيم فى تمام العدد ، ويعجبهم لانفسهم هذا التمويه . وإن علموا أنه ضيمهم ، وأنه مخالف ، وباطل ، وافتراء على الله ، وعلى دين إبراهيم ! .

٢ - وإذا كان القرآن يعيب على الكافرين هذا التغيير ، فهو يستحثنا إيجابا على اعتماد التاريخ . ويشتد فى إنكاره سلبا للعبث منا بالتاريخ .

فليس ذلك حكاية مجردة عن الأهداف ، ولا خصوص حديث قاصر على شأن الكفار ، وإنما هو قصص يساق للتوجيه إلى العمل أكثر مما يساق للحكاية والتشنيع .

وإذا كنا ضربنا بعض الأمثال بما نحتاج فيه إلى ضبط التاريخ والاعتماد عليه فى معرفة المواقيت العبادة ، وحلول الدين فى موعده ، وخروج المعتدات من عدتهن ، وتحمل المسئوليات الدينية ، والمدنية ، والجنائية لمن بلغ رشده فى السن عاقلا ، والتحلل من المعاهدات المؤقتة بزمن محدود بين المتعاهدين

فإن هناك أمورا سلبية فى مقابلة هـذه الإيجابيات وتكون لها أضرار خطيرة تهب علينا من إهمال التاريخ ، أو من العبث به تقديما أو تأخيرا .

وذكر النسىء ـ وهو التأجيل ـ لا يخرج التقديم فى التاريخ عن الحرمة . فإن كل تأخير فى التاريخ يلزمه تقديم لما كان متأخرا عنه ، أو يلزمه إثبات الاستحقاق لغير ما يستحق .

فالدائن ـ مثلا ـ يعبث بوثيقة الدين ، ويقدم تاريخها ، ليتعجل دينه قبل موعده .

والمدين يعبث فى الوثيقة التى تكون بيده ليسقط الحق ، أو يبعد أجله إن استطاع .

والأب قد يؤجل قيد مولوده لغاية ما ، فيكون هناك زمن مختلس من عمر الصبى ، وذلك قد يكسبه حقوقا ليست له فى الواقع .

والزوجة ترجىء تاريخ فرقتها للزوج ، وترجىء نهاية العدة ، ليتسع لها زمن النفقة عليه ، أو تكسب حقا فى ميراثه ببقاء العدة المصطنعة ، أو تلحق به ولدا جاءت به بعد العدة الواقعية .

وقد تعمد الزوجة أو الزوج إلى الاحتيال فى تقديم العدة ليتخلص أحدهما أو كلاهما من قيود العدة الصحيحة .

٣ ـ والتدليس فى التاريخ أنواع شتى ، وصور لا تحصى .

وساحات القضاء حافلة بالمشاكل من هذا القبيل ، وفيها ألوان شيطانية ، يرتكبها المحتالون فى حذق ، ويعانى فيها القضاة جهودا مضنية .

وآثار ذلك كله غير هينة فى اضطراب الحياة ، وفساد العلائق ، وزعزعة الثقة .

حتى لنرى بعض الناس ينكمشون فى المعاملة ، ويقبضون أيديهم عن تبادل المنافع : خوفا من التعرض للتجاحد ، وبعدا عن مظان الخلافات ، ومسالك الضلال ، وهـذا ضرر عام .

وقد أحاط القرآن بكل ما يدرأ هـذا فى كثير من مقاماته .. نحو قول الله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام ، لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم ، وأنتم تعلمون » .

وواضح أن التلاعب فى التاريخ وخاصة

تاريخ الوثائق : من أخطر الوسائل إلى أكل الأموال بالباطل .

وقد حرم الله ذلك الأكل ، وحرم كل وسيلة تؤدى إليه .

٤ ـ ومن الإلمام بما ذكره القرآن عن النسىء ، وما يتصل به عن عبث فى التاريخ : تقديما ، أو تأخيرا يتبين لذى الوعى أن من حق التاريخ علينا ألا نشوبه بتدليس ، وألا نتخذ منه وسيلة إلى الإخلال بالأوضاع الصحيحة.

وحسبنا أن الله أخذ على الكافرين كفرهم واشتد فى إنكار ضلالهم بتحويلهم الحرام إلى حلال وحرمهم الله من هدايته الموصلة إلى رضاه فقال : « والله لا يهدى القوم الكافرين » .

وكل حرام يعاب على الكافرين فهو معيب على المؤمنين ، وليست هناك محاباة فى تشريع الله لعباده فإن الله حق ، ولا يرضى من عباده غير الحق ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

٥ ـ وإذا تحدث القرآن أولا ـ عن الإشادة بالتاريخ فى قوام الحياة .

وتحدث ثانيا ـ عن خطر التلاعب بالتاريخ فى الجانب الدينى ، والدنيوى ، واعتبر النسىء ، وما هو من قبيله عملا كفريا ، وضلالا يباعد العبد عن هداية ربه ومناجزته .

فقد انتقل بنا من هذه الآيات إلى آيات فيها عتاب على المؤمنين فى شأن التخلف ، أو التباطؤ عن النهوض إلى القتال حين دعوتهم إلى النفرة لقتال العدو .

« يا أيها الذين آمنوا ما لكم ، إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض » ؟ ؟

وهل هناك مناسبة بين الحديث عن النسىء الذى ارتكبه الكافرون ، وبين العتاب على المؤمنين فى تباطئهم عن القيام سراعا إلى جهاد العدو ؟ .

إن المناسبة فى سياق الآيات ليست حتمية دائما ، فقد يكون لكل آية مقام خاص بها وغرض لا يرتبط بالأخرى فى موضوعها بالذات : فلكل مقام مقال ، كما يقول البلغاء .

على أن المناسبة هنا يسيرة المدرك بين الحديث عن النسىء ، وبين العتاب على المؤمنين فإن السياق كله تهذيب . وتربية للمسلمين .

ومجال التربية يتسع لسوق الحديث فى ألوانه العديدة .

وفى ذكر النسىء تطهير للمسلمين من لوثة الكفر التى كانت لأصحاب النسىء ، وترفع بهم عن الوقوع فيه ...

وكذلك فى العتاب على المؤمنين لتخلفهم ،

أو تباطئهم عن الجهاد حفزاً لعزائمهم ، وبعداً بهم عن مظهر التخاذل ، وكراهة الجهاد كما يفعل المنافقون .

وفى كلا التوجيهين دفع بالمسلمين إلى التخلص من النقائص الدينية والخلقية ، وترغيب لهم فى محاولة الكمال اللائق بهم وهم تحت لواء الإسلام .

فليس لغيره من أعداء الإسلام أن يقول : إن الآيات ليست متماسكة فى سياقها .

فإنها آيات مفصلات فى أغراض مقصودة ومتعددة ويزيدها روعة أن تكون كذلك . فضلا عما بينها من تناسب فى الغرض العام - وهو التربية الإسلامية .

وموضوع العتب على المؤمنين : أنهم فى العام التاسع للهجرة قاموا بغزوة فى الطائف ، وفى حنين ، ثم فوجئوا بنبأ عن قدوم جيش الروم لمحاربتهم فى تبوك — مكان معروف بين المدينة ودمشق .

وكان الحر شديدا حين دعاهم الرسول إلى النفور للقاء العدو المحتشد إليه .

وكانت ثمار البساتين على وشك النضوج ، وهم فى ذلك الأوان معسرون من المال ، والأرباح فكان من البعض تباطؤ فى الاستجابة وظهر فيهم ضعاف ، ومنافقون لا ينشطون إلى مثل هذا ...

ومع هذا خرج إلى الجهاد من خرج ، وظهر من المنافقين من لم يكن معروفا بوضوح وأراد الله ألا يكون قتال ، حيث ظهر كذب الأخبار عن احتشاد الأعداء ، فكفى الله المؤمنين القتال .

وكان تكليف الناس بالنفرة لمجرد الاختبار وإظهار المنافقين ، وتعليم المؤمنين ألا يتخلفوا عن الدعوة إذا اقتضاهم الأمر .

وليس ذلك خاصا بعهد الرسول بل هو درس تربوى يعتبر منهجا خالدا فى الحياة الإسلامية بعد .

فما يتخلف عن الجهاد حين الدعوة إليه غير منافق يجنح إلى القعود والراحة ، ويرضى بالدنيا عن الآخرة وهيهات أن تطيب له الدنيا كما يزعم ، ومهما كانت فمتاعها قليل وزائل .

والمؤمن الحق لا يخذل دينه ، ولا يفتن فيه بعمل المنافقين .

وعلى هذه الشاكلة الكريمة تكون حياة المسلمين الصرحاء .

عبد اللطيف السبكى

المحرم والسنة العربية وعاشوراء

بالأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

المحرم هو اسم للشهر الأول من شهور السنة العربية القمرية . ومن المتفق عليه أنه كان لشهور هذه السنة فى أقدم عهود الجاهلية أسماء أخرى غير الأسماء المعروفة الآن ، وإن اختلف الرواة فى تحديد تلك الأسماء . وأشهر ما ورد فى هذا الصدد أنه كان يطلق على المحرم اسم « المؤتمر » لأن العرب كانوا يعقدون فيه المؤتمرات للفصل فى أقضيتهم ، فيستفتحون السنة بتصفية خلافاتهم فى العام السابق ورسم ما ينبغى أن تسير عليه علاقاتهم فى العام الجديد ؛ وعلى صفر اسم « الناجر » من النجر أى شدة الحر ؛ وعلى ربيع الأول اسم « الخوان » كشداد من الخيانة ، وعلى ربيع الثانى اسم « الصوان » من الصيانة ، وعلى جمادى الأولى اسم « الزباء » وهى الداهية الكبيرة ؛ وعلى جمادى الآخرة اسم « البائد » لكثرة القتل والقتال فيه ، فقد كانوا يحرصون فى هذا الشهر على فض خصوماتهم بحد السيف والانتهاء من حروبهم قبل أن يجىء شهر رجب الذى كان من الأشهر الحرم التى لا يجوز القتال فيها (وذكر صاحب القاموس المحيط أنه كان يطلق على هذا الشهر اسم « رنة » ولعله من رنين الأسلحة) ؛ وعلى رجب اسم « الأصم » لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صليل السيوف (وقد بقيت صفته هذه بعد الإسلام ، فكان يطلق عليه « رجب الأصم ») ؛ وعلى شعبان اسم « الواغل » لهجومه على رمضان (والواغل فى الأصل هو الداخل على القوم فى شرابهم من غير أن يدعى إليه ، كالوارش فى الطعام) وعلى رمضان اسم « الباطل » وهو وعاء يكال به الخمر (وذكر صاحب القاموس المحيط فى مادة « رمض » أن رمضان كان يسمى « الناتق » من نتقه إذا زعزعه ونفضه) ؛ وعلى شوال اسم « العاذل » من العذل وهو الملامة ؛ لأنه أول أشهر الحج ، فكأنه يلومهم على ما يزاولونه من غير أعمال هـــذه الشعيرة ، ويثنيهم عن كل شىء ماعدا مناسكها . أو لعله سمى بذلك لشدة حره ، فقد كانوا يصفون الأيام الشديدة الحر بأنها « معتذلات » و « عذل » بضمتين . وتردد صاحب

القاموس فى اسم العاذل فذكر أنه اسم شعبان فى الجاهلية أو شوال) ؛ وعلى ذى القعدة اسم « رنة » لأن الأنعام كانت ترن فيه أى تصوت لقرب النحر (وذكر صاحب القاموس المحيط أن ذا القعدة كان يسمى « ورنة » بالواو) ؛ وعلى ذى الحجة اسم « ترك » لأنهم كانوا يتركون الإبل فيه . وتتفق هذه الأسماء مع ما نقله الخطيب خير الدين المدنى فى تذكرته .

وقد أورد محمود باشا الفلكى فى رسالته التى ألفها بالفرنسية وترجمها إلى العربية أحمد بك زكى بعنوان : « نتائج الأفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام » أسماء أخرى للشهور فى الجاهلية ، وهى على التوالى ، ابتداء من المحرم : ناتق ، ثقيل ، طليق ، ناجر ، أساخ أو أسلخ أو سماح أو سماخ ، أمنح ، أحلك ، كسع ، زاهر ، برط أو مرط ، حرف أو نعيس ، نعس أو مريس .

أما أسماؤها المستعملة الآن فالمشهور أنها وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد أجداد الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان ذلك قبل الإسلام بنحو قرنين ، وقد اختلف فى تعليل تسميتها بهذه الأسماء . وأشهر ما ورد فى هذا الصدد أن العرب سموا الشهر الأول « المحرم » لحرمة القتال فيه فقد كان أحد الأشهر الأربعة الحرم « ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب » ؛ والثانى « صفر » لما كان يعتريهم فيه من مرض تصفر به ألوانهم ؛ والثالث والرابع « ربيع الأول » و « ربيع الثانى » لأنهما كانا يأتيان فى الخريف ، وكانت العرب تسمى الخريف ربيعا ؛ والخامس والسادس « جمادى الأولى » و « جمادى الآخرة » لمجيئهما فى أيام الشتاء إذ يجمد الماء ويتساقط الجليد ؛ والسابع « رجب » من الرجب وهو الكف لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال ، فهو أحد الأشهر الأربعة الحرم ، أو من الرجب وهو التعظيم لأنهم كانوا يعظمونه فلا يحاربون فيه ؛ والثامن « شعبان » لانشعاب القبائل فيه إلى طلب الماء والكلأ وإغارة بعضهم على بعض ، والتاسع « رمضان » من الرمض وهو شدة الحر لمجيئه فى صفوان الصيف ؛ والعاشر « شوال » من شال القوم إذا ارتحلوا وتفرقوا وخلت منازلهم منهم ؛ لأنهم كانوا يرتحلون فيه ويتفرقون فى طلب الكلأ والماء ، أو من شالت النوق بأذنابها إذا رفعتها لشهوة الضراب ، لأن هذا الشهر كان موسم لقاحها ، ولذلك كانت العرب لا تجيز الزواج فيه حتى لا يتشبهوا بالأنعام ؛ والحادى عشر « ذا القعدة » لقعودهم فيه عن القتال ؛ لأنه كان من الأشهر الأربعة الحرم ؛ والثانى عشر « ذا الحجة » لإقامتهم الحج فيه .

ومع أن السنة العربية سنة قمرية تتحدد شهورها بدورة القمر حول الأرض ولا علاقة لأشهرها بالفصول لأن الفصول إنما تتحدد بدورة الأرض حول الشمس (فقد يأتى الشهر العربى فى سنة ما فى الصيف ثم يأتى بعد بضع سنين فى الخريف ثم فى الشتاء ثم فى الربيع) مع ذلك فإن بعض الشهور العربية قد سميت بأسماء تشير إلى أحوال جوية خاصة أو إلى أمور تقع فى فصول معينة ، وهى شهور صفر وربيع الأول وربيع الثانى وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ورمضان وشوال ، وقد علل ذلك محمود باشا الفلكى فى رسالته السابق ذكرها « بأن العرب أطلقت على الأشهر أسماء تناسب الحوادث الجوية أو غيرها التى كانت جارية فى وقت التسمية فقط ، ولم يرسلوا أنظارهم إلى ما وراء ذلك ؛ لجهلهم أنه بعد مضى سبع عشرة سنة تنتقل شهور الصيف فى الشتاء وبالعكس » . - وإلى هذا المعنى يشير الفيروز أبادى فى « القاموس المحيط » إذ يقول فى مادة « رمضان » إنه « سمى به هذا الشهر لأنهم لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التى وقعت منها ، فوافق ناتق (وناتق هو الاسم القديم لرمضان على ما يذهب إليه الفيروز أبادى كما تقدم) زمن الحر » . — أو لعل تقويمهم كان فى قديم عهودهم تقويماً شمسياً ثم تحولوا عنه فيما بعد إلى التقويم القمرى ، مع احتفاظهم بالأسماء القديمة الدالة على الفصول والأحوال الجويه ، وهى أسماء لا تستقيم مدلولاتها ولا تطرد إلا مع التوقيت الشمسى . ويذهب بعض الباحثين إلى أنه كان لديهم تقويمان تقويم شمسى وتقويم قمرى ، وأنهم سموا شهور السنة القمرية بالأسماء نفسها التى كانوا يطلقونها على شهور السنة الشمسية حتى لا تختلف أسماء الشهور فى التقويمين ، وإن كانت المدلولات لا تصدق إلا فى شهور السنة الشمسية ، ثم اقتصروا فيما بعد على التقويم القمرى .

* * *

ويظهر أنه كان لشهر المحرم مكانة خاصة كبيرة فى نفوس العرب بدليل أنه اختص من بين الشهور الأربعة الحرم بالاسم الذى يدل صراحة على حرمته وقد احتفظ له الإسلام بهذه المكانة ، فسماه الرسول عليه الصلاة والسلام « شهر الله » ، ولم يندب عليه السلام إلى صيام شهر كامل على سبيل التطوع غير شهر المحرم ، وجعله أفضل صيام بعد رمضان فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ فقال « شهر الله الذى تدعونه المحرم » ، (رواه أحمد ومسلم وأبو داود) .

هذا ، ويسمى اليوم العاشر من شهر المحرم « عاشوراء » وقد يسمى التاسع كذلك « تاسوعاء » . والراجح أن هذه وتلك تسميتان عربيتان قديمتان وليستا منقولتين من لغة أخرى . وقد روى عن الرسول عليه الصلاة والصلاة والسلام بعض أحاديث ندب فيها إلى صيام يوم عاشوراء ويوم تاسوعاء واليوم الحادى عشر من المحرم . واستخلص ابن قيم الجوزية من الأحاديث الواردة فى هذا الصدد أن أكمل الحالات أن يصام يوم عاشوراء ويوم قبله ويوم بعده ؛ ويليها أن يصام تاسوعاء وعاشوراء فقط ؛ ويلى ذلك إفراد عاشوراء بالصوم . ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة رأى طوائف اليهود فيها تصوم عاشوراء ، فسألهم عن ذلك فقالوا إننا نصومه تخليدا لذكرى اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من فرعون وكيده ويسر لهم الهجرة من مصر . فقال عليه السلام : « نحن أولى بموسى منكم ، وإنى لأحتسب على الله أن يكفر بصيام هذا اليوم ذنوب العام السابق له » . فصامه وحبب المسلمين فى صيامه ويقال إن النبى عليه السلام قد حرص على مخالفة اليهود فندب إلى صوم التاسع مع العاشر فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما صام رسول الله عليه وسلم يوم عاشوراء وأمر بصومه ، قالوا يا رسول الله يوم تعظمه اليهود والنصارى ، فقال : « إذا كان العام المقبل إن شاء الله صمنا اليوم التاسع » فلم يأت العام المقبل حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم (رواه مسلم وأبو داد) .

ولا أكاد أطمئن إلى هذه الروايات التى تربط بين صيام عاشوراء عند المسلمين وصيام اليهود . ويبدو لى ضعفها من عدة وجوه أهمها ما يلى :

١ — أن ما يسمونه عاشوراء اليهود هو اليوم العاشر من الشهر السابع العبرى (تشرين) الذى كان يسمى عندهم كذلك يوم « كبور » أى يوم الكفارة ، وقد جاء أمر اليهود بصيام هذا اليوم وعدم مزاولة الأعمال فيه فى عدة فقرات من أسفار العهد القديم (انظر من ذلك : سفر اللاويين ، إصحاح ١٦ ، فقرة ٢٩ وتوابعها ، وإصحاح ٢٣ فقرة ٢٧ وتوابعها ، وسفر العدد إصحاح ٢٩ فقرة ٧) ولكن هذا اليوم لا يوافق العاشر من شهر المحرم فى أية سنة من السنين التى قضاها الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة وذلك أن الرسول عليه السلام قد دخل المدينة على أرجح الأقوال يوم الاثنين ١٦ من ربيع الأول الموافق ٢٠ من سبتمبر سنة ٦٢٢ ميلادية ، وكان هذا اليوم يوافق اليوم العاشر من شهر تشرين العبرى وهو يوم عاشوراء

عند اليهود (حسب ماحققه محمود باشا الفلكى وغيره) . فلا يمكن إذن أن يكون العاشر من شهر تشرين العبرى قد جاء فى العاشر من شهر المحرم العربى فى أية سنة من السنين العشر التى أقامها الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة ، سواء اعتبرنا السنة العبرية سنة قمرية أم اعتبرناها سنة شمسية .

٢ — أن اليهود لا يصومون هذا اليوم تخليداً لذكرى اليوم الذى نجى الله فيه موسى وبنى إسرائيل من فرعون وكيده ويسر لهم الهجرة من مصر كما تذكر الروايات التى ناقشناها ، وإنما يصومونه للاستغفار وطلب العفو عن الخطايا كما تصرح بذلك نصوص العهد القديم التى أشرنا إليها فى الفقرة السابقة بل إن اسم هذا اليوم عندهم ليدل على ذلك ، فهو يسمى عندهم « يوم كبور » أى يوم الكفارة .

هذا . وقد روى عن عائشة ما يفيد أن صيام عاشوراء يرجع إلى أصل عربى جاهلى لا إلى أصل يهودى . فقد قالت : « كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه . فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان قال من شاء صامه ومن شاء تركه » ، (حديث متفق عليه من الجماعة)

وأنا أميل إلى ترجيح هذه الرواية على الرواية السابقة التى ظهر لنا ضعفها ، والتى تربط بين صيام يوم عاشوراء عند المسلمين ، وصيام « يوم كبور » عند اليهود .

وتحافظ بعض فرق المسلمين على أنواع من الصيام ترتبط مواقيتها بأحداث اجتماعية ذات بال فى تاريخها الخاص . ومن ذلك إحياء بعض فرق الشيعة للأيام العشرة الأولى من المحرم بالصيام والقيام وترتيل الأوراد وتعذيب الجسم تخليدا لذكرى من استشهد من آل البيت فى هذه الأيام .

ويظهر أن هذه الفرق قد استغلت الأحاديث الواردة فى صيام عاشوراء فأولتها على الوجه الذى يتفق مع حرصها على تخليد ذكرى شهداء آل البيت فى كربلاء ، مع أن الأحاديث والروايات السابق ذكرها تدل على أن الصيام يوم عاشوراء أصلا يختلف كل الاختلاف عما تذهب إليه هذه الفرق ، ومع أن إجماع الثقات من فقهاء المسلمين منعقد على أنه ليس من تعاليم الإسلام اتخاذ أيام وفاة الأنبياء والشهداء والصالحين من المؤمنين أيام صيام ولا أيام مأتم وعزاء ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

الإسلام والمدنية الحديثة

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

— ٢ —

١ — إذا نظرنا إلى مدنية الصين ، وإلى مدنية الهند ، فإننا نجد أنهما قائمتان على الدين ، وكذلك الأمر في كل الحضارات القديمة ، ولم تكن الحضارة الإسلامية بدعا في هذا الأمر : إنها كذلك تقوم على الدين .

وقد رأينا في المقال السابق : أن الدين ـ وهو عقيدة وأخلاق ـ لا يتعارض مع الاتجاه العملي أو التطور المادي ، بل رأينا على العكس من ذلك : أنه يحث على التقدم في مختلف ميادين الصناعة والزراعة وغيرهما مما يتصل بالمادة .

ولكن الحضارة المادية ، إذا لم تقم على مبادئ من الخلق السليم وعلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، فإنها تدمر نفسها ، وتشقى بها الإنسانية .

ولا ريب في أن العقيدة الصحيحة ، ليست اختراعا بشريا ، ولا يمكن أن يكون الخلق السليم نتاجا من صنع البشرية ذات الأهواء المتعارضة .

والكلمة الأولى والأخيرة إذن ، في العقيدة والأخلاق ، إنما هي الوحي المنزل المعصوم .

وما من شك في أن الطابع الجوهري الذي يجب أن يكون للعقيدة والأخلاق ، إنما هو أن تكونا مبادئ ثابتة لا تتقلب بحسب الظروف ، ولا تختلف باختلاف الأهواء ، ولا تخضع للشهوات فتتكيف تبعاً لها .

ومن المسلم به أنه لابد للحضارة ، أيا كانت من أن تقوم على مبادئ ثابتة ، ومن أن ترتكز على عقيدة صحيحة ، ومن أن تكون أهدافها : إسعاد الإنسانية بالسير بها في الطريق الذي رسمه الحكيم الخبير ، والذي ترشد إليه النصوص التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وإلا لما كانت الحضارة حضارة ، بل ارتكاسا وانتكاسا .

ولا ريب ، أن كل من يتدبر ما قدمناه يرى دون كثير من الجهد : أن الأمر كما ذكرنا ، أو على الأقل أن الأمر : « ينبغي » أن يكون كما ذكرنا .

٢ — بيد أن الحضارة الحديثة : تمردت على كل هذه القواعد ، وشذت على كل هذه المبادئ ، وكانت بدعا من الحضارات ، ونشازاً من المدنيات !!!

أما بيان ذلك وتوضيحه : فليس بالأمر العسير :

لقد بدأت الحضارة الحديثة - فى ميدان المعرفة - بقلب الأوضاع الثابتة الصحيحة السليمة ، فحددت ميدان العلم الصحيح بأنه الميدان المادى فحسب ، حتى لقد أصبحت كلمة : « العلم » لا مدلول لها فى الحضارة الحديثة إلا المعرفة فى الميدان المادى ، وفى الدائرة الحسية .

لقد حصرت الحضارة الحديثة نفسها ، منذ المبدأ ، إذن ، فى دائرة المادة ، وسجنت نفسها فى سجون الحس ؛ وإنها حينما اتخذت الملاحظة والتجربة أساساً ، والاستقراء حكما وميزانا ، فإنها بذلك : استبعدت - بجرة قلم - الميدان الروحى ، أو ما وراء الطبيعة ، أو الإلهيات عن الميدان العلمى ، وعن مجالات المعرفة الصحيحة

وما دام « ما وراء الطبيعة » لا يظهر فى المعمل وفى المصنع ، ولا ينظر بعين ، ولا بميكرسكوب ، فإنه إذن لا يدخل فى المحيط العلمى .

هذه النظرة القاصرة ، تقابلها النظرة الرحبة ذات الأفق الواسع ، أعنى نظرة الدين ، إنه يدع الحس مجالا يسرح فيه ويجول بالملاحظة والتجربة والاستقراء ، ويدع للعقل مجاله يستنتج فيه ويستنبط ، ويدع للروح مجالها تستكشف فيه وتستلهم .

ونظرة الدين : تصل الإنسان بالكون كله : سمائه وأرضه ، بحاره وجباله ، وهاده وسهوله ، كواكبه ونجومه ، ولكنها تصله أيضاً بما وراء الكون : باللانهاية إنها لاتحد الإنسان ولاتسجنه فى حسه ، ولا تقيده بسلاسل وأغلال .

هكذا شأن الإسلام مع الإنسان . وكان الأمر كذلك فى الحضارات السليمة ، التى توالت على الإنسان منذ أقدم العصور .

وبينما المدنية الحديثة تربط الإنسان بالمادة ، برباط محكم ، إذا بالدين يرفعه إلى الله ، فيصله به .

وبينما الحضارة الحديثة تخضعه للمادة ، إذا بالدين يخضع المادة له ويجعله سيد الكون وخليفة الله تعالى .

ومما هو جدير بالذكر : هذه الأمثلة الكثيرة التى يتحدث بها القرآن عن الإنسان ؛ فيرفع بها من درجته ، ويعلى بها من شأنه ، فى مقابلة سائر المخلوقات .

ولقد وصل الدين فى تكريم الإنسان إلى مالا يتطرق إليه خيال المدنية الحديثة ولا وهمها ؛ لقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم تكريما له ، فآدم إذن وبنوه : يمكنهم أن يترقوا فى المجالات الروحية إلى ما هو أسمى درجة من الملائكة .

وقد أذن الله بهذا التصوير الجميل : - سجود الملائكة لآدم - للإنسان أن يسمو روحيا إلى ما لا نهاية .

ولم يقف ذلك عند حدود الإمكان فحسب ، بل لقد تحقق بالفعل :

فها هو ذا سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وصل من القرب فى المجال الروحى إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى ، وأوحى الله إليه مباشرة ، وأراه من آياته الكبرى .

وأما صلة الإنسان بالمادة فإنها صلة تسخيرها لأمره وإرادته ، لا تسخيره لها :

فسيدنا داود : سخر له الحديد لينا يصوغه كيفما شاء .

وسيدنا سليمان : سخرت له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، وسخرت له الجن والطير على اختلاف أنواعها ، فكان الحاكم عليها بإذن الله .

وسيدنا إبراهيم ، سخرت له النار ، فكانت عليه برداً وسلاما .

وسيدنا عيسى : سخرت له الطبيعة فى مظاهرها المختلفة ، يخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

إن الله يرشدنا إلى أنه يأذن للإنسان بالسيطرة على الكون : ما ظهر منه وما خفى ، حينما يتخذ الوسائل المادية والروحية لهذا التسخير ، والإنسان إذن دون منازع : سيد هذا الكون .

ذلك تكريم الحضارة التى تقوم على الدين للإنسان .

أما المدنية الحديثة : فإن من نظمها التى انتهت إليها فى أحدث مثلها وفى آخر أطوارها ، إنما هو : النظام الشيوعى .

ولا نستطيع أن نجد تعريفا للنظام الشيوعى أدق من أنه : استعباد المادة للإنسان وسيطرتها عليه ، إن المادة هى : أساس النظام ، والمادة : هى هدف النظام والمادة : هى هم الشيوعيين المقيم المقعد . لقد أصبح الإنسان فى النظام الشيوعى : آلة من الآلات المادية بل جزءا فى آلة ، كمسمار مثلا فى حذاء مارد مدمر ، هو المادة .

ونظرة الحضارة الإسلامية إلى الإنسان والعلم إذن : تختلف اختلافا جذريا عن النظرة الشيوعية وإذا كانت النظرة الشيوعية تقول : ولقد سخرنا بنى آدم ، وتتخذ ذلك مبدأ لها ، فإن النظرة الإسلامية تتخذ مبدأها من القرآن :

« ولقد كرمنا بنى آدم » .

وبالله التوفيق ؟

الدكتور عبد الحليم محمود

وحدة الشاعر

للأستاذ العوضي الوكيل

نستعرض فى هذا المقال ثلاثة شعراء ، أحدهم عربى وهو العقاد ، الثانى فرنسى وهو لامارتين ، والثالث انجليزى وهو إسكندر بوب .

نستعرض ما قالوا فى موضوع كان القول فيه حظا مشاعا بينهم ، وهو وحدة الشاعر ، وبين يدى الحديث أحب أن أتقدم بكلمة إلى السيد / عبد الوارث سعيد الذى نشر فى عدد رمضان سنة ١٣٨٢ ﻫ من هذه المجلة (فبراير سنة ١٩٦٣) كلمة عاب فيها على أن جعلت العنوان الجانبى لهذه الكلمات لفظة « أدب مقارن » .

وهو يرى أننا أسأنا التعريف وتجافينا عن وجه الحق وذلك « لأن للأدب المقارن مفهوماً محدداً عند دارسيه ، يخالف المفهوم الشائع لكلمة مقارن أو مقارنة ، هذا المفهوم هو البحث فى الصلات التاريخية بين الآداب المختلفة ، وما لهـــذه الصلات من تأثير أو تأثر » .

وأنت بعد هذا التعريف الرسمى المسجل ، لا تستطيع أن تستعمل مادة المقارنة فيما وضعتها له لغتنا ، ولا تستطيع أن تدنو من مادة « ق . ر . ن » بحال من الأحوال ، إلا إن أردت المعنى الذى أورده السيد / عبد الوارث فضيق به مفهوماً واسعاً رحيباً لهذه المادة .

لن تستطيع بعد هذا أن تسلك شيئين فى نظام ، ثم تتخذ من ذلك سبيلا إلى الموازنة ، ثم تسمى عملك هـذا قرنا ، أى ربطا ، أو مقارنة أى موازنة .

والسيد عبد الوارث كان حريصاً فى كلمته على أن يثبت مراجعه بالتفصيل ، ولكنه مع هذا كان خليقا به أن يجعل من مراجعه معاجم لغة العرب ، وتراثها فى الشعر والنثر ، ليعرف أن العرب تعرف مدى القرب بين المقارنة والموازنة .

وكنت أحب للسيد عبد الوارث ، وهو ابن من أبنائنا بدار العلوم أن يتروى فيما يكتب ما دام لا يستطيع أن يكون من أصحاب الارتجال . وعليه السلام .

* * *

وحدة لامارتين ، إحدى قصائد التأملات ، وقد سبق لنا التعريف بلامارتين فى عدد شوال سنة ١٣٨٢ ﻫ (مارس سنة ١٩٦٣)

من هذه المجلة ، حين كنا نستعرض بحيرته ، وبركة البحترى .

والتأملات ديوان شعرى لهذا الشاعر الفرنسى العظيم نظمه حوالى سنة ١٨٢٠ م ، وصادف بنشره نجاحاً منقطع النظير ، وارتقى به الشاعر - فى سرعة - درجات فى سلم المجد والشهرة والخلود .

وقد سماها النقاد التأملات الأولى تمييزاً لها عن «التأملات الجديدة» التى نظمها بين عامى ١٨٢٣ ، ١٨٣٠ م وبها - أو بغيرها - دخل الشاعر الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٠ م .

أما إسكندر بوب فهو شاعر انجليزى عاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد نشأ معتل الصحة ، واهى البنية ، وسكن مرض الربو صدره ، حتى أودت به أزمة من أزماته سنة ١٧٤٤ عن ستة وخمسين عاماً قضاها فى القراءة والتفكير ونظم الشعر ، وكتابة المقالات النقدية .

وقد استطاع بوب ، وتلاه من بعده لورد بيرون أن يجعلا من الشعر وسيلة للرد على نقادهما ، يقول العقاد[1] :

« على أن « بيرون » و « بوب » لم يكونا ناقدين فيما نظماه من القصيد بل كانا مدافعين يردان هجمات النقاد عليهما ، وكانا أحيانا محاربين يهجمان على أصحاب المذاهب المخالفة لهما بين الشعراء والأدباء : كتبت مجلة « بلاكوود » الأدبية فصولها عن ديوان « ساعات الفراغ » فاشتدت عليه وسخرت منه ، فأراد الشاعر أن ينتصف لنفسه ، وأن يعلم النقاد أن عروس الشعر تحسن النضال فى ميدانه ، ونظم قصيدته التى سماها « الشعراء الانجليز والصحفيين الإيقوسيين » فأوسع فيها النقاد سخرية وهجوا وعرج على نظرائه من شعراء عصره فقال فيهم مقاله ، وأعمل فيهم لسانه وخياله ، وحسبها الأدباء يومئذ مثلا من أمثلة الردود الطريفة ولم يحسبوها فناً من فنون النقد ، أو ميزانا من موازين التمييز والتقدير .

وكذلك صنع « بوب » حين أنحى عليه نقاد عصره ، وخالفه النظراء فى مذهبه فإنه نظم شعراً ، ولم يكتب نثراً فى الدفاع عن أدبه ليثبت لناقديه أن سلاح الشاعر لا يقصر عن سلاح الناقد الناثر فى ميدانه ، وأرسل قصيدته إلى صديقه الطبيب الأديب « أربثنوت » يشرح مذهبه ويكيل الصاع صاعين لخصومه ومنافسيه ، وقيل عنه يومئذ إنه عرفهم بأقدارهم ، وإن لم يحمد له ميزانه فى تعريف الناس بتلك الأقدار » .

أما أستاذنا العقاد فهو غنى كل الغنى عن التعريف ، وقد اخترنا له فى مقام عرض المتقاربات فى الأدب العالمى عن الوحدة

(١) مقدمة ديوان رسوم وشخصيات من نظم كاتب المقال .

قصيدة لا تحمل عنوان الوحدة كصاحبيه : الانجليزى ، والفرنسى ، وإنما تحمل عنوان « ياكتبى » ، وإن كانت له قصائد ومقطوعات كثيرة تتحدث عن الوحدة والانفراد ومن ذلك قطعة الشعر [1] ووقفة فى الصحراء [2] وغيرها .

قصيدة لامارتين ، ترسم صور الطبيعة ناطقة بالروعة والجمال ، وتصور لنا نفسه وقد غامت فيها سحب الحزن والألم ، ثم لا تلبث أن تتجه إلى الله يستهل الشاعر قصيدته بقوله :

أسرح الطرف فى الوادى الذى انبسطت
أمام عينى ووجدانى مرائيه
والشمس تسبح نحو الغرب فى طفل
وقد جلست حزين الفكر عانيه
فى ظل « بلوطة » أمست كهولتها
تذرو الشجون على الوادى وما فيه
أرى هنا غالباً فى وحدة عجب
مشرداً وكأن القلب فى تيه

وفى المقطع الثانى من القصيدة يرسم لنا النهر هادراً فى واديه ، حيناً ، وسائراً يتلوى حيناً ، وماء البحيرة كأنه نائم يلفه الصمت العميق ، ونجم المساء يصعد من جانب الأفق إلى كبد السماء بهياً جميلا ، يقول :

كم يهدر النهر فى واديه منطلقا
وفوق أمواجه وشى من الزبد
لقد تلوى على الوادى وسار إلى
حيث اختفى مخدرا فى ظلمة الأبد
وفى البحيرة ماء راح فى سنه
قد لفه عبقرى الصمت فى برد
نجم المساء سما من عندها صعداً
إلى السماء وما أبهاه فى الصعد

وهو يشكو وحدته وحزنه ، هائماً قلقاً ، لا يستقر ، والطبيعة ، على جمالها ، لا تستطيع أن تهبه العزاء والسلوى :

أرنو إلى الأرض روحا هائما قلقا
لا يستقر من البلوى على حال
وليس فى صور الأكوان قاطبة
ما ينقذ القلب من هم وبلبال

* * *

أنقل العين ما بين الربى عبثا
وأقطع اليوم من صبح إلى غسق
وأقطع الكون بالعين التى جهلت
مداه فى ظلمة تطغى وفى ألق
وهل لمثلى مكان فى رحائبه
فيه سعادة روح فى الحياة شقى

ثم لا تلبث نفسه أن تتجه إلى رجاء السعادة فى السماء :

لكن هناك شمس جد ساطعة
شمس حقيقية فى عالم ثان

---

(١) ديوان من دواوين ص ٤٤ .
(٢) الجزء الأول من ديوان العقاد .

هل لى سمو بروحى وهو فى جسد
مركب الجسم من أخلاط أدران

* * *

هناك أنعم من ورد ومن نهل
يا طالما رمته من قبل سلسالا
هناك سوف ألاقى الحب مبتسما
هناك سوف تلاقى النفس آمالا

وفى ختام القصيدة يبرز شوق الشاعر إلى عالم المجهول ، فيطلب من ريح الشمال أن تحمله إليه عاصفة به دون أن تأخذها فى ذلك رحمة أو شفقة .

إذا هوت من ذرا أغصانها ورقة
والشمس فى موقف التوديع محترقة
تهب ريح فتذروها وتحملها
إلى عوالم لم تحلم بها حدقة
وإننى مثلها لا شىء يفرقنى
عنها ولا هى عنى قط مفترقة
هيا احملينى يا ريح الشمال ولا
يأخذك فى العصف بى عطف ولا شفقة !

أما وحدة بوب ، فدون ذلك بكثير ، سواء فى حجمها وعدة أبياتها أو أفكارها ومعانيها ، فهى وحدة بسيطة يعرضها الشاعر فى صورة رجل يكتفى بما عنده ، ويستغنى عن غيره ، ثم لا تكون به حاجة إلى أن يتدخل فى شأن غيره ، فتمضى حياته هينة لينة ، هادئة صافية ، ويكون ليله نوما عميقا ، ونهاره رضاء وبراءة ، وتأملا لطيفا :

يقول بوب :
سعيد ذلك الرجل الذى يعيش .
قانعاً يتنفس هواء أرضه .
القليلة الموروثة الكافية .
تمده أبقاره باللبن .
وحقوله بالخبز ، وأغنامه بالصوف .
أما أشجـــاره فتمنحه فى الصيف ظلا . وفى الشتاء ناراً !
وإنه لمبارك ، لا يتدخل فى شأن غيره .
وتمر ساعاته وأيامه وسنوه ، لينة .
فى صحة جسم وأمن بال .
نهاره هادىء ونومه هنىء .
ظافراً بالراحة والبراءة والرضا والتأمل .

ثم يتمنى الشاعر أن يعيش هكذا عمراً لا يعرفه أحد ، حتى إذا جاءه الموت مضى غير مأسوف عليه ، متسللا من العالم ، ثم لا يكون هناك حجر أو شاهد قبر يدل الناس عليه . يقول :

هكذا دعنى أعيش .
غير معروف . هكذا دعنى .
أمضى متسللا من العالم غير مأسوف علىّ .
ثم لا حجر ولا شاهد يدل علىّ حيث أرقد .

أما قصيدة أستاذنا العقاد ، فقد قلنا إن موضوعها الأصيل ليس هو وحدة الشاعر ،

ولكنها مع ذلك تتحدث عن الشاعر بين كتبه وحيداً يجن عليه الليل بينها ، فإذا هو عاكف عليها ، لا يجفوها مهما أرهقته ونال العكوف عليها من صحته ، وهو يعرف أنها صرفته عن ملاذ الحياة فالناس بين نائم غارق فى كراه ، وبين معاقر كأساً يرتشف طلاها أو عاشق بين يديه معشوقه .

وتأسره أرواحها فيسألها كيف يحل هذا الأسر ، وماذا الذى كسب منها ؟ هل كسب النور والمعرفة ؟ لقد طالمـــا كشفا له عن القبيح :

إذا أرانى النور قبحاً فيا
حسن الذى يضمره الغيهب

هل كسب الأحاديث والمنى والخبرة ، إن صاحبها لمتعب :

ينتفع المرء بما يقتنى
وأنت لا جدوى ولا مأرب
إلا الأحاديث وإلا المنى
وخبرة صـــاحبها متعب

لقد صور العقاد فى بلاغة وقوة كيف تقف الكتب حوله بالليل وكأن جماجم أصحابها تهيأ للحديث ، ثم لا تلبث أن تتجادل وتتناقش بصوت يسمعه قلب العقاد الذكى ويعيه خاطره الخصب :

كم ليلة سوداء قضيتها
سهران حتى أدبر الكوكب
كأننى ألمح تحت الدجى
جماجم الموتى بدت تخطب

ولهذا المعنى الأخير معى قصة ، فقد كنت أقضى جانباً من الليل فى مكتبتى الخاصة ، وورد على خاطرى هذا البيت ، فما هو إلا أن تصورت الكتب فى شجار وجدال ، وتصورت أصحابها يتحدثون ، فاقشعر بدنى وقمت من فورى وغادرت المكتبة الصاخبة الساكنة !

ووحدة العقاد إذن وحدة الأديب العالم الفنان ، وحدة العقاد حين يلتقى بالقائلين من كل عصر وجيل ، ومن كل قطر وبلد يبعثهم خياله أحياء ينطقون ، وتشخص أمام عينه صورهم وأزياؤهم وكأنهم أصحاب سمر ، ورواد ندوة ، والعقاد يرهقه الجهاد فى سماعهم وقراءتهم ، ولكنه مع هذا لا يرجو أن يزايله ذلك الإرهاق

ياكتبى ألبست جلدى الضنى
لم يغن عنى جلدك المذهب
ياكتبى أين ترى المنتأى
عن أسر أرواحك والمهرب
أنفقت منى ما يضن الورى
به على الله ولم يذنبوا
من ضوء عينى ومن صحتى
صدى ومن وقتى وما أكسب
ومن شباب فيك ضيعته
فما أنا إلا الفتى الأشيب

العوضى الوكيل

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

— ٢ —

١ — العدل :

قلت فى ختام كلمتى السابقة إن الاشتراكية فى الإسلام هى ما يفهم من قول الله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » وقد أكد الله مفهوم هذه الكلمات بالنهى عما يقابلها . إذ قال : « وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » فإن المتأمل فى معانى الفحشاء والمنكر والبغى يجدها تقابل العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، لأن الفحش — وهو تجاوز الحد — كما يقع على القول يقع على العمل ، وهو — دون شك — ضد العدل والفحشاء والفاحشة هى القبيح الشنيع من الأقوال والأعمال ، وقد استعملت الفاحشة فى معنى البخل ومنع الصدقات حيث يقول الله « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » واستعمل الفاحش بمعنى البخيل فى قول الشاعر القديم :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى
عقيلة مال الفاحش المتشدد

أما استعمال الفحشاء بمعنى تجاوز الحد فى القبح فقد فهم من قوله تعالى فى الشيطان : « إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » ، وقد أطلقت الفاحشة على الزنا — لأنه غاية فى الشناعة والقبح وجاء من ذلك قول الله : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » وقوله « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة » وقوله فى قوم لوط : « إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » وهى بهذا المعنى أيضا تقع فى مقابل العدل لما فيها من الجور وتجاوز الحد ، والخروج عن القصد ، ولأن العدل قد فسر بالواجب وقيل فى توجيه هذا التفسير : إن الله عدل فيه على عباده بجمل ما فرضه عليهم واقعا تحت طاقتهم . فكل ما أوجبه الله عدل وخير ، وكل ما نهى عنه جور وشر ، ومن ثم يتبين مدى ما تسعه كلمة العدل من معانى الإنصاف وتوخى القصد فى الأمور . والمثل والنظير والجزاء والفداء . وما إلى ذلك من المعانى اللغوية . وكل ما يدل على المعادلة والمماثلة ، وهذه المعانى يجب أن تطبق فى كل شئون

المجتمع والحياة ، فالعدل فى الحكم ، والعدل فى القضاء ، والعدل فى تقدير الأجور ، والعدل فى الرضا ، والغضب والعدل فى إسناد وظائف الدولة لمن ترشحهم مواهبهم لخدمة الدولة ، والعدل فى تهيئة الفرص المتكافئة لتربية المواهب والانتفاع بها فى خدمة الأمة، وكل علاقات الأفراد بالمجتمع وعلاقات المجتمع بالأفراد يجب أن تقوم على العدل ، لا على الغرض والهوى ، فإن ذلك بعض ما يفهم من قول الله : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » وذلك - كذلك - بعض ما يفهم من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ». فالقسط - وهو العدل - يجب أن يكون رائد المؤمنين وأولى الأمر فيهم فيما يكون بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم ، فلا ينحرف بهم الغرض والبغض إلى ظلم غيرهم مهما يكن شعورهم نحوهم بالكره والشنآن ، حتى ولو كانوا يخالفونهم فى الدين بدليل قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ، بل إنه إذا خاف المؤمنون من قوم خيانة فليس لهم أن يسبقوهم بالخيانة ، بل عليهم أن يجاهروهم بنبذ العهد إن كان بينهم وبينهم عهد ، كما يفهم من قوله تعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ومن هذا التوجيه الإلهى الرشيد ، نبعت القاعدة الشرعية المعروفة لهم ما لنا وعليهم ما علينا .

فالعدل هو حجر الأساس فى بناء المجتمع السليم ، وهو قوام النظام فى شريعة الإسلام بل هو الغاية من كل ما جاء به الأنبياء قبل محمد عليه السلام ، فإن ذلك بعض ما نفهم من قول الله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ». ولا شك أن العقل السليم يستحسن العدل - ويجد فيه بعد النظر المبرأ من الهوى والقصور ومصلحة المجتمع ومصلحة الأفراد فى المجتمع ، فالمنكر - وهو ما ينكره الشرع القويم ، وينبو عنه الطبع السليم ، ويتجافى عن العرف الصالح - فى الطرف المقابل -

كذلك ـ لمعنى العدل ، والبغي ـ وهو الجور، وابتغاء الاستيلاء على حق الغير ـ ظلم يتجافى عن معنى العدل . ومن ثم نجد في النهي عن الفحشاء والمنكر والبغي تأكيداً للأمر بالعدل . وسنجد فيه كذلك تأكيدا للأمر بالعدل ، وسنجد فيه كذلك تأكيدا للأمر بالإحسان وإيتاء ذي القربى

٢ — الإحسان :

والإحسان في المرتبة التي تلي مرتبة العدل في الوجوب والاهتمام ، وليس معناه قاصرا على التبرع بالصدقة، أو النفقة كما تبادر ـ ولا يزال يتبادر ـ إلى بعض الأفهام ، وإنما معناه واسع جامع بحيث يتناول كل قصد حسن . وكل قول حسن . وكل فعل حسن ، وذلك بعض ما يفهم من قول الله ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، فقد نكر العمل ليشمل كل عمل . وكما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه). فإتقان العمل وإحسانه يدخل في عموم معنى الإحسان . ولا شك أن المراد به العمل الصالح وهو الذي يحقق مصلحة فردية لا تضر المجتمع أو أحد أفراد المجتمع أو مصلحة اجتماعية ينتفع بها المجتمع وأفراد المجتمع . فمتى كان في العمل مصلحة كان حسنا ، وما يقال في العمل يقال في الكلمة الطيبة والنية الطيبة ، فإنهما كذلك من الإحسان بمكان ، كما يفهم من قول الله : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وقول النبي صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فالأعمال تقدر بالنيات الباعثة عليها وصلاحها يقاس بالدوافع النفسية الخفية التي تكمن وراءها ، ولا يطلع عليها إلا علام الغيوب ، ولهذا قرن الله العمل بالإيمان ليكون منه بمنزلة الثمر من الشجر ، وما يقال في العمل يقال في الكلمة الطيبة كما يفهم من قوله تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الكلمة الطيبة صدقة كما أن العدل بين اثنين صدقة ، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، هذه إشارة عابرة إلى مفهوم الإحسان ومدى انطباقه على كل ما يصدر عن الإنسان سواء كان قولا أو عملا أو نية تكمن وراء القول والعمل أما تفصيل ذلك فيحتاج إلى كتاب ولا يستوفيه استيعاب ، وما قيل في مقابلة العدل بالفحشاء والمنكر والبغي يقال في المقابلة بينها وبين الإحسان بل إن مرتبة الإحسان فوق مرتبة العدل لأنه زيادة في الخير والفضل ، فهو بالنسبة إلى الفحشاء والمنكر والبغي على طرف النقيض .

٣ — إيتاء ذى القربى :

هذا هو الأصل الثالث الذى يقوم عليه كيان المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام ، وذكره بعد العدل والإحسان يشعر بأنه فى القمة العالية منهما ، فإن أحق الناس بهما هم ذوو القربى . أى أصحاب القرابة ، بل إن لهم بحكم روابط النسب ووشائج القربى ما ليس لغيرهم ، ومن ثم جعل الله تركة المتوفى شركة بين أقربائه ، يأخذ كل منهم بمقدار ما فرض الله له فيها على حسب درجة القرابة ووفق ما يقضى به العدل والفضل « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا . وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » . وقد أوجب الله النفقة على القادرين الموسرين للمحتاجين من الأصول والفروع كالأب والجد والابن وابن الابن ، وجعل نفقة الزوجة والأولاد حقا على الزوج ، ولا شك أن ذلك وغيره مما لا يتسع المقال لذكره ـ مظهر من مظاهر الاشتراكية التى شرعها الإسلام ، وقام عليها المجتمع الإسلامى ونلمحها فى قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » .

وقوله سبحانه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم » ، فإن الاشتراكية فى الأسرة تتركز فى معنى قوله « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ، والاشتراكية فى المجتمع تتركز فى معنى قوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ، ولا شك أن الأسرة أساس المجتمع وأن كل المعانى الانسانية السامية التى تراد لخير المجتمع تنبع من المعانى الصافية التى تسود جو الأسرة ، فالرحمة مشتقة من الرحم ، والإخاء مشتقة من الأخوة .

وكل المعانى الطيبة ترجع إلى المعانى الفطرية التى تجمع بين الأقربين وتكون منهم الأسرة أو العشيرة ، فإيتاء ذى القربى أصل من الأصول التى تقوم عليها الاشتراكية .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند

فهو فحشاء . وهو منكر وهو بغى ، وهكذا نجد فى الآية الكريمة قواعد الاشتراكية السليمة بل نجدها كما وجدها أسلافنا أجمع آية فى القرآن إذ كل ما يرجى من خير فى العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى : وكل ما يخشى من شر فى الفحشاء والمنكر والبغى .

وفقنا الله إلى الخير ، ووقانا من الشر ، وهدانا إلى سواء السبيل .

عبد الرحيم فوده

حروف القرآن وحدوده

للأستاذ محمود الشرقاوى

« تأمل حديث ابن مسعود رضى الله عنه فى الموطأ : إنك فى زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه ، تحفظ فيه حدود القرآن وتضيع حروفه ، قليل من يسأل كثير من يعطى ، يطيلون فيه الصلاة ويقصرون فيه الخطبة ، يبدؤون أعمالهم قبل أقوالهم . وسيأتى على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير قراؤه ، تحفظ فيه حروف القرآن وتضيع حدوده ، كثير من يسأل قليل من يعطى ، يطيلون فيه الخطبة ويقصرون الصلاة ، يبدءون أهوائهم قبل أعمالهم » .

هذه السطور القوية المخلصة المنيرة تجدها فى كتاب : « الموافقات »[1] للإمام الشاطبى ، فهو صاحب الفضل فى هذا العنوان الذى اخترته من حديث ابن مسعود . هذا الحديث الذى يقدم لنا هذا التحديد والتمييز بين « حروف القرآن » التى تحفظ ، بينما تضيع « حدوده » .

فإذا « تأملنا » هذا الحديث ، كما طلب إلينا الشاطبى ، وطابقنا بينه وبين وقائع التاريخ وجدنا أن العصر الأول ، عصر الصحابة والسلف ، كان فقه القرآن فيه وفهمه والتزام حدوده وفضائله وغاياته مقدما على مجرد التلاوة والترديد ، بلا تأثر ولا التزام حدود ، لم تكثر فيه تلاوة القرآن تلاوة السرد وترديد الكلمات، بل يكثر فيه فقه القرآن وإدراكه والتأثر به فى القلب والضمير والسلوك والخلق والعلاقات بين الناس « والرعاية لحقوق الله » كما يقول الحارث المحاسبى[1] .

عصر كانت تحفظ فيه الحدود التى أمر الله بحفظها ، أكثر مما تحفظ فيه الحروف التى تتلى والناس لهم من هذه الحدود ومن خلقهم وضميرهم عاصم ودافع : عاصم يعصم فقيرهم ومحتاجهم من السؤال : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، ودافع يدفع قادرهم على أن يعطى ويبذل . عصر يطيل فيه الناس الصلاة ، كما قال ابن مسعود ، لما فيها من المناجاة والقرب من الله والخشوع له ،

(١) ص ١١٨ الجزء ٢ ـ طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .

(١) شيخ الإمام الغزالى ، وقد تأثر به كثيراً فى كتاب : « إحياء علوم الدين » . ولد فى النصف الثانى من القرن الثانى بالبصرة ومات سنة ٢٤٣ .

ويقصرون الخطبة إذ كانت حديث ألفاظ وحركة لسان ومنطق حروف ، يحاسبون أنفسهم على العمل والبدء به ، قبل أن يوجهوها للحديث والقول والجدل .

ثم نجد ، فى حديث ابن مسعود هذا ، أن الناس ، فى آخر الزمان ، على عكس هذه الحال ، تكثر فيهم تلاوة القرآن ولكنها تلاوة لا تجعل القلوب فاقهة ولا مدركة ، يحفظ أناس منهم حروف القرآن ولكنهم يضيعون حدوده ، ليس لهم من وازع ولا دافع ، فسائلهم كثير وباذلهم قليل ، يخطبون فيطيلون لأن حركة اللسان لا تكلفهم شيئاً ، ويصلون فيقصرون لأن قلوبهم لا تشعر بأنس المناجاة وسعادة القرب ولذة الخشوع والتلاشى والفناء ، يوجهون أفئدتهم وألسنتهم نحو المظهر من القول ولا يحاسبون أنفسهم على العمل ورقابة الضمير والتزام الحدود والغايات والمقاصد ، يبدءون أقوالهم قبل أعمالهم .

العلم والعمل : صنوان لا يفترقان ، الحروف والحدود : أولاهما لابد أن توصل إلى الثانية هكذا كان المؤمنون فى العصر الأول ، وهكذا يجب أن يكونوا فى كل عصر وكل مكان .

حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل :

وقد روى عن أبى عبد الرحمن السلمى أنه قال : « حدثنا الذين يقرءون القرآن ، كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل » ، وروى أحمد فى مسنده عن أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى أعيننا »[1] أى ارتفع قدره وعظم شأنه . وقد أقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين [2] وكذلك قالت عائشة : « كنت جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ... والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : « ولكن سأقول كما قال أبو يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون »[3] .

فالغاية الأولى عند صحابة الرسول ، رضوان الله عليهم ، كانت العمل بآيات الله المنزلة بعد فهمها وتدبرها ، وكانت هذه الغاية سابقة مقدمة على الحفظ والتلاوة المجردة والترديد والترتيل .

وليس معنى كلامنا التزهيد فى حفظ القرآن وتلاوته ، فقد حفظناه صبياناً ، ودرسناه فتياناً وشباناً ، وما نزال نتلوه ونسمعه فتخشع نفوسنا وتطمئن قلوبنا : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . بل الذى نريده هو أن يعمل

---

(١) لسان العرب ، ص ٧٨ الجزء - ٤ - الطبعة الأميرية .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ص ٢٠٨ الجزء - ٢ -

(٣) حديث الإفك .

رجل الدين ويدعو الناس إلى العمل ، بكتاب الله والتزام حدوده وآدابه وفضائله . وأن يكون هذا العمل وهذا الالتزام مقدمين عنده .

الشريعة والفلسفة معاً :

حدود القرآن ، وليست حروفه وحدها ، مقصودة للشارع الحكيم من الشريعة ، وهذا الإدراك الحكيم حدده عالم حكيم ، هو ابن حزم ، وجمع بين الشريعة والفلسفة معاً فى هذه الكلمات الناصعة : « الفلسفة على الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه بتعلمها ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس بأن تستعمل فى دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها فى المعاد ، وحسن السياسة للمنزل والرعية . وهذا نفسه لا غيره هو الغرض فى الشريعة . هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة »[1] .

الصلاة التى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر :

ولكى تدرك أثر الحرص على الحروف وحدها ، بل جناية هذا الحرص على الحدود ، نضرب مثلا للصلاة التى أمر بها الله وجعل لها حروفا وحدوداً فقال فى حدودها : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وحروفها هى شروطها وأركانها وما يتلى فيها ، مما تفصله كتب الفقه ، وحدودها هى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر . ولكن بعض الذين يحرصون على الحروف قبل الحدود ولا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ، وبعض الذين يدرسون شريعة الله يحرصون على الحروف قبل الحدود أيضا ، لهذا البعض : « أبواب كثيرة ، ومباحث متعددة كلها تدور حول ضبط الأرقام وتسوية الأشكال . . كيف يقف المصلى وكيف يسوى يديه ورجليه ؟ وكيف يركع وكيف يسجد ؟ وما الزاوية الهندسية التى يأخذها فى الركوع والسجود ؟ إلى غير ذلك مما يتصل بهذه الصور ، أما القلب وكيف يخشع ، والضمير وكيف يصحو ، والمشاعر وكيف تجتمع لهذا الموقف العظيم بين يدى رب العالمين فذلك ما لم يكن فى نظر أصحاب الفقه موضع بحث أو محل جدل أو خلاف ، لأنه كما يبدو شىء عرضى لا يمس الصميم من الصلاة . . فإن الصلاة كما عرفها الفقهاء : « أقوال وأفعال مبتدأة بالتكبير ومختتمة بالتسليم » هذه الصورة الكاملة للصلاة فى مباحث الفقه ، وإنها لصورة باهتة هزيلة لا تهز قلبا ، ولا تحرك شعوراً ، لأن الفقهاء لم يلتفتوا إلى هذه الناحية ، ولم يكن همهم البحث فيها ، ولم يكن يعنيهم أن تحقق الصلاة

(١) ص : ٩٤ من كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » الجزء ـ ١ ـ الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ .

أو لا تحقق شيئاً للمصلى .. أتريد دليلا لهذا القول ؟ . مهلا !

اختلف الفقهاء فى قراءة الفاتحة فى الصلاة كما اختلفوا فى القدر المطلوب قراءته . ومن وجوه الرأى فى هذا الخلاف جواز قراءة آية من القرآن الكريم ولو لم يكن لها معنى مستقل كآية «ثم نظر» وآية «مدهامتان» فذلك مما تصح به الصلاة عندهم عملا بظاهر قوله تعالى «فاقرءوا ما تيسر منه» على ما ذهب إليه بعض أصحاب المذاهب الفقهية .

إلى هذا الحد من الهزل أو السطحية فى الفهم ينتهى الرأى عند بعض الفقهاء فى موقف حاسم فى الصلاة . غايته ذكر الله وتمجيده بتلاوة ما يملأ القلب ويشرح الصدر من آى الكتاب الكريم . وطبيعى أن تلاوة آية «ثم نظر» أو آية «مدهامتان» ونحوهما - مما لا يحقق معنى إلا إذا ارتبط بما سبقه أو لحقه من الكلام - لا تبعث فى النفس أى إحساس [1] .

الصحيح والمريض والشبعان والجائع :

وهذا التفصيل والتمثيل الذى كتبه مؤلف جديد ، أجمله ومثل له قبل قرون طويلة إمام عظيم يقول : « ... فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعاناً . وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكرانا ، بل السكران لا يعرف حد السكر وهو سكران ، وما معه من علمه شىء . والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شىء ، والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة » [1] .

هذا الامتزاج فى النفس بين حدود القرآن التى تُرعى وحروفه التى تتلى هو الذى يجعل إيمان القلب والحرص على مثل العقيدة أغلى من كل شىء فى الحياة ، بل أغلى من الحياة نفسها ، وهو الذى أخرج لنا وللناس هذه النماذج النادرة التى خلدتها الحياة ثم أعجب بها كل من عرفها فى هذه الحياة .

زينوا القرآن بالفعال :

وهذا مثل نجده عند هؤلاء الصحابة الذين امتزجت فى نفوسهم وقلوبهم وضمائرهم حدود القرآن وغاياته وفضائله ، مع حروفه وكلماته :

فى حروب الردة وفى غزوة اليمامة خاصة ،

---

(١) عبد الكريم الخطيب ، ص ٨٠ من كتابه : «فى طريق الإسلام» - الكتاب العربى -

(١) حجة الإسلام الإمام الغزالى : كتابه : «المنقذ من الضلال» طبع مطبعة ابن زيدون فى دمشق بإشراف الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد ١٩٣٤ .

لقى المسلمون حرجاً وعنتاً شديدين ، حتى تراجعوا ودخلت جيوش مسليمة الكذاب فسطاط خالد بن الوليد ، ثم آبت لهم شجاعتهم وارتدت إلى قلوبهم الحية فوقفوا وثبتوا ، وثارت الريح فى وجوههم تحمل التراب وتحول دونهم ودون عدوهم ، وأحسو بالحرج مرة أخرى فذهب قوم منهم إلى زيد ابن الخطاب يطلبون مشورته ، فكان جوابه أن قال : « لا والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمه بحجتى . غضوا أبصاركم وعضوا على أضراسكم أيها الناس واضربوا فى عدوكم وامضوا قدما » ، واندفع يقاتل وقومه من ورائه حتى لقى الله شهيدا . وصاح أبو حذيفة فيمن حوله : « يا أهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » ، ثم ألقى بنفسه يقاتل حتى لقى الله شهيداً ، وتقدم مولاه سالم فحمل الراية وقاتل وهو يقول : « بئس حامل القرآن أنا إن لم أثبت » ، وثبت يقاتل حتى لقى الله شهيدا .

وهذه أمثلة نجدها ونعجب لها فى ذلك العصر الأول . ولكننا إذا عرفنا السبب - كما يقولون - بطل العجب .

وعلى العكس من ذلك نجد ، فى التاريخ القديم ، قوماً يحرصون على حروف الشريعة دون حدودها ، ونجد لهم فى كل عصر أشباهاً ونظائر ، وفى عصرنا هذا وفى مستقبل الزمن أيضاً .

نجد مثلا لذلك صار رمزاً وعلماً وشعاراً يدل على هذا الخلق المرذول وهذه الفطرة الفاسدة . هم جماعة من اليهود القدماء كانوا يسمون أنفسهم « الفريسيين » يريدون بذلك أنهم ممتازون مختارون [1] . هؤلاء الفريسيون كانوا يعرفون بالتمسك الشديد بنصوص « الشريعة » وحروف التوراة وأوامر الديانة اليهودية . ثم أصبح اسم هؤلاء القوم علما على كل من يعنى بالمظاهر الخارجية للدين - كل دين - دون روحه وجوهره وغاياته . أى من يعنى بالحروف دون الحدود .

وليس عجيبا بعد ذلك أن يصم القرآن الكريم هؤلاء اليهود ويضعهم بمثابة الحمار إذ يقول : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا »[2] .

هؤلاء وأمثالهم هم الذين قال عنهم ابن مسعود : « يبدءون أهواءهم قبل أعمالهم » .

« البقية فى العدد القادم »

محمود الشرقاوى

---

(١) الفريسيون : نسبة إلى « الفرز » ، أى الاختيار والانتقاء . وتجد فى الإنجيل لوماً شديداً من المسيح لهم .

(٢) الآية - ٥ - من سورة الجمعة .

من معاني القرآن

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

الأمى : هو الذى لا يكتب ولا يقرأ من كتاب ، وقد لوحظ فى هذه التسمية النسبة إلى الأم على معنى أن من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب يكون على ما ولدته أمه عليه من الغفلة والجهالة ، وعدم الخبرة ، والتلاوة : القراءة لأن فيها تتابع الكلمات والألفاظ فى النطق ، ومادة التلاوة تفيد معنى التتابع ، إذ تقول تلاه بمعنى تبعه . وتتالت الأمور بمعنى تتابعت .

والتزكية : تفيد معنى التطهير من الخبائث كما تفيد معنى التنمية والتقوية ، لأن مادتها الزكاء والزكاة ، وهما يفيدان معنى الطهارة والنمو والبركة .

والضلال : البعد عن الحق والصواب ، والضياع ومن ذلك ضلت الإبل بمعنى ضاعت .

المعنى :

الله الذى ينزهه عن كل ما لا يليق بكمال جلاله وجماله كل ما فى السموات والأرض ، المتصرف المطلق التصرف ، الطاهر المبرأ من كل نقص ، الغالب الذى لا يقهر ، الحكيم الذى لا يخطئ فى قول أو فعل هو الذى بعث فى العرب على ما كانوا عليه من جهل وغفلة وعدم دراية بالقراءة والكتابة رسولا منهم أمياً مثلهم . فكان من مظاهر قدرته تعالى فيه أن يقرأ عليهم آياته ، ويطهر نفوسهم من الخبائث ، ويحرر عقولهم وقلوبهم من شرك الشرك والأوهام ، وينمى فيهم نوازع البر والخير ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وقد كان كما يقول الله فيه : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك » ، وبذلك صاروا إلى ما صاروا إليه من الخير والقوة والعلم والحكمة وكانوا قبل أن يرسله الله رحمة لهم وللناس كافة فى ظلام لا يتعرفون من خلاله الطريق إلى الخير والحق ، وكان هذا الظلام بيناً ظاهراً لا سبيل إلى الشك فيه . ثم صاروا بفضله وبفضل الله عليه وعليهم إلى ما يشير إليه قوله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

والمتأمل فى هذه الآية وفى دعاء إبراهيم عليه السلام إذ قال « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » يدرك أن محمداً عليه السلام كان دعوة إبراهيم المستجابة ، إذ الكلمات هى الكلمات والألفاظ هى الألفاظ ، وما كان من خاتم الأنبياء كان تحقيقاً لمعنى الدعاء .

عبد الرحيم فودة

من روائع المثنى بن حارثة

للأستاذ محمد رجب البيومي

لا أدرى لماذا يتردد اسم المثنى(١) عالياً فى العراق وخافتاً فى شتى عواصم العربية ؟ ألأنه الفارس البطل الذى ضم ما حول الفراتين إلى الإسلام ، فحق له أن يذكر هناك بالمحمدة والثناء ؟ ولكن ما لعمرو وخالد وسعد وأبى عبيدة تتردد أسماؤهم رنانة فى كل مكان يشيد بالفتح العربى والتاريخ الإسلامى ؟ أيكون المثنى أقل منهم كفاحا ؟ وأهون استبسالا ؟ إن تاريخه ليشهد أنه قريع هؤلاء الأبطـــال ونظيرهم همة وشجاعة وتمرساً بالخطوب والأهوال ، وما قرأت وقائعه المجلية إلا عجبت كيف لا تفرد الكتب الخاصة بتحليل روائعه ، وهأنذا أشير إليه من بعيد ، راجياً أن أوفق إلى رسم خطوط واضحة عن بطولته الشماء !.

لقد انحدر المثنى بن حارثة الشيبانى من قبيلة بكر بن ربيعة ذات الأنفة والعزة والاستعلاء ، وتاريخها فى الجاهلية عبق فواح يتأرج بعبير العزة والحرية ، إذ أن ربيعة قد انفردت بين القبائل بمنازلة الفرس ، وتحدى آل ساسان ومن شايعهم من بنى المنذر بن ماء السماء ! فكانت غاراتها المتتابعة لا توجه إلى الأعراب من بنى القربى وذوى الرحم بل تهدف فى صميمها إلى منازلة الأعاجم ممن يبسطون سيطرتهم على العرب فى تغطرس وخيلاء حتى عرفت ربيعة بين القبائل بربيعة الأسد وربيعة الفرس رمزاً لشجاعتها الخارقة وعلو همتها فى مصاولة الأكاسرة العتاة ، وبنو شيبان من ربيعة فى الذروة والسنام إذ كانوا قادة المعركة فى يوم ذى قار ، حتى ضرب بهم المثل فقيل كاثر بشيبان وحارب بشيبان !.

وقد نشأ المثنى بن حارثة فى هذه القبيلة الباسلة ، تجرى فى عروقه دماء العزة والأنفة وتفور نفسه حفيظة أن يسيطر على قومه أعجمى غريب يستعين عليهم بالأساورة والمرازبة والدهاقين ! فوقف يوم الفرات أحد أيام العرب فى الجاهلية : على رأس

---

(١) كتبت إجابة لرجاء الأديب حسين أحمد جاد الله من قراء مجلة الأزهر .

المقاتلين من بنى شيبان ونازل الأعاجم بسيفه حتى شردهم أباديد ، وغرق مئات الأساورة فى الفرات وساق أنعامهم وخيولهم وأموالهم نهباً مقسما لربيعة الأسد ، حتى أرخت ربيعة بيوم الفرات كما أرخت قريش بيوم الفيل !

وحين أشرق نور الإسلام كان المثنى مع قومه على شواطىء الفرات لا يعلم كثيراً عن حقيقة الدعوة الإسلامية فالأنباء تصله من مكة والمدينة متضاربة متناقضة لا ترسم لعينه طريق الهداية على وجهه الصحيح ، فرأى أن يتريث حتى يستيقن ، وبعث بمن يجمع له الحقائق عن قريش بمكة ، والأنصار بالمدينة ، وأخذ يوازن ويعلل ، حتى اهتدى إلى الدين الصحيح ، فأسرع بالرحيل إلى المدينة ، وبايع الرسول الأعظم على الإسلام فى السنة التاسعة ، ورجع إلى مقره ، مطمئنا واثقا بدينه الجديد !! .

وكان يخلو إلى نفسه فيتذكر جهاد المسلمين فى بدر وأحد والخندق وخيبر ومؤتة وتبوك فيستشعر أسفاً يضيق به إذ ابتعد عن شرف هذه المعارك ، وهو البطل الفارس ، وتمنى أن تعود الغزوات من جديد ليقف إلى جوار رسول الله بسيفه وبسالته جنباً لجنب ! ! لقد فاته الشرف الأسنى إذ تقاعس معذوراً عن ميدانه الأصيل فى حمى المسلمين ! وليت الأيام تفسح المجال من جديد ! .

وكأن الأقدار قد سايرت هواه فلم تلبث حروب الردة أن نهضت بعد وفاة الرسول على قدم وساق وصارت الجيوش الإسلامية من المدينة تصاول أعداء الله من المتنبئين ومن لف لفهم من المؤلفة قلوبهم والمنافقين ووقفت القلة المؤمنة أمام الكثرة المرتدة ومعها إيمانها الراسخ ، ويقينها الأكيد . فسارع المثنى مشوقا إلى أداء واجبه فى هذه المعمعة الخطيرة وقاد كتائبه من ربيعة وشيبان حتى التحق بعلاء ابن الحضرمى قائد جيوش المسلمين بالبحرين ، فأسهم معه إسهاما باسلا وأخذ يواصل القتال متتبعا كتائب الكفر والمروق ، حتى استولى على القطيف ، وتابع الزحف إلى دلتا الفرات حتى أشرف بجيشه على أرض السواد ، وتمت كلمة الله بانتصار الإسلام فرجع المثنى بقومه سعيدا منتشيا دون أن يعرفه أبو بكر خليفة المسلمين !! وأخذ يحس بفرحة تغمره إذ بدأ الجولة الأولى من جولات الإسلام ، وطالما وازن بين شعوره بالنصر فى معركة الردة ، وشعوره بالنصر قبل ذلك فى معارك الجاهلية ، فرأى أن المعركة الأخيرة ذات طعم هنىء لذيذ ، فأجرها العظيم مدخر عند الله فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، أما معارك الجاهلية فذات طنين يدوى

فى القبائل دون أن يكون له رصيده الضخم من رضوان الله ! وشتان ما بين الناحيتين من فروق، ومن ثم فقد عزم على مواصلة الجهاد تحت لواء الإسلام ليضيف إلى سعادته الراهنة فيضا من السعادات !!.

وكان مما يأكل قلب البطل منذ نعومة أظفاره خضوع القبائل الضاربة حول الفرات لسلطان العجم وخنوع الحيرة بملوكها وأمرائها لكسرى وذويه، فلماذا لا يحشد جهوده، لحرب هؤلاء المتسلطين، تحت راية الإسلام لقد كانت العروبة وحدها تلهب أحاسيسه فتدفعه إلى منازلتهم رغم ضآلة ما يمتلك من سلاح وعتاد ! أما الإسلام اليوم فقد أصبح دافعا قويا لهذه الحرب الضروس، وإذا كان هذا الدين القيم عربى النشأة فلا بد أن يمتد حتى يشمل هؤلاء الذين يدينون بتفاوت الطبقات فى فارس، ولا يعلمون ما عليه الإسلام لأبنائه من أن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بتقوى الله والجهاد ! إن هذه المشاعر الإسلامية الجديدة تفتح منافذ جديدة فى أحاسيسه، وتغمره بقوة لا تنفد، فتدفعه دفعا إلى منازلة الفرس، ودعوتهم إلى الدين الجديد، وقد شاء أن ينهض لذلك الأمر بنفسه دون أن يرجع إلى خليفة المسلمين خشية أن يجد لديه ما يخالف رأيه فى هذا الميدان الرهيب، فتتفرق كلمة بنى شيبان وربيعة تفرقا لا يرضى البطل الكبير، ومن ثم فقد أعلن الحرب على العجم، وقاد الجيش الإسلامى من ربيعة إلى ميادين رائعة، نازل بها فريقين مجتمعين فريق الأساورة الفرس ممن تعاظمهم أن يقف القائد العربى أمامهم بشجاعته الباسلة وفريق العرب من أتباع كسرى وخشاة بأسه ممن يستكثرون على أنفسهم منازلة طاغية جبار يسيطر على الشرق منذ أحقاب طوال وإذا كانت الأعمال بالنيات، فقد استطاع المثنى ومعه أخواه البطلان الباسلان المعنى ومسعود أن يهزم كتائب الفرس حين تحرك شمالا على رأس قوة من رجال القبائل مساحلا الخليج الفارسى حتى بلغ مصب نهرى دجلة والفرات، فأدار المعركة الأولى فى فارس بعد الإسلام إدارة المنتصر الباسل، وتردد نجاحه الرائع فى آفاق العروبة حتى جاء أبابكر بالمدينة فدهش كثيراً لما علم، وأخذ يسأل أصحابه: من هذا الذى تأتى أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه، فرد عليه قيس بن عاصم المنقرى (هذا المثنى بن حارثة الشيبانى رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد ! إنه المثنى !).

كانت جيوش الخلافة الإسلامية تتجه بكتائبها المحتشدة لغزو الروم فى ديار الشام، ولم يكن ليجول بخاطر أبى بكر أن يبعث

رجاله إلى فارس ، فالروم منذ غزوة مؤتة فى تربص وتأهب لملاقاة المسلمين ، وقد كان اتجاه الرسول إلى غزوهم بالشام مبعث ثقة وإيمان فى النفوس ، فكل مجاهد ينهض لهؤلاء إنما يحقق رغبة نبيه ، ويتابع خطته مطمئنا إلى نجاح العاقبة بإذن الله ، أما الفرس فقوم صلاب شداد سار لهم فى العرب ذكر مهيب مخوف ، والتفكير فى منازلتهم مظنة خطر بعيد ، إذ أن أفيالهم الكثيرة تتقدم جيوشهم الظافرة فتغنى غناة أبشع الأسلحة فتكا ، وأعتى الذخائر إبادة . فكيف يلبي أبو بكر دعوة المثنى إلى نضال آل ساسان !؟ لو كانت دعوته تلك قد سبقت أوانها قبل أن تتحرك الجيوش إلى قتال الروم ، لأمكن الخليفة أن يوحد جبهة القتال ، فيجعلها فى الشرق مع فارس دون أن يتشعب الجيش الإسلامى إلى فرقتين متباعدتين ! الحق أن المأزق حرج ، ولا بد للخليفة أن يتبصر مواطئ أقدامه قبل أن يصدر قراره النهائى !! فيلبث حينا لا يدرى ماذا يصنع ! .

ولكن المثنى العظيم يصل إلى المدينة بنفسه فيقابل خليفة رسول الله ، ويهون من شأن الفرس إذ يبسط أمامه سجل حروبه معهم فى الجاهلية والإسلام ، ثم يتشعب الحديث ، فيناقش أبا بكر فى قراره الذى اتخذه بشأن المرتدين بعد أن رجعوا إلى الإسلام ، إذ شاء أبو بكر أن يحرمهم من الجهاد فى الفتح الإسلامى ليقصر شرفه على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الوفاء للدين والثبات عليه ،! فكان من رأى المثنى أن يرجع أبو بكر عن قراره ليتيح لهؤلاء سبيل التوبة الحقيقية إذ يمتشقون الحسام دفاعا عن دين الله وتكفيراً لما أسلفوا من حرب الإسلام !! وكان للبطل منطقه السديد ، ورأيه النافذ فاقتنع أبو بكر بوجهة نظره ، ودعا المسلمين عامة إلى البلاء فى الغزو فسنحت الفرصة أمام هؤلاء النادمين ليقوموا بما يكسبهم شرف الرجولة فينسخوا ليل الماضى بصباح الغداة ... وما أعظمها خطة جعلت كتائب المجاهدين تتدفق من كل مكان راغبة فى الجهاد عن طواعية وترحاب ، وسالت الشعاب المنفرجة فى بطن الجزيرة هاتفة بالغزو ، مدوية بنشيد الجهاد : الله أكبر الله أكبر !! غير أن التفكير كان متجها بهؤلاء إلى الروم لا إلى فارس ، ولكن المثنى الباسل يعتلى المنبر ليهون من شأن المجوس ، ويلفت الأنظار إلى الميدان الجديد ، وقد شاء الله أن يختار أبا بكر إلى جواره الكريم قبل أن يصدر قراره النهائى ، فاستدعى رضى الله عنه عمر بن الخطاب فى مرضه الأخير ليقول فى إصرار : (اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به ، إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع

المثنى ، وإن تأخرت إلى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس معه ، ولا يشغلنكم مصيبة وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتني متوفى رسول الله وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله).

مات أبو بكر ! فبايع الناس عمر ، وكان أول ما بدأ به أن ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من هذه الليلة نفسها ، وقام المثنى فخطب الناس بعد البيعة قائلا : (أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجد ، فإننا قد تبجحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شق الواد ، وشاطرناهم ، ونلنا منهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها ! !) ثم تحدث المثنى عن جهاد خالد معه فى حرب العراق وكان أبو بكر رضى الله عنه قد أمده به ليحمى العرب على شواطىء الفرات فقط دون أن يدور بخلده امتداد القتال إلى بطن فارس فأبلى خالد أحسن البلاء مع المثنى وانتصر القائدان فى مواقع ذائعة نذكر منها : الولجة ، وذات السلاسل ، والأنبار . ثم جاء أمر أبى بكر بانتقال خالد إلى كفاح الروم فى اليرموك مكتفيا بتأمين الحدود العربية ! فأسف المثنى أسفاً زائداً لمحاولة انتهاء المعركة مع فارس على هذا النحو المفاجىء وجاء بشخصه إلى المدينة ليعلن تصميمه على مواصلة القتال ، والحق أنه نجح فى مسعاه أكبر نجاح إذ أقنع أبا بكر وعمر ، وخطب الناس بالمدينة فثبت يقينهم وهون عليهم أمر المجوس ! فسارت الكتائب مشوقة للصراع ...

على أن عظمة المثنى الباهرة تتخطى الحدود المعقولة ، حين نجده يتناسى شخصه ، فيقبل بارتياح تام أن يكون الأمير المسلم على الجيوش غيره ، وهو الذى ذلل عقبات النصر وفتح باب الهجوم على الأساورة متحديا جميع الصعاب مهما تجمعت من حوله وتذاءبت عليه ، ! فحين جاء خالد بن الوليد إلى الحيرة بادر فانضوى بجنده تحت لوائه وأبدى من الجهاد والبسالة ما تعجب له خالد وأكبره ! وحين هم بالرحيل إلى اليرموك شد على يد المثنى وقال له فى اعتزاز : ارجع إلى إمارتك منصوراً سيداً كما كنت ، وقد يكون خالد أعرف الناس ببسالة صاحبه ، كما يكون المثنى أكثر ميلا إلى الانضواء تحت رايته من غيره إذ أن كفاح سيف الله فى حروب الردة قد جعل القيادة من حقه فى معتقد بعض الناس ، أما الذى يثبت العظمة النفسية على وجهها الصريح للمثنى فهو قبوله إمارة أبى عبيد بن مسعود الثقفى حيث أمره عمر بن الخطاب دون المثنى ! ولم تكن له من السابقة الذائعة ما يقنع المثنى بكفايته عن يقين ، ولكن المثنى كان أطوع له من بنانه ، وقد أخذ يبصره بمواقع الأمر تبصير

من يرجو على يده النجاح والظفر !! وكان فى أبى عبيد الثقفى إيمان وإخلاص ، ولكن الدربة الحربية كانت تعوزه وهى وحدها وسيلة الانتصار ، فحين تجمعت الجموع الفارسية فى معركة الجسر وقد حشد لها رستم مئات المهرة من القواد وعشرات الآلاف من الجنود مصمما أن يقذف بالعرب نهائيا من أرض العراق ! أقول حين حشد رستم جموعه الكثيفة خلف الأفيال والخيول والسلاسل ، ونظر المثنى فعلم أن الجيوش العربية ستطوق تطويقاً حاصداً بهذا الجمع الهائل المديد. أشار على أبى عبيد بالانسحاب من الحيرة إلى خفان ، ليستطيع أن يجد فى الصحراء الممتدة ملاذا للفرار إذا ضاق به المأزق ، وتلك خطة سديدة إذ أن سياسة الاحتفاظ بالأماكن المحتلة كثيرا ما تجلب الوبال على المحتفظين ، وقد قبل أبو عبيد مشورة صاحبه ، فانكفأت الجيوش متراجعة إلى خفان .

وحانت الساعة الفاصلة أمام جسر الفرات، فرأ المسلمون على الضفة المقابلة من الطوفان الفارسى الزاحف ما لا يحصى عدده غير الله من الجنود والخيول والسلاح ، وبعث جاذويه قائد الفرس رسوله إلى العرب يسأل من الذى يعبر الجسر من المتقاتلين ليلتحم النضال ، وكان من رأى المثنى أن يعبر الفارسيون ليكون أمام العرب متسع من البادية إذا حان خطر شديد ، وصمم أبو عبيد أن يعبر المسلمون لتشتد حماستهم الدافعة ، وتكون الثقة الحية فى نفوسهم كفيلة بالتقدم فالاكتساح ، وقد أطاع المثنى أمر القائد العربى كارها غير راغب ، وزحفت الجيوش الإسلامية لترى كوكبة من الأفيال تبعث الرعب فى النفوس ، وقد سارع أبو عبيد إلى الفيل الأكبر يضرب خرطومه بسيفه ضربة لم تصب مقتله فهجم عليه ووطأه بخفه فسقط شهيداً ، ودب الرعب فى نفوس المسلمين ، وهموا بالانسحاب إلى الجسر ولكن أحد المتحمسين من العرب قد ارتكب خطأ فاحشا حين هدمه ليمنع الفرار ... ونظر المثنى فإذا الحرب بعد سقوط الجسر تصبح حرب إبادة واستئصال للمسلمين ، فتقدم مضحياً بنفسه مع لفيف من قومه الأشداء ، وتصدى صابراً لهجمات الفرس ثم بعث بمن يعيدون بناء الجسر فأمكنهم فى ظل هذه المؤخرة الصامدة الثابتة التى دفعت باستبسالها المستميت كل زحف أن يقوموا برسالتهم فنهض الجسر كما كان ، وانسحب الباقون إلى حيث كانوا من قبل ، ولولا وقفة المثنى وجماعته لكانت موقعة الجسر موقعة إبادة واستئصال للعرب ! ولكن الله قد أيد البطل بروح من عنده

فلم يتوان لحظة فى مأزقه مع ما صوب إلى جسده من النصال ! لو أن جيوش (جاذويه) تتبعت فلول المنهزمين إثر معركة الجسر لاندحر المسلمون اندحاراً يتغير معه وجه التاريخ ، ولكن الخلاف حول الحكم فى المدائن بين رستم والفيرزان قد وجد سبيله إلى الجيش الفارسى ، فلم يغتنموا الفرصة السانحة وأضاعوا النصر الساحق لأمر قدره الله ، فأخذ المثنى يجمع الفلول المتناثرة ، ويرسل إلى العرب فى القبائل البعيدة يدعوهم لنصرة إخوانهم المستبسلين ، وأمده عمر بن الخطاب بكتائب جديدة تعوض بعض ما ضاع يوم الجسر من آمال ، ثم احتشد بجموعه بالبويب قريبا من الكوفة ، وشهد الفرات مرة أخرى جيشين يتقابلان على ضفتيه وليس بينهما غير الجسر ، فبعث مهران القائد الفارسى الجديد رسوله يسأل من الذى يبدأ بالعبور ، وكان المثنى هو القائد دون سواه فلم يقع فى خطأ أبى عبيد ، وطلب من الجيش الفارسى أن يجرب دوره فى العبور ، ثم استعد بأبطاله ليقابل المندفعين إليه كالطوفان المزبد يملئون الأرض عجيجا وجلبة ، وقد وجد المسلمين يتنكبون الفيلة خائفين ، فتجرأ على منازلتها بالسيف عن خبرة واقتدار ، وقد سبق أن عرف مقاتلها فى معركة بابل وطار له معها بين العرب حديث سجله الفرزدق بعد عشرات السنوات حين قال :

ومنا المثنى قاتل الفيل وحده ببابل إذ فى فارس حكم بابل

أجل هجم المثنى على الأفيال جريئا غير هياب ، وهجم أخواه المعنى ومسعود معه فى ساحة الموت مستبسلين ، ونظر المسلمون فإذا آل حارثة الشيبانى يتوسطون النار الملتهبة مغامرين فغمرت الناس حماسة لا تعهد ، واندفعوا وراء الأبطال ، وكأنهم فقدوا عقولهم فلم يفكروا فى خطر الأفيال والسيوف والرماح ونظر المثنى فإذا صفوف بنى عجل تتقهقر ، فترك مكانه ليصرخ فى وجوههم : يا بنى عجل اتقوا الله حق تقواه ولا تفضحوا المسلمين ثم عاد إلى مكانه فوجد أخاه مسعوداً قد استشهد فخاف أن يزعزع مصرعه بعض النفوس فكظم حزنه الأليم وصاح يا بنى الإسلام لا يزعجكم مصرع أخى فكذا مصارع الأخيار ، واندفع إلى الميدان مجلجلا بالتكبير !

وكان البطل قد جمع إلى جيشه فى معركة البويب طائفة من نصارى العرب يقاتلون حمية لإخوانهم فى الدم لا فى الدين ، فلما طال القتال واشتد أراد أن يلهب حمية المسلمين فتقدم إلى أنس بن هلال النمرى وقال له : (إنك امرؤ عربى وإن لم تكن على ديننا

فإذا حملت على قائد العجم فاحمل عليه معنا) فأطاعه أنس مع نفر من قومه وحملوا على القائد فقتله غلام نصرانى من تغلب ! ورأى المسلمون ذلك فاستبسلوا مستميتين ، حتى انكشف الأعداء ، وقد اهتبل المثنى الفرصة فتقدم إلى الجسر فأسقطه لينتقم للمسلمين من المعركة السابقة وخف المنهزمون من الفرس إلى الجسر فلم يجدوه ، فتبعهم العرب قتلا واستئصالا وصاروا بين قتيل وغريق ... وقر المثنى عينا بالنجاح .

هال يزجرملك الفرس ما حل بقومه بعد معركة البويب فاستعد لموقعة تكون فى رأيه معركة الحياة أو الموت ، وجاءت النذر للمثنى بما ينويه صاحب الفرس ، فكتب إلى عمر بن الخطاب يسأله المدد الحفيل فأرسل سعد بن أبى وقاص على رأس جيش كبير إلى المثنى ، وقد شاء القدر ألا يتقابل البطلان حيث مات المثنى متأثرا بجرح أليم أصابه يوم الجسر فظل يهادنه مستعينا بالصبر حتى انتفض عليه فجأة فأسلم الروح شهيدا أبيا ذا حماسة وعزة وإيمان ، وحين تيقن الموت دعا كاتبه ليملى عليه كتابا إلى القائد الجديد ضمنه خلاصة تجاربه ، وزبدة نصائحه ، فضرب بذلك أروع الأمثلة فى الإخلاص لعقيدته والحرص على انتصار ذويه ، وإن كان النصر على يد غيره من اللاحقين .

مات المثنى فبكته البطولة والكرامة ، وجاء سعد بن أبى وقاص ليلتقى بجيوش فارس فى القادسية ، وقد تكاثرت الفيلة تكاثراً مخيفاً بسطوتها القاهرة على العرب ففر كثير من المسلمين مذعورين ، ورأت سلمى زوجة المثنى - وسعد من بعده - ما كان ، فصاحت فى غضب وامتناه !! ولا مثنى للخيل بعد المثنى ! فخجل الفارون خزيا ورجعوا إلى الحومة مستبسلين ! حتى كسبوا النصر ، وقال قائلهم فى إكبار : رحم الله المثنى فقد نفعنا حياً بجهاده وميتاً بذكراه .

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

من أقوال مصطفى صادق الرافعى فى الغنى والفقر :

- ينبغى أن تقدر ثروة الإنسان لا بأمواله ومستغلاته ، بل بعدد الأشياء التى يستطيع أن يعيش غير محتاج إليها .
- الغنى أن تملك من الدنيا ، ولكن أحسن الغنى أن تهنأ فى الدنيا .
- الفقر خلو من المال ، ولكن أقبح الفقر خلو من العافية .

محاولة لبعث القديم

للدكتور أحمد كمال زكي

تمهيد :

محاولات الرصد العلمي لأدبنا لم تنته إلا إلى نتائج محدودة ، ولعل حظ الإخفاق فيها أكبر من حظ التوفيق ، ولم تجد محاولات المستشرقين إلا فيما قدمه بروكلمان[1] من ناحية وجرونباوم[2] من ناحية أخرى ، وتراوحت أعمال غيرهما بين العرض التاريخي أحيانا والنقد التأثري أحيانا بغير جدوى كبيرة في الغالب . بل لعل صنيعا كالذي قدمه الدكتور طه حسين مثلا في « تجديد ذكرى أبي العلاء » . كان أجدى على أدبنا مما قام به نلينو وهو هو من نعرف في ميدان الاستشراق !

ولقد أسهم أساتذتنا من جانبهم في الجهود الذي حمل لواءه المستشرقون ، غير أن كثيراً من عملهم لم يخرج عما قدمه جوزيف بورجستال سنة ١٨٥٠ ، وكان من نتيجة هذا أن توجهوا إلى دراسة الآثار الأدبية - ولاسيما الشعر - دراسة فيلولوجية ساعدهم فيها علماء الغرب ببسط أساليب التحقيق الفني أمامهم - واستطعنا عن هذه السبيل أن نصل إلى الحقيقة الطريفة التالية : وهي أن أدب التقليديين في حرصه على تحقيق مثالية الجاهليين الشكلية أهدر عبقرية الشعراء وألغى ذاتيتهم .

وكان من الممكن أن يستمر الأمر على هذا النحو ، إلا أن الجهود ما لبثت أن تضافرت على وضع الأساس لبناء جديد استعين فيه بواحد كطه حسين وآخر كمحمد أحمد خلف الله وثالث كبروكلمان ، وقدم من ثم الدكتور محمد نجيب البهبيتي كتابه « تاريخ الشعر العربي إلى نهاية القرن الثالث » ، كما قدم الدكتور شوقي ضيف أول أجزاء تاريخ الأدب العربي كله وكما يقدم غيرهما أعمالا فيها الأصالة المنشودة وفيها الدقة والمنهجية التي كادت تقتصر على نيكلسون وبروكلمان .

وقامت في الوقت نفسه حركة تبعد قليلا عن الحركة السابقة . . حركة تقصد بها تجديد

---

(١) أصدر في فينا كتابه « تاريخ الأدب العربي » في سبعة أجزاء عرضت لنحو عشرة آلاف أديب .

(٢) يجب أن نقرر هنا أن فون كريمر كان من من البارزين في هذا الميدان ولعل جرونباوم يمثل الآن نشاطه الآن من بعض الوجوه .

الدرس الأدبي تجديداً يقوم على فهم القديم داخل بيئاته الخاصة ، وكانت تصاحبها حركة ثالثة تقوم على نقد الفنون الأدبية نقداً يفترض كثيراً من النظريات التي تفسر نشأتها وتحدد خطوات سيرها ، وأتيح لهاتين الحركتين أن تبقيا إلى الآن متزعما الأولى الشيخ أمين الخولى وحاملا لواء الثانية جولدتسيهر ، وربما لو اتحدت مجاهداتهما . . فأخذ كل بالإقليمية العلمية وبفلسفة الإيحاء الفنى وروحه مع العناية بأسباب الاقتصاد وغيره ، لكانت النتيجة خيراً لا شك فيه .

على أن الآثار كلها لم تلبث أن كشفت عن عمق ما ذهب إليه الدارس العربى ؛ لأنه فى حقيقة الأمر لم يكن يهمل شيئا مما يحيط بأى نص أدبى كما لم يحاول أن يغفل أية دراسة يمكن الانتفاع بها . . بغض النظر عن اقتران فكرته بما تهاجم به من احتجاج يقدمه غلاة القومية ، وهم هؤلاء الذين يحاولون إلغاء الإقليمية على أسس من التحمس العجيب !

ويمكن القول بصفة عامة إن قسم اللغة العربية بآداب القاهرة استجاب للدعوة - على أى وجه - وجند أبناءه للدرس الإقليمى المتخصص ، فقام بعضهم بدراسة الكوفة ورصد آخر لمعالم البيئة الأدبية فى البصرة ، وقام ثالث بمثل هذا وذاك فى الحلة ، وعرض رابع لحلب وهكذا ...

فى سبيل التجربة :

وقد يعن لنا تطبيق نظرية الإقليمية أن نسأل بادئ ذى بدء ماذا حول النص ثم إلى حد ترتبط نتائج البحث بالكيان الكلى للأدب ؟ والشق الأول من السؤال يقضى بدراسة آثار العروبة الأم مع دراسة آثار الإقليم الأولى ، والشق الثانى يفضى إلى المقارنة بين الأصل وما تفرع عنه لوضع أيدينا على الملامح المشتركة فنتعرف - بعد - على وجوه الخلاف ، وإذ ذاك يتبلور الجديد .

وليس هذا عسيرا ما خلصت النية وصح العزم ، فإن من أقوى الدعائم أن تناقش الآثار فى أدق أبعادها وفى أعمق جذورها وليس يصح أن يقال مثلا . إن نظرية أرسطو فى الشعر والخيال هونت من حظ الخيال عند العرب وأضعفت من طاقاته الخلاقة [1] لمجرد أن نثبت عراقة التقليد أو ضحالة التوليد خلال العصور التى أعقبت الجاهلية .

إن وراء ذلك من الأسباب ما تمليها طبيعة الإقليم من ناحية وطبيعة اللغة التى تحتل هذا الإقليم كأداة تعبير رئيسية من ناحية ثانية . ومن هنا تكون نظرتنا إلى الكوفة مثلا غير

---

(١) راجع جوستاف فون جرونباوم فى « دراسات فى الأدب العربى » صفحة ٩ .

نظرتنا إلى بغداد وغير نظرتنا إلى الموصل أو الحلة أو واسط، وتكون النظرة إلى هذه البيئات جميعا غير النظرة التي تسدد إلى بيئات مصر أو الشام أو اليمن .

نحن نهتم بالنتائج في المحل الأول ، فإذا قلنا متعجلين إن أدب العراق يختلف عن أدب مصر في عصوره الأولى على نحو ما فنحن لا نقدر مدى الخلف حقا حتى ندرس بيئات هذا الأدب ولن نصل إلى ما نريد حتى نستعين بالميبولوجيا والاثنوجرافيا والانثروبولوجيا وغيرها من ألوان العلم المنظم .

ويهدينا هذا العلم إلى أن كثيراً من المدن التي قرر الدارسون أنها بنيت في الإسلام كانت تلعب دورها في التاريخ قبل أن تعرف هذا الدين الجديد ، وأن نشاطها الأدبي - بناء على ذلك - يجب أن يتعرض لهذه المرحلة « اللاإسلامية » . . فالكوفة مثلا لم يؤسسها العرب في العام السادس عشر أو السابع عشر الهجري [1] . وإنما كانت موجودة باسم العاقولا أو الياكيولو [2] ، ودلت الأبحاث على أن في مكانها قرب الخورنق والسدير كانت ثمة منطقة يحكمها عربي من الجنوب وعرفت باسم كويفة ابن عمرو الأزدي [1] .

فإذا انتقلنا إلى البصرة نراها - في عرف التقليديين - إسلامية يبنيها عتبة بن غزوان في السنة الرابعة عشرة من الهجرة ، ولكن إسلاميتها لا تثبت أمام ما وقع فيه رواة الأخبار حين أرادوا أن يتفهموا مدلول التسمية ، ولما استعان هؤلاء بالغويين وقعوا في سلسلة من المتناقضات لأن البصرة عندهم فيها حجارة سود أو لأن فيها حجراً أبيض أو لأنها « كذان » أو ذات أرض غليظة أو صلبة أو طين علك [2] .

في مثل هذه الظروف يجب على الباحث أن يتشكك ، ويلجأ في هذه الحال إلى دراسة تاريخ موقعها ، وهنا نجد بصرياثا في الآرامية ونرى بعض الباحثين يقول إن « بصر » بالكلدانية الجزء الضعيف و « بصريا » و « باصرا » و « باصريى » محل الأكواخ . وفي العهد الفارسي نراها « بس راه » ، أي الطرق الكثيرة يروي ياقوت لحمزة الأصفهاني أنه سمع أحد الفرس يقول : البصرة تعريب

(١) راجع فتوح البلدان للبلاذري صفحة ٢٨٤ ومعجم البلدان لياقوت ٧ : ٢٩٥ .

(٢) يزعم ماسينيون أن هذه تسمية سريانية للكوفة .

(١) لسان العرب مادة « كوفة » .

(٢) لسان العرب مادة « بصر » .

بسيراء لأنها كانت ذات طرق كثيرة انشعبت منها إلى أماكن مختلفة (١) .

وإذن فتاريخ أدب البصرة العربي ـ كتاريخ أدب الكوفة لا يمكن أن يكون كتاريخ الأدب في بغداد التي أنشئت عام ١٤٥ ، ولا يبدأ بدخول العرب المسلمين إقليم العراق ، وإنما يمهد له كل ما مر على البصرة والكوفة من أحداث في عهودها الآرامية والفارسية ثم العربية . . لأن الأدب فن ، والفن ابن التاريخ البعيد ! .

ويتبع هذه دراسة « سكانية » تبين حقيقتين هامتين أولاهما غلبة الآراميين واليمنيين (٢) على الكوفة وتسود الفرس وتميم مدينة البصرة ، إلا أن هذا لم يمنع وجود عناصر أخرى ـ ولا سيما في البصرة أشهرها الهنود والزنوج والسريان الذين يختلفون في أصلهم اختلافاً كبيراً .

وليس من شك في أن هذا يعقد الأمور إلى حد بعيد ، فإذا قلنا بعد ذلك إن سكان البصرة كانوا يميلون إلى الثورة ويجنحون إلى الشك ويحسنون الجدل وينزعون نزعة استقلالية ويأخذون بواقعية مغرقة في المادة إذا قلنا ذلك قلناه ونحن ندرك أن طبيعة أرض البصرة كانت مضطربة لا تثبت على حال تأكلها البطائح مرة وتأكل هي من البطائح مرة ، وتشقها الأنهار حيناً وتنطم هذه الأنهار حيناً آخر ! كما ندرك أنها ثغر تقوم حياته على الأخذ والعطاء والمناقشة والمساومة ومن هنا يحتك الفارسي باليوناني ويحتك هذان بالنبطي ، ويسمع من الجميع زنجي من الزنوج ولا يلبث أن يحمله إلى هندي فيتمعن ويتأنى ولكنه لا ينزل عن شيء من حقه لأنه هو الذي يكد وهو الذي يتغرب ، وينظر النظرة نفسها سواه فتتشيع الفردية وتعظم الأنانية ويكره الجميع أن يحد أحد من سلطانهم وهكذا .

وإذن فلم يكن العرب من تميم هم الذين لونوا حياة البصرة بلون ثائر ... بل العكس يقال هنا ، فقد مثلت تميم في بيئة البصرة كل قوى المحافظة ، وأبت أن تنزل عن كثير من عادات العرب الأقحاح ولا سيما طوال القرن الأول الهجري وبعض الثاني ونصبت نفسها حامية للغة والفصاحة ، داعية إلى عروبة ارستقراطية أثارت عليها حفيظة العناصر السكانية الأخرى ، ومن ثم بدأ تيار الشعوبية في الظهور .

وربما يحسن أن تنصرف عن التفصيلات في مناقشة هذا الجانب ، وإنما تقول إن كل شيء في البصرة أصبح يمهد لظهور المتكلمين

---

(١) لكاتب المقال « الحياة الأدبية في البصرة » وفيه عن ذلك كثير

(٢) أشهر قبائلهم همدان وحمير ومذحج وكندة والأزد .

ولا سيما المعتزلة آخذين أصول العقائد على أساس عقلي، ومناقشين النقول القديمة على ضوء الحقيقة، فشكوا فيما لا يقبله المنطق، وقصدوا اللغة بعد بحث دقيق فى مرويات الجاهلية.

وبدا الأمر كما لو أن المعتزلة كانوا مسئولين عن تحطيم كثير من التراث وإنكاره، فوجد الشعوبيون فرصة ذهبية للمشاركة فى عملية التحطيم لإحلال حضارة الفرس التى اندثرت بانتصار العرب المسلمين غير أن هذه الموجة لم ترتفع إلا منذ القرن الثانى الهجرى، وأما القرن الأول فقد مضى والسلطان العربى فى أوجه وكانت تميم كما قلنا توجه الحياة وجهة محافظة وتربى جيلا من الفصحاء نشأ فى كنفه ابن المقفع وظهر فيه جرير والراعى والفرزدق الذين تحول شعرهم إلى ضرب من الجدل شغف به كل البصريين.

وقد لوحظ أن أغلب الشعوبية وسيظهر فيهم عمالقة الشعر والنثر كانوا يشبون فى كنف ربيعة والأزد، فمثل هؤلاء موجة التحرر والخروج على سلطان تميم الرجعى، ولم تفقد تميم هذا السلطان إلا بعد انتصار العباسيين واستعانتهم بعلوية ربيعة وشيعة الأزد.

مزية التجربة الفنية:

وأخشى أن ألجأ إلى ضرب من الافتراض فى سبيل معرفة تلك الحقيقة، وهو افتراض يسنده التاريخ وتظاهره النصوص نفسها .. إنه لا يعتبر من قبيل المعرفة وإن يكن يقضى بألا نخلع عنه صفة الصدق المطلق، وعلى هذا الأساس لا نقبل كل ما يصل إلينا داخل الإقليم الواحد، وبالتالى لا ندرجه تحت أى لون من ألوان التقسيم الزمنى الذى يقرره مؤرخو الأدب.

إننا قد نجد بعض الملحوظات الهامة عند هؤلاء المؤرخين، تماما كما نجد مثل هذه الملحوظات تتساقط من أفواه الرواة الكلاسيكيين، فإذا لم تكن هذه مما يهدر الذاتية ويفتئت على المنهج العلمى أمكن جعلها علامات على الطريق.

قد نقبل من طه حسين مثلا منهجه الديكارتى، وقد نطبق دعوة جب إلى الاهتمام بدراسة مراكز التطور الثقافى فى المجتمع الإسلامى، وقد ننحو نحو شوقى ضيف فيما ذهب إليه فى كتابه « التطور والتجديد » .. قد نفعل ذلك، ولكننا لا نفعله بصفة عامة، وإذا فعلناه اصطنعنا أسلوب النقد التاريخى لأننا سنفترض أنهم استعانوا بتراث ضاع معظمه وحرف من ناحية ووثقوا قوما كان من الواجب ألا يكونوا عدولا على خط مستقيم.

فأبو الفرج مثلا يشوه مروياته عن أبى

العتاهية فى كتابه « الأغانى » إذ يسوق أغلب أسانيد هذه المرويات عن خصوم للشاعر ، وإذا كان منهجه يرفض ما تتطلبه منه أساسا فإن مروياته ـ برغم ذلك ـ تظل عارية مما يشترطه الباحثون فى أسلوب « السيرة » ، لأنها لا تعنى برصد الزمن أو تطوره ، ولأنها تشبه أشعار بشار بن برد ـ من وجهة نظر الناقد القديم ـ من حيث إن فيها الشذرة بجانب البعرة !

ومعنى هذا بعبارة موجزة أننا نتقبل ما يقيم أحكامنا ويؤيدها . . معناه أننا نعنى بالصالح مما قاله غيرنا ، ومن ثم نصل إلى أن المحاولات بما تستند إليه من تمحيص ونظر تقدم الحقائق بغض النظر عن كل المتناقضات العرضية ! ويبدو من العسير علينا حقا أن نتعرض لأدب البيئة داخل الإقليم المعين . . فكيف نبدأ ـ فى البصرة مثلا ـ ومن أين وإلام نظل متعلقين بماضى العرب مع وضع ماضى البلد كله فى كفة ميزان ؟

لنعد إلى الافتراض ، ومن ثم نتصور ـ فى أول عهد المدنية المسلمة ـ حياة القلق وعدم الاستقرار ، ثم نقرر أنه لم يكن هناك أدب إلا بعض ما كان يتردد على لسان العجم ولم يكن للعرب به دراية ! وإذا كانت البصرة قد سمعت مع ذلك شيئا من الأدب العربى فإنها لم تسمع إلا أدب الجاهلية .

على أن احتكاك هذا الأدب بما فى المصر الجديد القديم ، وجلوس الأعاجم إلى سماعه باعتبار أن لغته هى لغة القرآن الكريم ، ثم محاولة بسط السلطان القبلى على أنه مظهر لتماسك العرب .. أقول كان هذا يغذى تيار الأدب بدم آخر ، وكان جيل الأدباء ـ خضوعا لسنة التطور ونتيجة للتفاعل الحتمى ـ يتخلى عن كثير من أصالة الفنان الجاهلى .

معنى هذا أن الفنان البصرى بدأ يظهر .. تماما كما بدأ الفنان الكوفى يظهر ، وأخذ كل منهما يعيش حياته التى كانت تأخذ من العروبة شيئا وتتقبل من الشعوبية شيئا آخر !

وكانت النتيجة أن الأدب فى البصرة عاش فى أنماط لغوية لم تختلف عن أنماط الجاهلية طوال العهد الذى تـ ـودته تميم ، فلما تخلت تميم عن هذه السيادة ـ لأسباب سياسية فى الغالب ـ أفسح المجال لأدباء خلفوا آل الأهتم وفحول النقائض جميعا وكانوا من الموالى ، ولم يكن ثمة فاصل حقيقى بين عهدى تميم وما أعقبه غير أننا نجعل أيام هشام فقط انتقال :

وكان عصر تميم عصر الحفاظ اللغوى ، وكان عصر ما بعد هشام عصر التحرر اللغوى..

كانت اللغة كظاهرة اجتماعية تتعرض لكل هزة يضطرب لها المجتمع الإسلامى ، وقـــد استطاع العرب أن يحفظوها حتى ولد الموالى من الأدباء . . فحوروها ، ومالوا بها عن

الجادة ميلهم إلى الحياة المدنية التى كان قوامها اللذة وانتهاك حرم التقليد !.

ويمكن أن نلحظ بسهولة رجلين قاما بتشكيل أدب التحرر اللغوى، هما ابن المقفع فى النثر وبشار بن برد فى الشعر، وكلاهما كان مولى مضيع النسب[1] يكره العرب ويدعو إلى أن يتملك الأحرار من الفرس ولا يحترم الدين ويجيد فنون الكلام من خطابة ورجز وغريب ويتظاهر بالعلوية ويأخذ بأسباب اللهو ويصادق كل منهما الآخر ويموتا مقتولين.

لقد استطاع ابن المقفع وقد انصرف إلى الكتابة أن يجعل النثر فناً لا يقل أثراً عن القصيد، وعبر بأسلوب فنى فى «كليلة ودمنة» وبأسلوب تقريرى فى «رسالة الصحابة» عن مأساة الموالى وطموح الشعوبية.

واستطاع بشار أن يعطى للشعر مفهوما ضمنه الفكرة التى ألح عليها ابن المقفع، وألقى بالقصيدة العربية إلى العامة فاستغل تلاميذه هذا أحسن استغلال.

ولكن تقسيمنا التطور الأدبى على ابن المقفع وبشار لا يعنى أنا نقسم الأدب إلى شعر ونثر فى المحاولة التى نقصدها، فقد آثرنا أن نجعل الأدب بنوعيه كلا متماسكا عبر به الأديب عن تجاربه التى اضطرب بها. فإذا هو فى آخر الأمر تعبير عن ماض كان وعن حاضر كائن وعن مستقبل يمكن أن يكون.

وبهذا التقسيم تتجنب الوقوع فيما وقع فيه الدارسون القدماء من تناقض. جوهرى أنهم لا يستطيعون أن يضعوا علامات مميزة على قوالب التعبير لأنها نتيجة تجارب نفسية معقدة، فقد كان الشاعر حين يمدح مثلا لا يتخلص من استعداده السيكلوجى ومن النظم الفنية المتوارثة، فيفخر ويتغزل ويصف ويحقق ما يسميه الكلاسيكيون بفنون الشعر ؟

لقد كان من شأن القيود التى فرضها الأولون على دراسة الأدب أنها حالت بين طبيعته وبين أن يصبح جانبا من جوانب المعرفة شبه اليقينية، ومن أجل ذلك نضطر - غير آسفين - إلى إلغاء كثير مما وضعه الأجداد ما دمنا نستبدل به شيئا أكثر جدوى وأعظم غناء.

وتلك حقيقة التجربة !

هى أن نعيد النظر فى تنسيق ما صح من النصوص داخل الإطار البيئى، ودراسة المحصلة على أساس أنه تعبير يشغل حيزا زمنيا معينا ؟

دكتور أحمد كمال زكى
مدرس الأدب العربى بجامعة عين شمس

(١) كان أبو بشار طيانا صعد الرواة بنسبه إلى لهراسف الملك الفارسى، وكان أبو ابن المقفع يصنع القفاع، ولكن الكاتب جعله أميرا من أمراء الخراج أيام الحجاج.

التنافس السلمى حول الثقافة فى الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ١ —

تمهيد :

أثيرت فى الآونة الأخيرة مشكلة الحرب الباردة التى تدور رحاها بين المعسكرين المتنازعين فى ميدان جديد لم يسبق أن تناولته تصريحات الساسة أو تداولته أقلام الكتاب والمعلقين على الأنباء العالمية فى أجهزة الإعلام المختلفة ، ونعنى به « الميدان الثقافى » .

فقد ظل الصراع المرير بين الكتلتين الكبيرتين منذ نشب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية قاصراً على الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية بوصفها المحور الرئيسى الذى يدور حوله النزاع حتى يوشك أن يهوى بالعالم من جراء هذا الانقسام فى أتون حرب جديدة مدمرة تقضى على حضارة الإنسان ، وتعيده إلى عصر الهمجية الأولى .

وأصبحت قضية نزع السلاح أخطر القضايا التى يواجهها عالم اليوم منذ انتهى الرأى العام العالمى إلى أن عقد « معاهدة لنزع السلاح » هو الحل الحاسم لمشكلة الحرب الباردة ، والعلاج الناجع للأدواء التى نجمت عنها ، وأغرقت الشعوب فى دوامة من القلق والتوتر والخوف على مصير الجنس البشرى ، ومن ثم ارتفعت الأصوات من صفوف الدول المحايدة داعية إلى تضافر الجهود الصادقة البناءة فى داخل الأمم المتحدة وخارجها للحث على إبرام معاهدة بين الدول الذرية لحظر التجارب النووية ونزع السلاح نزعا شاملا .

غير أن الدعاة إلى سيادة العدل الدولى ، واستتباب السلام العالمى قد شغلتهم متابعة المعركة السياسية والاقتصادية الدائرة بين المعسكرين والبحث عن سبيل لإيقافها ، فلم يتبينوا من خلال الغيوم الكثيفة التى رانت على العلاقات الدولية ذلك الجانب الهام الذى تمخض عنه النزاع وهو الصراع الثقافى .

الحرب الباردة فى الميدان الثقافى :

ولئن كانت الحرب الباردة فى الميدان الثقافى هى إحدى المشكلات الفرعية التى نجمت عن الصراع السياسى بين الماردين الجبارين ، فإنها لا تقل خطراً عن غيرها من الأزمات الدولية وهى بالتالى تستوجب دراستها ، ومناقشة ما تسفر عنه تلك الدراسة النظرية من آراء ومقترحات ، ووضع الأنسب منها فى موضع التنفيذ . ويمكن من هذا السبيل المشاركة الإيجابية فى قضية السلام والتمهيد لتصفية الجوانب الأخرى من الخلاف .

ذلك أنه مع التسليم بصحة الرأى القائل إن القضاء على الحرب الباردة قضاء جذريا بمنع التجارب الذرية ونزع السلاح كفيل بإزالة كل ما ترتب عليها من آثار ، وإن الصراع الثقافى فى حقيقته لا يعدو أن يكون انعكاسا لهذه الحرب وواحدا من تلك الآثار. مع التسليم بصحة هذا الرأى ، فإن من الخطأ البين أن ندع هذه الأدواء الفرعية تستفحل بدعوى انتظار الوقت المناسب الذى تحل فيه المشكلة الكبرى ، ولاسيما إذا أدركنا أن هذا الحل يقتضى مرحلة طويلة من الزمن للإعداد له وإخراجه إلى حيز الواقع ، وقد تتدهور الأوضاع الدولية فى هذه الأثناء وتنحدر من سيء إلى أسوء .

وضع حد للصراع الثقافى :

إن المبادرة إلى وضع حد للصراع الثقافى فى حينه تنطوى على عمل إنسانى كبير فى سبيل إذابة الجليد بين المعسكرين ، وانتزاع الأعشاب الضارة من الطريق ، وتطهير النفوس من رواسب الأحقاد وافتقاد الثقة ، تلك الرواسب التى تقف عقبة كأداء فى وجه الجهود المبذولة التخفيف من حدة الخلاف وإعادة الأمور إلى نصابها وفقا لصالح البشرية وتأمينا لمستقبلها .

فالواقع أن منع الصراع فى الميدان الثقافى لا يقل أهمية عن حظر استخدام العلم الحديث فى إشعال نيران الحروب . فالثقافة تؤثر فى الكيان السياسى والاقتصادى للدول مثلما تتأثر به ، بل إن الانقسام الذى يفصل الدول الكبرى إلى فريقين يختلفان فى الأنظمة السياسية والعسكرية والاقتصادية إنما نشأ فى الأصل نتيجة للاختلاف الأيديولوجى ونعنى به الاختلاف فى العقائد والأفكار .

والثقافة هى البوتقة التى تنصهر فيها التيارات الفكرية التى تسود مجتمعا معينا فتميزه عن سائر المجتمعات ، وتقيم بينه وبينها حواجز من اختلاف النظر والحكم على الأمور .

ومن هنا تبرز أهمية معالجة الانقسام الدولى فى الميدان الثقافى وما يستتبعه من إذكاء لهيب الصراع فى الحرب الباردة فكما أن الخلاف فى هذا الميدان كان من عوامل الاختلاف فى مختلف النظم ، فإن الحد منه أو تصفيته من أسباب إزالة الجفوة بين المعسكرين والتخفيف بالتالى من حدة الصراع والتمهيد لجو من الثقة المتبادلة فى سبيل استتباب الأمن الدولى ودعم السلام وتحقيق الرخاء للبشرية .

دور الفكر والثقافة فى التطور الإنسانى

فمن نافلة القول أن نقرر ما للفكر من شأن بالغ فى تطور البشرية حتى ليعد بمثابة البنيان الأعلى للمجتمع والإطار المعنوى الذى يضم مختلف الماديات ويشكل أخلاقيات الجماعة وقواعد العرف والسلوك .

وقد كان للنظريات الفلسفية من قديم . وهى تلك التى نبعت من ممارسة الحياة عن طريق الملاحظة والاستقراء والتجربة والاحتكاك بالواقع - والرسالات السماوية التى أنزلت على الأنبياء ، الدور الأكبر فى القضاء على العقبات الطبيعية التى تقف فى وجه الإنسان وتحول دون تطلعه إلى آفاق جديدة فسيحة . وكان للمبادئ والأفكار الإنسانية أعظم الأثر فى بناء المدنية واستمرار التقدم على مدى العصور والأحقاب .

والثقافة — فى المجال القومى — هى الركيزة الأولى فى تكوين المجتمع الواحد الذى يتألف من أفراد متجانسين يستظلون بالأبنية العليا التى يشكلها الفكر المشترك وتتحدد تبعا له علاقاتهم بغيرهم من الجماعات البشرية وطرائق تفكيرهم وتصرفاتهم .

غير أن « الثقافة » : كما دلت على ذلك الأحداث التاريخية المتعاقبة — سلاح ذو حدين .

فهى إثراء للبشرية وسبيل لتقدمها إذا استخدمت فى سبيل الخير .

وهى جناية على الإنسان قد تصل به إلى حافة الهاوية إذا أسىء استخدامها فنأى بها أهلها من مقاصدها الحميدة .

فالعلم - وهو أهم روافد الثقافة - مرتبط فى ميزان الفكر السليم ، بالقيم الخلقية عند الفرد والقيم الإنسانية عند الجماعة . فلا خير فى علم لا ينتفع به فى صلاح النفس .

وويل للعلماء إذا استخدموا علمهم وهو قبس من نور الخالق فى غير صالح البشرية ، إن وزرهم حينئذ يبلغ أضعاف ما يقترفه غير العلماء من آثام .

وكلما كان المفكرون والعلماء فى مجتمع ما ، ذوى نزعات إنسانية تغلب جانب الخير على الشر وتؤمن بمستقبل الإنسان فى ظل الحضارة والسلام ، كان هذا المجتمع أقرب إلى المثالية واستطاع أن يقوم بدوره فى تحقيق حياة أفضل للانسانية جمعاء شعارها المعتقدات السمحة والقيم الخلقية الفاضلة .

الثقافة سبيل الإخاء بين الشعوب :

ومن الخير الذى تهدى إليه هذه النزعات الإنسانية أن تباح الثمار العلمية التى جنتها إحدى الجماعات لغيرها من أعضاء الأسرة البشرية وألا تقام الأسوار والحدود لمنع تبادل الفكر والمعرفة بين شعوب الأرض جميـــعا ، وألا تستخدم الثقافة فى تأريث العداوات والإحن بين النـاس .

فالثقافة رسول المودة ومشعل النور للإنسان وينبغى أن تدع الدول أهل العلم والثقافة أحرارا فلا توجههم لخدمة مطامعها أو تشوه إنتاجهم الفكرى للدعاية لمذهبها أو تفرض عليه الحصار فلا يبلغ غيرها من الدول .

الثقافة في المجتمع الإسلامي :

لقد ازدهرت الثقافة في المجتمع الإسلامي في ظل الدولة الإسلامية الأولى ، وقدمت للعالم حضارة زاهرة تتميز بالخصب والتكامل ، فأخرجت الناس من ظلمات الجهالة والعبودية إلى آفاق الكرامة والحرية والمساواة وكفالة الرزق للجميع في ظل نظم اقتصادية واجتماعية وإدارية تتميز بالكفاية والعدالة وتعمل للصالح العام وفقا لأحكام الشريعة .

وكانت هذه الحضارة على موعد مع التاريخ ، فإن جانبها الإنساني هو أعظم الجوانب وأكثرها إشراقا . ولم يكن العالم في جميع مراحل تطوره أشد حاجة إلى الروح الإنسانية - التي تحقق الخير للجماعة ولا تقدس الفرد تقديسا مطلقا - منه في تلك المرحلة .

فلا غرو أن تقترن الدعوة الإسلامية منذ بدايتها بالنهضة الثقافية القائمة على أسس إنسانية كريمة عادلة ، وأن يكون شعارها العلم للجميع ، فهي تقوم على جناحي المادة والروح معا . وقد جاء الإسلام لتحطيم الطغيان وإقامة العدل وإتاحة فرص الحياة للمحرومين وإرساء مبادئ الحق والمساواة . وبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس كافة فدعا إلى وحدانية الله والإخاء بين البشر ، واهتدى أئمة المسلمين بمبادئ الشريعة السمحة فأدركوا أن السبيل إلى تعارف الناس وتعاونهم هو نشر الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة بينهم ، فإن ذلك خليق بتقويض الضلالات القديمة وخلق واقع جديد للمجتمع الإنساني يسير في هداه حتى يبلغ غايته السامية في توحيد أفراده وضمان الرفاهية لهم .

الإسلام ثورة دينية علمية :

وإن حركة التاريخ وتطوره الدائم وما سجلت صفحاته من وقائع وأحداث تشهد جميعا أن الدين الجديد الذي جاء به « محمد » كان ثورة اجتماعية شاملة بأجل معانيها ، ومن ثم وعت رسالة الإسلام الدور الضخم الذي يؤديه « العلم » في بناء الفرد وهو وحدة الأسرة التي تشكل خلية المجتمع ، وأدركت ما تفتحه المعرفة والثقافة من آفاق رحيبة نحو مستقبل حر كريم للإنسان ، وما تفجره من طاقات خلاقة في الأفراد والجماعات .

ففتحت المغالق وأزالت السدود التي كانت تقف حائلا في سبيل العلم ، ومهدت له الطريق ليتسلل إلى كل عقل كي يتهيأ لاستقبال الرسالة الإسلامية الكبرى والإيمان بها ، وهي رسالة إنسانية طابعها العلم والحضارة والتقدم . ويتوارد على الخاطر في هذا الصدد ما عرضه الرسول صلى الله عليه وسلم على أسرى المشركين في غزوة بدر من إطلاق سراح من يفتدى

منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين ، فنى الحق أنها أشبه بفدية النفس بالنفس .

فالجهل عدو النفس البشرية وملقيها فى ركام العدم ، ولكى تبنى دولة عليك أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة ، وتضىء بصيرتها بنور المعرفة فتبعثها من الموت إلى الحياة .

والإسلام منذ نشأته أكبر من أن يخوض غمار صراع ثقافى ، فالثقافة فى شريعته حق للناس جميعا ، والعلم فريضة وهو أكرم عند الله من أن يرتزق به أو يحرم منه بشر أو يصبح ميدانا للاتجار والمساومة ، وإن آية الرسول الأولى هى «القرآن» الذى حوى من العلم كل شىء ، وقد جعل الإسلام من اللسان العربى الذى نزل به القرآن لغة المعرفة والحضارة .

والمساواة الإسلامية لا تقتصر على الحقوق السياسية والاقتصادية ، بل تمتد حتى تشمل جميع المناحى الاجتماعية وفى مقدمتها العلم والثقافة . فالعلم حق للإنسان لا يقل شأنا عن حقه فى الحياة الحرة والعيش الآمن الكريم ، فإنه لا حرية ولا كرامة فى ظل الجهالة ، والسبيل الحق لنهضة الجماعة هو نشر الوعى والمعرفة بين أبنائها جميعا .

والإسلام حين يجعل طلب العلم فى رتبة الفرائض ، ويعلى من منزلة العلماء ، ويجعل من المساجد مدارس لتلقى أصول المعرفة ، ويحث أهله على التماس الثقافات مهما بعدت مناهلها ، إنما يؤكد بذلك دور الثقافة فى تعميق وعى الفرد والجماعة بشئون العقيدة والحياة وخلق مجتمع تتحقق لأبنائه العزة والرفاهية .

الإسلام والتبادل الثقافى :

ويرى الإسلام كذلك إلى صلاح أمر الأسرة البشرية عن طريق نشر الثقافة المشتركة وتبادل الفكر بين الناس جميعا ، وهو أقرب طريق إلى تعارف الأفراد والجماعات وتجانسهم وتحطيم ما يحول بينهم من أسوار العزلة والفرقة التى تشتتهم شيعا وأحزابا وتجعل بعضهم لبعض عدوا . وهذه هى الغاية الكبرى للعقيدة الإسلامية . فهى عقيدة تحررية كبرى جاءت لتطلق الفرد والمجتمع من إسار الشرك بالله والإضرار بالخلق ولتبدل ظلمات الناس وجهالاتهم نورا ، فيصبحوا بنعمة الله إخوانا متحابين يعملون يدا واحدة فى سبيل التقدم البشرى .

وما كان الإسلام ليحقق مقاصده الرشيدة التى انطوت عليها رسالته العالمية إلا بتحرير العلم والثقافة من شرور الفتنة والاستغلال والتنابذ التى تجعل منهما سلاحا مدمرا يشهره أعداء البشرية فى سبيل تحقيق أطماعهم ومصالحهم الذاتية .

لقد فتح الإسلام كل النوافذ والأبواب ليغشى العلم كل مكان ويعمر كل قلب

وخصه بأكرم الأماكن وهى بيوت الله، وجعل موضعه من المجتمع بمنزلة الروح من الجسد. ولم يحرم الإسلام حتى عداته من حق التزود بالمعرفة لعلهم إذا استنارت بصائرهم وشفت ضمائرهم أن يفيئوا إلى الحق ويجانبوا الشر والعدوان .

وقد أدرك المسلمون الأوائل أن الانقسام الفكرى هو شر المحن التى تبتلى بها البشرية فهو فرع من شجرة الحقد والبغضاء والنزوات الشريرة ، وأن القضاء على هذا الانقسام كفيل بتقريب شقة الخلاف بين الناس ومد جسر التفاهم والتجاوب والموادعة .

ومن ثم كان التبادل الثقافى من أهم الأسلحة التى حاربت بها الدولة الإسلامية فى عصورها الزاهرة عوامل الشر والعدوان حتى تهيأ لها تحقيق غاياتها من خلق مجتمع متكافل حر وتعزيز الأمن والسلام فى العالم ، وقد استخدمت هذا السلاح فى موضعه ـ فلم تجنح به إلى غير ما قصد به . فلا تمييز بين الناس فى حق التعلم والتزود من المعرفة ، ولا عصبية ، ولا طغيان ، بل مساواة وعدل يظلان الخصوم والأصدقاء .

وفى سبيل تحقيق رسالة الإسلام فى تطهير النفس البشرية وإشاعة المساواة فى كافة أرجاء العالم ونشر مبادئ الإخاء بين أبناء الأرض على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتباين ألسنتهم ونزعاتهم ، سجل الإسلام فى صفحته الخالدة أعظم المواقف التى التزمها المسلمون الأوائل فى سبيل قضية العلم ، إيمانا منهم بقدسيته وفهما لرسالته .

فالإسلام هو دين العلم والعمل وهو ـ بطبيعته ـ دعوة إلى الحق صدع بها صاحبها للعالم بأمره . فليضرب أبناؤه فى فجاج الأرض، ولينهلوا من منابع العلم مهما بعدت المسافة وشقت الطريق وليكن البحث العلمى رائدهم فى حلهم وترحالهم ذلك أدنى أن يحقق غاية من أنبل الغايات التى تتوخاها العقيدة الإسلامية . فالمسلم فى سعيه إلى المعرفة يرتاد آفاقا جديدة ، ويختلط بأشخاص وجماعات كانت تفصله عنهم عوائق وحواجز شتى . فيتم بذلك لقاء فكرى خالص لوجه الحقيقة صادر عن أكرم حوافز النفس البشرية وهى التآخى والتعاون فى الكشف عن خبايا الطبيعة وحقائق المجهول .

ولا ريب أن هذا اللقاء الفكرى يقرب بين الطبائع المتنافرة ويؤلف بين المذاهب المتناقضة ، ويسفر عن نتائج إيجابية للعمل المشترك فى سبيل الصالح العام للبشرية . فهو يوثق العلاقات بين الناس ، ويقيم الروابط الودية والصلات الجيدة فتتضاءل مسافة الخلف بينهم ، ويفتح السبيل للتوفيق والمصالحة وحسم المنازعات ؟

رائد : حسن فتح الباب

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٦ —

الجانب الإنسانى والأخلاقى

فى التشريعات الإسلامية :

فى المقال السابق تكلمت عن بعض الجوانب الإنسانية فى الإسلام ولما ينته الحديث ، واليوم سأتناول بعض الجوانب الأخرى فأقول وبالله التوفيق :

لقد أوجب الإسلام الوفاء بالعهود حتى ولو كانت مع الأعداء ، أو منهم ، وحرم الغدر بجميع صوره ، فى الكتاب الكريم : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » (١) وقال سبحانه : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم ، أن تكون أمة هى أربى من أمة (٢) . إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » (٣) .

وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم مثالا كاملا للوفاء بالعهد فى سيرته وفى علاقاته مع الناس ومعاهداته مع المحاربين والأعداء ، فلم تحص عليه غدرة قط ، وقد سمعت فى المقال السابق نهيه المؤكد لقواد الجيوش والسرايا عن الغدر والخيانة ، وثبت عنه أنه قال : (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان) رواه البخارى ومسلم ، بل بلغ صلوات الله وسلامه عليه غاية السمو الإنسانى والخلق حينما أمر بعض أصحابه بالوفاء بالعهد الذى أخذه عليهم الكفار مع ما يترتب عليه من تقليل سواد المسلمين فى أول غزوة وأهمها فى الإسلام .

روى مسلم فى صحيحه بسنده عن حذيفة قال : ما منعنى أن أشهد بدراً إلا أنى خرجت أنا وأبى « حسيل » ـ والد حذيفة ـ قال :

---

(١) الإسراء : ٣٤ .

(٢) ومصداق هذا القول الحق ما نعلمه من نقض الدول الكبيرة لعهود الدول الصغيرة ونبذهم لها ما دام فى هذا مصلحة وإرضاء لنزوات الدول الكبيرة ، وإثراء على حساب الدول الصغيرة ، وعلة العلل فى هذا النقض ما تتمتع به الدول الكبيرة من كثرة فى العدد والعدة وما تملك من آلات الدمار والخراب أو الحرص على أن تكون هكذا فاعتبروا يا أولى الأبصار .

(٣) النحل : ٩١ ــ ٩٢ .

فأخذنا كفار قريش قالوا : إنكم تريدون محمدا فقلنا : ما نريده وما نريد إلا المدينة ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه الخبر فقال : « انصرفا ، نفي لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم » . فهل لهذا مثيل فى غير شريعة الإسلام ؟ ! !

ومن تشريعات الإسلام فى هذا ، التى يعتبر نسيج وحده فيها أنه يلزم المسلمين إذا كان بينهم وبين غيرهم من الدول عهود ، ولاحت لهم أمارات نقضها من جانب الأعداء . ألا يسارعوا هم بالنقض ، ويأخذوهم على غرة ، بل لا بد من إعلانهم أولا بنقض العهد حتى يأخذوا أهبتهم ، ويكونوا على علم به . قال سبحانه وتعالى : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » (١) أى أعلمهم قبل الهجوم عليهم بنقض العهد حتى تكونوا أنتم وهم سواء فى هذا العلم ، وهذا الأدب الإسلامى فى الحروب لم تصل إليه دول الحضارة فى القرن العشرين ، ولعلنا على ذكر مما جرى فى الحربين العالميتين فى قرننا هذا من نقض وغدر وهجوم من غير سابق إنذار ، ولا يزال هذا ديدنهم ما داموا لا يحتكمون إلى شريعة الرحمن ، شريعة الإيمان ، والعدل والرحمة ، والوفاء .

ومن المثل العليا فى هذا الباب - باب إعلان الأعداء قبل الهجوم - ما حدث فى جيش كان يتولى إمرته السيد الجليل معاوية - رضى الله عنه - روى الإمام أحمد فى مسنده عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمد - أى عهد - فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم - أى أخذهم على غرة - فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، وفاء لا غدر ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان بينه وبين قوم عهد ، فلا يحلن عقدة ، ولا يشدها حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء) . فبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا الشيخ هو (عمرو بن عتبة) رضى الله تعالى عنه .

فأين من هذه التشريعات الإسلامية فى المعاهدات والحروب التى شرعت وطبقت تطبيقا دقيقا من منذ قرابة أربعة عشر قرنا هجريا - القوانين الوضعية التى انتهت إليها حضارة القرن العشرين فى الحروب والمعاهدات والتى لا تعدو أن تكون حبرا على ورق ؟ ! !

إن إنسانية نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه بلغت الغاية فى السمو والترفع عن الأحقاد والعداوات حينما مر على النبى صلى الله عليه وسلم بجنازة فقام لها ، فقالوا له :

---

(١) الأنفال : ٥٨ .

يا رسول الله إنها جنازة يهودي فقال النبي : أليست نفسا منفوسة ؟ !!

بل إن إنسانية التشريعات الإسلامية لتتجلى أيضا في رعاية حرمة الإنسان في حياته وبعد مماته ، بل وفي عدم النيل من الموتى أو سبهم ، أو التمثيل بهم أو إهانتهم .

ففي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تسبوا الأموات فقد أفضوا إلى ما قدموا) يعني من عمل ، وإذا كان نهى عن سبهم فمن باب أولى عن التمثيل بهم ، وتتجلى إنسانية الشريعة الإسلامية أيضا في قيام المسئولية الجنائية تجاه الأحياء دون الأموات ، وتجاه الإنسان العاقل دون الحيوان والجماد .

ولعلك تعجب حقا إذا علمت أن عقوبة الحيوان والجماد قد أقرتها الشريعة اليهودية ، وقوانين اليونان ، والرومان والفرس في العصور القديمة ، كما أقرت عقوبة الحيوان قوانين الأمم الأوربية المسيحية في العصور الوسطى ، وصدر العصور الحديثة ، وهكذا يتبين لنا سمو الشريعة الإسلامية عن الشريعة اليهودية والقوانين الوضعية السابقة ، وسبقها للقوانين الحديثة بتقرير هذا الأصل بأكثر من عشرة قرون ، وتبلغ التشريعات الإسلامية غاية مداها في الرحمة حينما لم تقصر تشريعاتها على الإنسان بل تعدته إلى الحيوان والرفق به ، والإحسان إليه فقد جعلت ما يأكله الحيوان أو الطير من زرع إنسان صدقة وساوت بين الإنسان والحيوان في هذا ، ففي صحيح البخاري عن أنس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما من مسلم يزرع زرعا ، أو يغرس غرساً ، فيأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة إلا كان له به صدقة) وأمر الشارع بعدم إيلام الحيوان والطير عند الذبح ، ففي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة [1] ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته) وجعل تعذيب الحيوان سببا في دخول النار ، ففي الصحيحين مرفوعا (عذبت امرأة في هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض) [2] .

كما جعل الرحمة بالحيوان سببا لدخول الجنة ففي صحيح البخاري مرفوعا (بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فشرب منها ، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث . يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد

(١) يعني حدا أو قصاصا .
(٢) هوامها وحشراتها والواحدة خشاشة .

بلغ هـذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ بى ، فنزل البئر فلأخفه ، ثم أمسكه بفيه ، فسق الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له) وفى رواية (فأدخله الجنة) قالوا يا رسول الله : وإن لنا فى البهائم لأجراً فقال (فى كل ذات كبد رطبة أجر) ونهى الإسلام أن يتخذ كل ذى روح غرضا روى البخارى ومسلم عن ابن عمر: أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه ، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم ، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا فقال ابن عمر من فعل هذا ؟ لعن الله من فعل هذا ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا أى هدفا يرمى إليه وروينا أيضا عن أنس قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تصبر البهائم) يعنى تحبس لتقتل ، ويسمو الإسلام فى معاملة الحيوان فينهى الرسول أصحابه أن يلعنوا حيوانا وأمرهم أن يصان وجهه عن المثلة والتقبيح إذا ما اضطروا إلى كيه للاستشفاء ، وقد صار الرفق بالحيوان مما يدخل فى الحسبة فى الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم ، وكان يعزر من لا يرفق به . روى ابن الجوزى عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يضرب جمالا ويقول : حملت جملك مالا يطيق . فأين من

هذه التشريعات الإسلامية الرحيمة ما تقره بعض التشريعات الوضعية فى بعض الدول فى قرننا العشرين من التحريش بين بعض الحيوانات والطيور حتى تسقط صريعة الجراح والآلام ، ومن اتخاذ بعض الطيور غرضا يرمى ، ولا غرض لهم فى هـذا إلا التلهى والتسلية ، وهكذا لم تصل بعض القوانين الوضعية المعاصرة إلى ما وصلت إليه الشريعة الإسلامية من قرابة أربعة عشر قرنا ، وإذا كانت القوانين الوضعية الحديثة قامت على رعاية الجوانب الإنسانية فهذا أمر لم تعرفه إلا بعد القرن الثامن عشر ، وأغلب الظن أن تكون تأثرت ـ فيما تأثرت به ـ بالشريعة الإسلامية فقد كان للاتصال بين الشرق والغرب آثاره فى كل منهما ، وإليك كلام رجل عالم بالشريعة والقانون قال : (ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر أن القانون الوضعى كان حتى آخر القرن الثامن عشر قانونا وحشيا بعيدا عن أفق الإنسانية ، فكان يحاكم الأحياء والأموات ، والحيوان والجماد ، وينزل بالجميع عقوبات شتى قائمة على التمثيل والتشهير ،كان القانون الوضعى هكذا حتى أخذ فى القرن الثامن عشر بأول مبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية فانقلب قانونا إنسانيا بحتا ، إذ أصبحت العقوبة فيه قائمة على أساس التأديب والزجر بقصد حماية

المجتمع ، ولم تعـد هناك حاجة للتمثيل والتشهير ، ولم يعد منطق القانون يقبل محاكمة الأموات والحيوانات والجمادات ، وهذا المبدأ الأول الذى لم يعـرفه القانون إلا فى القرن الثامن عشر عرفته الشريعة مع غـيره من المبادئ من القـرن السابع الميلادى ، ولذلك تركزت المسئولية الجنائية من يوم نزول الشريعة فى الإنسان الحى ، ولم يجعل غيره أهلا ولم يعرف عن الشريعة ما عرف عن القانون من محاكمـة الأموات والحيوان والجماد ، ولم يعرف عنها أنها تقبل التشهير والتمثيل ، بل عــرف عنها أنها تأباه أشد الإباء ، ... ويكفى الشريعة الإسلامية فخرا بعد هذا أنها سبقت تفكير العالم بأحد عشر قرنا وأن العالم يسير على آثارها من قرنين، ولا تزال تسبق تفكيره بمراحل » (١) .

هـذا ولا يزال فى المقارنات مجال ومجال فإلى المقال الآتى إن شاء الله تعالى ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى جـ ١ ص ٦٢٨ .

الإسلام والائتمان المصرفى

أقترح أن يحل التكافل الوثيق بين طبقات المجتمع الإسلامى بالنسبة للقروض الاستهلاكية ، والتعاون المثمر بين رأس المـال والعمل بالنسبة للقروض الإنتاجية ، محل بعض وظائف النظام المصرفى السائد فى الاقتصاد الغربى .

فالزكاة والإنفاق فى سبيل الله ، سوف يقضيان على الحاجة إلى عقد قروض استهلاكية ربوية .

أما فى القروض الإنتاجية فالمـال الذى أودعه صاحبه فى بنك لن ينال عنه « فائدة » ثابتة تتسم بسمات الربا المنهى عنه ، بل ربحا عادلا يتـكافأ مع الدور الذى أداه ماله فى التنمية الاقتصادية . وهذا بلا شك تشجيع كاف لكل مدخر على موالاة الادخار ـ العنصر الأساسى فى تكوين رأس المال القوى .

والبنك من جانب آخر ـ بما فيه مساهموه ـ سينال ربحه المشروع جزاء وفاقا على مابذل من جهد بصير وفطنة واعية فى توجيه مال المساهمين ومال المودعين فى استثمارات مجزية ، هـذه الروح التعاونية التى تجمع بين رأس المـال والعمل فى تحالف سليم هى روح إسلامية خالصة .

الدكتور محمد عبد الله العربى
المستشار القانونى للمؤتمر الإسلامى

[من محاضرة بقاعة الإمام محمد عبده]

التصوير السياسي في شعر ذكريات الهجرة الحديث

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

لقد أصاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما اختار يوم الهجرة مبدأ للتاريخ الإسلامى إذ كانت هذه الهجرة المباركة فتحا مبينا للدعوة الإسلامية ، واتخذ المسلمون منها قدوة فى نشر دينهم فى الأقطار ، فخرجوا بعد أن رست قواعد هذا الدين الخالد إلى العراق ، وإلى بلاد الفرس والشام وغيرها ، مهاجرين بمبادئهم القويمة ، هاجرين أوطانهم ، متمثلين قول الله تعالى : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيرة وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفوراً رحيما » (١) .

ولولا تلك الهجرات الأولى ، وما قصد إليه المهاجرون من رغبة صادقة فى إعلاء كلمة الحق ، ونشر مبادئ الإسلام التى تشيع الحرية والعدالة والمساواة بين الناس ، وتكف أيدى أقويائهم عن ضعفائهم ... لولا تلك الهجرات ما انتشر الإسلام ، وما كان أحد من ملوك تلك الأقطار التى سادها الإسلام ، أو من ساداتها على استعداد لأن يذهب إلى المدينة المنورة ليعلن تنازله عن سلطانه وجاهه إلى خليفة المسلمين ، أو يدخل فى مبادئ الدين الجديد .

وحسنا صنعت الشعوب الإسلامية فى الاحتفال بذكرى الهجرة ، لما فى هذه الذكرى من عبر ، وإيحاء باستمرار الكفاح والجهاد فى سبيل الدفاع عن الحق ، ومناصرة المظلومين ، وطلب العزة والكرامة .

والمعروف أن الاحتفال بالمواسم الإسلامية ـ غير العيدين ـ وعلى رأسها الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ، قد بدأ من عصر الفاطميين بمصر ، ومن تلك المواسم كان الاحتفال برأس العام الهجرى (١) .

وفى أوائل عصرنا الحديث كان الاحتفال بمناسبة الهجرة قاصراً على رفع التهانى للخديوين والحكام كسائر المناسبات الأخرى .

وكان الشعراء يتخذون من هذه المناسبات

---

(١) سورة النساء ١٠٠ .

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها .

فرصا يرفعون فيها المدائح إلى الحكام متزلفين متقربين لينالوا حظوة عند حاكم أو عظيم دون أن يلتفتوا إلى ما فى مناسبة الهجرة مثلا من عبر، وصور حية للكفاح والجهاد، أو يوجهوا نظر أحد لذلك.

فنجد مثلا «السيد على أبو النصر» أحد الشعراء المقربين إلى الخديو إسماعيل يرفع إليه تهنئة بمناسبة حلول الهلال لمطلع عام ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣ م) يقول فى مطلعها:

أراك أراك الحى تحمل غردا
فهل كلما غنتك تذكر خردا (١)

وبعد أن يكيل المدح والثناء للخديو، ويخلع عليه ما شاء خياله أن يخلع من صفات، يعود فيذكر مناسبة الهجرة فى بيتين، لا أثر فيهما لإشارة ما، عما فى الهجرة من معان وعبر:

وقد أقبل العام الجديد بسعده
يقول له: أبشر، فلا كانت بعيدا
حقيق على مثلى يبشره به
وينظم فى بشراه درا منضدا

وحافظ إبراهيم يهنئ عباسا بمطلع العام الهجرى ١٣٢٢ الموافق ١٩٠٤ بقصيدة يقول فى مطلعها:

قصرت عليك العمر وهو قصير
وغالبت فيك الشوق وهو قدير

وبعد أن يكيل المدح والثناء، يبين عن غرضه، ويعرض حاجته فى ضراعة:

عسى ذلك العام الجديد يسرنى
ببشرى، وهل للبائسين بشير
وينظر لى رب الأريكة نظرة
بها ينجلى ليل الأسى وينير

إلخ أما عبرة الهجرة وما فيها من دروس، فلا شىء من ذلك، ولكن بعد أن أخذ الوعى الإسلامى طريقه إلى النفوس، وبعد أن تنفس الناس قليلا فى ظلال دعاوى الحرية التى ملأت الأجواء بخطب مصطفى كامل وكتابات اللواء ... وبعد أن ضاق الناس ذرعا بما يملأ أسماعهم عن أمجاد أوروبا، وانحطاط الشرق ... وبعد أن تجاوبت أصداء البعث الإسلامى فى دعاوى جمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل ومحمد عبده ... عند ذلك اتجهت الأنظار إلى ماضى الأمة الإسلامية، وركزت الأنظار بنوع خاص حول يوم الهجرة النبوية وبدأ الشباب يعنون بالاحتفال بذكرى هذا اليوم لما فهموه منه من معانى البطولة والتضحية والإيثار، وما فيه من إيحاءات تدعو إلى اليقظة والكفاح.

وقد كانت أولى مظاهر الاحتفال بهذا اليوم،

---

(١) أراك الأولى: فعل ومفعول به، والثانية منادى، وهى شجر الأراك الذى تتخذ منه عيدان السواك.

ذلك الاحتفال الرائع الذى أقامه شباب المدارس الثانوية بدار التمثيل بالقاهرة فى مطلع عام ١٣٢٦ الموافق ١٩٠٨ ، وقد ألقى فى هذا الحفل الكثير من الخطب والقصائد من مندوبى الطلبة وغيرهم ، ثم أخذ الشعراء يتحدثون عن روعة هذا الاحتفال ، وما يبشر به من بعث وسجلوا ذلك التوثب ضد سياسة الاستعمار .

وبعد أن ذاع نجاح هذا الاحتفال الذى يعتبر مؤتمرا سياسيا هاما ، وبعد أن تهيأت النفوس لتقبل مايلقى فى هذا المؤتمر من خطب وأشعار تبعث الشجاعة فى نفوس المترددين .. عند ذلك اضطرت الحكومة إلى مجاراة الشعور العام فأصدر مجلس الوزراء (برياسة بطرس غالى) قرارا فى يناير ١٩٠٩ وكان قد حل مطلع العام الهجرى ١٣٢٧ واعتبر ذلك القرار يوم الهجرة عيداً رسمياً تعطل فيه مصالح الحكومة والمدارس . وفى مطلع ذلك العام أقيم أول احتفال رسمى بدار التمثيل أيضا ، وقد ألقى فيه حافظ إبراهيم قصيدة عامرة لم يكن ميدانها تمجيد الخديو كما كان فى الماضى ، بل إن تيار الأحداث قد جرفه ، فاندمج فى الجو السياسى العام للأمة الإسلامية وراح يصور أحداث مصر وسائر الأقطار الإسلامية قطراً قطراً . سجلها فى قصيدته بأسمائها لم يترك تركيا ولا فارس ولا تونس ولا المغرب ولا جاوة ... ومطلع هذه القصيدة :

أطل على الأكوان والخلق تنظر
هلال رآه المسلمون فكبروا
تجلى لهم فى صورة زاد حسنها
على الدهر حسنا . أنها تتجدد

وبعد أن أشار إلى ما حدث فى العام المنتهى بكل قطر إسلامى سواء بالعزة والخير كقوله :

وفى دولة الأفغان كانت شهوره
وأيامه بالسعد واليمن تزهر
وفيه بدت فى أفق جاوة لمعة
أضاءت لأهليها السبيل فبكروا

أو بزوال الملك ممن لم يحسنوا عليه القيام كما حدث لملك مراكش الذى عرف بالتهاون حينذاك :

وفيه هوى (عبد العزيز) وعرشه
وأخنى عليه الدهر والأمر مدبر
ولا عجب أن ثل عرش ممالك
قوائمه عود ودف ومزهر

بعد ذلك اتجه يتحدث عن التصوير السياسى فى مصر وتوثب المصريين ضد الانجليز ، معتبرا أن ضغط كرومر كان خيراً

لأنه وجـــه نظر المصريين وحفزهم إلى الانفجار :

وفيه سرت فى مصر روح جديدة
مباركة عن عبرة تتسعر

خبت زمنا حتى توهمت أنهـا
تجافت عن الإيراء[١] ، لولا (كرومر)

تصدى فأدراها ، وهيهات أن يرى
سبيلا إلى إخمادها وهى تزفر

مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى
فنى مصر إيقاظ على مصر تسهر

فلما كان العام التالى أنشد قصيدة مطلعها :

لى فيك حين بدا سناك وأشرقا
أمل سألت الله أن يتحققا

وفى ذلك العام (١٩١٠ / ١٣٢٨) كانت المناقشات تدور حول مد امتياز قناة السويس ثم إن الانجليز قيدوا الصحافة ... وفى هذه القصيدة نجد حافظا يصرح بهذا الضغط السياسى ، غير عابئ برهبة سلطان الإنجليز ، ولعله استمد حريته هذه من تحرره من قيود الوظائف لأنه فى العام التالى (١٩١١) عين بدار الكتب فلم يقل بيتاً واحداً فى مناسبة الهجرة إلى عام ١٩٣٢

(١) الإيراء : مأخوذ من أورى الزند : أخرج ناره . والتعبير هنا مجازى والمراد ثورة النفوس بعامل الضغط .

حينما انتقل إلى رحمة الله . استمع إلى تصويره فى قصيدة ١٩١٠ وهى آخر قصائده الثلاثة فى هذه المناسبة :

حصدت مناجله غرائس رجائنا
ولو أنها أبقت عليه الأورقا[١]

فتقيدت فيه الصحافة عنوة
ومشى الهوى بين الرعية مطلقا

وأتى يساوم فى القناة خديعة
ولو انها تمت لتم بها الشقا

إن البلية أن تباع وتشترى
مصر وما فيها . وألا تنطقا

كانت تواسينا على آلامنا
صحف . إذا نزل البلاء وأطبقا

وفى العام التالى (١٩١١ / ١٣٢٩) أنشد المرحوم عبد الحليم المصرى قصيدة مطلعها :

الله أكبر لاحت طلعة القمر
فاستقبلوه بحمد الله والسور

وبعد أن تحدث عن حرب طرابلس ، وفظائع الطليان الذين انتهزوا فرصة انشغال الخليفة بثورة فى اليمن واضطراره لسحب جيش طرابلس فهجموا عليها مطمئنين لموافقة الانجليز ، بعد ذلك اتجه إلى تصوير الأحوال السياسية فى مصر ، وكيف أن الانجليز

(١) الضمير إلى العام المنتهى .

يستولون على خيراتها ويتركون أهلها فى فقر حافزاً همم المصريين :

يأيها العلم المصرى : ظل شرفا
لا زال ظلك ممدوداً على النهر
تفديك من خافق كالقلب إن وقفت
به الصبابة بين الوجد والحصر
يا شعب : إنك فى عهد إذا طلعت
به نيرات الليل لم تغر
فكن وقلبك أنى كان منبعثا
تجد من النفع ما تخشى من الضرر
أتحرث الأرض فى مصر وتزرعها
ويجتنى القوم فيها يانع الثمر[1]

ولقد وجد الشعراء فى مناسبة الهجرة متنفسا يعبرون فيه عما يجيش فى نفوسهم ونفوس الشعب من مآسى الاحتلال ، وظلم الانجليز ، وخنقهم للحريات . . وكان الشعر بذلك منبراً عاما ، وحمى يلجأ إليه الشعراء ليتحدثوا إلى حد ما عن سياسة الحكومة والاحتلال فى زمن كان الحديث فى السياسة محظوراً فيه على مختلف طوائف الأمة إلا من يسمح له المستعمرون فى حدود أهوائهم أو يخرج على قيود السلطات فيلق به فى غيابات السجون .

وقد أخذ تصوير الشعراء للأحوال السياسية فى مناسبات الهجرة يتطور بتطور الظروف وتزداد صراحتهم عاما بعد عام :

ففى عام ١٩١٩ إبان اشتعال الثورة المصرية أطل على العالم هلال عام ١٣٣٨ ، وهنا انبرى المرحوم أحمد محرم يحيى هذا الهلال مصورا ظروف البلاد فى تلك الفترة وقسوة الانجليز فى قتل الأبرياء بغير حساب ، مصوراً كذلك وحدة الأمة ووقوفها صفا واحدا ضد الطغيان متهكما بوعود الانجليز وما أذاعوه من مبادئ تقرير المصير على لسان ولسون لتخدير الشعوب ، حافزاً همم المصريين ومطلعها :

حيوا الهلال وحيوا أمة النيل
واستقبلوا العيد عيد العصر والجيل

ومنها فى تصوير وحدة الأمة ووقوفها صفا واحدا :

قالوا : أقاطيع يغشى الذل ساحتها
فهاجت الأسد تحمى عزة النيل
وأقبلت مصر يمشى أهلها زمرا
من حاشدين ، ومن شتى أبابيل
لم تبق فى خدرها بيضاء ناعمة
من العذارى ولا الغوذ المطافيل
يهتفن : مصر ، ومصر كل منجبة
ومنجب من بنيها غير مفصول

ومنها فى التهكم بمبادئ ولسون وإخلاف الانجليز وعودهم :

---

(١) يعنى بالقوم : الانجليز .

قالوا : السلام فهز الكون صارخهم
عن منهل بدم الأبطال معلول
واسترسلت ترفع النجوى وتنفثها
أيدى اليتامى ، وأفواه المراميل
وبشرونا بما سن (الرئيس) لنا
من شرعة ذات تبيان وتفصيل(١)
لو قيل : يوم يقوم الناس موعدنا
قالوا : مساريع راعونا بتعجيل

ومنها فى حفز همم المصريين وأنهم رجال بأس سيصلون إلى حقوقهم :

إنا لعمر الألى ظنوا الظنون بنا
لا بالضعاف ولا القوم التنابيل
نسمو إلى الشرف الأعلى ويرفعنا
مجد لنا لم نزده غير تأثيل
راس على الدهر إن جاشت زلازله
توهى الجبال ، وترميها بتحويل
نصون مصر ونحميها بما علمت
من الدروع العوالى والسرابيل
يا مصر : عامك عام الخير فارتقبى
فيه المنى ، وثق منه بتنويل
ما أخلف الله من وعد، ولا كذبت
آمال شعب بلطف الله مشمول

(١) يشير إلى مبادئ ولسن الأمريكى التى نادى بها سنة ١٩١٨ متضمنة « حق الشعوب فى تقرير مصائرها » .

فلما كان عام ١٩٣٦ وامتلأ الجو السياسى فى مصر بما دار حول المعاهدة البريطانية التى وقعت حينذاك ، سجل كثير من الشعراء ذلك الجو فى ظلال قصائد الهجرة والمولد النبوى ، والمحرم فى تلك المناسبة كثير من الشعر الصادق فى تصوير الشعور العام ومن ذلك قصيدة كبرى فى ذكرى الهجرة عام ١٣٥٦ (أوائل ١٩٣٧) بعد أن وقعت المعاهدة وقد وضح فى هذه القصيدة أن الحقوق لا تؤخذ بالأقوال ، وإنما لغة السيوف هى الفيصل فى كل خلاف بين عات متجبر ومطالب بحقوقه ، ضاربا المثل من كفاح الرسول الكريم ، ومطلعها .

أقبل ، عليك من الشعوب سلام
فزع الصليب إليك والإسلام

ويسجل فى هذه القصيدة ماينبغى أن تكون عليه الأمة الإسلامية اقتداء بماضيها المجيد :

اضرب لنا مثل الجهاد ، ومر بنا
نغشى الوقائع ، فالحياة صدام
هل أسلم الهادى الأمين قياده
أم كان منه النقض والإبرام
رفع الحياة على أساس صالح
والسيف ركن ، والكتاب إمام
(أحد) و (بدر) شاهدان ، فما على
من يسفح الدم فى الحقوق ملام

تلك المشاهد : جال فيها مصحف
أم جال فيها مصحف وحسام

ومن طرائف هذه الألوان فى التصوير السياسى صورة رسمها الأستاذ محمود غنيم لموسولينى عندما ادعى أنه « حامى حمى الإسلام » وذلك من قصيدة إبان الحرب العالمية الثانية (١٣٦٠ هـ) .

يا شاهرا لحماية الإسـ
لام سيف ابن الوليد
جـددت فى لوبيا سنا
بغداد فى عصر الرشيد
وظهرت فى هدى الحسين
وأنت أشق من يزيد
هلا تركت حماية الإسـ
لام لله الحميد ؟ إلخ ...

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها فى منتصف عام ١٩٤٥ هل عام ١٣٦٥ فأنشد الأستاذ غنيم قصيدة كبرى سجل فيها اليقظة العربية والدعوة إلى الوحدة ، ومن هذه القصيدة :

ذكرى وموعظة ، أسوقهما إلى
قومى ، فهل القوم سمع واع ؟
هل يجمعون على الخطوب أمورهم
فالخير كل الخير فى الإجماع
أبناء يعرب : لا حياة لأمة
بالذكريات ، بل الحياة مساع
فثبوا إلى الأهداف وثب مغامر
لا واجب قلبا ، ولا مرتاع ...

تلك هى بعض الأمثلة من شعرنا الحديث فى ذكريات الهجرة فى فترة ما قبل الثورة المباركة ، وقد رأينا فيها كيف تجاوب الشعراء مع الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد ، وسجلوا فى شعرهم صوراً رائعة لتطور الظروف العامة ، وأبرزوا آمال الشعب فى أن يحيا حياة كريمة ، ويتخلص من أدران الاحتلال ، حتى قيض الله لهذه الأمة رجالا من أبنائها الكرام ، وحقق على أيديهم تلك الآمال العراض فى ذلك اليوم المجيد الذى انبثق ضوءه قوياً وهاجاً فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ولقد اتجه التصوير السياسى فى شعر ما بعد الثورة وجهة جديدة تتمشى وتطور الظروف الجديدة ، إذ ظهرت أمور شغلت الأذهان : كالجلاء ، والنصر فى العدوان الثلاثى ، والدفع الثورى فى ميادين الاقتصاد والتشريعات الاجتماعية ، وإبراز ما يترتب على وحدة الشعوب العربية من آثار تحقق عزتها وسيادتها . ولقد أسهم الشعراء فى تصوير كل ذلك .

وسنكتفى هنا بعرض أبيات من نموذجين أحدهما حول قضية فلسطين وعودة اللاجئين ، والآخر حول قضية الجزائر :

فى أغسطس سنة ١٩٥٦ م زار الأستاذ عبد الحافظ [١] ريان مدينة غزة ضمن لجنة امتحان الثانوية العامة، وهناك رأى من أحوال اللاجئين ما حفزه على ارتجال قصيدة فى مناسبة العام الهجرى ١٣٧٦ هـ الذى هل حينذاك: قال فى مطلعها:

يا هلالا أتى لدنيا معيدا
قصة كان من قديم رواها:
أن فى الكون أنفساً شرهات
بانتهاك الحقـــوق تبغى علاها:
قد صحا الشرق يا هلال. فكبر
إن فى العرب من يصون حماها

ومنها:

يا لقلب فى ليله بات يشكو
ويعانى من حالكات دجاها
هاله صرخة لأم حنون
رميت من عاد بأؤم رماها

ويقول فى ختامها:

وأرى عملاق العروبة لبى
لفلسطين دعوة وفداها [٢]
وأرى الزحف راعداً كالأعاصـ
ـير العواتى قد طوحت بعداها
يسترد الحقوق من غاصب ما
شاء إلا مذلة، فارتداها

وفى مطلع عام ١٣٧٩ (١٩٥٩) وثورة الجزائر على أشدها، أنشد قصيدة مطلعها:

هلال العام قد وافى مشيرا
ليمن النصر، قد زف البشائر

إلى أن يقول:

أخى فى الحق: فلتسرع لعون
فذا حق العروبة والعشائر
لقد كشفت فرنسا عن وجوه
صفاق. وانبرى غل السرائر
أخى: حرية الأوطان خذها
فما نال المطالب غير قادر
إلى أرض العروبة نفتديها
فهيا بالفدا نحمى الجزائر
أخى: فلنضربن والله يرعى
حمانا. إنه للحق ناصر
«يقين النصر» فى قلبى أراه
ضياء ساطعا يمحو الدياجر

هكذا حقق الله أمنية الشاعر فى البيت الأخير إذتم النصر لجزائر باتفاق «إفيان».

اللهم حقق آمال شعوب الأمة العربية فيما ترجون من عزة وقوة، وأزل الغشاوة عن أعين الغافلين. إنك سميع مجيب؟

الدكتور سعد الدين الجيزاوى

---

(١) المدرس الاول بوزارة التربية والتعليم. وكان والده من علماء الازهر الشريف.

(٢) يشير إلى الرئيس جمال عبد الناصر.

الإسلام ... في المعركة ضد الجوع

(بمناسبة الحملة ضد الجوع التي تنظمها منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة)

للأستاذ فتحي عثمان

« إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » .

هكذا جاء عهد الله لأبي البشر ...

وعاش آدم في الجنة لا يكدح ولا يجوع ...

ثم شاءت إرادة الله أن ينقله إلى عالم جديد ليعيش بطريقة أخرى .

وهبط الإنسان إلى الأرض ... مشحوناً بطاقة العمل في الكون ، محتاجا للوقود الذي يغذو هذه الطاقة .

كان لا بد أن يعمل ليأكل ، فقد انتهى عهد الجنة التي كان يرزق فيها بغير حساب !

وشهدت الأرض هذه القوة الجديدة ، التي أخذت مكانها تحت الشمس .

شهدت « الإنسان » ! !

وانضافت هذه الطاقة الفريدة إلى ما في هذا الكون من طاقات ...

وتفاعلت هذه الطاقة مع تلك الطاقات .

وتولدت الحضارة العملاقة ! !

وعاش الإنسان : يعطي ويأخذ ، ويرسل ويستقبل ، ويبذل ويأكل ... ويفتح بطاقته طاقات الكون ، ليتلقى من طاقات الكون مدداً يعين على استمرار الحياة ! !

وبقي عهد الله للبشرية ألا تجوع ...

لقد رعى الله « الإنسان » بغذاء الجنة أولا ... ثم رعاه بما وهبه من طاقة وسخر له من طاقات أخيراً ...

وجاء دين الله رفيقاً « للإنسان » في رحلة الكون ، يرشده إلى ينابيع الطاقة في نفسه وفي الآفاق :

« ولقد كرمنا بني آدم
وحملناهم في البر والبحر
ورزقناهم من الطيبات
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

• • •

والجوع يهدم الشخصية ، ويقضي على التجاوب الطبيعي بين الإنسان وجميع مؤثرات بيئته البعيدة عن إشباع غريزة الأكل ولا يبقي للعوامل الأخرى التي تصوغ السلوك البشري أي تأثير ، وكذلك تختفي بالتدريج دوافع المحافظة على الحياة وتحكم العقل إلى أن تنتهي بانعدام كل حذر وكل

وازع من ضمير ، وعندئذ يستحيل الإنسان حيوانا ضاريا قــد سيطرت عليه الحاجة القصوى إلى إثبات وجـوده ، فيقاتـل ويغزو ويدمر .

والشعور بحدة الجوع ليس متواصلا بل هو متقطع وله فـترات ازدياد ونقصان ، وأول مراحـله : الهياج العصبى غير العادى وسرعة الغضب المتناهية وتوتر فى الحواس ، يعقبه تلبد فى الإحساس واكتئاب شـديد وغثيان وعجز عن التركيز .

وثمة ظاهرات اجتماعية متعددة : كقطع الطريق ، والعزلة الكـئيبة ، والثورات التى لا تنقطع فى جهات أخرى ، والدعارة والانحطاط الخلقى — ترجع كلها بدرجات متفاوتة إلى الانحلال الذى يحدثه الجوع فى توازن الشخصية البشرية وتكاملها ، وفى خلال تجارب أجراها دكتور كيز ، نشأ عن الجوع التهاب حقيقى فى الأعصاب مصحوب بشعور الكراهية للمجتمع ، فإذا بلغ الجوع ذروته صحبته حالة من الهياج والجنون ، عرفها بحارة القرنين السادس عشر والسابع عشر باسم (سعار الجوع) .

وآثار نقص التغذية أو الجوع المزمن على الروح المعنوية أقل وضوحا من آثار التضور ، لكنها أطول مـدى وأصعب شفاء ! فبينما ينشأ عن الجوع الحاد فى العادة نوع من التهيج غير العادى ، نجـد الجوع المزمن يسبب الكآبة والتبلد ، والذين يعانون الجوع المزمن سرعان ما يفقدون شهيتهم للطعـام ، ولا يعودون يحسون بالجوع ، وبهذا تتوقف استجابتهم للدوافع التى تحبب العمل إلى الإنسان ! .

والأثر النفسى للجوع المزمن هو أن يكسب غريزة الجنس من الأهمية ما تعوض به عاطفيا فقـدان شهية الطعام ، خـلافا للقصور الحاد الذى يقلل الرغبة الجنسية .

والأرقام تبين بوضوح أنه كلمـا زادت نسبة البـروتين هبطت قوة النسل بنفس النسبة ، على أنه كلما زادت نسبة البروتين فى الطعام زادت مناعة الصغار ضد الأمراض ، فتقل بينهم نسبة الوفيات ! ...

هـذه كلمات منيرة لباحث فى معهد التغذية فى جامعة البرازيل :

هو جوزويه دى كاسترو ...

وهى تبرز خطر (الجوع) فى تهـــديد (الإنسان) ...

(الإنسان) فى حقيقته وكرامته ومعنوياته.. لا مجرد بنائه البيولوجى ! ومن أجل (الإنسان) ... جاء القرآن يعدد نعم الله على النـاس ، فقرن التحرر من الجوع إلى التحرر من الخوف ، قرن الجوع إلى الخوف فى الابتلاء :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » !

ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » !

كذلك قرن القرآن الجوع إلى الخوف عند تعداد النعماء وكشف الضراء :

« فليعبدوا رب هذا البيت

الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » !

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات » !

* * *

والدين لا يكتفي بأن يحقق للإنسان ما يملأ فراغ المعدة ويقضي ميكانيكياً بحسب على الإحساس بالجوع ....

إنه يطالب للإنسان طيبات الرزق .

« يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم

واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون » .

وشكراً لله على نعمته في الرزق ، وحكمته في البيان ! .

فإن التعبير « بالطيبات » يستلزم أن يكون الطعام :

من كسب مشروع : ليس فيه إخلال بحق فرد آخر أو بحقوق الجماعة .

وأن يكون الطعام طيباً من الوجهتين الغذائية والصحية : بأن يتحقق فيه كفاية المقومات الغذائية اللازمة ، والوقاية من أسباب المرض .

ولم يغفل القرآن الإشارة إلى ما فسميه الآن (بالجوع الجزئي) ... أشارة إلى « شيء من الجوع » وأشار إلى « نقص من الأموال والأنفس والثمرات » !

« والجوع » كلمة ذات معان عديدة ... الجوع الفردي : سواء في مجاله الفسيولوجي ، أو في مظاهره السيكولوجية ... والجوع الجماعي ، الجوع المحلي أو العام الذي يتعرض له أعداد هائلة من البشر ... الجوع الكلي : أي العجز التام الناشيء عن نقص الطعام (التضور) والذي يقتصر على مناطق تنزل بها كوارث شديدة أو على ظروف استثنائية ، والجوع الخفي الذي يقضي على بعض الجماعات بالموت البطيء جوعا لنقص بعض العناصر الغذائية التي لا غنى عنها مع أنهم يشبعون كل يوم ! ... وهذه الأنواع الجزئية الخاصة من الجوع التي كشف العلم الحديث عن نواحيها العديدة في كل جهة من العالم هو أهم مايعنى به

فى الدراسة حاليا ... وعلى ذلك فإن الجوع يشمل كل شىء ابتداء من أحوال نقص الغذاء وسوء التغذية إلى الموت من الجوع فعلا ... فالغذاء هو الوقود الذى تستخدمه الآلة البشرية لتوليد الطاقة ، وهو الذى يمد الآلة البشرية الحية أيضاً بكل العناصر اللازمة لصيانتها وإصلاحها وتأديتها لوظيفتها . . وعن طريق الطعام يحصل الجسم على الطاقة الضرورية لتأدية وظائفه ، وعلى المواد الأولية الضرورية لبناء أنسجته وتعويض خسائره الفسيولوجية ... ولما كان جسم الإنسان غير قادر على إنتاج هذه المواد مباشرة كان لابد من أن يحتوى عليها غذاؤه حتى لا تتعرض الآلة البشرية الحية للأمراض الخطيرة . والتغذية الكاملة الوافية يجب أن يتوافر فيها أمران : أن تمد الجسم الحى بكل الطاقة التى يحتاجها ، وأن تمده بكل المواد المتنوعة اللازمة لحفظ توازنه . فإذا لم يحصل الفرد على قدر من الطاقة يساوى ما يفقده فإنه يتعرض لجوع عام أى نقص فى الطاقة ، فإذا كان الفرق كبيراً فإنه يقترب من درجة التضور ، وإذا اختفت العناصر المذكورة كلية فإنه يتعرض للموت جوعا . . وإذا نقص عنصر من العناصر الأساسية - بغض النظر عن مسألة توجيه الطاقة - تعرض الإنسان للجوع الجزئى أو النوعى . وكثير من أمراض التغذية - وهو الاسم الذى يطلق على أنواع من الجوع الجزئى - قد لا تبين لها أعراض ظاهرة ولو أنها تؤثر فى الصحة ، وهناك أنواع أخرى تظهر واضحة فى شكل أمراض معينة وهى أمراض النقص الغذائى . وأهم أنواع هذه الأمراض تلك التى تنجم عن نقص مقدار البروتين ، أو بعض المواد الدهنية أو الأملاح المعدنية ، أو الفيتامينات .

والدين لا يرضى عن الجوع الجزئى ، كما لا يرضى عن الجوع الكلى ...

إنه لا يرضى لكرامة الإنسان إلا طيبات الطعام ، على اختلاف الألوان .

« والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون » ...

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون». «وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ...

« وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً . فكلى واشربى وقرى عينا » .

« وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً » .

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا

سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

« أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ، إنه بكل شىء بصير » ...

« قل أحل لكم الطيبات ، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم ، واذكروا اسم الله عليه ، واتقوا الله ، إن الله سريع الحساب » .

هذه دعوة الدين ...

دعوة إلى الطيب من كل شىء ...

الطيب من القول والعمل ، والطيب من الطعام والشراب واللباس والسكن ...

وكل طيب حلال للانسان أيا كان ، وعلى الطيبات يتعاون الإنسان والإنسان على اختلاف الأديان والأوطان .

« اليوم أحل لكم الطيبات » ...

« وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » ...

وهذا ما يليق بكمال الدين وكرامة الإنسان

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل لكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

« وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

فتحى عثمان

الإسلام والأموال

فكرة الإسلام عن النقد تتلخص فى أنه بجميع صوره ، لا ينبغى أن يكون إلا للدولة ، ومن ثم يكون سك النقود وإصدار العملة الورقية ، وخلق النقود الحسابية بالائتمان مثلا هذه كالفروع لوظيفة واحدة . وهذه الوظيفة لا تنبغى إلا للدولة .

ومن ثم تكون المصارف وهيئات تكوين رءوس الأموال (كشركات التأمين وتوظيف المدخرات) منشئات لا يجوز للفرد ولا للشركة أن تتملكها إلا إذا رجعنا القهقرى وأجزنا للفرد أن يسك العملة وأن يصدر النقود الورقية ، وأن يتقلد فى عشيرته أو فى المجتمع ، وظائف القضاء والأمن .

الدكتور عيسى عبده ابراهيم

الأستاذ فى كلية تجارة عين شمس

البابية أو البهائية

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

— ٢ —

قلنا فى مقالنا السابق إن الإسلام خاتم الشرائع ، وإن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وأشرنا إلى ما تتابع فى التاريخ الإسلامى من دعوات المتنبئين وكشفنا عن العقيدة والبيئة اللتين كانتا مرتعا لهذه الدعوات الضالة .

وكشفنا عن الربط بين هذه العقيدة و تلك البيئة وبين ظهور البابية ، وعرضنا لحياة الباب ومحاولات أتباعه ، والعقائد التى دعا إليها .

ولم تكد الحياة تستريح من شرور الباب وآثامه بمقتله حتى تجمع أتباعه حول رغبة الثأر والانتقام ، فألفوا جمعية سرية تفتك بكل من يعارضها ، وتعد له من أساليب الغدر والخديعة ما تأباه كل نفس إنسانية شريفة ، وكان الميرزا حسين على الملقب فيما بعد بالبهاء هو الرأس المفكر لهذه الجماعة المتعطشة للدماء وكان أعضاء الجماعة ينفذون أغراضهم الشريرة بالذبح ، أو بالسم ، أو بالخناجر المسممة ، وظلوا يشيعون الرعب والهلع فى النفوس حتى انكشف أمرهم فى محاولة قتل الشاه ، فتعرضوا لحملة شديدة كادت تودى بهم ، وأودع ميرزا حسين السجن حتى أنقذه الاستعمار الروسى بعد أن ظل فى السجن أربعة أشهر ، ورحل إلى العراق فى حماية الروس أيضا . وكان صبح أزل أخو البهاء قد أعلن بعد مقتل الباب أنه الموعود بقول الباب « من يظهره الله » وآمن به جماعة من البابيين وكان يدعو إلى المبادئ التى أعلنها الباب فى كتابه البيان .

ولما رحل البهاء إلى بغداد أخذ يمهد السبيل إلى نفسه ، ويلقى فى روع أتباعه أنه الموعود ببشارة الباب ، فوقع صدام بين أتباعه وأتباع أخيه صبح أزل ، وكان الأزليون فى ذلك الوقت يمثلون الأكثرية واجتمع كبار زعماء البابية ، وأخذوا يعرضون على البهاء مثالبه ونقائصه فلم يجد بدا من ترك بغداد والفرار إلى صحراء السليمانية يعمل الحيلة ويفكر فى أساليب جديدة للخداع ، وأخذت نفسه تمتلئ بالحقد

الأسود على أخيه وأتباعه ، ويستعمل من أساليب النفاق ما يمهد له السبيل للوصول إلى غاياته وأهدافه الخبيثة ، وكان قد شاع أمره وانكشف كفره لعلماء السليمانية ، وهموا أن يأخذوه بكفره . فلما أحس منهم ذلك فر ثانية على كره منه إلى بغداد ، زاعما أن وحيا إلهيا قد نزل عليه وأمره بالعودة إلى بغداد ، وأخذ يعلن أن الوحى جاءه بنسخ بعض أحكام البابية ، فاشتعلت الفتنة بينه وبين البابيين ، وأخـــذوا يرمونه باللعنة ويصوبون نحوه سهامهم ، وأخذ يرد عليهم فيما يزعم أنه وحى ، ويرميهم بالغدر والسفه وتراشق الفريقان السباب والشتائم وأخذ كل يؤكد أن الباب كان يعنيه هو ، ومن قول الأزليين فى ذلك : « إن الباب كان يعنى يحيى بما قاله فى كتابه البيان : « لا إله إلا أنت ، لك الأمر والحكم ، وإن البيان هدية منى إليك ، وأخذ يحيى يصف أخاه بالإثم ويسميه العجل ويصف أتباعه بأنهم يشركون ، ومن قوله فى ذلك : « خذوا ما أظهرنا بقوة ، وأعرضوا عن الإثم لعلكم ترحمون ، إن الذين يتخذون العجل من بعد نور الله أولئك هم المشركون » .

وكان نتن البهائية وبجونهم قد فاح خاصة إذا جاء شهر المحرم ذكرى احتفالهم بمولد الباب ، وهذا الشهر الذى يحلل الشيعة فيه مظاهر الحزن والأسى على ما أصاب الحسين فكان ذلك داعيا أن يطلب علماء العراق طرد البابيين من ديارهم ، فنفوا إلى الاستانة سنة ١٨٦٤ م .

وأعلن البهاء حينئذ أنه الموعود الذى بشر الباب بظهوره منتهزا فرصة اجتماع البابيين قبل تفرقهم .

وفى تركيا سلك البهاء كل سبيل للقضاء على أخيه وإزالته من طريقه ، وساعده على الوصول إلى أغراضه ما جبل عليه من دهاء ومكر ، ومن معرفة أكثر أساليب الباطنية ، واستطاع أن يوجد من البابيين حزبين متنازعين ، على رأس كل منهما أخ يكيد لأخيه ويصطنع الأساليب والوسائل المختلفة للفتك به والبطش بأتباعه حتى إن البهاء حاول قتل أخيه غيلة ، ولما رأت الحكومة التركية ذلك نفت يحيى إلى قبرص ، وظل بها حتى مات ، ونفت البهاء وأتباعه إلى عكا ، وجعلت على كل منهما رقباء من أتباع الآخر ، إلا أن تعطش البهاء إلى الدماء دعاه إلى أن يدبر مؤامرة فى عكا لأتباع أخيه أبادهم فيها على يد رجاله بالساطور والحراب فى وحشية سافرة لا تصدر إلا عن نفس امتلأت بالإثم وانطوت إلى أقبح معانى الغدر والخسة وأخذت البهائية بعد ذلك ترث البابية

فى كل شىء تبقى من تعاليم الباب ما تشاء وتلغى منها ما تريد وتضيف إليها ما تحب .

وكان البهاء قد أعلن أنه المظهر الأكمل الذى بشر به الباب والذى يتحقق على يديه بلوغ رسالته إلى درجة أعلى من الكمال .

فالباب كان ممهداً للبهاء ، وفى شخص بهاء الله عادت الروح الإلهية إلى الظهور لكى تحقق على وجه الكمال ما مهد له الباب فى دعوته ، وعلى هذا فبهاء الله أعظم من الباب ؛ لأن الباب هو القائم . والبهاء هو القيوم ، أى الذى يظل ويبقى ، وليس فى ذلك ما يدعو إلى الدهشة أو العجب ؛ لأن الباب نفسه تحدث عن خليفته فى المستقبل بقوله : « إن الذى يجب أن يظهر فى يوم من الايام لهو أعظم من ذلك الذى سبق ظهوره » وللبهاء كتاب هو الأقدس أفضل من البيان وما سبقه من الكتب . والبهاء لم يثبت فى دعواه على أمر واحد ، فبينما يزعم أولا أنه خليفة القائم إذا به يعود ، ويدعى أنه القائم نفسه ، ثم عاد فخلع على نفسه صفة النبوة ثم صفة الألوهية والربوبية زاعما أن الحقيقة الإلهية التى لم تنل كما لها الأعظم إلا بتجسدها فيه .

وقد رأى فيه مريدوه أنه كائن فوق البشر ، ووصفوه بكثير من الصفات الإلهية فى أناشيدهم الحماسية التى اتخذوها سبيلا لمديحه والثناء عليه .

ويبدو من سلوك البهاء وأخلاقه أنه كان رجلا بعيد الأطماع واسع الحيلة يتخذ من الوسائل والأسباب ما يصل به إلى هدفه وغاياته مستعينا بدهائه الخفى ومكره المحكم وقوة السيطرة على أتباعه .

ووجد البهاء فى الاستعمار والصهيونية قوة تعينه على الوصول إلى أهدافه ، ووجدا فيه أداة يوجهونها كيفما شاءت أطماع الاستعمار ، وحقد الصهيونية من إشاعة البلبلة والفرقة والتميع فى المجتمع الإسلامى ، وإغراقه فى الخلافات . وشغله بالمنازعات الداخلية ، فأمدوه بالمال ، وأضفوا عليه ظل حمايتهم وبسطوا له فى الأمل ، وكلما فتح ثغرة زادوه عوناً وتأييداً ، فاستغل كل منهم الآخر لتحقيق مآربه وأهدافه .

وأخذ المال ومظاهر التأييد والجاه تتوالى على البهاء من الاستعمار ورجاله حتى أصبح يحيا حياة مترفة ناعمة فى مدينة عكا التى اتخذها مقراً ومقاما ، وأخذ منها يوجه الرسائل ، والكتب إلى كثير من الملوك والحكام فى أوربا وغيرها يدعوهم فيها إلى اتباع دينه الجديد .

وكانت له تنبؤات مع بعضهم حققت الصدف بعضها فاتخذها أتباعه دليلا على صدق دعواه ، وأبرزها تنبؤه بهزيمة نابليون قبل وقوعها بأربع سنوات .

ولكن العقل المنطلق من قيود الأوهام يستطيع أن يدرك أن مثل هذا قد يقع إذا ما تهيأت أسبابه ، وليس من العسير على رجل عادى أن يدرك ذلك بالنسبة لما يلاحظه من تطورات وأسباب .

من تعاليم البهاء :

الصلاة :

وقد خالف البهاء الباب فيما أقام عليه من عبادات منها أنه جعل الصلاة تسع ركعات فى الصباح والزوال والبكور ، ومن كلامه فى ذلك فى الأقدس (قد كتب عليكم الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال وفى البكور والآصال ، وعفونا عن عدة أخرى أمراً فى كتاب الله يقصد الكتاب الأقدس - إنه لهو الآمر المختار) .

القبلة :

وجعل القبلة حيث يكون قصره فى عكا إليه يحجون ويتجهون فى صلاتهم ما دام حياً وفى مماته اتخذ البهائيون قبره قبلة لهم ، ومن قوله فى كتابه الأقدس فى تحديد القبلة . . (إذا أردتم الصلاة ولوا وجوهكم شطرى الأقدس المقام المقدس الذى جعله الله مطاف الملأ الأعلى) .

الربا :

وقد سأل أحد اليهود البهاء عن حكم الربا فأجاب : وأما ما سألت عن أرباح منافع الذهب والفضة فقد صدر البيان الآتى من ملكوت الرحمن منذ عدة سنين خاصا لاسم الله زين المقربين عليه بهاء الله الأبهى - قوله تعالى - يقصد قوله هو . فضلا على العباد قررنا الربا كسائر المعاملات المتداولة بين الناس - أى ربح النقود - صار ربح النقود حلالا طيبا طاهرا ، وقد توقف القلم الأعلى - يعنى قلمه هو - فى تحديده حكمة من عنده وسعة لعباده .

الجهاد :

ثم حرم الجهاد ودعا إلى هذا فى أكثر من موضع ومن قوله فى ذلك : (البشارة الأولى التى منحت من أم الكتاب فى هذا الظهور الأعظم لجميع أهل العالم محو حكم الجهاد من الكتاب ، وقد نزل هذا الأمر المبرم من أفق إرادة مالك القدم) ، وقد وجد الاستعمار فى هذه الدعوة فرصة سانحة لتحقيق أغراضه فى ابتلاع العالم الإسلامى ، وتربيتهم على الذلة والاستكانة لينفرد بمغانم بلادهم ويستأثر بخيراتها ، فرحب بهذه وساندها بكل قواه ، وأخذ يصطنع من أساليب التأييد كل ما يستطيع حتى يرضى نزعة الشهرة فى صنيعته الظامئ إلى الشهرة ، وكان الاستعمار يحشد له عدداً ضخما من أصحاب الصحف ومراسليها ومندوبى وسائل الإعلان المختلفة ليتلقوا عنه ما يهذى به من هراء وينقلوه إلى أرجاء العالم المختلفة لأن فى هذا تحقيقاً لمآربهم التى يرمون إليها من

استغلال العالم الإسلامي والانفراد بخيراته ، وقد سلك الاستعمار الغربي هذا المسلك مع كل خارج على مبادئ الإسلام داع إلى النيل من جلالها وتفكيك وحدتها في أي مكان نشأ ، وقد وقف الاستعمار هذا الموقف من القادياني الذي ادعى النبوة في الهند ، ووضع تحت يديه من ألوان التأييد وأضفى عليه من سبل الحماية ما يمكنه من نفث سمومه وبلبلة أفكار المسلمين وتمزيق وحدته ، ولا شك أنه وجد في البهاء سلاحا خطيرا فاستغله وبذل له المال جما كثيرا ومن المصادفات التي تستدعي انتباه الباحث وتستوقف نظره في دعوة كل من هذين الكذابين البهاء ، والقادياني أن كلا منهما دعا إلى تحريم الجهاد ، ولاقى من تأييد الاستعمار وحمايته النصيب الأوفى .

وكما مضى البهاء إلى نهاية الشوط في خدمة الاستعمار وتحقيق مآربه نظير ما يضفيه عليه من حماية وما يبذل له من أموال ، اتجه إلى ممالأة الصهيونية والسير في ركابها لتحقيق أغراضها . وأراد بهذا النفاق أن يضمن تأييد اليهود وعونهم فأخذ يدافع عن حقوقهم في الأرض المقدسة ، ويفترى الوحي المنزل عليه في إثبات حقهم . بل مضى خطوة أبعد بأن أعلن أنه يدعو إلى توحيد الأديان كلها على أساس أقدم الكتب المنزلة وهو التوراة . وأخذ أتباعه يفتشون في ثنايا الكتاب المقدس عن كلمات يوهم ظاهرها تأييد دعوته والتبشير بمقدمه واصطنع أصحابه لغة الإجلال للكتب المقدسة والأنبياء السابقين ليضمنوا استماع أتباعهم إليهم حتى يصبوا في آذانهم ما يريدون من إفك وضلال ، وقد اندفع بعض اليهود في استخراج آيات من التوراة تضفى على دعوة البهاء صنعة الوحي المنزل والإشارة إليها في الكتب السابقة .

وهذا أبو الفضل الجرفادقاني أحد الدعاة البهائيين يقول في محاولة يبغي من ورائها أن يجد أصلا في الكتب السماوية لمجيء البهاء فيقول : (البشارات الواردة في مجيء يوم الله ونزول روح القدس وقيام مظهر أمر الله ، وهذا اليوم هو اليوم العظيم الرهيب المهيب الذي عبر عنه في الكتب السماوية بتعبيرات شتى ، وسمى بأسماء عليا من قبيل يوم الرب ويوم الملكوت ، ويوم الحسرة ويوم التلاق ويوم القيامة والساعة وأمثالها ، وقد ذكر الأنبياء عليهم السلام لمجيء هذا اليوم أشراطا وعلامات وشواهد وأمارات ودلائل ومقدمات مما هو مذكور ومدون في كتب الأولين ومنصوص ومصرح به في كلمات الأقدمين ، ثم ينتهي إلى أن التوراة هي أقدم كتاب سماوي موجود ، ويستشهد منها بالآية الثانية

من الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية من أسفار التوراة التى تقول : « جاء الرب من سينا ، وأشرف من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه قبس الشريعة ، ثم يعلق عليها فيقول : فهذه الآية المباركة تدل دلالة واضحة أن بين يدى الساعة وقدام مجىء القيامة لابد من أن يتجلى الله على الخلق أربع مرات يظهر أربع ظهورات حتى يكمل بنى إسرائيل وينتهى أمرهم إلى الرب الجليل . فيجمع شقيتهم من أقصى البلاد ويدفع عنهم أذى كل العباد ويسكنهم فى الأراضى المقدسة ويرجع إليهم موازينهم القديمة إلى أن يقول : فظهر أولا بمقتضى هذه الآية الكريمة سيدنا موسى عليه السلام فتجلى عليهم بظهوره من جبل سيناء ، ثم ظهر ثانيا سيدنا عيسى عليه السلام فتجلى عليهم من جبل سعير ، ثم ظهر ثالثا سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم فتجلى بظهوره من جبل فاران ، فدارت الأدوار وتتابع الليل والنهار حتى ظهر الرب المختار وتم الظهور الرابع بأمر الملك الجبار . ويقصد بذلك . . ظهور البهاء ، بل لم يكتف البهائيون بذلك بل زعموا أيضا أن الميرزا عباس عبد البهاء بشرت به الكتب أيضا وهو ما أشارت إليه آية التوراة السابقة بقولها : وعن يمينه قبس الشريعة » . وجد اليهود المتحمسون للبهائية فى إخراج ما يحتمل أن يشير إلى ذلك وتأويله سواء فى التوراة والإنجيل وزعموا أن ما جاء فى سفر أشعياء من الإصحاح التاسع عدد ٦ إنما يقصد به عبد البهاء وهو : يولد لنا ولد ونعطى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويدعى اسمه عجيبا مشيراً إلها قديراً أبا أبديا رئيس السلام ، من أجل ذلك اندفعت الصهيونية فى تأييد البهائية بكل ما أوتيت من قوة ، واندفع البهاء وابنه وأتباعهما فى خدمة الصهيونية جهد طاقتهم متسترين بمظهر العالمية فى الدعوة والإنسانية فى النظرة .

وظل البهاء سادراً فى غيه عاملا على نشر كفره وباطله حتى استراحت من شروره الحياة سنة ١٨٩٢ فخلفه ابنه عباس عبد البهاء وأخذ يعمل على سنة أبيه فى ممالأة الاستعمار والتزلف إلى الصهيونية والكيد للإسلام والتمادى فى الكفر والتمويه على الناس محاولا ربط تعاليم البهائية بأفكار الحضارة الغربية مدخلا عليها من التعديلات ما يحاول به أن يلائم طبيعة الغربيين فى تفكيرهم ، وقد انتقلت البهائية من المجال الإسلامى إلى المجال الأوربى والأمريكى وأخذوا ينشئون لهم مراكز فى أوربا وأمريكا وبنوا لهم داراً فى - الولايات المتحدة - تسمى مشرق الأذكار ، وأصبحت لهم مجلة تصدر فى أمريكا

منذ سنة ١٩١٠ تسمى نجم الغرب ويصدر منها فى العام تسعة عشر عدداً لأن العدد ١٩ مقدس لدى البهائيين ثم تولى أمر البهائيين بعد هلاك عبد البهاء ابن اخته شوق ربانى وتلفعت البهائية فى كثير من الأحيان بالتقية واصطنعت النفاق حتى تصل إلى أهدافها فإن وجدت فرصة انتهزتها وإن رأت الأنوار سلطت عليها قبعت فى جحورها وادعت الإسلام شأنها شأن كل مدع جبان .

والبهائية خارجة على الإسلام كافرة به منكرة لتعاليمه،ولهم تأويلات باطلةوانحرافات ضالة فى تفسير ما جاء فى القرآن الكريم ليتفق مع نزعاتهم المنحرفة وضلالهم الآثم وحسب القارئ أن نضع بين يديه طائفة من هذه التأويلات ليدرك مدى ما يرتعون فيه من ضلال وخاصة فى أمور الآخرة فهم يفسرون النفخ فى الصور بأنه خطب قرة العين ، ثم نداء الميرزا بأنه رب القيامة وإفاضة الوجود الإلهى على كل الممكنات ، ويفسرون انفطار السماء بأنه نسخ الأديان السابقة وبطلانها ولا سيما الإسلام والقرآن ويفسرون تبديل الأرض بأنه تبديل القلوب بما أنزل عليها من أسطار الملكوت وانكدار النجوم وتكوير الشمس بضلال العلماء واحتجاب التعاليم الدينية بالأوهام ونسخ الأحكام فى الشريعة السابقة .

ويفسرون الأرض التى يقبضها الله بالعلم والمعرفة ، والسماوات التى تطوى بيمينه سبحانه بالأديان المنسوخة .

وللقيامة فى أوهام البهائية تفسير عجيب ، فهى عندهم نوعان : صغرى وكبرى أما الصغرى فحلول روح الله فى جسد بشرى ، ويرون أن العالم قد شهد عدة قيامات ، لأن الحقيقة الإلهية عندهم لا تغيب عن الهياكل البشرية وهم تبعا لهذا يرون أن نفس الله قامت بكل واحد من الأنبياء السابقين أما القيامة الكبرى فهى قيام الروح الإلهية فى جسد البهاء ، وواضح من هذا التفسير أنهم ينكرون القيامة بمعنى اليوم الآخر الذى يحشر فيه الناس لرب العالمين وينكرون ما يتبعه من بعث وحساب ورؤية فالبعث هو اليقظة الروحية ، والحساب هو الفصل بين المؤمنين بتجسد الله فى البهاء وبين الكافرين بالتجسد أيضا ، ورؤية الله هى رؤية الجسد البشرى الذى حلت فيه روح الله ، ولقاء الله فى جلاله الأعظم هو لقاء البهاء .

والجنة هى رياض المعرفة التى فتحت أبوابها فى عهد البهاء ، ومعرفة الكتب الإلهية بواسطة البهاء ، وهى الإيمان بأن البهاء هو رب السموات والأرض إلى آخر هذا الطوفان من الهراء والعبث والضلال الذى لا يأوى إلا فى عقول خربة ، ونفوس مظلمة ، وقلوب

أعماها الهوى وأضلتها الشهوة وإليك النص الذى كتبه البهاء يحدد فيه معنى هذه الأشياء قال : « هل القيامة قامت ؟ بل القيوم - يريد نفسه - بملكوت الآيات » وهل ترى الناس صرعى ؟ بلى ، وربى الأعلى الأبهى ، قال : أين الجنة والنار ؟ قل : الأولى لقائى ، والأخرى نفسك أيها المشرك ... إلخ

ومن الجلى أن البهائية فى هذا يتابعون أسلافهم من الملاحدة والباطنية وذوى العقائد الضالة ويوهمون الناس أنهم جاءوا بشىء جديد وما هم إلا نقلة كفر وضلال ودعاة هدم وتخريب وطلاب مطامع ومغانم وأدوات تسخر نفسها لهدم الإسلام والنيل من صفاء جوهره ، وتلقى بنفسها فى أحضان الاستعمار والصهيونية وتدلف إلى أغراضها فى أسلوب حقير جبان ، قد باعت نفسها للشيطان، والإسلام منها براء وحاشا لساحته النقية أن يلوثها هذا الدنس أو ينال من رفعته هذا الهراء ، وواجب المسلمين أن يتنبهوا لهؤلاء الأدعياء ويقفوا لهم بالمرصاد حتى ينقذوا العالم من شرهم ، ويجنبوا المجتمع الإسلامى وباءهم المقيت .

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ؟

محمد إبراهيم الجيوشى

خطئان مطبعيان

فى افتتاحية العـــدد

جاء فى صفحة ٣ فى السطر العشرين من العمود الثانى :

(بأقطارها الثانية عشر) والصواب : بأقطارها الاثنى عشر .

وجاء فى صفحة ٤ فى السطر الخامس من العمود الأول :

(وأن النجوم الاثنا عشر) والصواب : الاثنى عشر .

وحدة الهدف أولاً :

مبدأ من مبادئ الإسلام الخالدة

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

١ - لا يزال كثير من المسلمين المعاصرين يفهمون الإسلام بالتقليد، ويؤمنون بأصوله وأركانه بالوراثة، ويأخذون أحكامه وآدابه بالتناقل ... دون أن يرجعوا إلى العقل وأحداث الزمن الحاضرة في فهمه، وتدبر غاياته وأهدافه. وكثيراً ما يثرثرون بما لا يفهمون، ويهرفون بما لا يعرفون، ويقولون ما لا يتدبرون. والعجب العاجب أن تسمع من بعضهم أن الاجتماع على الفضائل الإنسانية، والمثل والقيم النبيلة، يكفي في الإسلام وفي كل دين، دون دخول في الإسلام، وإيمان بالدين. وتصديق برسالة محمد صلوات الله عليه.

وليس أغرب من هذا الفهم في عرف العقل، ولا في رأى الدين نفسه ؛ وكأني بهؤلاء يقولون إن : « وحدة الصف » هي الغاية وعليها المعول وفيها الكفاية. وحسبهم أن يجتمع الناس على الخير، ويؤمنوا بالفضيلة، ويصدقوا بوجود الله ؛ ففي ذلك كل الغنى، وفيه الفوز برضاء الله ونعيمه الأبدى ..

ولقد اجتمع كثير من الدعاة المضللين على الدعاية لفكرة توحيد الأديان، لغرض في نفوسهم، ومرض في قلوبهم، فهذا التوحيد لن تؤمن به اليهودية ولا المسيحية، ولا يؤمن به الإسلام نفسه ما دام أساسه أخذ بعض الدين وترك بعضه، وما أصدق ما يقول الله عز وجل في كتابه الحكيم : « إن الذين يكفرون بالله ورسله، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » (١)

إن ذلك كله خطأ ما بعده خطأ في حكم العقل وحكم الدين أيضا، فالإسلام لا يدعو إلى وحدة الصف وإنما يدعو إلى وحدة الهدف فليكن الإنسان مؤمناً أولا بالدين، فهذا الإيمان أساسي وضروري لتحقيق وجود الإنسان الروحي والفكري والأدبي أولا، ثم بعد ذلك عليه أن يلتزم آداب الدين وأركانه وشعائره، ويعمل بها ليحقق الغاية من الإيمان ومن الدين ؛ وفي ذلك يقول الله عز وجل : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (٢) . ويقول وما أصدق ما يقول : « يا أيها الذين آمنوا، آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله، والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

---

(١) النساء : ١٥٠، ١٥١ (٢) النساء : ١٢٤ .

فقد ضل ضلالا بعيداً » [١]

إن التوحيد فى الأديان أو بينها هو ما نص عليه القرآن الكريم فى قوله عز وجل : « قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » [٢] .

وبهذا تتحقق وحدة الهدف بين أتباع الدين، أما أن يجتمع الناس كافة على بعض أصول الدين دون بعض ، تحقيقا لفكرة وحدة الصف ؛ فهذا خطأ فى التفكير والفهم ؛ وقد كان لنا من عبر الحاضر ما يذكرنا بحقائق الدين وحكمة تشريعاته وأصوله ، فقد كنا ندعو إلى وحدة الصف ، ثم عدنا ندعو إلى وحدة الهدف أولا بعد أن تبين لنا أن وحدة الصف لا تكسبنا ولا تكسب دعوة العروبة والقومية والوحدة خيرا . . . فهل يلام الإسلام إذا مادعا أولا إلى وحدة الهدف ، فطالب الناس بالدخول فى الإسلام أولا ، ثم طالبهم بعد ذلك بأعمال الإسلام وتشريعاته وآدابه وأحكامه ؟ .

٢ - إن الدين والإيمان بالله أولا هو الحد الفاصل بين روح الإنسان وبين غرائز الحيوان : بين المدنية والوحشية ، بين العقل والجهل ، بين النور والظلام .

والإيمان بالوحى والرسالات السماوية أمر حتمى ؛ لأنها خيوط الفجر فى ظلمات الحياة، ومبادئ الحق والخير والعدل والحرية فى ضلالات الباطل والشر والظلم والطغيان ، ولأن الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالاته هم دعاة المثل والقيم الإنسانية الرفيعة وحاملو لواء المدنية والحضارة والهداية فى الأرض .

والإيمان برسالة الإسلام إيمان بالتطور والتجديد وبالكمال الروحى والنفسى وبالفضائل والمبادئ الشريفة ، وبالحياة نفسها ومثالياتها العالية . . . وما محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أعظم الدعاة إلى أعظم المبادئ وأكرمها وأشرفها عند الله والناس ، وهو الذى قاد الحياة إلى عصر جديد، وشرع لها من المبادئ والأصول ما أعزها وسما بها إلى غايات رفيعة من السلام والخير والهدى والإيثار والمحبة ومرضاة الله والناس ، ونقلها إلى حياة النور والمدنية والعدالة والإخاء والمساواة ، وعلمها أن الدين هو الحياة الشريفة ، وهو موجه الحياة إلى أشرف المبادئ والأهداف ، وقائدها إلى أسمى الغايات وأنبل الاتجاهات والمساعى .

والعمل الصالح ، والتزام الفضائل ، وإيثار العدل ، وحب الحرية ، والإيمان بالمساواة والإخاء ، وبالإيثار ، والعمل لخير المجتمع ؛ هو تحقيق لمدلول الدين نفسه وعمل بمبادئه ، وتطبيق لأحكامه ...

وذلك كله تحقيق لوحدة الهدف قبل كل

(١) النساء ١٣٦ . (٢) آل عمران ٨٤

شيء ؛ دون نظر إلى وحدة الصف ، التي تعني جمع الأنصار والأتباع ، دون أن يشملهم جميعا السلام الروحي ، ودون أن يجتمعوا كلهم على هدف واحد وغاية واحدة وسبيل واحد .

٣ — وحـــدة الهدف أولا مبدأ من مبادئ الإسلام الأولى ، عناه الدين وألزم به أتباعه ، وطبقه في كل أموره ودعوته .

ولست مع من يرى أن بعض الأعمال يمكن أن تقدم على الإيمان بالدين نفسه ، كائنة ما كانت هذه الأعمال ، وبالغة ما بلغت من السمو والرفعة والشرف ..

وفي « التفسير البياني » للدكتورة الكبيرة بنت الشاطئ ـ وهو تفسير جديد قيم يسير على مناهج علمية ثابتة ـ عند تفسير قوله تعالى من سورة البلد : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . ترى الدكتورة الأخذ بصريح الترتيب في الآيات ، وتقول ما نصه : (يبين القرآن مراحل اقتحام العقبة ، فيضع كرامة الإنسان بالعتق ، والعدالة الاجتماعية بإطعام فقير أو مسكين ، خطوتين سابقتين على الإيمان ، مقرراً ألا سبيل إلى رجاء الإيمان فيمن غره جاهه فاسترق مخلوقا مثله ، وتحجر قلبه فلم يطعم في المجاعة يتيما أو مسكينا ؛ معلنا ألا مكان لإيمان صادق مخلص في مجتمع يبيح إهدار البشرية ، ويطيق أن يمسك الطعام في يوم مجاعة عن يتيم ذي قربى أو مسكين معدم ، لا يجد إلا التراب [1]) .

ومعنى ذلك أن الإيمان في المرتبة الثانية لا الأولى ؛ ودائما نقول : إنه لا يستطيع المحافظة على حقوقه إلا مؤمن بها ، وأن الإيمان أولا ، وكل شيء يجيء في المرتبة التالية له ، فوحدة الهدف أولا . . والإيمان في يد الرقيق وثيقة الحرية ، وفي يد الفقير والمسكين وثيقة العدالة الاجتماعية ، وما جدوى تحرير الرقيق إذا لم يكن يملك الإيمان به ، ولا يملك الوثيقة التي أعلنت تحريره وما جدوى عدالة اجتماعية ، إذا لم تكن هذه العدالة جزءا من الدين والإيمان ، وشعيرة من شعائرهما ، وحقا واجبا للفقير أو المسكين واليتيم الإيمان أولا ؛ لأن الإيمان هو الحرية والوسيلة إلى الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية . فالقرآن الكريم جعل كل هذا من اقتحام العقبة وتحمل المسئولية ، والإنسان مطالب بها جميعا ، وقدم القرآن فك الرقبة والإطعام للاهتمام بهما في مجتمع جاهلي خوطب بالقرآن ثم رفع من منزلة الإيمان بالتعبير بثم ؛ لأن الإيمان إذا وجد وجد كل عمل صالح وخلق كريم .

والأمر كله أن القرآن والإسلام يعتبران وحدة الهدف أولا : فكل الطاعات والأعمال

(١) ص ١٧٠ التفسير البياني .

الصالحات لا تجيء عبادة مقصودة يتقرب بها إلى الله إلا بعد وجود الأساس الذى تبنى عليه هذه الطاعات، وهو الإيمان، وبدونه تكون هذه الأعمال أعمالا إنسانية نبيلة ليس المقصود بها طاعة الله بل إرضاء نزعات أخرى، وهى لا ترفع مسئولية الإنسان عن وجوب الإيمان بالله ورسالته ولا تبعد عنه عذابه وغضبه فى اليوم الآخر وليست مرضاة الله فى الآخرة إلا عن المؤمنين المصدقين ثم الطائعين.. وفى هذا يقول الله عز وجل: «قد أفلح المؤمنون. الذين هم فى صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون»... إلى أن قال عز وجل: «أولئك هم الوارثون. الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون».

إن وحدة الهدف مبدأ ظاهر واضح فى تعاليم الإسلام وشعائره وأصوله.. فهى تلى فى المنزلة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبخاتم الرسل وبرسالته الكريمة الخالدة.

٤ — ووفق ناموس التدرج والارتقاء لا بد أن تأوى الإنسانية إلى هذه الشريعة السمحة الكريمة، ولا بد أن ترد إلى أصولها العامة، ومبادئها الشريفة، التى وسعت الناس جميعا والتى ساوت بينهم فى الحقوق والواجبات وأعلنت مبادئ الحرية والإخاء بين البشر كافة، وشرعت شرائع الشورى والديمقراطية والعدالة والحق، والتكافل الاجتماعى، وجعلت الناس إخوة، ونادت بوحدة إسلامية تسع المسلمين جميعا، وهى التى تنادى بها اليوم فى وحدة عربية، فهى وحدة عربية إسلامية مصغرة، كما نادت بوحدة إنسانية عامة، يشترك المسلمون وأتباع الديانات السماوية الأخرى فيها فى المحافظة على السلام وعلى القيم الإنسانية، وعلى بناء الحضارة، وعلى أصول المدنية والمسئولية الأدبية بين العبد وربه. فالوحدة الأولى هى وحدة فى الهدف، وهى مقدمة على كل شىء والوحدة الثانية هى وحدة فى الصف، وهى لا تقوم إلا إذا وجدت الأولى، وهى ضرورية للتوازن العالمى ولسيادة السلام فى الأرض، ولتبادل التجارة والمنافع بين البشر جميعا.

يقول الاستاذ الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من محاضرة له فى قاعة الإمام محمد عبده [1] ما نصه: «إذا كان المسلمون قد انحدروا من أجناس وأنساب شتى، وجاءوا إلى الإسلام من ثقافات وحضارات شتى، ولهم لغات ولهجات متباينة فإنه لحق كذلك أن الإسلام قد جمع بينهم، والإسلام عقيدة وشريعة، مبادئ ومثل وطريق للسلوك فى الحياة، للسلوك فى شتى أنواعه ومظاهره، ففرس لذلك بين الأمم والشعوب التى اعتنقته عادات وتقاليد متشابهة

(١) راجع مجلة الأزهر عدد رجب ١٣٨٢ هـ ص ٥٩٣ وما بعدها «الإسلام والعالم».

فى الحياة ، وحدبها بين اتجاهات المسلمين فى تصرفاتهم وطرائق سلوكهم فى الحياة ، ولم يوحد الإسلام بين المسلمين فى كلمة التوحيد فحسب ، بل وحد بينهم كذلك فى قواعد السلوك ، وفى أساليب السلوك فى الحياة ، فأصبحت عاداتهم متقاربة متشابهة ، فالوحدة بين المسلمين وحدة حقيقية ؛ لأنها وحدة فى الإيمان ، وحدة فى المثل وفى الأهداف ، وحدة فى الشعور ، ووحدة فى السلوك والأخلاق ، وفى التقاليد والعادات » .

• — إن الإسلام يقف اليوم فى مركز الثقل فى العالم ، يحفظ للإنسانية روحها ، ويجدد للحضارة بناءها ، ويبنى للحياة قيمها ومثلها ، تفر من أمامه نزعات الإلحاد والمادية وتحاول أن تطغى عليه نزعات الفساد والتحلل فلا تلبث أن تجد العود الصلب ، والحق الثابت ، والقوة الفتية ، والشباب المتجدد ، والمثاليات الإنسانية الكريمة ، فتخشع وتطأطئ الرأس صاغرة ذليلة .

الإسلام هو الحياة المتوثبة ، والشعائر الكريمة الحية المتجددة ، هو كل قوة وكل خير وكل عدل ورحمة فى الأرض : « إنه لا عيب فيه ، ولا ينقصه شىء من مقومات الحضارة ، بل هو الموجد لأعلى أنواع الحضارات ؛ فإذا كانت هناك عيوب ، وإذا كان هناك تخلف ، فهو نتيجة لتفكيرنا ، ولعملنا نحن المسلمين ، وليس نتيجة للإسلام » (١) .

ولا يعنى ذلك أن ندخل فى الإسلام تقاليد المسلمين المتأخرة ، وجمودهم الذى صاروا إليه ، ولا أن نحاسبه على أعمالنا نحن ، وعلى ركوع البعض منا أمام القوة والجبروت والسلطان ؛ بل إن الإسلام هو التحرر والانطلاق والحق والإنصاف ، وهو السمو النفسى والروحى فى كل نواحيه ، وهو كل دعوة كريمة فى الحياة

وليت شعرى متى يفهم المسلمون رسالتهم فى الحياة حق فهمها ؟ ومتى يؤمنون بالإيثار لا الأثرة ، وبالحق لا بالباطل ، وبالعدل لا بالجور ، وبكل قيم الحياة ومثالياتها الرفيعة ؟

اللهم إنك ربى ، وأنت القادر على تغيير الطباع ، وتصحيح الأوضاع ، وعلى أن يعود مسلمو اليوم كما كانوا بالأمس ، مثلا رفيعة ، وأمثلة حية لمبادئ الإسلام وآدابه وأصوله .

اللهم أنت الذى أنزلت رسالتك ، وأنت الذى وعدت بحفظها فى الأرض لتبقى فيها ما بقيت الحياة ، تبعث الإيمان والخير والفداء والتضحية والبطولة والشجاعة والنبل والشمم والخير بين الناس . فاكتب الدين وأهله العزة والسيادة والمنعة والقوة والظفر ، حتى تبقى الراية مرفوعة ، واللواء خفاقا ، والعلم مرفرفا ؛ يجتمع عليه الناس كلما فرقتهم الحياة ، وأغرتهم الدنيا ، ووسوست إليهم المادية ودعاتها المبطلون ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

(١) المرجع السابق نفسه .

طبيعة الشعر العربي

للدكتور عبد الله الطيب

— ٣ —

قرضهم الشعر :

على هذا الذى قدمناه أن يكون قد أوقع فى نفسك أيها القارىء الكريم شيئاً مما نراه ، من أن القافية والوزن معاً هما مفتاح القصيدة بما يشيعان فى موسيقاها من وحدة وارتباط .

وإذ هما كذلك فإنهما وثيقا الصلة بالمعانى التى تدور فى قلب الشاعر وتنبعث من أعماق تجربته إلى محض البيان ولقد تذكر أنا فردنا فى كتابنا المرشد الأول بحثاً مستفيضاً عن طبائع الأوزان طوالها وقصارها وما يرتبط بهن من ألوان المعانى . فالذى زعمناه هناك نريد أن نجعله ههنا أساساً لزعم آخر قد كنا ألمعنا لك بطرف منه ، وهو أن اتحاد القافية مع الوزن يحصر دائرة المعانى التى يهم بها الشاعر فى نطاق أقل حيز من نطاق الوزن المجرد قبل أن تصحبه القافية . ثم ضروب التنويع الموسيقى من زحاف إلى سكنات وحركات وهلم جراً ، يزدن فى هذا الحصر حتى لا تبقى أمام الشاعر إلا وثبة البيان التى تحيل مدلول موسيقا الوزن والقافية والزحاف والحركات والسكنات والاختلاسات ، كل ذلك إلى تعبير ناطق .

وأقول وثبة البيان ، لأن الوزن والقافية وما يتبعهن كل ذلك فى الإمكان تصوره مجرداً غير مصحوب بتجربة الشاعر . ولنا أن نزعم أن محض القدرة على تصنيع الإيقاع كفيل بأن يجيء هيكلا ، ذا وزن وقافية وأصناف من الزخارف النغمية ولكن هذا الهيكل يكون بارداً خالياً من الروح هامداً حتى تصحبه وثبة البيان المنبعثة من حاق التجربة والرغبة فى التعبير عنها . ووثبة البيان هذه هى ما كان يسميه القدماء (نفس الشاعر) يعنون به الروح الذى ينتظم رنة نظمه من المطلع ويربط بين سائر أجزاء كلامه ويشيع فيها وحدة عميقة ذات جرس مبين ووحى نافذ.

وإذا بلغنا هذا المبلغ فإنا نجسر فنقول إن القصيدة العربية شكل وهيكل ذو وحدة تامة مصدرها إطار موسيقى السمع ونفس حار ينبعث منه هذا الإطار الموسيقى حتى يكون مفتاح التعبير له ، ووسيلة تأتيه إلى البيان .

ذلك بأن الشاعر العربى يقبل على القول إقبالا مباشرا ولا يتكلف التماس الوسائط، وأعنى بهذا أنه يروم إيصال تجربته إلى السامع فيها مشاركة تامة، وحتى يصير كأنه هو نفسه قد اجتاز بمراحلها وأحس نشواتها وحرقاتها وهذا المرام من الشاعر العربى يضطره إلى الصراحـــة وإلى أن يكافح نفس سامعه كفاحا حتى يتصل بها اتصالا لا تشوبه شائبة من حجاب .

وإذا الصراحـــة طريق عسر ، فإن الشاعر العربى قد طلب لها التذليل بإيرادها فى إطار من الوزن والقوافى والزخرفة النغمية نوع من مادة الموسيقى والغناء . ذلك بأن الموسيقى والغناء مما يحركان النفوس ويسموان بها — يسموان بنفس الشاعر حتى يملك الشجاعة التى يقوى بها على الصراحة وعلى مكافحة نفوس السامعين، ويسموان بالسامعين حتى يتجردوا من حجب الذاتيـة إلى لقاء الشاعر فى تجاربه .

والشاعر يرزم فى أعماق فؤاده بالموسيقى والنغم والحركات والسكنات قبل أن تسمح نفسه إلى طريقة من الوزن والتقفية وهذا الإرزام يكون أول مراحل التعبير وأول مراحل الرتبة البيانية ومن طريقه ينتقل الشاعر من أرض الحجاب الذى يكون بينه وبين السامع المنتظر، إلى سموات من الإسفار، وتصحبه فى انتقاله هـذا نشوة نفسية تزداد عنفا كلما قارب البيان والإفصاح — هذه النشوة النفسية إنما هى ضرب من الجذب الروحى الذى يعترى الكهان والعـــرافين وأمثالهم من أهل الوجـــدان والتطلع إلى الملأ الأعلى .

والشاعر قد تعتريه هزة الجذب الروحى والنشوة الشعرية قبـل أن تتفتح نفسه إلى موضوع بعينه . وقد تعتريه بعد أن يصدم نفسه حادث ما أو موضوع ما . فإذا اعترته قبل أن يكون قد استثاره موضوع يعرف أمره ، فإن حالته النفسية تكون فى ظلام من الانقباض أشبه شىء باليأس الخانق على أنه وهو فى هـذه الحال ، يدرك أنها إرهاص بالتعبير الذى لابد أنه تاليها ثم ينكشف عنه الظلام إما رويدا رويدا إلى نور الإفصاح وإما بفجاءة بعـد عسر طويل . والغالب عليه فى هـذه الحالة أن يتخبط فى التماس سبل البيان آخذا آنا بهـذا الوزن وتلك القافية ، وآنا بهذاك الوزن وهاتيك القافية، وربما نظم قصيدة كاملة ثم وجـدها لا تحمل كبير معنى من نفسه فاطرحها ولايزال فى نحو من هذا العناء حتى يفرج عنه .

والحق أن الشاعر فى هذه الحالة إنما يكون قد ألمت به دوافع تجارب من الماضى طال اختباؤها حتى إذا حان أوان بروزها

اجتذبته بعنفها فلم يجد بدا من الانقباض والضجر حتى يستذكرها إلى أن تشرق عليه واضحة جهيرة . هذا وإذا اعترت الشاعر حالة الجذب بعد حادث بعينه ، أو موضوع بعينه فالغالب أن يكون اعتراؤها إياه يسير المس أول الأمر ، ضعيف الإلمام ، وربما وجد نفسه ينطق برنة الوزن والقافية ، أو ببيت كامل أو عدة أبيات

وقل أن يستوفى التجربة حقها فإذا أعرض بعد ما تأتى له أولا فإنه لابد أن تعاوده دوافع هذه التجربة ولو بعد أمد طويل وتصنع به نحواً مما قدمنا نعته من قبل وإن لم يعرض ، وأقبل على إيفاء التجربة حقها من التعبير ، فإنه لابد أن تلم به حالة الضجر والقلق والظلام بعد انقطاع أوائل الأبيات أو أوائل التعبير عنه ، ولا تزال هذه الحال تشتد به وهو يلتمس السبل إلى البيان حتى يجد مسالكه إليه . ومن هنا تتشابه حالة الجذب فى مظهريها - أى حين تعرو وبلا سابق حادث وحين تعرو بأثر صدمة حادث بعينه أو موضوع . وعندى أن منشأ هذا التشابه من أن الشاعر فى كلتا الحالتين يروم استخراج خبىء تجارب الماضى التى توحى إليه بالبيان . ولعل صدمة الحادث المعين أو الموضوع المعين إن هى إلا مجرد سبب مباشر لإثارة التجارب المودعات . وكثير من حالات الجذب تقع فى طرائق وسط بين مجرد الانبعاث من دون سابق حادث أو مجرد الاستجابة إلى صدمة حادث أو موضوع ، من ذلك مثلا أن يتذكر الشاعر حادثا مضى ثم يعتريه انقباض ما إلى أن يقول فيه بيتاً أو بيتين . ثم يقطع به ، ثم يراجعه القول بعد ذلك .

هذا وإن من تجارب الشاعر ماينفدفع به إلى البيان اندفاعا ومنها مايستسر إلى حين . ومنها مايروم مخرجا وأكثرها يختمر ويتعتق ويمكث دهوراً ثم يحدث فى نفس الشاعر ما سبق لى نعته من انقباض وظلام ثم وضوح وانبلاج وإفصاح .

وهذا الوصف كله تقريبى لا أزعم أنه يصدق على أحوال الشعر جميعها وأرانى غير واجد بدأ من أن أستثنى ضروب القول المتعمد ، وهو الذى يصطلح له المعاصرون قولهم شعر المناسبات إذ الشاعر لا يصدر فيه عن دافع منبعث من الأعماق ، ولكنما يستجيب إلى دعوة من الخارج يسخر لها ملكته .

على أنه حين يجمع أطراف ملكته ويتخير مفتاح التعبير فى الوزن والقافية ، ويمد بنات فكره إلى شتى قطوف المعانى ، لا يخلو

فى كل ذلك من رجعة إلى ماضى تجاربه ، ومن وثبة إلى فتن من الخيال . وحينئذ يبطل عامل المناسبة ، ويتلاءب التعبير على طريقة مستقيمة من طرق البيان الأصيل . ومتى تأتى للشاعر ذلك أمكنه أن يصعد بالنفس الخطابى، وهو النفس الغالب على أصناف البيان المتعمد بمعرض المناسبات ، إلى طرق من الإفصاح الرحب المدى ، الذى ربما استثارهم بجموعة بأسرها . على أنه لابد من الاحتراس ههنا بأن النظام فى المناسبات مزلة أقدام . وربما وثق الشاعر بملكته ثقة أعمته عن حقائق عوامل الأصالة فى نفسه . فيكون الترنم بأنغام بما أوتيه من ملكة ودربة ، ويحكم نظاما من المعانى ، ثم لا يصاحب ذلك جميعه عنصر الجذب الروحى الذى لابد منه لحياة الإطار الموسيقى والعبارة البيانية .

وقد كان أحمد شوقى رحمه الله كثيراً ما يزل هذا الزلل ، وتشفع له مقدرته على النظم والتنغيم . ولقد سبق لى أن ضربت من ذلك فى المرشد أمثالا ، ولا أهاب ههنا أن أصف سائر مراثيه بأنها من شعر المناسبات وأنها خالية من الروح كل الخلو لا أكاد أستثنى من ذلك شيئا إلا بيته فى سعد رحمه الله :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها
وانثنى الشرق عليها فبكاها

والصناعة فى الشطر الأول لا تخفى إذ ضمنه قوله تعالى : « والشمس وضحاها » على أنها صناعة خفية التكلف ورنة النغم تشفع لها هذا ، ومما يقارب شعر المناسبات فى خطورة المرقى ، ومقاربة الزلل ، شعر المجاريات ، وأحسب أن المجاراة الجيدة لا يقدر عليها إلا ملهم موفق أو تجىء على محض الاتفاق والمصادفة .

ذلك بأن الوزن والقافية كما قدمنا لك هما مفتاح للتعبير . فالذى يجارى شاعراً آخر ، إما أن يكون قد اتفق له ذلك اتفاقا ، وإما أن يكون قد تعمده ، فمن أمثلة الأول كلمة أبى الطيب :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب

فهذه لا يغفل أن يكون هو قد تعمد بها مجاراة أبى تمام حيث قال :

السيف أصدق أنباء من الكتب

ومن أمثلة الثانى كلمة شوقى :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب

فإنه جارى كلمة أبى الطيب :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

ومحل النظر هو هذا الضرب الثانى ، لأن الشاعر الذى يوافق آخر قبله فى الوزن والقافية على سبيل الاتفاق والمصادفة ، إنما يشابهه فى أمر واحد فقط وهو أن كلامه فى جملته داخل فى حيز المعانى

العاطفية التي تشير إليها طبيعة الوزن والقافية كاستشعار البطولة مثلا - إذ غير خاف أن أبا الطيب أسبغ على خولة ألوانا من البطولة استشعر ذلك منها وحسبك شاهداً صريحا قوله :

فما تقلد بالياقوت مشبهها
وما تقلد بالهندية القضب

ولا تصح المجاراة المتعمدة من الضرب الثاني إلا إذا احتدم جانب العاطفة والروح وغلب على الشاعر غلبة جماته يتخذ من وزن الشاعر الآخر هو الذي يجاريه ومن قافيته نموذجا يحتذى ، ويجرى يرتاد فيه مسالك تجربته وانفعاله ومقاصد تعبيره ، ولا ريب أنه تصاحب هذا النوع من التعمد حالة من حالات الجذب شبيهة بما يعانيه الشاعر حين تظلم نفسه قبيل إشراق الشعر عليه ، وذلك أنه بالتماسه للنموذج يكون كالمتحسس في الظلمة ، فمتى وقع خاطره على كلمة شاعر بعينها نزلت عنده بمنزلة المفتاح لما يعتلج في نفسه ، ولا أكاد أمترى أن عبدة بن الطبيب قد لاقى عناء من هذا الضرب في قصيدته التي أولها :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول
أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

إذ قد نظر فيها إلى كلمة كعب بن زهير :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

ولعلنا لا نتباعد أن عددنا هـذه المجاراة أدخل في باب الاتفاق والمصادفة منه في باب التعمد البحت الكالح ، الذى استشهدنا له بكلمة شوقي في مجاراة المتنبي .

ذلك بأن المتعمد تعمدا بحتاً إنما يروم مجاراة الوزن والقافية بالاجتهاد وقوى الملكة ، ولا أشك أنه يرتكب الكلفة والصناعة بادىء أمره ، وربما عمد إلى ألوان من التدليس بما هو بضاعة الشعراء كالافتنان في التنغيم والمحسنات البلاغية واصطياد المعاني الشاردة ، كل ذلك يروم أن يضاهى به ما لا بد للشعر الصالح منه ، من حرارة النفس ، واندفاق الطبع .

وقدر للشاعر المجيد بعد هذا التكلف أن تنفتح بعض آفاق نفسه فيصدق في التعبير ، على أن هذا إن تأتى إنما يجىء كالفلتة وفي الأبيات القلائل وأكثر مجاريات المرحوم أحمد شوقي من هـذا الضرب ، كهذه البائية التي استشهدنا بمطلعها فإنها في جملتها ليست بشىء وكسينيته التي جارى بها البحترى وليته لم يفعل ؟ ومن أغرب ما قرأت من المجاريات كلمة الأديب الغزى أوردها صاحب الجريدة في اختياراته ، يجارى بها تائيـة أبي العلاء التي في سقط الزند :

هات الحديث عن الزوراء أو هيتا
وموقد النار لا يكرى بتكريتا

وهي كلمته :

أمط عن الدرر الزهر اليواقيتا
واجعل لحج تلاقينا مواقيتا

ولا أدري لماذا يطلب المواقيت إذا تيسر التلاقي ، ولكنه أتى من طلب المؤاخاه بين الحج والمواقيت فأفسد هذا المعنى كل الإفساد ، وخور الشطر الأول لا يخفى على القارئ :

فثغرك اللؤلؤ المبيض لا الحجر
المسود لا ثمه يطوى السباريتا

والثم يجحف بالملثوم كرته
حاشا ثناياك من وصم وحوشيتا

والمقابلة ههنا بين اللؤلؤ المبيض والحجر المسود اجتهاد مرهق . ولعمري لو شبه ثغرها بالحجر الأسود لكان أبلغ ، إذ يسبغ عليه قدامة ونورا ولكنه اندفع مع الطباق ورام المقابلة بذكره أن لا ثم الحجر الأسود يطوي السباريت ، وهذا كما لا يخفى معنى سرقه من أبي العلا المصري إذ هو كثير الدوران في لزومياته ، وما على من يريد لثما من ثغر محبوب أن يطوي إليه السباريت ؟ .

أمست سعاد بأرض لا يبلغها
إلا العتاق النجيات المراسيل

هذا ولقد جمع خيال الغزي رحمه الله ـ اللهم غفرانا ، بل إغرابه حتى أخذ ينعى على الحجر الأسود أن الشفاه أجحفت به وأثرت فيه وثغر المحبوب بزحمه يزداد حسنا على اللثم فهو ههنا يربي على الحجر الأسود ، فتأمل هذا العنت .

ولعمري أن قوله « اللثم يجحف بالملثوم كرته » آبدة من الأوابد لغريب عبارتها وخشونتها وما الكر واللثم ، ولا أحمد لفظة « الملثوم » ، كما لا أحمد لفظة « يجحف » وأما « حاشا » و « وحوشيتا » ، وما إليها فتذكرنا بأنه يجاري المصري ، وويل الكواد من مجاراة الغراب ، وإنما أراد إلى قول المعري : —

ذم الوليد ولم أذمم دياركم
فقال ما أنصفت بغداد حوشيتا

فإن لقيت وليدا والنوى قذف
يوم القيامة لم أعدمه تبكيتا

ثم قال الأديب الغزي : —

قابلت بالشنب الأجفان مبتسما
فبدا من ناظريك السحر منكوتا

فكان فوك اليد البيضاء جاء بها
موسى وجفناك هاروتا وماروتا

جمعت ضدين كان الجمع بينهما
لكل جمع من الألباب تشتيتا

جسما من الماء مشروبا بأعيننا
يضم قلبا من الأصلاد منحوتا

وإنما نظر في هذه الأبيات إلى قول أبي العلاء : —

يادرة الحذر فى لج السراب أرى
مقلداً بعقيق الدمع منكوتا

إلى آخر ما قاله . ولقد بالغ فى التكلف وإنما سقنا هذا الذى سقناه من تائيته لضرب مثلا على المجاراة التى يراد بها إظهار الصناعة فإنها أكثر ما تئول إلى نقيض ما يريده صاحبها .

هذا والنقائض فى الشعر مما يدخل فى باب المجاراة المتعمدة كالذى تجده فى مناقضات جرير والفرزدق . غير أن هذين كانا يجريان كلاهما مجرى الخط وقدسبق لهما قبل المباراة أن حددا لأنفسهما مجال القول فإذا استهل أحدهما بوزن ما وقافية ما كان ذلك كالمؤذن لصاحبه بأن مجال القول ههنا . فتى جاراه صاحبه فى وزنه وقافيته لم يكن بالمبعد كل الإبعاد عن طريقة الرضى التى تنشأ من الانفعال والنفس العاطفى الحار . ولقد ترى عند جرير والفرزدق أنه ربما عمد أحدهما إلى مخالفة صاحبه فى القافية لا فى الوزن ليجعل ذلك أقرب ما يهم هو بقوله من ذلك ما فعله جرير فى مجاراة الفرزدق إذ يقول .

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول

فانه قد خفض الروى لينجو بالقول عن التفخيم إلى ما هو من طريقه ومذهبه من الوثب والاندفاع . تأمل فى التدليل على هذا الذى نذهب إليه قول الفرزدق :ـ

إن الذى سمك السماء بنى لنا
بيتا دعائمه أعز وأطول
بيتا زرارة محتب بفنائه
ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
أحلامنا تزن الجبال رزانة
وتخالنا جنا إذا ما نجهل

وتأمل بعده قول جرير :

أخزى الذى سمك السماء مجاشعا
وبنى بناءك بالحضيض الأسفل
بيتا يحمم فينكم بفنائه
دنس مقاعده خبيث المدخل
أبلغ بنى وقبان أن حلومهم
خفت فما يزنون حبة خردل

ولعمرى إذ عمدالفرزدق إلى التفخيم والرفع فلا شىء أبلغ فى نقض ذلك من التحقير والخفض وهذا ما عمد إليه جرير فأجاد .

وقد تجد أحد هذين الشاعرين ربما عدل عن وزن صاحبه ورويه ، متى بدا له أن يغير مجال القول نفسه ، فإما تبعه صاحبه وإما خالفه ، وجرير أبدا يروم جذب الفرزدق إلى الوافر والكامل والقوافى الذلل المنطلقات والفرزدق أبدا يجنح إلى الطويل وإلى ما يكون حزنا من ضروب الروى .

شيطان الشعر :

هذا ونعود بك أيها القارئ الكريم إلى ما كنا فيه من نعت حال الشاعر حين يروم القول ويلتمس أسبابه فى أصناف النغم الذى يصير من بعد مفتاحا للتعبير وطريقة للبيان والإفصاح .

إن حال الجذب والانفعال التى ترافق تطلع الشاعر إلى تحصيل فى الوزن المناسب والقافية المؤاتية ، هى نفسها التى تصبغ كلامه كله بصبغ واحد وتشيع فيه روحا واحدا وتجعله ذا نفس واحد متصل وهى فى رأينا سر الوحدة عند الشاعر العربى وجوهر الروح العاطفى فى كلامه ــ تفيض أول أمرها نغما صرفا ثم تتسرب بعد ذلك فى مسارب القول الناصع .

وقد بينا لك آنفاً أن طريقة الشاعر العربى فى التعبير الجهير المباشر هى التى ألجأته إلى أن يصعد بنفسه إلى قمم من الانفعال حتى يقدر على التصريح غير هائب ــ لأن همه الاعتراف ــ وحتى يتقبل السامعون ذلك من صنيعه قبولا حسناً وهو إذ يصعد بنفسه إلى علياء الانفعال ويهيم فى أعماقها بالنغم ملتمساً للتعبير ، يصير كما قدمنا إلى شىء من حالة الجذب والهيام ، يرتفع به عن مطلق الفردية البشرية إلى شىء من البطولة . ولذلك زعمت العرب أن الشاعر يصاحبه شيطان يلقى إليه ، قال سويد بن أبى كاهل :

وأتانى صاحب ذو غيث
زفيان عند إنفاد القرع
قال لبيك وما استصرخته
حاقر للناس قوال القذع
ذو عباب زبد آذيه
خمط التيار يرمى بالقلع
زغربى مستعز بحره
ليس للماهر فيه مطلع
هل سويد غير ليث خادر
ثئدت أرض عليه فانتجع

وغير خاف ههنا أن شيطان سويد هو سويد نفسه بدليل البيت الأخير ، وهذا يقوى ما نزعمه من حالة الجذب ، وقضية شيطان الشعر معروفة فلا تحتاج إلى بسط ههنا ، وبحسبك شاهداً على إيمان العرب بها أن الذين ألمع إلى مذهبهم هذا فى قوله تعالى : « هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » . والمنعوتون بالإفك والإثم والكذب ههنا هم الكهان ، ثم أضيف الشعراء إليهم بسبيل المشابهة والمضاهاة ومنهم من

استثنته الآيات كما ترى . وفى الأثر أن حسان ابن ثابت أعين بروح القدس بعد أن أسلم ، وهذا أيضاً دليل على إثبات الهاتف الذى يجذب الشاعر ويجيش فى صدره .

ويحسن بنا هنا أن نوازن بين مزاعم الفرنجة فى نسبة الشعر إلى « الميوزات » أو « عرائس الشعر » وبين مزاعم العرب فى الشيطان والرئى . ألا ترى أن الذى تلهمه العرائس جدير أن يكون فى بيانه ذا ريث ومهل وانفعال بنفسه شيئاً ما عن طبيعة الموضوع الذى هو بصدده ، حتى يجيء كلامه نعتا أو كالنعت لا اعترافا ولا تصريحا ، ولا روما إلى إيصال تجربة بعينها إيصالا مباشراً إلى نفس السامع ، ذلك بأنه من طبيعة المستلهم إلى العرائس أن يتأملهن ويعجب بهن ويتأتى إليهن، وفى كل هذا شوق وطرب مع تقية وانفعال .

أما من كان قرينه شيطانا فإنه يخالطه مخالطة لايدع معه له انفراداً بنفسه أو انفعالا بذاتها . وعلى هذا فإن تعبيره يكون ضربة لازب ألواناً من الاعتراف يتدافعن تدافعا وينفجرن انفجاراً . فعسى هذا التمثيل أن يعين شيئاً على إدراك بعض حقيقة الفوارق بين مذاهب الشعر الإفرنجى والشعر العربى .

هذا وإذ نحن بصدد الحديث عن شيطان الشعر ، فقد لا نبعد عن تثبيت معانى ما نحن بمعراضه ، إذا استطردنا بالقارئ شيئاً إلى نعت بعض شعراء العرب المشاهير بنعوت شياطينهم أليس معلوما أن كل شاعر قد كان يدعى لنفسه شيطانا ؟ أم لم يمر بك كلام سويد بن أبى كاهل من قبل ؟ أم لا تعلم قول حسان :

ولى صاحب من بنى الشيطان
فطوراً أقول وطوراً هوه

وقول الأعشى :

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له
جهنام جدعا للهجين المذمم

فأبو العتاهية مثلا شيطانه من الحن بالحاء المهملة ، وهم أمة خسيسة من الجن شديدو ابث مع ضعف وتخاذل . ويخيل لى أن أكثر شياطين الشعر المعاصر من هذه القبيلة .

وآية الضعف والتخاذل فى أبى العتاهية أنه تنكب الجزالة فى التعبير بدعوى الزهد ، والناس يذكرون أنه كان زنديقا وكان جشعا وأشد خلق الله حرصا على المال ، والذى فى أسلوبه من الركاكة والهجنة لا يخفى . وأحسبه لو لم يتخذ الزهد طريقة ما كان لينفق فى زمان كان يستمع إلى أبى نواس ، وبشار ومروان بن أبى حفصة .

(البقية على صفحة ١٠٩)

سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله

للأستاذ عباس طه

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه) .

ومن نافلة القول العرض حتى ولو لماما للأنواع الثلاثة التى وردت فى صدر الحديث وإنما الخليق بالعرض والتحليل والإشادة والتفصيل ما سنبسطه بإسهاب فيما يلى :

أولا : رجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه :

غير خاف أن العدد هنا عدد الأصناف لا عدد الأفراد ، أى سبعة أصناف وأنواع من الناس يجمع كل صنف صفة من الصفات فلا يرد أن هذا الرابع فيه رجلان فحق العدد أن يكون ثمانية ، وذلك لأنهما وإن كانا رجلين فإنهما مشتركان فى صفة واحدة فهما صنف واحد ، فليس للمذكور زيادة على السبعة ، وإنما ذكرا على وجه التثنية لأن الغالب فى المحبة التى تجرى بين الناس أن تكون متبادلة ، فالنفس دائما تستريح إلى النفس التى تحبها ، فتؤدى استراحتها لها إلى مشاركتها لها فى المحبة . قيل : إن رجلا طلب إلى أحد الملوك أن يحب ابنه ، فرد عليه بأن المحبة ليست أمرا اختياريا يملكه الإنسان من نفسه حتى يطلب منه تحصيله ، فقال له : طريق ذلك أن تحسن إليه فيحبك فتحبه ، وحقيقة جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، كما قال الأول :

وكل امرئ يولى الجميل محبب
وكل مكان ينبت العز طيب

واستدعاء محبة أحد الطرفين محبة الآخر أمر يكاد يكون مطرد المشاهدة :

وللشىء مع الشىء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

نعم قد قالوا : إن أصل كل المحبة محبة المرء لنفسه ، ومنها يتفرع حبه لغيره ، فهو إذا أحب المحسن فإنه إنما أحبه لذات إحسانه ، وإذا أحب جمالا فى المخلوقات كألوان الزهر وتجلى الشمس والقمر كان مرجع ذلك إلى

استمتاع حواسه أو استرواح نفسه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فلأن الله أودع هذا السر فى هذا الزهر لأنه يريد أن يسوق الناس إلى محبته .

وكلمة (تحابا) على صيغة تفاعل ، وهذا الوزن يأتى فى العربية لمعان ، منها وهو المراد هنا أن يشترك اثنان أو أكثر فى فعل بدون أن يلحظ أن لأحدهما صفة البدء به أو المجاوبة على بدئه .

وأما قوله - اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه - فمعناه أنه حب قلبى روحى صادق ، ليس رياء ولا ملقا فهو فى حال الاجتماع والافتراق سواء ، يشعر فى الأول العطف والإيناس والتواد ، ويبتهج فى الثانى ود غيبته ، وحفظ حقه ، ورعاية مصلحته . وخليق بمن أحرز هذا الوصف أن يكرمه الله بإظلاله بظله يوم لا ظل إلا ظله .

هناك محبة عليا لا تسمو إليها إلا النفوس الخيرة هى محبة الله ، لله وفى سبيل الله ، محبة تسمو على الاعتبارات والنزوات ولذلك يقول صهيب رضى الله عنه عمدة أهل الحق : « اللهم أنت تعلم أنى لا أحبك طمعا فى جنتك ولا خوفا من نارك ، ولكنه الانقياد إلى خير طريق وأبلج محجة ، ومن أجل ذلك يقول عمر ابن الخطاب : « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » . وقد روى أن أيوب السختيانى وسرى السقطى والخليل بن أحمد من علماء الصوفية المتقدمين أطبقوا على أن محبة الله مطلب لا ينال إلا بالرياضة والإقبال على الله والتجرد من الدنيا وعلائقها مع الاحتفاظ بنصيبهم فيها وقد جاءت السيدة رابعة العدوية وهى قطب من أقطاب علم التصوف فقالت مخاطبة لله عز وجل :

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذى هو حب الهوى فكشفك لى الحجب حتى أراك

وأما الذى أنت أهل له فشغلى بذاتك عمن سواك

ثانيا : ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله .

غير خاف أن تغلغل الشهوة فى قلوب الناس وتمكنها من نفوسهم أمر معروف بلا مرية ، وإنما يتفاوتون فى الفضل بقدر ما يبذلون من جهد للتخلص من إسارها ، وقهر النفس على الفرار من سيئاتها ، وقد يكون الخلاص منها لضعف تعلق النفس بها لأنها لم تستكمل كل الرغائب ، كأن يكون الوصول إليها متعاصيا لا طاقة للمرء عليه ، أو أن تكون داعية الجمال فيها ضعيفة فتضعف الجاذبية أو أن تكون فى إنسان مرذول تنفر بعض النفوس من الاتصال به

لحقارة شأنه وأنفة النفس من معاشرته فإذا كملت الرغائب وهى مبنية على النزوات كانت الصلة ميسورة ، وكان أمامها ما يرغب فيه ولا تعاف النفس مفارقته . فهذا هو الامتحان حقا ، فمن أعرض عنها وقد توافرت رغباته فيها ، فإنما يكون ذلك خوفا من الله ولمن خاف مقام ربه جنتان .

وهذا هو ما صوره الحديث الشريف ، فقد بدأ بأن الطالب من المرأة ، وهذه أول درجات الإغراء ، وثنى بأنها ذات منصب أى شرف وحظوة فلا تأنف النفس من الاتصال بمثلها ولا تحتقرها ، وثلث بأنها ذات جمال ، وذلك أساس الرغبة الشهوية ، فإذا امتنع عن ذلك مخافة من الله دخل فى قوله جل شأنه : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » وقوله : « قال إنى أخاف الله » أى قال لنفسه ذلك يعظها ويزجرها ، ويربى فى نفسه خـــوف الله ، فهى لضعفها أحق بأن تخاف ما يخافه الرجل القوى ، وتخصيصه فى الإجابة الخوف بنفسه وكأنه يقول لها : أنا خفت على نفسى فإن كان يهمك نفسك تخافى أنت أيضاً على نفسك فكأنه يتركها وقد فتح لها باب المخافة لتستنبط هى بنفسها الخـــوف على نفسها ، وهذا فى الغالب أشد تأثيراً من أن تدعو الشخص إلى الخوف صراحة . وقريب من هذا ما فى قوله تعالى : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » .

ثالثا : ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه :

للنفوس ولوع بالمال وإحرازه والتحفظ عليه والاستمساك به والهلكة فى سبيله لا يدانيه ولوع بأى شىء آخر ، فهم يرون فيه جماع أغراضهم ، وملاك رغباتهم ، ونيل مشتهياتهم :

والمال مذ كان تمثال يطاف به
والناس مذ خلقوا عباد تمثال

إذا جنى الدور فانع القاطنين بها
أو الممالك فاندبها كأطلال

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

وقوله : « تصدق أخفى » جملة أخفى حال ، أى تصدق مخفياً صدقته ، وروى فأخفى ، وروى إخفاء ، وروى تصدق بصدقة فأخفاها ، ووجه رواية الفاء أن الإخفاء أو الجهر حال من أحوال الفعل وصفة من صفاته ، وصفة الشىء متأخرة فى الملاحظة عن وجوده وإن لم تنفصل عنه وجودا .

وقوله : (حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

غير خاف أن الترغيب فى إخفاء الصدقة محمول على صدقة التطوع ، أما زكاة الفرض فالأفضل إظهارها لأنها شعيرة من شعائر الدين ، وفى إظهارها إظهار لعزة الدين ، وليكون قدوة للسالكين معينا لتضافرهم على أدائها .

ومما لا مرية فيه أن الصدقة المخفية فضلا عما فيها من سد الخلة ففيها عدم إحراج للمتصدق عليه .

روى الجاحظ فى كتابه - البيان والتبيين - أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها جلست ذات يوم فى دارها وحولها فضليات النساء من الصحابة فقالت عائشة : (رحم الله لبيد حين يقول :

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم
وبقيت فى خلف كجلد الأجرب

فقال بعض الحاضرات من النسوة : كيف ذلك يا أم المؤمنين وما معناه . فقالت عائشة : ذهب قوم كان أحدهم إذا علم عن أخيه خلة سدها بغير علمه ، وجاء قوم فى أعقابهم كان أحدهم إذا علم عن أخيه خلة استوثق من صاحب الخلة ثم سدها بعلمه ، ثم جاء من بعدهم قوم كان إذا علم أحدهم خلة انتظر حتى يسأله ، فإذا سأله سدها ، لجاء من بعدهم قوم أشحاء النفوس مهملو الرءوس كان أحدهم يذهب إليه ليسد خلته فيأبى ذلك عليه ، وهو أسوأ الفرق الماضية والحاضرة) .

ولا شك أن الرعيل الأول من المسلمين كان يخفى صدقته أو معونته وعن هذا الفريق يحكى الله فى قوله تعالى : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

رابعا : ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه

لا مشاحة فى أن فيض العيون عند الخلو بالله عز وجل نعمة كبرى يفيضها الله على عباده ، فالعبد إذا خلا بربه ذكره ذكر المؤمنين ، وخشيه خشية الخائفين ، لأنه يعلم السر والنجوى ، ويعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فالعبد الخائف من ربه حين يخلو به يظهر أمامه على حقيقته دون مصانعة ولا مخاتلة ، وهذا الفضل قد يكون فى غير المسلم فأولى أن يكون فى المسلم الذى يعتقد أن هناك ثوابا وعقابا فى دار الجزاء ، وليست الدموع التى تفيض من عين العبد عند خلوه بربه دموعا مصطنعة ولا زائفة وإنما هى دموع الرجل الخائف المضطر ، روى الإمام الغزالى فى كتاب الإحياء أن بعض الخائفين من الله كان يحصى على نفسه من وجه النهار إلى آخره جميع ما يصدر عنه من الأعمال فإذا جن الليل استحضر السيئات

منها وبكى فى جوف الليل وسكونه إنابة إلى الله حتى يبلل الأرض بدموعه فيغفر الله له تلك الهنات، روى الحاكم من حديث أنس مرفوعا (من ذكر الله ففاضت عيشه من خشية الله حتى يصيب الأرض من دموعه لم يعذب يوم القيامة) وروى عن أبى هريرة مرفوعا (لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع) وروى أن داود عليه السلام سأل ربه: ما جزاء من بكى من خشيته حتى تسيل دموعه على وجهه؟ قال: أسلم وجهه من لفح النار.

وروى عن سيدى عبد العزيز الدباغ وهو عاهل من عواهل علم التصوف والمعرفة والشهود أنه علم عن أخ له فى الله كثرة بكائه ونحول جسده حتى كاد بصره أن يكف فأنشد رضى الله عنه:

من أين للعارض السارى تلهبه
أم كيف طبق وجه الأرض صيبه
هل استعار دموعى فهى تنجده
أو استعار ضلوعى فهى تلهبه؟

نسأل الله أن يحشرنا وإخواننا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما؟

عباس طه

(بقية المنشور على صفحة ١٠٤)

ودعبل شيطانه من الجن الآبدين سكان الفلوات والقفار الذين يلمون بالناس أحيانا ليصرعوهم. وقد ذكر الرواة أنه كان يألف القفار وربما صاحب جماعة الشطار واللصوص وربما قطع الطريق، وهو فى كل ذلك يلم بالحضر وما كان يفعل ذلك إلا ليفتك بعظيم أو خليفة بهجاء يصمه به آخر الدهر. وديك الجن، وهو من معاصرى دعبل، وقد كان شيطانه من العمار وهم الجن الذين يسكنون البيوت. وقد كان صاحب طريقة من النظم أحسبه سبق بها أبا تمام لما كان يستعمله من البديع والإغراب. وروى له ابن رشيق أنه ألم به دعبل فأنشده قوله:

كأنها ما كأنه خلل الخلة
وقف الحبيب إذا بغا

وإنما أراد أن يروعه بهذا، فأنكره دعبل عليه وسخر منه.

الدكتور عبد الله الطيب

(للبحث بقية)

ما يقال عن الإسلام

الإسلام فى تاريخ العالم

للأستاذ عباس محمود العقاد

من موضوعات التأليف التى كادت أن تصبح لها فى اللغة الانجليزية « دورة » كالدورة الصحفية موضوع الكتابة عن تاريخ العالم فى مجلد واحد ، مختصر أو يطبع فى الطبعات الدقيقة التى تسمى عندهم بمكتبة الجيب .

ومن الواضح أن الدورة فى هذه المؤلفات تحسب بعشرات السنين : كل عشرين سنة هجرية ، أو كل ثلاثين سنة ، أو كل جيل من الأجيال البشرية المتعاقبة ، إذا حسبنا للجيل ثلث قرن على العرف الشائع ، لأن السنين الثلاث والثلاثين يلتقى فيها على الدوام جيل قديم ، وجيل مقبل ، وجيل قائم فى إبانه .

وقد ظهر فى الجيل الأخير باللغة الانجليزية ، ثلاثة تواريخ عالمية من مطبوعات المجلد الواحد : وهى تاريخ « ولز » المصلح الاجتماعى والكاتب القصصى ، وتاريخ فان لون الناقد الفنى والكاتب الأديب ، ثم هذا التاريخ الذى بين أيدينا لمؤلفه جون باول Bowle المشرف على تأليف الموسوعة الجامعة لتاريخ العالم ، وله من مؤهلات الإحاطة بالتواريخ الإنسانية ، والتواريخ الشرقية على الخصوص ما لم يكن لزميليه السابقين ، وإن لم يبلغ مبلغهما من الملكة العقلية واستقلال الرأى أمام التقاليد .

والخاصة التى تتميز بها التواريخ العالمية فى مجلد واحد أنها تكتب من وجهة نظر مقدورة فى موازين مؤلفيها ، فليست هى مجموعة من المتفرقات لا تربط بينها رابطة غير الاجتماع على خريطة الكرة الأرضية ، وليست هى مجموعة من الوقائع مجردة من المغزى والدلالة على طريقة المؤرخين المسجلين للحوادث العامة فى كتب المطولات ، ولكنها أشبه بقصة متناسقة يعرضها شارح واحد يقدم للنظارة شريطا من الصور المتحركة ، ويذكر لكل مرحلة منه مناسبة ملحوظة تلحقه بالمراحل التى سبقته وتصل بينه وبين المراحل التى تليه .

ولقد كان « ولز » كفئا لهذا التنسيق على أساس النظرة الواسعة إلى الوحدة الإنسانية فى أطوار التقدم الاجتماعى والانتقال من نظام « معيشى » إلى نظام يخلفه ويحل فى أكثر الشعوب محله ، وكذلك نظر إلى دور الصيد ودور المرعى ودور الصناعة ، ثم دور

التوسع فى العلاقات الاجتماعية والأخلاقية التى تقوم عليها دعائم المجتمعات والهيئات الحاكمة

وكان فان لون مقتدراً على تنسيق التاريخ العالمى فى نطاق الحركة الفكرية والدلالات الفنية ، كأنما ينظر إلى الإنسانية فى مراحلها المتتابعة نظرته إلى بعثة ثقافية تشتغل بالتمرين إلى جانب اشتغالها بالبحث والتحصيل .

أما المؤلف الأخير - وقد ظهر كتابه فى أواخر السنة الماضية - فالمرجع الأكبر أمامه هو مرجع الجغرافى الذى استوفى أسانيد الإحصاء وأنباء الصحف والإذاعة ، وأخذ ينقل الأبعاد الزمانية إلى خريطة مكانية يعرض فيها مواقع الماضى كأنها تحصل فى الوقت الحاضر ، ولم يتخذ له فى هذا العرض موقفاً مستقلا غير الموقف « التقليدى » الذى يصطنعه « المسجل المعاصر » حين يدين نفسه بمظاهر « الاستنارة » على حسب اصطلاح العرف الحديث ... فكل تعليقاته على الحوادث التاريخية الكبرى فهى تعليقات مسبوقة من بقايا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، مضافاً إليها علم الرجل العصرى كما يستمده من مراجع الإحصاء والإذاعة ، وبخاصة فى القسم المفرد أو الأقسام الموزعة التى عرض فيها لتاريخ الإسلام

يبدأ بتقرير الواقع المشهور عن دور الإسلام بين أدوار الديانات العالمية ، ويفصله عن ديانات رومة وأثينا والصين والهند بأنه هو الديانة الثالثة الكبرى بين الأمم السامية ، وأولاها اليهودية ثم المسيحية .

ويقارن بين النبي عليه السلام وبين السيد المسيح صاحب الديانة السامية الأخرى وبين بوذا ، صاحب الديانة الآرية المهذبة ، فيقول إنه مثلهما يملك العبقرية الدينية ولكنه يمتاز عنهما بالكياسة السياسية مع القدرة العسكرية .

فإذا تكلم عن العوامل الاجتماعية ، والنفسية ، التى ينسب إليها تمكن الإسلام فى وطنه ثم انتشاره فى سائر الأوطان على نحو لا نظير له من قبله ولا من بعده ، فهنالك تغلب عليه تلك الفكرة « التقليدية » عن عقيدة السيف والغنيمة ، ويفوته التعليل التاريخى الأول الذى ينبغى أن يسبق كل تعليل : وهو انتشار الإسلام لأنه وافق فى العالم كله حاجة عامة ، بعد أن حان أوانها وتمهدت الأسباب لموافاتها فى عالم الفكر والضمير

فكل ما عدا القدرة السياسية والعسكرية فى نبي الإسلام فهو قابل للتفسير بحماسة « التعصب » العنيف وبالرغبة فى كسب الغنائم ، وبالطبيعة البدوية التى بنيت على تعدد الرحلات والغارات.

ويتبين قصور هذا المؤلف خاصة عن تعليل للحوادث العظمى كلما ذكرنا أنه أعرف من زميليه بتواريخ المشرق فى كل من الهند والصين والبلاد الملاوية ، وهى

البلاد التى يوجد فيها اليوم قرابة ثلثمائة مليون مسلم دخلوا فى الديانة الإسلامية بعد عصر الفتح بعدة قرون ، وبغير عامل من تلك العوامل التى تفسرها غارات البدو أو طمع الفقراء من أبناء البادية فى كسب الغنائم واغتصاب الديار .

ويتبين هذا القصور من وجهة النظر العصرية قبل كل شىء ، لأنهم تعودوا فى هذا العصر أن يعللوا كل نجاح كبير بمقدار الحاجة له والموافقة بينه وبين أشواق النفوس ومطالب المعيشة وضرورات الحياة ... فماذا يفعل الطمع فى الغنائم لولم تكن للإسلام مزية إنسانية يتطلبها العالم ويستعد لها قبل أوانها ؟ ولماذا لم يفعل هذا الطمع فعله فى تاريخ انتشار الديانة اليهودية وهى ديانة قبائل بادية ومطامعها فى الغنائم واغتصاب الديار تحل عندها محل الشريعة المقررة فى مواعيد الإله ؟

وينتقل المؤلف من هذه النظرة التقليدية إلى نظرة تقليدية أخرى عند الكلام على الحضارة الإسلامية بعد انتشارها بين الشعوب السامية الآرية ، فهو يعيد هنا تلك الدعوة المحفوظة عن استعارة الثقافة العربية خاصة والإسلامية عامة من الثقافة الإغريقية ، ولا يكلف نفسه مؤنة المقابلة بين ذخائر التراث العربى الإسلامى فى الحكمة والطب والكيمياء والجغرافية والتاريخ والأدب وبين الذخائر التى تخلفت باللغة اليونانية فى جميع هذه الموضوعات ، بل لا يكلف نفسه مؤنة البحث فى المسائل المنقولة والمسائل المبتكرة التى تحتوى فيما احتوته ردودا على حكماء اليونان وعلمائهم وزيادات مستقلة فى دراسات الحكمة والطب لم تؤثر عن مرجع يونانى وصل إلى العرب أو بقى له أثر فى القارة الأوروبية وقد كان أولى من ذلك كله وأقرب إلى التحقيق العلمى أن يسأل المؤلف نفسه : لماذا حوربت الثقافة الإغريقية عند نقلها إلى الأوروبيين ولم تحارب هذه الثقافة - بمثل هذه الشدة بين شعوب الإسلام على اختلاف الأجناس ؟ وربما كان أولى من ذلك أيضا أن ينظر المؤلف إلى الفن العربى الإسلامى فى البناء ليعلم مبلغ استقلال الذوق العربى عن اليونان فى ناحية ثقافية من ألصق النواحى بهم وهى ناحية الفنون الجميلة ، ويعلم كذلك أن الذوق العربى قد استقل بفنه بين أمم شرقية كثيرة سبقته أبناء الجزيرة العربية إلى تشييد العمائر وابتكار أساليب البناء .

ولكن المؤلف يشهد للحضارة العربية الإسلامية شهادة تشفع له فى هذه الزلة التقليدية ، لأنه يقرر بعد إسهاب الكلام عنها أنها لم تستتبع فى التاريخ دورا من أدوار الظلمات كما حدث بعد الحضارة الرومانية اليونانية بين أبناء القارة الأوروبية .

* * *

ومن النظرات التقليدية التي سبق إليها المؤلف تلك المقارنة بين العقيدة الإسرائيلية والعقيدة الإسلامية كما وردت في كتب الديانتين ، ويذكر من هذه المقارنات أن القرآن يسأل الإنسان : « أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » وعنده أن هذا السؤال الإلهي كسؤال الله لأبي أيوب أأنت الذي زينت جناحي الطاووس ؟ ، وأن العقيدة الإلهية متقاربة — إذن — بين الديانتين !!

وفي هذه المقارنة أكثر من خطأ واحد لأنها مجموعة من الأخطاء لا يتخللها صواب واحد في جهات الموازنة بين الجانبين .

فالخطأ الأول أن سفر أيوب ليس من الأسفار الإسرائيلية ، لأنه خلا من كل إشارة إلى الفداء أو إلى المسيح المنتظر لخلاص بني إسرائيل ، ولم يكتبه نبي من اليهود .

ويماثله في الخطأ أن الإله في سفر أيوب لا يمثل إله الكتب الإسرائيلية « يهوه » الذي يدين عباده بميزان محدود ، ويدين سائر العباد بميزان آخر غير ذلك الميزان .

ويأتي بعد ذلك خطأ المقارنة بين عبارة عارضة في سفر أيوب وبين العبارات القرآنية التي تنتظم الكتاب كله ولا تدع في الأرض أو السماء صورة من صور الخلق لا يقام بها الدليل على وجود الخالق وعلى رحمته وعدله واستغنائه بدليل العقل عن أدلة الخوارق والمعجزات .

وشفيع المؤلف في هذه الأسطورة التقليدية أنه خص الإسلام بالقوة الصالحة لتوثيق الوحدة « الأخوية » بين المؤمنين وأنه لم ينظر إلى فارق من فوارق الجنس واللون أو فوارق الغنى والفقر كأنه فارق حائل دون جامعة الإخاء بين أبناء آدم وحواء ، ولكنه على هذا التقدير منه لدعوة الأخوة الإنسانية في الإسلام لم يذكر لهذا الدين حسنته « الإنسانية » الأولى في إنقاذه لبنات حواء من مذلة العبودية ، ومن مذلة الحرمان من الروح ، ذلك الحرمان الذي أوشك أن يلحقها بالخلائق العجماء .

وقد لازمه خطأ الفهم إلى النهاية حين ختم فصله الخاص بانتشار الدين معيداً قوله في الفصل كله : إن الصبغة « الحربية » قد لازمت حضارة الإسلام في كل صفحة من صفحاتها التي مثلتها عواصم دمشق وبغداد والقاهرة والقسطنطينية ، وإن سر هذه الصبغة كامن في الدفعة « الديناميكية » الباقية منذ قيامه على « عصبية الصحراء » . وينسى في هذا الختام الموجز كل ما قرره عن خاصة « الأخوة الإنسانية » التي اختص بها هذا الدين « السمح » الكريم ؟

عباس محمود العقاد

الكتب

نقد وتعريف : للأستاذ محمد عبد الله السمان

---

١ — منهج الإمام محمد عبده

فى تفسير القرآن

للأستاذ عبد الله محمود شحاته

هذا البحث تقدم به المؤلف إلى جامعة القاهرة لنيل الماجستير ، وأشرف على الرسالة فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى ، والذى كان رئيساً للجنة التى ناقشتها على مدرج كلية دار العلوم — وكان عضوا اللجنة الأستاذ الدكتور محمود حب الله والأستاذ عبد الوهاب حمودة ، وقد منحت اللجنه المؤلف درجة جيد فى العلوم الإسلامية (مادة الشريعة) وقام بطبعها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وكتب مقدمتها فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة .

الرسالة تقع فى حوالى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير ، الباب الأول تناول المؤلف فيه حياة الإمام ، وترجم له ترجمة مركزة لا إسهاب فيها ، وفى الباب الثانى تناول المؤلف منهج الأستاذ الإمام فى تفسير القرآن مقارنا بمناهج المفسرين السابقين ، واعتبر أن منهجه قام على تسعة أسس : اعتبار السورة وحدة متناسقة ، عموم القرآن وشموله ، القرآن المصدر الأول للتشريع ، مناهضة التقليد ، المنهج العلمى فى البحث ، تحكيم العقل ، ترك الإطناب فى المسائل المبهمة ، التحفظ من التفسير المأثور ، تنظيم الحياة الاجتماعية على هدى القرآن .

أما الباب الثالث والأخير فقد تناول المؤلف فيه مدرسة الإمام فى التفسير ، ويعنى بها مدرسة المنار ، وخصائصها الخمس : التحقيق العلمى ، تأثر الشيخ رشيد بابن كثير ، تأثره بالغزالى ، التوسع والإطالة ، بيان السنن الاجتماعية وأسباب التطورات التاريخية مستنبطا ذلك من القرآن .

الأستاذ شحاته لم يكن فى بحثه هذا مواليـاً لآراء الإمام فى كل ما رأى ، بل له وقفات معارضة لا سيما عند الكلام عن تحكيم العقل فى فهم القرآن ، وإن كانت هذه الوقفات جانب بعضها الصواب ، فالإمام لا يتأثر بالمؤلفين الفرنسيين فى حديثه عن المعجزات والنبوات كما يرى المؤلف ، ومحاولة الإمام

أن يقرب إلى الأذهان المعجزات الإلهية ويعلل وقوعها بما يوافق العلم والعقل ليس فيه خروج عن أصول التفكير والبحث السليمين ، ولا تأثر بالمفكرين الفرنسيين ، وقد سبقوا بمفكرين إسلاميين لهم مكانتهم فى مجال الفكر ، كالمعتزلة وغيرهم ، ومسألة خلق عيسى من غير أب التى وقف عندها المؤلف ، لأن الإمام يرى أن الاعتقاد القوى الذى يستولى على القلب وعلى المجموع العصبي يحدث فى عالم المادة من الآثار على خلاف المعتاد ، لم ينكر الإمام عندها قدرة الله سبحانه ، وإلا فمن الذى بعث الملك لينفخ فى فرج العذراء ؟

من المسائل التى تعرض لها الإمام ووقف منها المؤلف موقف المعارض ، مسألة السحر ، وسحر الرسول - صلوات الله عليه - بوجه خاص ، فالإمام يستبعد أن يكون الرسول قد سحر إلى الدرجة التى تجعله يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، كما يستبعد مسألة سحر الرسول إطلاقا ، والمؤلف يوافق الإمام فى الجانب الأول ، ولا يوافقه فى الجانب الآخر ، وإن كان يرى أن سحر الرسول بمثابة إصابته بنوع من الهم أو الثقل امتحانا له ، ويعود المؤلف فيحاول تأييد حديث البخارى ويدافع عنه ، وفيه أن الرسول سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، وفى هذا تناقض المؤلف مع نفسه ، ولو جرى هذا لكان هناك مجال للتشكيك فى نزاهة إبلاغ الرسول عن ربه ، ولا يستبعد أن يكون قد نزل شىء التبليغ فى تلك الفترة ، والتشكيك فى سلامة رواية الحديث أجدر وأحق من التشكيك فى التبليغ ، وسد لباب لا يأتى بخير ، لا سيما الحديث من الآحاد التى لا يعول عليها فى المسائل العقيدية .

أما اعتبار كلام الإمام (بأن السحر ليس علما يعتمد على الحقائق) فيه مجانبة للصواب كما يرى المؤلف ، ففى هذا الاعتبار شطط ، فقد أشار القرآن فى بعض آياته أن السحر تخيل وخداع ، ولم يثبت علميا أن السحر من الحقائق العلمية إلى اليوم ، فهو ما زال ضرب من الشعوذة ليس إلا .

الحق أن البحث الذى نحن بصدده بحث جيد ولا يحد من قيمته معارضة المؤلف لبعض آراء الأستاذ الإمام ، والذى ألاحظه أن الترجمة للإمام كانت مقتضبة ، وأن الأسس التسعة التى اعتبرها المؤلف مما قام عليها منهجه فى التفسير لم تشمل كل الأسس المعروفة عن منهج الإمام ، وأنا أعتز بكلمة الشيخ أبو زهرة فى مقدمته للبحث : وهى أن السيد المؤلف خاض خوضا شديداً نوافقه فى بعضه ونخالفه فى بعضه ، ولكنا فى الموافقة والمخالفة نقدر اجتهاده .

٢ - النبى محمد :

للأستاذ عبد الكريم الخطيب

عنوان الكتاب الذى نشرته دار الفكر العربى بالقاهرة للأستاذ الخطيب ، هو : (النبى محمد ، إنسان الإنسانية ونبى الأنبياء) وأعتبر أن هذا البحث الذى يقع فى حوالى ٤٥٠ صفحة من القطع الكبير ، حلقة ثالثة سبقها كتابه (قضية الألوهية بين الدين والفلسفة) فى حلقتين (الله ذاتاً وموضوعا) و (الله والإنسان) .

تناول البحث : النبوة ، النبى ، المعجزة ، الإعجـــاز ، مصادر الرسالة الإسلامية ، خاتم النبيين ، الداعى وموطن الدعوة ، الرسول ومعجزاته ، الرسول والمعجزة الكبرى ، بشرية الرسول ، المرأة فى حياة النبى ، نبى الملحمة ثم نبى الرحمة .

الأستاذ المؤلف فى بحثه عن « النبوة » وهل هى ضرورة إنسانية ، عرض مذاهب الناس تجاه النبوة ، فهناك المؤمنون بالشرائع السماوية إيمانا كاملا وهم مقرون بالنبوة بالطبع ، وبصلتها بالسماء ، وهناك غير المؤمنين بالشرائع السماوية ، فمنهم من يعتقد فى الله وينكر رسالات الأنبياء ، ومنهم من ينكر الله ، وينكر الشرائع السماوية إطلاقا ، وقد كان لفلاسفة اليونان والهند وغيرهم نصيب أوفر فى إنكار كمال الجنس ليرقى إلى مرتبة النبوة .

والمؤلف يناقش فى البابين الثالث والسابع قضية المعجزة ، ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففند أولا رأى بعض الفلاسفة المنكرين للمعجزة ممن يرون أن كل ما يقع فى الحياة مألوف وغير مألوف هو جار على طبيعتها ، وواقع على ما تقضى به سننها ، وأن الأحداث التى تبدو غريبة أو خارقة لمألوف الحياة هى فى الواقع أحداث طبيعية لم تعرف أسبابها التى لا بد أن تكون قائمة وراءها ، وأما فيما يتصل بالمعجزات التى حفلت بها كتب السيرة ونسبت إلى الرسول ، فالمؤلف مع تقريره بأن من مستلزمات المعجزة أن تكون التحدى ، يعرض هذه المعجزات وينعى على منكريها ، وهى فى جملتها ليس فيها شىء من التحدى اللهم إلا فى قصة الشجرة التى ذكرت فى قصة الأعرابى الذى عرض عليه الرسول الإيمان فأبى إلا بدليل فاستشهد الرســـول الشجرة فأقبلت تنطق بالشهادة بنبوة محمد ثلاثا ثم عادت أدراجها فآمن الأعرابى .

والمؤلف نقل القصة من كتب السيرة دون ما إشارة إلى سندها وروايتها ودرجة صحتها فى مجال البحث العلمى للحديث النبوى ومع إيمانه بأن المعجزة الكبرى هى القرآن الذى توافر له كل مؤهلات التحـــدى ، يعود فيحاول إسناد قصة الشجرة بتحليل بعيد عن المنهج العلمى .

إن القرآن قطع بأن معجزته هى المعجزة الكبرى حين جاء فى سورة العنكبوت : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين. أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .....

والمؤلف فى عرضه للمعجزة غفل جانبا مهما فى القضية . فالمعجزات التى نرددها فى كتب السيرة من الأمور العقيدية التى تتطلب خبراً قطعى الدلالة والورود ، وكنت أود أن يناقش المعجزات بالروح التى ناقش بها ختان الرسول وشق صدره بعد عامه الثانى فقد كان واسع الأفق خصب التفكير ...

وللمؤلف بعد ذلك تقديرنا ، فقد أضفى على بحثه لونا من التحليل العميق فجاء بحثا شيقا ممتعا .

٣ — شرح القصيدة النونية :

لفضيلة الشيخ محمد خليل هراس

هذا الكتاب فى جزءين كبيرين نشرته مكتبة أنصار السنة المحمدية بعابدين والقصيدة النونية التى تبلغ أكثر من ستة آلاف بيت ، وضعها العلامة ابن قيم الجوزية ، وأسماها « الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية » وقام بشرحها والتعليق عليها فضيلة الشيخ محمد خليل هراس المدرس بكلية الشريعة وفضيلته أقدم على شرحها شرحا مطولا ؛ لأنه يرى من ناحية أنها أعظم ما ألف فى التعريف بمذهب السلف الصالح فى إثبات الصفات لله تعالى مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقات والرد على فرق الزيغ والضلال من المعطلة النفاة ، أو المجسمة الغلاة ، ومن ناحية أخرى ، أن هذه القصيدة لم تزل بكراً لم يفتض ختامها ، والمحاولات التى سبق أن تعرضت لشرحها يسيرة ليس فيها شفاء لعليل ، ولا رى من غليل » .

أما منهج الشارح الذى ذكر فى المقدمة أنه قد التزم به ، فهو الشرح الوسط بين البسط والإيجاز ، والواقع أن فضيلته لم يلتزم تماما هذا الوسط فى الشرح ، فقد أضفى على تفسير أبيات القصيدة النونية الكثير من الشروح وأعتقد أن هذا كان ضروريا ، فالشعر مهما كانت بلاغته يقصر دون عرض القضايا الكلامية عرضا تاما سليما ، وابن قيم الجوزية حاول فى قصيدته أن يعرض مذهب السلف فى إثبات الصفات لله ، وأن يجادل ويناقش المنحرفين عن مذهبهم من الجهمية وغيرهم ، وأستاذه ابن تيمية سبقه عن طريق النثر ، وتأثر تلميذه به فى الجدل والمناقشة حين عرض هذه القضية فى كتابه (الصواعق المرسلة فى الرد على الجهمية والمعطلة) .

إن شرح القصيدة النونية بالطريقة المسهبة

التى انتهجها فضيلة الشيخ هراس، كان ضروريا فالشعر يقصر دون إيضاح المسائل العقلية المعقدة، وقد اعترف بذلك ابن قيم الجوزية حين جاء فى بعض أبياته حين تعرض لأدلة العلو والاستعلاء :

والنظم يمنعنى من استيفائها
وسياقة الألفاظ بالميزان
فأشير بعض إشارة لمواضع
منها وابن البحر من خلجان

المهمة التى أداها الشارح جديرة بالتقدير، وكان ينقصها مقدمة تلخص منهج ابن قيم الجوزية فى القضايا الكلامية التى أثارها، كما كان ينقصها التبويب المنسق الذى ييسر على القارئ استيعاب هذه القضايا المعقدة المتشعبة وروح البحث العلمى المجرد من العنف والصلابة فى الرأى .

٥ — فى أصول الحديث

لفضيلة الشيخ محمد أبو شهبة

المؤلف هو الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد أبو شهبه، الأستاذ بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، واحد كتاب مجلة الأزهر المعروفين، والموضوع من الموضوعات العلمية الشاقة التى تحتاج إلى علم وذهن خصب ودقة فى البحث والاستيعاب، فأصول الحديث - كما يقول الأستاذ المؤلف (من أجل العلوم وأشرفها وأدقها وأعظمها إفادة إذ به يعرف صحيح المنقول من ضعيفه، ومقبوله من مردوده) .

بدأ البحث بالرواية وأقسامها وكونها طريقا للعلم وتاريخها، ثم مميزاتها فى الإسلام ثم تناول الحديث فى عهد الرسول وعصر الصحابة والتابعين، ثم تحدث عن كتب أصول الرواية وشروط الراوى ومناهج المحدثين فى النقد، ثم أسباب الجرح ومراتبه وشروط المتواتر، وشبهاته، ثم أخبار الآحاد وأقسامه، ثم تناول البحث قصة الوضاعين وأمارات الوضع، وانتشار الموضوعات فى كتب العلوم وكتب التفسير وكتب الوعظ وكتب السير والأدب واللغة وختم البحث بعرض لكتب الموضوعات والأحاديث المشتهرة والتخاريج .

الكتاب - وإن كان على ما يبدو، مدرسى المنهج، ولذا جاء مقتضبا غاية فى التركيز - إلا أن الأستاذ المؤلف، قدم لنا دراسة طيبة عن أصول الحديث لا يفيد منها الطالب وحده، وإنما يفيد منها أيضا كل من يعنيهم الأصل الثانى من أصول التشريع، والذى ما زالت قضيته مثار أخذ ورد، وجدل ونقاش، وتحتاج دائما إلى دراسات مستفيضة وعلى مستوى عال من المنهج العلمى فى أصول البحث .

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

حول موضوع التبشير فى أندونيسيا :

زار السيد الملحق الصحفى لسفارة أندونيسيا بالقاهرة إدارة المجلة وتحدث عما نشر بعدد شوال عن موضوع التبشير فى أندونيسيا ، ثم قدم سيادته مذكرة بالمبادئ الخمسة « البانجاسيلا » ، وهى المبادئ التى أشار إليها الكاتب فى حديثه عن التبشير فى أندونيسيا وهى :

(١) الإيمان بالله .

(٢) القومية الأندونيسية .

(٣) الإنسانية .

(٤) الديمقراطية « سيادة الشعب » .

(٥) العدالة الاجتماعية .

ثم قال إن المبدأ الأول : وهو الإيمان بالله شرحه الرئيس أحمد سوكارنو فى خطابه الذى حدد فيه فلسفة الثورة الأندونيسية إذ قال : مبدأ الإيمان بالله ليس معناه أن الشعب الأندونيسى يؤمن بربه فحسب ، ولكن معناه أن كل فرد من أفراد الشعب يؤمن بربه : فالمسلم يعبد ربه وفق تعاليم النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسيحى يعبد ربه وفق تعاليم عيسى ، ويؤدى البوذى مراسيم عبادته تبعا لكتبه الدينية وحينئذ تكون أندونيسيا دولة تؤمن بالله .

فهلموا نعمل بأوامر الدين سواء المسلم منا أو المسيحى ، وقد أوصى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وصايا كثيرة فى التسامح واحترام الأديان ، كما أوصى بذلك أيضا عيسى المسيح . فهلموا بنا ـ عملا بتلك الوصايا ـ نعلن مبدأ الإيمان بالله الذى يعنى عبادة الله الشاملة لمكارم الأخلاق وتبادل الاحترام والتقدير .

ومن هذا يتبين الخطأ الذى وقع فيه الكاتب وقد يكون مصدر هذا الخطأ قصورا فى فهم صحيح للمبادئ الخمسة التى كان ينبغى عليه كأندونيسى أن يلم بها إلماما كاملا .

وعليه فالجمهورية الأندونيسية عملا بهذه المبادئ الخمسة تحمى حرية العقيدة ، ولا تسمح

لأى دين بأن يعادى ديننا آخر الأمر الذى يهدم مبدأ من مبادئ « البانجاسيلا » ويتعارض معها وجهمنا فى هذا الأمر أن نشير إلى نقطتين هامتين جاءتا فى كلام السيد الكاتب :

الأولى : تختص بالعون الذى تقدمه وزارة الشئون الدينية بأندونيسيا للهيئات الدينية والتعليمية المختلفة من حيث المساواة فى هذا العون بين المسلمة منها وغير المسلمة ؛ والمعروف أن عدد المسلمين بأندونيسيا يمثل ٩٥ ٪ من الشعب الأندونيسى والباقى هو ٥ ٪ موزع بين المسيحيين والبوذيين وليس من المنطق ولا الواقع أن يتساوى العون مع هذا الفارق العددى الضخم .

الثانية : عما جاء فى كلام السيد الكاتب من دخول الأجانب دون قيد ولا شرط والحق : أنه لا يسمح لأى أجنبى بدخول البلاد إلا بشروط قررتها الحكومة إذ لا يعقل غير هذا كما هو المتبع فى أى دولة أخرى .

والمجلة تفسح صدرها لهذا التعقيب ، وتعقب عليه بقول الله تعالى :

« إن الدين عند الله الإسلام » .

حول مقال الثورة الوطنية والفنية في شعر أحمد محرم

أقبلت بشغف على مطالعة مقال الباحث الفاضل الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى عن (محرم) لأنى أحس فى كل ما يكتب عن محرم فى هذه الأيام بالذات بنوع من المشاركة الوجدانية مبعثه اهتمامى بمحرم وتراثه ومصاحبتى له سنوات أقنعتنى بأصالته الفنية وخصبه المتعدد النواحى على الرغم مما لاقاه من جحود وإهمال . وكان كتابنا عنه هو أول محاولة تهدف إلى لفت الأنظار إلى ما يستحقه هذا الشاعر العظيم من تقدير . وإلى الكشف عن خصائصه الفنية وشاعريته الخصبة ، فضيت فى مطالعة المقال مستصحبا هذا الإحساس المشوب بالرضا .

غير أنى استوقف نظرى وأنا اقرأ البيت :

قتلت برشوة حقا ضعيفا
له من إثمها كفن ورمس

أن السيد الباحث أشار فى الهامش إلى مصدر البيت على أنه الجزء الثانى من الديوان ص ١٨٨ - ولما كنت موقنا أن قصيدة الرشوة لم ترد فى الديوان عدت إلى الصفحة المشار إليها ، فلم أجد القصيدة وتأكد ظنى ،

ورجعت إلى كتاب شاعر العروبة والإسلام فوجدت البيت واحداً من قصيدة الرشوة ص ١٨٨ وقد دعانى ذلك إلى مراجعة سريعة لمصادر البحث فوجدت نظائر لهذه الحالة فى الأبيات التى تشير إلى تعليم البنت ، أشار فى الهامش إلى أن مصدرها ص ٢٧٦ ج ٢ من الديوان ، والصواب أن الصفحة المذكورة من كتاب شاعر العروبة والإسلام ومصدرها فى الديوان ص ١٥٠ ج ٢ .

والأبيات التى يقول فى ختامها :

راودتنى عصبة عن حقها
وأبى العرق الكريم المنتمى

يشير إلى مصدرها ص ١٥٩ ج ٢ والصحيح ص ١٥٦ ولعل التصحيف وقع أثناء الطبع وعلى الرغم من أن السيد الباحث كان حريصا على الإشارة إلى مصادره بالنسبة للديوان فإنى أراه كان على العكس من ذلك بالنسبة لقصائد أخرى لم ترد فى الديوان فقد استشهد بأكثر من ثلاث عشرة مرة من كتاب شاعر العروبة والإسلام بأبيات من قصائد لم ترد فى الديوان ولم يشر إلى الكتاب إلا مرة واحدة وكان يسرنا أن يشير الباحث الفاضل إلى مصادر القصائد الأخرى ، وله مع عتبنا شكرنا والسلام .

محمد ابراهيم الجيوشى

تعقيبات :

— ١ —

بين الكسائى وسيبويه :

قرأت ما كتبه الأستاذ محمد رجب البيومى ليدافع عن الكسائى فلقد تلوث الغربال بعنوان ... وهو الكسائى وصمة عار فى جبين الضاد - ويقول الأستاذ إنى قرأت ترجمته فى كثير من الكتب . ولكننى أقول له بقى كتاب لم يطلع عليه وهو بغية الوعاة للسيوطى لقد كتب فيه أسطراً فى ترجمة الكسائى ونقل عن ابن الأعرابى ، قال : كان الكسائى أعلم الناس ضابطاً عالما بالعربية قارئاً صدوقا إلا أنه كان ... ... والحياء يمنعنى أن أسطر ما كتبه فراجع صفحة ٢٣٦ . أما سيبويه وحكايته مع الكسائى فسوف يكون فى مقال آخر إن شاء الله .

— ٢ —

الدكتور جمال الدين الرمادى

العلم والعمل فى الإسلام

قرأت مقال الدكتور أيضاً فراقنى أسلوبه وقدرت نفسيته التى صورت هذا المقال إلا أننى كنت أنتظر أنه لا يكتب حديثاً إلا إذا راجع مظان الأحاديث فإنه يكتب

فى مجلة الأزهر ولها شهرة عالمية كما لا يخفى فلا يصح أن يكون مصدراً لذكر أحاديث تكلم فيها بالوضع، مع أنى أكرر وأقول إن مقاله فى مستوى رفيع وهو المطلوب من العلماء. فلا غبار على الأسلوب وملاحظتى على ذكره للأحاديث التى ذكرها، فنها أنه كتب وقال: (من طلب الدنيا فعليه بالعلم ومن طلب الآخرة فعليه بالعلم) هذا كله لم يسمح من الأفواه ولم يذكر فى كتاب أنه حديث وإذا كان قد ذكر على أنه حديث فليبين، ولا يصح التساهل. فقد جاء الوعيد فى التساهل، كذلك ذكر حديث (إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم) وقد نبه عليه جلال الدين السيوطى فقال منكر لا أصل له. والحكم كذاب يروى الموضوعات.

وقال ابن عدى لا يروى عن الزهرى غير الحكم ثم عقب عليه فى صفحة ١٠٩ فى كتاب اللآلئ المصنوعة والعلم ليس فى حاجة إلى ذكر أحاديث لم تصح فحسبه قوله جل ذكره. «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»... ولنا كلمة أيضاً فى مقال الأستاذ الشرقاوى فى القهوة سنذكرها فى مناسبة قادمة بعون الله تعالى؟.

سيد على المعرجى

ذكرى الرافعى:

لم ألق فى الأدباء مثلك (مصطفى)
تحكى يراعته الحسام المرهفا

تحمى حمى أم اللغات بحده
وتذود عنها من بغى وتعسفا

قول كآيات الكتاب تنزلت
قد جل حسن بيانه أن يوصفا

كالصبح نوراً والنسائم رقة
والدر نظما والربيع مفوفا

ألقى البيان قياده لك تنتقى
منه - كما شئت - الأرق الألطفا

* * *

يا ناصر الفصحى بقولك لم تكن
متصنعا فيه ولا متكلفا

أعليت بالأدب الرفيع لواءها
فهفا على العرب الكرام ورفرفا

وأعدته شعبا قويا بعد ما
قد كان أوهى ما يكون وأضعفا

فلتبق ذكراك الكريمة بيننا
فهى الأحق بيومها أن يحتفى

عبد الرحمن نجا

باب الفتاوى :

من أضابير لجنة الفتوى

يشرف عليه : ابراهيم محمد الأصيل

السؤال :

الجمع بين صلاة المغرب والعشاء لعذر المطر

جماعة جمعوا بين صلاة المغرب والعشاء بسبب غزارة المطر وصلوا العشاء قبل المغرب ، بحجة أن وقت المغرب قد فات لأنهم صلوا بعد وقت العشاء .

فهل صلاتهم صحيحة وفى أى المذاهب تصح وأيها تبطل ؟

عبد العزيز عبد الله القطيفى ـ الكويت

الجواب :

مذهب الإمام أحمد رضى الله عنه جواز الجمع بين المغرب والعشاء خاصة للمطر تقديما وتأخيراً بشرط أن ينوى الجمع فى وقت المغرب قبل خروجه بما يسع الصلاة ليتميز التأخير المشروع عن التأخير تعدياً ، فإن لم ينو كان متعدياً بتأخيرها وكان فعلها فى وقت العشاء قضاء .

وعلى كل : سواء فعلت مع العشاء أداء للعذر أى نوى التأخير قبل خروج وقتها أو قضاء فإنه يجب الترتيب بين المغرب والعشاء لأن الفعل يحاكى استقرارها فى الذمة ، وحيث ثبتت فى الذمة مترتبة فإنه يجب فعلها كذلك مترتبة . فإن خالف وعكس الترتيب بأن صلى العشاء قبل المغرب كما فى مسألتنا كان فعل العشاء باطلا يجب فعلها ثانيا بعد صلاة المغرب .

ومذهب الشافعية عدم جواز الجمع تأخيراً بالمطر وعليه ففعل المغرب مع العشاء فى وقت العشاء لا يكون إلا قضاء . والترتيب فى فعل المقضيات مندوب خروجا من خلاف من أوجبه لا واجب ، فإذا صلى العشاء أولا والمغرب ثانيا وقعت صحيحة وإن لم يأت بالمندوب .

ومذهب الحنفية عدم جواز الجمع إلا فى الظهر والعصر تقديما بعرفة والمغرب والعشاء تأخيراً بمزدلفة فلا يجوز الجمع عندهم فى غير ذلك ، وعليه ففعل المغرب فى وقت العشاء فى غير المزدلفة يعتبر قضاء ، والترتيب واجب إن كان من أهل الترتيب بأن لم يترك فى حياته ست صلوات ولو من أيام متفرقة لسهولته عليه حينئذ فإن لم يكن من أهل الترتيب بأن اجتمع عليه ست صلوات فأكثر سقط وجوب الترتيب وله أن يصليها كيف شاء ، فإذا صلى العشاء قبل

المغرب حينئذ وقعت صحيحة لعدم وجوب الترتيب .

ومذهب المالكية عدم جواز الجمع بين المغرب والعشاء تأخيرا بالمطر فتأخير المغرب إلى وقت العشاء موجب للإثم والترتيب بينهما واجب بحيث لو فعل العشاء قبل المغرب كانت العشاء باطلة .

وهذا هو حكم المسألة فى المذاهب الأربعة كما طلب السائل .

الغسل مع صبغ الشعر وتخضيب الأظفار والحمل الصناعى

السؤال :

١ — هل الشارع يمنع الحائض أثناء الحيض من صبغ شعرها وتخضيب أظفارها وإن فعلت لا يصح لها غسل لامتناع وصول الماء للشعر والظفر لكونهما تخفيا وهما بحالة غير طاهرة ؟

٢ — تقدم الطب الذى تمكن من إعطاء مصل منوى للمرأة بطريقة الحقن تحمل بواسطته طفلا وتنجب أولادا فما رأى الشرع ؟

مدير الأشغال العامة بطرابلس - لبنان

الجواب :

عن الأول نفيد بأن الأصباغ التى يصبغ بها الشعر ويبقى أثرها لا تمنع فيه الطهارة فى الوضوء والغسل سواء أثناء الحيض أو أثناء الطهر منه وأن الأصباغ التى يخضب بها النساء أظافرهن الآن لا تمنع الطهارة فيها وقد نص الحنفية فى باب الغسل كما فى شرح الدر على أنه لا يمنع الطهارة ما على ظفر الصباغ كما نص الشافعية فى هذا الباب كما فى حاشية الباجورى على شرح ابن قاسم على أنه : « يجب إزالة ما على اليدين من الحائل كالوسخ المتراكم من خارج إن لم يتعذر فصله ، وإلا لم يضر لكونه صار كالجزء من البدن » .

ولا شك أن إزالة الخضاب فى كل وضوء وغسل متعذر فيصح وضوءهن وغسلهن دون أن يكلفن إزالة هذه الأصباغ .

وأما عن السؤال الثانى فنفيد: بأن التلقيح الصناعى المذكور فى السؤال محرم شرعا وفيه من اختلاط الأنساب ما لا شك فيه فيحرم قطعاً سواء رضى الزوج به أم لم يرض .

أجرة دخول الماشية فى السوق :

السؤال :

اشترى شخص من الجزائر سوقا من الحكومة وهذه السوق تستعمل فى بيع المواشى فيحضر البائع ماشيته ليبيعها فى هذه السوق ، ولمالك السوق الحق فى أخذ مبلغ معلوم على كل رأس تدخله . فهل المبلغ المعلوم هذا حلال أم حرام ؟

ميساوى الأخضر

الجواب :

هذه أجرة جائزة على مكث الماشية فى السوق يوم البيـــع والشراء ولا يضر فى ذلك تفاوت المدة طولا وقصراً لجريان العادة بذلك ورضا النـاس به ما دامت الأجرة معلومة كما ذكرت .

إقراض المصوغات المنضبطة وزنا وعيارا

السؤال :

أرادت سيدة أن تقترض من أخرى مبلغا هو خمسون جنيها ولكن السيدة الثانية لم يكن معها سوى ٢٠ فقط ، فألحت الأولى كثيرا لتقترض من الثانية مما استدعى الثانية أن تعرض عليها بيع بعض المصوغات لسد حاجتها ، وفعـلا اتفقنا على أن تبيع الثانية الذهب ولما ذهبنا إلى الصائغ وجدت السيدة الثانية أنها إذا باعت الأساور سوف تخسر جـــزءا من قيمتها عند الاسترداد فعرضت عليها الأولى أن توفى بجميع المبلغ بما فيه الخسارة وفعـلا بيع ما قيمته ١٨ قيراطا من الذهب على أن يرد ثانية عند الوفاء ١٨ قيراطـــا ثم حـــدث عند الوفاء أن زادت قيمة هـذا القـدر عن المبيع سبعة جنيهات مصرية .

والسيدة الثانية تسأل عن حكم أخذ هذه الزيادة ؟ محمد على

الجواب :

الأساور الآن منضبطة وزنا وعيارا وصنعة بسبب ما يوجد حول هذه الصنعة من الاحتياط ودمغ المنضبط الصحيح عياره منها دون غيره فيجوز حينئذ إقراضها على أن يرد مثلها وزنا وعيارا وصنعة وإن ارتفع الثمـن وقت التسديد عن وقت الاقتراض .

القتل الخطأ

السؤال :

كنت سائقا سيارتى الخاصة وفى أثناء سيرى بها صادفنى شخص يركب دراجـــة فاصطدم بالعــربة دون خطأ منى مما أدى إلى قتله

وأريد أن أعرف حكم الشرع فى هــذه المسألة حتى لا أسأل عنها أمام الله ؟

ح ـ ب ـ عنابة ـ الجزائر

الجواب :

صاحب السيارة إذا لم يتمكن من تفادى هذا الصدام بأى وجه من الوجوه يكون لا دخـل له فى القتل وحينئذ فلا شىء عليه ولا تلزم الدية . أما إذا كان يستطيع أن يتلافى هذا الصدام بوجه من الوجوه ولكنه لم يفعل يكون عنده نوع من التقصير فتكون الدية مناصفة نصفها عليه والنصف الآخـر يسقط عنه .

ويكون عليه كفارة القتل الخطأ وهـو صوم شهرين متتابعين فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا لكل مسكين مد من الطعام .

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : الأستاذ عبد الرحيم فودة

تمكين الحق

إن إرادة الله كانت تحتم تمكين الحق من السلاح الأقوى لكى يستطيع أن يعلى كلمة الله بنصره .

وفى نفس الوقت بذلتم جميعاً هناك أخلص الجهود وأكرمها لكى لا تسيل على أرض اليمن دماء غزيرة ، ولقد كان سلاحكم قادراً ـ لو تركتم له العنان ـ أن يسيل دماء بغير حساب ، لكن العقاب لم يكن غايتكم ، لقد كنتم هناك أصدقاء الحياة ولم تكونوا أعداءها .

وإنى لأعلم أن كثيرين من شهدائنا الأبرار الذين جادوا بالدم الزكى على أرض اليمن راحوا ضحية محاولتهم تجنب سفك المزيد من الدماء ، وكشفوا أنفسهم للعراء أمام كل فرصة لاحت للسلام .

لقد وضعتم الدعوة جنبا إلى جنب مع طلقة الرصاص ، وفتحتم قلوبكم قبل أن تفتحوا نيران مدافعكم ، ووصلت رسائلكم بكلمة الهدى تسبق طائراتكم ، كل ذلك حرصا على الحياة ، وفهما عميقا للمرحلة التى تجتازها أمتكم وفيها من يسعى على أرضها بالضلال والتضليل ويترك للمخدوعين أن يدفعوا وحدهم ثمنها . .

الرئيس جمال عبد الناصر

من خطابه فى الاحتفال بعودة الأبطال

« جريدة الأهرام »

يبنى ولا يهدم

والمجتمع الإسلامى لا يهدم من كيان الاجتماع الذى استفاده بنو الإنسان من أطوار حياتهم الاجتماعية فى الحقب الطوال ، لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية كما يسردها القرآن الكريم أن حياة النوع الإنسانى تاريخ متصل يتمم بعضه بعضا . وتنتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل فى أخوة عامة لا فضل فيها لقوم على غيرهم إلا بالعمل الصالح ، ولهذا يحرص الإسلام على كيان الاجتماع فى الشخصية الفردية وفى الأسرة وفى الإيمان بوحدة النوع ،

ولا يهدم بنية من هذه الأبنية الحية التى « تحققت » لتعيش بين القوى العاملة فى المجتمع لا لتنهدم وتندثر فى حقبة بعد حقبة كأنها من الشرور التى تولد على الرغم منا . وتعود كلما استأصلناها كرة بعد كرة ولا ندرى من أين تعود . .

عباس محمود العقاد

من كتاب الشيوعية والإنسانية

بعد الفتح بالقلم

قالوا غزوت ، ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

« شوقى »

من الشوقيات

قيم الحضارة العربية

.. والقيم التى تستطيع الحضارة العربية ويستطيع العرب أن يفيئوها على البشرية تتناول جوانب الدنيا كلها ، ولكن منها قيما ثلاثة نعتبرها محاور الحضارة العربية أو معالم الحياة الإنسانية كما يتصورها العرب ويؤمن بها ، وهذه القيم هى :

أولا : الإيمان بالقوى الروحية ، وإذا كانت الحضارات المعاصرة قد نعمت فى فترات من تاريخها بالانقياد لتعاليم الديانات السماوية ، فإن الحياة الواعية لشعوب الغرب اليوم لا تفسح مكانا للديانات . أو القوى الروحية ، وكان من ذلك ما يعرفه كل أحد من سيادة القيم المادى للحياة والأحياد ، وانتزاع الأمن والرضا . واختفاء السعادة الإنسانية الأصيلة من حياة الناس .

ونحن العرب نؤمن دائما بالله .. وبالغيب . وبالآخرة . وبالقيم الروحية التى تميز الإنسان باعتباره نفحة من روح الله ، ونؤمن بأن تجديد هذا الإيمان فى نفوس العرب أولا . ثم فى نفوس الناس كلهم ثانيا هو مفتاح السر الذى يفتح آفاق الخير والحضارة الإنسانية الحقة أمام الشعوب كلها . .

ثانيا : الإيمان بالإنسان ، وإذا كانت الحضارات كلها تدعى إيمانها بالإنسان فإننا نحن العرب نستمد هذا الإيمان من تصور خاص للإنسان باعتباره مركز هذا الكون ومحوره ، وباعتباره صاحب الخلافة عن الله فى أرضه ، وإيماننا بالإنسان يتخذ — فوق ذلك — صورة الحرص على تكريم

الفرد ، واحترام ذاته ، وتقديس حريته ، لأن الله تعالى يعامله على هذا النحو فيقول « ولقد كرمنا بنى آدم » ثم يقيم شريعته كلها على أساس هذا التكريم ، فيقرر له حرية اختيار العقيدة والفكرة ، ويحمى حياته وماله وحرمته من الأذى والعدوان . وإذا كانت مشكلة الحضارات ليست فى جملتها سوى مشكلة الإنسان ... فإن هذا التقييم الخاص للإنسان كفيل فى الحقيقة بحل أزمة الحضارة المعاصرة .

ثالثا : الإيمان بالسلام ، والدعوة إليه .. وهذه القيمة مستمدة هى الأخرى من أديان السماء ، فالمسيحية جاءت سلاحا خالصا للناس والاسلام يستمد اسمه من السلام ، ويجعل تحيته السلام ، ويجعل الأصل فى علاقات الناس حتى مؤمنهم وكافرهم هو السلام فيقول « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

والدنيا اليوم عامرة بالحقد والعداوة والبغضاء ، ونفوس الناس مستعرة بنار هذه الأحقاد ... وهيهات أن يصنع السلام أمثال هؤلاء ... أما عن العرب فندعوا إلى إقامة السلام داخل النفس البشرية أولا ... حتى إذا توافقت طاقاتها على الخير كان من الطبيعى أن تصنع السلام العالمى وأن تمكن له؟

دكتور احمد كمال أبو المجد

من مجلة الرابطة الاسلامية

الحياة لمن قويا :

إننا لا نريد أن تساس مصر بأسلوب هؤلاء الفلاسفة ، وإن كنا نرحب بهذا الأسلوب على أنه لون من ألوان الثقافة النظرية يضيف إلى أذهاننا معلومات ، وإنما نريد أن تساس بأسلوب الحياة التى لا تحترم إلا القوة ، ولا يعيش فيها إلا الأقوياء ، وإذا كنا مع دولة (صدقى باشا) فى أنه يجب الاعتماد على أنفسنا والعناية بشئوننا الخاصة ، وعدم الاسراف فى العاطفة نحو جيراننا . فإننا مع ذلك يجب ألا نتخلى عن التبعات الثقيلة التى ألقتها الأقدار على عاتق مصر من قديم ، فاضطلعت بها فى صورة كريمة مشرفة يزدان بها تاريخها المجيد ، فقد حطم التتار بغداد وقوضوا صروح حضارتها ، ثم اندفعوا يهلكون الحرث والنسل إلى أن جاء دورهم مع مصر فحطمتهم وأنقذت الشرق من شرورهم وأخطارهم ، وقد انتزع الصليبيون بيت المقدس من المسلمين ، وظل فى أيديهم أحقابا طوالا ، ثم جاء دور مصر معهم فردتهم على أعقابهم ، واستردت منهم هذه الوديعة التى أؤتمن عليها المسلمون والعرب .

ع . ف

من مقال بجريدة الزمان

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني — السنة الخامسة والثلاثون — صفر سنة ١٣٨٣ هـ — يوليه ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

١٢
٢٢٢٢٦
دوريات

حول « أمة التوحيد تتوحد »

للإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر

اطلعنا على عدد « المحرم » من مجلة الأزهر ، وقرأت فيه مقال رئيس التحرير الأستاذ أحمد حسن الزيات المعنون « أمة التوحيد تتوحد » .

وقد لفت نظري في هذا المقال تلك المقابلات التي عقدها بين بقاء عناصر الوحدة ودوامها ، وعدم ثباتها واستقرارها .

وليس بخاف كما يؤكد التاريخ والواقع أن عناصر الوحدة الإسلامية ومقوماتها كانت — ولا تزال — ذات أثر فعال ، وصلاحية إيجابية في بناء مجتمع قوي متماسك وبخاصة في الفترات التي يتهيأ فيها الأمة الإسلامية قادة يأخذون بمبادئ الإسلام وعناصره الخالدة في العقيدة والنظم والأخلاق ، ومن هنا كانت الوحدة الإسلامية خالدة بخلود هذه العناصر التي أرادها الله لأمة محمد صلى الله عليه وسلم أساسا لقيامها وقواعد لكيانها .

ومن هنا كذلك كان نجاح الثورات الإصلاحية مرهونا بمدى تجاوبها مع هذه المبادئ وتلك الأسس .

هذا . وقد وافق الأستاذ الزيات على أن ينشر بيانا في هذا العدد يصحح فيه الفكرة ، ويزيل اللبس الذي وقع في مقاله السابق لتطمئن النفوس إلى أن مجلة الأزهر حريصة على اتجاهها العلمي وطابعها الإسلامي .

وإنا لنرجو لمجلة الأزهر ، ولكل أجهزة الدعوة الإسلامية التوفيق في الوصول إلى الأهداف التي جاءت بها شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتي بها تدوم وتعم ، وهي التي من أجلها يعمل الأزهر .

ونسأل الله التوفيق في العمل ، والعصمة من الزلل ... « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ...

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

تشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثاني — السنة الخامسة والثلاثون — صفر سنة ١٣٨٣ هـ - يوليه ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

إيضاح وبيان :

وحدة لا وحدتان

خالج بعض النفوس المؤمنة شيء من قولي في العدد الماضي من هذه المجلة : « إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة لأنها قامت على العقيدة. ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول . وأن الوحدة الصلاحية كانت جزئية خاصة لأنها قامت على السلطان والسلطان يعتريه الوهن فيزول . أما الوحدة الناصرية فباقية نامية لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديمقراطية في الحكم ، وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة ألا تستأثر فتستغل ، وألا تستبد فتطغى ، وألا تحكم فتتحكم » .

والقول الذي أعتقده وأقصده هو أن الوحدة الناصرية المقترحة غير مغايرة ولا مستقلة عن الوحدة المحمدية وإنما هي تجديد لها ؛ لأنها كما قلت في عدد شعبان الماضي من هذه المجلة : « طبقت مبادئ الإسلام التي فهمت ولم تعتقد ، أو اعتقدت ولم تطبق ؛ فالأمر شورى والحكم عدل والرزق شركة

والناس سواسية والشعب حاكم ، فإذا قلت إنها إذا نفذت ستبقى وتدوم فذلك لأنها هي الإسلام مطبقاً بالفعل منفذاً بالقانون مؤيداً بالحكم . ولو كانت غير ذلك لما اطمأن إليها قلب ولا اجتمع عليها رأى .

ولو كان الأمر أمر السلطان بغير عقيدة لكان من الممكن أن يحدث للوحدة الناصرية ما حدث للوحدة الصلاحية .

ولو كان الأمر أمر العقيدة من غير تطبيق لحدث ما حدث للوحدة السياسية المحمدية : فقد ظلت عامة قوية حين كان الإسلام معتقداً مطبقاً فى عهد الخلفاء الراشدين ومن استنار بسيرتهم . فلما طغت العصبية فى عهد الأمويين ، واشتدت الفردية والشعوبية فى عهد العباسيين ، وحال الإسلام فى نفوس أهله إلى مبادئ نظرية لا تتعلق بالحكم ولا تتصل بالسلوك تمزقت الوحدة وانفصمت العروة وانقسم المسلمون إلى فرق ، وانشعبت الدولة إلى دول .

ولو ظلت الوحدة الإسلامية قوية فى النفوس مطبقة فى الحكم كما كانت فى صدر الإسلام لظلت الوحدة المحمدية السياسية باقية نامية من عصر إلى عصر حتى يوم الناس هذا .

هذا ما اعتقدته وأردته . ولعل الإيجاز الذى أديت به هذه الجملة اعتمادا على ما كتبت من قبل فى هذه المجلة كان سبباً فى هذا الإبهام فأنا أوضحه فى هذه الكلمة ؟

أحمد حسن الزيات



في مطالع الأعوام
نظرة إلى التنجيم في العالم المتمدن

للأستاذ عباس محمود العقاد

كان علم النجوم فى زمن من الأزمنة الغابرة يسمى بالعلم السماوى ، أو العلم العلوى ، أو العلم الإلهى ... وكان علماً واحداً ينطوى على عدة علوم : أولها علم الدين ؛ لأن الأقدمين كانوا يعبدون الكواكب ويخصون كل نجم بالربوبية على جزء من أجزاء الطبيعة أو قوة من قواها .

ومن علوم النجوم « علم الفلك » الذى يبحث فى حركات الكواكب ومواقيت طلوعها واحتجابها .

ومنها علم الملاحة لاعتماد السفن على رصد الكواكب واختلاط الأمر يومئذ بين دراسة الفلك ودراسة الظواهر الجوية على إطلاقها .

ولقد كان علم الزراعة يرتبط بعلم الفلك ؛ لاعتقاد الزراع قديماً أن المحاصيل الزراعية تنمو بفضل البروج والمنازل السماوية التى تشرف عليها وتقترن أحياناً بمواعيد الأمطار والفياضانات .

وأما العلم الذى كان فى الواقع يغطى على علوم الفلك جميعا فهو « علم التنجيم » أو علم الطوالع وما تنطوى عليه من أرصاد السعود والنحوس . فقد كانت كلمة التنجيم إذا أطلقت تعنى فى عرف الأكثرين علم النظر فى الغيب واستطلاع السعود والنحوس وتدبير أسباب الوقاية التى يزعم المنجمون بطلاسمهم وأباطيلهم أنها تنفع فى هذه الأمور .

ولقد مضى الزمن ، وتقدم الناس أو تقدم المتمدنون منهم ، فتركوا عبادة النجوم وعرفوا الحقائق عن علوم الملاحة والزراعة ، وعرفوا ما لم يعرفوه قط - من قبل - عن حركات الأفلاك ومنازل الفضاء ، فأصبح للفلك علم مستقل غير علوم اللاهوت وعلوم الملاحة والزراعة وانقطعت الصلة تماما بين هذا العلم الواسع وتلك الخزعبلات التى كانت تسمى بعلم التنجيم ، واضطر علماء الغرب أن يفصلوا بينهما فى لغاتهم ، فأصبح علم « الاسترونومى » أى علم الفلك غير علم « الاسترولوجى » الذى يطلق على التنجيم .

وكان المظنون أن أبناء الغرب المتمدنين قد فرغوا من أمر التنجيم وخرافاته ، وقد عرفوا من حقائق الأفلاك في هذا الزمن ما يعرفه عن تلك الخرافات التي صدقها أسلافهم ؛ لجهلهم بأقرب الكواكب إليهم وخلطهم بين مواقع النجوم التي ترى بالعين المجردة ، وهم لا يعرفون أبعادها ولا يدركون آفاقها .

أما اليوم والأرصاد الفلكية تكشف الآفاق إلى مدى الملايين من السنين الضوئية وعلماء الفلك يعرفون عن تكوين الكواكب مثل ما يعرفون عن تكوين هذه الكرة الأرضية ، ويتحدثون عن السفر إلى تلك الكواكب كما يتحدثون عن الممكنات أو عن الصعوبات التي تقبل التذليل ، فلا ندري كيف يعقل الإنسان المتمدن أن أسرار السماء والأرض في الحاضر والمستقبل ، يكشفها المنجمون الجهلاء وينبئ عنها من غاب عنه كل كشف جديد من كشوف السماء ولكن الواقع العجيب أن المصدقين بالتنجيم اليوم بين المتمدنين في الغرب ، يزيدون كلما ازدادت كشوف الفلك الحديث ، وأننا لا نزال نتلقى من المطبوعات الأوربية والأمريكية أشتاتا من التقاويم والمجلات وجداول الأرصاد والطوالع ، مخصصة كلها لمسائل التنجيم ونبوءات الحاضر والمستقبل ، ودلالات الأفلاك على مصاير العظماء ومقادير الدول والحكومات وفي كل لغة من اللغات الحية تصدر التقاويم السنوية ، وتصدر المجلات الدورية ، وتصدر الكتب والمصنفات ، وتصدر دوائر المعارف ومراجع التاريخ وينتظم صدورها كما ينتظم صدور أمثالها من المطبوعات المخصصة لمباحث العلوم والآداب والفنون ، ويشتريها طلاب الطوالع بالأثمان الغالية التي تزيد أحيانا على أثمان كتب العلم والصناعة ودراسات الفنون والصناعات .

وقد عنيت إحدى المجلات السيارة بإحصاء هذه الظاهرة العجيبة ، فتبين لها أن الاهتمام بالتنجيم في ازدياد ، وأن الأمم الأوربية والأمريكية لا تقل عن أبناء القارات الأخرى في إقبالها على قراءة كتب التنجيم ، وعلى استشارة المنجمين في أخطر الشئون : ومنها مشروعات التجارة والاقتصاد ، واختيار الشركاء والأزواج .

وإذا صح الإحصاء الذي اعتمدته المجلة فقد ازداد عدد المقبلين على استشارة المنجمين في الولايات المتحدة ـ بعد الحرب العظمى ـ من ثلاثة ملايين إلى عشرة ملايين ، وأصبح عدد المكاتب المفتوحة لقراءة الطوالع يقارب

خمسة آلاف ، ويقدر عدد المؤمنين بالطوالع الفلكية فى ألمانيا بنسبة سبعة وعشرين فى المائة من مجموع سكانها ، وأن رجال السياسة فى إيطاليا كثيراً ما يزورون مكاتب المنجمين تحت جنح الظلام ليسألوهم عن طوالع الأحزاب والحكومات ، وأن دور الملاحة فى اليابان لا يندر أن تستشير المنجمين لاختيار الساعة الملائمة لإنزال السفن الجديدة إلى الماء ، وأن الناشرين اليابانيين وزعوا فى سنة واحدة ثمانية ملايين نسخة من خرائط الطوالع التى تسمى بالاصطرلاب ، وأن فى إيطاليا عشرين مجلة منتظمة لا تنشر شيئاً غير النبوءات ومايتعلق بها من أسئلة القراء وأجوبة المنجمين ، وأن طائفة غير قليلة من أصحاب الأعمال يتذاكرون إلى اليوم مقدرة المنجمة إيفانجلين آدمز Evangelin adamz التى كانت تقنع مورجان ـ صاحب الملايين بنبوءاتها عن تقلبات السوق ، ولا يبالون من أجل ذلك أن يجازفوا بأموالهم معتمدين على أرصاد المنجمين والمنجمات .

وقد أرادت المجلة أن تلتزم جانب الحيدة العلمية فى رواية تلك الأخبار ، فنقلتها على علاتها ولم تظهر للقارىء أنها تستخف بها ولا أنها تصدقها وتطمئن إليها ، ولكنها نقلت كذلك أخباراً أخرى عن بعض المنجمين يمثل هذه الأمانة فى الحكاية ، وفيها ما فيها من التشكيك على الأقل بفريق من المحترفين لصناعة التنجيم .

قالت إن ثلاثة من سبعة من كبار المنجمين . المشهورين رسموا خريطة السيارات الشمسية فوضعوا الأسفل منها فى موضع الأعلى . . ولا تدرى المجلة ـ كما تقول ـ أعن جهل كان ذلك أم إهمال ؟ .

وقالت عن عالم برازيلى أنه ضجر من إلحاح بعض الناشرين عليه ليرسم له خريطة سماوية مقرونة بالطوالع ، فتخلص منه بإحالته إلى سكرتيره ليقنعه أو يريحه من إلحاحه ، فاخترع له السكرتير خريطة من عنده نقلها من بعض المهملات المهجورة ، ولا تزال هذه الخريطة المخترعة تباع وتستشار فى مهام الأمور .

ويتساءل كاتب البحث عن التنجيم : ترى ماذا يصنع المنجمون فى أمر التوائم الذين يتشابهون بأسماء الأمهات والآباء وساعات الميلاد وأماكن الولادة ، ولا يمكن أن يتفقا فى حوادث الحياة ؟ .

ويعجب الكاتب : لماذا يذكر الناس قليلا من الأخبار التى تصح ببعض التأويل بل لا تصح إلا مع التعسف فى التأويل ، ثم هم لا يذكرون عشرات الأخبار التى كذبت

كل الكذب، ومنها أخبار المنجمين في القرون الوسطى عن نهاية الدنيا وهي قائمة بعد تلك النبوءات لا تزال ؟ .

إلا أن المجلة في الواقع قد بالغت في احترام تلك الخرافات وفي مناقشتها كما يناقش الجد الذي تخفى أباطيله أو تحتاج إلى بحث يكثر فيه القال والقيل .

إن الأساس الذي يقوم عليه التنجيم قد تهدم ، ولم يبق للمطلع على أبسط بسائط الفلك ذرة من الشك في بطلانه .

فهم يبنون علوم التنجيم على السيارات السبع ، ويعدونها فيخطئون لأنهم يحسبون القمر من السيارات وليس هو منها ، ولا يحسبون الكرة الأرضية وهي في وسطها .

وكان المنجمون الأقدمون يجهلون ثلاثا من السيارات لأنها لم تكشف قبل اختراع المنظار المقرب أو التلسكوب. وهي أرانوس الذي كشفه وليام هرشل سنة ١٧٨١ ، ونبتون الذي كشف في منتصف القرن الماضي، وبلوطس الذي كان معروفا بالظن ولم يعرف على وجه التحقيق قبل سنة ١٩٣٠ وأدل من ذلك على جهل المنجمين الأقدمين أنهم يذكرون بروج الفلك ويذكرون سلطان كل برج منها كأنه ثابت في مكانه ، لأن معلوماتهم عن دائرة البروج ترجع إلى ما قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة ، ولأن الفلكيين قبل ذلك التاريخ كانوا يحسبون أن مدار الأرض فيها ثابت على اتجاه واحد ، ولكن الفلكي هيباركس Hipparchus أثبت أن البروج تنتقل من أماكنها، وثبت بعد ذلك أن خط البروج انتقل قبل ألفي سنة من برج الحمل إلى برج الميزان ، وأنه الآن ينتقل من برج الحوت إلى برج السنبلة ، ولا تزال تتقهقر حقبة بعد حقبة حتى تعود إلى أماكنها ، فلا يتم انتقالها إلا مرة في كل ستة وعشرين ألف سنة ، ولا تتفق طوالع المواليد اليوم وطوالعهم قبل ألف سنة ولا قبل مائة سنة ، لأن مواضعها في أفلاك البروج لا تزال في انتقال واختلاف.

هذه الحقائق الفلكية قد أصبحت أكثر من مجرد حقائق علمية يدرسها الرياضيون في مراصدهم ، لأنها وقائع تلمس آثارها كل يوم في أرصاد الأجرام السماوية وأدوار المذنبات وحساب الكسوف والخسوف ، وبها يستطيع الفلكيون أن يقدروا بالساعة والدقيقة مواقيت الحوادث الماضية في المنظومة الشمسية كما يقدرون أمثالها بعد ألف سنة ، وكل حقيقة منها تنقض أباطيل المنجمين عن السيارات والبروج وعن الشمس والقمر من غير السيارات ، وتثبت لنا أن أولئك المنجمين قد جهلوا ظواهر الفلك الواضحة

فضلا عن أسراره المستورة عن النظر أو فى مجاهل الغيب .

فهم لم يكشفوا السيارات نفسها فضلا عن أن يستعينوا بها على كشف الحاضر والمستقبل من حوادث الدنيا وضمائر الناس .

وهم قد جهلوا مركز الأرض بين الأجرام السماوية، فضلا عن مراكز الأحياء والأموات الذين يعيشون ، أو كانوا يعيشون على ظهرها.

وهم قد جهلوا أن البروج تنتقل من أماكنها فضلا عن الأماكن التى تتسلط عليها تلك البروج كما يزعمون ، ومنها يتنبئون بتقلب الناس فى الحل والترحال ، وما يعترضهم فى أسفارهم من السعد والنحس أو من الكسب والخسارة ، وأن العلم الذى يخطئ فى ما يعلمه الآن كل إنسان هيهات أن يحيط بالمجهول الذى لا يعلمه أحد، ولا يتأتى علمه لغير علام الغيوب.

إلا أن التنجيم الذى يقبل عليه المتمدنون فى هذا العصر يعلمنا شيئا يعنينا جداً أن نعرفه عن أسرار النفس البشرية فى كل زمن وفى كل بلد . ويبين لنا خفايا الضمير التى تبين على غير قصد من المنجمين ولا من طلاب التنجيم .

إن عبرة الإقبال على التنجيم فى عصر العلم أن النفس البشرية لا تحب أن تنقطع عن عالم الغيب ولا تشعر بأن الظواهر المكشوفة تغنيها عما وراء الحجاب من مقادير الوجود، وقد يشبع العلم رءوس الناس ولكنهم لا يزالون بقلوبهم جياعا إلى غذاء آخر يستمدونه من قوة أخرى ، وهو الذى يلتمسونه من هنا وهناك بين الصواب والخطأ وبين الهداية والضلال .

إن التنجيم باطل ، ولكن شوق النفس البشرية إلى المجهول صحيح ، وليس من النافع لها أن تكف عن طلبه ، ولكن من النافع لها أن تميز بين طريق الهداية وطريق الضلال، وأن تطلب الحق حيث يطلب وإن طالت بها شقة الطريق . فليس يضيرها إذا استقامت على الجادة أن تطول الطريق .

ولا ندرى ما هى النسبة العددية التى تظهر لنا بالمقارنة بين الأمس واليوم هل يزيد الإقبال على التنجيم فى بلادنا أو ينقص ؟ وهل يصدق علينا ما ترويه المجلة الغربية عن العالم الغربى أو لا يصدق على ذلك المثال ؟ .

ولكننا ندرى إن شاء الله ، ما يجب علينا فى هذا المقام .

ندرى أننا سبقنا الغرب إلى معرفة التنجيم آلاف السنين ، فمن حقنا أن نسبقهم إلى العلم بأباطيله ، وأن نقنع منه بنصيبنا فى الماضى فلا نشاركهم فى بقيته الباقية بعد اليوم .

عباس محمود العقاد

هذا بيان للناس

من فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

إلى العالم الإسلامي لوقف العدوان على علماء إيران

أيها المسلمون :

إننا على أبواب فترة من الزمن شغل بعض الناس فيها عن دينهم مظاهر المدنية وزخرف الحياة ، بينما شخصت أبصار كثيرة فى الشرق والغرب تتلمس الخلاص والنجاة . وتفتحت قلوب كثيرة على هدى الإسلام ونور الله ، انساقت إليه بفطرة سليمة ، أحست الجلال فى وقاره والأمان فى رحابه ، والقوة فى توجيهه والسداد فى إرشاده ، والعدالة فى تشريعه ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها » .

فى هذه الفترة تتعالى صيحات ، ويتكرر فى وضح النهار اعتداءات ، ضحايا علماء الإسلام فى إيران والمبشرون بدعوة الله والقائمون على أمر دينه ، وليس عليهم من مأخذ إلا أنهم يعلنون كلمة الله .

أيها المسلمون :

إن العمل على إنقاذ المظلوم أمر يحتمه الإسلام ويوجبه ، ورفع الضرر عن الناس خلق يأمر به الإسلام ويفرضه ، وليس أدعى إلى النجدة من رفع الأذى عمن لحقه دفاعاً عن دينه ، واستمساكاً بواجبه ، وتضحية من أجل رسالته .

وعلماء الإسلام فى إيران قد تكرر الاعتداء عليهم ، ونالت ويلات السجون منهم ، وحيل بينهم وبين الأمر بالمعروف الذى يطلبه الإسلام من كل قادر عليه ، والنهى عن المنكر من كل مستطيع له ، ولن يكون فضل هذه الدعوة إلا للأمة ، ولن يكون خيرها إلا للجماعة ، فحياة الأمم بالأخلاق ، وعماد الأخلاق دين الله : أحكامه وآدابه ، وتشريعاته وإرشاداته وإن أصحاب التوجيه وعوامل التأثير هم العلماء فى كل أمة ، والأخلاقيون فى كل شعب ، بدعواتهم وإرشاداتهم تتهيأ للأمة أسباب الارتقاء ، ويتحقق للأبناء كمال الحياة ...

وليس من ريب فى أن قيام العلماء بواجبهم لن يتحقق إلا بالمحافظة عليهم ، واحترام أقدارهم وإنزالهم منازل الكرماء .

وكيف يستقيم حال أمة تعطلت رسالة العلماء فيها ... ؟

إذن لتحطمت القيم ، وأهدرت المثل وضاع فى الناس معنى الإنسانية وكمالها . فما رسالة العلماء إلا الشحنة الدافعة لكل عمل إنسانى ووطنى على مر الدهور .
وفى تاريخ إيران نفسها خير شاهد على ما لعلمائها من فضل يؤثر ، وجهد يشكر ، وفدائية فى سبيل الله والوطن لا تنسى ولا تجحد .

أيها المسلمون :

إن الاعتداء على علماء الدين جريمة فى حق الأخلاق ، ووصمة عار فى جبين الأمة وفى وجه البشرية ، ويوم تهون أقدار العلماء لن تكون الكلمة إلا لهوى النفوس الجامحة ، وقوى الشر المخربة ونزعات الفساد المدمرة ، «وماذا بعد الحق إلا الضلال» .

ألا فليتنبه المسلمون فى كافة الأقطار ، والشعب المسلم فى إيران إلى هذا الاعتداء الصارخ ، وليعملوا على إنقاذ علماء إيران من طغاة إيران «ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» .

إنها سابقة لا يقدم عليها إلا متحلل من دينه خارج على عقيدته منكر لما أكده الله عز وجل من حق العلماء «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط» . «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ...

فأشهدك اللهم أن اعتداء على حملة رسالتك قد وقع ، وأن رفع الأذى عن أوليائك فرض فى رقاب المؤمنين بك وأنت نعم المولى ونعم النصير ... ؟

محمود شلتوت
(شيخ الأزهر)

مناهج الإسلام
لتقوية روابط الأسرة
للأستاذ محمد محمد المدنى

— ٦ —

الطلاق

١ — أبغض الحلال إلى الله الطلاق :

إن الشريعة الإسلامية تعتبر عقد الزواج عقد دوام واستقرار ، وأن فسخه خلاف الأصل ، وحكمه الحظر ، وأنه إنما يلجأ إليه حين يكون استمرار العلاقة الزوجية بين الزوجين مستحيلا أو مفضياً إلى ماحرم الله ، وأن الرحمة فى مثل ذلك تقتضى أن يمنح كل من الزوجين فرصة جديدة لاستئناف حياة جديدة غير هذه الحياة التى لم تعد صالحة .

ومن هنا نفهم السر فى قوله صلى الله عليه وسلم : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) وفى قوله عز وجل : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيما » .

٢ — المتلاعب بالطلاق آثم مستهزئ بآيات الله :

ولقد أجمع العلماء على أن المطلق بدون سبب ، أو لسبب لا يعترف به الشارع ، والمطلق على غير السنة المرسومة للطلاق ، آثم متخذ آيات الله هزواً ، متلاعب بكتاب الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا علم بطلاق لم تراع فيه السنة المشروعة غضب وقال : (أتلعبون بكتاب الله تعالى وأنا بين أظهركم) .

وفى آيات الطلاق من سورة البقرة يقول الله عز وجل فى أثناء بيانه لأحكامه :

« ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » .

وهى مناشدة قوية للأزواج وتحذير لهم من أن يتلاعبوا بعلاقة الزوجية ، ومن أن يعبثوا بأحكام الطلاق أو يتعدوا فيها حدود ما أنزل الله ، وهى تجعل الأمر عدواناً موجهاً إلى آيات الله التى هى أحكامه ومبادئه وما شرعه للناس من عدل ، وبذلك تصور الظالم المعتدى فى صورة المواجه لآيات ربه

مواجهة العابث بها ، الهازئ منها ، وهو تصوير مخيف لمن يعرفه ويدرك ما ينطوى عليه من تهديد ووعيد ، ثم تعود الآية بعد هذا التخويف إلى نوع من المناشدة فيه تحريك للعواطف فتقول: «واذكروا نعمة الله عليكم» أى بالزوجية وما جعل فيها من مودة ورحمة فلا تفسدوها ولا تبطروا فى شأنها بالإسفاف والتلاعب والاسترسال فى الظلم والبغى .

٣ — من السنة ألا يطلق المدخول بها إلا فى طهر لم يمسها فيه :

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزواج أن يطلقوا أزواجهن المدخول بهن إلا فى طهر لم يقع فيه بين الزوجين اتصال .

يدل على ذلك ماروى عن عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهى حائض فذكر ذلك عمر للنبى صلى الله عليه وسلم فتغيظ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ، فتلك السنة التى أمر الله أن يطلق لها النساء .

ويشير هذا الحديث إلى قوله تعالى «يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن» أى مستقبلات عدتهن ، والمرأة لا تكون مستقبلة العدة إلا إذا وقعت الطلقة فى الطهر الذى لم يمسها الزوج فيه ؛ لأنها حينئذ تستقبل أول حيضة من حيضاتها التى تعتد بها ، وهى آمنة من أن تكون حاملا ، فلا تطول العدة ولا يقع اشتباه فيها .

ومن الحكم المصلحية المقترنة بهذا الحكم أن فيه تعويقا عن الطلاق ، وحيلة وتلطفا قد يفضيان إلى عودة الصفاء بين الزوجين ، وذلك أن الرجل والمرأة إذا حدث بينهما ما يقتضى فصم عقدة النكاح وكانت المرأة حائضا ، وانتظر الرجل حتى تطهر ليطلقها فى طهر ، فإن حدة الغضب قد تهدأ ، وفترة التوتر قد تنتهى وإقبال الطهر بما كان داعيا فطريا جنسيا من شأنه أن يصلح عاطفة الزوجين وأن يخفف من حدة الخلاف بينهما فإذا اجتمعا تلبية لداعى الفطرة والجنس غطى ذلك على أسباب نفورهما إلى حد بعيد ثم عاد الزوج فوجد أنه وإن كانت المرأة طاهرا ، لكنه قد مسها واتصل بها فليست صالحة لأن يوقع عليها الطلاق الآن فلينتظر فترة أخرى ، حتى تحيض ، ثم تطهر ، وهكذا يفوت وقت طويل يندرئ به شر وينقمع به غضب ولا ندرى «لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا» :

٤ — هل يقع الطلاق فى الحيض أو فى الطهر الذى مسها فيه ؟

الحديث ينكر إيقاع الطلاق على الزوجة فى حالة الحيض ، ومثلها حالة النفاس طبعا ، ويأمر بإرجاعها والانتظار بها إلى طهر

لم يمسها فيه ، ويفهم من ذلك أن الطلاق فى الحيض حرام ، وأن الطلاق فى طهر مسها فيه حرام كذلك .

إلا أنه قد وقع الخلاف بين العلماء : هل يحسب الطلاق فى هاتين الحالتين فيكون قد وقع على المرأة طلقة أولا يحسب لأنه منهى عنه لم يشرعه الله ولم يأذن به .

والمحققون من العلماء يقررون أن مثل هذا الطلاق لا يقع أصـــلا ، ولا يحسب لأنه لم ينعقد .

وممن ذهب إلى ذلك الباقر ، والصادق ، وابن حزم ، وابن القيم ، وشيخه ابن تيمية وقد أطال ابن القيم الكلام عليه فى كتابه (زاد المعاد فى هدى خير العباد) ، كما بين حجته الإمام الشوكانى فى كتابه : (نيل الأوطار) وذكر أن الحافظ محمد بن إبراهيم الوزير ألف فيه رسالة طويلة فى مقدار كراستين من القطع الكامل [١] .

٥ ــ الطلاق المشروع على ثلاث مراحل :

ومن رحمة الله تعالى أن جعـــل الطلاق المشروع على ثلاث مراحل ، وجعل للزوج أن يراجع زوجته فى كل من المرحلتين الأولى والثانية ، دون حاجة إلى عقد جديد ، إذا كان الطلاق رجعيا ، وباتفاق بينه وبين الزوجة وعقد جديد دون أن تنكح زوجا غيره ، إذا كان الطلاق بائنا ببينونة صغرى .

والبينونة الصغرى : هى التى يمكن أن يعود الزوجان بعدها إلى حياتهما الزوجية بعقد جديد دون اشتراط نكاح المرأة لزوج آخر ، كما إذا طلقها الطلقة الأولى ، أو الثانية وخرجت من العدة .

أما البينونة الكبرى : فهى التى لا يمكن فيها إعادة الحياة الزوجية إلا بعد أن تنكح المرأة زوجا آخر ، كما إذا طلقها الأولى ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، حسب الأوضاع المقررة شرعا « فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

« الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

فقوله تعالى : « الطلاق مرتان » يريد به المرحلتين الأوليين اللتين يمكن أن تعود فيهما الحالة الزوجية سيرتها الأولى بالمراجعة أو العقد الجديد .

وقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » بيان لأن المرحلة الثالثة التى تعقب هاتين المرحلتين وهى مرحلة يكون فيها الزوج إما ممسكا لعصمة زوجته التى لم يبق لها إلا طلقة واحدة ، وإما مسرحا لها تسريحا بإحسان ، أى مطلقا الطلاق الأخير ، على أن يكون

(١) راجع ص٢٢٦ ج ٦ من شرح نيل الأوطار للشوكانى طبع المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥٧ هـ

ذلك بإحسان ، والإحسان هو اتباع ما شرعه الله وعدم الخروج على حدوده .

وفى ذلك كله إبعاد للنهاية السيئة التى لا يحبها الله ، وهى انفصام عقدة النكاح .

فأما العدد ففيه إعطاء فرصتين لاستعادة الصفاء ينتهزهما الرجل بإرادته إذا كان الطلاق رجعيا والمرأة ما زالت فى العدة ، فليس عليه إذا أراد إلا أن يراجعها بنيته ، ويعيدها إلى عصمته ، أما إذا كان الطلاق بائنا ، كما إذا حكم به القاضى فى حالات خاصة ، أو كانت الزوجة قد خرجت بعد الطلاق الرجعى من العدة ، فإنهما قادران على إعادة الحياة الزوجية بينهما برضاهما وبعقد جديد ، يكون بمثابة امتداد واستعادة للعهد الأول ، ويحسب عليه ما كان من الطلاق فى العهد الأول ، إن واحدة فواحدة ، وإن اثنتين فاثنتين ، وبهذا يظل كل منهما معتبرا بما كان معتدا به ، عارفا أنه لم يبق له من النهاية المخيفة إلا خطوة أو خطوتان ، فيخشى أن يخطوهما ، ويحجز نفسه عن الوقوع فيما وقع فيه من قبل حين فعل ما ندم عليه ورأى التراجع عنه خيراً له ، وقد جربنا هذا كثيراً فى حياة الأزواج حيث يحرصون على ما بقى لهم من الطلقات الثلاث ما لم يكونوا من قبل يحرصون ، فيعيشون هادئين مستقرين ، وتصفو لهم الحياة الزوجية بالتسامح والمحاذرة والبعد عن تضخيم الخلاف .

أما الحالة الأخيرة ، وهى الطلقة الثالثة ، فهى جديرة بأن تذكر الأزواج الآخرين بمثل هذا المصير ، والرجل عادة لا يطيق أن يسترد امرأة تزوجت من بعده ثم طلقت ، فهو يحرص على ألا يطلق الثالثة إلا إذا لم يكن من ذلك بد ، وكان متأكداً من أن مصلحته فى القطيعة النهائية ، وأن واقع حياته أو حياة زوجته يفرض هذا الانفصال الدائم .

٦ — التحكيم بين الزوجين :

ومما قرره الإسلام ، محاولة لتصفية الخلاف بين الزوجين ، وعودة الصفاء إلى حياتهما الزوجية : ما أرشدنا الله إليه من أنه إذا شجر بين الزوجين خلاف فلنبعث حكما من أهل الزوج ، وحكما من أهل الزوجة ، محاولين إصلاح ما بينهما ، وألا نلجأ إلى فصم العلاقة إلا إذا لم يكن هناك مندوحة من ذلك ، بل قال بعض العلماء :

إنه ليس للحكمين أن يفرقا بين الزوجين إن أعياهما الإصلاح بينهما ولكن عليهما حينئذ أن يشهدا على الظالم منهما بظلمه ، واختلفوا أيضاً فى الحاكم : هل له أن يفرق بين الزوجين بما ينهيه إليه الحكمان ، فنهم

من قرر أنه ليس للحاكم ذلك ، وفى ذلك يقول ابن حزم :

(ليس فى الآية ولا فى شىء من السنن أن للحكمين أن يفرقا) ولا أن ذلك للحاكم ، وقال عز وجل : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » (فصح أنه لا يجوز لأحد أن يطلق على أحد ولا أن يفرق بين رجل وامرأته إلا حيث جاء النص بوجوب فسخ النكاح فقط ، ولا حجة فى قول أحد دون رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

فهذه عقبة أخرى دون الطلاق الذى يكرهه الشرع يضعها تعويقا له ، ومحاولة لدرء أسبابه وتثبيطا عنه .

٧ الطلاق الثلاث فى لفظ واحد : المقترن بعدد ، أو بلفظ أو إشارة ، هل يقع ؟ .

وقد اختلف العلماء فى ذلك فذهب بعضهم إلى عدم وقوعه أصلا ، فلا يقع به واحدة ولا أكثر عند هؤلاء ؛ لأنه جاء على خلاف السنة فهو رد أى مردود ، وذهب بعضهم إلى وقوعه واحدة فقط ، وذهب الجمهور إلى وقوعه حسب العدد الذى قيد به فإن طلقها اثنتين وقع به اثنتين ، وإن طلقها ثلاثة وقع به ثلاثة ، وهذا الخلاف قديم واستمر فى جميع العصور .

وقد أخذ قانون الأحوال الشخصية فى الجمهورية العربية المتحدة بالمذهب القائل بأنه لا يقع بذلك إلا واحدة ، وعلى ذلك جرى العمل فى القضاء والإفتاء إلى اليوم .

وأدلة هذا المذهب كثيرة ، وقد أطال الاحتجاج له فريق من العلماء وإن خالف ما ذهب إليه الجمهور ومنهم أهل المذاهب الأربعة المشهورة .

٨ — أنواع أخرى من الطلاق لا تقع :

كما أخذ قانون الأحوال الشخصية بعدم وقوع :

١ — طلاق السكران والمكره .

٢ — الطلاق غير المنجز إذا قصد به الحمل على فعل شىء أو تركه .

وبيان ذلك أن الطلاق ينقسم إلى منجز وهو ما قصد به إيقاع الطلاق فورا كأن يقول لزوجته : أنت طالق ، أو مطلقة ، وإلى معلق على حصول شرط كأن يقول لها : إن دخلت الدار فأنت طالق ، أو إن لم أقض دينى غدا فأنت طالق ، أو على الطلاق لا أفعل كذا ، أو لا تخرجين من البيت ، أو نحو ذلك .

والمعلق ينقسم فى معناه إلى يمين ، وإلى طلاق على الصفة ، مثلا . أرادت الزوجة أن تخرج وأراد الزوج منعها من الخروج ولم يرد طلاقها ولكنه هددها فقال لها : إن خرجت فأنت طالق ، فهذا يمين لأنه أراد منعها من الخروج وليس له فى الطلاق إرادة

ومثال آخر : طلبت زوجته الطلاق ورضي به وقال لها إن دفعت إلى مائة جنيه فأنت طالق فهذا يريد الطلاق وله هدف من إيقاعه على صفة مخصوصة ، وهي أن يكون بعوض ومقابل .

ففي المثال الأول لا يقع الطلاق وفي الثاني يقع.

٣ — كنايات الطلاق وهي ما تحتمل الطلاق وغيره ، لا يقع الطلاق بها إلا بالنية كل هذا أخذ به قانون الأحوال الشخصية ، واستمده من أحكام الشريعة الإسلامية مع عدم التقيد بمذهب معين ما دام هناك من الفقهاء من يقول بالرأي المختار .

٩ — الإشهاد على الطلاق :

قال الله تعالى في سورة الطلاق : « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم » .

وهذه الآية تفيد أننا مأمورون بالإشهاد على كل من الرجعة والطلاق ، وبذلك فسرت الآية .

وروى في سنن أبي داود وابن ماجه عن عمران بن حصين (أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال : طلقت لغير سنة وراجعت لغير سنة . أشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد) .

وقال ابن جريج : كان عطاء يقول « وأشهدوا ذوي عدل منكم » . قال لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل الا أن يكون من عذر .

ومذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية — ومنهم شيعة العراق وإيران وبعض بلاد لبنان وسوريا وغيرها — أن الإشهاد على الطلاق ركن من أركان الطلاق ، فلا يقع الطلاق إلا إذا شهد بسماعه شاهدا عدل ، أخذاً من هذه الآية .

قال نجم الدين جعفر بن الحسن الحلي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ في كتابه (المختصر النافع في فقه الإمامية) :

(الركن الرابع : في الإشهاد ، ولا بد من شاهدين يسمعانه ، ولا يشترط استدعاؤهما إلى السماع ، ويعتبر فيهما العدالة ، وبعض الأصحاب يكتفي بالإسلام ، ولو طلق ولم يشهد كان الأول لغواً ، ولا تقبل فيه شهادة النساء).

ويمكن أن يؤخذ بهذا المذهب في قانون الأحوال الشخصية فيكون ذلك تعويقا آخر للطلاق ، وتقليلا لفرص وقوعه .

وقد سبق في التشريع المصري الاعتماد على هذا المذهب ، فلا مانع من الاعتماد عليه في هذا أيضا .

(ج) فيما بعد انقضاء الزوجية :

نرى الإسلام :

١ — يثبت الثروات بين الزوجين ، فإذا

مات أحدهما كان للآخر نصيب من تركته حسب المقرر فى أحكام الميراث .

وذلك حكم منصوص عليه فى القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل :

« ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين » .

ولا شك أن هذا التشريع فيه إشعار بما كان بين الزوجين من رابطة تقتضى لوناً من الشركة فى المال المكسوب ، وأن لكل منهما حقاً فيه .

٢ — الزوجة المتوفى عنها زوجها تمتد إما بأربعة أشهر وعشر ليال ، وإما بوضع حملها إن كانت حاملا .

وبذلك لا يحل الزواج منها إلا بعد انقضاء العدة ، وفى ذلك رمز لاحترام الزوجة لذكرى زوجها ، واحتياط فيما يتعلق بالنسب .

وللزوجة بعد ذلك أن تتزوج .

٣ ـ للمطلقة نفقتها فى زمن العدة ، ولها الحق فى حضانة الصغار على التفصيل المبين فى النفقة ، وعلى الزوج نفقة الأولاد كذلك .

والمراد بالنفقة ، ما يشمل الإطعام والكسوة والإسكان ، وبعد العدة تكون الزوجة صالحة للأزواج فتسقط النفقة .

٤ ـ ويرى بعض العلماء أن المرأة المطلقة لها متعة واجبة من الزوج ، سواء أكانت مدخولا بها أم غير مدخول بها .

ومن هؤلاء ابن حزم إذ يقول فى كتابه (المحلى) :

المتعة فرض على كل مطلق واحدة أو اثنتين أو ثلاثا ، أو آخر ثلاث (دخل بها أم لم يدخل) فرض لها صداقها أم لم يفرض لها شيئاً يمتعها ، وكذلك المفتدية أيضاً ـ أى التى طلبت من زوجها الطلاق على مال أى على سبيل الخلع ولها المتعة أيضاً ـ ويجبره الحاكم على ذلك أحب أم كره ... برهان ذلك قول الله تعالى : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين » ، وقوله تعالى « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين » .

فعم عز وجل كل مطلقة ولم يخص ، وأوجبه حقاً لها على كل متق يخاف الله تعالى .. وكل مسلم على أديم الأرض هو بقوله (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من جملة المتقين بقوله ذلك وإيمانه ومن جملة المحسنين .. إلخ) .

ومن الممكن أن يأخذ بهذا الرأى ليكون ذلك تعويضاً عن الطلاق الذى تصاب فيه الزوجة بكارثة . ومن شأنه أن يقلل أيضاً من فرص الطلاق ، أو يتحاشى الأزواج الإقدام عليه حين يعلمون أن من ورائه تكاليف كثيرة ؟

(انتهى البحث والحمد لله)

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

نفحات القرآن

القرآن يشهد لأبى بكر الصديق

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا » .

(ب) « فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

كان حادث الهجرة فصلا ختاميا لسياسة الموادعة بالرفق ، والصبر على احتمال المكاره ثلاثة عشر عاما .

وكان فى الوقت نفسه أول تخطيط للجهاد المادى ، وردع الكفار عن مقاومة الدعوة ، وانتشالهم من ضلال يخيم عليهم ، ومكر يحيق بهم . ومصير يتلقفهم إلى عذاب واصب فى جحيم يتلظى .

وما أريد أن أخوض فى حادث الهجرة ، وخروج النبى وصاحبه : كتدبير حصيف : لإحباط المؤامرة العاتية ، أو كمبدأ حكيم لتنفيذ ما وراءه من سياسة لتنشئة المجتمع الجديد .

وإنما أريد أن نتتبع الآيات فيما ذكرته عن أبى بكر - رضى الله عنه - فى هذا الموقف الرهيب :

فالقرآن فى هذا المقام يعتب على المسلمين - أولا - ما بدا من تردد بعضهم فى الخروج إلى غزوة تبوك فى السنة التاسعة من الهجرة .

وكان هذا التردد لأسباب يتعلل بها المنافقون الذين يعيشون بين المسلمين ، ثم خرج المسلمون ولم يصادفوا حربا فى تبوك .

ولكن الله يوجه عتابه إلى الجميع ، كدرس تربوى يختبرهم به ، ويحذرهم أن يعودوا إليه .

وفى سياق هذا العتاب يشيد القرآن بمناقب أبى بكر منذ صدر الإسلام ، ويستثنيه من هذا العتب ، ويمجده بصفات لم تكن لغيره من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فيقول الله تعالى :

إن لم تنصروا رسول الله - فى تبوك

أو سواها - فإن الله كفيل بنصره كما سبق فى حادث الهجرة ، حيث كان حادثاً خطيراً .

ولم يكن مع النبي سوى شخص يرافقه .

ثم لم يهمل القرآن كلامه بل اعتبر النبي ثانى اثنين ... وهذا تنصيص على اعتبار أبى بكر واحداً من اثنين دون تخفيض من مقامه فى هذا الموقف ، فكل منهما ثان بالنسبة للآخر .

ثم يقول القرآن « إذ هما فى الغار » فالاثنان سواء فى هذا الموقف العصيب ، وفى التعرض لما يكون من الكفار لو صادفوهما .

والمساواة بينهما فى هذه الاحتجابة تشهد لأبى بكر بتمام الاستعداد للتضحية عن إيمان كامل ، وعزيمة صادقة ، وبذل للروح عن طيب خاطر فى مؤازرة الرسول .

بل كان أبو بكر شديد الحدب على سلامة الرسول ، وشديد الخوف مما يتوقعه ، وشديد الحزن لما عسى أن يبدر من الكفار نحو الرسول من إساءات لو استطاعوا .

وقد كان هم أبى بكر من أول أمره أن يصحب الرسول فى هجرته ليظفر بشرف الصحبة ، وليكون فداء له من كل شر .

حتى كان يتخيل أن عدوا يلاحقه من الخلف فيمشى خلفه ، أو يلاحقه من الأمام فيمشى أمامه ، وهكذا عن يمينه ، أو شماله .

كما سبق إلى نزول الغار ليتحسس ما به من الهوام ، خوفا على الرسول أن يلم به مكروه .

وحينما أصابت العقرب أبا بكر فى إصبعه كان يتغنى بذلك : بهجة بأنها لم تكن فى إصبع الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول :

ما أنت إلا إصبع دميت
وفى سبيل الله ما لقيت

وبعد الاستقرار فى الغار أحس أبو بكر باقتراب الكفار من مخبئهما فاشتد وجله على النبي ، وتوقع أن تقع عليهما عين الطغاة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين : الله ثالثهما » .

فالنبي يعترف له أنه صنوه فى هذا المقام ويعترف له بأنه فى معية الله معه « إذهما فى الغار » « لا تحزن إن الله معنا » برعايته ، وحفظه ، فالقرآن يقرر له هذه الصحبة بقوله تعالى : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا » .

وإلى هنا يكون أبو بكر مشهودا له بمناقب الصحبة فى أمجد معانيها منذ آمن أول من آمن من الرجال ، وإذ كان على أتم الولاء لرسول الله بنفسه ، وبماله حتى أشاد له النبي بهذا على مسمع من صحابته « إن من أمن الناس على فى صحبته وماله أبا بكر » .

وحتى بشره النبي فيما بشره بقوله : (أنت صاحبي فى الغار ، وأنت معى على الحوض) .

لم يكن النبي فى خوف ، ولا مختبئا عن جبن ،

وإنما هى أسباب عادية تقتضيها حكمة الله ، لما يترتب عليها من مسببات فى شئون الحياة.

وقـــد كان فى اطمئنان إلى رعاية الله له ولصاحبه ، ... وهو مع هـذا على ارتياح دائم لما يكون من بلاء فى جهاده .

ولم يكن هناك بلاء ولا رهبة فى معية الله - سبحانه - وإنما هناك خوف وإشفاق عند أبى بكر على حياة الرسول ، وعلى سلامته من كل حدث .

ولكن الرسول طمأنه ، وزاده ثقة فى رعاية الله لهما ، ونصرهما على كيد أعدائه .

وقد تبدلت مخاوف أبى بكر أمنا ، وعاد وجله اطمئنانا ، وهدوء خاطر .

(ب) « فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » .

نعم نزلت السكينة على أبى بكر ، وأيد الله رسوله بالملائكة ليحرسوا رسوله من أعين الكفار ، كما أيده بالملائكة فى غزوة بدر ، وفى كل محنة يتعرض لها فى جهاده وقضت حكمة الله أن تكون سياسة الكفار دائما فى خسران . وكلمتهم التى يجتمعون عليها فى كفرهم ، أو تدبيرهم - ضـــد رسوله والمؤمنين - فى هبوط وانحدار .

والله قوى السلطان عزيز الجانب ، لا يفلح لديه كيـد الكافرين وإن تألبت جموعهم وإن يكن أبو بكر محور هذا الحـــديث بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عودنا القـــرآن أن يعطف عليه بالثناء ، وبالتمجيد فى مقامات سوى مقام الهجرة .

فهو فى طليعة الأسخياء ، حتى قيل : إنه المقصود بقول الله سبحانه : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وهو الذى تآمر الكفار والمنافقون على أن يثـــيروا حوله منـــكر القول فى أم المؤمنين عائشة الصديقة رضى الله عنها - فانتصر الله له ولبنته ولرســول الله فى زوجته الأثيرة عنده « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم ، له عذاب عظيم » .

فهذه نقمة الله على أولئك الأفاكين الذين تمادوا فى الحقد على أهل الإيمان ، حتى تخيلوا أن يمسوا شيخ الصحابة فى طهره وطهـــر أم المؤمنين .

وهى وشيجة القـربى بين الصديق ، وبين الرسول الذى يتخذه عنوانا لأهل الإيمان فى أكمل صوره وحينما غضب أبو بكر لهذه الفرية غضب على قريب له ، ممن كان يغمرهم بالعطاء . ولـكن هـذا لم يتحرج أن ينغمس فى الإثم

مع بقيـــة المنافقين ، ويسفه على بيت النبوة حينما غضب أبو بكر لهذه المأثمة المفتراة كادت تضن يده بالعطاء ، وتميل نفسه إلى الشح على هذا القريب ، وحلف ، أو كاد يحلف على حرمانه ، حتى لا يزيده ذلك تماديا .

ولكن الله لم يرض لأبى بكر أن ينزل عن فضله ، أو يجارى ذلك السفيه فى حمله وأمره أن يظل على صلته ، حتى يظل بره موصولا بذى رحمه ، وإن أساء ذو الرحم ، ويظل ثوابه جاريا ولو بالإحسان إلى من كفر بالإحسان . فإن العرف لا يذهب بين الله والناس .

« ولا يأتل – لا يحلف – أولو الفضل منكم ، والسعة ، أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا ، وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم » .

فأبو بكر له شأنه فى الصحبة ، وله شأنه فى الإحسان ، وله فضله فى بيان الله لأحكام نستفيدها : دينا ، وخلقا . .

وأبو بكر هذا هو أبو بكر الذى ارتضاه النبى خليفة فى صلاته حين غيبته ، ورشحه للخلافة من بعده ، ورضيه المسلمون إماما فى خلافته الكبرى ، وسياسته للمسلمين ، وقائما بالأمر فيهم بعد رسول الله . .

فإذا وجدنا فى الناس طائفة أو طوائف يغضون بالباطل من شأنه ، ويتطاولون على مقامه . ويجحدون خصائصه ، ويقولون فى إرجافهم ما يقولون ، حتى قامت على ذلك الضلال مذاهب ، وامتلأت به كتب ، وتشدق به سفهاء ، وحاولوا أن يسموا هذا تعصبا لإمام غيره ، أو يعتبروها غيرة على حق ، فما ذلك إلا ضلال مبين ، وظلمات بعضها فوق بعض .

وهم لم يحسنوا الإيمان بأبى بكر ، ولا بغير أبى بكر ، بعد أن كذبوا بالآيات .

ولقد صدق الشيخ الألوسى فى تفسيره حين قال : – وبالجملة : إن الشيعة قد أجتمعت كلمتهم على الكفر ، بدلالة الآية على فضل الصديق – رضى الله عنه ...

عبد اللطيف السبكى

قال الشريف الرضى فى الحلم :

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكن أوقاتى إلى الحلم أقرب
يصول على الجاهلون وأعتلى ويعجم فى القائلون وأعرب
يرون احتمالى غصة ويزيدهم لواعج ضغن أننى لست أغضب

نداء المخاطبين فى القرآن

أسراره وبلاغته

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

ترجع أهم الطوائف التى يتجه إليها النداء فى القرآن إلى ست طوائف :

١ ، ٢ — فمعظم نداءات القرآن تتجه إلى المؤمنين خاصة فيقال : « يأيها الذين آمنوا » أو إلى الناس كافة فيقال : « يأيها الناس » .

وتوجيه النداء بالصيغة الأولى وهى « يأيها الذين آمنوا » قد سار عليه القرآن فى الآيات المدنية . وذلك لأن الآيات التى نزلت بعد الهجرة ، وهى الآيات المدنية ، يتجه النداء فيها أولا وبالذات إلى مجتمع أهل المدينة ، وهو مجتمع كان يتألف معظمه من المهاجرين والأنصار ، أى من أفراد آمنوا بالله ورسوله . فكان خطابهم بالذين آمنوا أمثل أنواع الخطاب إبانة لحقيقتهم . هذا إلى ما ينطوى عليه من الدلالة على سموهم وفضلهم على سائر الخلق فى هذا العصر . فقد كانوا هم وحدهم الذين هداهم الله للإيمان . فنى ندائهم بهذه الصفة زيادة إيناس وتكريم لهم ؛ لأن أحب نداء إلى الإنسان هو أن تناديه بما يدل على عظمته وسموه ـ ويضاف إلى هذا الغرض غرض آخر حينما تكون الآية لتشريع إسلامى ، وهو توكيد هذا التشريع ، والإشارة إلى قوته ، وحرص الشارع على تنفيذه ، وبيان أنه تشريع للمؤمنين خاصة . والنداء فى اللغة العربية إذا سبق طلباً كان دالا على شدة اهتمام المتكلم بهذا الطلب وحرصه على تنفيذه من جهة وعلى أن الآمر به مقصور على المنادى من جهة أخرى ـ وقد يضيف القرآن إلى ذلك توكيداً آخر ، فيعبر عن التشريع بفعل « كتب عليكم » . وذلك أن التعبير بهذا الفعل يفيد قوة الأمر وتوكيده وشدة العناية به وأنه لا يجوز إغفاله . ويرمى العرب إلى هذه المقاصد جميعا حينما يستخدمون هذا الفعل فى كلامهم . فمن ذلك قول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

وقد استخدم القرآن النداء مع فعل « كتب » فى ثلاثة تشريعات إسلامية هامة ذكرت متوالية فى سورة البقرة ، وهى الخاصة بالقصاص والوصية والصيام . فبدأ التشريع الأول بالنداء مع هذا الفعل ، فقال : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » ،

إلى قوله : « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »[1] .

ولمجيء الآيات الدالة على التشريع الثانى وهو الخاص بالوصية بعد الآيتين الدالتين على التشريع الأول مباشرة ، لم يكن ثمة ما يقتضى تكرار النداء ، واعتبر النداء الأول مسلطا على كلا التشريعين ، فقال تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف » ، إلى قوله : « فمن خاف من موص جنفاً أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم »[2] . ولكنه كرر النداء فى التشريع الثالث وهو تشريع الصيام ، فقال : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »[3] لبعد العهد بالنداء الأول ولإظهار مزيد من العناية بهذا التشريع الأخير .

وأما توجيه النداء بصيغة « يأيها الناس » فإن القرآن قد سار عليه فى الآيات المكية ، وهى الآيات التى نزلت قبل هجرة الرسول عليه السلام من مكة . وذلك أن الخطاب فى هذه الآيات كان يتجه أولا وبالذات إلى مجتمع أهل مكة قبل الهجرة ، وهو مجتمع كان يتألف معظمه من المشركين ، أى من مجرد أناسى ، من أفراد لا يزالون فى الطبقة الدنيا من طبقات الآدميين فى نظر الله ، ولم يرتقوا بعد إلى ما هو أعلى منها . فكان خطابهم بيأيها الناس هو أدق أنواع الخطاب دلالة على حقيقتهم .

ولا توجد آية مكية اتجه الخطاب فيها إلى الجمهور بغير هذه الصيغة . أما الآيات المدنية فقد خرج منها عن الطريقة التى ذكرناها سبع آيات فقط اتجه النداء فيها إلى الجمهور بقوله « يأيها الناس » بدلا من « يأيها الذين آمنوا » ، كما هى الطريقة السائدة فى الآيات المدنية . وهذه الآيات السبع هى :

« يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (آية ٢١ من سورة البقرة) .

« يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين » (آية ١٦٨ من سورة البقرة) .

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ... » (الآية الأولى من سورة النساء) .

« إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا » (آية ١٣٣ من سورة النساء) .

---

(١) آيتى ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة .
(٢) الآيات ١٨٠ - ١٨٢ من سورة البقرة
(٣) آية ١٨٣ من سورة البقرة .

« يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم ... » (آية ١٧٠ من سورة النساء).

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » (آية ١٧٤ من سورة النساء).

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (آية ١٣ من سورة الحجرات).

وكان ذلك فى كل آية من هذه الآيات السبع لأسباب تقتضيها المعانى التى تشتمل عليها الآية ويقتضيها مقام الخطاب، وإليك مثلا قوله تعالى: « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فهذه هى إحدى الآيات المدنية السبع التى خرجت عن طريقة الآيات المدنية فى النداء، فاتجه الخطاب فيها إلى الجمهور بيأيها الناس بدلا من يأيها الذين آمنوا. وذلك لأن الآية تقرر حقيقة عامة تصدق على جميع بنى آدم لا على الذين آمنوا وحدهم، وهذه الحقيقة هى مساواة الناس جميعا بعضهم لبعض فى القيمة الإنسانية المشتركة وأنه لا فضل لأحدهم على الآخر بشعبه ولا بقبيلته، فكان من المتعين إذن أن يتجه الخطاب فيها إلى الناس كافة، إلى الآدميين على العموم، وما كان يسوغ أن يتجه الخطاب فيها إلى المؤمنين وحدهم. ولو بدئت جملة كهذه من كلام البشر بيأيها الذين آمنوا لكانت لغوا من القول. تعالى كلام الله عن ذلك علوا كبيرا.

وما قيل فى هذه الآية يقال مثله فى كل آية من الآيات الست الأخرى التى خرجت عن طريقة الآيات المدنية فى النداء فاتجه الخطاب فيها إلى الجمهور بيأيها الناس.

٣ — ويتجه النداء أحيانا فى القرآن إلى المفكرين أولى الألباب، وذلك إذا كانت الحقيقة التى ينادى من أجلها تحتاج إلى مزيد من التأمل وعمق فى الفهم؛ كما فى قوله تعالى « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » فالقصاص فى ظاهره قتل وإزهاق للأرواح وهذا هو الذى يفهم منه فى بادئ الرأى. ولكنه فى حقيقته حماية للأنفس وحياة للجتمعات، فلما كان إدراك هذه الحقيقة يحتاج إلى تأمل عميق لا يقف عند ظواهر الأمور بل ينفذ إلى كنهها وما تؤدى إليه، اقتضى المقام أن يتجه الخطاب إلى القادرين على هذا الضرب من التأمل، وهم أولو الألباب من الناس.

٤ — ويتجه النداء أحيانا فى القرآن إلى أفراد معينين. ويجىء هذا لعدة أغراض بلاغية فيجىء تارة لإيناسهم وتكريمهم

وتطييب نفوسهم كما فى قوله تعالى : « قد أوتيت سؤلك يا موسى (١) » ، وقوله « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (٢) ؛ وقوله « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » . (٣)

ويجىء تارة لتهيئة المخاطب لتلقى نبأ عظيم كما فى قوله تعالى : « يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً » (٤) وقوله : « يأيها المدثر قم فأنذر » (٥) وتجىء تارة لتحذير المخاطب وتنبيهه ، كما فى قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » (٦) ، وقوله « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟ » (٧) . وقد يجىء لأغراض بلاغية أخرى تظهر من التأمل فى المعانى التى يمهد لها بالنداء أو تختتم به .

٥ — ويتجه النداء أحياناً فى القرآن الكريم إلى بنى إسرائيل خاصة ، أو إلى أهل الكتاب عامة ، ويقصد بهم فى الغالب اليهود والنصارى . ويجىء هذا النوع من النداء كذلك لعدة أغراض بلاغية : فيجىء لتذكيرهم بنعم الله عليهم ، أو لتأنيبهم لكفرهم بهذه النعم . أو لتوكيد ما يلق عليهم من شرائع وما يكلفونه من أعمال أو لزجرهم ؛ أو للكشف عما يخفونه من حقائق أو يرتكبونه من جرم أو يبيتونه من سوء ، أو لأكثر من غرض واحد من هذه الأغراض .

والتذكير والتأنيب والتوكيد والزجر والكشف كل ذلك من الأغراض البلاغية التى يقصد إليها العرب من النداء . فمن ذلك قوله تعالى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون » (١) وقوله : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين (٢) » .

وقوله : « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون

(البقية على صفحة ١٥٦)

(١) آية ٣٦ من سورة طه .
(٢) آية ٤٢ من سورة آل عمران
(٣) آيتى ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .
(٤) آية ٧ من سورة مريم
(٥) آيتى ١ ، ٢ من سورة المدثر .
(٦) آية ٢٦ من سورة ص .
(٧) آية ١ من سورة التحريم .

(١) آيتى ٤٠ ، ٤١ من سورة البقرة .
(٢) آية ٤٧ من سورة البقرة .

الإسلام والمدنية الحديثة

للأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود

إن المدنية الحديثة: تابع في ميدان ما وراء الطبيعة، وفي ميدان الأخلاق المنهج الذي رسمه أرسطو. ولقد أفسد أرسطو على الإنسانية تفكيرها في هذين الميدانين إفساداً لم تتخلص منه إلى الآن، ذلك أنه أخضع «ما وراء الطبيعة»، وأخضع «الأخلاق»، إلى تكييف العقل، وتقديره وحكمه المتأرجح، الذي يختلف من شخص لآخر، ومن بيئة لأخرى.

لقد كانت الحضارات القديمة تدع لكل قوة من قوى المعرفة في الإنسان ميدانها الخاص بها: فتدع للحس ميدانه ـ الطبيعة أو المادة أو الكون الحسي ـ وتدع للعقل ميدانه: وهو الاستنتاج من عالم الطبيعة، وتدع للروح مجالها، وهو عالم ما وراء الطبيعة.

وما كانت الحضارات القديمة تقحم العقل قط في عالم «ما وراء الطبيعة» إنه «غيب». على حد التعبير القرآني ـ إنه «إلهيات» على حد تعبير فلاسفة الإسلام.

والغيب أو الإلهيات: لا يدرك بإنعام نظر، ولا بإعمال فكر، وإنما يتلقى وحيا أو كشفا، أو إلهاما، عن طريق الروح والبصيرة.

ومن أخص صفات هذا الغيب: أنه ثابت لا يتغير، وهو إذن حقائق مستمرة، ومبادئ لا تختلف ومعرفته الصحيحة إذن لا تختلف باختلاف الأشخاص أو الأزمنة.

وكان من الطبيعي إذن أن يكون دين الله واحدا، مهما تطاولت الأعصر واختلفت البيئات وتعدد الرسل، وأن تكون الأخلاق الحقة واحدة لا اختلاف فيها ولا تباين على مر الزمن وعلى كر الدهور.

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...».

إن هذه الكلمة القرآنية الكريمة تعبر عن النهج الصحيح الذي فهمه كل من هداهم الله إلى الطريق الصواب في القديم والحديث.

بيد أن أرسطو حاول بكل ما يملك من قوة عقلية جبارة وبكل ما يستطيع من تفكير بشري هائل. أن يتمرد على هذا الوضع الحق

فتجح فى أن يحول المجرى الإنسانى عن الطريق المستقيم إلى الطريق المعوج ، وتجاهه هذا إنما هو عبارة عن تحويل الإنسانية من الاستسلام للتوجيه والإرشاد الإلهى ، إلى الاستسلام للتوجيه والإرشاد الإنسانى البشرى ، أو بتعبير آخر : تحويل الإنسانية من الاستسلام إلى الأمر الإلهى إلى الخضوع للعقل .

والمثل الصارخ لهذه النزعة : يتمثل فى إبليس حينما رفض الخضوع للأمر الإلهى ، واستسلم لنزوة عقله فكانت عاقبته الطرد من رحمة الله ، وكما أن أثر إبليس لا يزال يجرى فى الإنسانية جريانا ظاهرا يتمثل فى جميع هذه الشرور والآثام التى يشقى بها بنو البشر ، فإن أثر أرسطو لا يزال يوجه الحضارة الحديثة فى موقفها من عالم الغيب . ومن هنا كانت كل هذه الفلسفات التى نشأت والتى لا تزال تنشأ ، والتى سيقدر لها الاستمرار ، إذا بقيت الإنسانية مكبلة بأغلال من تقليده .

ولقد عارض أرسطو السوفسطائيين فى قوة وفى استفاضة ، عارضهم بمنهجه فى البحث ، وعارضهم بآرائه وسفه أفكارهم بمنطقه .

ومؤرخو الفلسفة : يعرفون ذلك له ويظهرون هذا التعارض بين أرسطو والسوفسطائيين فى صورة واضحة . ولاشك : أن هذا التعارض صحيح ، إذا نظرنا إليه من زاوية أن أرسطو يعترف بوجود الحقائق وبإمكان معرفتها ، فوجه همه إلى هذه المعرفة ، وحاول أن يؤسسها على دعائم من المنطق والحجـــة ، بينما السوفسطائيون لا يعترفون بذلك .

ولكننا إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى ، فإننا سنجد فى النظرة العميقة ، أن أرسطو ليس إلا امتدادا للاتجاه السوفسطائى لأنه حينما أخضع عالم الغيب للعقل ، وحينما أخضع عالم الأخلاق للعقل ؛ فإن معنى ذلك : أنه أخضعهما للظروف والمناسبات والثقافة والبيئة والزمان والمكان .

الواقع : أن الأمور ـ تاريخيا ـ سارت على هذا النسق ، فاختلف أتباع أرسطو بسبب تحكيمهم عقولهم فى عالم الغيب ، وفى عالم الأخلاق ، وكانت الأبيقورية ، وكانت الرواقية ، وكان غير ذلك من المذاهب التى تختلف وتتعدد باختلاف أصحابها وتعددهم .

وتخطى الاتجاه الأرسطى الزمن قرنا ، فقرنا ، حتى تبنته الحضارة الحديثة ، فكان ديكارت وكان كانت ، وكان سبينوزا ، وكان غيرهم ، إلى أن كان برجسون ، وبرتراند راسل فى هذه السنوات الأخيرة واختلفت مذاهبهم كما اختلفت مذاهب الفلاسفة فى الماضى ، والحق عند كل منهم : إنما هو ما رآه ، وهى إذن سوفسطائية ، أو تشبه أن تكون سوفسطائية ، بل لقد وصل

الأمر فى الحضارات الحديثة ـ مع مذهب البراجماتيزم ـ إلى السوفسطائية السافرة ذلك أنهم حددوا الحق بالنافع : فما كان نافعا كان حقا ، ويختلف الحق باختلاف النفع حينما يختلف النفع باختـــلاف البيئات أو الظروف ، وكلمة النفع على كل حال كلمة غامضة مبهمة ، تتذبذب وتتأرجح وتتكيف بحسب الاتجاهات والنزعات .

وأيا كان الأمر ، فإنه مما لا مماراة فيه إن الفلسفة العقلية :

١ ــ أخفقت إخفاقا تاما فى الوصول إلى مبادئ يقينية فى عالم ما وراء الطبيعة .

٢ ــ ومما لا مماراة فيه أيضاً : أن الفلسفة العقلية فى عالم ما وراء الطبيعة لم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام حتى إنه لا يتأتى للإنسان أن يظن ، فضلا عن أن يعتقد : أن هناك أملا فى أن يصل الإنسان بعقله ولو تدريجياً إلى اليقين فى عالم ما وراء الطبيعة .

٣ ــ ومما لا شك فيه أيضاً : أنه لا يوجد فى عالم ماوراء الطبيعة مايسمى بالرأى الفلسفى ذلك أن كل مبدأ ، أو كل رأى يوجد من يثبته ، ويوجد من ينفيه ، ويوجد من يقف بين الإثبات والنفى متردداً بينهما ، أو مرجحاً لأحدهما على الآخر .

والحضارة الحديثة إذن ، حينما تتخذ العقل أساساً لما وراء الطبيعة فإنها تبقى عاملا عاجزاً خطاء ، لا يثبت على رأى ولا يستقيم له بنيان .

أما الدين فإنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو ، منذ أن نزل من عند الله : واحد ، لم يتعدد ولم يختلف . يصوره فى جميع مراحله الكتاب الوحيد فى العالم أجمع الذى احتفظ بلفظه ومعناه كما أنزل من السماء إلى الآن ، وهو : القرآن

ولهذه الميزة : ميزة الحفظ لفظاً ومعنى : يحاول كثير من كبار المفكرين الغربيين أن يتشبثوا به ويستظلوا بلوائه ، ويعتصموا بحبله حتى يأمنوا أضاليل العقل ومتاهات الفكر البشرى ، وحتى يخرجوا من الظلمات إلى النور .

وهؤلاء إذن لم يرفضوا الحضارة الحديثة فى جانبها الصناعى والعملى ، وإنما رفضوها ـ وهم من أبنائها ـ فى جانبها الخاص بما وراء الطبيعة ، ذلك أنها فى هذا الجانب : لا تعدو أن تكون تقليداً لانحرافات نشأت فى الإنسانية منذ خمسة وعشرين قرنا ! .

أما هؤلاء الذين لجئوا إلى الإسلام معتصمين به : من كبار الغربيين فلنا معهم أحاديث أخرى . وبالله التوفيق ؟

الدكتور عبد الحليم محمود
رئيس قسم العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

— ٣ —

اشتراكية الأسرة

١ — المودة فى القربى :

يلاحظ أن معنى كلمة الأسرة هو العشيرة وأهل البيت ، وأن هذه الكلمة فيها كذلك معنى الأسر وهو القوة ، ومعنى الإسار وهو الرباط ، أو السير من الجلد الذى يشد به الشىء أو يحكم به جمعه ووضعه ، ولا شك أن أفراد الأسرة يقوى بعضهم بعضا ، وأن روابط القرابة تجمع ذوى القربى ، وتجعل منهم وحدة اجتماعية قوية ، ومن ثم كان للأسرة اسم يدل على الصحبة وحسن العشرة وهو « العشيرة » ، واسم يدل على معنى العول والقيام بما يحتاج إليه العيال وهو « العائلة » واسم يدل على معنى التقارب والتجاوب وهو « القبيلة » ، وكل هذه الكلمات تشير إلى الأواصر والصلات التى يقوم عليها مدلول الاشتراكية فى المعانى النفسية والشئون المادية لذوى القربى وأولى الأرحام ، أما المعانى

(بقية المنشور على صفحة ١٥٢)

الله ... »[١] ؛ وقوله : « يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون »[٢] ؛ وقوله : « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »[٣] ؛ وقوله : « قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون »[٤] ؛

(١) آية ١٧ من سورة النساء .
(٢) آية ٦٥ من سورة آل عمران
(٣) آية ٧١ من سورة آل عمران
(٤) آية ٩٩ من سورة آل عمران .

وقوله : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ؛ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ؛ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ؛ فآمنوا بالله ورسوله ؛ ولا تقولوا ثلاثة ؛ انتهوا خيراً لكم ؛ إنما الله إله واحد ؛ سبحانه أن يكون له ولد ؛ له ما فى السموات وما فى الأرض ؛ وكفى بالله وكيلا »[١] .

الدكتور على عبد الواحد وافى

(١) آية ١٧١ من سورة النساء .

النفسية فهى على اختلافها تتلاقى فى « المودة » فإنها وجدان جامع نابع من الإحساس الفطرى بالأبوة والبنوة والأخوة والعمومة والخئولة وما يتصل بكل ذلك ، ومن ثم كان أقل ما يطلب من حقوق القرابة « المودة فى القربى » كما يفهم من قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » فإن معناه - والله أعلم - إلا أن تودونى فى قرابتى ، وذلك أمر فطرى تمليه طبائع الأشياء .

٢ — الإرث والنفقة :

وأما الشئون المادية فهى كذلك على اختلافها تتلاقى فيما يفهم من قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين » . فإن معناه أن الأقرباء من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى بأن يرث بعضا من الأجانب ، أو أن أولى الأرحام - بحق القرابة - أولى وأحق بالميراث من المؤمنين الذين كانوا يرثون بحق الدين ، ومن المهاجرين الذين كانوا يرثون بحق الهجرة ، فقد كان نظام المؤاخاة فى صدر الإسلام ، وفى أول عهد المسلمين بالمدينة يقضى بأن يرث المسلم - بالولاية فى الدين - أخاه المسلم ، وكان الإخاء يعقد بين المهاجر والأنصارى ، فكانت الولاية فى الدين والهجرة إلى المدينة هما المبرر للميراث لا القرابة ، ثم عز المسلمون ، ووجد المهاجرون الفرص المواتية للعمل والكسب وتحصيل الرزق ، وزالت عنهم وحشة الغربة ، فكان طبيعياً أن يصير الأمر إلى وضعه الطبيعى ، وأن ينزل فى ذلك قوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » ، ويمكن أن يفهم من هذه الجملة معان أخرى لا تتعارض ولا تتناقض مع هذا الذى ذكرناه وذكره المفسرون ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وكلمة « أولى ببعض » تتناول مع الإرث الود والنصرة ، والعون وكل ما هو خير وبر ، لأن معنى « أولى » أحق وأجدر وأقرب ، وقد جاء فى الحديث (ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت السهام فلأولى رجل ذكر) . ومعناه أن ما بقى بعد أداء الفرائض لأهلها يعطى للأقرب فى النسب إلى المورث ، وما يقال فى الميراث يقال مثله فى النفقة الواجبة على بعض أفراد الأسرة نحو بعض مع اختلاف فى بعض التفاصيل . كالاختلاف فى الدين ، فإنه يسقط حق الوارث فى الميراث ولا يسقط حقه فى النفقة إذا أعسر واحتاج إلى النفقة ، كما أن عليه النفقة للمحتاج إليها من الأقربين المعسرين مع الاختلاف فى الدين ، فإذا كان للمحتاج ولدان أحدهما مسلم والآخر مسيحى كانت النفقة عليهما بالتساوى لأنهما متساويان فى (العلة وفى الجزئية) وفى قرب القرابة ، وكذلك

إذا كان له بنت وابن فإن النفقة عليهما بالتساوى لأنهما متساويان فى القرب وإن اختلف مقدار ما يأخذه كل منهما من الميراث ولا نريد هنا أن نعرض الخلاف بين المذاهب أو نستطرد إلى ذكر التفاصيل ، لأن ذلك ليس موضوع هذا البحث ، وإنما موضوعه الإشارة إلى مظاهر الاشتراكية فى الأسرة ، وحسبنا فى ذلك أن تنقل ما نقله الدكتور محمد يوسف موسى عن ابن حزم فى كتابه (أحكام الأحوال الشخصية) فقد جاء فيه ما يلى : -

(يقول زعيم أهل الظاهر بأنه يجبر القادر على النفقة على المحتاج من أبويه وأجداده وجداته وإن علوا ، وعلى البنين والبنات وبنيهم وإن سفلوا ، وعلى الإخوة والأخوات والزوجات ، كل هؤلاء يسوى بينهم فى إيجاب النفقة ، ولا يقدم منهم أحد على أحد ، فإن فضل عن هؤلاء بعد كسوتهم ونفقتهم شىء أجبر على النفقة على ذوى رحمه المحرمة وموروثيه) (أى من يرثهم لو ماتوا عن مال يورث عنهم) إن كان من ذكرنا لا شىء لهم . ولا عمل بأيديهم تقوم مؤنتهم منه ، وهم الأعمام والعمات وإن علوا . والأخوال والخالات وإن علوا ، وبنو الإخوة وإن سفلوا ، ومن قدر من كل هؤلاء على معاش وتكسب وإن خسيسا فلا نفقة له إلا الأبوين والأجداد والجدات والزوجات فإنه يكلف أن يصونهم عن خسيس الكسب إن قدر على ذلك ، ويباع عليه فى كل ما ذكرنا ما به عنه غنى من عقاره وعروضه وحيوانه إلى آخر ما قال .

ومن ذلك نرى مدى سعة دائرة النفقة الواجبة ، فإذا أضفنا إليها ما تتحمله (العاقلة) - العصبة - من ديات القتل بالتضامن ، وما ترثه بالتعصيب مما يدخل فى معنى (الغرم بالغنم) تبين لنا أن الاشتراكية فى الأسرة حقيقة دينية وطبيعية واجتماعية ، وأنها من السعة بحيث تشمل النفقة على الخادم ، إذا احتاج أحد الأقربين المعسرين إلى خادم ، وإذا لاحظنا مع ذلك أن القانون الإنجليزى ينقل ثروة المتوفى إلى أكبر أبنائه فيستبد بها ويستأثر بخيرها ظهر لنا الفرق الواسع والبون الشاسع بين ما شرعه الله ، وما شرعه أو يشرعه الناس .

٣ — البر والصلة :

وهناك نوع آخر من البر والمعروف أخشى أن أقع فى الظلم والإثم إذا عزوته إلى الاشتراكية أو عزوت الاشتراكية إليه ، لأنها بمدلولها المعروف لا تثق به ولا تعتمد عليه وهو بمدلوله الرفيع الوسيع بحيث تشرف بالانتساب إليه ولا يزداد شرفه بالانتساب إليها ، لأنه ليس ثمرة الشعور بالحق ، وإنما هو ثمرة الشعور بالمودة والرحمة ، ذلك هو

الإحسان كما يأمر القرآن ، وقد ذكرت فى مقال سابق أنه يتناول القصد الحسن والقول الحسن والفعل الحسن ، فالإحسان إلى الوالدين وذوى القربى قد جعله الله فى المرتبة التى تلى عبادته حيث قال : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى » . ولا شك أن الإنفاق على الوالدين وذوى القربى من الإحسان ، بدليل قوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » والإنفاق من الخير على الوالدين والأقربين بر ، كما يفهم من قوله تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين إلخ » . فإعطاء المال - مع حبه والحاجة إليه - ذوى القربى . من البر الذى أمر الله به ، وصلة الأرحام مما أمر الله به أن يوصل ، بل إن أبر البر أن يصل الرجل ود أبيه » . كما قال صلى الله عليه وسلم ، ومعناه أن يصل الإنسان بالإحسان من كان صديقا لأبيه . وقد وردت أحاديث كثيرة فى بيان فضل بر أصدقاء الأب والأم والزوجة لا يتسع المقام لذكرها ، ومن ذلك ما روى عن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى رضى الله عنه حيث قال : (بينا نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال يا رسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ فقال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما . وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما) . ومما يسترشد به فى هذا المقام ، ويستشف منه مدى عناية الإسلام بروابط القرابة وأواصر الأسرة ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذ قال : إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرءوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » .

عبد الرحيم فوده

من تاريخ الأزهر :

الوزير يعقوب بن كلس

للأستاذ محمد رجب البيومى

من يطالع تاريخ الأزهر فى نشأته الأولى يجد اسم الوزير الفاطمى الكبير يعقوب ابن كلس يتألق بوضوح ، إذ كان من متقدمى علمائه الذين قرءوا العلم فى حلقاته ، كما كان صاحب اليد الأولى فى جعله معهداً علمياً لا يقتصر على العبادة وحدها بل رتب له طلاب العلم من التلاميذ ، وأساتذة التوجيه من المدرسين . حتى أخذ بذلك صبغته العلمية وأصبح حرم الشريعة وحمى اللغة على كر العصور ، والعجيب بعد ذلك أن نجد من الكتاب من يضطرنا إلى المناقشة فيما كتب عن الرجل كأن تاريخه الثابت المتداول غامض مجهول .

قرأت كتاب « مساجد ودول » للسيدة سنية قراعة وقد فاز بالجائزة الأولى من وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ ، كما صدره السيد وزير الأوقاف الأسبق بكلمة تجمع الثناء عليه وتدعو إلى متابعة التأليف فى موضوعه ، بما يوحى بأهميته وجودته ، ولكنى ـ والحق يقال ـ لمست فى بعض فصوله تسرعا عاجلا ، واستنباطا بعيداً يدعو إلى إعادة النظر فى مباحثه . وسأقصر حديث اليوم على ما جاء بشأن الوزير الفاطمى يعقوب ابن كلس ، إذ ظلمته الكاتبة ظلما لا يستند إلى مرجع تاريخى واحد . ولكنها عرفت مبدئياً أنه كان يهودياً وأسلم فرأت فى يهوديته السابقة ما استعانت به على الاتهام والازدراء ولم تقدم مرجعاً واحدا يؤيد رأيها فى الرجل المظلوم ! ولكنه الاستنتاج المتسرع فقط .

وسأنقل هنا بعض ماقالت الكاتبة الفاضلة ثم أشفعه بما أرى من النقد والتصويب راجيا أن أصل إلى الحق من طريق قريب .

تقول السيدة سنية قراعة فيما قالت ص ١١٥ :

« عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب ابن كلس من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدى ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر ، وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته فيصبح من المقدمين فى الدولة الجديدة:

لقد وجد اليهودى الطامع فى الدعوة الإمامية بغيته وكان نطقه بالشهادة يوم أشهر إسلامه معبراً إلى التمكن والسيادة ووسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة، حتى لقد تمكن وهو حديث العهد بالدين والدعوة من وضع مصنفات فى فقه الشيعة وشق أهدافها السرية التى لا يصل إلى معرفتها والعلم بها غير أصحاب الحظوة من المقدمين المقربين إلى الإمام.

لقد حالت بعض الظروف المذهبية الخاصة دون يعقوب والظهور فى حلبة الحكم أيام المعز، وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه بل تصاغر وتراجع واعتزل واعتبر تلك الفترة فترة استجمام، ورغبة فى الاستفادة من ذلك الاعتزال بأن راح ينقب ويبحث ويدرس.

ثم تحدثت المؤلفة بإفاضة عن جهوده التعليمية فى عهد العزيز بالله، لتخلص منها إلى قولها العجيب ص ١٢٤ :

لقد كان اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع ما زال يفكر بعقلية اليهود الذين قال الله فيهم: « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود »، ومن المؤسف أن الرجل وجد سلاحه البتار فى الدعوة الغامضة فأراد أن يشحذه وأن يوجهه إلى أهداف أقرب، ليصيب ويدمى ويقتل ويشفى غليل العداوة من المسلمين الذين آووه وأكرموه.

وقبل أن نأخذ فى مراجعة هذه الأقوال نذكر أن كتابة التاريخ عسيرة شاقة تستلزم قراءة الصحف الكثيرة من متقدمة ومتأخرة وتوجب على صاحبها أن يبنى استنباطه على استقراء تام لما قيل. فمن التسرع الواضح [1] أن تطرأ على الكاتب فكرة توحى بها مناسبة ما، فتكون نقطة ارتكاز تمتد وتعظم دون أن تسندها رواية صحيحة أو حقيقة ناصعة! وإلا فهل كانت يهودية ابن كلس الأولى كافية عند الكاتبة لأن تلغى من الوجود صحائف أعماله وسجلات مؤلفاته وتجعل منه وصوليا حاقدا يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وإن أجمع على غير ذلك مؤرخو الرجل، ووقفوا من الكاتبة الفاضلة على النقيض.

نحن نعلم أن كثيراً من اليهود كعبد الله ابن سبأ وأشياعه أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر يريدون أن يطفئوا نور الله بما يأتون ويجترمون، فجاءت أفعالهم المنكرة صارخة بإجرامهم البغيض، ولم يسكت عنهم أحد

(١) من هذا التسرع العاجل حديث المؤلفة فى موضع آخر عن كافور الإخشيدى فقد رأت فى عبوديته موضعاً للتهجم المصحوب بالازدراء، وتحاول فى مقال تال أن ننصف الرجل الحازم المفكر مما أضيف إليه من أخطاء موهومة، ساق إليها التسرع الطائر دون سواه.

عن يميزون الطيب من الخبيث ، بل وضعت أفعالهم السافرة موضع التحليل والتشريح فدمغتهم بالخيانة اللئيمة ، والحقد الشانئ البغيض ، وأجمع المؤرخون على دناءتهم المخزية ، دون أن يجرؤ كاتب على تبرير مسالكهم الشائنة ، ومؤامراتهم المستفظعة ، ولكننا نعلم مع ذلك أن يهودياً كيعقوب ابن كلس قد أسلم عن اعتقاد ، ولم يسلف من الأعمال ما يضعه موضع المؤاخذة من معاصريه مع من تلاهم من الأجيال ، أفيجوز لنا أن نطمس أعماله الرائعة وأن نكذب التاريخ فى تسجيل صنائعه الحافلة ؛ لأنه كان يهودى النشأة فقط ! مع أن الإسلام يجب ما قبله كما قال الرسول الكريم ! ! ذلك منطق ساذج نربأ بذوى الأقلام أن يأخذوا به فى قليل أو كثير ، وسنناقش الآن بعض ماذكرته المؤلفة الأديبة لترفع عن الوزير المظلوم ما نزل به من حيف شديد ! !

تقول السيدة الفاضلة : « عندما هرب اليهودى الحاقد يعقوب بن كلس من مصر حتى لا يظفر به أعداؤه فى بلاط كافور الإخشيدى ووصل إلى المغرب مركز الدعوة الفاطمية ليحرض المعز على غزو البلاد التى آوته وأعلت من قدره لم يكن يبغى إلا أن يتم الفتح الفاطمى ليعود ثانية إلى مصر وقد نال من سادته الجدد ثمن خيانته فيصبح من المقدمين فى الدولة الجديدة » .

وظاهر هذا الكلام ، أن الرجل حين هرب إلى المغرب كان يهودياً حاقداً خائناً يخاف ذوى النفوذ فى بلاط كافور ، وهذا غير الواقع . فقد أسلم الرجل قبل هروبه إلى المغرب بأمد طويل ، إذ أنه كان قبل إسلامه أثيراً لدى كافور الإخشيدى تسند إليه وظائف العمارة والجباية والخراج فيؤديها بنزاهة بالغة واهتمام كبير ، وكان كافور الإخشيدى عاقلا لا ينخدع ، فلمس من مهارة يعقوب وإخلاصه ما جعله يقيمه رئيساً لديوانه الخاص ثم يبالغ فى الثقة فيأمر أصحاب الدواوين ألا يصرف شىء ما من المال دون توقيع ابن كلس ! ! وإن إنساناً يبلغ هذا المبلغ من نفس الحاكم الألمعى الحصيف وهو بعد يهودى يدين بغير ما يؤمن به السواد من رجال الأمة لذو ألمعية لامعة ، وحيلة ممتازة فإذا أعلن إسلامه بعد استعلاء منزلته وبعد صيته فهو إسلام البصير المدرك المتيقن ؛ إذ أنه قد درس قواعد الدين سراً قبل أن يسلم وألم بما تتضمنه شريعة الإسلام من عبادات ومعاملات وعقائد على يد أناس متخصصين ، حتى إذا اقتنع بما درس أعلن إسلامه فجأة فدخل - كما يقول المؤرخون

جامع عمرو وصلى الصبح فى موكب حافل حتى إذا انتهى من صلاته ركب فى موكبه إلى كافور فأحسن استقباله وهنأه وخلع عليه، ثم رتب لنفسه شيوخا من الفضلاء جعل يقرأ عليهم القرآن والحديث ويتعمق معهم فى القراءات والأصول، وظل على حظوته لدى كافور إلى وفاته سنة ٣٥٦هـ) !!

وكان من الممكن أن تسير حياته هادئة سهلة بعد ذلك ولكن الوزير جعفر بن الفرات قد تحرش به وأمر باعتقاله طمعاً فى أمواله الكثيرة، وكانت الدولة الإخشيدية بعد وفاة كافور فى احتضارها الأخير، تدب فيها جراثيم الفساد والضعف، وتعصف بأمرائها عوامل الترف والنزق والمجون، وقد حل الوباء بالبلاد وارتفع الغلاء ارتفاعا فاحشا أوجد تذمر العامة بالحاكمين، ففكر كثير من الوجهاء والأعيان فى الاتصال بالمعز الفاطمى، لينقذ البلاد مما انحدرت إليه بعد كافور، وكان يعقوب بن كلس أحد هؤلاء الذين ولوا وجوههم شطر الدولة الفاطمية فراراً من الظلم والعسف، وتطلعا إلى عهد جديد، يؤذن بالاستقرار النسبى بعد القلق والفزع والانحلال، فلو كان اتصال يعقوب بالمعز خيانة فى رأى الكاتبة، فلها أن تجعل جميع الذين اتصلوا به غير يعقوب من مسلمين وذميين خونة أيضا. وهذا ما لم يقل به أحد لأن أكثرية الشعب قد قابلت جوهر الصقلى بالترحيب، ولم تتم حرب ما بين الفاطميين والمصريين عند قدوم الغزاة من القيروان، ولو أراد يعقوب الخيانة مثلا لتوجه إلى البيزنطيين دون الفاطميين، فهم أثناء هذه الفترة كانوا أعداء المسلمين! أما الفاطميون فلم يكونوا فى رأى الأكثرية الكاثرة شراً من الأتراك الإخشيد، بل كانوا وسيلة الإنقاذ من العنف الجائر مع ما صحبه من الأوبئة المتلاحقة والمجاعات المتتاليات !!

وأنظر إلى كلام المؤلفة من ناحية ثانية فأقرر أن الرجل لو أخر إسلامه إلى حين اتصاله بالمعز لكان هناك وجه ضعيف لصحة ما قالته من «أنه وجد فى الدعوة الإمامية بغيته وكان نطقه بالشهادتين يوم أشهر إسلامه وسيلة انتهازية للتقدم فى صفوف الدعوة الفاطمية!».

ولكن إسلام الرجل قد تم فى عهد كافور، والبلاد المصرية حينئذ من الثبات والاستقرار والطمأنينة بحيث لا يفكر أحد فى نجاح حملة ما شرقية أو مغربية توجه إلى مصر!! ثم إن ابن كلس قد شفع إسلامه بدراسات أكاديمية جعلته فى صفوف كبار العلماء، فقد ألف فيما بعد كتباً كثيرة فى الفقه الإسلامى

والأديان السماوية ، والقراءات القرآنية وآداب رسول الله ، والحديث النبوى ، وواضح أن هذه الدراسات العميقة المتشعبة لا يضطلع بها غير عالم مخاص يعتنق مذهباً يؤمن به وينافح عنه ، وفرق بعيد بينها وبين دراسات الاستشراق عن الإسلام فى العهد الحاضر لأن كتب يعقوب كانت كتب الدولة الرسمية فى العهد الفاطمى وقد أقرها أفذاذ العلماء من آل النعمان وهم حملة الفقه الشيعى إلى مصر كما قرأها المعز الفاطمى وولده العزيز ، فلوكان بها شبهة مغرضة توحى بفساد عقيدة يعقوب ، وشذوذه عن الدائرة الإسلامية ولو فى رأى الفاطميين على الأقل، ما تبوأت هذه المكانة فى الدولة الجديدة ، بل إن يعقوب كان يعقد مجلساً علمياً يحضره كبار الفقهاء والقضاة والمتكلمين والمتناظرين كل أسبوع فيشرح ويفسر ويعترض ويناقش ويستدل بالقرآن والحديث .

والذى يظهر الإسلام ويبطن اليهودية لا يتسنى له أن يجد من المطاوعة النفسية والإخلاص العلمى ما يبوئه صدارة العلماء ، وإمامة الفقهاء دون أن تصدر عنه بادرة ما توحى بانحرافه والتوائه بل إن عنايته بنشر العلم بالجامع الأزهر وتخصص طائفة من العلماء للدراسة أولا والتدريس ثانيا مع إجراء النفقات الوافية عليهم كل أسبوع لما يكفل لهم رغد العيش ونعيم الحياة مع الاهتمام الحريص بجمع الكتب الدينية ونسخها وتذليل طرقها للقراء والمستفيدين وإقامة الدور الخاصة بالمكاتب والوراقة والنسخ، كل ذلك ينطق باهتمام المؤمن وحرص العالم وكلف الفقيه ، وقد شاع أمره واستفاض من حتى لم نجد كاتبا متقدما جمل عقيدة الرجل موضع الغمز واالتجريح على كثرة من أرخوا للوزير فى القديم والحديث كابن منجب الصيرفى وابن خلكان والمقريزى وابن تغرى بردى وسواهم من المؤرخين إلى أن جاءت صاحبة (مساجدودول) فخرجت علينا برأيها الجديد دون دليل ! .

وكنت أطمع أن تقرأ المؤلفة تاريخ الرجل فى مظانه القريبة كيلا تسجل عليه غير الواقع الأكيد، فقد ذكرت ، أن بعض الظروف المذهبية الخاصة قدحالت بينه وبين الظهور فى حلبة الحكم أيام المعز وبرغم هذا لم يتبرم ولم يحاول أن يرفع رأسه بل تصاغر وتراجع واعتبر هذه الفترة فترة استجمام ».

وهذا كله غير الواقع ، فالرجل لم يتضاءل ولم يتصاغر فى عهد المعز ، بل أسندت إليه كبريات المهام من سياسية ومالية وعلمية ، فقد كان القيم الأول على شئون الخراج

والحسبة ، والمستشار المفضل فى أمور السياسة والتعمير والإنشاء ، والعالم المصنف المشرع ! إذ بدأ فى إصدار مدونته الفقهية ، وقد سميت فيما بعد بالرسالة الوزيرية ويقولون عنها إنها تبلغ نصف حجم البخارى ، وتشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ، وقد تبرع الرجل فذكر أنه نقل أحكامها عما سمعه من دروس المعز لدين الله ، وهو قول يزيد فى قيمة الرسالة وجلالتها الشرعية والسياسية دون أن تكون له حقيقته المسلمة ، إذ لا يعقل أن المعز كان مملياً ، وابن كلس مجرد كاتب ، ولو كان الأمر كذلك لأسندت الرسالة مباشرة إلى المعز ، ولعل ما اشتهر عن العلماء من نسبة كتبهم حيناً أو إهدائها أحياناً إلى الرؤساء كان عاملا فى تقرير هذه النسبة إلى المعز ، ومن يدرى فلعل المعز تكلم فى بعض المسائل الدينية ، فحرص يعقوب على تدوينها والتعليق عليها ، وضم المتشابهات من المسائل والفروع والأبواب لها ثم جعل من ذلك كله ما نسبه إلى علم الخليفة وتوجيهه ، فالرجل إذن كان صاحب المكانة المرموقة فى عهد المعز دون أن يجد ما يضطره إلى الاعتزال والتراجع ، والمطلع على تاريخ الفاطميين بمصر يعرف أن منصب الوزارة لم يوجد إلا فى عهد العزيز بالله ، وقد كان يعقوب أول من تقلده ولقب حينئذ بالوزير الأجل. وإذن فقد أسندت إليه أعمال الوزير فى عهد المعز دون لقبه الذى لم يوجد بعد ، حتى إذا وجد فى عهد العزيز أسند إليه قبل سواه ، ويهمنا هنا أن نعلن ما ذكره الأستاذ البحاثة محمد عبد الله عنان ، وهو حجة فى التاريخ الفاطمى بشأن هذه الحقيقة الواضحة نقلا عن مجلة الرسالة العدد ١٣٦ فى ١٩٣٦/٢/١٠ . حيث يقول مستنداً إلى أمهات المراجع المعتمدة:

« ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ قدم معه ابن كلس ، وقلده المعز شئون الخراج ، والأموال والحسبة والأحباس وسائر الشئون المالية الأخرى ، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة ، وزاد الدخل زيادة واضحة ، ثم عهد إليه المعز بشئون (قصره) الخاص ، فكيف تسترسل الكاتبة بخيالها فى معرض التاريخ لتصور من ابتكارها الخاص مسألة التصاغر والتراجع والاعتزال ، ثم تبنى على ذلك ما تفترضه فى الرجل الكبير من خيانة وخداع !

على أن أعجب ما قرأته المؤلفة هو قولها :

« إن اليهودى القديم الذى تظاهر بالإسلام ووجد فيه متنفسه وذريعته إلى المطامع ما زال يفكر بعقاية اليهود الذين قال الله فيهم : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا

اليهود». ولو كان الرجل من أشد الناس عداوة للمؤمنين حقا ما كانت مؤلفاته الدينية الكثيرة المرجع الأول لدولة إسلامية فتية تجمع عشرات الفقهاء، والقضاة من ذوى البصر والنفاذ، وقد درسوها باهتمام وناقشوا الرجل فى أكثر مسائلها على رءوس الأشهاد فما وجدوا بها ما يعاب، بل لو كان الرجل كذلك ما رتب فى قصره الخاص عشرات العلماء والفقهاء والقضاة للدراسة العلمية الخالصة ثم أجرى عليهم الأرزاق من جيبه الخاص وحدد لهم يوما خاصا فى الأسبوع للنقاش والمطارحة والحجاج، هذا إلى ما سبقت الإشارة إليه من صلته جماعة من الفقهاء بالأزهر وبناء الأروقة الخاصة بهم وتوجيه العزيز إلى رعايتهم وتقديمهم وحمل الناس على احترامهم وتعظيمهم، مع تخصيص جانب كبير من قصره لجماعة من الكتاب ينسخون القرآن والحديث وكتب الفقه والطب!!

أما اهتمامه بالجامع الأزهر وجامع الحاكم ومسجد عمرو، فما يضاف إلى سجله الدينى الحفيل، وقد روى المؤرخون أن الوزير حين مرض مرض الموت زاره الخليفة العزيز بنفسه وقال له فى تأثر: وددت لو أنك تباع فأشتريك بملكى أو تفتدى فأفتديك بولدى فهل من حاجة توصى بها؟

فبكى ابن كلس وقبل يده وجعلها على عينه ثم أوصى العزيز بعدة وصايا هامة كانت موضع تقديره، وحين مات جزع عليه الخليفة ودفنه فى قبة كان قد أمر ببنائها لنفسه، وآثر بها وزيره العزيز، ثم أصدر أمره بإغلاق الدواوين عدة أيام حداداً عليه، وشيع تشييعاً لم تعرفه مصر آنذاك لوزير كبير حتى رثاه مائة شاعر بمائة رثاء!!

فليت شعرى أتكون هذه المكانة لخائن مضطغن حقود يخفى نياته الخبيثة عن جميع رجال عصره ومن تلاهم من الباحثين حتى تعرفها المؤلفة الفاضلة توهما دون دليل.

إن الطريقة الطبيعية لكتابة التاريخ أن تستقرئ مراجعه الكبيرة ثم توازن وتنقد وتفسر أما أن تتوهم فتجزم ثم تؤرخ فتلك طريقة تحتاج إلى تعديل؟

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

حروف القرآن وحدوده

للأستاذ محمود الشرقاوي

— ٢ —

هؤلاء الذين يحرصون على الحروف أكثر من حرصهم على الحدود ، أو يحرصون على الحروف ولا يحرصون على الحدود . الذين يشغلهم الشكل والمظهر أكثر مما يشغلهم المخبر والجوهر .

هؤلاء القوم نجد لهم ذكراً فى كل دين وكل عقيدة . وذكرهم فيها مشفوع بالزراية والإنكار والزجر .

فى عقائد مصر القديمة نجد ذكراً لهؤلاء القوم مشفوعاً بالإنكار والزراية فى « كتاب الموتى » الذى هو كتاب العقيدة المقدس عندهم قبل آلاف السنين . ونجده واضحاً بيناً فى هذه الكلمة التى نقشها ملك مصرى من ملوك الأسرة التاسعة وهى : « إن الفضيلة يتحلى بها الرجل العادل ، أفضل عند الله من الثور الذى يذبحه الرجل الشرير قرباناً له » . ونجده ، عندهم فى هذه ، فى الوصية التى وصى بها الملك « آنى » ابنه : لا تقترف الإثم ... لا تفرض نفسك على موكب الإله ، ولا تزاحم بمرفقيك لحمل قربانه . خف الله واتق غضبه ... وإذا صليت فلا تجهر أو تصيح . صل بقلب مؤمن يخاطب الله فى غير إعلان ، يقض الله حاجتك ويستجب لدعوتك » . فهو ينهى ابنه عن النفاق والرياء ويأمره بالإخلاص فى الصلاة والدعاء .

ومن التوراة نكتفى بكلمة قالها « فيلون » الفيسلوف اليهودى (١) ، وهى : « إن الله لا يفرح بالضحايا ، ولو حسبت بالمئات . لأنه مالك كل شىء ومعطى كل شىء ، ومن عطاياه تلك الضحايا . وقد يكون التقرب بخبز الشعير عنده أقوم من التقرب بالنفائس والذخائر . بل من تقدم إليه بنفسه ، لا يحتقب شيئاً غير الصدق وخلاص النية أكرم عنده ممن يبذل الأموال ثم يسوء قوله وعمله (٢) » .

ومن الإنجيل نذكر هذه القصة التى رواها لتلاميذه السيد المسيح : « ... سائر فى الطريق ، خرج عليه اللصوص فسلبوه ما معه وضربوه ، وتركوه بين الحياة والموت ومر به كاهن يلبس المسوح فأهمله ومضى فى

(١) ولد فى الإسكندرية قبل ميلاد المسيح بثلاثين سنة .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية المسيح ص : ٦٠ – ٦٢ .

طريقه . وجاء لاوى فمضى أيضاً ولم يلتفت إليه ... ورآه سامرى فأشفق عليه ومال إليه فضمد جراحه وأركبه على دابته وجاء به إلى فندق فأنزله فيه ورعاه ، وقبل أن يتركه لسفرة أخرج لصاحب الفندق دينارين لينفقهما عليه ويعنى به وقال للفندقى : مهما تنفق على هذا المريض المسكين فإنى موفيه لك عند رجوعى . ثم قال السيد المسيح لتلاميذه ، وقد ضرب لهم المثل الواضح الدلالة : أى الثلاثة أقرب إلى ذلك الصريع الجريح ... ؟ [1] » .

ثم نذكر عن الإنجيل هذه الكلمة من كلمات السيد المسيح : « إن قدمت قربانك وذكرت حقاً لأخيك عليك ، فدع قربانك أمام المذبح واذهب قبل فصالح أخاك » .

ونكتفى بهذه القصة وهذه الكلمة .

* * *

أما القرآن الكريم فلا نجد أصرح منه ولا أقوى بياناً أو أعظم حرصاً على الحدود والحروف معاً : هذه توصل لتلك .

هذه آيات من كتاب الله نتلوها ونتأملها فلا نجد فيها سوى شىء . هو تثبيت قول الرسول عليه السلام فى الحديث الشريف : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

أولى هذه الآيات هى قول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » . فالذى لا تحجزه صلاته عن المنكر والفحشاء لم يصل ، كما أمر الله ، ولم يقم ولم يتعبد .

لا نكاد نجد آية من كتاب الله نذكر فيها التكاليف والأوامر إلا مقروناً بها الأمر بالفضائل الخلقية ، من البر والصدق والمعروف والأمانة والمودة وأمثال ذلك . ويقيننا أن ذلك لم يذكر عن غير قصد ، تعالى الله ، حتى الآية الكريمة التى عرف الله بها كتابه وذكر الغاية من وحيه وتنزيله والهدى به ، نذكر الصلاة ونذكر معها البذل والصدقة : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون [1] » .

وحين أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل كان ميثاقه عليهم ألا يشركوا وأن يبروا والديهم وذوى قرباهم واليتامى والمساكين وأن يقولوا للناس قولا حسنا . ثم يذكر بعد ذلك الصلاة والزكاة ، التى هى عبادة وبر معاً : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون [2] » .

---

(١) ملخصا من إنجيل لوقا : ١٠ ـ ٢٥ .

(١) البقرة : ٢ ـ ٣ .

(٢) البقرة ٨٣ .

وكذلك نجد فى آية أن الله أخذ عليهم الميثاق وبعث منهم اثنى عشر نقيبا ، فكان ميثاقه أن يقيموا الصلاة ويؤدوا الزكاة ، وأن يؤمنوا بالرسل ، ويعزروهم ثم تذكر الآية بعد ذلك فرض الله الحسن من عمل الخير : « ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل » .

وعند ما يأمر القرآن بالحج والعمرة والإنفاق فى سبيل الله وإحسان العمل ، ويقدم هذه على تلك : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين . وأتموا الحج والعمرة لله »[1] .

وحين نجد القرآن الكريم يذكر عباد الله الذين نسبهم إلى صفة « رحمته » فيسميهم « عباد الرحمن » يذكر أول صفاتهم ، فضيلتهن من فضائل النفس والخلق فيقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما »[1] . ومن سياق هذه الآية وترتيبها ندرك شيئا كثيراً .

ومن يقرأ كتاب الله قراءة تدبر وتفكر يجد شيئاً أكثر وأكثر فى أمر هذا الذى نعرفه باسم « الحروف والحدود » .

* * *

عن عبد الله بن عمرو بن العاص « لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن حيث نزل له دوى حول العرش كدوى النحل . يقول الرب : مالك ؟ فيقول : يارب ، أتلى ولا يعمل بى »[2] .

فأصحاب « الحروف » ، كما يقول هذا الحديث الشريف ، يتلون القرآن تلاوة الحفظ والسرد ولكنهم لا يتأثرون به فى قلوبهم ومشاعرهم وضمائرهم ، يحرصون على الحروف ولا يحرصون على الحدود

ومن التمييز الصادق بين الحروف والحدود هذا الأثر الذى روى عن عمر ، وهو أنه « سمع رجلا يثنى على رجل ، فقال له : من أين عرفته ؟ هل سافرت معه ؟ هل كانت بينك وبينه خصومة ؟ هل ائتمنته على شىء ؟ فقال : لا . فقال عمر : إنك لم تعرفه . أراك رأيته يرفع رأسه ويخفضه فى المسجد »[3] .

(١) البقرة : ١٩٥ – ١٩٦ .

(١) الفرقان : ٦٣ – ٦٤

(٢) شرح السنة للبغوى ص : ٧٠ الجزء ١ (مخطوطة)

(٣) نيل الأوطار للشوكانى

« ... وليس الخلق المطلوب فى هذه الشعب التى يرجع إليها الدين عند الله هو مجرد أن يعرف أن الصدق فضيلة والكذب رذيلة ، وأن الإخلاص سمو ، والمكر والخداع انحطاط . ولا مجرد الحديث فيما بين الناس عن ذلك ، وأن الناس تخلوا عن الأخلاق الفاضلة . وإنما الخلق هو انفعال النفس وتأثرها بما ينبغى أن يكون فينفعل ، وبما لا ينبغى أن يكون فيترك .

والخلق ، بهذا المعنى ، هو الصمام لهذه الشعب كلها ، وهو المعتصم الذى يتمسك به من أراد أن يكون (مسلماً حقاً) . والعقيدة وما إليها دون خلق شجرة لا ظل لها ولا ثمر ، والخلق دون عقيدة ظل لشبح غير مستقر .

ومن هنا كانت عناية الإسلام بالخلق عناية تفوق كل عناية ، لقد وصلت هذه العناية عند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن جعل الخلق متعلق رسالته : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وقد كثرت توصيات الرسول فى هذا الجانب حتى قال : (أثقل ما يوضع فى الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق) وحتى جاء رجل ذات مرة ووقف بين يديه وسأله : (ما الدين يا رسول الله ... ؟ فقال : حسن الخلق . فجاءه من قبل يمينه وسأله السؤال نفسه وكان الجواب : حسن الخلق . ثم جاءه من شماله ومن الخلف وسأله السؤل وكان الجواب هو الجواب) .

وما أشد وقع حكم الرسول على المرأة التى قيل له فيها : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها فقال : (لا خير فيها ، هى من أهل النار) . ما أشد وقع هــذا الحكم على هؤلاء الذين وقفوا من الدين عند المهمة بالتسبيح وكثرة التحدث عن الفضيلة ، وصور العبادات وأشكالها . ثم ما كانت نفوسهم منطوية إلا على الغش والمكر والخداع والملق والنفاق يدبرون السوء ويفسدون ما بين الناس من روابط مستعينين بتشويه الحقائق ودس الأكاذيب والعمل على ستر كل مايقوض دعائم الحياة الطيبة الفاضلة ، هؤلاء فى واقعهم ليسوا من التدين فى شىء ، وإن الله سبحانه لم يجعل الإيمان به أساس دينه ، ولم يجعل العبادات أركانا له إلا لما تحدثه من أثر طيب فى النفوس يكون عنصراً لتكوين الخلق الفاضل .

وانظر فى مثل قوله تعالى : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون »[1] لتعرف أن هؤلاء ـ بوضعهم الخلق وصلتهم بين الناس والمصالح العامة ـ

(١) الأعراف : ٣٣ .

استحلوا لأنفسهم الإثم والبغى بغير الحق ، وقالوا على الله ما يعتقدون بغض الله له[1] .

هذه صيحة قوية تبين فرق ما بين أصحاب « الحروف » وأصحاب « الحدود » فتجعل هؤلاء الذين يحرصون على الحدود والحروف ، وحرصهم على الحدود شديد ، هم « المسلمون حقا » . وتجعل أولئك الذين يحرصون على الحروف دون الحدود قد : « استحلوا لأنفسهم الإثم والبغى بغير الحق ، وقالوا على الله ما يعتقدون بغض الله له » .

هذه « الحروف » التى يطالعها القارئون أو يحفظها الحافظون دون أن تترك أثرها فى قلوبهم وضمائرهم لن تغنى عنهم ولا عن الدين والعقيدة شيئا . بذلك أخبر النبى الصادق الأمين فى هذا الحديث الذى شبه فيه القوم باليهود والنصارى ، الذين حرفوا وبدلوا ولم تغن عنهم الحروف شيئا : « جاء رجل إلى النبى عليه السلام يقول : كيف نهلك ونحن نقرأ القرآن أبناءنا ، وأبناؤنا يقرئون أبناءهم : قال عليه السلام : ثكلتك أمك . . . ! أو ليس اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل . . . ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال فما أغنى عنهم ذلك . . ؟ قال : لا شىء يا رسول الله[1] » .

محمود الشرقاوى

(١) الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت : « الإسلام : عقيدة وشريعة » ، ص ٣٩١ — ٣٩٢

(١) أخرجه أحمد وابن ماجة من حديث زياد ابن لبيد ، والدارمى من حديث أبى أمامة .

رسالة السلام والتحرر

جاء الإسلام برسالة إنسانية تحرر العالم من العبودية وتقرر المساواة بين البشر جميعاً فى الحقوق والواجبات . وقد بين الله سبحانه وتعالى لرسوله وللمؤمنين طريق الدعوة إلى هذه الرسالة وهو طريق المجادلة بالحسنى ، والرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن سوى بشير للإنسانية بالخير والعدالة ، ونذير لها إذا هى حادت عن طريق الخير والعدالة .

محمد فريد أبو حديد
عضو المجلس الأعلى للفنون والآداب

بمناسبة الحملة ضد الجوع التى نظمتها هيئة الأغذية والزراعة بالأمم المتحدة :

من أجل الطيبات

للأستاذ فتحى عثمان

— ٢ —

القول بأن الجوع نتيجة نوع من القوانين الطبيعية قول لا يسنده رأى علمى ، ومجرد تحليل بعض الأرقام يبين لنا أن هذا رأى غير حقيق ، فالمحيطات تغطى ٧١ ٪ من مساحة سطح الأرض ، ٢٩ ٪ هى الجزء اليابس من مساحة السطح ، وهى تبلغ ٥٦ مليون ميل مربع .

منها ٣٠ ٪ تغطيه الغابات

٢٠ ٪ تغطية السهول العشبية

١٨ ٪ جبلى

٣٢ ٪ صحاوت حارة أو قطبية

ويقدر روبرت سولتر وهومر شانتز من خبراء وزارة الزراعة فى الولايات المتحدة : أن ٢٥ مليونا من الأميال المربعة — أى نصف مساحة اليابس فقط — يمكن استغلاله فى الزراعة بالطرق المتبعة حاليا فى استغلال التربة . أما الجبال والصحارى فلا تعتبر صالحة للزاعة ، ولو أن السنوات الأخيرة قد شهدت انتصارات ملحوظة حققتها طرق الزراعة الفنية فى هذه البقاع .

ومع ذلك فإن هـــذا الرقم يضع تحت تصرف البشر ١٦ بليونا من الأفدنة يزرعونها أى بمعدل ثمانية أفدنة لكل فرد من السكان على أساس تعداد العالم الحاضر .

وقد قدر علماء الزراعة والتغذية الذين يدرسون العلاقة بين المساحة المزرعة وإنتاج الطعام فى ضوء علم التغذية الحديث أن نحو فدانين لكل فرد يكفيان لتوفير العناصر الضرورية لغذاء معقول . وعلى أساس هذه النسبة تستطيع الزراعة أن تستغل ربع المساحة الصالحة الزراعة فى العالم .

وإلى اليوم لم تبلغ المساحة المزرعة فى العالم أكثر من بليونين من الأفدنة ، أى بنسبة الثمن من المساحة الممكن زراعتها ...

وقد أسقطنا من حسابنا نصف مساحة اليابس ، فالجبال والصحارى لم تحسب ضمن الأرض الصالحة للزراعة ، مع أن

مئات الآلاف من الأفدنة فى الصحراوات المدارية قد تحولت أخيراً إلى الزراعة بفضل الأساليب الحديثة وأن الروس يكسبون بطرقهم الزراعية المدهشة أراضى جديدة واسعة من الصحارى القطبية يحولونها إلى الزراعة ! !

ومن النظريات الأخرى التى تثير الفزع القول بأن إنتاج الطعام لا يمكن زيادته ، لأننا بلغنا الحد الأقصى لطاقة التربة ، وكذلك حدود التشبع البشرى ! !

ولكن الحقائق هى :

أولا : من الخمسين فى المائة من أراضى العالم التى يمكن زراعتها لا يزرع الآن سوى عشرة فى المائة .

ثانياً : أن غلة الفدان فى أكثر جهات العالم يمكن زيادتها زيادة كبيرة باستعمال طرق زراعية معقولة .

وقد انتهت لجنة منطقة الأغذية والزراعة التى طبعت التقرير الخاص بالتغذية فى العالم إلى أن إنتاج القمح فى الهند يمكن زيادته ٣٠ فى المائة فى عشر سنوات .

منها ٢٠ ٪ بواسطة استخدام المخصبات

٥ ٪ بواسطة استعمال أصناف جديدة

٥ ٪ بواسطة حماية المحصول من الآفات والحشرات .

ويستطرد التقرير فيقول : إنه بعد انقضاء هذه الفترة قد تستخدم وسائل جديدة تؤدى إلى رفع هذه الزيادة إلى ٥٠ فى المائة .

ويمكن أن يحدث نفس الشىء فى جهات كثيرة من العالم .

ويقدر ريموند كريستنس أن نصف الزيادة فى الإنتاج الزراعى بالولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية كان يرجع إلى إلى إدخال طرق فنية جديدة ...

إن إمكانيات علاج الحيوان المستأنس والنبات بوصفها وسائل انتاج غــذائى تستطيع زيادة حصيلتها كما وكيفا .

ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك ، بين الحربين العالميتين الأولى والثانية استطاعت تربية الحيوان على أسس علمية أن تزيد من معدل انتاج اللبن فى الدانمرك من ٢٠٠٠ إلى ٣٢٠٠ رطل لكل رأس ، وفى انجلترا من ٢٧٠٠ إلى ٣٢٠٠ رطل ، وفى نيوزيلندامن ٢٠٠٠ إلى ٣١٠٠ رطل . وهناك طريقة التوسع الزراعى بزراعة أراضى جــديدة وأنواع جــديدة من التربات ، وادخال نباتات وحيوانات جديدة للأغراض الغذائية، كذلك نستطيع استغلال موارد غذائية لم تطرق بعد كالثروة الهائلة التى تزخر بها البحار ، كما أنه من الممكن تربية الأحياء فى مياه المحيطات لتزيد من موارد الإنسان الغذائية إن أول نصر كبير على الجوع سوف يأتى

فى شكل زيادة أساسية فى الإنتاج العالمى للغذاء، وتقف الطبيعة والعلم كلاهما على استعداد للمعاونة فى هذا السبيل وهناك مساحات شاسعة من الأراضى غير المستغلة تنتظر الاستغلال — وتستطيع الفنون الزراعية أن توضح لنا أحسن طرق استغلالها كما تستطيع أن تبين لنا كيف نزيد استفادتنا من الأرض التى تزرع فعلا، وكذلك من البحر أو حتى من مركبات المواد غير العضوية ... »

هكذا يبسط لنا خبير معهد التغذية بجامعة البرازيل «جوزويه دى كاسترو» آمال العلم ... والدين قرر قد رحمة وسعت كل شىء، والكون فطرة ليس فيها ثغرة إذ هذا الكون من صنع الله الذى أتقن كل شىء. كما قرر للإنسان كرامته ومكانته فى الكون وبين سائر الخلق ... وهو بهذا كله يفجر خلال عقائد الإيمان الأساسية طاقات كبرى للانطلاق.

إنه يفتح طاقات الكون على طاقة الإنسان فى تأثير متبادل فعال!!

يبذل الإنسان طاقته فى معالجة طاقات الكون، ويمنح الكون هذا الإنسان ما يحفظ عليه حياته وحيوته وطاقته لينفق هذا كله فى العمل فى الكون...

وهكذا تتفتح الطاقات هنا وهناك.

ويبارك الإيمان هذه الطاقات العاملة التى تطلق آيات الله فى الآفاق!.

يكرم الإنسان: فيغدو الحفاظ على كرامة الإنسان فريضة الإيمان وشريعة الدين.

ويبرز جلال الكون؛ فيجعل تأمله وتدبره، والعلم بنواميسه والعمل للإفادة من طاقته، سياحة قدسية وعبادة خاشعة.

« فإذا قضيت الصلاة، فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون».

«هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها، وكلوا من رزقه، وإليه النشور».

« وهكذا يطلق الدين قوى الإنسان — فى أنقى وأصفى حالاتها، لتعمل عملها مع قوى الطبيعة ...... تعمل بعد أن نقاها الإيمان من اليأس الكثير والبطر المغرور، وصرف مشاعر الخوف والرجاء فى الإنسان إلى من لا يتجبر بها بغير الحق وهو غنى عن العابدين، وآزره وهو يعالج الكون العملاق بالاستناد إلى بارئ الكون وفاطر الإنسان والتطلع إلى عالم آخر هو خير وأبقى، فيه جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وهكذا تأتى العقيدة فى الله تعزيزاً لسعى الإنسان فى سبيل الحياة ...

تأتى إطلاقا للقوى الإنسانية فى أوسع مداها ، وتسخيراً للقوى الكونية فى شتى أسبابها ، مع سد المسارب التى تتبدد منها هذه وتلك على السواء !.

لقد ساق القرآن الناس عقيدته فى موكب من الحياة والخضرة والنور .

« إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ، أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

ومن هنا تنطلق كل الطاقات ، إلى أقصى الغايات ، فى رحاب الإيمان .

ويعبد الله ، بالابتغاء من فضل الله ،

فيهون الجهد .

ويطوى الكون .

ويعز الإنسان .

وهـــذه هى البركات التى تتحدث عنها كتب السماء :

« ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » .

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » .

فتحى عثمان

قال الإمام الغزالى : كنت أنشر العلم الذى يكسب الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك قصدى ونيتى ، أما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه ـ وهذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيتى ، يعلم الله ذلك منى ، وأبغى بهذا أن أصلح نفسى وأصلح غيرى .

من معانى القرآن

« يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً » .

النبأ : هو الخبر الذى له شأن ، والنباوة : الربوة أو الأرض المرتفعة ، وكلمة النبى إذا كانت مأخوذة من النبأ فهى بمعنى النبىء أى المخبر عن الله أو الذى يتلقى الأنباء منه ، وإذا كانت مأخوذة من النباوة أى الربوة أو الأرض المرتفعة : فهى بمعنى الشريف الرفيع الشأن والمقام .

والشاهد هو الذى يخبر بما يعلم ، والشأن فيه أن يعرف عدله ويقبل قوله .

والمبشر هو الذى يخبر بما يسر ويظهر أثره على البشرة .

والنذير هو الذى يحذر ويخبر بما يخيف والسراج هو المصباح .

المعنى :

يخاطب الله خاتم أنبيائه ورسله باللقب الذى يدل على شرفه وعلو منزلته وسمو قدره فيقول يأيها النبى ، ولا يناديه باسمه فيقول « يامحمد » كما نادى الأنبياء بأسمائهم فقال « يانوح » ، « ياموسى » ، « ياعيسى » ، ويؤكد له أنه ـ جل شأنه ـ أرسله شاهداً على الناس ، وعلى الأنبياء الذين أرسلهم إلى الناس كما يفهم من قوله تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ويصفه بأنه المبشر بالخير والثواب . المنذر بالشر والعقاب . الداعى إلى الله بإذن الله وتيسيره . المصباح الذى يضىء الوجود بنوره ، وقد وصفه الله بأنه نور حيث قال : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » ، ووصف الدين الذى بعث به بأنه نور حيث قال : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » ، ووصف القرآن الذى أنزل عليه بأنه نور فقال : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » ، ومن ثم يفهم من قوله تعالى : « نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » . أنه صلى الله عليه وسلم هو النور الذى أنزل عليه النور ، وأن محاولة الغض من شرف مكانته ومنزلته عند الله وعند الناس تحبط الأعمال وتهبط بصاحبها إلى حيث يشير قول الله : « يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون » .

فأى كلام يشم منه تفضيل غيره عليه أو قياس غيره به ، أو سوء الأدب معه ، يجب أن يكون موضعه من قلوب المسلمين الاستقباء والازدراء .

عبد الرحيم فودة

التنافس السلمي حول الثقافة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

ازدهر التبادل الثقافي في ظل الدولة الإسلامية . ولا سيما في عصور العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس ، إذ أدرك الخلفاء - بعد أن اتسع نطاق الدولة الإسلامية وبسطت ظلها على كثير من بلاد العالم القائم حينئذ - أنه لا حائل بين العقيدة الإسلامية وبين الانتشار في ربوع الأرض فلا ضرورة إذن للجهاد ما لم يصد عاد عن سبيل الله ، والأولى أن تدخل الدولة الإسلامية في علاقات عهدية مع العالم المسيحي في ذلك الحين ومع سائر الأمم المجاورة ، حتى يتفرغ ولاة الأمر من المسلمين لشئون دولتهم المترامية الأطراف في ظل عالم يسوده الأمن والسلام .

وليس أفضل من رسالة الفكر المشترك سفيراً لإنشاء العلاقات الودية وتوطيد الروابط بين الأمم والشعوب ذلك أن تبادل المعاني والأفكار لا يقل أثراً في دعم الصلات الجيدة من تبادل المنافع المادية ، فهو يقرب بين النظرات المتباينة ويهيئ النفوس لاقتلاع بذور الشك وعدم الثقة ، فيصبح الطريق ممهداً للتعاون والتضامن في ظل الأمن العالمي بين أعضاء الأسرة الدولية ، سواء تلك التي تتفق في نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أو التي تختلف فيها .

ومن ثم لم يقف اختلاف هذه النظم بين العالمين الإسلامي والمسيحي في العصور الوسطى حائلا دون تلاقيهما في الميدان الثقافي وكانت الدولة العباسية والدولة البيزنطية أعظم قوتين سياسيتين في ذلك الحين . فقد امتدت رقعة الإسلام من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وذلك فضلا عن امتداد أرجائها شمالا وجنوبا . وكانت امبراطورية الروم المسيحية — الامبراطورية البيزنطية — تبسط سلطانها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا .

ولم تقصر الامبراطورية الإسلامية علاقاتها الثقافية على الدولة البيزنطية ، فقد امتدت بها إلى سائر الممالك من الأمم . فساوت البعثات العلمية بين البلاد الإسلامية وبين القسطنطينية وروما ، ومملكة البلغار ، ودولة الفرنجة التي خرجت من أضلاع بيزنطة والهند

والصين وجرت بينها المفاوضات فى سبيل دعم الروابط العلمية والثقافية وتوثيق الصلات الدولية ، وكان السفراء فى ذلك الحين يقومون بما يشبه المهمة التى يضطلع بها المستشارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم وأسفرت تلك المفاوضات التى تمت عن طريق تبادل الكتب والرسائل الودية وإيفاد المندوبين عند عقد معاهدات لإقـــرار التبادل الثقافى ، وكانت تلك المعاهدات تنص على دراسة الكتب النادرة التى تتوافر لدى الجانبين أو فى مكتباتهما العامة وتبادل البحوث العلمية وتيسير مهام الطلاب والباحثين فى جامعات المسلمين والبيزنطيين وفى عواصمهم .

عزل الثقافة عن ميدان الصراع :

وانعكس هذا التيار الثقافى على السلام العالمى نتيجة التقاء المعسكرين الكبيرين فى ذلك الحين على صعيد العلم والمعرفة ، وكان الفضل فى ذلك للمسلمين الذين نزهوا الفكر عن استخدامه أداة للصراع الدينى والسياسى وحرروه من الوقوع تحت تأثير هذا الصراع . فالعلم حق ينبغى أن يتاح للإنسان فى كل مكان من العالم حتى يعرف النتائج التى توصل إليها العقل البشرى فى كافة المجالات دون قيود أو سـدود .

وبذلك وحده تعود الثقافة إلى طابعها العالمى الإنسانى الأصيل الذى تدعو إليه المبادئ الإسلامية .

ولقد أدت تلك السياسة الإنسانية الرشيدة إلى ذوبان الجليد بين المسلمين والمسيحيين فى تلك العصور الزاهرة فتم التقارب والامتزاج والتزاوج الثقافى بين الكتلتين رغم ما بينهما من خلاف دينى . وساعد على القضاء على عقدة الخوف والشك والكراهية بين الجانبين ، تلك العقدة التى نشأت بسبب اختلاف أنظمتهما . وترتب على ذلك أن حلت كثير من المشكلات الدولية فنعم العالم بسلام دام فترة طويلة من الزمن مما هيأ السبيل لازدهار المدنية التى حملت فى أحشائها البذور الصالحة لانبعاث عصر البعث العلمى وبزوغ فجر الحضارة المدنية .

التنافس السلمى حول الثقافة :

ولئن أخذت الدولة العباسية فى علاقتها مع الدولة البيزنطية بمبدأ التنافس السلمى فى الميدان الثقافى ، فلا عجب أن تنهج هذه الوجهة فى علاقتها مع الدولة الأموية المناوئة لها فى الأندلس بجامع العقيدة الإسلامية بينهما .

وفى ظل هذا المبدأ بلغ التبادل الثقافى ذروته فى تلك العهود بفضل النهضة العلمية

التى ازدهرت فى العواصم الإسلامية والمسيحية ، فقد كانت بغداد وقرطبة القسطنطينية مراكز إشعاع للعلوم والفنون والآداب تنافس كل منها الأخرى فى التزود بالعلم والثقافة والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والأفكار ، وتشجيع العلماء والطلاب على البحث والدراسة ، والإكثار من البعثات الثقافية لتحقيق هذه الأغراض. وقد لعبت تلك البعثات دورا هاما فى إقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التى كانت تحتل السياسية الدولية حينئذ .

التنافس السلمى مستمد من المبادئ الإسلامية :

وفى الحق أن سياسة الدولة الإسلامية فى التنافس السلمى حول الثقافة مستمدة من المبادىء الإسلامية وليست تخطيطا سياسياً مرهونا بحين أو مرحلة تاريخية مؤقتة ، ومصداق ذلك أنه كان بوسع المسلمين أن يفرضوا قوتهم ونفوذهم فى الميدان الثقافى أسوة بالميادين السياسية والعسكرية ، فيشهروا سلاح الثقافة على المسيحيين ، يحرمونهم منها ولا يعطونهم بديلا ، يستولون. وهم الغالبون . على مكتباتهم وعلمائهم وثمرات حضارتهم ولا يبيحون لهم الاطلاع على مكنون العلوم الإسلامية ومعارفها ، فقد كانت حاجة الروم - ونعنى بهم البيزنطيين - إلى العرب ماسة ومستمرة وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الإسلامية وما أحرزوه من انتصارات ودخول الناس كافة فى دين الله وكان التوازن الدولى فى ذلك الحين فى صالح الإسلام ، ومن مصلحة الروم أن يكونوا هم الساعين إلى توثيق العلاقات السلمية بينهم وبين المسلمين اتقاء لبأسهم ، ولا سيما وقد بدأ التصدع يدب فى أركان الدولة البيزنطية بعد أن قامت دولة الفرنجة وظهرت الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان .

حرية الفكر فى الإسلام أساس التنافس السلمى :

وبرغم هذه الظروف لم يعمد المسلمون إلى فرض حرب ثقافية على معسكر المسيحيين لأن هذه الحرب منافية لمبادئهم السمحاء مجافية لروح شريعتهم الغراء فسياسة المنافسة السلمية حـــول الثقافة متأصلة فى العقيدة الإسلامية ، نابعة من صميم تلك العقيدة ، ذلك أنها إحدى مظاهر حرية الفكر التى اعتنقها المسلمون منذ بداية الدعوة وتميزت بها عقيدتهم وحضارتهم كما يشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء . وكانت تلك الحرية شريعة المعاملة بينهم وبين سائر الشعوب ، فلا تمييز بسبب العنصر أو الملة أو اللون .

ولقد تعلم علماء أوربا فى العصر الوسيط حرية الفكر عن المسلمين ، فكانت هذه الحرية هى التربة الصالحة لنماء بذور الحضارة الغربية ، ولولاها لما استطاعوا أن ينتزعوا راية العلم من رجال الكنيسة المتعصبين المستبدين ، ويطهروا عقولهم من رواسب المعتقدات الخرافية القديمة ويؤمنوا بالعلم وقدرتهم على التحكم فى مصائرهم . كما تعلموا من المسلمين دقة البحث العلمى ، فتمكنوا من تحقيق كشوفهم العلمية ، وفى ذلك يقول العلامة الاجتماعى جوستاف لوبون : « إن العرب هم أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » .

العلم والثقافة : لا يعرف فيهما فروق الجنس والدين :

العلم والثقافة عند المسلمين لا يتأثران بالخلاف فى الجنسية أو اللغة أو العقيدة . فالعلم لا وطن له بل هو جوهر الإنسانية وسبيل تقدمها وتدعيم قيمها السامية وهو ملك بنى الإنسان كافة .

فليختلط المسلمون بغيرهم من أهل العقائد والملل فى سبيل العلم لا يحدهم زمان ولا مكان وليكن منهجهم فى ذلك التزود بالثقافة فى سبيل الحياة والحق والسلام ، فالمعرفة سراقه أودعه الإنسان خليفته فى الأرض ، فلا ينبغى أن يحول دون انتشار نوره فى العالمين حائل أو يصد عن سبيله أحد . ومقياس قيمة المرء علمه وعمله ، وكفى بذلك تكريما للعلم والعلماء «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون» .

ولقد وعى هذه الحقيقة كثير من الباحثين والمفكرين الغربيين فشهدوا بسبق المسلمين فى مضمار العلم وتقديسهم لحرية الفكر وحرية العقيدة ، وفى ذلك يقول « درابر » أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة الأمريكيين :

إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورقوهم إلى أعلى المناصب فى الدولة ، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه . وكانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأى وسعة الفكر من الخلفاء إلى النصارى تارة وإلى اليهود تارة أخرى . لم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى ولد فيه ، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة .

وبفضل هذه الحرية التى طبقت شهرتها الآفاق وفد إلى ديار الإسلام كثير من العلماء والباحثين من سائر الأقطار ومختلف الأديان ينشدون فيها الأمن والسلام حتى يتفرغوا لرسالتهم العلمية ويشاركوا علماء المسلمين

فى جهودهم المبذولة فى سبيل قضية العلم من أجل الحياة والحضارة والحرية ، منهم من آمن بالعقيدة الإسلامية عن اقتناع ويقين بالحق ، ومنهم من بقى على دينه لا يخشى جوراً عليه ولا اضطهاداً .

موقف الخليفة المأمون فى التنافس السلمى

وفى ختام هذه الدراسة نسوق مثالا تاريخياً يشهد بما بلغته الدول الإسلامية فى عهدها الزاهر من ذروة السبق بانتهاج سياسة التنافس السلمى حول الثقافة مع جيرانها من الأمم والشعوب التى تخالفها فى العقيدة .

فقد نما إلى علم الخليفة « المأمون » ـ وقد بلغ اهتمامه بالثقافة حداً ليس له سابقة فى تاريخ النهضات العلمية ـ نبأ عالم روى نابغة يدعى « ليو » ذاع صيته فى علوم الفلك والهندسة . فتاق إلى قدومه إلى ديار الإسلام للإفادة بعلمه الواسع فى الرياضيات فى تدعيم حركة البحث العلمى ، وأنفذ لذلك سفارة خاصة إلى الامبراطور البيزنطى « تيوفيل » يطلب إليه حضور هذا العالم إلى بغداد لفترة قصيرة من الزمن . وقال : خليفة المسلمين فى رسالته « إنه يعتبر ذلك عملا وديا » ، غير أن تيوفيل لم يستجب له ، وتكررت المفاوضات حتى بلغ الأمر بالمأمون أن عرض على امبراطور بيزنطة صلحاً دائماً وألفى قطعة ذهبية فى مقابل حضور هذا العالم إليه .

ولكن تيوفيل أصر على رفض هذا العرض بدعوى أن أبحاث ليو كانت تتعلق فى شطر منها بأسرار الدولة وشئونها العسكرية .

وحين نذكر قوة الدولة الإسلامية فى عهد المأمون وسعى الدولة البيزنطية إلى خطب ودها والدخول معها فى علاقات عهدية ، ندرك مبلغ سخاء هذا العرض من جانب المأمون ومدى حرص تيوفيل على منافسة الخليفة فى ميدان البحث العلمى . فقد كان ما عرضه المأمون من توقيع معاهدة للصلح بين المعسكرين ـ رغم أن ميزان القوى فى صالحه ـ ينطوى على تضحية منه . ولكنه أدرك بثاقب نظره وواسع فكره أن قدوم هذا العالم العبقرى إلى بغداد كفاء لهذه التضحية ، بل إنه يرجحها إن لم يكن يعدلها فى الميزان الصحيح للأمور . وفى هذا أبلغ دليل على تقدير الحكام المسلمين للعلم واعتدادهم به كدعامة أساسية من دعائم دولتهم وركيزة للمبادئ الإسلامية فى أرجاء العالم .

ودلالة هذا الموقف كذلك هى حرص المأمون على جعل السلام من طريق التبادل الثقافى بديلا للحرب . وقد كان فى وسع خليفة المسلمين أن يشن حملة تأديبية على الامبراطور

[البقية على صفحة ١٨٨]

سيارة بغير وقود
يخترعها عالم أزهري
تجارب وذكريات
للأستاذ أبو بكر ذكرى

يسألني الناس ولا يزالون يتابعون أسئلتهم عن حقيقة اختراعي الذي سجل ونال « براءة اختراع » من الجمهورية العربية المتحدة والسودان وهو عبارة عن « عربة تسير بدون وقود » . موجهين عادة هذه الأسئلة :

١ — ما حقيقة هذا الاختراع ؟

٢ — ما الداعي إلى التفكير فيه ؟

٣ — متى بدأت فكرته تجول في نفسك ؟

٤ — كيف تسنى لك إخراجه مع اشتغالك بميدان آخر من الثقافة ؟

٥ — من أين استقيت القواعد العلمية التي قد تكون عونا لك على ذلك ؟

ثم أسئلة كثيرة طالما سمعتها ولا أزال أسمعها كلما مر بعض الناس بشركة الشرق الأوسط بشارع السبتية بالقاهرة ورأوا التجربة الأولى لهذه المحاولة .

أما قصة ذلك فأحب أن أسوقها إلى قراء مجلة الأزهر خادمة العلم والثقافة في المحيط الإسلامي والعربي عسى أن يكون فيها عبرة لمعتبر أو تشجيع لناشئ أو درس لمستفيد .

كنت منذ حداثتي ونشأتي في إحدى القرى البعيدة عن ضجيج الحضارة وكنت باستعدادي الخاص أميل إلى الهدوء والسكون والتأمل فيما حولي .

كما كنت ذا إحساس دقيق بكل ما يحس به الناس من آلام حياتهم وبضروب كفاحهم المرير من أجل الحياة .

وكنت بما أتيح لي من تربية المكتب والاختصاص بالتعليم وبحظ من رفاهة الطفولة وحدب الوالدين أعتبر نفسي نمطا خاصا غير كافة الناس الكادحين من حولي ؛ إذ كان أكثر من يشاطرونني مهمة التعلم لا يخرجون من الكتاب إلا إلى الكدح في حقول أهليهم .

وكانت كل ذرة من فراغي لا تخلو من تأمل في شيء أو محاولة عملية لتحليل شيء آخر بغية اكتناه حقيقته على دقة من الفهم .

وكنت أختلس أوقاتا أطرق فيها أبواب ماكينات « الطحين » وماكينات المياه لما لها في نفسي من روعة وقيمة .

بل كنت أقف القطار متعمداً على الطريق الزراعي لأرى كيف يتاح له جر حمله الثقيل

من العربات ؟ وما الذى يفصـــل ليقوم بذلك ؟ .

أما الأسلحة النارية التى كان يحملها رجال الأسرة لحراسة الحقول وإطلاقها فى الأفراح فكنت بها ولعاً حتى أصبحت أستطيع فكها وربطها وصنع بعض أجهزتها التى يتعسر الحصول عليها . وطالما تعرضت لأخطار الموت منها لولا طول فى الأجل .

والتحقت بمعهد الإسكندرية عام ١٩١٣ لأرى الحرب بعد عام واحد تندلع فى العالم كله ولأشهد الجيوش المحتلة تجوب الطرقات بمختلف الأسلحة . ولأرى الأساطيل الحربية والمدافع الثقيلة والطائرات على مختلف أشكالها .

ولم أكن ألمح من ذلك شيئاً إلا انفعلت بمرآه وتمنيت لوطنى أن لو صنع مثله . ولما قررت علينا دروس الطبيعة فى القسم الثانوى كان تلقيها مرحلة انتقال فعالة فى حياتى كنت أنتظرها بشوق لا يعدله شوق على عكس زملائى الذين كانوا يرون فيها عبئا يضاف إلى أعبائهم .. حتى أستاذها نفسه المتخرج من المدارس العليا كان يدرسها كمجرد واجب مفروض .

أما تلميذه الصغير فكان يخرج من الدرس ليحضر الخشب والحديد والأسلاك ويحاول تطبيق ما يتعلمه بالعمل والتجربة . وكثيراً ما ضبطنى بعض أساتذتى أحاول بعض التجارب فى الفصل فكان ذلك منهم مثار العجب والغضب لولا شفاعة زملائى الذين يسرعون بتزكيتى والإشادة باجتهادى فى كل ما أتعلمه .

وبتطور الحياة كانت معارفى تنمو فى مجال الطبيعة الحر الواسع دون قيود أو حدود .

وبينما الدنيا كلها تعمل وتخترع وتنتج للأسواق على الطريقة التقليدية (الكلاسيكية) يعمل بعضهم على طريقة بعض ويتمم لاحقهم ما بدأ به سابقهم ، كنت أنا أرود مجالات لم يرودوها وأدخل من الطبيعة أبوابا لم يدخلوها .. كان موقفهم من الطبيعة موقف التاجر والصانع يعمل للعرض والطلب . وكان موقفى منها موقف الراهب المتبتل يتعمق الأسرار ويحن للخفايا وينقشى التجليات ويتلق الفيوضات ليختزنها فى أعماق روحه ما دام لا يجد مكاناً لإذاعتها .

ومع ذلك كنت لا أتأخر عن تقديم أية مساعدة من تجاربى لمن أجده بحاجة إليها .. عرفت نفسى سريع الانفعال بآلام كل من أعاشره سريع الاستجابة لكل نداء يوجه ولو لغيرى ما دمت أستطيع قضاء ما الناس بحاجة إليه .

ولا أعرف حتى اليوم حادثة ذات بال تأثر بها الناس إلا وحت أصل الليل بالنهار

لحل مشكلاتها ووضع الفروض المختلفة للوصول إلى أفضل حل لها .

ومن مثل ذلك على صغرها أن جاءونى ذات يوم بطفلة انزلقت فى أذنها حبة قمح وتضخمت بفعل الرطوبات الداخليـــة وتعاظمت آلام الطفلة وحرمت هى وأهلها النوم . وللحال وثب إلى ذاكرتى صورة فقيه الكتاب إذ كان من هواة الحياطة وكان يسخن الإبرة فى النار حتى إذا ابيض سنها حناه على أى شىء صلب ليتخذ منه مشبكا يشبك به الثياب ويضعه بين ساقه ونخذه منعاً للثوب من الانكماش . . وبدا لى إن أتيت بإبرة وصنعت بها ذلك ثم أضفت إليها مثلها وأدرتهما على محور بحيث ينطبق السنان على حبة القمح ليمكن سحبها إلى الخارج . وقت وحملت ذلك وصهرت لها القصدير وثبتهمـــا به فتحصلت على آلة لم تكن قد وجدت بعد بالقرية لتغنى عن آلة الطب المسماة بـ (الجفت) . والتى كان الحصول عليها من العسر بمكان إذ ذاك .

وبإدخال الآلة مرة واحدة فى أذن الطفلة نشب سنا الإبرتين بحبـة القمح وسحبتها إلى الخارج بلا أدنى ألم . وخرجت الطفلة ضاحكة لاعبة وخرج أهلها سعداء ضاحكين ولم أنس تحذيرهم من إنامتها على أكوام الحب لما فى ذلك من الخطر .

وإذا كنت قد كابدت من البـــلاء حتى تيسر لى إخراج أول تجربة عملية إلى النور بعد جهاد نحو عشرين سنة لإخراج هـذه « العربة بلا وقود » التى شغلت الناس وأثارت عشرات بل مئات من أسئلتهم وعلى الخصوص بعد أن سمعوها مرتين من برنامج « جرب حظك » ومرتين من برنامج « مع الشعب » فإنى سأشرح لهم فى العدد الآتى من مجلة الأزهر الغراء إن شاء الله كيف كان ذلك .

« ولكل نبـــأ مستقر وسوف تعلمون » صدق الله العظيم .

أبو بكر زكرى
الأستاذ المساعد بجامعة الأزهر

عبر وعظات لأحمـد شوقى :

١ — كن مع الله - ثم كن كيف شئت ، فإنك مع كريم .

٢ — زكاة العلم العمل ، وزكاة الجاه النفع .

٣ — الغضب يعمى صاحبه ، ويضل راكبه ، يريه صدر الأمر ولا يريه عاقبته .

٤ — من كرمت نفسه عليه هانت الدنيا فى عينيه .

٥ — الإقدام والجـد إذا اجتمعا لرجل لم يقف شىء فى طريقه .

ابن الفارض وما يقال عنه

للأستاذ عبد الجليل شلبى

دراسة التصوف والصوفية وخصوصا فى مصر بحاجة إلى مزيد من العناية والبحث العميق ، ذلك أن التصوف يكون فى تاريخ الفكر المصرى جانباً لا يقف عند التاريخ الأدبى وحده . بل هو يلعب دوراً هاما فى تاريخنا السياسى ، ويصور جانباً من من حياتنا الشعبية ، ويكيف إلى حد كبير مظاهرنا الاجتماعية بما يؤثر فى سلوك الأفراد ويربط بين بعضهم وبعض ، بل هو يتعدى ذلك إلى التأثير فى علاقاتنا الخارجية وما بيننا وبين الأقاليم الإسلامية الأخرى من علاقات .

وليس هذا كل ما يدعو للعناية بدرس التصوف بل هناك ما هو أهم ، ذلك أن التصوف المصرى بصفة خاصة تجافى عن الناحية الفلسفية ونظريات التصوف ، وجنح دائما إلى ذكر الكرامات والخوارق ، وبرعت العقلية المصرية فى نسج أقاصيص حول المتصوفة هى أدنى للخرافة وأقرب إلى العقلية العامية الساذجة ، وليس من السهل أن تتقبلها العقلية المستنيرة أو تثبت للتمحيص العلمى .

وليس هذا فقط بل إن الأدب الصوفى سواء فى مواجده الشعرية ، أو أقاصيصه الشعبية يصور - عن عرض - أخلاق المصريين ، ونزعتهم الدينية العميقة ، وكثيراً ما تكون القصة فى ثوبها الشعبى تنفيسا عن رغبات مكبوتة فى نفوس الناس وتعبيراً عن أمانى عز عليهم تحقيقها فى دنيا الواقع ، فراحوا يشبعون رغباتهم بها فى عالم الخيال - فدرس الأدب الصوفى من هذه الوجهة درس للنفسية المصرية .

وليس هذا فقط بل هناك شىء آخر ذلك إن مصر تربة خصبة للتصوف فهى من قديم كانت مهد الرهبنة ، وقد بنيت فيها البرابى والأديرة للتبتل والانقطاع للعبادة من زمن بعيد جداً ، فلما جاء الإسلام وأبطل الرهبنة نما فيها التصوف - وليس من شك أن المظالم الكثيرة التى توالت على الشعب المصرى كانت عاملا من عوامل رهبنته وتصوفه . فالإنسان حين يضيق بدنياه ويعجز

عن إدراك مآربه المادية يجنح للحياة الروحية ويلتمس العوض فى آخرته عما فاته فى دنياه .

والمعروف بعد هذا - أن عصر الفاطميين كان نقطة تحول فى تاريخ التصوف المصرى بل وفى تاريخ مصر كله . فالمصريون لم يندمجوا بفاطح لبلادهم اندماجهم بالفاطميين فهؤلاء امتازوا بمظهر شعبى قربهم من المصريين وكانت أعيادهم الدينية تمتاز بمظاهر شعبية ترضى ذوق المصريين وميولهم . وكان انتسابهم إلى بيت رسول الله مما جعل لهم فى نفوس الناس مكانة أدنى إلى التبجيل والقداسة لكن الفاطميين أشاعوا فى المصريين كثيراً من ألوان الخرافة وبثوا فى نفوسهم كثيراً من تعاليم الشيعة الباطنية . كما أن الطرق الصوفية كثرت فى عهدهم وتفرعت فيما بعد ، وكثر معها ذكر الكرامات والخوارق . ولأمر ما نجد موجة من الزهد وحب التقشف تطغى على حياة المصريين عصر الفاطميين ، وعصر الأيوبيين الذى تلاه ، وأكبر الظن أن الأقاصيص الكثيرة التى تنسب لذى النون المصرى إنما وضعت بعد العهد الفاطمى أو خلاله ، كل هذا يجعلنا نقرأ أخبار الصوفيين ، وخصوصا الذين جاءوا فى هذا العهد أو بعده بشىء كثير من التحفظ ، وألا نتقبل كل ما يقال عنهم من خوارق وكرامات - فالعقلية الشعبية الفنانة غير العقلية العلمية المستدلة .

ولقد كان خليقا بالأستاذ الكبير الدكتور مصطفى حلمى أن يقدم لنا عن ابن الفارض دراسة متخصصة واعية تبرز جوهر تصوفه نقيا خاليا من خبث الخرافة . فالدكتور حلمى صاحب ابن الفارض وصاحب الصوفية لمدة طويلة ، وكان ابن الفارض موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراة الجامعية ، لهذا كان أملنا قويا فى أن نظفر منه بدراسة أعمق وأدق من هذه الدراسة .

لم نتبين من كتابه أو هو لم يشأ أن يبين لنا مصادر تصوف ابن الفارض ولا نوع هذا التصوف - أهو مجرد رياضة وتعبد أم هو مبنى على ثقافة ودرس . إن البيئة المصرية جديرة أن تبث فى النفس المستعدة نوازع التصوف كما أن الدرس الفلسفى - وإن لم يكن من سمات المصريين - غير بعيد عن أفرادها . وأكبر الظن أن ابن الفارض كان يتصوف تصوفا عمليا وأنه لم يكن من ذوى الدراسة الفلسفية وإذا صح هذا فليس من البعيد أن تكون الأبيات التى جاءت فى تائيته تتعرض للحلول ووحدة الوجود إنما هى أبيات دست على القصيدة فيما بعد - ولعل المصريين الذين لم يعجبهم محيى الدين بن العربى ولم يتقبلوا

مذهبه أرادوا أن يبينوا أن ابن الفارض لايقل عنه فى مضمار الفلسفة أو أنه لا يوافق مذهبه فى الحلول أو الوحدة وليس من السهل درس تائيته الكبرى فقد قيلت فى فترات متقطعة قد تختلف فيها نفسية الشاعر ثم يقال إنها قيلت فى حالات جذب وغيبوبة أحياناً ومثل هذه الحال تسهل على الواضع أن يدس فيها ما يشاء. ولا ريب عندنا أن شعر ابن الفارض كان موضع تلاعب، يدل عليه عدم اتفاق نسخ الديوان - وقد رأينا سبطه يحاول أن يصنع له عينية بدل عينيته التى فقدت ولم يحفظ منها غير مطلعها. وانظر إلى هـذا التضارب فى شأن هذه العينية. لقد كان أهل مكة يحفظونها أولادهم فى المدارس وينشدونها من فوق المآذن فى الأسحار ومع ذلك تفقد حتى يظل ولد ابن الفارض يطلبها نحو الستين عاما فلا يجدها ثم يطلبها سبطه أيضاً أربعين عاما أخرى - فكيف تكون لها كل هذه الشهرة ويعنى بها كل هذه العناية ثم بعد ذلك تخفى هـذا الخفاء فلا توجد مكتوبة ولا محفوظة.

وإنك لتقرأ هذه القصيدة كما تقرأ شعر ابن الفارض فى قصائده الأخرى فلا تعجبك منه غير المواجد والأشواق، أما من الناحية الفنية الخالصة فشعره فى هذه القصيدة كما هو فى غيرها لا يخلو من ارتكاب الضرورات واستكراه الألفاظ، والاستعانة بالحشو، وتكلف البديع. وهذا أمر طبيعى لشاعر يعيش فى بيئة وعصر عمدتهما هذه الصناعة ثم هو نفسه قليل الحظ من الدراسة الأدبية والدراسة الفلسفية، فلا غرابة إذن أن يخلو شعره من تعبير رائع ومعنى مبتكر. ولكن الدكتور حلمى جارى مقرظى ديوانه فسماه أيضا تحفة فنية. كما سمى ذكره لأماكن وبلدان بالحجاز طابعا حجازياً.

أما كرامات ابن الفارض، وخوارقه، ومناماته، فقد استساغ المؤلف أن يتقبلها على ما فيها من مبالغات وكثرة فهو يركب الأسد المتوحش ويقطع المسافات الطويلة فى لحظات ويعلم ما يجرى بظهر الغيب ويقرأ ما بنفس جليسه وأخيراً يرى ربه قبل أن يموت - ويقول المؤلف إنها أعلى مراتب الصوفية وإذن فهناك صوفيون آخرون رأوه أو من الجائز أن يكون ذلك - ونحن لا نعلم أحداً نسبت إليه رؤية ربه غير النبى محمد صلى الله عليه وسلم على ما فى المسألة من خلاف معروف وحديث عائشة، لقد قف شعرى مما ذكرت، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، حديث مشهور

كما أن الله سبحانه وتعالى قال لموسى النبي عليه السلام ... «لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا» فابن الفارض رأى ما لم ير أنبياء الله وأكثر من هذا أنه سمع أصواتا من قبل الحق!! على أن في نقل هذا كله عن سبط ابن الفارض ما يحمل على التحفظ والشك فضلا عن أنه «شطح» لا يليق بعقلية جامعية مستنيرة.

وإذا كان متكلمو المسلمين قد اختلفوا في حصول الرؤية في الدار الآخرة فإن المؤلف يجيز وقوعها في الدنيا ويجيز لإبراهيم الجعبري وقد حضر وفاة ابن الفارض أن يسمع أيضا خطاب الله إياه، ومن المعروف أن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار وكلامه تعالى لا يصون ولا يحرف، فنحن لا نصدق سبط الفارض في كل هذا الذي ينسبه لجده وقد كان الأولى أن يبحث عن مصدر هذه الخرافات فأثر الفكر الشيعي ظاهر فيها وقد نسب الشيعة للحسين بن علي أشياء مثل هذا نزول جبريل عليه فلم يتقبلها الناس فكيف نتقبل نحن ما هو أشد وأبعد.

وأخيرا فإن الكتاب لا يخلو من حسنات لعل أهمها درس عصر ابن الفارض والإلمام بأشهر العلماء المعاصرين له أما دراسة ابن الفارض المباشرة فهي دون ما كنا نتوقع ودون ما ينبغي أن يصدر عن أستاذ كبير تخصص في درس التصوف الإسلامي.

عبد الجليل شلبي

(بقية المنشور على صفحة ١٨١)

البيزنطي جزاء موقفه غير الودي، ولا وزر من المأمون في ذلك ولا خسران فهو رابح هذه الحرب لا محالة.

غير أن المأمون ملك نفسه وفاء إلى روح الإسلام التي تدعو إلى حرية الفكر وحرية العقيدة، فلا إكراه في الدين، ولا إكراه في العلم والمعرفة، وإنما الأمر تنافس سلمي يمهد الطريق للسلام.

ولا ريب أن الشك الذي ساور تيوفيل في حسن مقاصد المأمون، وخشيته من أن يستخدم المسلمون علم (ليو) في تدعيم أداتهم الحربية بما يهدد بزيادة رجحانها على القوة العسكرية للبيزنطيين - لا ريب أن هذا الشك لم يكن في موضعه، إذ تشهد السوابق التاريخية أن المسلمين الأوائل لم يشنوا قط حربا عدوانية، وإنما كانت حربهم جهاداً في سبيل حرية العقيدة ودفاعا عن شريعة الله. ولم يكن المسلمون ليستخدموا العلم في سفك الدماء بغير حق، وإنما العلم لديهم وسيلة للتقدم وقبس من نور الله، وسبب من أسباب الأمن والسلام في الأرض.

رائد : حسين فتح الباب

صلة القرابة فى نصوص القرآن

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

من الموضوعات الاجتماعية التى عنى بها القرآن الكريم ، وتحدث عنها فى أكثر من موضع : صلة القرابة ؛ ذلك لأن تلك الصلة من دواعى توثيق الروابط بين الأفراد ، وإقامة مجتمعات صغيرة يشعر كل فرد فيها نحو الآخر بعاطفة خاصة ، ويكون أقرب الناس إلى نصرته ومعونته .

وقد تؤدى العاطفة بين الأقرباء إلى المجاملة والمحاباة ، وما قد يترتب عليهما من ضياع الحقوق . وقد يحدث العكس ، فتؤدى إلى التحاسد والتباغض ؛ لأن القريب عادة أكثر من غيره تقصيا عن أمور قريبه ، فإذا أراد أن ينتقم مثلا ، كان أعرف الناس بما يؤذى قريبه ، وينغص عليه حياته ، لما تتيحه له تلك الصلة من الفرص فى معرفة أمور لا يعرفها إلا ذو القرابة ، فيكون ظلمه شديد الوقع على النفس ، كما أشار إلى ذلك شاعر عربى :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهند

ولما كان القرآن الكريم يرمى إلى قيام مجتمعات سليمة صالحة ، تسودها الألفة ، وترفرف عليها راية العدالة ، وتعلو فيها كلمة الحق : كلمة الحق دون سواها ؛ فقد وجه النظر إلى تلك الصلة الهامة ، وبين ما يترتب عليها من أمور فى حياة الفرد والمجتمع ، ووضح فى صراحة ما ينبغى أن تحاط به عاطفة القرابة من قيود تحد منها إذا انحرفت ، وتجعل للفرد شخصية مستقلة ، وتخلق فيه الاستعداد لتحمل المسئولية عن أعماله أمام ضميره ، وأمام ربه ، وأمام المجتمع الذى يعيش فيه ، فلا يكون رائده غير الحق ، ولا يقيم وزنا لصلة القرابة إذا انحرف القريب عن جادة الصواب . تلك الشخصية هى التى ينشدها الإسلام ، وهى الأساس الأول فى بناء المجتمع الصالح .

لقد وجه القرآن الكريم نظر المؤمنين حيال تلك الصلة ، وما يترتب عليها إلى أمرين :

أولهما دعوات عامة إلى رعاية تلك الصلة ، وما ينبغى أن يكون بين الأقرباء من مودة ، وألفة ، وتعاطف ، وتعاون ... مع إشارة خاصة إلى الوالدين .

وثانيهما : تحذير المؤمنين أن ينزلقوا وراء عاطفة القرابة ، وإرشادهم إلى أن صلة الأبوة

أو البنوة أو الزوجية أو غيرها من صلات القرابات المختلفة لا تغنى عن الحق شيئا .

ولنصحب الآن بعض آيات الكتاب الكريم لنرى كيف عالجت هذين الأمرين :

١ — من الآراء التى ذهب إليها العلماء فى تفسير قوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » . [١] أنها تذكرة لقريش بصلة القرابة التى بينها وبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، لعل تلك الذكرى تكون من بواعث يقظة قلوبهم . قال الشعبى : (أكثر الناس علينا فى هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عنها ، فكتب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أوسط الناس فى قريش ، فليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده ، فقال الله له : « قل : لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » : إلا أن تودونى فى قرابتى منكم أى تراعوا ما بينى وبينكم فتصدقونى . فالقربى ها هنا : قرابة الرحم ، كأنه قال : اتبعونى للقرابة إن لم تتبعونى للنبوة . قال عكرمة : وكانت قريش تصل أرحامها ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم قطعته ، فقال : صلونى كما كنتم تفعلون . فالمعنى على هذا : قل : لا أسألكم عليه أجراً ، لكن أذكركم قرابتى) [٢] .

وسواء أكان التوجيه فى هذه الآية لتذكير قريش ، أم رداً على الذين هموا

(١) الشورى ٢٣ .
(٢) راجع تفسير القرطبى ج ١٦ ، ص ٢١ .

بجميع أموال مساعدة الرسول الكريم ، أم كانت دعوة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام لكى يراعوا أهل بيته ويبروهم ، ويحسنوا معاملتهم وعشرتهم على مر العصور ، أم كانت دعوة عامة للمؤمنين ليرعوا ما بينهم من قرابات ... فإن هذا التوجيه يدل على أهمية صلة القرابة ، وما ينبغى لها من رعاية.

ولقد أشارت آيات كثيرة إلى هذا المعنى، مثل قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه » [١] والحق هنا يشمل الإنفاق على غير الوالدين مثل الوالدين كما هو موضح فى كتب الفقه ، كما يشمل المودة والعطف ، والمشاركة فى السراء والضراء .

وعند ما أوصى الله تعالى برعاية الجار ، خص الجـــار ذا القربى فقال تعالى : « وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب . » [٢] . والأقرب أن المراد : الجار ذو القرابة .

وعند ما كان المسلمون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نوع النفقات وجهات صرفها وجههم الإجابة إلى البدء بالأقرباء : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين » [٣] ...

(١) الإسراء ٢٦
(٢) النساء ٣٦ .
(٣) البقرة ٢١٥ .

وعند ما حولت القبلة وكثرت الأقاويل فى شأنها ، أراد الله أن يبين للناس وجوه البر التى ينبغى أن يعنوا بها ، فقال تعالى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى والمساكين .. » (١) وجعل الإنفاق إلى ذوى القرابة المحتاجين فى مقدمة الإنفاق .

ولقد خصصت آية أخرى القريب اليتيم ؛ لأن اليتم أدعى إلى تراحم الأقرباء . قال تعالى : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة : فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكيناً ذا متربة » (٢) وفى هذا ما فيه من اعتبار صلة القربى .

ولقد حكى القرآن على لسان أهل الجنة أن من أسباب تمتعهم بنعيم الجنة ، برهم بأهليهم . قال تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ، ووقانا عذاب السموم » (٣) .

وفى التحذير من عذاب جهنم جعل صلة القرابة كالنفس تماما حيث قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا : قوا أنفسكم وأهليكم نارا ... » (١) .

وفى تصوير أهوال يوم القيامة نبه على أن صلة القرابة التى تكون مدعاة إلى التناصر فى الدنيا بين التى يلجأ إليها الأقرباء كلما نزل بهم خطب .. لا تغنى عنهم شيئا يوم القيامة ، لأن المقياس هناك عدالة مطلقة ومسئولية شخصية « كل امرئ بما كسب رهين » . قال تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٢) . وهؤلاء هم ألصق الناس بالإنسان ، وأقربهم إلى أن يشعر بآلامهم ، ومع ذلك فهو لا يلتفت إليهم ، ولا يلتفتون إليه . وقال تعالى : « ... يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » (٣) . وقال تعالى : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ... » (٤) .

وهناك آيات نوهت بشأن الوالدين خاصة مثل قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن

(١) البقرة ١٧٧ .
(٢) البلد ١١ - ١٦ .
(٣) الطور ٢٥ - ٢٧

(١) التحريم ٦ .
(٢) عبس ٣٤ - ٣٧ .
(٣) المعارج ١١ - ١٤ .
(٤) الحج ٢ .

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »(١) وقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها ... »(٢) . وقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه ؛ حملته أمه وهناً على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ... »(٣) .

ونرى فى هذه الآيات تفصيلا فى وجوب بر الوالدين والإحسان إليهما ، حتى إن بعضها قد قرن الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله تنويها بشأنهما ، كما أن الآية الأخيرة لم تعتبر اختلاف الدين سبباً فى قطيعة الوالدين فيما يتعلق بأمور الدنيا دون اعتداء على حقوق الله .

هذا ما كان من تنويه الآيات الكريمة بشأن صلة القربى ، وما ينبغى أن يكون لها من رعاية ، وقد سقنا أمثلة لذلك ولم نستقص جميع الآيات .

(١) الاسراء ٢٣ - ٢٤ .
(٢) الأحقاف ١٥ .
(٣) لقمان ١٤ - ١٥ .

٢ - ولننتقل الآن إلى الحديث عما يجب نحو هذه القرابة :

لما كانت صلة القرابة مظنة للانحراف ، وممالأة الأقربين دون نظر - أحيانا - إلى ما قد يترتب على ذلك من ضياع الحقوق ، فقد حذرت آيات الكتاب الكريم المؤمنين أن ينساقوا وراء العاطفة ، ونبهت على وجوب رعاية أحكام الله تعالى ، كيفما كانت صلة القرابة حتى لا تكون تلك الصلة مدعاة إلى غضب الله والوقوع فى الإثم المبين .

ولقد سلكت الآيات فى ذلك مسلكا صريحا واضحا ، يرمى إلى تحديد المسئولية الشخصية حتى لا يلقى أحد تبعة تقصيره على غيره ، أو يتحمل إنسان نتيجة أخطاء الغير :

فصلاح الآباء لا يغنى عن الأبناء شيئاً . وقد ضرب الله مثلا لذلك ما كان بين نوح عليه السلام وابنه ؛ فحينما عصى الولد أمر ربه ورضى الكفر ... أخذت نوحا عاطفة الأبوة وسأل الله أن ينجيه من الغرق : « فقال : رب : إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق »(١) . غير أن الله تعالى قد عاتبه على ذلك لأن الوعد السابق لم يكن على إطلاقه بل قال : « إلا من سبق عليه القول » . ولكن عاطفة الأبوة غلبته ، فوجه الله نظره إلى أن حق الله فوق

(١) هود ٤٥ .

حقوق الأبوة : « قال يانوح : إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » (١) وهنا تفبه نوح عليه السلام وطلب العفو والمغفرة : « قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » (٢) .

وصلاح الأبناء لا ينفع الآباء ، وقد ضرب الله مثلا لذلك ما كان بين إبراهيم عليه السلام وأبيه إذ كان الأب كافرا ، وعاطفة البنوة دفعت إبراهيم إلى أن يحرص على هدايته حتى إنه وعده بالاستغفار له آملا أن يدفعه ذلك إلى الإيمان . غير أنه عند ما أصر على الكفر تبرأ منه .

وقد روى أن محمدا عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبى طالب عند ما دعاه إلى الإسلام ورأى منه إصرارا على الإشراك : لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عند ذلك ، وروى أنه قال : (استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى ، واستأذنته فى الاستغفار لها فلم يأذن لى) . وتوكيداً لتقديم حق الله على سائر الحقوق نزل قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » . ثم ساق الله قصة إبراهيم مع أبيه فقال تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » (١) .

وصلاح الرجل لا يغنى عن زوجته شيئا إذا حقت عليها كلمة الله ، وقد ضرب الله لذلك مثلا امرأتى نوح ولوط عليهما السلام فقد كانتا تنافقان ، وتبطنان الكفر ، وتتظاهران على الرسولين الكريمين : فامرأة نوح كانت تمالىء قومه وتقول : إنه مجنون ، وامرأة لوط تآمرت مع قومه الفاسقين ودلتهم على ضيوفه الأكرمين ، ولم ترعيا حرمة الزوجية ، فاستحقتا الحرمان من شرف الانتساب إلى الزوجين الكريمين وألحقتا بالقوم الكافرين : « ضرب الله مثلا للذين كفروا : امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين » (٢) .

ولقد ساق الله هذه القصة ، عتابا لبعض زوجات النبى صلى الله عليه وسلم حين دار بينه وبين إحداهن حديث ، وأمرها ألا تذيعه ، فلم تف بوعدها ، وأفشته لزميلة لها فأغضب ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) هود ٤٦ .
(٢) هود ٤٧ .

[١] التوبة ١١٣/١١٤
[٢] التحريم ١٠ .

ولما كان القرآن يرمى دائما إلى رسم سياسة عليا للأسرة ، فقد أنزل آيات فيها عتب على الزوجتين ، وتعريض بما للزوج من حقوق « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ، وإن تظاهرا عليه ، فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن : مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات وأبكارا »[1] .

وصلاح الزوجة لا يغنى عن زوجها شيئا إذا حقت عليه كلمة العذاب ، وقد ضرب الله مثلا لذلك امرأة فرعون ، إذ لم تدخل فى دين زوجها وقومه ، بل إنها بمجرد علمها بمعجزات موسى عليه السلام ، وبطلان سحر الفراعين ، خشع قلبها ، وآمنت بالله رب العالمين ، ولم تخش وعيد فرعون ، بل صمدت لألوان التعذيب ، راضية النفس ، فتقبل الله إيمانها وثباتها بقبول حسن ، وأثابها جنات تجرى من تحتها الأنهار : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا ، امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين[2] » .

ولقد شهدت الدعوة الإسلامية إبان قيامها صراعا عنيفا بين « العقيدة » و « القرابة » ؛ فقد كان على من يدخل فى صف محمد عليه عليه الصلاة والسلام ، ويؤمن برسالته أن يصبح عدوا للمشركين ، وأن يشهر سيفه فى وجه كل من يعترض سبيل الإسلام ، ولو كان أباه أو أخاه أو ابنه أو من قبيلته ، ولم يكن إيمان المرء حينذاك يكمل إلا إذا قاتل فى سبيل الله دون نظر إلى من يقتل ، وأن ينبذ معاملة كل من يعادى الإسلام ، وقد تغلبت عقيدة الإيمان على صلة القرابة ، غير أن ذلك قد شق على البعض وهم حديثو عهد بالإسلام فراحوا يشكون إلى الرسول الكريم ما يصيبهم بسبب ذلك . وهنا حسمت السماء الموضوع ، وبينت فى صراحة ووضوح أن القرابة كيفما كانت ينبغى ألا تكون حائلا أو معوقا فى سبيل دعوة الحق ، فنزل قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا : لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم ، فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله ، فتربصوا

---
(١) التحريم ٤
(٢) التحريم ١١

حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » (١) .

ولما كانت هناك أمور تقتضي الشهادة في معاملات الناس سواء أمام الأفراد أم المحاكم ، وكانت عاطفة القرابة مدعاة إلى إيثار قريب على قريب أو غريب فقد أنار الله السبيل أمام المؤمنين بأن الشهادة ينبغي أن يراعى فيها حق الله ، والعدالة دون تأثر بهوى أو بميل قريب كيفما كانت درجة قرابته ، وكيفما كانت حالة القريب الاجتماعية فلا يجامل لغناه وجاهه إن كان غنيا ، ولا يشفق عليه لفقره أو لضعفه إن كان فقيراً أو ضعيفاً ما دام قد جانب الصواب . بل إن قرابة المرء لنفسه يجب ألا تحول دون قوله الحق على نفسه ؛ قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا : كونوا قوامين ، بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ؟ إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا . أو تعرضوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيرا » !

هذا هو التوجيه السليم في خلق الشخصية التي تجعل الحق رائدها ، وينبغي أن يكون مثل هذا التوجيه رائد كل من يتصدى للتعليم والإرشاد لأن العناية بتقويم الشخصية هو الأساس الأول في التربية السليمة .

ولقد أشارت آية أخرى إلى هذا المعنى السامي : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا . ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »

وبعد : فهذا عرض لصلة القرابة كما تحدثت عنها آيات الكتاب الكريم ، ونرى في هذا العرض بيانا لما لهذه الصلة وما عليها .

اللهم اهدنا إلى سبيل الرشاد ، ووفقنا إلى ما فيه الصواب ، وانفعنا بالذكرى ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ؟

الدكتور سعد العربي الجبزاوي

(١) التوبة ٢٣ ، ٢٤ .

الرياضة الروحية تربية عقلية ودراسة علمية يتم بها التجرد عن ضلال « الأنانية » وأباطيل المألوف والمعهود .

شكيب أرسلان الناقد
آراؤه في الشعر

للأستاذ أحمد الشرباصي

— ٢ —

أشعر الشعراء :

إذا كان شكيب قد اشترط شروطاً لتمام الشاعرية ، فمن الطبيعي أن يحدثنا عن أشعر الشعراء عنده ، وهو يخبرنا في كتابه : « أحمد شوقي أو صداقة أربعين سنة » ، بأنه اطلع على شعر البارودي في صدر شبيبته واستفاد منه ، ثم يقول :

« كنا أنا وأخي نسيب رحمه الله نصبو من صبانا إلى طريقة الأولين في الشعر ، ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطن الأول من المولدين على شعر أهل الأعصر الأخيرة مهما حلت نكاتهم ، وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم » .

ثم يذكر طائفة من هؤلاء القدامى ، ويذكر أن المتنبي كان لا يروقه إلا من جهة الأمثال والحكم ، ويرى شعره نازلا في بعض الأحايين عما يجب أن يكون ، ثم يقول : « فلما قرأنا شعر محمود سامى سكرنا بأدبه ، ورقصنا على قصبه ، وبعث لنا نشأة روحية لم نعهدها في أنفسنا [١] » .

ويذكر أنه حفظ جميع قصائد البارودي الموجودة في كتاب « الوسيلة الأدبية » لا يخرم منها بيتا ، وكانت هذه القصائد من أقوى عوامل الشعر فيه ، ويقرر أنه خريج البارودي في الشعر ، وأن البارودي إمامه [١] .

ثم يرتب لنا صفوة الشعراء في رأيه ، ويذكر أشباههم من السابقين ، ويبين وجه الشبه بين كل معاصر وكل سابق ، فيقول :

« أشعر الشعراء عندي هو محمود سامى ، ثم شوقي ، ثم حافظ ، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر هم السابقون في حلبة الشعر ، الفائقون في إجادته ، هم أشبه بالثلاثة الماضين : أبي تمام الشعر ، ومتنبيه ، وأبي عبادته ، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته ، والذي رجحت لهم على غيرهم بيناته ، وأحب أن أشبه البارودي بأبي تمام في علو نفسه ، وقوة ملكته ، ومتانة أسلوبه ، وأن أشبه شوقيا بالمتنبي في دقة معانيه ، وسمو حكمه ، وكثرة جوامع كلمه ، كما أن حافظا يشبه البحتري في سلاسة لفظه ، وحسن سبكه ، وتأثيره في النفس [٢] » .

---

(١) كتاب « شوقي » ، ص ١٠١ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٢ ، ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

وهـذه العبارة منقولة من مقال لشكيب يبين به رأيه فى « أشعر الشعراء » ، وقد كتبه إجابة لسؤال وجهه إليه سليم سركيس صاحب مجلة « سركيس » سنة ١٩١٠ ، وفى هذا المقال يوازن شكيب بين شوقى وحافظ ، فيرى لحافظ طلاوة ، ولشوقى إجادة ، ويدفع عن الشاعرين بعض التهم ، فيقول : إن عامة شعر حافظ أطلى من عامة شعر شوقى ، وغاية ما يقال فيهما إن جيد شوقى أحسن من جيده ، وإن هذا أعلى وذاك أطلى .

وأما كون أسلوب شوقى ركيكا فهو غير صحيح ، وهذا القول فى حق شوقى هو أشبه بالقول الآخر فى حق حافظ بأنه صانع ماهر ، وأن حيلته أكثر من شعره ، وعندى ألف شاهد ـ لولا خوف الإطالة لأوردتها ـ على متانة أسلوب شوقى وتسنمه غارب العربية كما أن لى بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية ، وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجية لا تلهوق (١) ، وأن مثل حافظ فى الشعراء قليل . نعم إن شعر شوقى ليس طبقة واحدة ، حتى لا يخاله القارئ نسجاً واحداً ، وهو يذهب مذاهب غريبة أحيانا ، وربما أتى فى كلامه بالتعقيد ، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبى » .

وبعد حـديث عن شهرة المتنبى يعود شكيب ليقول إن عيون شعر شوقى : « لا يقدر على مثلها حافظ وغيره ، وقد يحلق فى سماء الخيال أحيانا حتى يفوق البارودى نفسه ، وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع » .

ويدفع شكيب تهمة الركاكة عن شوقى بعبارة أخرى ، ويرى أن : « نقاوة اللغة هى الشرط الأول للشاعر والكاتب ، والمعانى وحدها لا تكفى ، ولا ينهض بركاكة اللفظ علو المعنى ، وهذا أمر اتفق عليه العرب والعجم (١) » .

ويتحدث عن عفة شوقى فى شعره ، وعن أخلاقه وصفاء نفسه ، وإغضائه عن حساده بسكوت هو أثقل من الكلام أحيانا .

ويدافع عن معارضة البارودى للقدماء ، ويرى أنه « اختار المعارضة فى بعض المظان ليعلم الناس شأوه مع من تقدمه ، ويقرر أن البارودى يكون مظلوما إذا قيل عنه إنه لم يلحق متقدميه فى معارضته ، فمحمود سامى قد عارض وفاق من تقدمه ، وقال فى غير معارضة ، فأتى بالشعر الفحل الذى يعيا على الأوائل فضلا عن الأواخر ، وكل ذى مسكة يقدر أن يميز بين التقليد والتوليد . (٢) »

وكأن شكيب خشى أن يفهم قارئوه أنه حين نوه بالشعراء الثلاثة الأعلام : البارودى

---

(١) التلهوق : التحسن بما ليس موجوداً (القاموس) .

(١) كتاب « شوقى » ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق .

وشوقى وحافظ ، يستخف ببقية الشعــــراء أو يبخسهم حقهم ، ولذلك احترس فقال :

ولا يجب أن يؤخذ من كلامى هـــذا فى تفضيل الثالوث الشعرى الاستخفاف بقدر الباقين ، فإن الذين فضلوا حبيبا والمتنبى والبحترى لم يحصروا الشعر فيهم ، ولا ازدروا سائر الشعراء ، ولكن لسان حالهم يقول :

محاسن أصناف المغنين جمـــة
وما قصبات السبق إلا لمعبد

ولا بد فى الميادين من مجل ومصل وتال ومرتاح إلى السكيت وإنى أرى الكاظمى وصبرى وناصف والمطران وسائر من ورد ذكرهم من الشعراء أشبه بالناشئ والنامى والزاهى والمعرى وأمثالهم ، فليست شاعرية أبى تمام والمتنبى والبحترى بنافية براعة هؤلاء بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك (١)

وأعتب على شكيب وضعه المعرى فى آخر من ذكر ، وإن كانت الواو لا تفيد ترتيبا ولا تعقيبا ، ولكن المتبادر أن المذكور أولا أهم فى نظر ذاكره .

ثم يرى شكيب أن الشهرة لا يجوز أن تكون ميزانا للفضل ؛ لأن فى الناس من يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه ، بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذة نفسه ، فلا يترنم بقصائده فى النوادى ، ولا يبتاع من الصحف الألقاب ، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه ولا يتم نقصه بالغض من مقام غيره ، وهذه كلها جمل منحوتة من معدن الحقيقة . وفلذات منقطعة من كبد الصواب ، فإن الشهرة مزلقة ولا يصـــح اتخاذها معيارا ، وقد يقبع فى كسور الخمول من لو اطلعت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام (١) .

ويذكر شكيب من هذا الطراز أخاه نسيب الذى كان من فحول الشعراء ، وكان يفر من الشهرة فلا يعرفه الكثيرون ويعود شكيب ليحترس ، فقد يظن ظان بكلامه أنه يحارب حب الشهرة . فهذا الحب عنده هو مبعث الهمم ، ومثار كوامن الفضل ، ومظهر درر القرائح من أصداف الأدمغة ، ولكنه يريد أن تكون درجة الشهرة هى درجة الفضل ، أى أن يكون نصيب المرء من شهرته بقدر ما له من مكانته وعبقريته .

ولما كان شكيب قد وصف البارودى بأنه أمير الشعراء ، وبأنه الشاعر الفرد الأوحد ، وكان ذلك الحكم قبل أن تتجلى عبقرية شوقى ، فقد عاد يذكر أن البارودى قد انطوى ، وأن شوقى قد استولى على المكانة الأولى ، فأصبح « نسيج وحده لا يجد الناس عنه عوضا ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثر فى النفوس من كل شاعر سواه ، ولم ينحصر المجد فى نفسه ، بل تناول وطنه مصر فصارت تزهو به على غيرها (٢) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩١ .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ٩٢ .

ثم يتعرض شكيب لنقد الرافعى فى رأى له حول الشعر فى مصر ، فقد قال الرافعى عن شوقى . انفلت شوقى من تاريخ الأدب لمصر وحدها كانفلات المطرة من سحابها السائر فى الجو ، فأصبحت مصر به سيدة العالم العربى فى الشعر وهى لم تذكر قديما فى الأدب إلا بالنكتة والرقة وصناعات بديعية ملفقة ولم يستفض لها ذكر بنابغة ولا عبقرى ، وكانت المستجدية من تاريخ الحواضر فى العالم » .

ويرد شكيب على الرافعى قوله « ذاكراً أن البلد الذى نبغ فيه مثل ابن الفارض والبهاء زهير وظافر الحداد والأبوصيرى صاحب البردة الشريفة فى القديم ، ومحمود سامى البارودى ومحمود صفوت وأحمد شوقى وحافظ ابراهيم وأحمد محرم واسماعيل صبرى وغيرهم فى الحديث لا يقال إنه منقوص الحظ من الشعر » (١) .

والحق مع شكيب ، فقد قسا الرافعى فى حكمه ونلاحظ فى رد شكيب اطلاعه على تاريخ الشعر فى مصر ، وإحاطته بأسماء الشعراء ومكانتهم ، وإنصافه فى الحكم ، ولذلك نراه بعد أن خالف الرافعى هذه المخالفة يعود إلى موافقته على أن شوقى هو وحده الذى وضع تاج الشعر على مفترق مصر ، وموافقته على أن شوقى اجتمع له ما لم يجتمع لسواه (٢) .

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق ص ٩٤ .

وإذا كان شكيب قد أبدى رأيه فى أمارة شوقى للشعراء نثراً ، فإنه قد عاد وترجم عنها شعراً ، حيث قال من رثائه لشوقى :

ولقد رويت الشعر عن آحاده
وألفت للسباق فى حلباته

وقضيت فيه صبوتى وصبابتى
وقطفت منه خيير نواراته

وأثرت فى البيداء بزل فحوله
وأطرت فى الآفاق شهب بزاته

فرأيت شوقى لم يدع فى عصره
قـرنا يهز قناته لقناته (١)

* * *

وإذا وافقنا شكيب على رأيه فى شوقى فإننا نتوقف عند رأى قاله شكيب فى شاعر النيل حافظ ابراهيم ، فقد أقيمت حفلة تكريم لحافظ سنة ١٩٠٤ وكتب بعض إخوان شكيب من مصر إليه فى سورية يقترحون عليه إرسال أبيات لتلقى فى الحفل ، ومن جملة ما ذكروا من محاسن حافظ أنه محب السوريين ، وكان ذلك قبيل عيد الأضحى ، وكان البارودى أحد شعراء هذه الحفلة فأرسل شكيب أبياتاً منها قوله يخاطب حافظ :

فأنت إمام النثر غير مدافع
وأنت أمير الشعر من بعد أحمد

وهذا فى رأيى توسع فى الحكم ومبالغة فى الرأى ، فلو أن إمارة حافظ للشعر بعد أحمد

(١) الديوان ص٨٣ وكتاب شوقى ص٩٦ .

احتملت أكثر من قول فى رأيى ، فإن إمامته النثر بلا مدافع قول غير مسلم ، فإن مكانة حافظ فى الشعر تفوق مكانته فى النثر بمراحل .

ولقد ألقى الأستاذ أحمد الطاهر محاضرات عن حافظ فى معهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٣ ، وتحدث عن نثره ، فغاية ما قال فيه إنه « من أرفع أساليب النثر »[١] ، وقال أنه ليس بين أيدينا من نثر حافظ شيء يعتد به غير ترجمته لرواية « البؤساء » ، وأن « أسلوب حافظ فى جزء كبير من أول هذا الكتاب فيه شيء من الألفاظ الغريبة على أسماعنا »[٢] .

وذكر أن حافظا فى أسلوب بعض رسائله كان « مقلداً للقدماء ، مترسما خطاهم ، لا يخرج عن أسلوب ابن زيدون فى رسالته الجدية والهزلية ، إلا ليدخل فى أسلوب الحريرى ، ويتحدث بلسان السروجى ، أو ليطلع علينا بروح بديع الزمان الهمذانى ، ليس فى هذا النثر شيء من طبع حافظ ولا من روحه ، وما كان حافظ ليكتب نثراً بهذا الأسلوب ، وهو صاحب الشعر الميسر السلس العذب ، ولكنه حمل نفسه على غير سجيتها مقلداً وعامداً ، وأراد أن يطلعك على علمه باللغة وألفاظها الغريبة عليك ، وعلى علمه بالتاريخ العربى القديم » .

(١) محاضرات عن حافظ إبراهيم ، ص ٦٤ .
(٢) المرجع السابق .

وبعد أن يورد الطاهر نموذجا لنثر حافظ يقول : « وما يحسن بنا أن نمضى فى هذا النثر المعقد المعجوج » ، ثم يقول : « وألف حافظ فى صباه كتاب « ليالى سطيح » ، نحا فيه منحى وأسلوبا مسجوعا لعل أقربه صورة إليه وأقرب أسلوب له حديث عيسى ابن هشام ، وهو فيه مقلد القدامى ، بعيد عن المحدثين ، حريص على اللغة وألفاظها ، أكثر من حرصه على المعانى والصور والأخيلة العالية »[١] .

ثم يجمل الطاهر رأيه فى نهاية الكتاب عن حافظ بقوله : « وأوفق ما يقال فيه إنه شاعر مصرى بكل ما تحتمل المصرية من معان ، وإنه فى الشعر الحزين من أقوى الشعراء ، وإنه شاعر فحل جزل اللفظ جميل الأسلوب »[٢] .

وقد حرصت على أن أستشهد بباحث درس حافظ ابراهيم دون الاقتصار على رأيى ، ليكون ذلك أدل على أن شكيبا كان متوسعا فى حكمه حينما قضى لحافظ بالإمامة فى النثر غير مدافع .

وربما كان الأفضل : فى بحث هذا الرأى أن يرد ضمن آراء شكيب فى الكتابة والكتاب ، ولكنه جاء هنا لأن شكيبا أصدر حكمه شعراً ، ولأن عجز البيت السابق

(١) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢) المرجع السابق .

قد تحدث عن إمارة حافظ الثانية : إمارته فى الشعر من بعد أحمد .

ولقد جاء فى هامش الديوان تعليق على كلمة « من بعد أحمد » . وهذا التعليق يقول : « من شاء يفهم أن حافظاً هو أمير الشعراء بعد المتنبي ، ومن شاء أن يفهم أنه ثان لشوقى »[1] .

ومع ما فى أصل الحكم بإمارة الشعر لحافظ من حاجة إلى نظر ، جاء هذا التعليق فزاده حاجة إلى نظر ونظر .

فلنبدأ بدعوى إمارة حافظ الشعر بعد المتنبي : لعله من الخير أن أستعين بشكيب نفسه لإبانة الاحتياج إلى هذا النظر ، فهو نفسه يقرر فى موطن آخر أن خليفة المتنبى هو شوقى . يقول : « ومن يا ترى يصح أن يخلف المتنبى اليوم ؟ أولها أحمد وآخرها أحمد »[2] !

وشكيب فى مقالة « أشعر الشعراء » التى لخصناها سابقا يجعل حافظا بعد شوقى فى ترتيب الشعراء الأعلام [3] ، فكيف يخلف حافظ المتنبى وشوقى موجود ؟ ، وشكيب نفسه قد قرر أن حافظا لم يعل علو شوقى فى بعض أبياته ، وإذا كان قد حكم لعامة شعر حافظ بأنه أطلى من عامة شعر شوقى ، فقد عاد مباشرة ليقول : « وغاية ما يقال فيهما أن جيد شوقى أحسن من جيده (حافظ) ، وأن هذا (شوقى) أعلى ، وذاك (حافظ) أطلى »[1] .

ويعود ليؤكد سبق شوقى لحافظ فيقول إن عيون شعر شوقى « لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره ، وقد يحلق فى سماء الخيال أحيانا حتى يفوق البارودى نفسه ، وهو عندى حامل اللواء وأبو الجميع »[2] .

ويعود ليقول إنه بعد موت البارودى أصبح شوقى « نسيج وحده ، لا يجد الناس عنه عوضا ، ولا يبتغون به بدلا ، وأصبح آثر فى النفوس من كل شاعر سواه »[3] .

وأما إذا كان المراد أن إمارة الشعر لحافظ بعد أحمد شوقى ، فمع أن القدر قد سبق بالحكم فى ذلك ، إذ مات حافظ قبل أن يخلو عرش الإمارة من شوقى أرى أن إفراد حافظ بالإمارة بعد شوقى حكم فيه توسع ، والتدليل على ذلك يقتضى بحثا لا يطيقه هذا المجال .

ولا يفوتنى أن أعيب التعليق الذى جاء بالهامش ، إذ أنه مبهم محير ، ولظان أن

(١) الديوان ، هامش ص ٤١ .
(٢) كتاب « شوقى » ، ص ٧٩
(٣) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ، ص ٩٢ .

يظن أن شكيباً أراد أن يرضى شاعر النيل — ولا ننسى أن حافظاً يحب السوريين — وأن يرضى الذين اقترحوا عليه تكريم حافظ وفى الوقت نفسه لا يغضب صديقه وحبيبه شوقى، فقال هذا البيت ذا الوجهين، وجاء هذا التعليق فأكد ما فيه من إبهام وتلاعب بالألفاظ.

ويخيل إلى أن شكيباً قد اندفع إلى هذا الحكم متابعة لأستاذه وإمامه «البارودى» فقد علم أن البارودى شارك فى تكريم حافظ ولقد أسبغ من قبل عليه حلل الثناء، فيتابع شكيب خطوات أستاذه. بدليل أنه جاء قبل البيت الذى معنا مباشرة بيت يقول:

وقبلى قد أولاك «سامى» شهادة
ومثلى بمحمود السجية يقتدى

وجاء فى الديوان تعليق على كلمة «سامى» فى هذا البيت يقول: «أى محمود باشا سامى البارودى الذى قرظ حافظا فى هذه الحفلة»(١)

ومما يدلنا على روح المجاملة والتصنع فى هذه القصيدة أن شكيباً لم يقلها ابتداء، بل اقترحها عليه إخوان له ذكروه بحب حافظ للسوريين «وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان»، ولذلك يقول شكيب فى القصيدة:

يقولون لى، شيد عن الشام ذكره
ألم يك ولى الشام شطر التودد

فقلت لهم: أثنى عليه بصالح
عن العرب طراً ذاك أصلى ومعتدى

ومما يدلنا على ذلك أيضا أن شكيباً انتهز مناسبة إقامة الحفل فى جو عيد الأضحى — وهو عيد لمن حج وطاف واعتمر وضحى — وتحدث فى القصيدة بعقله وصنعته عن أشياء تتعلق بالحج والكعبة والحطيم وزمزم، والطائفين والراكعين، والمشاة والركبان على كل ضامر، فقال، ولم يكن بحاجة إلى ذلك الذى قال.

حلفت بما بين الحطيم وزمزم
وأقسمت بالبيت العتيق المشيد
وبالطائفين العاكفين بهذى اللى
الى تراهم من ركوع وسجد
يرمون مثوى للخليل ومرقدا
تلألأ نورا بالنبى محمد
مشاة وركبانا على كل ضامر
ومن فوق قضبان الحديد الممدد
فما فى حديث الحج لين، وقد غدا
يجىء على شرط البخارى بمسند

وهذا شغل جانبا من القصيدة بما ليس من هدفها فى قليل أو كثير.

أحمد الشرباصى

---

(١) الديوان، هامش ص ٤١.

مع البلاغيين :

اللفظ والمعنى

للأستاذ علي العماري

— ٣ —

لقد كان الجاحظ - كما سبق أن أشرنا - أول من فاصل بين اللفظ والمعنى ، وهو صاحب العبارة المشهورة التي اتخذها العلماء أصلا يعتمدونه أو ينقضونه ذلك قوله (والمعاني مطروحة في الطريق) .

فقد ذكر أنه سمع أبا عمرو بن العلاء يستحسن بيتين من الشعر لمعناهما ثم قال : وقد بلغ من استجابته لهذين البيتين ، ونحن في المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضر دواة وقرطاسا وكتبهما له .

قال الجاحظ : وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعراً أبداً ، ولولا أن أدخل في بعض القيل لزعمت أن ابنه أشعر منه ، وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى
وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا
أفظع من ذا لذل السؤال

ثم قال : وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصيغ ، وجنس من التصوير [١] .

وفي هذا النص ما يدلنا على مذهب الجاحظ في اللفظ والمعنى ، ولكن لا بد من ملاحظة أمور :

أولا : أن الجاحظ يعارض أبا عمرو ابن العلاء ، وهو من رواة الشعر والأخبار وقد كان رأي الجاحظ في هؤلاء ، وفي فهمهم للشعر مجحفا ، فقد كان يعتقد أنهم لا يحسنون نقد الشعر ، ولا يعنيهم منه إلا ما اتصل بغاياتهم فهو يقول : ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الشعر إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل .

بل نراه يتعدى التعميم إلى التخصيص ،

(١) الحيوان ج ٣ ص ٤٠ .

فيذكر جماعة من الرواة ، ويذكر ما يحسنه كل واحد منهم ، وهم جميعا عنده لا يحسنون نقد الشعر ، وتمييز الجيد من الردىء ، فيقول : (طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه ، فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب ، كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات).

والذى يريده الجاحظ وراء كل هذه المعارف ، أنه يريد (علم الشعر) وهو علم لا يحسنه - فى رأيه - إلا (أدباء الكتاب). وهكذا كان يرى غيره من جهابذة الكلام سئل أبو نواس عن جرير والفرزدق ففضل جريرا فقيل له : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة فإنما يعرفه من دفع إلى مضايق الشعر .

وسئل البحترى : أمسلم أشعر أم أبو نواس ؟ فقال : بل ، أبو نواس لأنه يتصرف فى كل طريق ، ويبرع فى كل مذهب ، إن شاء جد ، وإن شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه ، فقيل له : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه عن يحفظ الشعر ، ولا يقوله ، فإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقة .

وكان هؤلاء الرواة من جانبهم يقابلون هذا التحدى بتحد مثله ، فأبو عبيدة معمر ابن المثنى يمتدح خلفا الأحمر بأنه معلم أهل البصرة ، والأخفش يقول : لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعى ، وأبو زيد الأنصارى يقول : وكان يونس - يعنى يونس بن حبيب إمام نحاة البصرة فى عهده - عالما بالشعر ، نافذ البصر فى تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات شعراء العرب ، حافظا لأشعارهم ، يرجع إليه فى ذلك كله (١) .

وقال قائل لخلف الأحمر : إذا قلت شعراً فأعجبنى فما أبالى ما قلت فيه أنت وأصحابك فقال خلف : أرأيتك لو أخذت درهما فاستحسنته ثم قال لك الصيرفى أنه بهرج هل ينفعك استحسانك له ؟

فهى إذن العصبية أو ما يشبهها ، أو إن شئنا قلنا العداوة بين العلماء وأهل البيان ، فهل صدر الجاحظ عنها ؟

ثانياً : أن البيتين - فى الحقيقة - ساقطان ، ومن الغفلة استحسانهما مهما كان المعنى الذى اشتملا عليه ، فهما لا يدخلان فى باب الجيد

---

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٦٥ .

مطلقا ، وإنما يتشددان على أنهما كلام له معنى صادق ينبغى أن يكون فى صدر كل محتاج .

ثالثاً : أن الجاحظ فى بيانه لم يغفل شأن المعانى ، فهى وإن كان يعنى باللفظ عناية كاملة ، فيختار ألفاظه ، وينسق عباراته ، ويصفيها من الشوائب ، ويدقق فى أداء المعنى حتى ليقول : (ربما خرج الكتاب من تحت يدى محصفا كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة) . أقول هو وإن كان كذلك إلا أن عنايته بالمعانى لا تقل عن عنايته بالألفاظ ، وأعتقد أن إعجابنا بالجاحظ لم يكن لأن ألفاظه جميلة ، وأسلوبه عذب مسترسل بل كان لذلك ولروعة معانيه ، وسعة أفقه فى التصرف فى هذه المعانى .

والجاحظ نفسه أشار أكثر من مرة إلى ضرورة المعنى الشريف مع اللفظ الشريف ، ومن قوله فى ذلك : (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه فى ظاهر لفظه ... فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف صنع فى القلب صنيع الغيث فى التربة الكريمة) .

فهو يرى أن الأثر الجيد للكلام والتأثير الحسن له فى النفوس إنما يكون حين يجمع بين المعنى الشريف ، واللفظ البليغ .

وقد ذكرت فى مقال سابق قول الجاحظ : إن المتكلم لا يكون بليغا حتى يعطى اللفظ حقه من البيان ويحقق للكلام حظه من المعنى ، ويضع جميعها مواضعها .

فالمعنى ركن ركين فى الكلام البليغ وما كان للجاحظ ولا لغيره من كبار العلماء والكتاب أن يستهين به .

غير أن الجاحظ كان يرى أن المبالغة مفسدة لكل شىء ، فالمبالغة فى تهذيب الألفاظ ممقوتة والمبالغة فى اختراع المعانى ممقوتة كذلك [1] .

وقد ساق فى كتابه البيان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا خلابة) والمراد بها المخادعة بحسن المنطق ، وتهذيب الألفاظ ثم قال : (فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى ولا تجعل همك فى تهذيب الألفاظ وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه) [2] .

وهو يكره المبالغة التى تؤدى إلى الوعورة كما يفهم من قوله ، ولذلك نراه حين تعرض لبعض العبارات التى تشتمل على كلمات غريبة وأن العلماء كانوا يديرون فى كتبهم أمثال

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٤٧ . ط الخطيب .

(٢) جـ ١ صـ ٢٥٥ . ط هروى .

هذه العبارات يقول : فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده اقه من صنعة البلاغة والفصاحة ، وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب ، وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرماح وأشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الرصف على أكثر من ذلك [٢] .

ومن رأى الجاحظ أن البليغ يستطيع أن يكسو المعنى الوسط عبارة تجعله رائعاً وأن المعنى يتحول عن مقداره إذا زين وزخرف ، وقد نقل عن بعض العلماء الأدباء من أهل المعرفة من البلغاء وممن يكره التشادق والتعمق ، ويبغض الإغراق فى القول والتكلف والاجتلاب ، ويعرف أكثر أدواء الكلام ، نقل عنه عبارات وأقرها فكانت رأيا له : « أنذركم حسن الألفاظ ، وحلاوة مخارج الكلام ، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا ، وأعاره البليغ مخرجا سهلا ، ومنحه المتكلم دلا متعشقا ، صار فى قلبك أحلى ، ولصدرك أملا .

والمعانى إذا كسيت الألفاظ الكريمة ، وأكسبت الألفاظ الرفيعة تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق أقـــدارها ، بقدر ما زينت ، وحسب ما زخرفت ، فقد صارت الألفاظ فى معانى المعارض ، وصارت المعانى فى معنى الجوارى والقلب ضعيف ، وسلطان الهوى قوى ، ومدخل خدع الشيطان خفى [١] .

ونحن إذا تجاوزنا الحال التى قيل فيها هذا الكلام والتحذير الذى وجهه هذا الواعظ من الانخداع بحسن المنطق خلص لنا أن الجاحظ يرى أن اللفظ الشريف يحول المعنى عن مقداره ، ولعله نظر فى ذلك إلى قول الأصمعى ، وقد سئل : من أشعر الناس ؟ فقال : الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية فإذا احتاج إليها أفاد معنى [٢] .

رابعا : ما المراد بالمعنى فى كلام الجاحظ ؟ وما المراد باللفظ ؟

ذهب بعض الكاتبين إلى أن المراد بالمعنى عند الجاحظ هو المعنى العام ، قال : وهذه هى المعانى التى يقدر عليها الناس جميعا من مثل الامتداح بالشجاعة أو بالكرم أو ما أشبه ذلك وإنما ذهب إلى هذا التفسير لينفى عن الجاحظ تهمة الغفلة أو الرأى الفطير ، وأنه من غير الممكن أن يعتقد الجاحظ أن كل إنسان عربى أو عجمى قادر على أن يجىء بالمعنى القريب المبتدع .

---

(١) البيان جـ ١ ص ٢٧٨ ط هروى .

(١) البيان جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) العمدة جـ ٢ ص ٤٦ . ط . أولى .

وهذا حق ، ولكن الذى يمعن النظر فى كلام الجاحظ فى غير موضع من كتبه يدرك بسهولة أنه يريد بالمعنى ، المعنى الخاص ، من تشبيه مصيب تام ، أو معنى غريب عجيب ، أو معنى شريف كريم ، أو بديع مخترع . وأن هذه المعانى هى التى يمكن أن تسرق من أصحابها فإذا ووجه السارق ادعى أنه لم يسمع بهذا المعنى قط ، وقال : إنه خطر على بالى من غير سماع .

ومن الأدلة على أنه يريد المعنى الخاص حديثه عن معنى عنترة فى بيتيه المشهورين وصفا للذباب ، فإنه رأى أن عنترة وصف الذباب فأجاد وصفه ، وأن جميع الشعراء تحاموا معناه فلم يعرضوا له ، وقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك ، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر :

قال عنترة فى وصف روضة :

جادت عليها كل عين ثرة
فتركن كل قرارة كالدرهم
فترى الذباب بها يغنى وحده
هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحك ذراعه بذراعه
فعل المكب على الزناد الأجذم

قال الجاحظ بعد أن أورد البيتين : ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة .

أما مراده باللفظ فيتضح أيضا من مراجعة أقواله فى أثناء كتبه . وفى هذه العبارة نفسها - وهو - كما يبدو واضحا يريد الألفاظ المفردة ، لأنه وصف اللفظ بالسهولة كما يريد الأسلوب ، إذ يقول : وإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصبغ ، وجنس من التصوير .

لكل ذلك أعتقد أن الجاحظ - مع كراهيته للمبالغة - بالغ حين قال : والمعانى مطروحة فى الطريق . وأن الذى دعاه إلى ذلك - فى الأرجح - سر عميق فى نفسه بمعارضة أبى عمرو بن العلاء وأمثاله ممن يحكمون فى الشعر ، وليس عندهم الذوق الفنى السليم - كما يرى - .

وليس أحد ممن يقرأ كتب الجاحظ يجهل أن له مبالغات مفرطة فى بعض الأحايين ، وحسبنا بعض قصصه فى كتاب البخلاء ، وبعض نوادره عن المعلمين وغيرهم .

وقد مرت الكلمة من قلمه فى مناسبة خاصة ولم يحاول أن يرجع عنها ، وإن كان كل ما كتبه بعد ذلك فى كتاب البيان تعديل لوجهة النظر هذه - على حد تعبيرنا - .

* * *

هذا : وقد ذكر بعض الباحثين المحدثين

أن الجاحظ ركب فى هذا القول متن الشطط وأن الذى قاده إلى ذلك هو تعلقه بمذهب الصنعة ، هذا التعلق الذى أعماه عن تقدير المعنى .

ثم قال بعد أن ذكر رأى الجاحظ فى اللفظ نقلا عن كتاب الحيوان ، وذكر كلامه فى أول كتاب البيان ، وأن غاية البيان الإفهام : وفى ذلك الرأى يبدو التعارض ، ويبدو أن الجاحظ يسير فى طريق لا يعرف غايته ، ويرمى إلى غير هدف معين .

وهذه أوصاف أقل ما يقال فيها إنها ظلم للجاحظ ، وغمط لحقه ، فالجاحظ أعماه التعلق بالصنعة عن تقدير المعنى ، وهو يسير فى طريق لايعرف غايته ، وهو يرمى إلى غير هدف : أليس هذا كثيراً على أديب العربية الأكبر ؟ .

وأعتقد أن الجاحظ لم يكن متعصبا بالصنعة إلى الحد الذى ذكره الكاتب ، فإن الذى يكره المبالغة فى تهذيب الألفاظ ، ويدعو إلى الاقتصاد والتوسط ، والذى كان يدعو إلى (النظر فى مواقع الألفاظ ، وأين استعملها العرب[1]) مثل هذا الكاتب لا يعميه التعلق بصنعة الكتابة عن اختيار المعانى .

ولقد أنصف الدكتور شوقى ضيف حين قال عن الجاحظ : (وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان ، وكان لذلك صبغته الخاصة فى كتابته ، فإنها كتابة ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب[2]) .

ومن عجب أن ذلك الكاتب الذى رمى الجاحظ بهذه الأوصاف الغليظة ، أخطأ حين تكلم عن غاية البيان ، فقد عاب على الجاحظ اعتباره غاية البيان الإفهام ، ثم قال : أما غاية البيان الحقيقية فهى مايستفاد مما ذكره أخيراً من التأنق فى رسم الصورة ، وإبراز الفكرة الأدبية مصطبغة بالصبغة الفنية[3] .

والتأنق وإبراز الفكرة وسيلتان للغاية من البيان ، لأن الغاية هى الإفهام - كما قال الجاحظ - أو هى التأثير كما يجرى على ألسنة نقاد اليوم ؟ .

على العمارى

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ٣٤٣ .

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ١٦١ .

(٢) الدكتور بدوى طبانه فى كتابه (دراسات فى نقد الأدب العربى) ص ١٥٥ .

من أعلام المسلمين في الهند :

مولانا أبو الكلام أزاد

للأستاذ عبد المنعم النمر

— ٦ —

دخل مولانا أزاد ميدان السياسة عن طريق الدين وفهمه الفهم الصحيح المستقيم ، لقد فهم من دينه أنه دين لا يرضى بالذلة والاستعباد ، وأنه دين الحرية والمساواة ، فاتخذ من هذه المبادئ شعلات يلهب بها جذوة الحماس في نفوس المسلمين ، ويهيب بهم أن ينفضوا عنهم غبار الذلة والاستكانة ، وأن يتحرروا قبل كل شيء من أسر الأوهام والخرافات والتقليد الأعمى حتى يستطيعوا أن يطلبوا الحرية لأنفسهم ، وكان يتخذ من مجلاته ومن خطبه وسيلة لإبلاغ دعوته ، وكان خطيبا مفوها كما كان كاتبا بارعا مجدداً في أسلوبه الأوردي وتفكيره ويكتب أحيانا باللغة العربية — التي يتقنها — افتتاحيات مجلته ، وهذه الافتتاحيات العربية كان يقرؤها في الهند العلماء بخاصة لأنهم الذين يعرفون العربية ، ويحبون كثيراً أن يقرءوا بها ويهدف من توجيه الخطاب إلى العلماء أن يصلح نفوسهم وتفكيرهم ، باعتبارهم قادة لهم تأثير قوى على جمهرة المسلمين ، ويرجو أن يكون ذلك وسيلة لإصلاح العامة منهم .

في العدد الأول [1] من مجلته « البلاغ » التي أصدرها بعد أن أغلقت السلطة البريطانية مجلته « الهلال » ، كتب افتتاحية طويلة باللغة العربية ، وقد وقع في يدي هذا العدد حينما كنت بالهند ، فطالعت هذه الافتتاحية بشغف ، ولمست فيها تفكيراً وأسلوبا يتشابهان كثيراً مع تفكير وأسلوب الشيخ محمد عبده . وكان عنوان المقال : (المسلمون بين الاجتهاد والتقليد) ، رأيت فيه التوفيق والمهارة في عرض الفكرة ، والاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة النبوية مما يدل على تمكن في فهم الدين . وإحاطة في حفظ القرآن والسنة وفهمهما فهما جيداً ، فما ذكر آية إلا ذكر رقم السورة ورقمها ، وما ذكر حديثا إلا خرجه .

ويهمني هنا أن أعرض أمامك مقتطفات من هذه المقالة لكي تشترك معي في الحكم ، وأظن أنك ستشاركني الإعجاب كذلك . .

افتتح مقاله فقال : « الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام دينا ، ونصب لنا الدلالة على صحته برهانا مبينا ... إلى أن قال والصلاة والسلام

(١) الصادر في ٤ من المحرم ١٣٣٤هـ .

على سيدنا ونبينا محمد خاتم أنبيائه ورسله ، وصفوته من خلقه ، وحجته على عباده ، وأمينه على وحيه ، الذى بعثه بتوحيد الألوهية ، ليحرر الخلق من رق العبودية ، وبتوحيد الربوبية ، ليعتقهم من رق التقاليد الدينية ، التى ألحقها رؤساء الأديان بالشرائع الإلهية . وبتوحيد السياسة لتكون الشعوب والقبائل أمة واحدة ، تضمها شريعة عادلة واحدة ، وتتعارف بلغة واحدة ، ليطلقهم من قيود الحكومة الشخصية الجائرة ... فاهتدى بكتابه العقلاء المستقلون ، وضل به السفهاء المقلدون ... »

ثم أخذ يتكلم عن تطور الإنسانية وتطور الأديان معها . . وعلة انصراف الناس عن الدين حتى قال : « فانتقل البشر من حال إلى حال ، وارتقوا من طور إلى طور ، حتى إذا ما ارتقت عقولهم بتقلب الزمان ، واستعدوا لتحكيم العقل والفكر ، فى مدركات الحس والوجدان ، بعث فيهم خاتم النبيين والمرسلين الذى جعل الفكر والنظر أساس الدين ومنحه دين الإسلام ، المنطبق على مصالحهم فى كل زمان ومكان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربى الرحيم ، وللشعوب الراقية كالإمام الحكيم ، كلما ساروا فى العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلى فى ميدان السبق « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق[1] » أنزل عليهم كتابا احتج على صحة العقائد بآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وجاء بالبينات والهدى ونهى عن التقليد واتباع الهوى ، وقرر حرية الوجدان ، والاجتهاد فى جميع الأعمال والاعتقاد ، وعظم شأن الفكر والعقل . فامتاز دينه على سائر الأديان ، بأنه دين الحجة والبرهان ، الناعى على متبعى الأوهام والظنون بأنهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ، بل وصفهم بقوله « أولئك كالأنعـــام بل هم أضل أولئك هم الغافلون »[2] « صم بكم عمى فهم لا يرجعون[3] » .

ثم تحدث عن السبب فى ضلال العالم قبل الإسلام « حتى جاء الإسلام والعالم كله فى تأخر من جميع الوجوه . فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله دينا قيما ، وعلما محكما ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله فى مشارق الأرض ومغاربها » وأخذ يبين فى تفصيل كيف قضى الإسلام على الفساد وأقام مدينته السعيدة ، حتى « كان المسلمون نورا ساطعا ، ومجداً طالعا ، ونفوذا قاهراً ، وعزاً باهراً ، وعلما زاهرا ، وخلقا ساحرا ، سياسة ملكت الأقطار ،

---

(١) ٤١ : ٥٣ .
(٢) سورة ٧ آية ١٧٩
(٣) سورة ٢ آية ١٨

ومصرت الأمصار ، وكياسة ارتاحت لها القلوب واطمأنت لها الأمم والشعوب .... » .

ثم انتقل إلى ما صار إليه المسلمون بعد ذلك من ضعف وأخذ يبين أسبابه وعلله ، ويورد النصوص من القرآن والسنة التي حذرتنا ونهتنا وتطرق منها إلى موضوعه فقال :

« ولكننا خالفنا كل هذه النصوص فتفرقنا وتنازعنا ، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة كل فريق يتعصب لمذهب ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله ، زاعما أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين » .

وأخذ يعرض أمثلة واقعية لذلك من التاريخ ثم قال ، فسلط الله على جميع هذه الأحزاب أعداء ، خضدوا شوكتها وزلزلوا دولتها « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ثم بين بعد ذلك أن طريق الحق هو الوحدة والإسلام وأن اليهود لما تفرقوا وحرفوا ، مزقهم الله وتلك سنته في خلقه وأن المسلمين كانوا أمة واحدة يهديها عقلها البصير الفاهم لكتاب الله وسنة رسوله ، وكانت مملوءة بالمجتهدين إلى أن خلف من بعدهم خلف فرقوا دينهم وكانوا شيعا « فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون [١] » ،

فجعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ، ورءوس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض « التقليد » اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » [١] وحجروا على رب العالمين مثل اليهود ، ألا يبعث الله بعد أئمتهم وليـــا مجتهدا ، وأنكروا ما قاله الرسول ، حيث قال : « لا يزال يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها دينها » . وأخذ يعرض صوراً من كلام المقلدين المتعصبين لمن يقلدونهم وكيف أن كل جماعة حرمت على نفسها وعلى الناس أن يختاروا غير ما اختاره إمامهم ، سواء كان في الفقه أو الأصول أو التفسير وحتى في العلوم العقلية والإلهية إلى أن قال في أسلوب ساخر : فانظر كيف استبدلوا الباطل بالحق « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى . فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » [٢] .

واستمر يناقش في سخرية كذلك هؤلاء المقلدين ويذكر أقوالهم العجيبة التي تحجر التفكير الحر على الناس وتسد أمام عقولهم الأبواب فتجده يقول من ذلك مخاطبا لهم : فإذا لم يكن لأحد أن يختار بعد من ذكرتم ، فمن أين وقع لكم اختيار تقليدهم دون غيرهم وكيف حرمتم على الرجل أن يختار ما يؤديه

---

(١) ٢٣ : ٥٣ .

(١) ٩ : ٣١ .

(٢) ٢ : ١٦ .

إليه اجتهاده ، وأبحتم لأنفسكم اختيار قول من قلدتموه ؟ وأوجبتم على الأمة تقليده ، وحرمتم تقليد من سواه ؟ فما الذى سوغ لكم هذا الاختيار ، الذى لا دليل عليه من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس أو قول إمام من أئمتكم ؟ . ياللعجب !! » .

وقد اعتبر هذا الحجر شدة وغلوا فى الدين لم يأذن به الله ، مع أن الله جعل دينه يسرا لا عسرا ، ومن رأيه أن هذا الغلو فى التضييق كان سببا فى هجر السلاطين الشريعة فى أمر القضاء والسياسة ، بزعم أن الشريعة شاقة ، غير مطابقة لمصلحة الزمان ، وهجر عامة المسلمين لها أيضا فى أكثر أحوالها ، إذ أن الطوائف المقلدة لم تستطع بعقليتها الجامدة وانحصارها داخل إطار الكتب والآراء المدونة ، أن تجابه حوادث العصر بأحكام من الشريعة ، ومع ذلك تجدهم مختلفين فيما بينهم أشد الاختلاف حتى حزبوا الأمة وفرقوا شملها وشوهوا من أجل ذلك وجه الشريعة الغراء حين قصروها على ما فى بطون الكتب السابقة والآراء القديمة ، حتى ظن من فى عقله ضعف أن هذه هى الشريعة !!

« فيالله وللمسلمين من هذه الفاقرة التى هى أعظم فواقر الدين ، والرزية التى ما رزئ بمثلها سبيل المؤمنين ؟ .

فمنذ جاء التقليد والتحزب والتعصب ، حلت النقمة وذهبت الريح والشوكة ، إلى أن وصلنا إلى هذه الدرجة من الضعف والذل . ذهب ملكنا ، وصارت المملكة الكبيرة من ممالكنا ، تقع فى قبضة الأجانب ، فلا يبالى بهم سائر المسلمين !! فأين الوحدة والأخوة ، والتواد والتراحم ، والتعاون والتناصر ؟ أين تمثيل مجموعهم بالجسد الواحد ؟ كل ذلك قد زال ، وكان مبدأ زواله الاختلاف !! « فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا [1] » . وترى من شدة حملة مولانا أزاد على التقليد أن جعله أصلا لكل بلاء نزل بالمسلمين فهو الذى أصابهم بالخمول والضعف ، وهو الذى فرق كلمتهم ، وأطمع فيهم أعداءهم ، وأضعف الصلة بينهم وبين شريعتهم ودينهم .

وإذا كان هذا يمثل الحقيقة إلى حد كبير فإنى أعرف أن الذى حمل مولانا أزاد كذلك على تركيز هجومه على هذه الناحية بالذات إنما هو إسراف المسلمين فى الهند فى التقليد ولا سيما تقليد أبى حنيفة إلى حد أنهم لا يبالون كثيرا بدلالة النصوص بجانب أقوال المذهب ، وإلى حد أنهم ينظرون إلى المخالف لهم نظرة مريبة ، وربما يثورون عليه ، هذا بجانب ما لمسته فيهم من حدة فى الاختلاف ، حتى على الأمور البسيطة التى

(١) ٤ : ٧٨ .

لا تمت إلى جوهر الدين بصلة فهم يقومون ويقعدون ، ويلقون المحاضرات ، ويطوفون فى البلاد ، ويؤلفون الكتب ، من أجل الاختلاف مثلا حول رفع اليدين عند التكبير للركوع ... وهو أمر لا يصل إلى درجة السنة عند من قال به . فكان لا بد لتطرفهم هذا وإغراقهم فى الخلاف من أجل التوافه لا بد أن يركز مولانا أزاد هجومه ، على هذه النواحى فربما يقلل من أمر هذه الخلافات .

لقد خلص من ذلك كله إلى أن الذى صار إليه المسلمون بسبب التقليد من الاختلاف والتفرق أمر ينافى كل المنافاة روح الدين ونصوصه ، فالأمة واحدة ، وكتابها واحد وقبلتها واحدة ، ورسولها واحد ، ومع ذلك كان التعصب للمذاهب وتقليدها سبباً فى زوال شوكتها ، واقرأ فى التاريخ حوادث الفتن بين أهل السنة والشيعة ، وبين المنتسبين إلى السنة ، بعضهم مع بعض ، بين الأشاعرة والحنابلة ، بين الحنفية والشافعية ، وبين الشافعية والحنابلة ، ومن أغرب ما تجد أن العداوة بين الشافعية والحنفية كانت من أسباب حملة التتار على المسلمين ، تلك الحملة التى كانت أول صدمة صدعت بناء قوة المسلمين صدعا ، لم يلتئم من بعده « ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد »(١)

ولقد كان التقليد والتعصب له سببا فى القضاء على كثير من المفكرين الإسلاميين الذين قلما يجود الزمان بمثلهم مثل ابن تيمية وابن القيم الذين خفيت كتبهما عدة قرون وهى أقوى من سائر كتب المسلمين .

ويصل بالثأر مداه بعد هذا البحث القيم اللامع فيطلقها زفرة مرة لجهل الناس بحقيقة الإسلام « آه ما أشد غفلة الناس عن حقيقة الإسلام ! ! أى سعادة للناس تعلو عرفان كل فرد من أفرادهم أنه أوتى من الاستعداد ما أوتيه من يوصفون بالولاية والقداسة ويدلون بالزعامة والرياسة .

إن مولانا أزاد وصل إلى القمة فى التفكير والإحساس كما وصل إلى أعماق النفوس وهو وهو يطلق هذه الزفرات . . نعم إن إشعار كل فرد من المسلمين بأن عقله قاصر عن أن يصل إلى ما وصل إليه السابقون يوحى إليه مقدما بالعجز وإغلاق الفكر ، والقعود على أعتاب السابقين ، ويقضى على كل استعداد فيه

وهذا لا ينتج إلا العقم ، ولا يلد إلا أقزاما فى الفكر فى كل ناحية من نواحى الحياة ، لا فى ناحية الفقه والعلوم الدينية فحسب ، إن المسلم الذى يسمع من صغره أن الأول لم يترك للآخر شيئا ولم يكن فى الإمكان أبدع مما كان وأننا مهما أوتينا من العقل والعلم ، فلن نبلغ ما بلغه الأولون ، ولن نصل إلى أقدامهم ،

---

(١) ٣ : ١٨٣ .

المسلم الذى يسمع هذا - وكل مسلم تقريبا يسمعه - يخلد إلى الأرض ويعتقد أن زمان العقول الجبارة قد ولى، وأنه وغيره يعيشون عالة على السابقين ! وهذا قتل للأمة وللنبوغ فيها وقضاء على كل حيويتها .

ولا شك أن الفرد الذى يولد ويشعر دائما أن باب الاجتهاد والاختراع والنبوغ والوصول للقمة مفتوح للجميع فى كل فروع العلم والمعرفة تتطلع نفسه إلى أن يصل ويحاول ، وإن لم يصل هو فسيصل غيره . فوق أنه وهو يفهم ذلك ، ويشعر به ، يحس سعادة ذاتية بنفسه وقيمته ، ويشعر أنه ليس ليس أقل شأنا ممن سبقوه ، بل أنه قد يكون أحسن منهم ، حين يستفيد بتجاربهم ، ويبنى عليها . وهذا الإحساس بالسعادة هو نقطة انطلاق الأمة إلى أن تجد نفسها ، وتفرض سيادتها الفكرية والمادية على غيرها وحق لمولانا أزاد أن يزفر هذه الزفرة ويقول بعد ذلك ما قال .. ما أعظمه وما أطيبه ، وأطيب تفكيره وتوجيهه ، وما أطيب ما ختم به هذا البحث القيم الذى طفت بك فى بعض جوانبه حين يقرر هذه الحكم أو هذه الأصول التى يجب أن يفهمها المسلمون لا سيما فى بلاده ، حتى ينقوا عقولهم ، وينهضوا بتفكيرهم ، وتتوحد صفوفهم ، وتقوى كلمتهم ويستعيدوا بالتالى مجدهم ، إنه يقول ويقول كل عاقل معه هذا القول :-

« لا إصلاح إلا بدعوة ، ولا دعوة إلا بحجة ، ولا حجة مع بقاء التقليد . فإغلاق باب التقليد الأعمى (لا باب الاجتهاد) ، وفتح باب النظر والاستدلال هو مبدأ كل إصلاح ، والسلام على « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

نسأل الله أن يجعلنا منهم . وسلام عليك من الله فى قبرك - يا أزاد - جزاء ما قلت وعملت وأخلصت فى قولك وعملك ؟

عبد المنعم النمر

إن الشريعة الإسلامية كانت موفقة غاية التوفيق فى تنظيم المعاملات على نحو واحد ، دون تفرقة بين معاملات مدنية وتجارية . وهذا ما لم يلحقه بعد تشريعنا المدنى .

الدكتور أمين محمد بدر

طبيعة الشعر العربي

للدكتور عبد الله الطيب

— ٤ —

حالة الجـــذب :

لعل ما سبق يوضح مراد العرب من نسبة الشعر إلى قرناء من الجن يلقونه إلى الشعراء، ذلك بأنهم رأوا ما ينتاب الشعراء من انفعال ثم ما يصيرون إليه بعد هذا الانفعال من جسارة على الاعتراف والصراحة لا يقدر عليها غيرهم ولا يرومها ولا يتقبل منه ذلك إن فعل، فلم يجدوا وجها من وجوه الرأي يفسرون به هذه الظاهرة المخالفة لما عليه مألوف الطبيعة غير أن ينسبوها إلى الجن .

وأريد أن أذكرك ههنا بخبر الفرزدق إذ تحداه غلام من الأنصار بقصيدة حسان ابن ثابت الميمية . وسياق الخبر كما ذكره صاحب الأغاني يرويه بسنده إلى ابراهيم ابن محمد بن سعد بن وقاص أنه قال « قدم الفرزدق المدينة في إمارة أبان بن عثمان . فأتى الفرزدق وكثير عزة فبينما هما يتناشدان الأشعار إذ طلع عليهما غلام شخت رقيق الأدمة في ثوبين ممصرين فقصد نحونا فلم يسلم وقال أيكم الفرزدق ؟ فقلت مخافة أن يكون من قريش : — أهكذا تقول لسيد العرب وشاعرها ؟ فقال : لو كان كذلك لم أقل هذا فقال له الفرزدق : من أنت لا أم لك . قال رجل من الأنصار، ثم بني النجار، ثم أنا ابن أبي بكر بن حزم، بلغني أنك تزعم أنك أشعر العرب، وتزعمه مضر .

وقد قال شاعرنا حسان بن ثابت شعراً . فأردت أن أعرضه عليك وأؤجلك سنة فإن قلت مثله فأنت أشعر العرب كما قيل، وإلا فأنت منتحل كذاب، ثم أنشده :

ألم تسأل الربع الجديد التكلما

حتى بلغ إلى قوله : —

وأبقى لنا مر الحروب ورزأها
سيوفا وأدراعا وجمعا عرمرما
لنا حاضر فعم وباد كأنه
شماريخ رضوى عزة وتكرما
متى ما تردنا من معد عصابة
وغسان نمنع حوضنا أن يهدما (١)

(١) في الأغاني ٨ / ١٨٩ تزرنا وفي ديوانه على اختلاف طبعاته تزنا — بعصبة .

بكل فتى عارى الأشاجع لاحه
قراع الكماة يرشح المسك والدما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما
نسود ذا المال القليل إذا بدت (١)
مروءته فينا وإن كان معدما
وإنا لنقرى الضيف إن جاء طارقا
من الشحم ما أمسى صحيحا مسلما
لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى
وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فأنشد القصيدة وهى نيف وثلاثون بيتا ، وقال له قد أجلتك فى جوابها حولا فانصرف الفرزدق مغضبا يسحب رداءه . وما يدرى أنه طرفة حتى خرج من المسجد . فأقبل على كثير فقال لى قاتل الله الأنصارى ما أفصح لهجته وأوضح حجته وأجود شعره ، فلم نزل فى حديث الأنصارى والفرزدق بقية يومنا . حتى إذا كان من الغد خرجت من منزلى إلى المسجد الذى كنت فيه بالأمس ، فأتى كثير فجلس معى وإنا لنتذاكر الفرزدق ونقول ليت شعرى ما صنع إذ طلع علينا فى حلة أفواف قد أرخى غديرته حتى جلس فى مجلسه بالأمس ثم قال ما فعل الأنصارى. فنلنا منه وشتمناه فقال : قاتله الله ، ما منيت بمثله ، ولا سمعت بمثل شعره . فارقته وأتيت منزلى فأقبلت أصعد وأصوب فى كل فن من الشعر ، فكأنى مفحم لم أقل شعراً قط . حتى إذا نادى المنادى بالفجر رحلت ناقتى وأخذت بزمامها حتى أتيت ريانا (١) وهو جبل بالمدينة ثم ناديت بأعلى صوتى : أخاكم أخاكم ، يعنى شيطانه فجاش صدرى كما يجيش المرجل فعقلت ناقتى وتوسدت ذراعها فما قمت حتى قلت مائة بيت من الشعر وثلاثة عشر بيتا فبينما هو ينشد إذ طلع الأنصارى حتى إذا انتهى إلينا سلم علينا إلخ الخبر (٢) .

وأذكر لك أيضاً خبراً شبيهاً بهذا عن جرير — قال صاحب الأغانى (٣) : أخبرنى على بن سليمان قال : حدثنا أبو سعيد السكرى عن الرياشى عن الأصمعى قال وذكر المغيرة ابن حبناء قال حدثنى أبى عن أبيه قال كان راعى الإبل يقضى للفرزدق على جرير ويفضله وكان راعى الإبل قد ضخم أمره وكان من شعراء الناس . فلما أكثر من ذلك خرج جرير إلى رجال من قومه فقال هلا تعجبون لهذا الرجل الذى يقضى للفرزدق على وهو

---

(١) فى الأغانى ١٩ / ٢٨ يسود ذا المال .

(١) هكذا وما أكثر ما يصرف غير المصروف

(٢) الأغانى ١٩ / ٣٨ – ٣٩ وفيه قاتل الله الأنصار ما أفصح لهجتهم . . ولا يستقيم للمعنى بذلك إنما الصواب للفرد .

(٣) يجوز أنه نعت مقطوع وإلا فالوجه صرفه .

يهجو قومه وأنا أمدحهم . قال جرير فضربت رأيي فيه . ثم خرج جرير ذات يوم يمشي ولم يركب دابته وقال والله ما يسرني أن أعلم أحداً . وكان لراعي الإبل والفرزدق وجلسائهما حلقة بأعلى المربد بالبصرة يجلسون فيها . فخرجت أتعرض له لألقاه من حيال حيث كنت أراه يمر إذا انصرف من مجلسه . وما يسرني أن يعلم أحد ، حتى إذا هو قد مر على بغلة وابنه جندل يسير وراءه على مهر له أحوى محذوف الذنب وإنسان يمشي معه يسأله عن بعض السبب . فلما استقبلته قلت مرحباً بك يا أبا جندل . وضربت بشمالي على معرفة بغلته . ثم قلت يا أبا جندل : — إن قولك يستمع ، وإنك تفضل الفرزدق على تفضيلا قبيحاً ، وأنا أمدح قومك وهو يهجوهم ، وهو ابن عمي ويكفيك من ذلك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ولا تحتمل مني ولامنه لائمة . قال فبينا أنا وهو كذلك واقف وما ورد على بذلك شيئاً حتى لحق ابنه جندل ، فرفع كرمانية معه فضرب بها عجز بغلته ، ثم قال ، لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً أو ترجو منه خيراً . وضرب البغلة ضربة فرمحتني رمحة وقعت منها قلنسوتي فوالله لو يعرج على الراعي لقلت سفيه غوى يعني جندلا ابنه ولكنه والله ما عاج على فأخذت قلنسوتي فمسحتها ثم أعدتها على رأسي ثم قلت : —

أجندل ما تقول بنو نمـــير
إذا ما ... في ... أبيك غابا[1]

فسمعت الراعي قال لابنه : — أما والله لقد طرحت قلنسوته طرحة مشئومة . قال جرير : لا والله ما القلنسوة بأغيظ أمره إلى لو كان عاج على . فانصرف جرير غضبان . حتى إذا صلى العشاء بمنزله في علية له ، قال : ارفعوا لي باطيه من نبيذ وأسرجوا لي . فأسرجوا له وأتوه بباطية من نبيذ . فجعل يهمهم . فسمعت صوته عجوز في الدار ، فطلعت الدرجة ، حتى نظرت إليه فإذا هو يحبو على الفراش عريان[2] لما هو فيه . فانحدرت فقالت ضيفكم مجنون رأيت منه كذا وكذا ، فقالوا لها : اذهبي لطيتك نحن أعلم به وبما يمارس . فما زال كذلك حتى كان السحر ، ثم إذا هو يكبر ، قد قالها ثمانين بيتاً في بني نمير . فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا

كبر ثم قال : أخزيته ورب الكعبة . ثم أصبح حتى إذا عرف أن الناس قد جلسوا في مجالسهم بالمربد وكان يعرف مجلسه ومجلس الفرزدق دعا بدهن فادهن إلى آخر الخبر .

(١) في مكان النقط كلمتان جاءتا بالأصل يمكن للأديب إدراكهما .

(٢) يجوز أنه نعت مقطوع ، وإلا فالوجه صرفه

والخبر الأول فيه مصداق بعض ماذكرناه لك آنفا من أن الشاعر قد يعمد إلى القول فتضيق نفسه ويضطرب فكره ويضجر وتأخذه السآمة ثم يصير إلى ضرب الجنون العصبي ثم يفتح عليه آخر الأمر . واستنجاد الفرزدق بشيطانه نص فى هذا الباب . ثم ما قد ذكرناه بادئ بدء من أنه رام فنون الشعر فأعيت عليه . ولعله إنما حاول ألوانا من الأوزان ، حتى فتح عليه آخر الأمر بالطويل وبالفاء المرفوعة المطلقة . والخبر الثانى فيه مصداق أيضا لبعض ماذكرناه آنفا . وذلك أن الشاعر فتح عليه منذ البدء بمفتاح تعبيره وهو الوافر والباء المفتوحة المطلقة فى قوله :

أجندل ما تقول بنى نمير
إذا ما ... فى ... أبيك غابا

ثم كما ترى عاد إلى منزله ، وجعل يهمهم ويزمزم واعترته حالة الجذب وضاقت نفسه حتى تعرى من ثيابه ثم اتلأب به منهاج القول .

واتفق الشاعران فى كلتا الحالين فى طلب الخلوة . والحق أن حال الجذب نفسها تضطر الشاعر إلى الخلوة والتأبد المطلق . ومن هنا زعم الناس له مصاحبة الرئى . وليس السر فى طلب الخلوة هو طلب التروى وحده فمن الناس من يروض نفسه على التروى بحضور غيره . من ذلك ما يفعله كثير من المؤلفين.

ولا يخالجنى أدنى شك فى أن أبا العلاء المعرى قد كان يدير شعره فى نفسه مرات قبل أن يمليه . وقد كانت خلوات ذلك الرجل الفذ أكثر من لقائه الناس ، كما أنه قد كان بينهم بمنزلة الملك إذا أراد أن ينصرف الناس عنه انصرفوا .

وإنما السر فى طلب الخلوة هو الحرص على طرح الشواغل والانصراف الكامل إلى النفس واستخراج مخزونها المغيب الذى يضن به صاحبه عن كل مشاهد .

وأكاد أزعم أنه ليس من عمل للإلهام فيه نصيب ، إلا وصاحبه يؤثر العزلة التامة ومن أجل ذلك شغف الأنبياء بالخلاء قبيل دعواتهم . وللكاتب المؤرخ الانجليزى توينبى فصل جيد فى كتابه «دراسة فى التاريخ» أفرده لأهمية العزلة بالنسبة للإنتاج جميعه . هذا والشاعر العربى ، لشدة ما يلم به من حالة الجذب ، من أشد الخلق حاجة إلى العزلة وحاجته إليها أشد من حاجة الناثر وما يجراه ، ولا شك أن الناثر ومن يجراه قد يكفيهم أن يتيسر لهم جو الروية ولو فى غير عزلة تامة . والذى يروى عن أحمد شوقى من أنه كان ينظم فى كل مكان مما يقوى عندنا أنه كان يندفع إلى الصناعة كثيراً ، على قوة ملكته

---

(١) الشعر والشعراء طبعة ليدن ص ١٩ .

وإجادته التى لا تنكر وأحسب أيضاً أن كثيراً مما نظمه صاحب اللزوميات ليوفى به شروط ما التزم به أو يتم به بعض الأبواب، لم يحل إلى نفسه كثيراً ، كسائر ما فى الظائيات والشينيات وهلم جرا .

ويعجبنى قول ابن قتيبة فى الشعر والشعراء .

والشعر أوقات يسرع فيها أتيه ، ويسمح فيها أبيه . منها أول الليل قبل تغشى الكرى . ومنها صدر النهار قبل الغداء . ومنها يوم شرب الدواء . ومنها الخلوة فى الحبس والمسير [1]

والذى يعجبنى من قول ابن قتيبة هذا ، أنه بفكره الناقد الثاقب قد تنبه إلى أن قرض الشعر لا يتأتى إلا مع العزلة ، ولما كان هو فى ذات نفسه ليس بشاعر ، فإنه افترض أن الشاعر إنما تتأتى له العزلة فى الأوقات التى تتأتى فيها لسائر الناس من أهل زمانه ، كأول الليل ، وصدر النهار إلى آخر ما قاله . . . .

هذا وقد خفى عن ابن قتيبة أن الشاعر لا ينتظر أن تتأتى له ظروف العزلة التى تتأتى لغيره من سائر الناس ، ولكنه يصنع العزلة لنفسه صنعا عندما يحس بدافع الشعر . وذلك بأن ينفر من الناس كما ينفر الوحش أو يختفى كما يختفى ذو الجريرة . ولقد يكره حينئذ مقدم الزور الكريم وإيناس الصاحب الحميم . والشاعر فى هذه الحال أحوج ما يكون لمن يعطف على حاله ، ويعينه بالتخلية على أن يعتزل كما يشاء ، ويهيىء له فى عزلته ما عسى أن يرغب إليه من حاجة الطعام والشراب . وقصة جرير التى مرت آنفا نص فى هذا الذى نراه ، إذا قد أمر بنبيذ يعد له ، وسراج يوقد ثم اعتزل وتعرى وجعل يهمهم كمن أصابه مس من الجن حتى فزعت العجوز من أمره .

ولا ينبغى بعد أن يصرفنا درك هذه الحقيقة عن أن نعترف لابن قتيبة بما وفق إليه من دقة الحدس ونفاذ البصيرة . وأنى لأعجب من بعض نقاد العصر إذ يتهمون ذلك العالم النافذ القدير بالسطحية وما إليها . ولعمرى لو فطنوا إلى أن الرجل كان رأس مدرسة وكان يقرن بالجاحظ فى أهل عصره ، لتريثوا شيئا قبل أن يتبرعوا إلى الحط من قدره . وأرى حقا على أن أذكر فى هذا الموضع أن مقدمته للشعر والشعراء من أجود ما كتب فى النقد فى العربية ، وما فتئنا ـ تلامذة الأدب ـ عالة على كثير من فصولها المفعمة وهذا أوان العود إلى ما كنا فيه .

الخاتمـــة

بقيت من هذا البحث فصول قد تخرج بنا إلى الإطالة فى مقام هذه الكلمة ، وقد تناولنا فيها منزلة الشاعر ثم ختمناها بما نرى من مذهب الوحدة بين الوزن والقافية والروح والأغراض فى القصيدة ونأمل أن نوافق بها فى غير هذا المقام .

الدكتور عبد الله الطيب

(١) الشعر والشعراء طبعة ليدن ص ١٩ .

عظمة نبي الاســـــــلام

للأستاذ عبد المنعم خفاجي

١ ـ وصف الله عز وجل في كتابه الحكيم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بعظمة الخلق ، فقال تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ،فهل يصح لنا أن نصف الرسول الأكرم بالعظمة؟ العظمة بمعناها المتبادر الذي هو التميز والرفعة وعلو المنزلة ، أو بمعناها المقصود ، الذي هو ذيوع الشهرة ، وخلود الذكر ، وهو لازم للمعنى الأول ومقصود منه . . لا بمعنى الكبرياء والصلف فإنه ليس بمراد لي ولا لأحد في مثل هذا المقام .

هل يجوز ذلك ، كما أجاز بعض المعاصرين وصفه بالعبقرية ؟ في اعتقادي ـ وإن كان وصفه صلى الله عليه وسلم بالنبوة هو الأتم والأكمل والأليق ، لأنه وصف يبهن حقيقة شخصيته صلى الله عليه وسلم ومنزلته عند الله ـ أن ذلك جائز ، وأنه ليس انتقاصاً لمكانته ودرجته عند الله عز وجل وليس محاولة لإدراج هذا العلم الأرفع في عداد الناس ولا لنعته بنعوتهم ووصفه بأوصافهم.. فهو المفرد في تاريخ العرب ، والفذ في حياة الإنسانية ، والصورة الكاملة التي لم تتجل واضحة في أحد سواه . . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما بقيت الأرض والسماء .

٢ ـ وما هي موازين عظمة نبي الإسلام إذن ؟ إن للعظمة قيما يحكم بها على ضوئها ، وأسساً تنبنى عليها ؛ وقد يختلف الناس في هذه القيم وفي تلك الأسس ؛ ولكننا سوف نحاول هنــا أن نلم بجميع موازين العظمة والشخصية ، لنزن على ضوئها مدى عظمة نبي الإسلام ونقدرها قدرها الصحيح الذي تجتمع عليه كل الآراء .

ومن البدهي أن الإنسانية كلها ، مفكريها وروادها وقادتها وسادتها والحاكمين منها والمحكومين على حد سواء قد اصطلحت في جميع العصور والأجيال على أن نبي الإسلام صلوات الله عليه كان عظيما حقاً في كل شيء وفي كل جانب من جوانب حياته، وأنني حين أكتب في ذلك لا آتي بجديد ، ولا أقرر حقيقة كانت غائبة عن أذهان الناس . .

ومع ذلك فإني أقول : إن العظمة تقاس بقيمة واحدة من القيم ، أو بمجموعة منها . وسوف أدرس تلك القيم واحدة واحدة ، وأبين كيف أنها كلها متفردة توجب وصف محمد صلى الله عليه وسلم بالعظمة ، بل بأنه أعظم الناس كافة ، وأعظم العظماء منهم خاصة . . صلى الله عليه وعلى آله وصحابته أجمعين .

٣ ـ وأول هذه القيم التي نحكم على ضوئها بعظمة نبي الإسلام .

القيمة الذاتية :

فالإنسان قد يوصف بالعظمة لأنه رجل ناجح في الحياة وصل في خضمها إلى كل ما يريد لنفسه من نجاح ، نجاح في الجاه أو المال أو الشخصية أو العمل . وعلى ضوء هذه القيمة نستطيع أن نقول إنه صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس نجاحاً في الحياة : يتيم فقير لا حول له ولا طول قد أصبح في عمره القصير صاحب دعوة ورسالة ، ورائد أمـــة ، بل رائد الإنسانية ، وصار باني دولة فتية كان بيدها زمام الأمور في العالم أجيالاً طوالاً ، كما صار باني حضارة وفكر ، لم يستطع أحد غيره أن يبنيهما على مر العصور ثم صار موضع الأمل والرجاء في مجتمعه وموضع الذكر والخلود في التاريخ ودوى اسمه في الشرق والغرب ، بل كان اسمه حين يذكر تفزع منه الملوك والأباطرة والقياصرة . . أليس ذلك كله نجاحاً ، بل أعظم من النجاح ، وأكبر من هذا الوصف المحدود . . وإذاً فمحمد عظيم لأنه كان إنساناً ناجحاً في كل أطوار حياته ، لم يتخل عنه النجاح لحظة واحدة ، حتى في فترات بؤسه وفقره ويتمه .

أكان ذلك حظاً وجداً ، أم كان عن كفاح وجلاد في الحياة ؟ هذا شيء آخر ، لا أحب أن أتحدث فيه الآن .

وثاني هذه القيم والموازين : هي القيمة المثالية ، فالإنسان لا يعد ناجحاً في الحياة لمجرد أنه نجح في تحقيق أمنياته في حياته ، ونال منها كل ما يريد ، ولكنه يعد ناجحاً لأنه يمثل قيمة مثالية ، قيمة تنطق عن مثاليات الحياة ومبادئها وسلوكها وأخلاقها . قيمة مستمدة من مبدئه الذي سار عليه طيلة حياته فلم ينحرف عنه ، ومن خلقه الذي انطوت عليه نفسه وشخصيته ، فهو ناجح لأنه سار على ضوئه فلم يتزعزع إيمانه به ولا وثوقه عنده في نفسه . ومحمد صلوات الله عليه من ذلك الجانب عظيم ، وأعظم من كل عظيم ، فقد مثل في نفسه وسلوكه وعمله وخلقه كل مثاليات الحياة الطيبة الرفيعة ، من وفاء وصدق وأداء للواجب والحقوق ، ومن رحمة وإنسانية وشفقة وبر وتواضع . وما أصدق ما وصفته خديجة زوجه الطاهرة البرة الأمينة بقولها : « والله لن يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

وكم من أناس أصبحنا اليوم نعدهم ناجحين في الحياة لمجرد أنهم جمعوا بعض المال والثراء ، أو وصلوا إلى بعض المناصب وبعض الجاه ، وإن كانوا في صعودهم إلى ما صعدوا إليه يمثلون الانتهازية حيناً أو الفساد الانحلال حيناً آخر ، أو الجشع

وحب النهب والغش وأكل أموال الناس بالباطل حينا ثالثا . . . ولو كانت هناك قيم مرعية لطردتهم حتى من ساحة النجاح طردا ، وأبعدتهم عن ميدان ادعاء العظمة إبعاداً شديداً .

إن نجاح محمد صلوات الله عليه لم يكن مبنيا على شيء من ذلك كله ، فهو لم يكن أنانيا ولا انتهازيا ولا منافقا ، ولم يكن مواربا ولا مرائيا ولا مخادعا ، ولم يكن سلبيا فى حياته ولا ممن يحرصون على الوقوف فى الموضع الوسط إرضاء لكل الأطراف . . بل قد نزهه الله عز وجل عن كل ذلك واصطفاه على العالمين . كان نجاحه صلى الله عليه وسلم فى حياته مقرونا بالتزامه المثل والمبادئ ولأشرف قواعد السلوك الإنسانى الرفيع .

وثالث هذه القيم : هى القيمة الروحية وهى قيمة لها خطرها . فالمصلح الدينى عظيم لأنه يمثل قيمة روحية خاصة ، والنبي عظيم ، والرسول عظيم ، لأنهما يمثلان قمة القيم الروحية .

ولقد نزلت آخر الرسالات على محمد ابن عبد الله ، وشرفه الله بها ، فأدى الرسالة وبلغ الأمانة ، ودعا الإنسانية كلها إلى الإيمان بدعوته ، فآمن بها الكثير من الأمم والشعوب والجماعات والأفراد . . ومن هنا كان نزول الرسالة عليه صلى الله عليه وسلم ، أعلى المقاييس لوزن عظمة نبي الإسلام عليه السلام ، فكيف به وقد كان خاتم الرسل والأنبياء ، وكانت رسالته خاتمة الرسالات وكان هو إمام الأنبياء والمرسلين ، والذين اجتمعوا على التبشير به والدعوة إلى بعض أصول دعوته ؟ وفى الحديث الشريف ما معناه : أعطيت خمسا لم يعطهن نبي من قبلى : جعلت لى الأرض مسجدا وترابها طهورا ، ونصرت بالرعب ، وأعطيت الشفاعة ، وختمت بى الرسالات .

ورسالته صلى الله عليه وسلم باقية إلى قيام الساعة صالحة لكل زمان ومكان .

إن هذه القيمة الروحية هى أسمى القيم ، وأرفع الموازين ، وأكمل الأسس لوزن عظمة نبى الإسلام ؛ ويكفى أن نقول عنه إنه نبي ورسول فحسب ، فكيف بك إذا أضفت إلى ذلك أن شريعته خاتمة الشرائع ، وأنها باقية ما بقيت الحياة ، وأنه نزل عليه الذكر الحكيم كتاباً من الله هاديا ومنيراً وداعياً إلى الله وإلى كل قيم الحياة ومثالياتها ومبادئها الشريفة؟

ورابع هذه القيم : هى القيمة الاجتماعية ؛ إذ تأخذ من منزلة الرجل فى مجتمعه ، والتفاف الناس حوله ، وثنائهم عليه ، وحبهم له ، دليلا على عظمته . .

وقد كانت منزلة محمد صلى الله عليه وسلم

فى المجتمع المكى وفى المجتمع المدنى وفى المجتمع العربى والإسلامى ، بل الإنسانى ، منزلة رفيعة لم يدركها أحد ، ولم ينلها إنسان من قبل ولا من بعد . . وكان سعى الرسول لخير المجتمع سعياً دائماً عظيماً تتحدث به كتب السيرة النبوية الشريفة .. كان يعطف على المرأة والخادم والعامل والفقير والمريض ، كان يقيم المجتمع على دعائم متينة من الحب والإخاء والمساواة والتكافل الاجتماعى والرحمة والبر . حرر الأرقاء ، أعلى منزلة المستضعفين ، لم يجعل للحاكم فضلا على المحكوم ولا للقوى فضلا على الضعيف .. إلى غير ذلك من المبادئ التى لا يتسع الوقت لتفصيل الكلام فيها .

وخامس هذه القيم : هى القيمة القومية التى تأخذ من زعامة الرجل فى قومه ودعوته لهم إلى قومية واحدة وإلى وحدة تجمع جميع أجناسهم وأصولهم وشعوبهم دليلا على عظمته . . وبهذا المقياس نستطيع أن نقول إن نبى الإسلام كان عظيما حقاً فقد جمع العرب على كلمة واحدة ، ووحد بينهم وألف بين قلوبهم ، وأعلى قوميتهم ورفعها مكاناً عالياً ، وساوى بينها وبين القوميات الأخرى فى الحقوق والالتزامات ، فلم يكن داعية عنصرية ، ولا ممن يفضلون جنساً على جنس ، ولا لوناً على لون ، ثم جمع المسلمين جميعاً فى قومية إسلامية واحدة ، ووحد بينهم فى الشرائع والقوانين والالتزامات والأهداف ، فهو رائد لقومية المسلمين .. وهو بذلك أكبر من عظيم وأكثر من رائد وداعية ، صلى الله عليه وسلم .

وسادس هذه القيم : هى القيمة الفكرية التى تبنى عظمة الرجل على فكره وآرائه ومبادئه التى يمثلها ويدعو إليها .. وتفكير الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وإن كان مستمداً من رسالة السماء فهو يمثل فى شتى وجوهه الحرية والشورى والمساواة ، ويمثل الحق والعدل والإخاء ، ويحارب الطغيان والفساد والانحلال ، وينبنى على الدعوة إلى حمل المسئولية ونشر السلم والعمران والحضارة فى الأرض ، ويقوم على عمد راسخة من الوازع الدينى فى النفس ومن الضمير الحر الدقيق الإحساس بكل شىء ومن تمثل الجزاء الإلهى والخوف من العقاب الأخروى ، وهو فكر حرر الحياة من نظام الرق والإقطاع والوحشية والجاهلية الأولى ، ونقلها إلى عهود جديدة من المعرفة والحضارة والأخوة فى الله وفى الدين وفى المسئولية .

وسابع هذه القيم : هى القيمة الإنسانية ، التى تأخذ من حياة الرجل - لا فى مجتمعه وبين قومه فحسب - بل فى صميم الإنسانية كلها ، ميزانا لوزن عظمة الإنسان . .

ولقد كان محمد صلى الله عليه وسلم الأب الروحى للإنسانية كلها ، اتسع تفكيره لكل

الأمم والشعوب والعناصر والأجناس والألوان ، دعا إلى وحدة العالم تحت شعار شريعة مطهرة منزلة من السماء ، أقام حدودا للعدالة دخل فيها كل صاحب رأى وصاحب دين وكل ذى عنصر أو جنس لا يمت إلى العرب ولا إلى العروبة بسبب .

كان قلبه الكبير يحزن للإنسانية وهى تهوى فى هوة سحيقة من الشرك والوثنية . فيدعوها إلى توحيد الله وعبادته وطاعته وحده ، وكان قلبه يخفق كلما رأى دليلا من دلائل الخير فى الناس والإنسانية .

إن نبى الإسلام بحق يعد الزعيم الأكبر والإمام الأعظم للبشرية كافة . دينه لكل الناس . الكتاب المنزل عليه موجه إليهم جميعا . وما أكثر ما صدرت آياته وسوره بـ « يا أيها الناس » فتشريعات الإسلام ونظمه وقوانينه تستهدف الخير للناس كافة ، وتعمل على إقامة مجتمع إنسانى حر كريم تشمله الرفاهية والسعادة والتعاون بين الناس جميعا وتظلله الحرية والمساواة والإخاء بظلها الوارف الأمين .

٤ — هذه هى موازين العظمة ، فانظر بالله كيف تنطبق كلها على هذا الرسول العربى الأمين على هذا المبعوث من الله رحمة للعالمين ، على من نزل عليه القرآن هدى ورشدا و نورا لكل الناس أجمعين .

وقد تكون هناك موازين أخرى لوزن عظمة الإنسان ومدى قوة شخصيته فى الحياة ، وبأى ميزان نزن محمدا نبى العرب ورسول الإسلام ، نخرج بنتيجة واحدة هى عظمة هذا النبى الرسول، عظمة خارقة للعادة خارجة على المألوف ، عظمة لم يدركها أحد من رواد العالم ، ومفكرى الإنسانية ورسلها البررة الأوفياء .

اللهم إلا ميزانا واحدا ، هو ميزان الشرك والضلال والإلحاد والمادية الكافرة بكل دين وبكل رسول وبكل كتاب ، فإنه لا شأن لنا مع الذين يحاولون رد الإنسانية إلى حياة الغاب ونظام الجاهلية الأولى ، ممن لا يعترفون بحقيقة ، ولا يؤمنون بأية قيم روحية أو غير روحية .

إن محمد بن عبد الله الرسول العربى ، خاتم الرسل ، وآخر النبيين ، قد كان فى كل أطوار حياته ، وفى جميع شمائله وأخلاقه وصفاته ، عظيما ، انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن ترك دولة فتية ، ألقى القدر فى يديها زمام العالم لعدة أجيال ، وأقامها حارسة الحضارة والحرية ، واعتز بها التاريخ رمزاً لكرامة الإنسان وإرادته ولمثاليات الحياة الكريمة وروحيتها الصافية الصادقة .

فما أعظمه نبيا ، وما أرفعه رسولا من عند الله ، مبشرا بالحق ، وداعيا إلى الله وإلى صراط مستقيم .

محمد عبد المنعم خفاجى

دين الخلود

للأستاذ محمد أمين هلال

يقوم الإسلام على أساس من العقل والمنطق والتفكير السليم، وكما يدعو دستوره الأعظم فى كثير من آياته وبيناته إلى التفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء. يدعو كذلك إلى تحكيم الكتاب فى أهواء النفوس ليكفكف منها وفى مزالق الآراء ليهدى إلى صوابها وفى نواجم الفتن ليجلى غماءها وفى معترك الشهوات ليكسر شرتها، وفى مفارق سبل الجاه ليدل إلى أقومها، وفى أسواق المصالح والمفاسد ليميز بين الحلال والحرام، وفى مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها، وفى شعب الأحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب.

وهذا من أسرار هذا الدين الذى أرسى الله قواعده يوم أرسى الجبال، وأمسكه يوم أمسك السموات والأرض أن تزولا.

وكان من مدلول الإسلام ومفهوم الجهاد الترجمة عن شىء واحد هو الإخلاص للدعوة والبذل فى سبيلها وعدم التلبث فى إشعال نورها، والاندفاع قدما فى إتمام ظهورها.

والمتتبع لتاريخ هذه الدعوة منذ أوحى الله لنبيه «وأنذر عشيرتك الأقربين»، «واصدع بما تؤمر» إلى اليوم، يرى أن الإسلام لم ينهنه من عزمته أو يفل من سطوته طغيان يتعصب، أو عدو يترقب، بل ساح حملته فى آفاق الأرض يعرضون على الناس آياته، ويتحدون المعاندين بآدابه وعظاته، وتفرس ذوو الألباب فى ملامح هذا الدين وفحصوا عناصره، فلما وعت قلوبهم ما سمعت، وبرئت عقولهم مما ورثت، جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا.

ولم يكن من العجب أن نرى كثيراً من فلاسفة أوربا المتعصبين يعترف لهذا الدين المحمدى بأن فيه صلاح الدين والدنيا فيقول الفيلسوف الانجليزى «كارلايل» فى كتابه الأبطال وديانة الأبطال (أى دليل تريد على صحة من يدعى لك أنه بناء، أقوى من أن يبنى لك بيتا كبيراً يسع الملايين من المتانة بحيث يبقى مئات السنين، كذلك أى دليل تبغى على صدق محمد فيما يدعيه من النبوة أكبر من أن يأتى الناس بدين يهديهم به ويدفعهم فى طريق الحياة الفاضلة وأن يبقوا محافظين عليه ومتحمسين له أكثر من اثنى عشر قرنا.

ألا فليعلم الناس أن مثل الباطل كمثل ورق البنك الزائف: يمر من يد ويدين ثم يضبط

ويعرف أنه زائف فلا يرفع به أحد رأساً . ولكن الإسلام هدى العقول كل هذه الأجيال وأهله أشد اعتداداً وتمسكا به من أى أمة بدينها فى الأرض) . . هذا إلى شهادات « دودبانوس » الوزير الغربى (إن الإسلام مكمل للإنسانية لا غموض فيه وأنه يقرر الوحدانية فسلم من التناقض والمعارضة العقلية . .) وجوستاف لوبون (من أن التعاليم الأخلاقية التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية والمبادئ الخلقية الكريمة) . وبرناردشو (بأنه دين ذو حيوية مدهشة وأنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس ، ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا غداً . وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم ، وإنى أعتقد أنه لو تولى رجل مثل محمد حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة الذى هو فى أشد الحاجة إليهما) .

ولسنا بحاجة بعد إلى الاسترسال فى نقل شهادات المنصفين من الغربيين وهى عدد كثر فاضت بها المجلات والصحف وإنما نقلنا هذه اللمحات ليطمئن بعض المتشائمين بأن ديناً وعد الله بأن يتم نوره على العالم كله ولو كره المشركون هو وعد حق ولن يخلف الله وعده ولكن كثيراً من الناس عن آياته لغافلون . وكان من آيات هذا الوعد الحق أن مرت هذه الحقب الطويلة تحمل فى طياتها هذه الكوارث والزوابع يزجيها غل دفين وتوحش مريع ، ورجفت بلاد المسلمين الراجفة تتبعها الرادفة من عنف هذه الويلات وزلزلت الأرض زلزالها . ثم ركدت العاصفة واستقرت الأرض وتبين أن الرذاذ لا يقوض شامخ البناء وأن سحب الباطل تبددت تحت حرارة الشمس التى جعلها الله هداية للعالمين .

١ — قرأت فى عددى شعبان ورمضان الماضيين كلمتين لأخوين فاضلين عما يوقعه المستعمرون الفرنسيون بالمسلمين فى جمهورية « تشاد » الإفريقية . وعن هذه الحرية التى ينفذ من بعض نوافذها المتسكعون للنيل من الإسلام وتعاليمه ، فأحببت أن أستعرض بعض لمحات خاطفات فى تاريخ الإسلام حيال خصومه ، أولئك الذين نكصوا على أعقابهم وقطع دابرهم وكانوا مثلا وسلفاً للآخرين .

٢ — فى القرن الثالث الهجرى فى أواخر دولة الخليفة العباسى « المعتمد على الله » ظهر رجل بسواد الكوفة يبطن الكفر ويتظاهر بالإسلام واستهوى بعض العوام بما كان يظهره من النفاق والصلاح وانتشر مذهبه وعاث فى الأرض فساداً وبلغ من جرأة أنصاره أن استغلوا ضعف خليفة بغداد

ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد فأوقعوا بالمصلين ، وأغاروا على قوافل الحجاج الآتية من مكة إلى خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئاً عظيما وفى سنة ٢١١ سار أبو طاهر القرمطى إلى جهة البصرة فدخلها وقتل حراس حاميتها ووضع السيف فى أهلها وتوجه إلى طريق الحجاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحجاج ، ثم أوقع بباقى الحجاج وترك من سلم من الموت فى الصحراء فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر الشمس . وفى سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر هذا ماهو أشنع وأدهى . ذلك أنه صار بجيشه إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام وفى الكعبة وقلعوا الحجر الأسود ونقلوه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة فى جماعة من الأشراف فقتلوهم أجمعين وقلعوا باب البيت وطرحوا القتلى فى بئر زمزم ودفنوا الباقين فى المسجد الحرام حيث دفنوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة .

٣ — فى القرن الخامس الهجرى اتسعت الدعوة الباطنية الإلحادية وكان من دعاتها أحمد ابن عبد الملك بن عطاش بن الصباح وقويت شوكة هذه الدعوة واستعانت بالنفاق والغدر فكان ابن عطاش هذا يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتلوا من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيراً لا يمكن إحصاؤهم ، وهم مع دعواهم الإسلام ، يدينون لإمام لهم يقبلون قوله إذ أباح لهم ما حظره الشرع أو حظر عليهم ما أباح الشرع ، ويبطلون ظواهر القرآن ويؤولون كلماته تأويلا أدخل فى باب السخرية وعمل الشيطان ، فصرفوا الألفاظ عن ظواهرها إلى معان أخر غير مفهومة إلا لهم بادعائهم ، حتى إنهم تركوا أحكام الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج زاعمين أن لها معانى غير ما عمل به رسول الله وجمع عليه المسلمون ، وبهذا توصلوا إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها عن معانيها وتنزيلها على معان أخر على رأيهم الفاسد : فطغيان فرعون : إشارة إلى القلب وإنه هو الطاغى على كل إنسان . واخلع نعليك : أى نفسك ، وألق عصاك . كل ما تعتمده مما سوى الله فينبغى أن يكفيه ، ويا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم : المراد تخليصه من يد الظالم من غير أن يكون هناك نار ولا حطب ، وربنا لا تحملنا مالا طاقة لنا به ، إنه الحب والعشق : وهكذا حتى أرسل الله عليهم السلطان محمد السلجوقى وأمراءه فأذهب ريحهم واستأصل عقيدتهم .

٤ — فى القرن الخامس الهجرى شنت دول أوربا حروبا صليبية على المسلمين اشترك فيها كبار ملوك أوربا واقتحموا بيت المقدس وكتب قائدهم إلى « البابا » مهنئاً مفتخراً بأن خيل المسيحيين كانت تخوض خوضاً فى دماء المسلمين ، وظلت هذه الحروب نحو قرنين بين أخذ ورد ، حتى بعث الله صلاح الدين والغطارفة من المسلمين فطهروا البلاد من أرجاس المعتدين وأعادوها إلى حظيرة العروبة والإسلام .

٥ — وفى القرن السابع الهجرى خرج التتار من أطراف الصين بجيوش لا يعلم عددها وقصدوا بلاد تركستان وسمرقند وبخارى وخراسان والعراق وسواها فقتلوا العلماء والصلحاء والخواص والعوام والنساء والأطفال وشقوا بطون الحوامل وأحرقوا المساجد والمصاحف وفعلوا أشياء لم يسمع بمثلها ، قال عنها ابن الأثير فى كتابه الكامل (تالله لا أشك أن من يجىء بعدنا إذا بعد العهد ينكر هذه الحوادث ويستبعدها ، والحق بيده ، فمن استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا بحق ، وكل من جمع التاريخ فى زماننا هذا وكل من فيه يعلم هذه الحوادث ، استوى فى معرفتها العالم والجاهل لشهرتها ، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحوطهم فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم) . ثم ما لبث هؤلاء المخربون أن تبلبل أمرهم وذهب ريحهم .

٦ — وجاء العصر الحديث والعزم القديم كامن بين الجوانح المطوية على البغضاء والتعصب ، وكانت ظروف الهجوم مواتية لضرب الإسلام فى صميمه وتمزيق أمته الكبرى شعوبا وقبائل ثم توزيعها أسلابا فاترة مفكوكة ، وحملوا على دولة الخلافة يومئذ وسموها الرجل المريض ، فقطعوا أوصالها وشجعوا رعاياها المسيحيين بالثورة عليها وانتزعت فرنسا مثلا الجزائر وتونس وإيطاليا : ليبيا وأغرت دول البلقان بمهاجمتها ، ولما خشى « بوانكاريه » رئيس جمهورية فرنسا أن تتغلب الدولة على هذه الدويلات صرح بأن أوربا لا تسمح بأى تغيير فى حدود البلقان ، وحين رأى أن ريح النصر اتجه إلى هذه الدويلات أعلن أنه لا يجوز أن يحرم المنتصر من ثمار انتصاره وبهذا انفصلت ست ولايات من جسم الدولة وجاءت الحرب العظمى ودخل « اللنبى » بيت المقدس مدعيا بأنه بهذا انتهت الحروب الصليبية) .

٧ — تلك أحداث وأهوال أشرنا إلى بعضها مسرعين إذا حلت بأية أمة لقضت عليها ، غير أن الإسلام بحيويته وكونه من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، لم تزده هذه النوائب إلا وضاءة ونورا وكان فى هذه الدياجير كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم .

فكيف يقاس عمل فرنسا فى « تشاد » من اضطهاد اللغة العربية وإغلاق الصحف

وتعطيل المساجد والعمل على أن يتحلل المسلم من دينه ومساعدة التبشير الكاثوليكي ، بما كان يعمله الغرب إبان الحروب الصليبية وبما عملته حملة لويس التاسع فى دمياط وشمال الدلتا وجنوب الشام .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن فرنسا هذه وقد فصلت الدين عن الدولة وأغلقت بعض الكنائس فى بلادها وطاردت رجال دينها إبان ثورتها وبعد ثورتها ، فرنسا هذه كانت — نكاية بالمسلمين — تظهر اهتماما كبيراً بالمسيحيين فى الشرق لأنها كانت تطمع فى امتلاك بعض الدول العربية ولا سيما سورية ولبنان ، وكانت تعمل جاهدة لتمهيد السبيل إلى ذلك بشتى الوسائل ، وكانت أهم تلك الوسائل الاستعانة بالإرساليات الدينية والمؤسسات العلمية لبث الدعوة لها بين أهل البلاد ، وبذلك بذلت جهوداً كبيرة بتكثير عدد المؤسسات والإرساليات وكانت تهتم بالكاثوليك لأنها كانت تعلق أكبر آمالها على مساعدة هؤلاء لتحقيق مطامعها . أم كيف يقاس عمل هؤلاء الأغرار المتطوحين فى إنكار بعض الحدود الشرعية والعدول عن ظواهر الآيات القرآنية والتدثر زورا بلبوس « الحرية » بعمل بعض أساتذتهم فى الجامعة وغير الجامعة وآراء الملاحدة الأقدمين من قرامطة وباطنية وبهائية ومن إليهم ممن قطع الله دابرهم وأبطل ما كانوا يصنعون .

لا نغالى حين نؤكد أن الإسلام يحمل فى مطوياته عناصر الخلود والصمود ، ومحال أن يتحلل من هذه العناصر ما دام فى الأرض من يعبدالله ولا يشرك به شيئا ، ومادامت له دعوة شاملة إيجابية إلى العمل المثمر النافع فى المحيط الإنسانى أجمع ، فليجد جد هؤلاء الأغرار الحاقدين فهم حيال هذا الدين :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

إن آية هذا أن كل مسلم فى بلاد العروبة والهندوباكستان وأندونيسيا واليابان وفارس وتركيا وجزر الفليبين وأوربا وإفريقيا وأنحاء آسيا ، كل مسلم فى هذه الامبراطورية الشاسعة المتعددة اللغات والألوان والأهداف والأجناس ، يعتقد فى قرارة نفسه أن له وطنين وطنا إقليميا يذود عنه الأعداء ويفتديه بكل مرتخص وغال ، ووطناً إسلامياً هو جزء من الدولة الإسلامية الكبرى ، يهوى إليه فؤاده ويعتبر من فيه إخوة متحابين متعاونين كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى . . وشاهدنا ثورة الجزائر فى الطرف الأقصى من إفريقية كانت تهتز لها مشاعر المسلمين فى أقاصى المعمورة وتهب لنصرتها الملايين من المؤمنين وكانت اشتراكية عبر عنها أمير البيان « الزيات » بأنها تؤلف القلوب بألفة الروح وتجمع الشعوب بجمعة الحب وتفرض على

الواجد معونة الفاقد وتوجب على الجميع نصرة الواحد ، وتجعل من المسلمين جميعا جسما واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الرسول الأعظم .

وكم مر بالعالم من أمم جر الزمان عليها ثوب نسيان ، حيث وهنت قواها وسقط مستواها وتبعثرت فى ربوع الأرض فلم يبق لها فى خريطة العالم إلا أطلال دارسة كربع مية فى الشعر القديم . موحشا طلل يلوح كأنه خلل . فأين هم السوريان والآشوريون والفنيقيون والحيثيون وسواهم . ومن أمم انقطع بهم الزمن وأدبرت عنهم الحياة وشغلوا الدنيا كثيراً واشتغل بهم الناس قليلا . ثم كانوا رواية لم تتم فصولا ، وكان أهم فصولها ما حرمتهم الأقدار من الأخذ بأسباب الحياة الحقة من علم وعمل ، ومواجهة الدنيا بالأعمال قبل الآمال ، وأخذ العدة للتغلب على العقبات وأخذ الدليل لعدم الحيرة فى المتاهات .

إننا رغم وثوقنا بموعود الله فى حفظ هذا الدين «وإنا له لحافظون» لا نترك ذوى المآرب والغايات يعبثون بمقدساته أو يسخرون من تقاليده وعاداته ، وهذه الحرية التى ظلموها وأطلقوها على الفوضى والعبث والتضليل ، لها قيود وحدود ، فلا تضيق إلى درجة الكبت والإرهاق ولا تتسع إلى درجة الفوضى والتدمير وهى لا تعنى حماية الخطأ وإعطاءه حق الحياة . وأعظم الشعوب فى الديمقراطية لا تجيز لعابث ـ باسم الحرية ـ أن يلهو بنظمها الدستورية أو يتبجح بالطعن فى مقوماتها الحيوية .

إن الإسلام لا يهاب أى هجوم عليه فقد ابتلى فى تاريخه الطويل بمثل ما أشرنا إليه فى هذا المقال ، ثم تكسد المهاجمون على حدوده وارتدوا بين ملب لدعوته ، أو مهادن لسطوته ولم ينكل من حمل أعباء الحياة الحرة الكريمة ولم ينكص عن الإقدام فى ساحة الجهاد والتضحية أو يخشى عواقب المخاطرة بعدد أى سديد وتأن ليس ببعيد ، وقد رأينا فى ثورة الجزائر الإسلامية ، جثو فرنسا على ركبتيها والتسليم بمطالبها ، والفدائية النادرة حيال جيش ضخم منظم مسلح بأحدث أسلحة حلف الأطلنطى مملوء الحقيبة بالدولارات .

والتضحية بمليون من الشهداء ، استعذبوا الكفاح والبذل واثقين بأن فناء فى الحق هو عين البقاء . وبعد : فعلينا ونحن نجتاز مرحلة لا تقل شأنا عن المراحل السالفة ، أن نضع أمام أعيننا عناصر ديننا من الوحدة والتعاون والسلم والمال والقوة ، وننظر إلى الإسلام عقيدة ودعوة وسلطة وحكما ، وأمة تنطوى على مصالح أفراد وجماعات ، جعلها الله خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

محمد أمين هلال

الأستاذ السابق للبلاغة والتفسير بالأزهر

الربيع بين أدبى الشرق والغرب

للدكتور جمال الدين الرمادى

أقبل الربيع طلق الوجه صبوح المحيا عاطر الأنفاس ، مسكى العبير - وللربيع عند الشعراء والأدباء وأهل الفكر والفن منزلة رفيعة - ومقام عظيم ، إذ أنه يوحى لهم ببدائع التعبير والتصوير ، ومنذ أن خلق الله تعالى الكون ، والإنسان يلتذ من الجمال ويطرب من الحسن ، ويبث ذلك فى نفسه سروراً وانشراحا ، يحاول أن يعبر عنه بالكلام والحديث ، أو بالقلم والقرطاس .

والطبيعة فى الربيع تبلغ أوجها وتدرك ذروتها من الفتنة ، ولذلك وجدنا الربيع على رأس الفصول الملهمة لذوى الأحاسيس المرهفة والوجدانات الفياضة ومن يتصفح الآداب العالمية على اختلاف أنواعها ، وتعدد مصادرها يجد الأدب الرومانى أو الأدب اليونانى أو الأدب العربى لا يختلف فى جوهره عن الأدب الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى حيال الربيع ، اللهم إلا بمقدار أحاسيس الكتاب والشعراء ، وأساليب طرقهم لفنون الكلام وضروب البيان .

فالأدب اليونانى القديم حافل بذكر الربيع ومراقى الجمال ، والمروج الخضراء . وقد أضفى الشعراء الإغريق على الطبيعة أدب (الميثيولوجيا) فأنطقوا الطبيعة ، وجعلوا لها عالماً يفيض بالحياة ، ويمتلئ بالحركة .

ولا يخلو شعر الملاحم فى الأدب الإغريقى الذى انتشر فى اليونان منذ القرن الحادى عشر قبل الميلاد إلى القرن الثامن قبل الميلاد من ذكر الربيع فى قالب أسطورى خلاب حتى إذا ازدهر الشعر الغنائى فى اليونان بعد ذلك من القرن الثامن قبل الميلاد إلى القرن الخامس ازدهر معه شعر الطبيعة وشعر الربيع .

وفى الوقت الذى سيطر فيه الشعر التمثيلى بعد هذا التاريخ لم يكن الشعراء ولا الأدباء يغفلون الربيع ويدعون الناس إلى المراح والانشراح ، ويطلبون الانطلاق بين الحقول الناضرة والزهور المتفتحة .

واشتهر الشاعر (تيوقريطس) بنظم طائفة كبيرة من شعره فى الريف حتى اعتبر مؤسس الأدب الريفى فى الأدب القديم - ثم جاء الشاعر الرومانى (فرجيل) فاقتفى أثر تيوقريطس فى أسلوبه الشعرى وألف (أناشيد الرعاة) التى تغنى فيها بالطبيعة وترنم فيها بالجمال .

واسترعى جمال الطبيعة الفيلسوف أفلاطون فاعتقد أن الإنسان عندما يحب الزهرة فى الربيع أو الورد الجميل فهو إنما يحب فى حقيقة الأمر فكرة الجمال التى تتراءى فى زهرة الربيع أو الورد الجميل لا الزهرة بعينها ولا الورد الجميل بذاته . وهذا الرأى هو قوام الحب الأفلاطونى .

وكان « أوفيد » شاعر الحب والجمال عند الرومان . وزخر شعره بأنفاس الربيع وطاقات الزهر ، وأريج العطر - وتعتبر قصيدته « فن الحب » من أجمل القصائد التى صور فيها هذه العاطفة النبيلة ، وتعرض فيها إلى اشتعالها بين الجوانح فى إبان الربيع . وفى قصيدته « تحولات » كان الزمان عنده كله ربيعاً رخى النسيم ، عبق الخطى وكانت النسمات تهب فتزدهر الأزهار من غير بذور - وتنتج من كل زوج بهيج من غير حراث ، ويتألق القمح الغزير على أعواده من غير أن يشق الأرض محراث .

وقد اهتم الشعراء بالربيع اهتماماً كبيراً على اختلاف العصور الأدبية ومن أروع ما كتب فى هذا الباب « أدب الرعاة » الذى يبلغ ذروته فى الربيع كقصيدة بن جنسون Ben Jonson الراعى الحـــزين ورواية (الراعية الوفية) للشاعر جون فلتشر .

غير أن الربيع فى الأدب الانجليزى تفتحت غلائله عند الشعراء الرومانتيكيين مثل كولريدج وجون كيتس ، وبيرون ، وشللى ، فجون كيتس يجول بين المراعى الخضراء ثم يجد فتاة حسناء باهرة الحسن ، قاهرة الفتنة فيأنس إليها ويتعلق بها ويحبها حبا عفيفاً عنيفاً لا رجس فيه ولا فجور ، ويذهب إلى زهرة الياسمين الأبيض الناصع لينظم لها عقداً جميلا يزين به نحرها البلورى كفلق الصباح ، ويسجل هذه المغامرة فى قطعة رائعة أطلق عليها « السيدة جميـــلة الفؤاد » .

وبيرون يهيم بين الغابات يتغنى بآيات الجمال ، وشللى لا يفوته تسجيل حركة الضوء أو هزج الطير أو عصف الريح فى الربيع

ويرى أن الشعر شىء من الإلهام وهو الذى يمنح الخلود للأشياء الجميلة وغير الجميلة وهو ينبجس من النفس كما يفيض الشعاع من الشمس أو العبير من الزهر ، وهو وليد الفطرة ، والطبيعة ، ويخلق وجوداً داخل وجودنا .

وفى قصائد شللى « إلى السحاب » و « إلى العندليب » و « جوليان ومادللو » وغيرها نحس بالطبيعة وقد رفعت عنها الإزار ، ونرى الربيع يسعى إليها فيوشيها بآيات الجمال .

ويعتبر الشاعر « تنسون » من أروع

الشعراء الانجليز الذين تغنوا بالربيع فى شعرهم إذ يعتبر أحد زعماء الفن الليريكى فى الشعر.

وقد حببت صوره الجميلة وذكرياته العذبة بين أحضان انجلتره الشعراء الانجليز فى بلادهم، ولا سيما ريف، لنكشير، الذى قضى فيه الشاعر تنسون أيام صباه وصدر شبابه بين أشجار ومروج مبللة بالندى الناعم كالنوم على حد تعبيره فى إحدى قصائده.

ولم يبرع قصاص انجليزى فى وصف الريف ومجالى الربيع، كما برع القصاص الكبير «توماس هاردى» الذى ألف (تحت الشجرة الخضراء)، (وعمدة كاستربردج) (والعودة إلى البلد) وما إليها. فى قصصه نرى أثر الربيع على شخصياته ونلمس مشاعرهم تتغير وتتبدل كما تتغير الطبيعة وتتبدل، وتأخذ زينتها وتتزين فى الربيع.

وقد كان للمدرسة الرومانسية فى الشعر فى أوربا أثر واضح فى الكتاب والشعراء الرومانسيين، الذين هاموا فى مجالى الطبيعة وجعلوها روحاً تنطق وتتكلم فضلا عن أنها توحى وتلهم، وكانت الصيحة الأولى التى نادى بها زعماء المذهب الرومانسى فى أوربا «عودوا إلى الطبيعة».

فلما بلغ المذهب ذروته فى أوائل القرن التاسع عشر نادى زعماؤه بقولهم: «اتحدوا مع الطبيعة»، وظهر أثر ذلك فى شعر الشعراء ونثر الناثرين، واتسم وصف الربيع عند الرومانتيكيين فى أغلب الأحوال بالأحلام والرؤى والخيالات والأوهام.

ومن أبدع الشعراء فى هذا الميدان الشاعر الفريد دى موسيه، والفونس، لا مارتين وفيكتور هوجو، وكان رائد هؤلاء جميعاً جان جاك روسو عاشق الطبيعة الأول الذى يقول عن نفسه: إنه كان يقضى أوقاته فى السير على غير هدى بين المروج والغابات والجبال.

أما الربيع فى أدبنا العربى فلا يقل أثره عن الآداب الأوربية، ويعتبر الشاعر البحترى من أمتع الشعراء العرب فى وصف الربيع، وكان يضفى على أوصافه حلاوة الجرس وعذوبة الإيقاع ومن أروع قصائده تلك التى يقول فيها:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى
أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد النـــدى فكأنه
يبث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه
عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى العيون بشاشة
وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته
يجىء بأنفاس الأحبة نعما

أما الشاعر أبو تمام فقد كانت له فلسفة خاصة فى فنه وهى الإتيان بالأوصاف الغريبة التى لم تجر على ألسنة غيره من الشعراء ، وجاءت إليه هذه الفلسفة من قراءاته المتصلة وثقافته المتعددة ـ وحرصه على التزود من الثقافات الأجنبية فى العصر العباسى .

وكان المتنبى من أقدر الشعراء العرب على وصف الطبيعة ومجالى الربيع وقصيدته فى « شعب بوان » من أوضح الأمثلة على ذلك .

غير أن وصف الربيع فى الأندلس اتسم بسمات أخرى وهى المعانى الطريفة الظريفة ، فأوراق الشجر عذارى ، والنضارة ضحك ، واهتزاز الغصون فى يد الريح غزل ونسيب ، وهمس وتشبيب ، والنهر أشهى ورودا من لمى الحسناء ، وينعطف مثل السوار فى اليد ، وذهب الأصيل يجرى على لجين الماء . و ما إلى ذلك من المعانى .

واشتهر من شعراء الأندلس ابن خفاجة وابن هانئ وابن زيدون وغيرهم فى هذا المضمار .

أما فى العصر الحديث فقد برع شوقى براعة فائقة فى استقبال الربيع ، وفى شوقياته درر غالية عن الربيع ـ وكان يأتى بالأوصاف الجميلة والصور الطريفة ، بيد أنه لم يكن يغرب كشعراء الأندلس فى أوصافه ، ويستمدها مما وقعت عليه عيناه ، أو ارتسم فى ذهنه من محفوظة أو مقروءة .

وتناول حافظ إبراهيم الربيع فى شعره غير أنه كان كعادته يحافظ على جودة السبك ومتانة الرصف ، وحسن الصياغة ـ ومن أطرف قصائده ما نظمه فى الجزيرة الراقدة بين أحضان النيل .

وتأثر الشعراء إبراهيم ناجى ، وعلى محمود طه ، ومحمود حسن إسماعيل ، والعوضى الوكيل وغيرهم بالنزعة الرومانسية فى الآداب الأوربية .

أما فى النثر فقد حفلت كتب العرب بوصف الربيع ومن أطرف ما جاء فى وصفه « وأما الربيع فهو وقت نزول الشمس أول برج الحمل ، فعند ذلك استوى الليل والنهار فى الأقاليم ـ واعتدل الزمان ـ وطاب الهواء ـ وهب النسيم إلخ ... »

وفى العصر الحديث برع المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى والمرحوم مصطفى صادق الرافعى فى وصف الربيع وحفلت النظرات والعبرات للمنفلوطى ووحى القلم للرافعى بأروع المقالات الأدبية عن الربيع وأوصافه ومعالمه .

أما الأديب الكبير أحمد حسن الزيات فإننا نشتم فى كتاباته فى وحى الرسالة نفحات شذية مسكية العبير عن الربيع ونحس بخفقات صادقة عن هذا الفصل الجميل ؟

كمال الدين الرمادى

سر هذا الوجود عازب عن كل موجود

للأستاذ عباس طه

إن رقيق الوجدان كلما لمس شيئا أو نظر إلى شيء أحس بوجود الله عز وجل، وكأن شيئا يضرب على أوتار قلبه الحساسة فتشاهد روحه من وراء ستر ذلك المنظور أو الملموس فاعله الذي أثر فيه، ومبدعه الذي تجلى بين خوافيه؛ لأن الروح الإنسانية لا تعقل أثراً بلا مؤثر، ولا نظاما بلا منظم، ولا حكمة بلا حكيم، ولا سرا بلا عليم، بل وجود الله عز وجل عند الإنسان الذي لم تفسد إنسانيته من أول ما غرس فيه، فهو أوضح بدهياته وأول أولياته، متى أحس بروحه أحس به لأنه لا يعقل وجوده بنفسه، فهو مقترن بوجوده، والإحساس به ملازم الإحساس بنفسه، ولا يمكن أن ينطفىء ذلك منه وإن كان يغفل عنه: «ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله»، «أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون»، «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب».

إحساس بين أعماق القلوب وطوايا النفوس أقرب إليها من الإحساس بأجسامها لأنها أجنبية عنها يجوز ألا تحس بوجودها كما لا يحس الأجنبي بالأجنبي، وأما وجودها فلا يمكن أن تغفل عنه، ومع وجودها وجوده، وفي أعماقها مفيض وجوده، وفي أحداقها النظر إليه، ومركوز في طبيعتها التعويل عليه حتى من الكافرين «وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً». «وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه».

وسر ذلك أن طفيتها معجونة بمعرفته والملجأ إليه، والإحساس به مفاض عليها من نوره بحيث يجعلها تذهل من نفسها ولا تذهل عنه، فحياتها في الحقيقة بأنسه، وفرحها ليس إلا بنور قدسه، فلا يمكن أن يفارقها إحساسه، أو يزاولها إيناسه، ولكن الناس نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فبقهره وعظمة قدرته أذهلهم عنه وأبعدهم منه، فسبحان من يحول بين المرء وقلبه، ويضع الحجاب بينه وبين ربه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

غاية الأمر أن الأوهام البشرية والخيالات الجسمانية التي لا تعرف غير المحسوسات،

ولا تتصور غير المكيفات ، ولا تعقل غير المحدودات ، ولا تفهم غير المتشكلات المحصورات ، أرادت أن تعرفه على نحو ما عرفت به مألوفاتها ، وهى لا تعرف إلا ماكان محدداً مقيداً ، وهو يعلو عن التحديد والتقييد ، فأرادت أن تحصره وهو لا ينحصر ، وأن تكفيه وهو لا يتكيف ، وأن تقيده وهو لا يتقيد ، وأن تنهيه وهو لا يتناهى ، فنفر منها وبعد عنها ، فلم تقع عليه ، ولم تصل إليه ، ونادى منادى العزة : إنك أيتها العوالم السفلية قاصرة عن درك علاه ، أو بلوغ سناه ، أومعرفة مداه ، فليس فيك صلاحيـــة لذلك ، ولاخلقت قابلة لما هنالك ، فلك حد مرسوم ، ومقام معلوم ، فكما العين لا تدرك الهواء ، وهى واقفة مع رقتها على ماحد لها من درجتها كذلك الخيال لا يرتفع عن درجة المحسوسات ولا يعلو إلى أفق الروحانيات ومحال عليه أن يعرف رب الأرض والسموات ، الذى جل عن الكيفيات ، وعلا عن القياس ، وتنزه عن إدراك الحواس .

ولكن فيك أيها الإنسان عالما يعرف التنزيه ، ولا يقف عند التشبيه ، فيمكنه أن يستطلع شعاع تلك الأنوار ، ويرى عظمة سرادقات الملك القهار ، ويلمح بوارق تلك الحضرات ، ويكتحل بجمال تلك الإشراقات . وأما أنت أيتها العوالم السفلية فليس مقرك إلا عالم التحديد ، وليس لك من هذا المقام إلا صفة العجز والتقليد ، فقلدى الروح فيما توحيه إليك وتلقيه عليك ، فهى التى تعرف وتعترف ، وتسجد وتقترب ، فليعرف كل عالم من عوالمك قدره ، ولا يتجاوز طوره ، فإن طلبت أن تعرف عوالمك السفلية فقد طلبت أن تحدده ، والمحدود لا يكون إلها للأشياء ، بل يكون له مالها وعليه ما عليها ، وما هى إلا نزعة عباد الأصنام وأسراء الأوهام .

ولعمرى لو رجعت إلى نفسك ولم تتقيد بمألوفات حسك ، لوجدتها أول البدهيات ، وأوضح الواضحات ، لا تحس بوجودك إلا أحسست بوجوده ، غير أنك لا تعرف التحديد ولا تقع عليه بالتكييف ، والإله يجب أن يكون كذلك ، وإلا لم يكن إلها كما قلنا ، بل أقرب لك الأمر بأن روحك وهى التى أمدتك بكل شىء ، وأفاضت عليك كل شىء ، ولست شيئاً إلا بها وما أنت إلا هى ، ومع ذلك لا تعرفها ولا تحيط بها لمزيد لطافتها ، وخروجها عن عالم التقييد والتكييف : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . فما بالك تطمع فى إدراك اللطيف القدوس الذى فوق كل شىء وما يماثله شىء .

جل أن تشبه الملائكة أو تماثله الروح « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » بل أنزل بك إلى ما هو أقرب من هذا ، فإنه لا يمكنك أن تعرف عالم الجن ، لأنك لا تستطيع أن تعرفه ، بل لديك من الماديات التي بين يديك وتحت أمرك وتصرفك ما لم تصل إليه ولم تعرف كنهه ، مثل الكهرباء والمغناطيس ، بل لم يعرفوا حتى الآن ما هي المادة وما حقيقتها ، إلى آخر ما قرره العلماء من مواقف العقول التي خروا لها ساجدين ، وظلوا أمامها مبهوتين مع أنها من العالم الكثيف لا من العالم اللطيف ، ومن الماديات لا من الروحانيات فما أجدرني أن أنشد قول الغزالي :

قل لمن يفهم عني ما أقول
قصر القول فذا شرح يطول
ثم سر غامض من دونه
قصرت والله أعناق الفحول

هذا وما تدركه القلوب وتشاهده البصائر أكبر من كل ما يقال ، ومن ذاق نور الوجود الحق بوجدانه وأدرك الأمر من أصله فهو غني عن البيان ، ومن وصل إلى حد العيان فلا حاجة به إلى البرهان . وعلى كل حال فنطاق التعبير قصير مهما بالغ صاحبه ، فارجع إلى نفسك تجد الأمر أوضح من الشمس وأبين من الحس ، وإذا عرفت الأمر من نفسك وجدت كل شيء بعد ذلك أكشف من ذلك الوجدان ، ولا معنى لأن تطلب شيئاً تجده في نفسك وتحسه في أعماق قلبك .

ولا بأس أن نورد هنا بدهيات محسوسة وتجارب ملموسة ذلك أن الحيوان إذا ضربه ضارب ، التفت لينظر الضارب ، لأنه لا يجوز أن يوجد ضرب بلا ضارب . فمن أنكر وجود الله وهو يشاهد آثار صنعته ومظاهر قدرته وبدائع حكمته فلا يستحق أن يسلك في عداد الآدميين « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ، « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ، « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » .

اللهم يا من ليس في السماء من قطرات ، ولا في الأرض من حبات ، ولا في هبوب الريح من ولجات ، ولا في قلوب الخلق من خطرات ولا في أعضائهم من حركات ، ولا في أعينهم من لحظات ، إلا وهي لك شاهدات ، وعليك دالات ، وبربوبيتك معترفات وفي قدرتك متحيرات . فأسألك يا الله بالقدرة التي تحير بها الأرض والسموات ، أن تملأ قلوبنا يقيناً ، وأن ترزقنا حبك وحب من أحبك ، وحب ما يقربنا إلى حبك ، وألا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين بمنك وكرمك ؟

عباس طه

ما يقال عن الإسلام

العالم العربى اليوم

للأستاذ عباس محمود العقاد

The Arab World To-day

« العالم العربى اليوم » اسم كتاب بالانجليزية ألفه الأستاذ مورو بيرجر Morroe Berger أستاذ علم الاجتماع بجامعة برنستون والمشرف على برنامج دراسات الشرق الأوسط فى تلك الجامعة .

ويقع كتابه هذا فى قرابة خمسمائة صفحة حافلة بالمعلومات الواقعية عن العالم العربى ، مستمدة من مراجع الإحصاء والمشاهدة ، معروضة على أسلوب النظر العلمى فى جملتها ، ولكنها تنظر من وجهة نظر غربية كلما رجع الأمر إلى اختلاف التقدير .

والكتاب مفتتح بفصول متعددة عن القومية العربية فى الزمن القديم ، والقومية العربية فى الزمن الحديث ، وعن العلاقة بين هذه القومية وبين الإسلام بعد بعثة محمد عليه السلام ، وموجز ما يقال فيها :

إن الإسلام تقبل كثيراً من شعائر اليهودية والمسيحية ولكنه نقلها إلى العالم العربى ثم استبدل أواصر العقيدة بأواصر النسب والعصبية التى كانت تجمع قبائل العرب كما كانت تفرق بينها .

والمؤلف يصف الديانة الإسلامية بأنها ديانة « مستقيمة بسيطة » أو بعبارة أخرى « مباشرة فى اتجاهها غير معقدة » وأنها لاستقامتها وبساطتها لا تزال إلى الآن سهلة الاتجاه إلى « الجاهليين » فى القارة الإفريقية ، ولكنه يعود فيقول : إن تقدمها بين هؤلاء الجاهليين ، لا يرجع إلى جهود مقصود من جانب الإسلام باعتباره قوة عالمية مركزة ، كما يرجع إلى القدوة المباشرة التى تأتى من اتصال المسلمين بغير المسلمين فى أرجاء القارة الإفريقية .

والموضوع المهم فى الكتاب كله هو موضوع الدين الإسلامى والحركات التى يسميها الغربيون بالعلمانية أو الدنيوية Secular وتسمى أحيانا « باللادينية » عند المقابلة بين سلطة الكهنوت ورجال اللاهوت وسلطة الدولة والحكومة .

ويقرر المؤلف أن الإسلام لم يواجه الحركات « اللادينية » للمرة الأولى .

فقبل احتكاك المسلمين بالعالم الغربى فى القرن العشرين كانت لهم صلات كثيرة بالأمم التى خالفتهم فى العقيدة وفى آداب الحضارة ، وآخر هذه الصلات من وجهة المبادئ الاجتماعية الفكرية ودساتير السياسة والحكم صلة الإعجاب بالثورة الفرنسية وما نجم عنها بين المسلمين من التنبه لحقوق الفرد وحقوق حرية التفكير ودعوات التجديد والتخلص من القديم .

إلا أن الجديد فى الحركة اللادينية الأخيرة أنها « داخلية » فى العالم العربى الإسلامى وليست بالخارجية الطارئة عليه من غير قومه وبلاده .

فقد كان المسلم يواجه ثقافة اليونان وثقافة الدول الأوربية وثقافة الثورة الفرنسية وهو يستعد لها بالمقاومة على سنة الأمم مع الطارئ الغريب ، أو الطارئ الذى يستدعى المقاومة لأنه يتغلب عليها ثم يخضعها لسيطرته على غير إرادة منها .

أما « اللادينية » بعد جلاء الحكام الأجانب عن البلاد فمصدرها من الداخل لا من الخارج كما كان منذ أوائل القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن العشرين ، وليس لها من يقاومها غير المحافظين الذين يكرهون الجديد أو المحافظين الذين يقربون بين القديم والجديد ، ويسميهم الغربيون بالمستحدثين أو « المودرنيست » Modernist .

ومن أهم فصول الكتاب فصل عقده المؤلف للبحث عن الإسلام فى ناحية التشريع هل هو عقيدة دينية دنيوية أو هو كغيره من الديانات التى تنفصل فيها عقائد الإيمان عن شئون الحياة ومزاولات المعيشة ولا سيما شئون الحكم والسياسة ؟ .

وربما ورد السؤال على صورة أخرى فيقال : هل أحكام التشريع فى القرآن مسألة نظام وإدارة حكومية ؟ أو هى مسألة أخلاق وسلوك دينى يستحق به المسلم حسن الجزاء فى الآخرة ؟ .

قال المؤلف فى الصفحة الحادية والأربعين « إن الصلة المكينة بين الإسلام والمجتمع العربى نشأت كما رأينا منذ قام محمد ـ صلوات الله عليه ـ بخلق دولة تنتظم العقائد الدينية

والمعاملات التي عليها العرب ، وقد شمل الإسلام على الدوام كل جوانب الحياة الاجتماعية باعتباره قسطاس أخلاق وآداب ولكنه لم ينجح قط في تقرير شريعة متناسقة من العلاقات بين الناس في مجتمعات المسلمين المختلفة وقد نبه يوسف شاخت وهو الباحث الحجة في هذا المطلب - إلى رأى يقول فيه أن النبي لم يحاول تبديل العرف القانوني عند العرب ، بل أراد أن يعلم الناس كيف يعملون في الحياة الدنيا لكي يظفروا برجحان الكفة في حساب الآخرة » .

قال مؤلف الكتاب ما فحواه : إن الإسلام لا يكون على هذا الاعتبار دينيا دنيويا ، أو شريعة اعتقاد وشريعة معيشة « علمانية » في وقت واحد ؛ لأن المعاملات كما يوجبها على المسلم هي فرائض أخلاق وعبادة لا يلزم من اتباعها أن تكون دستورا للإدارة « العملية » في نظم الحكومات .

ولكن الكثيرين من الغربيين يحسبون أنه قانون عملي ؛ لأنه يوصي بما يوصي به من الأحكام والآداب التي تتناولها القوانين .

والمشكلة « العلمانية » في العصر الحاضر كما يراهـا المؤلف هي محاولة المسلم المستنير أن يدرك الحقيقة ويحسن تطبيقها عملا في هذا الموضوع .

فهل يعتبر هـذا المسلم أن دينه تكفل للمسلمين بنظام المعيشة والحياة العملية ، كما تكفل لهم بشئون الإيمان والعبادة ؟ أو يتبع في نظام المعيشة قانونا موضوعا لا يرتبط بنصوص الكتاب ؟ .

إن المؤلف يقسم المستحدثين أو « المودرنيست » أمام هذه القضية إلى طائفتين طائفة سابقة من أبناء الجيل الماضي ، وطائفة لاحقة من أبناء هذا الجيل .

والفرق بينهما أن أبناء الجيل الماضي الذين درسوا علوم الحضارة الغربية قد درسوها في ديارها وعاشوا بين أهلها وكانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى من نشأ بعدهم من المتعلمين العصريين ، فعادوا إلى بلادهم غرباء عنها وكادت الصله بينهم وبين الجمهرة الكبرى من مواطنيهم أن تنقطع كل الانقطاع .

والطائفة التالية من تلاميذ الحضارة الغربية قد عرفوها وهم في أوطانهم لم يفارقوها وقد عرفوها في دور التعليم كما عرفوها في بيئات المعيشة الحضرية على الأكثر ؛ لأن هذه البيئات قد تغيرت من الزمن وتشابهت مظاهرها في مدائن الشرق ومدائن الغرب على نحو يقارب التشابه بين مظاهر الحضارة في أمم الغرب نفسه ، حسب اختلاف مواقعها وتقاليدها .

وقد ضعفت دواعي المقاومة للحضارة الغربية بين أبناء هذا الجيل لهذا السبب الواضح ولسبب آخر يرجع إلى تقدم المسلمين فى سبيل الاستقلال عن سلطان الحكم الأجنبي ، فإن مقاومة الحضارة الأوربية كانت فيما مضى وجها من وجوه التمرد على أبناء تلك الحضارة القابضين على أزمة الحكم والإدارة ... فلما زال هذا السلطان ، أو خفت وطأته ، زال معه سبب كبير من أسباب العداء للتجديد العصرى والاستحداث فى فهم الدين .

ويختم المؤلف صفحات الكتاب بأسطر قليلة يقول فيها أن مستقبل العرب سيكون من صنع أيديهم بعد اليوم ، وسيتولونه ويتولون أمور دينهم ودنياهم كما يفهمونها وسيكون للجمهرة الكبرى شأن لا يتجاهله المصلحون بين ظهرانيهم ، لأن هذه الجمهرة قد أصبح لها خطرها المحسوس ، وإن تكن فى بعض البلدان قد أصبحت مهمة فى تقرير سياستها قبل أن تتدرب على ولاية الأمر بأيديها .

قال المؤلف قبل أن يستطرد إلى الفصل الأخير عن التجديد أو الاستحداث وعلاقته بالجماهير :

« إن الحكومات الغربية فى الشرق الأدنى لا تستطيع أن تجد بين العرب طوائف ذات صبغة ديمقراطية حقة ـ ليبرالية ـ تسندها وتؤيدها ، وكذلك يرى الباحثون فى الإسلام من الغربيين أنه لا أمل للإسلام المتجدد على الرغم من اعترافهم باعتقادهم فى الإسلام قوة الخلق والحيوية » .

ويتحفظ المؤلف فى إبداء رأيه بين هذه الآراء ، ولكنه لا يجزم برفض ذلك الرأى الذى يرويه عمن سماهم بالباحثين فى الإسلام من الغربيين ، ولا نخاله يستطيع أن يخلص من عادة الوزن بالميزانين فى القضية الواحدة كلما تعلقت بالشرق والغرب فى شئون العقائد ومذاهب الاجتماع .

فهؤلاء الباحثون الغربيون يقدرون أن « استغراب » المسلم أو أخذه بنظام من نظم الحضارة الغربية لا يتأتى على غير وجه واحد : وهو الإعراض عن دينه أو الانقلاب عليه .

فأما استغراب المسيحية فغير مستحيل مع بقاء الغربيين على ديانتهم وهى شرقية كالإسلام فى مصدرها ، وكأنما وجدت هذه الديانة « الشرقية » غربية منذ اللحظة الأولى ولم « تستغرب » مرات فى كل عهد من عهود التاريخ ، وأول هذه المرات لم يجاوز القرن الأول للميلاد عند انتقالها من

فلسطين إلى آسيا الصغرى ثم بلاد اليونان ، وآخرها فروع المذاهب « الإنجيلية » فى العالم الجديد ، وهى فى أصلها « استغراب » فى بلاد أوربة الوسطى واستغراب فى أمم الشمال وأمم السكسون .

والمسلم فى حساب هؤلاء الباحثين الغربيين يبدو لهم كأنه شخص واحد ولد فى عهد البعثة المحمدية ، وهو بعينه يولد ويعاد ميلاده من جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أمة ... كذلك « اليهودى » التائه الذى تزعم الأساطير أنه عاش منذ أيام السيد المسيح ويعيش إلى يوم عودته فى آخر الزمان !

فهذا المسلم فى عهد البعثة المحمدية هو المسلم الذى يتكرر ميلاده على عهد التابعين ثم على عهد الأمويين ، ثم على عهد الأندلسيين ، ثم على عهد الحضارة الأوربية فى القرن العشرين ! فإما أن يحمل معه زمانه قبل أربعة عشر قرنا أو ينتقل إلى زمان آخر ، فلا يبقى على عقيدة الإسلام .

ولو نظر هؤلاء الباحثون هذه النظرة بعينها إلى علاقة الحضارة بديانات الأمم على اختلافها لاستقاموا على جادة البحث وإن أخطئوا التقدير ... نعم إنهم يستقيمون على جادة البحث لو قالوا مثلا : إنهما طريقان لا تلتقيان فى كل عقيدة وكل أمة : طريق الحضارة والعلم وطريق التدين والإيمان .

يستقيمون على جادة البحث النزيه وإن أخطئوا الغرض والتقدير .

ولكن الأمر الذى يستحيل عندهم هو بقاء المسلم وحده على التدين مع أخذه بأسباب الحضارة ، ولهذا نقول عنهم إنهم يزنون بميزانين ولا يساوون بين الحكمين فى القضية الواحدة .

إنهم لا يقولون : إن الاتجاه إلى الدين على سنة التدين فى جميع العصور مستحيل على أمم الحضارة العصرية .

كلا ! إنهم لا يقولون ذلك فلماذا يقولون إن حضارة المسلم وتدينه هما المستحيل بين أمم العالم وحضاراته ؟ .

يقولون ذلك لأنهم يذكرون غيرهم ولا يذكرون أنفسهم حين يتحدثون عن المشرق والمغرب ، وأول ما ينسونه أن الديانة المسيحية التى بقيت فى الغرب هى ديانة شرقية المنبت ، شرقية الأصول والجذور ، شرقية الروح والفطرة ولكنها استغربت مع الزمن مرة بعد مرة ووجدوها غربية قبل أن يظهروا هم إلى عالم الوجود غربيين .

عباس محمود العقاد

الكتب

نقد وتعريف : للأستاذ محمد عبد الله السمان

١ — الدراسات النفسية عند المسلمين
للأستاذ عبد الكريم العثمانى

نشرت مكتبة وهبة بعابدين هذه الدراسة التى نال بها المؤلف الماجستير فى الفلسفة بتقدير ممتاز ، وقدم لطبعتها الأولى الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة بمقدمة عنوانها : « علم النفس الإسلامى » ، وناقش اعتراضاً قد يثيره هذا العنوان ، حيث لا وطن للعلم ، وليس من شأنه خضوعه للدين ، فلا ينبغى أن يقال : علم نفس إسلامى أو نصرانى ، أو علم نفس يونانى أو هندى أو أمريكى ، وإلا لم يكن علم النفس علما . ويرد الدكتور الأهوانى هذا الاعتراض ، ويرى أنه ما دمنا قد أفسحنا المجال لدراسة الظواهر الدينية نفسانيا ، فلا غرابة أن نقول بوجود علم نفس إسلامى ، كما نقول بوجود علم نفس بوذى أو نصرانى لاختلاف خصائص كل دين من هذه الأديان .

المؤلف الأستاذ العثمانى - وهو أديب سورى متمكن - يمهد للبحث بتمهيد مسهب فى حوالى أربعين صفحة ، فيعرض فيه موضوع علم النفس ومكانه بين العلوم الأخرى ، وطريقة دراسة النفس عند الغزالى ، ثم مصادر علم النفس : المصدر العام كالقرآن والحديث ، والمصدر النصرانى ، والمصدر الصوفى ، والمصدر الكلامى والفلسفى ، ثم المصدر الخاص ويتمثل فى تجارب الإمام الغزالى .

وينتقل المؤلف إلى موضوع البحث فيجعله قسمين كبيرين : حقيقة النفس من البدء إلى النهاية ، جاء سبعة فصول ، هى تعريف النفس فى القرآن والحديث والفلسفة ، وجود النفس ووحدتها وأصلها ، قديمة أم حادثة ، طبيعتها ، علاقتها بالجسد ، ثم وضعها بين البقاء والفناء ، والقسم الآخر تناول أحوال النفس بين السلوك والعاطفة والدين ، وجاء أربعة فصول : الحياة النزوعية بين الدوافع والعادات والإرادة ، الحياة الوجدانية انفعالات وعواطف ، الإدراك الحسى والعقلى ، ثم صلة النفس بالدين والأخلاق .

وبعد - فهذه الدراسة التى استحقت تقدير بمتاز من جامعة القاهرة على جانب من الأهمية ولو لم تتضمن إلا تحقيق أسبقية فلاسفة المسلمين منذ قرون طويلة بدراسة النفس وفى مقدمتهم الإمام الغزالى - لكانت جديرة بكل تقدير، وهذه الدراسة - كما يقول الدكتور الأهوانى - صورت لنا لأول مرة الغزالى عالما نفسانيا وضع أسس علم نفس إسلامى بمعنى الكلمة، إذ له فيه كتب مستقلة برأسها، مثل معارج القدس، وله مباحث فى شتى كتبه وبخاصة، إحياء علوم الدين.

ولنا أن نشير بعد ذلك إلى ملاحظات عابرة لا تقلل من أهمية الدراسة، فالمؤلف يعتبر دراسته هذه محاولة أولية للعبور بين الماضى والحاضر لتحديد الصلة بين ثقافتنا التاريخية فى موضوع النفس، وبين الدراسة الحديثة والحق أن إبرازهذه المحاولة لم يكون صورة متكاملة فى ظل موضوعات الدراسة، مع أن هذا هو الهدف الأساسى.

كما أن الدراسة امتازت بطابع العرض المزدحم بالنقل، الخالى من جو المناقشة التى كان يجب أن تكون طابعها .. أما رأى الأستاذ المؤلف فلم يكن له وجود ملموس فى هذه الدراسة الممتعة الشيقة، فقد حرص على التزام شبه الحياد ولم يقدر له أن يتفاعل مع الآراء إلا نادراً ..

٣ - تاريخ المغرب الكبير
للأستاذ محمد على دبوز

هذا هو الجزء الثانى من تاريخ المغرب الكبير نشرته دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى) المؤلف أخ جزائرى وكتابه أول كتاب جزائرى يطبع بعد استقلال الجزائر، وارتفاع علم الإسلام والعروبة فوق أرضها، قدم له بمقدمة مسهبة رجا فى أولها أن يرى إخوانه فى الشرق العربى يحيا الجزائر العربية، وتاريخ المغرب صافيا نقياً من دعايا السياسة القديمة، ومن أكاذيب المستعمرين الذين لم يألوا جهدا فى استغلال تلك الدعاية التى بثها الملوك المستبدون قديما ضد المغرب ليشوهوا صفحته، وينفروا الناس عنه، لكى لا يسلكوا طريق المغرب الذى ثار على الملوك المستبدين، فأنشأ الدولة الإسلامية العادلة التى سارت فيه سيرة الخلفاء الراشدين.

فى هذا الجزء من تاريخ المغرب الكبير الذى يقع فى زهاء أربعمائة وخمسين صفحة، تناول المؤلف تاريخ الفتح الإسلامى إلى نهاية الدولة الأموية، مبتدئا بغزوة عمرو ابن العاص لبرقة وطرابلس واستخلاصهما من الروم عام ٢٢ هـ، وتلا هذه الغزوة، غزوات عبد الله بن سعد بن أبى سرح عام ٢٧ هـ، ومعاوية بن حديج السكونى

عام ٤٥ هـ ، وعقبة بن نافع عام ٥٠هـ ، وتلا هذا ولاية أبي المهاجر دينار على إفريقيا وفتوحه للمغرب عام ٥٥ هـ بعد تخلصه من عقبة بن نافع وإرساله إلى الخليفة معاوية ابن أبي سفيان مخفورا ، حيث عاد مرة أخرى ليقوم بغزوته الثانية لشمالى إفريقيا عام ٦٢ هـ لينال الشهادة عام ٦٣ هـ ويدفن فى أرض الجزائر المسلمة .

ويواصل المؤلف استعراض تاريخ الإسلام فى المغرب ، والمعارك الطاحنة التى دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم ، وبينها وبين عصابات المرتدين من أمثال البربر ، وقد سجل جند المسلمين البواسل أروع أدوار البطولة المستمدة من عقيدتهم الراسخة وإيمانهم العميق . وينهى هذا الجزء من كتابه بنهاية الدولة الأموية فى المغرب عام ١٣٢ هـ .

الحق أن المؤلف الأستاذ محمد على دبوز لم يكن تأريخه لهذا الجزء من العالم الإسلامى مجرد سرد للأحداث ، وإنما كان فوق هذا تحليلا دقيقاً شيقاً لها ، وذا عناية كبرى بتحليل شخصيات القادة والأبطال ، تحليلا نفسياً وأخلاقياً ومادياً وأدبياً ، وهو فى تحليله يكشف عن مكان البطولة ، ومخابئ القيم والمثل .

وأهم من ذلك تعقبه لدسائس مؤرخى الغرب من الذين لم يتجردوا من العقلية الاستعمارية فى تفكيرهم ، وإن تجردوا من كل ما يمت إلى النزاهة والعدالة والأمانة العلمية .

٣ - من معانى القرآن

الأستاذ عبد الرحيم فودة

هذا الكتاب الجديد نشرته الدار القومية ، وهو دراسة طيبة تقع فى حوالى مائة وثلاثين صفحة ، تضم مجموعة من البحوث القرآنية كان المؤلف قد نشرها منذ أعوام على صفحات جريدة الشعب ، وقد استعرض فضيلته فى تلك الفترة سورة الفاتحة وتسعاً وثلاثين آية من سورة البقرة على الترتيب .

المؤلف كان موفقاً فى عرضه لسورة الفاتحة ، فهو يتناول الألفاظ فيناقشها لغوياً ، ويحلل مدلولها تحليلا دقيقاً حتى يجسم منها معانى كبيرة ، وهذا اتجاه طيب ، ولكنه فى آيات البقرة عنى بالمضى قبل اللفظ فى مدلوله اللغوى مع المحافظة أيضا على تجسيم المعانى لتكون شبه قضايا أخلاقية وإنسانية معاً ، محاولا ربطها أحياناً بالحياة وأحداثها الماضية والحاضرة .

والواقع أن الآيات التى عرضها الأستاذ فودة من سورة البقرة لم تتضمن قضايا خلافية فقهاً أو تشريعاً أو لغة ، حتى يمكننا مناقشة رأيه فيها ؛ لأنها معانى عامة ، تلقى أضواء على مقومات الإسلام وأهدافه ، إلا أن فى أول سورة البقرة لفظة «ألم» ، قد اختلف المفسرون فى تفسيرها وتفسير أوائل السور اختلافاً متشعباً ، واقتصر بعضهم على أنها مما استأثر بها علم الله وحده

متجاهلا هذا البعض أن الله أنزل قرآنا عربياً مفهوما لا تعقيد فيه ، وأنه ـ سبحانه ـ لم يشأ أن يجعل من ألفاظه طلاسم تحار العقول فيها.

لقد أعجبني رأى المؤلف في أوائل السور حيث عرضه عرضاً مركزاً مقنعاً، فهو يقول:

ومن أقرب ما قيل في هـذا السبيل : إن هذه الحروف البسيطة التي تعرفونها يتألف منها ذلك الكتاب الذي لا يدانيه كتاب . . ماء . ملح . حديد . جير . إلخ ، جسم الإنسان يتكون من هذه العناصر ، وهي كثيرة ميسرة ومع هـذا لا يستطيع أحد أن يصنع منها جسما حيا ينبض بالحرارة ويتحرك بالإرادة ويسود بالعقل .. هـــذا الكتاب المعجز حامله لا يعرف الكتابة ، ولا يعرف هذه الحروف التي يتألف منها الكتاب ولا يستطيع هو أو غيره أن يؤلف كتابا مثله ، ، هـذا رأى ليس مبتكرا ، ولكن المؤلف قربه إلى الأذهان فأضفى عليه مسحة من الجمال .

* * *

٤ — الإنسان العقائدى :

للأستاذ حمدى حنبل

هذا كتاب نشرته سلسلة الثقافة الإسلامية في عددها الأخير للأديب الأردني ، تدور أبحاثه حول محور واحد « الإنسان » ، وقد سلط المؤلف على الإنسان الأضواء بكشاف واحد هو الإسلام .

والإنسان العقائدى في رأى المؤلف : ابن لآدم ، إلا أنه ابن بار ، اعتقد بفكرة مجردة سامية ، وتفهم هـذه العقيدة وتوحد معها ، بل ألزم نفسه باتباعها وضبط سلوكه بها ، واتخذها محكا لأفكاره وميزانا لأفعاله فلا يخرج منها إلا ليعود إليها ، وهو إنسان مبدع ، وكل إنسان مبدع بناء ، إنسان عقائدى

ويرى المؤلف عند الحديث عن الإنسان الحضارى ، أن أية حضارة قيامها موقوف على وجود الإنسان ، ولا مفر للإنسان عند ذلك من الاعتقاد بعقيدة دينية والسبيل الوحيد لتحويل الأفكار إلى حقائق علمية واقعية ... هو التربية ، فعلى دعائم من منهج قويم الهدف محدد ، يستطيع المربى أن يرسى قواعد الحضارة والعمران الإنسانيين وعند الحديث عن الإنسان النموذج قدم المؤلف إنسانين نموذجين يقفان على طرفي نقيض : الأول إنسان مؤمن هو القعقاع بن عمرو ، وهو نموذج لمن تجسمت فيهم العقيـدة ، واتسمت جميع أعمالهم بالإيمان ، والآخر إنسان كافر هو أبو جهل ، وهو نموذج لمن يظهرون في مرحلة الإرهاص ويسبقون مرحلة التكوين ولكنهم يندثرون في مرحلة البناء الكامل والازدهار .

المؤلف جال بنا جولة نفسية ممتعة فأخرج دراسة مركزة على جانب من الأهمية .

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

تعليق على مقال «الإسلام بزنجبار»

السيد الأستاذ رئيس التحرير

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد : فنشكركم شكراً جزيلاً على ماتقومون به من نشر التعاليم الدينية فى مجلتكم الغراء المنتشرة فى أنحاء العالم . وإن منفعتها عظيمة يجب الشكر عليها ، ولكم الأجر .

وحيث إن واجب المسلمين أن يزود بعضهم بعضاً بأخبار وأحوال إخوتهم ، كذلك يجب فى الوقت نفسه أن يكون التزويد حقاً وأن تكون الأخبار المنشورة موثوقاً بها ، حتى يكون المسلمون دائماً على حقيقة واقعة وأخبار صحيحة لا شبهة فيها ولا تحريف ، لذا رأينا من واجبنا أن نصحح بعض ما جاء فى كلمة السيد الأستاذ عطيه صقر : حول « الإسلام بزنجبار » دون قصد النقد أو سوء الظن . فإن نشر الحقائق من واجب المسلمين عامة التعاون عليه . فرجو من حضرتكم التكرم بنشر هذه الكلمة فى مجلة الأزهر .

رئيس جمعية نشر الثقافة الإسلامية بزنجبار

الإسلام بزنجبار :

١ - ذكر الكاتب أن كثيراً من المساجد أغلقت بزنجبار ، وأن الأمر الدافع لذلك هو تفرق العـــرب واختلافهم . أما أن بعض المساجد تكاد تكون مهجورة فصحيح . غير أن السبب هو انتقال كثير من جيرانها المسلمين إلى حارات أخرى مما أدى إلى خلو تلك المساجد من المصلين تقريباً . أما العرب فليس بينهم خلاف بوجه عام بل إن مسلمى زنجبار على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم وألوانهم متفقون متآلفون متعاونون . وهذه ليست موجودة فى كثير من بلاد المسلمين فالحمد لله وحده .

٢ - جريدة « الفلق » لا يشرف عليها الحزب الوطنى كما أشار الكاتب ، وإنما أنشأها ويقوم بأمرها الجمعية العربية الزنجبارية .

٣ - أشـــار الكاتب عافـــاه الله — إلى ما يلقى فى المساجد من الدروس الدينية فى رمضان ، ثم أردف قائلا : (ان الذ[illegible] يقومون بها دجالون مستجدون .) فالحقيقة التى نكشفها لحضرات القراء والتى قد خفيت عن حضرة الكاتب نفسه هى : أن [illegible]

العلماء الذين يقومون بالتدريس فى المساجد فى رمضان وغيره من الشهور وفى بيوتهم ، إنما يعملون ذلك لوجه الله تعالى ـ لا يريدون من أحد جزاء ولا شكوراً . بل إن أغلبهم يساعدون الطلبة المحتاجين أو الغرباء . ان اولئك العلماء هم الذين لهم الفضل والقسط الأكبر فى انتشار علوم الدين والعربية بزنجبار ، بل وفى شرق إفريقيا كله . و بسببهم بقى فى هذه الأصقاع عدد كبير من المتعلمين يعلمون معلومات لا يستهان بها فى الدين والعربيـة . وهم الذين كانوا درعا عظيما يصد تيار التحلل وضعف الجانب الدينى وجانب اللغة العربية فى هذه البلاد . والمدارس الرسمية فى هذه الأثناء بوجه خاص ما أبقت للعربيه ولا للدين شيئاً فى برامجها . فكان ما يقوم به اولئك العلماء الأبرار زاداً تشربت به قلوب العدد الكبير من سكان البلاد من صفات الفضيلة والمحافظة على التراث الإسلامى .

إن القائمين اليوم بنشر العلم فى المساجد وغيرها علماء مختارون ومقدرون عند جميع أهل البلاد . وهم طلبة رجال من مشاهير العلماء ، الذين لهم تأليف إسلاميـة قيمة تركوا آثارهم مودعة عند طلبتهم الذين يدرسون اليوم ، والذين أشار إليهم الكاتب ووصفهم بتلك الصفات السخيفة . فأى شىء أكبر شهادة نقدمه لدى الكاتب والقراء على منزلة علمائنا الزنجباريين أكثر من الواقع الحقيق ؟ إن فضل انتشار الإسلام فى شرق إفريقيـا لمن ؟ وأن علماء زنجبار وشرق إفريقيا من أين ؟ إن ماقام به علماء زنجبار أمر يستوجب الشكر ـ والكمال لله وحده . فإنهم علاوة على نشرهم تعاليم الدين الإسلامى فى تلك الأصقاع أقاموا لرد سموم المبشرين والملحدين ودحض حججهم الواهية وحالوا دون تأثير التبشير المسيحى فى نفوس إسلامية وغير إسلامية ، ولله الحمد . ولولاهم لوجد التبشير مجالا واسعا لنشر مبادئه .

٤ ــ ذكر الكاتب أن الطلبة الأباضيين فى المعهد الإسلامى نصف عدد طلبة المعهد وأنه لا يوجد من يحسن دراسة الفقه لهم . كل ذلك مخالف للواقع . فعددهم أقــل من النصف بكثير ، كما أن لديهم مدرسا كفؤا للفقه الأباضى .

٥ ــ ذكر صاحب المقال : أن فى بقعة من من جنوب الجزيرة يحتفل أهلها بعيد النيروز وأن معظم السكان هناك من الشيعة . أما القيام بالاحتفال فصحيح . وأما أن معظم السكان هناك من الشيعة فغير صحيح على الإطلاق . ذلك أنه لا يوجد فى زنجبار من الشيعة إلا فرقة من الهــنود والإسماعيلية والإمامية الإثنا عشرية . ومن هؤلاء لا يوجد فى تلك القرية أحد ، بل إنهم يسكنون فى مدينة

زنجبار خاصة: على: أنه قد أخذنا العجب أن يأخذ حضرة الكاتب اهتماما بمثل هذه العادات المحلية وينشرها لقراء مجلة الأزهر، فى حين أنها عادة قديمة لسكان ذلك القسم من الجزيرة لا بأس بها من الناحية الدينية أو الخلقية. كما أن هناك فى مصر وغيرها من البلاد عادات خاصة للأهالى منذ القدم لم يستطع المتمدنون القضاء عليها بسهولة، ومنها ما تكون منافية لأوامر الدين الإسلامى الحنيف. فماذا نقول؟

٦ — فلفت نظر حضرة الكاتب أن أول كنيسة بنيت بزنجبار إنما هى بواسطة الانجليز لا بواسطة البرتغال الذين غادروا زنجبار قبل عدة قرون.

تأبين عالم أندونيسى كبير:

خسرت أندونيسيا والعالم الإسلامى بوفاة السيد عبد الله بن أحمد بلفقيه العلوى مفتى لجنة الإفتاء الشرعى ومدير معهد دار الحديث الفقهية لأهل السنة والجماعة - عالما كبيراً ومجاهداً عظيما وإماماً من أئمـــة الإصلاح والدعوة إلى الله، وقد أقيمت لتأبينه حفلة كبرى بمناسبة مرور مائة يوم على انتقاله إلى جوار ربه تحدث فيها القائد الحربى العام لجاوى الشرقية بأندونيسيا، والرئيس العام لمديرية مالاغ، والوالى على مدينة مالاغ، وكثير من العلماء والأساتذة. فأشادوا بجهاده وتضحياته وخدماته الكبرى لدينه وأبناء دينه، فقد عمل رحمه الله مدرسا بمدارس ومعاهد بتريم «حضرموت» ثم ارتحل إلى المهجر «أندونيسيا» فتولى التدريس والنظارة بالمدرسة الخيرية «بسورابايا» ثم تولى النظارة بمدرسة الرابطة العلوية بصولو وأنشأ فيها قسما داخلياً ثم دعى للتدريس بمدرسة «الترقى» فى مالاغ والنظارة لها. ثم أنشأ معهد «دار الحديث الفقهية» وتولى النظارة والتدريس فيه، ثم تولى تدريس التفسير بكلية التربية والتعليم الإسلامية فى مالاغ. وقد تخرج عليه كثير. وأسهموا فى الكفاح الوطنى بنصيب كبير، وكثير منهم تقلدوا وظائف مهمة فى الدولة.

وكان رحمه الله حركة دائبة ونشاطاً متصلا فى خدمة الدين ونشر الثقافة الإسلامية. رحمه الله وأجزل ثوابه. ونفع بعلمه.

برنامج تنظيم مجمع البحوث الإسلامية:

أعد الدكتور محمود حب الله أمين عام مجمع البحوث الإسلامية برنامجا يشمل تنظيم المجمع وهيئاته، ولجانه واختيار أعضائه من جميع أنحاء العالم الإسلامى وستعرض هذه التنظيمات على الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر لبحثها تمهيداً لإصدار القرارات المنفذة لها.

وقال الدكتور محمد البهى وزير شئون الأزهر : إن الأزهر يرجع فى كل مشكلة إلى الأصول الإسلامية ممثلا فى الكتاب والسنة ، لا يضيق بحل المشكلات وإنما جاء التضييق والجمود من الآراء المتأخرة . وسيكون لمجمع البحوث الإسلامية دوره الخطير فى هذا الشأن ، وسيضم علماء الإسلام من أنحاء العالم الإسلامى لبحث مشكلات المسلمين المعاصرة وتقديم الحلول لها ، بجانب الدراسات والبحوث الفقهية والتاريخية والاقتصادية وغيرها من الدراسات التى تتناول معالم الإسلام وواقع المجتمع الإسلامى وتبرز توجيه الإسلام فى العدالة الاجتماعية والإنسانية .

وتحدث الدكتور محمد البهى عن تكوين المجمع ومهمته قال :

إن المجمع يضم أعضاء من الجمهورية العربية المتحدة وأعضاء من خارجها كما يضم أعضاء مراسلين وفخريين وينظم القانون اجتماعات هيئاته وهى المجلس وهو الهيئة التنفيذية التى تباشر نشاط المجمع والمؤتمر وهو بمثابة جمعية عمومية ، إلى جانب شعب البحث المختلفة بتوجيه وإشراف أعضاء المجمع وتعتبر الإدارة العامة للثقافة والبحوث الإسلاميــــة بالأزهر بمثابة جهاز فنى تنفيذى للمجمع .

المجمع هيئة علمية :

وقال الوزير : إن وضع عالم الدين فى الإسلام هو أنه باحث يجتهد فى طلب الحقيقة وليس معصوما ولا ملزما ويستطيع كل مسلم أن يناقش الرأى ويطلب أدلته ومجمع البحوث الإســـلامية هيئة علمية أكاديمية للتعاون على البحث وتبادل الرأى ، وما يستقر عليه المجمع من قرارات ستكون معروضة للبحث والمناقشة أمام كافة علماء المسلمين إذ أن الشىء الوحيد الذى له حجيته الفقهية الملزمة هو ما ينتهى إليه إجماع كافة علماء المسلمين فى شتى أنحاء العالم ، لو تصورنا إمكان انعقاد هذا الإجماع .

تنظيم شامل :

وقال الدكتور البهى : ان مجمع البحوث امتداد لجماعة عامة سابقة هى جماعة كبار العلماء وقد جاء تنظيم المجمع أشمل من حيث التكوين فيتألف من أعضاء من الجمهورية العربية ومن خارجها كما أنه أوجد نظام الأعضاء المراسلين والفخريين ومن حيث النشاط : فيبحث جوانب الدراسات الإسلامية المختلفة بما فيها الدراسات القانونية والتاريخية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية وليس مقصوراً على الدراسات التقليدية المتعارف عليها فى القرآن والسنة والفقه .

فتاوى مختارة...!

باب يقدمه : ابراهيم محمد الاصيل

عادات المآتم :

السؤال :

طلب أخ مسلم إلى فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت أن يبين حكم الشريعة فيما اعتاده الناس فى المآتم وعين على وجه الخصوص :

أولا : حكم قراءة الصلوات ودلائل الخيرات بالأصوات المرتفعة أمام الجنازة .

وثانيا : حكم ذبح حيوانات عند خروج الجثة من المنزل ، أو عند وصولها إلى القبر على مشهد من المشيعين .

وثالثا : حكم إقامة المآتم ليلة فأكثر على الوجه المعروف الآن فى القرى والمدن .

ورابعا : حكم الاجتماع لإعادة التعزية فيما يعرف باسم الخميس الصغير ، والخميس الكبير وباسم الأربعين والمواسم ، وباسم الذكرى السنوية من كل عام .

وخامسا : حكم إعلان الحزن بلبس الملابس السوداء وحمل شارات الحزن وما يتبع ذلك من تحريم أهل الميت وأقاربه على أنفسهم بعض الأطعمة .

الجواب :

اعتاد الناس أموراً كثيرة فى المآتم وغير المآتم ، ولم يعتمدوا فى أكثرها إلا على مجرد الاستحسان الشخصى أو الطائفى وأخذت تنتقل من جيل إلى جيل حتى عمت وصارت تقاليد ، يأخذها حاضر الناس عن ماضيهم ، غير ناظرين فيها إلى أكثر من أنها سنة الآباء والأجداد ، ولم يجدوا من ينكر المنكر منها عليهم !؟ ولعلها وجدت من يبيحها ، أو يستحسنها ويقويها !! فعلها واعتادها غير المتفقهين ، وسايرهم فيها المتفقهون ، واحتملوا إثمها وإثم من ابتكرها وفعلها إلى يوم الدين !! .

استقرت هذه العادات فى المجتمعات الإسلامية بلونها الدينى حتى ظن غير المسلمين أنها من شئون الإسلام ، والإسلام منها برىء .

وبذلك ألصق بالدين ما ليس منه ، واستطاع الزائرون الأجانب أن يتخذوا لها رسوما شمسية ، صوروا بها الإسلام فى بلادهم على غير حقيقته تشويهاً للمجتمع الإسلامى ومسخاً للإسلام .

ومن هنا عظمت الجريمة وتضاعفت المسئولية ولكن على من تقع ؟ ومن عليها يحاسب ؟

أعتقد أن الذين تقع عليهم المسئولية ، ويحاسبون عليها ، يعلنون فى قرارة أنفسهم أنهم هم المسئولون ، المحاسبون ! .

جاء الإسلام وللناس عادات ، بعضها حسن طيب مفيد ، فأقرها وقواها .

وبعضها سيء خبيث ضار ، فأنكرها وحاربها وألغاها .

وكان هذا هو شأن الإسلام فى كل ما جد فى ظله من عادات: الحسن، يقره ويسميه «سنة حسنة»، والسيء يدفعه ويسميه «سنة سيئة».

وكان شأن القائمين على أحكام الإسلام وبيانها ، أن يسيروا مع العادات ، حسنها وسيئها ، على هذا المبدأ العام الذى قرره الإسلام فى التقرير والإنكار ولكن .... !

الأحكام الشرعية :

ولمعرفة حكم الشرع فى عادات المآتم ، وهو موضوع فتوانا ، ينبغى أن يعرف المسلمون ، أن الحكمة فى تشييع الجنازة الذى طلبه الشرع وحث عليه ، هى الاتعاظ بالموت، واستحضار جلاله ، الآخذ بالنفوس القاضى على غطرستها ، المذكر بيوم الحساب والجزاء «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً» .

وقد جاء فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ما معناه : «اتباع الجنازة يذكر بالآخرة» .

الصمت عند الجنازة :

١ ـ وتحصيلا لهذه الحكمة السامية طلب الشارع الصمت من المشيعين حتى تخلص العظة إلى النفس ، ويقوى التذكر فى القلب ، وفى ذلك ما ورد عن الرسول «أن الله يحب الصمت عند ثلاث :

عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف ، وعند الجنازة». ومن هنا علم حكم العادة الأولى، وحرم رفع الصوت فى تشييع الجنازة ، ولو بالذكر وقراءة القرآن ، وطلب الاستغفار للميت ! ! وقد روى أن أحد المشيعين لجنازة على عهد رسول الله رفع صوته بالاستغفار للميت ، فقال له الأصحاب بمسمع من النبى صلى الله عليه وسلم :

«لا يغفر الله لك» ، وإذا كان رفع الصوت بطلب الاستغفار ، وهو دعاء من الحاضرين للميت ، بهذه المثابة من الإنكار ، واستحقاق صاحبه المقت والتشنيع والدعاء عليه بالحرمان من مغفرة الله ، فما بالنا برفع الأصوات بغيره ، كالصياح والنياحة والندب وعزف الموسيقى ذات النغمات المحزنة ؟ ! .

وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن اتباع الجنائز التى معها «رانة» ، والرانة هى المصوتة ، أى ذات الصوت، فتشمل بعمومها

النائحة والموسيقى والقارئ والذاكر فكل ذلك أمام الجنازة حرام ومنهى عنه .

وليس من شك فى أن هذه المظاهر - فضلا عن أنها تحول دون التذكر والاتعاظ تثير الأحزان وتضاعف الأسى ، وتخلع القلوب ، وتأخذ بها عن جميل الصبر وفضيلة الرضا بقضاء الله .

وقد سمع عمر بن الخطاب مرة ندبا أو نياحة ، فدخل مكان الصوت ، وأخذ الحاضرين بدرته حتى بلغ النائحـــة فضربها حتى سقط خمارها ، وقال لمن معه : « اضرب ، فإنها نائحة ولا حرمة لها ، إنها لا تبكى لشجوكم ، إنها تريق دموعها على أخذ دراهمكم ، وإنها تؤذى موتاكم فى قبورهم ، وأحياءكم فى دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه » .

ولا أدرى ماذا كان يفعل عمر لو رأى ما نرى وسمع ما نسمع : فى الشوارع ، والمقابر ، والنوادى ، ماشيات ، حافيات ، راكبات ، قد صبغن وجوههن وملابسهن ، وغيرن خلق الله ؟ .

الذبح عادة جاهلية :

٢ - أما الذبح عند خروج الجثة ، أو عند وصولها إلى القبر ، فهو عادة جاهلية وقد نهى النبى عنها بقوله : لا عقر فى الإسلام . وهو بعد ذلك لون من ألوان المباهاة والفخر ، وللصدقة بجالها فى المكان والزمان والأشخاص

إقامة المآتم :

٣ - أما إقامة المآتم ليلة فأكثر على الوجه المعروف من نصب السرادقات ، والإنفاق عليها بما يظهر بهجتها ، فهى قطعا إسراف محرم بنص القرآن ، وتشتد حرمتها إذا كان وارث الميت قاصراً ، يحمل كل هذه النفقات أو كان أهل الميت فى حاجة إليها ، أو كانوا لا يحصلون عليها إلا عن طريق الربا المحرم ، ولم تكن التعزية عند مسلمى العصور الأولى إلا عند التشييع ، أو عند المقابلة الأولى لمن لم يحضر التشييع .

الخميس والأربعين :

٤ - ومن هنا ، لم يكن معروفا فى الإسلام مايعرف اليوم من خميس صغير أو كبير ، فضلا عن الأربعين والمواسم والأعياد ، التى يجدد فيها الناس اليوم الأحزان ويعيدون بها المآتم ويشغلون بها الناس عن أعمالهم النافعة فى الحياة

لا حداد إلا لامرأة على زوجها :

٥ - ومن عادات المآتم ، إظهار الحزن بالامتنـــاع عن صنع بعض أنواع الأطعمة أو تناولها وبالملابس السوداء ولو برباط العنق الأسود ، وأن يستمر ذلك مدة قد تبلغ سنة كاملة ، وقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن استدامة الحزن وإظهاره فوق ثلاثة أيام إلا لامرأة مات عنها زوجها ، فجعل لحزنها مدة عدتها ، أربعة أشهر وعشرة أيام .

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : للأستاذ عبد الرحيم فودة

الجبن والإيمان لا يجتمعان :

المؤمن من يوقن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء فلا يفيده التباطؤ عن أداء الفروض زيادة فى الأجل . ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه .

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنيين . إما أن يعيش سيداً عزيزاً . وإما أن يموت مقربا سعيداً وتصعد روحه إلى أعلى عليين . ويلحق بالمكرمين والملائكة المقربين .

من يتوهم أنه يجمع بين الجبن وبين الإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه . وغرر بعقله . ولعب به هوسه ، وهو ليس من الإيمان .

هذا نؤمل من ورثة الأنبياء أن يصدعوا بالحق . ويذكروا بآيات الله . وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته . والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك .

وفى الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الأمر بذاك المعروف . والنهى عن هذا المنكر) زمنا قليلا . ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف . وإحيائها فى أنفس المؤمنين . لرأينا لذلك أثرا فى هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوما تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا . وهو مجد الله الأكبر ، فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم . وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه . ويسير من التذكير . وينهضون نهضة الأسود فيستردوا مفقودا ، ويحفظوا موجودا ، وينالوا عند الله مقاما محمودا .

الإمام محمد عبده

من مجلة العروة الوثقى

* * *

المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كل خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان

كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل . فإن لو تفتح عمل الشيطان .

« حديث شريف »

تاريخ كلمة « الاشتراكية »

... وقد كانت المناسبة ... أن أحد كبار الأدباء الأتراك كان يغشى مجلس جمال الدين « الأفغانى » ، وأن جمال الدين كان يحترمه لذكائه وحسن أدبه ، وكان الرجل أشد حرصا على الاقتباس من آراء السيد والتتلمذ عليه . وقد سأله يوما عن حكم الدين الإسلامى فى المذهب الاشتراكى . فأسهب السيد فى بيان هذا الحكم وأنكر آراء القائلين بمخالفته لأصول الإسلام مؤكداً سبق الإسلام إليه بالأدلة المفصلة من الكتاب والسنة ووقائع التاريخ ، ثم ختم كلامه بعد الإفاضة فيه من زيادات الرواية قائلا : إن اشتراكية الإسلام هى عين الحق . وإن الحق أحق أن يتبع .

ويؤخذ من مقدمة الخاطرات « خاطرات المخزومى باشا » أنه رواها عن السيد جمال الدين أثناء مقامه بالآستانة فى الفترة بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٧ وقد كانت كلمة اشتراكية معروفة ـ إذن ـ قبل بداية القرن العشرين ببضع سنوات .

وقد تلقيت رسالة أخرى فى هذا الموضوع من الأستاذ أحمد المصرى السكرتير العام لنقابة البحارة بالإسكندرية يلخص فيه ذكرياته عن أوائل تاريخ هذه الكلمة باللغة العربية فيقول : إن أول من كتب عن الاشتراكية فى العربية هما السيد جمال الدين الأفغانى والأمير شكيب أرسلان ، وأنهما نشرا أبحاثاً عن الاشتراكية فى الإسلام ليعارضا بها الاشتراكية الغربية » .

العقاد

من جريدة الأخبار

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

زهير بن أبى سلمى

إن الأشعريين إذا أرملوا (افتقروا) فى الغزو ، وفنى زادهم أو قل طعام عيالهم بالمدينة . جمعو ما كان عندهم فى ثوب واحد. ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

حديث شريف

من كتاب رياض الصالحين

الأصل فى الأشياء الإباحة

كان أول مبدأ قرره الإسلام : أن الأصل فيما خلق الله من أشياء ومنافع ، هو الحل والإباحة ولا حرام إلا ما ورد نص صحيح

صريح من الشارع بتحريمه ؛ فإذا لم يكن النص صحيحاً — كبعض الأحاديث الضعيفة — أو لم يكن صريحاً في الدلالة على الحرمة ، بقى الأمر على أصل الإباحة وقد استدل علماء الإسلام على أن الأصل في الأشياء والمنافع الإباحة ، بآيات القرآن الواضحة من مثل قوله تعالى: «هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً(١)» «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه»(٢) «ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة»(٣) وما كان الله سبحانه ليخلق هذه الأشياء ويسخرها للإنسان ويمن عليه بها ، ثم يحرمه منها بتحريمها عليه . وكيف وقد خلقها له ، وسخرها له وأنعم بها عليه ؟

وإنما حرم جزئيات منها لسبب وحكمة سنذكرها بعد .

ومن هنا ضاقت دائرة المحرمات فى شريعة الإسلام ضيقاً شديداً ، واتسعت دائرة الحلال اتساعا بالغاً . ذلك أن النصوص الصحيحة الصريحة التى جاءت بالتحريم قليلة جداً ، وما لم يجىء نص بإباحته أو حرمته، فهو باق على أصل الإباحة ، وفى دائرة العفو الإلهى .

وفى هذا ورد الحديث «ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام . وما سكت عنه فهو عفو . فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، وتلا «وما كان ربك نسياً»(٤) . وعن سلمان الفارسى (٥) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السمن والجبن والفراء فقال (الحلال ما أحل الله فى كتابه ، والحرام ما حرم الله فى كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم)(٦) فلم يشأ عليه السلام أن يجيب السائلين عن هذه الجزئيات ، بل أحالهم على قاعدة يرجعون إليها فى معرفة الحلال والحرام ، ويكفى أن يعرفوا ما حرم الله فيكون كل ماعداه حلالا طيباً . وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها(٧)

الأستاذ يوسف القرضاوى

من كتاب الحلال والحرام

---

(١) سورة البقرة : ٢٩

(٢) سورة الجاثية : ١٣

(٣) سورة لقمان : ٢٠

(٤) سورة مريم : ٦٤

(٥) رواه الحاكم وصححه وأخرجه البزار

(٦) رواه الترمذى وابن ماجه

(٧) الأستاذ يوسف القرضاوى من كتاب الحلال والحرام رواه الدارقطنى وحسنه

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الثالث — السنة الخامسة والثلاثون — جمادى الأولى سنة ١٣٨٣ هـ - أكتوبر ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الوحدة الإنسانية مزية الدعوة المحمدية

بقلم : أحمد حسن الزيات

أدرك الزنوج السود والهنود الحمر أخيراً أنهم لا يزالون في الدركة السفلى من سلم المجتمع المسيحي الأمريكي بعد أن شاركوا القوم في لغتهم ودينهم وثقافتهم وحضارتهم، واطمأنوا إلى إعلانهم حقوق الإنسان في (هيئة الأمم المتحدة) في ديسمبر من عام ١٩٤٩، وظن أبناء الأب حام أنهم أصبحوا في ظلال الإخاء والحرية والمساواة إخوة لأبناء العم سام، يتمتعون معهم بكرامة الآدمية ونعمة الديمقراطية ونعيم الحضارة ... أدركوا بعد أولئك كله أنهم ما زالوا يعاملون في وطنهم ومن مواطنيهم معاملة المنبوذين الأنجاس، لا يساكنونهم في عمارة، ولا يزاملونهم في مدرسة، ولا يجالسونهم في ملهى، ولا يؤاكلونهم في مطعم، ولا يعاملونهم إلا معاملة الحيوان المسخر والرقيق المستغل. فثار في نفوسهم ما هدأ على طول الزمان وإلحاح الهوان من حمية الإنسان الحر، فضجوا واحتجوا وأعلنوا آلامهم بالمظاهرات الهاتفة والمسيرات الصامتة، حتى

أن تبلغ أناتهم مسامع (البيت الأبيض) فيعي ، وقلوب (الشعب الأبيض) فيحس . ومن وراء ذلك الوعى وهذا الإحساس يتمنى الملونون أن يدخلهم المستكبرون فى مفهوم الإنسان الذى أعلنوا له الحقوق ، ومحوا ما بينهم وبينه من الفروق !

دعانى ذلك إلى التفكير فى أمر التفرقة العنصرية فى أمريكا وإفريقيا وفى سر التفرقة الدينية فى فيتنام الجنوبية ، فأيقنت مرة أخرى أن العصبية الحمقاء هى علة العلل فى التفريق بين الأسر والقبائل والأوطان والألوان والعقائد ، فإن المتعصب المفرد أو الجمع متى واتته القدرة وأمكنه السلطان لا يستطيع أن يبرئ قيادته ولاسياسته من هواه ، فيزن بميزانين : هنا الخفة وهناك الثقل ، ويكيل بمكيالين : هنا الاستيفاء وهناك التطفيف ، ويحكم بقانونين : هنا الرحمة وهناك القسوة ، وبهذه التفرقة التعسفية بين الإنسان والإنسان فى الحقوق والواجبات تضطرب الأمور وتفسد النفوس ويشقى العالم !.

المسلمون وحدهم هم الذين سلموا من داء التفرقة العنصرية والوثنية والعقيدية ؛ لأن شرعهم هو شرع الله ، وما كان لبشر سليم الفطرة ليرتاب فى أن الذى برأ الخلق على اختلاف فى القدرة والحيلة ، وأنشأ الغرائز على اتفاق فى الطمع والغيلة ، هو أعلم بما سينشأ فى كونه من تصادم القوى وتعارض الأهواء ، فلا جرم أن يكون شرعه دستوراً كاملا تصلح عليه شئون الفرد وأحوال الجماعة من كل جنس وفى كل عصر وعلى كل أرض .

ولقد كانت إدامتى النظر والفكر فى مصادر الإسلام الصافية مصداقا لهذه الفكرة ؟ فإن غير الله لا يملك أن يضع فى الإسلام هذه الأسس والقواعد التى تضمن نظام العالم وسلامه مهما تختلف الأجيال ويتطاول الأمد . وهل كان لولا وحى الله فى مقدور رجل أمى نشأ فى قرية جاهلة من قرى الحجاز الجديب أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحريته وهى التى أعلن بعضها فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ثم أعلن بعضها فى أمريكا سنة ١٩٤٩ ولم يكن هذا الإعلان ولا ذاك إلا فورة نفاق جاشت ثم قرت .

لم يكن الشرع الإلهى إلا إشراقا انبثق من السماء فى غار حراء فكشف للرسول الكريم عن أطوار النفس البشرية فى طوايا الغيب ، فدعا دعوته الخالدة إلى تكريم الإنسان وتنظيم العمران وتعميم الخير وتحقيق السعادة من طريق التوحيد والمؤاخاة والمساواة والحرية والسلام ؛ فالتوحيد سبيل القوة ، والمؤاخاة سبيل التعاون ، والمساواة سبيل العدل ، والحرية سبيل الكرامة ، والسلام سبيل الرخاء . وتلك هى الغايات

التى ترجو الإنسانية بلوغها عن طريق العلم والمدنية فلا تنكشف أمانيها بعد طول السرى وفرط اللغوب إلا عن سحاب خلب وسراب خادع .

هذه المبادئ المثالية التى تضمنتها دعوة الإسلام معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تكلف . فالتوحيد كما قلت فى موضع آخر ركن من أركان الدين وعنوان من عناوينه . وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الإصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة ؛ وهو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد القبلة ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد الحكم ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا . وشواهد التوحيد فى أشتات معانيه مذكورة فى كتاب الله لا يختلف فى مدلولها أحد .

• • •

إن وحدة الإنسانية هى مزية الدعوة المحمدية على كل دعوة .. فى سبيلها صدق الإسلام بكل دين أنزل ، وبكل رسول أرسل . ودعا الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا إلى خطة واحدة وكلمة سواء . ثم وصل الدين بالدنيا وكانت اليهودية والنصرانية تفصل بينهما ؛ فالأولى كان همها الصفق والاجتراح ، والأخرى كان سبيلها الرهبانية والنسك . ولكن الإسلام جعل الدين للدنيا كالروح للجسد . فلا تعمل إلا بوحيه ، ولا تسير إلا على هديه . ثم آخى بين المؤمنين ليجتمعوا على صدق المودة ، ويتعاونوا على لأواء العيش ، فلا يبغى قوى ولا يبخل غنى ولا يظلم متسلط .

بدأ ذلك بالتأليف بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ، ثم توثقت عرى الإخاء بين المجاهدين فى سبيل الله حتى صار المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

كذلك فى سبيل الوحدة الإنسانية والأخوة الإسلامية فرض الإسلام الزكاة وشرع الحج وأمر بالإحسان والبر ، ثم سوى بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم فى الحقوق والواجبات بمحو العصبية الوطنية وقتل النعرة الجنسية ، وجعل التقديم والتكريم للتقوى فقال الرسول الكريم فى خطبة الوداع : « إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وفى هذه الأصول الإسلامية كما ترى أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى

(البقية على الصفحة التالية)

الرّحمة المهداة

للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر

منذ أربعة عشر قرنا ، عند ما أراد الله لبنى الإنسان الهداية والرحمة ، خرج إلى هذا الوجود محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه يتيما من الأب الذى مات قبل أن يولد ، فقيراً تتجافى عنه المراضع الباحثات عن الثراء بين ولدان مكة ، فانشق بمولده إيوان كسرى إيذانا بميلاد دولة الحق وخمدت فى نفس الوقت نيران فارس إيذانا بأمة التوحيد .

لا إله إلا الله وحده .

الناس كلهم عباد وإخوة ، سواسية كأسنان المشط ، لا سادة ولا عبيد بعد اليوم ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى وطاعة الله .

وما أجدر المسلمين أن يتعرفوا عظمة نبيهم محمد التى تجلت آثارها فى أطوار حياته كلها ، فلم تكن عظمته من جنس العظمات البشرية المألوفة ، فهى ليست من عظمة الملوك الجبارين ، الذين يستعذبون أنين الإنسانية واستعباد الخلق وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يعثون فى الأرض ، وليست من عظمة الأغنياء الموسرين الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق ، إنها عظمة رحمة

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الاشتراكية، وأجمل ما فى المدنية ، فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وتقيم ما اعوج من نظام الدنيا ، ولقد كانت كذلك يوم كانت لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعانا فى فدافد الأرض ، لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى .

ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحضارة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه !

فليت شعرى متى يتاح لدعوة محمد أن تتجدد ، ولأمة محمد أن تتوحد ، فتجمع بين القوتين قوة الروح بالدين وقوة المادة بالدنيا !

أحمد حسن الزيات

وعطف، عظمة هداية وإرشاد، عظمة تثقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتعمير ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تتمثل فى تلك التعاليم التى وحدت بين قلوب متنافرة ، وربطت بين قبائل مبعثرة ، كونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال ، ذات شخصية ثابتة استطاعت أن تسوس شعوب الأرض على دعائم قوية من العلم والمعرفة ، والحكمة والعدل ، والتضحية والإخلاص .

وهكذا تلمع هذه الذكرى الحبيبة فى كل موطن من مواطن الإسلام ، عقيدة وعبادة وقدوة واهتداء ، وتفتر عنهما ملايين الألسنة والشفاه فى مشارق الأرض ومغاربها كلما أذن مؤذن ، أو أجاب مجيب ، أو صلى مصل ، أو أمن مؤمن ، أو تلا تالٍ ، أو حدث محدث .

كان إيمان الأولين بهذه الذكرى ، وبصاحب هذه الذكرى عليه السلام إيمانا عملياً ، بالأفعال قبل الأقوال ، بالقلوب والأرواح قبل الصور والأشباح ، بالدماء بالأموال ، بالأولاد ، بالأهل والعشيرة ، بالمتاع والنعيم ، بكل لون من ألوان التضحية والإيثار والجهاد : آمنوا بنبيهم . وذكرى نبيهم لا عن طريق الخطب تلقى فى شمائله ، ولا عن طريق الحفلات تطلق فيها الأنوار الصناعية وإنما آمنوا عن طريق اتباعه وإحياء سنته والتحلى بأخلاقه ، وإقامة شرعه ودينه ، آمنوا بهذا وعلموا أن الإيمان الحق يثمر المحبة الصادقة ، وللمحبة الصادقة حقوق وعليها تبعات ، فمن حقوقها المتابعة للمحبوب ، والرضا بما يرضيه ، والغضب لما يغضبه ، ومن تبعاتها تحمل المشاق والتضحية بأعز شىء فى سبيل الوصول إلى رضاه : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[١] ، « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره »[٢] .

هكذا كان شأن المؤمنين الأولين يوم كان الإيمان قوياً فى النفوس ، تشتعل جذوته فتلتهب الجوارح ، وتبذل الأنفس ، وهكذا كانت الذكرى ماثلة فى كل شىء : فى أقوالهم إذا نطقوا ، فى حركاتهم إذا تحركوا ، فى سكونهم إذا سكنوا ، فى جميع شئونهم الفردية والاجتماعية ، السرية والعلنية ، الدنيوية والأخروية أساسها هذا النور المبين الذى جاء به محمد عن ربه ، فكان دستور الحياة ، وينبوع العزة والقوة والسعادة : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٢) سورة التوبة آية ٢٤ .

الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » (١).

هكذا كان شأنهم ، كانت جميع أيامهم وجميع أوقاتهم وجميع أعمالهم ذكريات متجردة متابعة لهذا الرسول الكريم ، وكانت حالتهم مثالا صادقا ، ومرآة صافية ترى منها سيرته صلى الله عليه وسلم وشريعته وأخلاقه ، فلم تكن بهم حاجة إلى مذكر ، وهم فى الذكرى دائما سابحون ، وبنورها يهتدون

ظل المسلمون كذلك حتى ضعفوا واستكانوا ، فانطفأ هذا النور من قلوبهم وأقفرت بصائرهم من أسراره ، ولم يبق لهم منه إلا صور مرسومة بحروف فى الصحف أو الكتب يرجعون إليها كلما عاودتهم الذكرى ، أو أهل عليهم شهر ربيع .

اكتفوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلم فى شهر ربيع من كل عام ، كما اكتفى غيرهم ، وأنه كان على خلق عظيم ، وأن شريعته صالحة لكل زمان ومكان ، وتركوا الاقتداء والتأسى ، وانحازوا إلى شرائع وتقاليد وأخلاق لا يعرفها محمد ، وما أنزل الله بها من سلطان ، فانخفضت رءوسهم ، والتوت أعناقهم ، وضعف سلطانهم ، وتفرق شملهم ، وتناثرت عزتهم ، شغلوا بالقول ونسوا أن دينهم ومنبع عظمتهم ومجدهم أساسه الإيمان والعمل : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (١) .

ألا ما أشد حاجة العالم اليوم إلى تلك التعاليم السمحة ، كى يجد فيها حلول مشاكله التى طال عليها الأمد ، وكى يعرف طريقه الواضح إلى سعادة الروح والجسد ، وكى تنعم شعوبه المتأخرة بالأمن والطمأنينة إلى الأبد ...

ما أشد حاجة الإنسانية إلى مبادىء الإسلام وهديه فى التشريع والحكم ، فى الحرب وفى السلم ، فى الأسرة وفى المجتمع ، فى السياسة وفى الأخلاق ، فى الدين وفى الدنيا .

وما أشد حاجة المسلمين إلى الاقتداء بنبيهم فى هذه الفترة العصيبة من تاريخهم ...

لتلتئم الصفوف المتقاطعة ، ولتتقارب النفوس المتباعدة ، ولتصفوا القلوب على الإخاء والإيثار والمحبة .

وسلام على العالم من نبى السلام يوم مولده العاطر .

وسلام على المسلمين الذين يحتفلون بذكرى نبى الهدى والرحمة ، والبشائر .

محمود شلتوت

---

(١) سورة الإسراء آية ٩ .

(١) سورة العصر .

فلسفتي في الحياة والمبادئ التي اهتديت إليها

للأستاذ عباس محمود العقاد

إذا تكلم الناس عن فلسفتهم في الحياة ، فكلمة الفلسفة هنا - بحمد الله - لا تخيف ! لأن فلسفة كل إنسان هي في الواقع تجربة كل إنسان في حياته اليومية ، وليست تجاربنا - ولا محصول هذه التجارب في مبادئنا - بالشيء الذي يصعب علينا فهمه، أو يصعب علينا التفاهم عليه .

ومما ييسر علينا فهم هذه الفلسفة ، أن تكون - كما علمت بالتجربة الطويلة - ميراثا يولد مع الإنسان ويتربى معه في صباه . فقد علمتني تجارب الحياة من مبادئها أن الإنسان يظل طول حياته يبنى على الأساس الذي ولد معه ، ونما بنموه في صباه الباكر ... وكل ما زاد بعد ذلك فهو بناء فوق الأساس الأول ، يعلو أو يتنوع في تقسياته ومنافعه ، ولكنه لا يخرج بجدرانه عن نطاق ذلك الأساس .

فالمبادئ التي نسميها فلسفة الحياة هي كما علمت من تجاربي الطويلة أساس وبناء :

أساس لا اختيار للمرء فيه إلا القليل ، وبناء له فيه اختياره على أوسع حدوده وله بذلك الاختيار أن يجعل أدوار البناء وحجراته ومنافعه أجمل وأصلح مما يمليه عليه وضع الأساس الذي لا حيلة له فيه ... وكثيراً ما يتفق أن يكون المنزل بأساسه المحدود المعيب أرفع وأنفع من منزل آخر أوسع منه أساسا وأجمل منه موقعاً ، ولكن البناء المختار هو الذي يثبت في النهاية الفضل بين المنزلين .

وأحسب أن مبادئي في الحياة هي المبادئ الدينية على أساسها الأصيل : مبادئ ورثتها من أبوين متدينين لا تفوتهما فريضة في موعدها : الأب والأم في ذلك سواء ، كلاهما يؤدي صلاة الصبح عند سماع الأذان من المسجد القريب منا ، تكاد مئذنته أن ترتفع على جدران منزلنا ، ثم يؤديان كل صلاة في موعدها ، ومنها صلاة الظهر التي كان أبي يؤديها في مكتبه وإن ملأته الأوراق المستعجلة ، وكانت والدتي تؤديها عند سماع آذانها ، وإن نفضت يديها من شواغل البيت وهي لا تهمل واحدة منها .

أحسب أنني استفدت من هذه الخصلة عادة أنسب إليها كل عمل ناجح قدرت عليه منذ صباياي الأول ، وأعني بها عادة الانتظام في المواعيد ، لأن انتظام مواعيد الصلاة في منزلنا كان يتبعه انتظام المواعيد في كل شيء : في تناول وجبات الطعام ، وفي الذهاب إلى المدرسة أو الديوان ، وفي أوقات النوم واليقظة ، وفي أوقات الذهاب إلى السوق ، وفي أوقات المذاكرة أو اللعب أو مقابلة الناس .

ومن تنظيم المواعيد تعلمت تقسيم الأعمال على حسب أوقاتها ، فلا سبيل إلى تأجيل عمل منها بعد ذلك لعارض من العوارض المتجددة على غير انتظار ... ومن هنا اعتذاري - حتما - عن كل دعوة تعارض تلك الأوقات المقدورة على حسب الأعمال .

وعلمني تقسيم الأعمال والأوقات فائدة لا نظير لها في مواجهة المتاعب والمشكلات .

فنحن لا نتعب من عشرة أعمال كبار نؤديها في أوقاتها كما نتعب من عملين صغيرين نرتبك بينهما : أيها نبدأ به وأيها نؤجله ، وأيها نستعد له ، وأيها لا يحتاج إلى استعداد .

إن « الربكة » بين الأعمال هي أكبر المعطلات وأخطرها ، وتقسيم الأعمال على حسب أوقاتها يريحنا من الربكة ويفرغ قدرتنا كلها لكل عمل في حينه ، ولا فرق بين العمل الكبير والعمل الصغير ما دمنا قادرين على هذا وذاك ، وما دمنا نعطي هذا وذاك كل ما هو أهله من العناية والوقت وهدوء التفكير .

إذا قلت إن مبادئي في أساسها دينية فهذا المثل يفسر ما أعنيه : لأنه يدل على أن الأساس الديني قد يبني عليه مثل هذا البناء من تنظيم الوقت وتقسيم العمل والإعراض عما عدا ذلك من الحواشي والفضول .

وتلازمني النظرة الدينية إلى الأشياء من حيث أريد ، أو لا أريد .

وأعني بالنظرة الدينية تلك النظرة التي لا تقنع بالجانب المادي أو الجانب الدنيوي ، في أية تجربة من تجارب الحياة ... فلا تخلو منها نظرتي إلى الكون في عصر العلم ، ولا نظرتي إلى الدراسات الأدبية ، ولا نظرتي إلى قيم الأخلاق أو إلى المعاملات بين الناس ... وقد يخفى أثر هذه النظرة أو يظهر لأول وهلة ولكنه كائن مستقر في طبيعته الخفية وإن تعددت تفسيراته وترجماته على اللسان .

قيل إن عصرنا هذا هو عصر المادة كما سماه بعضهم منذ أواسط القرن التاسع عشر ، ولكنني أنظر إليه فأرى أن التسمية الآن

لا تصيب، وأنها لا تقرر لنا الواقع إن كانت قد أصابت أو قررت الواقع قبل ستين سنة ... لأن الذين قالوا عن أنفسهم إنهم ماديون إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يحسبون أنهم حصروا وجود المادة بدق الأيدى وطرق الأرجل، أو بلمحة العين وسماع الأذن، وأنهم حصروا الوجود الصحيح بذلك، وكل ما عداه فهو شيء غير موجود لأنه غير منظور وغير مسموع وغير مدقوق بالأيدى أو مطروق بالأقدام ..

فاليوم يثبت لنا العلم أن إدراك حقيقة المادة كإدراك حقيقة الروح، وأن الذين ظنوا أنهم محققون لأنهم ماديون، لا يعرفون من المادة فى النهاية إلا أنها معادلات رياضية وذبذبات فى الأثير، ثم لا يعلمون عن الأثير أكثر مما يعلمون عن عالم الروح :

كل عنصر من عناصر المادة فهو يتألف من النواة والكهرب، وكل نواة تنقسم فإذا هى شعاع ... وما الشعاع ؟ هزات فى الأثير . . . وما الأثير ؟ قل علمه عند ربى كما تقول عن عالم الروح فليس للماديين أن يتطاولوا بالعلم هنا على الروحانيين أو العقليين، أو ما شاءوا من المفكرين والمؤمنين غير الماديين .

ويقال عن هذا العصر أيضاً إنه عصر الفضاء، وهو كذلك عصر الفضاء .

ولكن العصور جميعاً - فيما أعلم - لم تعرفنا بقيمة الأرض بين الأفلاك السماوية كما عرفنا عصر الفضاء بقيمة الأرض السماوية، لأنها قيمة تنفرد بها بين الشموس والكواكب والسيارات . فإن لم تكن منفردة بها فهى - على التحقيق - أعجوبة نادرة لم تصل أرصاد الفلك إلى مثيل لها فى آفاق السموات، ومن هذه الأرصاد ما يرى بالبصر إلى ألوف الألوف من السنين الضوئية .

فليس من حوادث الفلك المتكررة كل سنة، أو كل ألف سنة أو كل مليون سنة - أن تتجمع منظومة شمسية بسياراتها كما تجمعت منظومتنا الشمسية ... وليس من حوادث الفلك المتكررة أن تكون بينها سيارة تتوسط فى وقت واحد ، فى درجة الحرارة، وفى مقدار الحجم، وفى قوة الجاذبية، وفى تداول النهار والليل والنور والظلام وفى تقسيم العناصر ولا سيما العناصر الصالحة للحياة .

وليس من الحوادث المتكررة أن تجتمع هذه المصادفات كلها فى التوسط والتقابل، لتكون هى الأوفق لظهور الحياة على ظهرها

ومن المحقق أن الكشوف الحديثة لم تكشف لنا عن كائنات عقلاء يسكنون السيارات العليا ويحاولون أن يعرفونا كما نحاول نحن أن نعرفهم ، فلماذا لم يحاولوا كما نحاول ؟ ولماذا لم يسبقونا أو يشتركوا معنا فى بحثنا عنهم وبحثهم عنا ؟ ...

كل تفسير لهذا السر ينتهى بالعلم إلى السر الذى عرفناه بالإيمان : إن هذه الكرة الأرضية فى مكان خاص من الكون الواسع ، ولا يغير هذه الحقيقة كشف من كشوف الفلك يدلنا بعد حين على سكان عقلاء على مسافة كذا من الملايين من السنين الضوئية . فإن سر الحياة ـ بعد ذلك ـ لا يزال سرا نادرا ، يحتاج إلى اختصاص عجيب بين أرجاء السموات الواسعة ولا تقوى على إظهاره كل مادة تتفاعل ولا كل حركة تحملها الذرات والكهارب والنويات بين ملايين الأجرام السيارية ، فى ملايين السنوات الضوئية أو غير الضوئية .

وهذه فلسفة يقول الماديون ـ إذا شاءوا ـ إنها لم تخل من أثر التفكير الدينى القديم ... ونحن نسبقهم ، أو قد سبقناهم إلى الكشف عن أساسها الدينى القديم ، ولكننا فى هذا العصر نتعلم من التفكير المادى أيضا ـ إذا صح علم الماديين ـ دروسا جمة فى التواضع أمام الحقائق الكونية ، وأمام حقائق الحياة ... فإن سر المادة قد أصبح اليوم أحوج إلى الإيمان من سر الروح ، وإن عصر الفضاء هو الذى يقول عن الحياة إنها ظاهرة خاصة بين ظواهر الكون ، وإنها بعد تفسير المادة فى حاجة إلى تفسير كثير ، لأن المادة موجودة فى كل مكان ، ولكن الحياة توجد هنا وهناك على آفاق بعد آفاق ، ولعلها لا توجد هناك فى مكانها المجهول إلا على الظن والتقدير .

* * *

ولكل منا ـ نحن بنى الإنسان ـ فلسفاتنا الكثيرة أو مبادئنا الكثيرة ، إلى جانب هذه الفلسفة الكبرى التى تحيط بها مسألة المسائل عندنا : وهى مسألة الحياة كلها ، أو مسألة الوجود بما تتسع له أمامنا من ظواهره وخفاياه .

لكل منا فلسفاته أو مبادئه ، فيما يعنيه من شئون النفس ، أو شئون المعيشة ، أو شئون الناس

وتلك هى مبادىء فكرية ، أو عملية تهدينا اليها التجارب المتتابعة ، ثم يأتى دورها فتهدينا هى إلى تصحيح تجاربنا ، وإلى اختصار محاولاتنا المشتتة فى محاولة

واحدة : هى أهدى منها وأقرب إلى القصد وتوفير الأوقات والجهود .

وهذه المبادئ على كثرتها ، يمكن بالتجربة أيضا أن نجمعها - فيما يعنينا نحن المشتغلين بالأدب والفن - فى أصول ثلاثة من المبادئ الشاملة : مبدأ الأدب والفن ، ومبدأ الأخلاق ، ومبدأ المعاملة ، وكلها من المبادئ التى يصح أن تكون عقيدة إيمانية لارتباطها بالوجدان والشعور كما يصح أن تكون قضية فكرية لارتباطها بالأسباب ومسوغات العقل والنظر .

مبدأ المبادئ - فيما اهتديت إليه من تجارب الآداب والفنون ، أن الفن كله تعبير جميل عن الشعور الإنسانى الصادق : الفن هو الإنسان معبرا عنه ، والتعبير هو قدرة إنسانية جميلة ، أجملها هو الذى يستطيعه أصدق المعبرين :

وليكن الإنسان ما شاء فالتعبير الصادق عنه هو الفن الذى يحيا ، ويستحق أن يخلد خلود الإنسان .

ليكن ابن هذا البلد وذاك ، وليكن ابن هذه الطبقة أو تلك ، وليكن فتى أو شيخا وفقيرا أو غنيا ، ومتحدثا عن الطعام والكساء ، أو متحدثا عن الفضاء والهواء ، أو عن زهرة على الأرض أو نجم فى السماء .

إنه إذا كان إنسانا صادقا فى كل هذا ، أو فى بعض هذا ، فحسبنا منه تعبيره كما يعبر الإنسان ... فإن يكن قد ألغى إنسانيته فليذهب بعيداً عنا نحن بنى الإنسان ، فلا شأن لنا ببلده ولسانه ، ولا بغناه وفقره ، ولا بطعام معدته أو كساء جلده ، حيث يتساوى طعام الإنسان والحيوان ، ويتلاقى نسيج الآدمى وجلد النمر وصوف الخروف .

أما مبادئ الأخلاق فلست أعرف لها قاعدة تقام عليها خيرا من القاعدة التى تقام عليها جميع مطالبنا وحاجاتنا .

نحن نطلب الثمرة الجيدة ولا ننتظر من أحد أن يكافئنا على اختيارنا ، بل نحن نبذل فيها أضعاف ما نبذله فى الثمر الردىء ، وكذلك نصنع حين نختار الملبس والمسكن والدواء : لا ننتظر أن نأخذ جزاء على اختيار الحسن منها ، بل نحن نعطى المزيد من الجزاء حيث وجدناها .

وكذلك الخلق الجميل ، هو أحرى أن نحمل كلفته ونبذل فى سبيله ، من أن نعمله ونترقب المكافأة عليه ... أو كما قال حكيمنا العظيم أبو العلاء :

فلتفعل النفس الجميل لأنه
خير وأجمل ، لا لأجل ثوابه

أما معاملة الناس فالخير كل الخير أو الراحة كل الراحة ، أن نحسبهم بصفاتهم وطباعهم لا بأسمائهم وأشخاصهم : فإننا إذا ابتلينا منهم بصفات الطمع والخداع والحسد والجهل والكسل وما إليها إلى غير نهاية — لم نفاجأ منهم بجديد ولم نشعر بصدمة المفاجأة بعد تجاربنا الأولى معهم : إذا ابتلينا منهم بألف طامع كل حين قلنا لأنفسنا : وما ذاك ؟ وأي غرابة فى طمع هذا الطامع اليوم ؟ أليس الطمع أمراً معهوداً من بنى آدم وحواء ؟ أليس طامعنا هـــذا كأولئك الطامعين ، أو كهؤلاء الطامعين ...

ذلك أصوب وأدنى إلى الراحة من أن نحاسب الناس فلانا بعد فلان ، وزيدا بعد زيد ، وبكرا بعد بكر ، وخالدا بعد خالد ... فإن الطمع من كل منهم - إذن - ليبتلينا بمفاجأة جديدة وصدمة جديدة فى كل حادثة جديدة ، ولا نهاية للتجارب المتكررة على هذا المنوال .

وأحسبنى لا أبرئ الذمة إذا زعمت أنى حدثتكم عن فلسفتى فى النظر إلى الكون والحياة ، وإلى الآداب والفنون ، وإلى الأخلاق والمعاملات ، ولم أحدثكم عن شئون كل يوم من عادات المعيشة فى المقام والطعام ، وبخاصة حين تعود بنا هذه الشئون إلى فاتحة الحديث عن العبادة والنظام .

أرى مما راقبته من أمر نفسى أنى لا أغير عادة من العادات إلا ما عرفت سببا لتغييره أو لمست وجه الحكمة فى هذا التغيير ، فلم أغير شيئا قط لأنه زى تغير ، ولم أنتحل زيا قط لأنه زى شاع . ومن هنا أننى لم أغير مسكنى المأجور أكثر من خمس وثلاثين سنة وأننى ألبس اللفاع - أو الكوفية - اليوم كما لبستها فى إبان صباى ، لأنها من مطالب الوقاية الصحية وليست من عادات الأزياء .

وأرى كذلك مما راقبته من أمر نفسى أن الصيام فريضة لو لم تأمر بها الأديان لدبرها الناس بحكم الخبرة فى المعيشة . وقد رأينا الجنس اللطيف يصوم عن الطعام المشتهى والشراب الهنىء نشدانا للجمال ، ورأينا أبطال الرياضة البدنية يصومون مثل صيامهن نشدانا للقوة والرشاقة . وأرانى - ولست على مذهبهم ولا مذهبهن - أصوم يوما كل أسبوع عما عدا السوائل ، لأنه أصح وأقوم للبدن والمزاج .

ونعود كما بدأنا فنقول : إنها عادات ومبادئ إلا أنها - مهما يكن فيها من نصيب التفكير لا تخلو من نظام العبادة وصبغة الإيمان ؟

عباس محمود العقاد

شخصية الرسول الأعظم

للأستاذ محمد محمد المدنى

إن كل خلق من الأخلاق له تعديل، به يكون توازنه، ويتم كماله، ويكون له فى صاحبه وفى الناس أثره الطيب، وإذا أردنا أن نمثل لذلك فيما يعرف الناس من أخلاق الرجال، فإننا نمثل له برجل يوصف بالحلم وليس له بجانب هذه الصفة من قوة الشخصية ما يجعل له هيبة تصون حلمه، وتكون بمثابة السياج الذى يحميه من جهل الجاهلين، وجرأة المتجرئين.

فالحلم خلق جميل، لو أنه تمثل بشراً لكان إنساناً مبتسما، هادئ الملامح، ذا حياء واحتشام، يغض من بصره، ويخفض من صوته، ويسوده التسامح، وتسيطر عليه الرحمة.

ولكن هذا الخلق الجميل بحاجة إلى خلق آخر يكون بجانبه، هو الهيبة التى لو مثلت لصورت الوقار والجلال، وملامح الحزم والعزم، فإذا انفرد أحد هذين الخلقين فى شخص لم يكن هناك تعادل وتوازن: فإما أن يكون الشخص حليما فقط، فلا يخشى جانبه بل يقتحم ويجترأ عليه، وإما أن يكون رهيبا فيمقت ويجتنب ويتحاشى، وينفر منه الناس وينفضون من حوله.

وإذن فالكمال إنما هو امتزاج هذين الخلقين واجتماعهما حتى يتمم أحدهما الآخر. ويمده ويعينه ويمهد له، ولذلك يقول الشاعر:

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمى صفوه أن يكدرا

ويقـــول الفرزدق فى وصف الإمام زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما:

يغضى حياء ويغضى من مهابته
فلا يكلم إلا حين يبتسم

وما يقال عن الحلم والمهابة، يقال مثله عن الصفات الأخرى، كالصبر الذى يصبح بلادة إذا لم يقترن بالمرونة وسعة الحيلة ومحاولة التخلص من آثار الكوارث، وكالشجاعة التى تصبح ثرثرة وهذرا إذا لم يصاحبها الرزانة وعمق الفهم ومعرفة المواطن التى يحسن فيها القول، والمواطن التى يجمل فيها الصمت، وهكذا...

ولذلك يقولون: إنه ما من فضيلة إلا وهى وسط بين رذيلتين، فالصبر هو قوة الاحتمال والاتزان أمام النوازل، وهو متوسط بين البلادة التى هى موت الإحساس، والجزع الذى هو إسراف فى التأثر والانفعال، وقل مثل ذلك فى الغيرة، فهى وسط بين عدم

الاكتراث الذى يمكن أن نسميه « باللامبالاة » ـ أى يكون المرء لا يبالى بشىء ، ولا يكترث بما يحدث أمامه ولو أصاب كرامته أو كرامة من له حرمة عنـــده ـ وبين الشطط فى الاندفاع الذى يجعل الإنسان أحيانا يقتل لمجرد أن المقتول لمزه أو غمزه ببعض القول لجرح كبرياءه . . . إلى غير ذلك مما نسميه بالتوسط ، ويدل عليه القرآن الكريم فى مثل قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » . « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون . وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

أى يأخذون بحقهم فى الانتصار من البغى ولكنهم لا يتجاوزون الحق ، بل يكتفون بمثل ما حدث لهم .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى فى ناحية التعادل والتوازن بين ما حباه الله به من الصفات ، و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ، وهو الذى يقول مخاطبا إياه : « وإنك لعلى خلق عظيم » وينبىء على وجه التحقيق بأنه جعل منه أسوة وقدوة حسنة للمؤمنين إذ يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » .

ومن مظاهر هذا التعادل الخلقى اجتماع صفة الرحمة والرأفة فيه ، مع صفة الهيبة وقوة الشخصية .

(ا) فقد وصفه الله تعالى بالرحمة والرأفة فى كتابه الكريم حيث يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

وقوله تعالى « من أنفسكم » تعبير عن معنى التجانس المفضى إلى الألفة والمحبة والارتياح ، وفيه إشارة إلى أن يكون القائد من جنس الأمة ، وليس غريبا عنهم ولا مستعمراً لهم من غير جنسهم ، وقوله « عزيز عليه ما عنتم » إشادة بخلق الحاكم الذى يقلقه ويزعجه ويؤلم نفسه ما عسى أن يشق على شعبه ، ويوقع رعيته فى العنت ، فيحترز عن كل ما يؤدى إلى ذلك .

وقوله « حريص عليكم » إشادة بما يكون عليه الحاكم الأمين من حرص على منفعة شعبه ، وتحقيق لكل ما يؤدى إلى رغده وهناءته .

وينبغى أن ندرك من هذا كله قوة هذا الوصف الذى وصف الله به رسوله ، حيث نراه جل جلاله يخلع عليه صفتين من صفاته ، هما صفة الرحمة والرأفة اللذان يعتبران من أهم صفات الجمال القدسى ، ومن أبرز الأسماء الحسنى فيقول : « بالمؤمنين رءوف رحيم » .

كما ينبغى أن نقف عند آية أخرى مثل هذه الوقفة ، لندرك ما فيها من تصوير رائع

للرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول الله جل جلاله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » . فقد وصفه الله تعالى بأنه يلين لهم ، وأن هذا اللين صادر عن قسط عظيم منحه الله إياه من رحمته جل جلاله وذلك قوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم » .

ثم عاد فأكد هذا المعنى الذى جاء به على سبيل الإثبات والإيجاب بمعنى يساويه ويكمله جاء به على سبيل النفى والسلب ، وهو قوله : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، فنفى أنه فظ . والفظ : الكريه الذى لا تستريح إليه النفوس وهو فى الأصل « ماء الكرش » ، وكان العرب الراحلون ، ربما اضطروا فى الصحراء إلى نحر الجمل ، ليأخذوا الماء من كرشه فيشربوه حين يبلغ بهم العطش مبلغه ، ولا يجدون ماء سواه ، فذلك الماء المأخوذ من كرش البعير ، تسميه العرب « بالماء الفظ » لأنه مكروه شربه ، لا يتناول إلا فى أشد ضرورة وبذلك شبهوا به الرجل الذى لا يستساغ بين الناس إلا على نحو من الكراهية والاضطرار .

وكما نفى الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وسلم أن يكون « فظا » ، نفى عنه أيضا أن يكون « غليظ القلب » . وغلظة القلب : كناية عن عدم رقته ورحمته ، وقد جاء هذا النفى للخصلتين بأسلوب « لو » المفيدة للامتناع ونفهم من ربط الانفضاض من حوله ، بالفظاظة وغلظة القلب ، أن رحمته بهم كانت سببا فى عقد أواصر الألفة والمحبة بينهم وبينه ، فكأنه قال : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، فألفوك واجتمعوا على محبتك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لكرهوك وانفضوا من حولك » .

ثم نجد الآية ترسم له صلى الله عليه وسلم منهج الحكم السليم ، الذى يكون نتيجة وثمرة للخلق الحاكم المستقيم ، ذى اللين والرحمة والتنزه عن الفظاظة والغلظة ، فيقول : « فاعف عنهم » أى تجاوز عما عسى أن يفرط منهم « واستغفر لهم » أى لا تكتف بعفوك أنت ، ولكن اطلب من الله أن يعفو عنهم ويغفر لهم ، « وشاورهم فى الأمر » ليعلموا أن روحك إنما هى روح الباحث عن المصلحة المستنير فى سبيل الوصول إليها بآراء أصحابه .

وكذلك يقال فى غير هذين الموضعين من مواضع الإرشاد الإلهى ، للرسول الأمى ، فى مثل « فاصفح الصفح الجميل » ، « واخفض جناحك للمؤمنين » ، « واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يمكرون » ، إلى غير ذلك من الآيات المنبثة

مما اختاره الله تعالى لنبيه من صفات الجمال التى تعتمد على الرحمة والرقة واللين .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مطبقا لهذه الأوصاف تطبيقا عمليا ، على وجه يملأ القلوب روعة وإجلالا لخلقه العظيم :

فمن شفقته صلى الله عليه وسلم : تألفه العرب ورؤساء القبائل بالعطايا ، حتى كان سبب إسلامهم وفلاحهم ، قال صفوان بن أمية : « والله لقد أعطانى ما أعطانى وإنه لأبغض الخلق إلى فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلى » وأعطى أعرابيا عطاء ثم قال له : أأحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ! ، فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا ، فزاده شيئا ، ثم قال له أأحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فأمره أن يخبرهم بذلك فأخبرهم ثم قال لهم صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل هذا ، مثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفوراً ، فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل فى الصلاة يريد إطالتها فيسمع بكاء الصبى ، فيخفف خشية أن يشق على أمه ، وكان ربما قدم الإناء للهرة كى تشرب فما يرفعه حتى تروى وأخبار رحمته ورأفته صلى الله عليه وسلم حتى بالحيوان الأعجم كثيرة مشهورة .

٢ — وقد كان عليه الصلاة والسلام مع هذه الرحمة ، وهذه الشفقة مهيبا قوى الشخصية ، وفى حديث أوصافه صلى الله عليه وسلم « من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه فترة أحبه » .

ومن الوقائع المروية فى الكتب الصحيحة الدالة على قوة شخصيته ، وشدة مهابته ، ما رواه ابن عباس قال :

« إن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر ، فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وأساف — وهى أسماء أصنامهم : لئن رأينا محمداً ، لقد قمنا إليه — أى لنقومن إليه — قيام رجل واحد ، فلم نفارقه حتى نقتله ، فأقبلت ابنته فاطمة رضى الله عنها تبكى ، حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : هؤلاء الملأ من قريش قد تعاقدوا عليك ، لو قد رأوك لقد قاموا إليك فقتلوك ، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك ! فقال : يا بنية أرينى وضوءا » — أى احضرى لى ماء أتوضأ به — فتوضأ ، ثم دخل عليهم المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، وخفضوا أبصارهم ، وسقطت أذقانهم فى صدورهم ، وعقروا

أى دهشوا فى مجالسهم ، فلم يرفعوا إليه بصرا ، ولم يقم إليه رجل !

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قام على رءوسهم ، فأخذ قبضة من التراب ، فقال « شاهت الوجوه ! » ثم حصبهم بها - أى قذفهم - » .

وشبيه بهذا ما روى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص قال :

« حضرتهم يوما - يريد قريشاً - وقد اجتمع أشرافهم فى الحجر - أى حجر إسماعيل عند البيت الحرام - فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط : سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ! فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض مايقول - أى قالوا له مثلا : أنت الذى تسب آلهتنا ، أو هذا الذى يصيب ديننا ، أو نحو ذلك - وكرروا ذلك ثلاث مرات ، فكان يعرض عنهم ، ثم قال لهم فى المرة الثالثة : « تسمعون يا معشر قريش ! أما والذى نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح ! » ، فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة - أى توصية بإيذائه - قبل ذلك ، ليرفؤه أى يمدحه بأحسن ما يجد من القول ، حتى إنه ليقول : انصرف أبا القاسم ! انصرف راشداً ، فوالله ما كنت جهولا ! ! فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يتناذرون دمه غائبا ، حتى إذا طلع عليهم عقدتهم هيبته ، وأدهشتهم عظمته .

وقد رووا أن رجلا من قبيلة تسمى « إراش » قدم مكة بإبل له ، فابتاعها منه أبو جهل ثم مطله بثمنها ، فلم يوفه به ، فأقبل الرجل حتى وقف على ناد من قريش - ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد جالس - فقال الرجل : يا معشر قريش ، من منكم يعيننى على أخذ حقى من أبى الحكم بن هشام ؟ فإنى رجل غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حقى ! فقال له أهل ذلك المجلس أترى ذلك الرجل الجالس ؟ يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة - ثم قالوا اذهب إليه فإنه يأخذ لك بحقك من غريمك ، فأقبل الرجل حتى دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو لا يعرفه - فقال : يا عبد الله ، إن أبا الحكم ابن هشام قد غلبنى على حق لى قبله . وأنا رجل غريب ابن سبيل ، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لى حقى منه فأشاروا لى

إليك فخذ لى حق منه يرحمك الله ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انطلق إليه » ، وقام معه ، فلما رآه أهل المجلس قام معه تعجبوا ، وقالوا لرجل منهم : اتبعه فانظر ماذا يصنع ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء بيت أبى جهل ، فضرب عليه بابه فقال أبو جهل : من ؟ قال : محمد ، فاخرج إلى ، فخرج إليه خائفا يرتعد وما فى وجهه روح باقية ، قد امتقع لونه ، أى تغير . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعط هذا الرجل حقه ! فقال : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه الذى له ! فدخل ثم خرج بحقه فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للرجل : « الحق بشأنك » ، فأقبل حتى وقف على ذلك المجلس . فقال : جزاه الله خيراً ، فقد ـ والله ـ أخذلى حقى ! وجاء الرجل الذى بعثوه معه فقالوا له : ويحك ماذا رأيت ؟ قال : عجبا من العجب ! والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه ، فخرج إليه وما معه روحه ، فقال له : أعط هذا حقه ، فقال : نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه ، فدخل ثم خرج إليه بحقه فأعطاه إياه ، ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك : مالك ! والله ما رأينا مثل ما صنعت قط ! قال أبو جهل : ويحكم ، والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه لفحل قط ! ! والله لو أبيت لأكلنى ! » .

وهكذا ارتاع عدو الله ، من هيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صور له الروع ما رأى !

ولقد جاء إليه صلى الله عليه وسلم رجل ، فقام بين يديه فأخذته رعدة شديدة ومهابة ، فقال له : هون عليك فإنى لست بملك ولا جبار ! إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة .

ولما رأته « قيلة بنت مخرمة » فى المسجد ارتعدت من شدة الفرق وهابته هيبة شديدة .

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ملأت عينى منه قط ، حياء منه وتعظيما له ، ولو قيل لى : صفه ، لما قدرت ! فهذا صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولولا أنه كان يؤنسهم ويباسطهم ويتألفهم ويتواضع لهم ، لما استطاع أحد منهم أن يبتدئه بالقول ، لما رزقه الله تعالى من المهابة والجلال .

° ° °

هذه هى شخصية رسول الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، ومهابة يزينها التواضع ، وجلال يملأ صدور الرجال .

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

العتاب في رفق تكريم وإعزاز

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

« عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين » .

كانت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم - إلى غزوة تبوك - دعوة إلى النفير العام - كما سبق حديثنا عن جانب من هذا - فى شأن أبى بكر - رضى الله عنه - فى المقال السابق .

ومعروف أن فى المدينة منافقين، يستترون بالإسلام ، ويقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . فكيف يتلقى هؤلاء دعوة الجهاد فى قبول وطاعة ؟ ؟ ذلك بعيد .

فلابد لهم من حيلة ينفذون بها من هذا المأزق !! وما أكثر الحيل : يصطنعها المنافق ، مهما تكن مكذوبة .

وإذ كانوا يعلمون عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه رفيع الخلق ، برىء من سوء الظن بالناس ، وأنه لا ينزل فى تفكيره إلى مستوى الأدنياء كما هو الشأن المفروض فى عظماء النفوس . . وبخاصة الأنبياء : فالمنافقون يستغلون هذه السجايا فى مخادعة الرسول ، وفى الاعتذار إليه بالمعاذير المختلفة ليعفيهم من الخروج إلى الغزو فى تبوك .

لم يكن النبى - صلوات الله عليه وسلامه - قد عرف شأن هؤلاء ، ولا نزل عليه وحى فى شأنهم ، فغلبت عليه سماحته ، وأداه اجتهاده إلى قبول المعاذير منهم ، وأذن لهم فى التخلف ، دون تريث .. وإزاء ذلك نزلت آية العفو المذكورة فى مطلع المقال ، تبين له ما كان ينبغى عمله .

ومع أن القرآن يحدثنا عن النفاق فى مقامات عدة ، ففى هذا المقام بخصوصه يذكر ثلاثين آية متوالية - من آية ٤٢ - ٧١ من سورة براءة : مما يدلنا على أنه مقام ذو شأن فى مجاله .

وحسبك : أن الله يعتب على رسوله ، وأنه يبدأ بالعفو ذلك العتاب الهام .

وقد يدر إلى بعض الأذهان أن النبي أتى ذنبا اقتضى العفو عنه ، إذ العفو - فى ظنهم - لا يكون إلا عن أمر محرج .

والفهم المستقيم يأبى ذلك الاتجاه .

فلندخل فى الحديث من سبيل غير هذه السبيل المنحرفة عن الصواب .

إذ نحن فى مقام المناجاة بين الله - سبحانه - وبين أفضل خلقه عنده ، والنبي معصوم قطعاً من الذنب ، ولا هوادة منه فى عمل يؤخذ عليه كاثم يحرجه عند ربه . . وإنما هو - دائما - فى معرض التوجيه من الله إلى كل مكرمة ، وفى سياق تربيته على أكرم الخلق ، وأقوم التعاليم السماوية . . وكان فى تبليغه الرسالة الدينية رهينا بالوحى ، ومنزها عن تهمة الكذب ، أو الخطأ : « إن أتبع إلا ما يوحى إلى » .

ومع ارتباطه بالوحى كان مأموراً بالاستشارة فيما لم يكن دينا محضاً ، وكان مأذوناً له أن يجتهد فيما يعرض له من شأن لم يسعفه الوحى فيه .

فإذا اجتهد كان يصيب فى اجتهاده أحيانا ، ويخطىء حينا ، فإذا أصاب كانت إصابته مقرونة بإلهام من جبريل ، ينفث فى روعه ، فيكون هذا إلهاما مسببا باجتهاده ، فيقره الوحى على ذلك لأنه فى حقيقته نوع من الوحى العام ، كما قرر هذا أئمة العلم المختصين ، ويؤيدون قولهم بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن روح القدس نفث فى روعى ، يعنى قلبي ، أو وعى ، أن نفسا منفوسة ، لن تموت إلا إذا استوفت أجلها » .

والقرآن يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا . الآية » والوحى هنا هو خصوص الإلهام بالمعنى الذى ذكرناه ، ولا يكون اجتهاده هنا عملا شخصيا محضا . . وحينما يستشير أصحابه فى أمر ، ثم يجتهد فى اختيار رأى ، أو كان يجتهد من نفسه ثم يخطىء فى اختياره لغير الأصلح كان ينزل عليه الوحى ، ولا يتركه على الخطأ ، حتى لا يستمر على العمل به بعد ، وقد حدث هذا فى مناسبات ، منها أخذه للفدية من أسرى بدر ، بعد أن استشار وأخذ برأى بعض أصحابه . . وكان الأولى ألا يأخذ الفداء فى أول حروبه ، كما أشار به بعض آخر كعمر رضى الله عنه ، وعاتبه القرآن على ذلك . . ومنها إذنه للمنافقين بالتخلف ، وهو ما نحن فيه الآن .

ولا مساس به فى هذا العتاب ، لأنه استشار فى الأولى ، واجتهد فى الثانية ، وكلا الأمرين مسموح به ، ولم يكن هنا إلهام من جبريل ، فحصل الخطأ فى الاجتهاد الشخصى المحض ، ثم جاءه الوحى فصحح خطأه للمستقبل .

وحكمة الله فى ذلك أن يترك له مجال الاجتهاد مفتوحا فى أمور تقبل الاجتهاد ، أو المشورة قبل الاجتهاد .

ثم يبين الله له الحقائق بعد ، لتكون دليلا على رعاية الله له فى التوجيه ، وفى الاتجاه ، وعلى تعويده ، وتعويد أصحابه الاحتياط ، والتريث فى الأخذ بالرأى ، تجنبا للخطأ فى أمورهم .. على أن العتاب هنا مبدوء بالعفو والعفو لا يختص بالذنب كما فهم أناس .

بل يكون أحيانا من قبيل الدعاء بالخير . كما يقال فى خطاب الناس : أصلح الله الأمير ، لماذا رأيت كذا ؟ أو لم تفعل كذا ؟

وأحيانا يكون لمجرد التلطف والإشعار بالرفق والمحبة كما يقال : لست غاضبا منك يا فلان ولكن لماذا فعلت كذا ، ولم تفعل كذا ؟ فليس فى هذه الحالات تلبيح بذنب ، ولا بفساد شأن ، وإنما هو دعاء وترفق .

والعتب على الرسول هنا : لأنه ترك عملا فيه مصلحة ، وكان الأولى خلافه ، أو بعبارة أوضح : فعل أمرا غير مصلحى فى ظاهره وهو إذنه للمنافقين ، وترك أمراً مصلحيا هو التريث فى الإذن ، وبخاصة فى وقت يدعو فيه إلى النفير العام ، فكان الأجدر أن يتمهل حتى يتبين شأن المعتذرين على حقيقته ، وينكشف أمرهم ، فلا يفرحون بخداعهم للرسول صلى الله عليه وسلم .

وترك الأولى بالنسبة للأنبياء يقتضى عفوا ، لأن المفروض أنهم فوق مستوى الناس وإن كانوا من الناس ... وهذا ما يسميه العلماء ـ حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وفى هـــذا القبيل ما ورد فى قول الله سبحانه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر » .

فليس للنبى ذنب متقدم ، ولا متأخر ، ولكنه كمجتهد ، أحيانا يترك الأولى ، وهذا هو ما سمى ذنبا ، وتجاوز الله عنه فيما سبق ، وفيما لحق .

ثم انظر إلى دواعى العفو هنا خاصة : بأن المنافقين خادعو الرسول ، وشمتوا بخداعه ، وتناجوا فيما بينهم بهذا ، فاقتضى الأمر أن يرد الله عليهم شماتتهم ، وأن يعلن تكريمه لرسوله ، وإعزازه لمقامه ، وأن يفاتحه العتاب على تركه الأولى بأرفق أسلوب وخير تلطف وطمأنينة يرجوها العبد من ربه ولا يدرك هذا إلا الأنبياء .. بل ولعل محمدا بالذات هو الذى ظفر بهذا التكريم فى مثل هذا الموقف .

وبذلك يعلم المنافقون أن خديعتهم للنبى لم تكن عن هوان لشأنه عند ربه ولم تكن

لتمكنهم من التلاعب معه ، أو لتغاضى الله عن رعايته - كلا ...

بل كانت وسيلة إلى أغراض تهذيبية أسلفناها ، ووسيلة إلى كبتهم ، وإحباط مكرهم ، وافتضاح مخازيهم وتسجيلها عليهم ، وكانوا يطمعون أن تظل سرا مستورا عليهم فعاملهم الله بنقيض غرضهم .

ومما أصابهم فى ورطتهم هذه : أن المسلمين لم يحاربوا ، إذ لم يجدوا الروم جيشاً زاحفاً ولا غير زاحف ، ووجدوها أخباراً غير صادقة ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان بلاءا مشكورا .

ومما زاد المنافقين حنقا : أن الآيات فى شأنهم نزلت على الرسول قبل عودته إلى المدينة من تبوك فعاد إليهم وفضيحتهم ذائعة بين جيش المسلمين .

وقد حاولوا أن يعيدوا الخدعة ثانيا بتجديد الاعتذارات ، وتعزيزها بالأيمان الحانثة ، والتقرب من المسلمين فى ثوب البراءة

وكان الله تعالى قد أخبر عنهم بقوله : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل : لا تعتذروا لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم » . « وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم بالنفاق ، والخداع والحنث فى الإيمان - والله يعلم إنهم لكاذبون . « يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

وقد بين الله لرسوله وللمؤمنين أن تخلف المنافقين كان خيرا للمؤمنين فى واقع الأمر وهذا ما يعلمه الله ، ولم يكن يعلمه النبى حين قبل اعتذارهم دون تريث . حتى يتضح النفاق فى أبشع ألوانه لو لم يأذن ، « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة . ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا - الآيات ... » .

وهذه جولة قصيرة فى الحديث عن المنافقين ونفاقهم وحديث الأفاعى طويل المدى . . والقرآن لا يقصد من تحقيره للنفاق وأهله خصوص قوم ذهبت أيامهم .

وإنما يريد توجيهنا إلى حطة النفاق ، وسقوط أهله عن المستوى الإنسانى ، حتى فى أحط أوضاعه ، فإنهم لا يكرمون أنفسهم عن المخادعة ، والروغ عن الجد ، ولا يربأون بها عن الإسفاف فى الجبن ، والتلون بالمودة إلى هؤلاء أو هؤلاء .

ولئن كان سياق القرآن فى المنافقين فى الدين الذين يضمرون الكفر ويظهرون الإسلام

فإن النفاق فى الأخلاق ، وتتبع المنافع ، والتقرب إلى ذوى الجاه على حساب الغير ، أو على حساب الوطن ، أو على حساب الدين ، وما إلى ذلك كله مما يشذ عن المبادئ الكريمة : كل هذا نمط من الكفر ، وإن لم يكن فى العقيدة ، فإن الدين الحق عقيدة ، وعمل وأخلاق ، والأخلاق ركن قويم .

ومن تهاون فى جانب من هذه كان فى دعواه الإيمان ممن يقولون « بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » .

وانظر تجد ثناء الله على رسوله كثيراً ، وتجد أبرز الثناء كان « وإنك لعلى خلق عظيم »

والقرآن يحثنا بهذه التوجيهات إلى البعد عن مظاهر النفاق ، وإلى مقاومته فى المنافقين ، حتى ينكمشوا ، وتطهر منهم البيئة بالقدر المستطاع .

ونحن فى أشد الحاجة إلى الاعتبار بتوجيه القرآن ، فإن النفاق باسط جناحيه فى كثير من البيئات ، وتعوزنا الشجاعة الأدبية ، والغيرة على الحق فى مقاومة المنافقين لتهدأ خواطرنا من المضايقات ، وتسلم حياتنا من التصدع .

وقد بلونا من النفاق أولا ، وأخيراً ما مزق وحدة الإسلام ، وبدد الجماعة التى تدين بالتوحيد ، وتستظل بكتاب كريم يدعوها إلى الوحدة ، وتقتدى برسول أمين ، وبسلف « صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فى وحدتهم ، وفى بناء دولتهم ، وتركيز سلطانهم وسيادتهم .

وأمر المسلمين اليوم على بركان يتقد أواره ، ويتطاير شرره ، ويكاد الانقسام فى بعض شعوبهم يأتى على الأخضر واليابس فيهم ، وقد جرت سنة الله فى خلقه أن هذه بوادر لا تبشر بخير ، ولا يعقبها إلا دمار ، وهذا واقع تكرر فى أمم سابقة وتحدث به التاريخ وآمن به من لم يؤمنوا بالقرآن .

ولم يحدثنا التاريخ فى لحظة من لحظاته أن الانقسام والتنازع كان وسيلة إلى قليل من خير ، أو كان على قليل من صواب .

فماذا قدر الله لشعوب ندعوها إلى الوحدة فتهرع إلى الانقسام ، وتسرف فى الكيد ، ، وتناوئ دعاة الإصلاح ، وتعادى من يهيب بهم إلى اللقاء ، والتلاقى على مبادئ الإسلام ، والاستظلال بعلم واحد .

لو كنا فى عهد نزول القرآن لما سمى هؤلاء مسلمين ، ولتحدث عنهم بمثلها أو أشد مما تحدث عن المنافقين ، فقد كان المنافقون يمكرون فى شىء من الجبن والرياء وهؤلاء يخادعون ، ويمكرون ، ويفسدون فى غير حياء ، فأين إسلامهم ؟ اللهم اهدنا واهدهم ؟

عبد اللطيف السبكى

المسئولية الجماعية
بين الشريعة الإسلامية والشرائع السابقة
للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

تتحقق المسئولية الجماعية كلما اتجهت المسئولية إلى هيئة ما، كأسرة أو عشيرة أو أمة أو جمعية، لعمل اقترفه أحد أفرادها أو بعضهم.

وقد أقر هذا النوع من المسئولية كثير من الديانات والقوانين الوضعية السابقة للإسلام.

ومن الديانات التي أقرت هـــذا النوع من المسئولية الديانتان اليهودية والنصرانية.

فأسفار اليهود المقدسة تقره في مواضع كثيرة. فمن ذلك مثلا ما تذكره بصدد شعب كنعان وأنه قد حل به غضب الإله وحقت عليه لعنته، وضرب على أفراده الرق إلى الأبد لجريمة ارتكبها أبوه حام. وأصل ذلك ما ورد في سفر التكوين (وهو من أسفار توراتهم المزعومة) من أن نوحا قد شرب مرة نبيذ العنب الذي غرس كرمه بيده بعد الطوفان، بدون أن يعلم خاصته المسكرة، ففقد وعيه، وانكشفت سوأته، فرآه ابنه حام وهو على هذه الصورة، فسخر منه، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث. ولكن هذين كانا أكثر أدباً منه، فحمل كل منهما رداء وسار به القهقرى نحو أبيـــه حتى لا يقع نظره على عورته، وستر به ما انكشف من جسمه. فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من موقف أولاده حياله، لعن كنعان بن حام، ودعا عليه وعلى نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث. فاستجاب الله دعاءه وكتب عليهم الرق أبد الآبدين. (١)

وغني عن البيان أن هذه القصة من وضع اليهود، ولكنها مع ذلك قد أصبحت من الأسس التي تقوم عليها دياناتهم وتقوم عليها علاقاتهم بشعب كنعان وتبرر ما كانوا يسيرون عليه بالفعل حيال هذا الشعب. فقد كانوا يرون أن الكنعانيين جميعاً قد حقت عليهم اللعنة وكتب عليهم من الأزل أن يكونوا عبيداً لبني إسرائيل بسبب جريمة حام المزعومة ودعاء نوح عليه. والقصة في جملتها تحريف آثم مقصود للقصة الحقيقية التي ذكرها القرآن عن نوح وابنه إذ يقول: «ونادى نوح ابنه وكان في معزل: يا بني اركب معنا، ولا تكن مع الكافرين. قال: سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال:

(١) فقرات ٢٠ ـ ٢٩ من الإصحاح التاسع من سفر التكوين.

لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ؛ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » . (١)

والديانة المسيحية تقوم أم عقائدها على مسئولية جمعية واسعة النطاق . فهى تقرر - على حد ما تذكره أسفارهم التى يقدسونها ويسمونها الأناجيل وبقية أسفار العهد الجديد - أن أفراد النوع الإنسانى قد انتقلت إليهم جميعاً خطيئة أبيهم آدم إذ أكل من الشجرة ، وظلوا محتملين مسئوليتها حتى فداهم المسيح بدمه المنهمر من صلبه ، فغفرها الله لهم .

وغنى عن البيان أن هـذا التأويل من مختلقاتهم ، وأنه لا يتفق فى شىء مع العدل الإلهى الذى يتمثل فى قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، ولا يتفق مع ما يحدثنا به القرآن عن استغفار آدم من خطيئته وغفران الله له ، وعن نجاة المسيح مما دبر له من صلب : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » . ولكن هذا التأويل قد أصبح مع هذا كله من الأسس التى تقوم عليها الديانة المسيحية الحاضرة .

* * *

ومن القوانين الوضعية التى أقرت هذا النوع من المسئولية قوانين اليونان والرومان .

فالقوانين اليونانية القديمة تقرر المسئولية الجماعية فى جريمتين : إحداهما الخيانة الوطنية ؛ والأخرى انتهاك حرمة الأشياء المقدسة Sacrilège فتقضى فى هذين الجرمين بالإعدام على المجرم نفسه وعلى جميع أفراد عصبته وهم أقرباؤه من ناحية الذكور ، لا فرق فى ذلك بين صغارهم وكبارهم ، ولا بين ذكورهم وإناثهم ، ولا بين عقلائهم ومجانينهم ، ولا بين أصحائهم ومرضاهم . بل لقد كانت العقوبة تشمل كذلك الأموات منهم ، فكانت تنبش قبورهم ويقذف برفاتهم فى خارج الحدود ، وهى عقوبة تشبه عقوبة النفى من البلاد التى توقع على الأحياء . وكانت العقوبة تمتد فوق هذا وذاك إلى جميع ما تملكه الأسرة من حيوان وأموال ومنازل ومتاع ، فتباد هذه الممتلكات أو تحرق أو تدمر أو تصادر .

وللمسئولية الجمعية آثار كثيرة كذلك فى شرائع قدماء الرومان ، سواء فى ذلك شرائعهم السابقة لعصورهم المسيحية وشرائعهم المقررة فى هذه العصور . أما شرائعهم الأولى فلم تقرر المسئولية الجمعية إلا فى مظهر واحد من مظاهرها ، وهو المظهر الذى يؤدى إلى عقوبة مالية فحسب . فكانت تحكم فى بعض الجرائم بمصادرة الأملاك . وغنى عن البيان أن هـذه العقوبة ينال أثرها ورثة المجرم بل جميع أفراد أسرته ؛ وبخاصة لأن

(١) الآية ٤٢ ، ٤٣ من سورة هود .

الملكيات فى ذلك العهد كانت ملكيات جمعية لا فردية ؛ فكان المالك الحقيق هو الأسرة نفسها باعتبارها هيئة أى شخصا معنويا . فصادرة الأملاك كانت إذن ضرباً من العقوبة الجمعية تؤخذ به الأسرة فى مجموعها لجريرة ارتكبها أحد أفرادها أو بعضهم . وأما الشرائع التى كان يسير عليها الرومان فى عصورهم المسيحية فقد أقرت المسئولية الجمعية فى جميع مظاهرها : فى مظاهرها التى تنال الأنفس والحريات ، وفى مظاهرها التى تنال الأموال ، وإليك مثالا : القانون الذى أصدره سنة ٣٩٧ بعد الميلاد القيصر أركاديوس Arcadius (امبراطور الدولة الرومانية الشرقية من سنة ٣٩٥ إلى سنة ٤٠٨ بعد الميلاد) بصدد جريمة الخيانة الوطنية ، واحتفظ به جوستنيان فى قوانينه (امبراطور الدولة الرومانية الشرقية من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد) . فقد قرر هذا القانون « أن العدالة المطلقة تقضى بأن يصيب أبناء المقترف لجريمة الخيانة الوطنية العقاب نفسه الذى يصيب آباءهم ؛ ولكن الامبراطور ، لما له من سلطة مطلقة يرى الإبقاء على حياتهم ، على أن يحرموا من الميراث والتملك ، ويحال بينهم وبين مواطن الشرف ، ولا يسمح لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، وهكذا يعيشون عيشة المنبوذين فى فقر مدقع وبؤس مقيم ، وعيش هذا شأنه أخف منه الحمام : ففى الخلاص منه بالموت إنقاذ ورحمة ، وفى الإبقاء عليهم إبقاء على الشقاء والعذاب » ، ويقصد هذا القانون بالميراث ما عسى أن يرث هؤلاء من غير أبيهم ؛ لأن جميع ما يملكه أبوهم كان يحكم بمصادرته فى هذه الجريمة .

* * *

وقد قضت الشريعة الإسلامية على المسئولية الجماعية فى مظاهرها التى تنال الأنفس والحريات ، فقررت ألا يؤخذ فرد بجرم غيره ، وأن النفس بالنفس ، فلا يقع القصاص فى القتل العمد إلا على من اقترفه بالفعل ، فخلصت بذلك الشعب العربى من نظام فاسد كان يتهدده بالفناء . فقد كانت مسئولية القتل فى الجاهلية تقع على قبيلة القاتل فى مجموعها ، وتثير بينها وبين القبيلة الموتورة حربا شعواء لا يخمد سعيرها إلا بعد أن تأتى على مئات وآلاف من الأنفس ، و « أيام العرب » فى الجاهلية تقدم لنا عدة أمثلة من هذا القبيل .

ولكن الشريعة الإسلامية قد أبقت مع ذلك على المسئولية الجماعية فى بعض مظاهرها المالية ؛ تحقيقا لمبدأ التضامن والتكافل الاجتماعيين ومبدأ تعاون الأقرباء وأهل البلد بعضهم مع بعض ، وهى المبادئ التى تحرص الشريعة الإسلامية على تحقيقها فى كل

موطن يتاح تحقيقها فيه. فمن ذلك أنها قررت أن معظم الجرائم التي تجب فيها الدية (وهي ما يغرم في بعض أنواع القتل غير العمد) وبعض الجرائم التي يجب فيها الأرش (وهو ما يغرم أحيانا في إصابة بعض أعضاء الجسم) لا يحتمل غرمها المجرم وحده، بل تحتمله «عاقلته» في مجموعها، «وعاقلة» الفرد عصبته المؤلفة من أقربائه من ناحية الأب. وإطلاق اسم «العاقلة» نفسه على العصبة جاء من النظام الذي نحن بصدده، وذلك أن أهل الجاني كانوا يقدمون لأهل المجني عليه الدية، وكانت الدية تقدر بعدد من الإبل يذهب بها أهل الجاني و «يعقلونها» أمام دور العشيرة الموتورة، فسموا العاقلة. من أجل ذلك، ومن ذلك أيضا أن الشريعة الإسلامية تقرر الدية على جميع أهل البلد إذا وجد بجواره قتيل لم يعلم قاتله، وذلك بعد استيفاء الإجراءات التي يسميها فقهاء المسلمين «القسامة»، وهي أن يستحلف ولى الدم خمسين رجلا يتخيرهم من أهل البلدة، فيحلفون أنهم ما قتلوه ولا علموا له قاتلا، فحينئذ يسقط القصاص ولكن تجب الدية على أهل البلدة جميعا. والأصل في ذلك ما روى عن زياد بن مريم أنه قال: «جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يارسول الله: إني وجدت أخي قتيلا في بني فلان. فقال عليه السلام: اجمع منهم خمسين فيحلفون بالله ما قتلوه ولا علموا له قاتلا. فقال يارسول الله أليس لي من أخي إلا هذا؟ فقال بل لك مائة من الإبل (وهي دية النفس في الإسلام)». وروى أن عمر رضى الله عنه حكم في قتيل بين قريتين، فطرحه على أقربهما وألزم أهلها القسامة والدية. وكذلك روى عن على رضى الله عنه؛ ولم ينقل الإنكار عليهما من أحد من الصحابة، فأصبح هذا الحكم مجمعا عليه. ومن ذلك أيضا ما ذهبت إليه طائفة من فقهاء المسلمين على رأسها العلامة ابن حزم من مسئولية البلد الذي يموت أحد أفراده جوعا، إذ ترى وجوب الدية على جميع أهل البلد فيؤدونها متضامنين كأنهم شركاء في موته، ومن ذلك أيضا ما تذهب إليه طائفة من فقهاء المسلمين في حالة ما إذا مات شخص في الزحام، نتيجة لضغط الجماهير عليه، إذ ترى وجوب ديته على جميع من حضر[1].

الدكتور علي عبد الواحد وافي

(١) انظر صحيح البخاري في باب إذا مات أحد في الزحام، وانظر ما ذكره السندي في تعليقه على الحديث الوارد في هذا الباب وهو الخاص بموت اليمان أبي حذيفة في الزحام يوم غزوة أحد – ويرى الشافعي وجوب ديته على من يدعى عليه ولى الدم ويحلف أنه هو الذي تسبب في موته.

الوجهة الثقافية فى تونس

للأستاذ محمد البشير النيفر

أسباب :

اجتاحت البلاد التونسية كارثة ذات تأثير كبير على الناحية العلمية الإسلامية بالأخص وإن كانت فى تأثيرها السيء لا تقتصر على تلك الناحية غير أن هذه ظهر التأثير فيها بالخصوص لما كانت عليه تونس فى عصورها السابقة من ازدهار وما ظهر فيها من نبغاء فى العلوم الإسلامية ، وفى طليعة ذلك علم الفقه الإسلامى المالكى النابت من هذه الديار ، والذى تكونت له فيها أشهر مدرسة عرفت بالمدرسة القيروانية ، والكارثة المؤثرة هى الحملة الأسبانية المصبوغة بصبغـــة مقاومة الإسلام ، إذ خرجت عقب معركة خاضتها الأمة الأسبانية فى قرون ، والإحن تملأ صدور رجالها المليئة بالحملة ضد الإسلام . فتأثيرها على الناحية الإسلامية كان له أبلغ تأثير فى تونس .

وتخلصت تونس من براثن تلك الحمـــلة الناشبة فيها بواسطة الزحف التركى على حلق الوادى سنة ٩٨١ ، وعلى حصن الباستيون فى تونس فى السنة نفسها ، وهى هزيلة من الرجال لأن الحملات التأديبية كانت قاسية تأتى على الأمة التونسية بدون استثناء وكم ذهب فيها من لا يحصى .

وتناولت تلك الحملة الجارفة فى سيلها العارم التراث الفكرى فى مصادره فى المكتبات علاوة على الرجال ، فأتى التحريق والتمزيق على كمية ذات بال ، ولا مبالغة إذا قلنا : إنها أتت على الأكثرية الساحقة من المكتبة التونسية وما استمدته من المكتبة الأندلسية .

الحاجة إلى التلقيح :

بإزاء هذا الفقر المدقع احتاجت تونس إلى تجديد فى ثقافتها المتعارفة فى تلك العصور فبعد استفادتها من رصيدها العلمى استمدت من المغرب الأقصى بواسطة أفراد قاموا مقام البعثات العلمية فى التلقيح والمساهمـــة فى التجديد .

واستمدت كذلك من مصر بواسطة همة رجال بعثتهم الغيرة وحركهم حب الزيادة من المعارف أن يقصدوا مصر ليضيفوا إلى الثقافة الإسلامية والعربية قوة وحيوية تكتسبان من التلقى فى القاهرة ، وكان لهم أثر محسوس

فى الثقافة التونسية حيث أصبحت المدرسة المصرية بكتبها وأساليبها التدريسية تسود التعليم .

المدرسة المصرية :

اختفت طريقة المدونة بتهذيب البراذعى بعد أن كانت السائدة كما اختفت طريقة شروح جامع الأمهات التونسية .

وكان المتن الخليلى قد سبق شروحه ، فاعتنى به أهل المغرب وشرحوه ، وكان أولا يساير ما تقدمه من طرق ثم طغى تدريسه فأصبح المادة الوحيدة لكل فقيه ، والقانون المتبع فى القضاء . ثم التحقت به شروحه المصرية وبالأخص شرح الزرقانى .

وكذلك فى الكتب الابتدائية انصرفت العناية إلى الشروح المصرية على الرسالة وبالأخص شروح أبى الحسن الشاذلى ، وتغوفل عن الشروح الأخرى وهى شرح القلشانى والتونسى ، وابن ناجى القيروانى ، زروق الفاسى وفى العربية كانت كتب الشيخ خالد الأزهرى لها الامتياز والتقدم على غيرها من الكتب المتداولة فشرح الأجرومية وشرح الأزهرية وكتابه التصريح كانت من أهم مصادر التدريس فعكف عليها الطلبة ، وبالأخص شرحه على الأجرومية ، حتى إن السنة الأولى فى التعليم الزيتونى كانوا يسمونها بسنة سيدى خالد .

وتأتى كتب ابن هشام محتلة مكانها فى الثقافة العربية التونسية ، فكانت كتب ابن هشام تدرس فى التعليم التونسى الماضى ، وتساير المتعلم فى التعليم من الابتدائى إلى العالى وفى مقدمة ذلك المغنى فشروحه للدماميني ، والشمنى وتعليق الأمير .

وهكذا فى الكثير من المواد حتى علم العقائد الذى بقيت فيه المدرسة السنوسية التلمسانية محافظة على وجودها فى تونس متدرجة بالصغرى ، والوسطى ، والكبرى ، ولكن كانت الجوهرة اللقانية تدرس بجانب تلك الكتب كذلك ، وينضم إلى ذلك الحواشى التى كتبها الأزهريون على الكتب السنوسية .

واللافت للنظر أن المدرسة القيروانية الفقهية رغم تعميرها العمر الطويل ، وانتشار كتبها ، وامتداد تأثيرها توارت أمام المدرسة المصرية ، فأصبح المختصر الخليلى بما تفرع عنه من شروح ، ومختصرات ومنسوج على طريقته يحتل حلقات الدروس ويتسابق الطلبة إلى حفظه ، وتكرس الجهود الوافرة لفك مغلقه ، وتفهيم عباراته .

وانتشار هذه المدرسة كانت له أسباب ممتدة على أزمنة مختلفة ، ثم أن هذه الأسباب فى ذاتها تتنوع ، فمنها ما يرجع إلى كثرة التآليف المصرية ، وتوفر وجودها ، وحسن حظها ، وكل ذلك يجعل الاعتماد عليها اعتمادا على كتب صحيحة .

وهناك سبب آخر هو التلقى فى الأزهر ، والمؤلفات المـــدروسة فيه كادت تكون منحصرة فى علمائه ، وهم شيوخ لأولئك الوافدين على الأزهر ، وبالطبع أن يألفوها ويحنوا إلى تدريسها ، فأصبحت من جراء ذلك مادة التدريس .

ونريد أن نظهر من السبب الأخير حلقة منه فى ثبت البديرى (١١٤٠) الذى أجيز به على الأومى الصفاقسى التونسى ، فهو وما أضيف إليها من إجازات وثيقة تاريخية حرية بأن تبرز ، إذ نجد فيها صورة الارتباط الثقافى بين مصر وتونس وكيف أن التونسيين جددوا ثقافتهم فى تلك الرحلات ولقحوا معارفهم التونسية بالمعارف المصرية فى وجهتهم نحو القاهرة .

وهى تصور حلقة متأخـــرة من حلقات متعددة سبق إليها رجال كثير توزعوا على المـــدن التونسية ، وأسسوا فيها مؤسسات أشعت منها العلوم الإسلامية والعربية فأدت تلك المـــؤسسات واجبها التثقيفى حسب مقتضيات ذلك العصر ومتطلباته .

الإشعاع :

انتشر الإشعاع الثقافى المصرى فى جهات من أمهات المدن التونسية بواسطة رحالين من أهل تلك الجهات .

فنى تونس كان الشيخ محمد الحجيج (١١٠٨) وهو أحد أعلامها تلقى بعض معارفه بالقاهرة فأخذ عن الخرشى وغيره ، وتصدر للتدريس بتونس فاستفاد من دروسه الكثير ، وكان يعتز بإجازة الخرشى له ، فحينما يختم المختصر الخليلى يقرؤها على تلاميذه .

وكذلك محمد زيتونة (١١٣٨) الذى أفاد واستفاد فى رحلته المصرية ، وهو من مشاهير التونسيين بدروسهم الحافلة وله حاشية على بعض تفسير أبى السعود تبلغ مجلدات .

وفى مسامرات الظريف ، فقرأ بمصر على الشيخ محمد الزرقانى والشيخ محمد النفراوى والشيخ إبراهيم الفيومى والشيخ منصور المنوفى ، ورجع إلى الحاضرة بعد أن حصل العلوم وبيده إجازات من كافة مشايخه » .

ومن المستفيدين من الرحلة إلى القاهرة محمد بن على الغريانى (١١٩٥) الذى لاقى فى رحلته الشيخ مرتضى صاحب القاموس واستجازه لأولاده .

وفى جربة الشيخ إبراهيم الجنى (١١٣٤) وهناك أسس مدرسة درس فيها طيلة عمره الطويل حيث بلغ خمساً وتسعين سنة وصرف جهوده ومواهبه لتعليم تلك الجهة المتعطشة للثقافة الدينية واهتم غاية الاهتمام بالمختصر الخليلى وترك مدرسته بعـــد وفاته لذويه

واستمرت على ذلك المنوال مدة مديدة ، وتخرج منها العدد الكثير ، وتوزع المتخرجون من مصر فى الجهات الساحلية فأبو العباس المكنى (١١٢٢) حل بالمكنين وأسس بها مدرسة ومن بعده على بن خليفة (١١٧٢) فى مساكن ، ومحمد بن الحسن الهدة (١١٩٥) فى سوسة ، وألف الأخير حواشى على الكتب المدروسة واشتهرت حاشيته على الخطاب على الورقات ، وطبعت مرات متعددة ، وأحمد الريفى السوسى ،

وكانت صفاقس صاحبة الحظ الأوفر من الوافدين من مصر فقد خرج من رجالها عدد كثير منهم إبراهيم بن أحمد الجمل (١١٠٧) والشيخ على النورى (١١١٨) وله شهرة عمت وطبقت النواحى وأحيا العلوم القرآنية ، وأسس بصفاقس زاوية للتدريس وانتشرت كتبه القرآنية وصار الاعتماد على كتابه ، غيث النفع فى القراءات السبع وله فهرست حافلة ذكر فيها شيوخه وعبد العزيز الفراتى (١١٣١) وله مؤلفات أشهرها اختصار السيرة الحلبية . وأبو الحسن على اللومى وتلميذه محمود مقديس (١٢٢٤) وهو صاحب الحاشية الكبرى على أبى السعود وتحتفظ بنسخة تامة منها خزانة المرحوم محمد الصادق النيفر ولعلها الوحيدة ونزهة الأنظار فى عجائب التواريخ وهى مطبوعة وغير ذلك .

الأومى وإجازاته :

ومن بين أولئك الآمين للقاهرة حيث الوجهة الثقافية الشيخ على الأومى (١٢٠٤) وهو المجاز بتلك الإجازات التى تصور حلقة من حلقات الوجهة الثقافية نحو القاهرة المعزية .

وقد تلقى الأومى أولا تعليمه بصفاقس ثم ارتحل منها إلى القيروان ، ومنها إلى تونس وثانياً بالقاهرة التى أطال إقامته بها ، حتى بلغت خمس سنين

وفى القاهرة أخذ علم القراءات على الشيخ أحمد الرشيدى وأجازه سنة (١١٦٧) وذكر فى إجازته أنه حضر عنده متن الجزرية لابن الجزرى وشرحها شيخ الإسلام زكريا مرتين ، ومن الشاطبية حمزة وهشام على الهمز وشرحه للرادى ، ورسالة الرشيدى فى ذلك ، وضبط الخراز والتنبيه عليه ، ورسالة البقرى فى أصول القراءات ، كل ذلك بضبط وإتقان ، وأجازه محمد بن سالم الحفناوى فى السنة نفسها بثبت البديرى ، وأثبت إجازته على الثبت المذكور بخطه — وهى المنشورة صورتها ، وأضاف إلى إمضائه بعد ، ومما جاء فيها نقد لازمنى الشيخ على بن على الصفاقسى فيما يسره الله من العلوم ثم طلب منى الإجازة كما هو سنن السلف فأجزته بجميع ما تضمنه هذا الثبت ، وأجازه

بإجازة تجد صورتها هنا الشيخ سالم النفراوى قائلا فاختبرناه فوجدناه على غاية فاستخرنا الله وأجزناه إجازة مطلقة .

وأجازه محمد البليدى بعقائد السنوسى وعلى بن أحمد الصعيدى فى الحديث والفقه ، وحسن المدابغى بتاريخ سنة (١١٦٧) بما سمعه عليه من صحيح البخارى ، وأحمد الدمنهورى بما قرأه عليه من كتب متعددة فى فنون متنوعة منها ما هو من تأليفه كشرح السمرقندى فى الاستعارات وشرح السلم ، وتاريخ الإجازة المتقدم فى الإجازات قبلها ، وحسن بن محمود الحلى الشافعى فى العام نفسه وسليمان العزيزى الشهير بالزيات .

أقام الأوى بالقاهرة دارسا ، وآخذاً عن الشيوخ الذين كان لهم التقدم فى فنون عدة كالقراءات والتفسير وما يتبعه ، وعلوم الشريعة : أصولها وفروعها ، وعلوم العربية بأنواعها ، والعلوم الأخرى منطقا وحسابا وهندسة ومساحة وكانت دراسته للعلوم الأخيرة على الشيخ أحمد الدمنهورى الذى قرأ عليه المنطق ، والأزياج وعلم الحكمة وعلم الحساب وتتبع الشيوخ النابهين ولازمهم ، وحين أراد الرحلة أجازوه إجازات خاصة فى ذلك المجموع الخاص وقدم صفاقس بمعارفه التى تلقاها فى مصر وهى علوم متنوعة وانصرف للتدريس معرضا عن الوظيفة القضائية وكان يعتنى بدروسه ، ولا يقرأ إلا بعد توفر المواد المتعلقة بالكتاب المدروس .

وقد وصف هذه العناية صاحب نزهة الأنظار أن الأوى بعلوم جمة فبثها ونفع الله به خلقا كثيراً وكان نصوحا لا يقرر إلا بتحقيق ولا يقرر مختصر خليل إلا بمادة واسعة كالشرح الكبير والصغير للشيخ الخرشى ، والشيخ الأجهورى ، والشيخ العمروسى والشيخ التتائى ، وغير ذلك من الشروح ، وبحدود ابن عرفة ، وشرحها للشيخ الرصاع وهكذا فى جميع العلوم لا يقرئها إلا بإحضار ما يمكن إحضاره من المواد .

وكان أتى من مصر بخزانة كتب واسعة استعان بها على بث العلوم وتحقيقها وأخذ عنه خلائق .

صورت لنا نزهة الأنظار ما كان عليه الراحلون لمصر من بذل مجهود واسع لإفاضة الحيوية والتحقيق على ما هو موجود فى تونس من معارف ذات قيمة فى تلك الآونة فكانوا بعثات فردية لامتزاج الثقافة ولتكميل ما يرون فيه نقصا .

وكانت إفادتهم واسعة النطاق بسبب أنهم لم يتجمعوا فى العاصمة التونسية ، بل انتشروا فى المراكز الحساسة ولم يكتف البعض منهم بالمساجد ، بل أسس مدارس خاصة حيث يبدو التعطش للمعرفة .

وبذلك أثمرت معارف هؤلاء الراحلين التي نقلوها من مصر ثمارا يانعا، وتخرج على أيديهم البناة العديدون للنهضة العلمية بعد ذلك الفراغ الذي أحدثته النكبة، فبتضافر جهود الرصيد من الرجال المتبقين في تونس بعد تلك النكبة أو الآخذين منهم مع المولين وجههم شطر مصر، وكذلك مع القادمين من المغرب الأقصى ازدهرت المعارف الإسلامية والعربية وعادت إليها نضارتها، وعوضت تونس ما فقدته وأمكن لجامعتها الإسلامية أن تتابع خطاها، واستطاعت تلك الجامعة أن تكون شجا في حلق الاستعمار الفرنسي حين أراد الاستحواذ على العقلية التونسية، وحين وفر الأسباب للقضاء على العربية.

الكتاب المصري :

تدخل أوجه الارتباط الثقافي في جهات متعددة غير الرحلة، وتتجلى في مادة الكتب التي منها في تونس مكاتب زاخرة، وليس الأمر مقصورا على الكتاب المطبوع بل يشمل المخطوطات التي يزين الكثير منها المكاتب التونسية.

وكان عبورها بواسطة المتغربين مثل الأوى المتحدث عنه فقد نقل معه خزانة زاخرة وكذلك كان المارون للحج لا يغفلون عن اقتناء النفائس من الكتاب المصري.

وقد تعاونت الرحلة إلى مصر، والكتاب المصري على المساهمة منذ أجيال في تلوين الثقافة وتلوين الامتزاج.

الامتزاج :

بما أظهره هذا المجموع في خطوط العلماء للشيخ علي الأوى وشهادتهم له بأن له اليد الطولى في الذي زواله من فنون تلقاها على أشياخه بالقاهرة نعرف الجسر العابرة عليه الثقافة من بلد إلى آخر : وكيف كان يجاز النقلة حتى يتمكنوا من أداء الرسالة وكان المجاز بهذا المجموع من خير الناقلين للثقافة إلى بلادهم إذا أعرض الإعراض الكلي عن كل ما يحول بينه وبين نشر معارفه مضيفا إليها تلك الخزانة الواسعة لترغيب طلبته في العلم وإفساح المجال لهم، وكان في طليعة طلبته محمود مقديش مؤرخ صفاقس وعالمها.

وهذا التمازج المكون في هذه الحقبة : وقبلها منذ قرون، منذ أخذ سحنون عن ابن القاسم لا تزيده الأيام إلا جدة بعد أن تحطمت الحواجز الاستعمارية، وأصبح العالم العربي طليقا وهو يبني مستقبله الجديد على إسلامية وعروبة.

محمد البشير النيفر

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٤ — التكافل الاجتماعى

رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيخاً ضريراً يسأل على باب ، فلما علم أنه يهودى قال له : ما ألجأك إلى ما أرى . . ؟ قال : أسأل الجزية والحاجة والسن ، فأخذ — رضى الله عنه — بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول له : انظر هذا وضرباءه ، نظراءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه .

بهذه القصة يفسر التكافل الاجتماعى الذى عرفه الغرب لأول مرة فى القرن السابع عشر ومعناه أن تتكفل الدولة أو المجتمع برعاية الفقراء وإعانة المرضى والشيوخ والعجزة ومن إليهم ، كالعمال الذين يصابون أثناء العمل ومعناه كذلك أن دائرته لا تكاد تتعدى مطالب العيش لمن لا يجدون فى أنفسهم القدرة على تحقيق المطالب الغذائية والكسائية والسكنية ، ولا شك أن الفارق بعيد والبون واسع بين عمل عمر رضى الله عنه فى القرن السابع الميلادى وبين عمل الغربيين فى القرن السابع عشر ، ولكنه يفسر معنى التكافل بالقدر الذى يعطينا صورة لحقيقته عند غير المسلمين ، أما عندنا — نحن المسلمين — فلا نكاد نجد ديناً أو تشريعاً يتحقق فى ظله التكافل الاجتماعى بالصورة الكبيرة الواسعة الجامعة ، التى نجدها فى الإسلام ، وإذا كان تفصيل ذلك لا يستوفيه كتاب ولا يستقصيه استيعاب فحسبنا الإشارة إلى ملامح الصورة التى نطالعها فى قول النبى صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . أو الصورة التى نراها فى قوله عليه السلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . فهاتان الصورتان تكشفان عن مدى ما يصل إليه التضامن والتعاون بين الأفراد فى المجتمع الإسلامى ؛ لأن الأولى تمثل المؤمنين على اختلافهم

بالجسد . يتكون من أجهزة مختلفة وأعضاء لا يكمل ولا يجمل إلا بها مؤتلفة ، فكل عضو فيه يمثل جانبا من صورته لا تتم بدونه ويؤدى وظيفته فيه لا يؤديها غيره ، ومن ثم كان ضروريا وطبيعيا أن تسود جميع أعضائه وأجزائه مشاعر جامعة وأن تتعاون هذه الأعضاء والأجهزة والأجزاء على ما يحقق له الخير والحياة الطيبة ، فاذا اعتل عضو منه . وأحس ألم العلة سرى الإحساس بالداء إلى جميع الأعضاء فاشتركت فى الشعور بالقلق والأرق ، وتجاوبت جميعها بشكوى العضو الجريح أو المصاب ، وكذلك المجتمع يتكون من الأفراد والأسر والهيئات ، ولكل جزء فيه وظيفة يؤديها ، وحرفة مهمة تسد حاجة الأمة ، ولهذا يجب أن يسوده التضامن والتعاون وأن تؤلف المرحمة بين مختلف أعضائه وأجزائه ، وأن يكون الشعور بالإخاء رابطته الجامعة حتى ينعم بالرخاء والحياة الطيبة ، لا يكدر صفوها حقد حاقد ولا يعكر جوها حسد حاسد ، ولا يشعر فيه ضعيف بالذلة أمام قوى ، ولا ينحرف فيه قوى بالظلم على ضعيف ، وإنما يحس الجميع أنهم إخوة تجمعهم راية واحدة ، أو أسرة تسمى أمة واحدة ، وذلك بعض ما يفهم من قوله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » ، وقوله جل شأنه : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » .

أما الصورة الثانية فتمثل المؤمنين فى تضامنهم وتماسكهم بالبنيان القوى يستمد قوته من تماسك بعضه ببعض ، وشد بعضه أزر بعض ، وكذلك المؤمنون كما يفهم من قول الله فيهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » ، « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، « يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . أما مظاهر التكافل الاجتماعى فى الإسلام ـ فهى على كثرتها ـ يمكن أن ترد إلى الأصول الآتية :ـ

١ ـ الشعور الصادق بالأخوة الشاملة . كما يفهم من قول الله « إنما المؤمنون إخوة » . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب كل امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه) .

٢ ـ التعاون على البر والتقوى كما يقول الله : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، ولا شك أن معنى البر سعة المعروف والخير ، ومعنى التقوى يسع كل ما يقى من الشر ، فالتعاون على جلب المصالح ودرء المفاسد ، واجب يأمر الله به ، وتمليه المصلحة العامة ، وتدعو إليه حاجة الأمة ، وقد أنكر الله على قوم

أنهم لم يقاتلوا « فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان » ، ولم يهزهم نداء الضعفاء ، الذين كانوا يشكون الظلم ويقولون : « ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » وفرض الجهاد على جميع المسلمين إذا احتل العدو أرضهم ، أو عدا على بعضها فى هذه الحال يتعين على كل مسلم ومسلمة أن ينهضوا لقتاله حتى يدفعوه بعيدا عن بلادهم ويمنعوا أنفسهم وإخوانهم أن يخضعوا لنفوذه ، أو يقعوا تحت سلطانه ، لأن هذا لا يتفق مع مبدأ الولاية الذى يشير إليه قوله تعالى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » .

والتعاون لدفع الظلم بكل صوره وألوانه واجب يشترك فيه الجميع لأن العقاب المترتب عليه يقع على الجميع كما يفهم من قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يده أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب) .

٣ — والإحساس بالمسئولية ، قدر مشترك بين جميع أفراد المجتمع ومظهر واضح من مظاهر التكافل الاجتماعى ، كما يفهم من قول النبى صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل فى أهله راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . .

ومن ذلك نرى أن كل فرد فى الأمة مسئول عما يعهد إليه القيام به ، يستوى فى ذلك الحاكم والخادم والكبير والصغير ، والمجتمع ممثلا فى الدولة أو الحكومة مطالب بأن يأخذ على يد كل من يتهاون فى أداء الواجب أو يعبث بحقوق غيره ، مهما تكن مكانته أو منزلته بين قومه ، وإلا تعرض لهلاك أو بلاء عام كما يفهم من قوله عليه السلام : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .

٤ — أداء الزكاة ، فقد فرضها الله على كل مسلم متى كمل عنده النصاب المقدر المقرر ، وجعلها حقا معلوما « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل » ، ولم يدع إسعاف الفقراء ومن إليهم من هؤلاء رهنا برحمة الأغنياء ، وإنما جعل لهم الزكاة حقا معلوما فى أموالهم . يؤخذ من الكرماء والبخلاء على السواء . لامنة ممنونة وجباء ، ومن ثم قاتل أبو بكر — رضى الله عنه — مانعيها . وقال فيها قولته المشهورة : (والله

لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا لقاتلتهم عليها) ولاشك أن الزكاة إذا جبيت وصرفت فى الوجوه التى بينتها الآية الكريمة حققت معنى التكافل الاجتماعى ولبت حاجة الفقراء والمساكين . فإذا لم تكف كان حقا على الأغنياء أن يمدوهم بما يكفيهم فى المأكل والملبس والمسكن ، ولو أدى بهم ذلك إلى عيش الكفاف ، فإن لم يفعلوا كان على الإمام أو ولى الأمر أن يقهرهم ويجبرهم — ولو بالحرب — على بذل ما فضل عن حاجتهم من أموالهم ، وقد كان هذا هو اتجاه عمر رضى الله عنه حين قال : (لو استقبلت من الأمر ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فرددتها على الفقراء) بل إن هذا الاتجاه هو الذى يوحى به توجيه رسول الله . إذ قال : (من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له . ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له) ويفهم من قوله عليه الصلاة والسلام : (أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعا فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى) إن المجتمع مسئول عن كل فرد فيه . وإن الإثم يقع على جميع أفراده إذا أصبح واحد منهم جائعا لا يجد منهم ما يسد جوعه

وقد أشاد النبى صلى الله عليه وسلم بالأشعريين لأنهم كانوا كما قال : (إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد . ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم) . ولا شك أن هذه صورة لا تفضلها أو تعدلها صورة أخرى فيما عرف الناس من ألوان التكافل الاجتماعى إذا استثنينا ما كان من الأنصار مع المهاجرين فى المدينة .

فقد كانوا كما يقول الله فيهم : « يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

هذه هى أهم الأصول التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى ، بمعناه الواسع الكبير الذى عرف فى الإسلام . . وسنرى فيما سيأتى من فصول كيف صنع الإسلام بتشريعه وتربيته أعظم أمة عرفها التاريخ . وأمثل مجتمع شهده الوجود ؟

عبد الرحيم فودة

مجالس الوعظ فى الإسلام

رحالة يتحدث عن واعظ كبير

للأستاذ محمد رجب البيومى

لا أدرى لماذا لا يكتب تاريخ الوعظ الدينى فى الإسلام كتابة منصفة واعية تسجل اتجاهاته وتتبع أدواره على نحو ما يكتب عن تاريخ التشريع أو التفسير أو الحديث، مع وفرة المراجع فى المكتبة الإسلامية عن الوعاظ والمرشدين؛ إذ أن أكثر هؤلاء كانوا فقهاء أو محدثين أو مفسرين وكتب الطبقات تفيض فى أخبارهم على مد العصور بما يهيئ لمؤرخ الوعظ فى الإسلام مادة جذابة مشوقة !! وأقول جذابة مشوقة لأن لكثير من هؤلاء الرجال مواقف سياسية باهرة تتصل كثيراً برجال الحكم وتنبئ عن غيرة المخلصين من العلماء حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فيصادمون الطغيان المعتز بجبروته وعساكره وخيوله ! وهم بذلك يتيحون لمؤرخهم الدءوب مدداً لا ينقضى من الحديث ! هذا غير ما يضطر إلى الإفاضة فيه من توضيح طرائق الوعظ ومناهجه وما يحتاج إليه من تبحر فى الشريعة وبراعة فى المنطق وقدرة على استشفاف النفوس ودراسة ما يشتجر من التيارات !

وسنتحدث اليوم عن واعظ جهير شغل مكانة مرموقة فى عصره واجتمع حوله من الأشياع والمريدين مالم يجتمع لأنبه الأساتذة فى عصرنا الحديث، وقد كثرت الأخبار فى ذلك كثرة تدعو إلى التصديق وتقطع الطريق على كل متشكك يلتمس مظان الريبة فيما يقرأ من الأنباء ! وحسبنا أن نقرأ مؤلفات الرجل أو ما بقى لدينا منها لندرك مبلغ علمه وتنوع معارفه وكثرة أفانينه، وإن واعظا يترك المجلدات الحافلة فى الفقه والتفسير والتاريخ والحديث والأدب واللغة لجدير أن تلتف حوله الأشياع ! هذه المؤلفات الباقية بين أيدينا إلى اليوم هى الوثيقة الصادقة التى تحدد مكانة الرجل فى عصره، وتشير إلى أسباب زعامته الروحية، وسيطرته الدينية على الجماهير !!

على أن أهم ما جعل هذا الواعظ الجهير يتبوأ مكان الصدر بين العلماء، وموضع الحظوة لدى الرؤساء، وزمام القادة من الجمهور ليس ما شغف به من دراسة علوم الشريعة واللسان على كثرة ما أبدع فى تناولها وتصفيفها بل خبرته الفائقة بأحوال عصره، وثقافات مجتمعه، فقد رزق عقلا نهما يتوق إلى شتى المعارف الإنسانية ويستوعب

فى شوق ما يقال عن الفلسفة والمنطق ، هذا إلى نفس مرحة طيبة تروى طرائف الأدب وتقتبع نوادر الشعراء والأدباء ، وإن عجيباً أن يكتب هذا الرجل مؤلفات ضخمة عن العشاق والظراف والمتماجنين وأخبار النساء والمغفلين والمجانين والحمق والأذكياء والحدائق ، هذا غير مؤلفاته الموسوعية فى التشريع والتفسير والحديث وعلوم القرآن والوعظ ، وقد أفادته دراساته الأدبية سلاسة رقيقة فى أسلوبه كانت ذات تأثير خلاب فى وعظه ، وإذ كنا نعلم أن أبا الفرج الجوزى (وهو من نتحدث عنه) قد نشأ فى القرن السادس ، وهو عصر المحسنات البديعية ، والصناعات اللفظية ثم نجده يختار فى وعظه وتأليفه معا - الأسلوب السلس الشائق غير ملتفت إلى هذا العبث الصناعى المسيطر على الأقلام ، فإننا نعتبره صاحب مذهب فنى يربأ بأفكاره أن تقيد بالسلاسل الزائفة ، ولولا بصيرته الأدبية الشفافة ما أتيح له هذا التفوق الكبير !

ولم يسلم أبو الفرج الجوزى من مناوأة معاصريه ! فهو إمام داعية ذو رأى مسموع وتأثير نفاذ ، وكان من الطبيعى أن يسأل عما يضطرب فى عصره من أحداث وعما يموج به الفكر الإسلامى آنذاك من تيارات فيجيب إجابة المتمكن الضليع ، ثم يؤلف فيما يسأل عنه ، فتذيع مؤلفاته بين الخاصة والعامة ، وكان أشد الناس عداء للمتصوفة فهو ينكر ما يزعمونه من الخوارق ويلزمهم بالوقوف عند حدود الشرع ، ثم يخوض حربا طاحنة مع الجامدين من الفقهاء والمقلدين من المتحجرين ، وينقد التراث الفلسفى والمنطق ، ويناقش الآراء الكلامية فى ذات الله وصفاته ، ويرد على ما يقال من التجسيم والتشبيه ! كل ذلك يترك حوله غباراً ثائراً من معارضيه ، ولكنه مع ذلك يجذب إليه من الأنصار أناسا يتفانون فى تقديره ، ويتدافعون على مجالس وعظه حتى كان يقدر مجلسه الحاشد فى بعض الأحيان بمائة ألف ، وحتى قال عن نفسه :

ولقد تاب على يدى فى مجالس الذكر أكثر من مائتى ألف ، وأسلم على يدى أكثر من مائتى نفس ، وكم سالت عين متجبر بوعظى لم تكن لتسيل .

ولعل ما حببه للنفوس فوق علمه وأدبه لطافة مظهره ، فقد كان نظيفا متطيبا يلبس الجيد الراقى من اللباس ، ويظهر نعمة الله عليه ، فيما يتخذ من المأكل والمشرب والمسكن والمركب ، وكان لطيف الصوت ، حلو الشمائل رخيم النغمة ، ينتقل بسامعه من الجد إلى الفكاهة كثير الاستشهاد بالنوادر والأبيات معظما للحديث المحمدى ، وقد ذكر ابن خلكان

عنه أنه كان يحتفظ ببراية أقلامه التي يسطر بها حديث رسول الله وأوصى أن يسخن بها ماء غسله بعد موته ففعل بها ما أراد وتهافت الناس على بقيتها فكفت أناسا كثيرين!

وإذا كان التقرب من الرؤساء ملقاً ورياء ديدن بعض الذين يبتغون عرضا من الحياة الدنيا، فإنه مما يشين العالم بوجه خاص والواعظ بوجه أخص، وقد أدرك ذلك ابن الجوزي فاجتهد أن يكون بمنأى عن مودات ذوي الأمر والنهي، فلم يعرف له اتصال ببعض الخلفاء والوزراء مع أنه كان يقيم ببغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ومناط التطلع والاستهواء لدى الوصوليين ممن لا يدخرون وسعا في الزلفى والشفاعة حتى يحوزوا رضا الحاكمين ثم يعودوا بالبدر والهبات إن قصرت أطماعهم على المادة وبالمناصب والألقاب إن تجاوزت المال إلى الجاه والاستعلاء! وما يروى من أن ابن الجوزي كان يعقد بعض مجالس الوعظ في ساحة قصر الخليفة فليس بسبب مما نحن فيه من ذم التقرب المغرض والوصولية المتهزة لأن الإمام الداعية لم يستجب لرغبة الخليفة المستضيء في ذلك إلا بعد أن اشترط على القصر أن يسمح لجميع العامة بالدخول حتى يكون الرئيس والمرءوس بموضع واحد من سماع الوعظ ومذاكرة العلوم! وفضلا كان مجلسه في دار الخلافة لا يختلف عن مجلس وعظه في مكان آخر إلا ما يروى من أن والدة الخليفة وابنها كانا يستمعان الوعظ من وراء ستار، ومهما يكن من شيء فقد فطن ابن الجوزي بالتجربة المريرة إلى أثر اتصال رجل الدين بالحاكم المستبد فقال عن نفسه:

كنت في بداية الصبوة قد ألهمت طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة وحببت إلى الخلوة فكنت أجد قلباً طيباً، وكانت عين بصيرتي قوية حادة فانتهى الأمر بي إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي فأمالني إليه فمال الطبع ففقدت الحلاوة، ثم استمالني آخر فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح فانعدم ما كنت أجد من استنارة وسكينة، وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله، فاجتذبني لطف مولاي بي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي على بعد نفور عني، وأراني عيب ما كنت أوثره فأفقت من مرض غفلتي [1]، وقد حرصت على أن أنقل عبارته لأنها ذات دلالة خاصة فيما يتصل بقلب الواعظ وخلوص

---

(١) ص ١٠ مقدمة كتاب ذم الهوى لمحققه الأستاذ مصطفى عبد الواحد.

طويته فليس المرجو منه أن يعظ بالقرآن والحديث ولكن القدوة الصالحة هي مناط التأثير والانجذاب ، ولا قيمة للعلم دون امتثال .

أما مجلس وعظه على هيئته الطبيعية دون تزيد أو تخييل فقد حفظ لنا التاريخ صورة حية منه رسمها الرحالة الأندلسي ابن جبير في رحلته الشهيرة ، فجاءت صورة باهرة مثيرة قل أن تتاح لأحد ممن عرفناهم أو قرأنا عنهم من كبار المرشدين ، وابن جبير كما نعرفه في رحلته لم يكن يخالف الواقع إلى المبالغة ، وهو في حقيقته فقيه محدث متدين يحرص على تسجيل أخبار الصالحين والهداة ومجاهدي الحروب الصليبية من الأبطال ويفيض في الحديث عن المزارات والمناسك ومواسم العبادة من صوم وحج وزكاة ، ولو جردت رحلته مما يتعلق بمسائل الدين ومناسكه والحديث عن رجاله وعلمائه ما وجد شيء ذو بال ، بل إن رحلته من الأندلس إلى المشرق في لبابها الصريح كانت رحلة دينية تهدف إلى التوبة والتطهير وغفران الذنوب بزيارة بيت الله في مكة وروضة الرسول في المدينة ، فقد قيل إن سبب الرحلة الأولى هو « أن أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة استدعاه ليكتب له كتابا وهو على شرابه ، فمد يده إليه بكأس فأظهر الانقباض وقال يا سيدي ما شربتها قط ، فقال والله لتشربن منها سبعا ، فلما رأى العزيمة شرب سبع أكوس فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرات وصب ذلك في حجره ، فحمله إلى منزله ، وأضمر أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير ثم رغب للسيد وأعلمه أنه حلف بأيمان لا خروج له عنها أن يحج في تلك السنة فأسعفه وباع ملكا له تزود به وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر » .

أخذ ابن جبير يجوب الآفاق حتى قدم بغداد ، ولا ندري لماذا لم تقع منه هذه المدينة الزاهرة موقع الارتياح ، « فقد ذهب أكثر رسمها ولم يبق إلا شهير اسمها فلا حسن فيها يستوقف البصر وأهلها يتصنعون بالتواضع رياء ، يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، والغريب فيهم معدوم الإرفاق متضاعف الإنفاق ، فسوء معاشرة أبنائها يغلب على طبع هوائها ومائها أستغفر الله إلا فقهاءهم المحدثين ووعاظهم المذكرين » .

وكأني بابن جبير وقد استثنى الفقهاء والمحدثين إجلالا لابن الجوزي فقد تحدث عنه بما شاء الله أن يتحدث عن عالم ورع مهيب مفضال ! وقد وصف مجلس وعظه وصفاً غريباً نقف منه على ما كان يتبع في عصره لدى الوعظ من تقليد ! إذ أن المجلس الديني كان يبدأ عادة بتلاوة آيات من الذكر الحكيم يقرؤها في المجلس الواحد أكثر

من عشرين قارئا ، كل قارئ آيتان آيتان ! وجميع الآيات فى غرض واحد حتى إذا انتهى القراء وقف الواعظ فألقى خطبة فياضة تدور حول الآيات المتلوة ، فيأتى بها جميعها مفسرة موضحة ومؤيدة بما يدور فى فلكها من الحديث وقصص الهداة وعبر التاريخ ، على أن يلتزم فى خطبته الحرف الأخير من آخر آية كريمة قراها المرتلون فيكون مقطع الجملة وقافية العبارة دون تكلف أو افتعال ، فإذا فرغ من تفسيره تبق الرقاع المختلفة تحمل أسئلة الجمهور فيجيب عنها واحداً واحداً . لافرق بين سؤال فى موضوع الخطبة أو سؤال خارج عنه حول أى مشكلة تدور فى الأذهان ؛ وكنت أظن أن نظام الأسئلة عقب المحاضرات أمر مستحدث نعرفه الآن فقط ولكن حديث ابن جبير عن ابن الجوزى والقزوينى وغيرهما من المحاضرين يدل على أن الأمر فى ذلك يرجع إلى مدى بعيد ، وقد حضر الرحالة الطلعة ثلاث مشاهد من مجالس الوعظ لابن الجوزى ، فوصفها وصفا متقاربا بحيث يغنى وصف المجلس الواحد عن أخيه لافرق بينهما إلا فى موضوع الوعظ وفحواه ، أما طريقة القراء ونظام التلاوة وتهيئة المجالس فكل ذلك يسير على وضع رتيب وسننقل هنا وصفا بديعا لبعض مجالس ابن الجوزى ومستلزمات وعظه كما رسمها الرحالة الكبير - قال :

ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبى الفضائل ابن على الجوزى بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقى ، وفى آخره على اتصال من قصور الخليفة وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقى ، وهو يجلس به كل يوم سبت فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفى جوف الفرا كل الصيد ، ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدئ القراء بالقرآن وعددهم نيف على العشرين قارئا فينتزع الإثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أتوا بآيات متشابهات لا يكاد المتقد الخاطر يحصيها عدداً أو يسميها نسقا فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن فى إيراد خطبته عجلا مبتدرا ، وأفرغ فى أصداف الأسماع من ألفاظه درراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات فى أثناء خطبته فقراً ، وأتى بها على نسق القراءة لها ، لا مقدما ولا مؤخراً ، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها ، فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسميته ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك ، فكيف بمن ينتظمها

مرتجلا ويورد الخطبة القراء بها عجلا ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » ، « إن هذا لهو الفضل المبين » .

تحدث ولا حرج عن البحر ، وهيهات ، ليس الخبر عنه كالخبر ، ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا وذابت بها الأنفس احتراقا إلى أن علا الضجيج وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى بناصيته بيده فيجزها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يغشى عليه فيرفع فى الأذرع إليه ، فشاهدنا هولا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرها هول يوم القيامة ، فلو لم نركب ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة والوجهة المفلحة الناجحة والحمد لله على أن من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله ، وفى أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائل وتطير إليه الرقاع فيجاوب أسرع من طرفة عين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتاج تلك المسائل ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء. لا إله سواه »

وظاهر من كلام ابن جبير أنه دهش لا تفاق الخطبة الوعظية مع الآيات القرآنية المتلوة ! فهو يقول « فلو أن أبدع من فى مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلا ويورد الخطبة القراء بها عجلا، وربما تزول دهشة الرحالة حين يعلم أن هؤلاء القراء كما أفهم — يعرفون ما سيقرءون من ابن الجوزى قبل أن يلتئم الجمع ، فالرجل لا محالة يجمع مادة الدرس من كتاب الله فى موضوع واحد تتفرق آياته فى السور المختلفات ثم يخبر بها القراء ليقوموا بتلاوتها وللأصوات الحسنة تأثيرها النفاذ فهى تمهد السبيل لتلقى الوعظ ومتابعة التفسير ، فإذا نهض الإمام ابن الجوزى ليفسر النص بعد أن استمتع الحاضرون بتلاوته صادف موضع الرغبة والإقبال ! وهذا مما يزيد توفيقه ونفاذه ولن يقول قائل إن إعداد الآيات مما ينقص مقدرته على الارتجال ، فهو آية اعتداده بنفسه ، ودليل تمكنه من الربط البدهى والتعليل الحاضر والاستشهاد السريع وحق لمثله أن يقول فيه ابن جبير « فلو لم نركب ثبج البحر ونعتسف مفازات القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابحة مع أنه رأى فى رحلته الدنيا وشاهد مئات الرجال .

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

المعلّم الثانى وشعره

للأستاذ سعيد زايد

أجمع المؤرخون ابن أبى أصيبعة فى «عيون الأنباء» وابن خلكان فى «وفيات الأعيان» وابن النديم فى «الفهرست» وصاعد فى «طبقات الأمم» على أن اسم المعلم الثانى هو محمد، ولكنهم اختلفوا فى نسبه واسم أبيه، فقال الأول إنه أبو نصر محمد بن محمد ابن أوزلغ بن طرخان، وقال الثانى إنه أبو نصر محمد بن طرخان بن أوزلغ، وقال الثالث إنه أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، وقال الرابع إنه أبو نصر محمد بن محمد ابن نصر.

وقد اتفق أغلب من ترجموا للمعلم الثانى على أنه تركى الأصل، وخالفهم فى ذلك ابن أبى أصيبعة الذى ذكر أن والده كان قائد جيش وهو فارسى المنتسب. ويعلق الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق على ذلك فى كتابه «فيلسوف العرب والمعلم الثانى» على ذلك بقوله: «ولا سبيل إلى تحقيق نسبه من هذه الناحية لتقارب البلدين واشتراك الأعلام فيهما. وإذا صح أن أباه كان قائد جيش فهو لم يكن من كبار القواد الذين يشيد بذكرهم التاريخ. ولعل فيما امتاز به الفارابى من الشجاعة والصبر على احتمال متاعب الدرس ومشاق الأسفار وشظف العيش ما يشعر بأنه سليل أبطال».

ويذكر ابن النديم فى «الفهرست» أن المعلم الثانى ولد فى بلدة فارياب، من أرض خراسان ولم يعلل لماذا يدعى الفارابى لا الفاريابى. والقول الذى يكاد يجمع عليه كل من كتب عن الفارابى أنه من بلدة فاراب، وهى - كما يقول ياقوت فى معجم البلدان: «ولاية وراء نهر سيحون فى تخوم بلاد الترك، وهى أبعد من الشاش قريبة من بلاساغون ومقدارها فى الطول والعرض أقل من يوم، إلا أن بها منعة وبأسا، وهى ناحية سبخة لها غياض، ولهم مزارع فى غرب الوادى تأخذ من نهر الشاش».

لم يترجم المعلم الثانى لنفسه، كما صنع غيره من مفكرى الإسلام، وكذا لم يفعل ذلك أحد من تلاميذه. وهذا كان من أكبر الأسباب التى دعت إلى عدم معرفة تاريخ

مولده. ولكن هذا التاريخ يمكن استنتاجه من ذكر ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» لتاريخ وفاته والعمر الذى بلغه، فقد ذكر أنه توفى سنة ٣٣٩ هـ عن ثمانين عاما، وبذا يمكننا أن نستنتج تاريخ مولده بأنه كان حوالى سنة ٢٥٩ هـ.

وعدم ترجمة المعلم الثانى لنفسه أثرت فى معرفتنا لرحلاته وأسفاره، فقد كان من هواة الأسفار والتنقل، ولكن المؤرخين لم يذكروا من هذه الرحلات إلا ما وقع منها بعد بلوغه الخمسين من عمره، ولم يتتبعوا منها إلا ما كان بعد رحيله من بلده إلى بغداد، أما الأسفار والرحلات التى تمت فى طفولته وشبابه فما زالت فى طى المجهول، وقد يكشف عنها بحث علمى.

وعلى غرار أهل عصره نشأ المعلم الثانى على ثقافة لغوية دينية، فقد أقبل على العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير، وتعلم اللغة العربية والتركية والفارسية. وقد ذكر ابن خلكان رواية عجيبة هى أنه كان يلم بسبعين لسانا، ولكن هذا الخبر يدخل فى باب الأساطير، فإنه يبعد عن الظن أنه عرف لغة أخرى غير تلك اللغات التى ذكرناها. ويقول الدكتور إبراهيم مدكور فى بحث له عن «الفارابى» إنه لم يكن يعرف اللغة اليونانية،

ويتضح ذلك من تحليله لكلمة السفسطة فى كتابه إحصاء العلوم. وإلى جانب الدراسات اللغوية الدينية نال المعلم الثانى قسطا من الدراسات العقلية المحيطة به من رياضة وفلسفة؛ ولقد ذكر ابن أبى أصيبعة أنه عنى بدراسة الطب عناية خاصة، ولكن الدكتور إبراهيم مدكور - فى بحثه المذكور - لا يقر هذا القول.

ولقد كانت رحلات الفارابى بحثاً عن الدراسات العقلية، فبعد رحيله من بلده إلى بغداد درس المنطق فيها على إمام المناطقة أبى بشر متى بن يونس؛ ولم يكتف بهذا، بل درسه أيضا - كما يذكر صاعد فى طبقات الأمم - على يوحنا بن حيلان المتوفى فى مدينة السلام فى أيام المقتدر، وكان ذلك بعد رحيله من بغداد إلى حران؛ وترجع تسميته بالمعلم الثانى لما انتهى إليه من منزلة ممتازة. وقد تتلمذ عليه يحيى بن عدى المنطقى المشهور.

قلنا إن الفارابى لم تعرف رحلاته إلا ما وقع منها بعد سن الخمسين، أى ما وقع منها فى مرحلة النضج الكامل والتأثير فيمن يتصل به. فهو بعد أن رحل من بلده إلى بغداد ثم إلى حران - كما قلنا - رجع مرة ثانية، كما يذكر ابن خلكان، إلى بغداد، فقرأ فيها علوم الفلسفة، ووجد فيها كتب

المعلم الأول أرسطو فأقبل على دراستها فى نهم ، مستخرجا معانيها ، ولقد عاود قراءتها عدة مرات ، فلقد وجد على كتاب النفس لأرسطو عبارة بخطه هى : « إنى قرأت هذا الكتاب مائة مرة . ويقال إنه ذكر أنه قرأ كتاب « السماع الطبيعى » لأرسطو أيضا أربعين مرة ، وما زال محتاجا إلى معاودة قراءته .

ويذكر ابن خلكان أن المعلم الثانى ألف معظم كتبه فى بغداد . وهذا خبر صادق فيما يبدو ، ذلك أنه قضى فى بغداد ما يقرب من عشرين عاما كلها فى فترة نضوجه العلمى .

وبعد أن قضى المعلم الثانى هذه الفترة فى بغداد ، توجه إلى حلب ، وعاش فى كنف سيف الدولة بن حمدان ، والتقى فى بلاطه بعلماء الإسلام من كل جنس وثقافة ، لغويين وأدباء وفلاسفة .

قضى الفارابى حياته كلها فى شظف من العيش ، وكان يكسب قوته بعمل يديه ، فهو لم يكن بالرجل الذى تغريه مظاهر الدنيا والجاه ، حتى إنه كان يعمل ناطورا إبان الفترة التى ذهب فيها إلى دمشق . شىء واحد كان بارزا فى حياته هو انقطاعه للتعليم والتأليف وحبه للأسفار ، فقد سافر غير مرة ـ فى الفترة التى قضاها فى حلب ـ إلى مصر وإلى دمشق ، هذا بالإضافة إلى انتقاله من مسقط رأسه إلى بغداد ومنها إلى حران ثم رجوعه إلى بغداد ، كما ذكرنا سابقاً .

وقد توفى المعلم الثانى سنة ٣٣٩ هـ ، وكرمه سيف الدولة بن حمدان بأن صلى على جثمانه مع بعض خواصه ، ودفن بظاهر دمشق خارج الباب الصغير ولقد كانت وفاة الفيلسوف وفاة طبيعية ، كما ذكر جل المؤرخين ، ولقد خالفهم البيهقى فى كتابه « تاريخ الحكماء » فذكر أن بعض اللصوص قتلوه فى أثناء رحلته من دمشق إلى عسقلان . ولكن أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ينفى هذه الرواية ويدحضها فى كتابه « فيلسوف العرب والمعلم الثانى » فيقول : « لو صحت حكاية قتل الفارابى لأشار إليها من ترجموا له ممن كان زمنهم قريبا من زمنه كأبى الحسن على المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، سنة ٩٥٧ م . على أنا لاحظنا فى ترجمة البيهقى للفارابى خلطا تاريخيا يزعزع الثقة بها ، وهذه الرواية المنقولة عن قتل الفارابى تشبه أن تكون تحريفا لما رواه المؤرخون عن مقتل أبى الطيب المتنبى الشاعر المشهور فى عودته من بلاد فارس إلى الشام سنة ٣٥٤ هـ » .

ولقد روى ابن خلكان وابن أبى أصيبعة الأول فى « وفيات الأعيان » والثانى فى « عيون

الأنباء فى طبقات الأطباء ، أن هناك بعض أشعار تنسب إلى المعلم الثانى ، هى :

أخى خل حيز ذى باطل
وكن للحقائق فى حيز
فما الدار دار مقام لنا
وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهذا على
أقل من الكلم الموجز
وهل نحن إلا خطوط وقعن
على نقطة وقع مستوفز
محيط السموات أولى بنا
فماذا التنافس فى مركز

ولكن ابن خلكان نفسه يشك فى نسبتها إلى الفارابى ، ويقول فى ذلك :

« ورأيت هذه الأبيات فى الخريدة منسوبة إلى الشيخ محمد بن عبد الملك الفارقى البغدادى الدار » .

وذكر ابن أبى أصيبعة ، كذلك ، بعض أبيات شعرية ، ضمن دعاء أورده على لسان الفارابى ، هى :

ياعلة الأشياء جمعا والذى
كانت به عن فيضه المتفجر
رب السموات الطباق ومركز
فى وسطهن من الثرى والأبحر
إنى دعوتك مستجيرا مذنبا
فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من
كدر الطبيعة والعناصر عنصرى

وروى أيضا هذه الأبيات :

لما رأيت الزمان نكسا
وليس فى الصحبة انتفاع
كل رئيس به ملال
وكل رأس به صداع
لزمت بيتى وصنت عرضا
به من العزة اقتناع
أشرب مما اقتنيت راحا
لها على راحتى شعاع
لى من قواريرها ندامى
ومن قراقيرها سماع
وأجتنى من حديث قوم
قد أقفرت منهم البقاع

وقد ذكر أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه سالف الذكر بعض أبيات شعرية للفارابى عن مجموعة تسمى الفلسفة القديمة مطبوعة سنة ١٩١٠ بالمطبعة السلفية ، هى :

بزجاجتين قطعت عمرى
وعليهما عولت أمرى

(البقية على الصفحة التالية)

مولانا أزاد والخلافة

للأستاذ عبد المنعم النمر

كان المسلمون بصفة عامة ينظرون إلى الخلافة كرمز ديني له قداسته في قلوبهم وعاشوا على مر القرون منذ كانت الخلافة الراشدة حتى الخلافة العثمانية يعيشون في ظل خلافة أيا كانت هذه الخلافة .. ويدينون لها بالولاء والطاعة . حتى كان الملوك الأقوياء في مصر أو غيرها يرون ألا بد من قيام نظام الخلافة بجانبهم ليستمدوا منه قوة النفوذ على الشعب المسلم ... ويسعوا مع قوتهم ونفوذهم إلى أن يأخذوا موافقة الخليفة ضعيف السلطة على تنصيبهم ملوكا لتكون لهم الصبغة الشرعية في حكم المسلمين بالرغم من أن هؤلاء الخلفاء أحيانا لم تكن لهم أية سلطة زمنية وكانوا يعيشون في حماية هؤلاء الملوك الأقوياء ..

ولا شك أن سعى هؤلاء الملوك الأقوياء إلى استرضاء الخلفاء وإعلان حكمهم للشعب

(بقية المنشور على الصفحة التالية)

فزجاجة ملئت بحبر
وزجاجة ملئت بخمر
فبذى أدون حكمتى
وبذى أزيل هموم صدرى

هـذا هو ما وصل إلينا من شعر المعلم الثانى ، وفى الحق : أن ما وصل إلينا من كتبه لا يذكر فيها شىء عن شعر له أو أنه قال الشعر أبدا ، وكل الاعتماد فى هذا الموضوع على كتب المؤرخين ، ولذا فإنه لا يعطينا فكرة واضحة ولا يحسم الأمر بإعطاء برهان قاطع عما إذا كان هـذا الشعر من نظمه حقا أم نسب له فقط ، ذلك أن ابن خلكان نفسه بعد أن روى بعض الأبيات شك فى نسبتها إليه ولقد شك أستاذنا المرحوم مصطفى عبد الرازق - فى كتابه المذكور فى ذلك الأمر قائلا : « نحن نشك فى صحة معظم هذا الشعر أن يكون للفارابى ، لما فى أسلوبه من تكلف ينبو عنه أسلوب فيلسوفنا وطبعه ولما فى معانيه من تبرم بالحياة واستهتار بالشراب .

وقد يكون للفارابى شعر يتفق مع ما كان عليه من منزلة علمية وخلقية ، وعدا عليه الزمان فيما عدا على بعض آثاره الفلسفية . ولكنا قبل الكشف عن هذه الآثار والعثور على نصوص صحيحة لا نستطيع أن نجزم بأنه كان شاعراً . ومن يدرى لعل البحث العلمى يكشف عن هذا الموضوع فى يوم من الأيام .

سعيد زايد

باسم الخليفة كان راجعا لما لهؤلاء الخلفاء على ضعفهم من سلطة روحية على المسلمين .

وكانت السلطة الروحية لهؤلاء الخلفاء تمتد إلى قلب كل مسلم فى أية جهة كانت .. ولهذا كان للخلافة العثمانية نفوذ روحى على المسلمين سواء أكانوا يعيشون فى دولة الخلافة أم يعيشون فى ظل دولة أخرى ...

ولعل أبرز مثل على هذا فى عصرنا الحديث ما رأيناه من تعلق المسلمين فى الهند بالخليفة العثمانى ودفاعهم عن هذه الخلافة بكل ما فى وسعهم ... ذلك لأنهم كانوا ينظرون إليها على أنها مركز التجمع للمسلمين وأنها التى يمكنها بهذا صد التيار الغربى الزاحف عليهم وإنقاذ مجد الإسلام وتراثه من عبث الغرب به . فوق أنهم كانوا يتطلعون إليها كحامية لهم بعد أن فقدوا ملكهم على أرض الهند .

وكانوا فى عاطفتهم نحوها وتعلقهم بها أشد حماسا من المسلمين العرب الذين كانت تحكمهم؛ ذلك لأن العرب قاسوا من حكم الأتراك الظالم الجائر الفاسد المتعصب ما أضعف عاطفتهم نحوها ، وجعلهم يسعون أحيانا للتخلص منها على عكس الهنود الذين لم يمسهم هذا الحكم التركى بظلم ، فبقيت عاطفتهم نحوها سليمة فوق أنهم كانوا يعتبرون تألب الغرب عليها حركة صليبية حديثة ولذا رأيناهم يهبون لمساعدتها فى حربها مع دول البلقان ، وفى حربها مع إيطاليا فى طرابلس، ويبعثون إليها بالمساعدة تلو المساعدة .

ثم رأيناهم يفزعون أشد الفزع عند دخول انجلترا الحرب ضدها ويعلنون أنهم يقفون فى صفها ، ويظهرون العداء من أجلها للدولة الحاكمة لهم وهى انجلترا ، مما اضطرها إلى أن تصانعهم ، وتلتمس لنفسها المعاذير فى دخولها الحرب ضد دولة الخلافة ، ثم تتعهد لهم بألا تمسها بسوء إذا خرجت من الحرب منهزمة .

وعندما انهزمت وبدأت انجلترا تنكث بعهودها ثاروا جميعا عليها وعمت الهند كلها ثورة جارفة سقط فيها مئات الضحايا ، وقامت حركة الخلافة بتنظيم جهود المسلمين من أجل المحافظة على دولة الخلافة حتى أعلن غاندى باسم الهنـــدوس تضامنه مع المسلمين ضد انجلترا من أجل نقضها لوعودها ...

وكان المسلمون فى الهند ـ على ما أعتقد ـ هم وحدهم ـ دون بقية مسلمى العالم ـ الذين ناصروا الخلافة ودافعوا عنها وضحوا من أجلها .. ولا يزال الكثير منهم يعتقدون حتى الآن أن السبب فى نكبة المسلمين وتمكن الغرب من السيطرة عليهم واستعمارهم ماديا وفكريا إنما هو تخليهم عن الخليفة وتفريطهم فى الدفاع عن دولتهم التى كانت تجمعهم وتوحد شملهم ، إذ لو أن المسلمين

نسوا أو تناسوا مؤقتا ماكان لدولة الخلافة من مظالم ووقفوا بجانبها ضد الغرب لأمكن لهم الاحتفاظ بوحدتهم الإسلامية الجامعة ولما استطاع المستعمر أن يثبت قدمه فى بلادهم ولما أمكن لليهود انتزاع فلسطين من أهلها وطردهم منها وكان يمكن للمسلمين بعد ذلك أن يصفوا حسابهم مع دولة الخلافة ويأخذوا حقوقهم منها .

سمعت كثيرا من زعماء المسلمين فى الهند يدلون بهذه الآراء ويبدون شديد الأسف مع كثير من المرارة لما أصاب المسلمين بسبب تفككهم وتخليهم عن دولة الخلافة .. حتى فى آخر حديث لى مع المجاهد المسلم شيخ الإسلام فى الهند مولانا حسين أحمد مدنى قبيل وفاته سنة ١٩٥٧ م ذكر لى هذا الرأى وهو مؤمن به أشد الإيمان .. وقال لو أن مصر وغيرها من العرب ساندوا دولة الخلافة لما حل الاستعمار الغربى ببلادهم ولما عانوا منه ما يعانون الآن ...

ذلك إجمال لموقف المسلمين فى الهند بصفة عامة من الخلافة العثمانية .

وإذا قلنا إن ذلك كان هو موقف المسلمين فى الهند فلا شك أنه كان تفاعلا مع آراء الزعماء والقـــادة المسلمين أو استجابة لتوجيهاتهم .

ولقد كان مولانا أزاد أحد هؤلاء الزعماء والقادة الذين أبلوا بلاء حسنا فى خـــدمة الخلافة العثمانية ومساندتها ودعوة المسلمين بقلمه ولسانه إلى شد أزرها والوقوف بجانبها وإعلان الثورة على الانجليز المستعمرين من أجلها بما حملهم على اضطهاده وإغلاق مجلاته ومصادرة مطابعه وسجنه عدة مرات ... كان مسلما عميق الإيمان بدينه شديد الإحساس بالروابط الدينية التى تربطه بإخوانه المسلمين فى كل مكان . كثير العناية والاهتمام بهما كلهم منذ كان شابا .. حتى دفعه كل هذا إلى إصدار مجلاته . الهلال ثم البلاغ لتعبر عن رأيه وبلغ بواسطتها دعوته .

وكان لا يكتفى بمتابعة الحركات والأفكار الإسلامية حول الخلافة فى بلاده فقط بل كان يتابعها كذلك فى البلاد الإسلامية الأخرى ويكتب إلى القائمين بها مؤيداً أو ناقداً .

ولقد أتيح لى الاطلاع على بعض رسائله التى كان يبعث بها من الهند إلى السيد رشيد رضا[1] فى مصر حول هذا الموضوع فلمست فيها شدة اهتمامه بمسألة الخلافة وحدبه عليها .

ولا أريد هنا أن ألخص هذه الرسائل بل أحب أن أقدم رسالتين منها . بنصهما كوثائق هامة تؤرخ لمولانا أزاد وترينا مدى اهتمامه وحساسيته بكل أمر يتصل بموضوع الخلافة

(١) عثر عليها فضيلة الأخ أحمد الشرباصى وهو يعد بحثاً عن السيد رشيد رضا وقدمها لى مشكوراً .

فهو فى خطابه الأول الآتى يعبر عن مدى انزعاجه لما ذكرته إحدى الصحف الهندية من رأى السيد رشيد رضا يتصل بدولة الخلافة ، وليس من الأمور الهينة المعتادة أن يسمع واحد فى الهند رأيا لآخر فى مصر فينزعج له ويكلف نفسه الكتابة إليه ويطلب الجواب منه بما يهدئ روعه ويزيل الشبهة عنه إلا إذا كانت لديه حساسية وعناية خاصة بهذا الموضوع ويلاحظ أن مولانا أزاد كان فى أوائل العقد الثالث من عمره حين كتب هذه الرسائل ، وكان يصدر فى ذلك الوقت مجلته الهلال ولا شك أنهما تبادلا رسائل كثيرة كما يفهم ذلك من أسلوب هاتين الرسالتين وهذه هى إحدى الرسالتين وهى صادرة من كلكتا بالهند فى المحرم سنة ١٣٣١هـ (ديسمبر سنة ١٩١٢م) :-

الفاضل الجليل والشيخ النبيل :

سلام عليكم طبتم ودمتم فوق ما رمتم . وبعد : فإنه غير عازب عنكم ما لحضرتكم من المكانة فى فؤادى ، وما ذلك إلا لأنى أرى أنكم تخدمون الإسلام والمسلمين خدمة لا تشوبها صوالح الشخصية والجنسية ولأجل ذلك كلما سمعت كلمة سوء فيكم أجدنى مدفوعا إلى ردها فى نحر قائلها ، ولقد كتبت بعض الجرائد الهندية بأن لكم يدأ فى الحركة اللامركزية الحديثة (يريد انفصال بعض البلاد العربية عن حكومة الخلافة) .

وما لبث هذا النبأ ألا أن ذاع فى طول الهند وعرضه وطفق الناس يتكلمون فى هذا الباب بين مصدق وآخر مكذب ، وثالث مرتاب . . أما أنا فمن الحيارى ، لا أدرى ماذا أقول ؛ لأنى كلما أتذكر نعيكم على محمد على باشا أنه وإن نفع مصر من وجوه شتى إلا أنه فارق المركز (يريد الخلافة) وأضر بمصر والدولة العثمانية كلتيهما .

لا أرى لهذا النبأ نصيباً من الصحة ، لأن اللامركزية مما صنع محمد على باشا وكلما أصرف النظر عن هذا النعى وأقرأ ما نشرته الجريدة لا أجد سبيلا لإنكاره .

إنكم نصبتم نفسكم للإصلاح ، ومعلوم أن الإصلاح فى أى شأن من شئون الأمة لا يرجى فوزه إلا بالنماذج ، وإن النماذج لا تجدى نفعاً ما لم تكن الأمة حسنة الظن بها ، وقد قال تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى » ، ومن معاونة البر درء الريب عن البار فنكتب إليكم الأسئلة الآتية راجين منكم جواباً شافياً لكى ننشرها فى الهند ونبرئ ساحتكم :

الأسئلة

١ - هل حضرتكم من أصحاب اللامركزية ؟.

٢ - أليس معنى اللامركزية تمزيق أشلاء

الدولة العثمانية وتضعيف المجموع بتفريق أجزائه ؟.

٣ - أليس هذا هو الذى نعيتموه على محمد على باشا ؟.

٤ - أليس هذا يصدق الذين كانوا يرمونكم بفكرة تأسيس الخلافة العربية وإحداث الشقاق فى العناصر العثمانية ؟.

٥ - أليس من البديهى أن العناصر العثمانية إذا تشتتت وتفرقت يبتلعها الأجانب وإذن لم تبق لدولة الإسلام باقية ؟. والسلام

المخلص

أبو الكلام الدهلوى

ولعلك لاحظت أنه وقع فى آخر رسالته باسم « أبو الكلام الدهلوى » وقد جرت عادة أهل الهند على ألا تكون للأسرة اسم لقب عام يجمع أفرادها بل كل واحد فى الأسرة ينسب نفسه إلى البلد الذى نشأ فيه أو إلى المدرسة التى تعلم فيها أو إلى أستاذه الذى تأثر به وأحبه ومولانا أزاد تراه ينسب نفسه إلى دهلى مع أنه لم يولد فيها بل ولد فى مكة ثم انتقل أبوه إلى كلكتا بعد عامين من ولادته وهناك تلقى علومه وخاض غمار الحياة ومنها أصدر مجلة الهلال. فمن أين إذن جاءته هذه النسبة !.

أعتقد أنه اختار أن ينسب نفسه لمدرسة المصلح الكبير إمام المجددين شاه ولى الله الدهلوى المتوفى عام ١٧٦٢ م والذى اعتاد العلماء والنابهون فى الهند أن ينسبوا أنفسهم إليه إيذانا بتأثرهم بأفكاره، وسيرهم على منواله.

ولعلك لاحظت أنه عبر باللامركزية، وأراد تقسيم بلاد الخلافة العثمانية إلى دويلات ولذلك نعى على دعاة اللامركزية دعوتهم وقال إنها تؤدى إلى تمزيق أشلاء الدولة العثمانية وتضعيف المجموع بتفتيت وتفريق أجزائه، حتى يسهل على الأجانب بعد ذلك أن يبتلعوا البلاد، ولا تبقى حينئذ لدول الإسلام باقية..

وهذا هو الذى أزعجه حين نشرت إحدى الصحف الهندية: أن السيد رشيد رضا يدعو إليه، وأخذ يلقى إليه السؤال تلو السؤال، وكأنه بهذا يقطع الطريق على السيد رشيد رضا ويحاجه لو صح أنه يدعو إلى اللامركزية.

ويظهر أن هذا الخطاب بما جاء فيه من أمور تتعلق بالخلافة قد أثار السيد رشيد رضا ودفعه إلى أن يرد عليه فى الحال حين وصوله كما وجدت ذلك مكتوباً عليه بالقلم الرصاص فى أعلاه إذ كتب يقول: (أجبت عليه فى الحال ١٩/١/١٣٣١ هـ).

عبد المنعم النمر

من معانى القرآن

« إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ،
إن شانئك هو الأبتر » قرآن كريم

الكوثر : معناه الخير العظيم ، والعدد الكثير .

ونحره نحراً : ذبحه ، ومعنى انحر كذلك الانتصاب فى الصلاة إذ يقال : نحر الرجل فى الصلاة انتصب ونهد صدره أو وضع يمينه على شماله ، أو انتصب بنحره إزاء القبلة كما جاء فى القاموس : والنحر أعلى الصدر .

وشنأه شنأ وشنآنا أبغضه وتجنبه فهو شانئ بمعنى مبغض .

الأبتر من الناس من لا ولد له ، ومن لا خير فيه . والحقير الذليل ، ومن الحيوان المقطوع الذنب ، وكل معانى المشتقات من « البتر » تدل على معنى القطع .

المعنى

يؤكد الله لنبيه وخاتم أنبيائه ورسله أنه أعطاه الخير الكثير ، ولذكر الحسن ، ورفع قدره بما أعطاه إلى مستوى لا يرقى إليه غيره ، فقال سبحانه : إنا أعطيناك الكثير كالنبوة والحكمة والفتح المبين . والقرآن العظيم ، فاشكر الله بالصلاة له ، وأقم الصلاة بالانتصاب فيها والاتجاه بها نحو بيته الحرام . وانحر الذبائح تقرباً إليه وتعبيراً عن الشعور بواجب الشكر له جل شأنه ، إن من كرهك وأبغضك . وانتقص قدرك وزعم أنك مقطوع الذكر والأثر . لأنه لم يعش لك مولود ذكر ، هو المقطوع الذكر المنسى الخبر ، أما أنت فذكرك خالد مرفوع ، وخبرك باق متصل ، وأشياعك وأتباعك يتزايدون . ويدخلون أفواجا فى الدين الذى بعثك الله به : « ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ، وقد كان هذا العطاء الكثير تحقيقاً لوعده تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » ، وله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الآخرة ما يفهم من قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى » .

صلى الله عليه . ونفعنا بالصلاة عليه .

عبد الرحيم فوده

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

– ٧ –

المساواة التامة فى الشريعة الإسلامية :

إن التشريعات الإسلامية قائمة على المساواة بين الناس جميعا ، فلا قيود ولا استثناءات وإنما هى مساواة مطلقة بين الأفراد ، ومساواة تامة بين الجماعات ، ومساواة تامة بين الأجناس والشعوب ، ومساواة بين الحكام والمحكومين ، والرؤساء والمرءوسين فلا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأحمر على أصفر ، ولا لسامى على آرى ، ولا لآرى على سامى ، وقد صدع القرآن الكريم بهذا المبدأ السامى فى قوله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »[١] .

وقد أكد الرسول صلوات الله وسلامه عليه هذا المبدأ وشرحه بقوله وفعله وسيرته ولا سيما فى المجامع العامة ، والمحافل الحافلة ، ففى يوم فتح مكة نادى بهذا المبدأ على رءوس الأشهاد روى الترمذى فى « سننه » والبيهق فى « شعب الإيمان » وغيرهما عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه فلما خرج لم يجد مناخا فنزل على أيدى الرجال فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الحمد لله الذى أذهب عُبية[١] الجاهلية ، وتكبرها . الناس رجلان : بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم من تراب قال الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... » إلى قوله « خبير » ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم » ونادى الرسول بهذا الأصل الأصيل فى الإسلام فى أكبر موسم ومشهد شهدته الجزيرة العربية فى حياة الرسول وذلك فى حجة الوداع أخرج البيهقى وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : « خطبنا رسول

(١) الحجرات ١٣ .

(١) عبية بضم العين وكسرها وكسر الباء المشددة الكبر والفخر « قاموس » .

الله صلى الله عليه وسلم فى وسط أيام التشريق خطبة الوداع فقال : يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم يارسول الله قال : فليبلغ الشاهد الغائب » .

فالناس جميعاً فى الشريعة الإسلامية على اختلاف أجناسهم وشعوبهم ، وألوانهم وألسنتهم سواء : سواء فى الحقوق ، سواء فى الواجبات ، سواء فى المسئوليات .

وقد وضع الإسلام الأساس الفلسفى الدقيق المبسط الذى لا يستعصى على فهم أى إنسان لهذا المبدأ الكريم فما دام الناس جميعاً يرجعون إلى أب واحد ، وأم واحدة فعلام التمايز والتفاخر ، وعلام التشاحن والتناحر ؟

وإذا كان الإسلام أقام التفاضل بين الناس على أساس التقوى فما ذلك إلا لأن التقوى جماع الخير والفضائل الإنسانية ، وأساس الاستقامة الدينية والدنيوية والتقوى فى أساسها معنى نفسى يصدر عنه الخير للفرد والجماعة ، ويحول بين الإنسان وبين عمل الشر ، أو احتقار أحد ، أو انتقاصه حقه

وقد أشار إلى هذا القرآن الكريم فى قوله سبحانه : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا ويشير إلى صدره » ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم » فالشريعة الإسلامية حينما أقامت التفاضل على التقوى فإنما أقامته على أساس معنوى خلقى ، وعلى أساس النفع للفرد والجماعة ولم تقمه على أساس مادى أو جنسى أو لونى .

ومن محاسن الشريعة الإسلامية أنها لا تفرق بين رئيس الدولة ـ خليفة كان أو ملكا أو رئيس جمهورية ـ والرعايا فى الخضوع لأحكام الشريعة ، وسريانها عليهم ، وفى المسئولية عن جرائمهم ومن أجل ذلك كان رؤساء الدول فى الشريعة لا قداسة لهم تعصمهم من الخطأ ، ولا يمتازون عن غيرهم فى المسئولية ، وإذا ارتكب أحدهم جريمة عوقب عليها كما يعاقب أى فرد .

والرسول صلى الله عليه وسلم وهو النبى ورئيس الدولة لم يدع لنفسه قداسة أو امتيازاً على الرعية فى عدم سريان أحكام

الشريعة عليه، والإعفاء من المسئولية وكثيرا ما كان يردد قوله تعالى : « إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » ، « سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » ، « إنما أنا لكم نذير مبين » ، وفى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم أنه قال : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من الآخر فأقضى له بنحو ما أسمع فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » وكان أول من يلتزم حدود الشريعة وتكاليفها ، إذا كانت له بعض الخصوصيات فى بعض التشريعات فهى قليلة جدا وقد دعت إليها الحكمة والمصلحة العامة لا الهوى أو المصلحة الشخصية وقد أكد النبى صلى الله عليه وسلم خضوعه للشريعة وأحكامها بسيرته وعمله ، روى ابن إسحاق فى كتاب « السيرة » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل الصفوف يوم بدر بقضيب فى يده فمر بسواد ابن غزية الأنصارى وهو خارج من الصف فطعنه بالقضيب وقال : « استقم ياسواد » فقال سواد يا رسول الله : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى ـ يعنى مكنى من الاقتصاص منك ـ فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال : « استقد يا سواد » ، فاعتنقه سواد فقبل بطنه فقال له النبى : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ـ يعنى موطن الشهادة ـ فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك فدعا له النبى بخير [1] .

وذكر القاضى عياض فى (الشفا) أن يهوديا جاء يتقاضاه دينا له عليه لم يحل أجله ، فأغلظ له فى القول ، فهم به عمر بن الخطاب وانتهره ، فمنعه الرسول وقال له : (أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر ، تأمرنى بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التقاضى ، ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعا لأنه روعه ، وقد أثرت هذه المعاملة السامية فى نفس اليهودى فأسلم راغبا مختارا !!!

وجاءوا إليه برجل فوقف الرجل يرتعد بين يديه ، فقال له : هون عليك فإنى لست بملك وإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد من قريش .

وفى أثناء مرض موته صلى الله عليه وسلم خرج بين الفضل بن العباس وعلى حتى جلس على المنبر ثم قال : (أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٧١ .

فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فإنها ليست من شأنى ، ألا وإن أحبكم إلى من أخذ منى حقا إن كان له ، أو حللنى - أى تنازل له عنى - فلقيت ربى وأنا طيب النفس) [1].

وهكذا آذن الناس جميعا أن لا سلطان إلا سلطان الشريعة وأن العدل والحق فوق كل شىء وأن منزلته من ربه ، وفى قلوب أتباعه لا تحل له أن ينال من أحد فى نفسه أو عرضه أو ماله ، ولا تمنعه أن يقص الناس منه إذا وجد ما يدعو إلى القصاص ، وهذا غاية ما تأمله البشرية الفاضلة من الرؤساء والحكام والقادة .

وإذا كان الرسول المشرع قد قرر مبدأ المساواة فى المسئولية بينه وبين الرعية فقد قررها على ولده ، وأهله ، روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن عائشة رضى الله عنها : أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب [2] رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ؟ !! » ، ثم قام فاختطب ثم قال : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها .

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ ص ٣١٨

(٢) الحب بكسر الحاء المحبوب وهو ابن مولاه زيد .

وبهذا سوى النبى صلى الله عليه وسلم بين الشريف والوضيع ، والغنى والفقير ، وابنته وغيرها من نساء الأمة فى تحمل المسئولية ، وإقامة الحد عند وجود موجبه ، والأمة إذا دخلها التمييز بين الناس فى الأحكام فقد تسارع إليها الفناء والهلاك ، وكان إذا أمر بشىء بدأ بأهله وإذا نهى عن شىء بدأ بأهله حتى لا يكون فى عمل أهله وسلوكهم ما يكون حجة لمحتج أو عذرا لمعتذر ، وفى حجة الوداع خطب خطبته المشهورة وكان مما قال فيها : « إن دماء الجاهلية موضوعة [1] وإن أول دم أضع من دمائنا ، دم ابن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب - من أبناء عمومته - كان مسترضعا فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع - باطل - وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله » .

(١) باطلة والمراد إبطال عادة الأخذ بالثأر .

وبهذه السياسة الرشيدة فى المساواة بين الناس قاطبة فى المعاملة قطع النبى صلى الله عليه وسلم قالة السوء وأخرس ألسنة المنافقين والمعترضين .

ومن هذه الوقائع وغيرها وضع المشرع صلوات الله وسلامه عليه أساس المساواة فى المسئولية وفى المجازاة بين الحكام والمحكومين والراعى والرعية وبين أبنائهم وأهليهم والناس عامة ، وكان فى هذا أسوة حسنة لمن جاء بعده من الخلفاء والأمراء والولاة .

وهذا هو ما كان فقد تولى الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم الصديق أبو بكر رضى الله تعالى عنه - فنهج منهجه وسار على طريقته وطبق مبدأ المساواة على نفسه وجعل الرعية حق إقامة عوجه أو الاقتصاص منه إن جار وزاغ عن الصراط المستقيم .

وإليك ما قاله فى أول خطبة خطبها بعد البيعة العامة وهى بمثابة الدستور الذى سيسير عليه فى حكم الرعية ، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد ، فإنى وليت أمركم ولست بخيركم ولكنه نزل القرآن وسن النبى صلى الله عليه وسلم السنن وعلمنا فعلمنا ، فاعلموا أيها الناس أن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له بحقه ، وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق . أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، فإذا أحسنت فأعينونى وإن أنا زغت فقومونى أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » (١) .

وهكذا نرى أنه سجل على نفسه أنه عرضة للخطأ والصواب ، والاستقامة وعدمها ، وأنه كأحد الرعية فى تحمل المسئولية والمجازاة والاقتصاص منه إن جار . وكذلك أقاد للناس من أهله ، وأقاد للرعية من الولاة ولم يفرط فى ذلك قيد شعرة ، ثم جاء الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه فطبق مبدأ المساواة على نفسه وولده وأهله وولاته بل بالغ فى ذلك وشدد .

وقد طال الحديث فإلى المقال الآتى إن شاء الله .

د . محمد محمد أبو شهبة

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام ج ١ ص ١٠٩ .

الاحتفال بالمولد النبوى في مصر الإسلامية

للأستاذ شفيق أحمد عبد القادر

ولد الرسول صلى الله عليه وسلم فى ١٢ ربيع الأول كما يجمع المؤرخون ولكن محمود باشا الفلكى بعد بحث وتحقيق رأى أن مولد الرسول يوافق يوم الاثنين ٩ ربيع الأول الموافق ١٢ أبريل سنة ٥٧١ م .

وقد اهتم حكام العالم الإسلامى منذ أقدم العصور بالاحتفال بمولده . ولا ريب أن ذلك الاحتفال هو احتفال فى ذاته بمولد الرسالة المحمدية ومشرق الفجر الجديد الذى مالبث نوره أن عم العالم الإسلامى بأسره .

الاحتفال بالمولد النبوى فى العصر الفاطمى

اهتم الفاطميون اهتماما كبيراً بالمولد النبوى ولا عجب فإن الفاطميين يرون أنهم من نسل فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهم من أهل بيته وذوى قرباه . وبدخول الفاطميين مصر بدأ الاحتفال بالمولد النبوى يتخذ صبغة رسمية .

وكان احتفال الفاطميين يسير على النحو التـــالى :

ففى مستهل شهر ربيع الأول كان الخليفة الفاطمى يصدر أوامره بتوزيع الصدقات من مال الزكاة .

ويذكر المقريزى أنه إذا كان اليوم الثانى عشر من ربيع الأول بدأت الاستعدادات بالاحتفال بالمولد النبوى . فيعمل فى دار الفطرة مقادير كبيرة من السكر اليابس حلواء يابسة وتعبأ فى الصوانى ثم تفرق على أرباب الرسوم وأرباب الرتب وغيرهم من الموظفين مثل قاضى القضاة وداعى الدعاة والقراء بالحضرة (الحاشية) والخطباء وأئمة الجوامع فى القاهرة والمشاهد بالقرافة .

وفى الاحتفال بهذا العيد سنة ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م عملت أربعون صنية من أصناف الحلوى دخل فى صنعها السكر والعسل واللوز والدقيق . وصدر الأمر بأن يعمل خمسمائة رطل حلوى تفرق على الأئمة والقراء والفقراء .

وفى عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م وزع على المساكين بالجامعين الأزهر والجامع العتيق (جامع عمرو بن العاص) والقرافة خمسة قناطير من الحلوى كما وزعت دار الفطرة على الأعيان والمستخدمين مقادير معلومة .

الخليفة الفاطمى يستقبل المهنئين بالمولد النبوى

فإذا ما فرقت الحلوى السالف ذكرها

ويبدأ توزيعها من أول النهار إلى الظهر وصليت صلاة الظهر ركب المهنئون من القضاة وغيرهم من أرباب الدولة مخترقين شارع بين القصرين إلى قصر الخلافة . وقد كنس الطريق ورشت بالماء . وفرش ما تحت منظرة (شرفة) الخليفة بالرمل الأصفر . وترجل الجميع عن دوابهم قبل الوصول إليها بخطوات . ويجتمعون تحت المنظرة ليتشرفوا برؤية الخليفة . وبعد ساعة زمنية تفتح إحدى الطاقات (النوافذ) ويطل منها الخليفة ولا يظهر منه إلا وجهه وما عليه من منديل . ثم يظهر أحد خواص الخليفة مخرجا رأسه من طاقة (نافذة) أخرى ويده اليمنى فى كمه ويشير بها قائلا : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » ثم يستفتح القراء بالقراءة فإذا انتهت تقدم خطيب جامع الحاكم فخطب خطبة لا تفترق عن الخطب المألوفة فى بدايتهـــا إلى أن يصل إلى ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فيذكر الحاضرين بأن هذا هو يوم مولده ويذكر لهم ما من الله على ملة الإسلام من رسالته ثم يختم خطبته بالدعاء للخليفة ويتلوه خطيب الجامع الأزهر ثم خطيب الجامع الأقمر . فإذا انتهت خطابة الخطباء أخرج الحاجب رأسه ويده فى كمه من طاقته ورد على الجماعة السلام ثم تغلق الطاقتان (النافذتان) فينصرف الناس .

موقع منظرة الخليفة :

ذكر لنا المقريزى فى خططه موقع هذه المنظرة التى كانت تعلو باب الذهب وهو أحد أبواب القصر الكبير الشرقى وحدد لنا موقعها بعد هدمها على يد الظاهر بيبرس الذى أنشأ مكان باب الذهب محراب مدرسته الظاهرية . وعلى هذا فموقع باب الذهب والمنظرة التى تعلوه هو الآن عند مدخل شارع بيت القاضى من جهة النحاسين . وكان يقابل المكان الذى به المنظرة القصر الغربى ممثلا فى قاعة ست الملك التى عرفت فيما بعد بدار مؤنسة خاتون ثم بيمارستان قلاوون وكان باب الذهب والمنظرة التى تعلوه يواجه المكان الذى يشغله الآن مدخل مجموعة قلاوون .

حلوة المولد النبوى :

يرى الدكتور راشد البراوى أن هذه العادة التى استنها الخلفاء الفاطميون من صنع الحلوى فى المواسم والأعياد الدينية سرت بين صفوف الشعب وكانت هذه التقاليد عاملا قويا فى انتشار صناعة السكر وعمل الحلوى والفطائر والكعك حتى إنه كان للحلوى أسواق كبيرة بالقاهرة والفسطاط .

ويؤكد لنا المقريزى هذه الحقيقة فيذكر أن سوق الحلاويين فى عهده كان من أبهج

الأسواق بالقاهرة وكان يصنع فى هذا السوق من السكر أمثال خيول وسباع وقطاط وغيرها تسمى «العلاليق» ترفع بخيوط على الحوانيت ، منها ما يزن عشرة أرطال إلى ربع رطل ، تشترى للأطفال ، فلا يبقى جليل ولا حقير حتى يبتاع منها لأهله وأولاده ، وتمتلئ أسواق مصر وأريافها من هذا الصنف .

وهكذا نستطيع أن نرد هذه العادة الشعبية وصناعتها إلى عهد الدولة الفاطمية وظلت صناعتها باقية لم تندثر حتى اليوم ممثلة فى مولد النبى صلى الله عليه وسلم والموالد الأخرى فى شتى أنحاء الجمهورية .

الاحتفال بمولد النبى فى عهد الدولة الأيوبية

وسقطت الدولة الفاطمية وأسس صلاح الدين الدولة الأيوبية فى سنة ٥٧٠هـ بعد موت نور الدين محمود ١١٧٤م ولم يذكر المؤرخون فى مصر احتفال الأيوبيين بالمولد النبوى الشريف : ولعل مرد ذلك إلى أن الدولة الأيوبية رأت أن تحد من مظاهر الاحتفالات الفاطمية ، تلك المظاهر التى قد تؤدى إلى إيقاظ الشعور الدينى الذى طالما اعتمد عليه الفاطميون فى نشر دعواهم فى الخلافة وبخاصة أن بقايا الأسرة الفاطمية كانوا معتقلين بقلعة الجبل بعد أن نقلوا من القصور الفاطمية ، أما عن إلغاء الاحتفال بالمولد النبوى فأمر بعيد الاحتمال ، هذا بالإضافة إلى أن عهد صلاح الدين ومن جاء بعده كان عهد نضال وجهاد وحروب وكانت الدولة الأيوبية فى مصر توجه كل طاقتها للخطر الصليبي الجاسم فى سورية والذى أخذ يهدد مصر من حين لآخر مما جعل الأيوبيين ينصرفون مؤقتا عن الاحتفالات الدينية التى كانت تحوطها مظاهر العناية والاهتمام فى عهد الدولة الفاطمية

وليس أدل على أن الأيوبيين لم يفكروا فى إلغاء المولد النبوى من احتفال الملك المعظم مظفر الدين صاحب أربل بالمولد النبوى احتفالا رائعا . وكان يشمل برنامج الاحتفال عرض الجند وسماطا عاما وسماطا بخانقاه أربل . هذا بجانب القباب الخشبية المنصوبة وبها تنشد الأغانى وتلقى الأشعار وبجانب ألعاب الحواة والملاهى ... نجد وعظ الوعاظ وتلاوة القراء . هذا بجانب عرض مشاهد طيف الخيال (خيال الظل) ولعل مشاهده كانت تصور صورا إسلامية صادقة لميلاد النبى وجهاده أشبه ما تكون بالتمثيليات القصيرة .

الاحتفال بمولد النبى فى عهد الدولة المملوكية :

وفى عهد المماليك كان الاحتفال بالمولد النبوى يقام فى قلعة الجبل مركز الحكم

المملوكى فكان يجتمع القراء والمنشدون والمدعون فتقام الولائم والسرادقات وتضاء الأنوار وقد بلغ ما أنفقه الظاهر برقوق على الاحتفال بالمولد النبوى فى سنة ٧٨٥ هـ ١٣٨٣م عشرة آلاف مثقال من الذهب ما بين خلع ونفقات الطعام والشراب وأجور المغنيين والمنشدين وغيرهم .

سرادق (خيمة) المولد النبوى :

وقد اهتم السلطان الأشرف قايتباى بالمولد النبوى فأعد سرادقا كبيراً (خيمة) بلغت نفقات صنعها أكثر من ستة وثلاثين ألف دينار كان السرادق تقام فى الحوش السلطانى بالقلعة .

وقد وصف لنا المؤرخ ابن إياس خيمة الأشرف قايتباى عند كلامه عن احتفال السلطان قنصوه الغورى بالمولد النبوى سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م . فقال (... وكانت هذه الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين (إيوانات) ثلاثة وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة ... وهى من قماش ملون . وهذه الخيمة كان لاينصبها إلا ثلثمائة رجل من النواتية (رجال الأسطول - البحارة) .

وقد وصف ابن إياس احتفال الغورى فى سنة ٩٢٢ هـ وصفا مسهبا ختمه بقوله : « وكان مولداً مشهوداً أبهج مما تقدم من الموالد الماضية » .

الاحتفال بالمولد النبوى فى العصر العثمانى :

فقدت مصر استقلالها بهزيمة الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦م وما لبث السلطان سليم العثمانى أن استولى على مصر التى أضحت إيالة عثمانية .

ولم يحتفل السلطان سليم بالمولد أولا بل كان همه متجها إلى القضاء على مقاومة طومان باى ومن معه من المماليك ، وذكر ابن إياس مصير خيمة قايتباى فقال :

« وأشيع أن ابن عثمان (السلطان سليم) لما طلع إلى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار » .

ونحن نشك فى صدق هذه الرواية . ونرى أنه من المحتمل أن السلطان سليم قد نقلها إلى استامبول فيما نقله من كنوز وأسلاب المماليك وغيرها من النفائس التى استولى عليها .

ولما استقرت الأحوال احتفل السلطان سليم بالمولد النبوى سنة ٩٢٣ هـ ولكن احتفاله كان دون العادة ولم يشعر به الناس .

ورحل السلطان سليم إلى بلاده بعد أن تولى خاير بك الولاية (ولاية مصر) . فاحتفل بالمولد سنة ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ هـ ولكنه كان احتفالا قاصرا : سماط ضئيل وخلع قليلة تمنح للقراء .

الأزبكية مكان الاحتفال بالمولد :

وما لبث مكان الاحتفال بالمولد أن تحول من الحوش السلطانى إلى ضفاف بركة الأزبكية حيث منزل الشيخ البكرى شيخ مشايخ الصوفية . واتخذ الاحتفال بالمولد طابعاً شعبياً عاماً وكانت الوفود من الأهالى تتقاطر إلى مكانه من شتى جهات القطر فتقام الحفلات وتولم الولائم ويقبارى لاعبو خيال الظل والبهلوانية . الخ بل وأحيانا كان يحضر الليلة الختامية للمولد الوالى العثمانى كما حدث سنة ١٢٠٢ هـ / ١٧٨٧ م . وكذلك كان يحضر الاحتفال كبار البكوات من المماليك كما حدث من حضور مراد بك .

الاحتفال بالمولد النبوى فى عهد الحملة الفرنسية :

استولى بونابرت على مصر فى صفر من سنة ١٢١٣ هـ — ١٧٩٨ م وبدأ يتحبب إلى الأهالى فأنشأ الديوان من أعيان المصريين ليشاركوه فى حكم البلاد . ولما قرب موعد الاحتفال بالمولد النبوى سأل نابليون عنه ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟ وقد اعتذر إليه الشيخ خليل البكرى بتعطيل الأعمال وتوقف الأحوال ! . فلم يقبل عذره ومنحه ١٠٠ ريال فرنسى معاونة وأمر بتعليق تعاليق وحبال وقناديل واجتمع الفرنسيون يوم المولد وقاموا باستعراض قواتهم .

وقد أرسل نابليون الطبلخاناه إلى بيت الشيخ البكرى واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة (بركة الأزبكية) تحت داره ، وهكذا صدحت موسيقى الاحتلال الفرنسى فى المولد النبوى ، وفى الليل أطلقوا الصواريخ ، وقد تقلد الشيخ البكرى نقابة الأشراف وكان موضع احتفاء وتكريم نابليون .

ولما سافر نابليون من مصر وعهد بالقيادة العامة إلى الجنرال كليبر، وحل موعد الاحتفال يوم الثلاثاء ١١ من ربيع الأول سنة ١٢١٤ هـ / ١٧٩٩ م عمل المولد بالأزبكية وقد حل كليبر ضيفا على الشيخ خليل البكرى وتناول العشاء ومعه عدد من قواده وأطلقت المدافع والصواريخ ليلا ونادوا فى ذلك اليوم بالزينة وفتح الأسواق والدكاكين ليلا وإسراج القناديل .. إلخ .

وفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م وبعد مقتل سليمان الحلبى الذى ضرب كليبر ضربة قاضية فأرداه ، وليده مينو المفاوضات للجلاء عن أرض مصر لم يعن أحد من الفرنسيين بحضور المولد النبوى فى هذه السنة .

وفى يوم الأربعاء ١٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م نودى بالاحتفال بالمولد النبوى وزينت القاهرة وبخاصة بعد دخول الوزير العثمانى يوسف باشا لإخراج

الفرنسيين عصر ذلك اليوم واحتفل الناس بالمولد فى تكية الكلشنى على غير العادة من الاحتفال بجهة بركة الأزبكية .

كذلك احتفل الناس بالمولد فى عدة جهات .

وفى ربيع الأول سنة ١٣١٧هـ - ١٨٠٢م عادت المياه إلى إجاريها وعمل المولد بالأزبكية كما كانت العادة المتبعة وبدأ الاحتفال من يوم الخميس الموافق ٨ ربيع الأول إذ قام الناس بالزينة منذ ذلك اليوم .

الاحتفال بمولد النبى فى عهد محمد على وأسرته

وصف كلوت الاحتفال بالمولد النبوى كما وصفه الانجليزى إدوارد وليم لين وصفاً مسهباً وقد تركز الوصف على ثلاثة أشياء : —

١ — حلقات الذكر التى كان يقيمها الدراويش .

٢ — الدوسة وهى أن يطأ حصان شيخ مشايخ الطرق الصوفية ظهور الناس الذين يفترشون الطريق أمام موكبه لتحل عليهم البركة .

٣ — الحواة والمشعوذين .

ولما هدم بيت السادة البكرية بالأزبكية وبنوا دارهم بالخرنفش أضحى مقر حفلات وولائم المولد النبوى يدعى إليها الأعيان وكان مكان الاحتفال العام بميدان الرصدخانة (بالعباسية) وكان هذا منذ عهد إسماعيل .

وما يزال المولد حتى الآن يقام بالعباسية أو بمعنى آخر الأرض الفضاء المجاورة للعباسية .

الاحتفال بمولد النبى بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة :

حررت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ مصر من الأسرة الدخيلة أسرة محمد على ومن الاستعمار البريطانى وبدأت الحكومة المصرية الصميمة تعمل من أجل الشعب فى عهد اشتراكى اتسم بالعمل الجدى ولهذا نجد أن مولد النبى يحتفل به احتفالا رائعاً بما يناسب مقام الرسول الكريم وقد اهتمت الحكومة اليوم بالموالد بصفة عامة ومولد الرسول بصفة خاصة ، وأصبح المولد أشبه شىء بسوق منظم تعرض فيه شتى السلع وأقصى عنه الدجالون والمشعوذون وغيرهم ممن كانوا وصمة عار فى جبين مصر وسمعتها فى الخارج ، وحلت محلها ألعاب شعبية متطورة منظمة كمسرح العرائس .. إلخ .

ولا عجب فإن وزارة الثقافة والإرشاد القومى ترعى الفنون والآداب وتأخذ بيد الفنانين حتى تحافظ على طابع الفنون الشعبية الموروثة .

شفيق أحمد عبد القادر

بمناسبة الحملة الدولية ضد الجوع :

ترقيــة الإنتـــاج

للأستاذ فتحي عثمان

كرامة الإنسان هي عقيدة الإسلام
وعظمة الكون أيضاً من عقيدة الإسلام
والعمل ... العمل الدائب الجاهد ، في هذا الكون العظيم الرائع ، هو عبادة الإسلام !!

إن الله قد كتب على نفسه أن يمد مخلوقاته بأسباب الحياة المعقولة :

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين » .

« وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، سواء للسائلين » .

« إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وقد أوفى الله بما في كتابه ، « ومن أوفى بعهده من الله » ...

ولكن كيف ؟

إنه أودع موارد الرزق في الكون ، وأسباب الكسب في الإنسان ...

أنه أعطى الإنسان طاقة تفجر ما فطر في الكون من طاقات ...

« ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » .

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي ، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين » .

« الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » .

« وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

« ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ... » .

فالإيمان لا يقعد بالمرء عن طلب الرزق ، والتوكل على الله لا يعني أن السماء تمطر ذهباً أو فضة ، أو تسقط المن والسلوى . .

إن الإيمان يزيد المؤمن بالله عملا في كون الله ... ابتغاء من فضل الله .

فطلب الرزق عبادة ، وعمارة الأرض عبادة .

والقرآن يفتح عقول المؤمنين على الكون الكبير، ليقرءوا كتابه، ويتدبروا أسراره، ويستلهموا حكمته في الزراعة والري.

« وفي الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ».

« أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها؟ أإله مع الله؟ بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسي، وجعل بين البحرين حاجزاً، أإله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون ».

« أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم، أفلا يبصرون ».

« فلينظر الإنسان إلى طعامه. أنا صببنا الماء صبا. ثم شققنا الأرض شقا. فأنبتنا فيها حبا. وعنبا وقضبا. وزيتونا ونخلا، وحدائق غلبا. وفاكهة وأبا. متاعا لكم ولأنعامكم ».

والإسلام حريص على زراعة اليابس واستصلاح التربة، حتى إن شريعته جعلت من أسباب الملكية: وضع اليد على الشيء المباح الذي لا مالك له، ويندرج تحته إحياء الأرض الموات، كما يندرج تحته حيازة كل مال لا مالك له شرعا وقت حيازته كحيوان الصيد والكلأ والأشجار في الغابات وما تحتويه البحار والأنهار والأراضي غير المملوكة من كل ذي قيمة وليس له مالك معين، ولم تحزه يد إنسان من قبل.

فقد ورد في حديث رسول الإسلام قوله:
« من أحيا أرضا ميتة فهي له » — رواه أحمد والبخاري.

ويشترط أبو حنيفة أن يكون الإحياء بإذن الدولة منعاً للفوضى والمنازعات، ولا يشترط ذلك صاحباه أبو يوسف ومحمد.

ورسول الإسلام لا يقر احتجاز الأرض بغير استثمار: « عادى الأرض لله وللرسول ثم لكم، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين »!

بل يدفع الإسلام عجلة الإنتاج بكل قوة إلى آخر لحظة من الزمان ...

ففي حديث رسول الإسلام: « إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها ... فله بذلك أجر ... »!!

وهكذا يأمر الدين بغرس فسيلة النخل التي لا تثمر إلا بعد سنين، ولو دوت نذر القيامة!!

والحق أن لرسول الإسلام حدبا على

أمور الورع ، حتى تعدت أحاديثه فى هذا المجال، فأفرد المحدثون أقساما خاصة لأحاديث الرسول فى الزراعة والحرث ...

ونحن نجد منها على سبيل المثال : « ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة ... » .

على أن الرسول حريص أن يفهم المؤمنون أن الوحى لا شأن له بفنون الزراعة ، وأن النبوة لا تلقنهم ما هم أقدر على تحصيله ، ومن هنا قال رسول الإسلام فى شأن إحدى العمليات الزراعية التى كانت تجرى للنخيل : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » !!

وعلى كل مؤمن أن يواجه الكون بكل طاقاته : بإيمانه وعقله وجهده ...

يقول ابن تيمية : « إن الناس لابد لهم من طعام يأكلونه ، وثياب يلبسونها ، ومساكن يسكنونها ، فإذا لم يجلب لهم من الثياب ما يكفيهم احتاجوا إلى من ينسج لهم الثياب ، ولا بد لهم من طعام إما مجلوب من غير بلدهم وإما من زرع بلدهم وهذا هو الغالب ، وكذلك لا بد لهم من مساكن يسكنونها فيحتاجون إلى البناء . فلهذا قال غير واحد من الفقهاء من أصحاب الشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم كأبى حامد الغزالى وأبى الفرج بن الجوزى وغيرهما ، إن هذه الصناعات فرض على الكفاية ، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها . إن هذه الأعمال التى هى فرض على الكفاية متى لم يقم بها أحد صارت فرض عين على من يقدر على أدائها . فإذا كان الناس محتاجين إلى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجبا يجبرهم ولى الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل » .

وفتح أبواب العمل والإنتاج على مصاريعها هو سبيل الإفادة من نعم الله . من الطاقات الإنسانية والكونية ، وبهذا يتوقى المجتمع تحذيرات ماكس ليرنر Max Leirner حيث يقول : إن توجيه الاهتمام إلى التسويق أكثر من الإنتاج ، والتضخيم الطائش لبناء العلاقات الائتمانية من خصائص المرحلة الأخيرة من الرأسمالية ، وقد ارتبطتا باتجاه نحو المضاربة .. » !!

هكذا يطلق الدين كل طاقات الإنسان إلى العمل والإنتاج ...

طاقة الإنسان البدنية :

فلا بد من أن تطلق هذه الطاقة وتستغل فى مجالها النافع ورسول الإسلام يقول : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده » ، وهو يوصى المؤمن بأن يستعيذ من العجز والكسل ، ومن كل معوقات العمل مادية ونفسية : « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن

والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

طاقة الإنسان العقلية :

قد قادها القرآن في سياحة هادية خلال ملك الله العريض منذ أول آياته نزولا :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء » !

ورأس المال النقدي الذي يتجمع نتيجة الجهد الإنساني المبذول

لا يرضى الإسلام بحبسه عن التداول :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .

« إن الإسلام يبغض ارتداد الثروات وتراكمها في الخزائن Wealth roflects ، وينشد إشعاع الثروات الغامر على أوسع مدى إنه يعمل على مكافحة الكنز وتنشيط الإنفاق :

« قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية » .

« إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور » .

وكلها طاقات يباركها الإيمان :

الذي يجعل المؤمن أثبت قدما . وأصلب عوداً وأطول نفساً في جهاده المقدس ... لا يلتصق بالأرض ولا يشمخ في السماء ، لا يطغيه الفرح ولا تضعفه المصيبة ، إن أصابته السراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته الضراء صبر فكان خيراً له ! !

والدين يفرض على الدولة أن ترعى هذه الطاقات :

فيتعهد الإنسان بالتعليم والتدريب والتوجيه بما يرفع كفايته الفنية والإنتاجية ، فطلب العلم في الإسلام فريضة ، وهو حق للفرد وواجب عليه ، والدولة تلتزم تهيئة كل سبيل إليه ، ويلقى ابن حزم مسئولية التعليم الإلزامي على الدولة في نص صريح « وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك، وأن يرتب أقواما لتعليم الجهال » .

كما أن على الدولة أن تفتح مجالات العمل للقادرين عليه وتضمن لهم أجراً مجزياً يفي بوحدات الطاقة المبذولة وتضمن ألا تتجاوز ساعات العمل حدود الطاقة الإنسانية ، ولقد جعل الرسول ممن يخاصمهم يوم القيامة :

« رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه فلم يعطه أجره » .

والدولة ترعى المتعطل عن العمل حتى يجد السبيل إليه ، وترعى العاجز عن العمل لمرض أو عاهة أو شيخوخة ، وقد أبرز خالد بن الوليد هذا الأصل الجليل فى عهده للأقطار المفتوحة « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أوكان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله » .

كذلك تتكفل الدولة بالخدمات الصحية الوقائية والعلاجية ، وهكذا تضمن سلامة الإنسان وكفاءة طاقاته إلى أقصى حد ممكن فقد كان رسول الإسلام يهيء للمرضى مكانا فيه يتداوون بالغذاء والعلاج حتى يتم برؤهم .

كذلك ترعى الدولة الطاقة الإنتاجية ، فتنظم استغلال موارد الثروة على أفضل وجه ممكن ولها أن تلجأ فى ذلك إلى تأميم بعض وسائل الإنتاج ، وفى حديث رسول الإسلام « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلا والنار » .

وهكذا انتظم الدين الخطوط الرئيسية لتوجيه طاقات الإنسان والكون لخير الحياة .

وعلى الإنسان أن ينتفع من نعم الله المادية والروحية ، ويحسن كسب الرزق وتداوله وتوزيعه .

وإن عهد الله برزق عباده لا يتخلف حين يموت فرد أو مجتمع من الجوع وهناك فرد أو مجتمع آخر تتخمه البطنة ...

ولله فى خلقه موارد الرزق وتسخير نعمه للناس ظاهرة وباطنة لا يحابى ولا يتحجز وإنما قدر الأرزاق والأقوات « سواء للسائلين » « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً » .

وشريعة الله قد وجهت إلى الإنتاج وعدلت فى التوزيع « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

فإذا حدث قصور أو إخلال فلا ذنب للدين . فى عقيدته ، أو أحكامه .

وإنما الناس أنفسهم يظلمون ! !

فتحى عثمان

الاستعباد والحرية
بين المدنية الحديثة وشريعة الإسلام

للأستاذ عبد الجليل شلبي

إلى المسلم الغيور السيد / سعيد فارس بجنوب إفريقيا .
أرجو أن تجد فى هذا المقال الموجز بعض ما تجيب به الذين يحاجونك فى الإسلام ويزعمون أنه دين الرق بينما يمتدحون أمريكا بأنها أنجبت إبراهام لنكولن محرر العبيد ... وسيصلك من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر بحث واف ممتع . كما سيعمل على وصول هذه المجلة إليكم بانتظام . والله تعالى يمدكم بعونه ؟

إنه ليس من المغالاة فى شىء أن نذكر أن البشرية فى تاريخها الطويل وفى أطوار حضاراتها المختلفة لم تعرف كالدين الإسلامى قانوناً قاوم الاسترقاق وعمل على توفر الحرية لكل فرد من أفراد مجتمعه - كما أنها لاتعرف - كالمجتمع الإسلامى - مجتمعاً حضاريا سادة التسامح ومحيت بين أفراده فوارق الجنس واللون وتساوى الناس فيه أمام القانون الرسمى والعرف العام - وعلى العكس من ذلك لم يسلب الناس حرياتهم ويستذل كرامتهم - فى عصور النور والعلم - كما فعل الأوربيون المسيحيون والأمريكان المستعمرون - ولم تسد فوارق العنصر وتمييز لون على لون وجنس على آخر كما حدث وكما هو حادث الآن فى أمريكا التى تسمى إبراهام لنكولن محرر العبيد .

لقد جاء الإسلام والاسترقاق شائع بين جميع الشعوب المعاصرة له كما أنه كان نظاما قديما درجت عليه الحضارات القديمة وانتقل كما هو إلى العصر الوسيط - وأنت تجده مألوفا عند المصريين واليونان والرومان والآشوريين والبابليين وعند غيرهم من ذوى الحضارات الأخرى - حتى الديانات السابقة على الإسلام نجدها تقر الرق وتجعله أمراً مشروعا - فالديانة اليهودية - وقد زيفت نصوص التوراة من عهد بعيد - جعلت الناس طوائف وميزت بين أسودهم وأبيضهم -

ولم تكن المسيحية أحسن منها حالا ـ فإنها ـ وهى رسالة الرحمة والمحبة ـ لم تشأ أن تفتح للمسترقين أى باب للحرية أو حتى توصى بهم سادتهم المالكين ولكنها على العكس من ذلك أمرت العبيد أن يحسبوا حساب سادتهم وأنهم يستحقون كل إكرام[1].

ولكى نقدر موقف الإسلام من تحرير الرقيق يجب أن ننظر إلى أسباب الرق التى شاعت بين الناس إذ ذاك والمعاملة التى يعامل بها الأرقاء والقانون الذى تواضع الناس عليه إزاءهم لنرى عمل الإسلام لتحرير الرقيق ومدى رفقه بهم.

يرجع أهم أسباب الرق إلى الحروب. فقد كان الأسرى يوزعون على المحاربين ضمن الغنائم ولكن الحرب كانت تقوم لسبب ولغير سبب وربما كانت الغنائم أهم أسبابها والإنسان فى هذه الحالة ـ ولا ريب ـ كحيوان الغابة يفتك القوى منه بالضعيف استجابة لنوازع الغريزة التى لم تنلها تربية ولا تهذيب ـ وكانت القوانين التى تسن لا ترمى إلى العدالة ـ وإنما تضع مبررات لما يفعله الأقوياء والموسرون بالفقراء والمستضعفين ـ لهذا أقرت أسبابا أخرى للرق لا تتفق ومبادئ الإنسانية فضلا عن المدنية والحضارة ـ فالفقير الذى يعجز عن كسب قوته يصير عبداً لمن يطعمه ويوجد له عملا، والمدين الذى يعجز عن سداد دينه يصبح عبداً لدائنه والسارق يصير عبداً لصاحب المال المسروق والهارب من السجن والمتخلف عن الجندية ومن يعاشر أمة غيره كل أولئك يفقدون حريتهم ويصبحون عبيداً بحكم القانون.

وكان للأرقاء نظامهم الخاص وحياتهم الخاصة ـ فضلا عن تسخيرهم للخدمة وحرمانهم من طيب الطعام وما يلائم من اللباس، فقد يجب اللائقون منهم لخدمة البيوت حتى يأمنهم السادة على نسائهم ـ وليس للرقيق حق التظلم والشكوى مهما ناله من مهانة وتعذيب.

جاء الإسلام والعالم كله يجرى على هذا النظام فلم يقف منه موقف الغافل ولم يكتم عن الناس مساويه ـ بل جعل مقاومة الاسترقاق مادة من منهج كفاحه وبابا من أبواب فقهه وفرعا من فروع عبادته ـ أوصى للعبيد بما يعيد إليهم إنسانيتهم ويحفظ عليهم كرامتهم حتى ليخيل إليك أنهم لا يحملون من الرق إلا اسمه فهم إخوان للمسلمين فى المنزلة وشركاء فى المال «إخوانكم خولكم جعلهم الله لكم شركاء فيما تحت أيديكم فمن كان

---

(١) إنجيل بولس إصحاح ٦.

أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم فوق طاقتهم فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] وحتى الاسم النابي والنداء الجارح لا يقبله الإسلام « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي فكلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله ولكن ليقل فتاي وفتاتي »[1] ومن كلف عبده أو أرهقه بما لا يطيق أعتقه عليه الحاكم رغما وولاؤه للمسلمين .

بجانب هذا يفتح الإسلام للحرية وإعتاق الأرقاء أبوابا متعددة ، فتحرير الرقيق من القرب العظيمة التي يتقرب بها إلى الله ومن مكفرات الذنوب ، وهو مصرف من مصارف الزكاة فبدلا من دفع الزكاة لبيت المال يعتق بها عبدا أو أمة . وحرية شخص مسلم تعادل أو تفضل في نظر الإسلام دخلا يزيد مالية الدولة ، وهو كفارة لعدد من الذنوب كفارة للظهار وكفارة لحنث اليمين وكفارة للإفطار في رمضان وكفارة للقتل الخطأ ، وهذه كلها أبواب للحرية من شأنها أن تقلل عـــدد الأرقاء وقد تأتي عليهم نهائيا ، وهي تبين ـ من غير شك ـ مدى تطلع الإسلام للحرية وكراهيته للاسترقاق ولو وازنت بين نظام الرقيق في الإسلام ونظامه عند الآخرين لتبين لك نوع آخر من حرصه على الحرية . فالرقيق في الديانات والحضارات الأخرى يظل رقيقا إلى الأبد وأبناؤه من بعده أرقاء كذلك . أما الإسلام فإنه يجعله نظاما موقوتا ـ فالأمة التي تلد من سيدها تصبح أم ولد لا يجوز بيعها والرقيق النشيط يمكن أن يكاتب سيده على قدر من المال يدفعه لسيده من كسبه ويصير بعده حرا وقد شجع الإسلام بهذا الأرقاء على استخلاص أنفسهم بل ودعا المسلمين إلى مساعـــدتهم ففي القرآن « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » فأين من هـذا سلب حرية المدين واسترقاقه بسبب فقره ؟

وأما بالنسبة لأسباب الاسترقاق ـ وقد رأينا كيف كانت كثيرة ، فإن الإســـلام لا يتقبل منها إلا سببا واحدا ، وهو سبب الحرب . يتقبله كضرورة حربية ولمدى معين ، والإسلام لا يخوض الحرب إلا لأسباب شريفة كالدفاع عن النفس والدفاع عن العقيدة ونشر الدين الإسلامي دين السلام والإخاء والمساواة . فهو لا يخوض الحرب طمعا في الغنيمة وشهوة في السيادة ، ولهـذا كثيرا ما رحبت به البلاد المفتوحة ليخلصها من ظلم الحاكمين ، وليس من الحتم أن يكون كل أسير في الحروب الإسلامية رقيقا ـ فقد يفتدي الأسير نفسه بمال أو عمل ، وقد

(١) حديث شريف

يظهر من حسن النية وسلامة العقيدة ما يجعله أهلا للعفو عنه من غير شىء . « فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » . وقد كرم النبي صلى الله عليه وسلم الأسرى بما لم يكن يحلم به أحد ـ تزوج صفية بنت حُيَي ابن أخطب من ألد أعدائه اليهود وجعلها فى بيته بمائلة لبنت أبى بكر وبنت عمرو كما تزوج جويرية بنت الحرث وأبوها أيضا من أعدائه الألداء ، وبزواجه صلى الله عليه وسلم من جويرية هذه أعتق المسلمون أسرى قومها ـ فانظر مدى رفق الإسلام بأسراه وعفة المسلمين عن الغنائم لاجرم أنها حرب المبدأ والعقيدة لا للغنيمة وكثرة الاسترقاق .

ولقد كثرت حروب المسلمين واتسعت رقعة ملكهم وكثر الأرقاء تبعا لذلك ولكنهم كانوا دائما إخوانا للمسلمين يقفون معهم فى حقوق الإنسانية على قدم المساواة ، وكان الشخص منهم ينال منزلة فى مجتمعه بقدر ما تؤهله مميزاته العقلية ومواهبه الخاصة ـ فقد يكون الواحد منهم قائدا أو وزيرا لا يضره أنه لم يكن عربيا أو كان مسترقا ـ وقد تكون الأمة زوجا لحاكم أو أما لخليفة وهؤلاء بنو العباس امتد عهدهم إلى ما يزيد على أربعة قرون وكان خلفاؤهم ما عدا الأمين ابن الرشيد ـ أبناء إماء .

وبتوقف الفتوح الإسلامية توقف الرق ثم انقرض أو كاد ـ انقرض الرق الذى يسميه الإسلام رقا . ولكن بقيت القرصنة الأوربية التى تنهب الصبيان من الشواطىء لبيعهم باسم الأرقاء . ولو حكم الإسلام فى هذا لقطع أعناق القراصنة وحرر أرقاءهم ـ فهم قطاع طريق ومنتهكو حرمات ، ولكن الإسلام لم يكن له دخل فى هذا والمسئول عنه هم الأوربيون .

وفى عصر النهضة انقرض نظام الرق ومضت عليه مئات الأعوام حتى كانت كل من أمريكا اللاتينية الناشئة وأوروبا المسيحية المتمدنة هى التى عملت على إحيائه من جديد كان ذلك فى فجر القرن السابع عشر وكان الأوربيون آخذين فى استعمار أمريكا الوسطى بعد أن أجلوا عنها سكانها بالنار والحديد — وواجهتهم مشكلة الأيدى العاملة فالأوربى المترف النبيل لا يناسبه العمل فى تلك الأراضى البكر تحت أشعة الشمس اللافحة وبين الأحراش وداخل المناجم واتجهت أفكارهم إلى إحياء تجارة الرقيق ونظام العبودية . تولى كبر هذه الفكرة ثرى جشع يدعى « لازاس كازاس » ، فما لبثت فكرته أن صادفت هوى من نفوس الآخرين وسرعان ما كانت موضع التنفيذ . أبحرت السفن المسلحة بالأسلحة الحديثة إلى إفريقيا

السوداء قارة العبيد كما سموها . ولقد كان هذا إثما مزدوجا . فإن الأوربيين أفنوا الهنود الحمر بطرق عنيفة قاسية لا رحمة فيها ولا إنسانية — حاربوهم بالأسلحة الحديثة وقتلوهم تقتيلا عنيفاً أشعلوا النار فى مساكنهم وأحيانا فى الغابة كلها فأفنوا ما فيها من نبات وإنسان وحيوان لا فرق بين إنسان وحشرة إلا أنهم كانوا يخافون السباع والوحوش ولكن لا يرحمون الإنسان . وفى إفريقيا فعلوا مثل هذا - كان الجيش المسلح يهبط على القبيلة العزلاء فيقتل من يقتل ويستاق من يصلح للخدمة ويترك للموت من لا يصلح — وربما أشعلوا النار أيضا فى أسوار الهشيم التى تحيط بالقرية فإذا فر أهلها فزعين من النار تلقتهم الجنود المسلحة وحينئذ يساقون فى طابور طويل والسياط تنال من جلودهم حتى يصلوا إلى السفن المعدة لنقلهم وقامت أسواق ذات تجارة رائجة للعبيد فى أمريكا وأوربا وفى عرض البحار وأغرى الربح من تجارة العبيد عدداً كبيراً من البرجوازيين فى أوربا فأصبحوا من كبار الرأسماليين .

أما فى أمريكا فدخلوا ضمن الممتلكات فى المزارع وكانت المزرعة تقوم بما فيها من زروع وماشية وعبيد سخرهم الأمريكيون فى أشق الأعمال فى المناجم والمزارع والغابات ولم ينالوا على جهودهم أى حظ من الراحة والترفيه . بل على أعراقهم ودمائهم عاش الأوربى الأبيض منعما سعيداً لا يشعر بشىء من قلق النفس أو وخز الضمير ، وقد صورت الكاتبة الأمريكية « هاريت بتشر ستو » فى كتابها المشهور « كوخ العم توم » لونا من حياة العبيد فى أمريكا ووصفت ما ينالهم هناك من قسوة وتعذيب ولم يكن وصفها هذا من قبيل الخيال بل لعله بعض الواقع الملموس .

وقد نشرت قصتها كتابا فى سنة ١٨٥٠ م وكانت قبل ذلك تكتبها مقالات فى بعض الصحف ، وكان إبراهام لنكولن معاصرا للسيدة هاريت ، ولم تكن هى ولا هو أول من رثى فى أمريكا لحال العبيد وطالب لهم بالحرية ، بل سبقهم لهذه الدعوة أفراد من أمثال فرانكلين وأمرسون وغيرهما ، ولقد كانت الحالة التعسة التى يعانيها هؤلاء المساكين الأبرياء خليقة أن تفجر الرحمة فى قلوب عدد أكثر لو أنها كانت فى مجتمع غير مجتمع الأمريكيين .

هذا طرف من قصة الرق فى أمريكا وجانب من نظام الرق فى الإسلام ، فى أحد الجانبين رحمة حتى على الأعداء ، وفى الآخر قسوة

وتعذيب للسالمين الأبرياء ، هناك تحرير للسترقين وهنا استعباد للأحرار ، ومع ذلك لا يستحى المتبجح الآثم أن يلصق عاره بالأبرياء الأطهار .

وإذا كان لنكولن وأمثاله ممن تتمدح بهم أمريكا ، فينبغى أن تذكر أنهم سجلوا عليها عارا لا يمحى وخزيا يندى له جبينها على مر السنين إنهم شهداء منها عليها ، شهداء على ما جنت على الإنسانية وأجحفت بحق الآدميين ولقد استطاع الإسلام فى مدى قصير أن يدخل فى الأمة الإسلامية عددا ضخما من الموالى أحبوا الإسلام ودرسوا علومه وكان لهم أثر قيم فى الفكر الإسلامى خاصة والفكر العلمى عامة ، وعرف هؤلاء الأجانب لنبى الإسلام حقه وقدروا سموه بالإنسانية ، وأثر سيرته وخلقه والقرآن الذى جاء به فى تقدم البشرية وترقيتها ، أما أمريكا فقد عجزت حتى الآن عن فتح أبواب جامعاتها للسود والبيض على السواء ، بل عجزت عن المساواة بين البيض والسود فى مرافق الحياة العامة ، فلا يزال السود محرومين من كل ما ينبغى أن يناله المواطن الصالح ، وهم مواطنون صالحون لا يزالون يشعرون بالذلة والإهانة بين البيض وذنبهم الوحيد أنهم ملونون .

فأين هذا من عمل الإسلام وأخلاق نبى الإسلام ، ولقد عير مسلم آخر فقال له يا ابن السوداء . فغضب عليه النبى وقال إنك امرؤ فيك جاهلية ولم يسع هذا إلا أن يضع خده على الأرض ، ويطلب من ابن السوداء أن يقتص منه ، ولقد مات عمر بن الخطاب وهو يقول : لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته أمر المسلمين ، ولو كان صهيب الرومى حيا لوليته أمر المسلمين ، فانظر إلى أى حد يرفع الإسلام الموالى ، وإلى أى حد تنال أمريكا من حرية الأحرار ؟ .

أرجو أن يكون فى هذا بعض ما يقنع محدثك الكريم ، والله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون ؟

عبد الجليل شلبى
عضو المكتب الفنى لمجمع البحوث الإسلامية

رسالة الإسلام في عالم اليوم

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

---

١ — الإسلام ديننا الخالد العظيم ، ورسالة السماء إلى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم والشريعة التي نزل بها كتاب كريم ، هو القرآن ، دستورها وناموسها الأكبر .

وهو الدين الذي نزل هدى ورحمة للعالمين وأحدث تطبيقه لأول مرة في مكة ثم المدينة ثم جزيرة العرب نفسها على يد الرسول الأطهر ثورة لم تشهدها الإنسانية من قبل ولا من بعد وإصلاحا لم يكن يحلم به بشر ولا زلنا حتى اليوم لا نستطيع أن نصل إلى مداه الكبير ، ثم استمر في مده العظيم فطبقه الخلفاء الراشدون في البلاد التي دخلت في ظلال الإسلام ، وانضوى تحت لوائه الملايين في الشمال والجنوب والشرق والغرب فرحين مهللين مكبرين مستبشرين بعهد من الحرية والإخاء والتعاون والمساواة والعدالة والرفاهية لبني البشر جميعا وعاملين على تأثيل حضارة ومدنية جديدة لم تشهدها البشرية من قبل ، ... دين جارى التطور في كل زمان ومكان وجابه الطغيان وانتصر عليه في كل بيئة وعصر ... ولم تقف أمامه مشكلة من المشكلات ولم يزعم منصف في أي جيل أن منطق الإسلام لا يجارى العقل والحياة ولم يستطع أصحاب الدعوات الجديدة أن يزعموا أن دعواتهم على ما هيء لها أحيانا من دعاية وقوة ومساندة النفوذ أو الجاه أو المال قد نالت بعض ما ناله الإسلام في سنوات معدودات من ثقة الجماهير وإيمانها به وإقبالها على اعتناقه والدخول فيه ، دين لا زالت أصوله ودعواته حلم البشرية بعد ما وصلت إليه من تطور وتقدم وحضارة . ولا زالت أصوله الفكرية والروحية تحمل إلى العالم الأمن والسلام والرخاء . وهو بعد جديد في كل وقت . عظيم في كل حين . جليل في كل عين . رفيع في كل عقل .

دين وضع أصولا خالدة لإصلاح جميع مجالات الحياة ونواحي النشاط الإنساني . وسبق « الديكارتيين » إلى تقديم الشك أمام كل بحث وترك التقليد . وإلى الإيمان بما يؤدي إليه الدليل . كما سبق « بيكون »

إلى المذهب العلمي . وسبق فلاسفة الاجتماع إلى وضع أصوله . ولم يجعل للمعرفة الإنسانية حدا من حيث وضع بعض المفكرين الغربيين حدا يمكن أن يصل إليه الإنسان من معارف . وأقام مبادئه على سمو الغاية الأدبية فحسب دون النظر إلى التعليلات الاقتصادية والمادية للأشياء ووحد بين الأجناس والعناصر والألوان ... ودعا إلى أخوة بشرية عامة لا تفاضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح . . . وجمع الكثير من الأمم والشعوب تحت ظلاله بما عجز عن تحقيقه كل القواد والدول . هذا مع العدالة فى الحكم . . ومع الإيمان بالحرية والشورى والإخاء والمساواة وتطبيقها ومع العمل على نشر الأمن والرفاهية والوئام والسلام بين بنى البشر جميعاً .

٢ — لم يقف الإسلام وأصوله ومبادئه الكريمة حائراً أمام أية مشكلة من مشكلات الحياة فى كل عصر وكل بيئة بل وجد الحلول العادلة لكل ماجد وما يجد على سطح الأرض من جديد .

كانت رسالته دائماً التبشير بقيم إنسانية رفيعة ، لم يقل أبداً وفى أحرج الأزمان والمحن إن الغاية تبرر الوسيلة . لم يزعم الإسلام أنه وصى على البشر وصاية تحكم واستعلاء ، وأنه مستعمر فى الأرض لمصلحة الفاتحين بل دعا دائماً إلى الإيمان بأصوله كل أساسى لجميع مشكلات المضطهدين والمستعمرين والذين وقف بهم التأخر عن متابعة سير الحياة ... نادى بالحرية لكل الناس ولكل الشعوب دعا إلى أن تتولى كل أمة أمور نفسها فى ظلال مبادئه ودعواته وأصوله قاوم كل من وقف فى سبيل دعوته لأن من يفعل ذلك فهو يقف فى وجه الحياة نفسها ليؤخر سير الزمن

حل جميع العصبيات وأبطلها وكل المشكلات وأزلها وجميع العقد النفسية والروحية عند جميع الناس ووضع مكانها حب الخير والتعاون والرحمة وحب الوئام والسلام والبر والشفقة . . وهذب العواطف والمشاعر الإنسانية وطهرها وسما بها وجعل الحياة أمام الناس وجعلها تعاوناً ومشاركة وتبادلا للمنافع والخبرات ومد فى آفاق الأمل بما دعا إليه من الثقة برحمة الله وفضله وفرجه ، قابل الإسلام آلاف الدعوات والمبادئ والأفكار الجديدة ومع ذلك لم تستطع إحداها أن تجاريه فى حيويته وبساطته ومثاليته وعظمة مبادئه وأصوله وواجه آلاف الطغاة ومع ذلك لم يستطع واحد منهم أن يقف سيره المحتوم أو يعطل رسالته المنيرة أو ينتصر على مبادئ الإسلام الجليلة العظيمة .

وحملت شعوب الإسلام دائما إلى العالم وإلى الحياة فى كل العصور والأجيال وبفضل

دينهم العظيم رسالة التقدم والحضارة ورسالة الحرية والعدالة ورسالة المحبة والسلام والإخاء والشورى والتعاون بين الناس جميعا .

ودخل الناس فى دين الله أفواجا فى كل عصر وجيل وفى كل زمان ومكان .

قد تقول إن المسلمين فى العصور الأخيرة قد أخذ منهم الغرب زمام قيادة العالم وحاربهم فى دينهم وأموالهم وأعراضهم حربا شديدة واعترتهم فترة من النوم والجمود والجهل .. ولكن ذلك كله لم يكن السبب فيه دينهم بل السبب انصرافهم عن تعاليمه ومجاراتهم للغرب وحضارته فى كل شىء وخصومه بعضهم لبعض. ولأسباب أخرى لا تخفى على أحد اليوم والشىء الوحيد الذى يمكن أن يعيد القوة والسيادة إلى أمم الإسلام هو عودتهم إلى دينهم ورجوعهم إلى حضارتهم وتاريخهم وتراثهم وإقبالهم على تربية أبنائهم تربية إسلامية صحيحة .

٣ — والآن ما هى رسالة الإســـلام فى عالم اليوم ! ؟

تتلخص أصول الإسلام فى العقيدة الإسلامية وفى المبادئ الأساسية للمجتمع الإسلامى وفى نظام العبادة للمسلم وفى الأسس التى يبنى عليها كيان الأمة الإسلامية .. وفى أفكار الإسلام الأساسية فى خدمة الحياة نفسها ..

أما من حيث العقيدة فهى عقيدة إنسانية تؤمن بالله ورسالة محمد وبرسل الله جميعا لا تفرق بين أحد منهم .. ومن حيث نظام العبادة للفرد المسلم فهو يتلخص فى الطهارة والصـــلاة والزكاة والصوم والحج .. إلى وجوب اعتناقه للفضائل الإنسانية الأخرى من صدق ووفاء ورحمة وشفقة وإيثار وبر وأمانة إلخ ...

ومن حيث مبادئ المجتمع الأساسية فى الإسلام فهى تقوم على :

١ — الشعور بالمسئولية .

٢ — التعاون التام .

٣ — العدالة الكاملة والتزامها .

٤ — المساواة بين جميع أفراد المجتمع فى الحقوق والواجبات .

٥ — الحرية لكل الناس والطبقات .

٦ — نشر الرخاء بين جميع الناس .

٧ — توفير العمل وجعله حقا لكل أحد .

٨ — كفالة الدولة لجميع مرافق الحياة وإيصالها لكل الناس بالمجان ما دام ذلك ممكنا .

٩ — مساعدة الدولة لكل محتاج بقدر ما يسد حاجته دون ما تأخير .

١٠ — السهر على خدمة المجتمع وخدمة الأمن بكل وسيلة .

١١ — محاربة كل ألوان الفساد الاجتماعى والرذائل الاجتماعية والخلقية

والقضاء عليها إلى غير ذلك من مبادئ ليس هنا مكان شرحها .

ومن حيث الأسس التي يبنى عليها كيان الأمة الإسلامية فتتلخص في الشورى — السلام بين طبقات الأمة — العدالة الاجتماعية والتكافل الاجتماعي - القضاء على الامتيازات الفردية والاجتماعية إلا ما يرجع إلى العمل وخدمة الأمة — نشر التعليم وجعله حقا لكل فرد إلى آخره .

أما أفكار الإسلام في خدمة الحياة فهي ترجع إلى مبادئه في تحرير الأرقاء والمستعبدين والمستضعفين وفي نشر السلام ، وفي تبادل التجارة بين أمم الأرض ، وفي نشر الثقافة والحضارة ومساعدة الأمم المتخلفة ، وفي الانتصار لكل ضعيف ومظلوم ، وفي العمل على تقدم الحياة وإثرائها بكل جديد نافع ومبتكر صالح . الخ .

ورسالة الإسلام في عالم اليوم تستمد من جوهره وحقيقة مبادئه العامة وفي الإمكان إجمالها فيما يأتي :

١ — نشر الروحية في عالم اليوم الذي تغلبت عليه المادية وحكمة فلسفاتها الجائرة .

٢ — الدعوة إلى الأخوة الإنسانية في عالم اليوم الملىء بالأحقاد وبالأسباب التي تهدد السلام العالمي في كل لحظة .

٣ — الدعوة إلى تحرير العناصر والشعوب المستعبدة لأن ذلك من جوهر الإسلام وطبيعته .

٤ — العمل من أجل ثقافة جديدة مثالية .

٥ — نشر أعمال المفكرين المسلمين ومبادئ الإسلام وبطولات أبطاله وقواده ومواقف قادته بكل لغة لتكون تراثا للناس يستهدون بها ويسترشدون بسموها .

٦ — الكشف عن أصول الحضارة الإسلامية وأعمالها في خدمة العالم ونشر ملخصات عنها بكل لغة .

٧ — إنشاء معاهد ثقافية وإسلامية في جميع أنحاء العالم لنشر الثقافة العربية الإسلامية

٨ — كتابة التاريخ الإسلامي في موسوعة عربية بأسلوب جديد يتفق مع تطور الحياة والفكر العالمي المعاصر .

٩ — نشر مفاخر الإسلام في خدمة الشعوب التي استظلت بظلاله وفي النهوض بها وكل ما أسداه إليها الحكم الإسلامي من نهضة وتقدم وحضارة ورقى .

١٠ — الدعوة إلى مبادئ الإسلام الأساسية في الحرية والشورى والمساواة والتكافل الاجتماعي والإخاء والعدالة وغير ذلك . هذا قل من كثر مما يجب عمله ومما يستطيع الإسلام خدمة الحياة والحضارة والعالم في مجاله وما ذلك على الله ولا على الإسلام وشعوبه بعزيز .

محمد عبد المنعم خفاجي

رأى فى بعض القواعد النحوية :

١ — صيغ أخرى للمبالغة

للأستاذ أحمد مختار عمر

يتحدث النحويون عن صيغ المبالغة المشهورة فيحصرونها فى خمس صيغ هى فَعال وفَعول وفَعيل ومِفعال وفَعِل . ومع ذلك نجدهم يختلفون فى شأن هذه الصيغ ومدى صحة القياس عليها ؛ فنهم من ذهب إلى أن الصيغ فَعال ومِفعال وفَعول هى الكثيرة ، ومنهم من ذهب إلى أن صيغة فعّال خاصة هى القياسية المطردة ، وذهب بعضهم إلى أن الصيغ الخمسة قياسية من الفعل المتعدى فقط ، وبعض آخر إلى أنها قياسية من المتعدى واللازم .

وقد اعتبر سيبويه هذه الصيغ الخمسة أصلا فى المبالغة دون أن يقول بقياسيتها ، ثم عاد فاعتبر صيغة فعيل قليلة وما عداها أصلا ، وخالف نفسه بعد ذلك فقال إن صيغة فعِل أقل من فعيل بكثير .

ومع هذا الخلاف الشديد اتفقوا على أن ما عدا هذه الصيغ الخمسة قليل فى الاستعمال مقصور على السماع .

ولكننا نجد فى كتب اللغة خلاف ذلك . ونرى فى كلام اللغويين ما يفيد وجود صيغ أخرى تستعمل بكثرة للدلالة على معنى المبالغة . وهذه الصيغ هى :

١ — فِعّيل ٢ — فُعَلة

٣ — فُعْلة ٤ — فُعّال

وبين هذه الصيغ صيغة فريدة تدل على المبالغة فى المفعول (لا الفاعل كسائر الصيغ) وهى صيغة فُعْلة التى لا يوجد فى سائر الصيغ ما يحل محلها أو يغنى عنها .

وقد لاحظ اللغويون — من قديم — ما فى هذه الصيغ من مبالغة فذكروا ذلك صراحة أو ضمنا . ومنهم من أشار إلى كثرتها أو اطراد بعضها . كما أننا نجد منهم من يذكر أمثلة للصيغة لا يذكرها غيره .

وسنتناول الآن كل صيغة على حدة لنرى أقوال اللغويين فيها وأقدم ما استطعت أن أجمعه من أمثلة لكل منها :

١ — فِعّيل :

قال ابن قتيبة : « ما كان على فعيل فهو مكسور الأول ... وهو لمن دام منه الفعل ، وبعد أن ذكر أمثلة لذلك تلاها بقوله : « ومثل ذلك كثير . ولا يقال لمن فعل الشيء

مرة أو مرتين حتى يكثر منه أو يكون له عادة » .

وكذلك نص ابن السكيت على أن صيغة فعيل تدل على المبالغة ، فالسكير الكثير السكر والفسيق الكثير الفسق . إلى آخر ما مثل به .

كما لاحظ الفارابى « أبو إبراهيم إسحق ابن إبراهيم المتوفى سنة ٣٥٠ هـ وصاحب ديوان الأدب » معنى المبالغة فى هذه الصيغة فكان يقرنها بما يفيد المبالغة . ومن ذلك قوله : الشريب المولع بالشرب ، الزميت أشد من الزميت ، الخمير الدائم الشرب للخمر ، رجل شرير أى صاحب شر جدا ...

أما الأمثلة التى أمكننى أن أجمعها من كتب اللغة لهذه الصيغة فهى :

شريب ، خريت ، زميت ، سكيت ، صميت ، عميت ، حديث ، خبيث ، عبيث ، خريج ، مريح ، مسيح ، عنيد ، غريد ، مريد ، جبير ، ختير ، خمير ، سكير ، سهير ، شخير ، شرير ، شمير ، ظفير ، غدير ، فجير ، خير ، فكير ، قسيس ، فطيس ، عتيص ، عريض ، صريع ، ثقيف ، حريف ، خريق ، صديق ، طليق ، عشيق ، فسيق ، مسيك ، ضليل ، هزيل ، ظليم ، غليم .

ولهذه الصيغة أهمية خاصة ، لأنها كثيرة الدوران على ألسنة العوام فى مصر (ولكن بفتح أولها) للدلالة على معنى المبالغة ، وطغيانها على ما عداها من الصيغ ، فهم يقولون : أكيل ، وحبيب ، وجميع ، ورسيم ، وعويم ، وكسيب ، ولعيب ... وغير ذلك .

ومن أجل هذا لا نستبعد أن تكون هذه الصيغة أقدم فى الدلالة على معنى المبالغة من صيغة فَعَّال التى يعترف بها النحويون ، وأنها تطورت فى اللغة الفصحى إلى فِعِّيل أو فَعَّال طبقا لقانون الانسجام الصوتى ، وظلت محتفظة بفتح أولها فى بعض اللهجات ، ثم انحدرت إلينا مع بعض القبائل العربية التى نزحت إلى مصر .

ومن الغريب أن يبلغ عدد ماجمعته من أمثلة لهذه الصيغة خمسة وأربعين مثالا ـ ولا أزعم أنه كل ما جاء منها ـ ثم نجد ابن دريد ينص على أنها سماعية ، ويحذر من القياس عليها . فهو يقول فى جمهرته بعد أن عد مايقرب من ثلاثين مثالا : « اعلم أنه ليس لمولد أن يبنى فِعِّيلا : لا ما بنته العرب وتكلمت به . ولو أجيز ذلك لقلب أكثر الكلام (١١) فلا تلتفت إلى ما جاء على فعيل مما لم تسمعه إلا أن يجيء به شعر فصيح .

* * *

٢ ، ٣ — فُعَلة وفُعْلة :

قال ابن قتيبة : « وكل حرف على فُعَلة وهو وصف فهو الفاعل نحو هذرة ونكحة وطلقة وسخرة إذا كان مهذاراً ، نكاحا ، مطلاقا ، ساخراً من الناس ، فإن سكنت العين من فعلة وهو وصف فهو للمفعول به . تقول رجل لعْنة أى يلعنه الناس ، فإن كان هو يلعن الناس قلت لُعَنة . ورجل سُبَّة أى يسبه الناس ، فإن كان هو يسب الناس قلت سُبَبَة . وكذلك هُزْأة وهزَأة وسخْرة وسخَرة وضحْكة وضحَكة وخدْعة وخدَعة » . وقال مرة أخرى : « وفُعْلة من صفات المفعول وفُعَلة من صفات الفاعل » ، ثم ذكر أمثلة لذلك .

وقال ابن السكيت : « واعلم أنه ما جاء على فُعَلة بضم الفاء وفتح العين من النعوت فهو فى تأويل فاعل ، وما جاء على فُعْلة ساكنة العين فهو فى معنى مفعول به » .

وعقد الثعالبى باباً بعنوان « فصل فى الفرق بين ضدين بحرف أو حركة » قال فيه : « وذلك من سنن العرب . وما كان فرقه بحركة كما يقال : رجل لعَنة إذا كان كثير اللعن ، ولعْنة إذا كان يُلعن . وكذلك ضحَكة وضحْكة » .

بل نص ابن منظور على أن هذين البناءين يطردان فى معنى المبالغة ، وقرر أكثر من مرة فقال :

١ — نكَحة كثير النكاح ، وفعَلة من أبنية المبالغة لمن يكثر منه الشىء .

٢ — رجل بُوَلة كثير البول ، يطرد على هذا باب .

٣ — الغُبَة الأحمق الذى يسخر به ، ويطرد عليه باب .

٤ — صرعة كثير الصراع لأقرانه وصرعة يصرع كثيراً ، يطرد على هذين باب .

٥ — رجل لومة يلومه الناس ولومة يلوم الناس ... يطرد عليه باب .

٦ — اللعنة الكثير اللعن للناس ، واللعنة الذى لا يزال يلعن لشرارته ، والأول فاعل ، والثانى مفعول ... ويطرد عليهما باب .

أما الألفاظ التى أمكننى أن أجمعها لصيغة فُعَلة فهى :

تكأة ، لجأة ، زكأة ، هزأة ، خضبة ، صببة ، شربة ، طلبة ، عيبة ، قوبة ، كذبة ، لعبة ، نجبة ، خرجة ، لججة ، ولجة ، نكحة ، حمدة ، قعدة ، بذرة ، دغرة ، سخرة ، سهرة ، عقدة ، عقدة ، قذرة ، قشرة ، هذرة ، لمزة ، همزة ، جلسة ، كوصة ، رفضة ، قبضة ، لقطة ، خدعة ، خضعة ، صرعة ، ضجعة ، طلعة ، لسعة ، بجعة ، هجعة ، هقعة ، هلعة ، ولعة ، نتفة ، طرقة ، طلقة ، هرقة ، ضحكة ، أمسكة ، كلة ، بولة ، حولة ، خذلة ، سؤلة ، هذلة ، غسلة ، وكلة ، برمة ، جثمة ، حطمة ، لومة ، نومة ، أمنة ، علنة ، لحنة ، لعنة .

وأما ما استطعت أن أجمعه لصيغة فُعَلة فهو :

نهبة ، سبة ، هزأة ، لعنة ، سخرة ، ضحكة ، همزة ، لمزة ، خدعة ، ضورة ، لعبة ، صرعة ، لومة ، لحنة ، حمدة .

٤ — فُعَّال :

قال ابن قتيبة : « قال أبو عبيدة : فإذا أرادوا المبالغة شددوا فقالوا : كرام وكبار وظراف وعجاب ، فالكرام أشد كرما من الكُرَام » .

وقال ابن السكيت : « ورجل ... طويل وطوال ، فإذا أفرط فى الطول قيل : طُوَّال » . ونقل عن الكسائى قوله : « سمعت كبير وكبار ، فإذا أفرط قالوا : كُبَّار » .

وقال كراع : « رجل طويل وطوال ، فإذا أسرف فى الطول قيل : طُوَّال » .

ونص الزركشى على أن من صيغ المبالغة الواردة فى القرآن الكريم صيغة فُعَّال ، ومثل لها بقوله تعالى : « ومكروا مكراً كبار » . ثم نقل عن أبى العلاء المعرى أنه قال فى كتابه اللامع العزيزى : فعيل إذا أريد به المبالغة نقل به إلى فعال ، وإذا أريد به الزيادة شددوا فقالوا : فُعَّال ، من ذلك عجيب وعجاب وعجّاب ، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمى : إن هذا الشىء عجاب بالتشديد . وقالوا : طويل وطُوَال وطوّال .

أما الألفاظ التى أمكننى أن أجمعها لهذه الصيغة فهى :

عجاب ، كبار ، ظراف ، جمال ، كرام ، حسان ، طياب ، طوال ، ملاح ، جسام ، صباح .

وأعتقد أننا بعد هذا ، يمكننا ونحن مطمئنون أن نضيف هذه الصيغ الأربعة إلى الصيغ الخمسة التى ذكرها النحويون ، وننقلها من دائرة السماعى إلى دائرة القياسى . وأقدم هــذا الاقتراح إلى المجمع اللغوى ليصدر قراراً به .

أهم المراجع :

كتاب سيبويه ، أدب الكاتب لابن قتيبة ، إصلاح المنطق لابن السكيت ، الغريب المصنف لأبى عبيد ، الجمهرة لابن دريد ، المنتخب والمجرد لكراع ، ديوان الأدب للفارابى ، لسان العرب ، أساس البلاغة ، المزهر للسيوطى ، القول المجمل فى الرد على المهمل للسيوطى ، فقه اللغة للثعالبى ، البرهان للزركشى المخصص لابن سيدة ، روح المعانى للألوسى .

٢ — اسم المصدر

قسم النحويون الأسماء التى تدل على الحدث إلى قسمين : سموا أحدهما بالمصدر والآخر

باسم المصدر . ولكنهم لم يقدموا لنا الضابط الذى نستطيع به أن نميز بين النوعين ، ولم يحصروا لنا الأوزان التى تخص اسم المصدر كما حصروا أوزان المصدر ، ولم يفرقوا بين النوعين تفريقا حاسما ، وهم قد ذكروا لنا أن من أوزان المصادر « فَعلان » لما كان معناه الحركة والاضطراب والذهاب والمجىء ومع ذلك اعتبروا « اللهبان » اسما للالتهاب ولم يعتبروه مصدرا ، وذكروا أن فعل قد سمع بقلة مصدرا لفعل يفعُل ، ومع ذلك اعتبروا « المنج » اسما من عنجت البعير أعنجُه ولم يعتبروه مصدرا ... وغير ذلك .

ولعدم وجود ضابط حاسم نجد من اللغويين من يعتبر الكلمة مصدرا على حين يعتبرها آخرون اسم مصدر ؛ فكلمة الشرب - بتثليث الشين - يعتبرها الجوهرى مصدرا للفعل شرب ، ويعتبر أبو عبيدة الشرب - بالفتح - هو المصدر ، وما عداه اسم مصدر واللغويون يعتبرون العوج - بفتح العين والواو - مصدر قولك عوج الشىء والاسم العوج - بكسر العين - فى حين أن ابن السكيت يقول : كل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عوج - بفتح العين - وما كان فى أرض أو دين يقال عوج - بكسر العين .

وهذا وغيره يجعلنا نعيد النظر فى هذه الكلمات التى عدوها من أسماء المصادر ، وندرسها على أساس جديد .

ونحن إذا نظرنا فى هذه الكلمات نجدها على أربعة أنواع :

١ — كلمات مأخوذة من الثلاثى المجرد وسمع فعل ثلاثى مجرد بمعناها ، ولكن هذه الكلمات ليست على الأوزان المطردة أو الكثيرة لهذا الفعل . ومن أمثلتها قولهم .

القبح الاسم من القباحة ، اللطف الاسم من اللطافة ، الرشق الاسم من رشق يرشق رشقا .

٢ — كلمات مأخوذة من الثلاثى المجرد جاءت بمعنى أفعال من مزيد الثلاثى دون أن يرد ثلاثى مجرد بمعناها . ومن أمثلتها قولهم :

الجدل الاسم من الجدال ، الغزل الاسم من المغازلة ، العجب الاسم من الإعجاب .

٣ — كلمات مأخوذة من مزيد الثلاثى جاءت بمعنى أفعال من مزيد الثلاثى كذلك ولكن من باب آخر كقولهم :

الضرام الاسم من الاضطرام ، الخيار الاسم من الاختيار .

٤ — كلمات مأخوذة من مزيد الثلاثى جاءت بمعنى أفعال من مجرد الثلاثى دون أن يرد لها فعل من بابها كقولهم :

العضاض الاسم من العض ، الزفاف الاسم من زففت العروس .

وفى كل هذه الكلمات نلاحظ أن عدم ورود فعل لها من بابها كان هو السبب فى اعتبارها من أسماء المصادر .

وفى رأينا أن هذه الكلمات يجب اعتبارها مصادر لأفعال من أبوابها وتكون هى دليلنا على الفعل حين الاشتقاق فيما لم يسمع له فعل ولذلك على النحو الآتى :

١ — فى النوع الأول يعتبر اللفظ مصدرا للفعل المسموع . ويكون من باب تعدد المصادر للفعل الواحد ، وهذا كثير فى كلامهم وقد أثبت ابن القطاع للفعل « شنئ » أربعة عشر مصدرا ثم قال « وأما المصدران والثلاثة والأربعة والخمسة فتجىء كثيرا » .

٢ — وفى النوع الثانى نعتبر هذه الكلمات مصدر الفعل ثلاثى مجرد لم يسمع ، وتكون هى الحجة لمن أراد أخذ سائر التصرفات منها . وتطبيق هذا النوع يتضح فى قول اللغويين : « الشفقة الاسم من الإشفاق . . ولا يقال شفقت » . فعلى اعتبارها مصدرا نقول شفقت ولا حرج .

٣ — أما النوعان الثالث والرابع فنعتبر كلماتهما مصادر لأفعال من أبوابها لم تسمع ، وتكون حجة لمن أراد أخذ سائر التصرفات منهـا .

وبذلك نخلص أنفسنا من هذا النوع من الكلمات الذى أوقع النحاة فى الحـيرة والخلاف ، وجعل اللغويين يختلفون فى شأنه اختلافا شديدا . بالإضافة إلى أننا حاولنا أن نجد فرقا حقيقيا بين المصدر واسم المصدر فلم نجد . حاول بعضهم أن يلتمس هذا الفرق ، ولكنه ضل وتخبط :

(ا) فذهب بعضهم إلى أن المصدر يدل على الحدث واسم المصدر لا يدل على الحدث وإنما يدل على لفظ المصدر .

(ب) وذهب بعضهم إلى أن مدلوله الحدث كالمصدر ولكن دلالته عليه بطريق النيابة عن المصدر .

ولكن . . ما ثمرة ذلك ؟ وما أثره من جهة المعنى أو الاستعمال ؟ لا شىء .

(ج) وذهب بعضهم إلى أن الفرق بينهما أن المصدر يعمل . واسم المصدر لا يعمل وهذا خلاف ما عليه جمهور النحاة من أن كلا منهما يعمل . وفى ألفية ابن مالك : ولاسم مصدر عمل .

فما دام كل منهما يعمل ، وما داما يأتيان بمعنى واحد ، وما داما يدلان على الحدث ، فلماذا التفريق بينهما ؟

وقد أحسن ابن مالك صنعا فى بعض مؤلفاته حين اعترف بعدم وجود فارق بين النوعين . وقد كان المنطق يقتضيه حينئذ أن يمنع التعدد ما دامت الحقيقة واحدة ، ولكنه جرى فى غبار النحاة وحذا حذوهم .

أحمد مختار عمر

فلسطين فى شعر شوقى

للأستاذ كامل السوافيرى

١ — ما زلت أذكر وبردة الصبا تلفنى ، وحجرات الدراسة فى مدرسة السوافير الابتدائية تضمنى كيف كنا نكلف ونحن صغار بحفظ أبيات للشاعر أحمد شوقى دون أن نفهم معانيها ومن تلك الأبيات قوله :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعة ولم يخل حسى

وتجاوزت مرحلة الطفولة وواصلت دراستى الثانوية والعالية فى رحاب الأزهر وقاعات دار العلوم وازداد حبى لشوقى وتقديرى لشعره وعشت معه فى شوقياته الخالدة ومسرحياته الرائعة فاستهوانى قصيده وهزنى شعره وهو يرسل ألحانه إلى دنيا الإسلام والعروبة فيشجى ويطرب ويروى الدهر قصائده وتردد الملايين تغريده وإنشاده مأخوذة بروعة فنه .

٢ — وقد عرفت فلسطين العربية المجاهدة لشوقى مكانته فأحلته فى السويداء من قلوب أبنائها ، وتخيرت له القصائد والمقطعات واتخذت منها نصوصاً أدبية يكلف الطلبة والطالبات بحفظها ودراستها فى المرحلتين الابتدائية والثانوية على الرغم من مدير معارف حكومة فلسطين الانجليزى ورقابته على منهج اللغة العربية ، ومحاربته للنصوص الشعرية والنثرية التى توقد جذوة الوطنية وتشعل الروح القومية وكثيراً ما كانت هذه الحرب تفرض استبعاد كل نص لا يرضى حكومة الانتداب ولم تقف الحرب عند هذا الحد بل تجاوزته إلى محاربة اللغة العربية كلغة قومية ومحاربة أبنائها الأكفاء الذين تخصصوا فى دراستها على حين أنها جعلت للغة الانجليزية ست حصص فى الأسبوع وخصصت لها زمناً يتساوى مع زمن اللغة العربية ويزيد عنه أحياناً على الرغم من تلك الصعاب اختار أساتذة اللغة العربية فى المدارس الأميرية فى فلسطين قصائد من شعر شوقى فى الكتب المقررة على طلبة المرحلتين الابتدائية والثانوية فى النصوص والمطالعة والأدب والبلاغة والعروض والقوافى ولكن خطر هذه النماذج كان أكبر وأوفى فى المدارس الحرة التى لم تتقيد بمنهج الحكومة .

ولم يقف أثر شوقى عند تقرير شعره فى المدارس والمعاهد بل تجاوزه إلى عكوف العشرات على حفظ العديد من فرائد الشوقيات

ينشدون أبياتها ويرددون روائعها فى ندوات الأدب وموائد الشعر ، وحلقات السمر التى كانت تنتظم كل مساء فى بيت المقدس ونابلس ويافا وغزة وغيرها من المدن بين عشاق الأدب وهواة الفن .

٣ — وترى فلسطين أن شوقى لم يكن شاعر القصر ولا شاعر مصر ولكنه شاعر العرب صور آمالهم وآلامهم وغنى أفراحهم وأشاد بالروابط الوثيقة التى تؤلف بين قلوبهم .

كان شعرى الغناء فى فرح الشرق
وكان البكاء فى أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح
وأن نلتقى على أشجانه
كلما أن بالعراق جريح
لمس الشرق جنبه فى عمانه

وكلمة الشرق قصد بها يومئذ الوطن العربى لأن مفهوم العروبة لم يكن قد تبلور فى الأذهان تبلوره اليوم . ويؤيد ذلك أن كثيراً من الشعراء الذين عاصروا شوقى والذين جاءوا بعده استعملوا كلمة الشرق وأرادوا منها العرب وحسبنا دليلا على ذلك قول الشاعر على الجارم :

صحا الشرق وانجاب الكرى عن عيونه
وليس لمن رام الكواكب مضجع

ولشعر شوقى أثر بالغ فى إشعال حماسة أبناء فلسطين وهم يحاربون الاستعمار البريطانى والصهيونية العالمية خلال ثلاثين سنة يبذلون المهج ويرخصون الدماء دفاعا عن الوطن وثمناً للحرية متمثلين قوله :

ومن يسقى ويشرب بالمنايا
إذا الأحرار لم يسقوا ويسقوا
وللأوطان فى دم كل حر
يد سلفت ودين مستحق
وللحرية الحمراء باب
بكل يد مضرجة يدق

٤ — وكان بين شوقى وبين أديب العربية إسعاف النشاشيبى إخاء وثيق وصداقة قوية وقد وعد شوقى صديقه إسعاف بأن يزور فلسطين ويقص علينا نبأ تلك الزيارة شاعر فلسطين المرحوم إبراهيم طوقان فيقول :

قابلت أديب العربية إسعاف النشاشيبى فى ١٤ أغسطس سنة ١٩٢٨ وهو اليوم الذى حدده أمير الشعراء أحمد شوقى ليزور فيه فلسطين ، وينزل ضيفا فى « الجوزلق » قصر صديقه إسعاف فى بيت المقدس ، وقد قال لى إسعاف فى هذا اليوم : بلبلنى شوقى والله ، بلبلنى يا أخى إذ لم تتم الزيارة فى الموعد المحدد ولم يعلم إسعاف مقر شوقى يومئذ لأن الصحف تناقلت أنباء متناقضة عن حله وترحاله فمن قائل إنه ما زال فى ربوع الشام ومصايف لبنان ومن قائل : إنه عاد إلى مصر وأخيرا

طلعت صحف مصر بنبأ عودته إلى وطنه ، وكان إسعاف قد طلب منى إعداد قصيدة لإلقائها فى الاحتفال المظيم الذى اعتزم إقامته لصديقه أمير الشعراء. فنظمت القصيدة التالية

ونكتفى بهذه الأبيات من قصيدة شاعر فلسطين فى شوقى المثبتة فى ديوان إبراهيم طوقان والدالة على مكانة شوقى فى قلوب أبناء فلسطين

أهلا برب المهرجان
أهــــلا بنابغة الزمان
ملك القلوب المستقل
بعرشها والصولجان
أهلا بشوقى شاعر الفصحى
ومعجـــزة البيان

وفى هذه الأبيات يخلع الشاعر على شوقى أجمل الصور فيجعله رب المهرجان ونابغة الزمان وملك القلوب المستقل بعرشها وشاعر الفصحى ومعجزة البيان ويمضى شاعر فلسطين فى إعجابه وحفاوته بشوقى فيصوره بأنه فرقد الشعراء ، وأن علم الخلود يرفرف عليه وأن الروح الأمين ينفخ فى قلبه مايفيض على لسانه ، ويمد روحه بالنفحات حين يطوف بالجنان فتغدو أبكارها لدى الشاعر أبكار المعانى .

يا فرقــــد الشعراء كم
من فرقد لعلاك ران
علما الخـلود منشران
على سريرك يخفقان
جبريل ينفخ فى فؤادك
مايفيض على اللسان
وأمد بالنفحات روحك
حين طوف بالجنان
فاذا بأبكار الجنان
لديك أبكار المعانى

وهذه الأبيات تعبر فى صدق عن حب شاعر فلسطين وإعجابه وتقديره لشوقى وعن حب أهل فلسطين لأمير الشعراء وعاطفة الشاعر الجياشة استدعت أجمل الصور وأرق الألفاظ وأعذبها ، وزاد من تأثيرها وقوتها الإيقاع الموسيقى الراقص واختياراً بياتها من مجزوء الكامل هذا إلى جانب قصائد متعددة لشعراء فلسطين عارضـوا فيها بعض قصائد أمير الشعراء ، ومزجوها بروح الفكاهة والدعابة والمرح ، ولا نرى مايدعو لإيرادها

٥ — وحين استعرضت الشوقيات لأجد فيها قصيدة استلهمت فلسطين منذ ابتدأت محنتها فى الثانى من نوفبر سنة ١٩١٧ وهو اليوم الذى صدر فيه وعد بلفور إلى العام الذى كف فيه الشاعر عن تغريده وهو عام ١٩٣٢ خاب أملى وعرانى الأسى لأنى وجدت قصائد فى دمشق ونكبتها وزحلة ولبنان

والأندلس والبسفور وطوكيو وباريس ولم أجد قصيدة عن فلسطين أو بيت المقدس وكل ما وجدته أنى وجدت بيتاً فى قصيدة التى ألقاها فى دار الأوبرا فى حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذى انعقد فيها فى صفحة ٢٤٠ من الجزء الثانى من الشوقيات ذكر فيه فلسطين وهو :

يا عكاظا تألف الشرق فيه
من فلسطينه إلى بغدانه

ووجدت أبياتا من قصيدتين أخريين الأولى فى رثاء محمد على الزعيم الهندى فى الصفحة الثانية عشر من الجزء الثالث وفيها يتحدث عن القدس التى دفن فيها الزعيم الهندى المرثى وعن فلسطين :

ميت على أرض الهدى وسمائه
الحق حائطه وأس بنائه
الفتح من أعلامه ، والطهر من
أوصافه والقدس من أسمائه
تحنو مناكبه على شعب الهدى
وتطل سدته على سينائه
منذا ينازعنا مقالد بابه
وجلال سدته وطهر فنائه
ومحمد صلى على جنباته
واستقبل السمحات فى أرجائه
يا قدس هيئ من رياضك ربوة
لنزيل تربك واحتفل بلقائه

وفى آخر القصيدة يثنى الشاعر على فلسطين وأهلها فيقول عنها :

بلد بنوه الأكرمون قصورهم
وقصورهم وقف على نزلائه
قد هشت تنصره وتمنع أهله
عونا فكيف تكون من غربائه

والثانية فى رثاء الملك حسين فى الصفحة الستين بعد المائة من الجزء الثالث أيضا ورد فيها ذكر فلسطين حين تحدث عن أبناء الملك الراحل فقال :

أمن الناس فى ذراهم وطابت
عرب الأرض تحتهم والأعاجم
وبنوا دولة وراء فلسطين
كباب الهدى فتاة العزائم

ومتحدثا عن القدس التى دفن فيها الفقيد قائلا :

وادفنوه فى القدس بين سليمان
وداود والملوك الأكارم
إنما القدس منزل الوحى مغنى
كل حبر من الأوائل عالم
كنفت بالغيوب فالأرض
أسرار مدى الدهر والسماء طلاسم
وتحلت من البراق بطغراء
ومن حافر البراق بخاتم

وقد ألقى هذه القصيدة نيابة عن الشاعر صديقه إسعاف النشاشيبى فى حفل التأبين

الذى أقامه النادى الرياضى الإسلامى بيافا للفقيد سنة ١٩٣١ قبل وفاة الشاعر بعام واحد .

— ٦ —

ولما تحطمت قيثارة الشاعر وكف عن التغريد سنة ١٩٣٢ أظلت فلسطين سحابة قاتمة من الحزن ورانت عليها ظلال الأسى وتجلى ذلك فى حفلات التأبين التى أقيمت للشاعر بعد مرور أربعين يوما على وفاته فى بيت المقدس ونابلس وحيفا وغيرها من مدن فلسطين وتحدث فيها الخطباء والشعراء وعن نكبة العرب لفقد شاعرهم وخسارتهم بموته وخسارة اللغة العربية بشاعرها نابغة الزمان ومعجزة البيان وحسبى أن أسوق فقرات من الكلمة التى ألقاها إسعاف النشاشيبى فى تأبين الشاعر ...

ومنها يقول :

إنما الدنيا شجون تلتقى
وحزين يتأسى بحزين
ضحك الدنيا احتشاد البكا
وأغانيها معدات الأنين

أيتها النفس أجملى جزعا
ان الذى تحذرين قد وقعا

شاعر العرب قضى يا فتاة العرب فالبسى ثوب الحداد وابرزى بين الملأ حاسرة واندبيه ، زحزحى هذا النقاب لترى وجه الحزين أمرضى عن خضر عودته فعيون القوم غرقى فى الدموع .

شيعى دمعك هذا قانئا بنحيب ونشيج وعويل وابذلى الدمع رخيصا إن من تبكين غال . واحشدى كل بنات العرب للبكاء واندبيه نائحات سافرات وذرى الترب يبيسا يرتوى من عبرات ، اذكريه اندبيه أبنيه بحسران خالدة .

هذا هو أثر شوقى البالغ فى فلسطين وشعره فيها ولعلنا فى هذه الكلمة قد ألقينا عليه أضواء ساطعة وجلوناه للقراء . وحم الله شوقى شاعر العرب وبلبل العروبة وشاعر الإسلام وسلام عليه فى الخالدين .

كامل السوافيرى

العقوبة فى الإسلام :

حد السكر

للأستاذ محمد فاوى عمر

فى بحث للدكتور عبد الرازق السنهورى فى فقه الدين الإسلامى مقارناً مع الفقه الغربى يقول : وهذه هى الشريعة الإسلامية لو وطئت أكنافها وعبدت سبلها لكان لنا فى هذا التراث الجليل ما ينفخ روح الاستقلال فى فقهنا وفى قضائنا وفى تشريعنا ، ثم لأشرفنا نطالع العالم بهذا النور الجديد فنضىء به جانباً من جوانب الثقافة العالية فى القانون .

ويقول فى موضع آخر : لن نحاول أن نصطنع التقريب بين الفقه الإسلامى والفقه الغربى على أسس موهومة أو خاطئة فإن الفقه الإسلامى نظام قانونى عظيم له صنعة يستقل بها ويتميز عن سائر النظم القانونية فى صياغته . وتقتضى الدقة والأمانة العلمية علينا أن نحتفظ لهذا الفقه الجليل بمقوماته وطابعه ونحن فى هذا أشد حرصا من بعض الفقهاء المحدثين فيما يؤنس فيهم من ميل إلى تقريب الفقه الإسلامى من الفقه الغربى .

ولا يعنينا أن يكون الفقه الإسلامى قريباً من الفقه الغربى . فإن هذا لا يكسب الفقه الإسلامى قوة بل لعله يبتعد به عن جانب الجدة والابتداع وهو جانب الفقه الإسلامى منه حظ عظيم .

وقد عرف علماء القانون الغربيون ذلك وأقروا بصلاحية الفقه الإسلامى ليكون أساساً للتشريع حيث نجد من قرارات مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى فى أغسطس سنة ١٩٣٨ :

١ — اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع .

٢ — اعتبارها حية صالحة للتطور .

٣ — اعتبارها قائمة بذاتها غير مأخوذة من غيرها .

ومن مصادر التشريع فى الفقه الإسلامى الكتاب والسنة والإجماع والقياس .

والعقوبة فى الفقه الإسلامى موانع قبل الفعل زواجر بعده . وهى جوابر أى أن تنفيذها على الجانى فى الدنيا يجنبه عذاب الآخرة . ومن ثم فمن استطاع أن يهرب من العقاب الدنيوى فهو لا محالة ملاق جزاءه يوم القيامة .

وأخيراً فإن العقوبات الشرعية قد شرعت رحمة من الله تعالى بعباده فهى صادرة عن رحمة الخلق وإرادة الإحسان إليهم .

والإسلام لا ينكر على الفرد حريته وكرامته الشخصية بل يمنحه حرية التصرف فى شئونه وأمواله . بعد أن يؤدى الواجب عليه نحو خالقه ونحو نفسه ونحو غيره . فقد قال تعالى « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وقد وقف الدين الإسلامى موقفاً حازما من شرب الخمر ولكنه تدرج فى التشريع لهذا الأمر . إذ كان العرب قبل الإسلام يكثرون من شربها ويتغنون بها فى أشعارهم ويتفننون فى صنعها . وكانت عادة متأصلة لديهم . فلم يكن من الميسور تحريمها عليهم دفعة واحدة . ولذلك سلك الإسلام مسلك التدرج فى التشريع حتى لا يشق على الناس الأمر . .

فقد قال الله تعالى فى سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

فبدأ بالتفريق بين الرزق الحسن وغير الحسن .

ثم قال تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ... »

وقد بينت هذه الآية الكريمة مضار الخمر صراحة . ولم يأمر الله سبحانه وتعالى بتحريمها . وكان الناس يشربونها بعد نزول هذه الآية ويقولون : نشربها للمنفعة لا للإثم .

وبعد ذلك نزل قوله تعالى فى سورة النساء : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .

وبهذا نهى سبحانه وتعالى عن شرب الخمر قبل الصلاة .

وقد روى عن الترمذى عن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون » . قال : فأنزل الله تعالى : « يا أيها

الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

وبعد نزول هـذه الآية الكريمة قال عمر ابن الخطاب اللهم أنزل علينا بيانا شافيا فنزلت آيات النهى المطلق عن شرب الخمر . إذ قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون .

فقال عمر بعد ذلك انتهينا انتهينا . ثم طاف منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا إن الخمر قد حرمت .

وباستعراض الآيات الكريمة يتضح أن شرب الخمر كان مباحا ، وأن السكر كان هو المحرم . ثم حرم الشرب نفسه بعد ذلك .

وإنه وإن كان قد ثبت بصريح نص القرآن تحريم الخمر . فإنه لم يرد فى ذلك النص عقوبة لمخالفته . فترك بذلك بابا واسعا للاجتهاد ، وإن كان فى ذلك تخفيف على الناس .

وقد روى البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك رضى الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ضرب فى الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر أربعين جلدة .

وروى البخارى عن السائب بن يزيد قال : كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمرة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين حتى إذا عتوا أو فسقوا جلد ثمانين .

وعن أبى داود عن قبيص بن ذويب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد فاقتلوه فى الثالثة أو الرابعة - فأتى برجل قد شرب فجلده ، ثم أتى به فجلده ثم أتى به فجلده ، ورفع القتل وكانت - خصته .

وقال ابن عباس : شرب رجل فسكر فلقى يميل فى الفج فانطلق به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلما حاذى بدار العباس انفلت ، فدخل على العباس فالتزمه . فذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم . فضحك وقال : أفعلها ؟ ولم يأمر فيه بشىء .

وروى عن عمير بن سعيد النخعى قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : ما كنت لأقيم على أحد حدا فيموت فأجد فى نفسى منه شيئا إلا صاحب الخمر . فإنه لو مات

وديته وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنه .

وفى موطأ مالك أن عمر بن الخطاب استشار فى الخمر يشربها الرجل . فقال له على بن أبى طالب : نرى أن نجلده ثمانين جلدة : فإنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى . وإذا هذى افترى .

من كل هذا يتضح أن عقوبة شرب الخمر لم يرد بها نص فى القرآن الكريم - ولم تكن مقدرة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا الخلفاء من بعده بمقدار معين لا من ناحية الكم ولا من ناحية الكيف .

ومعنى هذا أن أى عقوبة يفرضها ولى الأمر على شارب الخمر ويرى أنها بحسب مقتضيات ظروف البيئة الاجتماعية فهى عقوبة شرعية .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حد يقام فى الأرض خير لأهلها من مطر أربعين ليلة) .

وإنه وإن كان شارب الخمر يعاقب بإقامة الحد عليه فإنه يجوز تعزيره بالتبكيت بعد إقامة العقاب البدنى عليه . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بتبكيت شارب الخمر بعد ضربه . ومن ذلك قول المسلمين للشارب بعد إقامة الحد عليه : ما اتقيت الله ؟ ما خشيت الله ؟ ما استحييت من رسول الله .

هذا والحد فى الإسلام ينبغى ألا يقام فى المساجد ولا فى أرض العدو . حدث الأعمش عن علقمة قال : غزونا أرض الروم ومعنا حذيفة وعلينا رجل من قريش فشرب الخمر فأردنا أن نحده . فقال حذيفة : تحدون أميركم وقد دنوتم من عدوكم فيطمعون فيكم ؟ .

وكان عمر بن الخطاب يأمر أمراء الجيوش والسرايا ألا يجلدوا حتى يطلعوا من الدرب قافلين . وكره أن تحمل المحدود حمية الشيطان على اللحوق بالكفار .

وفى تحديد معنى الخمر يقول عليه الصلاة والسلام : كل شراب أسكر فهو حرام . كما قال أيضا : كل مسكر خمر وكل خمر حرام .

وعن أبى موسى قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا ومعاذا إلى اليمن . فقلت : يا رسول الله افتنا فى شرابين كنا نصنعهما باليمن . البتع وهو من العسل ينبذ حتى يشتد والمذر وهو من الذرة والشعير حتى يشتد . قال : كل مسكر حرام ؟

نقيب : محمد فاروق عمر

صحفيون من الأزهر :

رفاعه الطهطاوى

للأستاذ محمد على غريب

منذ أكثر من ألف عام، ظل الأزهر الشريف وما يزال ، مشعل النور ، ليضيء به طرائق الحياة ، أمام أولئك الراغبين فى المعرفة ، والطامحين إلى جودة الفهم وصحة الإدراك ، ومن الملايين الكثيرة التى توافدت عليه ، خرج أبناؤه وفى أيديهم مشاعل النور تضيء لهذه الدنيا معالم الحياة ، وتبصرهم بكل ما هم فى حاجة إليه من وجوه الصواب والرشد والنضوج .

وخلال هذه القرون العشرة ، كان الأزهر الشريف يتجدد ويتطور ، ويتقبل فى كثير من التسامح واليسر دراسة مختلف الفنون والمعارف ، وفى تاريخه المجيد الرائع ، ومضات لا يقوى الأزهرى العادى اليوم على أن يحدق فيها بعينه . فقد كان الأزهر يدرس (الموسيقى) وهى فن لم يرتق إلى درجة الوقار والاتزان ، وقد جاء وقت كانت الموسيقى فيه تحارب من الأزهر كما يحارب التحلل الأخلاقى .

والعجيب فى الأمر أن أكثر الذين برعوا فى الموسيقى وطاولت أمجادهم فيها عنان السماء كانوا من الأزهريين ، ورغم هذا فإن الأزهرى القح كان يضم ثيابه إلى بدنه حتى لا تحتك بثياب أزهرى موسيقى !

وكان هذا شأن الأزهر مع الصحافة ، فقد نظر إليها نظرته إلى مهنة حقيرة مبتذلة ، وكان يحاربها إلى أقصى ما يستطيع من الجهد فى سبيل أن يحفظ على الناس أخلاقهم الكريمة حتى لا تمزقهم هذه الوريقات المطبوعة بما تحويه من (غيبة) و (نميمة) ومن أكاذيب وأراجيف وترهات .

والمدهش فى الأمر أن أكثر الذين غرسوا بذور هذه المهنة فى مصر وفى كثير من البلاد الإسلامية هم من الأزهريين ، أولئك الذين كان يقال عنهم فى الماضى (أزهرى فسد) .

وأول صحفى عربى فى مصر بل وفى العالم العربى كله ، كان أزهرياً وهو المرحوم الشيخ إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب قال عنه : (الفيكونت فيليب دى ترازى) فى كتابه

(تاريخ الصحافة العربية) عند حديثه عن البعثة العلمية التي رافقت حملة نابليون بونابرت إلى مصر أنها أحضرت معها مطبعة من باريس ثم يقول :

(وأول عمل باشرته هذه البعثة العلمية أنها نشرت ثلاث جرائد في المطبعة المذكورة إحداها (الحوادث اليومية) كان محررها إسماعيل بن سعد الخشاب وهي جدة الصحف في لغة الناطقين بالضاد) .

ويقول عنه الجبرتي في كتابه التاريخي المعروف : (تولع السيد إسماعيل بحفظ القرآن ثم بطلب العلم ولازم حضور السيد علي المقدسي وغيره من أفاضل الوقت وأنجب في الفقه الشافعي والمعقول وتثقيف اللسان والفروع الفقهية الواجبة والفرائض .

إلى أن يقول :

ولما رتب الفرانساوية ديوانا لقضايا المسلمين تعين المترجم في كتابة التاريخ لحوادث الديوان ، وما يقع فيه من ذلك اليوم .. لأن القوم كان لهم مزيد اعتناء بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم ثم يجمعون المتفرق في ملخص ، يرفع في سجلهم ، بعد أن يطبعوا منه نسخا عديدة يوزعونها في جميع الجيش ... حتى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف ، فتجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم .

فلما رتبوا ذلك الديوان ، كما ذكر كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس : من أمر ونهي ، أو خطاب أو جواب ، أو خطأ أو صواب ، وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف ونصف فضة .

فلم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك منو ، حتى ارتحلوا من الإقليم . ولقد جمع من سجلات الحوادث عدة كراريس ولا أدري ما فعل بها .

هذا هو إسماعيل الخشاب ، أول صحفي عربي على الإطلاق ، خرج من الأزهر إلى الصحافة ، وكانت صحيفته صغيرة لا يقرؤها إلا القليلون .

ويجيء من بعده المغفور له الشيخ (رفاعة رافع الطهطاوي) وهو المقصود بحديثنا وصاحب أكبر فضل على النهضة العلمية والأدبية والاجتماعية في مصر ، ولقد ولد عام ١٨٠١ وتوفي عام ١٨٧٣ وكانت مسقط رأسه مدينة (طهطا) في الصعيد ولقد نشأ في أسرة كانت من أهل اليسار ثم أخنى عليها الدهر فضى والده في طلب الرزق إلى مدينة (قنا) وبعدها إلى مدينة (فرشوط) .

وقد سافر إلى فرنسا ورأى حرية هناك جعلته يشعر بالطغيان الذي يعانيه أبناء وطنه مصر ورأى ما يمكن أن يقدمه الفكر

الراجح من أساليب النشاط الإنسانى فى شتى مناحى الحياة ، وفى فرنسا رأى الصناعة الزاخرة بالخير والنفع على الفرنسيين أجمعين فدعا إلى التصنيع فى بلاده .

ولقد دعا رفاعة الطهطاوى ، المصريين إلى الحفاظ على نعمة الحرية وإعلاء شأن الفكر وإنشاء المصانع لتنافس أمتهم أرقى شعوب العالم فى الحضارة والمدنية ، ولتعود إليها سيرتها الأولى فى التقدم والازدهار .

وعاد رفاعة الطهطاوى إلى مصر وكله شعلة من الوطنية المتأججة ، فأشار على محمد على بأن يصدر صحيفة « الوقائع المصرية » وتولى الشيخ رفاعة رياسة تحريرها وراح يكتب فيها المقالات التى تحث على استنهاض الهمم وبعث الشعور القوى وشحذ العزائم فى سبيل خدمة الوطن .

وهى أقدم جريدة عربية على الإطلاق إذ لم تسبقها جريدة عربية أنشأها عربى فى وطننا العربى الكبير .

وما صنعه رفاعة الطهطاوى لأمته يكثر إحصاؤه على المغرمين بالأرقام ، فقد ترجم عشرات الكتب من الفرنسية إلى العربية وأودع ثمراتها عقول أولئك المتعطشين إلى العلم والمعرفة ، وبارك الله فى جهوده فألف وصنف ، وكانت غاية جهاده أن يرتقى بأمته إلى المكان الذى رأى فيه فرنسا .

ولقد خلف رفاعة الطهطاوى وراءه ثروة أدبية ضخمة هى طراز لما يجب أن يقوم به الرائد العظيم نذكر منها : (خلاصة الإبريز) والديوان النفيس) و (التعريبات الشافية لمريد الجغرافية) و (جغرافية ملطبرون) و (قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر) و (المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين) و (التحفة المكتبية) و (مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك) و (مباهج الألباب المصرية فى مناهج الألباب العصرية) و (مختصر معاهد التنصيص) و (المذاهب الأربعة) و (شرح لامية العرب) و (القانون المدنى الإفرنجى) و (توفيق الجليل وتوثيق بنى إسماعيل) و (هندسة ساسير) و (رسالة فى الطب) و (جمال الأجرومية) و (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) .

وهكذا عاش رفاعة الطهطاوى حياته كلها خادما أميناً للدين وللعلم وللمعرفة باذلا غاية جهده فى تحريك موجات الفكر فى بحرنا الأدبى المتلاطم ، لنسمو ونرتفع إلى المكان اللائق بنا تحت الشمس .

محمد على غريب

المقوّمات الخلقيّة والأدبيّة ومدى تأثيرها فى تقدير الإسلام

للأستاذ عباس طه

خلق الله الكائنات الحيوانية وفطر كل جنس منها على ما به تصان حياته الشخصية والنوعية وما عليه تقوم سعادته النفسية والمادية ، فهو يجرى من محاولاته على ناموس لا يتعداه وعلى منهاج لا يستطيع عنه حولا إلا الإنسان فإنه لقيام نمطه على التعقل والاستهداء ولاتصال كماله بالكشف عن الأصلح والأقوم ، أطلقت له حرية النظر والاستدلال وحسن الاختيار .

وما فطره الله على هذه الجبلة إلا لأنه أنشأ وجوده على سنة الارتقاء والتدرج إلى مدارج لا يصل إليها الخيال فى كل ضرب من ضروب الكمالات الشكلية والمعنوية حتى إن أعمق المتصورين خيالا قد عجزوا عن إدراك الحد الذى يقف عنده فى ترقيه إلى درجة الكمال .

وكيف يصلون إلى معرفة هذا الحد وقد منح قوى عقلية وروحانية لا يمكن تقديرها بحال من الأحوال . فكلما وصل إلى غاية تراءت له غايات أبعد منها وتيقظت فيه عوامل جديدة للوصول إليها ما كان يتخيل وجودها فى نفسه حتى قيل إن كل ما يروى عن الخوارق التى تحدث على أيدى أفراد من الممتازين ستصبح أمورا عادية لأهل الأزمان المستقبلة فيقرأ بعضهم ما يجول فى ضمائر بعض ويعرف أحدهم ما يفعله صاحبه وهو على بعد آلاف من الأميال وآلاف من السنين ويأمر القوى الطبيعية فتطيعه صاغرة ، ويرى بقلبه ما وراء الحوائل الكثيفة ويكون وهو فى هذا الحد قد بلغ من السمو الروحانى درجة لا يفترق عنها سكان الملأ الأعلى فى شىء ونحن لا نتعرض لهذه التخيلات بتصديق ولا تكذيب ، ولكننا نلفت القارئ إلى ما تشير إليه من توقع الدرجات العلى للإنسان بعد ما تبين للباحث من سمو القوى التى منحها وكان من أثرها فى آماد قصيرة الوصول من الناحية المادية إلى الدرجة التى وصل إليها الآن ومن الناحية الروحية إلى ما يروى عن الآحاد الذين عنوا بتربية أنفسهم على الأساليب الدينية الصحيحة .

هذا كله أثر الأخلاق والآداب التى يتبعها

الإنسان فى تدبير القوى المودعة فيه . أقول فى تدبير القوى ، لأن الأخلاق والآداب المجردة من هذا التدبير لا تثمر شيئاً أكثر من حسن السمت ، ولطف المعاشرة ، وهذا ليس بكبير الخطر فى حياة الأمم ، ولا هو مما يغنى عنها شيئاً فى مواقفها حيال الطبيعة وحيال الجماعات التى تنازعها الوجود والغلب . فالإنسان كما يطلب منه أن يكون على ضرب من الأخلاق إزاء معاشريه ومواطنيه ، كذلك يطلب منه أن يقوم على ضرب آخر منها أمام الجوائح الطبيعية المساورة له ، وحذاء الجماعات التى تزاحمه فى مضمار الحياة . وهو إن انقاد لمجرد ميوله الفطرية فى هذه الأمور ، فلا يصل إلى أكثر مما وصلت إليه الطوائف الساذجة فى أول وجودها على الأرض ، من تأليه القوى الطبيعية والاستخذاء لأفاعيلها .

هذا كل ما تعطيه الميول الفطرية غير المقومة تقويماً علميا ، وقد استمر الإنسان على هذا الحال قرونا لاتحصى حتى ولد العلم ، فعين موقف الإنسان من الطبيعة ومن الجماعات الإنسانية ، كما عينه من المجتمع الذى يعيش فيه ، وألزمه فى كل موقف من هذه المواقف أخلاقا وآدابا تناسب القوى العليا المودعة صميم معناه الإنسانى .

هذا ما يفهمه العلم من كلمتى أخلاق وآداب أما ما يفهمه البعض منهما وهو ما يقتصر على المخالطة والمعاملة ، فهو ناحية صغيرة من نواحيها ، وليست بذات أثر كبير فى وجودها وترقيها . فلو قامت أمة من أخلاقها وآدابها على مثل ما عليه الكملة الأطهار ، ولم توسع من دائرة هذه الأخلاق والآداب حتى تشمل سيرتها مع الكون الذى تعيش فيه ، والجماعات التى تنازعها العيش ، هان أمرها على أصغر أمة تعنى بهذه الناحية الثانية من الأخلاق وليست من الناحية الأولى على شىء .

فكم قبيل على مثل ما عليه الوحوش الضارية من الخشونة والتجرد عن الأخلاق داهموا قبيلا آخر فى أسمى درجات الآداب فأذاقوهم صنوف الويل ، ومزقوهم شر ممزق وجعلوهم أحاديث .

وكم أمة لا يراعى أفرادها الأصول الأدبية المثلى ، ولكنهم على أصول قويمة حيال الوجود والأمم ، قد وصلوا إلى قمة المدنية المادية ، ومدوا سلطانهم على مساحات واسعة من الأرض ، وبجوارهم أمم لا هم لها إلا تدارس الآدب وتطبيقها وهى لا تغنى عن أنفسها فتيلا .

من هذا التناقض نشأت شبهات قوية على الحكم الأدبية وعلى الأديان معاً ، ونجمت

مذاهب سقيمة على معنى الحياة حتى لقد ذهب المتطرفون منهم إلى أن التقيد بالأخلاق الفاضلة والآداب العالية يعطل من نهوض الأمم ويعرقل حركتها إلى الغايات القاصية من المدنية المادية، فزعموا أن إطلاق العنان للشهوات يدفع بالنفوس لطلب المزيد من المتع الجسدية وهذا الإطلاق يحفز إلى التوسع فى استغلال المادة وإلى التفكير فى وجوه تسخير قوى الكون للإرادة البشرية. وهذا لا يكون إلا بدراسة العلوم وتطبيقها على العمل، والتنقيب عن المساتير وحل معمياتها. فجملة هذه الحركات النفسية والعلمية يدفع بالمدنية إلى الارتقاء والتحليق فى أرفع آفاق الإبداع.

هذه شبهات يظنها هؤلاء الإباحيون حججاً لتبرير مذهبهم والحقيقة أن المدنية ليست مدينة لواحد من هؤلاء الشهوانيين بشيء، وما دعم قواعدها وأقام صروحها من علم وعمل وفن، غير أفراد من خيار هذا النوع كانوا على جانب كبير من الاستقامة والنزاهة واصلوا بحوثهم غير مدخرين مالا ولا صحة وكثير منهم ذهبوا ضحايا لإخلاصهم لتجاربهم وأمثال هؤلاء يوجدون فى كل مجتمع تتوافر لهم فيه شروط الحياة وحرية العمل، وإذا كان لثمرات قرائحهم خطر يهددها بالاجتياح فهو من ناحية أمثال هذه المذاهب الإباحية فقد تسلطت على مدنيات اليونان والرومان وغيرهم فأبادتها وجعلتها أقاصيص.

وإذا كان لا يمكن تقدم مادى بدون حافز شهوانى، فكيف نشأت المدنية الإسلامية الباهرة فى بيئة كلها أخلاق وآداب وسمو روحانى حتى صارت أساسا للمدنية الأوربية الحاضرة، وهذه المدنية الحاضرة هل يتوقع علماء الاجتماع تطرق الخراب إليها إلا من تفاقم شر الشهوات فيها، كما صرح كبار قادتها فى كتب عديدة.

فالإخلاص لأجل أن تكون كاملة، وحاصلة على جميع مقوماتها الضرورية، يجب أن تكون شاملة لكل ضروب المعاملات والإنسان لم يطلب منه أن يعامل معايشيه ومواطنيه فحسب، ولكن يطلب منه أن يعامل من يتصدى لمعاملته من الناس كافة بل ما يعرض له من الكائنات كافة، فهو قبل أن يدعى لمعاملة مواطنيه دعى لمعاملة نفسه وجسمه، وما يحيط به من الموجودات، ولما تعلقت حاجاته بمخالطة الأمم والنظر فى الأجرام السماوية والعناصر الأرضية تبينت له الحاجة إلى نظام عام شامل من الأخلاق والآداب يستهدى به فى كل الضروب من المعاملات التى تدعوه إليها حياته وارتقاؤه.

وقد كفل الإسلام إقامة صرح هذا النظام الخلق العام على أقوى أساس من العلم والعمل حتى لا يتطرق الوهن إلى بنية جماعته من أية ناحية من النواحى وحتى يصلح شطره المادى لحماية شطره الروحانى ، فلا يكون عرضة فى كل دور من أدوار الاجتماع لأفاعيل الانقلابات الفكرية والتطورات النفسية . فقرر للإنسان حيال كل مايعرض له أخلاقا وآدابا . فما جعله منها مع نفسه أن لا يهينها ولا يعرضها للأمراض النفسانية وأن يعمل على السمو بها إلى أعلى درجات الطهر والنبل ، وبما سنه له منها مع عقله أن يغذيه بالمعارف الحقة وأن يوسع من دائرة تجاربه إلى أقصى حد يمكنه الوصول إليه ، وبما فرضه عليه منها مع جسده أن يكرمه بالنظافة وأن لا يرهقه فى عمل سواء أكان دنيويا أم دينيا ، وأن يلتمس له الصحة من كل مظانها وآفاقها وبما أوجبه عليه مع الكون أن يتدبر آياته ، ويكشف عن مساتيره ، ومع بنى نوع ملته أن يعتبرهم إخواناً وأن ينصفهم من نفسه وأن يعمل لخيرهم جهده ، ومع بنى نوعه أن يحسن إليهم ويبرهم وأن يعدل فيهم حتى لم يستثن من كل ماهداه إليه من أخلاق وما يجب عليه نحو الحيوانات العجم والجامدات الصم .

فهذه المجموعة من الأخلاق يقوم بعضها بعضا ، وهى فى ترابطها وتساندها يتألف منها سياج أدبى يسمح للأمة التى تأخذ به أن تدخل فى جميع ضروب التطورات الاجتماعية والأدبية آمنة من الانحلال والتلاشى . وقد دل تاريخ المسلمين على صدق هذا النظر ، فإن المسلمين فى جميع أدوار قوتهم لم يعترهم ما اعترى الأمم من التراخى فى كيانهم وتراهم فى أشد حالات ضعفهم يستعصون على جميع عوامل الانحلال وهذا الأمر قد أدهش علماء الاجتماع فلا مفاتن المدنية ولا غلبة الاستعمار الأجنبى ولا انتشار الجهالة فى بعض بيئاتهم بقادرة على أن تحل رابطتهم الاجتماعية أو تعدو على حالاتهم النفسية ، بل تجد أضعف جماعة منهم عظيمة الثقة بالمستقبل قوية الإيمان بصلاحيتها لأن تسترد فى يوم من الأيام مجدها الضائع على أكمل وجه .

فهذه القوى المعنوية الضخمة فى أشد الحالات الموجبة لليأس هى أثر ذلك السياج الخلقى المتين الذى برهن فى كل عهد من عهود الانقلاب التاريخية على أنه من قوة الاحتمال بحيث تصطدم به أقوى عوامل التحليل فترتد عنه خاسرة .

لا جرم أن الإسلام أقوى بناء اجتماعى عرفه البشر منذ خلق الله العالم إلى اليوم ؟

عباس طه

ما يقال عن الإسلام

مراجعات إسلامية

للأستاذ عباس محمود العقاد

هذه سلسلة من الكتب المستقلة تصدر باللغة الانجليزية من مطبعة جامعة « أدنبرة » فى موضوعات منوعة من مباحث التاريخ والشريعة ، تشمل فيما تشمله أجزاؤها التى ظهرت حتى الآن والتى ستظهر فى المستقبل القريب أبواباً من الدراسة العلمية عن وجهات الإسلام فى العصر الحاضر وعن الإسلام فى البلاد الإفريقية وراء الصحراء الكبرى ، وعن الإسلام فى الصين ، وعن صفحات التاريخ الإسلامى فى دولة بنى عثمان ودولة المسلمين بالأندلس ، مع الإحاطة بأبواب البحث فى المذاهب الفكرية التى ذهب إليها علماء الإسلام ودعاته ، بين المتصوفة والمتكلمين والمعتزلة والخوارج والظاهرية وغيرهم من أهل السنة والمعتزلة والمتشيعة ، فى العصور المتتابعة .

ولا تخفى عناية القائمين على تأليف هذه السلسلة بالتحقيق العلمى والدقة التاريخية ، ولكنها تدل من جديد على الصلة الوثيقة بين سياسة الدولة فى الغرب وبين دراسات العلماء للمباحث الإسلامية ، ولو كانت خلوا من مقاصد التبشير ومآرب الاستعمار الظاهرة ، فلا تزال دراسة الإسلام غرضاً من أغراض الدول الكبرى التى تستطيع الإنفاق عليها كلما احتاجت إلى كلفة تقصر عنها مقدرة المؤلفين والناشرين طلاب المنفعة التجارية ، ولا يزال الموضوع من موضوعات الدولة فى الغرب على مقدار اتصالها بالسياسة العالمية فى البلاد الشرقية ، ولكنه قد يختلف بالأسلوب والمنهج مع اختلاف أطوار السياسة من جيل إلى جيل .

جاء فى مقدمة الكتاب الأول من هذه السلسلة : « إن نذر الحرب التى كانت فى سنة ١٩٣٩ وشيكة أن تجر إليها شعوباً آسيوية كثيرة قد نبهت المسئولين فى بريطانيا العظمى فجأة إلى قلة المتخصصين عندنا لدراسة اللغات الآسيوية وثقافاتها ، ومن هنا كان تأليف لجنة « سكاربرو » التى كان لتقريرها أثر فى توسيع نطاق الدراسات الشرقية والإفريقية بعد الحرب العالمية فى بريطانيا العظمى ، وتبين من مجرى الحوادث فى العقد الثالث بعد الحرب العالمية أن أفق الاطلاع الذى لا يزال فى اتساع مع الزمن يكشف لنا عن ضرورة العلم بنصيب من المعرفة

يزيد على تلك المعرفة السطحية بما وراء الثقافة الأوربية ، وفي مقدمة ذلك ما حدث من ازدهار بلاد كثيرة نحو الاستقلال بالقارة الإفريقية . وبينها أمم إسلامية أو أمم يحكمها رؤساء مسلمون، تدل مواقفها على ازدياد نصيب العالم الإسلامي من العلاقة بالسياسة الدولية .

فاهتمام السياسيين بالدراسات الإسلامية باق على عهده منذ نشأت هذه الدراسات في القارة الأوربية قبل بضعة قرون ولكنها تتغير بين جيل وجيل ويجوز لنا أن نعتبر هذا التغير نفسه علامة من علامات الزمن في تطور السياسة العالمية .

فالعناية بتمحيص البحث العلمي تدل على انقضاء عهد الاستشراق لنشر دعايات التبشير أو الاستعمار بين شعوب البلاد المحكومة على العموم ، ثم تدل على حاجة الساسة المستعمرين إلى فهم الحقيقة عن المسلمين ، لأنهم لا يسيطرون عليهم اليوم بسلطان القوة التي يتساوى فيها حسن الفهم وسوءه عند من يقبض على زمام القوة الحاكمة بيديه وإنما يحاولون النفاذ إليهم عن علم صحيح بما يشعرون به ويفكرون فيه ، ويضيرهم أن يجهلوا الحقيقة على جليتها قبل أن يضير المسلمين ، بما يمس تاريخهم الصحيح أو شعائرهم المعتقدة .

والكتاب الأول من هذه السلسلة مقصور على البحث العلمي في الفلسفة الإسلامية وما يسميه الأوربيون بعلم اللاهوت عند المسلمين ومؤلفه هو الأستاذ « مونتجومري وات » مدرس اللغة العربية بجامعة أدنبره ، وله مشاركات كثيرة في بحوث التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية غير اللغة وآدابها .

ولا يغيب عن الناظر إلى بحوث الكتاب فرط العناية بتمحيص الوقائع من مصادرها المتشعبة ، فقلما يفوت مؤلفه مصدر من المصادر الشرقية أو الغربية عن علاقة الفلسفة واللاهوت بمذاهب الفرق من قديمها في صدر الإسلام إلى حديثها في هذا القرن الرابع عشر للهجرة وقد عرض - بهذا الاطلاع الواسع - لمذاهب المتكلمين والفقهاء والصوفية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم من المجتهدين والمقلدين جهد ما اتسعت له صفحاته المحدودة في كل جزء من أجزاء السلسلة ، وهي في هذا الجزء لا تزيد على مائتين ، واقترنت تحقيقاته للمذاهب والفرق بتحقيقات مثلها لآراء المجتهدين والأئمة الفقهاء ، ولا سيما الأئمة الذين تبعتهم فرق حديثة كان لها شأن في حكومات البلاد الإسلامية ، كابن تيمية وابن قيم الجوزية ، وبعض فقهاء الشيعة والظاهرية .

وقد يدل على منهج الكتاب كله موضوع واحد من موضوعاته عن المعتزلة ، وهم أوفر الفرق الإسلامية حظا من دراسته واجتهاده .

فالاهتمام بالجانب السياسي ظاهر من سؤاله عن العلاقة السياسية بين آراء المعتزلة وقيام الدولة العباسية بعد الدولة الأموية : هل كان للسياسة شأن في تكوين آراء المعتزلة وتحديد

موقفهم بين الدولتين ؟ وما مبلغ هذا الشأن من الأثر فى أحداث السياسة وفى تدوين التاريخ .

إن خلفاء العباسيين كانوا يختارون لمناصب القضاء أناساً من علماء المعتزلة ، وكان لبعض هؤلاء العلماء علاقة بأبى مسلم الخراسانى قبل التشكيل به على أيدى بنى العباس .

ولكن هذه الحظوة على كثرة ظواهرها لا تدل فى رأى المؤلف على اصطباغ مبادىء المعتزلة بصبغة الدعاية العباسية ولا بصبغة الدعاية للفرق المتشيعة ، وكل ما يثبت منها أن الدولة الأموية قد جمعت على مقاومتها كل داع إلى التجديد فى مسائل الدين والمذاهب الفكرية ، وهذه الجامعة الواسعة هى التى قربت فى دولة العباسيين بين دعاة التشيع ودعاة الاعتزال ودعاة الاجتهاد فى الفقه والشريعة ، ولو كان المجتهدون من أئمة السنة الذين لم يتخذوا لهم منهجاً غير منهج الجماعة .

ويصحح المؤلف أخطاء الأوربيين الذين سبق إلى أوهامهم أن المعتزلة هم فلاسفة الإسلام ، عند ما اتصلت بهم جملة أخبارهم فى مطلع القرن التاسع عشر .

ويأبى المؤلف أن يطلق على المعتزلة لقب فلاسفة الإسلام على الخصوص بمعناه الذى يقابل عند الأوربيين لقب « أحرار الفكر » وهو قريب فى مفهومهم من لقب الزندقة .

فالمعتزل لا ينشر مذهبه ليصبغ الإسلام بصبغة الفلسفة اليونانية أو ليدارى ميوله الفلسفية بصورة من صور الشعائر الإسلامية ، ولكنه - على نقيض ذلك - يدفع بالعقل حجة الفلسفة المنطقية ، ويأخذ السبل على منافذ الطعن فى قواعد الفكر الإسلامى بحجة من حجج المنطق أو الفلسفة ، ولقد يكون المعتزل فى تحرجه من التصرف فى عقيدته على حسب تفكيره أشد محافظة وأصعب مراساً من السنى الذى لم يعتزل الجماعة ، وربما كان خصوم الفلسفة الأجنبية من المعتزلة أكثر عدداً وأمضى سلاحا من خصوم هذه الفلسفة بين المحافظين المتشددين .

وقد كان المعتزلة يحتكمون إلى العقل فى الرد على خصومهم المقلدين كما يحتكمون إليه فى الرد على أشياع الفلسفة الأجنبية ، ولكنهم كانوا دينيين فى تفكيرهم ولم يكونوا فلسفيين متصرفين ، وأكثر ما يبدو ذلك على طبيعة تفكيرهم حين يعرضون لمسألة الصفات ودلالتها على وحدة الذات ، فإنهم عالجوها بالنظرة التقليدية إلى الألفاظ ومعانيها ولم يعالجوها بتفكير الفيلسوف ولا بتصرف الناظر فيما وراء الطبيعة .

ويشك المؤلف فى سبب اطلاق اسم المعتزلة على هذه الطائفة من مفكرى الإسلام فالمشهور أن الإمام حسن البصرى قال عن واصل ابن عطاء : « إنه اعتزلنا » فلصقت كلمة « الاعتزال » بواصل من ذلك الحين ، ولكن المؤلف يذكر قصة كهذه رويت عن قتاده

وعمرو بن عبيد ، ولا يرى وجها لترجيح إحدى القصتين على الأخرى فربما أطلق وصف الاعتزال على العابد الذى يعتزل الصفوف أو على « المحايد » الذى يعتزل القتال وينفرد بين الصفين ، وليس من اللازم أن يكون الاعتزال خروجا على عقيدة الجماعة أو اعتزالا لتقاليد الدين .

ويقسم المؤلف جماعة المعتزلة إلى مدرستين كبيرتين تتفرع عليها سائر المدارس الصغيرة فى البلاد الإسلامية :

إحداهما مدرسة بغداد التى تدين بالإمامة لبشر بن المعتمر ، وأشهر ما اشتهرت به فى مسألة القدر والاختيار قولها : بتولد الأعمال للعبد المكلف ومنه على رأى المؤلف يقتبس الأشعريون قولهم بالكسب مع التقدير .

والمدرسة الأخرى - مدرسة البصرة - يقودها أبو الهذيل ويبرز فيها اسم تلميذه النظام ، ويتوارد فى أقوالها بعض مصطلحات الفلسفة اليونانية كالجوهر والعرض وعلاقة الجوهر الفرد بتركيب المادة

وكلتا المدرستين لم يكن لها أثر فيما يسميه المؤلف باللاهوت الإسلامى ، ولم تبق منهما بقية فى غير مجال الدراسة « الأكاديمية » ، وإنما ظهر من المنسوبين إليهم نخبة من كبار الفقهاء كالقاضى عبد الجبار والزمخشرى وهو خاتمة الفقهاء الكبار فى تاريخ هذه المدرسة التى كان أثرها الأكبر مقصورا على القدرة العلمية فى احتكام المسلم إلى عقله واجتهاده بعلمه ودراسته للخلاص من ربقة التقليد .

وقد توسع مؤلف الكتاب فى شرح تاريخ الخلاف على مسألة خلق القرآن ، وربط بينها وبين مسألة الصفات ومسألة الكلام القديم فى نسبته إلى الله ، ولم يغفل قول القائلين : إن القرآن معرفة الله وإنه قديم أزلى أبدى لأن الله لم يكن ولا يكون بغير معرفة ، ولم يغفل كذلك تفرقة القائلين بالخلق بين كلام الله فى أزليته وكلام الإنسان فيما يلفظه بشفتيه أو يسمعه من المتحدث إليه ، ولم يتخذ له طرفا من الطرفين يجنح إليه أو يميزه برجحان الحجة وصحة التفسير ، ولكنه لزم بين الطرفين خطة الأمانة فى النقل ولم يزد عليها . فإن كان قد زاد من عنده شيئاً فهو سرعة الإصغاء إلى الأقاويل التى لا تستحق الرواية إلا لصرفها بما هى أهل له من الإهمال . ومن ذلك نقله ما كان يشاع عن تحدى ابن المقفع لبلاغة القرآن ، وافتراضه أن القائلين بخلق القرآن قد أرادوا بذلك أن يهونوا أمر الاستقلال بالتشريع عنه ، وأن يجعلوا له منزلة دون منزلة القداسة الأبدية التى تقرنه فى القدم بالصفة الإلهية ، فما من مسلم قال بخلق القرآن وهو يدعو بذلك إلى الشك فى كلام الله وأنه مستحق للطاعة كما يستحقها كل كلام يأتى من عند الله .

عباس محمود العقاد

الكتب

اختلاف الفقهاء وأسبابه

الأستاذ أحمد فتحي بهنسي

عرض وتلخيص : الأستاذ حسن فتح الباب

تمهيد :

إن الإعلان التاريخي لقيام الدولة العربية المتحدة الذى صدر فى السابع عشر من شهر أبريل الماضى هو أول إعلان سياسى ينص على الفلسفة والدين والعلم والأدب والفن ، وهو بهذا النص قد وضع فى أيدى المثقفين والمتخصصين فى هـذه المجالات مسئوليات جديدة لم يضعها فى أيديهم أى إعلان سياسى سابق .

ذلك أن جميع « البروتوكولات » السياسية المألوفة تنص عادة على الالتزامات السياسية والعسكرية فقط ، لكن إعلان الدولة العربية المتحدة قد أضاف إلى هذه العناصر كلها عناصر روحية جديدة فى تقييم السياسة العربية الحديثه .

ويعنينا فى هذا المقام أن نشير إلى أحد تلك العناصر التى تحدث عنها « الإعلان » ونعنى به الدين ، فقد نص صراحة عليه بوصفه أحد المقومات الأساسية للوحدة العربية :

« إن الشعب العربى الذى يعيش فى المنطقة التى نزلت فيها رسالات السماء يؤمن برسالة الدين ويتخذ من القوة الروحية التى تزوده بها الأديان دافعاً للنضال الشعبي لتحقيق ذاته وبلوغ أهدافه ، فيجب أن يثبت فى تقديرنا أن الدين مقوم أساسى من المقومات التى يبنى عليها المجتمع العربى حياته ومستقبله جنبا إلى جنب مع كل المقومات المادية الأخرى التى يحرص عليها الدين ولا يعارضها » .

والواقع أن هذه العبارة من إعلان الدولة العربية المتحدة تعتبر خطا فاصلا بين تاريخين : خطاً فاصلا بين إخضاع الدين لحساب المستغلين ، وبين اكتساب الجماهير للقوة

المعنوية يبعثها الدين فى النفوس تجاه الحق الطبيعى لهذه الجماهير فى الحياة والحرية ، وخطاً فاصلا بين بعض المفاهيم الاشتراكية التى ترى فى الأديان مسكنات على احتمال الظلم ، وبين مفهومنا الاشتراكى الذى يرى فى الدين مقدمة حتمية لكل عناصر القوة الدافعة للعدل الاجتماعى .

وليس ثمة شك فى أن هذه العناصر الروحية التى تدخل الآن فى صميم بنائنا السياسى ، وفى مقدمتها الدين ، تحتاج إلى كثير من التوعية ، ولهذا ارتفع الإعلان الوحدوى بالتوعية إلى درجة القيادة حيث قال :

« إن العمل السياسى ليس فقط هو قيادة الجماهير ، بل هو أيضاً تثبيت لدعائم مجتمعنا على أساس من الديمقراطية والاشتراكية التى تنبعث من واقعنا وأصبحت تعبيراً عن مستقبلنا » .

وهذا العمل الطليعى الذى تقتضيه مرحلة « تثبيت دعائم المجتمع » وإرساء مقوماته الجوهرية ، إنما يقوم على كاهل المثقفين المؤمنين المخلصين لمجتمعهم والذين يشكلون بعملهم هذا جيشا للإعلام ، ومن ثم يبرز دورهم كركن من أركان الإعلام السياسى لقيام الدولة العربية المتحدة ، وهو دور يضع فى أيديهم واجبات قيادية وسياسية تستأهل منهم مضاعفة الجهود المبذولة فى توعية الجماهير .

ولقد كانت التوعية عنصراً هاماً من عناصر التطبيق فى « ميثاق العمل الوطنى » الذى أقره مؤتمر القوى الشعبية بالقاهرة فى شهر مايو سنة ١٩٦٢ . وقد ظهرت آثاره واضحة فى « ميثاق العمل القومى » الذى تضمنه إعلان الوحدة .

ومن هذه الجهود الطليعية التى يقوم بها المثقفون فى الدراسات الدينية للتوعية بحقائق الشريعة الإسلامية فى ضوء البحوث المقارنة ، تلك المؤلفات التى أصدرها الأستاذ أحمد فتحى بهنسى خلال السنوات القليلة الماضية عن الجريمة والعقوبة فى الإسلام ، وكان آخرها كتاب « نظريات فى الفقه الجنائى الإسلامى » الذى صدر فى الشهر الماضى ، وهو دراسة فقهية مقارنة قصد بها المؤلف أن يجمع شتات نصوص فى كتب الفقه متناثرة متباعدة ، ويصوغها على غرار النظريات التى عرفها رجال القانون والفقه ، حتى يتبين لهم أن بين طيات كتب الشريعة الإسلامية أصول هذه النظريات التى يظن البعض أنها من مستحدثات الفقه الغربى وهى فى واقع الأمر أصيلة فى كتب الفقه الإسلامى القديمة ولكنها خافية على الكثيرين .

وقد تناول المؤلف فى كتابه نظريات

الشروع ، والاشتراك ، وتعدد الجرائم والعقوبات ، وتفريد العقاب ، والتقادم . واقتضته طبيعة البحث أن يعرض بالشرح والتحليل لأوجه الخلاف بين آراء الفقهاء في مختلف المذاهب الإسلامية حول المسائل والفروع ، هادفا من ذلك إلى التمهيد لوضع قانون جنائي إسلامي من واقع شريعتنا الغراء ، تستمد أحكامه من نصوص القرآن والأحاديث النبوية وبما أجمع عليه المسلمون في كل زمان ومكان، ومن آراء الفقهاء ، سواء أئمة المذاهب أو غيرهم بما يطابق مصالح الناس في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وفي سبيل التعريف بحقيقة هذا الخلاف في الرأي بين الفقهاء قدم المؤلف لكتابه ببحث قيم مستفيض عن هذا الخلاف وأسبابه .

وفي اعتقادنا أن هذه المقدمة - بما تضمنته من بيان واف وتحليل علمي دقيق وما انتهت إليه من رأي راسخ يقوم على أسس من الفهم العميق لأحكام الفقه الجنائي وظروف نشأته وتطوره - تنهض بذاتها عملا صالحا جديرا بالتنويه والنشر على أوسع نطاق وبين مختلف المستويات تطبيقا لما نص عليه الميثاق الوطني والإعلان التاريخي للوحدة من تجنيد المثقفين للتوعية برسالة عقيدتنا الإسلامية وما قامت عليه من ركائز متينة ثابتة ، حتى إذا أثمرت حملات الإعلام والتوعية انتقلت الجماهير من مرحلة الإيمان الكامن في النفس إلى مرحلة أكثر تقدما تبث في هذا الإيمان روح الفعالية وتضفي عليه حرارة الدفع الثوري وقوة الإرادة والعمل في سبيل التقدم والثقة في شرف الوسيلة ونجاح الغاية .

على أن هذا الإيمان نفسه مشوب في بعض النفوس برواسب قديمة ناجمة عن الجهالة أو السطحية أو الانحراف ، مما يؤكد أهمية التوعية بحقيقة تراثنا الإسلامي دعما لمقومات مجتمعنا العربي الجديد .

ولقد نشأت تلك الرواسب في ظلام الاستعمار العثماني والأوربي الذي جثم على صدر الوطن العربي طوال خمسة قرون ، وكان نشر هذه الجهالات من الأساليب التي استخدمها المخطط الاستعماري لإحكام قبضته على الأمة العربية .

ولا شك في أن أخطر هذه الجهالات هي تلك الفرية التي ألصقها المضللون بالإسلام زورا وبهتانا حين استغلوا الخلافات الفرعية في آراء الفقهاء لإيهام العامة أن الدين الإسلامي شيع ومذاهب ، هادفين من ذلك إلى القضاء على وحدة الأمة العربية بتمزيقها وتفتيتها من الداخل من طريق خلق الصراع المذهبي بين أبناء الشريعة الواحدة حتى يقوم بينهم من ألوان التناقض ما يذكي أوار الصراع ويشغلهم عن قضية الحرية والعدالة الاجتماعية والوحدة .

ومن ثم تنبع أهمية بحث هذه الخلافات وبيان مضمونها السليم تصحيحا لما استقر فى بعض الأذهان من خطأ، وتوحيداً لأبناء الأمة العربية الإسلامية فى فهم عقيدتهم السمحة وفقاً لمنابعها الحقة وأصولها غير المختلف عليها.

حقيقة الخلاف بين الفقهاء

لا ينصرف لفظ الخلاف بين الفقهاء إلى المدلول المعاصر لهذه الكلمة، ذلك أن الفقهاء لم يكن قد جمعهم مجلس واحد ظهر فيه اختلافهم، وإنما اختلفوا فى فهمهم للنصوص واستنباط الأحكام منها متأثرين فى ذلك بالعوامل المحيطة بهم.

وقد كان السلف يكرهون لفظ الاختلاف ويقولون إنما ذلك توسعة خوفا أن يفهم أحد من العامة من الاختلاف خلاف المراد وذلك لأن أصل الشريعة وما تقوم عليه ليس محل خلاف بين المسلمين جميعا على تعدد فرقهم. فأصل الشريعة هو الكتاب والسنة بالاتفاق، والخلاف بين الفقهاء إنما هو خلاف فى أدلة الأحكام، وهل هى دالة على حكم الله أو غير دالة عليه أو أنها مبينة لما أنزل الله أو ليست مبينة له.

وقد أثرت عن الإمام أبى حنيفة وسفيان الثورى وابن عبد البر والقرافى وغيرهم من الأعلام أقوال كثيرة فى هذا المعنى.

الظروف التاريخية لهذا الخلاف :

لما تفرق الصحابة فى البلاد وصار كل واحد إمام ناحية من النواحى، جدت وقائع ومسائل لم يعرف أنه ورد عنها أحكام شرعية من قبل فاستفتوا فيها، فأجاب كل منهم حسب ما حفظه أو استنبطه، وإن لم يجد فى ذلك ما يصلح للجواب اجتهد برأيه، وعرف العلة التى أدار رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم عليها فأفتى بحكمه حيثما وجدها لا يألو جهدا فى موافقة قصده عليه الصلاة والسلام. ومن هنا نشأ الخلاف بينهم.

فربما سمع صحابى حكما فى قضية أو فتوى ولم يسمعه الآخر، فاجتهد فيه برأيه وهذا على وجوه :

أن يقع اجتهاده موافقا للحديث فلا خلاف.

أو يقع مخالفا ثم يعرف الحديث فيرجع عن رأيه، أو يقع مخالفا للحديث ثم يعرفه ولكنه يطعن فى صحته. أو يقع اجتهاده ولا يصل إليه الحديث عن المسألة أصلا فيصر على اجتهاده، وهكذا تختلف الآراء.

ثم جاء التابعون وكان صنيعهم أن يتمسك الواحد منهم بالسنة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يستدل بأقوال الصحابة. فإذا اختلفت الأحاديث فى مسألة رجعوا إلى أقوال الصحابة، فإن قالوا بنسخ بعضها أو صرفه عن ظاهره، أو لم يصرحوا

بذلك ولكن اتفقوا على تركه وعدم القول بموجبه، فإنه كإبداء علة فيه أو الحكم بنسخه أو تأويله اتبعوهم فى كل ذلك.

ولما جاء تابعو التابعين من طبقات المحدثين أخذوا يتبعون أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وآثار الصحابة والتابعين والمجتهدين على قواعد أحكموها فى نفوسهم، وكان عندهم أنه إذا وجد فى المسألة قرآن ناطق فلا يجوز التحول عنه إلى غيره، وإذا كان القرآن محتملا لوجوه فالسنة توضح المراد. فإذا لم يجدوا الحكم فى كتاب الله، أخذوا بسنة رسوله، سواء كان الحديث مستفيضا ودائرا بين الفقهاء أو كان مختصا بأهل بلد أو بطريق خاصة، وسواء عمل به الصحابة والفقهاء أو لم يعملوا به، ومتى كان فى المسألة حديث فلا يتبع فى خلافه أثر من الآثار ولا اجتهاد أحد من المجتهدين. فإذا أفرغوا جهدهم فى تتبع الأحاديث ولم يجدوا فى المسألة حديثا أخذوا بأقوال جماعة من الصحابة والتابعين، ولا يتقيدون بقوم دون قوم ولا بلد دون بلد كما كان يفعل من قبلهم. فإن اتفق جمهور الخلفاء والفقهاء على شىء فهو المتبع، وإن اختلفوا أخذوا بحديث أعلمهم وأورعهم، فإن وجدوا شيئا يستوى فيه قولان فهى مسألة ذات قولين. فإن عجزوا عن ذلك تأملوا فى عمومات الكتاب والسنة وإيماءاتها واقتضاءاتها، وحملوا نظير المسألة عليها فى الجواب إذا كانتا متقاربتين فى المعنى.

كذلك كان أئمة المذاهب يقدمون العمل بالكتاب والسنة ثم بعمل الصحابة المتفق عليه.

أسباب الخلاف:

أولا: اللغـــة:

فمن المعروف أن اللغة العربية من اللغات الحية بعيدة المعانى والمرامى تشترك فيها الألفاظ والمبانى، وقد تكون هذه الألفاظ مجازية أو حقيقية، فضلا عن غرابة بعضها مثل لفظ المزابنة والمحاقلة والمنابذة وما إلى ذلك من الكلمات التى يختلف العلماء فى تفسيرها وتفصيل ذلك:

١ — اشتراك الألفاظ:

قال تعالى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا» إلى آخر الآية.

فذهب قوم إلى أن كلمة «أو» هنا للتخيير وذهب آخرون إلى أنها للتفصيل والتعيين، ومن ثم اختلف الرأى حول العقوبة التى يوقعها الحاكم على قاطع السبيل.

كذلك اختلفوا فى نفى قاطع الطريق، باختلاف مدلول هذه الكلمة عندهم، فالنفى فى أحد الآراء هو الإبعاد من بلاد المسلمين إلى بلاد غيرهم، وفى رأى آخر هو الإخراج

من مدينة إلى أخرى ، وفي رأى ثالث أنه الحبس ، وفى رأى رابع أنه طلب قاطع الطريق لإقامة الحدود عليه ثم إبعاده .

٢ — الحقيقة والمجاز :

قد يكون اللفظ مترددا بين الحقيقة والمجاز فيحمله الفقيه على الأقرب عنده وإن كان المراد هو الآخر ، كما حمل جماعة من الصحابة فى أول الأمر الخيط الأبيض والخيط الأسود على الحقيقة حتى أرشدهم الرسول إلى المعنى المراد .

٣ — الإفراد والتركيب أو الإجمال والتفصيل :

قد يكون النص كافيا بمفرده على وجوب الحكم ، وقد يرد غير مستوف للغرض منه ويرد تمامه فى آية أخرى . كذلك قد ترد الآية مجملة ثم يفسرها الحديث .

ووجه الخلاف العارض من هذا النوع أنه ربما أخذ بعض الفقهاء بمفرد الآية أو الحديث واستخدام آخر طريق القياس بالجمع بين الآيات المتفرقة وبين الأحاديث المتغايرة وبناء بعضها على بعض ، الأمر الذى يفضى إلى الاختلاف فيما يستنبط من أحكام . ومثال ذلك الاختلاف فى سبب تحريم الخمر .

٤ — العام والخاص :

ورد حد السارق والسارقة بقطع اليد عاما فى القرآن لم يقيد بقيد ، وقد تولى رسول الله فى أحاديثه المختلفة تفصيل هذا الحكم ، كبيان المراد بقطع اليد ونصاب القطع والإعفاء منه .

كذلك كان المعنى اللغوى للفظ الخمر مثاراً لتفرق الفقهاء إلى مدرستين ، هما مدرسة أهل الحجاز التى تسمى الأنبذة بأجمعها خمراً ، وتقول : إن الأنبذة المسكرة محرمة كثيرها وقليلها ، وتذهب مدرسة أهل العراق إلى أن المحرم من غير الخمر هو المسكر فقط ، وذلك لأن المدرسة الأولى تقول إن الخمر سميت كذلك لمخامرتها العقل فوجب أن ينصرف اسم الخمر على كل ما خامر العقل ، أما أصحاب المدرسة الثانية فيقولون : إن الخمر - لغة - اسم للنيء من ماء العنب المسكر وتسمية غيرها خمراً مجاز ، وإنها سميت خمراً لا لمخامرتها العقل بل لتخمرها .

ثانياً : رواية الحديث :

إن الحديث المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين لم تعرض له علل مختلفة تضعفه وتجعله موضعاً للخلاف بين الفقهاء ، ويوضح ذلك كله علم علم مصطلح الحديث الذى يبحث عن تقسيم الخبر إلى صحيح وحسن وضعيف وتقسيم كل من هذه الثلاثة إلى أنواع ، وبيان الشروط المطلوبة فى الراوى والمروى وما يدخل الأخبار من علل واضطراب وشذوذ إلى غير ذلك .

وأهم تلك العلل عدم اعتقاد الفقيه أن النبي صلى عليه وسلم قال الحديث ، أو عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول ، أو اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

ومن هذه العلل تتفرع الأسباب الآتية :

١ — فساد الإسناد أي نسبة الحديث إلى قائله :

٢ — نقل الحديث بمعناه دون لفظه .

٣ — الجهل بالإعراب ومبانى كلام العرب ومجازاتها مما يؤدى إلى الخلاف فى المعنى .

٤ — التصحيف أى الخطأ والتحريف .

٥ — إسقاط شىء من الحديث لا يتم المعنى إلا به .

٦ — نقل الحديث دون السبب الموجب له فيعرض من ذلك إشكال فى الحديث أو معارضته لحديث آخر .

٧ — سماع المحدث بعض الحديث دون بعض .

٨ — عدم بلوغ بعض الأحاديث إلى علماء التابعين ممن وكل إليهم الفتوى ، فاجتهدوا بآرائهم واتبعوا العمومات واقتدوا بمن قضى من الصحابة ، فأفتوا حسب ذلك ، ثم ظهرت الاحاديث بعد ذلك فى الطبقة الثالثة فلم يعلموا بها ظنا منهم أنها تخالف عمل أهل مدينتهم . ذلك لأن الإحاطة الكاملة بجميع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن لأحد بمفرده من الصحابة أو الأئمة من بعدهم ، فقد كان يحدث أو يقضى أو يفعل الشىء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً ثم يبلغه أولئك الحضور أو بعضهم إلى غيرهم .

٩ — ما يراه الجمهور من أن السنة متى صحت كانت صالحة لأن تكون بيانا للكتاب سواء فى ذلك المتواتر منها والمشهور والصحيح ، فى حين يرى آخرون أن المشهور لا يعدو أن يكون خبر آحاد لا يفيد إلا الظن ، فلا يصح أن يكون حاكما على ما يفيد القطع وهو الكتاب . ويظهر هذا الاختلاف فيما ذهب إليه الفقهاء من آراء متباينة فى عقوبة جريمة الزنا للمحصن وغير المحصن .

١٠ — اعتقاد الفقيه ضعف الحديث باجتهاد قد خالفه فيه غيره مع قطع النظر عن طريق آخر سواء كان الصواب معه أو مع غيره أو معهما عند من يقول كل مجتهد مصيب .

١١ — اشتراط الفقيه فى خبر الواحد العدل الحافظ شروطاً يخالفه فيها غيره ، مثل اشتراط بعضهم عرض الحديث على الكتاب والسنة ، واشتراط بعضهم أن يكون المحدث فقيها إذا خالف قياس الأصول ، واشتراط البعض الآخر انتشار الحديث وظهوره إذا كان فيما تعم فيه البلوى .

١٢ ــ أن يكون الحديث قد بلغ الفقيه وثبت عنده ولكنه نسيه . ومثال هذا الحديث المشهور عن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن الرجل يجنب فى السفر فلا يجد الماء فقال : « لا يصلى حتى يجد الماء . فقال له عمار : يا أمير المؤمنين أما تذكر إذ كنت أنا وأنت فى الإبل فاجنبنا فأما أنا فتمرغت كما تمرغ الدابة ، وأما أنت فلم تصل ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : إنما يكفيك هكذا ، وضرب بيديه الأرض فسح بهما وجهه وكفيه . فقال له عمر : اتق الله يا عمار ، فقال : إن شئت لم أحدث به . فقال : بل نوليك من ذلك ما توليت » . فهذه سنة شهدها عمر ثم نسيها حتى أفتى بخلافها ، وذكره عمار فلم يذكر وهو لم يكذب عمار بل أباح له أن يحدث به .

١٣ ــ معارضة الحديث بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما لا يعتقد غيره أو جنسه معارضاً أو لا يكون فى الحقيقة معارضاً راجحا كمعارضة كثير من الكوفيين الحديث الصحيح بظاهر القرآن واعتقادهم أن ظاهر القرآن من العموم ونحوه مقدم على نص الحديث .

ثالثاً . تغيير الزمن واختلاف البيئة :

جاء فى رسالة ابن القيم الجوزية بصدد الكلام فى تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأمكنة والأزمنة والأحوال والنيات والعوائد :

« إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها . فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل . فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه ، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها » .

ومن أشهر المقولات فى اختلاف آراء الفقهاء باختلاف الزمن والبيئة رسالة الإمام الليث بن سعد فقيه مصر وعالمها إلى الإمام مالك إمام دار الهجرة حين كتب إليه بما بلغه من فتواه من بعض المسائل بما يخالف ما عليه العمل بالمدينة المنورة .

ومن ذلك أيضاً أن عمر بن عبد العزيز كان يقضى وهو بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فلما صار إلى الشام نراه يقول : إنا كنا نقضى بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا نقضى إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين .

تحريم اتخاذ الخلاف ذريعة للاحتيال على الشرع :

يحرم أن يتخذ الخلاف بين الفقهاء أساسا لحيل يحتال بها الإنسان على الشرع حتى ينجو من العقاب .

ومن هذه الحيل الباطلة التى فتحت الباب للسراق واللصوص والتى لو صحت لم تقطع يد سارق أبدا : أن ينقب لص السطح ولا يدخل ثم يدخل شريكه فيخرج الثانى المتاع من السطح ، ومنها أن يدعى السارق أن المسروق ملكه ، أو يدعى أن رب الدار أدخله داره وفتح له الباب ، فيسقط عنه حد قطع اليد وإن كذبه ، إلى أمثال ذلك من الأقوال التى حقيقتها أنه لا يجب القطع على سارق البتة . مما دعا ابن القيم إلى أن يقول :

« فكل هذه حيل باطلة لا تسقط القطع ، ولا تثير أدنى شبهة . ومحال أن تأتى شريعة بإسقاط عقوبة هذه الجريمة ، فإن الشرائع مبنية على مصالح العباد ، وفى هذه الحيل أعظم الفساد » .

ويرى مخالفو ابن القيم أن هذه الأمور قد توجد شبهة فى الحد ، والقاعدة العامة أن الحدود تدرأ بالشبهات .

وكان هذا داعيا البعض ، ومنهم ابن حزم ، إلى أن يطعن فى صحة حديث « اختلاف أمتى رحمة » . ويقول : وهذا من أفسد قول يكون ، لأنه لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطا ، وهذا ما لا يقوله مسلم ، لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف ، وليس إلا رحمة أو سخط .

كما قال ابن حزم : إن معنى الخطأ الوارد فى حديث : « إذا اجتهد الحاكم وأخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » . أن المراد بالخطأ هنا هو خطأ المجتهد فى عدم مصادفة الدليل فى تلك المسألة لا الخطأ الذى يخرج به عن الشريعة فلا أجر له لقوله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » .

وقد دخل هرون الرشيد على الإمام مالك رضى الله عنه فقال له : دعنى أبا عبد الله أفرق هذه الكتب التى ألفتها وأنشرها فى بلاد الإسلام وأحمل عليها الأمة . فقال له : يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة ، فكل يتبع ما صح دليله عنده وكل على هدى ، وكل يريد الله .

وكان الإمام مالك يقول : كثيرا ما شاورنى هرون الرشيد أن يعلق كتاب الموطأ فى الكعبة ويحمل الناس على ما فيه . فقلت له : لا تفعل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلفوا فى الفروع وتفرقوا فى البلاد وكل مصيب فقال : زادك الله توفيقا يا أبا عبد الله .

(البقية على صفحة ٣٨٤)

أنباء وآراء

اللجنة الدينية السلفية :

بحمد الله وتوفيقه تم فى الاجتماع العام الذى عقد فى كلية أصول الدين بتاريخ ١١ من ربيع الأول سنة ١٣٨٣ ﻫ الموافق أول أغسطس سنة ١٩٦٣م تأليف لجنة تسمى اللجنة الدينية السلفية وهى على استعداد لتقبل جميع المسائل المتعلقة بالشئون الإسلامية لبحثها والرد عليها بما يتفق وأصول الدين الإسلامى الحنيف.

كما أنها على أتم استعداد لعقد صلات الإخاء الإسلامى مع جميع الهيئات والأفراد الذين يهمهم أمر الإسلام ونشر هديه القويم. أما شعار هذه الجمعية فهو قوله تعالى : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله ... » .

كلية أصول الدين

بيان حول إنشاء بنك لبن الأمهات :

اجتمعت اللجنة الدينية السلفية بكلية أصول الدين لبحث حكم الشريعة الإسلامية فيما أثير حول إنشاء بنك الأمهات بحيث يجمع فيه لبن الآدميات بعد تجفيفه وتحويله بطرق علمية إلى مسحوق أو قوالب مجمدة.

وبعد أن استعرضت أقوال الأئمة والفقهاء والمجتهدين التى تتصل بالرضاعة ولبنها استخلصت منها أن المشرعين الإسلاميين الأوائل قد أجمعوا على أن وصول اللبن إلى محل التغذية ناشر الحرمة كالنسب. وقد نقل هذا الإجماع الإمام « ابن عرفة » .

وقد شذ عن هــذا الإجماع الإمام « ابن حزم » الذى جعل مص الثدى شرطا فى الحرمة ولا معول على رأى ابن حزم هذا فى تشريع أو إفتاء بعد أن ثبت مخالفته للإجماع. وعلى أى حال فإنه مما لا شك فيه أن جمهرة العلماء : السابقين منهم واللاحقين يخالفون ابن حزم فى رأيه ومن أجل ذلك كان مشروع إنشاء البنك المذكور لتغذية أطفال الأمهات العاجزات عن الرضاعة الطبيعية أو الأطفال الذين حرموا لبن أمهاتهم بحكم ظروفهن الخاصة ناشراً للحرمة وغير متفق مع الأوضاع الدينية إذ أن من المؤكد أن فيه تشكيكا لكل مؤمن من حيث الزواج بل وصرفا عنه إذا أراد أن يحتاط لدينه ولإسلامه.

هذا فضلا عما فيه من امتهان لآدمية الأمومة وإنسانيتها إذ يجعلها تستغل كما تستغل البهيمة لإدرار اللبن .

ثم إن إنشاء هذا البنك بدعة لا ضرورة تستوجبها بعد أن أصبح للأطفال غنية فى الألبان المجففة التى تحمل معظم خصائص لبن الأمهات .

فليس هناك إذن ضرورة حتمية تقتضى إنشاء هذا البنك ، وبذا أصبحت الدعوة إلى إقامته دعوة لا هدف لها إلا الإثارة والتشكيك .

واللجنة تهيب بالمواطنين ألا يخدعوا بفتاوى الذين يتبعون الأقوال المريضة أو الأحكام الشاذة حتى يكونوا على بينة من أحكام الدين الصحيحة

والذى حدا باللجنة إلى إصدار هذا البيان أن الشارع الحكيم أحاط العلاقة الزوجية بسياج من العناية والحفاظ عليها ، فالإقدام على انتهاكها والخروج بها عن وضعها بالتشكيك فيها إقدام على انتهاك حرمة الدين ، وتعد لحدود الله « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » .

وفق الله العاملين لما فيه صلاح الأمة الإسلامية والله المعين وهو الهادى إلى سواء السبيل .

عن اللجنة : الدكتور عبد الحليم محمود

تعليقات :

١ — النبى صلى الله عليه وسلم أمى لا يقرأ ولا يكتب وأميته هى أساس معجزته وعظمته .

جاء بجريدة الأخبار مقال بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٩٦٣ للأستاذ العقاد تحت عنوان « قنبلة على تل » ألقاها العالم الأثرى هنرى فرعون اللبنانى فى الدوائر الإسلامية ببيروت عند ما أعلن أن لديه وثيقة مكتوبة بخط النبى عليه الصلاة والسلام وقد صرح الدكتور عبد الحفيظ القاضى من كبار رجال الدين الإسلامى بأن المسلمين يعرفون أن سيدنا محمداً عليه الصلاة والسلام كان أمياً وكان يستخدم خاتما بدل التوقيع . فيشك فى هذه الوثيقة . وإذا ثبت أنها صحيحة فسوف تكون بدون شك أكبر اكتشاف دينى أدبى فى التاريخ . والأخبار تقول: إن الوثيقة تحمل دليل كذبها فالخطاب مرسل من النبى عليه الصلاة والسلام إلى الملك الفارسى قورش وهذا الملك كان قبل النبى عليه الصلاة والسلام بزمن طويل . وإذا كان الدكتور يشك فنحن نجزم بأن الخبر كاذب قطعا إذ هو صادر أولا من خبر آحادى . فالخبر إذا لا يحتاج إلى الاهتمام فأمية النبى عليه الصلاة والسلام أثبت من الجبال إذ هى على

أساس الخبر القطعي قال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وفي مقدمتهم المفسرون والمؤرخون يعرفون أن النبي عليه الصلاة والسلام أمي أي أنه لا يقرأ ولا يكتب ولفظة الأمي نسبة إلى الأم لأنها كانت عند العرب لا تعرف القراءة ولا الكتابة فنسب إليها دون الرجل . وإما أن هذه اللفظة نسبة إلى الأم فابتكار يدل على سعة الاطلاع ويشكر عليه صاحبه ولا غرابة فهو نسيج وحده وهو يريد الدفاع .

٢ — كتب الأستاذ منصور رجب في مجلة منبر الإسلام مقالا في ترجمة صهيب واعتبرها حديثا واعتمد على المصدر الذي نقل منه وهي السباق أربعة وعد منهم صهيبا ، فنبه المناوي عليه بأنه حديث باطل فهل أستاذ الكلية يتفضل بتصحيحه على طريقة علماء الجرح والتعديل ، والأولى بأمثاله أن يكون محققا في مجلة دينية تعتبر حجة لأن على رأسها وزيراً عالما وله ضلع في الفلسفة والاجتماع . وكتب أيضا الأستاذ محمد سلام جملة من كلام المتصوفة وجعلها حديثا وهي « من عرف نفسه عرف ربه » ، والدكتور طبانة كتب في كتابه البيان جملة اعتبرها حديثا وهي « أنا أفصح من نطق بالضاد » ، وهذه ليست بحديث وذكر حديثا آخر في حق معاوية الحساب ، ففي أي مصدر رأى هذا الحديث وهو « اللهم فقهه وعلمه » وهؤلاء الأعلام يتساهلون في الحديث ويذيعونه وفي إمكانهم التصحيح ومراجعة المظان ولكنهم يتابعون غيرهم ممن ليس لهم دراية بهذا الفن ولا يعزب عنهم حديث « من روى عني حديثا يرى بأنه كذب فليتبوأ مقعده من النار » فالأمر ليس بهين فتنبهوا ؟

سيد علي الطوبجي

اقتراح حول كتابة المصحف :

السيد الأستاذ الفاضل رئيس تحرير مجلة الأزهر .

تحية طيبة مباركة — وبعد — فقد قرأت في مجلة العربي بالعدد ٥٦ الصادر في يوليو سنة ١٩٦٣ في باب (أنت تسأل ونحن نجيب) كلمة من السيد / علي صالح إبراهيم — بالكويت تحت عنوان : أولادنا الحائرون بين قواعد الإملاء وشاشة التليفزيون .

جاء فيها : إن التليفزيون يستهل برامجه اليومية بتلاوة بعض آيات الذكر الحكيم . ولكن هذه الآيات تظهر على الشاشة أثناء تلاوتها مكتوبة على صورة غير مألوفة

للشاهدين وبخاصة أولئك الصغار الذين يتلقون العلم فى مراحله الأولى : ابتدائية أو متوسطة أو ثانوية ، لأنها فضلا عن رسمها بطريقة تخالف نطقها كما يسمعونه فى (المكرفون) تتناقض أيضاً مع ما تلقوه فى مدارسهم من قواعد الإملاء والإعراب . ويسأل لماذا لا تعمل محطة التليفزيون على كتابة ما تذيع من آيات الله البينات ، بالصورة التى تتفق مع قواعد الإملاء الصحيحة حتى لا تتبلبل أذهان هذه الآلاف المؤلفة من الصغار ويقعوا فى حيرة لا تقوى عقولهم الغضة على مقاومة ما تخلفه من الآثار .

ولقد جاء فى تعقيب (مجلة العربى) على هذه الشكوى قولها : ليست هذه المشكلة بنت اليوم ولا هى بالشىء الجديد . وليس للتليفزيون يد فيها من قريب أو من بعيد .. فكل ما فعله التليفزيون هو أنه نقل على شاشته ما يتلى من آى القرآن برسمه المثبت فى (المصحف الإمام) مصحف عثمان ، ففتح على هذه المشكلة القديمة عيونا كانت عنها غافلة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا من الزمان فهى قبل أن تواجه طلبة المدارس فى هذا العصر على شاشة التليفزيون قد واجهت كل من كان يرغب فى تلاوة القرآن فى المصاحف ، فإذا به يصطدم بمئات من الكلمات قد كتبت بصورة يعجز معها عن قراءتها على وجهها الصحيح فيلحن فيها تارة ، ويتجاوزها إلى غيرها تارة أخرى وقد تملكته نفس الحيرة التى تتملك الآلاف من طلبة المدارس أمام شاشة التليفزيون هذه الأيام . فكيف يستطيع من تلقى أبسط مبادىء الهجاء والإملاء أن يقرأ (الصرط) المستقيم أو (الضلل) المبين أو (الشيطن) الرجيم ، أو (الصلوة) أو (الزكوة) (الربوا) (والظلمت) و (الصوعق) . وغيرها من هذه الكلمات التى تعد فى المصحف بالمئات .

ثم جاء فى تعقيب (المجلة) أيضا : ولقد تلقينا من الأستاذ محمد أحمد السنباطى رئيس قسم فحص المصاحف بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر تعقيبا على الموضوع ، وأرفق برسالته نص قرار لجنة الفتوى بالأزهر فى هذا الشأن .

ولقد أورد فى هذا التعقيب من الآراء السديدة المدعمة بالحجج ما أيد به الإبقاء على الكتابة بالرسم العثمانى ولكن محرر مجلة العربى لم يلتفت للحجج المدعمة التى ساقها الأستاذ السنباطى كما أخبر سيادته المجلة بذلك ، تلك الحجج التى أيدها قرار لجنة الفتوى بالأزهر وهى هيئة مسئولة وذات اختصاص بهذا ، وكتب محرر العربى يقول : ـ إننا مع احترامنا لرأى لجنة الفتوى بالأزهر ـ نعتقد فى نزاهة

وإخلاص وصدق إيمان أن كتابة القرآن وفق قواعد الإملاء لا تمس قداسته وليس فيها خروج على إجماع الأمة بل هى على العكس تيسر قراءته وتزيد المسلمين إقبالا عليه وتفهما له ، ولذا نطالب محطات التليفزيون بالإسراع فى اتخاذ هذه الخطوة بكتابة ما يتلى من كتاب الله على الشاشة وفق قواعد الإملاء منعاً لبلبلة الأذهان دون مبرر مشروع .

السيد رئيس التحرير :

بعد قراءتى لما تقدم ونظراً لما لهذه المشكلة من مساس بإجماع المسلمين وأبناء المسلمين وما فيها من وضع حساس جداً حول (كتاب الله الكريم) ونشر اختلاف وجهات النظر حول هذا الموضوع فى مجلة كبيرة متداولة فى بلدان عربية كثيرة وما يجلب هذا من بلبلة للخواطر والأفكار .

لذا بادرت بكتابة هذا لسيادتكم متقدما باقتراح مواطن مسلم دفعته الغيرة لدين الله ورائدى التقدم به ابتغاء مرضاة الله وصالح المسلمين — وأعتقد أن الأخذ بهذا الاقتراح بعد عرضه ودراسته من المختصين — يقر رأى إدارة الفتوى الموقرة ، فى عدم المساس بأى تعديل فى رسم حروف « كتاب الله الكريم » والذى نؤيده من كل قلوبنا ونشكرها عليه — وكذا يحقق الغاية التى يرنو إليها أبناء المسلمين فى الشكوى المشار إليها دون أى مساس بكتاب الله الكريم ويقطع الطريق على ما يلوح فى هذه المشكلة من بلبلة للخواطر والأفكار .

والاقتراح هو :

أن يصرح المسئولون بوضع علامة أو رقم صغير فوق كل كلمة من الكلمات المغاير رسمها المألوف لقواعد الإملاء ثم يأتى فى نهاية الصفحة أو بالهامش بالرسم الإملائى الحالى لها وأن يشار إلى ذلك فى الصفحات الأولى من التعريف بالعلامات .

وأعتقد أن فى هذا تيسيراً للقراءة ونكون بهذا قد حققنا الرغبتين وحللنا المشكلة ، والله الموفق لما فيه الخير والرشاد .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

محمد صادق إبراهيم

رد على التعليق على مقال الإسلام فى زنجبار :

نشرت المجلة فى عدد ربيع الأول من هذه السنة ملاحظات للسيد رئيس جمعية نشر الثقافة الإسلامية بزنجبار على المقال المذكور لا يهمنى منها ما يتصل بالوقائع والأخبار المجردة ، فقد أخذتها عن مصادر هى كغيرها يجوز عليها الخطأ الذى لا حرج فى قبول تصحيحه إذا تحقق .

والذى يهمنى هو كلام سيادته فى تقويم الناحية العلمية والدينية والاجتماعية فى بعض الصور التى وردت فى المقال ، والتى لا ينبغى أن تنفصل عن الصور الأخرى التى سلم بها فى هذه الناحية ، وهو رأى لسيادته دفعت إليه دوافع كريمة لا يلام عليها أى مواطن ولكن - مع تقديرنا لمثل هذه الآراء - لا يجوز أبداً أن نسقط من الحساب ما ورد فى تقارير الخبراء الذين نثق فى كفايتهم ودقة تقديرهم ، وإن كنا نود أن يكون التقدم فى الأيام القليلة الماضية كفيلا بتغيير ملامح الصورة التى رسمتها هـــذه التقارير ، والتى لا ينبغى من ورائها إلا لفت النظر للتعاون على إصلاحها ، شأن كل نقص فى أى بلد إسلامى يربطنا به رباط روحى وثيق .

وإذا كنا هنا فى مصر بلد الأزهر الذى يخرج كل عام مئات من العلماء الأجلاء ، والذى يحج إليه مئات وآلاف من طلاب الثقافة الإسلامية فى العالم كله ، لا نطمئن فى إسناد مهمة الدعوة إلا للنخبة المختارة من هؤلاء العلماء الذين أمضوا سنوات طويلة فى البحث والدرس ، واجتازوا بعد ذلك امتحانات قاسية لتقدير الناحية العلمية والخلقية وذلك لسد الطريق على من يندسون بين صفوف الدعاة من أنصاف المتعلمين المتجرين باسم الدين .

وإذا كنا هنا لا نألوا جهداً فى شن الحملات الواسعة للقضاء على العادات القديمة الباطلة ، والرواسب الأخلاقية والاجتماعية المتخلفة عن عهود الظلم والتخلف - إذا كان الأمر كذلك هنا ، فماذا يكون الأمر فى بلاد أخرى ليس لها من الإمكانيات العلميـة والفنية ما يؤهلها للاضطلاع بمهمة الإصلاح الدينى والاجتماعى ، تلك المهمة التى تحتاج إلى ثقافة أصيلة ، وفهم واع ، وخـبرة فنية واسعة ، وذلك لإظهار الإسلام بصورته المشرقة الوضاءة وإيجابيته البناءة ، لنقضى على مفتريات المستعمرين والمبشرين .

هذا - وأحب من السيد كاتب الملاحظات أن يعاوننى على التعرف على أحوال البلاد الإسلامية ، فيوافينى ببيان واضح عن جمعية نشر الثقافة الإسلامية بزنجبار وصلتها بجمعية الإسماعيليين فى شرق إفريقيا ، وعن نشاطها الدينى والثقافى ، وأشهر أعضائها ومؤهلاتهم العلمية ومراكزهم الاجتماعية ، وكذلك عن كل جمعية ومنظمة إسلامية تسهم فى النشاط الدينى والاجتماعى .

وفى انتظار رد سيادته أرجو لإخواننا فى زنجبار ، والعالم الإسلامى حياة طيبة ومستقبلا سعيداً ، بفضل جهود العلماء المبرزين والقادة المخلصين .

عطية صقر

فتاوى مختارة..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

(الإجابة للجنة الفتوى بالأزهر)

حكم إخراج الزكاة خارج البلد واستعمال الحرير الصناعى فى الإحرام وغيره

السؤال :

١ — عزمت بمشيئة الله تعالى على أداء فريضة الحج هذا العام ، واليوم الذى سأقف فيه بعرفات يوافق اليوم الذى أخرج فيه زكاة مالى فهل يجوز فى هذه الحالة إخراج الزكاة بعرفة . أم أخرجها كالمتبع فى بلدتى ، بعد عودتى من الحج أو قبله بواسطة شخص أمين ، وهل هذا الشخص يكون مسئولا أمام الله ؟ .

٢ — هل يجوز الإحرام بملابس من حرير صناعى أو استعمالها فى الفرش والزينة ؟ .

الجواب :

يجوز صرف زكاة المال إلى فقراء المسلمين فى أية جهة كانوا ، والأفضل أن يصرفها المزكى إلى فقراء مكان المال الذى وجبت فيه الزكاة ، ولا ينقلها إلى بلد آخر إلا إذا كان فى البلد الآخر قريب له محتاج يجوز دفع الزكاة إليه ، أو كان فقير البلد الآخر أحوج .

وكما يجوز للمزكى أن يصرفها بنفسه يجوز أن يوكل عنه غيره فى ذلك .

أما الحرير الصناعى فليس مما حرم لبسه على الرجال من الحرير ، فيجوز استعماله للمحرم وغيره بأى وجه من وجوه الاستعمال فى اللباس والفرش وغيرها .

تحرير عقود الرهن بفائدة وإضافة مبلغ آخر على المبلغ الأصلى كأتعاب واقتسام المبلغ الأصلى مع من حدد له

السؤال :

١ — أشتغل وكيل قضايا ومن أعمالى تحرير عقود رهن بفائدة ، فهل يحرم على تحرير مثل هذه العقود من الوجهة الدينية ؟ .

٢ — يكلفنى البعض بعمل ولا يدفع

لى الأجر المستحق كاملا أو لا يدفعه أصلا ارتكانا على الصداقة فأضطر إزاء هذا لإضافة مبلغ على الرسوم الحقيقية وأحتفظ بالفرق مقابل أتعابى فهل يحرم علىّ هذا ؟

٣ — يكلفنى أحدهم بإنابة محام عنه بمعرفتى وتحت إشرافى وملاحظتى وأقوم من جانبى بجميع الأعمال الكتابية التى تتطلبها القضية وأقتسم المبلغ الذى آخذه بينى وبين المحامى فما حكم هذا ؟

ع . ا . باسكندرية

الجواب :

يحرم على الشخص أن يكتب عقداً فيه ربا ويدخل فى ذلك عقود الرهن بفائدة ، فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لعن آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه .

وعن الثانى بأن أخذ المال على أنه من الرسم فى حين أن الرسم أقل مما يؤخذ حرام لأنه من التدليس والغش .

وعن الثالث بأنه إذا كان يأخذ المال على أنه أجرة للمحامى فقط فى حين أن ما يدفعه أقل من ذلك فهو أيضاً من الغش المحرم ، بخلاف ذلك .

حكم صلاة الجمعة فى غير مسجد

السؤال :

فى بلدتنا منزل خصص كضيفة وأحيانا كخلوة لقراءة القرآن ـ فهل يصح أن تصلى فى هذا المنزل صلاة الجمعة مع ملاحظة أن مذهبنا مالكى ـ هذا وأقرب مسجد لنا يبعد عنا نحو كيلو مترين ؟ .

الجواب :

مذهب الإمام مالك أنه لا تصح صلاة الجمعة فى هذا المكان الذى لم يكن مسجداً ، وعلى أهل هذه الجهة أن يذهبوا إلى المسجد الذى تقام فيه الجمعة ما دام لا يبعد عنهم بأكثر من ثلاثة أميال وثلث ميل ، أى ستة كيلو مترات تقريبا .

هذا وكثير من فقهاء المسلمين كالإمام أبى حنيفة والإمام الشافعى رحمهما الله تعالى لا يشترطون فى صحة صلاة الجمعة أن تقام فى مسجد .

وعلى هذا يجوز لأهل تلك الجهة أن يقلدوا أصحاب هذا المذاهب فيصلوا فى هذا المكان وصلاتهم صحيحة إذا استوفت باقى شرائط الصحة .

حكمة تحريم الخنزير

السؤال :

نص القرآن الكريم على منع أكل الخنزير منعا باتا ... وفى أثناء دراستنا لعلم الحيوان علمت من أساتذتى أن نوعا من الدود يسمى

« الدودة الوحيدة » تعيش فى عضلات الخنزير وهى من الجراثيم الفتاكة التى إذا تسربت لجسم الإنسان فإنها تهلكه على مر الزمن . وبدا لى هذا التفسير مقنعا ولو أنه أتى بصورة عرضية من دراسة علم الحيوان . ومع ذلك فقد تراءى لى الآن أن هذه الدودة وأمثالها من الجراثيم فى جسم الخنزير أصبح من السهولة بمكان قتلها وإبادتها بوسائل العلم الحديث كالتبخير والغلى والتعقيم إلى آخره . الأمر الذى دعانى لأن أستفسر منكم عن الحكمة الدينية وراء تحريم أكل لحم الخنزير فأرجو الإجابة على هذا لأتمكن من إقناع فرد أو جماعة لا تدين بالإسلام .

ابراهيم أباظة
طالب بجامعة ليدز بانجلترا

الجواب

على المسلم الذى يؤمن بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلقى أوامر الله ونواهيه فى كتابه أو على لسان رسوله بالتسليم والقبول وإن لم تظهر له حكمة هذه الأوامر وهذه النواهى ، معتقدا بأن الله حكيم لا يخلق شيئا ولا يشرع شيئا إلا لحكمة وإن لم نصل إليها ، وليس له إذا لم تظهر له الحكمة فى أمر من الأوامر أو فى نهى من النواهى الإباء عن قبول هذا الأمر أو التسليم لهذا النهى فقد قال الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » ، وقال تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » . فإذا كان الإنسان قد وصل بعقله وعلمه إلى معرفة ما فى الخنزير من ضرر فى تناوله ، لما فيه من « الدودة » فليس معنى هذا أن الله إنما حرم الخنزير لهذا الضرر بعينه ، بل يجوز أن يكون فى هذا الحيوان من ضروب الضرر مالم يصل إليه العلماء إلى الآن ، والآية الكريمة حرمت الخنزير مطلقا سواء زالت منه هذه الدودة أم لم تزل ؛ فعلى المؤمن الذى قام عنده البرهان على صدق الرسول وصحة رسالته أن يسلم ويقبل جميع ما جاء فى كتاب الله أو على لسان رسوله ، سواء ظهرت له الحكمة أو لم تظهر .

كفارة اليمين :

السؤال :

أقسمت على كتاب الله الكريم بألا أفعل شيئا معينا يغضب الله ... أى قلت « أقسم بهذا المصحف الشريف بأنى لن أفعل كذا

أبدا ، ولكننى للأسف الشديد نقضت هذا القسم فى نزوة طارئة إذ ارتكبت هذا الإثم الذى عاهدت الله عز وجل على عدم ارتكابه أبدا وعدم العودة إليه .

وعلى أثر ذلك شعرت بضيق شديد ، وتأنيب للضمير متواصل وأريد أن أكفر عن هذا الذنب الجسيم - فما الواجب على عمله حتى أكفر عن ذنبى وأنال رضا ربى ، وأتوب إليه .

ف . ا . أحمد - موظف

الجواب :

يرى علماء الحنابلة وكثير من علماء الحنفية أن الحلف بالمصحف يمين يجب إذا حنث فيه الحالف أن يكفر عنه كما يكفر عن اليمين بالله ، والكفارة كما نص عليها القرآن إطعام عشرة مساكين من أوسط طعام الأهل يغديهم ويعشيهم غداء وعشاء مشبعين ، ويكفى فى ذلك أن يعطى كل فقير قدحا وثلث قدح من القمح أو قيمة ذلك ، أو كسوتهم فإن لم يستطع ذلك فعليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعة : « ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم » .

حرمة زواج البنت بعد وطء أمها حراما :

السؤال :

أحد معارفى يريد أن يتزوج بفتاة سبق له الزنا بأمها ، وسألنى عن ذلك فأخبرته بأن يبتعد عن هذا الزواج حتى أرجع للجنة الفتوى بالأزهر فأرجو توضيح حكم الشرع فى ذلك .

ع . ق - فلسطين

الجواب :

مذهب الإمامين أبى حنيفة وأحمد رحمهما الله تعالى أن هذه البنت لا تحل لهذا الرجل لأن حرمة المصاهرة عندهما كما تثبت بالوطء الحلال تثبت بالوطء الحرام .

أما على مذهب الإمام الشافعى والمعتمد من مذهب الإمام مالك رحمهما الله تعالى فتحل هذه البنت له إذا تمحض وطؤه لأمها للزنا بأن لم يكن بشبهة .

* * *

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : الأستاذ عبد الرحيم فودة

منزلة السنة من الكتاب :

وما ورد فى السنة بالإضافة إلى ما ورد فى الكتاب ثلاثة أنواع :

(ا) ما كان مطابقا لما فيه . فيكون مؤكداً له ، ويكون الحكم مستمداً من مصدرين : القرآن مثبتاً له . والسنة مؤيدة ، ومن ذلك الأحاديث الدالة على وجوب الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والدالة على الشرك ، وشهادة الزور ، وقتل النفس المعصومة وحقوق الوالدين .

(ب) ما كان بياناً للكتاب عملا بقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

والسنة خير مبين للكتاب فقد كان عمر رضى الله عنه يقول : سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن ، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل ، وقيل لمطرف بن عبد الله : لا تحدثون إلا بالقرآن فقال : والله ما نريد بالقرآن بدلا . ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن .

وقال على رضى الله عنه لعبد الله بن عباس حينما بعثه إلى الخوارج : لا تخاصمهم بالقرآن فإنه حمال ذو وجوه ، ولكن حاججهم بالسنة ، فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً ، ولذلك لما استدل الخوارج على كفر مرتكب الكبيرة بظواهر بعض النصوص كقوله تعالى بعد الأمر بالحج : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » لم يجد « على » أبلغ فى الرد عليهم من السنة إذ قال : « وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله ، وقطع يد السارق وجلد الزانى المحصن ثم قسم عليهما من الفىء ، ونكحا المسلمات . فأخذهم رسول الله بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله » .

فللسنة أثر عظيم فى إظهار المراد من الكتاب ، وفى إزالة ما قد يقع فى فهمه من خلاف أو شبهة .

ويكون بيانها للكتاب على ثلاثة أنواع :

١ - تفصيل مجمله ومن ذلك أن الله تعالى أمر بالصلاة فى الكتاب من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها ، فبينت السنة العملية ذلك ، وقال صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » وورد فى الكتاب وجوب الحج من غير بيان لمناسكه فبينت السنة ذلك . وقال صلى الله عليه وسلم : « خـــذوا عنى مناسككم » وورد فيه وجوب الزكاة من غير بيان لما تجب فيه ولا لمقـــدار الواجب ، فبينت السنة كل ذلك .

٢ — تخصيص عامه ، ومن ذلك أن الله تعالى أمر أن يرث الأبناء الآباء على نحو ما بين فى قوله تعالى : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين .. الآية » فكان هذا الحكم عاما فى كل أب مورث . وكل ولد وارث فخصت السنة المورث بغير الأنبياء بقوله صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » وخصت الوارث بغير القاتل بقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يرث القاتل » وبين الله من يحرم التزوج بهن فى آيات المحرمات ، ثم أباح التزوج بمن عداهن فى قوله تعالى : « وأحل لكم ما وراء ذلكم » فخصصت السنة هذا العموم بقوله صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح المرأة على عمتها . ولا على خالتها . ولا على ابنة أخيها . ولا على ابنة أختها . فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

٣ — تقييد مطلقه . كما فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » فإن قطع اليد لم يقيد فى الآية بموضع خاص ، ولكن السنة قيدته بأن يكون من الرسغ ، وقوله تعالى : « وليطوفوا بالبيت العتيق » يوجب الطواف مطلقا ، ولكن السنة الفعلية قيدته بالطهارة ، وقوله تعالى : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » وردت الوصية فيه مطلقة ، فقيدتها السنة بعـــدم الزيادة على الثلث .

(ج) ما كان مشتملا على حكم جديد غير مؤكد لما فى القرآن . ولا مبين له . وقد اختلف العلماء فى هذا .

١ — فقال بعضهم : قد تأتى السنة بما ليس فى الكتاب ، ولذلك أمر الله بطاعة رسوله مع الأمر بطاعته فى كثير من الآيات ، وأقر الرسول « معاذا » إلى الرجوع إلى السنة إذا لم يجد فى الكتاب ما يريد ، وذم من يترك سنته ويتمسك بالكتاب وحده فيما روى المقدام بن معد يكرب عنه صلى الله عليه وسلم : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه .. إلخ » وجاءت السنة بأحكام لم ترد فى الكتاب

كتحريم الخمر الأهلية . وكل ذي ناب من السباع . وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها .

والرسول لا يأتى فى هذا الباب بما يناقض القرآن ، لأنه أعرف الخلق بما يبلغ عن ربه ، وأخبرهم بمقاصد الشريعة بعناية الله تعالى به ، وعصمته من الزيغ ، وتوفيقه إلى الحق ، وتسديده إلى الصواب .

٢ — وقيل إن السنة لا تأتى إلا بما له أصل فى الكتاب ، فإذا كانت مفصلة لمجملة ، أو مخصصة لعامه أو مقيدة لمطلقة فهى موضحة للمراد منه وإذا جاءت بغير ذلك ، فالمقصود منها إما الحاق فرع بأصله الذى خفى إلحاقه به ، وإما إلحاقه بأحد أصلين واضحين يتجاذبانه .

الأستاذ على حسب الله

من كتاب أصول التشريع الإسلامى

سوكارنو والماركسية :

المجتمع الأندونيسى أحد المجتمعات الإسلامية التى تبلغ نسبة المسلمين فيها خمسا وتسعين فى المائة حسب إحصاء رسمى والخمس الباقية موزعة بين المسيحية وغيرها من النحل المختلفة .

ولقد كان لكفاح المسلمين من أبناء هذا الشعب العزيز أثر مذكور ومشكور فعلى أكتافهم ألقيت تبعات التحرر من قيود الاستعمار تدفعه من نصر إلى نصر عقيدة صامدة لا ترضى لمعتنقيها أن يقيموا على ذل أو يصبروا على هوان ، حتى انبلج صبح الظفر عن نهار مشرق وضاء تتهادى فى سمائه شمس الحرية . التى طال انتظارها بين الشوق واللهفة إلى لقائها المرتقب .

والتاريخ والواقع كلاهما يشهد ويحفظ أن أثر الإسلام فى حرب التحرير الأندونيسية كامل عامل النصر الأهم ، وكانت الحركة الاستقلالية قائمة على عواتق العلماء وأبناء الإسلام الذين سجلوا بدمائهم الزكية فى صحائف المجد آيات التضحية وصور الإخلاص لله والوطن إلى أن جاء نصر الله والفتح فزادهم ذلك تشبثا بالإسلام وحفاظا عليه ، ولمسنا ذلك فى أكثر من مناسبة دلت على تعصب هذا الشعب العظيم للإسلام تعصبا عاقلا رجونا أن تكون كل الشعوب المسلمة على نحوه .

هذا هو الشعب الأندونيسى فى علاقته بالإسلام المجيد . الأمر الذى جعلنا نقلب الكفين وقد قرأنا فى الصفحة الأولى من أهرام ٩ / ٧ / ١٩٦٣ بعنوان سوكارنو يؤكد إيمانه بمبادىء مركس » .

« أكد أمس الرئيس الأندونيسى أحمد سوكارنو إيمانه بالمبادىء الماركسية كما تطبق على المجتمع الأندونيسى ، وقال سوكارنو

فى رسالة مكتوبة وجهها إلى الحزب الأندونيسى بمناسبة اجتماعه السنوى السادس والثلاثين أنه بنى مفهومه للماركسية على أساس علمه بظروف أندونيسيا التى تتفق والماركسية ومضى يقول : إنه لمن المؤكد أنى تأثرت فى هذا بالنظرية الماركسية ، وفضلا عن ذلك أحب أن أقر نظرية كارل ماركس عن المادية التاريخية ، وقد وفقت بين هــــذه النظرية وأحوال المجتمع الأندونيسى ووصلت إلى مذهب الماركسية ، .

وهكذا فى جلاء ووضوح يؤكد الرئيس الأندونيسى المسلم إيمانه بالماركسية ، وهكذا يؤدى فريضة الشكر للإسلام والمسلمين فى أندونيسيا .

والمعروف بدهيا أن الماركسية كل لا يتجزأ يقوم على قاعدة إنكار الدين ، بل ومحاربته باعتباره فى نظر الماركسيين - أفيون الشعوب .

الأستاذ يوسف الثالى

من مقال بمجلة الاعتصام

(بقية المنشور على صفحة ٣٧٠)

هل يجوز الانتقال من مذهب إلى مذهب آخر ؟ :

يتبين من دراسة أحوال هذا الانتقال التى فصلها الإمام جلال الدين السيوطى أن المسألة تتعلق بالنية ، فمن حسنت نيته كان له أن ينتقل من مذهب إلى آخر .

* * *

ويخلص المؤلف من هذا البحث الضافى إلى الدعوة إلى تقنين تشريع جنائى إسلامى نأخذ فيه بالأصول العامة للشريعة وبآراء الفقهاء التى تناسب عصرنا من مختلف المذاهب الإسلاميـــة . وليست هذه الدعوة بدعة فى الرأى فقديما نقل الجلال السيوطى رحمه الله عن جماعة كثيرة من العلماء أنهم كانوا يفتون الناس بالمذاهب الأربعة لا سيما من لا يتقيدون بمذهب ، ولا يعرفون قواعده ، ولا نصوصه .

وما أحوجنـــا إلى اقتباس ذلك الرأى فى هذا الزمان .

والقصد من هذه الدعوة هو التيسير على الناس بالأخذ بالقول الذى يناسب العصر فى المسائل والفروع من أى مذهب كان .

ويؤكد المؤلف فى ختام بحثه :

أن الخلاف بين الأئمة والفقهاء فى الرأى وفقا لما تقدم من شواهد وأسانيد - أمر تقتضيه طبيعة الأشياء ، فهو ليس اختلافا فى الأصول ، بل هو تفاوت فى فهم نصوص الفروع .

فنحن اليوم إذا أخذنا ما يناسب العصر الذى نعيش فيه من آراء هؤلاء الفقهاء كنا فى نطاق الشريعة السمحة . ،،

دكتور حسن فتح الباب

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الرابع — السنة الخامسة والثلاثون — جمادى الآخرة سنة ١٣٨٣ هـ - نوفمبر ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش ...

بقلم : أحمد حسن الزيات

كلمة قالها من لا ينطق عن الهوى ولا يقول على الله ولا على نفسه غير الحق . فماذا يقول الكاتب الإنسان بعد هذا القول فى بلاغة هى من صنع الله ؟ وما كان من صنع الله تضيق موازين الناس عن وزنه وتقصر مقاييسهم عن قياسه . فنحن لا ندرك كنهه وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه وإنما نعلم خبره . هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ؟ وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ؟ وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلالة والروعة ؟ .

إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله هو (كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول هو (سنة) هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده .

تجمعت فيه صلوات الله عليه خصائص البلاغة بالفطرة ، وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، فقد ولد فى بنى هاشم ، ونشأ فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد ، وتزوج

من بنى أسد ، وهاجر إلى بنى عمرو وهم الأوس والخزرج ، وهذه القبائل التى تقلب فيها الرسول هى بالإجماع أخلص القبائل لسانا وأفصحها بيانا وأعذبها لهجة ، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة ، ثم تولى الله عز جلاله تأديبه وتهذيبه فكمله برجاحة العقل وسجاحة الخلق وصفاء الحس وقوة الطبع وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومحض السليقة ليكون لسانا لكلمته ومظهرا لنوره ثم أخذ يتصرف فى التجارة على عادة قومه ، فضرب فى الآفاق وتنقل فى الأسواق فرأى المناظر الجديدة ، وسمع المناطق المختلفة ، وحصل المعارف العامة ، والأسفار والأخطار والهجرة بعد توفيق الله تفتق الذهن وترفد العقل وتزيد المعرفة .

ثم كان يخلى ذرعه من صوارف الدنيا الليالى الطوال فيعتكف فى غار حراء ليتعبد ويتأمل ويتجه بروحه الصافى اللطيف إلى الملأ الأعلى ، ثم كان من طبعه أن يديم التفكير ويطيل الصمت ، فإذا تكلم اختصر من اللفظ واقتصر على الحاجة ، وألقى الكلام بينا فصلا يحفظه من جلس إليه ، ولو عده العاد لأحصاه كما قالت السيدة عائشة .

كل أولئك قد مكن للرسول الكريم من ناحية البلاغة ، فأسلست له الألفاظ ، وأسمحت له المعانى ، فلم يند فى لسانه لفظ ، ولم تضطرب فى أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لغة ، ولم ينب عن خاطره فكرة ، حتى كان كلامه كما قال الجاحظ : « هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة وتنزه عن التكلف ... استعمل المبسوط فى موضع البسط والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، وتنزه عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل معنى ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين من فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم » .

لذلك قال وقوله الحق : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد بن بكر » . وقد قال له صاحبه أبو بكر ، لقد طفت فى بلاد العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت

أحسن منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، ومن أولى بذلك كله عن يخاطبه الله تعالى بقوله : « وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » .

* * *

إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز .

فالأصالة ، وهى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حتف أنفه . الآن حمى الوطيس . هدنة على دخن وقوله لحادى النساء : رويدك ، رفقا بالقوارير وقوله فى يوم بدر : هـذا يوم له ما بعده ، ولتمكن الأصالة فى طبعه كان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان وسرا من أسرار اللسان يزيد فى ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور وقوة الذهن وهذه القوى كلها اجتمعت على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه .

على أن الرسول عليه السلام كان يطيل إذا اقتضت الحال ذلك ، فقد روى أبو سعيد الخدرى أنه خطب بعد العصر فقال :

« ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله استخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا مخافة الناس ألا يقول الحق إذا علمه » .

قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف ، فقال :

« إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى »

والمأثور من كلام الرسول خطب وكتب وأحاديث ، وكلها تقسم بالإلهام والإبداع والعبقرية ، وتمتاز بالجزالة والجلالة والسبك ، وهو فى بعضها يستعمل الغريب ويلتزم السجع تبعا لما جرى على ألسنة الوافدين عليه من مختلف القبائل ، من ذلك حديثه مع طهفة بن أبى زهير النهدى ، ومع

لقيط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره .

* * *

وللرسول صلوات الله عليه قدرة معجزة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار وتلك ميزة الرسل من قبل ، لأن المرسلين فى مقام المعلمين ؟ وأنجع ما يكون التعليم إذا كان على طريقة التمثيل والمحاورة ، كقوله عليه السلام : « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » . « إن المؤمن هين لين ، كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن أنيخ على صخرة استناخ » ، « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ، « لو توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا » . « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » ، « إياكم وخضراء الدمن : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . « المرأة كالضلع إن رمت قوامها كسرتها » . « الناس كلهم سواسية كأسنان المشط » . « جنة الرجل داره » .

ومن روائع تشبيهاته عليه السلام قوله : إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فشق رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له : ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا . وإن تركوه هلك وهلكوا .

والسفينة التى ضربها الرسول مثلا هى اليوم دنيا الإســـلام والعروبة تقسمها الإخوة والبنون فى عهود الضعف والانحلال ، فصار لكل منهم وطن ودولة . ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب . فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره . فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجمع ، والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن المفرد . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من ألمعية الذهن وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لزعماء الدول العربية لعلهم يتذكرون فيتدبروا . وهذه هى بلاغة الإلهام والفيض تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر ، وعفو البديهة ، فتكون حكمة الحاضر ونبوة المستقبل .

أحمد حسن الزيات

تفسير الأستاذ الإمام "الشيخ محمد عبده"

للأستاذ عباس محمود العقاد

لكل مقام مقال :

هى حكمة بليغة على هداها عرف الأقدمون البلاغة ووضعوا لها تعريفها الصحيح : وهو مراعاة مقتضى الحال .

ومقتضى الحال هو مقتضى المقام .

وإن الذين يشغلون عقولهم بامتحان صحة البلاغة ، أو صحة فهم الكلام البليغ ، ليبحثوا عن مسبار أفضل من هذا المسبار فيطول بهم البحث ولا ينتهون إلى خير من هذه الحقيقة :

وهى إننا نعرف أن القائل قد فهم معنى ما يدرسه أو يفسره إذا عرفنا أنه فهم مقام القول ، وفهم من ثم مراد القائل وأثر كلامه فى السامع على حسب ذلك المقام .

فإذا كان قد فهم مقام القول حق فهمه فذلك هو الأساس الذى يقام عليه البناء ، أياكان نصيب هذا البناء من المتانة والجمال ، ولا قيمة للبناء المتين الجميل إذا قام على أساس غير سليم .

نقدم هذه الكلمة تمهيدا للتعليق الذى دعانا إليه المقال النفيس الذى كتبه العالم الفاضل الدكتور عثمان أمين فى عدد شهر جمادى الأولى من منبر الإسلام ، وأدار موضوعه على طريقة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم ، وهى فيما نرى أحدث أساليب التفسير وأسدها من الوجهتين الدينية والبلاغية ، وخلاصتها فى كلمات معدودات ، أن الأستاذ الإمام كان أقدر المفسرين المحدثين على فهم كل مقام من مقامات الوحى الشريف ، وذلك مقصد بعيد الأمد فيما يرجع إلى فهم الوحى الإلهى على التخصيص ، وإنما يعينه عليه أنه يدرك وحدة الوحى فى جملته ، كما يدرك مقاماته أو مناسباته فهما منه لموقعه من السامع وللحكمة المقصودة بتوجيه الخطاب إليه .

يقول الدكتور عثمان أمين عما توخاه الأستاذ الإمام من تفسير الكتاب : « إنما الفهم الذى يريده هو ما يكون عن ذوق سليم وما يتبعه من لطف الوجدان ودقة الشعور اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدين ويقتضى ذلك النفاذ إلى روح القرآن والوقوف على معانية ... ومن أجل ذلك نراه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة ... » .

ثم يقول بعد توضيح لهذه الفكرة إن المفسر المصرى « ... ينتهى إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول فى آيات الأحكام ، فإن معرفة الوقائع والحوادث التى نزل فيها الحكم تعين على فهمه وإدراك حكمته وسره ... » .

وفحوى ذلك أن معرفة المقام أو المناسبة هى أساس الهداية إلى مقصد الخطاب وإلى أثر هذا الخطاب فى وجدان السامع ، على حسب المقام » .

وإن أحق الناس أن ينحو فى تفسير الكتاب هذا المنحى هم أولئك الذين يعملون فى التعليم وتقضى عليهم صناعتهم أن ينهجوا فيها على أحدث مناهجه فى افتتاح الدروس وتهيئة أذهان الطلاب لانتظارها وملاحقة الأستاذ المعلم عند مناسباتها ... وقد كان الكتاب الحكيم مثلا فى منهج التعليم كيفما كان موضوع الخطاب وموضع المستمع إليه ، وعلى هذا المنهج يتعلم المفسر كيف يتعلم من القرآن الكريم وكيف يعلمه ويمضى على سننه فى توجيه خطابه إلى مستمعيه ، ولم يغفل أحد عن هذا السنن ممن حاولوا فهم الكتاب بعد عهد الأستاذ الإمام إلا كان تفسيره جهلا بالمقال وجهلا بالمقام فى آن .

والمثل المحدود أجدى من الخوض فى شروح النظريات واختلاف الأقوال فى التعليقات عليها ، فمن أيام قليلة أتيح لنا أن نستمع إلى هذا المثل محدوداً محسوساً فى آيات من الكتاب تصدى لتفسيرها بعض المنقطعين للتعليم ، فوقعوا فى أخطاء كأخطاء أولئك الأقدمين الذين فاتهم حظ العلم بصناعة التعليم على نهجها الأول وعلى نهجها الأخير ، ثم أضافوا إليها أخطاء من قبيلها تدل على ضيق الأفق الذى ينحصر فيه كل من يغفل عن حقيقة المقام وحقيقة المقال فى تفسير الآيات القرآنية ، فإنه ينحصر فى نفسه وينقل شعوره هو إلى مستمع الخطاب لأنه خرج به عن مقامه بالنسبة إلى القائل - جل من قائل - وبالنسبة إلى المستمع الكلام الإلهى ، وقد يكون المستمع نبيا لا محل للشبه بينه وبين المتصدى للتفسير ، وهو لا يفقه من مقتضيات المقام غير شعوره هو يعكسه على كل إنسان وفى كل مناسبة ، وعلى غير مناسبة .

لقد أكثر بعض المفسرين من التعقيب على جواب موسى عليه السلام على سؤال الإله إياه عما بيمينه كما جاء فى سورة طه : « وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ... » .

ومدار تلك التعقيبات جميعاً أن الجواب قد عرض لأشياء لم يتطلبها السؤال ، وهو

أمر إذا صدر من نبي جليل وجب أن يفسره المفسر بما ينفي عنه الغرابة ومخالفة المنتظر في جواب نبي مرسل لخالقه الذي أسلم إليه الرسالة .

والخطأ كله إنما هو خطأ الغافلين عن مقام السؤال ومقام الجواب ، أو عن مناسبة القول التي تفهم منها « ما يناسبه » وما يعتبر اختلافاً بين غرض السؤال وغرض الجواب .

إن موسى عليه السلام قد فهم السؤال على الوجه الوحيد الذي يتقبل فهمه ولا يتقبل غـــيره .

إنه عليه السلام قد فهم قطعاً أن الله جل وعلا لم يسأله عما في يمينه ليعلم شيئاً مجهولا ، حاش لله أن يقع ذلك منه أو أن يقع في خلد عبد من عباده - فضلا عن نبي من أنبيائه - أنه مما يجوز في حق الإله .

فلو أن موسى عليه السلام قال في الجواب « إنها عصا » ، لكان هـذا الجواب أبعد ما يكون عما ينبغي في هذا المقام .

ولكنه أجاب كما ينبغي أن يجيب من هو أهل لاستماع الرسالة الإلهية وإبلاغها إلى عباده وعلم علم اليقين أن السؤال مقصود لتعليمه هو شيئاً يجهله ويزيد على ما يعلمه من حقيقة عصاه ، فوجب أن يقول كل ما يعلم من تلك الحقيقة في انتظار المزيد عليها عما يعلمه الله ويريد أن يعلمه إياه .

وهذا المنهج الإلهي في التعليم هو بعينه ذلك المنهج الذي عاد المعلمون - على أحدث مثال - فقرروه « للتطبيق » في صناعتهم العصرية ، وهم أحرى بمن لا يمارسون هذه الصناعة أن يلتفتوا إليها .

والطريف أن تشترك في هـذه المساجلة سيدة معلمة فلا تعطي المقام حقه ولا تعلل الإطالة في جواب موسى بمقام التعليم الإلهي لنبيه في موضعه ، وإنما يخطر لها ما يدل على انحصار النفس في النفس ولا سيما النفس الأنثوية ، فتقول إنما أطال موسى عليه السلام لأنه أراد أن يتذرع بالإطالة إلى طول الوقوف بين يدي الله !

وجائز أن يكون من أساليب المرأة الخفرة أن تتمحل الأسباب بجواب غير مطلوب للوقوف حيث تريد أن تطيل الوقوف، ولكنه في « مقام » الاستعداد للنهوض بأعباء النذر وأخطار الوعيد ومآزق الصدام بين دعوة الحق ورهبة السلطان شيء لا يقع في الحسبان .

وغير هذا وأمثاله كان فهم الإمام الرازي لوجه السؤال ووجه الجواب حيث قال في تفسيره لهذه الآية :

« ها هنا سؤالات : الأول قوله : وما تلك بيمينك سؤال » .

« والسؤال إنما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال ، فما الفائدة فيه ؟ » .

« والجواب : فيه فوائد ، إحداها أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم : هذا ما هو ؟ .... ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة يقول لهم : خذوا منه كذا وكذا ... فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآية الشريفة ، كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق ، وفى الحجر حتى انفجر منه الماء — عرضه أولا على موسى ، فكأنه قال : يا موسى ! هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك ؟ وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع ، ثم إنه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته .... » .

والفارق بين هذه النظرة من أمثال الإمام الرازى وبين نظرات الناظرين من قبيل من ذكرناهم هو فى الواقع جملة الفوارق الكثيرة بين فهم البلاغة وفهم تراكيب الحروف والألفاظ ، ويجمعها هذا الفارق الجوهرى الواحد وهو « مقام القول » .

فالمفسر الذى ينتبه إلى مقام القول يفقه مدلول السؤال كيفما كانت عبارته وتركيب ألفاظه وحروفه ويفقه الجواب الذى يناسبه ويوحيه إلى مستمع القول ، على حسب إدراكه لمقامه .

والمفسر الذى يخطئ هذا المقام يغفل عن القول وعن غرض القائل والمستمع وينحصر فى ذات نفسه ويقصر به الفهم والتخيل عما وراء شعوره ، أو يحسب السؤال والجواب بعدد الكلمات أيا كان المقام أو المناسبة .

وينقلب الفهم رأساً على عقب بين النظرتين فيصبح الجواب المستغرب هو الجواب الصحيح الذى لا غرابة فيه ويصبح الجواب المنتظر هو الجواب غير المنتظر فى مقامه وهو الجواب الذى يحتاج إلى التعليل والبحث عن باطن غير الظاهر بين طواياه .

فلو أن موسى عليه السلام قال لما سأله ربه عما فى يمينه : هى عصا أو هى عصاى ، لكان هذا هو موضع العجب : كيف خفى على النبى المرسل أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما بيمينه ولا يسأله عن شئ يجهله ويطلب المعرفة به من جوابه .

فإذا فهم كما ينبغى له أن يفهم أن المقام مقام تعليم ، لا استطلاع ، لم يكن له جواب غير جوابه الذى يتطلب المزيد من العلم بما عند الله عما يهديه إليه ، وكان الجواب على قدر السؤال كلمة كلمة وحرفا حرفا ولم يكن بالمفسر حاجة إلى أن يتصور أن فى الجواب إطالة غير مطلوبة ، وإنما هى تمحل لإطالة

(البقية على الصفحة التالية)

الإسلام محرر العبيد

للأستاذ محمد محمد المدني

إن الحرية حق طبيعي لبني آدم الذين كرمهم الله تعالى ، وسوى بينهم ، فهو ربهم جميعاً ، وكلهم أمام ربوبيته سواء ، وهم جميعا أولاد آدم وحواء ، فلا فرق بينهم في النشأة ، ولا امتياز لفرد منهم على فرد إلا بحسن سلوكهم في الحياة ، وبما يقدمونه من أعمال صالحات .

ولكن الإنسان من قديم الزمان استعبد أخاه الإنسان واتخذه رقيقا يخدمه ويسخره ويملكه ويبيعه ويشتريه ، وكان هذا الرق نظاما مسلما به في العالم ، بل كان بعض الفلاسفة يقرر أن الناس صنفان : صنف خلق ليكون سيدا ، وصنف خلق ليكون عبدا ، وأنهم لم يخلقوا من طينة واحدة : فالسادة والأمراء

بقية المنشور على صفحة ٣٩٢

الحديث في غير غرض من أغراض الرسالة الإلهية .

ولا بد من هذه النظرة إلى مقام القول في تفسير كل بلاغة ، على حسب مقتضاها .

ولكن للقرآن الكريم حكما غير سائر الأحكام ، لأنه يتطلب من المفسر أن يعرف له مقاما واحدا في جملته يخالف به كل مقام : وهو مقام الرسالة الإلهية التي يرتبط بعضها ببعض وتنتهي ظواهرها كلها إلى باطن واحد توافقه جميع الأجزاء من السور والآيات متفرقات ومتصلات .

ولا ينسى المفسر هذا المقام المجمل على اختلاف المناسبات واختلاف مقام القول في كل آية وفي كل حكم من أحكام يتواتر في تفصيل آياته .

وذلك هو الذي عناه الدكتور عثمان أمين حيث يقول عن منهج الأستاذ الإمام في تفسيره : « إنه ينصح بأن يؤخذ القرآن جملة . وينتهي إلى التصريح بأننا إذا كنا بحاجة إلى معرفة أسباب النزول في آيات الأحكام فإن معرفة الوقائع والحوادث التي نزل فيها الحكم تعين على فهمه » .

وهذا في لبابه هو منهج كل مفسر يستمع إليه في هذا المقام الجليل ، ولا يجوز لمن لا يستطيعه أن يتصدى لتفسير القول البليغ كيفما كان ، وأجدر ألا يتصدى لتفسير أحسن القول وأحراه بالتبصر والوعي والمعرفة بمقام كل مقال .

عباس محمود العقاد

خلقوا من طينة قوامها تبر الذهب ، والعبيد والأجراء خلقوا من طينة أخرى لا قيمة لها .

وكانت المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام تفرق فى الحقوق بين السادة والعبيد ، فلم يكن من حق الأرقاء أن يتولوا الوظائف العامة ، وإذا اعتدى سيد على عبد لم يعاقب على اعتدائه ، وإذا اعتدى عبد على سيد حقت عليه العقوبة أضعافا مضاعفة ، وربما وصلت إلى القتل ، وقد نص فى أحد قوانين القرون الوسطى بشأن الأرقاء على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده أو أحد الأحرار أو ارتكب أخف السرقات ، فإن جزاءه القتل .

« وأول قانون صدر لتخفيف ويلات الاسترقاق كان قانون الامبراطور بترونيا الرومانى ، وهو يحرم على السادة إلزام أرقائهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضى ، وفى عهد الامبراطور أنتونان الرومانى صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة [(١)].

فلما جاء الإسلام لم يرض عن هذا الوضع المهين لكرامة بنى آدم ، وكان منطقياً مع مبادئه السامية فى تحقيق المساواة والحرية والعدالة الاجتماعية للناس جميعاً دون تمييز ولا تفرقة ، ولذلك أعلن فى صراحة ووضوح « أنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح » ، « إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، » ولا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ولكن ليقل : فتاى وفتاتى وغلامى » .

كما أعلن فى صراحة ووضوح أنه يحب الحرية ويمجدها ويتشوف إلى تحقيقها ، وأنه يعتبر تحرير الرقاب من أعظم القربات التى يتقرب الناس بها إلى ربهم ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم بعد أن بين نعمة الله على الإنسان فى خلقه وتكوين أعضائه ، وتكريمه بالعقل ، وهدايته إلى النجدين — وهما معرفة الخير والشر يقول القرآن الكريم بعد الامتنان على الإنسان بهذا كله : « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة » فهو يعد العقبة الكبرى التى يجب على الإنسان أن يعمل لاجتيازها ، هى احترام الإنسانية فى جميع أفرادها ، بتحريرهم من العبودية بملك الرقبة ، ومن العبودية للفقر أو المسكنة أو اليتم ، التى من شأنها أن تجعل الإنسان ذليلا مستضعفاً قابلا لما يفرضه عليه غيره .

---

(١) اقرأ كتاب (الإسلام دين عام خالد) للمرحوم العلامة الأستاذ محمد فريد وجدى.

وبهذا أعلن كرامة الإنسان وحقه فى الحرية، ثم وضع الخطة المحكمة لتصفية الرق على سبيل التدرج تصفية نهائية ولم ير أن يفاجىء المجتمعات بإلغائه دفعة واحدة حتى لا تهتز بذلك اهتزازاً عنيفاً يصيب المتحررين كما يصيب غيرهم.

وكانت سياسته فى ذلك: أن يضيق المسالك التى تؤدى إلى الرق. ويوسع المنافذ التى تؤدى إلى الحرية [1].

فكان من المنافذ الكثيرة أنه جعل العتق كفارة لبعض ما يرتكب من الأخطاء والتقصير...

«ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة».

ومن فطر عامداً فى رمضان فعليه أن يكفر عن ذلك بعتق رقبة أو صوم ستين يوما متتابعة.

ومن حنث فى يمينه فما يكفر به عن حنثه عتق رقبة.

وإذا ظاهر الزوج من زوجته، أى قال لها كما كان يقول العرب قديما: أنت على كظهر أمى، أى لا تحلين لى، ثم أراد أن يعود إليها، فعليه أن يحرر رقبة من العبودية تحقيقاً لقوله تعالى: «والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا» أى يراجعون أنفسهم فى شأنه ويريدون إصلاح خطئهم فيه — «فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا» أى من قبل أن يمس الرجل المظاهر زوجته أو تمسه هذه الزوجة، وتلك رغبة بادية من المشرع فى العتق والتحرير، ووضع للزوجين فى موضع يحملهما على ذلك حملا، تلبية لرغبتهما الطبيعية فى المراجعة وإعادة الحياة الزوجية.

ومن مثل بعبده أو ضربه فكفارته أن يعتقه، وقد روى فى ذلك عن ابن عمر أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه».

كما روى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدا له، فجعل العبد يقول: أسألك بالله، أسألك بوجه الله — يستعطفه ويناشده بوجه الله أن يتركه ويعفيه من الضرب — ولكن الرجل لم يعفه، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد فانطلق إليه، فلما رأى الرسول كف عنه وأمسك عن ضربه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم منكرا عليه قسوته: سألك بوجه الله فلم تعفه، فلما رأيتنى أمسكت يدك عنه؟! فخاف الرجل خوفا شديدا وقال: فإنه حر لوجه الله يارسول الله!! ففرح الرسول بعد أن كان قد غضب وقال له: أما إنك لو لم تعتقه كفارة لضربه لسفعت وجهك النار!.

(١) اقرأ فى ذلك ما كتبه العلامة الدكتور على عبد الواحد وافى بكتابه: (حقوق الإنسان فى الإسلام).

ومن منافذ التحرير أيضا ما قرره الإسلام من تخصيص جزء من مال الزكاة لعتق العبيد والإماء، وذلك قوله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم». فقوله تعالى «وفى الرقاب» معناه: وفى إطلاق الرقاب من قيود الرق، وفى هذا التعبير تصوير للرق بأنه بمثابة الأغلال التى توضع فى الرقاب، وتصوير لمن صار حرا بأنه استرد رقبته، أى استعاد شخصيته وإنسانيته، لأن الغل لا يوضع إلا فى عنق البهيمة، ولا شك أن لذلك إيحاء عظيما بكراهية المشرع الرق، وحبه للحرية.

ومن المنافذ التى هيأها الإسلام لتصفية الرق وتحرير العبيد والإماء ما يقرره من أن السيد إذا أتى من أمته المملوكة له، بولد ـ ذكر أو أنثى ـ فإن وصفها يتغير ووضعها الاجتماعى ينتقل إلى منزلة غير منزلة العبودية الصرف، فتصبح «أم ولد»، وهذا هو الوصف الشرعى لها بعد ولادتها من السيد وهو وصف فيه تكريم، وله مقتضيات:

أما كونه تكريما لها، فلأنها أصبحت تشترك مع سيدها فى ولد يناديها بوصف «الأمومة» ويناديه بوصف «الأبوة»، ويضفى عليه كل منهما قدرا مشتركا من الحنان والمحبة.

فأما مقتضيات هذا الوضع الجديد، فمنها أنها تصبح بمجرد مجيئها بالولد من السيد مستحقة للحرية بعد موته، فإذا مات السيد خرجت من تركته بالغة قيمتها ما بلغت، وتقدم حريتها على كل الحقوق المترتبة على التركة من ديون أو وصايا أو أنصبة للوارثين.

واحتفاظا لها بهذا الحق فى التحرر بعد موت السيد حكم الإسلام بأنه لا يجوز للسيد فى حال حياته أن يبيعها أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف يعوق تحررها.

وإذن فعلاقتها به أشبه بعلاقة الزوجة بزوجها، لا بعلاقة الأمة بمالكها.

ومن مقتضيات هذا الوضع أيضا أن الولد الذى جاء ثمرة لهذا الاتصال من السيد بها يولد حراً، فلا يتبع أمه كما هى قاعدة الرقيق، ويكون له من الحقوق على أبيه فى حياته، وبعد مماته، مثل ما لسائر الأولاد الذين كانوا ثمرة زواج من نساء حرائر.

وقد تحرر بسبب هذا النظام كثير من الإماء، وكان لهن أولاد يتمتعون بالنسبة إلى آبائهم الأحرار، ويعيشون مثلهم أحرارا، وقد عرف التاريخ منهم من وصل إلى مرتبة الخلافة ـ كالمأمون العباسى بن هرون الرشيد، الذى طبق ذكره آفاق الدنيا ـ وآفاق التاريخ فى الحياة وبعد الممات!

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

من ملامح الإيمان

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

١ — من منهج القرآن أن يعرج كثيراً على ذكر المؤمنين ، وعلى ذكر غيرهم من منافقين وكافرين .

ومن خصائص القرآن فى كثير من شئونه أن يكرر ما ذكره فى مقامات عدة ، وذلك التكرار نمط مقصود فى ذاته ، لما يتعلق به من أغراض أصيلة فى التشريع ، وفى التربية وفى المعرفة بوجه عام .

إذ لو كان القرآن لمجرد العرض ، أو لأغراض محدودة كالكتب الوضعية لجاز أن يكتفى بعرض ما يذكره مرة واحدة .

ولكنه كتاب سماوى .. يجتث من النفوس بذور الخبث ، ويركز مبادئ الحق ، ويقيم معالم الهداية والتربية على أركان قويمة .

فكان من محاسنه ومن دعمه لوسائل الإصلاح ملازمته للوعى الإنسانى بالتذكير دائماً ، فهو يعاود الحديث عن الأمر الواحد فى عبارات بلاغية ، تتفاوت فى أسلوبها : طولا ، وقصراً ، وتأكيداً ، وغير تأكيد .

كما يتنوع أسلوبه ثناء ، وإطراء على قوم . وهجاء وتشنيعا على آخرين حسب تباين مسالكهم .

وكما يقرن هذا كله بوعده ، أو وعيده حسب مقتضيات الحديث فى مجالاته العديدة .

٢ — وأنت ترى نموذجا من هذا فيما معنا من حديث القرآن عن المؤمنين ، وفيما سنذكره - بعد - من حديثه عن المنافقين .

وكم تحدثت آيات الله فى رحاب القرآن عن ملامح الإيمان التى يشيد الله بها ، ويجتذبنا إليها ، ويعشقنا فيها ، فيذكر لنا أن المؤمنين فى مطلع فجر الإسلام كانوا دائما عند دعوة الدين ، وعلى أهبة الجهاد لعدوهم الذى يقاوم دعوة الله .

وما كان الواحد منهم يبخل بنفسه ،

أو ولده ، أو ماله فى سبيل الله ، بل كانوا يتشوفون إلى التضحية بما هو أعز من هذا كله لو أتيح لهم الأعز .

لعلمهم أن دنياهم موقوتة ، وأن المقام فيها والتمتع بها لا يساوى شيئا بما هو مدخر فى نعيم الآخرة لمن تهيأ له .

فما كان واحد منهم يتوارى عن مؤازرة النبى صلى الله عليه وسلم ولا يستسيغ أن يحتال فى التخلف ، أو يتصنع المعذرة يوما ما للقعود مع المتخلفين ، بل على العكس : كان القادر بنفسه وماله كأنه قائم على قدميه ، وآخذ بعنان فرسه : وكلما سمع هيعة - صيحة للجهاد - طار إليها .

وكانت تعرض لبعضهم المعذرة الصادقة بعجزه عن الدابة التى تحمله ، أو عن المال الذى ينفقه ، أو لحاجة أهله إلى سعيه عليهم فى المعاش فلا يركن إلى الاعتذار بما هو حق ، بل يحاول أن يسبق مع السابقين ... وكثيراً ما كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يصرف بعضهم عن الخروج معه ، ويعتذر إليهم بأنه لا يجد من الدواب ما يحملهم عليه فى سفره إلى الجهاد ، فينصرف هؤلاء الراغبون ، وأعينهم تفيض من الدمع حزنا لأنهم لا يجدون ما ينفقونه فى شراء الدواب أو فى نفقة السبيل .

٣ - هؤلاء الراغبون الذين لم يتمكنوا من وسائل الجهاد صدقوا فى عزيمتهم ، ثم قعدت بهم الحاجة ، فكانوا عند ربهم فى مقام الرضا والقبول ، والله - سبحانه - يمدهم بالمثوبة ويشهد لهم بالتقوى فى قوله تعالى : « والله عليم بالمتقين » ، وعلم الله بتقواهم كفيل بحسن جزائهم ، فإن نية المرء على عمل الخير جانب من البر ، وهى أنفع له من عمل يقوم به دون اعتزام عليه ، ولا إخلاص فيه .

فما بالك بمن يعتزم ، وينفذ ، ابتغاء رضوان الله ... وخاصة فى مقام الجهاد والرغبة فى التضحية وقد اتسع فضل الله فى تشجيعنا على اختيار العمل الطيب ، والقيام بتنفيذه فحينئذ يكون الثواب مكفولا بأضعافه من عشر أمثال ، إلى سبعمائة ، وانظر قول الله فى ذلك : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » ، وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة » ، فهذه سبعمائة حبة من حبة واحدة ، أو هذه سبعمائة حسنة نجمت من حسنة واحدة .

وقد يزيد الله فى الجزاء عن ذلك الفضل إلى غير حصر : « والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

فهذا البيان - على إيجازه - يبدى لنا شيئاً من ملامح الإيمان ، وما يحرزه المؤمنون .

(ب) من ملامح النفاق

« إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » .

١ - لم يكن الدخول فى الإسلام أكثر من نطق صادق بالشهادتين ، ثم التزام لما شرع الله .

ولكن نفراً من الناس لم تشرق هداية الله فى قلوبهم ، ولم تثبت نفوسهم على عقيدة واحدة ، فكان من هوانهم على أنفسهم أن يتذبذبوا بين كفر جاثم فى صدورهم وبين إسلام مصطنع تتحرك به ألسنتهم ، ولا تحس به قلوبهم .

وكانوا لتظاهرهم بالإسلام يدعون إلى الجهاد مع المسلمين ، ولكن تغلغل الكفر فى جوانحهم يصدهم عن الإجابة ، ويحبب إليهم القعود .

فكانوا يحتالون فى تغطية ما فى نفوسهم ويتصنعون المعاذير فى التخلف عن الخروج إلى الجهاد .

والمنافقون - دائماً - أرباب حيل ماكرة ، يستترون بها ، حتى لا يعرف شأنهم الفاضح ، وهم دائماً يخادعون ، ويحسبون أن باطلهم غير مكشوف .

ولكن الله - سبحانه - يأبى أن يدع الباطل مستساغا ، وأن يدع الحق مغموراً .

لذلك - كان يتعهد رسوله والمؤمنين ببيان شأن المنافقين فى كل محاولة . ويسجل عليهم الخزى عند كل مناسبة ، ويرميهم بالخداع الماكر ، ويؤكد لهم أن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله .

ويحذرنا كثيراً فى كتابه الكريم أن نقع فى حبالهم ، أو نقلد مكرهم .

٢ - ومن ملامح نفاقهم هذا ما حدث منهم فى غزوة تبوك - فى السنة التاسعة من الهجرة فهذه غزوة فتحت عليهم بابا واسعا من الفضائح ، ودفعتهم بإفشاء الكثير من من نقصهم ، ومن هذا الكثير : أنهم كانوا يستأذنون النبى - صلى الله عليه وسلم - فى التخلف عن الخروج معه فى هذه الغزوة ، ويحاولون دائما أن يعتذروا عن تخلفهم بأسباب مصنوعة ، مع أنهم أقدر من سواهم على الجهاد لو أخلصوا .

والله تعالى - يبين لنا أن اعتزارهم لم يكن حقا فى شيء منه .

بل كان لأسباب مقوتة - هى أنهم لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر : وأنهم يعيشون

فى شك يساورهم يزعج خواطرهم فليسوا ثابتين على إيمان يطمئن قلوبهم ، ولا هم على كفر صريح يغطون فى ضـــلاله وفى غمرته كبقية الكافرين .

ومن تلك الأسباب ـ أنهم كانوا يحلفون كذبا للرسول قبل خروجه ليصرفهم عن الخروج راضيا أو يحلفون له بعد عودته ليظل مخدوعا فيهم .

فمرة يقولون « والله لو استطعنا لخرجنا معكم » ومرة يحلفون لهم ليرضوهم ، ويعصموا أنفسهم من سوء الظن بهم عند المسلمين .

٣ — وكل ذلك يكشفه الله لرســوله والمؤمنين ، ويبين لهم أن الله سلط المنافقين على أنفسهم ، فهم يعتذرون أو يحلفون وهم كاذبون فى كل ما فعلوا أو قالوا ، وأن الله ثبطهم عن الخروج ليكون هـذا افتضاحا لأمرهم كله ، وأنهم لو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا شأنهم وفرقوا جمعهم ، وفتنوهم عن دينهم ، وأنهم يشمتون بالمسلمين إذا حزبهم أمر كريه وأنهم يتألمون فى أنفسهم إذا أصاب المسلمين خير فى جهادهم « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا » وأن شأنهم على هذا المنوال منذ جاءهم الإسلام ، وهم حانقون عليه.

وهكذا يستطرد القرآن فى قصصه عن المنافقين ، ويبين أن من ملامح نفاقهم فى غير الحرب أنهم لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم فى كسل ، وتثاقل ، وإذا أنفقوا درهما فى عمل طيب فهم كارهـــون لذلك ، فإن همهم كله ينصرف إلى التظاهر : لا إلى مقصد كريم وهذا ونحوه مما ذكره القرآن يعتبر توجيها لنا إلى تحاشى أعمالهم وأخلاقهم وليس شىء من هذا مما يرغب فيه إنسان كريم على نفسه فإنها خصال وضيعة وخصائص منكرة .

وقد عنى القرآن بالإفاضة فيها والتشنيع عليها أو التحذير منها .

٤ — ومع ذلك لا نزال منها ، بيننا تراث جاهلى ، ففينا تقاعد عن المكارم . . وفينا كذب فى الأيمان . وفينا تخلف عن الصلوات وعن كثير من تكاليف الإسلام وفينا إصرار على النقائص ، وهذه ونحوها شوائب مرذولة أو تقاليد بغيضة ونحن نعلمها ، ولا يجهلها الكثير من الناس

ولكننا لا نعرج عليها بإصـــلاح ، ولا نكفكفها بتوبة ولا استغفار ، فاللهم اكشف عنا بلاءك ، واهدنا بهديك، وطهرنا من لوثة النفاق جميعا .

عبد اللطيف السبكى

الإسلام وثقافة المرأة

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

لا يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق التربية والتعلم والثقافة ، بل يعطى المرأة الحق نفسه الذى يعطيه الرجل فى هذه الشئون. فيبيح لها أن تحصل على ما تشاء الحصول عليه من علم وأدب وثقافة وتهذيب ، بل إنه ليوجب عليها ذلك فى الحدود اللازمة لوقوفها على أمور دينها وحسن قيامها بوظائفها فى الحياة . وقد حث الرسول عليه الصلاة والسلام النساء على طلب العلم ، وجعله فريضة عليهن فى هذه الحدود ؛ فقال عليه الصلاة والسلام فى بعض روايات هذا الحديث : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وضرب عليه السلام أروع مثل فى الحرص على تعليم المرأة وتثقيفها بما فعله مع زوجه حفصة أم المؤمنين . فقد روى البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان » أن الشفاء العدوية ، وهى سيدة من بنى عدى ، رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كانت كاتبة فى الجاهلية ، وكانت تعلم الفتيات ، وأن حفصة بنت عمر أخذت عنها القراءة والكتابة قبل زواجها بالرسول عليه الصلاة والسلام . ولما تزوجها النبى صلى الله عليه وسلم طلب إلى الشفاء أن تتابع تثقيفها ، وأن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة . فلم يقنع الرسول عليه السلام لحفصة بالضرورى من شئون المعرفة ، بل طلب لها كذلك الكمال من هذه الشئون ، متمثلا فى فن من الفنون الجميلة وهو تحسين الخط وزخرفته . وروى الواقدى أن عائشة وأم سلمة زوجتى الرسول عليه السلام تعلمتا القراءة والكتابة ، وأنهما كانتا تقرآن ، ولكنهما لم تجيدا الكتابة .

وتدل شواهد تاريخية كثيرة على أن أبواب التربية والتعلم بمختلف صفوفهما كانت مفتحة على مصاريعها للبنات فى مختلف عصور الإسلام وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء ، وبرزن فى علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب وشتى أنواع العلوم والآداب والفنون بل لقد كان منهن معلمات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام . فقد روى ابن خلكان أن السيدة نفيسة بنت الحسين ابن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنها وعنهم كان لها بمصر مجلس علم حضره الإمام الشافعى نفسه وسمع عليها فيه حديث رسول الله عليه السلام . وعد أبو حيان

من بين أساتذته ثلاثا من النساء ، هن : مؤنسة الأيوبية بنت الملك العادل أخي صلاح الدين الأيوبي ؛ وشامية التيمية ؛ وزينب بنت المؤرخ الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي صاحب كتاب : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » .

ولا يفرق الإسلام كذلك بين الحرة والأمة في حق التربية والتعلم ، بل إن الرسول عليه السلام لم يحث على تعليم الحرة ولم يرغب في تثقيفها بمقدار ما حث على تعليم الأمة ورغب في تثقيفها وتأديبها ، ليتيح لها بذلك فرصاً للحرية والمجد ، ويحقق هدفا من أهم أهداف الإسلام في شئون الاجتماع ، وهو إشاعة الحرية بين الناس وتصفية الرق في أقصر وقت مستطاع . فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة عن أبيه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » .

وينبئنا التاريخ الإسلامي أن فرص الثقافة والتعلم كانت متاحة للجواري على الأخص في أوسع نطاق في مختلف العصور الإسلامية ، وأن هذه الفرص قد آتت ثمراتها الطيبة ، فأنشأت من الجواري آلافا من المبرزات في علوم القرآن والحديث والفقه والكلام واللغة وشتى أنواع العلوم والفنون والآداب. وكتب التاريخ والأدب العربي ، وخاصة كتاب الأغاني ، مملوءة بأخبار هؤلاء الجواري وما بلغنه من شأو بعيد في هذه الميادين ، وما كان لهن من فضل في النهوض بالثقافة الإسلامية والعربية . بل إن هذه الآثار لتدل على أنه قد نبغ من الجواري معلمات فضليات تخرج عليهن كثير من أعلام الإسلام فمن ذلك ما رواه المقري في كتابه « نفح الطيب » أنه كان لابن المطرف اللغوي جارية أخذت عن مولاها النحو واللغة ولكنها فاقته في ذلك ، وبرعت في العروض على الأخص ، ومن ثم سميت بالعروضية ، وأنها كانت تحفظ عن ظهر قلب كتابي « الكامل » للمبرد و « الأمالي » لأبي علي القالي ، وتشرحهما ، وأنه قد درس عليها كثير من العلماء هذين الكتابين ، وعنها أخذوا العروض ، وروى ابن خلكان أن شهدة الكاتبة ، وكانت جارية في الأصل ، كان لا يشق لها غبار في العلم والأدب والخط الجيد الجميل ، وأنه قد سمع عليها وأخذ عنها خلق كثير .

ومن طريف ما يروى في هذا الصدد وما يدل على مبلغ ما وصلت إليه الجواري في ميادين العلوم والفنون والآداب في ظل

الإسلام أن هارون الرشيد قد عرضت عليه جارية قيل في وصفها إنها نابغة في مختلف ألوان الثقافة ليشتريها بألف دينار (وكان ذلك ثمنا باهظا حينئذ) . فرضى أن يدفع فيها هذا الثمن إذا تبين أنها كما وصفت لا يشق لها غبار في ميادين العلوم والفنون والآداب . ثم جمع الأعلام من علماء الشريعة واللغة والطب والفلك والفلسفة والرياضة ومهرة اللاعبين بالشطرنج ، وقدم تلك الجارية إليهم ليختبروها ويعرفوا ما لديها . فكانت تجيب كل عالم عما يسألها عنه ، إجابة سديدة ، ثم تقول له :

إن على سائلنا أن نسأله
والعبء لا تعرفه أو تحمله

أى إنك لا تعرف ثقل العبء حتى تحمله أنت نفسك ؛ ثم تسأله سؤالا يعييه ولا يستطيع له جوابا .

ولقد أصبح للجوارى ، بفضل ما بلغنه من شأو في هذه الميادين في ظل الإسلام وتعاليمه مكانة كبيرة في العالم الإسلامى ، حتى لقد كان لهن أثر ذو بال في سياسة الدولة نفسها . فكان معظم خلفاء بنى العباس من أبناء الجوارى ، وكثيرا ما كانت الجوارى يتدخلن وكثيرا ما كن يستخدمن في شئون سياسية خطيرة ، ومن طريف ما رواه أبو الفرج الأصفهانى في كتابه « الأغانى » في هذا الصدد أنه كان بين خالد بن عبد الله القسرى والكميت بن زيد خصومة ومنافرة فأراد خالد أن يكيد إلى خصمه ويوغر ضده صدر هشام بن عبد الملك الخليفة الأموى في ذلك العصر ، فاشترى ثلاثين جارية من كبريات العالمات الأديبات ودسهن مع نخاس إلى هشام ابن عبد الملك . فاشتراهن جميعا . فلما أنس بهن استنطقهن فرأى فيهن نهاية الأدب والفصاحة . ثم استقرأهن القرآن فقرأنه على أحسن ما يكون . ثم استنشدهن الشعر فأنشدنه قصائد الكميت بن زيد (وهو شاعر من شعراء الشيعة ، ومن أنصار زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، الذى خرج على الأمويين ودعا لنفسه وقتل ، ويتبع مذهبه فرقة الشيعة الزيدية التى يتألف منها الآن نحو ثلث سكان اليمن) في مدح بنى هاشم ، وهى القصائد المعروفة بالهاشميات « مجموعة قصائد في مدح بنى هاشم وذم بنى أمية والاستدلال على أحقية بنى هاشم بالخلافة ، وقد جمعها الكميت في ديوان اشتهرت قصائده باسم الهاشميات ، ومن أشهرها قصيدته البائية التى يقول فيها في مدح بنى هاشم ومبلغ تشيعه لهم :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب
ولا لعبا منى ، أذو الشيب يلعب ؟ !
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى
وخير بنى حواء ، والخير يطلب

إلى النفر البيض الذين بحبهم
إلى الله فيما نابنى أتقرب
بنى هاشم رهط النبى فإننى
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

ويقول فيها عن أحقية بنى هاشم بالخلافة وسفه بنى أمية إذ يدعون حقهم فيها بالوراثة:

وقالوا ورثناها أبانا وأمنا
وما ورثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجبا
سفاها وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى
به دان شرق لكم ومغرب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم
فإن ذوى القربى أحق وأقرب)

وكان خالد قد أوعز إليهن بذلك ليوغر صدر هشام ضد الكميت . فنجح فيما قصد إليه .

وروى ابن عبدربه فى كتابه العقد الفريد أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد أرادوا أن يحركوا حفيظته ضدهم ، ويسلطوا عليهم بأس انتقامه ، فأوعزوا إلى جارية من جواريه الأديبات أن تغنيه قصيدة عمر ابن أبى ربيعة التى منها هذان البيتان :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد
وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة
إنما العاجز من لا يستبد

فغنتها له ، حتى إذا وصلت إلى هذين البيتين غنتهما بلحن مؤثر قوى ، وأعادت غناءهما عدة مرات ، فعرت الرشيد هزة عنيفة ، وانتفض من مكانه وقال : إى والله إنى لعاجز ، وكان ما كان من جراء ذلك من نكبته للبرامكة وقضائه على ما كان لهم من سلطان فى دولته .

* * *

ومن هذا يظهر أن الإسلام قد هيأ للنساء على العموم فرصا للتربية الراقية ، من انتهزتها منهن بلغن أعلى المراتب التى قدر للرجال بلوغها . فلم يكن السبب فى الجهل الذى كان فاشيا بين النساء المسلمات فى الجيل الماضى راجعا إلى النظم التربوية فى الإسلام ، وإنما كان السبب فى ذلك انحراف المسلمين عما سنه الإسلام من نظم فى شئون التربية والتعليم ، وإذا كانت الأمم الإسلامية قد اتجهت فى العصر الحاضر إلى تربية البنت وتثقيفها فإنها فى ذلك لم تأت بدعا من العمل فى تاريخها ، وإنما أحيت سنة صالحة سنها النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بها الخلفاء والأمراء من بعده .

* * *

وبحسبنا لبيان ما وصلت إليه النظم التربوية

الإسلامية من سمو بالقياس إلى الشرائع الأخرى أن نوازن بينها وبين ما يعدونه أرقى نظام ديمقراطى قبل الإسلام ، وهو نظام حكومة أثينا فى العصور السابقة للميلاد المسيحى . فقد كانت قوانين أثينا لا تتيح فرصة الثقافة والتعلم إلا للأحرار من ذكور اليونان . بينما توصدها إيصادا تاما أمام النساء والعبيد والموالى والأجانب ، وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير ، وصاغها فى صورة نظرية علمية ، كبير فلاسفتهم أرسطو ، إذ يقرر فى كتابه « السياسة » أن الآدميين ينقسمون فصيلتين : فصيلة مزودة بالعقل والإرادة وهى فصيلة اليونان ، وفصيلة غير مزودة إلا بقوى الجسم وما يتصل اتصالا مباشرا بالجسم كالغريزة والعادة ، وهى فصيلة العبيد والموالى والأجانب ، ومن أجل ذلك يرى أنه من الواجب أن يقصر نطاق التعلم والثقافة العقلية على اليونانيين . أما من عداهم من العبيد والموالى والأجانب فليس فى طبيعتهم أى استعداد لتلقى العلوم والمعارف ولذلك يجب أن يقتصر فى تربيتهم على إعدادهم للأعمال الجسمية التى خلقوا من أجلها ، وهى أعمال الزراعة والصناعة وما إلى ذلك ، وكذلك شأن النساء على العموم فى نظره ، فإن الطبيعة لم تزودهن بأى استعداد عقلى يعتد به ، ولذلك يجب أن تقتصر تربيتهن على شئون تدبير المنزل والحضانة والأمومة .

ولم يكن أرسطو فى ذلك معبرا عن رأيه الشخصى ، وإنما كان مسجلا لما كان يجرى عليه العمل فى دولة أثينا التى يعدون نظامها أرقى نظام ديمقراطى فى الأمم السابقة للإسلام ولذلك حينما قرر أفلاطون فى مدينته الخيالية « الجمهورية » مبدأ مساواة المرأة بالرجل فى حق التعلم والثقافة والاضطلاع بمختلف الوظائف كانت آراؤه موضع تهكم وسخرية من مفكرى أثينا وفلاسفتها وشعرائها . حتى إن أريستوفان عميد شعراء الكوميديا فى ذلك العصر وقف تمثيليتين اثنتين من تمثيلياته على السخرية بهذه الآراء ، وهما : « برلمان النساء » و « بلوتوس » .؟

دكتور على عبد الواحد وافى

قال الكميت :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها ... لطول ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ... ببعض من الأقوام إلا لبيبها
ولم أر قول المرء إلا كنبله ... له وبه محرومها ومصيبها

من صفحات الأندلس

ملكٌ يكفّر عن خطيئته

للأستاذ محمد رجب البيومى

حين أصدر الأستاذ على أدهم كتابه عن المعتمد بن عباد فى سلسلة أعلام العرب كان اعتراض بعض الناقدين عليه أن هـذا الملك البائس لا يسمو بأعماله إلى مستوى الأعلام! وقد يكون فى تاريخ المعتمد بعض الأخطاء الكبيرة التى تقعد به عن مستوى البطولة الباهرة ، ولكن الإنصاف يدفعنا أن نذكر حسناته مع سيئاته ، وإذا كانت الحسنة خاتمة هذه الأعمال المتناقضة فإنها جديرة أن تكون بمثابة الاستغفار من ذنب عظيم !!

لقد عهد ملوك الطوائف بالأندلس عهدا بائسا قلقا ، تزلزله المطامع والأهواء ، ويهدده الاضطراب الداخلى والتحرش الخارجى ، وقد قدر للمعتمد أن يكون أقوى ملوك الطوائف نفوذا وأبعدهم تأثيرا ... وكانت قوته النسبية تدعوه إلى التحرش وتطامح به إلى الوثوب على إخوانه لتمتد رقعة ملكه حتى خيل إليه وهو شاعر ذو خيال بعيد أنه يستطيع أن يجمع المدن الإسلامية تحت لوائه ومن سوء حظه أنه وجد من رجال حاشيته من يزين له هـذا المطمح ، ويعد له أسباب الأمانى حيث يجب أن يفيق من أوهامه ويرجع إلى حقيقة وضعه من العدو المتربص به وبزملائه جميعا فى الأندلس !! على أنه لم يبتكر هذه الأمنيات ابتكارا وإنما ورثها من أبيه المعتضد ، فقد خطا الخطوات الأولى فى سبيل تحقيقها ، وحين صدمه الواقع فى آماله لم ينكص على عقبيه ليتبين المهواة التى توشك أن تنفجر تحت قدميه ولكنه أخذ يحيك الأمانى من جديد ! وانطلق يتحدث عنها بمسامع أولاده الأمراء ، حتى امتلأ المعتمد بما سمع ووقر فى ذهنه أن توحيد المدن الإسلامية سيتم على يديه ، بل إنه شاهد أباه ينهض بسيفه فيحز رقبة شيخ ناصح تقدم إليه فى مجلسه راجياً أن يترك التحرش ببلاد الإسلام على حين يصول ملك قشتاله الإفرنجى بجبروته وطغيانه مهدداً ملوك الطوائف دون استثناء ، وقد بلغ من سيطرته المتمكنة أن فرض الجزية على هؤلاء جميعا فأصبحت أموال المسلمين تجبى إليه عن يد وهم صاغرون ! وقد خشى المعتضد على آماله من جرأة هذا القاضى فأورده الحتف شهيد الرأى والنصيحة كيلا يشجع

غيره من القضاة على النقد والاعتراض! فالمسألة فى رأيه لا تقبل النصيحة والروية ولا عليه أن يسفك دماء الأبرياء ليؤكد فى الأذهان رغبته الملحة فى السيطرة على بلاد الإسلام فى الأندلس! فإذا همس بعض خاصته بتحرش الفونسو وتربصه قال فى دهاء: سنفرغ إليه بعد حين! أجل، ورث المعتمد ملك أبيه وأوهامه معاً، فما كاد ينتقل إليه السلطان حتى أخذ يثير أسباب العداء بينه وبين زملائه المسلمين، وقد سعى بجيوشه ليحطم الأقربين من جيرانه مما اضطرهم أولا إلى محالفة العدو والتنازل له عن كثير من الحصون، واضطره ثانية إلى أن يسلك مسلكهم فى التزلف إلى الفونسو ملك قشتاله! وذلك ما كان يتوقعه الداهية المتربص إذ كان يقدر قيمة هذا التنازع المستمر بين المسلمين، ويعمل على إذكائه وإبقائه غير عابئ بما عقد من المواثيق!! فحين سعت رسل المعتمد إليه أدار الرأى فى دهاء ثم وقع معه معاهدة آثمة كانت أفدح خطأ وقع فيه المعتمد، وقد ترتب عليها من النتائج الخطيرة ما دفع المتعاهدان بعد حين إلى الجهر بالخصومة فالتهديد بالحرب ثم اشتعالها على نحو مريع، وسنجمل الآن أهداف هذه المعاهدة لندرك عن يقين ما تمخضت عنه من أحداث:

كانت ثقة المعتمد بوزيره أبى بكر بن عمار وبالا عليه، فقد كان هذا الرجل انتهازياً لا يفكر فى غير نفسه، وقد أظهر من الولاء للمعتمد والتفانى فى استرضائه ما مكن له من نفسه، حتى صار نديم بساطه وصاحب سره وكان فى اتفاق ميولهما نحو الأدب والشعر والغناء ما أكد هذه العلاقة ورفع صرحها على أساس من الثقة والإخلاص فى رأى الملك المخدوع، وكان ابن عمار سوقه خاملا يمدح الرعاع، ولكنه حين اتصل بالمعتمد اتخذ الأدب مطية للرياسة والجاه، ورأى من تشجيع صاحبه ما بسط له حبل الأمل، فأخذ يرقى ذروات المجد على يده حتى أصبح وزيره المختار، ولم تكن مبادئه لتحول دون التدهور إلى مسالك شائنة من الغدر والعقوق يضمرها فى نفسه متى أتيح له أن يجد متنفساً شاسعاً لآماله، إذ أنه لم يقنع بالوزارة، وطمح إلى الملك فاستقل بإحدى ولايات سيده وجابهه بالعصيان دون حياء ثم أتت الريح بما لا يريد، فوقع فى قبضة المعتمد وأورده الحتوف جزاء لما اقترفت يداه، ولم يجده شيئاً ما حبر من اعتذاريات القصائد وتوسلات الأدب، بعد أن كشفت الحوادث عن معدنه الخسيس، هذا الرجل الوصولى المنتهز أخذ يغرى المعتمد أثناء حظوته لديه، بتحقيق آماله فى السيطرة

على جيرانه معتمداً على تأييد عدوه الألد الفونسو السادس ملك قشتالة ! وكان المعتمد على استعداد للثورة الناقمة على بنى ذى النون أصحاب طليطلة ، إلا أنه يخشى سطوة الفونسو فهو حليفهم البارز ، وربما انتهز الفرصة ففاجأ المعتمد بجيوشه ، وأوقع به من الهزيمة ما لا يرضاه !.

ولكن أبا بكر بن عمار أغراه بعقد معاهدة مع هذا العدو المتربص ، لا على أن يترك طليطلة للمعتمد فيتشفى من مناوئيه ، بل على أن يقوم الفونسو السادس بغزو طليطلة وضمها إلى أملاكه بعد أن يترك المعتمد حراً فى غزو ما سوى طليطلة من البلدان ، ولم يعبأ الفونسو بمعاهدته مع بنى ذى النون ، وأنى ؟ وهو الذى غدر بإخوته من أبيه وقتلهم واحداً واحداً دون إشفاق ، فاهتبل الفرصة ووقع على يد أبى بكر معاهدة تتيح له أن يغزو طليطلة دون اعتراض المعتمد ، ثم وجه جيوشه الحاشدة إلى الفريسة الصغيرة المتضعضعة ! والتفت صاحبها يحيى بن ذى النون ليجد السيل يجرفه من كل مكان ، فاستغاث بجيرانه المسلمين فلم يسعفه غير الملك الباسل الأبى عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ! إذ قام بواجبه باذلا أقصى ما يبذل من الجيش والحيلة والسلاح ، ولكن قوته لم تسعف بما يدفع طغيان الإفرنج ، فسقطت طليطلة لقمة سائغة فى فم الفونسو وكانت أول معقل يهوى فى الأندلس من حصون الإسلام ! !

عظمت النكبة الفادحة بسقوط طليطلة ، وأحس ملوك الطوائف جميعاً أن الخطر قاب قوسين منهم وأفاق المعتمد من سكرته ليلمس تجبر الفونسو واستعلاءه ، إذ أرسل إليه رسله يطلب بعض الحصون ، ويسأل مضاعفة الجزية ، ويلوح بالقتال ، ثم بالغ فى وقاحته فأرسل يطلب أن تأتى زوجته إلى جامع قرطبة لتلد فيه من حمل كان بها استجابة لرأى القسيس والأساقفة ، إذ أن الجامع قد أقيم على أنقاض كنيسة مقدسة تلتمس لديها البركات على أن تترك الزوجة قبل أيام الميلاد بمدينة الزهراء غربى قرطبة ، لتختلف منها إلى الجامع المذكور ، بين طيب النسيم ورقة الماء ، ثم أردف ذلك الطلب العجيب بإيفاد رسوله اليهودى ابن شاليب على رأس جماعة من وجوه القشتاليين ، فضربوا خيامهم بظاهر أشبيلية وأحدثوا من الضوضاء والجلبة ما أعلن استهتارهم المتكبر وتغطرسهم السفيه فأسرع المعتمد بإرسال الجزية إليهم كى ينصرفوا مسرعين ، ولكن ابن شاليب يرمى بها فى غطرسة ويصيح « والله لا أخذت هذا العيار ولن آخذ منه إلا مشجراً وبعد هذا العام سآخذ منه أجفان البلاد ردوه إليه ! » ووصل القول إلى المعتمد فثارت نخوته وأمر

بسجن القشتاليين جميعاً ، ثم جرد اليهودى وصلبه قتيلا ، وبذلك وقف وجها لوجه أمام الفونسو ، ولاحت النذر مهددة بشر مستطير ! .

أدرك المعتمد نداحة خطئه حين ترك طليطلة لعدوه الألد ، واستشعر ندماً يؤرقه ويضنيه ثم جاءته الأنباء أن ملك قشتاله أخذ يحرق القرى الإسلامية ، ويقتل من تصل إليهم يده من الناس ، وقد خرب إقليم شذونة وشن الغارات على مرسيه وتقدم إلى غرناطه ثم حاصر سرقسطه ! ! فلابد من قوة توقف تياره المبيد ! ثم اتجه به ذهنه إلى الاستعانة بأمير المسلمين بالمغرب يوسف بن تاشفين ! ! فهو فى سطوته وشدته من يستطيع أن يؤدب هذا الطاغية المريد !! ولم تكن الاستعانة بهذا الأمير القوى مما يسهل استساغته لدى ملك حريص كالمعتمد ، فيوسف بن تاشفين صاحب مطامع وأهواء وسيجد بالأندلس متنفسا جديداً لمطامعه بعد أن قضى على أمراء المغرب وجمع البلاد فى حوزته ! ! وكان والده المعتضد يخشى بأسه ويوصى بالحذر من سطوته ! ولكن فظاعة الفونسو من ناحية ، وخطيئة المعتمد فى مأساة طليطلة من ناحية ثانية قد هونتا عليه كل عاقبة ، وكأنه أراد أن يكفر عن سيئته البلقاء باستدعاء أمير مسلم ينقذ البلاد سواء أضافها إلى حوزته أم تركها عن طواعية واختيار ! !

وقد وجد ابن عباد معارضة شديدة من بعض ملوك الطوائف ومن أهل بيته فأولئك يقولون « إن الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان فى غمد ، وهؤلاء يقولون بلسان ابنه الرشيد « يا أبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ، والمعتمد يقول لأولئك وهؤلاء « إن رعى الجمال عند ابن تاشفين خير من رعى الخنازير عند الأذفونش ، والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم علىّ اللعنة فى منابر الإسلام كما قامت على غيرى » . ثم يقول « إنى من أمرى على حالين حال شك وحال يقين ، ولا بد لى من إحداهما ، لأنى إذا استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش فمن الجائز أن يفى لى كل منهما بعهده ومن الجائز ألا يفى فهذه حالة شك ، ولكنى إن استندت إلى ابن تاشفين أرضيت الله وإذا استندت إلى الأذفونش أسخطت الله ، فهذه حالة يقين » .

هذا التفكير المؤرق الساهد ، يكشف عن ندم المعتمد ، ويصور هول المأساة فى ضميره وحديثه عن رعى الجمال والخنازير يدل دلالة تامة على تفكيره فى الإسلام لا فى نفسه وقد تعاظمه أن تردد منابر

الإسلام لمناته . فأقدم على الاستعانة بابن تاشفين تكفيرا عن ذنب فادح اجترمه ، ولتأت الأيام بعد ذلك بما تريد !

كان يوسف بن تاشفين فى ذروة مجده ، وقد أخضع المغرب لسلطانه ، وتطلع إلى ميدان آخر يرمى فيه بقوته وسلاحه !

وقد دلت أعماله فيما بعد على ما كان يأمله من امتلاك الأندلس وضمها إلى رقعته الفسيحة ، ولم يكن يثنيه عن النهوض إلى ذلك قبل استدعاء المعتمد وزملائه غير جهله بمسالك الأندلس ودروبها ، إذ أن قواده لم يألفوا غير حرب الصحراء ، وليس فيهم من شاهد أسبانيا ودرس حصونها ومواقعها ، فالمجازفة بالعبور إليها أمر غير مأمون العاقبة ، وربما اتحد ملوك الطوائف وملوك النصرانية على حربه ، فيئوب بصفقة المغبون ، فلما جاءته الدعوة من ملوك الإسلام إلى إنقاذ البلاد من مخالب النصرانية المتوثبة صادفت رغبة أكيدة فى نفسه ، ولكنه لجأ إلى الاختبار الفاحص حين طلب من المعتمد أن يتنازل عن الجزيرة الخضراء لتغدو معقل حاميته ، ومربط ذخيرته وأجناده ، ولم يكن بحاجة إلى هذا المطلب ، فملوك الطوائف يستصرخون به عائذين ، ويستقبلونه مرحبين ، وفى كل مكان سيجد بينهم المثوى العزيز ، والترحيب المستبشر ، وقد ثارت حاشية المعتمد على هذا المطلب الغريب ، ولكنه كان مدفوعا إلى استقباله بشعور قوى غالب جعله يقبل كل ما يريد !.

وقد انطلق يوسف بسبعة آلاف من جنوده فقط إلى الأندلس ! وفى ذلك من الحيطة - كما أرى - ما يكشف عن حقيقة مآرب ابن تاشفين ، إذ لو كان كما تصوره بعض الروايات الساذجة مدفوعا إلى الجهاد حسبة لوجه الله وحده لأمر بطوفان لجب من جيشه الجرار ليعبر به دون اشتراط ، فيكون اللقاء بين المسيحية والإسلام حاسما فى أول معركة تشتعل ! ! وقد جرى الكاتبون على إسناد الانتصار إليه وحده فى معركة الزلاقة التى تم فيها اندحار ملوك النصرانية ، أجمعين ! ! ولو تأملنا الحوادث فى تعاقبها المتدافع فإننا نجد للمعتمد فضلا لا يقل عن فضله فى هذا الانتصار فحين هم الفريقان بالصيال بعد أن جمع الفونسو رايات النصرانية تحت قيادته وجاءته الأمداد المسعفة من فرنسا وأوربا ، دارت الرسائل بين الفريقين ، فلجأ ألفونسو إلى الخديعة وكتب إلى المعتمد يقول : « غدا الجمعة وهو عيدكم وبعده الأحد وهو عيدنا فليكن لقاؤنا الاثنين ، فعرف المعتمد بذلك يوسف ، فقال : نعم نوافقه على بدء القتال يوم الاثنين (وفى بعض الروايات يوم السبت)

لأن الملوك لا يغدرون، وليس من المنتظر أن يلوم فيفاجئنا بالقتال يوم الجمعة، ولكن المعتمد واجه يوسف بما يعرفه من لؤم الفونسو وخديعته فلم يستمع إليه! فآثر بعد ذلك أن يحتاط بنفسه للأمر، وأمر جميع جيوش الأندلس الإسلامية أن تتأهب يوم الجمعة، وقد صح ما توقعه هذا الرجل البصير، فقد هجم ألفونسو بقوته المحتشدة حين نادى منادي الجمعة للصلاة، فلاقته جيوش المعتمد وثبت عند الصدمة الأولى ثبات الأبطال، يقول الأستاذ على أدهم:

ومال الفونسو على المعتمد بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة فاستمر القتال فيهم وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف، وهو يلاحظ طريقه، وعظمت الحرب واشتد البلاء وأبطأ عليه الصحراويون وساءت ظنون أصحابه وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله، وأثخن المعتمد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغيه، وجرحت يمنى يديه، وطعن فى أحد جانبيه وعقرت تحته ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر، وهو فى ذلك يضرب شمالا ويمينا، وتذكر فى هذه الحالة ابناً صغيراً كان مغرما به تركه بأشبيلية عليا كنيته أبو هاشم فقال:

أبو هاشم هشمتنى الشفار
فلله صبرى لذاك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج
فلم يثننى ذكره للفرار ..»

ثم أقبلت جيوش المرابطين وتم النصر ...

لا نريد أن يفهم القارىء أننا نقلل من دور ابن تاشفين فى معركة الزلاقة، ولكننا نريد أن نذكر أن ثبات المعتمد ورأيه قد أسهما فى النصر إلى حد كبير، بل نزيد على ذلك فنذكر أن يوسف لو قبل رأى المعتمد بعد انتهاء المعركة لتغير وجه التاريخ، فقد انكسر الفونسو متقهقراً ببقايا فلوله المنهزمة ورأى المعتمد أن تتبعهم الجيوش الإسلامية لتقضى عليهم القضاء الأخير، ولكن يوسف خالف ذلك وتعلل بقوله: «لو انبضام اليوم لتى فى طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلكهم، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ويجتمعوا بنا ثم نرجع إليه فنحسم داءه». فأجابه المعتمد إنه إن فر من أمامه لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه!» ولكن يوسف أصر على رأيه.

ونحن نعلم أن ابن تاشفين رجل مجرب مارس الحرب أعواما طوالا، وقد كان فى نحو الثمانين من عمره حين دارت معركة الزلاقة، ونكوصه عن متابعة المنهزمين لم يكن مما يشير به عقل فطن أريب، إلا أن يكون

قد رأى بينه وبين نفسه أن القضاء النهائى على جيش النصرانية لا يمكن له من البقاء كما يأمل فى الأندلس ، فلا بد من انتظار موقعة ثانية بعد أن تتأصل أركانه فى البلاد ! وفى قوله للمعتمد عند بداية الحرب : إن الملوك لا يغدرون ما يكشف عن نيته فى امتلاك البلاد ، إذ كان يود أن ينهزم المعتمد وملوك الطوائف حين يفاجئون بالجيوش وحدهم ! ثم يأتى جيشه المرابط حين يتطلبه الموقف فيفوز بشرف النصر بعد أن تتضعضع قوى النصرانية ، وإلا فهل يعتقد يوسف بينه وبين نفسه أن الملوك لا يغدرون ، وهو ملك عاهد ثم غدر ، فنكل بملوك الطوائف حين استسلموا له وتركهم بين قتيل وأسير ، مهما يكن من شىء فقد انتهت معركة الزلاقة بهزيمة النصرانية وانسحابها إلى معاقلها ، لتستأنف الصيال من جديد !

رنت أهازيج النصر فى بلاد الإســـلام واستشعر الأندلسيون حباً غامراً للبطل المنقذ يوسف بن تاشفين ، وكأنى به وقد أخذ يتنزه فى رياض الأندلس فشاهد من جمال حدائقها وكثرة أنهارها وبهجة قصورها ، ودلائل عزها وحضارتها ما أكد لديه ضرورة انتزاعها من ولاتها المتناحرين ، فأخذ يوقع الضغينة بينهم ، ويشجع الفقهاء على شكايتهم ثم يواجه الشاكى بالمشكو ليفسح أسباب الجفوة والنفــور ، وهكذا أحس ملوك الطوائف خطراً عاصفاً يهب عليهم من رياح يوسف . ثم رأوا غدره السافر حين وفد بجيوشه الجرارة ليستأصل شأفتهم جميعا ، وكانت قسوته الطاغية مضرب المثل ، فقد هدم المنازل والحصون ثم قتل الأمراء والملوك ، ومن أراد استذلاله أبقاه ـ كالمعتمد ـ أسيراً فى أهله يتجرع كئوس المذلة والندم ، ويعانى مرارة الفاقة والبؤس حين يجد زوجته وبناته يضطررن إلى غزل الصوف وبيعه ليجدن ما يأكلن ، وتلك قسوة مفرطة نلتمس لها وسائل التبرير فلا نجد ، وقد كان فى مقدوره وقد انتزع هؤلاء من سلطانهم العزيز ألا يفتك بمن قتل وألا يذل من استبقى وحسبه أن يقيموا بإفريقيـة بعيـدين عن أوطانهم فى رغد من العيش ووفر من المـال وكفاهم ما تعانى أرواحهم من ذلة الأسر ومرارة الاغتراب وحسرة التشريد بعد الأبهة والسلطان .

لقد كان المعتمد ـ فيما أرى ـ يتوقع هذا المصير ويخشاه ، ولكنه اندفع إليه ليكفر عن سيئته المنكرة ، حين عاهد الفونسو على الغدر بملوك المسلمين ! ولعله كان فى أسره يستروح بعض العزاء إذ واجه أهون الشرين ، حين رعى الجمال فى الصحراء لدى يوسف ، وعصمه الله من رعى الخنـــازير لدى الإذفونش .

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٥ — المزايا الطبقية

لا يوجد فى العرف الإسلامى ما عرف ويعرف فى غيره بالنظام الطبقى ، ذلك لأن هذا النظام يقوم على أساس ظالم آثم ، إذ هو اتفاق عدد من الأفراد أو الهيئات ممن يعيشون فى مستوى اقتصادى واحد أو متقارب على استغلال غيرهم . والاستئثار بأكبر قدر ممكن من الخيرات والخدمات التى تحقق لهم امتيازات خاصة بهم ، والمسلمون كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم » ، وأقربهم إلى الله كما يقول جل شأنه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فاتفاق بعضهم على استغلال بعض من التعاون على الإثم والعدوان الذى نهى الله عنه ، وتواطؤ الأقوياء أو الأغنياء على ظلم الضعفاء أو الفقراء منكر لا وجود له فى نظام يقوم على العدل والإحسان ، صحيح أنهم — وأن الناس فى كل مكان — يتفاوتون فى الدرجات على حسب اختلافهم فى المواهب والقوى والمدارك والأخلاق والغنى والفقر ، ولكن ذلك ليس معناه — كما قلت فى بعض ما كتبت — تبرير التحزب والتعصب ، واستعلاء فريق على فريق . واستغلال فريق لفريق ، وتربص فريق بفريق ، وآية ذلك ما نجد فى القرآن من النعى على الكافرين بذلك حيث يقول الله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

فقد أنكر الله عليهم إنكارهم رسالة محمد بحجة أنه ليس من عظماء مكة والطائف ، وذكر أنهم ليس لهم أن يتطاولوا إلى تقسيم رحمة الله ، لأنه جل شأنه يختص بها من يشاء وقد قسم بينهم معيشتهم فى هذه الحياة ، لا ليبغى بعضهم على بعض ، ولكن ليذكروا نعمته عليهم ، ويشكروا إحسانه إليهم . فكان عاقبة ذلك أن اتخذ بعضهم بعضا سخريا وبغى بعضهم على بعض . وجمعوا من طريق

البغى والتسخير ما جمعوا من مال كثير ، ولكن رحمة الله خير مما جمعوا ويجمعون .

ومن ثم يظهر لنا ولكل متأمل أن اللام فى قوله تعالى « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » للعاقبة لا للتعليل وأنها كاللام فى قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وفى قول من يقول « أحسنت إلى فلان ليسىء الظن بالإحسان » أما تفسيرها على معنى التعليل فلا يستقيم مع مقصد الإسلام الجليل ولا مع قول الله سبحانه : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » وقد يستقيم التعليل بضرب من التأويل إذا جرى على هذا المعنى نفسه ، وهو أن الله قسم بينهم معيشتهم فى الحياة ففهموا ـ مخطئين فى الفهم ـ أن ذلك ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، وأيا ما كان الأمر فى فهم هذه الآية الكريمة فالوصف مختص بالكافرين وبالمجتمع الذى كان يتكون منهم ، أما المجتمع الإسلامى فهو على اختلاف أفراده فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف . مجتمع متكافل يشد بعضه بعضا ، ولا يكمل إيمان الإنسان فيه إلا إذا أحب لأخيه ما يحب لنفسه . كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعنى هذا أن أبناءه قد يتفاوتون فى الدرجات ، ولكن هذا التفاوت لا يغويهم ولا يغريهم ، ولا ينتهى بهم إلى التميز والتحيز . والتحزب والتعصب وما إلى ذلك مما قام ويقوم عليه نظام الطبقات .

وليس معنى هذا إنكار وجود الطوائف وإهدار وجود الجماعات . أو النقابات المهنية فقد يكون ذلك استجابة لحاجة طبيعية ، وتلبية لظروف اجتماعية ، وخدمة لمصلحة عامة ، ومن ثم كان على المجتمع ممثلا فى الدولة أو الحكومة أن يقف من الطوائف المختلفة موقف المصلح النزيه والحكم العدل كما يفهم من قوله تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

وعلى كل طائفة أن ترعى حق غيرها ، فلا تتطاول عليها بسخرية أو جور كما يفهم من قوله تعالى بعد ذلك : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ، فليس لقوم أو جماعة أو طائفة

أن تنحرف إلى الكبر والجور على غيرها . فإن مجرد السخرية منها والطعن فيها خروج عن طاعة الله ومروق من الدين الذى ارتضاه وفسوق بعد الإيمان . وظلم يستوجب التوبة والشعور بالألم والندم ، أما الظلم الناشىء عن التواطؤ . وحب الاستعلاء فالى يستوجب القتال كما يفهم من قوله « فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » .

وقد كان مجتمع المدينة فى أول عهد الإسلام بالمدينة يتكون من عدة طوائف عرف بعضها باسم الأنصار وبعضها باسم المهاجرين ، وكان من هذه الطوائف اليهود من بنى قريظة والنضير فآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المسلمين من الأنصار والمهاجرين وعقد محالفة تجمع بين جميع السكان نص فيها على أن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وأن جميع سكان المدينة متضامنون فى حماية الناس وصيانة أرواحهم وأموالهم ، وأنهم جميعا جبهة واحدة ضد من يعتدى عليهم وأنهم لا يصح لأحدهم أن يطعن الآخر بعقد صلح منفرد دون رغبته وعلمه . وأن المدينة دار أمان للجميع إلا من ظلم وأثم » .

ويظهر من هذه الوثيقة التاريخية أنها أول نظام دستورى يكفل لجميع المواطنين حق المساواة ، ويلغى بينهم الفوارق الطبقية . ويجمعهم فى جبهة واحدة قوية ، ويحقق بينهم التضامن على حماية الأنفس وصيانة الأرواح . وإشاعة الأمن والسلام ولكن اليهود — وقد كانوا قبل الإسلام يمثلون الطبقة المستغلة هالهم أن يحرم الإسلام الربا ويقطع عليهم طريق الكسب الحرام ، ويطفىء نار الفتن التى كانوا يثيرونها بين الأوس والخزرج ، ويجدون فيها الدفء والأمن والمتاع . فنقضوا العهد . وتحللوا من هذه المحالفة أو الوثيقة الدستورية ، وعادوا إلى طبيعتهم التى عرفوا بها فى كل أطوار حياتهم « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، وكان مصيرهم تطهير المجتمع منهم ، ليصير أمره « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » ، وليصير أمر المسلمين فيه كما يقول الله فيهم « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ونخلص من هذه المقدمات بهذه المبادىء والنتائج :

١ — أن الإسلام - وهو دين التوحيد يقوى الوحدة الإنسانية بتقرير مبدأ المساواة بين أجناس البشر وشعوبهم كما يفهم من قوله الله تعالى : يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ». وكما يفهم من قول رسوله صلى الله عليه وسلم: ليس لعربي فضل على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.

٢ — أن الإسلام يؤكد وحدة الأمة التي تدين به كما يفهم من قوله تعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ».

٣ — أن الإسلام يؤاخي بين جميع المؤمنين به كما يفهم من قوله تعالى: « إنما المؤمنون أخوة »، وقوله سبحانه « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ».

٤ — أن التفاوت في الرزق والدرجات بين الناس أمر فطري يعترف به الإسلام. كما يفهم من قوله تعالى « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »، وقوله سبحانه « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »، ولكنه لا يعترف بوجود الطبقات التي تتواطأ على استغلال غيرها، والاستئثار بمميزات خاصة لا يتمتع بها سواها.

٥ — أن الإسلام يسوي بين الخاضعين لأحكامه في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر والحاكم والمحكوم والخادم والمخدوم. والغني والفقير والقوي والضعيف ومن ثم، كان من أول ما قاله أبو بكر رضي الله عنه بعد أن صار إليه أمر المسلمين « إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وإن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه ».

ومعنى هذا - وكثير غير هذا - أن النظام الطبقي الذي عرف في الجاهلية، وفي كثير من الشعوب الأوربية، فقسم المجتمع إلى سادة وعبيد، وملوك وسوقة ونبلاء ورعاع، وعمال وأصحاب أعمال، وطبقات أرستقراطية وبرجوازية وكهنوتية لا يلتقي في كثير أو قليل مع مبادئ الإسلام، ولا يتفق مع روح الأخوة الإسلامية العامة التي تجمع بين المحكوم والحاكم، والمخدوم والخادم، والغني والفقير والكبير والصغير، وتجعلهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى »؟

عبد الرحيم فودة

* * *

الخطيب البغدادي : مؤرخ بغداد وعالمها

للأستاذ محمود الشرقاوي

« كان قد انتهى إليه علم الحديث وحفظه فى وقته »
« ابن النجار »

قبل شهور احتفلت بغداد بذكرى مرور ألف ومائتى سنة على تأسيسها وشاركها فى هذه الذكرى عدد غير قليل من البلاد العربية ، وهنا لابد من وقفة قصيرة ، فاحتفال بلد عربى عريق مثل بغداد عاصمة الخلافة العباسية بذكرى بنائه على التاريخ الميلادى ، أعتقد أنه لابد أن يثير فى نفس كل عربى شيئاً من التأمل ، فهو مظهر من مظاهر الغزو الأوربى لنا نحن العرب فى جميع الميادين ، حتى فيما هو من صميم ثقافتنا العربية الأصيلة التى يجب أن نحرص عليها . ولئن رضينا بأن يكون اعتماد بلادنا العربية على التقويم الغربى فيما يتصل بمرتبات الموظفين مثلا ونحو ذلك من الشئون الاقتصادية لضرورة ذلك أو سهولته ، فإن هذه الذكريات العربية المرتبطة بتاريخنا وأمجادنا يجب أن نحرص على توقيتها بالسنين العربية .

* * *

كلمة عن بغداد :

بَغداد أو بُغداد - وبعض المؤلفات العربية القديمة تسميها بَغدان - كلمة فارسية (١) الأصل معناها : « عطية الله » وكانت هناك قرية بابلية قديمة تعرف بهذا الاسم عندما بنى المنصور العباسى بغداد الجديدة التى سماها : « دار السلام » والتى أصبحت بعد قليل عاصمة الخلافة وحاضرة العالم الإسلامى كله .

وقد بنيت بحيث يخترقها نهر « دجلة » على خط العرض : ٣٩١٩° شمالا وخط الطول ٤٤٤٤° شرقى جرينتش . وبعد إنشاء بغداد الجديدة أو « دار السلام » اندمجت فيها القرى القديمة المجاورة ، وأهمها « الكرخ » التى لا تزال بهذا الاسم حياً من أحياء بغداد على الضفة الغربية لدجلة .

وضع المنصور ثانى خلفاء العباسيين ، الحجر الأول لبناء بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ثم بدأ العمل فيها بعدد من العمال يقال إنه بلغ مائة ألف ، وظل العمل فيها قائما

(١) انظر أصل التسمية وتعريبها فى تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، الجزء ١ - ص : ٥٨ - ٥٩ .

متصلا أربع سنوات ، وأقيم فى وسطها المسجد الجامع وقصر الخليفة الذى سمى « بباب الذهب » أو « القبة الخضراء » ثم أنشأ المنصور بعد ذلك لنفسه « قصر الخلد » خارج أسوار بغداد وإلى الشرق منها ، على نهر دجلة أيضاً ، كما أنشأ أيضاً لولى عهده « المهدى » قصورا أخرى أكبرها وأعظمها قصر « الرصافة » . وأخذ المنصور بعد ذلك فى تقسيم الأراضى التى تحيط ببغداد والرصافة وتوزيعها على قواد جيشه وأقاربه ومواليه ، وفى « تاريخ بغداد » بيان هذه الإقطاعات (١) .

مجلس المنصور وقبابه :

ومع أن المنصور كان يعرف « بالدوانيق » - لبخله وحرصه على الدانق - فقد أنفق فى بناء بغداد وقصورها وقصور « الرصافة » مالا كثيراً . وبنى لنفسه فى « القبة الخضراء » أربعة مجالس فى كل مجلس منها « قبة عظيمة ذاهبة فى السماء ، سمكها خمسون ذراعا مزخرفة ، وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لايشبه نظائره - وكانت هذه القبة مجلس المنصور إذا أحب النظر إلى الماء وإلى من يقبل من ناحية خراسان . وقبة « على باب الشام كانت مجلس المنصور إذا أحب النظر إلى الأرباض وما والاها » وقبة « على باب البصرة كانت مجلسه إذا أحب النظر إلى الكرخ ومن أقبل من الناحية » وقبة « على باب الكوفة كانت مجلسه إذا أحب النظر إلى البساتين والضياع » . واتسع عمران بغداد حتى قال الخطيب البغدادى إنه كان فيها « ستة آلاف درب وسكة بالجانب الغربى ، وأربعة آلاف درب وسكة بالجانب الشرقى » (١) .

على التاريخ الطويل :

هذه نشأة « بغداد » وتلك بدايتها ، فإذا مددنا النظر على مدى تاريخها الطويل ، من يوم ذاك إلى عصرنا الحاضر ، مرت بنا صور متباينة مختلفة مما مر بها : عز البرامكة ومجدهم وكرمهم وسلطانهم العريض ، ثم نهايتهم المؤسفة القاسية ، خيال الحياة الباذخة التى كان يحياها هارون الرشيد والمجد الشامخ الذى كانت تعيشه بغداد دولة الخلافة والإسلام ، هذا الخيال ، الذى انتزع من الحقيقة فأصبح حلما فى العالم كله ومثلا ، على مدى الدهر ، للعزة والثروة والنعيم ، والسلطان .

ثم تجىء على بغداد حرب الأخوين : الأمين والمأمون فتحرق - وخاصة قصر الأمين فيها - الذى هدم بالمجانيق وأحرق كله - وتنقل ، بعد هذه الأهوال ، عاصمة الخلافة من بغداد إلى : « سامراء » فى عهد

(١) ص : ٨٤ - ٨٥ من الجزء الأول .

(١) ص : ٩٨ من الجزء الأول من تاريخ بغداد .

المعتصم فترتد بغداد بذلك إلى المرتبة الثانية لخمسين سنة . ثم يهدم منها الجانب الشرقى فى حرب المعتز والمستعين ، بعد تخريب الجانب الغربى فى حرب الأمين والمأمون . وتخرب المدينة كلها ، أو ما بقى منها بعد ذلك ، مرة ومرة فى الخصومات والمنازعات التى كانت تقوم بين جند الأتراك وخلافات دولة : « بنى بويه »

ثم تجىء الطامة الكبرى بقدوم التتار وتخريبهم بغداد : بنيانها وحضارتها ومجدها وثقافتها ، حتى نجد « الفرات » يفيض ، بل يطمس ، بما ألقى فيه من الناس ومن التحف ونفيس المؤلفات . ثم تنتهى « بغداد » إلى حيث تكون أشبه بقرية صغيرة تحكمها وتحكم « ولايتها » الدولة العثمانية إلى سنوات من القرن العشرين .

مؤرخ بغداد : ٣٩٢ — ٤٦٣
١٠٠٢ — ١٠٧٢

أحمد بن على بن ثابت بن أحمد بن مهدى ، كنيته : أبو بكر ، وشهرته : الخطيب البغدادى ، ولد فى « درزيجان » (١) ـ قرية من قرى العراق ـ ثم انتقل إلى بغداد فنشأ وعاش فيها ، عدا فترة من حياته خرج منها إلى الشام ، ثم عاد إلى بغداد فمات فيها .

كانت ولادته فى سنة ٣٩٢ (١٠٠٢ م) فى شهر جمادى الآخرة « ٢٤ منه » ، ولقد بدأ يتعلم الحديث الشريف ورحل فى سبيل ذلك إلى مكة فسمع من ثقات المحدثين فيها ، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة والدينور وغيرها . يسمع ويحفظ حتى صار من أكبر رجال الحديث ، ثم اتجه إلى الفقه فدرس ـ أول ما درس ـ مذهب الإمام ابن حنبل .

يقول ابن خلكان عنه : « إنه كان فقيها فغلب عليه « الفقه والتاريخ » ، ونال الخطيب البغدادى بعد ذلك ثقة الخليفة المستنصر العباسى ، ورعاية وزيره ابن مسلمة ، وكانت له عند هذا الوزير منزلة وكرامة جعلته يختاره لتدريس الحديث بمسجد المنصور فى بغداد .

وبقى الخطيب ، مؤرخ بغداد ومحدثها وفقيهها ، ينعم بهذه الرعاية من المستنصر ووزيره حتى وقعت فتنة البساسيرى (١) التى قضى فيها على ابن المسلمة ، ولاقى الخطيب بعد ذلك محنة قاسية حتى أوشك أن يقتل ، لولا أنه فر إلى دمشق ، وكاد أن يقتل فيها أيضاً

(١) هذه ، فيما نعتقد ، أوثق الروايات ، وابن خلكان يقول إنه ولد « ببغداد » وهناك من يقول إنه ولد فى « غزية » بين مكة والكوفة .

(١) أبو الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى ، وخروجه على المستنصر وقتله وقتل وزيره ابن المسلمة من الوقائع المشهورة فى التاريخ انظر ، مثلا ، النجوم الزاهرة الجزء ـ ٥ ـ

ولكنه استجار بابن أبي الجن [1] الشريف فأجاره، ورحل إلى حلب وصور وطرابلس حيث أقام في هذه البلاد زمنا، ثم عاد إلى بغداد في آخر عمره فمات بعد رجوعه بعام واحد، في اليوم السابع من ذي الحجة سنة ٤٦٣ (١٠٧١ م) ودفن إلى جوار المتصوف الزاهد بشر الحافي، بعد جنازة حافلة.

وكانت وفاته مع ابن عبد البر [2] في سنة واحدة، وكان البغدادي يسمى حافظ المشرق وابن عبد البر حافظ المغرب.

مكانته وأخلاقه ومؤلفاته:

تلق الخطيب البغدادي العلم على كبار الشيوخ في عصره، منهم أبو القاسم السلمي الدمشقي المعروف بالسميساطي، وأبو الحسن المحاملي، والقاضي أبو الطيب الطبري، وكان أبوه خطيباً فأخذ في تعليمه في سن مبكرة حتى بلغ في الحديث منزلة جعلت محدثي بغداد وخطباءها يعرضون عليه ما يجمعون من الحديث الشريف ليظهر لهم صحيحها من غيره قبل أن يتحدثوا بها إلى الناس في خطبهم، وتولى الخطابة مثل أبيه فعرف « بالخطيب »،

وكان العالم الحجة أبو إسحق الشيرازي ينتفع بعلمه كثيراً ويجل قدره حتى حرص على أن يسير في جنازته وأن يحمل نعشه على كتفه، ويقول بعض مؤرخيه إن العلامة الشيرازي كان يعرض عليه كتبه ليراجعها، ويصفه ابن خلكان بأنه « كان من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين ».

وكان مع علمه الواسع بالحديث، فصيح اللهجة عارفا بالأدب كثير القراءة والتأليف، يجمع بين الحديث والفقه والتاريخ ويقول الشعر.

ذكر له ياقوت [1] ستة وخمسين مؤلفاً، بعضها في مصطلح الحديث مثل: « الكفاية في علم الرواية »، و « الفوائد المنتخبة » في الحديث، و « شرف أصحاب الحديث » في الرجال، و « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » - في عشرة مجلدات - وغيرها.

كما أورد له كتبا في الأدب مثل « البخلاء »، و « الأمالي »، و « تلخيص المتشابه في الرسم »، وأخرى في الفقه مثل: « الفقيه والمتفقه »

---

(١) أحمد بن علي بن محمد القاضي أبو الحسين. كان يلي قضاء دمشق للمستنصر.

(٢) أبو عمر يوسف بن عبد البر صاحب كتاب الاستيعاب.

(١) أورد الأستاذ يوسف العش - دمشق - في كتابه: « الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها » أسماء ٧٩ مؤلفاً للبغدادي. وابن خلكان - في وفيات الأعيان - يقول إنه: « صنف قريبا من مائة مصنف ».

ـ فى اثنى عشر جزءا ـ وغيرها ، وبعض هذه الكتب لا يزال مخطوطا .

وكان ، إلى علمه وتمكنه ، يحرص على الدقة والتثبت . يقول فى ذلك أبو عبيد الله الحميدى [١] : « ما راجعت الخطيب فى شىء إلا وأحالنى على كتاب وقال : حتى أبصره » فهو لا يريد أن يعتمد على حفظه وحده ، بل لابد أن يراجع ما يحفظ ويطمئن إليه ويتثبت منه .

أما مكانته فى عصره فقد عرفنا طرفا منها فيما سبق من الحديث عن صلته بالمستنصر وابن المسلمة وعن شيوخه وتلاميذه ومن حمل نعشه ، وسار فى جنازته . وقد روى مؤرخوه قصة تدل على علو منزلته أيضا بين معاصريه من كبار الشيوخ : قالوا إن الشيخ الزاهد أبا بكر بن زهراء كان قد أعد لنفسه قبرا إلى جانب قبر بشر الحافى ، وكان يذهب إليه فيبيت فيه ليلة كل أسبوع ويقرأ القرآن فلما أدرك الخطيب قرب أجله أوصى بأن يدفن إلى جوار بشر .

فلما مات ذهب كبار الشيوخ إلى ابن زهراء يرجونه فى أن يترك للخطيب القبر الذى هيأه لنفسه إلى جوار بشر ، فأبى إباء شديداً ، فذهب الشيوخ إلى الشيخ الكبير أبى البركات إسماعيل بن أبى سعد يوسطونه فى ذلك ، فأحضر الشيخ ابن زهراء وقال له : « أنا لا أقول لك : أعطهم القبر ، ولكن أقول لك لو أن بشراً الحافى فى الأحياء وأنت إلى جانبه فجاء أبو بكر الخطيب يقعد دونك ، أكان يحسن بك أن تقعد أعلى منه ... ؟ قال : لا ، بل كنت أقوم وأجلسه مكانى ، قال فهكذا ينبغى أن يكون » . فطاب قلب الشيخ أبى بكر ابن زهراء وترك قبره ليدفن فيه الخطيب .

وكان الخطيب البغدادى متصوفا زاهداً ، لم يترك عقبا ، لما قرب أجله كان عنده مائتا دينار فرقها كلها على الفقراء والفقهاء وأهل الحديث ، وأمر بأن يتصدق عنه ، بعد موته بجميع ما عليه من الثياب . أما كتبه فقد وقفها على المسلمين .

تاريخ بغداد :

أما أعظم كتبه على الإطلاق وأبقاها على الزمن فهو « تاريخ بغـــداد » الذى يقول فى مقدمته : (هذا كتاب : تاريخ مدينة السلام وخبر بنائها ، وذكر كبار نزالها ، وذكر واردها وتسمية علمائها ... الخ) .

و « تاريخ بغداد » سجل حافل تضمن وصف « المدينة وتخطيطها ، وما كانت عليه من

(١) أندلسى من جزيرة ميورقة ولد فى أواخر القرن الرابع ورحل إلى كثير من البلاد لطلب الحديث ثم استوطن بغداد . وكان من المتصلين بابن حزم الظاهرى وله كتاب فى تاريخ الأندلس .

الحضارة والمدنية . يترجم فيه للخلفاء والملوك والأمراء والوزراء ، والأشراف من علية الناس ، وسائر طبقات حملة القلم : النحاة ، والصرفيين والبيانيين واللغويين ، والقراء والمفسرين والمحدثين ، والفقهاء والقضاة ، والزهاد والمتصوفة والوعاظ » .

ويسجل تاريخ بغداد أيضا تاريخ رجالها من الفلكيين وأهــل الحساب والهندسة والتنجيم والطب والشعر والتاريخ والجراحة والرماية والفروسية وحذاق الصناعات ، يترجم لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أهل بغداد والوافدين عليها .

وقد ختم كتابه بذكر الشهيرات من نسائها وإمائها ولطائف ملحهن .

ويتضمن تاريخ بغداد تراجم وسير : ٧٨٠٠ من الرجال ، تتبعها تراجم اثنتين وثلاثين من نساء بغداد : « المذكورات بالفضل ورواية العلم » كما قال عند التأريخ لهن . وأسلوب الكتاب سهل واضح سليم من أحسن أساليب عصره .

وقد عنى المستشرقون بالخطيب وكتابه هذا ، فسجل فضله «بروكلمان» و «جولدزيهر» ونشر سلمون : (Salmon) مقدمة تاريخ بغداد فى ٣٠٠ صفحة باللغة الفرنسية وهذه المقدمة تدل على إحاطة الخطيب البغدادى بجملة كبيرة من المعارف الجغرافية والتاريخية التى كانت متداولة فى عصره .

وقد أثار الخطيب موجة من الغضب بسبب ما كتبه عن أبى حنيفة - الجزء ١٣ - وسجل ابن تغرى بردى [1] مظاهر هذا الغضب وبالغ فيها كثيراً . وألف غير واحد من العلماء كتباً فى تبرئة أبى حنيفة عما كتبه الخطيب منهم الحافظ ابن الجوزى [2] ، وعالم الملوك ، الملك المعظم « توران شاه » الذى ألف فى ذلك كتابه « السهم المصيب فى الرد على ابن الخطيب » .

* * *

هذه تحية متواضعة لعالم من أكبر علماء العرب الأعــلام : الخطيب البغدادى لمناسبة ذكرى مرور اثنى عشر قرنا على إنشاء بغداد ، المدينة التى نشأ فيها ومات ، والتى خلد ذكرها وذكر رجالها فى تاريخه العظيم الحافل .

محمود الشرقاوى

---

(١) الجزء - ٥ - من كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة طبع دار الكتب المصرية ١٩٣٥ .

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن « أبو الفضائل » كان عالما فى جميع علوم عصره ، حتى الطب ، ولد فى بغداد سنة ٥١٠ (١١١٦) م ومات سنة ٥٩٧ (١٢٠٠) م .

مع البلاغيين :

اللفظ والمعنى

للأستاذ علي العماري

— ٤ —

أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري صاحب كتاب (الشعر والشعراء) وإن كان له فضل لا ينكر على النقد والبلاغة والأدب لكنه كان يصدر في منهجه عن عقلية منطقية ، فقد رأى السابقين عليه يدورون في نقدهم حول اللفظ والمعنى ، وأحيانا يفضل أحدهم اللفظ على المعنى كما فعل أستاذه الجاحظ فاستعان بتفكيره المنطقي ، وأخذ يقلب المسألة على وجوهها ، فرأى أنها تنحصر في أقسام أربعة ، فإما لفظ مع معنى ، وإما لا لفظ ولا معنى ، وإما لفظ دون معنى ، وإما معنى دون لفظ وهذا هو مقتضى القسمة العقلية ، وهكذا ورد قوله في أول مقدمة الشعر والشعراء :

تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب : ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه كقول القائل :

في كفه خيزران ريحه عبق
من كف أروع في عرنينه شمم
يغضي حياء ويغضى من مهابته
فلا يكلم إلا حين يبتسم

لم يقل أحد في الهيبة أحسن منه ، وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفس أجملي جزعا
ان الذي تحذرين قد وقعا

لم يبتدئ أحد مرثية بأحسن منه ، وكقول أبي ذؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تقنع

حدثني الرياشي عن الأصمعي أنه قال : هذا أبرع بيت قالته العرب ، وكقول حميد ابن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة
وحسبك داء أن تصح وتسلما

لم يقل أحد في الكبر أحسن منه وكقول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب
وليل أقاسيه بطيء الكواكب

لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أعرب ، ومثل هذا في الشعر كثير ، ليس للإطالة في هذا المعنى وجه ، وستراه

عند ذكرنا أخبار الشعراء ، وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا أنت نتشته لم تجد هناك طائلا كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

وهذه الألفاظ أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع ، فاذا نظرت إلى ما تحتها وجدته ، ولما قضينا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينظر من غدا الرائح ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح ، وهذا الصنف فى الشعر كثير ، ونحو منه قول جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا
وشلا بعينك لا يزال معينا
غيضن من عبراتهن وقلن لى
ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وكقوله :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله أركانا

وضرب منه جاد معناه ، وقصرت الألفاظ عنه ، كقول لبيد :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق ، وكقول النابغة النعمان

خطاطيف حجن فى حبال متينة
تمد بها أيد إليك نوازع

رأيت علماءنا يستجيدون معناه ، ولا أرى ألفاظه مبينة لمعناه ، لأنه أراد أنت فى قدرتك على كخطاطيف عقف وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف ، وعلى أنى لست أرى المعنى حسنا ، وكقول الفرزدق :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه
ليل يصيح بجانبيه نهار

وضرب منه تأخر لفظه ، وتأخر معناه ، كقول الأعشى :

وفوه كأقاحى غذاه دائم الهطل
كما شيب براح بارد من عسل النحل

وكقوله :

إن محلا وإن مرتحلا
وإن فى السفر إذ مضوا مهلا
استأثر الله بالوفاء وبالحمـ
ـد وولى الملامة الرجلا
والأرض حمالة لما حمل الله
ـه وما أن ترد ما فعلا
يوما تراه كشبه أردية العـ
ـصب ويوما أديمها نقلا

وهذا الشعر منحول لا أعرف فيه شيئا يستحسن إلا قوله :

يا خير من يركب المطي ولا
يشرب كأسا بكف من بخلا

فقال إن كل شارب يشرب بكفه وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل ، وهو معنى لطيف ، وكقول الخليل ابن أحمد العروضي :

إن الخليط تصدع
فطر بدائك أوقع
لولا جوار حسان
حور المدامع أربع
أم البنين وأسما
ثم الرباب وبوزع
لقلت للقلب ارحل
إذا بدا لك أودع

وهذا الشعر بين التكلف ، ردىء الصنعة وكذلك أشعار العلماء ليس فيها شيء جاء عن اسماح وسهولة كشعر الأصمعي وابن المقفع والخليل خلا خلف الأحمر ، فإنه كان أجودهم طبعا ، وأكثرهم شعراً ، ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه ... وقد يقدح فى الحسن قبح اسمه ، ويزيد فى مهانة الرجل فظاظة اسمه ، وترد عدالة الرجل بشاعة كنيته .

وإنما نقلت هذه الفقرات بتمامها ليتمكن القارىء من متابعة الحديث عن اتجاه ابن قتيبة فى موضوع اللفظ والمعنى ، وليكون حكما عندما نعرض للذين اعتمدوا على هذه الفقرات ، ورموا ابن قتيبة بفساد الرأى فى العلاقة بين اللفظ والمعنى ، وبضيق النظر . وضعف الذوق ، وسذاجة النقد ، وبأنه رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله وأنه حاول أن يورد عن غيره بعض المقاييس فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليصفها وصفها الحقيقى .

وقد يكون بعض ما قيل صحيحا لو أن مقدمة الشعر والشعراء هى مجهود ابن قتيبة فى النقد ، ولكن الاقتصار عليها ظلم للرجل ، وكان ينبغى حين يعمد كاتب أو ناقد إلى الحديث عن مثل هذا العالم أن ينظر نظرة شاملة فى كتابه لتكون أحكامه صحيحة أو قريبة من الصحة .

وقد بدأت هذا الحديث أن ابن قتيبة كان يصدر فى منهجه عن عقلية منطقية ، وإنما قصدت منهجه فى تقعيد القواعد ، وإيراد الحجج ، ولم أتعرض لذوقه ، وأرجأت الحديث عنه إلى هذا الموضع من البحث .

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الرجل هو الثالث ، فى العلماء ، الذين حاولوا أن يؤصلوا للنقد أصولا ، وأن يضعوا له حدودا فى كتاب يقرأ ويتدارس ، والإثنان الآخران

هما محمد بن سلام الجمحى ، وعمر بن بحر الجاحظ ، ولا نعدو الحقيقة كذلك إذا قلنا إن ابن قتيبة يعد بين علماء الفقه الإسلامى بل العلوم الدينية بعامة ،وقد كان خطيب أهل السنة فى حين كان الجاحظ خطيب المعتزلة ، وله مؤلفات كثيرة تشهد برسوخ قدمه فى علوم القرآن والحديث ، ولكنه مع ذلك كان مشاركا فى الأدب ، وكان تلميذا للجاحظ ، وصديقا وزميلا لأبى العباس محمد بن يزيد المشهور بالمبرد ، فهو ليس غريبا عن هذا الميدان .

فصل ابن قتيبة بين اللفظ والمعنى ، وهو فى ذلك تابع لأستاذه الجاحظ ، وسلف لعلماء كثيرين جاءوا بعده نظروا هذه النظرة ، ولأدباء فضلاء صدروا فى أحكامهم عنها ، (جاء فى ترجمة القاضى الأرجانى فى كتاب معاهد التنصيص فى شواهد التلخيص) [١] ما يأتى : قال أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشاعر : كان الغزى صاحب معنى لا لفظ ، وكان الأبيوردى صاحب لفظ لا معنى، وكان القاضى أبو بكر صاحب لفظ ومعنى ، قال ابن الخشاب : والأمر كما قال ، وأشعارهم تصدق هذا الحكم إذا تؤملت .

فلا يتجه حينئذ ما يقوله أحد النقاد : والتحدث عندئذ عن العلاقة بين اللفظ والمعنى كالتحدث عن شفرتى مقص ، والتساؤل عن جودة أحدهما كالتساؤل عن أى الشفرتين أقطع [١] .

وهذه كلمة نقلت حرفيا من النقد الغربى ، وليس كل ما جاء عن الغرب واجب القبول، لأن هذا أمر مرجعه إلى الإحساس والذوق ولا شك أننا - مثلا - نجزم بأن معانى ابن الرومى أجود من ألفاظه ، وأن ألفاظ البحترى أسمح من معانيه ... وهكذا كما نحكم - مثلا - بأن شوقيا يؤثر الألفاظ الرقيقة فى كل شعره . وأن المتنبى يؤثر الألفاظ الجزلة فى كل شعره أيضا ، وأن غيرهما من الشعراء يدور شعره من حيث اللفظ بين الرقة والجزالة .

ثم ما حدود اللفظ الجيد ؟ وما المراد بالمعنى ؟ وما سر جودته عند ابن قتيبة ؟ كثير من كتبوا فى النقد بعد ابن قتيبة ، وخاصة المحدثين من نقادنا حاولوا الإجابة عن هذه الأسئلة ، ولكنها - مع الأسف - كانت إجابات ناقصة لأنها لم تعد النظر فى مقدمة الشعر والشعراء .

---

(١) ج ٣ ص ٤٢ .

(١) الدكتور محمد مندور فى كتابه (النقد المنهجى عند العرب) ص ٣٠ . ط نهضة مصر .

وابن قتيبة لم يقل لنا ما هو اللفظ الجيد ولا ما هو المعنى الذى يريد ، وما سر جودته وإنما تؤخذ الأجوبة على كل ذلك من حديثه العابر عن أقسام الشعر ، ومن شواهده التى ساقها ، وينبغى أن نضم إليها ما تناثر فى كتابه من نقد للشعر وأحكام على بعضه مرة بالجودة وأخرى بالاستقباح .

جاءت أول إشارة إلى اللفظ فى حديث ابن قتيبة عند ما علق على بيت النابغة فقال : لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أعرب ، ومعنى هذه الكلمة الأخيرة شدة الوضوح ، ولو سرنا مع هذا الناقد لوجدناه يؤثر الوضوح بالعبارة أو الإشارة وحديثه عن المطبوع والمتكلف يشير إلى ذلك ، ومعروف أن المطبوع سهل عذب وأن المتكلف متعقد كز ، وأن للأول ماء ورقة وحلاوة ، وفى الثانى غلظا وجساوة . وقد ورد الماء والرونق فى حديث ابن قتيبة عن بيت لبيد ، وهما أمران يدركهما الذوق ثم وصف اللفظ بصفات عامة يحتاج مدلولها إلى بيان كقوله فى أبيات كثير (ولما قضينا الأبيات) إنها أحسن شىء مطالع ومخارج ومقاطع وكوصفه الألفاظ بالحسن والحلاوة ومن جمال الألفاظ عنده جودة السبك ، وتلاؤم النسج .

ولعل أولى الأوصاف بالاعتبار : الوضوح والإبانة ، فإنه يبدو من حديثه أن الإبانة شرط أساسى فى جودة الشعر ، وأنها دليل الطبع ولذلك لما عاب بيت النابغة (خطاطيف حجن ...) عابه بأن ألفاظه غير مبينة عن معناه ، وحين تحدث عن أشعار العلماء عابها بأنها لا تجىء عن اسماح وسهولة . وأضاف إلى ذلك سوء اختيار الألفاظ ، فقال عن أبيات الخليل : ولو لم يكن فى هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه .. أى لكفاه عيبا ، بدليل قوله : وقد يقدح فى الحسن قبح اسمه ، ويزيد فى مهانة الرجل فظاظة اسمه .

أما المعنى فيبدو من الشواهد التى اختارها فى تقسيم الشعر أنه يريد به الفكرة أو الحكمة أو ما دل على خلق جميل ، وقد يريد به التصوير الرائع ، فاستجادته لمعنى (يغضى حياء ...) إنما هو استجادة لفكرة بارعة واستجادته لبيت أبى ذؤيب : « والنفس راغبة ... » حتى قال فيه نقلا عن الأصمعى أنه أبرع بيت قالته العرب استجادة لمعنى خلقى ، أما المعنى الذى فى بيت حميد بن ثور : « أرى بصرى ... » فهو حكمة رائعة ، وإعجابه بالتصوير جاء فى استشهاده ببيت النابغة حيث عبر عن طول الليل بأنه بطىء الكواكب .

ويبدو أنه يفرد التشبيه فيجعله أمرا مستقلا يجود به الشعر ، يدل على ذلك قوله فى المقدمة

ليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار على جهات وأسباب ، منها الإصابة فى التشبيه . فالظاهر من هذا الصنيع أنه يجعل التشبيه خارجا عن اللفظ وعن المعنى ، ويردد ذلك فى أثناء الكتاب، ومن ذلك ما جاء فى ترجمته للعباس ابن الأحنف حيث يقول: ومن بديع تشبيهه قوله فى المرأة إذا مشت :

كأنها حين تمشى فى وصائفها
تخطو على البيض أو خضر القوارير

وقوله :

قلبى إلى ما حزنى داعى
يكثر أسقامى وأوجاعى
كيف احتراسى من عدوى إذا
كان عدوى بين أضلاعى

يعنى قلبه . ومن هنا يظهر أنه يقصد بالتشبيه الصريح ، وما سماه الذين جاءوا بعده من علماء البلاغة « الاستعارة » . وهو يجعل التشبيه فى بيت بشار المشهور :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

من جيد التشبيه ، وقد أطال المتأخرون من علماء البلاغة فى امتداح هذا التشبيه مع أن المشبه به غير واقع على ما صور بشار .

ويكاد يجمع الكاتبون من المعاصرين على أن ابن قتيبة لا يعجبه من المعانى إلا أحد أمرين الفكرة أو المعنى الأخلاقى ، والحق أن ذلك كما قلت - قصور سببه الاقتصار على النظر فى المقدمة ، وإلا فإننا بسياحتنا فى كتاب « الشعر والشعراء » ترى أن ابن قتيبة استحسن كل المعانى التى يستحسنها أهل الذوق من الأدباء ، فهو يستحسن معانى فى الغزل ، وفى الهجاء وفى المدح ، بل ويستحسن مجرد التصوير البارع ، دون أن يتضمن أى معنى محبب ، بجانب ما يستحسن من شعر الفكرة والشعر الأخلاقى ، فقد جاء فى ترجمته لأبى الشيص : ومن جيد شعره :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى
متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا
ما من يهون عليك ممن أكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم
إذا كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة
حبا لذكرك فليلمنى اللوم

(الحديث بقية)

علی العماری

بين العالم الإسلامى وأوربا

حرية العقيدة فى الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

ليس أدل على شمول مدلول الحرية الإسلامية من مبدأ حرية العقيدة الذى جاء به الإسلام فى القرن السابع للميلاد ، واستقر فى تاريخه السياسى عبر العصور .

فقد بعث الرسول الكريم ليطلق الفرد من إسار الشرك بالله وليبدل ظلمات الناس وجهالاتهم أمنا ونورا . واقتضت به طبيعة الرسالة أن يسلك سبيل الدبلوماسية الحميدة لنشر دعوته فى الجزيرة العربية ومنها إلى أرجاء العالم أجمع . فكان يبشر بعقيدته بالطرق الودية السلمية ويبثها فى النفوس بالحسنى والإقناع . فلم يأخذ بأسلوب العدوان للقضاء على القيم الباطلة والذين يتمسكون بها ، ولكنه استخدم الحكمة فى هداية الذين يضلون عن سبيل الله وينشرون الباطل . كما قال الله تعالى :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم » . « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

ذلك أن الدين لله ، ونحن الفقراء إليه وهو الغنى الحميد . وإنما شرع سبحانه ، الإيمان لهداية الناس إلى ما فيه نفعهم وصلاحهم . ولقد بين لهم طريق الخير وطريق الشر :

« فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

« ولتجزى كل نفس بما كسبت » .

« كل امرئ بما كسب رهين » .

وفى هذا المعنى جاءت الآيات البينات :

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » .

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد »

« فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ » .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

« فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

« وما أنت عليهم بجبار » .

ومدلول هذه الآيات أن الإسلام يستنكر الإكراه ويحرمه ولو كان سبيلا إلى اعتناق دينه ، فالإيمان تحرر من الخوف ، ولا يستقيم أن يكون القهر والترهيب طريقا إلى الأمن والطمأنينة :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب » .

« الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

والدين الحق أعز عند الله من أن يدخل فيه الناس جبرا وإذعانا ، فهو عقيدة تستقر فى القلب ، وينبغى أن يطمئن إليها العقل الذى ميز به الله الإنسان دون سائر مخلوقاته .

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

دعوة الإسلام إلى استقلال الفكر

ومثلما ينهى الإسلام عن القهر والعسف أسلوبا لنشر مبادئه كذلك لا يرتضى اعتناقها عن تقليد ، فهو دين العقل وعقيدة الحرية ، وقد نعى على المشركين احتجاجهم بأنهم يسايرون آباءهم فى معتقداتهم ووصمهم بالجهالة والعبودية .

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » .

أو يتبعون كهانهم :

« قاتلهم الله أنى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

ودعا إلى استقلال الفكر وإطلاقه من أسر التقليد بغير تدبر ، وحث الإنسان على التماس الحقيقة ، معتمداً على قدرته العقلية ، وما أودعه الله فيه من فطرة سليمة . فجعل أساس الإيمان النظر فى خلق السموات والأرض ، والتأمل فى حقائق الوجود . ولم يكتف بالدعوة إلى الإيمان بالله ورسوله من طريق تحريك الضمير والوجدان ، بل طلب كذلك الاستدلال على وجود الله ووحدانيته بالتفكير السليم .

« إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون » .

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير » .

« ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم » .

« ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » .

وكما يدعو الإسلام الناس إلى التحرر من الأوهام والضلالات من طريق التأمل والتفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون ، يدعوهم كذلك إلى الاحتكام إلى العقل فى إدراك نبوة الرسول ومعجزة القرآن الناطقة بصدقه :

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين . أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » .

« كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

« إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » .

والإسلام ينفرد بين الديانات السماوية بأنه استن منهج تحرير الفكر بالنظر إلى الدين من خلال الإنسان ، فإن من عرف نفسه عرف ربه ، وكان القدماء يبدءون بتقرير وجود الله ووحدانيته بأدلة منطقية فلسفية تخلو من الحياة ولا تستجيب لها النفس ، ولا يسلم بها العقل ، فجاء القرآن مقرراً :

« وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

« فلينظر الإنسان مم خلق » .

ونظرة الإسلام إلى قضية الدين ، أن الإيمان حق ، والحق رأس القيم الإنسانية ، وإنما ترسخ القيم فى النفس بالتدبر والتأمل ، ومن ثم ينبغى أن تكفل لها الحرية فى الوصول إلى العقيدة بوحى من وعيها ـ وإرادتها الخاصة ، فالحرية الصحيحة فى الإسلام لا تفهم إلا على أساس من العقل الذى أعلى الله من شأنه وجعل له القيمة الكبرى ، ونص القرآن صريح فى الأمر بالتفكير وإعمال العقل فى فهم آيات الله فى كتابه وفى كونه :

« هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » .

ذلك أنه متى كانت الحرية هى عماد الإيمان ، تحولت العقيدة إلى عمل وأصبحت سيرة وسلوكا

للفرد ، فاستقام بناء الحرية ونشأت أمة من الأحرار ، وهذا أحد الأهداف العليا للدعوة الإسلامية .

الجهاد تأمين لحرية العقيدة :

وقد كان تاريخ الإسلام السياسي تطبيقاً لمبدأ الحرية الدينية في جميع صوره بلا استثناء فشرعت الغزوات لدفع الفتنة والذود عن العقيدة لا للإكراه على اعتناقها ، فالإسلام دين ، ولكنه لا يحارب مخالفيه لمجرد صدودهم عن الدخول فيه ، إنما يحارب العدوان لا اختلاف الأديان ، فحروبه حروب دفاعية سواء كان المسلمون في موقف المهاجمين أم كانوا هم المهاجمين ، إذ كان يفرض عليهم الهجوم أحياناً بوصفه خطة حربية لامفر من انتهاجها لإحباط نية العدوان التي بيتها الخصوم ودل عليها انتهاكهم للمواثيق والإسلام يدعو إلى مقارعة الفكرة بالفكرة فإذا حمد باغ إلى السيف ، فقد فرضت الحرب على المسلمين ، وهم في حل من صراع عدوهم بمثل ما اعتدى عليهم ، حتى لا يحول بينهم وبين بث رسالتهم بالحسنى وتأمينهم في وطنهم وحريتهم وعقيدتهم . فحربهم حرب عادلة ، وهي جهاد مشروع في سبيل الله ، فلا جور فيها ولا عدوان على حرية أو عقيدة .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله » .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم » .

« فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

« ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » .

فشريعة الإسلام لا تبيح السيف إلا دفعاً لعدوان أو اتقاء له ، فلا سبيل للمسلمين على غيرهم إذا فاءوا إلى السلام وقبلوا عقد عهد به ولم ينقضوه ، بل إنه يكفل لهم حق اللجوء إلى أهله والاحتماء بهم ، ثم حرية المغادرة إذا شاءوا وإن كانوا يضمرون معاودة القتال ، ذلك أن الخير الذي يصيبهم إذا اختاروا الدين الحق إنما يعود عليهم ، ولا يعز الإسلام بقوم يدخلونه كرها ، وإنما

يعز بالأحرار الذين يرتضونه عن وعى وإرادة وإيمان ، لأن الحرية هى القوة وهى المنعة التى تنصر الحق وتنشر لواءه فى العالمين ، لا تبالى فى ذلك بالنفس والنفيس ، والعبرة فى الإسلام بقوة النفوس فى إخلاصها للعقيدة :

« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

كفالة حرية العقيدة للذميين :

والإسلام يخلى بين المرء وربه ويحمله تبعة العقيدة التى يختارها ، وليس فى شريعته إكراه على اعتناق العقائد والديانات الأخرى ، وهو لا يطلب من أصحاب هذه الديانات المقيمين فى داره إلا التزام آداب المجتمع الإسلامى واحترام أنظمته وقوانينه العامة ، بل إنه يقر لهم بأحكام شريعتهم فى الأحوال الشخصية ، أما الجزية التى يكلف بأدائها أولئك المواطنون فهى ضريبة ومزية لا تؤخذ إلا عن يد أى عن مقدرة ، ومن ثم ترفع عن الأطفال والشيوخ والنساء ، فهى أشبه « ببدل نقدى » للتجنيد لا يكلف به إلا القادرون على القتال والكسب معاً ، ولا أدل على تسامح الإسلام واتساع مدلول حرية العقيدة فيه من إعفائه هؤلاء الذميين الذين يشكلون جزءاً من مجتمعه ـ من الحروب والاستشهاد فى سبيل قضية لا يؤمنون بها نظير قدر زهيد من المال يحسب فى عداد شعائر الولاء التى تستوجبها كل الأنظمة احتراما لسيادة الدولة ، فهو غنم أكثر منه غرما إذا قيس بضريبة الدم التى يدفعها المسلمون لحماية أنفسهم وحماية الذميين على السواء ، أما إذا شاء هؤلاء أن يشاركوا المسلمين فى القتال فلا حرج عليهم وهم حينئذ معفون من الجزية ، وليس ثمة مساواة بين المسلمين وغير المسلمين أكمل ولا أوفى من هذه المساواة ، فهم لا يلزمون بغير الجزية فى أوقات الحروب ، ولا يكلفون بالزكاة فى أوقات السلم مثلما يكلف بها المسلمون ، بل إن شروط الإعفاء من الجزية أهون منها فى الزكاة .

وفى سبيل تأكيد هذه الضمانات التى سنها الإسلام لكفالة حرية العقيدة وامتدادها حتى شملت المساواة بين المسلمين والذميين فى الحقوق الاجتماعية على اختلاف أنواعها ، جاءت الشريعة الإسلامية بمبدأ صريح فى هذا الشأن ينص على أنه : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

وجاءت فى الكتاب العزيز آيات فى ذكر عيسى ومريم وإكرامهما حثا للمسلمين على تبجيلهما :

« قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا » .

(للبحث بقية)

رائد : حسن فتح الباب

من معانى القرآن

« يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » قرآن كريم

الطاعة : الانقياد مع الرضا والتسليم .

أولو الأمر : أصحاب الأمر من الأمراء بحق ، والولاة العدول ، أو العلماء المجتهدون الذين يعلمون الناس ويأمرونهم بما يقضى به دينهم .

التنازع والمنازعة ، المجاذبة والمخاصمة والمجادلة ، وأصله من نزع الشىء إذا جذبه من مقره أو اقتلعه من مكانه .

تأويلا : مآلا وعاقبة ، من آل الأمر إلى كذا بمعنى رجع إليه .

المعنى

يخاطب الله المسلمين بالوصف الذى يترتب عليه إسلامهم له ، وانقيادهم لأمره ، وهو الإيمان به وبكتبه وبرسله ، ويأمرهم بما يقضى به هذا الإيمان ، وهو الطاعة والإذعان لله والرسول ، ولأصحاب الأمر فيهم ممن يحكمون بما أمر به الله والرسول وتكون طاعتهم طاعة لله والرسول ، فإن الولاية والطاعة لا تكون إلا لهؤلاء كما يفهم من هذه الآية ، ومن قوله تعالى فى آية أخرى : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ويأمرهم ـ جل شأنه ـ إذا اختلفوا فى شىء وتنازعوا فيه وتخاصموا عليه بعضهم مع بعض أو مع ولاتهم وأمرائهم أن يرجعوه إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله إن كانوا يؤمنون بالله وبيوم الحساب والجزاء ، فإن ذلك هو مقتضى الإيمان وهو مع ذلك أحسن مآلا وأسلم عاقبة .

ومن هذه الآية يفهم :

١ ـ أن أولى الأمر الذين تجب طاعتهم يجب أن يكونوا من المؤمنين بدليل قوله : « منكم » .

٢ ـ أن التنازع بين أولى الأمر والمؤمنين يجب أن يكون الفصل فيه لحكم الله ورسوله بالرجوع إلى الكتاب والسنة .

٣ ـ أن طاعة الرسول تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب ، كما ذكر ابن القيم ، بدليل تكرير الفعل « أطيعوا » مع الرسول ، دون أولى الأمر ، فقد حذف الفعل معهم إيذاناً بأنهم إنما يطاعون تبعاً لطاعة الرسول ، فمن أمر منهم بطاعة الرسول وجبت طاعته ومن أمر بخلاف ما جاء به فلا سمع له ولا طاعة .

٤ ـ أن طاعة الرسول ـ بوصفه رسولا ـ طاعة لله ، بدليل قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، والنتيجة اللازمة لذلك كله أن الحكم كله لله ، وذلك ما يفهم من قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » .

عبد الرحيم فودة

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٨ —

في المقال السابق تحدثت عن مبدأ المساواة في الإسلام وأن النبي صلى الله عليه وسلم طبق هذا المبدأ السامي على نفسه وعلى أهله ، وعلى الناس جميعاً ، وأن الصديق سار على نهج الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يفرط في هذا المبدأ قيد شعرة ، واليوم أتحدث عنها في عهد الفاروق عمر رضي الله تعالى عنه ثاني الخلفاء الراشدين فأقول وبالله التوفيق :

لقد جاء الفاروق رضي الله تعالى عنه فطبق مبدأ المساواة في الأحكام الشرعية بين الناس جميعاً لا فرق بين ملك وسوقة ، ولا بين شريف ووضيع ، ولا بين غني وفقير ، وبالغ في التطبيق حتى اعتبره البعض مغالياً في هذا ، وكان يرى قتل الخليفة الظالم ، خطب يوما فقال : لوددت أني وإياكم في سفينة في لجة البحر تذهب بنا شرقا وغربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن حنف قتلوه فقال طلحة : وما عليك لو قلت : وإن تعوج عزلوه ، قال : لا ، القتل أنكى لمن بعده . وكان يسر حينما يجد من الرعية رقابة على الخلفاء والولاة خطب يوما فقال : يا أيها الناس : من رأى منكم في اعوجاجا فليقومه ، فقام رجل فقال : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، فقال : الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه !!!

وقد أعطى الفاروق القود ـ الاقتصاص ـ من نفسه وأهله ، وأقاد للرعية من الولاة بل تشدد في هذا وبالغ ، ولما قيل له في هذا قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي القود من نفسه ، وأبا بكر يعطي القود من نفسه ، وأنا أعطي القود من نفسي ، ومن تشددات عمر رضي الله تعالى عنه في تطبيق هذا المبدأ الإسلامي ما صنعه مع جبلة بن الأيهم ملك غسان ذلك أنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف حول الكعبة يوما وطيء إزاره أعرابي من بني فزارة ، فضربه على وجهه فشكاه الأعرابي إلى أمير المؤمنين عمر فاستدعى جبلة وقال له : إما أن ترضيه وإما أن يقتص منك ، فكبر

ذلك على جبلة وقال : ألا تفرقون بين الملك والسوقة ؟ قال : لا . قد جمع بينكما الإسلام فاستمهله إلى الغد ، ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بهرقل بالقسطنطينية فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع .

وقد أخذ أمير المؤمنين عمر الولاة بما أخذ به نفسه فما ظلم أحد من الولاة أحدا من الرعية إلا اقتص له منه ، ومن أخباره في هذا ما روى أنه جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم قال : عذت معاذا ، قال : سابقت ابن عمرو ابن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يأمره بالقدوم عليه ، ويحضر معه ابنه . فقال عمر : أين المصرى ؟ خذ السوط فاضرب ، فجعل الرجل يضرب بالسوط ويقول عمر : اضرب ابن الأكرمين! ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمرو يعنى ابن العاص ، فقال المصرى : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو بن العاص قولته المشهورة : « مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، قال : يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى الرجل المصرى .

وإنه لمثل فى المساواة فريد لا نكاد نعثر عليه فى غير تاريخ الإسلام ولا سيما عصوره الأولى . وخطب يوما فقال : « يا أيها الناس إنى ما أرسل عمالا إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلى فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه » . فقال عمرو ابن العاص : أرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لتقصنه منه قال : إى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصنه منه وكيف لا أقص منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه .

وقد آذن الفاروق الناس جميعا أن لا كبير فوق الحق ، ولا سلطان إلا سلطان الشريعة وما كان يعتبر نفسه أمام القضاء إلا كواحد من الناس جاء فى « كنز العمال » عن الشعبى قال : كان بين عمر وبين أبى بن كعب خصومة فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا فجعلا بينهما زيد بن ثابت فأتياه ، فقال عمر : أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم ، فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال : ههنا يا أمير المؤمنين فقال له عمر : هذا أول جور جرته فى حكمك ولكنى أجلس مع خصمى ، فجلس بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر فقال زيد لأبى : أعف أمير المؤمنين

من اليمين وما كنت لأسألها لأحد غيره ، خلف عمر لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء .

وليس هذا بعجيب من عمر الذى وضع هذا الأساس العادل فى كتابه إلى أبى موسى الأشعرى أحد ولاته وقضاته الذى قال فيه : آس ـ ساو ـ بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ...

وكان رضى الله عنه ـ يكرم القضاة الذين لا يحاملون ، ولا يفرقون بين الخصوم فى المعاملة ، ويرى أنهم الحقيقون بولاية القضاء ، ذلك أنه أخذ فرسا من رجل على سوم لحمل عليه فعطب فخاصم الرجل عمر فقال عمر : اجعل بينى وبينك رجلا فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى فقال شريح لعمر : أخذته صحيحا سليما فأنت له ضامن حتى ترده صحيحا سليما وكان هذا الحكم الذى أصدره شريح ضد عمر من الأسباب التى حفزت عمر على تعيينه قاضيا وهكذا نجد أن لا فرق فى الإسلام فى القضاء بين خليفة ووال وواحد من عرض الناس وقد جرى العمل فى الإسلام على محاكمة الخلفاء والولاة أمام القضاء العادى ، وبالطريق العادى الذى يحاكم به بقية أفراد الشعب ، وقد سمعت آنفا ما كان من الفاروق عمر وهذا على ابن أبى طالب فى خلافته يفقد درعاله ويجدها مع يهودى يدعى ملكيتها ، فيرفع على أمره إلى القاضى فيحكم لصالح اليهودى ضد على ، وهذا هو المغيرة بن شعبة والى الكوفة يتهم بالزنا فيحاكم على الجريمة المنسوبة إليه بالطريق العادى وقد استمر العمل بهذه المساواة بعد عصر الخلفاء الراشدين فقد قص علينا التاريخ الصحيح أن المأمون وهو خليفة المسلمين اختصم مع رجل بين يدى يحيى بن أكثم قاضى بغداد ، فدخل المأمون إلى مجلس يحيى وخلفه خادم يحمل طنفسة لجلوس الخليفة فرفض يحيى أن يميز الخليفة على أحد من أفراد رعيته وقال : يا أمير المؤمنين لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه فاستحيا المأمون ، ودعا للرجل بطنفسة أخرى وهكذا سار العمل فى الدولة الإسلامية فى العصور التى كانت السيادة فيها للشريعة الإسلامية ، وأحكامها ، وقواعدها .

وقد اتفق الفقهاء على المساواة فى المسئولية والعقوبة بين جمهور الناس وبين الولاة والحكام والسلاطين والملوك الذين يخضعون للخليفة الذى عقدت له البيعة أو يستمدون سلطتهم منه ، وأن الجميع أمام سلطان الشريعة سواء .

ولكنهم اختلفوا فى الإمام الذى ليس

فوقه إمام وهو ما يعرف فى الإسلام بالإمام الأعظم أو الخليفة على رأيين :

الأول : رأى الجمهور من الفقهاء. وهم : مالك ، والشافعى، وأحمد ، وهؤلاء لا يفرقون بين جريمة وجريمة ، ويرون أن الإمام مسئول عن كل جريمة ارتكبها سواء منها ما يتعلق بحق الله أو يتعلق بحق العباد ، وإن فيما سقناه من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته الناس إلى الاقتصاص منه ، ومن سير الخلفاء من بعده ما يؤيد هذا الرأى ويقويه .

الرأى الثانى : رأى الإمام أبى حنيفة ، وخلاصته أن الإمام الأعظم لا يؤاخذ بشىء مما يجب به الحد كالزنا والشرب والقذف إلا القصاص والأموال ، فإذا قتل إنسانا أو أتلف ماله يؤاخذ به ، وحجتهم أن الحد حق الله تعالى ، وهو المكلف بإقامته ، ومن المتعذر أن يقيم الخليفة الحد على نفسه بخلاف حقوق العباد : كالقصاص وضمان المتلفات ؛ لأن حق استيفائها لمن لهم الحق ، فيكون الإمام فيه كغيره .

وليس معنى هذا عند الإمام أبى حنفية أن عدم إمكان عقوبة الإمام الأعظم على جريمة من الجرائم أنها تحل له ، لا بل هى حرام عليه ويترتب على هذا أن الإمام لو زنا وهو محصن فقتله أى فرد من الأفراد فإن القاتل لا يعاقب لأنه قتل شخصا مباح الدم إذ الزنا من محصن عقوبته الموت بالرجم .

أما الجرائم التى تمس حقوق الأفراد كالقتل والجـــراح والأموال فيرى أبو حنيفة أن الإمام الأعظم يؤاخذ بها ويعاقب عليها ؛ لأن حق استيفائها ليس له أصلا وإنما هو للمجنى عليهم وأوليائهم ، وإذا قام الإمام باستيفاء العقوبة فى هذه الجرائم فإنما يقوم به نيابة عن الأفراد فإذا ارتكب الإمام جريمة من هذا النوع كان للأفراد أصحاب الحق الأصلى استيفاء العقوبة من الإمام مستعينين فى ذلك بالقضاء وبالجماعة الإسلامية .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية لا تميز رئيس الدولة الإسلامية الأعلى بالحقوق فهى من باب أولى لا تميز رؤساء الدول الأجنبية فإذا ارتكبوا أية جريمة حال وجودهم فى دار الإسلام عوقبوا عليها ، وكذلك لا تعفى الشريعة رجال السلك السياسى إذا ما أتوا بجريمة فى دار الإسلام ولا أعضاء الهيئة التشريعية على الجرائم القولية التى يرتكبونها فى دار الشورى ـ البرلمان ـ لأن الشريعة الإسلامية تأبى أن تميز فردا عن فرد أو جماعة عن جماعة ، ولأنها تأبى أن تسمح لفرد أو هيئة بارتكاب الجرائم مهما كانت وظيفة الفرد أو الجماعة ؟

محمد محمد أبو شهبة

---

(١) التشريع الجنائى الإسلامى ج ١ ص ٣٢٠ وما بعدها .

الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين

للأستاذ أحمد الشرباصي

الدين يؤدي إلى التدين، والتدين يقين واعتقاد، والاعتقاد يقوم على إيمان وطيد وتصديق جازم، ولذلك تعتبر العقيدة الدينية ذات سلطة مكينة مهيمنة على صاحبها، ومن هنا يظهر أثر الدين البليغ في توجيه الإنسان ودفعه إلى أداء واجبه العبادي والاجتماعي، فإذا ضم الدين في مبادئه وتعاليمه مجموعة من القيم الاجتماعية والمبادئ الحيوية - كالتي تتمثل في دعوة الإسلام الكبرى - أدى ذلك إلى حرص المؤمن على هذه القيم، وبذله غاية جهده - ما دام إيمانه مستقيما - في تنفيذ هذه التعاليم، والتقيد بتلك المبادئ والمثل.

والتدين في حد ذاته يؤدي إلى خدمات اجتماعية جليلة، لأن إيمان الإنسان بقوة خالقة مبدعة مراقبة، محيطة بكل شيء، قادرة على كل أمر، وبيدها مقاليد السموات والأرض، وليس مثلها شيء، وهي مطلعة على السر والنجوى، وعلى ما ظهر وما بطن... هذا الإيمان يوجد في نفس الإنسان صفة «المراقبة»، أو الضمير اليقظ الحي بلغة العصر، وهذه المراقبة تجعل صاحبها يقيم من نفسه على نفسه حارسا وديدبانا يغاديه ويراوحه، وهي التي تعصم الإنسان من الخطأ، سواء أكان منفرداً بنفسه، أو مجتمعاً مع غيره، لأن عين الله تراه دائماً، ولا تغفل عنه ولا عن غيره لحظة.

ومتى سيطرت هذه المراقبة على الإنسان جعلته صالحاً طاهراً في كل حال، وهذا يؤدي إلى تحقيق الفرد الكامل الذي يتعدد فيكون منه المجتمع الفاضل، وفي الجزء الأول من كتاب «خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز» ذكرت شاهداً على الفائدة الاجتماعية الكبرى التي نجنيها من وراء هذه «المراقبة»، فقد رووا أن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه كان من عادته أن يطوف بالليل يتفقد شئون رعيته، وذات ليلة كان يسير على عادته في طرقات المدينة ومعه تابعه «أسلم».

فلما طال المطاف بعمر استند إلى جدار بيت في جوف الليل، وإذا هو يسمع امرأة داخل البيت تقول لابنتها: قومي يا ابنتي إلى اللبن فاخلطيه بالماء.

فقالت لها الفتاة: أو ما علمت ما كان من أمر أمير المؤمنين يا أماه؟.

قالت الأم: وماذا كان من أمره يا بنيتي؟.

فقالت الفتاة: لقد أمر مناديه فنادى

فى الناس ألا يخلط اللبن بالماء ، لأن هـذا غش وحرام ؟.

قالت الأم وقد نام ضميرها : إنك فى موضع لا يراك فيه عمر ، ولا منادى عمر .

فاستنكرت الفتاة ذلك وقالت : يا أماه ، والله ما كنت لأطيعه فى الملا (أمام الناس) وأعصيه فى الخلا (أثناء الانفراد) ، إن كان عمر لا يرى فرب عمر يرى !! ..

فنحن نرى أن نزعة التدين أو صدق المراقبة عند الفتاة منعها وصدها عن ارتكاب جريمة الغش ، دون أن تحتاج إلى شرطى يحرس ، أو معاقب يردع ، لأن « الوازع الدينى » قد قام بخير من ذلك وأنفع ، فقـد حفظ صاحبه من ارتكاب الأذى فى سائر الأحوال .

والوازع هو القـــوة الرادعة المانعة من ارتكاب المنهى عنه ، وللدين وازع ، كما أن للقانون وازعا ، وشتان بين وازع هذا ووازع ذاك ، فإن القانون من وضع البشر ، وطاقة البشر محدودة مهما كانوا أقوياء ، ولـكن الدين من وضع الله الذى يعلم السر وأخفى ، والذى أحاطت قدرته بكل شىء ، والقانون يحاسب على ما ظهر وثبت وقامت عليه شهادة الناس وقرائن المادة ، بينما الدين يحاسب على ما بدا وما خفى ، وما استعلن وما استتر ، ولا يحتاج صاحبه إلى شهادة ، لأن الله تعالى « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » ، وهو القائل عن ذاته : « إن الله كان عليكم رقيبا » . والقـــائل : « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ؟ . والقانون يعاقب بعقوبة مادية ودنيوية ، والدين يعاقب على الجريمة بعقوبة مادية ومعنوية ، وبعقوبة دنيوية وأخروية . والقانون لا يعطى لمن أحسن التصرف مكافأة ، ولا يثيب من هم بجريمة ثم تركها ، ولـكن الدين لا يقتصر على عقوبة العاصى ، بل يثيب المستقيم المحسن : « إن الذين قالوا ربنـا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنـــة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم » .

والدين يثيب على الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، والله واسع عليم ، ومن هم بمعصية ثم انتهى عنها فلم يفعلها يثيبه الدين على ذلك ، ويعتبر رجوعه عنها مجاهدة تستحق حسن الجزاء .

ومن هنا يتضح لنا أن وازع الدين أقوى من وازع القانون ولسنا بهذا نلغى قيمة القانون أو نحقر من شأنه ، فللقوانين

العادلة المستقيمة أثرها وثمرها ولكننا، نقول إن هذه القوانين تفقد أكبر أثر لها إذا لم يكن عند المتعاملين بها وازع دينى يذكرهم بمراقبة من خلقهم وأبدعهم، ومنه مبدؤهم وإليه معادهم: «وأن إلى ربك المنتهى».

إن هذا الوازع الدينى إذا عمر صدر صاحبه هو الذى يجعل المرء يحفظ حق ربه وحقوق الناس فى السر والعلن، وفى الاجتماع والانفراد، لأن كمال هذا الوازع يبلغ بالإنسان مرتبة الإحسان الذى يعرفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وهذا الوازع هو الذى يجعل المؤمن متذكرا ومتدبرا لقول القرآن الكريم عن الله عز وجل: «ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة، إن الله بكل شىء عليم».

ويتجلى لنا سلطان الوازع الدينى من الحادثة التالية، فقد رووا عن الأسلاف أنه كان لبعض الأئمة تلميذ مخلص، فكان يكرمه ويقدمه على زملائه، فتألم من ذلك أقرانه، فأراد الإمام أن يظهر لهم فضله، فأعطى لكل منهم طائرا، وأمره بأن يذبحه فى مكان خال لا يكون فيه أحد. وتفرق الزملاء وعادوا بعد حين وكل منهم قد ذبح طائره، إلا ذلك الشاب الممتاز فإنه عاد بالطائر حيا، فقال له الإمام: لماذا لم تذبح الطائر كما أمرتك؟. فقال له: ياسيدى لم أجد موضعا خاليا لا يرانى فيه أحد، لأن الله مطلع على وموجود معى فى كل مكان.

فاستحسن القوم منه هذه المراقبة وقالوا لشيخهم، يحق لك أن تكرمه وتقدمه!.

وثمة موقف آخر تتجلى فيه روعة الوازع الدينى، فقد دفع الطيش بشاب إلى مراودة فتاة، فصدته عما يريد من الإثم، وقالت له: ألا تستحى؟. فأجابها: وممن أستحى ونحن منفردان ولا يرانا سوى الكواكب؟. فقالت له: فأين مكوكبها؟. يعنى فأين صانعها ومبدعها وواضعها ورافعها والقائم على أمرها فى كل وقت وحين: «الله لا إله إلا هو الحى القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم».

فاتعظ الشاب وارتدع.

ولقد ترجم الشاعر المؤمن عن مقتضى الوازع الدينى فى نفس الإنسان بقوله:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت، ولكن قل: على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب
وأن غـــدا للناظرين قريب؟

والوازع الديني المغروس في صدر المؤمن الصحيح الإيمان هو الذي يجعل صاحبه يتذكر على الدوام أن كل مايفعله محصى عليه ومحاسب به ، وأن كل كلمة تخرج من فمه ، ستكون له أو عليه : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ، وأن هذا الحساب سيشمل الصغيرة والكبيرة ، والقليلة والكثيرة . ولذلك يقول القرآن الكريم : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ويقول أيضا : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا مالهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » .

* * *

وإذا تذكرنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « الدين المعاملة » ، ويقول : « أحب للناس ما تحب لنفسك » ، فهمنا أن سلطة « الوازع الديني » التي يربيها الدين في النفوس ستلازم صاحبها في جميع تصرفاته ومعاملاته واتصالاته بالناس من حوله ، فيكون بهذا مثلا من أمثلة الاستقامة والمسالمة وحسن التصرف مع الناس .

ولقد جاء الإسلام الحنيف لتنظيم شئون الفرد والجماعة ، وليكون رائد المؤمن في أمور العبادة وأمور الحياة ، وأقام الإسلام دعائم مجتمعه على « الأسرة » باعتبارها اللبنة المتينة الحصينة التي تجعل روابط هذا المجتمع عميقة وثيقة ، لأن الأسرة تتكون من شريكين يرتبطان بعقد تلحظه عناية الله ، وتوثقه كلمة الله ، ثم تكون للشريكين حياة مشتركة ، وبيت مشترك ، وآمال مشتركة ، وتبعات مشتركة ، ثم تكون لهما ذرية تزيد الروابط الأسرية وثاقة وعمقا فكانت أول خدمة اجتماعية نكسبها عن طريق الدين أنه بنى لنا المجتمع هذا البناء القوى المحكم الذي يشد الأواصر ويقوى الروابط.

ولم يجعل الإسلام معنى « الأسرة » مقصورا على حياة هذين الشريكين وبيتهما ، بل علم الإسلام أبناءه أن ينظروا إلى الحي أو القرية أو المدينة على أنها « أسرة » أكبر نوعا ما وأوسع من أسرة البيت ، وأن ينظروا إلى أمتهم أو دولتهم أو مجتمعهم على أنه « الأسرة الكبيرة » الواسعة النطاق ، وأن الإنسانية أو البشرية هي « الأسرة الكبرى » التي تنتهي إليها غاية همته وعزيمته ، بعد أن يكون قد بدأ بأداء ما عليه من واجبات ، وتبعات إلى ما يسبق هذه « الأسرة الكبرى » من أسر أضيق منها نطاقا ، وهي بحكم ضيق نطاقها وبحكم قربها من صاحبها أولى بالتقديم في العناية والرعاية ، وإن كان من الميسور في كثير من الأحيان أن يوائم الفرد بين نهوضه بتبعات أسرته القريبة ونهوضه

بتبعات ما وراءها من أسر فى حدود الطاقة والإمكان بطبيعة الحال .

وهكذا نرى الإسلام يرقى بروح الفرد الاجتماعية طبقة فوق طبقة ، ودرجة من وراء درجة ، حتى يبلغ بها المستوى الاجتماعى المثالى العالمى ، وهو النظر إلى المجموعة البشرية نظرة الأخوة الإنسانية والزمالة العالمية .

* * *

والخدمات الاجتماعية المتعددة تحتاج أولا وقبل كل شىء إلى إمكانيات وطاقات ونفقات مادية ، والدين يهيء لنا هذه الطاقات عن طريق ما شرعه من حقوق فى المال تؤدى إلى المجتمع ، كالزكاة التى هى فرض محتوم وحق معلوم ، يؤخذ من أموال القادرين والأغنياء ، ليرد على المحتاجين والضعفاء فى صورة معونات وخدمات .

وهناك ما شرعه الدين بعد الزكاة من حقوق أخرى مبسوطة فى مواطنها ، وماحث عليه من البر والإحسان والمعونة والإسهام فى وجوه الخير المختلفة ، وما دعا إليه من وجوه التعاون المادية على جهات الإصلاح والتعمير والقوة ، وعلى مقاومة وجوه الفساد والشر والضعف ، وذلك حيث يقول القرآن الكريم : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

والحديث النبوى الشريف يقول : (الله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه) .

وينبغى ألا يقتصر نظرنا إلى « الزكاة » مثلا على أنها نقود أو أشياء تؤخذ من هذا لتعطى لذاك ، بل ينبغى أن ينفسح نظرنا ليستوعب الخدمات الاجتماعية غير المباشرة التى تؤدى إليها الزكاة ، فالزكاة فى الواقع تستتبع العمل والإنتاج والكسب ، إذ لكى يؤدى الإنسان زكاة ، لا بد له أن يملك نصابا ، أى قدراً معلوما من المال لا بأس به يستحق أن يدفع منه صاحبه نسبة مئوية معقولة هى الزكاة .

وبدون هذا المقدار لا يدفع الإنسان الزكاة ، وهى إحدى قواعد الإسلام ، فحينما يحرص الإنسان على تحليه بأداء قواعد دينه سيرى نفسه مندفعا إلى الكسب والإنتاج لكى يملك مايستحق الزكاة فيزكى منه فيكون قد نفذ بالفعل قاعدة من قواعد الإسلام ، وبخاصة أن رسول الإسلام محمدا عليه الصلاة والسلام يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، واليد العليا يراد بها اليد المعطية المنفقة ، واليد السفلى هى اليد التى تمتد لتأخذ معونة الغير ، وقد كان يمكنها أن تعمل فتملك فتستغنى .

والنبى عليه الصلاة والسلام يقول : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أم منعوه » .

أحمد الشرباصى

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ١ —

تعريف :

في لسان العرب : (١) والملحمة : الوقعة العظيمة القتل ، وقيل : موضع القتال ، وألحمت القوم : إذا قتلتهم حتى صاروا لحما .

وفي الحديث : « اليوم يوم الملحمة » (٢) ، وفي حديث آخر : « ويجمعون للملحمة » : هي الحرب ، وموضع القتال ، والجمع : الملاحم . مأخوذ من اشتباك الناس واختلاطهم فيها ، كاشتباك لحمة الثوب بالسدى وقيل هو من اللحم لكثرة لحوم القتلى فيها ، وألحمت الحرب فالتحمت ، والملحمة : القتال في الفتنة حيث يقطعون لحومهم بالسيوف .

قال ابن بري : شاهد الملحمة قول الشاعر :

بملحمة لا يستقل غرابها
دفيفا ويمشي الذئب فيها مع النسر (٣)

وقد ذكر ابن خلدون فيما ذكر عن تعريف لفظ « ملحمة » : أنه يدل على ذكر حدثان الدول » (١) .

هذا هو أهم جانب في المدلول « اللغوي » للفظ « ملحمة » .

ولكن الدراسات الأدبية الحديثة قد خصصت مدلول هذا اللفظ ، وجعلته يطلق في محيط تلك الدراسات – على لون من القصائد تتميز بخصائص معينة : كالطول ، والموضوعية ، والحديث عن الحروب ، واطلاق العنان للخيال في تصور مشاركة الآلهة – كما كان يزعم الأقدمون – للبشر في المعارك .

والمنبع الأول الذي استقى منه النقاد تلك الخصائص ، هو إلياذة هوميروس .

عرف جورجي زيدان الملحمة بأنها : « عبارة عن قصائد طويلة تسرد الوقائع والحوادث على سبيل القصة ، وأكثرها دينية ، وأبطالها الآلهة ، ومعظم حوادثها عنهم وبهم ، كما في إلياذة هوميروس عند اليونان ، و « مهابهارتا » عند الهنود (٢) .

(١) ج ١٦ المطبعة الأميرية ١٣٠٢ ص ١٠ مادة « لحم » . (٢) يوم فتح مكة .

(٣) لا يستقل غرابها دفيفا : يحرك جناحيه مطمئنا ولا يسرع الى الطيران لكثرة ما يجد من اللحوم ، ويمشي الذئب فيها مع النسر : كناية عن كثرة القتلى ، إذ يجد كل مفترس ما يشغله عن النظر الى ما عند غيره .

(١) المقدمة ص ٣٣٤ طبعة التجارية .

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٦١ .

وللأستاذ أحمد حسن الزيات بحث قيم (١) قسم فيه الملحمة إلى طبيعية وصناعية واعتبر أن خصائص الملحمة كما وجدت عند هوميروس من حيث الخيال والخرافة والطول لاتوجد لها نظائر فى الشعر العربى اللهم إلا فيما وجد من الشعر العامى مثل قصص بنى هلال فإنه يشبه إلى حد كبير خصائص الملحمة.

وقد تحدثت مع سيادته فى هذا الشأن فقال : - إنه من الممكن اعتبار المطولات التى تشتمل على معارك وأحداث جسام - ملاحم على سبيل التجوز . لحمدت له ذلك.

ويرى الدكتور طه حسين أن «شعر الملاحم لا يعتمد على ذكر الأبطال والحروب ليس غير، وإنما هو يعتمد على ذلك، وعلى أشياء أخرى، منها اللفظى ومنها المعنوى فهو فى لفظه طويل مسرف فى الطول تبلغ القصيدة من قصائده آلافا من الأبيات وهو فى لفظه مقيد بألوان من اللفظ، والموسيقى وهو فى معناه يذكر الحروب والمحن وبلاء الأبطال فيها ولكنه يذكر الآلهة ويستوحيهم مايريد أن يقول ثم هو فى معناه اجتماعى يفنى شخصية الشاعر فناء تاما أوكالتام فى الجماعة التى يصفها من جهة والجماعة التى ينشدها من جهة أخرى وليس فى الشعر العربى شىء من هذا (٢) يقصد أنه لا يوجد فى الشعر العربى ما تنطبق عليه كافة هذه الصفات.

وفى مقـــدمة الإلياذة أن (١) : إلياذة هوميروس ملحمة من الشعر القصصى بالنظر إلى ما تضمنه من سرد الوقائع والأخبار وما تجاوزت به إلى ما وراء الطبيعة من شئون الآلهة وملابستهم للبشر فى أعمالهم، وإيضاح حقائق الفضائل والرذائل بطريق الأخبار.

ولقد تحدث البستانى فى مقدمته عن سبب خلود الإلياذة - ومعها الأوديسا - وأرجع ذلك إلى الأسلوب الذى سلكه هوميروس فى عرض أفكاره ونسج عباراته :

« فإن هوميروس إنما نقر على أوتار الأفئدة فأثارها ونفخ فى بوق الأرواح فأطارها ومزج الحقيقة بالخيال مزجا يخيل لك أنهما تآلفا فتحالفا، وسبر أعماق النفس فى سذاجتها وتحرى الفطرة فى بساطتها، وهاج العواطف والشعائر وتكلم بجلاء لا تشوبه مسحة التكلف فأسهب موضع الإسهاب وأوجز موضع الإيجاز ومثل تمثيلا صادقا عن عقيدة وإخلاص الخ ... (١)

الملحمة فى الشعر العربى :

ويعنينا فى بحثنا هذا أن نشير إلى علاقة الملحمة بالشعر العربى.

(١) « فى أصول الأدب » ٢٢٦ - ٢٤٢ .
(٢) الأدب الجاهلى ص ٣٠٦ .

(١) لبطرس البستانى طبعة ١٩٠٤ ص ١٦٤ .
(١) مقدمة الإلياذة ص ٦١ .

إن هوميروس قد صور فى ملحمته «الإلياذة» أحداث العام الأخير من الصراع الذى كان بين اليونان وطروادة واستمر عشر سنوات كانت الحرب فيها سجالا بين الفريقين. وتزعم الأسطورة اليونانية أن السبب فى هذه الحرب أن ملك طروادة التى كانت تقع فى آسيا الصغرى بحذاء الدردنيل، اختطف هيلانة زوجة مينلاوس ملك اسبرطة فاستصرخ أمراء اليونان واستنجد بهم، وتألف منهم حلف قوى برأسه أغا ممنون الملك الجبار، واستنجدت طروادة بأمراء آسيا الصغرى، فأنجدوها، وفى نهاية الأمر تغلب اليونان وسقطت اسبرطة فى أيديهم كما استطاع مينلاوس أن يسترد زوجته من خاطفها.

وقد جعلت الإلياذة بعض أبطال هذه الحرب من البشر، وبعضهم من الآلهة وأنصاف الآلهة، وجعلت لهؤلاء الآلهة أدواراً خطيرة فى سير دفة الحرب إذ كان بعضهم يقف إلى جانب اسبرطة مثل بختون وأثينا وبعضهم كان يقف إلى جانب أهل طروادة مثل المريخ وأفروديت.

ومثل هذا التصوير لا نجد له أثراً فيما وصل إلينا من الشعر العربى الجاهلى. وكل ما وصلنا من هذا الشعر إنما يعبر عن أحوال المجتمع والمعارك والحالات النفسية للأشخاص دون أن يكون هناك تدخل من آلهة أو أنصاف آلهة ...

ومن هنا ذهب بعض النقاد من أمثال «أرنست رينان» إلى أن الشعر العربى الذى تمثله القصيدة إنما يعبر عن إحساس شخصى، وحالة نفسية خاصة، والأبطال فى هذا الشعر هم نفس منشئيه، وهذه الصفة الشخصية التى فى الشعر العربى والشعر الإسرائيلى ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية، وهى انعدام العقلية الخالقة، ومن هنا لا نجد عندهم أثراً للشعر القصصى والتمثيلى (١).

ولم يكن هناك من باعث على هذا الحكم إلا خلو الشعر العربى من الحديث عن الآلهة واشتراكها فى الوقائع كما فى إلياذة هوميروس.

فى حين يرى فريق آخر (٢) أن شعر العرب فى الحديث عن الحروب وقصصها وأبطالها كقصائد عنترة، ودريد بن الصمة ومهلهل بن ربيعة والحارث بن عباد ... وغيرهم كل ذلك وشباهه ينبغى أن يعد من الملاحم، ويرى هذا الفريق أن تطبيق تلك الصفات الخاصة لا يكاد ينطبق إلا على إلياذة هوميروس، وإلياذة فرجيل لتأثره بها، وإلا خرج من باب الملاحم

---

(١) راجع «النابغة الذبيانى» للأستاذ عمر الدسوقى الطبعة الثانية ص ٦٥.

(٢) من هؤلاء المستشرق (أربرى) هامش ١٦٧ من كتاب (شوقى ـ شعره الإسلامى) للدكتور ماهر حسن والدكتور طه حسين لا ينفى وجود شعر قصصى يشبه الملاحم فى أكثر أهدافها كما سنرى ...

الفردوس المفقود لملتن، والكوميديا المقدسة لدانتى وملحمة أورلاندو التى تصف المعارك بين المسيحية والوثنية فى عهد انتشار المسيحية بأوربا وشاهنامة الفردوس الفارسى.. وغيرها..

أقدمية الملحمة العربية :

وهناك أسئلة تتردد نحاول الإجابة عليها : هل حقيقة أن العرب لم يعرفوا شيئاً عن الملاحم إطلاقا؟ وإذا عرفوا شيئاً من ذلك، فمتى كان هذا؟ ولماذا لم يستمر عندهم؟؟

إن الأدلة التاريخية تدل على أن العرب فى أوليتهم قد عرفوا الملحمة قبل هوميروس بأجيال ولكن فى بيئة غير شبه الجزيرة وأن هوميروس كان متأثراً بما نقل إلى اليونان من آثار بابل الأدبية التى ترجع فى أصلها إلى عقلية عربية.

«فالمعروف الآن بين العلماء الباحثين فى أحوال الجغرافية البشرية أن أصل سكان العراق وبابل وآشور وفينيقية كانوا قد نزحوا فى الأصل من شبه جزيرة العرب فى موجات متدرجة، واستوطنوا تلك الأقاليم. جاء فى مجلة العلم الحديث (جـ ٢ صـ ٧٢٨) عن المؤرخ «باتون» الأمريكى «أن أول مهاجرة سامية ذكرت فى التاريخ هى مجىء - جماعة من الساميين إلى البقعة بين مصبى - دجلة والفرات». ولم يذكر «باتون» زمن هذه الهجرة، ولكنه أثبت لهؤلاء المهاجرين حضارة زاهرة فى ذلك القطر فى القرن السادس والثلاثين قبل الميلاد.

وذهب العلامة (سايس) الانجليزى إلى «أن قبيلة من الساميين يقال لها كلدة - (وكلدة مؤسس دولة الكلدان وهو شيخ عربى - مجلة لغة العرب للأب أنستاس الكرملى جـ ٢ صـ ٥٧٨) - كانت نازلة عند مصب النهرين، وأنها طليعة قبائل النبط والآراميين الذين نزحوا من شمال بلاد العرب ونزلوا القطر البابلى مخيمين على ضفاف الفرات، وأنهم كانوا يتكلمون اللغة الكلدية.

إذا كانت الهجرة العربية إلى مناطق العراق وبابل قديمة العهد جداً ويرى المؤرخ «باتون» أنها ترجع إلى أكثر من ستة وثلاثين قرناً قبل الميلاد [1].

إذا عرفنا هذا أمكن اعتبار الآثار الأدبية التى نشأت بعد ذلك فى بابل ذات صلة وثيقة بالعقلية العربية، وأن هذه العقلية لا بد أن تأخذ اتجاها يتناسب والبيئة المستقرة بين النهرين ويختلف عن نظائره فى قلب الصحراء، حيث لا استقرار...

(١) اتجاه الموجات البشرية فى جزيرة العرب للسيد محب الدين الخطيب - المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ ص ٧ وراجع : تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان جـ ١ ص ٢٢ والعرب قبل الإسلام جـ ١ ص ٤٩.

ملحمة جلجميش :

وقد جاء فى قصة الحضارة :

« ومن أروع الآثار الأدبية التى خلفتها أرض الجزيرة اثنا عشر لوحا محطما ، وجدت فى مكتبة آشور بأنيبال ، وهى الآن فى المتحف البريطانى ، وقد كتبت على هذه الألواح : « جلجميش » الذائعة الصيت ، وتتألف من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ، ضمت بعضها إلى بعض فى عهود مختلفة ، يرجع بعضها إلى أيام السومريين ، أى إلى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام ... » [1] .

وبالرجوع إلى نص هذه الملحمة نجد أن البطل جلجميش ثلثاه من عالم الآلهة وثلثه من عالم البشر ، وقد وقعت فى حبه الآلهة « أشتار » ولكنه لا يبادلها الحب فتشكوه إلى « آنو » الإله الأعم ، وتدور خلال ذلك معارك ووقائع ، ونرى خرافات وأساطير ، والخيال الواسع ، والحوادث الخارقة للطبيعة ، وإشراك الآلهة مع الإنسان فى التكوين وفى الصراع ...

كان جلجميش بطل القصة حاكما أسطوريا لأروك أوارك وهو من نسل شمس - نبشتين الذى نجا من الطوفان ولم يمت قط ، ويدخل جلجميش القصة فى صورة مركبة من صورتى أونيس وشمشون ، فهو طويل القامة ضخم الجسم ، مفتول العضلات جرىء مقدام ، يفتن الناس بجماله :

ثلثاه إله .

وثلثاه آدمى

لا يماثله أحد فى صورته .

يرى جميع الأشياء ولو كانت فى أطراف العالم .

كابد كل شىء ، وعرف كل شىء .

واخترق شعار الحكمة الذى يحجب كل شىء

ورأى ما كان خافياً .

وكشف الغطاء عما كان مغطى .

وجاء بأخبار الأيام التى كانت قبل الطوفان [1] .

ومن هنا تتركز عناصر الملحمة التى أصبحت فيما بعد أساساً لخصائص الملحمة كما صورتها ملحمتا هوميروس .

فاذا عرفنا أن حضارة بابل القديمة قد انتقلت إلى آسيا الصغرى والجزر القريبة منها ، وأن هذه المنطقة كانت حلقة اتصال بين بابل واليونان وأن العقلية اليونانية قد احتكت بالعقلية البابلية وتأثرت بها ، وأخذت عنها ألوانا من الثقافات التى عرفتها بابل فى تلك الأزمان السحيقة ، فلا نستبعد أن تكون ملحمة جلجميش قد انتقلت فيما

---

(١) قصة الحضارة تأليف « ديورانت » وترجمة محمد بدران الجزء الثانى من المجلد الأول ص ١٣٩ .

(١) من النص البابلى لقصة الطوفان من الملحمة ص ٢٣٩ قصة الحضارة .

انتقل وأنها كانت مصدر إلهام لهوميروس فى ملحمتيه فيما بعد ، ولا سيما وأن التشابه بين ملحمة جلجميش وملحمتى هوميروس واضح.

والمعروف أن هوميروس قد نظم ملحمتيه فى أزميرا وفى منطقة قريبة منها هى جزيرة « خيوس » أى منطقة « آسيا الصغرى التى كانت تعتبر موطنا ثانياً للحضارة البابلية [١].

على أن بابل هى التى أنشأت ذلك القصص الساحر الجميل الذى أصبح بفضل براعة اليهود الأدبية الفنية جزءاً لا يتجزأ عن قصص أوربا الدينى ومن بابل لا من مصر جاء الجوالون اليونان إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسية لعلوم النحو وفقه اللغة وعلم الآثار والتاريخ والفلسفة [٢].

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سفر أيوب قد اعتبره بعض المؤرخين سفراً عربى الأصل « لأن وقائعه تمثل الحياة البسيطة على حقيقتها وتوضح بالرسم الصادق معيشة الشيخ العربى فى القبيلة البدوية [٣] . وقد أشار « رينان » إلى أن هذا السفر أقرب إلى العربية من سائر أسفار التوراة العربية [٤] ومن ثم فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن أصل هذا السفر عربى ، قد نظم فى حوالى القرن العشرين قبل الميلاد ، وأنه ترجم إلى العبرية فصار سفراً مقدسا وضاع أصله العربى .

وإذاً تتضح لنا قيمة عروبة ملحمة جلجميش وسفر أيوب فى أن هذا اللون من الإنشاد الأولى كان أسبق من عصر هوميروس فى بيئة سامية عربية الأصل ، وزمن سحيق .

واستناداً إلى الرأى التاريخى الذى يوجد صلة بين العرب فى شبه جزيرتهم وبين البابليين باعتبار أن أهل بابل كانوا قد نزحوا من الجنوب . . ثم الصلة بين بابل واليونان عن طريق آسيا الصغرى . . نستطيع أن نقول : إن فكرة الملحمة - كما عرفت عند هوميروس - قد نشأت من عقلية سامية بدائية عربية الأصل ، فى بيئة مناسبة منذ زمن سحيق .

أثر البيئة فى العقيدة والخيال :

أما لماذا لم تظهر مثل هذه الملاحم فى بيئة العرب الجاهلية على الرغم مما كان بينهم من معارك فنقول :

إن تعدد الآلهة عند الإغريق القدامى يختلف عما كان عليه تعدد العرب ، فالإغريق كان يعبد آلهة كثيرة تمثل مظاهر الكون المختلفة ... فالتعدد كان بالنسبة للفرد ، أما العربى فقد كان التعدد عنده بالنسبة للقبيلة ، أما الفرد فكان يدين - غالباً - لإله واحد [١].

وتعدد اليونان يوجد بلا شك فى الحياة

(١) بيئة العراق ص ٨ : للدكتور حسن عون .
(٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٢٦٢ .
(٣) هامش الإلياذة للبستانى ص ١٦٨ .
(٤) المرجع السابق

(١) تاريخ القصة والنقد للأستاذ السباعى بيومى ص ١٨ .

الفكرية العامة اهتماما بهؤلاء الآلهة، وطبيعى أن يظهر ذلك فى إنتاجهم الأدبى.

وكيفما كان الأمر فى وثنية العرب فإنهم «لم تكن لهم ديانة ذات أصول وقواعد ومراسيم معينة، ولقد وصلوا فى قرارة أنفسهم إلى معرفة خالق الوجود ووحدانيته فآمنوا به، وإن حاولوا أن يصلوا إليه أحيانا عن طريق الأوثان، فذلك لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى ذلك النضج العقلى التام»[1].

ولئن اتجه الخيال اليونانى فى تصور اشتراك الآلهة فى الحروب نتيجة لعقيدة التعدد وللبيئة التى عاش فيها وما اشتملت عليه من جبال وخلجان. فقد اتجه الخيال العربى الجاهلى إلى ما أوحت به بيئته المترامية الأطراف، فبدلا من أن يتصور المعارك بين الآلهة بعضهم وبعض أو بين الآلهة والبشر كما فعل الفكر اليونانى فإنه تصور الغول والجن والرئى، و«الهامة» وشياطين الشعر والكهانة...

«فلا يستغرب من ذلك البدوى الضارب فى الصحراء إذا ضل طريقه ونفذ زاده، ولفحته الشمس بوجهها المحرق، أن يتصور أنه فى طريق الهلاك وأن يستوحش حياته، وهو فى شعوره بالهلاك يتصور أنه سيغتال (ومن هنا نشأت كلمة غول) بمعنى الهلاك، أما الوحشة فهى تحتاج إلى أنيس وعندما يرى السراب ويسعى إليه يخيل إليه أنه يخاطب رجلا مثله، ثم لا يلبث أن يختفى ذلك الذى يراه، ويحس الأعراق أنه قد جن. (أى استتر فى الطبيعة بعد ظهورها ووضوحها أمام عينيه) ثم صار يتصور أن هذا الرئى يراه ويسمع له ويسمعه أحيانا فأطلق عليه اسم «الجن»...»[1].

ومعلوم أن العرب كانوا يعيشون فى هذه الصحراء المترامية الأطراف عيشة تعتمد على الرحيل والانتقال سعياً وراء الكلأ والماء، وكثيراً ما أدت طبيعة حياتهم هذه إلى إثارة الحروب بينهم، ولقد سجل الشعر الجاهلى كثيراً من أخبار هذه الحروب سواء فى شعر الفخر والحماسة، أو شعر الهجاء والرثاء.

وعلى الرغم من كثرة ما قاله العرب فى الحروب وأوصاف المعارك وأدوات القتال، فقد أخذ عليهم خلو شعرهم من «الملاحم»، أو الشعر القصصى الذى يرويه الشاعر ويتحدث فيه عن المعارك التى شبت بين عدد من الفرسان، ويصف أحوال المجتمع ويتعرض للديانات والآلهة - كما فعل هوميروس فى الإلياذة ...»[2].

ولو دققنا النظر نجد أن ما ينكره الأوربيون - ومن لف لفهم - من «خلو الشعر العربى من الملاحم»، إنما هو خلو الشعر من الحديث عن الآلهة واشتراكها فى الحروب ... ثم الطول الذى وجد فى الإلياذة وليس له نظير فى الشعر العربى.

دكتور سعد الدين الجيزاوى

---

(١) الفتوة عند العرب ص ١٠٨.

(١) ملخص من الفتوة عند العرب ص ١١٢.

(٢) النابغة الذبيانى ص ٦٣.

نظرات فى التصوف والأدب :

الصّوفيّة وعلاقتها بالزّهد

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

لحن من ألحان الإيمان ينساب فى تضاعيف الحياة ، فيحيل قسوتها حناناً ، وأزاهير فواحة بالحب والشوق فى دنيا الناس المليئة بالشوك والعوسج ، ونسمات من روح الله تهب ، فتتعلق بها القلوب ، وتدهش لعظمتها النفوس ، وتتطامن لها قوى الأرض جميعاً إجلالا وإعظاما ، ونفحات من الجنة عطر الله بها الأرض على مر العصور والأزمان .

وأولئك هم الصوفية الذين سعوا إلى الله فلم يعبئوا بما سواه ، وتطلعوا إلى جماله الباهر فلم يرق فى عيونهم ما عداه ، ورأوا بأرواحهم الصافية أن ما عند الله خير وأبقى ، فسلكوا طريقه .

« لزموا أنفسهم دوام المجاهدة ، وشدة المكابدة ، وحفظ الأوقات ، واغتنام الطاعات . ومفارقة الراحات ، والتلذذ بما أيدوا به من المطالعات ، وصيانة ما خصوا به من الكرامات ، لا عن المعاملات انقطعوا ، ولا إلى التأويلات ركنوا ، رغبوا عن العلائق ، ورفضوا العوائق ، وجعلوا الهموم هما واحداً ، ومزايلة الأعراض طارفا وتالداً ، اقتدوا بالمهاجرين والأنصار ، وفارقوا العروض والعقار ، وآثروا البذل والإيثار ، وهربوا بدينهم إلى الجبال والقفار ، احترازاً من موامقة الأبصار ، أن يومى إليها بالأصابع ويشار لما أنسوا به من التحف والأنوار ، فهم الأتقياء الأخفياء ، والغرباء النجباء ، صحت عقيدتهم ، فسلمت سريرتهم » (١) .

رفضوا الدنيا وركلوها ، وأشاحوا عن نعيمها وحقروه ، وضاقوا بقيودها ورسومها ، فسعوا إلى الانطلاق والانعتاق ، وقطعوا العمر فى الرياضات والمجاهدات ، حتى صاروا ذوى مواجيد وأذواق ، فكل حدث بما وجد وعبر عما ذاق .

لهذا حينما تتحدث عن الصوفية يعييك القول الجامع ، ويعجزك الحد المحيط ، حتى قال القشيرى فى ذلك ... وتكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ والصوفى من هو ؟ فكل عبر بما وقع له (٢) .

والصوفية قوم يبغضون الحدود ويكرهون الرسوم ، ويعافون القيود ، ويأبونها

(١) حلية الأولياء ج ١ ص ٢٤ .
(٢) رسالة القشيرى ص ١٢٧ .

كل الإباء ، ولذلك قال بعض المستشرقين : « إن التصوف لا يمكن أن يعد مذهبا وضع على أصول بينة فى الجماعة الإسلامية ، ولا يمكن جمع مسائله على أمور مطردة (١) .

فلا تستطيع أن تضع له تعريفا جامعا مانعا ، باعتباره مذهبا ، أو علما ، أو فكرة ، وهو على تشاكل مقاصده ، وتقارب سبله يختلف باختلاف المتصوفين أنفسهم ، ويتلون تبعا لنزعاتهم ، ذلك لأن للمشاعر النفسية ، والأحاسيس الوجدانية فى توجيهه وتكييفه أثراً كبيراً ، وقد أدرك الصوفية أنفسهم هذا ، فقد روى عنهم أن الطريق إلى الله كعدد أنفس بنى آدم .

تعريفات الصوفية للتصوف :

وللمشايخ الصوفية فى التصوف والصوفى كلام كثير سنورد طائفة منه فهو عند الجريرى « الدخول فى كل خلق رضىّ والخروج من كل خلق دنىّ » (٢) .

وعند القصاب « أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام » (٣) .

وعند سمنون « أن تملك شيئاً ولا يملكك شىء » (٤) .

وعند رويم « استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد » (٥) .

وعند معروف الكرخى « التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق » (١) .

وعند الجنيد « أن يميتك الحق عنك ويحييك به » ، أو « أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة » (٢) .

فأنت ترى من هذه الأقوال المتعددة صحة ما ذهبنا إليه من عدم وجود تعريف ثابت ، وقد مر بك أن بعضهم عرفه أكثر من تعريف ، كما رأيت عند الجنيد .

وكما تعددت أقوالهم عن التصوف ، تعددت أيضا عن الصوفى .

تعريفات الصوفية للصوفى :

فالصوفى عند ذى النون : من إذا نطق أبان عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق (٣) .

وهو عند الحلاج « وحدانى الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا » وعند الجنيد « الصوفى كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح » ، وعنده أيضا « أنه كالأرض يطؤها البر والفاجر وكالسحاب يظل كل شىء ، وكالقطر يسقط على كل شىء » (٤) .

(١) التصوف وفريد الدين العطار ص ٧ .

(٢، ٣، ٤، ٥) رسالة القشيرى ص ١٢٦ .

(١، ٢) رسالة القشيرى ص ١٢٦ .

(٣) طبقات الصوفية للسلمى تحقيق نور الدين شريبة ص ١٩ .

(٤) رسالة القشيرى ص ١٣٢ .

وأجمع ما يقال عن الصوفية أنها ليست مذهبا من المذاهب الإسلامية وإنما هي نزعة فلسفية اعتقد أصحابها أن في مقدورهم تفسير القرآن الكريم تفسيرا يغاير معتقدات غيرهم، ولكنه يفسر مقاصدهم الخاصة (١)

اشتقاق لفظ تصوف.

وكما تعددت الأقوال في التصوف والصوفي من ناحية تحديد المعنى لكل منهما، لم تتفق كلمة الباحثين على الأصل الذي أخذ منه لفظة «صوفي» من ناحية الاشتقاق.

فذهب قوم إلى أنها مأخوذة من الصفاء لأنهم قوم صفت نفوسهم من كدورات الدنيا وعلائقها، ولهذا يشير الشاعر:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى
صافى فصوفي حتى لقب الصوفي

وهـذا الرأي، وإن كان لا غبار عليه من ناحية المعنى إلا أنه لا يتفق مع قواعد اللغة التي تقول إن النسب إلى الصفاء صفائي.

وقال فريق آخر: أنها مأخوذة من الصف الأول لما لهم من سابقة وتقدم في العبادة، وهذا الرأي أيضا مردود بالخطأ اللغوي.

ومن قائل: إنها نسبة إلى بني صوفه قبيلة كانت حول البيت في الجاهلية.

وهذا الرأي، وإن كان لا يعارض قواعد اللغـة، إلا أن معرفتنا أن المسلمين كانوا ينفرون من كل ما هو جاهلي يبعد هذه النسبة والذي ارتضاه المتأخرون والباحثون المعاصرون أنه نسبة إلى الصوف، لأنه كان مظهرا من مظاهرهم في لباسهم.

وهذا الرأي على هذا يتمشى من ناحية المعنى والقياس، فصوفي نسبة إلى الصوف، والتصوف مصدر الفعل الخماسي تصوف، إذا لبس الصوف، مثل تقمص إذا لبس القميص، والنفس إلى هذا الرأي أميل وإن كان أبو القاسم القشيري - وهو من هو في أخبار القوم - يرفض ذلك، وهذا نصه: «هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال رجل صوفي، وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف وللجماعة المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس، ولا اشتقاق، والا ظهر فيه أنه كاللقب، فأما قول من قال: إنه من الصوف وتصوف إذا لبس الصوف كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف (١).

تاريخ ورود لفظ «صوفي ومتصوف»

كان المسلمون في صدر الإسلام مقبلين

(١) التصوف الإسلامي العربي ص ٦٣.

(١) رسالة القشيري ص ١٤٧.

على الدين بشغف ورغبة ، فكان لا يشغلهم شاغل عنه مهما قوى وجل ، وظل الأمر كذلك فى عهد الصحابة والتابعين ، فكان الزهد والتقى والصلاح ، كانت هذه الصفات هى الطابع الغالب على المسلمين آنذاك ، لانصرافهم عن الدنيا ، وإقبالهم على مايقربهم من ربهم ، فلم يكونوا بحاجة إلى وصف يسمون به أنفسهم ، وكان المسلمون فى عهد الرسول صلوات الله عليه لايجدون شرفا أعلى ، ولا لقبا أسمى من الصحبة ، فسموا أنفسهم الصحابة ، ثم سمى من أخذ عنهم بالتابعين ، فلما ظهرت الفرق ، وادعى كل منها أن فيهم زهادا وعبادا ، اتسم أهل السنة المقبلون على العبادة والنسك باسم الصوفية والمتصوفة ، وصار ذلك سمة وعلامة لكل من يحيون حياة خاصة فيها زهد الزهاد ، وعبادة العباد ، وفقر الفقراء ، حتى صار علما يتميزون به عمن سواهم من المتدينين .

أول من أطلق عليه لقب صوفى :

ويذهب الباحثون إلى أن أول من أطلق عليه هذا اللقب هو أبو هاشم الكوفى الصوفى المتوفى سنة خمسين ومائة لتأثره فى حياته بما كان يختاره النبى صلوات الله وسلامه عليه ويختاره صحابته رضوان الله عليهم من بساطة فى العيش ورغبة عن الدنيا ، وزهد فى زخرفها وزينتها (١) .

هذا وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن لفظ صوفى قديم ، وسابق حتى على الإسلام ، وبعضهم يذهب إلى أنه إسلامى ، لكن ظهر قبل هذا التاريخ الذى ذكرناه .

إلا أن المصادر الموثوق بها تعين التاريخ الذى ارتضيناه أولا ، وهو منتصف القرن الثانى الهجرى ، ويؤكد ما ذهبنا إليه ، أننا حين نستعرض أمهات الكتب التى أرخت للتصوف وكتبت عن رجاله وأفاضت فى أحوالهم ، وطرقهم ، نجدها حينما تتكلم عن شيوخ الصوفية لا تذكر من تقدم على هذا التاريخ ، كما نرى فى رسالة القشيرى بل إن عبد الرحمن السلمى أستاذ القشيرى فى كتابه طبقات الصوفية نراه قسمهم أربع طبقات ، وجعل رأس الطبقة الأولى الفضيل بن عياض ، والفضيل توفى سنة سبع وثمانين ومائة ، فمن هذا يتبين لنا أن الصوفية أنفسهم لم يتعدوا به ذلك التاريخ .

العلاقة بين الزهد والتصوف :

عرفنا فيما سبق أن الزهد كان نزعة غالبة على المسلمين فى الصدر الأول من الإسلام ،

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٢٢ ، دائرة المعارف جـ ٥ ص ٢٧٦ الحياة الروحية فى الإسلام ص ٨٤ .

وأن الناس إلا القليل منهم لم تكن تشغلهم الدنيا وما فيها عن الاتجاه إلى الله، والإقبال على طاعته.

فلما اتسعت رقعة الفتح الإسلامى، ودرت أخلاف الرزق على المسلمين، وكثرت فى أيديهم الأموال، ورأوا ما فى الأمم الأخرى من ترف ونعيم، شاركوا بدورهم فى هذا، وأقبلوا على الدنيا يعبون من خيراتها، وينهلون من طيباتها، حتى غرقوا فى نعيمها، ويقول ابن خلدون فى ذلك: «الصوفية من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة وجاه ومال، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة، وقد كان ذلك فاشيا فى الصحابة والسلف، ولما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة» [1] اهـ.

من هذا النص يتبين لنا أن الصوفية كانت رد فعل لموجة الترف التى اجتاحت العالم الإسلامى آنذاك، وكانت صرخة روحية خالصة فى وجه المادية الجارفة التى أوشكت أن تفتن الناس عما فى دينهم من سمو وروحانية.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأنهم تأثروا بحياة الزهاد السابقين إلا أنهم لم يقفوا عند ذلك، بل تقدموا خطوة أخرى.

فإن كان الزهاد قد طرحوا الدنيا خوف الحرمان من الآخرة، فإن الصوفية لم يكتفوا بذلك، بل جاهدوا وعملوا، لأن الله سبحانه حقيق بأن يعبد، فلم يعبدوه طمعاً فى الجنة، ولا خوفا من النار، بل رجوا بذلك استشراف وجهه الكريم والتمتع بجماله الأزلى كما قالت رابعة العدوية «إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من نارك فاحرقنى بنار جهنم، وإذا كنت أعبدك رغبة فى جنتك فاحرمنيها، وأما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى» [1].

فالزاهد لا يكون صوفيا، لكن الصوفى لا بد أن يكون زاهدا، لأن الزهد والفقر هما الخطوة التى يجتازها الصوفى حتى يلج باب الصوفية، وبغير ذلك لا يستطيع أن يمشى فى ركابهم، من هذا نستطيع أن نقول: إن هناك صلة بين الزهد والتصوف تشبه الصلة الأبوة بالبنوة، أو المقدمة بالنتيجة، فإذا أخذنا بهذه الفكرة القائلة بانبثاق التصوف عن الزهد يبدو لنا فى أول الأمر أن الفرق بينهما لا يكاد يوجد، إلا أننا حين نسير مع

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٧.

(١) التصوف الإسلامى العربى ص ١٤٢.

الصوفية حتى تتطور وترتكز لجماعة لها مبادئ خاصة نستطيع أن نلمح فروقا واضحة نجملها فيما يأتى :

الفروق بين الزهد والتصوف :

أولا : فرق فى الغاية ، فالزاهد يرغب عن الملذات ، ويتحمل شظف العيش وشقاءه ويعانى مرارة الحرمان ، ويقاسى آلامه مقبلا على ذلك حريصا عليه ، آملا فى ثواب الله ، وطامعا فى جنته ، أما الصوفى فيقبل على هذا الضرب غير ناظر إلى ثواب آجل ، إنما همه الوصول إلى الله ومعرفة ذاته .

ثانيا : فرق فى الفكرة فالزاهد متمثل لجبروت الله وبطشه وقهره وعقابه ، والصوفى ناعم فى كرمه ولطفه وبعد ذلك محبته .

ثالثا : فرق عام ، وهو عموم الزهد فى كل عصر وقطر وأرض وجيل ودين ، أما الصوفية فنزعة خاصة أوجدتها عوامل شتى فى رحاب الإسلام ، وتحت رعايته الخاصة [1] .

من هذا الذى بيناه يتجلى أن التصوف أرقى من الزهد ، وأن الزهد ما هو إلا تمهيد لظهور التصوف ، يمهد النفوس إلى الأحوال الروحية المشرقة ، والنفحات القلبية الصادقة التى هى روح التصوف وقوامه ، وسبيل الصوفى إلى كشف الحقيقة ، وأن الزهاد كانوا النواة لمن أتى بعدهم من طبقات الصوفية .

محمد إبراهيم الجيوشى

(١) نفس المصدر ص ٢٦ ، ٢٧ .

أدب الحديث والاستماع

قالوا : من حسن الأدب ألا تغالب أحدا على كلامه ، وإذا سئل غيرك فلا تجب عنه ، وإذا حدث بحديث فلا تنازعه إياه ، ولا تقتحم عليه فيه ، ولا تره أنك تعلمه ، وإذا كلمت صاحبك فأخذته حجتك فحسّن مخرج ذلك عليه ، ولا تظهر الظفر به ، وتعلم حسن الاستماع كما تعلم حسن الكلام .

شخصية المسلم

للأستاذ الحسينى أبو فرحه

فى هذه الأيام التى تتنازع الناس فيها تيارات فكرية مختلفة ومناهج للحياة متباينة . يتلفت المسلم حوله فيرى فى واقع الحياة ألواناً مختلفة ونماذج متباينة للشخصيات . تتحارب وتتصارع وتتنازع . فهناك الشخصية النفعية وهناك الشخصية الأريحية ، وهناك غير ذلك كثير بين هذه وتلك .

فأين موقع الشخصية الإسلامية بين تلك الشخصيات .

هل هى تلك الشخصية العزوفة عن الدنيا المتنكرة لها المعرضة عنها تحيا عالة على غيرها ؟ لا يمكن أن تكون كذلك وقد قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لأن يأخذ أحدكم أحبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2] .

أم هى الشخصية المتكالبة على حطام الدنيا وعرضها الحائل ؟ لا يمكن أن تكون كذلك أيضا . وقد قال تعالى : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون »[1] .

فما هى شخصية المسلم إذن ؟

لقد رسم الإسلام صورة كريمة وضاءة المعالم لشخصية المسلم فى الوحى بقسميه القرآنى والنبوى . فلا نحتاج معهما إلى ما نكمل به تلك الصورة ، أو توضح به خطوطها وملامحها من غير هديهما .

ولقد نجح الإسلام فى صقل النفس البشرية أكمل نجاح وأتمه ، وأبرز تلك الصورة الكريمة الوضاءة فى واقع الحياة فلم تبق مثالا أفلاطونيا لا حقيقة له فى عالم الحس .

وعندنا نماذج إنسانية لا يحصيها عد نرى فيها بوضوح ملامح الشخصية المسلمة برزت واقعا حيا ، يمشى على قدمين فى أكمل وأتم ما رسمه الوحى بقسميه . فى شخصية المصطفى صلى الله عليه وسلم أولا . وفى على أثره فى كل زمان ومكان جم غفير . اشتهر منهم من اشتهر ، واستتر منهم من استتر رغبة فى ازدياد الفضل ، وبعداً عن شهوة النفس .

(١) القصص ـ الآية ٧٧ .

(٢) رواه البخارى .

(١) القصص ـ الآية ٦٠ .

وبحسبنا اليوم أن نرسم الخطوط العريضة التي توضح ملامح الشخصية المسلمة تاركين إكمال الصورة، لأن ذلك يتطلب وقتاً أوسع.

وسنتكلم عن المسلم من هذه النواحي التالية:

(١) جسمه. (٢) عقله.

(٣) خلقه. (٤) إيمانه وغايته.

« جسمه »

المسلم حريص على عنايته بجسمه عناية كاملة. قال صلى الله عليه وسلم: « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »، ورشح الله شخصاً للملك وزكاه لأنه أوتى بسطة فى العلم والجسم قال تعالى: « قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم »(١).

ويقر الإسلام مقالة ابنة شعيب عليه السلام فى تزكيتها لموسى، فيرويها لنا رب العزة: « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين »(٢).

ويضع الإسلام لهذه الغاية « قوة الجسم » منهجاً مفصلا.

فينهى نهيا مؤكداً عن كل ما يعترض هذه الغاية، فيحرم الخمر والزنا وضررهما معلوم، وكذلك يحرم كل ما يضر بالبدن من حشيش وأفيون وغير ذلك، ويوصى بالاعتدال فى الطعام والشراب، فيقول تعالى: « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين »(١).

ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكيلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه »(٢)، ويأمر الإسلام بالصوم ومنافعه للجسد كثيرة، فى حين ينهى الإسلام عن الإفراط فى العبادة إفراطا يضر بالبدن، هذا عبد الله بن عمرو وقد أفرط فى العبادة ينصحه الرسول صلى الله عليه وسلم بالاعتدال، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: بلى. قال: فلا تفعل قم ونم وصم وأفطر، فإن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا »(٣).

فالإسلام يأمر بالصوم حين لا يضر بالبدن، وينهى عنه حين يضر به ويوصى

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٤٧.

(٢) سورة القصص الآية ٢٦.

(١) سورة الأعراف الآية ٣١.

(٢) رواه الترمذى وحسنه وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه

(٣) رواه البخارى واللفظ له. ومسلم.

الإسلام بالرياضة البدنية ، فنرى نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه . يصارع ركانه ، ويسابق عائشة ، وفي الفقه الإسلامي باب كبير للسبق والرمي ، ويعنى الإسلام بنظافة الجسم وتجميله .

فالاستنجاء بعد قضاء الحاجة ، والاغتسال في مناسبات عديدة ، من الجنابة وغيرها ، وفي فقه الشافعية : « الاغتسالات المسنونة سبعة عشر غسلا » ، من أهمها غسل الجمعة الذي يتكرر كل سبعة أيام ، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواك ويمس من الطيب ما قدر عليه »(١) . ويأمر الإسلام بقص الظفر وحلق الإبط والعانة ، ويؤكد الطب أن ترك هذه الأشياء يجعلها بؤرا خبيثة للكثير من الأمراض ، ويعنى بالأسنان عناية خاصة قبل أن تتنبه لذلك المدنيات الحديثة ، فيوصى بالسواك ، ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »(٢) .

وهناك الكثير من الأمراض تجد في الأنف مرتعا خصبا وبين أصابع اليدين والقدمين ، والوضوء خير وقاية من هذه الأمراض ، حيث تكرار المضمضة

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه مسلم والنسائي وابن ماجة .

والاستنشاق وغسل الوجه واليدين ومسح الرأس وغسل القدمين .

قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين »(١) .

فهل هناك عناية بالجسم أشد من أن تجعل الإرشادات الصحية والطب الوقائي قرآنا يتلى في المحاريب ، وعبادة يتقرب بها إلى الله .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو المثل الأعلى لشخصية المسلم ، أنظف الناس ثوبا وأطيبهم ريحا ، وكان يعنى بشعره عناية فائقة فيرجله ويدهنه حتى كان يرى وميض المسك في مفارقه ، ويوصي بنظافة الثوب والبدن ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا ؟ فقال : إن الله تعالى جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس »(٢)

« علم »

وأما العلم فأول واجبات الشخصية المسلمة بعد حاجات الجسد ، لأن كل فضل يتفرع عنه

(١) سورة المائدة الآية ٦ .

(٢) رواه مسلم والترمذي . وبطر الحق : دفعه ورده . وغمط الناس هو احتقارهم . . .

ومن هنا افتتح كتابنا الكريم بالدعوة إليه فقال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » [1] .

كما أقسم بأداة العلم تنبيها على شرف العلم فقال : « ن والقلم وما يسطرون » [2] ويهتم الرسول صلى الله عليه وسلم بنشر العلم ، فيجعل فداء الأسرى المتعلمين يوم بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، ويهدد الرسول الكريم صلوات الله عليه قوما نالوا من العلم حظا ، ولهم جيران جفاة من أهل البادية لا حظ لهم من التعليم يهددهم إن لم يعلموهم ، ويهدد الجاهلين إن لم يطلبوا العلم .

فيخطب يوما مثنيا على طوائف من المسلمين خيرا ثم يقول :

« ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم ، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون ، أو لأعاجلنهم العقوبة [3] وهكذا يسبق الإسلام أمم العالم جميعا إلى محو الأمية الفكرية فضلا عن الأمية الخطية التى تتفاخر الأمم بمحوها .

يا قوم : رسول كريم لم يترك له الأعداء فرصة للراحة والاستقرار يهدد بإعلان الحرب على المتقاعدين عن العلم والتعليم كما سمعنا . ويجعل العلم طريقا للجنة صنو الصلاة والزكاة ، ومجالس العلم محلا لتنزل البركة والرحمة . فيقول صلى الله عليه وسلم : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » [1] .

ويعتبر من النماذج الإنسانية الكريمة التى تتعلق بها النفوس العالية رجلا آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . » [2]

ويجعل نشر العلم معينا للخير لا ينضب ،

(١) العلق الآية ١-٢ . (٢) القلم الآية ١ .

(٣) رواه الطبرانى فى الكبير - عن بكير ابن معروف عن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن ابن أبزى عن أبيه عن جده .

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

(٢) رواه البخارى ومسلم . والمراد بالحسد هنا الغبطة ، وهى تمنى مثل ما للغير .

ولا يزال يمد صاحبه بسيل من الحسنات فى حياته وبعد مماته فيقول : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[1] .

ويقول : « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »[2] .

من كل ما تقدم نرى عناية الإسلام بالعلم والتعليم واضحة جلية ونرى غضب الرسول على الجاهلين المنصرفين عن العلم مقترنا بغضبه على العالمين المنصرفين عن التعليم ، فلا يحق لمسلم بعد هذا أن يقعد عن العلم والتعليم . ذلك أن المسلم إن طلبه غير المسلمين لدنياهم فقط فنحن فطلبه لديننا ودنيانا ، نطلبه لننال به هذه الحياة ، ولندخر ثوابه للمات أيا كان هذا العلم من تفسير وحديث وفقه وتوحيد وهندسة وصيدلة وطب ، فالإسلام يحث على طلب العلم النافع بجميع صنوفه وأشكاله فقط يجعل العلوم الدينية أفضل من غيرها ، ومقدمة عليها وفرضا على كل مسلم ومسلمة بجانب ما يعلم من علوم الدنيا .

فلا يقبل من مسلم متخصص فى الطب مثلا أن يجهل دينه محتجا بأنه متخصص فى فنه . فالمسلم مسلم قبل أن يكون طبيبا ، ومسلم قبل أن يكون مهندسا ، ومسلم بعد أن يكون طبيبا ومهندسا عندما يلقى ربه ويخلف دنياه ومهنته ، وما عليك أخى المسلم وقد تخصصت فى فن من الفنون وعلم من العلوم أن تخصص من يومك ساعة تتعرف فيها لدينك ، وتكمل بها شخصيتك المسلمة فتسعد مرتين مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة .

وقديما كان الأزهر جامعة الإسلام الأولى يتسع صدره لجميع العلوم والفنون ، وكان أساطين العلوم المختلفة من طب ورياضة وجبر وغير ذلك .

كانوا قبل ذلك ومعه فقهاء ومحدثين ، فالشيخ ابن سينا أنبه علماء عصره فى الطب هو الشيخ ابن سينا ، صاحب الإشارات والتنبيهات . والغزالى الفيلسوف هو الغزالى الفقيه الصوفى . ونأمل فى يومنا هذا وقد عادت إلى رحاب الأزهر ألوان المعارف المختلفة من طب وهندسة وغير ذلك . لتدرس بجانب التفسير والحديث والفقه والتوحيد .

وبذلك يكمل الأزهر كجامعة ، أقول نأمل أن نجد فى القريب إن شاء الله بجميع دور العلم فى العالم الإسلامى علوم الدين تدرس بجانب علوم الدنيا لتثقف العقل وتهذب الروح معا ، ولنحصل على الشخصية المسلمة المثقفة المتدينة ، وليكثر فينا أمثال ابن سينا والغزالى ، والفخر الرازى .

الحسينى أبو فرحة

---

(١) رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

رأى جديد فى أشعار المديح

للأستاذ محمد صلاح الدين فضل

١ — فى هذه الآونة من تاريخنا الحديث نتشوف إلى ارتياد آفاق عذراء فى مجال الأدب العربى نحقق فيها رسالة أمتنا ... ونثبت وجود جيلنا ... ونخطط ملامح غدنا وهذه غايات نبيلة حقيقة بالعمل المخلص والجهد الدائب ... ولكن بعض الغيوم التى ينشرها المشككون وغلالات الضباب التى يثيرها المفتونون تحجب عنا نوراً لا نستطيع المضى دون الاستضاءة به ... وتهز قيما لا يمكننا البناء دون أن نرتكز عليها

والقضية التى سأحاول علاجها بسرعة فى هذا المقال تتصل بتهمة أوشكت أن تلصق فى الأذهان يوصم بها الأدب العربى القديم فى جملته ... وخصوصا التراث الشعرى منه والرد على هذه التهمة ليست محاولة للاعتذار عن تاريخنا الأدبى — ولا تبريراً مفتعلا لما حدث ... وإنما هو تحليل سريع العوامل التى كان لها فاعليتها وأثرها فيا ورثناه ... ولما زالت هذه العوامل فى عصرنا الحديث أخذنا ننظر إلى نتائجها فى الأدب دون تقدير لخطورتها ووعى باطنى كامل بأهميتها ...

٢ — هذه التهمة تتلخص فى سؤال يقوم فى ذهن الدارس للشعر العربى القديم حينما يتناول ديوانا منه فلا يكاد يمضى فيه حتى يجد أن أغلب الموضوعات التى يدور حولها لا تكاد ترتبط بوجدان الشاعر كفرد . ولا بعواطفه كإنسان . ولكنها مشاكل الجماعة وأصداء البيئة ووحى المجتمع . ثم تتركز هذه الأشياء كلها فى موضوع واحد استنفد جهد الشعراء القدامى أو كاد ... ألا وهو شعر المديح ...

والسؤال الذى ينشب أظفاره فى ذهن الدارس هو : هل كان مدار الشعر العربى القديم هو الاستجداء ؟ ..

هكذا ينشأ السؤال وتلق التهمة . فتثير فى النفس ظلالا من الريب . وقدراً من الفتور فى الحماس للأدب القديم . بل تثير بعض الاشمئزاز فى قلوب من يزعمون لأنفسهم رقة الحس ... ورهافة المشاعر ... وتعفف الضمير .

ثم لا يلبث المعوقون أن يتكشوا على هذه التهمة النكراء ليشوهوا وجه الشعر العربى . حينما يتهمونه بالذلة والاستخذاء والنفعية .

٣ — ولكى تتسم نظرتنا للأمور بقدر ولو يسير من الجدية والموضوعية ينبغى أن نتنزه عن هذه الرقة المزعومة ونعيد النظر فى تقديرنا للأمور على ضوء الفهم الواعى العميق لبنية المجتمع القديم والنظم الاقتصادية والسياسية التى كانت سائدة

فيه . . ثم موقف الشاعر فى هـذا المجتمع حتى نرى بعد ذلك ... ما إذا كان شعر المديح عارا نخزى من الحديث عنه . أم هو نتيجة ضرورية لم يكن هناك محيد عنها فى تلك العصور . . ولنرى بعد ذلك مدى ما بذله عمالقة الشعب العربى من جهد فى تخلص فى تنقية هذا التيار الذى حكمت عليهم الأقدار بخوضه . . والارتفاع به إلى آفاق إنسانية رحيبة ، جاهدوا فيها أنفسهم وعانوا المشقات الجسام فى سبيل الاحتفاظ لأنفسهم بكرامتها ولقمتهم بقدره رغم ما يضطرهم إليه المجتمع من زيف وتعمم .

ونبادر إلى تأكيد حقيقة بديهية هى أنه ليس معنى أن يكون لشعر المديح فى العصور السالفة ما يبرره ، بل وما يجعله قدراً لا مفر منه أن يكون له الآن أى حق فى الوجود، إذ أن هذه المبررات لم يعد لها ظل فى المجتمع الحديث

٤ ــ وعند ما نحاول تصور الخيوط التى كان يتكون منها نسيج البنية الاجتماعية فى العصر الجاهلى نجد أن النظام القبلى كان يتحكم فى كل مظاهر الحياة ، ومن أول مقتضيات هـذا النظام أنه يقوم على التدرج الهرمى فى تركيبه الإنسانى بحيث يتربع على قمة هذا الهرم رئيس القبيلة أو سيد العشيرة ، وتتمثل فيه روح القبيلة وتتلخص فيه شخصيتها بحيث يصير رمزاً حيالها ، وجماعا لكل ما تعتز به فى النواحى الأدبية . وهذا النظام نجده فوق ذلك قائما على تسلط هـذا الزعيم على التوزيع الاقتصادى بما يبيحه لأفراد القبيلة من مرعى ، وما يمنحهم من نصيب فى غنائم الغزوات وثروات الحروب التى كانت تمثل ما يقابل الآن الدخل القومى للدولة الحديثة .

هذان الجانبان فى شخصية الزعيم ، تجسيمه للمثل العليا القبلية ، وتركيز السلطات المهيمنة على الأرزاق فى يديه يجعل الحـديث عنه ليس حـديثاً عن شخص ... وإنما هو أشبه ما يكون بحـديث الشعراء المعاصرين عن المعانى التجريدية من وطنية وإنسانية .

وينبغى أن نتصور أنفسنا فى موقف الشاعر القديم عند ما ينظر حوله فيجد نفسه قد وهب وفرة فى الإحساس وقدرة على التعبير وعمقا فى النفاذ إلى أغوار القلب البشرى ، ولكنه كى يحيا فى هذا المجتمع القبلى ويحصل على حقوقه كإنسان يريد أن يحس بكرامته وقدره لا بد له من أن يلجأ إلى إحـــدى وسيلتين : إما أن يباشر أعمال السطو والإغارة واحتراف الحرب وإما أن يشارك سلبيا هــؤلاء الذين تجمعت فى أيديهم ثروات قومه .

وأحلى ما بين الوسيلتين مر . . ولكن لا بد مما ليس منه مفر ! !

هنا يحتدم الصراع فى نفس الفنان الذى تتجاذبه الكبرياء والحاجة ... ثم يكون الحل

مزدوجا من جانبين ... يحاول الشاعر أن يجسد في حديثه عن الفرد أشواق الجماعة في الزعيم المثالي وفي تأكيد القيم التي يعتز بها المجتمع .

ولولا خلال سنها الشعر ما درى
بناة العلا من أين تؤتى المكارم

ومن جانب آخر نرى المجتمع يعترف لهذا الشاعر بحقه في الحصول على عطايا الممدوحين دون تحرج أو لوم ... ونرى الرواة يعتزون بالقصائد التي تدور حول المدح اعتزازهم بغيرها ... ونرى النقاد في العصور المتقدمة والمتأخرة يخططون طرائق هذا الفن دون أي شعور بالغضاضة أو الإثم .

هذا الاعتراف بمشروعية فن المدح يحمل في طياته ما نريد الكشف عنه من أن نظرة الناس إليه في تلك الأيام تشبه نظرتنا اليوم إلى الشعر السياسي الوطني وأن ما كان يقال بين يدي الزعماء والقادة والحكام من مدح لهم حين تتوافر فيه عناصر الإجادة والإتقان يشبه ما يقدم الآن إلى المسابقات الأدبية من أشعار تدور حول الموضوعات التجريدية .

٥ — ثم يختلف نصيب الشعراء من الاحتفاظ لأنفسهم بإبائها وعزتها عند ممارسة هذه الضرورة باختلاف ما وهبوه من قوة الروح ... وصلابة الذات ويقظة الوجدان ... فنجد عاطفة الإعجاب وتقديس المثل العليا هي الغالبة على الفحول الذين برزوا في شعر المديح .

ولدينا نموذج واضح الدلالة على هذه النزعة المثالية التجريدية فيما أثر من شعر المديح الجاهلي .. هو شعر زهير بن أبي سلمى في مدح هرم بن سنان .. والقضية التي تبناها هرم بن سنان واستحق عليها تخليد الشاعر العظيم له قضية لا زالت تشغل أعظم المفكرين في العصر الحديث . . ألا وهي قضية السلام التي يقود الفيلسوف المعاصر برتراند رسل المظاهرات من أجلها ..

هنا يبرز ما نقوله من أن المدح ليس إلا تكريما لرمز .. تمجيدا لفكرة إحياء لمثل .. ولنستمع إليه يقول .

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما
تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم

أي بر بالقيم العليا أعظم من هذا البر ... وأي تمجيد لفضيلة من أعز الفضائل وبطولة من أرقى البطولات وأكثرها عودا بالخير على الإنسانية من هذا التمجيد ؟ ! !

٦ — ثم يحدث هذا الانقلاب الهائل فى المجتمع العربى بمجىء الإسلام . . وتتعقد الخيوط التى يتكون منها نسيجه . . وتتعدد الأصباغ التى يتلون بها رداؤه . . ويتقلب الشاعر العربى فى مختلف عصوره على الجمر حين يتبين أن الفرد الحاكم ما زال يمثل السلطة الروحية . . والنموذج البطولى . . والهيئة التنفيذية للدولة المسلمة .. وأنه إذا كان بوسعه أن يحصل على رزقه دون أن يلجأ إلى أبهاء الخلفاء وقصورهم فإنه سيظل بمنأى عن أضواء التاريخ التى كانت تسلط كلها على أصحاب الحكم وأقطاب السياسة .. سيحرم نفسه من المجد .. وشعره من الخلود إن ترفع على مجالس الخلفاء والحكام .. ثم إن نزوله إلى هذا المعترك يتيح له فرصة التوجيه غير المباشر والقيادة الفكرية الحكيمة لحياتهم السياسية والخلقية.

بقى المدح ضرورة للشاعر الذى يريد أن يطفو فوق سطح الحياة ولا يظل مغموراً يعالج أحزانه وأشجانه دون أن يجد راوياً يعنى بنقل شعره أو متغنياً يتلذذ بسماعه . . وعملية التذوق بالنسبة للفنان تكملة طبيعية للإنتاج فكل شاعر يهمه أن تسير بشعره الركبان . . وهى لا تسير فى أغلب الأحيان إلا إذا أثارت اهتمام الناس والعلماء .. ولم يكن يثيرهم فى ذلك الوقت إلا ما يتعلق بهؤلاء الذين تربعوا على قمة المجتمع واستقطبت حولهم مشاكله .

كانت مجالس الخلفاء وحلقات الشعر بين أيديهم أشبه ما تكون (باستديوهات) الإذاعة وممرات الصحافة فى عصرنا الحديث.. الراوى يأخذ مكانة الناشر .. وعلى من يريد لشعره الذيوع أن يرحل به إلى مركز الأضواء ومقر القيادة . . إلى مجالس الخلفاء . . وهو لا يستطيع أن يلج هذه المجالس إلا إذا حرق بعض البخور فى تمجيد الخليفة وتقديس الفرد .. فى شعر المدح .

أترى أى عبء كان على الشاعر القديم أن يتحمله حتى يسمع الناس شعره ؟ وأى مشقة كان يجدها هذا الشاعر فى تناول موضوع مَتًا كل متعفن هو موضوع المدح ..؟ لقد كان عذابا ما بعده عذاب . . لكنه قدر . . وأمر محتوم . . منطق المجتمع . . وضرورة الحياة ..

٧ — لم يكد ينجو من هذه اللعنة إلا طائفة من الشعراء الذين وهبوا حياتهم وفنهم لعرائس أو شياطين الغزل . . واتخذوا من عواطفهم ولواعجهم مادة لشعر حى متجدد نابع من صميم وجداناتهم ومعبر عن تجارب حقيقية ذاعت وشاعت وعرفوا بها فى الأوساط الأدبية فضمنت لهم خلود الاسم .. ودوران الشعر على الألسن فلم تكن بهم حاجة إلى المديح من أمثال جميل بن معمر وقيس بن الملوح ومن كان على شاكلتهم ..

ولسنا بصدد تقصى جوانب البحث فى هذه

التفصيلات لأننا نريد أن نقف وقفة متأملة فى قلب المشكلة لدى الشعراء الذين عانوا أزمة الإبداع تحت وطأة الانسياق لهذه الضرورات التى ألجئوا إليها .

وسنختار منهم نموذجا يكاد يكون فذا فى بابه .. هو أبو عبادة البحترى .. وسنختار له بضعة أبيات من قصيدة عاتبة وجهها إلى الفتح بن خاقان نشم فيها رائحة الصراع الذى كان يحتدم فى نفس الفنان الأصيل بين اعتزازه بشخصه وشعره وخضوعه لمقتضيات العصر من تورط فى أشعار المديح .. وتمجيد للممدوحين يقول البحترى :

عذيرى من الأيام رنقن مشربى
ولقيننى نحسا من الطير أشأما
وأكسبننى سخط امرئ بت موهنا
أرى سخطه ليلا مع الليل مظلما

إلى هنا وهو معتذر عادى لا يزيد عن غيره من الشعراء الذين أذابوا بدموعهم قلوب ممدوحيهم أو قسوة هذه القلوب حتى راحوا يسكبون فيها الحنان العذب الجميل .. ولكنه يقول بعد ذلك :

أعيذك أن أخشاك من غير حادث
تبين أو جرم إليك تقدما
ألست الموالى فيك غر قصائد
هى الأنجم اقتادت مع الليل أنجما
ثناء كأن الروض منه منورا
ضحى وكأن الوشى فيه مسهما

فنجده يضرب على وتر حساس .. ويلمس زاوية تثير الشجن عندما يستعيذ صاحبه أن ينقلب عليه بلا مبرر ولا مسوغ .. ويروح يناشده الوفاء بحق تلك القصائد الزهراء المنورة التى توجه بها .. ولكنه يبلغ القمة فى التعبير عن أزمة الفنان الذى اتخذ من إنسان مادة أشعاره ثم وجد هذا الإنسان .. هذا الرمز .. يتحول إلى فراغ .. إلى باطل .. إلى زيف .. إنه لا يبكى شخصات فى هذه الحال .. ولكنه يبكى شعره .. يبكى نفسه .. فى كبرياء عنيد واعتزاز أصيل .. وفورة عارمة من فورات الاعتزاز .. فيقول:

ولو أننى وقرت شعرى وقاره
وأجللت مدحى فيك أن يتهضما
لأكبرت أن أوى إليك بإصبع
تضرع أو أدنى لمعذرة فما
وكان الذى يؤتى به الدهر هينا
على ولو كان الحمام المقدما

هذه الأبيات الثلاثة فيما أرى كفيلة بأن ترد لشاعر المدح العربى اعتباره فى نظر النقد الحديث .. وتقفنا على حقيقة إحساس هؤلاء الفنانين المعذبين عندما يصوغون من ذوب مشاعرهم تماثيل يحمون فيها مثلا عليا يريدون لها السيادة ثم .. تنهار هذه التماثيل عندما تهب عليها عاصفة بشرية حمقاء . ويتبين أولئك الفنانون لجيعتهم فى آمالهم .. فلا تكون

الكارثة فى غرض ضاع .. أو نفع ذهب ولكنها فى نموذج تحطم .. فى عمل .. فنى فقد معناه .. تجوف .. ومن هنا يأخذ شعر المديح مغزى آخر .. وقيمة جديدة يساعدنا فى الكشف عنها شعر العتاب ..

ولا نريد أن نعرض هنا لشاعر آخر بلغ الذروة فى اعتداده بنفسه أمام ممدوحيه ووقوفه منهم موقف الند للند .. وخطابتهم كأنهم أحباب أوعشاق له ولفنه .. ثم الإدلال البالغ عليهم والاعتزاز الشديد فى مواجهتهم والعنف اللاذع فى تأنيبهم لدى الاعتذار .. وتقريعهم عند الفرقة .. ألا وهو المتنبى .. لا نريد أن نعرض لذلك لأنه يطول .. ولكننا نلمح إليه لندل هؤلاء الذين يأبون إلا أن يتهموا الشعراء العرب بضعف الشخصية وخفوت الأنغام الذاتية .. وهوان النفس فى معرض المديح .. على أن الأرواح القوية لا تعرف الخنوع .. وهى وإن اضطرت إلى مشايعة العرف ومسـايرة الضرورة لا يفوتها أن تنتقم لكبريائها إذا جرحت .. ولفنها إذا امتهن .. ولكرامتها إذا ديست.

٨ — وبعد .. فلعل فى الكلمات القصيرة السابقة ما يشير إلى ضرورة إعادة النظر فى الأحكام السريعة التى تتبرع بها معرضين تراثنا للإهمال .. وذخيرتنا للسخرية .. وأعلام أدبنا للجحود .. وضرورة فهم الأدب فى ظل الحياة التى عبر عنها .. وخضع لمقتضياتها ..

وقد اتضح مما سبق أن شعر المديح كان متنفساً طبيعياً .. وطريقاً مشروعاً فى المجتمع العربى القديم .. بحكم بنائه السياسى والاقتصادى والحضارى بصفة عامة وأنه قام بدور خطير فى إحياء المثل العليا من جانب وضمان حياة إنسانية رغيدة للشعراء من جانب آخر .

وبقى جانب آخر وضىء فى شعر المديح آثرنا أن نختم به هذه الكلمات وهو ذلك المديح العاطر الذى توجه به عبـاقرة الشعراء إلى صاحب أسمى الرسالات الإنسانية ومعلم البشرية - محمد صلى الله عليه وسلم - ولا شك أن القيم الروحية الجليلة التى أكدها هؤلاء الشعراء .. والغاية النبيلة التى قصدوا إليها من مدح الرسول لما يرتقى بهذه الأشعار - إذا جاد أداؤها - إلى سماء الشعر الصافى الخالد .. ولعل شوقى الآن قد تقاضى مهر عرائسه عندما قال :

لى فى مديحك يا رسول عرائس
تيمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فإن أردت تكرما
فمهورهن شفاعة حسناء

محمد صلاح الدين فضل
معيد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

بمناسبة الحملة الدولية ضد الجوع

عدالة التوزيع

للأستاذ فتحي عثمان

كتب المقريزى فى القرن التاسع الهجرى «الخامس عشر الميلادى» كتاباً عن المجاعات فى مصر أسماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) له منزلتــه الفريدة فى الفكر العربى والإسلامى، بعد تلك الفصول التى ضمنها أستاذه ابن خلدون فى مقدمتــه دراسات اقتصادية اجتماعية طيبة ...

وقد كشف الكاتب فى مقدمة كتابه عن ظروف مصر السيئة وأزمتها الخانقة التى كانت تجتازها فى ذلك الوقت :

« ... لما طال أمد هذا البلاء المبين، وحل فيه بالخلق أنواع العذاب المبين ظن كثير أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها ولا مر فى زمن شبهها، وتجاوزوا الحد فقالوا لا يمكن زوالها، ولا يكون أبداً من الخلق انفصالها! إنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون .. ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته، علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد، لا إنه كما مر من (الغلوات) وانقضى من السنوات المهلكات. فعزمت على ذكر الأسباب التى نشأ منها هذا الأمر الفظيع، وكيف تمادى بالبلاد والعباد هذا المصاب الشنيع، وأختم القول بذكر ما يزيل هذا الداء ويرفع البلاء، مع الإلمام بطرف من أسعار هذا الزمن وإيراد نبذ مما غبر من الغلاء والمحن ... إذ الأمور كلها : قلها وجلها، إذا عرفت أسبابها، سهل على الخبير صلاحها » ...

وكان للمقريزى إشارة بارعة فى ارتباط مستوى الإنتاج بظروف التوزيع إذ يقول :

« فلما وهى أهل الريف بكثرة المغارم وتنوع المظالم اختلت أحوالهم، وتمزقوا كل ممزق، وجلوا عن أوطانهم، فقلت مجابى البلاد ومتحصلها، لقلة ما يزرع بها، ولخلو أهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم، وعلى من بقى منهم » ...

« لا جرم أنه لما تضاعفت أجرة الفدان من الطين إلى ما ذكرنا، وبلغت قيمة

الإردب من القمح المحتاج إلى بذره ما تقدم ذكره ، وتزايدت كلفة الحرث والبذر والحصاد وغيره ، وعظمت نكاية الولاة والعمال ، واشتدت وطأتهم على أهل الفلح ، وكثرت المغارم فى عمل الجسور وغيرها . منعت الأرض زكاتها ولم تؤت ما عهد من أكلها ... استمر السعر مرتفعاً لا يكاد يرجى انحطاطه ، خرب بما ذكرنا معظم القرى ، وتعطلت أكثر الأراضى من الزراعة ، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض ، ومات أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ، وامجز الكثير من أرباب الأراضى عن زراعتها لغلو البذر وقلة المزارعين ، وقد أشرف الإقليم لأجل هذا الذى قلنا على البوار والدمار « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

إن عدالة التوزيع تؤثر على الكفاءة الإنتاجية أكبر تأثير ...

نحن نشهد فى زماننا تغيراً كاملا فى النظم الاجتماعية وطرق المعيشة التى كانت سائدة فى أول هذا القرن ، فنحن نخرج من عصر اجتماعى إلى آخر . وقد حاول جوليان هكسلى أن يحدد خصائص هاتين الفترتين من عصرنا فسمى العصر المنصرم : بعصر الرجل الاقتصادى ، وأطلق على العصر الجديد : عصر الرجل الاجتماعى . والواقع أن أوضح مظهر للتباين الصارخ بين هذين العالمين - وقد اشتملتهما كلهما حياة جيل واحد - هو انتقال مركز الاهتمام . ففيما قبل الحرب العالمية الأولى كانت المدنية الغربية بما فيها من تقدم اقتصادى عظيم لا هم لها إلا التحكم بطرائقها الفنية فى قوى الطبيعة ، وبينما كانت منهمكة ذلك الانهماك فى مشكلات الاستغلال الاقتصادى وحيازة الثروة ، كان الإنسان بمشاكله مهملا إهمالا يكاد يكون تاما .

على أن ما رأيناه فى عالم ما بعد الحرب فى كل مكان سواء فى الغرب الرأسمالى أو الشرق الاشتراكى هو تركيز الاهتمام فى الإنسان بصفته البيولوجية والبشرية كوحدة متماسكة ، وأصبحت لمشاكل الإنسان الأولوية على المشاكل الاقتصادية . ولا يعنى ذلك أن المسائل الاقتصادية ستنزل أهميتها فى العصر الاجتماعى إلى درجة ثانوية ، بل يعنى أنها ستوجه لصالح البشرية ...

وكان من مظاهر هذه الروح الجديدة مؤتمر التغذية التى دعت إليه الأمم المتحدة فى هوت سبرنجز Hot Springs حيث قام خبراء ٤٤ دولة فاعترفوا فى صراحة بأحوال التغذية فى بلادهم ، ورسموا الخطوات الضرورية لسد حاجتها ، واقترحوا بأن يقوموا بإزالة أو - على الأقل - تخفيف البقع السوداء التى تمثل

مراكز الجوع وسوء التغذية على الخريطة الديموجرافية ... والواقع أن المشكلة ليست مسألة إنتاج اطلاقا ، بل بالحرى مسألة توزيع وقد ذكر فرانك بودرو أننا كنا أكثر توفيقا فى إنتاج الطعام عما كنا فى توزيعه ... »

ولقد كان الدين حريصا على عـــدالة التوزيع حرصه على ترقية الإنتاج .

فى حديث رسول الإسلام « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ... » .

وتوفير هذه الاحتياجات للإنسان أساس لتحقيق الكرامة الإنسانية . . .

وهى التى تقررها وتقدسها نصوص القرآن « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا » .

كتب الإمام ابن حزم فى القرن الخامس الهجرى .

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم :

بما يأكلون : من القوت الذى لابد منه .

ومن اللباس : للشتاء والصيف بمثل ذلك .

وبمسكن : يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

ولقد سبق أن علقت على هذا النص فى كتابى (آراء تقدمية من تراث الفكر الإسلامى) :

« لقد ألزم ابن حزم الدولة أن ترعى الحقوق الاجتماعية للأفراد ... وابن حزم يحدد الحد الأدنى للمستوى الاجتماعى ، فليس قيام الأغنياء بالفقراء أن يدفعوا فى أفواههم لقمة عفنة معفرة بالتراب ، لا : إنه الغذاء والكساء والسكن . والغذاء : هو القوت الذى لابد منه ، ولعلماء التغذية وحدهم أن يفسروا هذا النص على أساس ما يوجبه العلم للمرء من سعر حرارى وقيمة غذائية وتوفر البروتين والدهون والكربوايدرات والمعادن والفيتامينات .

واللبـاس : كلمـــة شاملة تشمل الملابس الداخلية والخارجية ، وملابس البيت ، والشارع . والمسكن : يجب أن يكون متينا قويما ، لا تعبث به الريح ولا تنفذ خلال ثغراته ذرات الرمال والحصى ولا تقتحمه العيون » !!

وتحقيق هذا المستوى لكل فرد يتطلب ترقية الإنتاج ، كما أن ترقية الإنتاج تستلزم كفاء الأداة البشرية بتوفير احتياجاتها .

وقد يكون تنظيم النسل من الضوابط الضرورية لعدالة التوزيع ...

وقديما أنذر الاقتصادى الانجليزى توماس روبرت مالتس فى أواخر القرن الثامن عشر بخطر زيادة السكان على الحد الأقصى لإمكانيات العالم فى التوسع الزراعى والغذائى . على أن زيادة السكان ليست عاملا مستقلا منفصلا عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، وفى السنوات القلائل التى أعقبت نشر آراء مالتس كان الظاهر أن زيادة السكان فى العالم تؤيد تنبؤاته ، ولكن قبل نهاية القرن الماضى قلت سرعة تلك الزيادة . ويذكر خبير التغذية جوزويه دى كاسترو فى كتابه (جغرافية الجوع) :

« يختلف أثر الجوع المزمن فى الحاسة الجنسية اختلافا بينا على أثر التضور الحاد . فمن المعروف أن التضور يقلل الرغبة الجنسية بينما يبدو أن الجماعات التى تقاسى النقص المزمن فى التغذية من جهة أخرى تزداد عندهم الرغبة الجنسية ، فمن الواضح أنهم أكثر إنسالا ممن هم أحسن حالا . وهذه الزيادة فى القدرة على الإنسال بين الجماعات التى تتعرض التضور المزمن تحدث عن طريق عملية معقدة تنطوى على عوامل فسيولوجية ونفسية معا . والأثر النفسى للجوع المزمن هو أن يكسب غريزة الجنس من الأهمية ما تعوض به عاطفيا فقدان شهية الطعام ، ومن المسلم به اجتماعا أن الرغبة الجنسية فى الظروف العادية تنافس الرغبة فى الطعام ، فإذا ضعفت إحداهما قويت الأخرى . فإذا نشأ عن الجوع - ولا سيما الجوع الناجم عن نقص البروتينات وبعض الفيتامينات انعدام الشهية انعداما مزمنا وانعدم الاهتمام بالطعام ، سيطرت على المرء الرغبة الجنسية . والشخص الذى يتضور تضوراً مزمنا والذى ضعفت شهيته للطعام وأصبح يكفيها أقل قدر منه ، يتوقف عن التفكير فى غرائزه الغذائية التى أصابها الوهن . وكل ما يبدو عليه من النشاط الذى يهمه بيولوجيا ويرضيه نفسيا يتجه إلى الغريزة الجنسية . وعلى هذا فإن حاجة أولية تقوى حتى تعوض عن سيطرة الأخرى ، وما تبديه بعض المجتمعات أو الطبقات الاجتماعية التى تعيش فى حالة من نقص التغذية المزمن من انغماس فى الشهوات يمكن تفسيره على ضوء عملية التعويض المذكورة . على أن كثرة النسل بينهم ترجع كذلك إلى مظهر فسيولوجى هام من مظاهر الجوع ، وقد لاحظ رعاة الماشية منذ أمد بعيد أن الحيوانات التى تسمن أكثر مما يجب قد تصاب بالعقم ، وأن الإقلال من وجبات طعامها قد يعيد إليها خصوبتها . وتوجد اليوم إحصاءات عن تجارب أجريت ومشاهدات توضح العلاقة بين الطعام والخصوبة ، وهى تبين الطريقة التى يعمل بها النقص الغذائى الجزئى

على زيادة النسل . والافتقار إلى البروتين وما ينطوى عليه من نقص فى بعض الأحماض الأمينية الهامة يزيد الخصوبة فى الحيوانات زيادة ملحوظة ، كما أثبتته تجارب الدكتور سالونيكر على مجموعات من الفئران أخضعها لأنواع من الغذاء تتفاوت فيها مقادير البروتين ثم درس أرقام أنسالها فى مدى ستة أجيال ، وقد لاحظ مثلا أن ذكور الفئران عندما تناولت طعاما لا يحوى من البروتين سوى ١٠ ./. من سعراته الكلية أصيب ٥ ./. منها بالعقم ، وعندما زيدت نسبة البروتين إلى ١٨ ، ٢٢ ./. ازدادت نسبة العقم إلى ٢٢ ، ٤٠ ./. على التوالى ... !! »

وعلى ذلك يخرج دى كاسترو بأن « ازدحام السكان فى جهات العالم المختلفة ليس هو سبب الجوع ، بل إن الجوع هو سبب ازدحام السكان ! وإذا استحال القضاء على الجوع عن طريق تحديد النسل ، فمن السهل أن نعكس الوضع ونقرر أن التحكم فى نمو السكان ممكن بالقضاء على الجوع !... إن زيادة إمكانيات العالم الديموجرافية وتحسينها ورفع المستوى الصحى للإنسان خليق بأن يؤدى إلى زيادة إنتاج الطعام » !!

على أن نصوص الدين نفسها لا ترفض فكرة تنظيم النسل ... فى الصحيحين : كنا (نعزل) على عهد رسول الله والقرآن ينزل ، وفى صحيح مسلم : كنا (نعزل) على عهد رسول الله فبلغه ذلك فلم ينهنا . وهناك روايات فى الصحيحين والسنن سمع فيها الرسول بأذنه عن (العزل) فلم ينكر ، وفى مسند أحمد وسنن ابن ماجه وداود : نهى رسول الله أن يعزل عن الحرة إلا بإذنها وهكذا انتقلت السنة النبوية من إقرار المبدأ إلى تنظيمه ! قال ابن القيم : « فهذه الأحاديث صريحة فى جواز العزل ، وقد رويت الرخصة فيه عن عشرة من الصحابة ، وهو مذهب مالك والشافعى وأهل الكوفة وجمهور أهل العلم » !!

وهكذا نجد اتجاه الدين دائما إلى رعاية الإنسان .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج » .

وعدالة التوزيع فى المطالب الاستهلاكية تستدعى عدالة التوزيع فى وسائل الإنتاج .

ولقد ورد حديث لرسول الإسلام أثار جدلا فقهيا كبيراً : « من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه ، فإن أبى فليمسك أرضه » ، ووردت روايات بالنهى عن كراء الأرض .

وعلى ذلك لم يجز الإمام ابن حزم إجارة الأرض « ولا تجوز إجارة الأراضى أصلا ، لا للحرث فيها ولا للغرس فيها ولا للبناء فيها ولا شىء من الأشياء أصلا ، لا لمدة مسماة

قصيرة ولا طويلة ولا بغير مدة مسماة ، لا بدنانير ودراهم ولا بشيء أصلا ، فتى وقع فسخ أبدا » .

وهذا تعزيز للاتجاه القائل بأن تكون الأرض لمن يزرعها ، وأن من لا يزرع يجب ألا يملك أرضاً زراعية .

وخير ما يبرز سلامة هذا الاتجاه كلمات الاقتصادى الانجليزى مل Mill الذى كتب سنة ١٨٤٨م « إن الأسباب التى تبرر ملكية الأرض تكون صحيحة طالما كان مالك الأرض هو مستصلحها ... وليس هناك من نظرية سليمة للملكية الخاصة جرى التفكير فيها يوما وتضمنت القول بأن مالك الأرض ينبغى أن يكون مجرد موظف من النوع الذى يتقاضى مرتبا بلا عمل ، أو ضيف ثقيل على حساب العاملين فيها » ! !

ومن هنا لا تكون ترقية الإنتاج على حساب الكرامة الإنسانية . إن هذا غدر بالهدف النبيل الذى من أجله يكون الإنتاج ، وعاقبة هذا الغــدر وخيمة على الإنتاج نفسه فى النهاية ! !

والدين لا يرضى بأن يكون الحظ الأوفر من طيبات الأرض أو خيرات الإنتاج وقفاً على طبقة أو دولة ، بينما يشق سواد المجتمع أو العالم ...

إنه يتطلب أن يسرى تيار الحياة الاجتماعية بغير انقطاع ، وتستمر حركة تداول الثروة ، كما يسرى التيـــار الكهربائى بين الموجب والسالب .

« كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

والدين يقيم التعاون الدولى على أساس من التكافؤ والنفع المتبادل .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين » .

وهكذا يضع الدين وقاية من الإقطاع ، ومن الاستعمار .

وهنا تتحقق كفاءة الإنتاج وكرامة الإنسان .

وهنا يكون الدين هدى ورحمة للفرد بكل طاقاته ، وللمجموع البشرى بكل أفراده ، حتى لا يستنزف الصراع المتخبط دون طائل : قطرة من دم ، أو نفساً من حياة ، أو ذرة من مادة ... وحتى لا تتبدد الطاقات فى اصطناع الأسوار والمتاريس لحماية البغى وفى دك الأسوار والمتاريس لاسترداد الحق ! !

وبعـد :

فقد أوفى الله عهده للإنسان ... بألا يجوع ، وألا يضيع .

لقد أودع فى الكون طاقات هائلة ، ثم أودع فى الإنسان طاقة خلاقة تعالج كل ما فى الكون من طاقات العمل ، وبقى على الإنسان أن ينطلق ...

ينطلق بكل طاقاته فى التعامل مع الكون بكل طاقاته!

وحسب الدين أن يبصر الإنسان بمعالم الطريق، وأن يرسم له خطوطاً رئيسية، وأن يقدم له من هداية الضمير ووقايته ما يؤمن الطاقة من أن تستهلكها الأهواء فى السراديب والمنحنيات والمزالق!!

وعلى الإنسان وحده بعد ذلك يقع عبء العلم والعمل، عبء التفصيل والتنفيذ.

وليبارك الله كل جهد مبذول من أجل الوصول بالطعام إلى الوفرة ومن أجل التحرر من الجوع.

ومن كان فى يده بذرة أو غصن أو جذر أو فسيلة فليغرسها ... فإن له بذلك أجرا.

ومن كان فى يده شمعة فليضئها على الطريق... فإن له بذلك أجرا.

مهما ضجت النذر بأن النهـاية والقيامة على الأبواب.

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة

أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها

ويضرب الله الأمثـال للناس لعلهم يتذكرون».

فوزى عثمان

الأزهر والعالم

من علم الأزهر شع نور الإسلام فى بلاد كثيرة، من إفريقيا ومن آسيا، وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين. وكانت بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر سبباً لتوثيق علاقة مصر ببلاد كثيرة، وشعوب كثيرة، منذ أقدم العصور إلى اليوم. وقد اكتسب المنتسبون إليه احتراما، وصار رأيه هو الرأى فى كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة، وصار هو الجامعة الإسلامية فى الشرق والغرب.

التكليف والثواب والعقاب

للأستاذ محمد يوسف الشيخ

كلف الله تعالى عباده وابتلاهم بأمره ونهيه فطلب إليهم من الأعمال ما هو واجب ومستحب، ونهاهم من الأفعال عما هو إثم ومكروه. وكان فى امتثالهم ما شاء الله سبحانه من ثواب ورحمة، وفى مخالفتهم ما شاء الله سبحانه من عقاب ونقمة. فهل للمكلف سلطان على ما كلف به وما به يسعد أو يشقى؟ سؤال استبد بالمفكرين فى شتى العصور، يحاولون الإجابة عليه بجواب حاسم.

اختلف الباحثون فى هذا شيعا وطوائف: الجبرية، أهل الاعتزال، أهل السنة. ذهب الجبرية أصحاب جهم بن صفوان إلى أن الإنسان لا صلة له بعقله سوى كونه محلا له فهو بالجماد أشبه، ولسنا فى حاجة إلى مناقشة هذا المذهب فإنه يصطدم مع ما نحس به من الاختيار فيما نحن مختارون فيه، ويتنافى مع التفرقة البديهية بين ما نضطر إليه من الأفعال وما نأتيه طواعية واختيارا.

فليس فى ميزان البحث والجدل سوى مذهبى أهل السنة والاعتزال، فما هو الحق منهما؟ أقول لا نزاع بين هؤلاء وهؤلاء فى وقوع التكليف ببعض أفعال العباد كما اتفقوا على أن التكليف إنما يكون بما للمكلف عليه سلطان وله فيه اختيار.

نعم جوز فئة التكليف بما ليس فى وسع المكلف ولا يقع تحت سلطانه، لكنهم ينفون وقوع ذلك، وهذا ما يشهد به الكتاب المبين «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»، «وما جعل عليكم فى الدين من حرج»، «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر».

هذان مبدآن لا يختلف فيهما سنى ولا معتزلى: وقوع التكليف ببعض الأفعال. سلطة المكلف على ما كلف به.. إلا أنهم اختلفوا فيما تتحقق به سلطة المكلف على ما كلف به، فذهب الاعتزال إلى أن مظهر ذلك السلطان إنما هو فى خلق العبد ما كلف به أو الكف عن خلقه. وفى القرآن المبين شواهد تنادى بظاهرها على ذلك: «اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله»، «ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» إلى غير ذلك من عشرات الآيات.

وذهب أهل السنة إلى أن مظهر سلطة العبد على ما كلف به إنما هو كسبه لذلك

العقل المكلف به : ما ذلك الكسب ؟ . قال السيد الشريف فى مواقف العضد :

الكسب تعلق قدرة العبد وإرادته بفعله الاختيارى من غير أن يكون منه تأثير أو مدخل فى وجوده سوى كونه محلا له . ولم فى الكتاب المبين شواهد تدل على ذلك كقوله تعالى : « وخلق كل شىء فقدره تقديراً » . « والله خلقكم وما تعملون » .

فاذا كان كل شىء مخلوقا له تعالى فليس لقدرة العبد ، وقد تعلقت بفعله الاختيارى ، خلق وتأثير فى ذلك الفعل بل كل ما هنالك أنه محل لذلك الفعل .

إذن انحصر النزاع بين الفريقين فى أين تكون سلطة المكلف فيما كلف به ، أهى فى خلقه ما كلف به أم كسبه لذلك ؟ وكأنى بالمعتزلة قد استمدوا رأيهم من الواقع المحسوس الذى تظاهره كثير من الشواهد القرآنية ، كما أسلفنا بينما لا سند لأهل السنة ، فيما تشبثوا به إلا مثل قوله تعالى : « وخلق كل شىء » . ولولا ما ورد من أمثال ذلك وحرصهم على المحافظة على ظاهره من العموم الشامل لما خالجهم شك فى خلق العبد لأفعاله الاختيارية ، كما يشهد به الواقع المحسوس فلقد كلفنا الله تعالى آمرا ناهياً ، « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، « ولا تقربوا الزنا » ، « ولا تأكلوا الربا » ، « ولا يغتب بعضكم بعضا » ... خطاب من الله تعالى يطلب فيه إلينا أن نصلى ، ونزكى ، ونصوم ، ونعبده تعالى وأن نكف عن الزنا والربا ، والغيبة ، فاذا نفهم من تلك الأوامر والنواهى الصادرة منه إلينا ، يفهم كل الناس بداهة وبدون تردد أن الله تعالى يطلب إلينا أن توجد الصلاة والزكاة والحج وألا نزنى وألا نأكل الربا ، وألا نغتاب ، والفعل فى خطاب التكليف أمراً ونهياً مضاف إلينا قطعاً . « ومن يفعل ذلك يلق أثاما » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين » ...

لو افترضنا أن ليس هناك سنى ولا معتزلى .

ولم يقرأ الناس خلافا فى أفعال العباد ، وقرأوا هذه الآيات البينات فهل يرتاب أحد فى أن الله تعالى يطلب منا أن يكون منا هذا الفعل وألا يكون منا ذاك الفعل .

لقد كان مذهب الاعتزال أقرب إلى الفطرة وما يشعر به الإنسان من نفسه وما ينطق به كثير من الآيات ، لولا ما غالوا فيه من تقرير سلطة العبد مطلقة ، وأن الله تعالى لا إرادة له فيما نهى ، بل ليس وراء الفعل إلا قدرة العبد وإرادته ، أما قدرته تعالى وأما إرادته جل شأنه فمعزولة عن ذلك الفعل . نعم أراد الله

سبحانه أن يكون وضع الإنسان هكذا، خلقه وخلق فيه القدرة والإرادة، يخلق فعله حسبما أراد، فليس لله تعالى فى فعل العبد سوى خلقه فى العبد القدرة عليه يستقل بإيجاده كما أراد، وقد أمره ببعض تلك الأفعال ونهاه عن بعضها. أما أهل السنة فجعلوا وراء فعل العبد قدرتين وإرادتين: قدرة الله تعالى وعبده، وإرادة العبد وربه، ولم يسندوا الفعل إلى القدرتين لا استقلالا ولا شركة وتعاونا بل أسندوه إلى قدرته تعالى استقلالا حسبما أراد، أما قدرة العبد وإرادته فما شأنهما حينئذ؟ زعموا أن لها مجرد التعلق بالفعل دون إيجاده وهذا ما يسمونه بالكسب كما سلف ... وأقول لا نفهم من تعلق القدرة بالفعل سوى إيجاده بحيث إذا ارتفع الإيجاد ارتفع التعلق، بل وقولك هذه القدرة لم توجد ذلك الفعل، مساو لقولك هذه القدرة لم تتعلق بذلك الفعل، يشهد لهذا قولهم أن تعلق العلم انكشاف، وتعلق القدرة إيجاد، وتعلق الإرادة ترجيح وتخصيص، فنفى الإيجاد مع إثبات التعلق تناقض، وإثبات الشىء ونفيه معا، ثم على ما ذهب إليه أهل السنة كيف نفهم النصوص أنفهم: « أقيموا الصلاة »، فلتتعلق قدرتكم بالصلاة مجرد تعلق، وكذلك « آتوا الزكاة » وكذلك « فليصمه »، وهكذا سائر الأوامر. فالمكلف به مجرد التعلق ومجرد الكف عن التعلق، أما إيجاد الفعل والكف عنه فمن أثر القدرة القديمة لا يتعلق به التكليف. وكذلك نفهم قوله تعالى: « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت إلخ .. ». إن الذين تعلقت قدرتهم بالإيمان والعمل الصالح مجرد تعلق كانت لهم إلخ وكذلك « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها »، وهكذا وهكذا ... ألا ترى أن هذه تعسفات تنكرها أساليب اللغة التى حملت إلينا التكاليف وخاطبنا بها الله تعالى فى أمره ونهيه، إنما ينطق الأمر والنهى فيما أوردنا من الأمثلة بأن المكلف به فعل الصلاة والزكاة والحج، والكف عن فعل الزنا والربا والغيبة هذه أفعال مسندة إلى العبد وقدرته وقد نسبها الكتاب المبين إليه « من عمل صالحا فلنفسه »، « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله »، فهى للعبد وقدرته خلقا وإيجادا بعد مشيئته تخصيصا واختيارا. ثم قد كبا الاعتزال كبوة شنيعة فى عزل المشيئة القديمة عن بعض هذه الأفعال وهو مصادم لقوله تعالى: « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ولعلهم اضطروا إلى هذا خوفا من اضطرار العبد عند مشيئته تعالى لفعله، فنفوا تلك المشيئة فرارا من هذا الاضطرار حتى يستقيم التكليف والثواب والعقاب .. كأنى بهم وقد فروا بهذا نسوا علمه تعالى ذلك العلم الفعلى الذى تبرز الأشياء

طابقه كالمهندس يترسم فى ذهنه صورة البيت فى شكل ووضع معين ، ثم يبنى طبق ما رسم وحسبما علم ، فما علمه الله تعالى لابد كائن حسبما علم . فما زال العبد مضطرا فإذا فر الاعتزال من اضطرار العبد بنفى إرادته تعالى عن فعله فما زال العبد مضطرا لشمول علمه تعالى فإن ما علمه كائن لا محالة .. وأقول الحق إنه تعالى مريد لما كان وما يكون كما أنه تعالى عالم بكل مفهوم واجبا وممكنا ومحالا ، لكن ليس فى علمه وإرادته لفعل العبد منافاة للتكليف والثواب والعقاب ، وليس فيها معذرة للعبد فى إثمه ومعصيته . فإذا أمر الله تعالى عبده بالصلاة مثلا فإذا لم يمتثل وترك الصلاة فقد بان أن الله تعالى علم وأراد تركه الصلاة وعدم امتثاله فهل يصلح هذا العلم وتلك الإرادة معذرة للعبد؟ فيقول: تركت الصلاة لعلمه تعالى وإرادته سبحانه منى تركها .

إن مذهب الاعتزال فى أفعال العباد أقرب إلى الفطرة وما يشعر به الإنسان من نفسه ، بل ربما كان أكبر استجابة لمنطق الكتاب المبين فى كثير من آياته : « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » لكنهم كبوا كبوة شنيعة فى عزل المشيئة القديمة عن بعض أفعال العباد العباد وهـــو مصادم لمثل قوله تعالى : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، ولعلهم انحرفوا هذا الانحراف الآثم فراراً من اضطرار العبد إذا ما تدخلت تلك المشيئة القديمة فى أفعاله التكليفية ، لكن فاتهم أن علمه تعالى ذلك العلم الذى سبق جميع الكائنات ، وقد تناول قطعا وإجماعا تلك الأفعال التكليفية وما علمه الله تعالى لا محالة كائن فما زال المكلف من هذه الناحية مضطراً فإذا فر الاعتزال من الاضطرار الإرادى فما زال الاضطرار العلمى جاثما لا مفر منه ، وأقول كما سبق :

الحق أنه تعالى مريد لما كان وما يكون كما أنه عالم بكل مفهوم ، لكن ليس فى علمه وإرادته لفعل المكلف اضطرار ومنافاة للتكليف والثواب والعقاب وليس فى ذلك العلم وتلك الإرادة القديمين معذرة للمكلف فيما اقترفه من الإثم والمعصية فإذا ما أمر الله تعالى عبده بالصلاة مثلا ، فإذا لم يمتثل وترك الصلاة فقد بان أن الله تعالى علم وأراد تركه للصلاة ، فهل يصلح هذا العلم وتلك الإرادة معذرة للعبد ومسقطاً للعقاب والمسئولية واللوم ، فيقول تركت الصلاة لعلمه تعالى وإرادته سبحانه منى تركها .؟ أقول كلا إنما يصح الاعتذار والتعلل بالشىء إذا علمته قبل الإقدام على الفعل أو الترك . لأن ذلك الشىء الذى انتحلته معذرة إلك إنما هو العلة التى تبعثك إلى الفعل أو الترك : « فهى المرجح الذى لاح لك ترجيحه لإقدامك على الفعل أو الإحجام عنه حتى أقدمت وأحجمت » ، فما لم تعلم ذلك قبل

إقدامك على الفعل أو الإحجام عنه لا يمكن أن يكون معذرة ومسوغا لإقدامك أو إحجامك . وعلمه تعالى وإرادته منك ترك الصلاة لم يكن معلوما لك قبل الترك حتى فات الوقت ، بل علمت ذلك بعد تحقق الترك وفوات الأداء، فلا يسوغ أن تقول إذن تركت الصلاة لعلمه وإرادته ذلك الترك منى، فإنه قبل الترك وفوات الأداء يحتمل أن يعلم الله تعالى ويريد منك الفعل كما يحتمل أن يعلم ويريد الترك فلا شىء من علمه تعالى وإرادته معلوما للمكلف قبل الإقدام أو الإحجام ، فلا يصلح شىء منهما باعثا على الإقدام أو الإحجام بل الباعث عليهما أمور أخرى تقع فى دائرة علم المكلف وإرادته من كسل ونحوه ، ومن ثم إذا انكشف لأحد علمه تعالى وإرادته لفعل قبل الإقدام عليه فلا تبعة على ذلك الفعل كما ترى فى سفينة الخضر وغلامه ، فقد كشف الله تعالى للخضر أن ذلك الغلام الذى قتله لو بقى حيا لأرهق أبويه طغيانا وكفراً ، فأراد ربك أن يبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً عند ذاك أقدم على قتل ذلك الغلام فكان ذلك طاعة ومثوبة .

إلى هنا وضح استقامة التكليف والثواب والعقاب مع علمه تعالى وإرادته لما كان من طاعة ومعصية فهل يستقيم التكليف والثواب والعقاب مع خلقه تعالى لفعل المكلف طاعة ومعصية كما زعم أهل السنة . قلنا كما سبق أن التكليف يستقيم حيث يكون للمكلف سلطانه على ما كلف به . وإن المكلف به عند أهل السنة إنما هو القصد إلى الفعل وصرف القدرة اليه دون إيجاده بل ذلك له تعالى . ولعل فى فروع الشريعة ما يشهد بتحديد المكلف بهذا التحديد وذلك التصوير . فشخصان قتل أحدهما عامدا وقتل الآخر غير عامد فالأول عليه القصاص بالقتل والثانى لا قصاص عليه مع حصول القتل من الأول والثانى فشهد ذلك على أن مناط العقوبة إنما هو العمد والإرادة ، ويؤيده الحديث المشهور له (إذا اشتهر المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار فقيل يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال كان حريصا على قتل صاحبه) .

نعم يمكن أن يناقش ذلك بأنه يحتمل أن يكون مناط القصاص الأمرين العمد والفعل ، فإذا انتفى أحدهما سقط القصاص فإنه إذا انتفت العلة أو جزؤها انتفى المعلول جزما . وأما الحديث فليس فيه مجرد القصد والحرص على القتل ، بل كان مع ذلك محاولة القتل من المقتول ألا ترى إلى صدر الحديث (إذا اشتهر المسلمان بسيفهما الخ) وإنما لم يتحقق القتل من المقتول بسبب خارج عن إرادته كضعفه أمام خصمه .

فما زال مذهب أهل السنة فى حاجة إلى ما يؤيده ، نعم لهم من الشبه ما يشبه أن يكون حجة .

قالوا إذا كان العبد خالقا لفعله قصدا واختياراً فالبتة يكون عالما بما يفعل ، فالبديهة تشهد بأنه لا يمكن لفاعل ما أن يختار قاصدا ما ليس له به علم ، ولاشك أن الإنسان يباشر أفعالا فيها من التفاصيل الدقيقة ما يتعذر الإحاطة به إذن ليس للمكلف إلا مجرد القصد إلى الفعل وصرف القدرة إليه دون إيجاده .

أقول ولعله من اليسير الهين دحض هذه الشبهة ؛ فإن ما يوجب علم الفاعل بتفاصيل ما فعل ليس مجرد كونه فاعلا وإلا وجب ذلك فى الفاعل إيجابا دون قصد واختيار . وليس الأمر كذلك فإن العلل الموجبة قد تكون جمادا لا يتأتى منها العلم كالنار والإحراق ، بل الذى يوجب علم الفاعل بتفاصيل ما فعل إنما هو مجرد قصده واختياره . وهذا صريح كلامهم انظر إلى مقالتهم السابقة (فالبديهة تشهد بأنه لا يمكن لفاعل ما أن يختار قاصداً ما ليس له به علم الخ) . إذن فمجرد القصد إلى فعل واختياره يستوجب علم القاصد بما قصد ، أما إنه فاعل أم لا . فلا دخل له فى ذلك . فدعوى أهل السنة أن للمكلف مجرد القصد وصرف القدرة إلى قصد دون إيجاده يشهد ببطلانها نفس هذه الشبهة السيئة ؛ لأن ذلك القاصد يجهل تفاصيل ما قصد كما جزم بذلك أهل السنة فى شبهتهم . إذن فهذه الشبهة سلاح ذو حدين كما تهدم دعوى الخلق والإيجاد من العبد ، تهدم دعوى مجرد القصد وصرف القدرة دون إيجاد . ومثل تلك الشبه تستبعد من المعركة ولا يجوز التمسك بها .

وأيما كان نتيجة الجدل مع أهل السنة فازوا بمطلبهم أم لم يفوزوا فلمذهبهم هنا مصير محتوم وهو أن المكلف به عندهم مجرد قصد الفعل واختياره وصرف القدرة اليه دون إيجاده ، وهنا نتساءل هل ذلك فى سلطان العبد ومكنته ؟ أذلك من خلق العبد أم الرب ؟ أما الثانى فلا سبيل اليه وإلا فلا معنى للتكليف والثواب والعقاب . لهذا جزم كثير من المحققين من أهل السنة أن الخالق لذلك إنما هو العبد نفسه حتى يستقيم الثواب والعقاب .

لعلك تلمس آخر المطاف اضطرار أهل السنة إلى إسناد شىء ما إلى العبد خلقا وإيجادا وأنه لامفر لهم من التخصيص فى مثل قوله تعالى : « الله خالق كل شىء » حتى يستقيم التكليف والثواب والعقاب ، وقد كانوا حريصين الحرص كله على عمومه وشموله حتى ارتكبوا

فى سبيل ذلك من التعسفات ما تأباه ظواهر الأوامر والنواهى وما يأباه كثير من الآى التى تسند الفعل إلى العبد نفسه « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله »، «من عمل صالحا فلنفسه »، إلى غير ذلك من الآى وما يأباه شعور الإنسان من نفسه فالإحساس شاهد صدق على أن الإنسان مصدر أفعاله الاختيارية. وظواهر كثير من الآى ينادى بذلك بل ذلك الكثير آية على التخصيص حتما فى مثل قوله تعالى « الله خالق كل شىء »، فالتخصيص ضربة لازب كما سبق واضطر أهل السنة أخيرا إليه، وإذن فالأجدر بأهل السنة إسناد الأفعال الاختيارية إلى العبد وقدرته وإرادته اختيارا وإيجادا حتى يسايروا بذلك منطق الأوامر والنواهى فى خطاب التكليف وما ينادى به كثير من الآى التى تسند الفعل إلى العبد نفسه مع تلبية شعور الإنسان من نفسه وإحساسه الصادق بأنه مصدر أفعاله الاختيارية (وهذا ما اقتنع به إمام الحرمين من أهل السنة) فقد علمت أنه لابد من التخصيص فى مثل الآية السابقة قطعا حتى يتحقق سلطان المكلف على ما كلف به وعندئذ يستقيم التكليف والثواب والعقاب.

فالحق الذى لا محيص عنه :

أولا : أن التكليف قد تعلق ببعض أفعال العباد.

ثانيا : أن التكليف إنما يكون بما للمكلف عليه سلطان وله فيه اختيار وهذا محل وفاق بين الجميع.

ثالثا : أن المكلف به هو نفس الفعل أو الكف عنه كما نطق بذلك خطاب التكليف أمراً ونهيا، وشهد بذلك كثير من الآيات التى تسند الفعل إلى العبد.

رابعا : أن ذلك أثر لقدرة العبد وإرادته حتى يتحقق سلطانه على ما كلف به، بل هذا ما يحس به الإنسان من نفسه، ويشهد به كثير من الآيات. وحينئذ يستقيم التكليف والثواب والعقاب فى مثل قوله تعالى : « والله خالق كل شىء »، فقد علمت أن ذلك ضربة لازب حتى يتحقق سلطان المكلف على ما كلف به، ويشهد بذلك التخصيص الآيات تسند الفعل إلى العبد نفسه.

خامسا : أنه تعالى عالم مريد بما يقع من المكلف طاعة ومعصية، ولا مقدرة للعبد فى علمه وإرادته كما سلف.

محمد يوسف الشيخ

نحو أدب إسلامي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

تتعدد مذاهب الأدب وتياراته المعاصرة، وتتباين دوافعه واتجاهاته تباينا كبيراً، ومن الواضح فى آدابنا العربية اليوم أنها لا تمثل مذهباً فكرياً معيناً، كما أنها لا تمثل مذهباً فنياً بعينه، ولقد ساد الأدب العربى فى العصر الجاهلى الطابع الفردى والقبلى، من حيث اصطبغ فى عصر صدر الإسلام وما يليه بصبغة إسلامية لم تكن لتمثل مذهباً مستقلا، فإذا كانت الأفكار والروح الإسلامية قد بدأت تفرض وجودها على الأدب والأدباء، فإن ذلك لم يكن ليدل على ظهور سيادة مذهب إسلامى فى الأدب، فقد بقيت التأثيرات والنزعات الجاهلية واضحة الآثار فى آداب الإسلاميين، وبقيت الصور الجاهلية مستعملة عند أغلب الأدباء، ولم تلبث النزعات القبلية أن فرضت نفسها من جديد على الأدب نفسه، واختفى الطابع الإسلامى الذى كنا نجده فى أمثال شعر حسان، وفى نثر صدر الإسلام، وحل محله طابع عقلى واجتماعى فى أدب العباسيين.

وفى العصر الحديث لم يستطع الأدب أن يمثل تيارا بعينه، ولم ينطلق من فكرة خاصة، إنما تعددت مناحيه الفكرية تعددا جعله لا يمثل شيئاً منها.

ونخلص من ذلك كله إلى اضطراب الأدب العربى فى مفاهيمه ونوازعه ومناحيه اضطرابا شديداً، وإلى أنه لا يمثل لوناً خاصاً ولا طابعاً معيناً، وبخاصة فى عصرنا الراهن الذى نجد فيه فى الأدب تيارات كثيرة متضاربة بعضها قديم وبعضها حديث، وبعضها شرقى وبعضها غربى، وبعضها واقعى وبعضها رومانسى الخ

فإذا ما أردنا أن ننشىء أدباً إسلامياً جديداً فإنه يتعين علينا أن نبدأ من جديد، وأن نطرح كل القيم والمناهج القديمة؛ وأن نعود إلى القرآن الكريم، لنتفهم أصول دعوته، ولتمتلىء نفوسنا بجليل روحانيته، ولنتعمق فى فهمه ودراسته، ولنستلهم عبره وعظاته القدرة على مجابهة الحياة ومعاناة مشكلاتها؛ وعندئذ نستطيع أن نقول إننا نفخر بأننا سنعمل من جديد لتحقيق طابع إسلامى فى أدبنا المعاصر.

وهذا الطابع يتمثل التراث الإسلامى كله ويصور وجودنا الإسلامى المعاصر تصويرا كاملا ويعبر عن الأهداف والنزعات الإنسانية التى هى مفهوم ديننا وكتابنا الحكيم

ويترجم عن أحلامنا وآمالنا وأهدافنا فى مستقبل أفضل ويستلهم البطولات الإسلامية القديمة والحاضرة، ويستوحى حضارة شعوب الإسلام ويستهديها إلى غير ذلك من مقومات الطابع الإسلامى فى الأدب.

ولسوف يكون لمثل هذا الطابع صدى عميق فى حياتنا الراهنة، وفى حياة شعوب الإسلام كافة .. ثم لا ننسى ما لمثل هذا الطابع من قيمة فكرية وتوجيهية عالية، وما له من غايات إنسانية رفيعة.

وعلى الإجمال فإن النزعة الإسلامية فى الأدب لا بد أن توجد من جديد، لتنطق بما يجيش فى نفوسنا من آمال وآلام، ولتصور الواقع العربى الإسلامى تصويرا حقيقيا، فترسم لنا صورة كبيرة للوطن الإسلامى المنهوب، فلسطين، وكفاح الجيل العربى المعاصر من أجل استرداده، وترسم كذلك صورا أخــــرى لحركات التحرر، ولخيانات الخائنين، ولاسترداد الإنسان العربى لحريته وكرامته وبإرادته، وللعمل الوطنى الشريف فى سبل عزة وسيادة الشعوب العربية الإسلامية، ولآمال هذا الجيل فى تحقيق وحدة كاملة شاملة تربط الإنسان العربى بأخيه الإنسان فى نطاق من التعاون وتبادل الخبرات والثقافات، ومن الوحدة الاقتصادية والثقافية والعسكرية.

وكما كان هرون الرشيد يقول للسحابة القادمة فى الأفق محملة بالرى والماء: «أمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك»، سوف يعود المجد الإسلامى العربى مرة أخرى ليستطيع القائد الموجه لدول الإسلام أن يقول ذلك من جديد، لدول تضمها وحدة الصف، وتجمع بينها وحدة الهدف.

وإذا كانت الحضارة الإسلامية القديمة قد عبرت عن مبادىء جديدة، وصورت كفاح الأجيال العربية المسلمة من أجل حاضرها ومستقبلها، وترنمت بالحرية والبطولة وإرادة الإنسان وانتصاره، وبالعزة والمجد لكل الأفراد والجماعات والأمم .. فإن حضارتنا نحن وتاريخنا نحن جديران منا بكل التفات واهتمام، فيسجلهما أدبنا، ويصورهما بواقعهما الراهن وبطموحهما الشامخ إلى حيث الكبرياء الوطنى والقومى.

وخاتمة ذلك كله أن أدبنا لا بد أن يعبر عن نزعاتنا الإسلامية الرفيعة، ولا بد أن يكتسى بطابع إسلامى مميز.

ففى ذلك كله صورة الماضى والحاضر والمستقبل، وفيه الأمل المنشود الملهم للغد المشرق، وفيه ربط لاتجاهاتنا الحاضرة بالإسلام الذى يعد أول ثورة تحررية كبرى دعت إلى العدالة والتكافل والإخاء والمساواة والحرية بين الناس كافة؟

محمد عبد المنعم خفاجى

الأدبُ العَربيّ واتجاهات القوميّة العَربيّة

للدكتور جمال الدين الرمادي

إذا كان لنا أن نبين اتجاه الأدب العربي فى هذه الفترة الماجدة من تاريخنا بعد أن زال هؤلاء الرجعيون الذين كانوا يفرقون كلمتها ويعوقون نهضتها ، ويبددون ثروتها فإن هذا الاتجاه واضح جلى لا يختلف فيه اثنان . وهو الانطلاق نحو الروح العربية الخالصة من تاريخنا أن ننطق بلسان غيرنا ، ونحس بإحساس غيرنا ، وتكون بلادنا مسرحا للأفكار السقيمة التى اصطنعت اصطناعا ، واختلقت اختلاقا .

ولكن ها هى الجمهورية العربية المتحدة قد نفضت عنها اليوم أغلال الماضى ، ووجدت ضالتها المنشودة وأملها المرتقب الذى يعيد الروح إلى الجسد الميت ، ويرد النظام إلى الوضع الفاسد ووجدت بطلها المظفر الذى طالما حلمت به كثيراً فى ليلها الطويل ، وقائدها المغوار الذى طالما انتظرته فى سجنها المظلم ، فإذا بهذا البطل ينشر دعوة القومية العربية ، وإذا بتيارها الجارف لا يبقى ولا يذر ، فيتردد صوتها الجهورى من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى . . . !!

ولذلك كان لزاما على الأدب الذى يسيطر على النفوس جميعا ويخاطب أحاسيسهم ووجدانهم أن يعبر عن خوالج نفوسهم ، ومكنونات صدورهم .

لقد وقف العرب منذ القرن الماضى وقفة عجيبة لا يستطيعون أن يتحولوا عنها ، وكانوا بين تيارين مختلفين كل الاختلاف متباينين كل التباين . أحدهما تيار المدنية الغربية والآخر تيار المدنية الشرقية . فأنت إذا قرأت لنفر من الكتاب وجدتهم يلجئون إلى الأساليب العتيقة الدارسة ، والعبارات المجموجة البائدة التى امتلأت بها بعض الكتب القديمة ويزعمون أنهم حفاظ على التراث العربى أمناء على الثقافة العربية وهم لا يستطيعون فهم الثقافة العربية الفهم الصحيح ولا يدركون أغوارها الإدراك السليم .

وإذا قرأت لنفر آخر من الكتاب وجدتهم يسرفون فى اعتناقهم للمدنية الغربية ويؤمنون بالثقافة الغربية أكثر مما يؤمن بها الغربيون أنفسهم ، بل إنهم قد يسيئون فهمها كل الإساءة ، ويتصورون الباطل حقا والحق باطلا ، وتخدعهم هذه العبارات الطنانة الرنانة التى ازدهم بها الأدب الغربى ، فإذا هم يتحدثون عن السمبولزم أو الرمزية

وهم لا يفهمون من معناها غير أن يتشدقوا بألفاظها تشدقا ومثل هذا عن المذاهب الأخرى مثل البرناسية والرمانتيكية وما إليها .

وإذا بحثنا عن الروح العربية الصميمة الروح العربية المناضلة . الروح العربية التي تصور حياة الشعب وآماله وآلامه ، فإننا قلما نجدها . وإذا وجدناها رأيناها خافتة باهتة بين السطور تكاد يطغى عليها الدهر ويحجبها الظلام .

ولما كنا نعيش اليوم في عهد جديد يقوم على المساواة والاعتزاز بالقومية العربية والارتفاع بالقيم الوطنية فإننا في حاجة الى أدباء يقدرون الأدب العربي كل التقدير ، وفي حاجة إلى أدباء يصورون الريف العربي والأحياء الوطنية ، ويجوسون بين الأزقة والمنعطفات ويسهرون تحت أضواء الشموع والقناديل ، ويصورون نفسيات أهل هذه الأحياء تصويراً صادقا لا زيف فيه ، ولا تنميق به ، ولا تزيد عليه .

نحن في حاجة إلى الأديب العربي الذي يصور أفراح الأمة العربية وأتراحها ، وتقاليدها العريقة المتفشية في الدور والقصور ، في نظام الخطبة والزواج ، والانفصال والطلاق ، وتعدد الزوجات ويجوس بين جوانب الداوين ويعالج شئون الروتين في شتى الوزارات وينتقد التقاليد الجافية المرذولة في المواسم والأعياد وبين الأضرحة والمقابر ، ويخرج من ذلك كله بدلالات نفسية كثيرة يسترشد بها الشعب إلى الصواب .

نحن في حاجة إلى الأديب الذي يصور كفاح العربي الذي استيقظ من سبات عميق ليسير في طريق مشرق مزهر بعد ما أدمى الشوك قدميه فتفصدت منها الدماء القانية .

نحن في حاجة إلى الأديب الذي يصور آمال هذا العربي بعد ما أذله الاستعمار ، واستعبده الطغيان ... ثم صحا من نومته ليعيش حراً عزيزاً في أرض العزة والأحرار ...

وليس من شك في أن الصحافة يقع على عاتقها عبء كبير من هذه المسئوليات الخطيرة، فكلما كانت صورة صادقة للشعب ومرآة صافية لحياته كانت أكثر توفيقاً ونجاحاً .

وها هي ذي اليوم تسير على هذا الهدى وتحذو هذا الحذو ، بعد أن أرسل السيد الرئيس توجيهاته النيرة للصحافة منذ أكثر من عام ... ثم أشرف عليها الاتحاد الاشتراكي. نحن في حاجة إلى مثل هذا الاديب ... وليس هذا بأمل مستبعد أو حلم .. غريب .. !

دكتور جمال الدين الرمادي

من أخلاق الشريعة وآدابها

للأستاذ عباس طه

لا مرية فى أن الجدل مفهوم كلى تندرج تحته أنواع شتى ، فالجدل فى قضايا الاجتماع والجدل فى قضايا الأخلاق ، والجدل فى قضايا الفروع الفقهية ، والجدل فى مدلولات العلوم العقلية والشرعية ، والجدل فى الدين ، كل أولئك بعض ما صدقات الجدل وهو مشتق من فطرة الإنسان التى فطر الله عليها الخلق ، وجزء من خلائقه وسجاياه ، لكن الجدل فى سبيل الوصول للحق هو الهدف الأول للمصلحين فى كل عصر وجيل ، فالجدل السياسى مثلا مرتبط بقضايا الإصلاح الفكرى والإصلاح الاجتماعى والخلقى ، نشب بين المتصدرين للإصلاح فى مختلف آفاقه وبين أممهم وكان هذا الجدل مبعث آمال مرة ومصدر آلام مرة أخرى بالقياس إلى ما ينتجه المراء من لوثات أخلاقية واجتماعية تكون من الشعب أو الجماعة أو الطائفة أدوات إفساد وهدم وتصديه فى مقاتله ، وتلك الظاهرة ماثلة فى شتى الشعوب والأمم لها ويلاتها فى كل قرن ومآثمها فى كل جيل وعصر .

هناك جدل دينى أساسه الدعوة إلى الله وتوحيده وتمجيده وما يتصل بذلك من القضايا الأخلاقية المثالية ، هذا النوع من الجدل صاحب العصور كلها وبرز فى ميدان كل أمة وظهر على كل لسان فى مختلف العصور والدهور ، والمراء فى الجدل الذى وقع من قوم نوح وإبراهيم وموسى ماثل فى أذهان المتعصبين لذلك النوع من تلكم الدراسات .

فالجدل الدينى مقترناً بالمماراة فيه كان ولا يزال أخطر ما عرف التاريخ البشرى من أطوار هذا الوجود وشتى مراحله وقد أكثر علماء الأخلاق والمشتغلون بالدعوة الدينية من خطر المماراة فى الجدل على الدعاة الدينيين والأساة الأخلاقيين ، وكان ذلك بلسان الرسل والأنبياء صلوات الله عليهم وفى الطليعة منهم رسولنا الأعظم ونبينا الأكرم أخرج أبو داود والنسائى فى صحيحهما أن ابن أبى السائب غشى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم وكان شريكا له فجعل الحاضرون يثنون عليه ويذكرونه فقال رسول الله : أنا أعلمكم به ، قال : صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكى فنعم الشريك كنت لا تدارى ولا تمارى .

فالحديث فى صريح لفظه يندد بالمداراة والمماراة عن الرسول بشهادة ابن أبى السائب وقد كان شريكا له بعد شهادة رب السماء بعظيم خلقه وكيف تكون المماراة فى القول خليقة من خلائق الرسول الأعظم وقد بعث ليتمم مكارم الأخلاق ، أليست شهادة ابن أبى السائب فى حقيقتها تسجيلا لأن المماراة فى القول لوثة أخلاقية ينأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجانبه عنها وأن لنا به أسوة حسنة نترسم مواقع أقدامه والقول الطيب من حكم كلامه والمماراة فى الجدل معول من معاول هدم المجتمع تفسد ما توثق بين الأفراد والجماعات من رباط وتقطع ما بين ذوى القربى من نياط وهى فيها وراء ذلك تستلزم العقاب فى الآخرة كما تكفل الثواب لمن ند عنها وصدف .

أخرج الترمذى وأبو داود أن أنسا رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلا الجنة لمن حسن خلقه ، ويبين من هذا الحديث أن المشرع الأعظم يعد بربض الجنة من ترك المراء لأن المراء فى الجدل كذب مصطنع صاغه المماري فى لحن حجته ودوران طريقته فى الإقناع ابتغاء أن يغشى بزبرجه على مجادله ومن هذا النوع مراء الذين جادلوا أنبياءهم ورسلهم وزعماءهم وقادتهم وأهل الرأى فيهم توعدهم الله بالعذاب المقيم لأنهم لم يقصدوا إلى إصلاح فى دعوة دينية أو توجيه إلى صحيح من النظريات الاجتماعية ، وإنما كانوا للحق أعداء وللفضائل السامية التى ظهرت على ألسنة أولئك المصلحين خصماء ؛ منهم كذبة حين يجادلون لأنهم يمارون فى جدلهم والأدل على ذلك حين كذب قوم نوح عليه فاتهموه بما هو منه برىء : « قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » : أليس هذا الخطاب فى أسلوبه أقذع نوع من أنواع المراء فى الجدل نبت فى رءوس المعاندين فلما قامت عليهم الحجة اتهموا نوحاً بما هو فيهم بل بما هو جزء منهم ، ألا ساء ما يصنعون .

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله قال : (كفى بك إثما ألا تزال مخاصما) ، ومعناه فى جلاء أن المراء فى الجدل هو شر أنواع اللدد فى الخصومة لأن المراء يحيل ذلك النوع من الجدل خصومة شخصية من أسوأ مظاهرها أن تقعد بالمصلحين عن عن متابعة السير فى شعب إصلاحهم وتغل يد المرشدين والقادة فى القضايا الدينية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية عن إزالة العقبات الكأداء التى تعترض سبيلهم إلى أهدافهم : قال الإمام الغزالى فى أخلاقياته من

إحياء العلوم : (إن الدعاة والمرشدين فى كل زمن تنبت لهم خصوم ملئت صدورهم بالإحن والسخائم إما لأنهم جهلوا حقائق نفوسهم فانطلقوا يضعون العقبات فى طريق أولئك الدعاة إشفاقا منهم على المجتمع أن يصاب بقضاياهم وآثار دعواهم ، وإما لأنهم خافوا أن تعلو شخصيات أولئك القادة والمصلحين فتهتف بهم الألسنة فى الخلوات وتنعقد عليهم الخناصر فى الجلوات وبين هذا وذاك يصبح أولئك الحسدة قوماً مغمورين منسيين لا يتحرك بهم لسان ولا يجرى بهم قلم) من إحياء العلوم مع تصرف فى المبنى واحتفاظ فى المعنى .

ولاشك أن اطراح المراء فى الجدل الذى هو الكذب المصطنع والكذب الملفق والعداء البغيض فضيلة سامية يسمو بها صاحبها إلى الخلق المثالى ؛ لأنه نوع من التأدب بآداب الله بل نوع من أدب الخطاب. فالمرءوس مع رئيسه والعشيرة مع زعمائها بدون المجادلة والمراء يسود ميزان الله فى الأرض ، وهو العدل والقسطاس ويظل قائما فى هذا المجتمع يؤدى لكل نصيبه الذى هو به جدير .

ويلتحق بالمماراة فى الجدل ، الجدل العقيم كمجادلة المعاندين من طوائف السفسطائيين الذين لا يلوون على رأى ولا يعتنقون عقيدة فالجدل مع هؤلاء عقيم الأثر ، ضيق آفاق النظر ، وتلك غيرة رسخت فى النفوس الخبيثة لا يقتلعها منها وعظ ولا إرشاد ، ولا يبلغ إليها هدى ولا سداد ، كذبوا رسلهم وقعدوا لهم كل مرصد . ثم حاول هؤلاء الرسل أن يأخذوهم بالحجة ، فما استجاب المعاندون لدعوة ، ولا أصاخوا إلى نداء « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » « ومن يضلل الله فما له من ولى » « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » . قال العلامة ابن حزم فى الملل والنحل والأهواء - إن الجدل فى الإنسان قديم الوجود لأن له سلطانا من العقل وداعية من النفس ، وبذلك التفاعل مشى إليه سلطان الغرور والطغيان ، فادعى الألوهية أحيانا ، وحاول أن يفتن كثيراً من خلق الله بهذه الدعوة وقال أنا ربكم الأعلى ، فأصاخ له فريق نهج نهجه ، وأقام على سنته حتى ألهب أديم ظهورهم جميعا سياط الحق فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين : « خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين » ، « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » .

أما الجـــدل الكريم فمن الأدب الرفيع كأدب الخطاب وأدب المناظرة الذى أدب الله

(البقية على صفحة ٤٩٣)

ما يقال عن الإسلام

فهم الإسلام

للأستاذ عباس محمود العقاد

اسم هذا الكتاب يدل على المقصود منه وهو فهم الإسلام وإفهامه للغربيين ، وإنهم كما يرى المؤلف لأحوج إلى فهم هذا الدين منهم إلى فهم الأديان الأخرى ؛ لأن الأسباب التاريخية والسياسية معا قد تضافرت على تحريفه وتشويه صورته فيما نقل إليهم منه قديما وحديثاً ، ولأنه على خلاف غيره من الديانات الشرقية يشتمل على مزيج من العقائد السماوية والدنيوية لا تمتزج هذا الامتزاج فى تلك الديانات .

والكتاب الذى بين أيدينا منقول إلى الانجليزية من اللغة الفرنسية لمؤلفه فريثجوف شيون Frithjof Schuon الذى تخصص لشرح العقائد الشرقية فى غير هذا الكتاب ويقول الحكيم الهندى (أناندا كومرسواى) إنه واحد من فئة قليلة بين الأوربيين قادر على نقل العقائد الشرقية إلى الغربيين نقلا صحيحاً غير مشوب بالغرض وسوء الفهم

ويقول الشاعر الانجليزى المعاصر (أليوت) بعد اطلاعه على كتابه الأول إنه لم يصادف قبله كتابا مثله فى علم المقارنة بين الديانات الشرقية والغربية .

ونرى من مطالعة هذا الكتاب أن الحكيم الهندى والشاعر الانجليزى على صواب فيما وصفا به المؤلف من القدرة على شرح العقائد الشرقية بغير انحراف مقصود ، ولكننا لا نخاله يشرحها لعامة القراء ولا لطلاب المعلومات المادة « المدرسية » من تلك الشروح ، فإنه يكتب بأسلوب الفيلسوف المتصوف حين يكتب للفلاسفة المتصوفين ولا يهمه إحصاء الآراء والأقوال والوقائع كما يهمه النفاذ منها إلى « روح العقيدة » كما يبحث عنها طلاب الدراسات فيما وراء الطبيعة ، أو طلاب التأمل فى المعلوم للترقى منه إلى « المجهول » الذى يستعان عليه بالنظر المجرد كما يستعان عليه بالمنطق والمعرفة العلمية .

وتظهر طريقته في الشرح من تفرقته المجملة بين نظرة المسيحية ونظرة الإسلام إلى الإنسان .

فالمسيحية عنده تقدم الإرادة على العقل ، والإسلام عنده يقدم العقل على الإرادة .

ويأتي كل فارق جوهري بعد ذلك من هذا الفارق « الأساسي » بين العقيدتين .

فإرادة الإنسان تسقطه وتحوجه إلى غفران الخطيئة بالفداء .

وعقل الإنسان يوجب عليه أن يدرك عمله ويدرك التبعة التي تلزمه بين يدي ربه ، ثم يلهمه كيف يلتمس الهداية بالنظر فيما حوله وكيف يلتمسها بمعونة الله .

وعقيدة المسلم والمسيحي في المعجزات تابعة لهذا الاختلاف بين تقديم الإرادة على العقل وتقديم العقل على الإرادة .

فالمعجزة هي الوسيلة الكبرى لتقرير إرادة الله أمام إرادة الإنسان .

ولكن الاعتماد على العقل كان للعلم بإرادة الله من طريق غير طريق المعجزات ، وإن كان لا يغلق الباب على هذه الطريق .

والمشهور عن المسلم أنه « قدري » وإن بالغ أبناء الغرب في الخلط بين إيمان المسلم بالقدر وبين سلب الإرادة وتجريد الإنسان من صفة الحـــرية .

أما الرأي الأمثل في « القدرية الإسلامية » فهو أن هذه القدرية هي النتيجة « المعقولة » لإدراك المسلم أنه « غير الإله » ونفوره من فكرة الحلول أو المزج بين الوجود الإنساني والوجود الإلهي ، ومن لم يكن إلها فليس هو المقدر لمقاديره ، ولا افتراق عنده بين الإيمان بالقدر والإيمان بالقدرة الإلهية وإحدى لوازمها القدرة على العلم بما يكون والقدرة على العلم بما سيعمله الإنسان قبل أن يعلمه ، وقبل أن يعمله .

ومن لوازم تقديم العقل على الإرادة أن تكون معجزة الإســـلام هي المعجزة التي تناسب المخلوق الذي يوصف بالحيوان الناطق وهي معجزة الخطاب بالكلم الإلهي البليغ ، وهو القرآن .

ولا بد للقارئ إذا أراد أن يفهم رسالة القرآن أن يذكر أنه كتاب فرائض وكتاب إقناع وكتاب هـــداية ، وأن الإعجاز فيه لا يرجع إلى فصاحة اللفظ وحدها ولا إلى نسق البيان وحده ، ولكنه يرجع إلى إيحاء اللفظ وإيحاء البيان بما يعجز كل كلام « غير إلهي » عن الإيحاء بمثله .

ثم يلخص المؤلف رسالة القرآن من الوجهة الفلسفية بأنها رسالة الإيمان والإسلام والإحسان ، وفيها – مع خطاب العقل بالمعاني الفكرية – مضامين تنطوي في تلك المعاني

ولكن المخاطب بها يفهمها كما ينبغى أن يفهم اللمحات والرموز الخفية ، وهو باب مفتوح للاجتهاد فى فهم الحقائق الغيبية على نهج المتصوفة وأصحاب الإشارات والتماليد .

ومن تصحيحات المؤلف لما يفهم الغربيون عن المناقب « الشخصية » التى اتصف بها النبى عليه السلام أن مصدر الخطأ فى هذا الفهم تصورهم للرسول الدينى على صورة واحدة هى صورة بوذا والسيد المسيح ، وهى صورة تحيط بها هالة من غير هذا العالم الإنسانى لما فيها من محو الذات ومحو العلاقات الدنيوية .

لكن « محمداً » عليه السلام لم تكن تحتويه هذه الهالة من غير العالم الإنسانى ، لأنه رسول شريعة وصاحب جهاد فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى ، ومثاله من صورة الرسالة الدينية ، إنما هى صورة إبراهيم وموسى عليهما السلام ، مع تفاوت الأفق والمجال .

وللمؤلف تفسير « فلسفى » لعظمة النبى عليه السلام كما توحى بها العقيدة الإسلامية .

فهو صلوات الله عليه مثال « الإنسان الكامل » الذى لا مرتقى بعده لدرجات الكمال فى بنى الإنسان ، إلا أنه ليس بمثال الإنسان الكامل وحسب على هذا الاعتبار ، بل هو كذلك مثال الإنسان القديم أو الإنسان الخالد على صورة الله .

فإذا كان كمال الإنسان جامعا له بين الفضائل السماوية والفضائل الأرضية فالقدم أو الخلود مناط الفضائل منذ الأزل قبل أن تنفصل السماء والأرض وقبل أن تعرف للكائنات فكرة سماوية مقابلة الفكرة الأرضية ، أو فكرة أرضية مقابلة للفكرة السماوية .

وبين هاتين الصورتين : صورة الإنسان الكامل وصورة الإنسان القديم ، يقيم المسلم عظمة نبيه صلوات الله عليه ، ويتخذه مثالا للإنسانية فى صميمها على صورة غير الصورة التى يتمثلها الغربيون لبوذا أو للسيد المسيح .

يقول المؤلف بعد سطور فى مفتتح كلامه عن النبى : « إن الذى يطلع اطلاعا وافيا على سيرة محمد من مصادرها المأثورة ترتفع أمامه ثلاثة عناصر قد تتلخص فى هذه الصفات الثلاث : التقوى والجهاد والمروءة ، ومفهوم تقواه أنها حب الله بكل قلبه شعورا منه بما يعلو على الوجود وبالصدق المحض والإخلاص السليم ، وهى صفة عامة مفروضة فى جميع الرسل الإلهيين ، تذكر بصفة خاصة لأنها فى الإسلام عنوان مقدم على الجو الروحانى فيه .

« وهنالك غزوات جهاده ، وهى إذا عزلناها عن صورة العنف فى الحروب تدل على عظمة روحانية فوق ذرع الإنسانية ، ثم العلاقات الزوجية وهى منفذ مقرر إلى الحياة

الأرضية الاجتماعيــــة ولا نريد أن تقول الدنيوية العالمية . . . ولم تخل هذه العلاقات فى ناحيتها السياسية التى نريد بامعناها المقدس عند النظر إلى إقامة مدينة الله على الأرض وقد برزت فى حياة محمد دلالات كافية على العفة والنزاهة بخاصة فى أيام الشباب ، حين يشتد جماح الشهوات » .

ثم يقول : « ويصح أن يقال إن روح النبي قد جبلت من النبل والصفاء ، وأولها يجمع القوة والكرم ، وثانيها يجمع القناعة والاستقامة ، وقد كان مسلك النبي فى طعامه ومنامه مسلك القانع القويم ، ومسلكه مع النساء مسلك الكرم والمروءة » .

والكتاب يدور على فصول أربعة بعد المقدمة ، أولها عن الإسلام ، وثانيها عن القرآن ، وثالثها عن النبي ، ورابعها عن الطريق ، وهو عنوان شامل لكلامه عن التصوف الإسلامى مع المقارنة بينه وبين تصوف الهنود وتصوف المسيحيين

ونحسب أن القارىء قد لمح معنا أن مؤلف الكتاب ينتهى بالفصل الأخير عن التصوف إلى مجاله الواسع الذى ينطلق فيه قلمه على مدى عنانه ولا تبتعد كثيراً عن فهمه على طريقته فى فهم الإسلام إذا قلنا إنه يتكلم فى التصوف الإسلامى كما يتكلم فى مذهب يؤيده ويجنح إليه ، وإنه إن ـ لم يكن مؤيداً له جانحاً إليه ـ فليس له تأييد لغيره من المذاهب أكبر من هذا التأييد .

فالتصوف الذى يشرحه المؤلف فى فصله الأخير هو التصوف الذى يتميز بالنظر إلى الحياة الإنسانية نظرة « الإيجاب » والثبوت ولا يطمح بالعابد المتصوف إلى غاية نهايتها الفناء وفقدان وعى الوجود .

والله ـ جل وعلا ـ هو فى هذا التصوف حقيقة الحقائق التى يبطل ما عداها ببطلان الوهم الزائل ، ولكن البطلان هنا غير الباطل الزائف الذى ينتمى إلى نقيض الملكوت الإلهى فى مملكة الشيطان .

فالكائنات الموجودة فى عالم المادة تزول وتتولد من معدن الزوال ، ولكنها ليست بدنس ولا زيف ولا هى بالبطلان الممسوخ فى أصل التكوين ؛ لأن العابد المتصوف ينبغى أن يرى فيها معرضاً لجمال الله ولقدرة الله ولمشيئة الله ، وينبغى أن تكون عنده صورة لتجلى الخالق حيث لا مطمع للمخلوق إلى ما فوقها من آيات الجلال والجمال ، فإنما يطمح وراء هذا المطمح من عرف فى كل شىء آية تدل على الواحد الأحـــد الذى لا تدركه الأبصار .

* * *

ولا ينسى الكاتب تفرقته بين الإرادة والعقل حين يعرض للفوارق بين تصوف

المسيحية وتصوف الإسلام ، فإن كلماته فى هذا الباب هى أجمع ما عرض له فى كتابه من وجوه المقارنة بين الديانتين ، مع احترامه لكل منهما احترام السماحة والإنصاف .

وهذه هى عبارته التى تختم بها هذه الخلاصة لبحثه الشائق :

« إذا كان الإنسان إرادة فاقه محبة .

« وإذا كان الإنسان عقلا فاقه حق .

« وحين يكون الإنسان إرادة تسقط بلا قوة ، ولا ناصر تكون محبة الله هى الخلاص » .

« وحين يكون الإنسان عقلا يضل ويتخبط فى الظلمات فاقه هو نور الحق الذى يهديه ، لأنه من شأن المعرفة أن تنهض بالعقل إلى ذروة الحق الذى يفيض عليها الصفاء والحرية » .

« إن الحب الإلهى يحقق إنقاذه بأن يتنزل إلينا ليرفعنا .

أما الحق الإلهى فإنما يحقق إنقاذه بأن يعيد عقلنا الطبيعى إلى مصدره فوق الطبيعة ، وهو عائد من ثم إلى صفائه الأول ، وإلى الأفق الذى يدرك فيه أن الحقيقة المطلقة هى كل شىء وأن العوارض دونها ليست بشىء ... » .

عباس محمود العقاد

(بقية المنشور على صفحة ٤٨٨)

به رسله وأنبياءه وخلفاءه فقال الرسول الأعظم : « وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » .

فأدب الخطاب فى المجادلة هو الهدف الأصلى فى الإقناع بالحجة حتى ينتهى الخصم إلى ما يراد منه فى سلامة صدر وبعد عن سخائم القلوب وأحقاد النفوس . لما إستوثق الأمر فى العراق لعبد الله بن الزبير أرسل إليه أخوه مصعب وفدا يهنئه ويبايعه على الإمارة فلما مثل الوفد بين يدى الأمير قال له : كم كنت أود لو أن لى بكل خمسة منكم رجلا واحدا من أهل الشام ، وكان فى الوفد رجل سليط اللسان مبسوط البيان فقال : على رسلك أيها الأمير علقنا بك وعلقت بأهل الشام وعلق أهل الشام بآل مروان فنحن معك على حد قول الأعشى :

علقتها عرضا وعلقت رجلا
غيرى وعلق أخرى غيرها الرجل

وهذا من أدب الخطاب الرفيع الذى يلتحق بالجدل الكريم .

عباس طه

الكتب

عرض وتلخيص : الأستاذ محمد عبد الله السمان

---

١ — الإسلام والمذاهب الأدبية :

للدكتور نجيب الكيلانى

قامت بنشر هذا الكتاب مكتبة النور بطرابلس - ليبيا ، والمؤلف الأديب الطبيب الدكتور نجيب الكيلانى ، المؤلف القصصى الذى استمد معظم قصصه واستوحى أفكارها من بطون التاريخ الإسلامى .

وهذه الدراسة التى تقع فى حوالى ١٩٠ صفحة ، يمكن أن تكون إجابة عما إذا كان هناك أدب إسلامى حقيقى متكامل ، نستطيع أن نستخلص منه القواعد الأساسية لما نسميه بالإسلامية .

إن المؤلف يذكر فى مقدمته : أنه إذا لم يكن هناك هذا الأدب بصورته الكاملة ، فهناك الدين الإسلامى الذى نستلهم منه هذه القواعد والأصول .

وإذا كان الواضح أن بعض المذاهب الأدبية لم تتحدد مفاهيمها إلا فى ضوء ودراسة نماذج سابقة لها - كالكلاسيكية ، والرومانسية مثلا ، إلا أن بعض المذاهب الأدبية الأخرى لم تسبقها نماذج ، وإنما سبقها تحديد فلسفى وفكرى ، ثم تلته النماذج الأدبية ، كما حدث فى الوجودية التى ابتدأت كفلسفة واستمرت كأدب ، وكذلك الواقعية الاشتراكية التى ارتبطت بالفلسفة الاشتراكية ، أو الماركسية التى سبقتها .

وعلى هذا الأساس يرى المؤلف أنه ليس ثمة خطأ فى محاولة التخطيط للإسلامية فى الأدب ، وإن لم يكن لدينا النماذج الكاملة المحددة كل التحديد .

أنا لا أظن أن المؤلف قد استطاع أن يقدم دراسة تطبيقية متكاملة على منهجه فى مقدمته ، وهو يعرض ويناقش علاقة الدين بالفن ، والخصام بينهما ، وما بين الحرية والالتزام فى الأدب ، وأدب الاستمتاع ، والالتزام فى الأدب العالمى ، وصلة الإسلامية بالأدب ، ومشكلة اللغة ، والأدب الإسلامى القديم والحديث ، وأهم المذاهب الأدبية

فى العالم الغربى ، ثم نماذج عديدة فى القصة والمسرح والشعر .

كنت أرجو خلال هذه الدراسة أن يكشف المؤلف الأديب ، عما إذا كان من الممكن أن تنفرد الإسلامية بمذهب أدبى له حدوده وقواعده ومظاهره وبميزاته كسائر المذاهب الأدبية العالمية قديمها وحديثها .

أعتقد أننا نستطيع أن نلتمس للعلم والفن والأدب جوانب من واقع الفكر الإسلامى الخصيب ، ولكن السؤال الذى يطرأ على الأذهان : هل يمكن الوقوف على منهج إسلامى خاص فى هــــذه المجالات كما أمكن للمفكرين المسلمين الأوائل أن يقيموا منهجاً خاصاً فى الفلسفة الإسلامية مثلا ؟ .

ولنا وقفة أخرى مع الأديب المؤلف فى كتابه ، فهو فى خمس وسبعين صفحة قدم لنا نماذج كاملة فى القصة والمسرحية والشعر لأدباء معاصرين : كنجيب محفوظ فى قصة (نصف الدين) ، وتوفيق الحكيم فى قصة (أنا الموت) ، وباكثير ، وهارون هاشم رشيد ، والكيلانى ، وأحمد محرم ، والوكيل وإبراهيم نجا ، وقدكان من الممكن أن يكتفى بالتقاط صور سريعة من هــذه النماذج الكثيرة التى لها ارتباط بدراسته لتوضيح المفاهيم والمضامين الفكرية للأدب الإسلامى دون ما حاجة إلى هذا الإسراف فى الحشو .

إن محاولة الأديب المؤلف لإبراز قيمة أدبية للإسلام تعتبر المحاولة الأولى من نوعها ، وهذا ما يجعلها جديرة بالتقدير .

* * *

٢ — كما تحدث الرسول :

للأستاذ خالد محمد خالد

نشرت هذا الكتاب الجديد للأستاذ خالد دار الكتب الحديثة بعابدين ، ويقع فى ١٨٠ صفحة ، تناول فيه مستنداً إلى أحاديث الرسول ـ صلوات الله عليه ـ النفس الباطنة ، وهى ـ كما يرى ـ القدر الذى يحملنا فى رحلة التفوق والكمال إذا ألهمت تقواها ، وهى أيضا القدر الذى يدحرجنا فى مهاوى التعاسة والضلال إذا ألهمت هواها ، وتحويل النفس الباطنة إلى النفس المطمئنة ، المشعة بالخير ، التواقة إلى الكمال ، هو غاية الدين ، وغاية المرسلين فى تعلية النوع الإنسانى وبعث إرادة الخير فيه ويرى الكاتب الأديب ، أن النفس الباطنة قوتها وريها ، وأن خير ما تغتذى به وترتوى لهو الإخلاص ، لأن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجهها .

وتناول المؤلف ثانيا : الفطرة المؤمنة . فالرسول عليه السلام يؤمن أن كل مولود يولد

على الفطرة ، وفى هذه الفطرة تكمن وتتمثل البديهة التى تهدى صاحبها تلقائيا إلى الحق ، وتوجه أحاسيسه ورؤاه نحو مصدر هذا الوجود المعجز العظيم ، وهذه البديهة تولد معنا ، وتنمو معنا .. ولكنها كأى شىء فينا يحتاج نموها إلى رعاية وزاد ، والأنبياء والمرسلون يقدمون إليها زادها ويحولونها إلى بصيرة مضاءة بنور ما فتح الله عليهم من آياته وعطاياه - أى يحولونها إلى فطرة عارفة مؤمنة .

وتناول المؤلف ثالثا : أزمة الإنسان ، فللوجود الإنسانى أزمة ما فى ذلك ريب ، نشأت هـذه الأزمة معه ، وتطورت ، ولا تزال تصاحبه وتواكبه ، وهى تتناول الوجود الإنسانى كله عند الفلسفة بينما تتناول بعضه عند الدين ؛ لأن الإيمان بالله ، الذى يشكل لدى الفلسفة جزءاً هاما من أزمة الإنسان ، ليس عنـد الدين والمرسلين إلا مفتاحا للأزمة الإنسانية كلها وعلاجا شافيا منها .

وتحدث المؤلف أخيراً عن فضائل الحياة ، التى تحدث عنها رسول الله أروع حديث ، والحياة عنده - صلوات الله عليه - لاتنفصل عن الأحياء فهى منهم واليهم .

إن لهذه الحياة قواعدها وفضائلها التى إذا أخذت فرصتها ساعدت البشر على أن يكونوا صالحين ، خيرين ، سعداء . وكل محاولة لتزييف هذه الفضائل ، جناية ترتكب لاضد جيل أو جيلين أو ثلاثة ، بل ضد الحيـاة فى مداها البعيد .

أما فضائل الحياة التى عناها المؤلف ، فقد عرض منها أمهاتها ، الحب ، التفاؤل ، الرحمة الوفاء ، الأمانة .

الأستاذ خالد فى كتابه هذا يسير على نفس منهجه فى كتبه الأخيرة ، (بين يدى عمر) (وجاء أبو بكر) (كما تحدث القرآن) فهو لايقدم دراسة منهجية تقوم على الموضوع الواحد كقضية متشعبة الجوانب ، وإنما يقدم لقطات تكشف عن القيم العظيمة ، والمعانى الحية الكبيرة ، ومثل هذا المنهج - وإن كان يكلف جهدا ذهنيا فى تحليل المعانى إلا أنه لا يكلف جهدا فى البحث عن الأفكار وتقييمها ، ولا جهدا فى إيجاد حيثيات القضايا التى تشكلها هذه الأفكار .

إن الأستاذ خالد الذى أثارت مؤلفاته الأولى معارك فكرية ، قد استرخى أخيرا للهدوء الذهنى ، ولست أدرى : أهذا رد فعل كان يجب أن يكون ، ويجب أن يستسلم له أم إن هذا الهدوء بمثابة استراحة طويلة ، ربما يستعد لجولة أخرى ؟ .

٣ — المرأة فى الإسلام :

للأستاذ عبد الحميد ابراهيم محمد

نشرت هذا الكتاب للمؤلف ، الدار القومية للطباعة والنشر ، فى حوالى ١٢٠ صفحة ، وقدم له الدكتور أحمد الحوفى الأستاذ بكلية دار العلوم الذى تخرج فيها المؤلف .

الموضوع الذى تناوله المؤلف ليس جديداً بالطبع ، وقد كثر الكلام فيه ، وتقدم إلى المكتبة العربية مئات المؤلفات فيه ، ومن يتصدى للكتابة فيه فعليه أن يأتى بجديد ، وإلا كان تكراراً لا حاجة بنا إليه ، فهل أتى المؤلف بجديد فى كتابه هذا ؟

الكتاب قسمان : القسم الأول « معطيات الإسلام للمرأة » وفصوله الستة (المعاملة الإسلامية للمرأة ، بيت الطاعة ، تعدد الزوجات ، إرث المرأة وشهادتها ، الرجال قوامون على النساء ، الطلاق) .

والقسم الثانى : انطلاقة المرأة المسلمة فى فصل واحد .

هذه الموضوعات المتصلة بالمرأة موضوعات سبق تمحيصها ، والجديد بالنسبة إليها فى هذا الكتاب إغراق المؤلف فى الاستشهاد بآراء غيره ممن سبقوه ، فنجده فى التمهيد لبحث تحت عنوان : « مكانة المرأة فى الحضارات والديانات والمجتمعات السابقة على الإسلام » لم يسجل إلا آراء الأستاذ العقاد من كتبه : « المرأة فى القرآن » ، و « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ، و « الصديقة بنت الصديق » ، وآراء الدكتور الرافعى من كتابه « الإسلام انطلاق لا جمود » ، وآراء الدكتور محمد حسين هيكل من كتابه : « حياة محمد » ، وآراء الدكتور الحوفى من كتابه « الغزل فى العصر الجاهلى » . فإذا علمنا أن هذا التمهيد الذى تضمن آراء هؤلاء الكتاب لم يزد إلا قليلا على ثلاث صفحات ، أدركنا إغراق المؤلف فى الاستشهاد .

والاستشهاد ليس عيبا ، ما دام للمستشهد من بينها رأى له كيانه فى مناقشة الاستشهادات والتعقيب عليها ، وهذا ما لم يكن له وجود إلا فى صفحات قليلة من الكتاب .

نحن لا ننكر أن المؤلف أضفى على هذه الموضوعات أسلوبا منطقيا وهو يدحض شبهات حامت حول إنصاف الإسلام للمرأة لا سيما فى الفصل الخامس « الرجال قوامون على النساء » ، والقسم الثانى « انطلاقة المرأة المسلمة » .

كان جميلا من المؤلف فى خاتمة كتابه ، أن يطالب بأن نمتحن أسباب نشوز المرأة ، فإن كان سلوك زوجها مستقيما غير حامل لها

على هذا النشوز حكمنا بخطأ المرأة وأعدناها إلى بيت زوجها ، وإن كان حاملا لها بسلوكه على النشوز ، فعلى القانون - إذا أعياه إصلاح الزوجة - أن يحكم بالفراق .

ولكن الذي لا نقره ، مطالبته بجعل الطلاق بين يدي القاضي ، متجاهلا دقة القرآن في اشتراطه حكمين من أهله وأهلها للحفاظ على الأسرار الزوجية وقدسيتها ، (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) ، ومهما رأينا أن تكون جلسة القاضي سرية ، فلن تتمكن تماما من المحافظة على أسرار الزوجية ، كما لو اعتمدنا على حكمين من أهليهما ، قد يسهمان بسبب قرابتهما للزوجين في إمكان الصلح أو التفريق بالتي هي أحسن .

* * *

٥ — الحسبة في الإسلام

الأستاذ إبراهيم دسوقي الشهاوى

أصدرت دار العروبة بالقاهرة هذا الكتاب الجديد للأستاذ الشهاوى ، وهو دراسة عن الحسبة في فصول عشرة : تعريف الحسبة ، وحكمها ، ومراتبها ، وشروط المحتسب وآدابه ، والولايات في الإسلام ، ثم عرض المؤلف لنظام الحسبة في عهد الرسول - صلوات الله عليه - ثم كيف تطورت بتطور الدولة الإسلامية نفسها ، كما تحدث عن نظام الحسبة في مصر وتطوره التاريخي منذ الفتح الإسلامي حتى أوائل القرن التاسع عشر ، ثم ختم المؤلف حديثه بعرض سريع لمشاهير المحتسبين ، ومنهم المقريزي ، حيث تولى الحسبة في عهد البرقوق ملك مصر عام ٨٠١ هـ ، وصاحب عمدة القارى في شرح البخارى الذى تولى الحسبة بعد اعتزال المقريزى لها .

والمؤلف عنى بالدراسة عن الحسبة لأنها - كما ذكر - مبنية على التناصح

والحق أن الدراسة طيبة ، في مسألة تناساها المسلمون ، ولم يكن لها مكان في الثقافة الإسلامية ، وهي الآن محتبسة في أسفار فقهاء المسلمين ، إلا أن المؤلف لم يعرض للحسبة اليوم ، وهل لها مكان في تشريعات بعض البلاد الإسلامية ؟ وإذا كان لها مكان في ظل القوانين الغربية التى تسربت إلى نظم بعض الدول الإسلامية وكنا نود أيضا أن يذكر المؤلف لنا طرفا عن مفهوم الحسبة في نظر التشريع الغربي ، وبذلك تكون الدراسة متكاملة ، وتنال المكانة اللائقة بها في المكتبة الإسلامية .

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

شاعر العروبة والإسلام :

الشاعر أحمد محرم

احتفلت محافظة البحيرة ، ومحافظها الجليل محمد وجيه أباظة بذكرى الشاعر الكبير الخالد أحمد محرم فى دمنهور عاصمة البحيرة . فأقامت لذلك مهرجانا كبيراً فى سينما النصر بدمنهور استمر من ٢٧ إلى ٢٩ جمادى الأولى عام ١٣٨٣ هـ — ١٥ إلى ١٧ أكتوبر عام ١٩٦٣ م .

ثلاثة أيام كاملة عاشتها دمنهور فى أعياد وطنية كبيرة ، وهى تحتفل بذكرى الشاعر الكبير أحمد محرم شاعر الوطنية والثورة عليه رحمة الله (١٨٧٧ — ١٩٤٥) .

وقد امتلأت دمنهور بوفود الأدباء من جميع أنحاء الجمهورية العربية المتحدة الذين قصدوا إليها بدعوة من المحافظ ، ونزلوا فى ضيافته ، وشاهدوا معالم العمران والثورة فى البحيرة وفى عاصمتها .

فى اليوم الأول من المهرجان افتتحت حفلة الذكرى بآيات من القرآن الكريم ، ثم ألقى كلمة الافتتاح السيد المحافظ ، وأعلن فيها بتبرع المحافظة بجائزة سنوية للشعر مقدارها مائة جنيه يمنحها المجلس الأعلى للآداب والفنون نيابة عن المحافظة لأحد أبناء البحيرة من الشعراء ، وتلاه السكرتير العام للمجلس الأعلى للفنون والآداب السيد الأستاذ يوسف السباعى فنوه بالمهرجان والشاعر وطالب بتكوين الهيئة المحلية للآداب والفنون فى المحافظة ، ثم ألقيت قصائد من الشعراء : على باكثير وفضيلة الشيخ إبراهيم بديوى شيخ المعهد الدينى بدمنهور ، والشاعر محمود جبر والشاعر محمد القوصى ؛ وألقيت بحوث عن الوطنية فى شعر محرم ، والخلق الفنى فى شعره والمقومات الفنية فى شعره للدكتور أحمد الحوفى وعبد الحى دياب والدكتور حامد حفنى داود .

وفى اليوم الثانى للمهرجان ألقيت قصائد الشعراء : محمود محمد حسن ، عبد الغنى سلامة محمد صابر عاشور ، عبد القادر العوا ، أحمد على السمرة ، موسى شاكر الطنطاوى ، محمد عثمان مصطفى ، وألقيت بحوث عدة ، منها بحث عن الثورة الاجتماعية فى شعر محرم للأستاذ محمد محمد الحوفى ، وبحث آخر عن الالتزام فى شعر محرم ، وقد ألقاه الأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى ، وبحث ثالث عن اللمحات الإنسانية فى شعر محرم وقد ألقاه الأستاذ فوزى عبد القادر الميلادى .

وفى اليوم الثالث للمهرجان ألقى محمد عبد المنعم

خفاجي الأستاذ بكلية الدراسات العربية بحثا عن الثورة الوطنية والفنية فى شعر محرم ، وألقى الأستاذ أحمد الشرباصي الأستاذ بالأزهر الشريف بحثا عن شباب الإسلام فى شعر أحمد محرم ، وألقى الدكتور سعد الدين الجيزاوى بحثا عن القرآن الكريم فى شعر محرم ، وألقى حسنين محمود حسنين بحثا عن العامل والفلاح فى شعر محرم .. وألقى عدد من الشعراء قصائد بليغة ، وهم : عبد العليم القبانى ، السقا محمد الشناوى ، كمال نشأت ، إدورد حنا سعد ، يس الفيل . .

وألقى الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله كلمة فى تحية ذكرى الشاعر واختتم المهرجان الأستاذ أحمد الجبالى السكرتير العام المساعد للمحافظة بكلمة قيمة ، حيا فيها ذكرى الشاعر كما حيا فيها وفود أدباء الجمهورية العربية المتحدة .

وأقيمت حفلة شاى كبيرة . وزعت فيها المدالية التذكارية للمهرجان ، وقد نقش عليها المهرجان وتاريخه

وانتهت بذلك أكبر حفلة ذكرى أقيمت للشاعر أحمد محرم حتى الآن ، جزاء الله عن العروبة والإسلام خير الجزاء ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

الإسلام ... ووسائل الإعلام :

ركيزة ذات أثر وخطر ... ووسيلة إقناع تؤثر فى النفس وتأسر القلب ، وسلاح يخطئ من يظن أنه من أسلحة المدنيـــة الحديثة تلك هى الدعاية . وهى علم يقوم على التخطيط ، وفن يرتكز على الذوق ويعتمد على دراسة نفسيات الأفراد والجماعات . والقرآن الخبير بالنفسيات الذى سبر الأغوار ووصل إلى الأعماق لم يكن بدعاً أن تكون الدعاية اتجاهاً من اتجاهاته النفسية ، ووسيلة يصل بها إلى جذب الأفئدة للدين وإلى تمكين الإيمان فى قلوب هشة الإيمان ضحلة اليقين . ولا خير ولا ضرر ، فالوسيلة إن كانت شريفة لغاية نبيلة فأنعم بها من وسيلة .

وقد يحفل البعض عندما يعلم أن الإسلام سلك سبيل الدعاية لدعوته ، وقد يستنكر ذلك أو يستبعده ، إذ أن كلمة « دعاية » اتخذت الآن مفهوماً شائناً شابها وشابها وأحاطها من ترهات وأكاذيب وبخاصة بعد أن اتخذتها بعض الأمم سياسة تتوصل بها إلى شراء ذمم الأفراد ونفوس الجماعات ووأد الحريات فى الأمم والدويلات . وفرق بين هذه الدعاية بمفهومها الدولى الحديث الشائع وبين الدعاية الإسلامية التى هدفها جمع القلوب على الحق والحب والخير ونشر دعوة الوئام والسلام لتنىء الإنسانية إلى ظلال الوحدة والتدين الحق والقرآن حينما قال « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم » . وجعل المؤلفة قلوبهم مصرفاً من مصارف الزكاة كان يعلم أن نفوسهم كالأرض الموات يحييها

العطاء ويعشها السخاء. فكان علاجها فى كثرة عطائها «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير».

فلا عجب بعد نزول هذا التوجيه الإلهى أن أجزل الرسول عليه الصلاة والسلام المنح والأعطيات يستألف بها القلوب ويعالج بها النفسيات ؛ فأعطى لكل من الأقرع بن حابس وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن مائة من الإبل يستميل بها قلوبهم للإسلام ؛ حتى قال صفوان : «لقد أعطانى محمد ما أعطانى وهو أبغض الناس إلىّ . فما زال يعطينى حتى كان أحب الناس إلىّ» .

ثم فى زمن أبى بكر جاء عيينة والأقرع يطلبان أرضا فكتب لهما عهداً بها ، فجاء عمر فزق الكتاب وقال : «إن الله أعز الإسلام وأغنى عنكم ؛ فإن ثبتم عليه ... وإلا فبيننا وبينكم السيف» .

وكان أبو بكر رضى الله عنه حينما يقرأ القرآن فى بيته بمكة كان يتعمد أن يجوّد قراءته ويتمهل فى تلاوته حتى تصل إلى الآذان المرهفة التى كانت محيطة به وإلى قلوب بعض المشركين الذين كان يعلم أن قراءته تصل إلى مسامعهم ، وما كان يرجو من وراء ذلك إلا أن يسحرهم بروعة التنزيل وحلاوة الترتيل فيأتوا مسلمين مستسلمين ، وقد كان له ما أراد ، حتى ضجت قريش ، وضاق رؤساؤها بصنيعه ، فبيتوا أمرهم بليـــل وتظاهروا على إخراجه من مكة لولا أن قطع عليهم «ابن الدغنة» ما حاكوه ؛ بإعلانه حمايته لأبى بكر .

وما زواج المسلم بالكتابية - فى رأى البعض - إلالون من ألوان الدعوة إلى الإسلام ؛ لأنه إذا ما عاشرت الكتابية زوجها المسلم ورأت تعاليم دينه الحقة مجسمة فيه تنضح بها أعماله وينطق بها سلوكه ووجدت فى المنزل شخصية إسلامية متكاملة : من رجولة حقة وحسن عشرة ومحافظة على مفاهيم العقيدة دعاها ذلك إلى المقارنة بين عقيدتها وعقيدة قرينها . وسرعان ما تكون على شاكلة زوجها عقيدة وسلوكا .

من أجل هذا أباح الدين الزواج بالكتابيات للمسلم وبخاصة إذا كان الزوج مرآة صادقة تنعكس عليها تعاليم دينه ... أما إذا كان الزوج إمعة باهت الشخصية مهزوز الإيمان يلقى بمقاليد نفسه إلى زوجه الأجنبية ، فتتصرف فيه بمقتضى معتقداتها وعاداتها كان ذلك عكسا للقضية وقلبا للحكمة التى من أجلها أحل الله الزواج بالكتابيات .

والإسلام دعوة عالمية ، ورسالة إنسانية يجب أن تعم المحيط الدولى وأن تصل إلى الناس كافة فى مختلف البقاع والأصقاع ، وبخاصة فى هاتيك الأنحاء التى لا تعرف من الإسلام إلا الشهادتين ... ولا تعرف عن أصوله ورسوله إلا أثارة من علم أو بقية من اعتقاد قديم متوارث . ! !

فهل شحذنا سلاح الدعاية لدعوتنا العالمية العامة فى هذه البقاع لنكشف لها عن مساتير الروعة الكامنة فى شريعتنا ولنجلو لها أصول الدين ؟

إن الهيئات الدينية وأجهزة الوعظ عندنا ووزارة الأوقاف والأزهر كل أولئك مرجوون اليوم لأن يسهموا بإمكانياتهم وطاقاتهم فى نشر الدين والدعوة له فى تلك الجهات النائية التى لما يبلغها صوت الإسلام، ومطالبون بتجنيد دعاة يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ومرشدين يحملون إلى دنيا هؤلاء دين الله وكتابه، ويقدمون لهم زاداً إلهيا يخرجهم من الظلمات إلى النور ويدخلهم فى دين الله أفواجا.

وللمستشرقين المغرضين - وكثير ما هم - فى هذه الأراضى البكر صولات وجولات، ولدعاة الأديان الأخرى مغانم ومكاسب، فمتى نرى طيف الداعية الإسلامى المستنير فى هذه الأصقاع ؟

وهل أهلنا هؤلاء الدعاة وأعددناهم الإعداد العلمى الدينى فزودناهم بمعرفة لهجات تلك الأصقاع حتى تمكنهم من الوقوف على ما فى جعبة الآخرين من آراء وتيارات ومذاهب يريدون بها أن يطفئوا نور الله !

وليس نشر الدعوة الإسلامية والدعاية لها بمقصور على الأنحاء التى لم تنل حظها من العلم والمعرفة، ولا على الجزر النائية المتفرقة، بل هو واجب فى أشد البلاد تحضراً ورقيا وثقافة وأصدق شاهد ما نراه من إسلام بعض الأوربيين والأمريكيين الذين تسوقهم المصادفة إلى الاطلاع على مؤلف إسلامى، أو كتاب دينى مترجم بلغتهم فيذعنون ويؤمنون ويولون وجوههم شطر القبلة الإسلامية.

محمود الشريف

رئيس قسم بوزارة التعليم العالى

كتابة المصحف بالإملاء الحديث أيضا :

قرأت ما أثاره السيد عبد العزيز البليدى فى بريد القراء من مجلة « العربى » العدد ٥٤ الصادر فى مايو ١٩٦٣ تحت عنوان « المصحف العثمانى وقواعد الإملاء » كما قرأت التعليقات المختلفة على كلامه.

واسمحوا لى أن أضع النقط فوق الحروف وأن أعود بذهن القارئ الكريم إلى بضع سنوات مضت ... ثارت فيها ثائرة الشعب الانجليزى ومثقفوه ورواد الأدب والفلسفة فى المجتمع حينما ظهرت دعوة تنادى بصدق وإخلاص — إلى إصلاح اللغة الإنجليزية وتشذيب كلماتها من الحروف الميتة. وما أكثرها — واستبدال الحروف التى لا تتفق أصواتها مع أصوات النطق بالكلمة كما فعلت اللغة الأندونيسية، واليوغوسلافية حتى يسهل على الأجانب تعلمها.

وكانت حجة الذين غلبوا على أمرهم فى هذه المعركة من المحافظين هى المحافظة على أرومة كلمات اللغة ، واستيفاء دلالتها على إصالتها فى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة .

وفى مجتمعنا العربى يظهر بين الحين والحين صرخات نشاز ، تثير الغبار فى وجه مقدساتنا وتعبث بها كالثور الهائج فى متحف الخزف ، غير متعمقين ولا دارسين ، وليتهم قالوا ، إذن لأراحوا واستراحوا .

ومشكلتنا اليوم هى كتابة المصحف بالإملاء الحديث ، ويتذرع السيد البليدى إلى ذلك بأن فى المصحف كثيراً من الكلمات مكتوبة بصورة لا يمكن أن ينطقها القارئ معها نطقاً صحيحاً ويستمر فى دعواه فيقول : « فضلا عن أنه يسهل على القارئ العادى أن يقرأ الكتاب على حقيقته دون أن يخطىء فى النطق ، أو يلحن فى قراءته .

ومن هنا يبدو أن المشكلة فى نظره يمكن حلها بأن ينطق القارئ العادى نطقا صحيحا إذا سرنا فى كتابة المصحف على قواعد الإملاء الحديثة .

ولعل سيادته نسى أو تناسى أو لعله لم يرد بخاطره بعد ، أن يبين لنا كيف نحل المشكلة فى عدم اللحن ، وفى صحة القراءة بالإملاء الحديث إذا أغفلنا الموسيقى القرآنية من غن وإدغام ، ومد بأطوال محددة فى علوم القرآن

ولم يجب عن تساؤلنا : عما إذا كان الإملاء الحديث ستسهل على القارئ العادى أن يقرأ القرآن ، بعد ذلك أم لا ؟ .

إن هذه وقفة تستحق من سيادته التأمل والتفكير ، وبخاصة وأن أهمية الموسيقى القرآنية عند كثير من المستشرقين والباحثين الأجانب لا تفوقها أهمية أخرى ، حيث يرجعون إليها ، السر فى ميل العرب إلى الإسلام ، وانجذابهم إلى سرعة الدخول فيه كما يصرح بذلك الأستاذ « جب » فى كتابه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » .

وإذن فلن تكون النتيجة إلا أن كتابة المصحف على حسب قواعد الإملاء لا يحل المشكلة ، ولا يسهل على القارئ العادى ، ولا الشخص المثقف ثقافة غير أزهرية أن يقرأه أو يتلوه تلاوة صحيحة ، كما ذكر .

ولا يخفى على أى قارئ عادى أن المصاحف قد كتبت فى عهد « عثمان بن عفان » على يد كتاب الوحى وأجمع الصحابة على ما كتب فيها ، ووزعت نسخ منها على الأمصار ، لتكون وحدها المرجع الوحيد الذى يدندن حوله الجميع ، وأحرق ماعداها من المصاحف ولا ندرى كيف يمكن مخالفة الإجماع ؟!

ولم تكتب المصاحف فى عهد « عثمان » لتقرأ برواية واحدة ، وإنما كتبت لتقرأ بمختلف الروايات المشهورة ، والرسم الذى

يمكن أن يتحمل كل هذه الروايات إنما هو الرسم العثمانى أما الكتابة على حسب القواعد الإملائية فلا تكفى فى تحقيق الهدف الذى قصد إليه المسلمون فى الصدر الأول .

وليس هذا تعصبا أو انحيازا فى الرأى إلى ناحية ، فإن « عثمان بن عفان » لم يشتهر له قبل ذلك طريقة خاصة فى الكتابة ، ولست أشك فى أن الذى ابتكر طريقة الرسم العثمانى ليس إلا الحاجة ثم اجتماع المسلمين وتشاورهم وطول تفكيرهم فى ابتداع نوع من رسم الكتابة يؤدى أغراض المصحف ، ويمكن من قراءته على الروايات المشهورة .

وأظن أنه لا ينبغى أن يعتبر هذا نقصا فى المصحف يجب أن يكمل ، ولا مشكلة يحسن أن تحل ، فليس العيب فى المصحف إذن ، ولا فى رسمه العثمانى ، وإنما العيب فى طرق التربية المدرسية التى تأخذ بها بعض الحكومات الإسلامية تلك التى لا تريد بالتلميذ أن يرتفع إلى مستوى التمكن من قراءة القرآن وفهمه ، وإنما خلقت المجتمعات الإسلامية من ينادى بالعبث بدستورها ، والنزول به ليصل إلى مستوى غير المثقفين ثقافة صحيحة .

وقبل أن أترك القلم يحسن بى أن أشير إلى حل لهذا الموقف ككل ، وليس الحل كما يرى السيد البليدى ، فى إعادة كتابة المصحف بالإملاء الحديث ، وإنما لا بد عند الرغبة فى حفظ القرآن أو تعليم قراءته . . من المعلم أو المدرسة ، فهو الذى يأخذ بيد تلاميذه ، ويوقفهم على حدود الموسيقى القرآنية ، فى غنها وإدغاماتها ، وأطوال مدها ذات الحركات المحددة ، ثم هو الذى يفطنه إلى ما هنالك فى طيات الرسم العثمانى من روايات أخرى صحيحة ، يؤخذ باستعمالها ، وسيسار على تداولها ، فإن ذلك وحده هو علاج المشكلة ، ويوم أن يكون السيد « البليدى » وأمثاله تلاميذ لهذا المعلم . . يومذاك لا تكون هناك مشكلة .

ولا أنسى أن أهمس فى أذن السيد البليدى بأن مصحفه لم يخل من الخطأ فى الإملاء فكلمة « رئيا » من قوله تعالى : « أثاثا ورئيا » كتبها هكذا « رأيا » ـ على الألف ـ .

كما أن رداءة الخط الذى كتب به المصحف كان من بين الملاحظات التى دفعت اللجنة إلى أن تعتبر أن نشره غير مشرف ، فضلا عن التكاليف التى ستبذل فى طبعه .

وقد عرض مصحف السيد البليدى على لجنتين كبيرتين تابعتين لمجمع البحوث الإسلامية : أحداهما « لجنة فحص المصاحف » التى طالبت بمصادرته ، والثانية : « لجنة الفتوى التى أيدت وجهة نظرى » .

محمد أحمد السنباطى

فتاوى مختارة..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

[الاجابة عن السؤال الأول لفضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وباقى الأسئلة إجابتها للجنة الفتوى بالأزهر]

الرؤى والأحلام :

السؤال :

ما هى الرؤى والأحلام التى ترى فى النوم وهل هى صادقة أم كاذبة ، وهل هى من الله أم من الشيطان ؟ .

الجواب :

ليس من شك فى أن الإنسان قد يرى فى نومه أشياء : أقوالا يسمعها أو أحداثا وصورا يراها ، وليس من شك فى أن ما يراه من ذلك قد يكون واضحاً متميزاً بعضه عن بعض ، وقد يكون غامضاً يختلط بعضه ببعض ، وتتغير صوره ولا يثبت على حال . وليس من شك فى أن بعض ما يرى من النوع المتميز قد يقع فى اليقظة ، تارة بنفس الصورة التى رؤى عليها ، وأخرى تكون الصورة المرئية رمزاً لما يقع ، وفى الحالتين تسمى بالرؤيا الصادقة .

أما ما لا يتميز ولا يقع فإنه يعرف باسم أضغاث الأحـــلام .

والقسم الأول ، وهو الرؤيا الصادقة أكثر ما يقع لأرباب النفوس الصافية كالأنبياء والصالحين . ومنه رؤيا النبى صلى الله عليه وســـلم وهو فى المدينة ، أنه هو وأصحابه يدخلون المسجد الحرام ، وقد ذكرها القرآن فى سورة الفتح بقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون » .

ومن الصادق الرمزى ما رآه يوسف عليه السلام رمزاً لإخوته وأبويه وهو ما حكاه

القرآن بقوله : « يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » وجاء فى آخر القصة حينما دخلوا عليه « يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا » .

ومن الرمز أيضا ما حكاه الله عن صاحبى يوسف فى السجن : « قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً ، وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه » . وقد عبرهما يوسف عليه السلام بقوله : « أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » : ومنه ما حكاه الله فى السورة نفسها عن رؤيا الملك التى استدعى لتعبيرها وتفسيرها يوسف من السجن : « إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات » وقد عبرها يوسف بسبع سنين مخصبة بعدها سبع سنين مجدبة : وقد جاء فى الصادقة فيما يختص برسول الله صلى الله عليه وسلم قول عائشة : « أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح » . وصح فى الرؤيا عامة قوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة » وفى بعض الروايات وصفها بالمبشرات .

والرؤيا الصادقة من غير الأنبياء ثابتة ولا شك فى حصولها وهى لا تختص بأهل الصلاح والتقوى ، وفى صدق رؤيا صاحبى يوسف ما يرشد إلى أنها قد تقع لغير المؤمنين والصالحين ، وهذا مما يشهد به الواقع الذى نعلمه من رؤى بعض الناس حتى المعروفين بالفسق والفجور ، وهى فى هذه الحالة تكون كما قال العلماء الشرعيون : إما بشرى بالهداية إلى الإيمان والتوبة ، أو إنذار من الاستمرار على الكفر أو الفسق أو استدراج .

والرؤيا من شئون الروح التى لا وثوق بشىء مما يقرره البشر فيه ، ولا شك فى أن منها ما يكون أثرا لاشتغال النفس بأشياء خاصة فى اليقظة ومنها ما يكون أثراً لفساد الأمزجة واضطراب الأجهزة . أما الصادق منها عينا أو رمزاً فهى من فضل الله على الناس .

حكم نقل المسجد إلى مكان يتسع لعدد أكبر

السؤال :

بنى جدى زاوية تقام فيها الجمعة وذلك منذ سبعين سنة ولقد ساءت جدا وأصبحت غير صالحة بل لا تليق لإقامة الشعائر الدينية ، ومساحتها لا تسمح بإعادة بنائها لصغرها ولوقوعها بين مساكن القرية .

فهل يجوز شرعا نقلها من مكانها الحالى إلى مكان آخر يمكن معه بناؤها على مساحة أوسع وليتيسر كذلك تزويدها بدورة مياه وبخاصة أن قريتنا تتمتع بالمياه الصالحة للشرب — هذا وفى نيتى أن أترك مكان الزاوية القديمة فضاء يتسع به طريق القرية ؟

عبد الله مفتاح

كاتب أول بالنيابة العامة

الجواب :

يجوز بناء المسجد الجديد بدلا من الزاوية التى أصبحت غير صالحة لإقامة الشعائر ، كما يجوز الانتفاع بمكان الزاوية الأولى بوجوه الانتفاع الجائزة شرعا .

هل تأخير الثمن فى البيع يحل الزيادة عليه :

السؤال :

بعت لأحد الناس أربعة أفدنة منذ ست سنوات وسدد المشترى ثمن ثلاثة أفدنة فقط ولكنه تسلم الأفدنة الأربعة منذ وقت البيع . فهل لى الحق شرعا أن أطالبه بقيمة إيجار الفدان الذى لم يدفع ثمنه بعد ؛ فأضيف قيمة الإيجار مدة ست سنوات على الثمن الأصلى للفدان ؟

ع . م - المنصورة

الجواب :

إذا كان قد تم البيع منذ ست سنوات كما قال البائع فإنه لا يجوز له شرعا أن يأخذ من المشترى إيجار الفدان الذى لم يدفع ثمنه - لأن الفدادين الأربعة صارت ملكا للمشترى منذ تمام البيع فصارت منفعة الأرض جميعها له ، فلا حق للبائع فى أخذ شىء من المشترى فى مقابل المنفعة وليس له إلا باقى الثمن ، ولا يحل للمشترى أن يماطله فى ذلك ، ولا أن يدفع شيئا زائدا عن الثمن عوضا عن تأخير باقى الثمن .

تعليق على فتوى حكمة تحريم لحم الخنزير :

نشر فى العدد الأخير من مجلة الأزهر [1] فى باب فتاوى مختارة سؤال طالب يدرس بانجلترا عن الحكمة فى تحريم لحم الخنزير على المسلم ، وقد علم من أساتذته أثناء دراسته لعلم الحيوان ، أن نوعا من الدود يسمى الدودة الوحيدة تعيش فى عضلات الخنزير ، وهى من الجراثيم الفتاكة التى تهلك الإنسان على مر الزمن ، وإذا كان الإنسان توصل إلى تطهير لحم الخنزير من هذه الدودة ، فلماذا يظل الدين يحرم أكله ؟

---

(١) مجلة الأزهر عدد جمادى الأولى ١٣٨٣ أكتوبر سنة ١٩٦٣ .

وقد جاء فى الرد على سؤال الطالب الشاب أن الحكمة فى التحريم امتثال أوامر الله ونواهيه وإن لم تظهر حكمة هذه الأوامر والنواهى فى بعض الحالات .

والحكمة فى تحريم أكل الخنزير على المسلم ليست بخافية ، وخاصة فى هذا الوقت الذى تقدمت فيه العلوم والبحوث المتعلقة بالأغذية العامة .

لقد حرم الدين الإسلامى لحم الخنزير لأسباب كثيرة ، وإن لم يذكرها الدين ولم يعرفها القدماء ، إلا أن العلم الحديث أثبت بعضها ، وأثبتت التجربة والمشاهدة بعضها الآخر ، وأهمها :

أولا : الدودة الوحيدة أو حويصلات الديدان الشريطية . وقد ثبت علمياً أن هذه الحويصلات لا يمكن معرفتها فى الحيوان الحى ، فإذا أصابت أجسام الحيوان إصابة شاملة كان من العسير معالجتها وإبادتها بطريقة فعالة ، وإن قال الأمريكان أخيراً بغير ذلك : وحتى إذا أمكن إبادتها فهناك عوامل أخرى تثير الشك فى اللحوم المصابة أصلا بهذه الديدان .

وهذه الديدان تصيب الأبقار فى بلاد كثيرة من بلاد الشرق ، كالحبشة وكينيا وغيرهما . وبعضها تكون إصابته بالغة ، ومع ذلك فالدين الإسلامى لم يحرم أكل البقر ، بل حرم لحم الخنزير لهذا السبب ، ولأسباب أخرى ، منها :

١ — الخنزير فى الأصل من الحيوانات المفترسة ، ومن المعروف أن نابى الخنزير يقطعان وهو صغير ، وإلا كان خطرا على كل من يقترب منه بعد نموه واكتمال قوته ، كما أنه من الشائع جداً أن أنثى الخنزير كثيراً ما تصاب بجنون النفاس بعد الولادة فتأكل مواليدها إن لم يبعدوها عنها ، وكثيراً ما تهاجم من يتعرض لها فى فترات النفاس بشراسة واستماتة ، وقد حرم الدين أكل لحم كل حيوان مفترس ، بل حرم تناول لحوم الحيوانات آكلة اللحوم عامة وإن لم تكن مفترسة ، كالقطط والكلاب ، لأسباب صحية لا تخفى على أحد .

٢ — الخنزير بطبعه من الحيوانات الوالغة ، كالضباع ، فهو يلغ فى الأرض وقد يأكل الميتة والقذارة ويستطعمها .

٣ — لحم الخنزير يعطى سعراً حرارياً مرتفعاً جداً ، فإذا أكله المسلم فى البلاد الحارة ، كان تناوله خطراً عليه ، ومن المعروف عندنا أن تناول الأطعمة التى تعطى

سعراً حراريا مرتفعاً ، والأطعمة الحريفة والمملحة كالفسيخ والسردين ، وهى لا تعطى نفس السعر ، تضر كثيراً بمن يتناولها وبخاصة فى الأجواء الحارة .

٤ - لاحظت كثيرا - فى مصر والخارج - أن من يتناولون لحم الخنزير بكثرة يكون عندهم نوع من التبلد ، وينعدم لديهم قدر كبير من النخوة ولا أقول أكثر من ذلك ! وإنى أعرف الكثيرين من إخواننا المسيحين يرفضون لحم الخنزير .

وهنالك أمراض كثيرة كشف عنها العلم الحديث تصيب الخنازير ، منها كوليرا الخنازير ، وحمرة الخنازير ، ومن أخطرها مرض السل الذى يصعب تشخيصه فى الحيوان الحى كذلك :

من أجل هذا كله ، ومن أجل ما خفى علينا حتى الآن ، جاءت الحكمة فى تحريم لحم الخنزير ، فهذه كلها تفسيرات بعضها أثبته العلم الحديث وبعضها اجتهادى من ملاحظاتنا ومشاهداتنا ، ولعل عند علماء التغذية تفسيرات أضخم من تلك التفسيرات ولكن العوامل الاقتصاديه تحول بينهم وبين إذاعتها شأنهم فى ذلك شأن التدخين ، الذى يضر بصحة الإنسان ضررا بالغا ، وينقسم العلماء والأطباء فى العلم حياله قسمين تبعا لأهواء المصانع والشركات التى تتاجر فيها ، ولاستعباد الإنسان لعادة التدخين ، وإن أصابه بالضرر البالغ ، فالإنسان عبد العادة .

حسين الغنام

* * *

المجلة :

مازال هناك بعد ماساقه الأخ الأستاذ حسين الغنام من مضار لحم الخنزير الداعية لتحريمه - مجال لبحوث تتجدد بتجدد أدوات البحث وإمكانياته قد يصل بها العلم غداً لمضار أخرى مما يجعل ارتباط الحكمة بضرر معين أمراً تعوزه الدقة ، ولذا يتبين سداد المسلك الذى اتخذته لجنة الفتوى بالأزهر إزاء الإجابة على الحكمة فى تحريم الخنزير بالتفصيل الذى نشرناه فى العدد السابق ، وللأستاذ بعد هذا تقديرنا على ما بذله فى بحثه من جهد .

مقدم الباب

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق الأستاذ عبد الرحيم فودة

فهم القرآن

أما علماء الشرع فيقولون : إن اللغة لا تحمل غير مدلولاتها ، وإن الألفاظ وضعت لها حدود وقيود ، وإن القرآن - هو دستور المسلمين - قد وصفه الله بأنه نزل بلسان عربى مبين ليبين للناس ما نزل إليهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وإننا إذا تركنا لكل واحد أن يخلق من المعانى ما يشاء ، ويتلاعب بالألفاظ حسب الأهواء من غير أن نشده إلى ما تواضعت عليه اللغة وجرى عليه الناس أجمعون لانقلبت اللغة إلى رطانات ، وتحولت معانيها إلى غموض وإشارات ، ووضعت الألفاظ فى غير موضعها ، وقد يكون للجهل معنى العلم ، وللرذيلة معنى الفضيلة ، وللضعف معنى القوة وهكذا دواليك سم الأشياء بغير مسمياتها ، وضع الألفاظ فى قالب معمياتها ، واكذب ماشئت فقد يؤول بالصدق ، وأصدق ماشئت فقد يؤول بالكذب ، ولا يبعد أن يكون الإسلام بمعنى المسيحية ، والحضارة بمعنى الهمجية ، وينبهم معنى البيان الذى علمه الله للانسان ، وتضيع الحكمة من قول الله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ، ومعاذ الصحابة والتابعين أن يكونوا سلكوا هذا المسلك ، أو ولجوا هذا المهلك ، الذى يبلبل الأفكار ، ويجعل الناس فى ليل من الشك مظلم ، ويترك لأعداء الدين فرصة الصيد فى الماء العكر على أن هؤلاء « الشاطحين - يعنى بعض رجال التصوف - تحدت ألغازهم إلى كتاب الله ، ففسروا بعض آياته بما لا تطاوعه لغة ، ولا يسعفه رأى صحيح ، هؤلاء « الشاطحون » الذين انتحلوا وظيفة التربيـة الروحية والتقريب من الله أبعدوا الناس عن القرآن العربى الواضح المبين . الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير . أوهموهم أنه عال على الأفهام ، وما دروا أن لازم هذا كفر ، وهو أنه إذا كان لا يفهم ، فإنزاله عبث ، وأنى يكون هذا ومنزله تعالت أسماؤه يصفه بأنه عربى مبين ، وأنه غير ذى عوج . وأنه ميسر للذكر ، وينعته بأنه

يهدى للتى هى أقوم ، وكيف يهدى إذا كان لا يفهم .

هؤلاء يصدرون فى شأن القرآن عن هوى لا عن بصيرة ، يسدون على الناس باب الاهتداء به فى الأخلاق التى تزكى النفس والعقائد التى تقوى الإرادة ، والعبادات التى تغذى الإيمان ، والأحكام التى تحفظ الحقوق ، ثم يتعلقون بالجوانب الغيبية منه وهى التى استأثر الله بعلمها . فيخوضون فى الروح والملائكة والجن وما بعد الموت .

الأستاذ محمد أمين هلال
من مجلة : الإسلام

التعليق :

هذا كله صدق وحق ، ولكن هذا لا ينفى أن القرآن كما قال علماء الشرع أنفسهم : حمال ذو وجوه ، وأن ألفاظه تتعلق بمعان جميلة كلها صحيح أو محتمل للصحة ، بل إن اللفظ منه كما قال المرحوم فضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز : « كأنه فص من الماس يريك كل ضلع منه شعاعا ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدرى ماذا تأخذ عينك وماذا تدع » .

نعم إنه قريب من الإفهام . ولكن استيعاب معانيه فوق طاقة الأفهام ، وقد نقل عن الإمام على رضى الله عنه أنه قال : جميع العلم فى القرآن ولكن أفهام الناس تتقاصر عنه ، ونظم هذا المعنى فى قول الشاعر :

جميع العلم فى القرآن لكن
تقاصر عنه أفهام الرجال

وقد وصفه الله بقوله : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » ، وقوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » .

ع . ف .

التصوف

وقديما حار الناس فى تعريف التصوف . وتشعبوا فيه الى مائة رأى ، بل زادت أقوالهم فى ماهيته على ألف قول ، وفى ذلك مخلص لمن يريد أن يقف به عند معنى خاص ، كأن يقول : « التصوف هو كل عاطفة صادقة . متينة الأواصر . قوية الأصول ، لا يساورها ضعف ، ولا يطمع فيها ارتياب » .

وهذا التعريف قريب من قول أبى على الروزبارى : « التصوف الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه ، وقول الجنيد ـ وقد سئل عن التصوف : هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به » .

وكيف يقصر التصوف على أصحاب الرسوم والأشكال . وهو من رسوم القلوب والأرواح ؟ إن التصوف خليق بأن يصحب كل نزعة شريفة من النزعات الوجدانية ، والأساس أن يكمل الصدق ، ويسود الإخلاص . بحيث لا تملك النفس أن تنصرف عما آمنت به واطمأنت اليه فى عالم المعانى ، وكذلك يتمثل التصوف فى صور كثيرة فيكون فى الحب ، ويكون فى الولاء ، ويكون فى السياسة حين تقوم على مبادئ تتصل بالروح والوجدان .

ومن شواهد التصوف فى الحب قول جميل :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا . وبأن لا أستطيع . وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى . وبالحول ينقضى
أواخره لا نلتقى وأوائـــله

فهذا « الزهد » فى الوصل تصوف ، وإن لم يذكر اسم صاحبه بين أسماء الصوفية ، وإنما كان الزهد تصوفا . لأنه من دلائل الصدق وقوة العلاقة الروحية ؟

الدكتور زكى مبارك
من كتاب التصوف الإسلامى

خير الأمور الوسط :

سأل أعرابى ابن عباس فقال : إن العرب تقول : حب التناهى شطط ، خير الأمور الوسط ، هل هذا موجود فى القرآن قال قال ابن عباس : نعم فى أربعة مواضع : فى قوله تعالى فى وصف بقرة قوم موسى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » أى وسط بين الكبر والصغر ، وفى قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا » أى فتوسط بين الأمرين ، وفى قوله تعالى : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » هذا السبيل هو الوسط ، وفى قوله تعالى فى مدح المعتدلين من كرماء المؤمنين : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » . أى وسطا .

عبد الرحمن الضبع
من كتابه الأنابيش



مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في العدد
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء الخامس — السنة الخامسة والثلاثون — رجب سنة ١٣٨٣ هـ - ديسمبر ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب بين الصعود إليه والهبوط به

بقلم : أحمد حسن الزيات

يتحدث بعض السادة الأدباء في العهد الاشتراكي عن مكان الأدب من الحياة ، أيظل في المصعد الأعلى من السماء ليرتفع إليه من يحبه ، أم ينزل إلى المهبط الأدنى من الأرض ليتناوله كل من يريده ؟

ولا أدري على وجه اليقين ماذا يريدون بصعود الأدب وهبوطه ، إن كان القائلون بالصعود يريدون أن يرتفع الأدب عن حياة العامة فلا يتخذ من حوادثها قصصه وموضوعاته ، ولا ينتزع من مشاهدها صوره وتصوراته ، فقولهم باطل ، لأنهم يحصرون عبيره ونوره في ناحية من نواحي الحياة لا هي أجمل ولا هي أفضل . وإن كان القائلون بالهبوط يريدون به أن يجرد الأدب من قواعده وخصائصه وعبقرياته ليفهمه الغبي والبليد والساذج فقولهم كذلك باطل ، لأنهم يخرجونه من طبيعته وحقيقته ليكون عبثا من العبث لا يوحي ولا يمتع ولا يرفع.

إن الأدب فن ، والفن في كل مكان هو الفن ما دام يعبر عن مشاعر النفس ومشاهد

الطبيعة ووسائل العيش تعبيره الحي القوى الصادق بالكلمة أو بالصورة أو بالنغمة أو بالمثال ، ولا فرق فى ذلك بين أن يكون موضوعه علبة الجواهر فى قصر ملك أو صينية البطاطس فى دار سوقة ، المهم أن يظهر فى الصورة المختارة روح الفنان وشعور الإنسان وجمال الحقيقة .

كان كتاب الإغريق ومن تبعهم من كتاب الفرنج الاتباعيين يقصرون موضوع المأساة وأبطالها على حياة السراة والملوك ، ويرون أن جرائم هؤلاء ومصائبهم أفعل فى النفس وأشغل للقلب من جرائم السوقة ومصائب العامة .

فلما ابتذلت أفنية الملوك وعلت كلمة الشعوب وغلب نظام الديمقراطية ، أصغر الناس الفجائع فى القصور وأكبروها فى الأكواخ ، وجاء الأدباء الابتداعيون فاستحدثوا الدرامة ونزلوا بها إلى سواد الشعب فصوروا حياته كما هى ، ومثلوا أبطالهم له كما هم .

وغضب الاتباعيون لكرامة الأدب فنشبت بين الفريقين حرب شعواء كانت معركتها الفاصلة فى مسرح (الكوميدى فرانسيز) ليلة مثلت مسرحية (هرنانى) لفكتور هوجو وهى درامة شعرية بطلها قاطع طريق .

وكان الخلاف بين الارستقراطيين والديمقراطيين قائما على الموضوع والطبقة لا على الوضع والتطبيق . أما الفن فى ذاته فقد ظل فى علوه ودنوه بارعا رائعا عند هؤلاء وأولئك .

وكان ابن الرومى شاعراً شعبيا يخالط الدهماء والغوغاء ويلابس الصناع والباعة ، فيهبط بشعره إلى أن يقول فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به
يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة
وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة
فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وإلى أن يقول فى صانع الزلابية :

ومستقر على كرسيه تعب
روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحراً يقلى زلابية
فى رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا
كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينا من أنامله
فيستحيل شبابيكا من الذهب

ثم يصعد بشعره إلى أن يقول فى وصف الشمس قبيل الغروب ، وهو وصف لا تجد

له نظيرا فى الأدب العربى ولا فيما نعرف من الآداب الأخرى :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت
على الأفق الغربى ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها
وشوّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة
وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف
توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى
كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صوراً إليها روانيا
ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا
وبين إغضاء الفراق عليهما
كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة
من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريمان ظله
وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
وغرد ربعى الذباب خلاله
كما حثحث النشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هناكو
على شدوات الطير ضربا موقعا

فأنت ترى أن الشاعر قد ارتفع بشعوره إلى أسمى مجالى الطبيعة ، ثم انخفض به إلى أدنى مشاغل الناس ، ولكنه بقى فى الحالين فنانا صادق الحس بارع الوصف رائق الأسلوب.

وقل مثل ذلك فى ابن المعتز الشاعر الخليفة وابن الحجاج أو ابن العبر الشاعر الصعلوك . فإن ابن المعتز كان يؤلف صوره من ترف الملك ، وابن الحجاج أو ابن العبر كان يؤلف صوره من مباذل السوق ؛ ولكن الفن كان عند الرجلين واحداً ، يختلف فى الخامة ولا يختلف فى الصنعة ، ويتفاوت فى الطبقة ولا يتفاوت فى القيمة . وهذا ما نفهم من صعود الفن وهبوطه : ننزل به إلى الطبقة العاملة والحياة العامة فنجد له من الطفولة المعذبة والشيخوخة العاجزة والزمانة المعدمة ، والكرم فى الأخلاق ، والشهامة فى البؤس ، والإيثار فى الخصاصة ، مواقف قوية التأثير شديدة الروعة . فإذا وصفناها أو حللناها أحسها العامى أبلغ الإحساس ، وتأثر بها أشد التأثر ، وشعر فى الوقت نفسه بأن فى هذا الأدب الذى يصور نفسه ويصف دنياه قوة خفية ترفعه إلى فوق وتدفعه إلى أمام.

أما أن نمسخ له صور الفن فنكتب له الأدب بقلم (العرضحالجى) ، ونعزف له الموسيقى بشبابة الراعى ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش فذلك تقدم إلى الخلف وارتفاع إلى الأسفل.

إن رسالة الفنون الرفيعة أن تجمل الحياة وتهذب الحضارة وتسمو بالإنسان. وإذا كانت

براهين الإيمان

من طريق براهين الشكوك

للأستاذ عباس محمود العقاد

تردنى على الدوام رسائل صريحة من الشباب المثقف الحائر فى شئون العقيدة .

وموضع الصراحة فى هذه الرسائل أن أصحابها يعربون فى غير مواربة عن شكوكهم فى مسائل الدين : من الإيمان بالله إلى صلاح بعض الفرائض والعبادات .

ولست أتشاءم بهذه الصراحة ؛ لأنها دالة على أمور كثيرة تدعو إلى التفاؤل وحسن الأمل فى الضمائر المتفتحة للمعرفة وسلامة الإدراك .

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

الفنون الآلية قد اخترعت لتخدم الجسد ، فإن الفنون الأدبية قد اصطنعت لتخدم الروح ، فهى إذن ضرورة وحاجة لا كمال ومتعة . ولا يتسنى لها أن تؤدى هذه الرسالة إلا إذ احتفظت بالجزء الإلهى الذى يقرب الأدب من الدين ويربط الأرض بالسماء ويدنى الإنسان من الملك . وهذا الاتصال الروحى أو الإلهـــام الذهنى أو الاستعداد الفنى متى أوتيه إنسان سما بملكاته على الناس فلا يفكر تفكيرهم ولا يشعر شعورهم ولا يعبر تعبيرهم . ولو أكرهناه على أن يتدلى إليهم ويندمج فيهم لنفر نفور الجنس الغريب وتميز تميز الكائن المستقل .

ولا أدرى كيف يستطيع الفنان أن يرفع النفوس إلى مراقى الكمال إذا لم يرتفع هو عن حقارة الحياة الدنيا ، ويصور للناس المثل العليا من الجمال والفضيلة ، فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهمائه ؟ .

فلنطمئن إذن على أن الدعوة إلى ابتذال الفن لن تجد لها سميعا ، وإذا وجدته فلن يكون إلا من الأدعياء الذين لا تساعدهم كفايتهم ولا ثقافتهم على السمو إلى الفن فيحاولون أن ينزلوه إليهم ، وهو إن نزل لا يكون فناً ، وإنما يكون زبداً لا يلبث أن يذهب ، وظاهرة لا تمكث إلا ريثما تغيب ! .

احمد حسن الزيات

تلك صراحة تدل على تعقل شبابنا لعقائدهم الروحية ، وعلى استعدادهم للانتقال فيها من حالة التقليد إلى حالة التبصر والاجتهاد .

وتدل - مع هذا - على امتعاض نفوسهم من حالة الشك والحيرة ، بدلا من التذرع بها إلى الهجوم على « الإباحية الأخلاقية » واستحلال ما لا يحل فى الدين ولا فى عرف التدين الذى تقوم عليه أسس الآداب الإنسانية .

وتدل ، بعد هــذا وذاك ، على أدب فى الطبع يعصمه من داء الغرور ويلهمه أن يطلب المزيد من العلم حيثما تطلع إليه ، ويندر فى المصابين بداء الغرور من يحسب أنه بحاجة إلى علم فى مسائل الحياة الكبرى غير الذى يجيش بخاطره ويقع منــــه موقع القبول ، بغير بحث ولا محاولة للمزيد من الفهم والإيضاح .

ومن بين الرسائل التى وردتنى أخيراً من هذا القبيل رسالتان إحداهما بتوقيع (م . أ . زيدان) والأخرى يرجو صاحبها أن أرمز إليه بحرفى (س . ع) إذا استجبت لرجائه وكتبت فى مجلة « الأزهر » عن موضوع سؤاله .

يقول صاحب الرسالة الأولى : « تقدمت للالتحاق بكلية الطيران لأحقق أمنيتى فى أن أكون أحد أفراد القوات المسلحة ونجحت فى الكشف الطبى مع القلائل الذين ينجون منه فى قومسيون القوات الجوية ، ثم رسبت أخيراً فى كشف الهيئة التى لم يرسب فيها أحد إلا أنا ... أتدرى لماذا ؟ لأن قلبى على اليمين .. ! » .

ويختم صاحب الرسالة كلامه متسائلا : ألست معى أن الله يتسبب فى عذاب البشر ؟ ... أستحلفكم بالله أن تقنعونى بالآية التى تقول : « عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » .

أما صاحب الرسالة الثانية (س . ع) فسؤاله عن معرفة المؤمنين بالله لم لا يدركونها بظهور الله لهم علانية بدلا من هذا التخبط من قديم الزمن فى ظلمات الجهل ومنازعات الغضب والتعصب بين المنكرين والمؤمنين ، وبين المؤمنين أنفسهم من أنصار كل دين ، بل من أنصار الدين الواحد على اختلاف المذاهب والتفاسير ... » .

* * *

ولقد كشفت لى تجاربى فى دراسة الشكوك الدينية عن طريق قريب إلى الإيمان لا يطول النظر فيه كما يطول النظر فى البراهين الفلسفية التى يقوم عليها العلم بوجود الله :

كشفت لى هذه التجارب عن يقين لا أرتاب فيه ؛ وهو اليقين بسهولة الخلاص من براهين الشكوك الدينية أو براهين

الإلحاد ؛ لأن ظهور البطلان فى هذه البراهين أيسر من البحث فى براهين الفلاسفة على تحقيق وجود الله : وهى براهين المنطق التى لا تصبر عليها جميع العقول .

فن اليسير أن نفهم - بعد قليل من البحث - أن إنكار وجود الخالق لشيوع النقص والعذاب فى عالم المخلوقات هو إنكار ضعيف السند ، غير قابل للتصور الصحيح عند إمعان النظر فيه

وأيسر من ذلك إظهار البطلان فى تحقيق معرفة الله برؤية العيان ، أو ما هو من قبيل رؤية العيان .

فإذا كان وجود الخالق يستلزم خلو الخلق من النقص والعذاب فلنجتهد فى تصور العالم على هذه الصورة فلا نلبث أن نفهم أنها هى المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض :

أولا : كيف يمكن أن يكون المخلوق كاملا كمال الخالق الذى لا يعوزه شىء من الأشياء .

ذلك هو المستحيل الذى لا تتعلق به إرادة الله ، ولا يجوز لنا أن نتطلبه من قدرة الله ؛ لأن قدرة الله التى لا نهاية لها هى التى توجب أن يكون المخلوق المحدود بزمانه ومكانه دون ذلك ، وتمنع أن يوجد فى التصور إله كامل مخلوق إلى جانب الإله الكامل الخالق لجميع الأشياء .

ولنتعسف التصور - إن استطعنا - فنقدر أن المخلوقات يمكن أن توجد ناقصة وأن تكون مع نقصها سعيدة لا ترجو شيئاً ولا يفوتها رجاء ترجوه إذا جاز هذا فى حق الكائن السعيد الظافر بكل ما يريد .

فهل توجد هذه المخلوقات السعيدة دفعة واحدة بلا ولادة ولا نمو ولا وقوف بالنمو عند حد محدود .

وإذا وجدت هذه المخلوقات السعيدة فهل تكون سعادتها من نوع واحد لا فرق فيه بين هذا المخلوق وذلك المخلوق ، كأنها نسخة مكررة فى جميع الصفات والأحوال؟ وهل تتم لها سعادتها بغير مجهود منها وغير سبب من بواعث نفوسها وبغير فرق بين من ولد بالأمس ومن يتبعه فى الميلاد .

وهل يتبعه ذلك التابع فى الميلاد صغيراً يشعر بالنقص أو لا يشعر به ولا يشعر بما عداه .

أما إذا تفرقت هذه المخلوقات فى أنواع السعادة فكيف تتفرق دون أن يكون هذا المخلوق مستمتعاً بمزية ليست للآخرين من المخلوقات .

وهل تكون المخلوقات جيلا واحداً ، ثم يكون هذا الانفراد بالخالق إنصافا للأجيال التى تظهر بعد العدم على سنة التتابع بين الوالدين والمولودين .

إن خطأ الشك الذى يقوم على افتراض

العالم على صورة من هذه الصور هو أظهر الأخطاء بعد النظر اليسير .

فكمال المخلوقات لا يدل على وجود الخالق المنفرد بالكمال المطلق الذى لا يتكرر ولا يقبل التكرار .

بل نقص المخلوقات هو الذى يدل على ذلك الكمال على كل وجه قابل للتصور والتقدير .

وإذا تصورنا الخلق بهذه الصورة التى لا صورة غيرها فى الإمكان فمن اليسير أن نفهم كيف نرجو شيئاً لا يتحقق وكيف نجهل ما نرجوه ولا ندرى بكل ما يضمره الغيب لنا من عواقب هذا الرجاء .

ومستحلفنى السيد (م . أ . زيدان) أن أقنعه بالآية التى تقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... »

فلا أرانى بحاجة إلى مثل بعيد عنى ولا عن الواقعة التى رواها صاحب الرسالة عن نفسه وكانت سبباً لشكواه من المقادير :

لقد أردت فى مطلع شبابى كما أراد السيد زيدان أن أنجح فى امتحان كامتحانه لإتمام الدراسة بالديار الأوربية ، وكانت الجامعة المصرية فى نشأتها الأولى هى التى نظمت ذلك الامتحان على يد رئيسها سعد زغلول لتخريج الأساتذة المرشحين للتدريس فيها بعد عودتهم من الجامعات الفرنسية والانجليزية وقد فاتنى النجاح فى الامتحان لسبب من الأسباب الشكلية كما فات السيد زيدان ، فأظلمت الدنيا فى عينى يوم ذاك و نعيت على الدنيا كلها خيبة الرجاء ، وظننت أنه هو الرجاء الأول والأخير فى الحياة ، ولكننى اليوم بحمد الله غير نادم على ما فات وغير عاتب على المقادير . بل قد علمت بعد قليل اننى لم أعتب على سعد زغلول ولم أحمله جريرة الخيبة فيما رجوت ؛ وكنت فى مقدمة المدافعين عن عمله بالجامعة المصرية يوم أنكره عليه المنكرون غير منصفين ولا متحرجين .

* * *

أما الشك فى وجود الله لأنه لا يظهر لنا عياناً فهو أضعف الشكوك التى تساور العقول فى أمر الأديان السماوية وفى أمر كل دين يؤمن فيه المعتقد برب معبود .

هل نريدها معرفة إنسانية أو نريدها معرفة من طبيعة غير طبيعة الإنسان فيما يعرفه ويتعرف عليه من الأشياء .

إننا لا نعرف أوضح شىء فى عالم المحسوس لأنه يرينا نفسه جلياً واضحاً للعيان .

وهذه الشمس لا ترى العين شيئاً أوضح منها ولا نزال التعرف عليها حتى اليوم مبدئياً من أوله كأننا نراها لأول مرة فى عصر العلوم والكشوف .

وليس بالمعقول ـ إنسانيا ـ أن تكون حقيقة الحقائق الكبرى أقل أسرارا أمام العارفين والمتعرفين من أقرب المحسوسات

إلى الوضـــوح بغير أسرار ولا بقية تبقى للتعرف عليها بعد نظر العيان .

ولكننا نعتسف التصور مرة أخرى ونحاول أن نتصور كيف تتأتى المعرفة بالله عيانا لجميع المخلوقات فى جميع الأوقات .

فهل يتجلى الله لعباده مرة فى القدم ثم ينتقل هـذا التجلى بالرواية والحكاية إلى الخلفاء والأعقاب ؟

وهل ينقله من رأى الله عيانا إلى خلفائهم وأعقابهم نقلا يتساوى فيه الخبر ويتساوى فيه اليقين بالرواية على مثال لا يتطرق إليه الشك والخلاف ؟ وإذا حدث هذا فمن أين لنا أن الخلفاء والأعقاب تقبل هذه المعرفة على صورتها المثلى ولا تشك فيها كما يشك المنكرون للأنبياء والمرسلين؟ .

فإن لم يستقم هذا التصور فى العقول فهل يستقيم فيها أن يتجلى الله لكل جيل فى زمان بعد زمان ! . وهل يغنى التجلى فى الجيل بعد الجيل عن التجلى مرة بعد مرة ، بعد ألف مرة ، لكل مولود جديد فى كل جيل جديد .

وإذا تكرر هذا التجلى خاصا بكل مولود ، فهل تتساوى المخلوقات فى كنه الإيمان وفى درجة الإيمان بل فى كنه العيان ودرجة العيان ؟

وإذا أمكن أن يتكرر العـلم بحقيقة الحقائق على السواء . وعلى هذا المثال فماذا بقى للنفوس والضمائر من الفارق بينها وبين الآلات الصماء فى تعليق الصور وإدراك المعـرفة واجتهاد الضمائر والعقول ؟ .

إن إيمانا كهذا لا تختلف خصائصه عن خصائص الأجسام المادية التى لا معنى فيها لعقيدة من العقائد ولا لاتفاق أو اختلاف على هذا الدين أو ذاك .

ونكتفى بما تقدم لتقرير الفكرة التى أردنا أن نقررها بهذا المقال . ومجمل الرأى فيها أن الشك فى براهين الإلحاد أيسر أمام العقل من براهين الشك فى الإيمان .

فهاتان حجتان من أشيع الحجج التى نسمعها من المتشككين اعتراضا على الدين : حجة الألم فى الدنيا وحجة الاستدلال على وجود الله برؤية العيان نوازن بينهما وبين ما يقابلهما فلا نطلب من المعترضين أن يذهبوا بعيدا فى التفكير إذا وقفوا عند القول بأن العالم كما يريده المعترضون أصعب تصورا وأشد خللا للمخلوقات من العالم كما يتصوره المتدينون المؤمنون بوجود الله ، على غاية ما ينتهى إليه تصور العقل البشرى من الحكمة والقدرة .

ونحن أوثق ما نكون يقينا بأن سائر البراهين التى تخطر للمعترضين تجرى هـذا المجرى وتنتهى عند القياس إلى مثل هذا النهاية وكلها كافية للاقتناع بأن براهين الشك والإلحاد أظهر خطأ من براهين اليقين والإيمان .

عباس محمود العقاد

التطهير في الإسلام

للأستاذ محمد محمد المدني

التطهير نوعان : تطهير حسي ، وتطهير نفسي .

وكل ما جاء في القرآن الكريم من هذا اللفظ ومشتقاته ، فإنما يرجع إلى واحد من هذين المعنيين .

والإسلام دين تطهر وتنزه ، وهو في كل ما شرعه ، إنما يريد تطهير الإنسان عن الدنس والعيب ، والسمو به عما لا يليق بإنسانيته في مظهرها وجوهرها :

يقول الله تعالى : « إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » .

وهذه الآية الكريمة تقرن بين تطهير النفس ، وتطهير الجسم :

فالتطهير الجسمي يكون بالنظافة والاغتسال والتحرز من النجاسة والقاذورات التي من شأنها أن تلوث الأجسام وما يتصل بها من ملابس وأماكن ، فتؤذي الإنسان ، وتؤثر على حواسه ، وتسيء تبعاً لذلك إلى نفسه وروحه ، فإن الإنسان إذا كان نظيف البدن ، نظيف الثوب ، نظيف المكان ، أحس بالراحة والطمأنينة ، وأشرقت نفسه ، وتألقت روحه ، وذكا عقله ، وعلى العكس من ذلك : إذا أحاط به الدنس أحاطت به آلام النفس ، وخفتت فيه شعلة الذكاء ،

وقد امتن الله تعالى على المؤمنين بما أيدهم به يوم بدر من إمدادهم بألف من الملائكة مردفين ، بشرى لهم ، ولتطمئن به قلوبهم ، وامتن عليهم مع هذا بقوله : « إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان . وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » ، فدلنا ذلك على أن إمداد الله عباده بالماء كان له أثر بعيد في تثبيتهم ، والربط على قلوبهم ، لا يقل عن أثر إمدادهم بالملائكة .

وأمر التوبة ، وإن كان يبدو أنه أمر روحي بين العبد وربه ، لكنه ذو تأثير معنوي في الأفراد يتأثر به المجتمع : فالفرد لا يخلو من أن يقع في بعض الذنوب ومن أن يساوره اليأس حينا من الغفران ، وليس هذا مما تستقر عليه النفوس ، وتهدأ به الحياة ، وإذا استولى القلق النفسي على الأفراد في مجتمع ما ، فإن هذا المجتمع يصيبه

نوع من الشلل أو الخلل ، إذ يقول العاصى فى نفسه : ما دمت قد ارتكبت الموبقات ، وأحاطت بى الخطيئة من كل جانب ، وليس أمامى باب مفتوح أفر إليه مما قد أحاط بى ، فلأفعل ما أشاء ، ولأنغمس فى حمأة الرذيلة إلى الأعماق ، لذلك كان من رحمة الله تعالى أن شرع التوبة ، وجعل بابها مفتوحا أمام العصاة والمذنبين إلى أن تشرق الشمس من مغربها ، أى إلى أن ينتهى نظام العالم الكونى فى هذه الدنيا ، وبها يتطهر الإنسان من أدران الآثام والمعاصى ، ويعود إلى حظيرة الطاعة ، ويرجع إليه اعتباره الروحى الدينى ، وفى ذلك يقول الله عز وجل ، مبشراً بواسع رحمته : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » ، ويقول جل جلاله : « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم » .

وتفيد الآية الأخيرة أنه كما يقال فى حق العبد : تاب إلى ربه ، أى رجع عن ذنبه ؛ يقال فى حق الله جل وعلا : تاب على عبده ، بمعنى قبل توبته ، وتوبته تعالى على عبده هى رجوعه عليه بالقبول والمغفرة والتعبير بذلك يفيد معنى سامياً هو تجاوب الله تعالى مع عبده حين يقصده ويرجع إليه ، وهو معنى تردد ذكره فى مواضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى » أى فإنهم إذا استجابوا لى استجبت لهم ، وقوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ؛ لوجدوا الله توابا رحيما » ، وقوله جل شأنه : « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » .

ووجه العظمة فى هذه العبارات القرآنية : أن وجود الله تعالى على هذه الصفات أزلى قديم ، وليس متوقفاً على رجوع العبد وتوبته ، ولكن التعبير بقوله « لوجدوا الله توابا رحيما » أو « يجد الله غفوراً رحيما » ، فيه تصوير بارع لتجاوب الرحمة الإلهية وحضورها رهن مشيئة العبد التائب المستغفر فالله تعالى كأنه يقول لعباده : أنا موجود على صفاتى ، من الرحمة ، والتوبة ، والغفران فلو جئتم إلىّ لوجدتمونى وكأنى أنتظركم وأرقب عودتكم « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

وفى تصوير هذا المعنى أيضا يقول الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه « من تقرب إلى الله شبرا ؛ تقرب الله إليه ذراعا ، ومن تقرب إليه ذراعا ؛ تقرب إليه باعا ، ومن أقبل عليه يمشى ، أقبل عليه يهرول » .

وبهذا يتبين أن التوبة من العبد إلى ربه ومن الرب على عبده ، إنما هى ارتباط متبادل على سنة الرحمة والحكمة من الله ، والترجى والاسترحام من العبد ، وأن أثرها فى نفس العبد ، هى إمساك إيمانه أن يزول أو يتخلخل لو أنه علم أن الله لا يقبله ، فهى توطيد للثقة بالله فى نفوس العباد ، وتطهير لقلوبهم من عوامل الزيغ أو الخروج على الله.

وما دامت هذه الرابطة بين العبد وربه قائمة ، فإن الأفراد بخير وإلى خير ، والمجتمع بخير وإلى خير .

• • •

ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه فتح لهم أبوابا كثيرة فيها تطهير حسى ، وتطهير نفسى ، يجذبهم بذلك إليه ، وطهر قلوبهم من اليأس من روحه : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » .

فالصلوات لا بد فيهن من وضوء ، والله تعالى يقول فى شأنه بعد الآية التى قررت حكمه: « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ، ويقول جل جلاله فى شأن الماء نفسه وماله من أثر فى تطهير الجسم والنفس : « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام » .

والصلاة نفسها تطهير ، وقد شبهها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنهر على باب المؤمن يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فلا يبقى من درنه شىء .

ولو أن المصلى عرف حق الصلاة ورعى هذا الحق فأداها على وجهها ، لكاد يكون من الملائكة المقربين الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فإن الله تعالى يقول : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ويقول : « إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون » ، ويقول : « فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون . ويمنعون الماعون » .

فهذه آيات ثلاث لكل منها توجيه :

فالآية الأولى تفيد أن الصلاة من شأنها النهى عن مواقف الإثم الكبرى التى عبر عنها بالفحشاء والمنكر ، وذلك أن المؤمن إذا وقف مخلصا خاشعا بين يدى ربه خمس مرات كل يوم ، غير ما عسى أن يؤديه من النوافل فى نهاره وليله ، كان له من هذا الموقف الكريم داع ملح يدعوه إلى الفضيلة ، وينهاه عن الرذيلة - وتقول . (داع ملح) لأن دعوته متكررة بتكرر صلواته ، والنفوس تنطبع عادة بما يلقى عليها مرة بعد مرة ،

وتألف ما لعلها كانت من قبل تأنفه ، وقد قيل لبعض المتصوفة : إن فلانا يصلي ولكنه يشرب الخمر ، فقال . ستنهاه صلاته يوما ما ، يريد أن محافظته على صلاته ، ومثابرته على أدائها ستظهر ثمرتها آجلا ، وإن لم تظهر عاجلا.

وفى الآية الثانية يقرر الله تعالى طبيعة الإنسان التى خلق عليها من الهلع والجزع والبخل والمنع ، ويستثنى من ذلك المصلين المثابرين على صلاتهم ، حيث يقول : « إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ». لأن المداومة والمثابرة من أقوى درجات الإيحاء والتوجيه .

أما الآية الثالثة ، فليست ـ فيما نرجح ـ تتحدث عن تفوتهم الصلاة سهوا ، أو عن يتشاغلون عنها ولا يهتمون بها حتى تصبح فى مرتبة الشئون المغلوبة التى تنسى ولا يلتفت إليها ، ولكنها تتحدث عن الذين ينسون مقتضيات صلاتهم وما يجب أن يكونوا عليه من الإخلاص لله ، والرفق بالمجتمع ، فتقول : الويل كل الويل لمن كان همهم من صلاتهم أن يقوموا ويقعدوا ، ويدخلوا المسجد ويخرجوا ، وهم مع ذلك ساهون عن مقتضى توجههم إلى الله ، ووقوفهم بين يديه ، يسمحون لأنفسهم أن يكونوا مرائين متظاهرين ، مع أن الصلاة أبرز شعائر التوحيد ... والإخلاص ، ويرضون لأنفسهم أن يكونوا بخلاء « يمنعون الماعون » أى يضنون بحاجات الناس أن يعاونوهم عليها ، ويتمسكون ، فلا يدورون إلا حول أنفسهم ، وفى فلك مصالحهم الخاصة .

هذا هو شأن الصلاة وما لها من تربية وتهذيب ، وما فيها من تطهير للمؤمنين بها ، الخاشعين فيها ، من أدران الفحشاء والمنكر والهلع والجزع والمنع والرياء والأثرة .

وإذا كان للصلاة هذا الأثر البعيد ، فإن للزكاة أيضا أثرا طيبا فى إصلاح النفوس وتطهيرها من عوامل الشح والأثرة ، ولذلك يقول الله عز وجل : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

وليس المراد ـ فيما نرجح هنا أيضا ـ أن الجزء المأخوذ على وجه الزكاة يطهر المال فكأنه هو نفايته ورذاله ، ولكن المراد ـ والله أعلم ـ ما للزكاة من أثر فى استلال عوامل الشح والحرص من المعطى ، وفى استلال عوامل الحقد والحسد من الفقير ، وأن هذا وذاك من شأنهما تزكية المجتمعات وتطهيرها مما يفسد جوها ، ويشقى أهلها ، وقوله تعالى : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » يراد به ـ والله أعلم ـ الصلاة بالمعنى اللغوى ، وهى الدعاء بالرحمة والأمن وقرار النفوس وقرة العيون ، وهذا الدعاء من الإمام العادل ـ ولا سيما إذا كان رسول الله

صلى الله عليه وسلم - إنما ينبع من رضاء نفسه بمجتمعه، وتجاوبه معهم تجاوب المتحابين، فهو يعود عليهم بالطمأنينة والسكينة والأمن والرضا.

فهذا لون آخر من ألوان التطهير والتزكية.

وفي الحج تطهير كذلك، فإن الحج المبرور يمحو الله به الخطايا ويطهر المؤمن من الذنوب كلها، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وأحداث الدنيا تصيب المؤمن فيصبر ويكافح ولا ييأس، فيجعل الله له بها كفارة وأجراً حسناً، حتى الشوكة يشاكها، ولا سيما أهل الجهاد بأنفسهم أو أموالهم أو آرائهم وأقلامهم في سبيل الله: «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون».

محمد محمد المدني

قال ذو الإصبع العدواني في الاعتداد:

لي ابن عم على ما كان من خلق ... مخالف لي أقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالني دونه، لا بل خلته دوني
إنك إلا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حيث تقول الهامة اسقوني
إني لعمري ما بيتي بذي غلق ... على الصديق ولا خيري بممنون
ولا لساني على الأدنى بمنبسط ... بالفاحشات ولا فتكي بمأمون
عني إليك فما أمي براعية ... ترعى المخاض ولا رأيي بمغبون
لا يخرج الكره مني غير مأبية ... ولا ألين لمن لا يبتغي ليني

نفحات القرآن

نعمة المال والبنين

شقوة على المنافقين والكافرين

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

(ا) ولا تعجبك أموالهم وأولادهم
(ب) إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا
(ج) وتزهق أنفسهم وهم كافرون .

١ - عرض القرآن لذكر المال والبنين فى كثير من مقاماته والمفروض أن للمال والبنين فى قوام الدنيا ، ومباهج الحياة شأنا لا يعدله شأن .

وإذا كان مطبوعا فى غريزة الإنسان أن الحياة أعز شىء يتعلق به ، وأن روحه أثيرة عنده على كل ما فى الوجود : فإن ما يلى ذلك فى الأهمية عنده بحكم الغريزة هو ماله وولده بل قد تتغالى نزعة الإنسان فى الحرص عليهما حتى يضن بهما على كل غاية تقصد منهما فى جوانب الدنيا .

بل حتى يصير المرء فى اعتبار نفسه أرخص من ماله وولده ، فيفتديهما أحيانا بروحه التى هى أعز لديه مما فى الوجود حسبما قررنا بحكم الغريزة .

ومن إشادة القرآن كثيراً بالأموال والبنين ندرك مجاراته للغريزة فى تقديرهما كنعمة كبرى ...

وندرك أن امتنانه علينا أحيانا بهذه النعمة : توجيه إلى صيانتها عن الإتلاف ، وسوء التصرف ، والخروج بهما عن مسالك النعمة فيما يراد منهما ، وفيما تحاط به من وسائل الرعاية لحق الله الذى تفضل بها على عباده .

٢ - وقديما كان يدور بخواطر الناس ما يدور بخواطرنا اليوم نحو الكافرين ، والمنافقين ، ومن إليهم بالنسبة لتوافر النعم عليهم بالمال والبنين ، وسواهما ...

فهم - لاشك - أعداء الله ، وجاحدون لرسالاته أو لبعضها . . وهم مع ذلك يرفلون فى نعم سابغة .

ثم هم يتمادون فى غرورهم ، وتغريرهم لأنفسهم بأن الله يكرمهم بالعطاء ، لأنهم أحق به من سواهم ، ولو كان الله ساخطا عليهم لمنعهم هذا العطاء ، أو سلبه منهم حينما - يكونون على غير الحق - منذ كانت فى الدنيا رسالات ، وبعد أن ختمت الرسالات بمحمد ابن عبد الله ! !

وإزاء هذه الخواطر كان من الإرشاد التحفظى بالنسبة للنبى - صلى الله عليه وسلم - وهو إرشاد تعليمى له ، ولأمته جميعا - قول الله تعالى « ولا تعجبك أموالهم وأولادهم » .

فليس مظهر الأموال والأولاد مغنيا عن أولئك المخالفين لله فى دينه شيئا من عذابه ولا مطمئنا عليهم هنا أو هناك .

٣ - وبين الله فيما بقى من حديثه حكمه فى توفير الأموال والبنين لهؤلاء المستهترين بدعوة الله - فقال « إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا » .

حيث يكون حرصهم على المال والولد مشغلة لهم عن صفو المتاع بهما فى وجوه الخير الصحيح .

بل يكون النصب ، والكدح مكابدة شاقة تلازمهم فى الجمع ، وفى التنمية ، وفى الخوف دائما من النقص .

فتلك الهموم هى النتائج التى تحدق بهم من جانب الأموال والأولاد . . حيث لا ينتمون إلى دين يخفف من حدتهم فى الحرص ، ولا يرطب صدورهم بالصبر على ما يصيبهم فى شىء من هذا .

لأنهم لا يعولون على ثواب ، ولا يؤمنون إيمانا حقا بما وراء الدنيا من عواقب الآخرة .

٤ - وبين الله كذلك أنه أنسام حسن التفكير فيما بأيديهم ، فهم يلهون به حتى تزهق أنفسهم بالموت ، ويدركهم على كفرهم .

ومن هذا يبدو أن الانهماك المفرط عكس عليهم مظاهر النعمة ، حتى جعل حاضرها ومآلها آلاما وخسرانا .

أما من ترطبت نفسه بنسمات الدين ، ونظر إلى ما بعد الدنيا من عذاب أليم ، أو نعيم مقيم ، فإنه لا يبيع نفسه لدنياه ، ويقتصد فى حرصه ، ويتعلق كثيراً بما هو أبقى عند الله ، ويكون نشاطه فى كسب الدنيا ، والمتاع بالمال والولد ممزوجا بعمله للآخرة .

وقد تكرر هذا السياق فى آية أخرى من سورة التوبة نفسها ليؤكد الله فى أنفس الناس هذا التذكير ، ويقاوم به ما يتغلب على النفوس من التعلق بمتع الحياة أكثر مما ينبغى .

كما ذكره الله فى نهى صريح لرسوله بالذات ، ولأمته بالتبع ، فقال :

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم - كثيرين - زهرة الحياة الدنيا ، لنفتنهم فيه » .

ومعلوم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يكن عالق الذهن بنعيم الكافرين والمنافقين، ولكن غيره من الناس كان ، وسيظل يتطلع ، ويرغب ، ويطمع فى مثل ما عند أولئك .

فجاء النهى للنبي تحفظاً ، وتربية ، وجاء لغيره فوق ذلك زجراً ، وتهذيباً ، وتبرئة من لوثة الأطماع ، والتطلع وغبطة الكافرين والمنافقين على ما هم فيه ظاهراً ...

حتى لا يتسرب إلى نفوس المؤمنين ، أو لا يتغلغل عند بعضهم شغف بما ليس فى أيديهم من أعداء الله .

٥ - والله يبين لرسوله ، ولكل مستجيب لدعوته أن هذا المتاع إنما هو زهرة تلوح فى الدنيا ، وهى عرض غير مستقر ، فهو كما نشأ مسبوقا بعدم : صائرا ولا محالة إلى فناء ... والظفر بهذا المتاع ليس تكريما للمنافقين والكافرين ... وإنما هو اختبار ، وكشف يظهر الله به ما يعلمه عن نفسية هؤلاء من تمرد ، وجحود ، ويستدرجهم به إلى التفكير ، وحسن الاختيار ...

فإن لم يفعلوا خيراً لأنفسهم ، كان هذا النعيم تسجيلا لجحودهم فى الدنيا ، ووبالا فى الآخرة . والبصراء من الناس لا يخدعون أنفسهم بحظ يعقبه بؤس ، ولا يلهيهم ماتراه العين عما تفطن إليه البصيرة - خصوصاً إذا كان تذكير القرآن متوالياً ، وفى أساليب شفافة ومتنوعة ، كلها يعرض لما يخالجنا من هواجس الفكر فى حياة المترفين من خصوم الدين الحق .

ومن هذه التوجيهات كذلك « لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » فأولئك ينطلقون فى دنياهم مرحين ، ويسبحون فى جوانب الحياة لاهين ثم مأواهم الذى ينتهون إليه ، ويستقرون فيه هو جهنم على تعدد طبقاتها ، وتنوع العذاب الشديد فيها ..

ولئن كانت للمؤمنين حظوظ فى الدنيا كذلك فالفرق أن الإيمان سياج من البطر ، وأن المؤمنين برشدهم يميزون الحق من الباطل ، ويجعلون دنياهم وسيلة إلى آخرتهم وبهذا الاتجاه يجمعون بين خيرى الدنيا والآخرة ، والله تعالى يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولكنه لا يعطى الآخرة إلا لمن يحبه ، وهم المؤمنون .

وهم الذين قال فيهم « ومن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » .

فهذا وعد الله لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها .. وليس حتما فى جانب الإيمان ، ولا لمن أراد الآخرة أن يكون المرء متبتلا ، ومعتزلا للدنيا ، راغبا عنها ، بل يكون قائما فى حياته على جادة معتدلة ، فيستوفى حظه من الدنيا فى ضوء الدين وهديه ، حتى لا يتخبط فى حياته خبط العشواء فى ظلمات الطريق .

ويكون فى تدينه ، وفى مسلكه الحيوى مصقولا أليفا ، غير مترمت ، ولا متشائم .

وما دامت نفسه شابة على غرار الدين ، وناشئة فى حوزته ، فنى وسعه غالبا أن يؤثر بروحه الطيبة فيمن حوله ، وفى مقدوره أن يتحاشى المساقط وراء الغواة ، المستهترين الغافلين .

٦ - بين الإنسان وغيره علاقات ، وفى جانب هذه العلاقات تبدو النزعات المستورة فى طوايا النفوس ، ويكون التأثير على الغير منوطاً بقوة الروح واعتداد المرء بنفسه ومبدئه ، فمن طهرت نفسه حقا ، وتسامت روحه عن الهبوط ، واتجه إلى المستوى الرفيع استطاع أن يكون متبوعا لا تابعا ، وأخذ بيد غيره عن طريق الإرشاد ، والقدرة به فى مسلكه العملى إلى مكارم الخلق ، وشرفات المجد ، ومناقب الوطنية .

ولذلك نرى للمصلحين جهاداً دائبا فى إصلاح من حولهم ، ومن يتصل بهم ، وهذا هدف يقصده الدين من كل ذى عقيدة ، وشعور بواجبه الاجتماعى ، نحو أخيه المسلم ، بل نحو أخيه الإنسان أينما كان ؟ ؟ .

وسبيل ذلك أن يكون المسلم فى غير معزل عن الدنيا كما يزعم المترهبون ، أو بعض المتصوفين .

وحينما يتحدث القرآن عن المال والولد ، وينكر على أناس أن يستعبدهم المال والولد فإنما يريد ألا يستكين المرء إلى ملابساته الخاصة ، ويريد أن يكون للإنسان بروز فى جوانب المجتمع ، ليستمر بقاء الناس فى صلاح من الأمر ، ورفاهية فى الحياة ، ويكونوا أوفياء بعهد الله فى عمارة دنياهم ، كما استخلفهم فيها لذلك ...

وهل يقصد الدين فى تشريعه كله غير سعادة الناس ؟ « فما لهم لا يؤمنون » . « وإذا ذكروا لا يذكرون » ؟

عبد اللطيف السبكى

بين الشرق والغرب

نظرية الفروق الجنسية فى ضوء الإسلام

للأستاذ محمد رجب البيومى

يقول المستشرق الانجليزى الكبير مستر جب فى كتابه (حيثما يكون الإسلام) :

« ولكن الإسلام ما زال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة ، فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح نجاحا باهراً فى تأليف الأجناس المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة ، فالجامعة الإسلامية العظمى فى إفريقية والهند وأندونيسيا ، بل تلك الجامعة الصغيرة فى الصين ، وتلك الجامعة الضئيلة فى اليابان ، لتبين كلها أن الإسلام ما زالت له القدرة التى تسيطر كلية على أمثال هذه العناصر المختلفة الأجناس والطبقات ، فإذا ما وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس ، فلابد من الالتجاء إلى الإسلام لحسم النزاع » .

وكلام المستر جب واضح لا لبس فيه ، فهو يعلن فى صراحة أن مبدأ الإسلام فى المساواة هو الحل الأوحد الذى يقضى على التنافر المتطاحن بين الأجناس والشعوب ، وأنه وحده لا سواه الذى يستطيع أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة إذ ينظر إلى بنى الإنسان نظرة واحدة لا يختلف فيها بعيد عن قريب ، والمدهش حقاً فى منهج الإسلام أنه صاحب القانون الأوحد الذى جاهر فى أعظم أيام ازدهاره بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لعربى على أعجمى إلا بتقوى الله ، وأن كل الناس لآدم وآدم من تراب ، مع أن الذى يتتبع آراء الدول المتغلبة قبل الإسلام وبعده فى إبان رقيها الثقافى أو السياسى يجد كل شعب يخلع على جنسه من عوامل التفوق ، وطهارة السلالة ونقاء المعدن ما لا يمكن أن يخلص لسواه من الأجناس ، حاشا الإسلام فقد جاء ليقدم بلالا وصهيباً وسلمان على صناديد العرب من أمثال أبى سفيان ... لقد ازدهرت الثقافة الإغريقية ازدهاراً صار حديث الأجيال المتغنية بفلسفتهم وآدابهم حتى عزى إليها فضل النهضة العلمية الأوربية ، ولكن أصحاب هذا الارتقاء الفكرى وقد نظروا إلى أنفسهم بقداسة وتعاظم ، فأعلنوا أن ما عداهم من الشعوب بربرى متوحش وجاء أفلاطون ليقسم الناس فى جمهوريته إلى طبقات من السادة والعبيد فيختص بالسيادة

والحكم أناسا وبالخدمة والاستعباد آخرين، ثم تابعه أرسطو فى كتاب السياسة فأعلن فى قسوة أن للإغريق على المتوحش حق الإمرة، وأن العبيد إذا عوملوا بالرفق صاروا سفلة وقحاء، وأن الآسيويين يطيقون استبداد الحاكم وجبروته، أما الإغريقيون فأحرار أباة وأن شعوب الأرض الباردة أقل ذكاء وأكثر شجاعة من غيرهم، وأن اليونانيين أفضل الناس على الإطلاق، وقد اشتهر كتاب أرسطو فى السياسة وتناقل أكثر العلماء آراءه كحق صريح لا يقبل التأويل.

ثم دار الزمان فتألقت السيطرة الرومانية وخبا مشعل الإغريق إلى أمد ما، فأخذ الرومانيون يدعون أن كل من لا ينتمى إلى الامبراطورية بربرى متوحش وأنهم وحدهم أصحاب السمو والارتقاء وأن جيرانهم الأدنين من الجرمان والصقلب والكلت أجناس منحطة متقهقرة! وقد نسى الإغريق والرومان معا أن الحضارة الأولى فى طريق الإنسانية كانت شرقية لا غربية وأن مبادئ الفلسفة نمت على ضفاف النيل، وأن الحروف الأبجدية لديهم مستوردة من لبنان وسوريا أيام الفينيقيين! ولكن الحق شىء والغطرسة الكاذبة شىء آخر عند أولئك وهؤلاء.

فلما أشرق نور الإسلام كان مبدؤه الإنسانى الأوحد هو المساواة وكان تطبيق عمر لهذا المبدأ المثالى فى عصر القوة الباهرة عجبا من العجب فقد تداعت دولة الفرس تحت معاول العرب وترنحت امبراطورية الروم بقوة الإسلام ووقف أمير المؤمنين فى أوج عظمته وباهر قوته ليطبق المساواة مهتديا بكتاب الله ومتبعا نهج رسوله الكريم.

لقد جهر الرسول الأعظم بتقرير حق المساواة فى حجة الوداع حين قال فى خطبته الرائعة: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت اللهم فاشهد». ورأى عمر شيخا ضريرا يسأل على باب، فسأل فعلم أنه يهودى فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال: «انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخزيه عند الهرم».

«وحضر ببابه جماعة من أشراف قريش منهم سهيل بن عمرو بن عبد شمس خطيب قريش وعيينة بن حصن رئيس فزارة

وأبو سفيان بن حرب زعيم قريش قبل الفتح ومعهم نفر من العبيد والموالى ممن شهدوا بدرا، فطلبوا الإذن. فخرج الآذن يدعو بلالا فعمارا فصهيبا فسلمان وترك السادة فغضب أبو سفيان وقال لم أر كاليوم يؤذن للعبيد ونترك، ليخيل إلى أن حجارة الجلهتين لو استأذنت لتقدمت. فقال سهيل فى أناة لم تتمعر وجوهكم يا قوم؟ دُعوا ودُعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكثر».

هذه مبادئ الإسلام ضاءل من تأثيرها النفاذ أن انحرف عنها خلفاء بنى أمية حين تعصبوا للعرب ظالمين، فسمحوا لغيرهم أن يناصبهم العداء، ثم ظهرت الشعوبية البغيضة فنشأ صراع آثم ينأى عن الإسلام فى لبابه ويرتد إلى دعوى الجاهلية فى التفاخر بالأحساب والأنساب، وكانت كارثة تحملها الإسلام مظلوما إذ حاد عن هديه تابعوه، ثم حصحص الحق بعد لأى، فعرف المسلمون نهجهم القويم، واعتنقوا المساواة النزيهة مبدءا ينبع من قرآنهم الكريم لا بضاعة مستوردة من الثورة الفرنسية كما يزعم بعض من يجهل تعاليم دينه مؤثرا أن يكون ذيلا لأعدائه لا رأساً فى ذويه!

لقد نادت الثورة الفرنسية بمبادئ الحرية والمساواة والإخاء لتظل حجرا محجورا على الأوربيين دون الشرقيين، فالحرية للغرب وحده، أما دول الشرق فلها الاستعباد والذل والاحتلال، وقد شاعت فى أوربا الحديثة نظرية الفروق الجنسية، بل إن أمريكا نفسها تجعل الزنوج فى بلاد الجنوب موضع احتقار الجنس الأبيض، ولا يزال الرئيس الأمريكى يفاجأ كل يوم بمآسى التعصب الجنسى بما اشتهر أمره واحتاج إلى علاج سريع.

وسنلم الآن بخلاصة موجزة لنظرية الفروق الجنسية ومدى تأثيرها السيئ فى العالم الإنسانى ولعل من بعض كوارثها الدامية أن أشعلت حربين عالميين تقهقرت بهما الحضارة إلى الوراء كثيرا، وصحبتهما اللعنات السوداء من أفواه الثواكل والأيامى والأيتام، إذ حصدت ملايين الأرواح وتداعت آلاف المنازل والقصور.

لقد نادى الكونت دى غوبينو الفرنسى فى القرن التاسع عشر بنظرية الأجناس البشريه فجاهر بأن تطور تاريخ الشعوب هو تطور العرق ذاته وأن الأمم ذات البشرة البيضاء هى السباقة دائما فى مضمار الرقى، وزاد فجعل الجنس الأبيض متفاوتا وفق نقاء الدم فنه الأمثل الأعلى، ومنه ما دونه فى السمو والارتقاء إلا أنه على تفاوته فوق الأجناس جميعا، وقد فلسف نظريته فلسفة منطقية، ونستطيع أن نفهم خلاصتها مما نشره

الأستاذ ما جد بهجت عنها بمجلة الرسالة العدد ٦٦٩ ، ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٦ حيث قال في بسطها :

« إن المخلوقات من حيوان ونبات وجماد تخضع لقانون طبيعي أزلي يتميز بعضها عن بعض فهناك فصيلة خير من فصيلة ، وعنصر خير من عنصر ، وبطون خير من بطون ، ففي الحيوان ترى الخيول العربية أفضل من غيرها ، وفي النبات ترى الورد الجوري له رائحة زكية هي أعبق وأشهى من غيرها ، وفي الجماد تجد للفولاذ متانة تفل الحديد ، كذلك الإنسان ـ وهو من عنصر الحيوان لبعضه تفوق على غيره ، وهذا الإنسان المتفوق إنسان أعلى ، ويكاثر عدد المتفوقين في شعوب دون شعوب ، فبطبيعة هذه الحال تكون هذه الشعوب التي كثر أفرادها المتفوقون شعوبا عليا ومن حقها السيطرة والنفوذ .

وتعتمد النظرية في إثبات دعواها على عوامل منها :

١ ـ أن القدرة العلوية شاءت أن تختار عنصراً متفوقا من بني الإنسان لتعهد إليه بالإدارة والقيادة في العالم .

٢ ـ إن العلم في ذاته دافع إلى السيطرة والغلبة فإنه يسلم صاحبه وسائل ارتقائه وسموه .

٣ ـ أن التاريخ يحدثنا عن الأبطال وحدهم فهم السادة المطاعون .

٤ ـ أن الواقع يصف لنا حاجة الأمم الماسة إلى التوسع وبسط النفوذ نتيجة لزيادة الإنتاج وكثافة النسل .

ثم تنتهي النظرية بالدعوة إلى إنشاء امبراطورية واحدة تضم جميع هذه الشعوب التي كتب لها ابيضاض الجلد وصفاء الدم فتهيمن على العالم وتسيره بإرادتها الجبارة » .

ومن الواضح أننا لا ننكر تفوق بعض الناس على بعض ، لأمور لا ترجع للجنس والدم بل لازدياد الثقافة وارتقاء البيئة ، وهذا ما عناه القرآن حين قال : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ، والكونت دي غوبينو بمنأى عما نحن فيه لأنه يرجع بالتفوق إلى الدم والعرق وقد نسي أن المدنيات الباهرة على شواطىء النيل ودجلة والفرات وفي سوريا واليمن السعيد قد ازدهرت حين كانت أوربا ذات الدم المزعوم متوحشة تتخبط في عصور الظلمات ، بل إن بغداد العباسية والقاهرة الفاطمية وقرطبة العربية كانت جميعها ترفع مشعل الحضارة الإسلامية وبلاد التفوق الموهوم تضم أناسا عراة يرتدون جلود الذئاب ، ويعيشون عيشة الهمجي المتوحش في أدغال الغابات وظلمات الأحراش ، ومن المؤسف أن نظرية

الكونت قد وجدت صداها الرنان فى أوربا بنوع عام، وفى ألمانيا بنوع خاص إذ وفدت إليها بعد الوحدة الجرمانية وتطلع ساستها إلى مشاركة انجلترا وفرنسا وهولنــــدا فى مستعمراتها الشاسعة عن طريق الغصب والاستغلال، وقد تأثر بها فردريك نيتشه فأوحت إليه ببعض آرائه فى السبرمان، وأخذ الشباب الألمانى بتأثير هذه الأكذوبة يغنى نشيد «ألمانيا فوق الجميع»، ثم اندفع متهوراً إلى تأجيج حربين كبيرتين عادتا على الإنسانية المعذبة بالهول والشقاء!

لقد كان من الغريب الشاذ أن تدعو نظرية الفروق الجنسية إلى الوحـــدة الجماعية فى امبراطورية تضم الشعوب البيضاء وتبسط سيطرتها على الشعوب الملونة وإذ ذاك - فى منطق الكونت وأشياعه - يستتب الأمن حيث يخضع الضعيف الأبله الجاهل للقوى العاقل العالم! وتمضى القرون المتتابعة على تأثيل هــذه الامبراطورية وتثبت دعائمها فى الوجود، فيعم الاستقرار.

ولكن مرور نصف قرن فقط قد عصف بآمال عشاق هــذه النظرية الخرقاء، وجعل أشياعها من متطرفى الألمان يتحسرون لخيبتهم المريرة فى حربين هائلتين وثبت للعالم الإنسانى كافة أن أسطورة التفوق حلم مجنون عصف برأس استقراطى نشوان وجعل المنصفين من كتاب أوربا ينظرون إلى أساس السعادة الإنسانية من جديد، فيعرفون أنه فى إنصاف الشعوب وتقرير حق المساواة كما شرعها الإسلام. ولذلك أصاب المستشرق الانجليزى الأستاذ جب مقطع الصواب حين قال: «إن الإسلام مازال فى قدرته أن يقدم للإنسانية خدمة سامية جليلة فليس هناك أية هيئة سواه يمكن أن تنجح، نجاحا باهرا فى تأليف الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسها المساواة».

وتلك كلمة حق تزرى بجميع ماصاح به أنصار التفرقة من لدن أفلاطون وسقراط إلى ما يردده الآن بعض أعضاء الكونجرس الأمريكى من لغو زائف فات أوانه وانقطع مداه.

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

عبد القاهر الجرجانى وآراؤه فى الشعر والشعراء

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوى

١ — للشعر عند عبد القاهر مكانة رفيعة ، يرى فيه « الحق والصدق ، والحكمة وفصل الخطاب ، ويجده مجنى ثمر العقول والألباب ، ومجتمع فرق الآداب ، الذى قيد على الناس المعانى الشريفة ، وأفادهم الفوائد الجليلة ، وترسل بين الماضى والغابر ، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد ، ويؤدى ودائع الشرف عن الغائب إلى الشاهد ، حتى ترى به آثار الماضين ، مخلدة فى الباقين ، وعقول الأولين مردودة فى الآخرين ، وترى لكل من رام الأدب ، وابتغى الشرف ، وطلب محاسن القول والفعل مناراً مرفوعا ، وعلما منصوبا ، وهاديا مرشدا ، ومعلما مسددا ، وتجد فيه للنائى عن طلب المآثر ، والزاهد فى اكتساب المحامد ، داعيا ومحرضا ، وباعثا ومحضضا ، ومذكرا ومعرفا ، وواعظا ومثقفا »[١] .

ويرى مظاهر البلاغة تبدو فيه جلية قوية ، وهو من أجل ذلك يصلح أن يكون موضع موازنة بينه وبين القرآن ؛ ليتبين بهذه الموازنة موضع الإعجاز فى القرآن ، ويمكن الوقوف على الجهة التى كان منها هذا الإعجاز[١] .

وقد تصدى عبد القاهر للدفاع عن الشعر ، والرد على أولئك الذين زهدوا فى روايته وحفظه ، وذموا الاشتغال بدراسته ، وأورد حججهم فى ذلك ، ورد عليها واحدا واحدا[٢] .

وعرض لتنزيه الرسول الكريم عن قول الشعر ، ورأى سبيل ذلك سبيل الخط حين جعل عليه السلام لا يقرأ ولا يكتب ، فى أن المنع لم يكن من أجل كراهة كانت فى الخط ، « بل لأن تكون الحجة أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أكم[٣] للجاحد . وأقمع للمعاند ، وأرد لطالب الشبهة ، وأمنع فى ارتفاع الريبة »[٤] .

ومعنى ذلك أن الكتابة فى حد ذاتها ليست عيبا ولا نقيصة ، ولكن أمية الرسول أقوى فى الدلالة على رسالته ، مما لو كان قارئا كاتبا ؛ لأن المجال للشك فى رسالته حينئذ

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق من ص ٩ إلى ص ٢٣ .

(٣) أكم : من كعم البعير : شد فاه عند هياجه .

(٤) دلائل الإعجاز ص ٢٢ .

يشتد ويتسع ؛ فكذلك الشعر ، ليس فى حد ذاته عيبا ، ولكن نفيه عن الرسول يؤكد رسالته ، عندما نرى للقرآن هذا الأثر البالغ فى النفس ، وهذا السحر المستولى على القلب ، من غير أن يكون الرسول شاعرا ، ولا القرآن شعراً .

عبد القاهر إذاً ممن يمجدون الشعر ، ويتلمسون ألوان البلاغة فيه ، ويقفون معجبين بما يملؤه من مظاهر الجمال يتذوقون هذه المظاهر ، ويحاولون أن يطلعوا الناس عليها ؛ ليستمتعوا بإدراك الحسن فى بلاغة الكلام .

ويرى أن الموازنة بين الشعر والقرآن كفيلة ببيان تفوق التعبير القرآنى ، وإدراك إعجاز القرآن ، ولكن عبد القاهر لم يطبق هذه الفكرة فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ؛ بل كان يكتفى بالتمثيل لفنون البلاغة بالشعر والقرآن معا ، من غير أن يوازن بينهما ، أو يبين تفوق القرآن ، ولو أنه جعل ذلك من أهدافه لكان قد حقق بالفعل أملا كبيرا فى بيان إعجاز القرآن .

وكان عبد القاهر واسع الاطلاع على دواوين الشعراء ، يقف عندها ؛ ليرى فى أبياتها مظاهر البلاغة ، والخصائص الفنية لفصاحة القول ؛ واستشهد بكثير من أبيات الشعر على الخصائص البلاغية ، وأبدى رأيه فى كثير من الشعراء ، وخص ثلاثة منهم ، فاختار من دواوينهم طائفة من أشعارهم وجدها جديرة بالحفظ والتقدير وهؤلاء الشعراء الثلاثة هم : المتنبى ، والبحترى ، وأبو تمام .

٢ — ويصدر عبد القاهر كتابه : « المختار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام » ، مبينا اللون الذى اختاره من شعرهم ، وسر هذا الاختيار ، إذ يقول : « هذا اختيار من دواوين المتنبى والبحترى وأبى تمام ، عمدنا فيه لأشرف أجناس الشعر ، وأحقها أن يحفظ ويروى ، ويوكل به الهمم ، ويفرغ له البال وتصرف إليه العناية ، ويقدم فى الدراية ، وتعمر به الصدور ، ويستودع فى القلوب ، ويعد للمذاكرة ، ويحصل للمحاضرة ؛ وذلك ما كان مثلا سائرا ، ومعنى نادرا ، وحكمة وأدبا ، وقولا فصلا ، ومنطقا جزلا ، وقد أخرجنا من ذلك من هذه الدواوين خيار الخيار ، وما هو كوسائط العقود ، وأناسى العيون [1] » .

وبدأ عبد القاهر مختاراته بشعر المتنبى ؛ لأن أمثاله أسير ، ومعانيه فيها أغزر ، ومعارفه فى الحكم والآداب أكثر [2] » ؛ ثم ثنى بالبحترى ، وختم بأبى تمام ، لأنه كان على مذهب أستاذه : القاضى الجرجانى ، فى تقديم المتنبى على الطائيين ، ثم تقديم البحترى على أبى تمام .

---

(١) الطرائف الأدبية ص ٢٠١ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

ولا يقف عبد القاهر عند إيراد بيت الحكمة بل يورد ما يكتنفها ، وإن لم يكن حكمة ، وأحيانا يكون المختار كله حكما ؛ بل قد يأتى بشعر المدح . الذى يصور مثلا عليا يحسن أن يقتدى بها ، بل قد يختار رثاء يدل على هذه المثل ، وربما اختار من شعر الهجاء ، ما يمثل رذيلة ينبغى ألا تكون [1] .

وقد يختار من القصيدة بيتا ، أو اثنين أو ثلاثة ، وأقصى ما وصل إليه اختياره من القصيدة ثمانية عشر بيتا .

وقد تكون الأبيات التى يختارها غير متناسب بعضها مع بعض ؛ بل قد يكون البيت فى واد ، وتاليه فى واد آخـــر ، كالبيتين اللذين اختارهما من قصيدة البحترى فى رثاء المتوكل ، وهما .

وهل أرتجى أن يطلب الدم واتر
يد الدهر ، والموتور بالدم واتره
مغلب آراء ، تخاف أناته
إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

فالبيت الأول يذم المنتصر بن المتوكل ، والبيت الثانى يتحدث عن المعتز بالله ، وقبله فى القصيدة بيت يمهد له ، هو :

وإنى لأرجو أن ترد أموركم
إلى خلف من شخصه ، لا يغادره

(١) عبد القاهر الجرجانى للدكتور أحمد أحمد بدوى ص ٢٦ .

وعبد القاهر يقف عند حدود الاختيار ، لا يتجاوزه إلا فى النادر الذى لا يكاد يذكر عندما يعلق أو يشرح :

وما اختاره عبد القاهر يمتاز كله بالسلامة وجمال العبارة ، ولم يشذ عن ذلك إلا النادر ، كقول أبى تمام :

فالمجد لا يرضى بأن ترضى بأن
يرضى المؤمل منك إلا بالرضا

وهو بيت يضرب به البلاغيون مثلا لشدة تماسك كلمات النص تماسكا يجلب له الثقل ، فضلا عما يأتى به تكرير الكلمة من الملل [1]

٣ — وتناثرت آراء عبد القاهر فى هؤلاء الشعراء الثلاثة وغيرهم فى كتابيه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة كما تناثرت فيهما آراؤه فى غيرهم من الشعراء ، وفى الشعر الجيد والردىء .

• • •

فهو يستشهد على القواعد البلاغية بشعر المتنبى ، كلما أمده شعره بنموذج لتلك القواعد ؛ فتراه فى تعريف جزأى الجملة ، وما يستفاد من هذا التعريف يستشهد بقوله :

وتوهموا اللعب الوغى ، والطعن
فى الهيجاء غير الطعن فى الميدان

وعند تناسى التشبيه يورد قول المتنبى :

بدت قمراً ، ومالت خوط بان
وفاحت عنبراً ، ورنت غزالا

(١) المرجع السابق ص ٣٦ — ٤٣ .

إلى غير ذلك ، مما يطول به وجه استقصائه .

وفى كثير من الأحيان لا يقف عند إيراد البيت أو شرحه ، بل يثنى عليه ، ويحلله ، ويبين سر جماله ، فتراه مثلا عند ما تحدث عن الفصل بين الجمل قال : ومن الحسن البين فى ذلك قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا
عفاه من حدا بهم ، وساقا

ثم شرح سر الفصل بين شطرى البيت ، فقال : لما نفى أن يكون الذى يرى به من الدروس والعفاء من الرياح ، وأن تكون التى فعلت ذلك ، وكان فى العادة إذا نفى الفعل الموجود الحاصل عن واحد ؛ فقيل : لم يفعله فلان - أن يقال : فمن فعله ؟ قدر كأن قائلا قال : قد زعمت أن الرياح لم تعف له محلا ، فما عفاه إذاً ؟ فقال مجيبا له :

« عفا من حدا بهم وساقا »[1]

وحينا يوازن بينه وبين غيره من الشعراء ، كما فعل عندما أورد قوله :

يزور الأعادى فى سماء عجاجة
أسنته فى جانبيها الكواكب

مع قول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول عمرو بن كلثوم :

تبنى سنابكها من فوق أرؤسهم
سقفا كواكبه البيض المباتير

إذ مضى فى الموازنة قائلا : التفصيل فى الأبيات الثلاثة كأنه شىء واحد ؛ لأن كل واحد منهم يشبه لمعان السيوف فى الغبار بالكواكب فى الليل ؛ إلا أنك تجد لبيت بشار من الفضل ومن كرم الموقع ولطف التأثير فى النفس ما لا يقل مقداره ، ولا يمكن إنكاره ؛ وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره ، وهو أن جعل الكواكب تهاوى ؛ فأتم الشبه ، وعبر عن هيئة السيوف ، وقد سلت من الأغماد ، وهى تعلو وترسب ، وتجىء وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها فى أثناء العجاجة ، كما فعل الآخران ، وكان لهذه الزيادة التى زادها حظ من الدقة تجعلها فى حكم تفصيل بعد تفصيل ، وذلك أنا ، وإن قلنا : إن هذه الزيادة ، وهى إفادة هيئة السيوف فى حركاتها ، إنما أتت فى جملة لا تفصيل فيها ، فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم فى النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ؛ وذلك أن تعلم أن لها فى حال احتدام الحرب ، واختلاف الأيدى بها فى الضرب اضطرابا شديداً وحركات بسرعة ؛ ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوالا تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة ، والارتفاع والانخفاض ، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل ،

(١) دلائل الإعجاز ص ١٨٤ .

ويقع بعضها فى بعض ، ويصدم بعضها بعضا ، ثم إن أشكال السيوف مستطيلة ، فقد نظم هذه الدقائق كلها فى نفسه ، ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ، ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة ، وهى قوله (تهاوى) ، لأن الكواكب إذا تهاوت اختلفت جهات حركاتها ، وكان لها فى تهاويها تواقع وتداخل ، ثم إنها بالتهاوى تستطيل أشكالها ، فأما إذا لم تزل عن أماكنها فهى على صورة الاستدارة [1] .

وهكذا نرى عبد القاهر مع إعجابه بالمتنبى لم يمنعه ذلك من أن يفضل غيره عليه إذا كان الحق مع سواه .

وفعل ذلك مرة أخرى ، عند ما رأى أن الكلمة تحسن فى موضع ، ولا تحسن فى موضع آخر ، ومثل لذلك بكلمة (شىء) فى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة
تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

قال عبد القاهر : فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ، ثم انظر إليها فى بيت المتنبى :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه
لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم [1]

(١) أسرار البلاغة ص ١٥١ .

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٩ .

وإذا كان شعر المتنبى يحتاج فهمه فى بعض الأحيان إلى روية ، فذلك محمود عند عبد القاهر ، متى كان المعنى الذى يصل إليه القارئ يساوى التعب فى الحصول عليه ؛ لأنه من المركوز فى الطبع أن الشىء إذا نيل بعد الطلب له ، أو الاشتياق إليه كان نيله أحلى ، على شريطة ألا يكون فى الوصول إليه إرهاق يكد النفس على غير طائل ، فعند ما تقف عند قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم
فإن المسك بعض دم الغزال

وقوله :

وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

وقوله :

رأيتك فى الذين أرى ملوكا
كأنك مستقيم فى محال

تجد أنك محتاج إلى تريث وروية لإدراك المعنى الذى قصد إليه الشاعر ، ولكنك بعد أن تصل إلى المعنى لا تندم على الوقت الذى بذلته للحصول عليه ، فضلا عن أن التعب فى الوصول إلى المعنى ليس ناشئا من تعقيد فى اللفظ ، ولا يكلفك فى الوصول إليه عنتا عنيفا ، ومشقة لا تحتمل [1] .

(١) أسرار البلاغة ص ١١٨ .

فإذا كان الخفاء ناشئا من التعقيد لم يرض عنه عبد القاهر وذمه ، وذلك لأن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض ، فاحتاج السامع إلى أن يطلب المعنى بالحيلة ، ويسعى إليه من غير الطريق ، كقول المتنبى :

ولذا اسم أغطية العيون جفونها
من أنها عمل السيوف عوامل

وعلق عبد القاهر على هذا البيت قائلا : وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب مثله ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مماس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ناقص الحسن [1] .

ولا يقف نقده للمتنبى عند حد التعقيد ، بل إنه عند ما أورد قوله :

يترشفن من فمى رشفات
هن فيه أحلى من التوحيد

لم يرقه معناه ، ورأى أن الشاعر أبعد ما يكون من التوفيق ، إذ دعته شهوة الإغراب إلى أن يستعير من الهزل والعبث من الجد ، ويتغزل بهذا الجنس [2] .

بل إن عبد القاهر قد يتعمق فى المعنى ، حتى يدرك لونا من الخطأ خفيا فى شعر المتنبى لا يبدو لأول وهلة ، كما وقف عند قوله :

ولا تشك إلى خلق ، فتشمته
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

فقد رأى فيه عبد القاهر خطأ فى غاية الخفاء ، وذلك أنك إذا قلت : لا تضجر ضجر زيد ، كنت قد جعلت زيدا يضجر ضربا من الضجر ، مثل أن تجعله يفرط فيه أو يسرع إليه ، هذا هو موجب العرف ، وإذا كان كذلك اقتضى قوله : « شكوى الجريح إلى الغربان والرخم » - أن يكون ههنا جريح قد عرف من حاله أن يكون له شكوى إلى الغربان والرخم ، وذلك محال ، وإنما العبارة الصحيحة فى هذا أن يقال : لا تشك إلى خلق ، فانك إن فعلت كان مثل ذلك أن تصور فى وهمك أن بعيرا دبرا [1] كشف عن جرحه ، ثم شكاه إلى الغربان والرخم [2] .

ونحن ، وإن كنا لا نوافق عبد القاهر على هذا النقد ، بل نرى المعنى الذى قصد إليه المتنبى واضحا لا خفاء فيه - نتبين أن حبه للمتنبى لم يحل بينه وبين أن يدل على ما يراه فيه من عيب ونقصان ؟

الدكتور أحمد أحمد بدوى

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٣ .

(١) دبر : به قرحة .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٢٤ .

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٦ — ملكية المـــال

المال - فى نظر الإسلام - كل ما له قيمة شرعية ، أو بعبارة أخرى كل ما له منفعة مباحة تقوم بحسب الحاجة إليها ، أو بحسب ما لها من ندرة ، أو ما بذل فيها من عمل وخبرة ، فالخنزير والخمر وما إليهما من المحرمات لا قيمة لها - فى تقدير الإسلام - لأنها ليست من المباحات ، والعمل ليس وحده هو الأساس لتقدير قيمة الأشياء وإن كان أهم الأسس التى تقوم بها قيمتها ، فندرة الماس بالنسبة إلى غيره من الأحجار الكريمة وندرة الذهب بالنسبة إلى الفضة ، والفضة بالنسبة إلى غيرها من المعادن ، كالنحاس والحديد ، لها دخل كبير فى تقدير القيمة وقياس المنفعة ، والحاجات تتفاوت بين الضروريات والكماليات ، ويختلف تأثيرها فى القيمة على حسب ذلك التفاوت بين درجات الضروريات ودرجات الكماليات . كما يختلف باختلاف مستويات الدخول والقدرات الشرائية والظروف الاقتصادية والاجتماعية ومن رحمة الله بالإنسان أن سخر له كل ما حوله ويسر له كل ما تقوم عليه حياته ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . فالماء . والهواء . وأشعة الشمس . ونور القمر وكثير من النعم العامة التى تقوم عليها الحياة لا تسمى مالا ولا تقوم بمال ، مع أنها إذا قيست منفعتها بمنفعة أنفس ما نشتريه ونقتنيه كان القياس عبثا أو لونا من الجنون والخبل ، ومما يذكر فى هذا السياق أن ابن السماك كان عند الرشيد ورآه يهم بالشرب ، فقال له : هل رسالك يا أمير المؤمنين : بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها . . ؟ فقال : بنصف ملكى . قال : اشرب هنأك الله . فلما شربها قال : أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها . ؟ قال بجميع ملكى . قال ابن السماك : إن ملكا قيمته شربة ماء لجـــدير بألا ينافس فيه ، ويروى أنه قال : إن ملكا يضيع بين بولة وشربة لجدير بأن يزهد فيه . .

ويلاحظ مع ذلك - أن من رحمة الله

كذلك ـ كثرة الكمية فى الأشياء التى تعد ضرورية كالملح والنار والمواد الغذائية. وهذه على شدة الحاجة إليها ميسرة الناس يحصلون عليها بثمن زهيد ، ولولا ما ركز فى طباع بعضهم من الطمع والجشع والأثرة ما وجد الفقراء ما يجدون من جهد وعناء فى سبيل الحصول على القوت ، ولعل هذا بعض ما يفهم من قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، فإن ذلك يفهم منه أن جهد الفقراء وجوعهم سببه صنع الأغنياء وإذا كان ذلك فى المسلمين ـ وهم الذين فرض الله لفقرائهم حقوقا فى أموال أغنيائهم ـ فهو فى غيرهم أظهر وأكثر .

فالوفرة والكثرة فى المواد الغذائية والموارد الطبيعية موجودة فى هذه الأرض التى خلقها الله « وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » ، وفى هذه السماء التى تمدنا بالدفء والضوء والماء المبارك كما يفهم من قوله تعالى : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » ، فما قيل ـ ويقال ـ فى المواد الغذائية والموارد الطبيعية من أن فيها ندرة نسبية ، وأنها لا تفى الزيادة المطردة فى عدد السكان كلام سداه ولحمته الأوهام وتفكير يمليه الشعور بالعجز والقصور ، والمتأمل فى قوله تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » ، وقوله سبحانه : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، يجد صدق ذلك فى التجارب التى رآها الناس وفى الواقع الذى يراه « هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب » ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » .

ولكن الشيطان كما يقول الله فيه : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » ، فالبخل ـ وهو بعض ما يطلق عليه اسم الفحشاء ـ والخوف من الفقر ـ والناس من خوف الفقر فى فقر ـ مما يزينه الشيطان ويحسنه للإنسان ـ ثم الإسراف فى حب المال وما ينشأ عنه أو يتصل به من الطمع والشره كما يفهم من قوله تعالى : « وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما » ، كل ذلك وما إليه يسبب اختلال التوازن فى المجتمع ، وسوء التوزيع فى الثروة وبغى الناس بعضهم على بعض ، واستعلاء بعضهم على بعض ، واستغلال بعضهم لبعض وقد لفت القرآن نظر الناس إلى هذا

الواقع الذى تنطق به الشواهد ، وتتظاهر عليه الأدلة وهو أن المال بكل صوره وأنواعه لله وحده ، فهو فالق الحب والنوى وهو خالق الذهب والفضة ، وهو الذى ينزل الماء من السماء فتحيا به الأرض بعد موتها ، وهو المنعم بكل ما يتمتع به الناس من نعم ، فمن حقه عليهم أن يعبدوه ويحمدوه ، وأن يذكروا نعمه عليهم ويشكروا إحسانه إليهم ويشعروا بأنهم وما يعملون مدينون له بالحياة وبالقدرة على العمل ، فى هذه الحياة ، وإذا كان المقام لا يتسع لعرض الآيات التى تلفت الأنظار إلى ذلك ، فحسبنا من ذلك أن نذكر قوله تعالى : « أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » ، وقوله قبل ذلك : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » ، وقوله سبحانه : « أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » .

١ — ويفهم من هذه الآيات وغيرها أن عمل الإنسان — وإن يكن أمثل سبيل إلى الملكية — لا يعطيه مطلق التصرف وتمام الملكية ، لأن المال فى حقيقة أمره مال الله كما يقول سبحانه : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . والإنسان وما ملكت يداه لله ، بل إنه وعمله كما يقول جل شأنه : « والله خلقكم وما تعملون » ، فالملكية التى تفهم من إضافة المال إليه ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة ، والرزق الذى يسعى إليه ويستولى عليه إنما هو فضل من الله جل شأنه ، وهو بالنسبة إليه مستخلف فيه كما يقول سبحانه : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . وكما يقول جل شأنه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » . فالملكية فى الأرض وفى المال مجرد استخلاف لا يخرج به المستخلف عن طاعة المستخلف وهو الله « الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » .

٢ — وعلى هذا الأساس يجب الحجر على السفهاء استجابة لأمر الله كما يفهم من قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى

جعل الله لكم قياما » . فإن المال عصب الحياة ، بل هو كما يفهم من الآية الكريمة الأس الذى تقوم عليه حياة الناس وصلاح أمورهم وأحوالهم .

٣ — وعلى هذا الأساس ـ كذلك ـ يظهر الفرق بين وضع المال فى المجتمع الإسلامى ووضعه فى غيره من المجتمعات ، فهو كما قلت فى بعض ما كتبت : « ليس ملكا للدولة حتى تجور على الأفراد فتأكل جهودهم وتلغى وجودهم كما هو الشأن فى الشيوعية ، وليس ملكا للأفراد حتى يحق لهم اختزانه واحتجانه أو الاستئثار بمنفعته » . واستغلاله فى وجوه الكسب الحرام كما هو الشأن فى الرأسمالية .

وقد أنذر الله الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بعذاب أليم ، وصور هذا العذاب بقوله : « يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » . أما وجوه الكسب التى أحلها الله ووجوه الإنفاق التى شرعها فنعرض لها فى مقال آخر إن شاء الله .

عبد الرحيم فوده

وثيقـــة همام بن منبه

يحفظ لنا التاريخ وثيقة تاريخية علمية قيمة ، إنما أملاه أبو هريرة على تلميذه همام ابن منبه أحد أعلام التابعين الثقات ، من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جمعه همام فى صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم (الصحيفة الصحيحة) وسماها بالصحيحة على مثال (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ـ وحق لهمام أن يسميها بالصحيحة ؛ لأنه كتبها عن صحابى خالط رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع سنين ، وروى عنه الكثير .

وقد حفظ التاريخ هذه الصحيفة كاملة ، كما رواها ودونها همام عن أبى هريرة رضى الله عنه ، فقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين ، ووجدت لهذه الصحيفة نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، تحت رقم (١٩٨١ حديث) ويزيد الثقة بصحيفة همام ما ثبت من أن الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده ، كما نقل الإمام البخـــارى عدداً كثيراً من أحاديثها فى صحيحه فى أبواب شتى .

(عن كتاب أبو هريرة راوية الإسلام)
للأستاذ محمد عجاج الخطيب

الاسلام وتحديد النسل

للأستاذ محمود الشرقاوى

هل أسميها ، كما يفعل بعض المشفقين من الكلمات الحاسمة الواضحة ، مشكلة « تنظيم النسل ؟ ... » أم أسميها باسمها الحقيقى الحاسم : « تحديد النسل ؟ ... » إنى أوثر الحسم والصراحة ، ولو كانا بعيدين عن الإشفاق والدبلوماسية .

هى مشكلة ، ما فى ذلك شك ، مشكلة حادة تشمل العالم كله بوجه العموم . ووطننا : الجمهورية العربية المتحدة ، بوجه الخصوص . ولكى ندرك وجه الحدة فى هذه المشكلة ، من الوجهة العالمية ، نذكر أن حلقة دراسية أقيمت فى كاليفورنيا ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، لدراسة زيادة النسل فى العالم ، فحذر العلماء البريطانيون والأمريكيون المشتركون فيها من « الخطر الداهم الذى يتهدد البشرية نتيجة الزيادة المطردة الرهيبة فى عدد السكان » .

وقال العالم الذرى (هاريسون براون) : إن سكان الولايات المتحدة سيزيدون إلى مليار نسمة فى منتصف القرن القادم ، وقال الفيلسوف الكبير ، ألدوس هاكسلى : إن التقدم التكنولوجى « العلمى » لن يكفى لمواجهة مشكلة تزايد السكان إلا « بكارثة [1] » ، أو معجزة ، وقدر أن عدد سكان العالم سيرتفع إلى ستة مليارات نسمة فى نهاية هذا القرن ، وأكد ضرورة إقناع الرجال والنساء فى العالم كله بضرورة تحديد النسل .

وكلمات « الخطر الداهم » ، و « المعجزة » ، و « الكارثة » فى السطور السابقة ليست من عندى . بل هى أوصاف جرت على لسان هؤلاء العلماء الكبار .

ومن دلائل الإدراك العام لهذه المشكلة العالمية أن الوكيل المساعد لشئون المنظمات الدولية بالولايات المتحدة تقدم بمشروع دولى لتحديد النسل . وفى هذا المشروع إحصاء يقول : إن سكان العالم تضاعفت نسبة زيادتهم السنوية عما كانت فى سنة ١٩٤٥ .

---

(١) يقصد بالكارثة حرباً ذرية تقتل مئات الملايين من البشر .

وعند مناقشة هذا المشروع فى هيئة الأمم المتحدة ظهر كثير من الحقائق المفزعة عن تزايد السكان ومستوى حياة الناس فى كثير من بلاد العالم : من هذه الحقائق أن الدول « الغير النامية » تفوق فيها نسبة الزيادة عن مثلها فى الدول المتقدمة بنحو ٧٠ فى المائة . وهذه الدول الغير النامية لا تستطيع - بحكم أوضاعها وثروتها - إعاشة هذه الملايين الكثيرة من سكانها ومواليدها عيشة معقولة ، بل تكاد تعجز عن استبقاء الحياة لهؤلاء المواليد .

ومن هذه الحقائق ما أبدته كثير من الدول نحو المشكلة ، حيث ترى هذه الدول : (أن سرعة تزايد السكان قد ترتبت عليها مشاكل خطيرة بالنسبة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وأنه لابد من اتخاذ إجراء عاجل لعلاج هذه المشكلة) .

ومن دلائل الإدراك لهذه المشكلة أيضا ذلك الكتاب الذى أصدره فى السنة الماضية العالم الإيطالى : « كارلو تشيبولا » تحت اسم : « التاريخ الاقتصادى لسكان العالم » . ومن الحقائق المعروفة التى أفادمنها هذا الكتاب فى إقرار وجهة نظره أن الثورة الصناعية أدت إلى الانخفاض المستمر فى نسبة الوفيات بين الأطفال فى الفترة ما بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٥٠ . وبناء على ذلك زاد عدد السكان زيادة فاحشة تصل إلى درجة الخطر على الجنس البشرى كله . وهذا الانخفاض المستمر فى نسبة عدد الوفيات لم يعد قاصراً على الدول الصناعية المتقدمة : « فالدول الزراعية أيضا أصبحت تحصل على أحدث الأدوية والخبرات الفنية والعلمية ، مما أدى إلى خفض نسبة الوفيات بينما نسبة المواليد ما زالت على ما هى عليه » ويسمى الأستاذ كارلو تشيبولا هذه الظاهرة المزدوجة « بالانفجار السكانى » ويضرب لذلك الأمثال فيقول : « ... فى سيلان تم القضاء على بعوض الملاريا فيما بين سنتى ١٩٤٥ - ١٩٥٢ مما أدى إلى خفض نسبة الوفيات من ٢٢ إلى ١٢ فى الألف ، بل إنه فى عام واحد : « ١٩٤٦ - ١٩٤٧ » انخفضت هذه النسبة من ٢٠ إلى ١٤ فى كل ألف . وهنا تظهر أهمية تحديد النسل . ذلك لأنه من المستحيل رفع مستوى المعيشة لمثل هذا الشعب إذا استمرت زيادة السكان فيه بأسرع من تطور وسائل الإنتاج » [1] .

وفى وطننا العربى ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة ، نجد هذه المشكلة قائمة حادة ، فقد أثبتت الإحصاءات أن عدد السكان فيها

---

(١) الترجمة من كتاب الأستاذ « كارلو » للأستاذ رجائى نجيب .

زاد خلال السنوات العشر الأخيرة بمتوسط نصف مليون فرد فى كل سنة : كان سكان الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٢ واحداً وعشرين مليونا ونصف المليون ، فأصبحوا فى سنة ١٩٦١ قريباً من سبعة وعشرين مليونا .!

ويتنبأ الإخصائيون بأن الزيادة فى السنوات العشر القادمة ستكون بمتوسط مليون نسمة فى كل سنة . ! وأن سكان الجمهورية يصلون بعد سنتين إلى تسعة وعشرين مليونا وثلث المليون ، وفى سنة ١٩٧٠ إلى تسعة وثلاثين مليونا ونصف ..! وفى سنة ١٩٧٥ يصل تعدادهم إلى خمسة وأربعين ونصفا ..! وفى سنة ١٩٨٥ يكون سكان جمهوريتنا اثنين وخمسين مليونا ونصف المليون .

الكم والكيف :

وهذه الملايين الكثيرة التى يتوقع ، أو يقرر الإخصائيون أن يصل إليها سكان جمهوريتنا العربية فى هذا الزمن القصير - وهو قصير جداً بالنسبة لحياة الأمم - هذه الملايين الكثيرة لم يكن يضيرنا ، بل لعله كان خيراً لنا ، أن تضمها جمهوريتنا لو أنها تجمع إلى جانب هذا « الكم » الكثير « كيفا » معقولا فى صحته وثقافته ومستوى الحياة التى يحياها . بل لو أنه يجد احتمالا معقولا لاستبقاء حياته واستنقاذها من الموت المبكر وسطوة المرض والحرمان من الغذاء الكافى والرعاية الضرورية . بله فرص الصحة والقوة والحياة المكتملة السعيدة الهانئة والعمر الطويل والثقافة التى لابد أن ينالها فى حياتنا المعاصرة كل إنسان : « فنسبة الوفيات فى البلاد الزراعية ما زالت أعلى مما هى عليه فى البلاد الصناعية حتى يومنا هذا . ففى الوقت الذى نجد فيه أن نسبة الوفيات فى البلاد الصناعية أقل من ١٥ فى الألف نجد أنها فى بلد زراعى كالهند مثلا ١٣٧ فى الألف ، وذلك سنة ١٩٥٠ » . وقد أثير شىء من هذه الأحاديث والأرقام فى « مؤتمر الميثاق الوطنى » الذى عقد بالقاهرة فى ربيع هذا العام .

العبرة ، إذن ، فى سعادة الفرد واستقرار الأسرة وسلامة الدولة وقوتها ورخائها ليس بالكم ، بل بالكيف . ففى إحصاء أصدرته هيئة الأمم المتحدة عن سنة ١٩٦٢ أن أعلى نسبة للولادة فى العالم توجد فى « ساحل العاج » ، وأقل نسبة توجد فى السويد من شمال أوربا ، ولا يمكن أن يقال إن الفرد والأسرة والدولة فى الأولى أكثر سعادة واستقراراً وسلامة وقوة ورخاء منها فى الثانية .

وكانت فى الهند ملايين تسد عين الشمس ، كما يقول المثل ، ومع ذلك رأيناها إلى عهد قريب قبل أن تحقق استقلالها ، يحكمها بضعة آلاف من دولة لا يقرب عدد سكانها من خمسين مليونا .

• • •

هذا وجه المسألة ، أو المشكلة ، الواضح المثير الذى يدركه وينذر به العارفون .

ولكن المسألة لها وجه آخر يمثل الناحية الدينية ، أو الفقهية ، التى تتحكم فى مدارك الملايين من أبناء الوطن العربى حيال هذه المشكلة . والتى نجد مداركهم بسببها مدارك خاطئة . وتدرتهم حيال أوضاعهم الخاصة وأوضاع أسرهم قدرة عاجزة أو مشلولة .

وقد أحسست صرامة هـــذا الإدراك الخاطىء المعوق وقسوته من قضية أسرة دعيت لمناقشتها فى التلفزيون العربى : تتلخص القضية فى مشكلة من هذا النوع تهدد سلامة الزوج والزوجة وستة من أولاد لا يستطيع أبوهم أن يربح فى كل شهر أكثر من اثنى عشر جنيها ، وتجد الأسرة كلها من جهد الحياة وسطوة الحرمان والقلق ما جعل الرجل وزوجه يضيق صدراهما بحياتهما بأولادهما ، فلما سألت الزوجة : لماذا لا تكتفيان بأولادكما الستة . ؟ . هل يمانع زوجك فى ذلك . ؟ . قالت : كلا ، بل نحن متفقان على ذلك ، ولكن : « العلماء قالوا حرام » .

وهنا جوهر المسألة الذى نعالجه فى هذا المقال ، والذى جعلنا نصف هذه المشكلة بأن أساسها الجهل ، فلو كانت هذه الزوجة وزوجها يعرفان حكم شريعة الإسلام الحق فيها لما ضاقت بهما الحياة كل هذا الضيق ، هذا الضيق الذى أوقعهما وأسرتهما فيه حكم الفقهاء لا حكم الله . أو حكم بعض الفقهاء الغير الفاقهين ، هذا البعض من الفقهاء الذين لا يفقهون أوضاع الحياة المعاصرة ومشاكلها ، ولا يفقهون سعـــة الشريعة ومرونتها ومطاوعتها .

ولو أن هؤلاء الفقهاء فقهوا شريعة الإسلام كما فقهها الشاطبى حين يقول : (إنا وجدنا الشارع قاصداً لصالح العباد ، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز) (١) ولو أنهم تمثلوا قول النبى عليه السلام : (إن هذا الدين يسر لا عسر ، وما شادّ هذا الدين أحد إلا غلبه) .

---

(١) الموافقات للشاطبى : ص٢١٣ من الجزء ٢ « السلفية ١٣٤١ » .

لو أنهم فقهوا هذا وفقهوا أن الله قد : « خلق السبت للإنسان وليس الإنسان للسبت » ، كما هي آية الإنجيل ، لسعد الآلاف والملايين من المسلمين بحياتهم وحياة أسرهم وأولادهم .

* * *

تناكحوا تناسلوا :

يستند دعاة : « هذا حرام » ، من الفقهاء الغير الفاقهين إلى حديث النبي عليه السلام : (تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة) ، وزاد بعضهم : (حتى بالسقط) ، ومع أن هذا الحديث لا يحرم تنظيم ، أو « تحديد » النسل فإن إسناده ضعيف (١) .

وهذا الحديث الذي يردده القوم لم يمنع كباراً من العلماء أن يفتوا بجواز التوقف عن النسل في حالات كثيرة ، منها عسر النفقة ومشقة الحياة والسعي على الرزق ، ومنها الخوف على صحة الزوجة ، بل منها خوف المرأة على جمالها . . ! ولو كان الأبوان قادرين على نفقة أولاد آخرين .

كانت الوسيلة الوحيدة المعروفة لمنع الحمل في عصر النبي عليه السلام هي « العزل » ـ أي أن يعزل الرجل ماءه عند المباشرة ـ وفي جواز هذا العزل وردت أحاديث صحيحة (*) ، من ذلك حديث رواه أبو سعيد الخدري : أنه وجماعة من الصحابة سألوا النبي عليه السلام عن العزل فقال : (لا عليكم ألا تفعلوا ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون) (١) .

ومن ذلك حديث جابر رضي الله عنه : (كنا نعزل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والقرآن ينزل) .

وقد روى ابن القيم أن رخصة منع الحمل قال بها عشرة من الصحابة ذكر أسماءهم : والإباحة مذهب الشافعي ومالك وأهل الكوفة والحنابلة ، عند « خوف الضرر » أو عند « الحاجة » ، كما يقول الحنابلة .

أما إباحة المنع عند خوف المرأة على جمالها ، كما أشرنا ، فقد ذكره الغزالي في الإحياء ، ذكر أسبابا للمنع ، منها الحاجة ومشقة الحياة ، ثم قال : (من الأسباب الداعية للعزل : استبقاء المرأة وسمنها لدوام التمتع » (٢) .

---

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالي ، ص ٢٠ من الجزء ٢ « الحلبي » .

(*) راجع فصل « للمرأة والأسرة » من كتابنا « تقويم الفكر الديني » .

(١) ص : ١٠٨ من صحيح مسلم ، الجزء ٤ « باب حكم العزل » وفي هذا الباب أحاديث أخرى .

(٢) ص ٤٨ الجزء ٢ « دار الكتب العربية » .

والغزالى حين يجعل من الأسباب التى تبيح تحديد النسل : « استبقاء سمنة المرأة » إنما يقصد ، بلا شك ، الإبقاء على جمالها ، لأن سمنة الجسم فى ذلك الوقت كانت من مميزات الجمال ومقاييسه عند المرأة والرجل .

وإذا كان « العزل » هو الوسيلة الوحيدة التى كان يعرفها المسلمون على عهد النبى ولم يمنع ممارستها ، فإذا ظهرت فى عصرنا أو فى غيره وسائل أخرى يقرر الأطباء أنها لا تضر المرأة ولا الرجل وتحول دون البويضتين أو تفسد عمل إحداهما ـ مما يمنع تخلق الجنين وتكوينه ـ فلا شك فى أن حكم العزل ينسحب على هذه الوسائل أيضا . بل إنها أحق منه بالإباحة لأن بعض الأزواج والزوجات يتضرر من العزل .

إياكم وكثرة العيال :

وآخر ما نذكره ونذكر به هؤلاء القوم أثر عن صحابى جليل القدر ، كان من كتاب الوحى للنبى عليه السلام ، « ينهى » عن كثرة الإنجاب إذا كانت المصلحة فى ذلك : (... عن ذاخر المعافرى أنه شهد صلاة الجمعة ... فأقام المؤذنون الصلاة ، فقام عمرو ابن العاص على المنبر فرأيت رجلا ربعة ... فحمد الله وأثنى عليه حمداً موجزاً . فسمعته يحض على الزكاة وصلة الأرحام ويأمر بالاقتصاد و « ينهى » عن الفضول وكثرة العيال ، وقال فى ذلك : (يا معشر الناس ، إياكم وخلالا أربعة فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة ، وإلى الضيق بعد السعة ، وإلى المذلة بعد العزة : إياكم (وكثرة العيال) ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ... إلخ) [1] .

وقد قرأت وأنا أكتب الصفحة الأخيرة من هذا المقال أن وزير الصحة يعد مشروعا ضخما : « لتحديد النسل على مستوى المجتمع كله فى الجمهورية العربية المتحدة » ، إدراكا منه بمدى الخطورة التى تتعرض حياتنا ويتعرض لها مجتمعنا من الإباحة والإطلاق .

وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر كلمة حق فى « مؤتمر الميثاق الوطنى » الذى ناقش هذا الموضوع من قبل . هذه هى الكلمة : « إن تحديد النسل لا يمكن أن يفرض بقانون) .

وهنا يبدو واجبنا ـ نحن رجال الدين ـ واضحا ملحا . فإن مشكلتنا هذه ، كما قلنا ، أساسها الجهل ؟

محمود الشرقاوى

---

(١) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ٢٣٩ طبع ليدن ١٩٢٠ ، والنجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة ص ٧٢ ـ ٧٤ الجزء ١ « دار الكتب المصرية » .

ذو النّون المصريّ
بين التصوّف والأدب

للأستاذ عبد الجليل شلبى

شخصية ذى النون كما تبدو من سيرته والأقاصيص الكثيرة التى نسجت حوله تصور خاصية من أهم خصائص العقلية المصرية وخلقا من أثبت أخلاقهم وأعمقها كما تصور لونا من ألوان الخيال الشعبى المصرى الفنان - ونحن إذ نقرأ سيرة ذى النون العابد المتصوف والآخذ بحظ من الفكر الفلسفى فى عصره - نقرأ فيها أيضا صفات الأدب المصرى والاتجاهات التى يميل إليها المصريون فى قصصهم والشخصية المثالية التى يكبرونها ويمجدونها - فالعقلية الشعبية قد تصور الأشخاص الذين تكبرهم فى صور خيالية شائقة - وليست فى الواقع صورهم ولكنها الصور التى يحبها الناس ويتمنون وجودها .

وقد امتاز الشعب المصرى منذ أقدم عصوره التاريخية إلى وقتنا الحاضر بعمق تدينه وسعة خياله - فهو شديد الإيمان بالغيبيات ويركن إلى المعجزات والخوارق ويميل إلى تصديقها - وهو يترقب عناية السماء عند المشاكل التى تواجهه - وهذه صفة قد تكون عامة فى الشرقيين - ولكنها فى المصريين أثبت وأعمق - والخيال المصرى يمد هذه النزعة الدينية من قديم ؛ فصورها فى أقاصيص جذابة فاتنة ولون قصصه بألوان زاهية ونوع عناصر الحياة فيها فجعلها متباينة الصور والأحداث ، وفى الأساطير المصرية القديمة التى صورت حياة الآلهة فى الدنيا وحساب الناس فى الآخرة دليل واضح على قوة الدين والخيال جميعا عند المصريين .

وفى العصر الإسلامى كانت شخصية ذى النون محوراً لهاتين الصفتين - فهو رجل دين وتصوف أشبع رغبات المصريين وهاج خيالهم فنسجوا حوله أقاصيص كثيرة جعلت سيرته صورة من الأدب المصرى أكثر مما صورت حياته الحقيقية .

ظهر ذو النون فى القرن الثالث الهجرى وتوفى سنة ٢٤٥ هـ - ويقول الكندى : إن المصريين مالوا إلى التصوف منذ نهاية القرن الثانى فذو النون إذن جاء فى موعده إذ ظهر فى الوقت الذى صبت فيه العقلية المصرية إلى مثله - وزاد من قدره أنه كان أستاذاً لكثير من كبار الصوفية الذين كانوا بدورهم أساتذة لصوفية آخرين ، ويقول القشيرى إنه « أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا » .

اسمه ثوبان بن إبراهيم ويكنى أبا الفيض ، وقيل اسمه الفيض بن إبراهيم واشتهر باسم ذي النون ، كان أبوه نوبيا وكان حارسا لبعض المعابد المصرية في إخميم ، وله ثلاثة بنين آخرين ويقال إن ذا النون هذا كان يعرف اللغة المصرية القبطية لغة قدماء المصريين تعلمها من الكتابة التي على المعابد ومن بعض الرهبان الذين كانوا يعرفونها ، ويقال إنه رأى مكتوبا بأحد المعابد ، يقدر المقدرون والأقدار تضحك ، فأعجبته هذه العبارة ، ثم كانت سبب تصوفه وزهده ، وليس من البعيد أن يعرف ذو النون اللغة القبطية ، وهو يعيش بين البرابي ويخالط الرهبان ، وليس من البعيد أن يكون على معبد مثل هذه العبارة ، ولكننا نلاحظ أن القصة تحتذي تماما قصة سقراط إذ رأى مكتوبا على واجهة معبد دلفيا عبارة «اعرف نفسك» فاتخذها أساس فلسفته ، ثم إن ضحك الأقدار وسخريتها من أطماع الناس ليست حكمة عميقة ولا مما يندر سماعه ، وقد سأل بعض الناس ذا النون وهو في حلقة درسه عن سبب توبته فذكر أنه وهو في بعض أسفاره رأى قبرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض فانشقت الأرض وخرج منها سُكُرُّجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة ، وفي إحداهما سمسم وفي الأخرى ماء فجعلت تأكل من هذه وتشرب من تلك فقلت حسبي ولزمت الباب إلى أن قبلني ربي !! ويدل هذا على أن القصة الأولى غير متفق عليها ولكنها أدنى للقبول ومادتها عقلية ، أما هذه ففضلا عن سذاجتها يبدو فيها العنصر المادي وخيالها ساذج . إذ القبرة حتى لو كانت غير عمياء لا تميز بين إناء الذهب والفخار ويستوى عندها حب السمسم والشعير وليس في ثمين الطعام وفاخر الإناء لها تكريم .

وقد كان ذو النون على أي حال ذا مكانة ملحوظة في عصره وله أثر عظيم في الفكر المصري ـ فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات والحب الإلهي والكشف والعلم الباطن [1] ففتح بهذا بابا واسعا للمتصوفة من بعده ، ووضع مادة خصبة للفاطميين وأتباعهم ـ كما أنه أثار خصومات كثيرة حوله واتهم بالزندقة من فقهاء مصر ـ والفقهاء أعداء الصوفية في كل مكان ـ حاربه عبد الله بن الحكم شيخ المالكية وابن أبي الليث شيخ الحنفية والقائل بخلق القرآن وسببت هذه مشكلة أخرى لذي النون إذ رفض الإقرار بهذا الرأي وقد سيق إلى بغداد فسجن هناك مدة حتى أطلق المتوكل

(١) يقال إنه تتلمذ على شقران العابد وقيل على فاطمة النيسابورية ـ ويقال ـ ولعله أصح ـ إنه أخذ عن الرهبان شيئا من فلسفة الغنوصية والأفلاطونية الحديثة .

سراحه وأعاده إلى مصر مكرما وقد أعجب المتوكل وعظه وبكى لسماعه .

أما أسفاره التى كانت مادة خصبة للأقاصيص التى نسجت حوله فهى أسفار واسعة حقا فقد سافر إلى المغرب وبيت المقدس وأنطاكية واليمن ومكة والمدينة عدا تنقلاته الكثيرة فى صحارى مصر وطور سينا ، ويظهر أنه حج غير مرة وفى حجه قابل كثيرا من رجال التصوف فأخذوا عنه واستفادوا من علمه ويذكر القشيرى عددا كبيراً لهؤلاء الذين أخذوا عنه واستفادوا من علمه وتصوفه [١] .

وإذا نحن راجعنا القصص التى نسجت حول رحلاته نجد فيها عنصرين بارزين : هما عنصر الماء وعنصر النساء . وإن كان هناك أقاصيص تخلو منهما .

قيل إنه خرج للحج فى سفينة وكان بها غلام معه بضيعة فى قفص ونام ذو النون فى جانب من السفينة حتى أيقظه ركابها فأخبروه أن الغلام فقد صرة بها نقود له ويتهمه بسرقتها إذ أنهم فتشوا ركاب السفينة جميعاً فلم يجدوها ولم يبق غيره ـ وسأل ذو النون الغلام أحق ما يقولون ؟ فأجاب نعم ـ فلم يقل ذو النون شيئا وإنما انحنى على جانب السفينة فتوضأ من النهر وصلى ركعتين وأشار إلى البحر فاذا هو ممتلىء بحيتان تتجه كلها نحو السفينة فاغرة أفواهها حتى خاف الركاب على أنفسهم وتمنوا لو أنهم لم يقولوا له شيئا ـ وكان كل حوت فى فمه صرة فأخذ ذو النون واحدة منها أعطاها الغلام وقال خذ هذه بدلا من صرتك التى فقدت .

فالنصر المائى كما نرى له أثر ملحوظ فى خيال القصة .

ومرة ثانية وذو النون بطريق الحج فى أرض الحجاز انقطع عن الركب وضل الطريق ، فلما أجهده السير أوى إلى شجرة فى سفح الجبل ليستريح فى ظلالها . وحين غابت الشمس وأظله الليل رأى شابا يخرج من كهف فى الجبل فعمد إلى كومة رمل فركلها بقدمه فانبجست منها عين تبض بالماء فشرب منها وتوضأ ثم قام يصلى ، وقام ذو النون من خلفه وهو لا يشعر به فما زال يتابع صلاته حتى انشق عمود الفجر فنهد الشاب وقال : ذهب الليل بما فيه وأتى النهار بدواهيه خسر من أتعب جسمه فى غير مرضاة ربه ولما أخبره ذو النون بنبئه قال ويحك وهل يقطع الله مدده عن عباده ؟ ثم قال اتبعنى فتبعه ذو النون فكانت الأرض تطوى طيا تحت أقدامهما حتى تراءت لهما القافلة ،

---

(١) كانت هذه الأسفار فرارا من مضايقة الفقهاء واضطهاد الحكام ولعل هذا السبب شوق الناس فى الأقطار الأخرى إلى لقائه .

ودنوا منها ، فقال له هؤلاء قومك فألحق بهم ولم يره ذو النون بعد .

فقد حرصت هذه القصة على إبراز العنصر المائى حتى فى جوف الصحراء . ويبدو أنها وضعت فى وقت متأخر تقدمت فيه الصوفية العملية وأخذ دعاتها يستحثون الناس أن يروضوا أنفسهم على مشقاتها ـ من الخلوة والانقطاع للعبادة وسهر الليل ـ ويتبين لهم ما يترتب عليها من ظهور الخوارق وتذليل الصعاب ـ فهى تشبه أن تكون طريقة مدرسية وقد اختارت عبارات موحية ـ مثل حديث الشباب عن الليل وما فيه من خير ـ ومثل قوله خسر من أتعب جسمه فى غير مرضاة ربه ـ وهذا المنحى التعليمى يبدو فى كثير من قصص ذى النون .

أما العنصر النسائى فيبدو فى قصص أخرى ولكن يلاحظ أن معظم النساء اللاتى قابلهن ذو النون كن نوبيات أو حبشيات أو ذوات لون أسود بوجه عام ، ولعل ذلك بسبب التأثر بشخصية النوبية ولبيان أن سكان الجبال والصحارى أقرب إلى التدين من سكان المدن وقد كانت رحلات ذى النون بين الجبال والصحارى فكان من المناسب أن يقابل بها هذا النوع من النساء كما أنه قابل هناك رجالا أيضا من هذا النوع .

بل واحدة متولهة لاتكاد أن يشغلها شىء عن ذكر الله وقد تحدث إليها فكان من كلامها .

ذكرنا وما كنا لننسى فتذكر

ولكن جمال الحق يبدو فيبهر

ثم أخذت فى الشهيق والزفير وذهلت عنه وعن حديثه .

ورفضت إحداهن أن ترد عليه فلما ألح عليها قالت وما للرجال أن يكلموا النساء لولا ضعف عقلك لشدخت رأسك بشىء .

فالأقاصيص الكثيرة التى حفظتها لنا كتب التصوف عن ذى النون تصور لنا لونا من الأدب الصوفى الشعبى فى مصر وتبرز بوجه خاص ما يمتاز به المصريون من عمق التدين وسعة الخيال .

لون آخر من الأدب تظهره سيرة ذى النون وهى الحكم والنصائح التى أثرت عنه ، ولا نجد ما يحملنا على الشك فى شىء منها ، وهى تصور أكثر من كل شىء تهوين الدنيا وتدعو للعزوف عن متاعها شأن الفكر الصوفى عند جميع المتصوفين . والحق أن أثر ذى النون المباشر فى الأدب بما ترك من نصائح وحكم أقل من الأثر غير المباشر الذى تصوره أقاصيصه المتنوعة ، وعلى أى حال فشخصية ذى النون مزيج من التصوف والأدب !

عبد الجليل شلبى
عضو المكتب الفنى
لمجمع البحوث الإسلامية

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

— ٢ —

وربما كان من الأسباب التى جعلت الشعر الجاهلى لا ينحو منحى الحديث عن الآلهة أن الجاهليين لم يكونوا متعصبين تعصباً أعمى لأوثانهم كما أنهم لم يخضعوا لنظام الكهنوت الذى ساد أوربا فى العصور الوسطى .

ومما يدل على أن الوثنية لم تكن متغلغلة فى حنايا الجاهليين ولا سيما الشعراء منهم ، وأنها إنما كانت محاكاة أكثر منها عقيدة راسخة ، ولا سيما فى أخريات العصر الجاهلى ، لا أدل على ذلك مما ورد فى أشعار جاهلية كثيرة من نظرات السخرية والتحقير للأوثان .

ومن ذلك ما روى أن امرأ القيس قد حطم صنم قبيلته « ذا الخلص » عندما خذله فى الاستقسام ، ونهاه عن الخروج للحرب حين قتل أبوه ، قال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا
مثلى ، وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زوراً (١)

وكذلك ما روى عن رجل من بنى ملكان أنه ذهب إلى صنم قبيلته « سعد » ليتبرك به غير أن إبله قد نفرت وتفرقت فى كل وجه فاستنجد الرجل الصنم فلم ينجده ، فأخذ حجراً ورماه به وهو يقول : « لا بورك فيك من صنم نفرت إبلى » ، فلما جمع إبله ورحل قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
فشتتنا « سعد » ، فلا نحن من سعد

إلى غير ذلك .

أما اليونان فقد كانوا فى جاهليتهم مخلصين فى عباداتهم ومعتقداتهم ، ولهذا شرع هوميروس فى استمداد المعونة من ربة الشعر بل جعلها هى المنشدة صاحبة الفضل وكأنه ينقل عنها ، ويملى على الملأ ما تلقنه من فيض روحها ، إذ يقول فى مطلع الإلياذة :

ربة الشعر عن أخيل من فيلا
أنشدينا ، وأروى احتداما وبيلا

ثم يقول فى مطلع النشيد الثانى والعشرين :

دجا الليل ، والآراب والناس نوم
ولكن « زفسا » نابذ سنة الكرى

---

(١) راجع : الفتوة عند العرب .

ولقد حذا حذو هوميروس أكثر الشعراء في جاهلية اليونان والرومان في مطالع ملاحمهم وقد ظلت محاكاة هذه المطالع عند بعض شعراء أوروبا بعد انتشار المسيحية واختفاء عقيدة ربات الأغاني كما فعل « ملتن » الشاعر الانجليزي في مطلع الفردوس المفقود إذ قال : Sing Heavly Muse (١) .

على حين أننا لا نجد مثل ذلك في مطالع الشعر الجاهلي أو الإسلامي لأن الشعراء لم يجدوا ما يحاكونه غير الغزل والتشبيب .

وكيفما كان الأمر فان أحد من المؤرخين لم يستطيع حتى يومنا هذا أن يجزم بأن العرب في جاهليتهم لم ينشئوا شعراً دينيا يتحدثون فيه عن الآلهة ومناصرتها إياهم ... وقد ذكر ابن الكلبي في كتابه « الأصنام » ما استطاع أن يعثر عليه من أشعار قليلة عن أصنام الجاهلية . ثم أشار إلى تحرج الرواة في العصر الإسلامي وإبادتهم لما ينافى العقيدة الإسلامية وكذلك قال أبو عمرو ابن العلاء (٢) ما انتهى إليكم مما قالت العرب في جاهليتها إلا أقله ، ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير (٣) .

(١) مقدمة الالياذة ص ٢٠٢ .

(٢) توفى سنة ١٥٤ .

(٣) عن يونس بن حبيب . كتاب نزهة الالباب لابن الأنباري .

رأى أفلاطون في خرافات الملاحم :

أما عن الخرافات السائدة والأساطير التي ملأت الإلياذة ، فليست مما يقدح في الشعر العربي خلوه من أمثالها لأنها لا تمت إلى الواقع كما أنها لا تعطى القدوة الحسنة مما حدا بأفلاطون التحذير من إذاعتها ولا سيما بين الناشئين ، استمع إليه في هذا التحذير :

إن أول ما يجب علينا هو السيطرة على ملفقي الخرافات واختيار أجملها ونبذ ما سواه ثم نوعز إلى الأمهات والمرضعات أن يقصصن ما اخترناه من تلك الخرفات ، وأن يكيفن بها عقول الأطفال أكثر مما يكيفن أجسادهم ، إنني أعني ما رواه « هسيوذس » و « هوميروس » وغيرهما من الشعراء .

إن ما يجب أن يلام عليه هؤلاء الشعراء ، هو خلق قصص قبيحة فيها أشنع الكذب ، كما أخبر « هسيودس » بما صنع « أورانوس » وإن « كرونس » انتقم منه .

وكذلك ما روى عن كرونس ، فلو صح ذلك ، وكانت معاملة ابنه له حقائق بينة ، فلا أرى من الحكمة أن تتلى على السذج والأطفال دون أى تحذف ، بل على العكس أرى أنه يجب حذفها بتاتا ، وإذا مست الحاجة إلى تلاوتها فلتتل سرا ، وعلى أقل عدد ممكن .

إن أمثال هذه الخرافات لا يجوز أن تتلى فى مدينتنا ولا تقولن لسامعنا الفتى - إذا أبحنا له سماعها - إنه لم يجن منكرا إذا ارتكب شر الموبقات أو إذا عاقب والده على جرائمه بأشبع صنوف الهوان، لأنه لم يفعل - عندئذ إلا ما فعله كبار الآلهة قبله » (١)

فأى أسف نحس به لفقدان شعرنا العربى أمثال هذه الخرافات ، وهذا رأى أفلاطون فيها ؟.

وأى نقص نشعر به إذا علمنا أن شعراء أوربا الذين حاولوا محاكاة الإلياذة من أمثال « ملتن » لم يتجهوا إلى مثل هذه الأساطير الخرافية ؟ ؟.

الشعر القصصى عند العرب وخصائص الملحمة :

أن الشعر العربى ملىء بأخبار البطولات ووصف الحياة البدوية ، ونكران الشاعر لذاتيته أثناء الإنشاء لأن من خصائص الشعر القصصى أن يتحدث الشاعر فيه عن غيره وإذا اضطر الشاعر للتعبير عن ذاته فبقدر . « وقد كان هوميروس خليقا بالثناء لأنه كان الوحيد من بين الشعراء الذى لا يجهل متى يتدخل بنفسه فى القصيدة ... (٢) ».

والدكتور طه حسين لا ينكر وجود الشعر القصصى فى الأدب العربى بل إنه يعجب من الذين ينكرونه ويغفلون عنه ، استمع إليه يقول : (١)

« خصوم القديم ، وأنصار الحديث ، يزعمون أن الأدب العربى كان حسنا فى عصره وأصبح الآن غير ملائم ، ذلك أن هناك فنونا من الآداب لم يعرفها الأدب العربى .

فالشعر العربى فقير بالنسبة للشعر الأجنبى فليس فيه شعر قصصى ولا تمثيلى كما كان عند اليونان ، وإذن فلا بد من العدول عن هذا الأدب القديم إلى الأدب الحديث .

وهذا غريب ، فلست واثقا كل الثقة من أن الأدب العربى يخلوا من القصص ، وأخشى أن يكون من يجحدون وجود الأدب القصصى عند العرب إنما جحدوه لأنهم لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصى ، فالذين يقرءون الشعر الجاهلى أو ما صح منه ، والذين يقرءون الشعر الأموى كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصى موجودة فى الشعر العربى : فأهم ما يمتاز به الشعر القصصى أن شخصية الشاعر تفنى ، وأن هذا الشعر يكون

(١) ملخص بتصرف من ترجمة جمهورية أفلاطون لحنا خباز ص ٥٨ / ٤٩ الطبعة الثالثة المطبعة العصرية .

(٢) فن الشعر لأرسطو ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٦٩ - مكتبة النهضة ٩٥٣ .

(٣) من حديث الشعر والنثر - مطبعة المعارف سنة ١٩٣٦ .

مرآة لحياة الجماعة . وأنا أستطيع أن أؤكد أنا لا نعرف شعراً يصور حياة الأمة أصدق تصوير ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي . . .

وإذا قرأتم قصيدة من شعر جـــرير أو الفرزدق أو الأخطل فأنتم ترون العرب في البادية وتسمعونهم يتحدثون ، وتحسون حياتهم كما تحسون أنفسكم ، ولا تـكادون تلمسون شخصية الشعراء في أشعارهم ، فإذا لم توجد عندنا « إلياذة » أو « أودسا » فليس من شك أن ما أدته الإلياذة والأودسا قد أداه الشعر العربي القديم من تصوير الحياة الاجتماعية وحياة الأبطال .

ثم من الذي يستطيع أن ينكر أن في أدبنا العربي القصصي جمالا ليس أقل من جمال الإلياذة والأودسا ؟ وليس ذنب الأدب العربي ألا يقرأه الناس ولا يعرفونه .

فماذا ينكر إذن الدكتور طه حسين ؟ ؟ أهو ينكر وجود آلهة في الشعر العربي ؟ إن أحداً لم يقل بهذا ، وإن أحداً لم يعد هذا نقصاً في الشعر العربي اللهم إلا متعصب جاحد من أمثال « رنان » .

أيتحاشى الدكتور طه تسمية الشعر القصصي في الأدب العربي بالملحمة ؟ ؟

لعل أبرز ما يجعله يتحاشى ذلك هو طول القصائد ، فليس في الشعر الجاهلي ولا ما جاء بعده ما تبلغ إحدى قصائده ما بلغته الإلياذة .

طول الملحمة وتعدد قصائدها :

ولكن هل من الضروري أن تكون الملحمة قصيدة واحدة ؟

قال الدكتور زكي المحاسني [1] بعد أن تحدث عن الملاحم في شعر الأندلسيين وخص منها بالبيان ملحمة ابن عبد ربه قال : « فراح ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد بين القرنين التاسع والعاشر للميلاد ينظم ملحمة على بحر الرجز ذي القوافي المنطلقة جاءت في خمسمائة وخمسين بيتاً قسمها على سني الحكم والحوادث التي جرت للملك النـــاصر في الأندلس حتى انتهى حكمه » .

وقد رجعت إلى هذه الملحمة في العقد الفريد [2] ، ومطلعها :

سبحان من لم تحوه أقطار
ولم تكن تدركه الأبصار
أقول في أيام خير الناس
ومن تحلى بالندى والباس

---

(١) من محاضرة في « أدب الملاحم والملحمة الدوبية » مطبعة الأزهر سنة ١٩٦٠ .

(٢) ج ٤ - وابن عبد ربه توفي سنة ٣٢٧ - ص ٥٠٠ إلى ٥٢٧ - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

ومن أباد الكفر والنفاقا
وشرد الفتنـــة والنفاقا

وأكتفي بنموذج من قوله فى أول غزوة :

ثم انتحى جيان [1] فى غزاته
بعسكر يسعر من حماته
فاستنزل الوحش من الهضاب
كأنما حطت من السحاب
فأذعنت مراقها سراعا
وأقبلت حصونها تداعى
لما رماها بسيوف العزم
مشحوذة على دروع الحزم

وهكذا يسير فى سرد الغزوات كل عام إلى عام ٣٢٢ هـ .

ثم أشار الدكتور المحاسنى إلى ملحمة أبى طالب بن عبد الجبار الذى كان يسمى متنبى المغرب فى الأندلس والتى عنى بنشرها ابن بسام صاحب الذخيرة [2] . قال :

« وقد وضع الشاعر الأندلسى هـذه الملحمة الحقيقيـة إبان حروب العرب الأندلسيين مع الأسبان وما كان يدور بينهم من المعارك . ومن هذه الملاحم الأولى الأندلسية اقتبس الشعراء الجوالون من الأسبان والفرنسيين فى القرون الوسطى ملاحمهم . ومنها تعلم أصحاب الشعر (التروبادورى) أناشيد الملاحم » ... وبعد أن سرد عدداً من الشعراء الفرنسيين والأسبان الذين تأثروا بهذه الملحمة العربية قال :

« ولو امتد الزمن بالعرب فى الأندلس فلم يغب عنها حكمهم وملكهم لأمدوا الأدب بالملحمة العربية الكبرى . ولئن رأينا أدبنا فى القديم لم يعرف الملحمة بمعناها فى أدب الغرب ، فقد ازدحم بشعر حربى وقصصى . لكنهم وزعوا المنابع والمصادر ونوعوا الأوزان والأشكال .

ومن هذا الشعر نستطيع أن نقيم أول ملحمة عربية ، وإن لم يكن واضعها واحداً . كما بنيت الإلياذة والأوديسة وهما ليستا لمؤلف واحد ، وإنما نظمهما الشعراء الهوميريون ثم توالت نسبتهما لهوميروس » [1] .

وقال فى موضع ثان : « ولو رجعنا إلى قصائد الشعراء الذين شهدوا المعارك أو وصفوها لرأينا فيها ما يشبه الملاحم عند الأمم العريقة فى هذا الفن » [2] .

وبعد أن ضرب أمثلة من الشعر العربى فى العصر العباسى عند أبى تمام وأبى فراس والمتنبى .. قال :

« لئن كانت تهاويل الأساطير فى الخيال ، وخوارق الحدثان شروط فى الملاحم القديمة

---

(١) إحدى مدن الأندلس

(٢) المجلد الثانى : القسم الأول طبع كلية الآداب ٤٠٥ / ٤٣١ وابن بسام توفى ٥٤٢

(١) ص ٢/٣ . (٢) ص ٤

والملاحم الغربية فإنى لا أرى هـذا جديراً بالملحمة العربية المتيدة ، فإن عصرنا الحاضر لم يعد أهلا للأساطير ، وديننا الحنيف قضى عليها منذ أقدم العصور ، ونهضتنا العربيـة الراهنة ملأى بالحقائق التى لا مكان للخرافة فيهـا »[1].

فالدكتور زكى المحاسنى يعتبر أن الملحمة العربية يمكن أن تؤلف من قصائد عديدة لشعراء عديدين ، وأن الشعر العربى فى ماضيه وحاضره ملىء بقصائد البطولات وأوصاف البيئة العربية ومجتمعها ... التى يمكن أن تكون منها ملاحم . وهو يرى أن مثل هـذا العمل ليس باليسير الذى يستطيع أن يقوم به فرد ، لذلك قال :

« لئن عز على الفرد أن ينهض بصنع الملحمة العربية ، فـا أشد الحاجة إلى هيئة أدبية حرة أوحكومية تؤلف شتات ملحمتنا ، فتجمع موضوع أناشيدها وحوادثها الخارقة من تاريخنا الحافل ، وشعرنا الحماسى والحربى الذى يضمه تراثنا الفكرى على اختـلاف العصور . أما الملحمة الحديثة التى تصور بطولة الحرب على تفارت الأمصار والديار للخلاص من استعمار طويل ، فإن قصصها الدامية ، وروائع وثباتها ستؤخذ من حياة المناضلين ، وفداء الشهداء ، واقتحام المعارك من الرجال والنساء والأطفال فى كل أرض عربية جديرة بالتخليد فى ملحمة منتظرة .

هذه الملحمة ستصور أناشيدها وقصيدها الثورة العربية فى مصر ، وفى سورية ، وسائر ديار العروبة ، والنكبة الكبرى التى وقعت فى فلسطين المغصوبة ، وعدوان الغرب الأثيم على بور سعيد ، وكيف انهزم العدو فارتد مدحورا »[1] .

ومن قبل وجدنا أبا زيد القرشى[2] يذكر سبعة من شعراء بنى أمية ويسميهم « شعراء الملاحم » ويختار من أشعارهم سبع قصائد كبرى تشترك فى تصوير الحيـاة البدوية وما فيها من متع بريئة أيام الصبا ، ويتخللها ذكر وقائع الجاهلية وما كان بين القبائل المختلفة من صراع وإليك هؤلاء الشعراء ومطالع ملاحمهم :[3]

(١) ص٩

(١) ص٩/١٠ ولقد حدثنى الدكتور المحاسنى فى ذلك قال : إنى معتزم عمل ملحمة تضم أشتات التاريخ العربى وتسجل البطولات العربية الإسلامية وإنى قد بدأتها من معركة ذى قار ، وقاربت فملا خمسمائة بيت . وأنا أرجو أن يكون الدكتور المحاسنى مستمراً فى تكملة هذا العمل المجيد .

(٢) فى جمهرة أشعار العرب ـ توفى سنة ١٢٠هـ .

(٣) لفظه « ملحمة » فى عهد ابن زيد القرشى لم تـكن تنصرف إلى معنى الملحمة كما عرفته أوربا حـديثا لأن إلياذة هوميروس لم تـكن معروفة للعرب ، واستعملت اللفظة حينذاك بمعناها اللغوى فلم يكن منتظراً أن نجد خصائص الملحمة الحديثة فيما ساقه القرشى من نمـاذج .

١ ــ الفرزدق :(١)

عزفت بأعشاش وما كدت تعزف
وأنكرت من عفراء ما كنت تعرف

٢ ــ جرير بن عطية الخطفى :(٢)

حى الغـداة برامة الأطلالا
رسما تقادم عهده فأحالا ..

٣ ــ الأخطل :(٣)

تغير الرسم من سلمى بأقفار
وأقفرت من سليمى دمنة الدار

٤ ــ عبيد الراعى :(٤)

ما بال دفك بالفراش مذيلا
أقذى بعينك أم أردت رحيلا ؟

٥ ــ ذو الرمة :(٥)

ما بال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب

٦ ــ الكميت بن زيد الأسدى :(٦)

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها
بطول ، ولا الأحداث تفنى خطوبها

٧ ــ الطرماح بن حكيم :(١)

قل فى شط نهروان اغتماضى
ودعانى هوى العيون المراض

فإذا ما انتقلنا إلى ما بعد العصر الأموى وجدنا قصائد مطولة من أشهرها : « ملحمتا ابن عبد ربه الأندلسى وابن عبد الجبار اللتين أشرنا إليهما ، ومقصورة ابن الحسن ابن حازم القرطاجنى التى بلغت الألف بيت .

وعلى كل ضوء ما تقدم نستطيع أن نطلق لفظ ملحمة على كل قصيدة كبرى أو مجموعة من القصائد تكون موضوعية ذات طابع واحـد فى وصف المعارك والبطولات وتصوير المجتمع ، ثم يكون وصفها بحسب طبيعة موضوعها فنقول مثلا : ملحمة عربية إسلامية ...

سعد الدين الجيزاوى

(للبحث بقية)

---

(١) ١٠٩ من الأبيات .
(٢) ٤٩ بيتا .
(٣) ٥٢ بيتا .
(٤) ٩٥ بيتا .
(٥) ١١٤ بيتا .
(٦) ٥٥ بيتا .

(١) ٤٢ بيتا .

من معانى القرآن

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »

سبحان اسم مصدر يقوم - كما يقوم المصدر - مقام الفعل، ومعناه التنزيه والسمو بمقام الله عن أن يرقى إليه نقص أو عيب أو ما يشبه النقص أو العيب تقول سبحت الله تسبيحا بمعنى نزهته وأبعدته عما لايليق بكمال جلاله وجماله. والإسراء هو السير ليلا. تقول سريت وأسريت بمعنى سرت فى الليل، وإنما ذكر الليل بعد ذلك منكراً للإشارة إلى أن الإسراء كان فى بعض من الليل.

والمسجد الحرام: هو الكعبة ومايتصل بها، والمسجد الأقصى هو بيت المقدس ووصف بأنه « الأقصى » لأنه لم يكن وراءه مسجد آخر:

البركة: النماء وزيادة الخير

والمراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة القرائن مثل قوله تعالى: « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ».

المعنى: التنزيه التام المطلق لله الذى سار بعبده محمد - عليه السلام - فى بعض أوقات ليلة من المسجد الحرام - وهو الكعبة وما يتصل بها فى مكة - إلى المسجد الأقصى - وهو بيت المقدس - الذى بارك الله ماحوله من الأماكن فكثر فيها الخير. وكان متعبد الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان هذا الإسراء ليريه الله بعض آياته ودلائل رحمته به وتأييده له إنه السميع لكل ما يقال، البصير بكل ما يرى ويبصر، ويفهم من هذه الآية ما يلى:

١ — أن اقتران التسبيح بالإسراء يشعر بأن الإسراء كان بالجسد والروح كما هو ظاهر قوله: « بعبده » وأن قدرة الله فوق الشك والتهم. فهو منزه عن أن يوصف بعجز أو نقص.

٢ — أن اقتران المسجد الأقصى بالمسجد الحرام فى هذه الآية وفى تلك الليلة يشعر بما ينبغى لهما فى قلوب المسلمين. فكلاهما بارك فيه كما يفهم من هذه الآية ومن قول الله فى المسجد الحرام: « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا ».

٣ — إن حصول الإسراء فى وقت كان قبل الهجرة وفى ظروف كان النبى والمسلمون يعانون فيها الضيق والألم والأذى من المشركين ... يدل على أنه كان بشرى بأن سلطان الإسلام سيمتد ظله إلى المسجد الأقصى وما حوله من ربوع الشام.

٤ — وقد كان ذلك فى عهد عمر رضى الله عنه وتحققت البشارة السارة ؟

عبد الرحيم فودة

مولانا أزاد والخلافة

للأستاذ عبد المنعم النمر

— ٣ —

أما الرسالة الثانية من مولانا أبى الكلام للسيد رشيد رضا والتى عثر عليها بين أوراقه فتاريخها ٢٨ مايو سنة ١٩١- وهى صادرة من كلكتا كذلك ومكتوبة على ورق كتب فى أعلاه - الهلال - وهو اسم المجلة التى كان يصدرها . وكتب تحت هذا العنوان : « مدير مسئول ورئيس تحرير . أبو الكلام » وكانت هذه الرسالة ردا على رسالة من السيد رشيد رضا ، وقد اعتذر فى أولها عن تأخره فى الرد عليه ، بكثرة مشاغله وأسفاره لحاجات إسلامية ، وقال فيها : إنه مع ذلك سيوجز القول إلى أن يجد فراغا من الوقت ويكتب له فى تفصيل .

وهذه الرسالة أيضا ، تدور حول موضوع الخلافة ، ويظهر أن رسالة السيد رشيد إليه كانت فى هذا الموضوع نفسه ، لما يظهر أيضا أن السيد رشيد أثار فى رسالته ، مساوئ الخليفة والحكام الأتراك ، الذين كانوا يستبدون بالعرب ، ويضطهدونهم ويسومونهم الخسف والهوان حتى اضطروهم لكراهية الخلافة والانفضاض عنها ، وقيام الحركات التحررية للتخلص من حكمها . كما بين فيها أن اتكال المسلمين العرب على دولة الخلافة يدعوهم لإهمال شئونهم ، واستعداداتهم الحربية ، للدفاع عن أوطانهم ، واقترح لذلك أن يهب العرب ، ويقوموا قومة رجل واحد لإحياء مجدهم ... كما اقترح من ناحية ثانية أن يجتمع المسلمون فى مؤتمر عام ، يبحثون شئونهم ، وينظمون جهودهم للنهوض ببلادهم وقد جاء رد مولانا أزاد تعليقا على هذه الاقتراحات . . كما سترى . . وهذا هو الرد :

كلكتا فى ٢٨ مايو سنة ١٩١٣

حضرة المصلح الجليل - متعه الله بطول بقائه -

تحية وسلاما وبعد ، فقد شرفنى كتابكم الكريم ولكن يا للندامة فإنى لم أستطع رد الجواب ، ولم يكن هذا عن تكاسل وتوان بل عن انشغال البال لتراكم الأعمال وعروض الترحال ، فى بعض حاجات إسلامية عامة ، فعفواً عن هذا التأجيل وصفحا .

طال الأمد ولم أرزق بعد ما أجلت الجواب لأجله ولا أدرى إلى متى لا أرزق ؟ فأجمل لكم القول فى بعض ما أود عرضه عليكم ، وإذا تخففت عن وطأة الأعمال ، وحصلت الفرصة فسأتبع هذا الإجمال بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

١ — إنكم ترون أن اغترار العالم الإسلامى بالدولة العثمانية والاتكال عليها من أهم العوامل التى أعمتهم عن شئونهم وأقعدت بهم عن سد ثغورها ، فإذا دهمته النكبة السياسية لم يكن له بها قبل ، وإن وقذ العرب ودومهم : باستعمال الولاة الطغاة الذين سفكوا الدماء وهدموا البناء ، وأهلكوا الضرع وأبادوا الزرع ، وبإغلاق أبواب التعليم فى وجوههم حتى الحربية لأكبر جناية سياسية جناها الأتراك على العالم الإسلامى بل على أنفسهم أيضا من حيث إنهم مسلمون .

وإنه قد آن أن يقوم العرب قومة واحدة لإحياء تاريخهم المجيد واستعادة مجدهم التالد وعزمهم السالف .

إن هذا الرأى وزين وإنى معكم فى هذا القول ، لكن علينا بالتأنى والتأمل ، فإن الطريق ذات غور ونجد وإنه يمر من مجاهل سياسية يجول فيها أغوال أوربا ويفتكون بالأريب الحذر فكيف بالبسيط الغرير . . ولاسيما أن المسلمين قد بلغ منهم الغرة والبساطة والجهل والخيانة إلى أنهم كلما قاموا للإصلاح ازدادوا فسادا ، أو حاولوا إغلاق باب للأجانب فتحوا آخر .

٢ — رأيت اقتراحكم الجليل من تأليف مؤتمر إسلامى عام فحسبت كأن هناك ترجمانا يترجم لأذنى ما يشعر به قلبى ، وكيف فإنه كم من ليالى أتيت الفراش لأنام وأنا غارق فى هذه الفكرة فتشرد النوم ولم أزل أفكر إلى أن ينبثق الفجر ، فأرحب بهذا الاقتراح العظيم أبرزه الله فى معارض الوجود .

لكن أين يحتفل (ينعقد) هذا المؤتمر ؟ هذه مسألة عويصة فالآن الأجدر به إما الهند أو مصر ، وكلاهما تحت سلطان الانكليز الذين هم أعدى أعداء الإسلام فإنى على يقين بأنهم لا يدعوننا نعمل فى هذين القطرين عملا نافعا ، على كل حال الموقف حرج ، والوقت ضيق ، والعدو على الباب ، ثم إن الشئون والأحوال معروفة لدى كل منا ، والأفكار متحدة ، والطريق أمام أعيننا ، فيا حبذا لو تركنا الاقتصار على تداول الأفكار ونشر الاقتراحات والمشروعات ، ونأخذ فى السير إلى المرام .

سامحونى إن قلت لكم : بأنكم لستم من المطلعين على أحوال الهند لبعدكم عنه ، وإن نواب وقار الملك ليس من رجال هذا الأمر نعم هنا رجال آخرون خيرا أكفاء لهذا الأمر فأية خدمة تريدون أن يقوم بها أهل الهند تفضلوا بتفصيلها .

٣ — قد عزمت على نشر جريدة عربية يكون اسمها «الاتحاد الإسلامى» وذلك لتوطيد دعائم الأخوة الملية مع العالم الإسلامى ، ولاسيما العرب الذين هم مهد الإسلام وإخبارهم عن أحوالنا وأفكارنا واستخبارنا عن أحوالهم

وأفكارهم ، فهل نرجو من حضرتكم المساعدة في هذه الخدمة الجليلة للعالم الإسلامي ؟ إن الحركة العربية والمسألة اللامركزية أساء إليكم (فيكم) ظن مسلمي الهند وهم يعدون هذه الحركة دسيسة من دسائس الأجانب لبتر عضو آخر من جسم الدولة الإسلامية لكني أقول بكل فخار إن رأيي فيكم لم يتزحزح عن موقفه السالف قيد شعرة ، ولا أزال أراكم مصلحا مخلصا لوجه الله داعيا إلى القرآن الحكيم ومحييا للسنة النبوية وقامع البدع والخرافات وأدعو الله أن يكشف لي القناع عن حقيقة مسائل سياسية أرى فيها غير ما ترون ، وإن شئتم نشر هذا الكتاب فلكم ذلك والسلام .

مخلصكم الوفي

أبو المكارم الدهلوي

لعلك لمست في هذا الخطاب مدى حصافة مولانا أبي الكلام وتعقله في تناول الأمور وعدم تعصبه تعصبا أعمى لرأيه الذي يؤمن به فإنه بالرغم من تعصبه للخلافة وهجومه على كل من يدعو إلى تمزيق دولتها وتشتيت وحدة المسلمين حولها ، لم ينكر على السيد رشيد دعوته إلى أن يهب العرب من نومهم ويقوموا قومة رجل واحد لاسترجاع أمجادهم وإحياء تاريخهم ... ولم يبخس العرب حقهم ولم ينكره عليهم ، وإنما قال عن رأي السيد رشيد في هذه الناحية : إنه رأي رزين وإني معكم في هذا ، ولكنه - برغم شبابه الثائر الفائر - كان بعيد النظر عميق التفكير وكأنه كان ينظر في كتاب مفتوح أمامه فرأى أن العرب حين يحاولون هذا ويعملون على استرجاع أمجادهم وبالتالي على التخلص من الدولة العثمانية التي تحكمهم وتظلمهم فإنهم سيقعون فريسة بين مخالب أغوال أوربا ، ويكون العرب حينئذ قد تخلصوا من ظلم الدولة الإسلامية لهم ليسلموا أنفسهم إلى ظلم الأجانب عنهم واستبدادهم بهم .

وهذا هو الذي وقع بعد ذلك حين قام العرب بثورتهم في الحجاز بقيادة الشريف حسين وأمن للانجليز ووثق بعهودهم وسار معهم ضد الأتراك حتى حقق لهم النصر ، فنكثوا بعهودهم واقتسموا مع فرنسا البلاد العربية التي كانت تحكمها دولة الخلافة ، وظلت هذه البلاد ترزح طويلا تحت نير الاستعمار وتعاني من بلائه وشروره ما تعاني حتى الآن . حتى البلاد التي استقلت منها ، لايزال الغرب يتربص بها ويحاول أن يقضي على استقلالها ويحطم نهضتها .

ولهذا نصح مولانا أبو الكلام بالتأني والتأمل فيما دعا إليه السيد رشيد رضا لأن الطريق وعرة شائكة والعرب حين يسيرون إلى غايتهم فإنهم يمرون بأغوال أوربا الذين يفتكون بالجماعات الحذرة المستعدة فكيف بالمسلمين في بساطتهم وجهلهم بالأمور ، وخيانتهم للمصلحين فيهم : « إلى حد أنهم كما

قاموا للإصلاح ازدادوا فساداً أو حاولوا إغلاق باب للأجانب فتحوا أبوابا أخرى ».

ويبدو أن مولانا أبا الكلام كان يعانى مرارة شديدة من حال المسلمين وتفككهم وضعفهم وانصرافهم عن المصلحين بل وخياناتهم لهم ، وهذه حال كثيرا ما تعترى الأمم حين تقوم من رقدتها الطويلة تتلمس طريق البعث والنهوض ويقودها المصلحون إلى هذا الطريق إذ تقوم فى وجوههم مخلفات من عصر النوم والضعف تتمثل فى عقليات جامدة ونفوس حاقدة وعملاء المتسلطين فى استمرار الأمة فى ضعفها ونومها ... والمصلحون الحقيقيون هم الذين يثبتون على الطريق ممسكين بشعلة الإصلاح غير عابئين بهذه المخلفات ولا يائسين مما يصيبهم من جحود وإعنات ... وهكذا كان مولانا أزاد ... لم ييأس ولم يلق الشعلة التى فى يده ، ولكنه كان يتخذ من معرفته بالأوضاع العكسية التى تحيط به درعا يتقى به الفشل ويدفعه إلى السير فى طريقه بتأن وحذر .

وبهذه الروح كان ينظر إلى اقتراح السيد رشيد رضا الخاص بعقد مؤتمر إسلامى فبالرغم من أنه صرح بأن موضوع هذا المؤتمر كان موضع تفكيره المستمر من زمن طويل وكان شغله الشاغل الذى كثيراً ماطرد من جفنيه النوم حتى ينبثق الفجر ، وهو يتقلب على فراشه غارقا فى التفكير فيه إلا أنه كان ينظر إلى العقبات التى تعترض طريق هذا المؤتمر ، ويرى أن انعقاده فى مصر أو الهند وهما البلدان اللذان يمكن عقده فيهما يجعله تحت سيطرة الانجليز وهم أعدى أعداء الإسلام ولا يدعون المسلمين يعملون عملا نافعا لهم .

وليس معنى هذا عنده إهمال الفكرة وتركها يأسا من نتيجتها ولكنه يعرض هذا ليكون فى الحسبان عند بدء العمل ولهذا نجده يشير إلى أن الخطر على الباب وأن الواجب يقضى بترك الكلام ونشر المشروعات والبدء فى عمل فورى جدى يفيد المسلمين .

ونراه أخيرا يخطو خطوة واسعة فى سبيل تدعيم العلاقة بين مسلمى الهند وإخوانهم العرب الذين هم مهد الإسلام ؛ فيكتب للسيد رشيد رضا عن عزمه على إصدار مجلة باسم « الاتحاد الإسلامى » لتوطيد الروابط بين المسلمين وإيقافهم على شئون إخوانهم فى كل مكان ويرجو من السيد رشيد مساعدته على إخراج هذا المشروع الحيوى بمده بالأخبار والمقالات . .

ويظهر أن الظروف لم تساعده على تنفيذ هذا المشروع فى ذلك الوقت وإن كان من المعروف من تاريخ الصحافة العربية فى الهند أن مولانا أزاد أخرج مجلة عربية باسم الجامعة سنة ١٩٢٣ وكانت تصدر من كلكتا واستمرت عدة سنين وكان لها دوى فى الأوساط العلمية فى الهند والبلاد العربية وقامت بدور

رائع فى تاريخ الصحافة العربية والهندية لا ينكر فضله .

ولشدة حساسية مولانا أزاد نحو الخلافة والإبقاء عليها يعود فى آخر الخطاب إلى ما نشر عن السيد رشيد فى الهند فيؤكد له أنه وإن أساء فيه ظن مسلمى الهند إلا أنه لا يزال عند رأيه فيه من تأييده لحركة الخلافة ومن أنه لا يمكن أن يدعو لبتر جزء آخر من دولة الخلافة ويكون ألعوبة فى يد الأجانب الذين يريدون بها سوءا ... وهو فى هذا يبدو فى غاية اللباقة والكياسة مع السيد رشيد ... الذى يرى فيه مصلحا مخلصا لوجه الله داعيا إلى القرآن الحكيم ومحييا السنة النبوية .

أظن أن هاتين الرسالتين تعطياننا صورة كافية عن مولانا أزاد واهتمامه بالخلافة ومصيرها ولاشك أننا نفهم أن جهوده داخل الهند من أجلها كانت أكثر وأعظم ، وهذا هو الواقع ، فقد كانت الخلافة تشغل كل تفكيره باعتبارها مسألة دينية من جهة ، ولاتصالها بمصير المسلمين ومجدهم من ناحية أخرى، ولهذا أثناء أثناء مرافعته أمام المحكمة التى كانت تحاكمه سنة ١٩٢٢ يشير موقف الحكومة الانجليزية العدائى من الخلافة واعتدائها على أراضيها ونقضها للعهود فيقول :

« وإنى لا أذكر هنا مظالم الحكومة حيال الخلافة الإسلامية لأنها أشهر من أن تذكر . ولكن الذى أريد التصريح به هو أنه لم يمض على يوم ولا ليلة فى خلال السنتين الماضيتين إلا وأعلنت تلك المظالم على رءوس الأشهاد وصرخت بأعلى صوتى قائلا : « إن الدولة التى تدوس الخلافة الإسلامية تحت أقدامها ولا تندم على ما اقترفته فى الهند من الفظائع والمنكرات لاتستحق أن يخلص لها أحد من أبناء هذه البلاد ، لأنها بأعمالها قد أصبحت عدوا ألد للإسلام والمسلمين وسكان هذا القطر .

ولا نلوم الحكومة أحدا غير نفسها على سقوطها فى هذا المأزق الذى يصعب عليها الخروج منه لأنى قد نبهتها سنة ١٩١٨ من معتقلى فى كتاب منى إلى « اللورد جيمسفورد » الوالى السابق ، فصلت لها فيه الأحكام الإسلامية التى تتعلق بالخلافة وجزيرة العرب وصارحتها بأن الدولة البريطانية إذ انقضت عهدها واستولت على الخلافة والبلاد الإسلامية فإنها توقع المسلمين فى حالة حرجة جدا ولا يبقى لهم إذ ذاك إلا أن يكونوا مع الإسلام أو مع بريطانيا ، ومعلوم أنهم يؤثرون الإسلام عليها ، وفى موضع آخر من مرافعته يندد فى شدة وصراحة بموقف الحكومة الانجليزية ورئيس وزرائها من الدولة العثمانية وإخوانه المسلمين فيها ويعدد المساوئ ، التى من أجلها قام هو وشعب الهند ضد انجلترا فيقول بعد أن عدد مساوئها فى الهند :

ثم إنهم وجدوها لا ترتدع عن دوس الخلافة الإسلامية ولا تسمع الصيحات المتوالية التى تعلو من أفواه المسلمين وغيرهم

وتسلم أزمير وتراقيا إلى اليونان ظلما وجورا وتسمح لهم بإراقة دماء المسلمين أنهارا فى سهول الأناضول، وقد رأوا جرأتها فى سحق الحق غير قليلة وهمتها فى لبس الصدق بالإفك غير كليلة ولسانها فى تكذيب الحق غير عي ولا متلعثم، فمع أنه يوجد فى ولاية أزمير ٧٠ ./. من المسلمين يعلن رئيس وزرائها بدون أدنى لكنة أن الأكثرية للمسيحيين، ولقد وضع اليونانيون السيف فى رقاب المسلمين؛ وذبحوهم ذبح الأنعام، وهو يقلب الحقيقة فيتهم العثمانيين بالقتل وسفك الدماء ويشهر المظالم التركية المخترعة فى العالم بلامبالاة ويخفى بكل وقاحة تقرير لجنة التفتيش الأمريكية التى ندبتها حكومته بنفسه، ويؤلب على الأحرار العثمانيين الدول الغربية كلها ويدعوها إلى محاربتهم واستئصالهم.

ثم يقول أيضا فى موضع آخر من مرافعته:- ثم إنى منذ خرجت من الاعتقال الطويل ما برحت أنشر هذه المبادئ - مبادئ الثورة ضد الانجليز - بين الناس وأدعوهم إليها فى مؤتمر الخلافة الذى انعقد فى ٢٨، ٢٩ فبراير سنة ١٩٢١ بكلكتا نفسها والذى رأست جلساته حملت المسلمين على أن يعلنوا القرار الآتى:

إن أصرت الحكومة الانجليزية على غوايتها، ولم تصغ لمطالبنا فى مسألة الخلافة، يضطر المسلمون بحكم دينهم أن يقطعوا كل أواصر الولاء التى تربطهم بها.

وفى نفس هذا المؤتمر أعلن أنه لا يحل للمسلمين أن ينسلكوا فى الخدمة العسكرية لهذه الحكومة لأنها تحارب الخلافة والدولة الإسلامية.

وهكذا تشغل مسألة الخلافة بال مولانا أزاد ووقته وجهده بجوار مسألة بلاده وتحريرها والعدو واحد وهو الانجليز ويبدو مولانا أزاد بهذا رجلا مسلما لم يتنكر أبدا لواجبات المسلم تجاه إخوانه، بل يحس إحساسهم ويشعر شعورهم أينما كانوا. ويرى أن مساعدة الغرب والانجليز بنوع خاص اليونان ضد دولة الخلافة إنما هو اعتداء على المسلمين فى كل مكان وأن من الواجب عليهم أن ينفروا جميعا ضد الانجليز ويحاربوهم ما داموا يحالفون المسيحيين اليونان على المسلمين، ويبدو من هذا شبح حرب صليبية أخرى.

إن مولانا أزاد يبدو فى هذا مسلما بلغ القمة فى إسلامه وفى شعوره الدينى وفى إحساسه بواجبات المسلم والتزاماته نحو إخوانه حتى كأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

ودولة الخلافة هى فى رأيه قلب العالم الإسلامى وكل أذى يمس هذا القلب يهدد المسلمين جميعا بالخطر.. ولهذا كرس كل جهوده لحماية هذا القلب والدفاع عنه..

(للحديث بقية)

عبد المنعم النمر

نظرات فى التصوف والأدب :

الصوفية وعلاقتها بالزهد

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

— ٢ —

للباحثين فى نشأة التصوف آراء متعددة ، ولكل وجهة خاصة يستدل عليها ، ويؤكد صحتها .

فمن قائل : إن التصوف إسلامى النشأة والمنبت ، وذهب كثيرون إلى أن التصوف وفد على البيئة الإسلامية من الأجناس الأخرى مع ما وفد من العادات والتقاليد بحكم المزج والاختلاط الذى أعقب الفتح الإسلامى ، ومن هؤلاء الباحثين جمهرة المستشرقين ، فبعضهم يرى أنه فارسى ومنهم من يرى أنه هندى ، ومنهم من يرى أنه يونانى ، أو مسيحى أو مزيج من هذا كله ، وقد تضاربت الآراء كثيراً فى الكشف عن أصل التصوف حتى قال : « ماسينيون » معبراً عن مدى تضارب الآراء فيه : أما دراسة مصادر التصوف فإن الأمر بيننا وبين استكمالها ما يزال بعيداً ، وقد حار علماء الإسلاميات الأول فى تعليل ذلك الخلاف الكبير فى العقيدة بين مذهب الوحدة (وهو المذهب الرئيسى فى التصوف الإسلامى فى أرقى أدواره ، وبين مذهب أهل السنة الصحيح ، فقد ذهبوا إلى أن التصوف مذهب دخيل فى الإسلام مستمد إما من رهبانية الشام ، وهذا رأى (مركس Marx) ، وإما من إفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود ، وهذا رأى (جونس Jones) ، وقد بين نيكلوش : أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل فى الإسلام قول غير مقبول [١] .

على أن الصوفية أنفسهم يأبون كل الإباء أن ينسب مذهبهم إلى غير الإسلام ، ولنأخذ فى إيراد هذه الآراء ووجهة نظر القائلين بها .

الأصل الفارسى : يذهب القائلون بأن التصوف فارسى الأصل إلى أنه انتقل إلى البيئة الإسلامية عن الفرس عن طريق الصلات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية القوية بين العرب والفرس ، ويرون أن مما يؤكد هذا أننا نجد أكثر شيوخ الصوفية فرسا إما بالنشأة والتربية ، وإما بالأصل والمولد

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة تصوف

الأصل الهندى : أما القائلون بأنه هندى الأصل فيستدلون على ما ذهبوا إليه بما بين الصوفية والمذاهب الهندية من تشابه قوى فى الآراء والأفكار والمعتقدات، كالقول بالتناسخ وهو عقيدة هندية قديمة ، والقول بوحدة الوجود والحلول والاتحاد والاتجاه إلى ماذهب إليه الهنود من أن السعادة هى الذكر الدائم لله ، والتأمل المتصل فيه ، لأنهما يوصلان من يأخذ بهما ، ويروض نفسه عليهما إلى اتحاده بالله وبالسكون فإنهما ليسا إلا حقيقة واحدة، ويعد البيرونى زعيم هذه الدعوى لماله من اتصال بمذاهب الهند ودراسة لها بحكم اختلاطه بهم ، وإقامته بينهم ، ويسمى مذهب الهنود طريقة باتنجل فقال : « وإلى طريق باتنجل ذهبت الصوفية فى الاشتغال بالحق فقالوا : مادمت تشير فلست بموحد حتى يستولى الحق على إشارتك بإفنائها عنك ، فلا يبقى مشير ولا إشارة ، ويوجد فى كلامهم ما يدل على القول بالاتحاد كجواب أحدهم عن الحق « وكيف لا أتحقق من هو أنا بالآنية إن عدت فبالعودة فرقت ، وإن أهملت فبالإهمال خففت ، وبالاتحاد ألفت » .

وكقول أبى بكر الشبلى : « اخلع الكل تصل إلينا بالكلية فتكون ولا تكون ، إخبارك عنا وفعلك فعلنا » .

وكجواب أبى يزيد البسطامى ، وقد سئل بم نلت ما نلت: فقال: « إنى انسلخت من نفسى كما تنسلخ الحية من جلدها، ثم نظرت إلى ذاتى فإذا أنا هو » [1] .

وأيد ذلك بعض المستشرقين بما رأوه من انتقال بعض العادات والتقاليد من الهند كالمسابح فإنها بوذية وحلقات الذكر .

الأصل النصرانى :

ويذهب كثير من الباحثين إلى أن التصوف الإسلامى وفد إلى البيئة الإسلامية عن النصرانية ، ويؤيدون ما ذهبوا إليه بما كان موجودا بين العرب فى الجاهلية وبين النصرانية وأن كثيراً من العرب كانوا نصارى ؟ بل إن منهم من ترهب وتنسك كحنظلة الطائى ، فقد بنى له ديراً يتعبد فيه يسمى دير حنظلة ، وقد وجد غير ذلك من كان يأوى إلى القفار ويأنس بالوحوش ، كما حدثوا عن قس .

وأن لبس الصوف كان لباس المسيح هذا إلى أوجه الشبه القوية بين حياة الزهاد والعباد والصوفية من المسلمين وبين حياة الرهبان والقسس والنصارى ، من ناحية العبادة والطريقة والرياضة ، أما ما يتعلق بالصوفية من جهة كونها مذهبا إذ تعبر عن

(١) قوت القلوب ج ٣ ص ٨٠ .

منازع أصحابها ونظرتهم إلى الحياة ، وفلسفتهم فيها ، فإنها ترجع إلى ما روى من قصص عن المسيح عليه السلام يتمشى مع مذاهبهم .

فقد روى أن المسيح مر بقوم من العباد ، وقد احترقوا من العبادة كأنهم الشنان البالية . فقال : ما أنتم ؟ فقالوا : نحن عباد ، قال : لأى شيء تعبدتم ؟ قالوا . خوفنا الله من النار فخفنا منها .

فقال : حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم .

ثم جاوزهم ، ومر بآخرين أشد عبادة منهم .

فقال : لأى شيء تعبدتم ؟

قالوا : شوقنا الله إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه ، فنحن نرجو ذلك .

فقال : حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم .

ثم جاوزهم ومر بآخرين يتعبدون .

فقال : ما أنتم ؟

فقالوا : نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولكن حباً له ، وتعظيما لجلاله .

فقال : أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم ، وأقام بين أظهرهم . [1]

فهذه القصة يمكن أن تعتبر أساسا لنظرية الحب الإلهى التى استولت على نفوس المتصوفة ، وكانت محورا أساسيا لتعاليمهم ونظمهم ، فإن فريقا منهم نزع إلى الخوف من الله ، وقبيلا تطلع إلى الشوق إلى جنته ، وطائفة لم ترض بذات الله بديلا .

الأصل اليونانى :

ويرى فريق من الباحثين أن الفلسفة اليونانية كانت أساسا قويا من أسس التصوف الإسلامى ، ويستدلون على هذا بشيوع الفلسفة اليونانية فى العصر العباسى لدى العرب ، وأنهم حينما أخذوا فى نقل التراث اليونانى إلى العربية لم يكن ذلك قاصرا على فلسفة أرسطو فقط ؟ بل نقلوا أيضا عن أفلاطون وأفلوطين ، وتعاليم هؤلاء جميعا كانت معروفة لدى المسلمين - فكما تأثر الكندى والفارابى وابن سينا وغيرهم من الفلاسفة بأرسطو وآرائه ، كذلك تأثر الصوفية بأفلوطين ومدرسته فى الفلسفة الإشراقية التى تقوم على الذوق والوجد وتلجأ إلى كثير من الرياضات والمجاهدات كما هو الحال عند الصوفية ، بل إن كلمة « اعرف نفسك بنفسك » التى وجدت على بعض جدران المعابد اليونانية ، كانت ذات أثر فعال فى تعاليم الصوفية ، فإنهم ضموها إلى الأثر الوارد عن النبى صلوات الله

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٥ .

وسلامه عليه « من عرف نفسه فقد عرف ربه » وبنوا عليهما كثيرا من أسس أحوالهم ومواجيدهم .

ويبدو أثر الفلسفة الإشراقية واضحا عند المتأخرين من الصوفية ، أمثال ابن عربي والسهروردي في كتابيه : هياكل النور ، وحكمة الإشراق التي يجعل فيهما من الله نوراً للأنوار فياضاً بالأنوار القاهرة ، وهي النفوس والعقول ، وبالجواهر الغاسقة ، وهي الأجسام [1] .

الأصل الإسلامي :

هذه هي الآراء القائلة بأن التصوف غريب على البيئة الإسلامية ، وأنه شد إليها بحكم الاختلاط والامتزاج بين الأجناس والفلسفات والآراء .

ونحن نذهب مع القائلين بأن هذا تجن على الحقيقة ، وظلم للواقع ، وإنكار للشاهد المحسوس .

ونرى أن التصوف نزعة إسلامية النشأة والمولد ، وجدت أصولها في القرآن والسنة وحياة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، ومسلك الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كان النبي صلوات الله عليه كثيراً ما يخلو إلى نفسه ، وينأى بها عن الناس ، فما ذهابه إلى حراء ، وإقامته فيه الليالي ذوات العدد ، وما اعتكافه إلا ضرب من الصوفية ، وما تعبده في حراء قبل أن تأتيه الرسالة إلا تمهيد وتصفية للنفس الكريمة ، حتى تستشف وحي الله .

والواقع أن حياة الرسول كانت نبعا غزيراً استقى منه الصوفية تعاليمهم ، وليس هذا فحسب ، بل وجدوا في كثير من آيات القرآن الكريم ما يحتجون به لمذهبهم هذا في الحياة ، وكذلك الأحاديث سواء ما كان منها قدسيا وما كان نبوياً .

أما الآيات التي يستندون عليها فنها :

١ - « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » .

٢ - « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » .

٣ - « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » .

٤ - « يأيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » .

٥ - « وتوكل على الحي الذي لا يموت » .

٦ - « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا » .

٧ - « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » .

---

(١) الحياة الروحية في الإسلام ص ٨٥ .

فنى هذه الآيات أسس بنى عليها الصوفية ما ذهبوا إليه من أحوال ومقامات ، ويؤكد ذلك أننا نراهم يكثرون من الحديث عن الصبر والتوكل والتوبة والتأمل والتفكر ، ومداومة الذكر ، ولهم فيها أبواب طوال عمروا بها كتبهم ، وملأوا صحائفهم ومما استدلوا به على مذهبهم فى وحدة الوجود ووحدة الشهود والتجلى قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى » ، وكذلك قوله سبحانه : « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

أما الأحاديث التى تشهد لهم ، فقوله صلوات الله عليه فيما يرويه عن ربه : « كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » .

والصوفية يتخذون من هذا الحديث دليلا على ما ذهبوا إليه من نظرية الحب الإلهى .

ويستدلون كذلك بما رواه الرسول عن ربه أيضا : « ما تقرب إلى عبدى بأفضل مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت يده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وعينه التى يبصر بها ، وأذنه التى يسمع بها » .

وقد وجد أصحاب الأذواق والمواجيد تفسيراً لمذهبهم فى الفناء والغيبوبة، فناء العبد فى ربه والمحب فى محبوبه .

ومن الأحاديث النبوية التى يستندون إليها : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « وإن من عباد الله أناساماهم بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل . قال رجل : فمن هم يارسول الله ؟ وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوم يتحابون بروح الله عز وجل من غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، قالوا : ثم قرأ : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فنى هذه النصوص وحياة الرسول عليه السلام الأصول التى يقولون إنهم استمدوا منها مذهبهم وساروا على نهجها فى حياتهم ، ووجد فيها الزهاد أصولا لزهدهم والصوفية غذاء لأذواقهم ومواجيدهم .

والصوفية يردون كل قول غير هذا ، ولا يكادون يطيقون أن يسمعوا أنهم اعتمدوا على مذهب أو رأى آخر فى زعمهم من أى لون كان

ولأمر ما نجد كبار المؤلفين فى الصوفية يبدأون أبوابهم بأحاديث نبوية فى هذا الباب كما فعل القشيرى فى رسالته حينما شرع يتكلم

من الأبواب المختلفة من تأمل وصبر وتوبة، وخوف وغير ذلك.

وقد لاحظت وأنا أطالع تراجم الصوفية في حلية الأولياء لأبي نعيم، وطبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمي - أن كلا منهما يحرص دائماً على أن يثبت أن المترجم روى الحديث وطلبه، وما ذلك إلا لإشارتهم إلى قوة الصلة التي تربطهم بالسنة. والذي تطمئن إليه النفس ويسلم به العقل، ويقبله الواقع، ويرضى عنه الباحث أن الصوفية نزعة إسلامية نشأت في أحضان الإسلام، وتربت في بيئته، واستمدت من منبعه الصافي وجودها، ولم يكن لأي عامل آخر أثر في نشأتها إلا أنها وهي تتقلب في مدارج الزمن، وتنتقل من جيل إلى جيل، قد لاقت في مسيرها كثيراً من النزعات والثقافات المختلفة والنحل المتعددة، وتسرب إليها كثير من رواسب الديانات القديمة في نفوس أربابها بحكم التأثر بالبيئة والانقياد للوراثة، فلما تلاقى بها هذا المزيج في حياتها أخذت منه وتركت بلا شك ولا ينازع في هذا أحد. وخلاصة القول في هذا: أن الإسلام منبعها الأصلي الذي أمد مجراها بالفيض الأول، وشق لها طريقها في عجيج الحياة وصخبها، ولكنها لم تعدم بعض الروافد التي كانت تلقي فيها بين آن وآخر بعض رواسبها فتقبلها تارة، وترفضها أخرى، وهذه سنة الحياة، وأكبر دليل على ذلك تطور التعاليم الصوفية على مر العصور، وسيبدو هذا التطور واضحاً جلياً في الفصل الآتي حينما نتحدث عن المدارج التي مرت بها في سيرها المتتابع.

مناقشة الآراء السابقة:

ولابد لنا وقد ذهبنا إلى هذا الرأي أن نرسل كلمة نشير فيها إلى رد الآراء السابقة قبل أن نمضي إلى فصل آخر فنقول:

إن ما ذهب إليه أصحاب الآراء السابقة لاينهض أن يكون دليلا على رأيهم؛ لأن كثيرا من الأحوال والاتجاهات والمؤثرات قد تتشابه في أكثر من بيئة فتوجد حالة فكرية متشابهة، والتشابه في الآراء ليس دليلا على أخذ أحدهما عن الآخر، وفي هذا رد على القائلين بالأصل الهندي واليوناني.

أما القائلون بالأصل النصراني فإن ما أثبتناه منذ قليل من حياة الرسول وأحاديثه فيه الكفاية في رد هذا الرأي، وأما القائلون بالأصل الفارسي، فليس ما ذهبوا إليه بشيء؛ لأن العرب والفرس قد اتصلوا من قديم ولم يظهر لذلك أثر ما.

محمد إبراهيم الجيوشي

الخدمات الاجتماعية عن طريق الدين

للأستاذ أحمد الشرباصي

— ٢ —

ومن الخدمات الاجتماعية التي يكسبها المجتمع عن طريق الدين نظام « الأوقاف » الذي عرفه الإسلام منذ أقدم العصور ، واستطاع هذا النظام أن يوفر للأمة الكثير من الخدمات والمعونات للضعفاء ، والفقراء ، والمعوزين ، وأصحاب الضوائق المالية المختلفة ، وفي موطن آخر تعرضت لذكر فنون الأوقاف التي تؤدي إلى ألوان من الخدمات الاجتماعية ، والتي عني شكيب بالتنويه بها والحديث عنها أكثر من مرة ، ومن هذه الألوان التي يحدثنا عنها تاريخنا القديم أو تاريخنا القريب أو المعاصر ما يلي :

فمنها مدارس ومستشفيات ودور كتب ، ودور لعلاج المجانين ، ودور لعلاج المجاذيم (جمع مجذوم وهو المصاب بمرض الجذام) ، ودور ضيافة ، ومنها ما يوزع الخبز يوميا ، ومنها ما يوزع الحساء (المرق) ، ومنها مؤسسات لأشياء لا تخطر على بال الأوربيين

ومن أمثلة ذلك أن في دمشق وقفا اسمه وقف « الزبادي » ، فمن كان في يده من الأطفال أو الخدم طبق صيني وانكسر ذهب إلى ذلك المكان ، ووضع قطع طبقه المكسور ، وأخذ بدلا عنها طبقا سليما .

وفي مدينة « فاس » ببلاد المغرب وقف الثياب ، فمن كان مارا في شارع وتمزق ثوبه ، أو أصابه شيء لوثه ، بحيث أصبح متعذراً عليه لبسه ، له أن يذهب إلى ذلك الوقف ليأخذ ثوبا جديداً .

وفي « تونس » وقف من كان يريد دخول الحمام ، وليس في يده ما يدفع منه أجرة الاستحمام يذهب إلى ذلك الوقف ، فيأخذ صرة صغيرة فيها الأجرة المذكورة .

وفي « مراكش » وقف كبير للنساء اللواتي يقع خلاف بينهن ، وبين أزواجهن ، فإنهن يذهبن إلى هذا الوقف ، ويقمن فيه ما شئن ، ويعشن دون منة من أحد ، إلى أن ينتهي الخلاف بين المرأة وزوجها ، إما بالوفاق أو بالفراق .

وفي « فاس » وقف اسمه « مؤنس العليل » ، يؤخذ منه إعانة للمؤذنين أصحاب الأصوات الشجية ، حتى يبكروا في الصعود إلى المئذنة ،

ويترنموا بالتسابيح الإلهية التي إذا سمعها العليل الذي قضى ليله ساهراً يتململ على فراش الألم والأرق استأنست بذلك نفسه، وخفت وحشته.

وهناك في بلاد الإسلام أوقاف لتزويج البنات الفقيرات، وأوقاف لإطعام الحيوانات وفي مدخل «دمشق» مرجة كبيرة موقوفة على الخيل المسنة ترعى فيها، وهناك أوقاف للمقعدين، وأوقاف لرعاية المكفوفين، وأوقاف لتمهيد الطرق ولرصف الشوارع، وأوقاف لشراء مكافآت للسابقين من صبية الكتاتيب

وإذا كان قسم من هذه الأوقاف قد محيت رسومه بطول الأيام فإن منها ما لا يزال ريعه داراً، والفقراء يستفيدون منه!.

* * *

ومن الخدمات الاجتماعية التي نكسبها عن طريق الدين أن الدين نظم لنا فرصاً ومناسبات متقاربة للتلاقي والاجتماع عن طريق صلاة الجماعة المنتظمة كل يوم خمس مرات، وعن طريق صلاة الجمعة كل أسبوع، وعن طريق صلاة العيد مرتين في كل عام، وعن طريق مؤتمر الحج الأكبر، وفي هذه الاجتماعات تتوافر عوامل التعارف والتفاهم والتعاون والتآلف، ويسهل بث التوجيهات الاجتماعية الرشيدة.

فخطبة الجمعة مثلا ما هي إلا مجلة أسبوعية دينية مسموعة، يعالج فيها الخطيب الرشيد البصير أمور مجتمعه وشئون بيئته، ويشخص ما هناك من أمراض أو علل أو مشكلات، ثم يصف العلاج لهذه المشكلات من هدى الله تبارك وتعالى الذي يقود إلى الحق وإلى صراط مستقيم. «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم».

ونستطيع أن نقول مثل هذا أو قريبا منه عن بقية الاجتماعات، وناهيك بمؤتمر الحج الذي يتلاقى فيه الناس من كل حدب وصوب، يتعارفون ويتآلفون ويتشاورون، ويتفقون في النهاية على ما يجب أن يكون، فوق ما في الحج نفسه من فوائد الرحلة ورواج التجارة وتبادل المنافع.

والصلاة نفسها فيها خدمات اجتماعية متعددة عند أدائها على الوجه السليم القويم الذي أراده الدين، لأنها تؤدى إلى رفع المستوى الصحي والنفسي والاجتماعي للفرد، ومتى صلح الفرد وتعدد الصلاح بتعدد الأفراد كان معنى هذا صلاح المجتمع كله.

فالصلاة توجب على مقيمها أن يكون طاهر البدن، طاهر الثوب، طاهر المكان الذي يؤدى فيه الصلاة، وتوجب على الإنسان

أن يتوضأ ، والوضوء هو غسل اليدين والوجه والذراعين والشعر والأذنين والرقبة والرجلين ، وهو لهذا تجديد مستمر لنظافة الأطراف والأعضاء التي تتعرض في العادة للغبار والتراب وطفيليات الجو الأخرى ، ولا شك أن رفع المستوى الصحي للأفراد يؤدي إلى قلة الأمراض ، وإلى وفرة النشاط ، وإلى زيادة الإنتاج ، وفي هـــذا ما فيه من خدمات للمجتمع .

وفي الصلاة تعويد على النظام ؛ لأن الصلاة تؤدى في مواعيد ثابتة ومواقيت محددة ، ولذلك يقول القرآن الكريم : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » . وتعود الأفراد للنظام يرفعهم اجتماعياً ويزيدهم رقياً .

وفي الصلاة مناجاة ودعاء واستغراق روحي في العبادة ، وهذا الاستغراق ينقي النفس ويصفيها ، ويعلو بها ويزكيها ، وحين يعود المصلي الصادق الخاشع إلى مجتمعه ، يعود إليه نقياً صافياً طهوراً ، فيصدر عنه الخير ويتوالى منه العمل الصالح .

* * *

والدين الإسلامي قد شرع جملة نظم تؤدي إلى ألوان من الخدمات الاجتماعية ، ومن هذه النظم نظام « المبراث » الذي يفتت الثروة من حين إلى حين ، ويقرب بين الأفراد ، ويحفظ كيان الأسرة ، ويوثق الروابط بين الأقرباء .

ونظام « النفقة » التي تجب بين الأصول والفروع ، أو بين القريب والقريب ، ونظام « الحضانة » الذي يصون الطفولة من التشرد والضياع ، ونظام « الوصاية » على القاصر ، لكي يتصرف الوصي تصرفاً رشيداً حكيماً يؤدي إلى الخير ونظام الحجر على السفيه سيء التصرف حتى يعود إليه رشده وصوابه ، وهناك نظام « الشفعة » الذي يحفظ حق الجار في الشراء قبل حق الغريب والدخيل ، وهناك نظام الضيافة الذي شرعه الإسلام للغريب لمدة ثلاثة أيام ، وهناك نظام « الكفالة لليتيم والرعاية لماله » ، وهناك نظام « كفالة اللقيط » والقيام على على تنشئته وتربيته ، وهناك « نظام الدعوة إلى الخـــير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » ، وهناك نظام « الحسبة » والتطوع بإزالة ما يسوء .

وكل نظام من هذه النظم يحقق خدمات اجتماعية جليلة لو أردنا شرحها لاحتجنا إلى أن نخصص لكل نظام بحثاً نستعرض فيه قواعده وفوائده .

* * *

وهناك قيم اجتماعية نحرص عليها وتتمنى توطيدها وتوكيدها ، والدين يعاون على

تثبيت هذه القيم الفاضلة ، فهناك مثلا التكافل الاجتماعى ، والإسلام يقول : « إنما المؤمنون إخوة ، ويقول الرسول: « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » : وهناك العدالة الاجتماعية والروح الاشتراكية ، والرسول يقول : « الناس شركاء في ثلاثة: الماء والكلأ والنار » .

وهناك العدل المؤدى إلى الأمن والسلام والقرآن يقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » ، ويقول: « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وهناك الدعوة إلى عدم البغى فى أخذ الثأر ، والقرآن يقول : « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ، فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » .

° ° °

ومن الخدمات الإجتماعية التى تكسبها عن طريق الدين أن الدين يعلمنا آداب السلوك الاجتماعى ، فهو يؤكد فى عقولنا وقلوبنا أن هذا الإنسان العاقل البصير الذى جعله ربه خليفة فى أرضه ، لم يخلق لنفسه وحدها ، أو لذاته فقط ، بل خلق ليكون لبنة فى بناء أمته ، وفردا فى عقد مجتمعه ، ومن واجب الفرد أن يندمج فى الجماعة ويتفاعل معها ، وأن يحسن معاملته لها ، حتى يكون فى عونها وتكون فى عونه .

والإسلام الحنيف يعلم المسلم - فى قرآنه الكريم وسنة نبيه العظيم صلوات الله وسلامه عليه - أن يكون فى سلوكه الفردى والاجتماعى مثلا من أمثلة الخير والبر ، والحرص على الإحسان بمختلف ألوانه ، والبعد عن السوء والفساد قدر طاقته ، فالله يقول : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » ، والحديث يقول : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وأساس الأدب الإسلامى فى السلوك الاجتماعى للفرد هو أن يكون المسلم - فوق ابتعاده عن الشر ، ونأيه عن الأذى عنصراً من عناصر المعونة والنفع للناس ، والتجمل معهم بمكارم الأخلاق ، والتحلى فى معاملتهم برقيق الخصال ، فإذا كان الحديث يقول : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » فإنه أيضا يقول : « خير الناس أنفعهم للناس ويقول : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » .

° ° °

وكما تكون المعاملة الاجتماعية الجيدة فى أمور كبيرة جليلة تكون فى أمور دقيقة يسيرة ، فقد تكون فى النظرة واللفتة والكلمة والتحية وهيئة الحركة ، والإسلام يتتبع هذه الدقائق بالنص عليها والتوجيه إليها ، حتى

يكمل الفرد فى سلوكه الاجتماعى مع غيره، فهو مثلا يحرض المسلم على أن يحسن القول ويبذل تحية السلام لمن يلقاه حتى يشيع التعارف والتآلف، يقول الحديث: «إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام» ...

ويحرضه على مصافحة معارفه حتى يتأكد الود بينه وبينهم، وتزول عنهم ما قد يكون غائما فى أفق صلاتهم وروابطهم، ولذلك يقول الحديث: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا»، وقال أبو ذر رضى الله عنه: ما لقيت النبى صلى الله عليه وسلم إلا صافحنى! ...

ومن آداب هذا السلوك الاجتماعى أن يتذكر الفرد على الدوام أنه ليس وحده فى بيئته ومجاله، بل هناك من قد يكون أحق بسبقه فى ركوب أو نزول أو مسير أو تناول شىء من الأشياء، أو ما قارب ذلك من أوضاع.

وهذا هو القرآن يعلم أهله أن يوسعوا فى المجلس أو يخلو مكاناً فيها لمن يستحق التوسعة أو النهوض، فيقول: «يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس (أى توسعوا فيها) فافسحوا يفسح الله لكم، وإذا قيل انشزوا (أى انهضوا) فانشزوا، يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات، والله بما تعملون خبير».

والحديث النبوى يعلمنا كيف نكرم فى هـــذه المجالات أمثال الشيخ الطاعن فى السن، والمرأة العجوز أو الحامل، والضعيف مهما يكن، فيقول: «ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه»، أى عند شيخوخته وفى رواية طبقات الشعرانى: «من أكرم ذا شيبة - يعنى مسلما - سخر الله له من يكرمه عند شيبته» ... ويقول: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر»، ويعمم التحريض على الرحمة والرفق بالضعفاء وإيثار من يستحق التقديم فيقول: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».

ويرشد الإسلام أهله إلى أن الإحسان فى المعاملة الاجتماعية مفتح الأبواب كثير النوافذ، وقد لا يكلف هذا الإحسان صاحبه جهداً كبيراً، فيقول الحديث: «تبسمك فى وجـــه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر لك صدقة، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الردىء البصر لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة» ...

ومن آداب السلوك الاجتماعى فى الإسلام

أن ينصرف المرء إلى ما هو من شأنه ، دون أن يتطفل على شئون سواه ، وأن يتجمل بهذا الأدب حتى فى السير والنظر والاستماع وتعلق الفؤاد ، وأن يتحلى مع ذلك بالتواضع فى المشية ، ويبعد عن الاختيال فى الحركة ، يقول الله تعالى : « ولا تقف (أى لا تتبع) ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا ، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها » .

وينهى القرآن أبناءه ، على لسان لقمان فى وصيته لابنه عن التكبر على الخلق والتباهى على الناس ، حتى يميل المتكبر بخده ، زهواً أو اختيالا وعن مشية التجبر والتفاخر ، وعن العجلة الشائنة فى المسير ، وعن علو الصوت فى الخطاب علوا منكراً ، فيقول : « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

ويعلم الإسلام أبناءه أن يتحرزوا فى خطابهم وحوارهم وردودهم عما لا يليق من الألفاظ ، وعما يشين من الكلمات والتعابير ، فالحديث يقول : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذىء » ، أى سفيه اللسان .

كما أن من آداب السلوك الاجتماعى فى الإسلام أن يعاون المرء غيره على الاستقامة فى السلوك والتحلى بالمكارم ، وذلك عن طريق النصح الرقيق والتوجيه الرفيق ، والنبى صلوات الله وسلامه عليه يقول : « الدين النصيحة » ، ويقول : « المؤمن مرآة المؤمن » ، ويقول : « إن أحدكم مرآة أخيه ، فإن رأى به أذى فليمطه عنه » .

ومن التعاون على هذه الاستقامة أن يحسن المرء الإغضاء عما يقع فيه صاحبه من هفوة أو خطأ ، فالحديث يقول : « من أقال مسلما عثرته أقاله الله يوم القيامة » ، ولا يكتفى المسلم فى هذا الباب بالإغضاء عن الزلة ، أو العفو عن الخطأ ، بل هو لايتيح فرصة المفسدين كى ينالوا الناس بالتجريح أو الافتراء ، فما أوسع باب الشر فى هذا المجال ، والحديث يقول : « من رد عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار » .

فليكن الإنسان فى هذه الحياة ـ بحسن معاملته للناس وجميل سلوكه معهم ـ وردة تنفح غيرها بالشذا الطيب والعبير اللطيف ، فإذا رآها الناس شغفوا بها وحرصوا عليها ، وإن غابت عنهم تطلبوها وسعوا إليها ؛ « وإن الله لمع المحسنين » ... ؟

أحمد الشرباصى

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٨ —

نظرية المساواة فى القوانين الوضعية :

فى المقالين السابقين تحدثت عن المساواة فى الشريعة الإسلامية الغراء ، وأنها بلغت مداها فى عهد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وفى عهد خلفائه الراشدين المهديين من بعده ، ثم بقيت محافظا عليها فى عصور الإسلام الذهبية الأولى ، والآن سأتكلم عن نظرية المساواة فى القوانين الوضعية .

لقد كانت هذه القوانين حتى آخر القرن الثامن عشر تميز بين الأفراد ، ولم تكن تعترف بالمساواة بين الحاكمين والمحكومين ، والأشراف وغير الأشراف ، ورجال الدين وغيرهم ، فكانت تميز بينهم فى المحاكمة ، وفى توقيع العقوبة ، وفى تنفيذها ، وكانت المحاكم تتعدد تبعا لتعدد الطوائف ، فللأشراف محاكم خاصة ، وقضاة من طبقة خاصة ، ولرجال الدين محاكم خاصة ، وللجمهور محاكم خاصة ، وكانت الجريمة الواحدة يعاقب عليها أمام هذه المحاكم بعقوبات مختلفة .

وكان لشخصية الجانى اعتبارها ، فالجريمة التى يرتكبها الشريف يعفى منها أو يعاقب عليها بأتفه العقوبات ، وإذا أتاها الرجل الضعيف الشريف عوقب بأقسى العقوبات ، وكانت العقوبة الواحدة تنفذ على الشريف بطريقة تتفق وشرفه ، بينما تنفذ على الرجل الوضيع بطريقة تتفق وضعته ، وكانت بعض الأعمال إذا أتاها الأشراف ورجال الدين يعفون منها ، وإذا فعلها عامة الناس يحاسبون عليها أشد العذاب ، وقد أفصح عن بعض هذه الميزات نبينا صلوات الله وسلامه عليه لما أرادوا الشفاعة فى حد من حدود الله حيث قال : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » رواه البخارى ومسلم .

وما السرقة إلا مثل من الأمثال دعا إلى ذكرها بخاصة محاولتهم الشفاعة فى حد السرقة كان هذا حال القانون الوضعى إلى آخر القرن الثامن عشر حتى جاءت الثورة الفرنسية فجعلت المساواة أساسا من الأسس الأولية فى القانون ، وأصبحت القاعدة أن تسرى

نصوص هذه القوانين على الجميع ، ولكن مع هذا لم يطبق مبدأ المساواة تطبيقا تاما حتى وقتنا هذا ؛ إذ لم يكن من السهل التخلص من التقاليد القديمة دفعة واحدة ، فبقيت رواسب من التمييز وعدم المساواة اعتبرت استثناءات من مبدأ المساواة التامة ، وصار بعض الكتاب ينتحلون لها المعاذير ، أو يبررونها بحيل قانونية ، بينما راح البعض ينقدها ويطالب بإلغائها ، وكانت الغلبة لهذا الفريق ؛ إذ اتجهت إلى هذا الرأى بعض التشريعات الحديثة التى وضعت فى أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وضيقت من مدى الاستثناءات أو حاولت أن تقضى عليها ، واتجاه أغلب المفكرين اليوم إلى المساواة التامة وهم يعملون جاهدين لتحقيقها ولا ندرى ماذا سيكون ؟ أيتم لهم ما يريدون أم لا ؟ وإنه لأمل نرجو أن يتحقق لخير الإنسانية .

ومع نزوع القوانين الحديثة إلى المساواة ، فإن التطبيق العملى يعوزه المساواة ولا تزال بعض الدول المتحضرة تؤمن بالفوارق بين البشر ، فلا يزال الرجل الأبيض يجد لنفسه ميزة على الرجل الأسود ؛ وليس أدل على هذا مما تعانيه «أمريكا» زعيمة العالم المتحضر من التفرقة بين الأمريكى الأبيض، والأمريكى الأسود ، ولا يزال أبناء أوربا وأمريكا يرون أن لهم فضلا على أبناء إفريقيا وآسيا ، ولا يزال المستعمرون يعاملون أهالى المستعمرات وسكانها الأصليين معاملة عارية من الإنسانية ورعاية حقوق الإنسان مما يجعلنا نؤكد أن قوانين المساواة عندهم لا تعدو أن تكون حبرا على ورق .

وإنا لنلمس عدم المساواة فى القوانين الوضعية فى الأمثلة الآتية :

( ) عدم المساواة بين رؤساء الدول والشعوب سواء أكان هذا الرئيس ملكا أو رئيس جمهورية فبينما يخضع الأفراد للقانون لا يخضع له رئيس الدولة بحجة أنه مصدر القانون وأنه السلطة العليا ، ولا تزال بعض الدساتير تعتبر ذات الملك مقدسة كالدستور الدانمركى ، والدستور الأسبانى قبل الجمهورية أما الدستور الانجليزى فيجعل ذات الملك مصونة لا تمس ويفترض أن الملك لا يخطئ ، وفى بلجيكا ذات الملك مصونة لا تمس وكذلك كان الحال فى إيطاليا ورومانيا قبل إلغاء الملكية ، وكذلك كان الحال فى مصر إبان النظام الملكى الفاسد أما النظام الجمهورى فكان الأصل فيه أن رئيس الجمهورية غير مسئول ، وكانت شعوب العالم تعترف بهذا الوضع لرؤساء الدول الجمهورية حتى القرن التاسع عشر ثم بدأت تخرج عليه تحقيقا لمبدأ المساواة ، فمنها ما يجعله مسؤولا

فى حالة الخيانة العظمى كالدستور الفرنسى ومنها ما جعله مسؤلا جنائيا فى حالة الخيانة العظمى والاعتداء على الدستور والجرائم العادية كالدستور البولندى ، وهكذا نرى أن القوانين الوضعية تأخذ فى مبدأ مسئولية رؤساء الدول بنظريات ثلاث : فالنظرية الأولى لا تجعل رئيس الدولة مسؤلا عن أية جريمة ارتكبها والنظرية الثانية تجعله مسؤلا عن بعض الجرائم دون البعض الآخر ، والنظرية الثالثة تجعله مسئولا عن كل الجرائم التى يرتكبها (١) .

ومع تطور القوانين الوضعية تطورا عظيما فلا تزال تقصر عن الشريعة الإسلامية فى باب المساواة والتطبيق ، وليس من شك فى أن الشريعة الإسلامية حينما أتت بالمساواة التامة بين الحكام والمحكومين ، والرؤساء والمرءوسين فقد أغلقت باب شر مستطير ربما يدخل منه على المجتمع مفاسد ومظالم إذا ما بليت الشعوب بحكام ظلمة لا يراعون الحقوق ، ولا هم لهم إلا إرضاء نزواتهم وإشباع شهواتهم ، والخضوع لأهوائهم ، والطمع فيما فى أيدى الناس .

(ب) تمييز الأغنياء على الفقراء :

تميز القوانين الوضعية الأغنياء على الفقراء فى كثير من الحالات ، ومن الأمثلة على ذلك فى القانون المصرى ، أن قانون تحقيق الجنايات يوجب على القاضى أن يحكم بالحبس فى كثير من الجرائم على أن يقدر للمحكوم عليه كفالة إذا دفعها أجل تنفيذ الحكم عليه حتى يفصل فى الاستئناف ، وإن لم يدفعها حبس دون انتظار لنتيجة الاستئناف (المادة ١٨٠ من قانون تحقيق الجنايات المصرى) .

ويجيز قانون تحقيق الجنايات المصرى للمتهم المحبوس أن يعترض على حبسه فينظر اعتراضه أمام القاضى ، وللقاضى أن يفرج عنه بضمان مالى (المواد من ١٠٤ إلى ١١٠ من قانون تحقيق الجنايات المصرى) .

وفى تقرير مبدأ الضمان المالى خروج على مبدأ المساواة لأن الغنى هو الذى يستطيع دائما أن يدفع الضمان المالى فيخرج من حبسه أما الفقير فهو فى أغلب الأحيان عاجز عن دفع الضمان فيظل رهين حبسه ، وقد تكون له أولاد برعاهم يضيعون بحبسه ، وقد تقضى المحكمة ببراءته مما نسب إليه ، فتكون النتيجة أنه حبس لا لأنه أجرم بل لأنه عجز عن دفع الكفالة أو بتعبير آخر لأنه فقير .

(ج) تمييز الظاهرين من أفراد الجماعة :

تميز القوانين الوضعية الظاهرين من أفراد الجماعة على غيرهم ومن الأمثلة على ذلك

---

(١) القانون الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ، ج ١ ص ٣١١ - ٣١٢ .

فى القانون المصرى أن لوكيل النيابة أن يرفع الدعوى العمومية على المتهم فى جنحة دون استئذان جهة ما ، ولكن إذا كان المتهم موظفاً أو محامياً أو طبيباً ، أو عضواً فى البرلمان ، أو شخصية ظاهرة فإن وكيل النيابة لا يستطيع رفع الدعوى العمومية إلا بعد استئذان جهات معينة ويجوز لوكيل النيابة أن يحفظ القضية اكتفاء بجزاء إدارى يوقع على الموظف أو الطبيب أو المحامى وبذلك ينجو المتهم من العقوبة الجنائية ، ومثل هذا الحفظ غير ممكن بالنسبة لأفراد الشعب العاديين .

ويجيز القانون المصرى لمن وقع عليه ضرر من جريمة أن يطالب بتعويض ما أصابه من الضرر ، والمحاكم حينما تقدر هذا الضرر تراعى مركز الشخص وماله وما أصابه من ضرر وما فاته من نفع ، فلو أن مدير شركة وعاملا فى نفس الشركة أصيبا فى حادث واحـــد إصابات متماثلة فطالبا بتعويض يكون تعويض مدير الشركة كبيرا بينما يكون تعويض العامل تافها ضئيلا [١] .

وقد جرى المشرع المصرى على هذه الطريقة فيما حدده من تعويضات عن إصابات العمال أثناء عملهم بإصابات تؤدى إلى تعطيلهم أو عجزهم أو وفاتهم حيث أوجب أن يكون تعويض العامل على حسب مرتبه فى مدة معينة فإن كان مرتبه كبيراً كان التعويض كبيراً وإن كان مرتبه صغيراً كان التعويض كذلك .

وليس من شك فى أن فى هذا خرقا لقانون المساواة ، وقد يكون لصاحب المرتب الصغير من الأولاد والأهل الذين يعولهم ما يفوق من يعولهم صاحب المرتب الكبير .

أما الشريعة الإسلامية فلم تراع هذا فى باب الأرش والديات بل سوت بين الناس وبذلك كانت أعدل وأسمى وأحق .

إعفاءات أخرى من المسئولية :

وكذلك تعفى القوانين الوضعية رؤساء الدول الأجنبية رؤساء كانوا أو ملوكا من أن يحاكموا على ما يرتكبونه من الجرائم فى أى بلد آخر غير بلادهم سواء دخلوه بصفة رسمية أم متنكرين ، وهذا الإعفاء يشمل كل أفراد حاشية الملك أو رئيس الجمهورية .

وتعفى القوانين الوضعية أيضا المفوضين السياسيين الذين يمثلون الدول الأجنبية من أن يسرى عليهم قانون الدولة التى يعملون فيها ، ويشمل الإعفاء حاشيتهم وأعضاء أسرهم ، ولهذا الإعفاء أضراره فكثيراً

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ج ١ ص ٣١٤ ، ٣١٥ .

ما ينحرف هؤلاء عن أغراضهم التى بعثوا من أجلها إلى التجسس على الدولة التى هم فيها أو إساءة استعمال سلطتهم ، ولعلنا على ذكر من أعضاء بعض البعثات الأجنبية الذين استغلوا مراكزهم فى التجسس على بلادنا ، وحاولتهم التخلص من المسئولية استناداً إلى هذا الإعفاء .

وكذلك تعفى القوانين الوضعية ممثلى الشعب فى البلاد النيابية من العقاب على ما يصدر منهم أثناء تأدية وظائفهم من الأقوال ، وقد أخذ الدستور المصرى بهذا الاتجاه، والمقصود من هذا الإعفاء إعطاء أعضاء البرلمان قدرا من الحرية يساعد على أداء وظائفهم حق الأداء ، وهـــذا التميز اعتداء صارخ على المساواة ؛ لأن هناك من الوطنيين من يشتغل بالمسائل العامة وله فيها تأثير أكثر مما لأى عضو من أعضاء المجالس النيابية ، وبالرغم من ذلك فهم محرومون من مثل هذه الحصانة .

وبعد هـذه المقارنات يتبين لنا جليا أن نظرية المساواة فى القوانين الوضعية لا تزال مهيضة الجناح ، إذ لم تسو بين الرؤساء والمرءوسين ، ولا بين الحاكمين والمحكومين ولا بين الفرد والفرد ، ولا بين الجماعة والجماعة ، ولا بين الغنى والفقير .

وقد يدهش بعض الذين لا يعلمون أن يعلموا أن نظرية المساواة التى لم يتم نضجها وتكوينها فى القانون الوضعى الحديث ، فى القانون القديم قد نضجت تمام النضج ووصلت إلى أقصى درجات الكمال فى الشريعة الإسلامية الغراء السمحة التى ليلها كنهارها ، وعرفت هذه المساواة التامة من منذ أربعة عشر قرنا بينما لم تعرف القوانين الوضعية هذه المساواة إلا فى آخر القرن الثامن عشر .

فإذا أراد طلاب المساواة التامة أن ينشدوها فى تشريع فليكن ذلك فى الشريعة الإسلامية وسيجدون فيها من أصالة التفكير ، وعدالة التشريع ، وجلال الصدق ، وسمو الحكمة ، وعمق النظرة ما يستولى على قلوبهم ، وينطق ألسنتهم بقول الحق تبارك وتعالى : « وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ؟

محمد محمد أبو شهبة

تصويب فى العدد الماضى

فى صفحة ٤٧٥ العمود الثانى سطر ١٨ الصواب قوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خـــيراً يره ... إلى آخر الآيات الكريمة » .

شخصية المسلم

للأستاذ الحسيني أبو فرحة

— ٢ —

خلقه :

وإذا تحدثنا عن خلق المسلم يتشعب بنا الحديث أيما تشعب ، وكيف لا ، وقد سئلت عائشة رضوان الله عليها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو النموذج الكامل للشخصية الإسلامية فقالت : « كان خلقه القرآن » .

ولكننا سنجتزئ الحديث فنتحدث عن ثلاث صفات تقل بين المسلمين فى يوم الناس هذا راجين أن يهتم بها المسلمون ، ألا وهى ضميره وذوقه وشجاعته الأدبية .

فأما ضميره : فالمسلم صاحب ضمير حى يقظ ، يحاسبه على الصغير والكبير والنقير والقطمير : « هذا أبو حنيفة قد بعث بمتاع إلى حفص بن عبد الرحمن شريكه فى التجارة ، وأعلمه أن فى ثوب منه عيباً فبينه للناس ، فباع حفص المتاع ونسى أن يبين العيب ، واستوفى ثمنا كاملا لثوب غير كامل ، وقيل إن الثمن كان ثلاثين ألفاً ، فأبى أبو حنيفة إلا أن يبعث لشريكه يكلفه أن يبحث عن المشترى ولكنه لم يهتد إلى الرجل ، فأبى أبو حنيفة إلا انفصالا من شريكه بل رفض أن يضيف الثمن إلى حر ماله ، وتصدق به كاملا » (١) .

ويروى إنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ، بعضها قيمتها أربعمائة والبعض الآخر قيمته مائتان ، فذهب إلى الصلاة وخلف ابن أخيه فى الدكان ، فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة ، فعرض عليه من حلل المائتين فاستحسنها ورضيها واشتراها ، فمضى بها وهى على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ قال : بأربعمائة ، فقال له يونس : إنها لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها ، فقال له الأعرابى : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا ارتضيتها ، فقال يونس : انصرف معى فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتى درهم ، وخاصم ابن أخيه فى ذلك ، وقال له : أما استحييت ، أما اتقيت الله ،

(١) من كتاب : « أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح فى الإسلام » للأستاذ عبد الحليم الجندى .

ربح مثل الثمن وترك النصح للمسلمين ، فقال له : والله ما أخذها إلا وهو راض بها ، قال : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

وروى عن محمد بن المنكدر أن غلامه باع لأعرابي في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة . فلم يزل يطلب ذلك الأعرابي طول النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة . فقال له المشترى : يا هذا قد رضيت . فقال ابن المنكدر . وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا ورد عليه خمسة ». (١)

ومفتاح هذه الحوادث الثلاث هو قول يونس بن عبيد لابن أخيه :

« أما استحييت أما اتقيت الله ؟ » نعم إنه الضمير الحي اليقظ ، وإنها تقوى الله ذلك ما يثيره الإسلام في النفس الإنسانية بقوة حين تستشعر روحه ويمتزج بها . وتخالطها بشاشته . ورحم الله ماعزا والغامدية حين جاء كل منهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفا بين يديه بجريمة الزنا وطالبا التطهير . وما هو التطهير إنه الرجم بالحجارة حتى الموت .

وإن وراء هذه النماذج التي عرضناها لعشرات ومئات من أمثالها في كل منحى وكل اتجاه . وحسبنا منها هذه المثل القائلة لتشير إلى الآفاق التي تحلق فيها الشخصية الإسلامية . وتستعلى فيها على جميع الملابسات والضرورات على حب النفس والحياة . وحب المال والجاه .

ذوقه :

لقد نهج الإسلام نهجا حكيما ليطبع المسلمين على سلامة الذوق ودقة الإحساس والمحافظة على شعور الغير . ونقرأ الكثير من ذلك في كتاب الله وسنة رسوله .

من ذلك أنه لما تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش أولم لأصحابه وليمة . فلما طعموا انصرف بعضهم وتخلف آخرون ، وبذل عليه السلام عدة محاولات ليخرجوا ، واستحيا أن يصارحهم بهذه الرغبة .

فلم يخرجوا أيضا . وأخيرا وبعد مضى جانب كبير من الليل . خرجوا متعاقبين وفي ذلك نزل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق (١) » .

---

(١) من كتاب « الرسالة الخالدة » . للأستاذ عبد الرحمن عزام .

(١) الأحزاب – الآية (٥٣) .

وبذلك قرر الإسلام مبدأ عاما من مبادئ الذوق السليم . ألا وهو ألا يثقل الزائر على المزور بطول المكث عنـــده طولا يتضرر به .

ويقرر الإسلام مبدأ الضيافة . ويضع له أسساً سليمة : تحول بينه وبين الانحراف عن غايته . فيجعل إكرام الضيف ثمرة للإيمان بالله واليوم الآخر والضيافة ثلاثة أيام . ويعطى المجتاز زاداً ليوم وليلة . وما زاد على ذلك فهو صدقة . وينهى الإسلام الضيف أن يزيد على ذلك حتى لا يوقع صاحب البيت فى حرج قد يدفعه إلى إيذاء ضيفه . .

فعن أبى شريح خويلد بن عمرو رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، جائزته يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام . فما كان بعد ذلك فهو صدقة . ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه [1] » . وينهى الإسلام على هؤلاء المغرمين بالجدل ، بالحق والباطل ، هؤلاء الذين يجعلون من أنفسهم حزب معارضة فى جميع الظروف والأحوال . لا لشىء إلا للجدل ، والجدل فحسب . إذا حدثت أحـــدهم بأن الشمس تشرق من المشرق سرعان ما ينبرى مفنداً رأيك زاعما ومؤكدا أنها تشرق من المغرب . فيجرح شعورك ويؤذى وجدانك . وياعجبا لهؤلاء ، لا يرضيهم أن يكون بالمجلس صامت فتراهم يحرجونه بالأسئلة حتى يجروه إلى جدلهم ولجاجهم ، إلى هؤلاء وأمثالهم ممن يطلقون العنان لألسنتهم فى الحديث بالحق والباطل . فيقعون فى الكذب ولا يبالون . نسوق حديث أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسّن خلقه [1] » .

وكذلك يكره الإسلام للمسلم أن يكون ثرثاراً يكثر من الكلام بلا داع ، وينعى على هؤلاء الذين يتصدرون المجالس محاولين الاستيلاء على دفة الحديث لا عن علم علموه فنشروه . ولكن حبا فى الكلام لشهوة النفس ، ويوجه الشخصية الإسلامية إلى الصمت الكريم إلا عن حق تذيعه أو علم تنشره يقول الله تعالى : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح

---

(١) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

(١) رواه أبو داود واللفظ له . وابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن .

بين الناس [١] » . ويقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أنس عنه رضى الله عنه قال : لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال : يا أبا ذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر ، وأثقل على الميزان من غيرهما . قال بلى يا رسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت فوالذى نفسى بيده ما عمل الخلائق بمثلهما [٢] » .

وعن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى فى الآخرة محاسنكم أخلاقا . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى فى الآخرة أسوأكم أخلاقا الثرثارون المتفيهقون المتشدقون [٣] » . وتبلغ التعاليم الإسلامية بالشخصية الإسلامية الذروة فى الذوق ورقة الإحساس فتطلب من المسلم أن يكون هاشاً باشاً طلق الوجه . خدوما لإخوانه لا يحتقر

(١) النساء ـ الآية ١١٤ .
(٢) رواه ابن أبى الدنيا . والطبرانى والبزار وأبو يعلى بإسناد جيد ورواته ثقات واللفظ له ...
(٣) رواه أحمد ورواته رواة الصحيح، والطبرانى وابن حبان فى صحيحه . والثرثار . هو الكثير الكلام تكلفا، والمتشدق . هو المتكلم بملء شدقه تفاصحا وتعظيما لكلامه ، والمتفيهق . المتكبر .

من المعروف شيئاً مهما صغر . عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلق أخاك بوجه طليق [١] » ، وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبسمك فى وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ، وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة [٢] » .

وعن أبى جرى الهجيمى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله : إنا قوم من أهل البادية . فعلمنا شيئاً ينفعنا الله به . فقال لا تحقرن من المعروف شيئاً أن تأتيه ولو أن تهب صلة الحبل ، ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، ولو أن تلقى أخاك المسلم ووجهك بسط إليه ولو أن تؤنس الوحشان بنفسك ولو أن تهب الشسع [٣] » .

شجاعته الأدبية :

وأما شجاعة المسلم الأدبية . فالمسلم قد بلغ

(١) رواه مسلم ..
(٢) رواه الترمذى . وحسنه . وابن حبان فى صحيحه .
(٣) رواه النسائى ـ والشسع . النعل ...

الغاية القصوى فى الشجاعة الأدبية ذلك أنه يؤمن أن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشىء فلن تضره إلا بشىء قد كتبه الله عليه ، وإن اجتمعت على أن تنفعه بشىء فلن تنفعه إلا بشىء قد كتبه الله له كما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويؤمن كذلك بقول الرسول الكريم . وقد سئل أى الجهاد أفضل ؟ فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر (١) » .

وبحسبنا نموذجا للشخصية الإسلامية . شخصية ظهرت قبيل عصر المماليك وهو عصر يعده الكثير من المؤرخين من عصور التأخر والانحطاط ، ومع ذلك نرى فيه الشخصية الإسلامية فى أكمل صورها . فى شخصية العز ابن عبد السلام . ففى أيام الدولة الأيوبية . لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية ، وسلمهم صيداء وغيرها من الحصون لينجدوه على الملك نجم الدين أيوب . أنكر عليه العز بن عبد السلام هذه الفعلة . فغضب عليه وعزله واعتقله . ثم بعث إليه يعده ويمنيه . فقال له رسول السلطان : « تعاد إليك مناصبك وزيادة وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان » فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد (٢) » .

ويسجل المؤرخون للشيخ قصة أخرى أدل على شجاعة المسلم الأدبية ، وقف فيها الشيخ منفرداً أمام نائب السلطان وأمرائه ، وكانوا يقتلون النفس ويزهقون الروح ، وهم يلهون ويلعبون ، وقف السلطان أمام هؤلاء يستذلهم ويضعهم فى موضع العبيد ، بل يبيعهم كما يباعون ، وينفق ثمنهم فى مصالح المسلمين .

قال المؤرخون : إن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، سلطان مصر ، أسرف فى شراء المماليك من بيت المال وأسكنهم فى قلعة الروضة ، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ويجعل منهم أمراء يتسلطون على رقاب الناس ، ولم يصح عند الشيخ ابن عبد السلام عتقهم ، وأنهم لا بد أن يباعوا ويوضع ثمنهم فى بيت المال ، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان واجتمع الأمراء وطلبوا الشيخ ليحدثوه فى هذا الأمر العجيب فقال : « لا رأى عندى ولا حكم إلا أن نعقد لكم مجلسا ينادى عليكم فيه للبيع ويدخل ثمنكم إلى بيت المال ، ثم يكون عتقكم بطريق شرعى بعد ذلك » .

ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان ، فبعث السلطان إلى الشيخ من يطلب إليه أن يرجع عن فتواه ، فلم يرجع ، فأنكر عليه السلطان أن يدخل فى هذا الأمر الذى ليس من شأنه ،

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح .

(٢) عن كتاب « أبو حنيفة للأستاذ الجندى .

فغضب الشيخ وأخرج متاعه اليسير وسار به يريد أن يعود إلى وطنه بالشام . وتسامع الناس أن سلطان العلماء قد غضب على البلد وعلى سلطانها فغضب الناس لغضب الشيخ ، ولحقوا به ولما وصل الأمر للسلطان وعلم بغضب الشعب ، أسرع السلطان فركب بنفسه وسار حتى لحق بالشيخ ، وأخذ يلاطفه ويترضاه حتى قبل أن يرجع إلى بيته على شرط أن ينزل الأمراء على رأيه، فقبل السلطان، وعقد الشيخ لهم سوقا ، نودى عليهم فيه للبيع واحداً بعد واحد ، وغالى فى أثمانهم ، وقبضها بنفسه وأنفقها فى مصالح المسلمين ، وكان يوماً مشهوداً وأمراً عجيباً .

إيمانه وغايته :

إن أخص خصائص الشخصية الإسلامية الإيمان الحى العميق بالله رباً قادراً بيده مقاليد السموات والأرض ، وبيده وحده الضر والنفع : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » [١] ، وتصرخ فى وجوه المشركين مؤمنة بقوله تعالى : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون » [٢] .

والمسلم يؤمن بالبعث أشد الإيمان ويراه أمراً واقعاً وحقيقة لا مناص منها ، ويعجب أشد العجب ممن يرى النشأة الأولى فى هذه الحياة ، وينكر النشأة الأخرى فى الحياة الثانية . ويواجه المنكرين للبعث بلسان الحال والمقال بما واجه الله به هؤلاء الجاحدين ،حيث يقول تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون » [١] .

ويؤمن المسلم كذلك بجميع أنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه . قال تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » [٢] .

وأما غايته . فهى العمل للدارين : الدنيا والآخرة بروح ثابتة وهمة لا تعرف الكلل ولا الملل . ويعتبر الحياتين الدنيوية والأخروية وحدة متكاملة الدنيا فيها مزرعة للآخرة .

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦٧ .

(١) يس ــ الآيات : ٧٨ ــ ٨٣ .
(٢) البقرة ــ الآية : ٢٨٥ .

ولا يعرف شيئا لقيصر مع الله . بل الأمر كله لله فى الدنيا والآخرة .

ألا وإن المسلم أقوى ما يكون وأشجع ما يكون . إذا فجرنا ينبوع الإيمان فى نفسه وإن المسلم أنجح شخص فى الوجود إذا ابتغى بعمله وجه ربه . وإن قوة فى الأرض كائنة ما كانت لا تستطيع أن تنهض لمواجهته إنسانا ربانيا وعبدا روحانيا . وإن التاريخ الإسلامى ليحدثنا عن غرائب وعجائب فى هذا المضمار لا يتسع المقام لذكرها .

ذلك أن المؤمن وقد فجر ينبوع الإيمان فى قلبه وأشرق نوره فى نفسه قد اتصل بسر الوجود . يستمد منه قوته . ويستضىء به طريقه ، فهو إنسان قد اتصلت بالله أسبابه : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب »[1] ، « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا »[2] ، « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[3] .

الحسينى أبو فرحة
عضو بعثة الأزهر بالجمهورية الصومالية

---

(١) الطلاق الآيتان ٢،٣ .
(٢) « « الآية ٤ .
(٣) الكهف الآية ١١٠ .

قال البهاء زهير فى الحث على الصبر وكان فى سفينة غرقت ونجا بنفسه :

لا تعتب الدهر فى خطب رماك به ... إن استرد فقدما طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالى تصرفـــه ... تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قـــد يجعل الأيام دائرة ... فلا ترى راحة تبق ولا تعبا
ورأس مالك وهى الروح قد سلمت ... لا تأسفن لشىء بعـــدها ذهبا
ما كنت أول ممدوح بحادثة ... كذا مضى الدهر لا بدعا ولا عجبا

قصة لسان العرب بين ابن منظور والبخاري

للأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي

نشر السيد الأستاذ « أبو طالب زيان » بعدد فبراير - مارس ١٩٦٣ من مجلة « قافلة الزيت » بحثا مستفيضا نفيسا بعنوان : « المعاجم اللغوية في الحياة العربية » تناول فيه الكلام عن المعاجم اللغوية ومؤلفيها في عصورها المختلفة، ولم يذكر في هذا البحث كلمة أو إشارة عن معجم لغوى ظل أعواما طوالا يترقب ظهوره علماء اللغة ومحبو البحث والاطلاع ، وتساءلوا في الصحف العربية والمجلات عن السر في عدم طبعه إلى الآن ، لأن مؤلفه من رجالات العلم واللغة والقانون المعروفين ، وله شهرة واسعة بتأليف « قاموسه الفرنساوى العربى » .

نحن نذكر في هذه الكلمة « السر في عدم طبعه إلى الآن » وقد ظل غامضا ولا يعرفه أحد طوال هذه السنين .

• • •

العالم القانوني اللغوى المرحوم « محمد نجارى بك » من كوم النجار بمحافظة الغربية كان قاضيا بمحكمة اسكندرية المختلطة ، وعالما بالعلوم القضائية والقانونية بعصر .

وقد ألف قاموسه الفرنساوى العربى ، وعرف باسم « قاموس نجارى بك » ، وهو أوسع القواميس الفرنسية العربية ، ضمنه كثيراً من المصطلحات العلمية والسياسية والطبية ، ويقع في أربعة أجزاء ، وطبع بالإسكندرية سنة ١٩٠٣ .

وأراد — رحمه الله أن يتخذ من « لسان العرب » لابن منظور قاموساً جديداً يعرف باسمه ورتبه ترتيبا يخالف ترتيب ابن منظور الذى وضعه له وهو المتضمن لهذين البيتين :

إذا رمت في « القاموس » كشفاً للفظة
فآخرها للباب والبدء للفصل
ولا تعتبر في بدئها وأخيرها
مزيداً ولكن اعتبارك بالأصل

لجعل البحث هو أول الكلمة وما يتلوها من حروف كترتيب « المصباح » للعلامة الفيومى و « مختار الصحاح » ترتيب المرحوم « محمود خاطر بك » ، وتنفيذاً لهذا المشروع اللغوى الضخم أحضر نسختين من « لسان العرب » المذكور ، واستعمل مقصه فيهما إلى أن وصل إلى « الجزء التاسع عشر » ثم انتقل إلى رحمة الله تعالى وقد نجا الجزء العشرون من حكم « الإعدام » لأن « لسان العرب » يقع في عشرين جزءاً طبعة بولاق الأميرية لا « ثلاثين » كما ذكر السيد « أبو طالب زيان »

فى بحثه (ص ٣) ولعله يريد طبعة بيروت وبعد وفاته تقدمت « أسرة الفقيد » بطلب إلى « دار الكتب المصرية » تريد طبع هذا القاموس نظير مكافأة مالية ، فانتدبنا لمراجعة أوراقه وكتابة تقرير عنه .

فذهبنا إلى منزل الفقيد بحى المنيرة ، وفى غرفة بسطوح المنزل رأينا أكواما من الملفات مدشوتة ، ومبعثرة هنا وهناك ، تعلوها الأتربة الناعمة الكثيرة ، وبعد فحصها بدقة وعناية ، ومراجعتها فى عدة أسابيع ، وهى على هذا الوضع الشائن الذى قضى المرحوم « نجارى بك » فى عمله سنين طويلة ، كتبنا هذا التقرير ، وكان السر فى عدم طبعه .

وإلى القارئ الكريم نصه حتى لا يتساءل باحث فى عدم طبع هذا القاموس إلى الآن .

* * *

بعد بحثنا وفحصنا « الملفات » التى تشتمل على أوراق « قاموس نجارى بك العربى » ، وتبلغ نحو المائة والخمسين ملفا ، وهى التى جمع فيها ما ورد فى « لسان العرب » لابن منظور ، بعد استعمال مقصه فى نسختين مطبوعتين منه ، وتشتيت شمل مواده ، وتفريقها شذر مذر ، مضافاً إليها ما زاد من البلدان فى « قاموس الفيروزأبادى » ، كما قال المرحوم « نجارى بك » فى المقدمة التى وضعها لهذا القاموس ، ونص عبارته :

كل شىء فيه أخذ بلفظه ، أو وضع فى محله ، فقد سلطت المقص على نسختين من الكتاب الأصلى (لسان العرب) ، وقطعت المادة الواحدة أجزاء ، وألصقت تلك الأجزاء على ورق أبيض ، كل جزء فى الموضع اللائق ، والحرف المناسب ، وكذلك فعلت فيما أخذت من القاموس » .

* * *

وأما غاية المرحوم « نجارى بك » ، والهدف الذى يرمى إليه أن يكون قاموسه الجديد مرتبا على الحروف الهجائية لأوائل الكلمات دون أواخرها ، ليكون على النظام المتبع فى القواميس الغربية . ومع الأسف الشديد أن الغاية التى كان ينشدها ويتوخاها فى قاموسه العربى الجديد ، وهى كل مجهوده ، لم نجدها متوافرة فى « الملفات » التى بحثناها وفحصناها ؛ فمن ذلك :

١ — أن أوراق هذه « الملفات » غير مرتبة على الطريقة الهجائية التى كان يتوخاها المؤلف فى الترتيب .

ويظهر أن ذلك نشأ من كثرة تناول الأيدى التى عبثت بهذه الأوراق حتى أصبحت مدشوتة ، وتتطلب مجهوداً كبيراً ، وزمناً طويلا ، لترتيبها على الوجه الأكمل ، فإن الملف الخاص بحرف الكاف يشتمل على المواد الآتية بهذا الترتيب فى الأوراق الملصوقة عليها :

، كَشْحٌ ، كَشَحَ ، كَشَّحَ ، كَشْبٌ ،
كَشَدَ ، كَشْخَنَةٌ ، كَشْخَنَ ، كَشْخَانٌ ،
كَشَخَ ، كَشَّخَ ، كَسِيرٌ ، كَسِيدٌ ، كَسِيحٌ
كَسِيَةٌ ، كَسُومٌ ، كَسُولٌ ، كَسُورٌ ،
كَسُوبٌ ، كَسْمَلَةٌ ، كَسَمَ ، كَسِلَ ،
كَسْلَانٌ ، كَسْلَانَةٌ ، كَسِلٌ ، كَسِلَةٌ ،
كَسَلَ ، كَسْكَسَةٌ ، كَسْكَرٌ ، كَسْكَاسٌ ،
كَسَفَ ، وكَسُفَ ، كَسَّفَ ، كسع ،
كَسَعَ ، كَسْعٌ ، كَسْطَنٌ ، كَسْطَلٌ ،
كَسْطَانٌ ، كَسْطَالٌ ، كَسَسٌ ، كَسْرَى ،
كَسَرَاتٌ ، كَسَرَ ، كَسَرَ ، كَسْرٌ ، كَسَرَ ،
كَسَدَ ، كَسُدَ ، كَسْحَانٌ ، كَسَحَ ، كَسْحٌ ،
كَسِحَ ، كَسَحَ ، كَسَبَةٌ ، كَسَبٌ ، كَسَالَى ،
كَساعِمٌ ، كساسرة ، كَسَارَى ، كَسَادٌ ،
كَسَاءٌ ، كَسَّابٌ ، كَسَاءٌ ، كَسَأَ ، كَسْءٌ
كَسَّ ، كَسٌّ ، كَشَّبَ ، كَشَبَ ، كَشَأَ ،
كَشْءٌ ، كَشَّ ، كَسِيَةٌ ، كَسِيفَةٌ ... ...
وهكذا إلخ .

هذا ترتيب أوراق الملف من اليمين إلى اليسار ، ومنه ترى أن المـــواد التي لصقها المرحوم « مجاري بك » لم يراع فيها الترتيب الهجائي بالدقة التي يجب أن تكون في وضع القواميس .

وفي الملف من اليسار إلى اليمين المواد الآتية :

كَشَحَ ، كَشَحٌ ، كَىٌّ ، كياسم .

٢ — وجود أوراق من القاموس غير موضوعة في أماكنها لمراعاة الترتيب ، فإن أوراقا من حرف الكاف غير مرتبة وخارجة عن ملفها الخاص .

٣ — عدم وضع أرقام مسلسلة على أوراق كل ملف تدل على أن المرحوم انتهى من ترتيب هذا الملف ترتيباً نهائياً وكاملا من كل وجه .

٤ — حرف الراء ، وهو موضوع في عدة ملفات ، وجدناه مع ما فيه من تقديم وتأخير في ترتيب المواد مدشوتاً مع حرف الألف .

٥ — بعض الملفات مكتوب على ظاهرها حرف ، وبداخلها حرف آخر ، كما كتب على ملف حرف (غ) وبداخله أوراق حرف العين .

وأغلب الملفات لا يمكن الاهتداء إلى ما بداخلها من حروف .

٦ — وجود بعض كلمات ملصقة على الورق وغير متصلة بكلام قبلها أو بعدها .

٧ — الأوراق في بعض الملفات موضوعة

على غير نظام ، فتارة نراها منظمة ، ومرة نجدها مقلوبة .

* * *

ومما هو جدير بالذكر أن المرحوم « نجارى بك » أغفل أشياء كان يجب ألا يتركها ، لأنها ماسة بقاموسه الجديد ، بل هى من الضروريات لإتمام عمله ؛ وهى :

(ا) أنه أغفل جميع التصحيحات التى نبه عليها السادة الأساتذة مصححو مطبعة بولاق فى مواضعها بهوامش الطبعة التى سلط عليها مقصه .

(ب) أهمل جميع التصحيحات التى أشار إليها العلامة اللغوى المرحوم « إبراهيم اليازجى » ونشرها بمجلته « الضياء » فى حال حياته .

(ج) أهمل جميع التصحيحات التى نبه عليها علامة عصره ، وإمام زمانه فى اللغة والأدب المرحوم الشيخ محمد محمود بن التلاميد الشنقيطى بنسخته الخاصة المحفوظة بدار الكتب المصرية ، والتى أشار إليها بهوامش كتاب « المخصص » لابن سيدة .

(د) لم نجد للمرحوم « نجارى بك » أى تنبيه أو إشارة لما ورد فى اللسان أو القاموس من أخطاء ، وقد نبه عليها العالم اللغوى المحقق الجليل المرحوم « أحمد تيمور باشا » فى كتابين خاصين له أحدهما : « تصحيح لسان العرب » فى قسمين ـ وقد قمنا بنشرها سنة ١٩١٧ ، ١٩١٨ ـ والآخر : « تصحيح القاموس » . وكتصحيحات العالم الجليل المرحوم الشيخ محمود مصطفى ، والعالم الجليل الشيخ محمد البلبيسى ، وقد توليا رياسة التصحيح بمطبعة بولاق الأميرية ، وغيرهم .

(هـ) زاد المرحوم « نجارى » بخط يده فى بعض المفردات كلمات ولم يعين المصدر الذى استقاها منه ، ولكن بعد بحثنا وتحقيقنا وجدنا أنه نقلها من اللسان أو القاموس ، وكنا نظن أنه أضافها من غير هذين الكتابين لزيادة الفائدة وتعميم النفع .

(و) أغفل المرحوم « نجارى » فى قاموسه الجديد ـ مع إشارته فى المقدمة إلى أنه اقتصر على ما فى اللسان والقاموس ـ عملا ضروريا وهو عدم إضافة المفردات اللغوية المبعثرة فى كتب اللغة ، وهى التى أهملها صاحب اللسان أو صاحب القاموس ، وكثيرة ما هى ، ليكون قاموسه كاملا ، وعمله مستوفيا .

(ز) عدم تنبيه المرحوم « نجارى » فى المقدمة على أنه : هل يعتبر الحرف المشدد بحرفين ، أم بحرف واحد .

(ح) لم ينبه أيضا على أنه : هل يعتبر التاء المربوطة هاء أم تاء .

« الطريقة المثلى لإعادة طبع لسان العرب » :
والطريقة المثلى فى نظرنا لإعادة طبع هذا

الكتاب النفيس ، الجليل النفع ، العظيم الفائدة ، أن يطبع كما هو ، مع إضافة التصحيحات التى أشرنا إليها ؛ ويحسن أن يراعى « القسم الأدبى » الذى سيتولى تحقيقه وتصحيحه الملاحظات الآتية :

(ا) أن يتوخى فيه الترتيب الذى فى طبعة كتاب « أساس البلاغة » للإمام اللغوى الجليل العلامة الزمخشرى ، بأن توضع مواده فى نهرين .

(ب) أن يبتدئ كل معنى جديد فى المادة بأول السطر .

(ج) ويحسن « بالقسم الأدبى » حين مباشرته لهذا العمل أن يجعل بين يديه كثيراً من كتب اللغة الأخرى الموثوق بها - مخطوطة ومطبوعة - ككتاب « المخصص » لابن سيدة و « تاج العروس فى شرح القاموس » للإمام اللغوى العلامة الزبيدى وكتب الأضداد فى اللغة للأصمعى وابن الأنبارى والسجستانى وابن السكيت والصاغانى وغيرهم ممن لهم رسائل خاصة فى اللغة لا يعرفها إلا المشتغلون بالبحث والتحقيق ، وقليل ما هم .

(د) البحث عما نثر بين ثنايا صفحات كتب اللغة والأدب من الكلمات اللغوية المفسرة التى أهملها صاحب اللسان أو صاحب القاموس كأمالى القالى ، والكامل للمبرد ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وغيرها .

وتحت يدنا - ولله الحمد والشكر - الكثير من هذه الكلمات مكتوبة بخطنا فى جزازات ، وقد ذكرنا بعضها فى مؤلفنا : « أبو الفرج الأصبهانى وكتابه الأغانى » الذى نشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥١ (ص٣٧٢-٣٨٣)

وبذلك ينشر للعلماء والمتأدبين أوسع كتاب فى اللغة وأكثره فائدة .

وقد علمنا أخيراً أن « المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطبع » بوزارة الثقافة والإرشاد القومى عازمة على إعادة طبعه ووزعت فعلا بعض أجزائه على أفراد ممن ليس لدى بعضهم الخبرة التامة فى التحقيق العلمى والبحث اللغوى ، والتصحيح الفنى ، وهى الطامة الكبرى ، والجناية العظمى ، لإسناد مثل هذه الأعمال إلى غير أهلها .

ومع الأسف الشديد أن « لسان العرب » المذكور أعيد طبعه فى بيروت فى عدة أجزاء وهى مملوءة بالأغلاط ، والتحريفات ولم يراع فى تحقيقه وتصحيحه الدقة والعناية ، وتوخى الصواب .

وبعد الاطلاع على المذكرة التى رفعناها إلى دار الكتب بشأن « قاموس نجارى العربى » والعيوب التى ذكرناها لم توافق على طبعه ، وكان هذا هو السر فى عدم طبعه ونشره .

وعلمنا أن أسرة الفقيد تقدمت به إلى « المجمع اللغوى » لطبعه فلم يوافق أيضا .

محمد عبد الجواد الأصمعى

بين العالم الإسلامي وأوربا

حرية العقيدة في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

شواهد من التاريخ السياسي للإسلام على كفالة حرية العقيدة للذميين :

ولقد اغتبط المسلمون بانتصار المسيحية التي يمثلها الروم بزعامة هرقل على المجوسية التي تمثلها الفرس بزعامة كسرى سنة ٦١٤ ميلادية ، ذلك أن المسيحيين أهل كتاب كالمسلمين . وقد ظلت خلة الإخاء بين أتباع محمد وأتباع عيسى وثيقة في حياة النبي برغم ما كان بين الفريقين من مجادلة ، على خلاف ما كان بين المسلمين واليهود من تهادن أول الأمر ثم عداوة استمرت بخيانة اليهود وانتهت بهزيمتهم ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

« لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

وبرغم عدم إقرار المسيحية بنبوة محمد كما يقر الإسلام بنبوة عيسى وعداوة اليهود للإسلام وخياناتهم له أحسن المسلمون معاملة الجميع وكفلوا لهم حرية العقيدة . وعلى حين قاوم المسيحيون من الرومان دعوة الإسلام وبدأوا يأتمرون به وبأهله ، وشنوا عليهما الحروب التعصبية ، ظل المسلمون على تسامحهم ، فالتزموا في حربهم موقف الدفاع ، وحين انتصروا لم يكرهوا أعداءهم على الدخول في الإسلام ، عملا بأحكام القرآن في رعاية أهل الكتاب وكفالة حقوقهم ، وبوصية الرسول بالمعاهدين والذميين خيرا ، وما جاء بكتابه إلى المقوقس عظيم القبط من دعوة إلى الدين دون إلزام أو إكراه .

والشواهد التاريخية على ذلك في عهد الرسول وخلفائه لا تقع تحت حصر . فقد أقام المسلمون علاقات ودية حميدة مع المسيحيين من أهل الحبشة ولم يفكروا يوما - وهم في قمة انتصاراتهم - في التطلع إلى فتح هذه البلاد ، ذلك أنها لم تقف في وجه دعاتهم بل كفلت لهم حرية الرأي ، فحق على المسلمين احترام حريتها في العقيدة .

وقد بلغ من شأن كفالة الحقوق المدنية والاجتماعية والاقتصادية للذميين ما روى

عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب حين رأى شيخاً يهودياً يتكفف الناس ، فسأله عن السبب فأجاب : أسأل الجزية والحاجة والسن . فقال عمر : « ما أنصفناك ، أكلنا شبيبتك وتركناك عند الشيخوخة » ، وأمر بطرح جزيته ، وأن يعال من بيت مال المسلمين هو وعياله .

ومن ذلك قول سيف الله خالد بن الوليد فى حديثه عن سياسته فى الأقطار التى وفرف عليها علم الإسلام : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ـ طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » . وكذلك ما كتبه هذا القائد الإسلامى العظيم إلى صلوبا ابن نسطونا وقومه حين أوغل فى الفرات فى شهر صفر من العام الثانى عشر للهجرة : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا » .

كما ورد هذا المبدأ أيضاً فى رد الأمراء بأمر أبى عبيدة فى حمص ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها وما إليها حين جلوا عنها ليتجمعوا لقتال الروم وقالوا لأهل البلاد : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك الآن ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » . وكذلك فعل أبو عبيدة فى دمشق حين كان يتجهز لليرموك . وكتب سويد بن مقرن قائد عمر لزربان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان فى العام الثامن عشر للهجرة : « إن لكم الذمة وعلينا المنعة ، على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حال ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه أى جزيته » . وكتب عتبة ابن فرقد عامل عمر لأهل أذربيجان : « ... ومن حشر منهم فى سنة » أى جند « وضع عنه جزاء تلك السنة » . وورد مثل ذلك فى عهد سراقة عامل عمر لشهر براز : « ... أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا ، على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك .. فإن حشروا وضع ذلك عنهم » . وصالح الجراجمة قرب أنطاكية المسلمين « على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح فى جبل اللكام وألا يؤخذوا بالجزية » .

وقد اطرد انتشار حرية العقيدة بانتشار الإسلام عبر العصور اللاحقة فى السلم والحرب معاً ، وسايرتها المساواة بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات . وحفظ لنا التاريخ وثائق كثيرة تدل على تمسك حكام الإسلام وقواده بهذا المبدأ الإنسانى العظيم ، وبلغ

من ذلك أن جحافل التتار حين غزت البلاد الإسلامية وأسرت كثيراً من المسلمين والنصارى ثم هزمها المسلمون فى الشام، وأسلم ملوكها، طالب شيخ الإسلام ابن تيمية إمام العلماء فى عصره أمير التتار قطلوشاه بإطلاق سراح الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى عليه أهل الذمة، فقال له ابن تيمية : لابد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرا من أهل الملة ولا من أهل الذمة، فأطلقهم.

وبفضل حرية العقيدة التى كفلها الإسلام كسب أنصارا له فى كل مكان، وكانت هذه الحرية من أهم العوامل التى أسهمت فى انتصاره فى جميع المعارك التى خاضها.

فقد كانت فتوحه السلمية فى إقرار الحق والحرية والعدالة تسبق أنباء معاركه، ومن ثم لم يجد أعداؤه استجابة وغيرة من شعوبهم، بل لقد مهد بعض هذه الشعوب لدخول المسلمين ديارهم لتخليصهم من طغيان حكامهم ورجال دينهم، واستطاعت الدولة الإسلامية الناشئة فى خلال فترة وجيزة من الزمن أن تقهر أقوى سلطتين سياسيتين معاصرتين لها وهما دولتا : الفرس والروم وأن تبسط سلطانها فيما بعد على معظم أرجاء العالم الذى كان قائما فى ذلك الحين.

وبفضل هذه الحرية الدينية لم يعرف الإسلام، عبر تاريخه الطويل، الحروب الدينية التى وصمت جبين العالم وعوقته عن تطوره حينا من الزمن.

لا سلطان لرجال الدين على سائر الرعية.

وقد عصم الإسلام من هذه البربرية عقيدته السمحة التى تجعل الدين لله وتحرم الوساطة بينه وبين الفرد، فلا سلطان لرجال الدين على سائر الرعية ولا وصاية لهم على الناس :

« إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ».

فلا إمام سوى العقل المتحرر بنور من الحق الذى بعث الله به أنبياءه هداة ومرشدين ولا رهبانية ولا كهانة فى الإسلام، ولا صكوك غفران، وإنما صلة المرء بربه صلة خالصة تنبع من أعماق روحه بلا شريك ولا وسيط، ومرد الأمر كله إلى الله :

« بل لله الأمر جميعاً ».

هو الذى يجزى المرء بما كسبت يداه، والطاعة له سبحانه ولرسوله ولأولى الأمر ما عملوا بأحكام الشريعة التى نزلت لصالح البشرية، والدين عبادة لا وظيفة فلا عروش فيه ولا تيجان وإنما نظام يقوم على العدل والمساواة.

والمشتغلون بشئون الدين فى الإسلام لهم ما لغيرهم من حقوق وعليهم مثل ما عليهم من التزامات، ولا فضل لمخلوق على آخر إلا بالتقوى، بل إن الإسلام لم يعرف بين أهله فئة باسم رجال الدين، وإنما عرف العلماء والمفكرين والمصلحين والقادة، لأنه لا طبقية

فيه ولا امتيازات ، فالكل فى ظله سواسية، وميزان التفضيل هو العمل الصالح .

على أن الإسلام يحبذ الاشتغال بأمور الدين علما و تفقها لا صناعة وارتزاقا ، فالتفقه فى الدين ليس حكرا على أحد ولا وقفا على جماعة بعينها . فالإسلام عقيدة وتفكير ، والعقيدة مناطها القلب ، والتفكير مناطه العقل ، ولا قوامة لبشر على قلوب الآخرين وعقولهم .

وقد كان علماء الدين فى الإسلام من أهل الصنائع والحرف فلم يتخذوا علمهم مصدرا للتكسب والاحتراف أوينصبوا من أنفسهم ولاة على الشعب . فإذا أسندت الدولة إليهم مناصب معينة تتفق ومؤهلاتهم الخلقية والعلمية ، فإن مايتقاضونه من أجور عن هذه الوظائف العامة هو نظير لما يؤدونه للدولة من أعمال مثل الفتوى والقضاء والحسبة ، شأنهم فى ذلك كسائر المسلمين العاملين .

وكان المسجد فى الإسلام غير المعبد فى الأديان أو المعتقدات الأخرى إذ ارتبطت به العبادة وتفانى فيه العابدون ، فلاقيام للدين والمتدين فى غير هيكله ولا غنى لمباعنه . وجاء الإسلام ليحرر الناس من هذا الجمود ، فالإنسان ـ لا المكان ـ هو وحدة الدين ، والله يُعبد فى المسجد ويعبد فى كل مكان ، فأينما تولوا فثم وجه الله . والناس فى حق العبادة متساوون ولايتوقف قبول شعائرهم على كهنة أو كهانة .

بل إن المسجد هو منارة إشعاع للفكر والثقافة فى شئون الدين والدنيا جميعا .

ومن خلال هذه الفطرة المتكاملة فى الحرية والأحرار نجت الأمة الإسلامية مما ابتليت به الأمم القديمة من تحكم الكهان واحتكارهم أرزاق العامة باسم الدين ، فقد استغلوا تهاويلهم ومسوحهم وطقوسهم للتضليل ، وخلعوا على أنفسهم صبغة القادة المتحدثين باسم الله والذين رفعت عنهم التكاليف ، واتبعتهم الرعية فى ضلالهم .

التعصب الدينى فى العصور الوسطى بأوربا :

وعلى النقيض من هذه الحرية الدينية التى كفلها الإسلام ، كانت أوربا فى العصور الوسطى ، فقد شن حكامها وكهانها حروبا دموية ضارية انغمست فيها شعوبهم طوال عدة قرون ، واستبيحت فيها باسم الدين ، والدين منها براء ، جميع المقدسات الإنسانية من حياة وحرية وكرامة وعدل . وعلى حين سجل المسلمون فى الحروب الصليبية من صفحات التسامح والمروءة والتمسك بآداب الفروسية الإسلامية النبيلة فى معاملة الخصوم ما شهد به حتى غلاة أعدائهم ، ارتكب الصليبيون من المذابح ما سود صحائف التاريخ . وكانت تلك الحملات الوحشية التى شنتها أوربا على الديار الإسلامية حروبا عدوانية استعمارية شعارها الجور

والإكراه فى الدين ، فلم يكن للمسلمين مناص من التصدى لها بالقوة دفاعا عن النفس وذوداً عن حرية العقيدة .

ومن الأمثلة الصارخة على إنكار حرية الإنسان فى عقيدته ما فعلته أوربا المسيحية بالأندلس بعد اندحار الحكم الإسلامى فيها ، فقد بلغ بها التعصب ضد الإسلام وأهله ما لم تشهد له الإنسانية مثيلا فى أشد العصور ظلاما وهمجية ، فلم يقف فى سبيلها وازع من ضمير أو رادع مما اصطلح عليه البشر حتى فى جاهليتهم من معانى الوفاء بالعهود والمواثيق ، ولا يكاد المرء يصدق ما أثبته التاريخ من إعمال الكاثوليك السيف فى رقاب قرابة ثلاثة ملايين من المسلمين تنكيلا وانتقاما ، ولم يبق من المسلمين على قيد الحياة إلا من قدرت له النجاة بالعودة إلى إفريقية ، ومن أذهله الهول والفزع فارتد عن دينه إلى دين العتاة المعذبين .

على أن أمر التعصب الدينى ومصادرة حرية العقيدة لم يكن وقفاً على الحروب الصليبية والأسبانية ضد الإسلام ، بل شمل أوروبا المسيحية نفسها فى العصر الوسيط ، فلم تفرق محاكم التفتيش فى عقوباتها الوحشية بين المسلمين فى الأندلس العربية وبين المسيحيين الذين لا يدينون بالمذهب الكاثوليكى فى أسبانيا وسائر الممالك البروتستنتية فى أوربا ، وكم طارد الأباطرة من اختلف معهم فى الدين وساقوهم إلى المجازر بلا شفقة مما يذكر بمطاردة الوثنية للمسيحية فى عهدها الأول فى الدولة الرومانية ، ثم انتشار المسيحية فى أنحاء تلك الامبراطورية ومطاردة الامبراطور الذى اعتنقها للوثنية فى المملكة وخارجها ، ولقد استمرت الاضطهادات الدينية فى أوربا منذ القرن الرابع عشر حتى القرن السادس عشر ومذبحة « سانت بارتلمى » هى أبلغ دليل على ذلك .

ولم تكد أوربا تتنفس الصعداء من هذه الفوضى التى خاضتها فى لجج من دماء ، وما أهل القرن السابع عشر حتى عادت المنازعات المذهبية من جديد ، فقام صراع دموى رهيب بين الملوك البروتستنت والملوك الكاثوليك بألمانيا استمر ثلاثين عاما فجلب الوبال على الشعوب وأنهك مواردها وأصابها بالانحلال والفاقة .

ولا شك أن مصدر تلك الصراعات الدينية التى عمت أوربا فى عهود الإقطاع هو طبيعة النظام الدينى فى تلك العهود ، فقد كانت الكنيسة هى القوامة على شئون الدين وجعل رجالها من أنفسهم أوصياء على الناس يرسمون لهم أقدارهم ومصائرهم على هواهم . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل جاوزت الكنيسة سلطتها الدينية إلى السلطة الزمنية فنازعتها أصحابها ، وقامت زعامة دينية مقدسة فى روما

تحل محل سلطة القيصر الزمنية ، وتركزت السلطة الروحية فى شخص البابا الذى لا يخطئ وسرعان ما دانت لسلطانه الدينى الشعوب المجاورة وامتد نفوذه إلى بيزنطة بعد ضعفها ثم زوالها ، وكان رجاله يقهزون خوف الناس من العقاب ورغبتهم فى ثواب الآخرة ليؤكدوا سلطان الكنيسة الزمنى ، فكانوا يفرضون ضريبة العشور لصالحها ويقررون العقوبة على المخالف لتعاليمها لا فارق فى ذلك بين الأمير ورعيته ، ويحرمون من عطف الكنيسة من لا يرون فى تصرفاته ما يتفق مع سياستهم ، كما يمنحون البركة ووسائل الصفح والغفران التى يتوجه بها صاحبها دون مناقشة أو حساب إلى جنات الخلد الغناء الفيحاء !.

وهكذا تأصل سلطان البابا وخضع له الأمراء ومن خلفهم من الملوك والعواهل بلا قيد ولا شرط ، وسار العالم المسيحى فى طريق ممهد هو إرضاء الرب من طريق طاعة البابا روحيا وحكم الامبراطور زمنيا ودنيويا ، هذا الامبراطور الذى يستمد شرعية سلطته من الكنيسة ويحكم باسمها ونيابة عنها ، وما لبث هذا التعاون أن انهار تحت معاول الانقسام والشحناء بين البابا والامبراطور أو بين القوتين الروحية والزمنية وظل الصراع على السلطة بينهما طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، فضعفت سلطة الامبراطور وفقد رجال الدين قوتهم المعنوية ودب بينهم الفساد وسادت الأطماع الدنيوية ثم عمت المجازر الدينية ، فولى السلام شعار المسيحية .

التسامح فى الدولة الإسلامية :

وغنى عن الذكر أن نبين ملامح الصورة المقابلة للدولة الإسلامية فى تلك العصور ، وأبرز تلك الملامح والسمات المشرقة روح الإخاء والمودة والتكافل بين المسلمين بعضهم وبعض ، على اختلاف أصولهم وألوانهم وأوطانهم ، وروح التسامح والألفة بينهم وبين أبناء العقائد والديانات الأخرى ، فلا تعصب ولا عنصرية ، ولا تمايز ولا أحقاد بل الكل فى حق الحياة والحرية سواء تحت ظلال الشريعة السمحاء .

ويرجع الفضل فيما ساد العالم الإسلامى من وفاق استمر أحقابا طوالا إلى حرية العقيدة التى دعا إليها الإسلام ، وجعلها إحدى القيم الكبرى التى أرساها احتراما لإنسانية البشر ، ورفعا من أقدارهم وحماية لهم من الهوان ، ودفعا لهم إلى المضى فى سبيل التقدم وعمران الكون .

ولم تكن هذه الحرية مبدأ نظريا فحسب بل كانت تطبيقا عمليا فى عهد رسول الحرية وخلفائه من بعده اهتدى به المسلمون عبر العصور المختلفة ، وسلمت أجيالهم المتتابعة بعضها لبعض هذا المبدأ العظيم أمانة مقدسة لا سبيل إلى انتهاكها لأنها من وحى الله ،

ووثيقة حاسمة لا سبيل إلى نقضها لأنها من صميم الرسالة الخالدة .

وكانت آيات الكتاب الكريم وتعاليم الرسول ووصايا الخلفاء إلى ولاتهم فى خطبهم ورسائلهم هى الضمانات الكفيلة بتحقيق مبدأ حرية العقيدة لما لأحكامها من قدسية فى قلوب المسلمين وقوة إقناع فى عقولهم .

وعلى أن هذه الحرية شأنها شأن سائر الحريات الإسلامية مشروطة بقيد لا مفر من الالتزام به ، وحد لا ينبغى تخطيه ، ذلك أنه لا يوجد حق مطلق ولا حرية بغير حدود وإنما تكافؤ بين الحقوق والواجبات ، القيد الذى يرد على الحرية الدينية هو ذاته الوارد على غيرها بموجب أحكام الشريعة الإسلامية ونعنى به احترام حقوق الآخرين وحرياتهم وعدم الخروج على نظام الدولة الاسلامية وعقيدتها ، فالإسلام يضرب على يد العابثين بكيانه ، والمستغلين ما خلع عليهم من حريات لتحقيق أطماع ذاتية وانتهاج سلوك يمس سلامة المجتمع وآدابه العامة .

الميثاق وحرية العقيدة :

وفى ضوء القيم الإسلامية العليا التى تسير عليها حكومتنا الشعبية الثورية ، سجل الميثاق الوطنى فى كثير من مــواده استنكاره للتعصب والإرهاب .

وأفرد فى بابه السابع ، حــول الإنتاج والمجتمع ، نصا خاصا للحرية الدينية بقوله :

« إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة الحرة » .

ذلك أن هذه الحرية التى كفلها الإسلام هى إحدى القيم الروحية التى وصفها الميثاق فى المادة التالية ، بقوله :

«إن القيم الروحية الخالدة النابعة من الأديان قادرة على هداية الإنسان وعلى إضاءة حياته بنور الإيمان وعلى منحه طاقات لا حدود لها من أجل الخير والحق والمحبة » .

« ويؤكد الميثاق حرية الانسان فى عقيدته بعد ذلك ، بقوله :

« إن الإقناع الحر هو القاعدة الصلبة للإيمان ، والإيمان بغير الحرية هو التعصب ، والتعصب هو الحاجز الذى يصد كل فكر جديد ويترك أصحابه بمنأى عن التطور المتلاحق الذى تدفعه جهود البشر فى كل مكان » .

وهاهى جمهوريتنا تفتح أبوابها ـ كما فعل المسلمون من قبل ـ للعلماء الوافدين إليها للإسهام فى نهضتها الكبرى من أبناء الأمم الأجنبية على اختلاف دياناتهم وعقائدهم تيسر لهم فى الرزق ما أقاموا وتكفل لهم الحريات الأساسية للإنسان ، لا تشترط عليهم فى ذلك إلا ما تطالب به أبناءها من احترام سيادة الدولة والالتزام بأنظمتها وقوانينها العامة .

حسن فتح الباب

دولة الإسلام والعالم

على الحدود ... بين دولتين وحضارتين

مناطق الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

للأستاذ فتحي عثمان

فى أخبار الفتوح الإسلامية نجد مؤرخنا الطبرى « المتوفى سنة ٣١٠ هـ - ٩٣٢ م » يجمل ما روى عن مسير خالد بن الوليد من العراق إلى الشام وانتقاله من جهة الحرب مع الفرس إلى جهة الحرب ضد الروم ، فيقول فى أخبار سنة ١٢ هـ (سنة ٦٣٣ م) :

« كان أبو بكر رحمه الله قد عهد إلى خالد أن يأتى العراق من أسفل منها ، وإلى عياض بن غنم - أن يأتى العراق من فوقها ، وأيكما سبق إلى الحيرة فهو أمير على الحيرة ، فإذا اجتمعتما بالحيرة إن شاء الله وقد فضضتما مسالح ما بين العرب وفارس وأمنتم أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليقم بالحيرة أحدكما وليقتحم الآخر على القوم ... ثم قصد خالد إلى الفراض ، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة ، فأفطر بها رمضان فى تلك السفرة التى اتصلت له فيها الغزوات والأيام ... » .

وهكذا رسمت الطبيعة وحدة المجال العربى ، ووحدة المصير العربى . . انتقال داخل ديار العرب بغير حدود ، وحدود طبيعية تقف على مشارف الديار العربية على اختلاف أقطارها لحراسة أمة العرب من غارات المعتدين .

وكانت العراق قبل الفتح الإسلامى فى مجال النفوذ الفارسى ، وكانت الشام قبل الفتح الإسلامى فى مجال النفوذ البيزنطى ، وكانت الجزيرة ميدان قتال بين الجانبين ... ولكن الظروف الجغرافية كانت تتيح المنافذ الطبيعية للاتصال .

ودخلت العراق والجزيرة والشام فى دولة الإسلام ، فاستقامت الحدود على مشارف الشمال ، تعزز الاتصال داخل المجال العربى الإسلامى وتعزز الاتصال بين هذا المجال والخارج ، كما تعزز الدفاع عن دولة الإسلام وحضارة الإسلام فى مواجهة أى انقضاض من أرمينية ، أو عدوان من الروم البيزنطيين فى آسيا الصغرى .

كتب ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ سنة ١٢٢٩ م) عن الموصل .

« المدينة المشهورة العظيمة ، إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبرا وعظما وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محط رحال الركبان ،

ومنها يقصد إلى أزربيجان وكثيرا ما سمعت أن بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق ودمشق لأنها باب الغرب والموصل لأن القاصد إلى الجهتين قل ما لا يمر بها ، قالوا : وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق ، وقيل وصلت بين دجلة والفرات ، وقيل لأنها وصلت بين بلد سنجار والحديثة » .

وكتب الاصطخرى (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) عن حلب :

« عامرة بالأهل جدا ، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ... » .

وهكذا امتد الخط بين الموصل وحلب ، أو ما بين الجزيرة والشام ، وكان يليه إلى الإمام منطقة عرفت فى تاريخ النظم الإدارية والحربية بمنطقة الثغور والعواصم ، كان منها ما يلى الجزيرة فى شمالى العراق فسمى بالثغور الجزرية وكان منها ما يلى الشام فسمى بالثغور الشامية .

ويعرف ياقوت الثغر بأنه « كل موضع قريب من أرض العدو ، كأنه مأخوذ من الثغرة ، وهى الفرجة فى الحائط - ومنه ثغر الشام وجمعه ثغور وهو يجمع بلادا كثيرة ... ومرعش من ثغور الجزيرة » وأما العواصم فيذكر عنها ياقوت أنها جمع عاصم وهو المانع والعواصم حصون موانع .

وقد قسم قدامة بن جعفر (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، النصف الأول من القرن العاشر الميلادى) الثغور إلى برية وبحرية وبرية بحرية ، وقسم الثغور على الحدود الإسلامية البيزنطية إلى شامية وجزرية وبكرية نسبة إلى ديار بكر ثم ثغر قاليقلا فى جهة الشمال ، وكان مما قاله :

« إن الثغور المقابلة لبلاد الروم : منها برية تلقاها بلاد العدو وتقاربها من جهة البر ، ومنها بحرية تلقاها وتواجهها من جهة البحر ، ومنها ما يجتمع فيه الأمران وتقع المغازى فى أهلها فى البر والبحر ، وهو اصم هذه الثغور وما وراءها من بلدان الإسلام وإنما سمى كل واحد منها عاصما لأنه يعصم الثغر ويمده فى أوقات النفير .

وقد نقل ياقوت رأيا يعتبر حلب من ثغور الشام ، ورجح أنها لم تكن تعد منها ، على أن أهميتها الحربية ليست محل جدل ، وبخاصة بعد أن صارت قاعدة دولة الحمدانيين الثغرية التى نشأت حول الموصل وامتدت إلى حلب ، وبنى سيف الدولة مجده فى حلب بعد أن دخلها سنة ٣٣٣ هـ ، بينما ظل أخوه ناصر الدولة حفيظاً على تراث أسلافه من الحمدانيين فى أرض الموصل ، وقد عدد الرحالة الأندلسى ابن جبير (المتوفى سنة ٦١٤ هـ - ١٢١٧ م) ، شيئاً من أمجاد حلب ، ومن ذلك قوله :

« فكم هاجت من كفاح ، وسلت عليها من الصفاح ، لها قلعة شهيرة الامتناع ، بائنة الارتفاع ، معدومة الشبه والنظير فى القلاع ، تنزهت أن ترام أو تستطاع ... » .

وهكذا قام الاتصال الطبيعي بين أرجاء ديار العرب ، كما قامت حماية طبيعية تمثل خطاً مميزاً ليس فقط فى مجالات الحرب ، بل أيضا فى مجالات الحضارة :

« فالإقليم واضح التحديد عما جاوره ، بفضل تطويق أنواع ثلاثة قوية من الحدود الطبيعية : البحر شمالا وجنوباً ، والصحراء جنوباً ، والجبال (خط زاجروس طوروس) شمالا وشرقا ... فهنا فضل الجبال واضح فى فصل الحضارات والأجناس واللغات الإيرانية والتركية عن الإقليم رغم بعض التسربات الهامشية الثانوية ، فهذه كانت بحق للعالم العربى (سور العرب العظيم) الطبيعى ... والتجانس القاعدى جنسياً ولغوياً ودينياً هو قانون التركيب الداخلى فى العالم العربى ، أما الشذوذ الحقيقى فهو الأقليات الدخيلة ، ولكنها لا تمثل إلا نسبة عددية محدودة ...

« والحد الطبيعى الفيزيوجرافى والتاريخى البشرى لسوريا هو جبال طوروس الحاجز الفاصل الحقيقى بين القومية العربية والقومية التركية (دولة الروم البيزنطيين قبل الفتح العثمانى) ، وكل المدن التركية الحالية جنوب طوروس تحمل أسماء عربية أصيلة ، ولقد كانت (سوريا الطبيعية) تشمل تاريخياً قيليقية وأطنة وأذنة ، ومرسين ، واعترف الحلفاء بتلك الحقيقة فى معاهدة سايكس بيكو السرية سنة ١٩١٥ ، ولكن منذ تخطيط الحدود مع تركيا والحدود السورية تتأرجح باطراد نحو الجنوب ... وكان معنى هذا ضياع قيليقية لتركيا ثم إضافة مدن كلس وعنيتساب وماردين إلى تركيا ، كلها مدن عربية صميمة كان تاريخها منذ الدولتين الأموية والعباسية تاريخ (الثغور) العربية ، أى بمعنى آخر كان نتيجة هذا اقتطاع الظهير الاستبسى التجارى والهنترلاند (الظهير) الطبيعى لمدينة حلب ، فأصبحت رأساً بلا جسم ، ووضع منابع نهرها (نهر قويق) الذى يغذيها بمياه الشرب والرى تحت رحمة الأتراك الذين لم يلبثوا أن حولوه عنها تماما لرى أراضيهم ، كذلك أصبح موقع حلب الاستراتيجى هامشياً خطراً سلبها عنصر (العمق فى الدفاع) ، لهذا أخذت تذوى وتتوقف عن النمو ، يضاف إلى هذا أن الحد السياسى الجديد مفتعل يعتمد على القبائل الرعوية التى تتحرك باستمرار عبرها فى مجالاتها القبلية التقليدية مما يخلق مشاكل وحوادث الحدود المزمنة ، وفوق كل هذا أصبح الخط الحديدى حلب نصيبين فى حدود تركيا ، مما عزل (الجزيرة) بإنتاجها وفائضها الحبوبى الثقيل عن منافذ الساحل وأسواق الأكيومين Oekumene السورى الحقيقى ، ولقد أدى ضياع الخط الحديدى السابق إلى ضرورة إنشاء خط جديد

فى مشاريع التنمية الاقتصادية السورية الأخيرة ، كما أن توغل الحدود جنوباً لمصلحة تركيا التى تحتفظ بقاعدة جوية ضخمة فى ديار بكر يهدد بإمكان عزل الجزيرة عن النواة النووية فى حالات الخطر ، ثم فى سنة ١٩٢٢ جاء اغتصاب لواء الإسكندرونة ، وكان معناه سلب نافذة مدينة حلب بعد أن سلب ظهيرها من قبل وزيادة تهديد المدينة عسكرياً بهذا الإسفين المتاخم على بوابة سوريا الشمالية لا سيما مع وجود قاعدة أطنة (أذنة) الجوية من قرب ، كذلك كان معنى سلب الإسكندرونة ضياع الموارد الطبيعية لمساحة تناهز نصف مساحة لبنان غنية بالمعادن خاصة الكروم والبترول ومن أرطب أجزاء سوريا التى تشكو عدم كفاية المياه ومن ثم ضياع أغنى أجزائها بالإنتاج الزراعى ، هذا عدا ربع مليون نسمة أغلبيتهم العظمى من العرب تماما ، أضف إلى هذا ضياع الميناء الطبيعى لسوريا الشمالية التى تعانى أصلا من تعمقها شرقا وبعدها الساحل ...

« وكان مفروضا أن يعطى لواء الموصل لفرنسا - أى لسوريا - حسب معاهدة سايكس بيكو السرية سنة ١٩١٥ ، ولكن انجلترا أصرت على ضمه للعراق لتستحوذ هى على بتروله ، كما أن تركيا كانت تطالب به على أساس أقليته التركية ... » (*)

إن لمنطقة أعالى الشام والفرات أهمية تاريخية حضارية من قديم ، فقد شهدت الدول والحضارات التى قامت على شواطىء بين النهرين (دجلة والفرات) أو على شاطىء البحر المتوسط ، وشهدت العلاقات السلمية والعدائية بين تلك الدول . وتاريخ هذه العلاقات يؤلف قصة طويلة مثيرة : من أبطالها ميتانى وخيتا ، وبابل وآشور ، وفينيقيا ومصر ، وميديا وبارثيا وفارس ، والإغريق والرومان ... إلى آخر الدول التى كانت لها علاقات ومصالح فى تلك الديار التى تسمى الآن بالشرق الأوسط ، والتى كان لها فى الحضارة تاريخ عريق ...

فهذه المنطقة تشغل موقعا هاما من الطرق الطبيعية من برية ونهرية وبحرية :

فنهر الفرات مثلا يفتح أمامها طريقا إلى الخليج الفارسى فالمحيط الهندى والشرق الأقصى ، والبحر المتوسط - وهو منها غير بعيد - يصلها بإفريقية وأوروبا ، والطرق البرية تكون شبكة تربط بين المنطقة وبين سائر ديار الشام فى مصر ، كما تربط بينها وبين الجزيرة فى العراق وإيران ، وتربط بينها كذلك وبين أرمينية ، ثم تربط بينها أخيراً وبين آسيا الصغرى فى أوروبا وبلاد البحر الأسود .

فلما جاء الإسلام كانت هذه المنطقة تتأرجح بين قوتين عالميتين كبيرتين : الامبراطورية

(*) دكتور جمال حمدان : دراسات فى العالم العربى .

الفارسية الساسانية والامبراطورية الرومانية البيزنطية ، ولكل من هاتين الامبراطوريتين فى تنظيم مناطق الحدود وحمايتها خبرات وأساليب ، وقد شهدت منطقة أعالى الشام والجزيرة ، علاوة على أرمينية ـ صراع الامبراطوريتين الكبيرتين على السيادة العالمية وكان للعرب قبل الإسلام دورهم فى حماية حدود كل من الامبراطوريتين ، فقامت إمارتا اللخميين والغساسنة كنوع من دويلات الأطراف أو التخوم أو الدويلات الحاجزة - Buffer States.

واستطاع المسلمون أن يصفوا حسابهم مع الامبراطورية الساسانية فى زمن وجيز ، كما استطاعوا أن يأخذوا من الامبراطورية البيزنطية الشىء الكثير ، ولكنها استطاعت أن تثبت فى عقر دارها طويلا ، وترد عن نفسها النوازل ، بل وتباشر الهجوم . وكان بين أيدى العرب فى سالف علاقاتهم مع الفرس والروم سوابق ، كما وجدوا فى الإدارة الحربية الساسانية والبيزنطية تجارب وحفزهم إلى الوقوف دائما على أهبة الاستعداد تربص البيزنطيين بهم ، فضلا عن ظروف دولتهم التى امتدت أطرافها وتعدد رعاياها بما استتبع بطبيعة الأمر من خلافات وانتفاضات ... كل هذه العوامل تفاعلت لتستنبط للمسلمين نظاما لمناطق الحدود بوجه عام ، ولثغورهم الشامية والجزرية التى تطل على عدوهم العنيد ـ الدولة البيزنطية بوجه خاص .

ولم يكن هذا النظام ليتولد فى يوم وليلة بل لا بد من أن يبلغ الكتاب أجله . ومن هنا سار هذا النظام فى عدة أطوار ، وحين نضج أضحت هذه المنطقة فوارة بالحياة . والحياة فيها ليست فى تحركات فيالق الجند ومعدات الحرب فحسب ، بل كان لها حياتها المتكاملة التى تؤدى فيها دورها الحضارى الإنسانى بحكم موقعها الهام بالنسبة لطرق التجارة العالمية وبحكم مركزها الحساس فى الاتصال الحضارى.

* * *

وقعت بلاد النهرين (دجلة والفرات) كما وقعت بلاد الشام فى نطاق المجال العربى قبل الإسلام بكثير . وقد أورد الهمدانى فى (صفة جزيرة العرب) شعراً قديما لبعض آل أسعد بن مليكيكرب تتبع منازل من غادر (الوطن الأم) من العرب ومنازحهم التى نزحوا إليها :

وغسان حى عزهم فى سيوفهم
كرام المساعى قدحووا أرض قيصر
وقد نزلت منا قضاعة منزلا
بعيداً فأمست فى بلاد الصنوبر
وكلب لها ما بين رملة عالج
إلى الحرة الرجلاء من أرض تدمر

ولخم وكانت بالعراق ملوكها
وقد طمحرت عدنان فى كل مطمحر
وحلت جذام حيث حلت وشاركت
هنالك لخما فى العـلا والتجبر

ومن هنا جاء الإسلام إلى بلاد النهرين فوجد العرب فى أدناها وأعلاها ، وكانت ديار ربيعة ومضر وبكر تحمل أسماء القبائل العربية التى نزلت الجزيرة فى أعالى العراق ـ قبل الإسلام ، وكانت الموصل على دجلة أجل مدن ديار ربيعة ، والرقة على الفرات قاعدة ديار مضر ، وآمد فى أعالى دجلة أكبر مدن ديار بكر التى هى أقصى الديار الثلاثة شمالا وكان بنو تغلب قد نزلوا فى الجزيرة أيضا كما جاء الإسلام إلى الشام فوجد العرب فى كل مكان ، وفى شمال الشام نزلوا وهم فى خيم الشعر ، ثم ابتنوا به المنازل ...

وكان بقرب مدينة حلب حاضر يجمع أصنافا من العرب من تنوخ وغيرهم ... » كما يروى البلاذرى . وهكذا كان للمجال العربى نطاقه البشرى بجانب حدوده الطبيعية منذ أمد بعيد ، وامتد العرب إلى هذه الأطراف الحساسة فى خريطة العالم فى ذلك الوقت على مشارف طرق المواصلات وقوى السياسة الكبرى . وقد ذكر شابو Chapot أن الأقليم المقسع المسمى Cyrrhestique قاعدته Cyrrhus قورس عند العرب ، كان يمتد ما بين الفرات وأنطاكية ، وكانت قورس تشرف على الطرق ما بين العراق والجزيرة وما بين أنطاكية وحلب ، كما كانت خط دفاع أمامى عن حلب وأنطاكية ومركزاً للفيلق الرومانى العاشر Fretensis . وقد كانت قورس جزءا من جند قنسرين عند الفتح الإسلامى ، وأورد البلاذرى فى أخبار الفتوح أنها « كانت كالمسلحة لأنطاكية يأتيها كل عام طالعة من جندها ومقاتلتها . وذكر تشارلسورث Charlesworth أن الطرق كانت تنبعث فى عصر الامبراطورية الرومانية من أنطاكية فى جميع الاتجاهات : غربا إلى قيليقية (كيليكيا) ثم تستمر إلى بيزنطة ، وشرقا إلى تدمر والفرات ، وشمالا إلى معابر الفرات الهامة مثل سميساط ، كما كانت أنطاكية ترتبط بالبحر الأبيض المتوسط عن طريق ثغرها سلوقية « سليوكيا » .

وقد كان إقليم الجزيرة بجانب إقليم أنطاكية يكونان مجالا ممتازاً للحشود العسكرية ، ويتميز بمواصلات ميسرة فى شتى الاتجاهات . ويرجح فيرجريف أهمية أنطاكية بالنسبة للطرق البرية على أهميتها البحرية . وكان الدفاع الرومانى فالبيزنطى فى هـذه المنطقة يعتمد على القوات المتحركة المدربة أكثر من اعتماده على المعاقل المحصنة ؟ (يتبع)

فتحى عثمان

الفكر في الإسلام

للأستاذ عباس طه

الإنسان مجبول بفطرته إلى اتخاذ عقائد دينية له، وهذه العقائد يتناولها أكثر المتدينين من آبائهم وقادة أديانهم من طريق التقليد بدون نقد ولا تمحيص. ولكن الإسلام حرم على أهله هذا الضرب من توارث العقائد، فشرط أن يكون أساسها العقل وسنادها الدليل.

وهذا ما لا عهد للإنسانية به إلا في العلوم الكونية بعد الإصلاح الخطير الذي أحدثه فيها العالم الانجليزي الكبير «بيكون» في القرن السابع عشر فخرجت المعارف الإنسانية بهذه الوسيلة من حيز الظنيات إلى حيز اليقينيات فما أحدثه هذا العبقري الانجليزي من التمحيص في مجال المعارف المادية سبقه الإسلام إليه بأكثر من ألف سنة في عالم المعتقدات الدينية. فليس على مسلم بموجب الأصل الإسلامي أن يتناول عقيدة دون أن يعقلها ويدلل عليها حتى ساغ لأصحاب الأصول من المسلمين أن يقرروا أن إيمان المقلد لا يقبل منه، لأن العقل في ذاته وإن كان خاصة طبيعية من صفاته التميز بين الحق والباطل والحسن والقبيح ولكنه في حاجة إلى نور يستمد من الخارج تظهر له به الأمور على ما هي عليه في الواقع.

فخاصة العقل بحكم وظيفتها في التفرقة بين الأمور الفاضلة وغير الفاضلة والشئون النافعة والضارة في حاجة ماسة إلى المقومات الذاتية والمقومات الخارجية. فالمقومات الذاتية المعارف على جميع ضروبها، والتجارب على اختلاف مواضيعها لأن العقل الخاوي من العلم والمجرد من التجارب يتعقل الأشياء تعقلا ساذجاً، ويميز بين الحسن والقبيح تمييزا سطحيا ولكن أيستطيع أن يفرق بين حق وباطل أو بين حسن وقبيح تفرقة صحيحة؟

إذا كان ذلك ممكنا لما اختلف الناس، في عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذي هم عليه اليوم. لذلك عني الإسلام بأمر المقومات العقلية بنوعيها كل العناية بقدر ما عني بنصب العقل حكما بين ما هو حق وباطل، وحسن وقبيح، وخير وشر.

فأما من ناحية المقومات الذاتية فقد حث على وجوب طلب العلم فقال تعالى: «وقل رب زدني علماً»، وعلل هذه العناية منه بوجوب طلب العلم بأن العلم يوجد لأهله مزايا يتجرد منها المحرومون منه، وهو يريد

أن يكون للآخذين به جميع المزايا التي يمكن أن يتمتع البشر بها فقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات فقال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » قال البيضاوى « يرفع الله الذين آمنوا منكم » بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا ، وإيوائهم فى غرف الجنان فى الآخرة « والذين أوتوا العلم درجات » ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل . فإن العلم مع علو درجته يقتضى العمل المقرون به مزيد رفعة . ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره . وفى الحديث : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » .

نقول : وقد قدر ابن عباس رضى الله عنه هذه الدراجات بسبعين درجة

وقد حض الإسلام ذويه أيضا على إجالة الفكر فى الأمور وتناولها بالبحث والتقدير وحثهم على النظر فى الكون والكائنات وتنور أسرارها واستكناه مساتيرها ، واعتبر ذلك أفضل من العبادة بالجوارح فقال تعالى : « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » : وقال « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » وكرر سبحانه ذلك فى عشرات الآيات .

وورد فى الأحاديث النبوية تحضيض شديد على التفكير ، حتى جعله النبى صلى الله عليه وسلم خير ضروب العبادة فقال : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » .

وقد شفع الإسلام هذا التحضيض على التفكير ببيان النواحى التى يجب توجيه الفكر إليها وهى :

١ — الوجود فى جملته ، فقال تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

« أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

٢ — الكائنات الأرضية من جمادية ونباتية وحيوانية ، والتأمل فى صورها وأشكالها وطبائعها وأسرار وجودها . قال الله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حبا وعنباً وقضبا . (أى رطبا) وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . (أى ذات أشجار غليظة) وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم » . وقال : « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات

من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . وقال « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت » الخ .

٣ — الإنسان ، تكوينه فى الرحم وميلاده وأطواره وأحواله ونفسه ، قال تعالى : « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . وقال : « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » . وقال : فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب » وقال : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فهذا ومئات أمثاله فى الكتاب الكريم يوقظ فى النفس غريزة النظر فيما بين يديها وما خلفها ، ويثير فيها رغبة ملحة لكشف المساتير واستجلاء غوامض الخليقة ، فتجد فيها مادة العقل غذاء لها يبلغها غاية ما تصل إليه من قوة التحليل والتركيب ، للمعقولات فلا تؤخذ بظاهر خلاب ، ولا عرض فاتن فإذا أرادت الحكم على الأشياء ردها عن الانخداع بالظواهر ما تمرست به من النفوذ إلى السرائر ، والغوص لاستخراج دفائن الحقائق .

ولم يكتف الإسلام بهذا من مقومات العقل فدفع بالآخذين به إلى مخالطة الأمم ، ومعاملة الشعوب ، وحفزهم إلى التجوال فى الأرض ، والضرب فى أكنافها ، ودراسة أحـــوال الجماعات الإنسانية ، والنظر فى شئونها ، من قوة وضعف ، وعزة وذلة ، وارتقاء وجمود ، والبحث عن أسباب ذلك وعلله ، من أمورها الراهنة ، وتاريخها القديم ، وتقدير ذلك بالمعايير العلمية ، وقياسها بالمقاييس الحكمية ، قال تعالى « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقال : « قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . وصرح جل وعز بأن ثمرة هذه السياحات إزالة ما على القلوب من ظلمات الجهالة ، وما على العقول من غاشيات الغباوة ، وما علق بالنفس من ران العماية ، قال تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون

بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور».

لم يدع الإسلام هدفاً من أهداف النظر ، ولا موضعاً من مواضع الاستبصار ، ولا عاملا مما يوقظ غريزة التأمل ، وينبه خاصة التفهم إلا دعا إليها واستنهض الهمم للتنافس فيها ، كل ذلك منه ليطوف بالعقل فى جميع أدوار التربية والنحو فيبلغه النضوج الذى يصبح معه قادراً على الحكم على ما هو حق وما هو باطل ، وما هو حسن وما هو قبيح ، حكما يكون هو الصواب كله أو قريباً منه .

والذى يتتبع وصايا الإسلام وتعاليمه يجده لم يهمل وجها من وجوه تربية الإنسان هذه التربية الأدبية إلا نبه ذويه إليه ، وحضهم عليه ، حتى ما يتوهم بعض الناس أنه لا علاقة له بها ، كالرياضة البدنية ، من المصارعة ، والمضاربة بالسيف ، والسباحة ، والمسابقة على الخيل مما قد يدفع بعض خصوم الإسلام أن يقولوا : ما لهذه الألاعيب والدين الذى يستدعى الوقار وحسن السمت والخشوع ؟ ويغيب عنهم أن هذه الرياضات التى يسمونها ألاعيب لا تنافى الوقار والسمت الحسن والخشوع ولا أرقى مظاهر التقوى ، ولكنها تعين عليها بفهم وتعقل وحنين صادق بما توجده للجسم من الصحة الكاملة ، وما تقتضيه من مراس عقلى وتدبير فكرى ، وخروج عن عوامل التحجر الجسدى والأدبى التى تمترى الذين يكرهون الحركات الجسمية ، ويألفون تمضية حياتهم بين جدران دورهم ومعابدهم . فإذا كان القصد من الدين تكميل الإنسان حساً ومعنى ، فهذه سبيل التكميل وهذه أساليبه ، هدى إليها البشر من طريق العمل ، ونزل بها الوحى الإلهى قبل عصر العلم على خاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم .

يقول خصوم الإسلام : إن الإسلام دين مادى يحض على العمل ، وعلى الضرب فى الأرض ، وعلى كسب المال ، وعلى الفتوح والتوسع فى الأرض ، وغاب عنهم أن الإسلام دين أوحى ليعتقد به ، لا ليعتقد ويلقى به فى زاوية باعتبار أنه لا يمكن القيام عليه .

وما رقى الإسلام من كل ذلك إلا لتحتك الناحية الأدبية من الإنسان بكل ما يمكن أن يصقلها ، ويستصفى جوهرها ، بتورطها فى مضايق الحياة ومآزمها ، وتمرسها بأحداثها وجوائحها ، فإذا اجتازت كل هذه القواطع خرجت منها مستكملة جميع الشرائط الصحية حاصلة على جميع خصائصها الطبيعية ناضجة نضوجا يؤهلها لبلوغ جميع غاياتها الروحية .

عباس طه

ما يقال عن الإسلام

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارة الإفريقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

A STUDY IN CONTEMPORARY ISLAM
ON THE WEST AFRICAN COAST

دراسة للإسلام المعاصر على الساحل الغربي للقارة الإفريقية ، موضوع كتاب ألفه الأستاذ همفري فيشر ، وخص الكلام فيه بالطائفة الأحمدية ، التي يظهر من ثنايا فصول الكتاب أنه على خبرة وافرة بشئونها حيث يقيم المنتسبون إلى هذه الطائفة في الهند وفي الديار الإفريقية .

وقد بدأ الكتاب بفصل عن خصائص الإسلام وخصائص الوثنية التي تساكنه على رقعة واحدة من القارة الإفريقية ، وأدار مباحثه على أربعة أبواب : الباب الأول منها يشرح فيه العقائد الإسلامية عامة ويتناول بالشرح نواحيها الخاصة حيث تتصل بالشعوب الوثنية مؤثرة فيها أو متأثرة بها ، على نحو يخالف بعض المخالفة مراسم العبادة وأشكالها في الأقطار الأخرى .

والباب الثاني يحمل تاريخ الطائفة الأحمدية منذ نشأتها بالهند في أواخر القرن التاسع عشر ، ويتتبع أدوار نشأتها إلى أن قام بالأمر في الطائفة « محمود أحمد » ابن صاحب الدعوة غلام أحمد القادياني ، فانقسمت الطائفة قسمين أحدهما المشهور باسم جماعة لاهور وهو يقترب شيئاً فشيئاً من عقائد أهل السنة ويفارق شيئاً فشيئاً بعض الدعوات التي خالفت عقائد أهل السنة عند نشأة الطائفة ، والقسم الآخر هو الذي تولى الدعوة بين الوثنيين من أهل إفريقية ، ورسم لتلك الدعـــوة خطة للتودد إلى القبائل الوثنية ، وسماها بخطة الجهاد السلمي ، محاولا بها أن يجتنب كل غرابة ظاهرة تنفر الوثنيين وتوقع في نفوسهم أن الدين الجديد يعاديهم وينفصل عنهم كما ينفصلون عنه ،

بغير أمل فى التفاهم والتقارب بين الطرفين وذلك فى حدود المحافظة على جوهر العقيدة الإسلامية والترخص بعض الشيء فى قشور المظاهر وأشكالها .

والبابان الثالث والرابع يشتملان على خلاصة تاريخية للأعمال التى قام بها المبشرون بدعوة الطائفة ثم قام بها ولاة الأمر لتوطيد الحكم الإسلامى وتنظيم الحياة الاجتماعية بين القبائل التى تحولت عن الوثنية .

والمفهوم من جملة هذه الأبواب أن الدعوة نجحت فى توحيد الشعائر الاجتماعية العامة ، وهى صلوات الجماعة والأعياد وصيام شهر رمضان وأداء فريضة الحج بالتعاون بين القادرين عليها والعاجزين عنها .

فالصلوات الجامعة يشترك فى أدائها جمهرة المسلمين من الدعاة أو المتحولين عن العبادات الوثنية ، وتزدحم المساجد الكبرى بالمصلين أحيانا حتى تمتـــد صفوفهم إلى الطرقات والأسواق حول تلك المساجد الكبرى .

وصلوات الأعياد ـ خاصة ـ يذكر لها أثر بليغ فى تهذيب الحكام وإصلاح أداة الحكومة ، لأنها المناسبة التى يقف فيها كم أمام الله وأمام الشعب ، ويجدد عهوده على البر والتقوى وتوثيق عرى المودة بين الرعاة والرعايا .

ويقول المؤلف ـ نقلا عن مصادر التبشير التابعة للكنيسة الكاثوليكية ـ إن المبشرين الذين يقدمون إلى البلاد وهم لا يعرفون جانب القوة فى الدعوة الإسلامية هناك كانوا يسألون زملاءهم : ما هو الجانب الحسن فى هذه الدعوة ؟ فيقال لهم : إنه الإيمان بالتوحيد ، وإقامة الصلوات العامة ، ورعاية الصيام فى موعد من السنة .

ويذكر المؤلف أن رعاية شهر الصيام قد تغلغلت فى تقاليد القوم حتى أصبح الوثنيون يتجنبون القتال فيما بينهم خلال شهر رمضان ويعتبرونه شهراً حراما لا يجوز فيه حمل السلاح ضد الأعداء ، ولو لإدراك الثأر ورد العدوان القديم بمثله .

وفى المسائل التى تيسر التلاقى عليها بين الوثنيين والدعاة إلى الدين الجديد مسألة التراتيل الدينية فى الأذكار العامة فإن الإفريقى معروف بمحبته الغناء وارتياحه إلى المحافل التى يترنم فيها بالألحان والأهازيج ، فاستعان الدعاة بعادات القوم المطبوعة فى عباداتهم الموروثة على اجتـــذابهم إلى محافل الذكر التى يرتلون فيها الأناشيد ويذكرون فيها اسم الله وصلوات الحمد والدعاء بديلا من عبارات السحر والطلاسم التى حفظوها من كهانهم عبدة الأصنام والأرواح والشياطين .

وترخص الدعاة مع أبناء القبائل فى عادات التضحية والتقدم بالقرابين من الحيوان والثمار إلى معابد الوثنية ، ولكنهم يجتهدون

فى تحويلها من شعائر الوثنية إلى شعائر التقرب بها إلى الله للإحسان والصدقة أو الاشتراك بالطعام فى الولائم العامة .

وتعد رحلة الحج من أقدس المراسم وأحبها إلى المسلمين الإفريقيين ، ينتظرون موعدها ويرحبون بالعائدين من الديار المقدسة بين أهل القرية من أقارب الحجاج أو جمهرة الغرباء عنهم ، ويحسبونها فريضة اجتماعية يتعاون المؤمنون على أدائها ، فيصطحب القادرون من يستطيعون الإنفاق عليهم لزيارة بيت الله الحرام وأداء الفريضة فى موعدها ، ويتبرع الأغنياء الذين يحال بينهم وبين السفر لمن يريد السفر من الفقراء ولا يقدر عليه ، ويعتقدون أن ثواب المسافر كثواب المقيم الذى أخلص النية للحج ولم يقدر عليه لمرض أو مانع لا اختيار له فيه

* * *

ومما حرص عليه الدعاة المحدثون أن يجتهدوا غاية اجتهادهم فى تبديد كل ما علق بأذهان الوثنيين من الوهم عن معنى الجهاد فى الإسلام وأن المسلم لا يستبيح قتل الوثنى بالسيف فى كل حال ، ولا يوجب عداوة الوثنى لغير سبب ما لم يقابله بالعداء ، ويحظر عليه الدعوة إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإنما كان ابتداء الجهاد بالسيف فى تلك الأقطار بعد عودة أبى بكر بن عمر من المغرب للتوفيق بين أمراء الموحدين وتوحيد كلمتهم فى صد العدوان من أمراء الوثنيين الذين أغلقوا أبواب بلادهم فى وجه الدعوة الإسلامية ، ولولا أن الأمراء الوثنيين حملوا السيف لصد الإسلام عن سبيله لما تصدى لهم أمراء المسلمين فى ميادين القتال .

ولكن أصحاب السلطان فى البلاد ألقوا فى روع أتباعهم أن الدعوة إلى الإسلام لا تعنى شيئا غير القتال واستباحة دماء المخالفين من المحاربين والمسالمين ، وجاء المبشرون بعد القرن السابع عشر فجعلوا همهم كله أن يؤكدوا هذا الوهم وأن يبالغوا فى إظهار الفرق بين دعوة التبشير ودعوة « الجهاد » كما فهموه وتوارثوا فهمه متدسسين.

فلما ابتدأ « المجاهدون » المحدثون دعوتهم أعلنوا أنهم خرجوا للجهاد « السلمى » ولم يحملوا السيف ولا هم يعلمون بينهم وبين الوثنيين موضعا للخلاف يصعب التفاهم عليه بالمودة والإقناع ، وترخصوا فى قبول العادات والتقاليد التى يألفها الوطنيون ولا يسهل تحويلهم عنها دفعة واحدة ، ولا هى مما يبعدهم عن الإسلام فى جوهره أو يتعذر على العادة الجديدة أن تحل فيه محل العادة الموروثة ، لأنها قد تصطبغ بصبغة الإسلام مع بعض

التعديل ، كما حدث فى مسألة القرابين ومسألة الأذكار والتراتيل .

* * *

ويروى المؤلف عن الباحث الحديث فى تاريخ الإسلام « ترمنجهام » أهم العقائد التى يشترك فيها جميع المتدينين فى إفريقية الغربية من المسلمين أو الوثنيين الذين لم يصلوا إلى الإسلام ولكنهم ماضون فى طريقهم إليه ، ومنها الإيمان بالحساب واليوم الآخر ، والإيمان بعالم الغيب فى حياة أخرى غير الحياة الدنيا ، وربما فصلت عقيدة الحياة الأخرى عروة العلاقة فى الأسرة التى جعلت الآباء والأسلاف أربابا يعبدها الوثنى وأرواحا يتزلف إليها وينتظر المعونة منها ، فإن عقيدة الحياة الأخرى قد تقيم القنطرة التى تيسر للأحياء العبور إلى الأموات وتيسر للأموات العبور إلى الأحياء ، ولكنها لا توحد بين السماء والجحيم ولا تسمح بانتظار بعث الميت واللقاء بينه وبين ذريته قبل يوم النشور ، ولكن العقبة قد يتأتى تذليلها من طريقين : أحدهما أن الأسلاف لم يكونوا فى جميع الأحوال عوناً صالحا للأخلاف ولا كانوا على أهبة الإجابة والتلبية لدعاء الأبناء والأحفاد ، فلا أسف على إقصـــاء الكثيرين منهم عن المحاريب ، والطريق الآخر أن بعض الوثنيين سبق إلى خواطرهم أن تحويل الآب عن الوثنية جائز بعد انتهاء أجله ، فقد كان أحد الآباء ينهى ابنه عن دخول الإسلام وظل ينهاه حتى فارق الحياة ، فلما قضى نحبه دان الفتى بالإسلام وظهر له أبوه فى المنام فلم يسمع منه زجراً ولا تأنيباً على مخالفة وصاياه ، بل علم منه أنه هو نفسه قد اهتدى إلى الإسلام » .

* * *

وهذه السلوى التى لجأ إليها ضمير الفتى المسلم للتوفيق بين حقوق الأسلاف فى عقيدته الأولى وبين عقيدة الإسلام فى الروح بعد الموت مثل حى من أمثلة البقايا التى تتخلف فى ضمائر الوثنى المهتدى إلى الإسلام من شوائب دياناته السلفية ، ولكنها مرحلة من مراحل الطريق لعلها قريبة الزوال ، ولعلها أهون من رفضه وارتداده على أبواب الحظيرة الإسلامية . على أننا نتساءل ونتفاءل بعد الإلمام بعاقبة الجهود فى ذلك الجهاد السلمى : ألا يجوز أن تصبح إفريقية الغربية ميدانا لتوحيد الكلمة وتقريب المقاصد بين الدعاة إلى الإسلام على هدى الكتاب والسنة ؟ غاية ما يرجى أن تظل تلك البلاد ميدانا للتقريب بين طائفة داعية وبين سائر الطوائف من المقبلين على الإسلام .

عباس محمود العقاد

في الحرم

للأستاذ ابراهيم محمد نجا

أحقا أنا ههنا في الحرم
وبين يدي تفيض النعم ؟
ضياء من الله يسمو بروحي
إلى عالم لم تزره قـدم
ويسكب فيها رحيق الصفاء
فتنسى حياة الأسى والألم
وسحر جرى في دمي سره
كأن الربيع بقلبي ابتسم
وصوت دعاني قوافيه
وروحي غناء ، وقلبي نغم

* * *

دخلت من الباب باب السلام
فكبرت لله باري النسم
وهللت للبيت لما دنوت
وطالعني ستره من أمم
ورفرف قلبي على ستره
وناجى ، وقبل ، ثم استلم

ورحت أطوف بين الزحام
وروحي تطوَّف في المزدحم
وكم ذا دعوت بقلب ينوح
وروح تبوح بدمع الندم
أتيتك يا رب أبغي رضاك
فهب لي الرضا يا جليل النعم
فإن حياتي بغيـر رضاك
هباء ، وإن وجودي عدم

* * *

تباركت يارب ماذا أرى ؟
أهذا الحمام حمام الحرم ؟
يطير هنا آمنا شاديا
بصوت صفا لحنه وانسجم
كطفل رأى أمـه أقبلت
فخف إلى صدرها والتزم
فإن سار في جنبات الحمى
تآلف في سيره وانتظم

ويارب أنت الذى صنته
وأسكنته البيت منذ القدم
وأمنته فى حماك العزيز
ومن أنت أمنته لم يُضم
ولو فهم الناس ما يبصرون
لما ضل عالمهم واختصم
يعيش الحمام حياة السلام
وبالحرب تشقى وتفنى الأمم

* * *

وقيل لنا : هذه زمزم
فقلت بقلبى وروحى : نعم
وإلا فمن أين هذا العبير
يفوح ؟ ومن أين طيب النسم ؟
وألقيت نفسى على مائها
فيا للعذوبة ! يا للكرم !
وما كان بى نهم قبلها
ولكن هنا يستحب النهم
ولما سعيت فوفيت ما
تريد العهود ، وتبغى الذمم
خرجت من الباب باب الوداع
بأجمل حلم ، وإن لم أنم

أهنئ نفسى بما نلته
وأحمد ربى على ما قسم
وسرت بمكة والذكريات
يطالعن وجهها المبتسم
أحدث نفسى ألذ الحديث
وأسكب فيها أرق الكلم
هنا خطرت قدم المصطفى
وقبل هذا التراب القدم
فمالى إذن لا أضم الترابَ
والله اليوم فيمن أثم ؟
هنا أقبل النور يمحو الظلامَ
كما أقبل البرء يمحو السقم

* * *

هنا بدأ الدين دين الشرا
ئع ، دين المبادئ ، دين القيم
فكان سلاما لمن سالموا
وكان حساما على من ظلم
هنا جاء ركب النبى الكريم
يفوت السهول ، ويطوى الأكم
تسير الفتوة من حوله
وتمشى النبوة تحت العلم

يروم بمكة ردع العصاةِ
ومحق الضلال ، وسحق الصنم

فلما التقى بجموع الطغاة
تخاذل طغيانهم وانهزم

وجاءوا يجرون من خزيهم
قيود الهوان ، وذل الندم

فقال لهم : ما تظنوننى
سأفعل بالمذنب المتهم ؟

فقالوا : وهل أنت إلا أخ
يصون الإخاء ، ويرعى الرحم ؟

فقال : اذهبوا طلقاء النفوس
فلست من الأهل بالمنتقم

عفا ، قادراً ، عن إساءاتهم
وما العفو إلا أرق الشيم

وعفو القدير يلين الحديد
ويعنو له كل صخر أصم

وكم ذكريات شدتها الحياة
بأرخم لحن ، وأحلى نغم

وسطرها المجد فى لوحه
بأزكى مداد ، وأندى قلم

* * *

فيارب هيىء لنا ما نريد
لنحيا حياة تثير الهمم

نحلق فوق قباب الحياة
كما حلق النسر فـــوق القمم

وقو عزائمنا فى النضال
إذا ما النضال طغى واحتدم

فلا ننثنى حين نرقى الصعاب
ولا ننحنى حين نلقى الألم

وألف على الحق شمل القلوب
فبالشمل نقــوى إذا ما التأم

* * *

ويارب عوداً إلى مكة
فقد لاذ قلبى بها واعتصم

لأنهل من نفحات الصفاء
فأهتف من نشوتى بالنغم :

أحقا أنا ها هنا فى الحرم
وبين يدى تفيض النعم ؟

ابراهيم محمد نجا

الكتب

الأعلام الشرقية

تأليف الأستاذ زكى مجاهد

تقديم : الأستاذ حسن جاد

العناية بالأعلام فى ميادين الفكر والأدب والوطنية عناية بتاريخ أمتنا القومى ، واستظهار لأمجادها ، وتوطيد لدعائم شخصيتها وعناصر مقوماتها . فالقومية الوطنية تاريخ يتجدد مع الزمن ، وماض يتصل بالحاضر ، وأفكار الآباء وعقولهم تسرى فى دماء الأبناء وأعصابهم .

ولن تستكمل أمة نهضتها ووثبتها ما لم ترجع إلى تاريخها وتتعرف إلى ماضيها . وكم حاول الاستعمار أن يبتر تاريخ أمتنا ، وأن يفصلنا عن ماضينا ، وأن يقضى على أعز مقومات صبغتنا الشرقية ، وشخصيتنا القومية ، بصرفنا عن دراسة تاريخنا ، والتهوين من شأن آثارنا اللغوية والأدبية والفكرية ، لولا يقظة المخلصين من المفكرين والمؤرخين الذين لم يفتنهم بريق هذا الغزو الخطير ، ولم يستطع ذلك الستار الكثيف الذى حاول الاستعمار أن يسدله على أمجادنا القومية والأدبية أن يحجبهم عن ماضيهم القريب أو البعيد . فرأينا معاجمهم تشغل مكاناً هاماً فى المكتبة العربية ، وتسعف الدارس والمحقق فى المجالات الأدبية والتاريخية إلى أن قيض الله لأمتنا العربية ، أن تخرج من المحنة ، وأن تثب وثبتها الكبرى نحو العزة والقومية العربية ، فتزداد الحاجة إلى هذه المعاجم ، وتصبح العناية بها ركنا من أركان البناء الجديد .

ومنذ الزمن القديم ومعاجم الأعلام تواكب الأيام وتصاحب القرون ، حتى القرن الثالث عشر ؛ فقد رأينا فى القرون الأخيرة : (الدرر الكامنة للمائة الثامنة) لابن حجر ؛ (الضوء اللامع للقرن التاسع) للسخاوى ؛ (الكواكب السائرة للمائة العاشرة) لنجم الغزى ؛ (خلاصة الأثر للقرن

الحادى عشر) للمحبي ، (سلك الدرر للقرن الثانى عشر) للمرادى ؛ (حلية البشر فى القرن الثالث عشر) للبيطار .

وبقى فى المكتبة العربية فراغ للقرن الرابع عشر يتطلع إلى من يملؤه ، حتى لا يطوى النسيان أعلامه فى مجاهل الزمن ، ويغرقهم فى لجج الأحداث المتلاطمة . وهذا هو ما نهض به الأستاذ زكى محمـــد مجاهد فى معجمه الكبير (الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة الهجرية) . فوصل به بين الماضى والحاضر ، وأكمل به سلسلة السابقين ، وسد به هـذا الفراغ الشاغر لهذا القرن فى مكتبتنا العربية .

والعجيب فى أمر هذا المؤلف أنه وراق ، ولكنه لم يتخذ الوراقة ســبيا للتجارة والاستغلال المادى ، وإنما جعلها وسيلة للبحث والتأليف العلمى ، على نحو ما صنع ابن النديم صاحب الفهرس ؛ وياقوت صاحب معجم الأدباء ، والكتبى صاحب فوات الوفيات ، وغيرهم .

فهناك فى حانوته الصغير المعمور بين منعطفات خان الخليلى المتشابهة المتشابكة ، يعيش بين كتل من الكتب والصحف والمجلات القديمة والحديثة من سائر الأقطار بالوراقة على تتبعها وجمعها من هنا وهناك ، حتى أصبح هـذا الحانوت الضيق الصغير المغمور مرجعاً لكل من يروم دراسة أو تحقيقاً من الشرقيين والمستشرقين فى أى موضوع من الموضوعات العلمية أو الأدبية أو التاريخية .

لقد تتبع المؤلف جميع الأعلام فى سائر الأقطار الشرقية بمصر والشام والعراق والحجاز ونجد وتركيا والباكستان والمهجر الأمريكى وغيرها ، وقسم معجمه إلى طبقات من الملوك والأمراء والوزراء والسفراء ، والزعماء الوطنيين ، والمصلحين الاجتماعيين ، والعلماء المبرزين ، والفلاسفة المفكرين ، والأدباء ، والشعراء ، والمؤرخين ، والرحالة ، والمتصوفين ، والصحفيين ، وغير ذلك من الأعلام فى كل ميدان .

واليوم يصدر الجزء الرابع من هـذه السلسلة ، ولن يكون آخر الأجزاء ، وهو خاص بالكتاب والشــعراء والرحالة والمؤرخين ، ويحتوى على (٣٣٥) ترجمة وصل بها المؤلف إلى الترجمة رقم (١١٠٨) من السلسلة .

وميزة المؤلف أنه يجلو لنا حياة المترجم له فى صورة حية واضحة المعالم ، بارزة الشخصية ، متميزة الجوانب ، ظاهرة المزايا ، ولا يكتفى برسم هـذه الخطوط العريضة للشخصية وعرضها فى أسلوب رائع أنيق يجعلها تعيش بيننا . بل يقفنا على مزاياها مستشهداً بآثارها

الأدبية والفكرية فى اختيار موفق ؛ ثم لا يقنع بذلك حتى يقتبع الترجمة بذكر المصادر الكثيرة المستوعبة لها ، فهو حريص على أن يحقق لمعجمه هذه المزية الجديرة بالتقدير ، والتى تميزه عن المعاجم الأخرى ؛ وهو مع هذا لا يستأثر بما بذله من البحث والتنقيب والجهد والمال فى تتبع هذه المصادر والبحث عنها والحصول عليها ، بل يقدمها إلى كل دارس ومحقق ، فيعينه على تحقيق ما يروم ، ويوفر عليه عناء البحث والسؤال .

وليس يفوتنا بعد هذا أن ننوه بفضل المؤلف فى تعريفنا بكثير من الأعلام المغمورين الذين نفض عنهم تراب النسيان ، حتى عرفهم من لم يسمع بهم ، ولولاه لظلوا مطمورين فى متاهات الزمن ومجاهل التاريخ، فقد استوعب أعلام هذا القرن من المشاهير والمغامير ، وكما ترجم لشوقى وحافظ ومحرم والزهاوى وطاغور والرافعى وأرسلان والكاظمى والكواكبى والمرصفى والبابلى والمنفلوطى والهراوى وجبران والهمشرى وغيرهم من مئات الأعلام المعروفة ؛ ترجم كذلك للشاعر ناجى التركى والشاعر نذار الإسلام الباكستانى الذى يقول : « إن فى نفسك جميع الأديان وجميع الأنبياء ، وفى قلبك محراب فسيح لجميع الآلهة ، ليس من معبد أعظم من قلب الإنسان » . وللمؤرخين المجهولين من أمثال (عبد الفتاح عباده) ، (ميخائيل شاروبيم) . والعالم الشاعر (أحمد أبو على) أستاذ حافظ إبراهيم ، الذى أورد من شعره الرقيق وصفا لرقصة كانت تعرف (باسم إلبـا) :

رقص رقصة إلبـــا حتى فضحن الألبا
بنات روما اللواتى يلعبن بالناس لعبا
من الكواكب أمست لها المراسح قطبا
فكم تمايلن دلا واختلن تيها وعجبا
وكم تفرقن بعدا وكم تجمعن قربا
مثل العصافير طارت وغبت الماء غبا

كما ترجم لعثمان زناتى الذى يقول :

أرقت وأصحابى خليون نوم وما أنا ذو ثار ولا أنا مغرم
ولكن هما بين جنبى هاجه على ذوو القربى عفا الله عنهمو
فإن يك حلى صد أعناق جهلم فلا زلت فيهم يجهلون وأحلم
وما أنا ممن يغلب الجهل حلمه ويزو على الأعراض أو يتجهم

ومن ترجم لهم شاعر ضابط تسرى فيه روح البارودي هو (محمد توفيق على) الذى يقول :

يراعى له حد وسيفي له حد
فلا بات إلا تحت أقدامى المجد
ملأت يدى من مهجة الضيم فى الوغى
وأثبت رجلى حيث لا تثبت الأسد

ولم يغفل شاعر نجد (محمد بن عثيمين) الذى يشبه البارودي فى مصر من حيث الصبغة التقليدية والمذهب الكلاسيكى . ويقول المؤلف عنه : « ويعتبر فى نجد كالبارودى فى مصر حيث أعاد للشعر العربى هناك قوته وجزالته ، ورصانته وفحولته ، بعد الضعف الذى ألم به فى عصور الانحطاط الأدبى ، ومن شعره :

وفى اضطراب الفتى نجح لبغيته
وللمقادر إسعاد وخذلان
فاربأ بنفسك عن دار تذل بها
لو أن حصباءها در ومرجان

كما يقول :

إذا صحب المرء الجديدين أحدثا
له عبرا تشجيه مرأى ومسمعا
فلاتك ولاج البيوت مشاكيا
بثها ولو تلق سماما مقنعا
فما كثر من تلقى من الناس شامت
عليك وإن تعثر يقل لك لا لعا

وعلى هذا النحو يمضى المؤلف فى معجمه مستظهرا آثار الأعلام ، متحريا فى استشهاده مالم ينشر أو يشتهر ، كما صنع فى استشهاده بشعر شوقى ، حيث اختار له مالم ينشر فى دواوينه ، كقصيدته المجهولة فى ذكر المولد النبوى :

نبى البر والتقوى
منار الحق معلمه
له فى الأصل أكرمهم
عريق الأصل أكرمه
أبوة سؤدد أخذت
بقرن الشمس ترحمه
ذبيحيون كلهمو
أمير البيت قيمه
فنعم الغمد آمنة
ونعم السيف لهذمه
سرى فى طهر هيكلها
كسرى المسك يفعمه
بقيا فى غلاتها
تعالى الله مؤتمه
تزف الآى محمله
إلى الدنيا وتقدمه
ويمحى نور أحمد فى
ظلام الجهل يهزمه

وكنت أود لوعنى المؤلف بضبط الأعلام والشواهد الأدبية بالشكل وأرجو أن يتدارك ذلك فى الطبعات القادمة إن شاء الله ، فإن هذا الضبط ضرورة تحتم الفائدة التى تستهدفها المعاجم ، والله الموفق ؟

حسين مجاد حسين
مدرس بكلية الدراسات العربية - بجامعة الأزهر

القاموس الإسلامى

تأليف الأستاذ أحمد عطية

عرض ونقد : الأستاذ محمد الدسوقى

---

١ - القاموس الإسلامى - كما وصفه واضعه الأستاذ أحمد عطية الله - موسوعة للتعريف بمصطلحات الفكر الإسلامى ، ومعالم الحضارة الإسلامية ، وتاريخ الدول الإسلامية وتراجم الأعلام ، مع التعريف بأشهر المؤلفات فى المكتبة العربيـة ، والإسلامية ، مرتبة ترتيباً أبجديا ، وموضحة بالخرائط ، والصور ، والرسوم ، وتقع فى ثلاثة مجلدات .

وقد صدر المجلد الأول من هذه الموسوعة ، ويقع فى ٦٦٨ صفحة ، ووصل إلى نهاية حرف الجيم .

٢ - وقد أشار واضع هذا القاموس فى مقدمته ، إلى أن الحاجة قد أصبحت ملحة إلى موسوعة مفهرسة عن الفكر الإسلامى ، والحضارة الإسلامية ، للتعريف بهذا التراث الإنسانى الخالد ، وأن بعض الأفراد ، والجماعات ، قد حاولوا سد هذه الثغرة فى المكتبة العربية ، ولكن أعمالهم لم تسلم من النقص ، كما أن الاعتبارات السياسية ، والاستعمارية التبشيرية ، كان لها أثر فيما قام به بعض المستشرقين من بحوث فى هذا المضمار ، لا سيما فى تقويم الأحـداث التاريخية ، أو فى تفسير المصطلحات العقائدية الإسلامية .

٣ - والواقع أن المكتبة العربية فى حاجة إلى موسوعات علمية فى مختلف فروع المعرفة ، وأن التراث الإسلامى بوجه خاص فى أمس الحاجة إلى التعريف به ، ونفض غبار الزمان عنه ، وعرضه فى صورة جديدة تسهل الانتفاع به والرجوع إلى مصادره ، فقد أصبح هذا التراث تقريباً لا تعنى به إلا طائفة قليلة من المتخصصين والدارسين .

٤ - وهذا القاموس الذى وضعه الأستاذ عطية الله عمل علمى جديد فى بابه ، وقد بذل فيه جهوداً طيبة يثاب عليها ، وأضاف إلى مادته العلمية المتنوعة : الصور ، والرسوم الموضحة ، كما اهتم فيه بتراث وحضارات الدول الإسلامية فى أقصى المشرق ، وأقصى المغرب ؛ لأن تاريخ هذه الدول ، وتراثها العلمى يكاد يكون مجهولا لدى مسلمى الشرق الأوسط ،

غير أن هناك بعض المآخذ التى يجب أن تقال ؛ نظراً لأهمية هذا القاموس فى موضوعه ، وحرصاً على أن يكون مثل هذا العمل خالياً من كل ما يشوبه ، أو يقلل من قيمته .

٥ — وأول ما يؤخذ على هذا القاموس ، أن المؤلف لم يشر إلى المصادر التى رجع إليها لأن مثل هذا القاموس ، ليس كالقاموس اللغوى ، يكتفى بالرجوع إليه فى معرفة معنى اللفظ ، ودلالاته اللغوية ، ولكنه يعطى القارىء فكرة موجزة عن موضوع ما ، ثم تكون المصادر فى هذه الحالة لمن شاء أن يستوثق ، أو يستزيد ، فإغفالها لا مبرر له ، وما كان يجب أن يكون ، وإذا كانت بعض الموسوعات المتعلقة بالأعلام « كالأعلام للزركلى ، ومعجم المؤلفين لرضا كحالة ، قد نصت على بعض المراجع ، فإن أهمية المراجع هنا لا تقل عن أهميتها فى موسوعات الأعلام ، إن لم تزد عليهـــا .

٦ — كما يؤخذ عليه أيضاً أن المؤلف لم تكن لديه خطة منهجية مرسومة فى الحديث عن الموضوعات التى يجب أن يتحدث عنها ، ويبدو ذلك من أنه يتحدث فى مادة عن موضوع ما ثم يهمل فى نفس المادة موضوعات لها أهميتها التاريخية ، أو العلمية . فمثلا ، يعرف بالكتب التى تحمل اسم الأعلام ، « كإعلام الناس بما وقع للبرامكة من بنى العباس » و « أعلام النبوة » ، ثم لا يعرف بكتاب « إعلام الموقعين » عن رب العالمين » لابن قيم الجوزية ، مع أنه كتاب قيم يمثل الفقه الإسلامى الحى المتطور حسب الزمان ، والمكان وكذلك يتحدث عن أسد بن الفرات ، وأسد بن عبد الله القسرى ، ثم لا يذكر شيئاً عن أسد الدين شيركوه الملقب بالملك المنصور ، الذى كان من كبار القواد فى جيش نور الدين محمود بن زنكى ، وكان أول من تولى مصر من الأيوبيين ، وزيرا عليها للفاطميين ونائبا عسكريا عن نور الدين ، كما أنه عرف بكتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » الذى يعرف بتاريخ مصر لابن إياس ولكنه لا يعرف « بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع » للكاسانى وهو من أمهات الكتب وأدقها فى المذهب الحنفى ، ويقع فى سبعة أجزاء ، وأيضا لا يعرف بكتاب « بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد » للإمام القرطبى ابن رشد ، الشهير بابن رشد الحفيد ، وهو من أمهات الكتب فى المذهب المالكى . ومثل هذا كثير ، والتتبع والإحصاء له مجال آخر .

٧ — وقد وقعت فى هذ القاموس بعض الأخطاء العلمية ، ففى الصفحة السادسة تحدث

المؤلف عن ابن إباض زعيم الفرقة الأباضية فذكر أنه عاش إبان القرن الأول ، وعاصر الدولة الأموية إلى خلافة عبد الملك بن مروان وأن المؤرخين قد اختلفوا حول مولده وحياته ، ولكن المرجح أنه توفى سنة ٨٦ هـ وبعد هذا مباشرة تحدث عن فرقة الأباضية فقال : هى فرقة تنسب إلى عبد الله بن إباض الذى قام بدعوته إبان خلافة مروان بن محمد آخر الخلفاء من بنى أمية وفى هذا تعارض واضح ، فكيف يكون ابن إباض قد رجحت وفاته سنة ٨٦ هـ ثم قام بدعوته إبان خلافة مروان بن محمد ، والمعلوم أن هذا تولى سنة ١٢٧ هـ ؟ !

وإذا كانت كتب الفرق والتاريخ ، قد تضاربت فى الحديث عن ابن إباض وفى مبدأ دعوته ، فكان الأولى أن يشار إلى تناقض الروايات فى إيجاز مع ترجيح ما يراه الكاتب صوابا ، أما أن يكون الكلام فى قاموس كهذا ، متناقضا فلا يجوز .

وفى صفحة ٦٤٧ ، ٦٤٨ تعريف بالفقيه البغدادى « أبو إسحق اسماعيل بن إسحق » جاء فيه « أنه ولد سنة ٢٠٠ هـ بالبصرة ، ثم انتقل إلى بغداد ، وأخذ الفقه على معاصره الإمام مالك ، أما أن « أبو اسحق » قد ولد عام ٢٠٠ هـ فصحيح ، ولكن معاصرته ، وأخذه الفقه على الإمام مالك خطأ واضح ؛ لأن هذا الإمام توفى سنة ١٧٩ هـ قبل أن يولد أبو اسحق بأكثر من عشرين عاما ، وقد ذكر صاحب تاريخ بغداد من أخذ عنهم أبو إسحق ولم يشر إلى الإمام مالك طبعاً .

٨ — أما المادة الفقهية فى هذا القاموس فقد عرضت فى صورة مختصرة جدا ولا يتسنى للقارئ غير المتخصص أن يستفيد منها ، وبخاصة مصطلحات أصول الفقه كالاستصحاب والاستصلاح ولا اعتراض على الاختصار فى ذاته ، ما دام لا يخل بالمعنى ، وما دامت هناك المراجع التى يلجأ إليها للتفصيل والتوضيح ، ولكن المراجع مهملة ، والاختصار جاء — فى بعض الأحيان — على حساب المعنى ، ففى الحديث عن البينونة الصغرى يقول المؤلف : وفى هذه الحالة لا يملك الزوج أن يراجع مطلقته ، ولوكانت فى العدة ، وليس له أن يعيدها إلى عصمته إلا برضاها وإلا بعقد جديد ، ومهر جديد وهذا لا يعطى القارئ فكرة وافية عن البينونة الصغرى لأن المطلقة إما مدخول بها أو غير مدخول بها ، فإذا كانت غير مدخول بها فإن الطلاق يكون بائنا بينونة صغرى إذا كان بما دون الثلاث ولا عدة عليها ، وفى الحالة الثانية يصير الطلاق الرجعى بائنا بينونة صغرى إذا انقضت العدة

ولم تراجع الزوجة ، فالقول بأن الزوج فى هذا الطلاق البائن لا يملك أن يراجع زوجته ولو كانت فى العدة غير دقيق ، لأن الزوجة البائنة لا تكون فى عدة . فضلا عن قصور تلك العبارة فى التعريف بالبينونة الصغرى كما يجب أن يكون .

وعندما عرف الأهلية قال : المقصود بها فى الشرع والقانون صلاحيته الإنسان لتملك بعض الحقوق ، وكذلك صلاحيته للتصرف فيها ، وهذا تعريف ناقص للأهلية لأنها من الناحية الفقهية على نوعين : أهلية وجوب ، وأهلية أداء ، والأولى هى صلاحية المرء لأن تكون له حقوق وعليه واجبات ، والأخرى هى صلاحية المرء لأن تكون أقواله ، وأفعاله معتبرة شرعا [1] فلا يقصد فقط بالأهلية صلاحية الإنسان للتملك والتصرف ولكن يراد بها إلى جانب هذا صلاحيته للحقوق المشروعة عليه ، وأن تكون أقواله وأفعاله معتبرة شرعا ولا مجال أيضا للاستقصاء بل ضرب الأمثلة فحسب .

٩ — وهذا القاموس يقوم على الترتيب الهجائى فى عرض موضوعاته غير أن المؤلف لم يأخذ بهذا الترتيب أحيانا ، عند ما تحدث عن كلمة « أبان » بين أنها اسم لأكثر من واحد ، وذكر أربعة يسمون بهذا الاسم ، وترجم لهم ولكنه لم يرتبهم هجائياً أو تاريخيا .

أما الأخطاء المطبعية ، فهى قليلة ولكن هناك خطأ يجب تصحيحه وهو يتعلق بوفاة الإمام الشافعى ، فقد ذكر عند الحديث عن كتاب الأم أن الشافعى توفى سنة ٣٠٤ ثم ذكر فى مكان آخر أنه توفى سنة ٢٠٤ وهذا هو الصحيح والأول خطأ .

١٠ — وبعد فهذا جزء مما عن لى بعد قراءة عجلى لهذا القاموس ، لم أقصد بها التقليل من شأنه ، وأهميته ولكن رغبة فى أن يكون مثل هذا العمل وافيا وخاليا مما يشوبه ، وليكون مرجعاً يوثق به ويعتمد عليه ، وليسد بجدارة فراغا فى المكتبة العربية ، وحتى لا تتكرر مثل هذه الأخطاء فى المجلدين التاليين إن شاء الله ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

محمد الدسوقى
المحرر بمجمع اللغة العربية

---

(١) انظر الفقه الإسلامى مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه للدكتور محمد يوسف موسى ص ٢١٩ وما بعدها .

أنباء وآراء

السيد / حسين الشافعي يتحدث عن دور الأزهر في الدعوة الاشتراكية

افتتح السيد حسين الشافعي نائب رئيس الجمهورية وعضو مجلس الرياسة الموسم الثقافي السادس للأزهر ومجمع البحوث الإسلامية في يوم الثلاثاء ١٧ من رجب سنة ١٣٨٣ هـ الموافق ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٣ م فألقى محاضرة عن دور الأزهر في الدعوة والفكر الاشتراكي قال فيها: إن الأزهر قد فتح الطريق أمام كل القدرات والطاقات لكي تبحث عن دورها في الدعوة إلى الفكر الاشتراكي وبخاصة في هذه المرحلة التي تبنى فيها الديمقراطية السليمة وقال: إننا في هذه المرحلة حينما نبدأ في قيام مجلس الأمة وفي استكمال التنظيمات الشعبية نؤكد أن الثورة عمل شعبي وأن الديمقراطية بهذا تصبح حقيقة وعملا بناء إيجابيا، وإننا حينما نطبق الديموقراطية إنما نستهدف دائما أن نعطي المثل الناجح ليس أمام المواطنين فحسب بل لكل الدول التي تتطلع للحرية وتريد أن تستهدي السبيل في مجال التطبيق الاشتراكي.

ثم قال: إن الاشتراكية تهدف إلى إقامة مجتمع الكفاية والعدل، وهي إلى ذلك سلوك وخلق ودين. بخلاف الاشتراكية المادية البحت فإنها تعتمد على قوة الدولة. فإذا انهارت هذه القوة انهار النظام كله - أما اشتراكية الإسلام فإنها قائمة على تكوين العاطفة الإنسانية التي تحبب إلى الإنسان البذل والعمل والتضحية من أجل المجموع.

وقال: إننا لن نتمكن من الدعوة للفكر الاشتراكي إلا إذا علمنا أولا من أين تبدأ مسئوليتنا ونعرف ما هو المقصود الاشتراكي وما هو المقصود الديمقراطي، وما هو المقصود بالوحدة، فيجب أن يقوم بالدعوة المؤمن بها ... المؤمن بالفكرة ثم بالقيادة ثم في سبيل ذلك يكون على استعداد أن يجاهد دائما بالمال والنفس في سبيل الفكرة والعقيدة. ولذا كان على الأزهر أن ينبري لكل التحديات وأن يعطي الفكر الاشتراكي في الجمهورية العربية المتحدة المثل الصالح في جميع المجالات.

ثم تكلم نائب الرئيس عن أخلاقيات

التنظيم الإسلامى فى مجال الترابط والأخوة والحرية ... قال إن الحرية هى هدف وغاية وهى طريق ، ولذلك لا توجد دعوة إصلاحية على الإطلاق يكون هدفها الحرية إلا كتب لها البقاء .

جريدة ملايوية تشيد بتقدم الجمهورية العربية المتحدة فى مجال الثقافة الإسلامية :

نشرت جريدة الأخبار اليومية « الناطقة بلسان حكومة اتحاد الملايو » بتاريخ ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٦٣ مقالا تناول فيه كاتبه ما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة فى مجال الثقافة الإسلامية وقد لخصه بعد ترجمته الأستاذ عبد الوهاب على إبراهيم مبعوث الأزهر إلى الكلية الإسلامية باتحاد المالايو وبعث به إلى مجلة الأزهر وفيما يلى ملخص المقال :

تحت عنوان « دار القرآن للإذاعة والنشر » قال الكاتب : فى كل صباح عقب الصلاة تحمل إلينا أمواج الأثير آيات الذكر الحكيم بصوت الشيخ محمود خليل الحصرى القارئ المصرى فتخشع قلوبنا وتحلق أرواحنا فى أجواء روحية صافية .

إن القرآن الذى تحمله إلينا أمواج الأثير كل صباح مسجل على أسطوانات تعرف بالمصحف المرتل ، وهذا المصحف أعدته الجمهورية العربية المتحدة ثم قامت بإهدائه إلى كثير من الدول الإسلامية ليكون رابطة روحية تربط بين المسلمين فى أنحاء العالم .

إن الأمة الإسلامية التى تحب الأمن والسلام تشعر بالسعادة وتقر بالشكر لما تقوم به الجمهورية العربية المتحدة من الأعمال العظيمة التى تتمثل فيما يبذله الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر من جهود .

إن الأخبار الحديثة الواردة من القاهرة تشير إلى أن الجمهورية العربية المتحدة تعد نسخا وفيرة من المصحف المرتل لإهدائها إلى المسلمين فى كل مكان كما تشير هذه الأخبار إلى أن الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر قد أقر مشروعا لإقامة مبنى كبير بميدان رمسيس فى وسط العاصمة يطلق عليه « دار القرآن » ، وسيضم هذا المبنى أقساما متعددة أهمها :

(ا) قسم للتسجيل مزود بالاستوديوهات والآلات الحديثة لتسجيل القرآن بأصوات كبار قارئى القرآن فى الجمهورية العربية المتحدة .

(ب) قسم للطبع مزود بأحدث آلات

الطباعة لطبع القرآن الكريم والكتب الإسلامية باللغات المختلفة .

(ج) قسم للترجمة والنشر لترجمة القرآن والكتب الدينية للغتين الانجليزية والفرنسية لتلبية طلبات المسلمين فى ربوع العالم .

(د) مكتبة كبيرة تضم آلاف الكتب وتجمع الكتب الإسلامية ، القديم منها والحديث وتصبح هذه المكتبة مرجعا يرجع إليه المسلمون فى أنحاء العالم ، وقد قدمت جمعية الشبان المسلمين إلى الدكتور وزير الأوقاف وشئون الأزهر عدة اقتراحات من بينها :

(ا) إنشاء قسم لفحص وتصحيح نسخ القرآن التى تطبع فى الجمهورية العربية المتحدة وخارجها لمواجهة ما تقوم به إسرائيل من تحريف القرآن الكريم وتوزيعه فى إفريقيا .

(ب) إنشاء قاعة تقام فيها الاحتفالات الدينية ومسابقات القرآن .

إننا ننظر إلى ما تقوم به وزارة الأوقاف وشئون الأزهر فى الجمهورية العربية المتحدة بالتقدير والإعجاب ، ونرجو أن تصبح دار القرآن مركز إشعاع للمسلمين فى كل مكان .

كما نرجو أن يثير ما تقوم به الجمهورية العربية اهتمام بلادنا فتعمل على تحقيق بعض المشروعات الإسلامية وخاصة إنشاء مكتبة كبيرة لحماية المواطنين من الكتب والمجلات التى تقدمها مكتبات السفارات الأجنبية فى بلادنا .

عبد الوهاب على إبراهيم
مبعوث الأزهر
إلى الكلية الإسلامية باتحاد الماليزيا

الرعاية الاجتماعية لطلبة معهد الإسكندرية

قدم الأستاذ حلمى محمد الشيمى رسالة عن مدى احتياجات قوى الشباب الأزهرى وأنواع الرعايات التى تقدم لهم . . وقد حصل بها على بكالوريس الخدمة الاجتماعية بعد مناقشة بمقر المعهد العالى للخدمة الاجتماعية أمام لجنة كونت من الأستاذ محمود فهمى عميد المعهد والدكتورة انتصار يونس أستاذة علم النفس بكلية الآداب والأستاذ عبد المنعم هاشم .

وقد وقع اختيار كاتبها على معهد الإسكندرية لأنه كما يرى ، صورة تمثل شباب الأزهر بمختلف طبقاته وشتى نواحيه وختمها بعدة اقتراحات تتعلق بالثقافة والخدمات والنشاط الفنى الرياضى والاجتماعى .

وهى رسالة جديرة باهتمام المسئولين والمشرفين على الأزهر ومعاهد التعليم فيه .

فتاوى مختارة ..

باب يقدمه :

ابراهيم محمد الأصيل

[الإجابة لجنة الفتوى بالأزهر]

كيفية اعتناق الإسلام :

السؤال :

أنا مسيحى وأرغب فى اعتناق الإسلام وقد سبق أن أسلمت والدتى وإخوتى جميعهم وساعدهم على ذلك حصولهم على قدر من التعليم ، أما أنا فأمى لم أتعلم ، فما هى الطريقة التى أتبعها لأكون مسلما ، وذلك لأننى أشعر بأن الإسلام يسرى فى دمى ، وإيمانى به يزداد يوما بعد يوم حتى اقتنعت بأن الدين عند الله الإسلام . فالمرجو إرشادى إلى الطريقة التى بها أشهر إسلامى حتى لا أظل فى دين غير الإسلام ؟ .

عزت سوريان واصف

جندى بالقوات المسلحة

الجواب :

اعتناق الإسلام يكفى فيه شرعا أن يقول المرء : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » . وبهذا يكون قائلها مسلما ولو لم يسجل ذلك فى إشهاد رسمى ، وعليه بعد هذا أن يقوم ببقية الأركان ليكون إسلامه كاملا ، وبقية الأركان هى : إقامة الصلاة المفروضة ، وأداء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام بمكة مرة فى العمر لمن كان قادراً .

أما إثبات الإسلام رسميا فيحصل فى مكاتب التوثيق وهى مكاتب الشهر المعروفة ، ومن لم يسجل إسلامه فى مكاتب التوثيق فهو مسلم فى حكم الله ما دام مقراً بالشهادتين ولم يحصل منه ما ينافى عقيدة التوحيد . والطريق بعد هذا لمعرفة التفاصيل التى يقتضيها الدين الإسلامى هو سؤال أهل العلم .

الدعاء فى الصلاة ، وهل يمنع الحيض منه ومن ذكر الله ؟

السؤال :

أنا أصلى الوقت فى ميعاده ولكن أحب دائما أن أدعو الله العلى القدير وأكثر

من دعائى فى الصلاة وبخاصة فى السجود والركوع وبعد التحيات الوسطى وتقريباً فى كل ركعة .

فهل هذا جائز أم باطل ؟ لأنى سمعت كثيراً أن الصلاة عبارة عن دعاء . وسمعت من آخرين أن الدعاء فى ختام الصلاة .

وهل يمنع من الدعاء والشكر لله وجود الدورة الشهرية ؟

السيدة / ملكة محمد

الجواب :

الدعاء جائز من المصلى فى السجود وبعد التشهد الأخير . والدعاء يكون بالخير ، وبأى لفظ يعرفه الداعى ، لنفسه ولغيره من المسلمين ، الأحياء والأموات ، والدعاء نفسه عبادة مطلوبة من الإنسان ، وخير الدعاء ما كان فى هدوء أو فى خفية للبعد عن مظاهر الرياء . ولا مانع من الدعاء حين وجود الدورة الشهرية ويكون فى هذه الحالة بأدعية غير تلاوة القرآن كما تمنع الدورة الشهرية إقامة الصلاة ، بخلاف الشهادة والشكر والتسبيح والاستغفار وطلب الخير من عند الله فهذا جائز معها .

قضاء الصلوات الفائتة :

السؤال

مرضت مرضا خطيراً فى العام الماضى لم أتمكن معه من أداء فروض الصلاة والآن وقد عادت صحتى مرة ثانية وأصبحت قادراً على أداء الصلوات بعونه تعالى فأريد قضاء الأوقات التى فاتتنى فى أيام مرضى كما وأنى أريد أداءها بطريقة الإيماء هذا مع الإحاطة بأنى لا أعرف عدد الأوقات الفائتة فما الحكم ؟

محمود محمد عبد الله

الجواب :

قضاء الصلوات الفائتة واجب شرعا ، ومتى كان المصلى قادراً على تأدية الصلاة من قيام وركوع وسجود فلا يجوز له أن يؤديها بالإيماء .

أما عدد الصلوات الفائتة فيكفى فيه غلبة الظن فيقضى بعضها فى كل يوم حسب إمكانه حتى يغلب على ظنه أنه قضى جميع ما فاته .

الاتجاه نحو الكعبة فى الصلاة :

السؤال :

لماذا تحدد اتجاهنا نحو القبلة أثناء الصلاة فى الكعبة ما دام الله سبحانه موجـــود فى كل مكان ؟

محمد فكرى عزمى محمد

الجواب :

قال الله سبحانه وتعالى : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

وقال تعالى : « فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ».

وعلى ذلك فالتوجه إلى جهة الكعبة أمر تعبدنا الله تعالى به وعلينا امتثاله ولا يسأل عن حكمته .

الطريقة التي يتم بها الزواج :

السؤال :

اتفقت مع فتاة واعية رشيدة تبلغ من العمر ٢٥ عاما على الزواج وبعد الموافقة على الشروط حدث الآتي : وضعت يمينى بيمينها وقالت وافقت على الزواج من فلان ابن فلان على سنة الله ورسوله والنكاح منه وإننى أعاهده على أن أكون زوجة مخلصة والله شهيد على .

ثم وضعت يدها اليمنى على كتاب الله وقالت : « أقسم بالله العظيم ثلاث مرات أنى وافقت بكل إخلاص على الزواج من فلان زواجا حلالا على سنة الله ورسوله وأن أكون له زوجة مخلصة أمينة والله شهيد على ما أقول » .

فهل يعتبر ذلك زواجا شرعياً وهل يحق لها الزواج من غيرى دون علمى ، وهل يحق لى مطالبتها شرعا ؟

عبد العزيز حسن مطاوع ـ السعودية

الجواب :

الزواج فى بعض المذاهب لابد فيه من ولى يتولى العقد عن المرأة ولا يصح لها أن تتولاه بنفسها كما فى الصورة المسئول عنها ، وفى بعض المذاهب كمذهب الإمام أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ يصح للفتاة البالغة أن تتولى بنفسها عقد زواجها ولكن بشرط حضور شاهدين عدلين على العقد قبل الدخول .

وفى هذه الحادثة المذكورة لم يحضرها شهود كما لم يحصل من الرجل قبول ، فلا يعتبر ذلك عقداً مطلقاً ، وإنما هو وعد من الفتاة بأنها لا تتزوج غيره ، وهذا الوعد لا يلزمها الوفاء به ، فإذا رأت فى ذلك مصلحة فلها أن تحققه بصورة شرعية ، كما لها أن تعدل عنه وتكفر عن يمينها بالله وعلى المصحف كفارة يمين .

السؤال :

طعون القاضى وعكوم :

فلسطينى تزوج بمصرية وأقام معها بمصر ثلاث سنوات ولسوء تفاهم غادر مصر إلى غزة فانتهز والد الزوجة هذه الفرصة ورفع الأمر إلى المحاكم يطلب الطلاق باعتبار أن الزوج لا يعلم له مكان مع أن الزوجة تعلم مكانه وهى لا تود الطلاق منه ، وفعلا أجابت

المحكمة طلبه وطلقت عليه ، وبعد سنة من الطلاق حضر الزوج إلى مصر وهو لا يعلم بواقعة الطلاق على زوجته فواجهه الوالد بما حصل وطلب منه رد زوجته فردها بعد أن عقد عليها ، ثم سافرا معا إلى غزة فحصل سوء تفاهم وطلق الزوج زوجته طلقة على يد القاضى ثم ردها فى نفس اليوم ، وبعد مدة حصل سوء تفاهم فطلق زوجته للمرة الثالثة ثم ردها وهو يعتبر أن الطلاق الأول غير معتبر .

فهل اعتباره هذا صحيح فيكون له طلقة باقية أو غير صحيح فتبين الزوجة بينونة كبرى ؟ يوسف محمد عبد الواحد

الجواب :

الطلاق الذى أوقعه القاضى فى غيبة الزوج معتبر لأنه قد بنى على أسباب صحيحة عند القاضى .

وعلى ذلك يكون الزوج قد استنفد مرات الطلاق الثلاث فتبين الزوجة بينونة كبرى لا تحل له حتى تتزوج غيره زواجا صحيحا بعد انقضاء عدتها منه ويدخل بها دخولا حقيقيا ، فإذا طلقها أو مات عنها وانقضت العدة حلت له بعقد ومهر جديدين برضاها .

وما ذكر من أنه ردها بعد الطلاق الثالث فهو أمر غير صحيح إذ العصمة قد انتهت .

الزواج من أرملة الأخ المتوفى :

السؤال :

نحن ستة إخوة والأخ الثالث منا نذر نفسه لخدمة الباقين حتى انتهاء تعليمنا الثانوى ، وفعلا تم ذلك وأتممنا التعليم واشتغل كل منا فى عمل ، ثم حدث أن مرض أخى المذكور بعد أن تزوج من قريبة لنا وحملت منه ، وفشلت كل المحاولات فى علاجه ويئس الطب من شفائه .

وتوفى أخى هذا وقبل موته أوصانى بما يأتى : « زوجتى وابنى برقبتك » وكانت زوجته قد وضعت طفلا ، وقد ترك ٦٠٠ دينار وأريد أن أقسم هذا المبلغ قسمين وأضعهما فى المصرف باسم الطفل وباسم أمه فهل هناك مانع شرعى ؟ كما أريد الزواج من زوجة أخى المتوفى حرصا على تربية ابن أخى بالإضافة إلى صيانتها فهل هناك مانع شرعى فى التزوج منها ؟

عبد الكريم إسماعيل عوير - الكويت

الجواب :

نجيب عن السؤال الأول بأن المبلغ الذى تركه هذا الأخ المتوفى يكون ميراثاً شرعيا بين ولده وزوجته كغيره من ماله إن كان له مال .

فللزوجة الثمن فرضاً لوجود الفرع الوارث والباقي لابنه تعصيباً ما دام لم يترك غير هذا الابن كما ذكر في السؤال .

وعن الثاني بأن زواج السائل من أرملة أخيه لا مانع منه شرعا بل هو أولى ليرعى مصلحة ابن أخيه بشرط أن تخرج الزوجة من عدة الوفاة وهي بوضع الحمل إن كانت حاملا ، أو بمضي أربعة أشهر وعشرة أيام من تاريخ وفاة زوجها إن كانت خالية من الحمل .

هل يجوز حرمان الابن العاق من الميراث :

السؤال :

لي ابن عمره ٣٢ سنة متزوج ويعمل بالحكومة بمرتب متوسط ، ولي أبناء لم يبلغوا السن الذي يؤهلهم للاعتماد على أنفسهم وقد عانيت من قسوة الابن الأكبر إذ كان دائما على شجار معي ومع والدته حتى إنه يستعمل القسوة في معاملتنا إذا ما رفضنا إجابته إلى طلباته التي لا تنتهي ، وكلما عاملناه بعطف وحلم تمادى في إيذائنا والتعدي علينا بالضرب وكثيراً ما يهددنا بالقتل وقد تبرأت منه لسوء أخلاقه بعد أن ضقت ذرعا به ، وأريد أن أعاقبه بحرمانه من الميراث وكتابة أملاكي باسم أولادي الآخرين الذين في حاجة إلى رعاية لصغر سنهم. فما حكم الشرع في هذا ؟ .

أحمد محمد القمري

الجواب :

قسوة الولد على أبويه أو على أحدهما أو على أحد أفراد أسرته أمر لا يجوز بحال من الأحوال ولا يرضاه الله من الولد ، وهو بذلك مسيء إلى نفسه ، وإلى دينه ، ومحل سخط من الله في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فحرمانه من التركة مخالفة لتشريع الله ولم يجعل الله عقوبة العبد بقطع رزقه أو ضياع استحقاقه في التركة لأنه سوف لا يستحقها إلا بعد وفاة المورث له سواء كان الأب أو الأم ، ومن الجائز أن يكون حين استحقاق نصيبه في الميراث مهذب النفس طيب الأخلاق حسن السلوك فلا مسوغ لعقوبته بالحرمان ، ونظراً لوجود إخوة صغار يستحقون التربية فإنه يجوز للأب أو للأم أن يخص الأولاد الصغار بشيء من الملك دون هذا الولد الكبير الذي انتهت تربيته واستغنى عن والديه وذلك عن طريق الوصية في حدود ثلث المال تمييزاً لهم على أخيهم العاق عملا بقانون الوصية الذي أجاز الوصية للوارث دون توقف على رضا بقية الورثة .

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : عبد الرحيم فوده

الإسراء :

والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الإسراء بالروح ، ويقر المعراج بالروح ، بحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة ، كما أن تقابل قوى الكون فى صورة معينة قد طوع « لماركونى » إذ سلط تياراً كهربائيا من سفينته التى كانت راسية بالبندقية أن يضىء بقوة موجات الأثير مدينة سدنى فى استراليا .

وفى عصرنا هذا يقر العلم نظريات قراءة الأفكار ومعرفة ما تنطوى عليه ، كما يقر انتقال الأصوات على الأثير بالراديو . وانتقال الصور والمكتوبات كذلك مما كان يعتبر فيما مضى بعض أفانين الخيال ، وما تزال القوى الكمينة فى الكون تتكشف لعلمنا كل يوم عن جديد ، فإذا بلغ روح من القوة ومن السلطان ما بلغت نفس محمد ، فأسرى به الله ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى بارك حوله ليريه من آياته . كان ذلك مما يقره العلم ، وكانت حكمة ذلك هذه المعانى القوية السامية فى جمالها وجلالها ، والتى تصور الوحدة الروحية ووحدة الكون فى نفس محمد تصويراً صريحا ، يستطيع الإنسان أن يصل إلى إدراكه إذ هو حاول السمو بنفسه عن أوهام العاجلة فى الحياة . وحاول الوصول إلى كنه الحقيقة العليا ليعرف حقيقة مكانه ومكان العالم كله منها .

لم يكن العرب من أهل مكة ليستطيعوا إدراك هذه المعانى . لذلك ما لبث محمد أن أن حدثهم بأمر إسرائه حتى وقفوا عند الصورة المادية من أمر هذا الإسراء وإمكانه وعدم إمكانه . .

الدكتور محمد حسين هيكل
من كتابه حياة محمد

التعليق : يخيل إلى أنه لو عاش المرحوم الدكتور هيكل إلى الآن لوجد نفسه حيث وجد العرب من أهل مكة بإزاء قصة الإسراء فقد تقدم العلم فى السنوات القلائل الماضية بصورة لعلها لم تكن تخطر على باله حين كتب ما كتب ، فانتقل الإنسان بمادته وروحه إلى ما وراء الأرض وهواء الأرض

وجاذبية الأرض من الفضاء . وهو يحاول الوصـــول إلى القمر ، وإلى غيره من الكواكب التى يقول فيها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد » .

فإذا كانت هـذه هى قدرته مع ضعفه وهوان قـــدرته أمام الله الذى خلقه وسواه فكيف بقدرة الخالق الذى « يمسك السموات والأرض أن تزولا » .

لقد صدق الله إذ يقول « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

بل لقد كان شوقى أحكم وأعلم حين قال فى ذلك :

مشيئة الخالق البارى وصنعته
وقدرة الله فوق الشك والتهم

فضاء النفس :

فى النفس فضاء من الحيرة والشك والغموض ، أشبه بالتيه الذى لا حدود له ، والخراب الذى لا أنيس فيه .

ولا يقدر على اختراقه إلا من مرن على علوم ورياضات للنفس كالعلوم والرياضات التى مرن عليها رواد الفضاء بالجسم .

ولا مفر لنـا نحن بنى الإنسان فى هـذه الأيام التاريخيـة التى بدأنا فيها أن نعبر بأجسامنا الفضاء الكونى حول الأرض على درب النجوم ، أن نعبر فى ذات الوقت فضاء النفس البشرية ، لندرك بقلوبنا ونتذوق بوجداننا ذلك الأمر الخطير الجليل الذى نفعله بعبور الفضاء الكونى ، فلا نكون آلات لا وجدان لها تركب آلات صماء عمياء لا وجدان لها ، ولا نرتفع إلى حدود عالم الملأ الأعلى بصغارات الملأ الأدنى وسفالاته وحماقاته ، فننقل إلى تلك الرحاب العلوية الساكنة الهادئة وحوش الشر والشك والقلق والإثم والاضطراب التى أكلت قلوبنا وأكبادنا وشقينا بها على الأرض فى الدهر الأطول الذى مضى ...

أما مركبنا لعبور فضاء النفس البشرية والوصول منه إلى ما وراءه من عالم الروح والملأ الأعلى الذى يعمر ما وراء ذلك الكون الكبير ذى الأبعاد والأرقام الفلكية والمقاييس الضوئية ... فهو الإيمـان بسيد الكون وبما خص به ذلك الإنسان الذى نحمله جميعاً فى أجسامنا ، ونستوحيه فى أفكارنا ، ونبادله ما صح وما فسد من شئوننا .

الإنسان الذى رأينا من « عدسات » عقول أنبيائه وأصفيائه وقلوبهم نور الله خالق الطبيعة وسيد الكون ، وسمعنا من صحفهم وكتبهم وأحاديثهم عن ذاته العليا ، وعن الكون والحياة والإنسان .

وآنسنا بلقائه فى نواديهم ومعابدهم التى أقاموها للتعرف إليه والتعبد له .

الأستاذ عبد المنعم خلاف - من مجلة الرسالة

نصيحة لكل مؤمن :

يجب عليك أيها المؤمن الذى يريد تزكية نفسه بحفظها من الشر وجعلها خيرة وأهلا لسعادة الدارين ، أن تعنى بوقايتها من الشر قبل وقوعه وبمعالجتها منه بعد وقوعه ، كما تعنى بوقاية بدنك من الأمراض قبل وقوعها وبمعالجتها منها بعد وقوعها ، وأن تعلم أن لكل من أمراض النفس والبدن أسباباً ظاهرة وأسباباً خفية ، فالخفية من أمراض البدن أحياء دقيقة تملأ الأرض والفضاء ، يسميها الأطباء « الميكروبات » ، وما عرفوها إلا فى القرن الماضى ، فهم يرونها الآن بالمناظير المكبرة ، وأما الخفية من أمراض النفس فهى لا ترى ، ولذلك سماها الوحى الجنة والجن « بكسر الجيم » ومنشؤها الوسواس الذى تلقيه الشياطين فى خواطر الناس وهم شرار الجنة ، وقد علمنا الوحى أن لكل إنسان منا شيطاناً يوسوس له بالشر الذى يغويه ، فالذى يجب على كل منا اتقاء وسواسه بمراقبة خواطره ووزنها بميزان الشرع ليميز بين الحق والخير منها الذى يكون بهداية الدين وسلامة الفطرة الإلهية ، والباطل والشر الذى يكون بوسواس شياطين الجن والإنس ، فإذا نسى نفسه والتمييز بين خواطره غلب عليها الشر وكان من الغاوين ، نعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

السيد محمد رشيد رضا

من تفسير سورة الناس

والنفس كالطفل :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها وحاذر أن توليه
إن الهوى ما تولى يصم أو يصم (1)
وراعها وهى فى الأعمال سائمة
وإن هى استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لم يدر أن السم فى الدسم (2)

البوصيرى

---

(1) يصم الأولى بضم الياء من أصمى الصيد بمعنى أصابه فوقع بين يديه ، ويصم الثانية بفتح الياء وكسر الصاد من وصمه يصمه بمعنى عابه ، وشده بسرعة ، وشقه ، والوصم ، والعار ، والعيب والصدع ، والفعلان جوابان للشرط فهما مجزومان بحذف حرف العلة فى الأول وبالسكون فى الثانى وحرك بالكسر للروى .

(2) الدسم دهن اللحم والشحم .

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء السادس — السنة الخامسة والثلاثون — شعبان سنة ١٣٨٣ هـ - يناير ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

بقلم : أحمد حسن الزيات


الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت

في الهزيع الأول من ليلة يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب ، وهي ذكرى الليلة المباركة التي أشرقت فيها الأرض بنور الإسراء ، وانطوت السماء على سر المعراج ، صعدت إلى عليين روح طاهرة بارة بعد أن لبثت في دنيا الناس خمسين سنة تشع بالهدى والعلم ، وتنطق بالحكمة والموعظة ، وتهدى بالكتاب والسنة ، لا يصرفها صارف من هوى ، ولا يشغلها شاغل من شهوة ، حتى لقيت ربها لقاء الصالحين وبين يديها سجل حافل بالجهاد الصابر والعمل المثمر والأثر الخالد والألم الممحص ، ومن خلفها ذكر حسن لا ينمحي ، وفراغ واسع لا يمتلئ ، وأسى ممض لا يخف .

إن فى الناس رجلين يربكان الكاتب إذا حاول أن يكتب عنهما : رجلا لا يستطيع أن يجد ما يقوله فيه ، ورجلا لا يستطيع أن يختصر ما يعرفه عنه . ومن هذا النوع صاحب هذه الروح فقيد الإسلام وشيخ الشيوخ الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت . فقد كان رضى الله عنه من البابة الأولى فى الرجولة ! تجلت فى خلائقه مزايا الإنسان الرفيع ، وتمثلت فى أعماله فضائل المسلم المؤمن ، وجعل عمره كله لله وللعلم فانبث فى عمله روح الصوفى الصالح ، وانطبع فى فكره أثر الحكيم المصلح ، فامتاز فى وقت واحد بعقلية فيلسوف جرىء ونفسية طفل برىء فهو فى الحق عاصفة لا تهدأ إلا إذا انتصر العدل . وفى الخير نفحة لا تسكن إلا إذا انتعش الإحسان . وبهذا الخلق الذى استقام له من الغضب للحق والرضا عن الخير ، جرى فى الاعتقاد على الإخلاص ، وفى القول على الصراحة . وفى العمل على الجرأة ، وفى الرأى على الاستقلال ، وفى الحيـــاة على التمرد . وهذه الخلال فى العلماء ، أشبه بالإرهاص فى الأنبياء ، تبلغ درجة المصلحين فيشعرون بذلك القلق الروحى المقدس الذى لا يفتأ يساورهم فى كل هم يحاولونه وكل عمل يزاولونه وكل مكان يستقرون به ؛ لأن مبعثه فيهم صفاء النفس ولطف الحس ودقة الفطنة . فهم وحدهم يدركون النقص فيرومون الكمال ، ويلحظون الخطأ فيطلبون الصواب ، ويسئمون الركود فيريدون التحول . ولذلك كان الإمام شلتوت لا يكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح .

كانت عدة الجهاد والاجتهاد مجتمعة لديه ، فقد كان واحد جيله فى اكتناه سر العقيدة .. واقتباس نور الشريعة . وكان أفهم العلماء لكتاب الله ، فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين مؤلفاته من هديه ، وعناوين مقالاته من آيه وكان من أخلص الدعاة إلى سبيل الله : أيقظ همه للإسلام فقرب عقائده للأفهام بما ألقى من دروس وألف من كتب ونشر من مقالات وأذاع من أحاديث ، وتعمق جذور الأصول فى الفقه ، وتقصى أطراف الفروع فى التشريع ، فوجد فى أقوال الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومدى عصورهم جوابا شافيا عن كل سؤال يخطر على الذهن ، وحلا حاسما لكل إشكال يعرض على المجتمع ، وحكما عادلا فى كل قضية ترفع إلى القضاء . وساعده على ذلك ملكة فقهية تنفذ إلى العلة الباعثة والحكمة المستورة ،

ومعرفة شاملة بأمور العصر تحيط بالظروف الطارئة والأحوال الداعيـــة ، فاستغنى عن الاجتهاد المبتدع باجتهاد من نوع آخر هو الاجتهاد فى اختيار الرأى المناسب وترجيح الحكم الموفق ، دون أن يتقيد بمذهب من المذاهب ، ولا بإمام من الأئمة ، وإنما يجرى فى فتاواه على أن شريعة الله خالدة ثابتة عامة لا تتأثر بالمكان ولا تتغير بالزمان ولا تقسم بالخصوص ولا تضيق بالحضارة ولا تبرم بالعلم ولا تنبو على التطور ومن هنا واكب الزحف الثورى الاشتراكى فى ميدان الإصلاح العام يؤيده بروح الله ويرشـده بنور الله ويقطع عنه ببيانه وإيمانه ألسنة الجهل والكيد التى اندلعت من أوكار الرجعية تضل الناس باسم الدين والدين منهم براء !

* * *

كان الإمام محمود شلتوت يرى أن الأزهر معقل الإسلام الحصين وقبلة المسلمين الأخرى ومنشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وفى غير مصر . فإذا أصلح على الوجه الذى يريد فقد وضع الطباب على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية .

وكان قد سبقه فى محاولة هذا الإصلاح ثلاثة من أبناء الأزهر النابغين ، ولكنهم منوا جميعا بالعجز عنه لاستبداد (القصر) يومئذ بسياسة الأزهر يجريه على هواه ويبزله على حكمه فقضى محمد عبده بحسرة من بنى عباس ، ومضى المراغى بخيبة من هوى فؤاد ، وخرج عبد المجيد سليم بنزوة من نزق فاروق ! فاتجه بعقله وقلبه إلى المشاركة فى هـذا الإصلاح ، فاتبع الأول وكان يتحرق أسفا على تعويقه عن مقصده ، وأيد الثانى وكان يضيق ذرعا بطول تردده ، وعاون الثالث وكان يرتمض أسى على كف يده ، وكان هو ونفر من إخوانه فى الرأى يجتمعون فى دار (الرسالة)، فيتشاكون ما حاق بالأزهر من ركود ريحه وانحسار ظله، ويشفقون على ينبوع الثقافة الإسلامية أن يصد تياره ما ارتكم فى مجراه من الحطام البالى والغثاء الطارئ فكتبوا فى الرسالة فصولا فى نقد التعليم الأزهرى كانت مبعث وعى فى نفوس الطلاب ومثار حركة فى قلوب الأساتذة ، وانفرد هو بدعوة الإصلاح الأزهرى بعد فشل دعاته من قبله ، فرسم الخطط وسن المناهج وكتب الرسائل وحبر المقالات وقدم التقريرات ، ثم جعل للإسلام النقى الواضح قولا فى كل مسألة ، ورأيا فى كل معضلة ، وتوجيها فى كل قصد ، تارة بلسانه فى الإذاعة ، وتارة بقلمه فى الصحف ، وكان من أثر مناصرته لسياسة المراغى ومجاهدته فى سبيل الإصلاح ، أن غضب عليه (القصر) فأوعز إلى القائم على شياخة الأزهر يومئذ بفصله من عمله ففصله خمس سنين احتمل فيها

مكاره العيش ومصاعب الرزق بعزة الكريم وأنفة الأبى فلم يهن لما أصابه فى سبيل الله ولم يستكن، حتى انفرجت الأزمة وانكشفت الغمة، وتولى مشيخة الأزهر الإمام عبد المجيد سليم وهو من إخوانه وأعوانه فرغب إلى فاروق أن يعينه وكيلا له، فأبى الطاغية إلا إذا تخلى شلتوت عن الخطابة والتدريس فى مسجد الأمير محمد على الصغير بقصر المنيل، فلما كلمته فى ذلك بتكليف من الشيخ الأكبر قال لى فى لهجة تنبض بالغضب: لأن أفصل مرة أخرى من الأزهر، وأعيش مرة أخرى أنا وأولادى فى صراع الفقر، خير لى من أن أساوم على كرامتى وأصالح على هوانى، إن مسجد الأمير الذى أعمل فيه لله وأنا مدرس، أحب إلى من قصر المليك الذى أعمل فيه للشيطان وأنا وكيل.

وانصرف الشيخ إلى خدمة الإسلام بالتعليم والتأليف، ومصلحة المسلمين بالتوجيه والتثقيف، فكان حركة لا تسكن وبركة لا تنقطع، ولا نظن عالما من علماء العصر بذل من الفكر والجهد فى إعلاء كلمة الله مابذل شلتوت.

لذلك اختارته (ثورة الإصلاح العام) شيخا للأزهر ليدفع به إلى مكانه الحالى من صف القيادة العامة، ويجمع عليه قلوب المسلمين فى أقطار الأرض عامة، ثم أيدته بالقانون والنظام والمال والرعاية. وتبوأ الإمام كرسى الأزهر الجديد وهو يشكر الله على أن مد فى عمره حتى رأى نجاح المسعى وتحقيق الأمل. وكان متمناه الباقى أن يمضى فى تطوير الجامع العتيق على النهج الذى أسن والمثال الذى تخيل، ولكن الداء العياء فاجأه فأضعف من طاقته من جهة العزم، وإن لم يضعف قيادته من جهة الرأى. فكانت هذه الحال سببا فى ازدياد همه ومضاعفة علته.

* * *

كان ذكر الشيخ برياسة العلم وإمامة الدين قد دار على الألسنة وسار فى الآفاق، فكان بريده لا ينقطع بالرسائل، ومكتبه أو بيته لا يخلو من الزوار، يفدون إليه من الشرق والغرب اقتباسا من علمه والتماسا لبركته، سواء فى ذلك المسلمون والمسيحيون والرؤساء والملوك والأمراء والعلماء والقادة، حتى أصبح مقره من المزارات المعدودة التى يحرص على زيارتها كل قادم إلى القاهرة من رجالات العالم، وتلك عالمية لشيخ الأزهر لم تتح لأحد من قبله.

ومما ساعده على بلوغ هذه المكانة دعوته إلى التقريب بين المذاهب والطوائف، وعمله للسلام بين الأديان والأمم، واتساع علمه لتطبيق الشريعة على مقتضيات الأحوال والدواعى، وانطباع خلقــه على أخلاق

الصالحين فى السلوك والسمت ، وتأثير حديثه الخصب فى مجالسيه بالإيمان والصدق .

كان محدثا فخم الصوت عصبى اللهجة واسع الرواية يمتزج حديثه بأجزاء النفس فلا يملك السامع إلا أن يتشربه بسمعه وقلبه .

وكان خطيبا جهير المنطق حافل الخاطر يضع لسانه من فنون القـــول حيث شاء فلا يتلجلج ولا يتوقف فكان مسجد قصر النيل يغص بصفوة المثقفين يوم الجمعـــة ليسمعوا خطبته ويحضروا درسه ، كما كان يغص الرواق العباسى بعلية المفكرين ليشهدوا درس الإمام محمد عبده .

وكان مجادلا غزير البحر قوى الحجة بصيرا بمواضع الحق قديرا على استنباط الدليـل فلا يسع المجادل إلا أن يسلم بحجته ويصير إلى رأيه : حاجه فى الله عالم طبيعى من أمة (السويد) كان يمج الإلحاد من مسامه ويفرزه فى كلامه ... وكان قبل لقائه الشيخ قد تحدى فلاسفة اللاهوت أن يحملوه على الإيمان بالله فما استطاعوا ، فلما زار القاهرة أراد أن يجرب إلحاده فى شيخ الاسلام فظل يحاوره ويداوره ثلاث ساعات كما روى الشيخ عبد الحكيم سرور مدير مكتب الإمام يومئذ حتى غمره من الشيخ إشعاع الإيمان وإقناع المنطق فرجع إلى الله صاغر العقل أبكم الحجة ، وقام فقبل يد الشيخ وقال له : بقولك اشتفيت وبفضلك اهتديت ، وأصبح منذ ذلك اليوم من أتباعه .

صحبت الفقيد الكريم ثلاثين سنة تمكنت فيها الألفة بينه وبينى . عرفته فى مجلة الرسالة وزاملته فى مجمع اللغة وعاونته فى مجلة الأزهر وبلوته فى حالات أخرى مختلفة فلم أعرف فيه إلا العقل النير بالعلم والقلب العامر بالتقوى ، والنفس الراضية بقضاء الله فيما تحب وتكره .

ابتلاه الله بالفالج وهو فى كمال البنية والعقل فلم يغلبه على الصبر يأس ولم يقعده عن العمل بأس . وإنما ظل على ديدنه يدبر شئون الأزهر ، ويقضى حقوق العلم ، ويغذى نهضة العرب بزاد التقوى كلما حزبهم أمر أو غشيتهم فتنة .

أدركته يوما مسة من ضعف الإنسان فقال لى فى لهجة تنم على القنوط والضجر : « لقد طال الابتلاء يا زيات ! » فقلت له : هون عليك ! إنك ما دمت تؤدى رسالتك بالعقل الراجح واللسان المبين فلا يهمنا بعد ذلك ألا تلعب الكرة ! فضحك واسترفه وحمد الله .

ولكن المنون كانت تتربص بالمريض القلق ساعة الأجل . فلما جاء أطبقت فمه على الضحكة الأخيرة ، وكفنت جسده بالراحة المقيمة ، وأسلمت روحه ليلة المعراج إلى رضوان الله فى جنة النعيم ... !

أحمد حسن الزيات

الموفِّقُ الموفَّق
الإمام المصلح "محمود شلتوت"

للأستاذ عباس محمود العقاد

فى كتابات الإمام الفقيد - الشيخ محمود شلتوت - كلمات لها طابعها الذى تتميز به بين أمثالها من الكلمات فى كتابات غيره ، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية .

ولعل أبرز هذه الكلمات فى كتاباته ، وفى أحاديثه ، كلمة « الشخصية » .

يلحقها بوصف العقيدة ، ووصف الفرائض المقدسة ، بل يجعل العقيدة - كما يجعل الفريضة - معلماً من معالم شخصية الأمة ، وشخصية الإنسان فى حياته الباطنة وحياته الظاهرة .

قال رحمه الله فى مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر إن : « للإنسان فى هذه الحياة فرداً كان أم جماعة شخصيتين ، حسية ومعنوية ، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين . وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض ، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه فى الحياة ، وماله من عقل وتدبر وثبات ومثابرة فى سبيل مبدئه وهدفه » .

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية : « إنها ترجع إلى إقامتها فى الإقليم الذى نشأت فيه ، وإلى الأصل الذى تنتسب إليه » . . .

« أما شخصيتها المعنوية فهى ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية ، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة والحرص عليها وعلى معارفها التى تكونها ، وعلى الإيمان بمصدر تلك المعارف ... يكون لها بين الأمم من آثار الوجود المعنوى » .

وكتب عن الصلاة فى فصل من فصول « الإسلام عقيدة وشريعة » ، فقال عنها : « إنها العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية » .

وعلى هذه الوتيرة كانت كلمة « الشخصية » تتردد فى أحاديثه للدلالة على قوام كل « وجود » حتى يتميز به عقل الإنسان وضميره فى حياته الروحية ، وهى لمحة من لمحات التعبير الباطنى تدل على معناها وتدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره بكرامة الشخصية واقترانها بحق الإنسان وواجبه وبالتبعة التى تناط بها الحقوق والواجبات ، وتقرر له موقفه من

الشخصيات الإنسانية الأخرى فى إبداء الرأى والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع .

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد ، بل هى أولى تلك الخصال فى كل ترتيب لكفايات المجتهدين . من كان له رأى وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد ، لأنه يلتى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه ، ويحجم عن العمل فى سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل .

وتلك هى الخصلة التى توافرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة ، وبفضل الثقة التى كانت تملأ نفوسهم ، من هذه الخصلة كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهل العلم من الصحابة والتابعين : إنهم رجال ونحن رجال .

* * *

وإذا اجتمع الاجتهاد فى كلمات معدودات صح أن يقال إنه هو القدرة على الرجوع إلى روح القرآن الكريم ، أو أنه بعبارة أخرى تفسير المذاهب بمعانى القرآن الكريم ، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعانى المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها .

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين ، وكان هذا هو منهجه فى الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه ، مستقلة عما يضاف إليها من شروح المختلفين وتأويلات أصحاب الرأى أو أصحاب اللغة من المفسرين .

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهى هذا المنهج فى تقديمه لتفسير الإمام الفقيد فقال : « التفسير الذى نقدمه اليوم للسلمين هو تفسير للسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن » .

ثم قال عن المنهج الذى اختاره الأستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال : إنه منهج « جعل السورة وحدة واحدة ، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادئ إنسانية عامة » ، وأنه لا يقحم فيه القرآن على القرآن من رأى خارج عنه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضا كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد دون أن يحمل على ما يراد .

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن تفسيراً للسلمين جميعاً ، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين ، وهى أمانة لا يضطلع بها غير أهلها من القادرين على الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بما ينبغى للمجتهد من الشجاعة الصادقة ووسائل الإقناع

بإحسان ، وما ينبغي للمجتهد المسلم خاصة من الصمود إلى غاية التعليم ، وغاية المعهد العلمي الذي يتولاه .

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامي الأكبر ، فقال في بضع كلمات: «إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين».

ومن أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر ، فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم ، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب في ناحية إعجازه التي لا مراء فيها ، وهي معجزة الأثر الخالد التي نستطيع نحن - أبناء هذا العصر - أن ندركها وأن يكون إدراكنا لها أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين .

معجزة الأثر في ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التي شهدها أبناء القرن الأول ثم شهدها أبناء القرون الأولى بعد عصر الدعوة ... فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التي لا نظير لها والتي تقاصرت عنها الهمم ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم ، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله ، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله :

أربعمائة مليون من بني آدم فرقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان ، وجمعتهم كلمات القرآن .

وكلمات حفظت اللغة التي نزلت بها وليست هذه اللغة هي التي حفظتها ، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين ، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس ، ولم تعش لغة اللاتين بعض هـــذه السنين بلغة فرجيل وهوراس ، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب ، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام وبقيت لغة القرآن حية في عالم الديانة وفي عالم الكتابة وفي عالم الثقافة ، وستحيا غداً كما حييت بالأمس ، ماشاء الله ، وصح فيها قول الأستاذ الفقيه : «إنها ليسع في هذا المقام عربية الإقليم والجو ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس ... وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصري العروبة والإسلام ... » .

ولما تكلم عن غايته من التعليم في المعهد الأكبر الذي تولاه قال : «نريد تخريج تبريز لأئمة في اللغة وفروعها وأئمة في الفقه وأصوله ، نريده تخريجاً أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمي الذي يكون الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية ، لا نريده تخريجاً نلتزم فيه مخلفات الماضي من آراء ومذاهب بل يجب أن نجتهد وأن نؤمن بأن حاجة اليوم في الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها

بالأمس ، وأن تؤمن بأن فضل الله فى كل ذلك لم يكن وقفاً على الأولين » .

ونستعير من أسلوب الفقيـد فنقول إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر « شخصيته » على تمامها كما ينبغى أن يضطلع به المجتهد فى جميع العصور ، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هـذا الذى نعيش فيه ، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذى يواجهه المجتهدون عما قريب .

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له فى هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهراً بهذا الجلاء وهـذه الضرورة فى عصر من عصوره الماضية .

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين فى العصر الذى ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الأجنبى ووجب أن تحل فى مكانها روابط القربى بين أمم الإسـلام على تباعد الديار وتباعد الشيع والمذاهب التى لا بقاء لها مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين . .

وهاهنا عنصر اللغة فى عصر النهضة العربية وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التى تتحد بها ثقافة الإسلام فى جميع اللغات .

وهاهنا عنصر « الاستقلال » فى عصر الحرية الفكرية أو عصر « الإنسان » الحر فى الجماعة الحرة ، وقد مضت الجمـاعات فى طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستغلال .

وهاهنا العصر الذى أصبح فيه معهد الإسلام الأكبر كما قال الشيخ رحمه الله : « يضم السودانى ، والمغربى ، والحبشى ، واليمنى ، والشامى ، والفلسطينى ، والأندونيسى ، والتركستانى ، والسعودى ، والأفغانى ، والتركى ، والروسى ، واليونانى ، واليوغسلافى ، والكردى ، والعراقى ، والكويتى ، والإيرانى والسيامى ، والباكستانى ، والفليبينى ، والملاوى ، والبرمى ، والأردنى ، واللبنانى ، والزنجبارى ، والأوغندى ، والليبى ، والتونسى ، والجزائرى ، والمراكشى ، والأرتيرى ، والسنغالى ، والصومالى ، والنيجيرى ، ... إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الأيام بلا انقطاع لا جرم كان من بشائر الأمل - كما أسلفنا فى غير هذا الموضع - أن ينهض الشيخ شلتوت بمشيخة الأزهر فى الزمن الذى تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبى عليها وبين هـذا المعهد الذى لا معهد فى العالم الإسـلامى أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخلف بين المسلم والمسلم حيثما كان فى أقاصى البلدان .

« ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير عله الغزير

وشجاعته الصادقة ، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة ، تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار » .

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات فى مجمع اللغة العربية فتعودنا أن نعرفه « قرآنيا » فى دراسته لأسرار اللغة ، قبل أن نعرفه « لغويا » فى دراسته لأسرار القرآن ، وكنا نسمعه يقول : « إن القرآن معجز بما هو به قرآن ، ويعني بذلك نسقه الذى ينتظم ألفاظه ومعانيه ويوحى من معانيها بما ليس فى مفردات الكلم ولا فى أجزائه التى يقتضيها الإعراب فى كل عبارة . . فليست الكلمة الواحدة هى محل الإعجاز ، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التى تتم بها جملة الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر والجار والمجرور أو المضاف والمضاف إليه ، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان ، وبين الوحى والبصيرة ، بما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان .

وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتابا للمسلمين جميعا يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف ، أى يختلف فيه المختلفون ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه فى وجهات نظره بين حين وحين ، وبين اعتبار واعتبار .

وبهذه النظرة « القرآنية » عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه للدروس بمعاهد التعليم ، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية وعلاقته ببلاد العرب أجمعين .

والجديد فى خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية ، أو اللغة القرآنية ، شىء يتعلمه العربى المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربى ، فلم يكن على المسلمين غضاضة فى هذه المساواة الشاملة ، ولم يكن للعربى إيثار على غيره ؛ لأن عروبته فى هذا المنهج هى عروبة القرآن الذى يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس ، وبكل لسان

ولئن مضى الإمام المجتهد ولم يعقب برنامجه المفصل للتطبيق الشامل « العملى » فى المستقبل الذى سيواجهنا عما قريب ـ لقد عمل وعلم وأعقب المثال الذى يهتدى به من عمل معه ومن تعلم على يديه ، ومن يقدر على مجاراته فى اجتهاده والزيادة عليه بما يتهيأ لهم من وسائلهم ولم يتهيأ له فى حياته ، وإنهم لكثيرون بعون الله ، يجزيهم الله وإياه .

عباس محمود العقاد

صفحة بيضاء من جهاد شلتوت

في سبيل الإصلاح الديني، والتقريب بين المسلمين

للأستاذ محمد محمد المدني

في العدد السابع والثلاثين بعد الأربعمائة من مجلة (الرسالة) الغراء (وهو يقع بين أعداد المجلد التاسع منها) ، نجد تنويها باقتراح عظيم خطير الشأن صادر من المغفور له الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت ، حينما كان وكيلا لكلية الشريعة في نوفمبر سنة ١٩٤١ قدمه على إثر اختياره عضواً في « جماعة كبار العلماء » .

وهذا نص الاقتراح :

« إن هيئة كبار العلماء ركن مهم من أركان الإصلاح في الأزهر ، بل الذروة التي يجب بلوغها منه ليعود إليه أولئك الفقهاء المحققون ، والمحدثون الثقات ، والمفسرون المطلعون ، واللغويون البلغاء ، والمؤرخون الصادقون ، وأهل الصلاح والتقى .

إن هيئة كبار العلماء هي التي يرجى منها أن تكون تاج الجامعة الأزهرية ، ومن أهلها أن يكونوا أساطين العلم ، وحفاظ الشريعة ، وحماة لغة القرآن ، لتركن الضمائر الواجفة إلى علمهم ، وتهدأ النفوس الراجفة بهديهم وإرشادهم وتطمئن قلوب المؤمنين لقيامهم حفاظاً لليقين ، وحراساً على شريعة النبي الأمين » .

بهذه العبارات الواضحة حددت لجنة إصلاح الأزهر المؤلفة في سنة ١٩١٠ ، الغرض من جماعة كبار العلماء ، وآمال الأمة الإسلامية فيها ، ولم تزل الأمة الإسلامية ناظرة إلى هذه الجماعة الموقرة ترقب منها أن تكون مصدر خير لها في دينها ودنياها ، ترقب منها أن تعمل على إعلاء كلمة الله ، ونشر ثقافة الإسلام ، وحياطتها بما يقويها ، ويدفع عنها غائلة المعتدين . ترقب منها أن ترشدها إلى أحكام الدين نقية مما خالطها من شوائب الابتداع في عقائدها وعباداتها ونظمها ومعاملاتها ، وإني أقترح تحقيقاً لهذه الآمال الجسام أن يؤلف لجماعة كبار العلماء مكتب علمي دائم ، وأن يجعل لهذا المكتب مكان معين معروف ، شأن كل هيئة رسمية وغير رسمية من الهيئات التي تعمل لأغراض خاصة . أما مهمة هذا المكتب بعد إنشائه ، فهي ما يأتي :

(ا) معرفة ما تهاجم به الأديان عامة ، والدين الإسلامي خاصة ، في عصرنا الحاضر ، والرد عليه رداً كافياً مقنعاً بأسلوب ملائم لطريقة البحث الحديث .

(ب) بحث ما يحصل فيه الاختلاف

بين علماء العصر من جهة أنه بدعة يجب تركها ، أو ليس كذلك ، ووضع الأصول الكفيلة بتمييز ما هو بدعة مما ليس بدعة ، والعمل على نشر كل ذلك ، ليرجع إليه الناس ، وتنقطع به أسباب الفتنة والنزاع بين المسلمين .

(ج) العمل على وضع مؤلف يحتوى على بيان ما فى كتب التفسير المتداولة من الإسرائيليات التى دست على التفسير ، وأخذها الناس على أنها من معانى القرآن ، والتى لا يدل على صحتها نقل ولا يؤيدها عقل ، وهذا يشبه ما قام به رجال الحديث من تجريد الأحاديث الموضوعة فى كتب خاصة يرجع إليها الناس .

(د) إصدار الفتاوى فى الاستفتاءات التى ترد من المسلمين فى جميع الأقطار إلى مشيخة الجامع الأزهر .

(هـ) بحث المعاملات التى جدت وتجد فى العصر الحاضر من جهة حكم الشريعة فيها ، حتى يظهر للناس سعة صدر هذه الشريعة ، وقدرتها على تلبية حاجات الناس فى مختلف العصور .

(و) تنظيم طرق الوعظ والإرشاد ، والاتصال بالهيئات المعدة لذلك .

(ز) التنقيب عن الكتب المفيدة فى مختلف العلوم ، والعمل على إحيائها وإخراجها إخراجا علمياً متقنا .

(ح) الإشراف على مجلة الأزهر ، والعمل على توجيهها فى طريق تخدم به الحركة الفكرية الإسلامية ، وتبرز به ثقافة الكليات الأزهرية » .

* * *

هذا هو الاقتراح الذى عبر به فضيلة الإمام الأكبر الراحل عما كان يدور بخلده فى جانب من جوانب إصلاح الأزهر ، يعد هو الجانب الأساسى فيما يبتغيه المسلمون منه ؛ ذلك أن الأزهر هو وارث علم الإسلام ، وليس فى هذا العصر جامعة أو معهد على ينافسه فى تاريخه العريق ، ولا فى حفاظه على هذا التراث المقدس .

ومن أول واجباته أن يكون دائما على صلة بالحياة وما يجد فيها ، وما يطب به لمشكلاتها ، فعلماؤه هم الذين يستطيعون بدراساتهم العميقة ، وتحليلاتهم الدقيقة أن يطبقوا علم الإسلام ، وقواعد شريعته ، تطبيقا قويما ، وأن يترجموا أفكار الأولين واجتهاداتهم إلى لغة العصر ، وأن يعرضوها على الناس عرضا جميلا ميسراً تدركه العقول ، وترتضيه الأذواق ، وهو فى الوقت نفسه الجامعة المعترف بها من العالم الإسلامى كله ، الموثوق برجالها ، المنظور إليها نظرة الإمامة والقداسة .

فإذا استطاع الأزهر أن ينهض بهذه الأمانة ، ويحمل أعباء هذه الرسالة ، واستقر الإيمان بالدين فى نفوس المؤمنين ، واطمأن

الناس إلى أن شريعة الإسلام هى الشريعة الصالحة لكل زمان ومكان .

ولكن جماعة كبار العلماء لم تنهض يومئذ بهذا العبء ، ولم تنشط لتنفيذ هذا الاقتراح ، وظلت جهودها موزعة دون نظام يجمعها ، أو قيادة تدفعها ، وظل المسلمون يشعرون بالفراغ فى هذا الجانب .

ولكن الإمام الراحل لم يركن إلى الاستسلام ، فاتجه هو وطائفة من إخوانه العلماء الأقوياء المجددين ، إلى الإسهام فى إنشاء (جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية) ومجلتها (رسالة الإسلام) ، وكان فى مقدمة الذين اشتركوا فى هذه الجماعة — غير الراحل الكريم — منذ تأسيسها المغفور لهم : الشيخ المراغى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ عبد المجيد سليم ، رحمهم الله ، وغيرهم من الذين سبقوا إلى ربهم ، أو ما زالوا على قيد الحياة يجاهدون فى الله وفى مقدمتهم سماحة الأستاذ العلامة الشيخ محمد تقى القمى العالم الإمامى الإيرانى - أطال الله عمره — ولقد كان من أهم ما لفت أنظار هؤلاء العلماء وإخوانهم أن الخلافات الطائفية والمذهبية ، قد أفسدت ما بين المسلمين ، وجعلت من كل فريق منهم عدوا للآخرين ، يتربص بهم ويتربصون به ، وأن هذه الخلافات بكرت على المسلمين منذ العهد الأول ، فتفرقوا شيعا وكل حزب بما لديهم فرحون ، وأن أكثر ما يدور عليه الخلاف بينهم ، إنما هو فى النظريات الكلامية والقضايا التاريخية التى لا شأن لها بالأصول الإسلامية التى يجب الإيمان بها ولا يعتبر المرء مسلما إلا إذا اعتقدها ، ودان الله بها ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يقاطع المسلمون بعضهم بعضا ولماذا ينظر بعضهم إلى بعض نظرات التوجس والحذر وسوء الظن ؟ ، ولماذا لا يجتمع علماؤهم من كل شعب ومذهب ليدرسوا أحوال أمتهم ، وأصول دينهم ، وتعاليم رسولهم ، وما يستقيم عليه فى هذا العالم أمرهم ، فى جو من صفاء الأخوة ، وتآلف أهل الإيمان ؟ وإذا كان هناك اختلاف فى بعض المسائل الفرعية أو النظرية التى لا يضر الاختلاف فيها ، فلنجتمع حول ما اتفقنا عليه ، وهو الأكثر وليعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه ، وهو الأقل ، ولنعمل جميعا فى صف واحــــد كمسلمين فقط ، لا كشيعة أو سنة أو جعفرية أو زيدية ، ولنتفرغ لإصلاح حال الأمة الإسلامية ، وتصفية بيئاتها من رواسب الماضى التى أدت إلى كثير من الضعف ، وأفسدت كثيراً من المفاهيم ، وخلطت الدين بما ليس منه .

وجد الإمام الراحل فى هذه الفكرة متنفسا له ، ووجد فى (دار التقريب) ، ومجلتها (رسالة الإسلام) منبراً يرسل من فوقه صيحاته الإصلاحية بعد أن أسهم

فى تأسيسها ، وكان من روادها الأولين ، وظل بعدها ، ويستمد منها إلى آخر لحظة من حياته ، مدة تزيد على خمسة عشر عاما ، هى أكثر أعوامه بركة ونشاطا وتوقدا ، ففيها أنشأ تفسيره الذى كان ينشر تباعا فى (رسالة الإسلام) والذى جمعه بعد ذلك وأخرجه فى مجلد كبير .

وهذا التفسير هو نسيج وحده ، فإن الراحل الكريم لم يكن يرمى به إلى شرح مفردات ، أو تفسير آيات ، أو إثارة مشكلات ؛ وإنما كان يرمى به إلى دراسة السور القرآنية دراسة هدفها بيان ما لكل سورة منها من غرض ، وكيف وصلت إلى تحقيق هذا الغرض ، وبيان ما للذكر الحكيم فى كل مجال من آثار بعيدة المدى فى حياة المسلمين ، ومن توجيه راشد إلى التى هى أقوم فى مختلف النواحى السياسية ، والمالية ، والحربية ، والاجتماعية والتشريعية ، ولقد تهيأت للفقيد مع هذا فرصة الاتصال العلمى بكثير من العلماء فى الأقطار الأخرى عن طريق المراسلة والمحاورة ، فاتصل بالمغفور له الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء من كبار علماء العراق وبالمغفور له الشيخ شرف الدين الموسوى ، من كبار علماء لبنان ، وبالإمام الأكبر لعلماء إيران ، وهو المغفور له الشيخ محمد حسين آقا بروجردى ، وغيرهم ، وكان تفسيره وما يكتبه فى مجلة (رسالة الإسلام) من أهم موضوعات الرسائل المتبادلة بينه وبينهم ، كما كان التشاور بينه وبين العلماء فى مختلف الطوائف الإسلامية على توطيد فكرة التقريب ، متصلا لا يكاد ينقطع .

* * *

ومن أهم ما عمل له فضيلته من خلال دعوة التقريب ، ذلك المشروع الجليل الشأن ، الذى يرمى إلى جمع الأحاديث الشريفة المتفق عليها فى كل باب من أبواب العقائد ، والأخلاق والفقه والأحكام ، والأخبار ، مادامت قد وردت من طريق يرتضيه كل من السنة والشيعة ، ويجمعان على لفظه أو معناه .

وقد تحدثت مجلة (رسالة الإسلام) عن هذا المشروع الجليل الشأن فى عددها الخمسين الصادر فى ذى القعدة سنة ١٣٨١ هـ (أبريل سنة ١٩٦٢) حيث تقول :

من الحقائق المقررة التى تؤمن بها « جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية » وتعمل على تجليتها للناس ، وتدعو إليها فى كل مجال أن جميع المذاهب الإسلامية تؤمن بالسنة المطهرة كمصدر مقدس من مصادر الشريعة مثلها فى ذلك كمثل القرآن الكريم ، فليس لمسلم أن ينكر حجية السنة شيعيا كان أو سنيا وليس فى هؤلاء وهؤلاء من يقول : هذا الحديث صح وروده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومع ذلك لا أعمل به ولست

ملزما شرعا بهذا العمل ، ولكن ربما قال قائل من هؤلاء أو هؤلاء : هذه الرواية لم تصح عندى فأنا لا أعمل بها ، وإننا لنرى هذا بين علماء السنة أنفسهم فى مختلف مذاهبهم كما نراه بين علماء الشيعة فى نطاق المذهب ومع المذاهب الأخرى ، فكم من أحاديث صحت عند فقيه ، ولم تصح عند آخر ، وكم من أحكام فقهية خلافية انبنى الخلاف فيها على موقف كل من قبول حديث معين أو عدم قبول .

والواقع أنه لا غضاضة فى ذلك مادام الإخلاص هو رائد الجميع ، وما داموا كلهم مؤمنين بالسنة كأصل من أصول التشريع وبأنه لا يجوز لمسلم أن يرفض ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ويتلخص هذا المبدأ المسلم به عند الفريقين فى أن الاختلاف ليس واقعا فى كبرى القياس وإنما يقع أحيانا فى صغراه ، فإذا قلنا فى قياس من الشكل الأول عند المناطقة : هذا الأمر قد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكل ما ثبت عنه يجب العمل به كان معنا مقدمتان : الأولى منهما هى المعروفه عند المناطقة بالمقدمة الصغرى ، والثانية هى المقدمة الكبرى ، فإذا سلمت المقدمتان صحت النتيجة ، وهى : « هذا الأمر يجب العمل به » .

فالمسلمون لا يختلفون فى المقدمة الكبرى التى تقول « كل ما ثبت عن رسول الله يجب العمل به » ، بل كلهم يؤمن بها إيمانا لا يعتريه الشك ، وكلهم يعتبر هذا الإيمان ركنا أصليا من أركان الإسلام ، من شذ عنه خرج من ربقة الإيمان .

لكن الخلاف حين يوجد إنما هو فى المقدمة الصغرى التى تقول « هذا الأمر ثبت وروده » فيقول بعضهم : نعم ثبت فأقبله ، ويقول الآخر لم يثبت فأنا لا أقبله .

ولذلك اشتهر بين علماء المناظرة قولهم فى بعض الأحيان : هذا الخلاف صغروى ، لا كبروى أو خلاف فى الصغرى دون الكبرى .

وهناك حقيقة أخرى نؤمن بها ، ونعمل على تجليتها ، وندعو الناس إلى الإيمان بها .

تلك هى أن العدد الأكبر مما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى شئون العقيدة ، والشريعة ، والأخلاق ، وسائر الجوانب التى جالت فى ميادينها السنة المطهرة قد اتفق عليه كلا الفريقين ، فهو وارد من طريق صحيح يرتضيه كل منهما ، أو وارد من طريقين لهؤلاء وهؤلاء ، تطابقا عليه لفظاً أو معنى ، وأنه لا يوجد خلاف إلا فى العدد الأقل من أحاديث الأحكام أو الأخبار وليس هذا العدد الأقل من حسن الحظ فى الأصول الضرورية التى لا يكون المرء مسلما إلا بها ، وإنما هو فيما لا يضر الاختلاف فيه ،

وفيما يسع المسلم باعتباره مسلما أن يترخص فيه دون أن ينازِع أو ينازَع .

على ضوء هاتين الحقيقتين المقررتين ، رأت « دار التقريب بين المذاهب الإسلامية » أن تقوم بمشروع علمي إسلامي جليل الشأن :

ذلك هو جمع الأحاديث التي اتفق عليها الفريقان في مختلف أبواب الإيمان والعمل والأخبار والأخلاق وغير ذلك من أبواب السنة المطهرة : تجمع الأحاديث المتفق عليها في كل باب ، ويبين مع كل حديث مصدره من كتب السنة ومن كتب الشيعة ، ودرجته عند كل من الفريقين ، ويمكن إصدار ما يتم من ذلك على سبيل التدرج جزأ بعد جزء حتى يكمل المشروع بإذن الله ، ويومئذ يجد فيه المسلمون مرجعا متفقا عليه ، صالحا للاحتجاج به ، والاحتكام إليه .

لقد بذلت في دراسة هذا المشروع جهود كثيرة من رجال التقريب في مصر وغيرها ، استغرقت وقتا طويلا ، وعملت تجارب في مختلف الأبواب والموضوعات ، أسفرت عن نتائج تؤذن باستقامة الفكرة وتبشر بنجاحها .

ومن ثم اجتمع في هذا الشهر بمدينة القاهرة قطبان من أقطاب التقريب ، هما السيدان الجليلان : الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، شيخ الجامع الأزهر ، والعلامة الحجة الأستاذ محمد تقي القمي السكرتير العام لجماعة التقريب ، واستعرضا الفكرة ، وما قام حولها من بحوث وتجارب وما أسفرت عنه من نتائج ، وما يمكن أن يسلك من الطرق في سبيل تحقيقها ، فاتفقا - والحمد لله - على أن المشروع جدير بالتحقيق ، وعلى أن تقوم دار التقريب بخطوات تنفيذه العملية على بركة الله تعالى ، وأن يقوم بذلك رجال من علماء التقريب في مختلف البلاد الإسلامية ، بحيث تقسم أبواب السنة ، ويختص كل جماعة من العلماء بقسم ثم يراجع ما يتم من ذلك أولا بأول في دار التقريب بالقاهرة ، ويبدأ في إخراجه مطبوعا منسقا ، إن شاء الله .

ولقد كان من آثار جهاد الفقيد في هذا الجانب أنه عمل على إنشاء (مجمع البحوث الإسلامية) ليكون مرجعا للمسلمين في كل شأن علمي ديني ، وهو إحياء لمشروعه القديم لجماعة كبار العلماء ، غير أنه أفاد من صلاته بمختلف علماء المسلمين عن طريق دعوة التقريب ، فراعى في تشكيله أن يكون ممثلا لجميع المذاهب الإسلامية ، دون فرق بين سنة وشيعة ، ما داموا جميعاً يعتنقون أصول الإسلام الأساسية .

رحم الله الإمام الأكبر ، وأنزله منازل الأبرار في مستقر رحمته ورضوانه ؟

محمد محمد المدني

ملك التتار يعتنق الإسلام طوعاً

للأستاذ محمد رجب البيومي

صدرت كتب مختلفة تتحدث عن التتار وما أحدثوه من فظائع دامية في تاريخ الأمة الإسلامية وجلها تبدأ بتاريخهم الأول منذ تجمعهم تحت قيادة جنكيز خان ثم تقف عند هزيمتهم في معركة عين جالوت، وكان من الأنسب أن تختتم بدراسة وافية لاعتناقهم الدين الإسلامي؟ وكيف تم ذلك في عصر لم تكن فيه للإسلام سطوة مادية تجبرهم على الانقياد والإذعان، فقد كانوا في أكثر وقائعهم ظافرين منتصرين، ولكنهم أذعنوا طائعين لدين المقهورين المغلوبين! وتلك عجيبة العجائب حقاً، لأننا نعهد المغلوب ينضوى تحت لواء الغالب ويسير في تياره، أما أن يقدم الغالب عن طواعية إلى اعتناق دين تابعه، فتلك شهادة مثلى للإسلام، تؤكد أن مبادئه القويمة تشق بمنطقها العادل طريقها الواضح إلى العقول المنصفة متى سلمت البصائر من الأهواء! وهى من ناحية أخرى برهان قوى يصفع من يزعمون أن الإسلام قد انتشر عن طريق السيف!! ويدعوهم إلى أن يبحثوا مقومات هذا الدين القوى ليدركوا أسباب تفوقه النابعة من هديه المستقيم، وصراطه الحميد!

ولو أن الصراع الدينى كان إذ ذاك بين ديانة التتار ودين الإسلام وحدهما، لقلنا إن فساد عقيدة التتار قد مكن للإسلام من الرسوخ إذ وجد الطريق خالية من مزاحم قوى عنيد! ولكن التاريخ يثبت أن الصراع آنئذ لم يكن بين الإسلام والوثنية وحدهما ولكن المسيحية كانت تقف بأباطرتها وقساوستها، وطغيانها الصليبى مع الوثنية تجاه الإسلام؛ إذ تعاون الصليبيون مع التتار على حرب المسلمين ونهضت مصر المؤمنة تحت زعامة الظاهر بيبرس تحفظ كلمة الله في الناس، وتهب دماء أبنائها رخيصة هينة في ذات الله! وقد اهتبل البابا إنوسنت الرابع طغيان التتار على بلاد الإسلام ليجعل منه سلاحا جديداً يسهم معه في إبادة الإسلام، فأخذ يرسل سفراءه إلى ملوك المغول مظهرا عواطف الود والتقدير، بل إن ملك أرمينية المسيحى هيثون كان المحرض الأول على إرسال حملة هولاكو إلى بغداد،

وقد ظن بعد سقوطها الرهيب أن أيام الإسلام فى الشام ومصر معدودات ، وانطلق النسطوريون فى ربوع فارس يبشرون بالمسيحية متذرعين بحماية حلفائهم من رءوس التتار ، وكان لويس التاسع من قبل ذلك يرسل مندوبه وليم روبرك إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده فى نشر المسيحية واهما أنه قاب قوسين أو أدنى من تنصير المغول ... ولكن الإسلام فى سواد هذه المحنة يتألق ويستفيض ، وتكون له الكلمة الأولى فى مغول القبيلة الذهبية بالقفجاق ، ثم الكلمة الأخيرة فى مغول فارس أعدائه الألداء ويأبى الله إلا أن يتم نوره : قال السير توماس أرنولد نقلا عن ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزملائه فى كتاب الدعوة إلى الإسلام بتصرف يسير :

« لا يعرف الإسلام بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وأتت على ما كان لها من مدنية وثقافة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده التالد واستطاع بوساطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ، ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها لمناهضة منافسين عظيمين هما : المسيحية والبوذية » .

وسنقصر حديث اليوم على أول ملك مغولى اعتنق الإسلام طواعية واختيارا بعد بعد أن درسه دراسة بصيرة ، فكان إسلامه فى سلطانه وبيئته وظروف عصره دليلا على أن الإسلام دين الفطرة الخالصة تهتدى إليه النفوس البريئة متى سلمت من أدران التعصب والجمود ، فقد كان الملك بركة خان عاهل القبيلة الذهبية دائب التفكير فيما يعتنقه قومه من أوهام مقدسة لا تنهض على دليل ، فالشامانية وهى دين المغول القديم تعترف بإله عظيم قادر ، ولكنه ينفرد فى عزلته تاركا أمر الكون إلى مجموعة من الآلهة الشريرة ذات القدرة على الإيذاء والقمع ، ويمكن أن تكف عن إيذائها بعض الشىء إذا تقدم إليها سيل من دماء الضحايا والقرابين بين الحين والحين ، وكان السحرة من مدعى الطب والشعوذة هم رجال هذا الدين ممن يقودون النفوس بسيطرتهم الروحية وفق ما تمليه شهواتهم الطامعة ! ولهم فى أرواح الموتى اعتقاد بعيد النفاذ فهى فى أيديهم كما يدعون يرمون بها إلى من يشذعن تقديسهم أو يتخلف عن أداء الضرائب المتوالية من المال

والحيوان والدم أحيانا ، ودين كهذا الدين لا يثبت النقد لدى الباحث المتجرد ، ولكنه عند أتباعه ممن توارثوه أحقابا متطاولة يحل مكانا راسخا لا تزعزعه الشكوك ! إلا عند من كان له قلب ذكي يجتلى الحقائق الخالصة فى ليل حالك الظلمات ! وقد كان بركة خان صاحب هذا القلب الذكي الحصيف ، إذ أخذ يتضايق كثيرا بما يزاول قومه من طقوس وعبادات ثم اهتدى إلى بعض شيوخ الإسلام ممن يقومون بالدعوة إلى الله ابتغاء مرضاته ، فاستمع إليه طويلا ، وترجمت له آيات الذكر وأحاديث الرسول وسير الصحابة الفاتحين فشعر باستجابة قوية إلى ما يسمع ، ولكنه تريث كثيرا حتى دعا إليه أعلام الإسلام فى فارس ، فأم ساحته أفذاذ من العلماء أمثال نجم الدين كبرى الصوفى الأشهر وتلميذه سيف الدين الباخرزى ، وقطب الدين الرازى وسواهم ممن أخلصوا لله فى واجبهم الأقدس فاستطاعوا أن يجلوا محاسن الإسلام ساطعة وضاءة فى عين الملك ، وحين اطمأن قلبه إلى دينه بادر بالدعوة إليه فى مملكته فأجابه فريق ، ونشز فريق آخر ممن ثبتوا على دين آبائهم ، وكادت تقوم حرب أهلية فى مملكته المتحدة لولا حزمه الصارم فقد تهدد المخالفين فاستكان من استكان ورحل من رحل إلى مملكة ابن عمه هولاكو ، ومهما يكن من شيء فقد أسلم الرجل عن اعتقاد وفحص ، فجاء إيمانه ركينا مكينا ، لا تحيط به الشكوك ، ولولا ذلك ما دافع عنه معارضيه فى حمية واتقاد !!

لم يدرس بركة خان الإسلام وحده حين هم بتغيير دينه الأول ، ولكنه التفت إلى البوذية والمسيحية التفات الباحث المختبر فوجد الديانة الأولى لا تحمل عناصر البقاء فى رأيه ، أما المسيحية فقد كان سلوك المسيحيين أنفسهم مما يشيح به عن اتباعها ، إذ أن الخلافات بين المسيحيين واللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن قد امتدت إلى عسكر المغول وشاهد الملك من التناحر المذهبي بين الفرق المتصارعة ما بغض إليه ما يعتقدون ويقول المستشرق .و.أرنولد فى كتاب الدعوة إلى الإسلام ناسبا قوله إلى وليم دوبركص ١٩٣ عن النسطوريين فى بلاد الصين مما يجاور المغول: «إنهم كانوا شديدى الجهل لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم المدونة بالسريانية كما رميهم بالفسق والخمر والجشع وكانت قساوستهم يتجرون بالمناصب الدينية ، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء طقوس الكنيسة ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم المسيح » .

وطبيعى أن ينصرف الملك عن دين يتلاعن طوائفه وتتناحر ، مكفرة بعضها البعض ، ثم يتكالب قساوسته على المادة متباغضين

متنازعين ، ليبحث عن دين يحترمه أتباعه ويفتدونه بالأرواح مخلصين !!

وآية العجب فى بركه خان حقا أن الإسلام قد خلقه خلقا جديداً ، إذ نشأ فى بيئة تعتنق تعاليم « الياساق » وهو الدستور الدموى الرهيب الذى أبدعه جنكيزخان لاكتساح البشرية ، وتقويض الحضارة على أيدى التتار ، فجمل من القتل والإحراق والإبادة والهدم والتخريب وسائل مشروعة لا يختلف فيها اثنان ، فهى حق التتار وحدهم يزاولونه دون تأنيب أو تأثيم ، وما تزال كلمة هذا الطاغية السفاح تدوى فى آذان أبنائه وأتباعه : « إنى نقمة الله على الأرض ولا بد أن الناس يستحقون العقاب ، لأن الله قد ساقنى إليهم » !! أجل كانت تعاليم جنكيزخان أهم المعتقدات التى تلقنها بركه خان فى صغره ، كما تلقنها ابن عمه هولاكو سواء بسواء ، وبتأثيرها المجرم صارت هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وغيرها من أمهات مدن آسيا الوسطى خرائب تنعق فيها الغربان ! حتى اضطر ابن الأثير أن يقول وقلبه يتميز من الغيظ : « لقد بقيتُ عدة سنين معرضا عن ذكر هذه الحادثة استعظاما لها ، كارها لذكرها ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فيا ليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت من قبل هذا وكنت نسيا منسيا » ! !

هذه المعتقدات الحمراء وجدت من روح الإسلام فى نفس بركه خان ما عصف بها عصف الرياح بالهشيم ، فانقلب الرجل منذ اعتنق الشريعة المحمدية إنسانا كاملا ذا خلق وقلب ، ولو كتب الله عليه أن يحتجب عن نور الإسلام لأصبح مثل ابن عمه الطاغية الرهيب ، بل إن اختلافهما فى العقيدة قد عجل بوقوع الحرب بينهما ، وهذا أمر متوقع لا غرابة فيه ، فقد اكتسح الجبار الآثم عاصمة الخلافة العباسية وألحق بغداد بمثيلتها من عواصم فارس ، فأصبحت خرائب دارسة تبكى الحضارة الغاربة والمجد الذاهب ، وتعرض الإسلام حينئذ لمحنته الكبرى حين أخذ الشبح الرهيب يزحف إلى ديار الشام ومصر ، وجاءت الأنباء الدامية إلى بركه خان ، فهاله أن تسقط الخلافة ويقتل أمير المؤمنين فى هوان ذليل ، فجاهر بعداء ابن عمه وأمر أتباعه الذين كانوا بين جيشه الزاحف بالانسحاب من مؤازرته ، فتوجهوا إلى مصر معلنين إسلامهم ، واستقبلهم الملك الظاهر بيبرس استقبال المغتبط الشكور ، ولا مناص من أن نتعرض هنا إلى العلاقة بين البطلين الكبيرين بركه خان والظاهر بيبرس ؛ لندرك نعمة الإسلام فى تأليف القلوب واجتماع الشمل ، « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم

أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ... » .

لقد تحالف هولاكو مع الصليبيين على بعد ما بينهما من العقيدة ليقفا معاً أمام جيوش الإسلام فى مصر والشام ، وتدبر الظاهر موقفه الضائق ثم جاءته جنود بركة خان تعلن إسلام العاهل وإيمان الرعية ، فلم تفته الفرصة ، وأقام مشهداً حافلا فى يوم مجموع له الناس ، ثم أعلن بقاء الخلافة العباسية ، وانتقالها إلى مصر إذ قدم إليها أحد أمراء بنى العباس ، « فبايعه السلطان - كما يقول القاضى ابن عبد الظاهر كاتب بيبرس - بعد ثبوت نسبه عند قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وبايعه الأمراء والعامة والتتار الواصلون ثم اجتمع الرسل بالخليفة والسلطان وحملهم السلطان من المشافهة ما فيه صلاح الإسلام وعرف أصحابه التتار أحوال عساكره وكثرتها وما هو بصدده من جهاد وما يبذله من الأموال فى نصرة الدين وقتال الأعداء المشركين » .

وردت الأنباء فى سمع بركة خان فسر بها سروراً عظيما ، وبادر بتلبية الظاهر فخط إليه كتابا مخلصا قال فيه : « فليعلم السلطان أنى حاربت هولاكو الذى من دمى ولحمى (كذا) لإعلاء دين الله تعصبا لدين الإسلام لأنه باغ ، والباغى كافر بالله ورسوله وقد سيرت قصادى ورسل صحبة رسل السلطان ووجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضراً فى الموقعة ليحكى للسلطان ما رآه بعينيه من عجائب القتال ، ثم ليوضح له أنه موفق للخير والسعادات لأنه أقام إماما من آل العباس فى خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله ، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك » .

هذه المعاهدة الشريفة بين الرجلين قد أراحت الإسلام من شر كثير ، حيث قسمت جيش هولاكو إلى قسمين ، قسم يقف أمام جنود بركة بين حدود الجفقاق وفارس وقسم ينازله الظاهر على سواحل الفرات ! وهى فى لبابها معاهدة إسلامية تقوم على العقيدة الحرة فى نصرة الحق ومنازلة الطغيان ، ويقول بعض المؤرخين بأن بركة خان قد نازل ابن عمه لاعتدائه على بعض مواقع مملكته ومنعه من نصيبه فى أسلاب الغزو والقتال ، وقد يكون هذان الحادثان من أسباب العداء بين الرجلين ، ولكن اختلاف الدين قبل كل شىء قد ساعد على اتساع الهوة بين ملك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وطاغية لا يذر من شىء يأتى عليه ! ولسنا نستنبط ذلك استنباطا ، يقوم على الاستنتاج العقلى وحده ، بل نلجأ إلى النص الصريح من كتاب بركة إلى الظاهر إذ يقول فيه : « فليعلم السلطان أننى

حاربه هولاكو الذى من دى ولحى لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإســـلام لأنه باغ » .

ولما كان مغول الجفقاق فى حاجة إلى من يرشدهم إلى تعاليم الإسلام فقد حرص بركة خان أن يستقدم إليه علماء الشريعة من شتى الأقطار ، وأكثر من المساجد والمعاهد ، وتسامع به ذوو العلم فأمه أفذاذ الفقهاء من كل صوب ، حتى علماء العربية فى النحو والبلاغة والصرف قد وجدوا لديه على غير معرفة بالعربية ملاذا كريما لأنهم فى رأيه دعاة يخدمون لغة القرآن ، وكان لهم من المكانة ما لعلماء الفقه والتفسير والحديث حتى قال ابن عربشاه عن عاصمة بلاده سراى : إنها « صارت بواسطة هؤلاء السادات مجمع العلم ومعدن السعادات واجتمع فيها من العلماء والظرفا والأدباء والفضلاء ومن كل صاحب فضيلة وخصلة نبيلة جميلة ما لم يجتمع فى سواها ولا فى جامع مصر ولا فى قراها » .

والجملة الأخيرة لا تخلو من مبالغة طريفة فمصر فى العصر المملوكى كانت المركز الأول للثقافة الإسلامية فإذا استطاعت سراى أن تقرن بها فى رأى ابن عربشاه فذلك فضل كبير لمملكة ناشئة ذات عهد جديد بدينها الحنيف !

وقد رجع رسل الظاهر بيبرس من حاضرة بركة خان يثنون ويعظمون ويذكرون أن لكل أمير من أمراء الملك مؤذنا وإماما ، ولكل خاتون أيضا مؤذن وإمام ، وأن مكاتب الأطفال منتشرة دائبة فى تحفيظ القرآن واستظهاره ، وأن عالما مصريا من الفيوم يعيش فى حاشية الملك الكبير ، وقد بسط الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله حديث بركة خان مع رسل الظاهر بالعددين (٥٥٠ ، ٥٥٣) من مجلة الرسالة وفيهما غناء ومستطاب لمن يحب أن يقف على مكانة هذا العاهل الكبير !

إن الرابطة الإسلامية أقوى الروابط وآكدها بين أبنـــاء الأمة الإسلامية وإن ارتباط بركة خان فى الجفقاق بسياسة الظاهر بيبرس فى مصر ليؤكد أن مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وصدق رسول الله .

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

مع الباحثين :

ابن قتيبة الناقد

للأستاذ علي العماري

— ١ —

قلت : إن ابن قتيبة كان يستحسن معانى ليست أفكارا ، ولا تنحو منحى أخلاقيا ، وضربت مثلا باستحسانه لأبيات أبى الشيص فى الغزل ، ولها نظائر كثيرة فى كتابه ، على أن ما يستحسنه من شعر الفكرة أو الشعر الأخلاقى لا ترده أذواقنا ، بل إنها تستجيده كما استجاده ، وكما أنا نحكم بالجودة على ما استجاده نرد ما حكم بأنه ضعيف أو متخلف ، فليس صحيحا أن ذوق الرجل ضيق كما يرميه بعض معاصرينا .

ولقد استقريت كل الشعر الذى حكم له أو عليه فى كتابه فما رأيتنى أخالفه إلا فى القليل النادر ، وأكبر ظنى أن أحدا من أصحاب الأذواق العربية السليمة لا يخالفه فيما رأى وحكم ، ولكنى أعتقد أن المسألة كما قال هو نفسه حين عرض للخصومة التى وقعت بين مسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، وعاب كل منهما بيتا لصاحبه ، فبعد أن ساق القصة قال : والبيتان جميعا صحيحان ، لا عيب فيهما ، غير أن من طلب عيبا وجده أو أراد إعناتا قدر عليه إذا كان متحاملا متجنيا ، غير قاصد للحق والإنصاف .

فالحق أن من كان متعنتا لا يؤثر الإنصاف يستطيع أن يقول ما يشاء ، يستطيع أن يرمى أصح الناس ذوقا بأنه سقيم الذوق ، ولا يعوزه أن يجيء بالبرهان ، أى برهان .

لقد استحسن ابن قتيبة هذا البيت - من أبيات - من شعر لقيط بن زراره :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم
دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

فهل هذا البيت من شعر الفكرة ؟ أو من شعر الأخلاق ؟

من الواضح أن ما أعجب ابن قتيبة فى هذا البيت هو هذا التصوير الجميل لشرف

الأحساب ، وكرم الوجوه إذ جعلها تضيء ، وتكشف ظلمة الليل حتى يستطيع ثاقب الجزع أن ينظمه في خيط على ضوء هذه الأحساب ، ونور هذه الوجوه .

ومن ذلك استجادته لبيت الأعشى الذي ذكرته في المقال السابق ، وهو :

يا خير من يركب المطي ولا
يشرب كأساً بكف من بخلا

فقد وصف المعنى بأنه لطيف ، وفسر هذا المعنى فقال : إن كل شارب يشرب بكفه وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل . فالتصوير هو الذي أعجبه - كما هو واضح - وهذا ما أطلق عليه المتأخرون اسم الكناية .

وقد استحسن هذا البيت من جملة أبيات عابها ، وقال إنه لا يعرف فيها شيئاً يستحسن غير هذا البيت ، وهذا موضع من المواضع التي أخالفه فيها فأنا أرى أن هذا البيت أيضاً ليس هناك .

وقد حكم لأبيات المجنون المشهورة بالجودة وما أظن أحداً يستطيع أن ينكر جودتها ، معنى ، ومبنى ، ومنها :

إن التي زعمت فؤادك ملها
خلقت هواك كما خلقت هوى لها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبي
ما كان أكثرها لنا وأقلها

كما استجاد أبيات طرفة المشهورة من معلقته ومنها :

أرى قبر نحام بخيل بماله
كقبر غوى في البطالة مفسد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكا لطول المرخى وثنياه باليد

وما سمعت ولا قرأت أن أحداً عاب هذه الأبيات .

وهل نشك في أن أبيات ذى الرمة هذه من أشد الهجاء كما وصفها ابن قتيبة :
وأمثل أخلاق امرىء القيس أنها
صلاب على طول الهوان جلودها

وما انتظرت غيابها لعظيمة
ولا استؤذنت في حل أمر شهودها

إذا ما امرئيات نزان ببلدة
من الأرض لم يصلح طهوراً صعيدها

وما زال النقاد والأدباء يستجيدون قول أبي نواس في رثاء الأمين :

طوى الموت ما بيني وبين محمد
وليس لما تطوى المنية ناشر

وكنت عليه أحذر الموت وحده
فلم يبق من شيء عليه أحاذر

لئن حمرت دون بمن لا أحبه
لقد حمرت بمن أحب المقابر

وقد قال عنها ابن قتيبة إنها من خير شعر أبي نواس .

ومن أحكامه في رد بعض الشعر ما جاء في ترجمة أبي نواس ، وقد عرض لاستحسان النقاد شعراً له ، فقال : ويستحسن قوله :

اسمي لوجهك يا منى صفة
فكني لوجهك مخبراً باسمي

(اسم أبي نواس : الحسن) ، ثم قال :

لا تفجعي أمي بواحدها
لن تخلقي مثلي على أمي

قال أبو محمد : ولا أرى هذا حسنا ، فهل أخطأ ابن قتيبة في هذا الحكم ؟

الجواب عند أصحاب الأذواق العربية السليمة .

وقد أردت أن أختار ترجمة واحدة في كتاب (الشعر والشعراء) لنرى كيف كانت أحكام هذا العالم ، ففضلت أن تكون ترجمة أبي نواس ، ذلك أنه ربما وقع في أذهان الذين يحكمون بقراءة المقدمات وبمعرفة عابرة بحياة المؤلف وصاحب الترجمة أن ابن قتيبة العالم السنى ، المفسر ، الفقيه ، لا يرضى عن شاعر ماجن كأبي نواس ، ولا ينصفه ، ولا يعجبه من شعره شيء ، لأنه - في نظرهم - لا يرضى إلا عن شعر الفكرة وشعر الأخلاق .

حكم ابن قتيبة - أولا - لأبي نواس بأنه من المطبوعين ، وهذا حق ، وبأنه كان متفننا في العلم ، ثم ذكر ما أخذ عليه من خطأ في الوصف ، أو من الإفراط ، أو في التشبيه وهنا جاء بقاعدة من قواعد التشبيه اعتبرها المتأخرون من علماء البلاغة أصلا من أصول هذا الفن ، قال : وأخذ عليه قوله في وصف الدار .

كأنها إذ خرست جارم
بين ذوى تفنيده مطرق

شبه ما لا ينطق أبداً في السكوت بما قد ينطق في حال ، وإنما كان يجب أن يشبه الجارم إذا عذلوه فسكت وأطرق وانقطعت حجته بالدار ، وإنما هذا مثل قائل قال : مات القوم حتى كأنهم نيام ، والصواب أن يقول : نام القوم حتى كأنهم موتى .

ثم وصف أبياتا لأبي نواس بأنها مما يستخف ، وعلق عليها قائلا : الشعر يدل على نظره في علم الطبائع .

وذكر بيتا ، وقال إنه لا يعرف معناه ، ولا رأى أحداً يعرف معناه ، وهذا أشد عيب عند رجل يرى أن جودة الشعر في وضوحه .

ثم قال عن أبى نواس إنه سبق إلى معان فى الخمر لم يأت بها غيره ، وجاء بأمثلة من شعره منها :

لا ينزل الدهر حيث حلت
فدهر شرب بها نهار
حتى لو استودعت سرارا
لم يخف فى ضوئها السرار

السرار استسرار القمر ليلة الثلاثين .
يقول : هى من ضوئها لو استودعت ما ليس شيئاً لم يخف ذلك فى ضوئها ، وهذا من الإفراط .

وبعد أن جاء بأمثلة أخرى ذكر أبياته فى تصاوير الكأس ، وهى أبيات مشهورة ، أولها :

تدار علينا الكأس فى عسجدية
حبتها بألوان التصاوير فارس

ثم أخذ عليه خطأ لغويا ، حيث استعمل (النزع) مكان (النزوع) فى قوله :

فإذا نزعت عن الغواية فليكن
لله ذاك النزع لا للناس

وأخذ فى نقد أبى نواس ، فعرض لهذا البيت فى الخمر :

لا تشنها بالتى كرهت
هى تأبى دعوة النسب

فقال : يريد : لا تطبخها ، فتخرج عن اسم الخمر ، فيقال : مطبوخ أو نبيذ ، أحسبه قال : لا تسمها بالتى كرهت ، فهو أحسن ، وأشبه بالمعنى من تشنها ، فإن كانت الرواية (لا تشبها) فلعله أراد : لا تمزجها بالماء ، فإنها تأبى أن يقال خمر وفيها ماء ، فكأنها ادعت غير نسبها ، وهو معنى حسن .

بعد ذلك جاء ببيتين قال إنهما من خبيث هجائه ، وبين المعنى الذى أشار إليه الشاعر ، ثم ذكر قول أبى نواس فى (إبليس) وعلق عليه بقوله : وفى هذا الشعر من مجونه أشياء تستغرب وتستخف ، ثم حكم بما يراه من خير شعر أبى نواس ، ولم يفته أن يدافع عن أبى نواس فى أشياء كان يلحن فيها ، ويحتج لصحتها من أشعار المتقدمين .

وقد ألحت الأمور الواضحة فى الترجمة ، وتجاوزت أشياء مخافة التطويل ، فهل مثل هذا الناقد فى ذاك العصر المتقدم يوصف بأنه ضيق الأفق فى النقد ؟

ولنفترض أن ابن قتيبة كان يخطىء فى بعض أحكامه ، فهل سلم من هذا الخطأ أحد من النقاد القدامى ، والمحدثين ، من شرقيين وغربيين ؟ إن عبد القاهر الجرجانى ، وهو إمام البلاغيين ، وأرهفهم حسا ، وأسلمهم

ذوقا ، قد وقع فى أشياء ليس هنا موضع تفصيلها .

فمن الإجحاف - فى نظرى - أن يقول الدكتور محمد مندور معلقا على بعض أحكام ابن قتيبة : وهنا نرى ابن قتيبة كعادته يضع المبدأ ثم لا يحسن النظر ، ولا الذوق ، وكما رأيناه يقسم الشعر حسب اللفظ والمعنى ثم لا يجيد التطبيق ، ولا يصدق فى الحس .

وقد مررت فى هذا الموضع من كتاب الدكتور مندور بعجيبة لم أشأ أن أمر بها دون أن أسجلها هنا .

أورد ابن قتيبة فى معرض الحديث عن الشعر المتكلف ، وأن من خصائصه إثبات ما بالمعانى غنى عنه ، أورد قول الفرزدق فى عمر بن هبيرة :

أوليت العراق ورافديه
فزاريا أحذ يد القميص

ثم شرحه بقوله : يريد أنه خفيف اليد بالخيانة ، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص ثم قال : ورافداه دجلة والفرات .

ومن شرح ابن قتيبة نفهم أمرين :

الأول : أنه جعل (أحذ يد القميص) كناية عن خفة اليد بالخيانة .

الثانى : أنه جعل كلمة (القميص) زائدة .

أما الرافدان فقد شرحهما فقط .

وهذا الشرح هو الموافق لما قاله المبرد فى كتابه (الكامل) قال : وقوله : أحذ يد القميص . الأحذ : خفيف اليد ، قال طرفة : (وأتلع نهاض أحذ ململم) وإنما نسبه بالخفة فى يده إلى السرق .

وقد جاء فى (رغبة الآمل) : عن ابن برى : ذهب بعض الناس إلى أن الأحذ المقطوع من الحذ ، وهو القطع ، يريد : قصير اليد عن نيل المعالى [1]

وكذلك شرح أبو العباس المبرد الرافدين بأنهما دجلة والفرات ، ولم يقل هو ولا ابن قتيبة إن اللفظ زائد .

ولكن الدكتور مندورا يقول : ونحن بعد لا نرى إسرافا فى اللفظ ، ولا ضعفاً فى الصياغة فى قول الفرزدق : (أوليت العراق : البيت) . ويشرح كلمة (أحذ) التى رواها بالخاء والذال فيقول : خذا الجرح خذيذاً : سال صديده . ثم يقول : فالرافدان يزيدان العراق جمالا وشعراً ونبلا ، وليسا من الحشو فى شىء ، وإنما هو الفرزدق الشاعر ، الدقيق الحس ، الخبير بطبيعة الشعر ولغة الشعر ، قد عرف كيف يرفع من قدر العراق ، ويضفى عليه جلال الشعر بهذين الرافدين ، وعجز ابن قتيبة عن إدراك ذلك

---

(١) جـ ٦ ص ٢٢٨ .

لحسبه حشوا ، وهى بعد ظاهرة يعرفها أجود الشعر وأخلده ، فالشعر لا يقصد إلى مجرد تحديد المعنى حتى يقال إن الرافدين جزء من العراق أوهما العراق فوجب حذفهما ، لأنهما لا يضيفان جديداً إلى المعنى ، وإنما الشعر نشر روح ، وتحريك خيال ، وبعث إحساس ، وكم فيه من صيغ جميلة لا تسمى إلى غير هذا ، وأما (أخذ يد القميص) فكناية جميلة لم يفطن إلى روعتها ابن قتيبة ، وهل أدل على الخيانة من أن تكنى عنها بيد قميص يقطر صديداً ، وهل أقوى من هذه العبارة ؟ ومع ذلك يقول ابن قتيبة إنها حشو .

وموضع العجب عندى أن الدكتور هول فى غير موضع للتهويل ، وأنه حمل الكلام العربى كناية لا يعرفها العرب .

فابن قتيبة شرح الرافدين ، ووافقه على هذا الصنيع زميله المبرد ، وليس فى النسخة التى بين يدى من الشعر والشعراء أن الرافدين من الحشو ، فإذا كانت عند الدكتور نسخة أخرى وفيها هذا الحكم من ابن قتيبة فما أظن أن كلمة (الرافدين) فى هذا البيت تستدعى كل هذا التهويل ، الذى (عجز) ابن قتيبة عن إدراكه .

أما أن ابن قتيبة لم يفطن للكناية فبودى ألا أقول إن الدكتور مندورا هو الذى لم يفطن للكناية فى هذا التعبير ، وذنب ابن قتيبة أنه فهم الكلام العربى على وجهه الصحيح ، فالكناية عن خفة اليد ، وعن النشاط بتشمير الساعد أو قطع يد القميص مشهورة فى كلام العرب ، ولذلك وجدناها فى الكامل للمبرد كما وجدناها فى الشعر والشعراء ، ولا أعرف أن العرب تكنى عن الخيانة بيد قميص يقطر صديداً ! .

وقد نظر ابن قتيبة إلى المعنى اللغوى لكلمة (أخذ) فالأخذ - كما فى القاموس - الخفيف اليد ، ومن هنا حكم بزيادة كلمة (القميص) وقال : إن القافية هى التى اضطرت الشاعر إليها .

وعندى أن الشاعر أراد الكناية عن خفة اليد بقطع يد القميص ، فالكناية بقطع يد القميص ، وعند ابن قتيبة والمبرد الكناية بخفة اليد التى هى معنى كلمة أخذ عن السرقة ، وما قلته تخريج لصنيع الشاعر ، وما قالاه أدق ، وأقرب إلى اللغة .

(للحديث بقية)

علي العماري

رسالة المسجد فى نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصى

المسجد هو مركز الإشعاع [1] الأول فى الإسلام ، وهو المكان الرئيسى لنشر الثقافة فى المجتمع الإسلامى ، وإذا تذكرنا أن الثقافة فى الإسلام أساسها دينى ؛ لأن عمادها هو القرآن الكريم ، ولأن أغلب العلوم الإسلامية بدأت نشأتها لخدمة القرآن ، وتذكرنا أن المسجد هو المعبد الأساسى فى المجتمع الإسلامى ، أو مكان العبادة الأول فيه ، إذا تذكرنا هذا وذاك أمكننا بيسر وسهولة أن ندرك أن المسجد هو مبعث الثقافة ومصدر الوعى الروحى والفكرى فى المجتمع الإسلامى .

والمسجد هو مركز الدائرة فى المجتمع الإسلامى أو نقطة الابتداء ، أو بداية الانطلاق فى تكوين هذا المجتمع ، ونستطيع أن نلتمس الشواهد على ذلك فنجد منها الكثير ، فهذا مثلا هو المسجد الحرام ، كان نقطة البدء فى نشأة المجتمع الحجازى من حوله ، وهذا هو القرآن الكريم يصور ذلك بأبلغ عبارة فيقول : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » .

وحينما هاجر الرسول محمد عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ، كان أول عمل قام به هو تأسيس المسجد النبوى الذى صار للمسلمين معبدا . وناديا ، ودار شورى ومحل اجتماع لشئون الدين وشئون الدنيا ، وحول المسجد أقام الرسول بيوت زوجاته ، وعلى مقربة من المسجد قامت بيوت الصحابة ، واتسع نطاق العمران شيئا فشيئا ، وواسطة العقد بينها هو مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام الذى كان بداية انطلاق أو نقطة ارتكاز للمجتمع الإسلامى الوليد .

ولو انتقلنا إلى أرض فلسطين لوجدنا « المسجد الأقصى » يضرب بتاريخ إنشائه وقيامه فى أحشاء الماضى السحيق ، ومن حول هذا

---

(١) رجعت فى إعداد هذا البحث إلى الكتب التالية : تاريخ التربية الإسلامية ، وتاريخ التمدن الإسلامى ، وتاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى ، ومساجد ومعاهد ، ووسائل تقدم المسلمين ، ومساجد ودول ، ودور المساجد التاريخى ، والاسلام والنصرانية

المسجد العتيق قامت البيوت والمنازل والعمائر، فنشأ مجتمع وتمثلت أمة .

وهذه المساجد الثلاثة : مسجد مكة، ومسجد المدينة ، ومسجد القدس، هي المساجد المشهورة المشهوده التي قال فيها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام : « لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى ببيت المقدس » :

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر باسم الإسلام أنشأ أول ما أنشأه مسجده المعروف باسمه في « الفسطاط » ، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين للهجرة ومن حول المسجد نشأت بيوت المجاهدين ، وكأنها حلقات بعضها وراء بعض ، حتى تكونت المدينة وانبسط العمران فكان مجتمع إسلامى جديد عماده وسناده وأساسه هو المسجد .

ولما فتح المسلمون الشام وتوطد فيها حكم الأمويين المزهر أرادوا أن يجعلوا للمجتمع صبغته المتميزة ، فأنشأ الوليد بن عبد الملك المسجد الأموى بدمشق ، فكان نقطة الابتداء والانطلاق في صبغ المجتمع الإسلامى من حوله بصبغته الخاصة المتميزة ، وأصبح المسجد الأموى في عاصمة الأمويين الإسلامى كمركز الدائرة التى تلف بإطارها من حوله ، مرتبطة به مرتكزة عليه ، مستمدة منه ، مهتدية بنور ما يبثه الإسلام فيه من كلمات الهدى وأشعة التقوى .

وإذا كان الأمويون قد فعلوا هذا فإن العباسيين من ورائهم قد ساروا على الطريقة نفسها ، فهذا هو الخليفة العباسى الأول أبو جعفر المنصور يتولى الحكم ، ويخط رسوما لمدينة بغداد ، ويجعل في وسطها الجامع العظيم المسمى باسمه ، ثم ينهض بعمائر دار السلام من حول المسجد، فيكون هذا المسجد الجامع نقطة الارتكاز في مجتمع بغداد وما حولها منذ أنشأها المنصور سنة خمسة وأربعين ومائة للهجرة .

وهذا أحمد بن طولون يقيم الدولة الطولونية في مصر ، فيجعل شعارها ، وأساس انطلاقها، مسجده الذى أسسه سنة خمس وستين ومائتين للهجرة ، وألقى فيه الربيع بن سليمان أول درس دينى يوم افتتاحه

وهذا هو الجامع الأزهر الشريف الذى نهض بناؤه سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، لقد كان بداية الانطلاق ، أو نقطة البدء في قيام مدينة القاهرة ، فهذا هو المعز لدين الله الفاطمى يريد أن يبث دعوته الفاطمية في الديار المصرية ، فيبعث بقائده جوهر الصقلى لفتح مصر ، وما يكاد ينجح في ذلك حتى يشرع في إقامة المسجد ، ومن حول المسجد تبتدىء الأبنية والدور ، وإذا مدينة عظيمة عامرة ، تستحق أن يسمى « القاهرة » ! .

ونستطيع أن نتابع بمثل هذا القول أو بقريب منه نقوله عن جامع الزيتونة بتونس، والجامع الأعظم بقرطبة، وجامع القرويين بفاس وقبة علي بالنجف ... إلخ.

ومن هذه الإشارات العاجلة إلى ارتكاز المجتمعات الإسلامية التي نشأت في مختلف الأمكنة والأزمنة على المسجد، يتأكد لدينا أن المسجد فعلا هو مركز الإشعاع الأول بين المسلمين، وهو نقطة الارتكاز في مجتمعاتهم، وهو المكان الأساسي للتوعية والتوجيه فيما بينهم.

ولم تكن المساجد دوراً للعبادة فقط، بل كانت منبعاً للثقافة، ومصدرا للحضارة، ولو نظرنا إلى العبادة ذاتها التي تؤدى في الإسلام لوجدناها تنطوي على ألوان من الثقافة، فهذه هي الصلاة، وهي الشعيرة الإسلامية والفريضة الدينية التي تؤدى كل يوم وليلة خمس مرات، تتضمن تثقيفاً وتعليما، لأن عماد الذكر فيها هو القرآن الكريم، ففي كل ركعة يقرأ المصلي «فاتحة الكتاب»، وفيها تعليم وتقويم، كما يقرأ في كل ركعة من الركعتين الأوليين في الصلاة شيئا من القرآن، وفي القرآن عقائد، وتشريعات، ومعاملات، وأخلاقيات، وحديث عن الفرد والجماعة، والأسرة والأمة، والبيوع والمعاملات، وما يحل وما يحرم، وحدود العلاقات بين الفرد والفرد، وبين الأسرة والأسرة، وبين الدولة والدولة، وبين الحاكم والمحكوم، وفي هذا كله تثقيف وتعليم.

كما أن الإسلام قد شرع لنا داخل المسجد وسائل للتثقيف فوق تلاوة القرآن وتدبره في الصلاة، فهناك خطبة الجمعة الأسبوعية، وهي أشبه ما تكون بالمجلة الأسبوعية، التي تتحدث عن أمور الإسلام والمسلمين كل جمعة، وتصـــور متاعبهم ومطالبهم، وأمورهم ومشكلاتهم، وتصف لها الدواء والعلاج من الإسلام، وهي تلقى باللغة العربية الفصحى، وهذه الخطبة الفصيحة المتكررة كل أسبوع، تعود إذن المسلم الكلمة الفصيحة، وفهم العبارة البليغة، وبخاصة أن الخطب تعتمد على الكلام الإلهي المعجز: كلام القرآن الكريم، وعلى أفصح الكلام بعد القرآن، وهو كلام الرسول عليه الصلاة والسلام، وعلى آثار السلف الصالح، وهم أمراء البيان وفرسان المقال.

ولم يقتصر الأمر هنا على خطبة المسجد، بل هناك خطبة العيدين، وهناك خطبة الاستسقاء، وخطبة الخوف والكسوف، وكل خطبة من هذه الخطب التي تأتي عند كل مناسبة من مناسباتها تتضمن قدراً من الثقافة يعاون على بث أضواء المعرفة بين أبناء المجتمع الإسلامي.

وبجوار هذه الأنواع المختلفة المتكررة من الخطب توجد الدروس الدينية فى المساجد ، وحلقات الوعظ والاستفتاء ، وحلقات تحفيظ القرآن الكريم التى تعقد فى المساجد غالباً ، وهذه كلها تتضمن ألوانا من الثقافة والمعرفة .

وكلما حزب المسلمين أمر يحتاج إلى مشاورة أو مباحثة أو مراجعة ، نادى المنادى بين المسلمين قائلا : « الصلاة جامعة » ، فيكون هذا دعاء إلى الاجتماع فى المسجد ، فيسارع المسلمون بالسعى إليه ، وهناك يتشاورون ويتباحثون ، وفى أثناء ذلك تتلاقح العقول ، ويستعين كل فكر بأفكار الآخرين ، فيكون من وراء ذلك حصاد ثقافى ضخم .

فإذا عرفنا بعد هذا أن المسجد فى عصور الإسلام المزهرة كان يتخذ مكانا للتعبد ، ومعهداً للتعليم ، وداراً للقضاء ، وساحة لتجمع الجيوش ، وتعيين القواد ، وتسليم الألوية ، وتوجيه المجاهدين ، وموضعاً لاستقبال الوفود والسفراء ، وميدانا للتدريب الحربى أو التمرين الرياضى ، وموضعاً للتمريض ، إذا عرفنا هذا كله ودرسناه بالتفصيل أدركنا الرسالة الثقافية والحضارية والاجتماعية الضخمة التى يقوم بها المسجد فى المجتمع الإسلامى .

ومنذ سنوات قلت فى كتابى « وسائل تقدم المسلمين » عن رسالة المسجد :

« اتسعت رسالة المسجد فى الإسلام أو تعددت ، فهو أولا معهد تؤدى فيه الصلوات ، ويعتكف داخله القانتون والذاكرون والمرتلون لتنزيل ربهم المجيد ، وهو أيضاً مدرسة مفتحة الأبواب ، لا يرد عنها راغب فى علم ، أو طالب لثقافة .

وفى هذه المدرسة الإسلامية يتلاقى أبناء الأمة ، ليفقهوا تعاليم شريعتهم . ويسمعوا سير أجدادهم وبلادهم ، ويتدارسوا ما ينبغى لمجتمعهم وجموعهم . والمسجد أيضاً مبعث وجدان عام ، ومثار عاطفة مشتركة ، فمن فوق منبره ، وفى رحاب ساحته ، يتيسر لهداة الأمة أن يعبئوا مشاعرها ، ويوقظوا أرواحها ، ويوجهوا موكبها نحو ما ينبغى أن يتجه إليه .

ولو طالعنا صفحات تاريخنا الإسلامى المشرق لوجدنا أن الأعمال الكبرى التى تمت فيه قد بدأت الدعوة إليها فى أغلب الأحوال من المسجد ، فيه كانت تعد النفوس ، وتوضع الخطط ، وترسم المناهج ، ويعين الولاة وأمراء الجيوش .

كما كان المسجد يتخذ مجالا للتعليم والتقويم الاجتماعى ، وقاعدة للمطالعة ـ ولذلك يلحق بكل مسجد مكتبة ـ ومكانا للتمريض والتطبيب ، وناديا للبحث والمشاورة ، وساحة للتدريب العسكرى وتعليم الجندية ، وداراً للقضاء والفصل فى الخصومات ، وموضعا لتنفيذ الأحكام ، ومظهراً لفن المعمار الإسلامى ، ومنبراً للخطابة والشعر . » إلخ ؟

أحمد الشرباصى

نفحات القرآن

المنافق يحيد عن الحق ويشكك فى العدالة

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون .

١ - كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقسم الصدقات يوما بين مستحقيها ، أو كان يقسم الغنائم عقب انتصاره فى غزوة حنين . . وكان فى الحاضرين منافقون ينتظرون حظهم فى العطاء بمقتضى إسلامهم - المصطنع -

فلما لم يصبهم ما يسد جشعهم قال قائل منهم فى حقد مكشوف : اعدل يا رسول الله ، فقال له النبى : ومن يعدل إذا أنا لم أعدل ؟؟ .

أو قال المنافق : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله !! - كما روى - فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - (رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من ذلك فصبر) .

وعلى أى صورة كان الاعتراض من المنافق والجواب من النبى - صلوات الله عليه وسلامه - فقد اهتاج عمر ، وهم بقتل المنافق ، ورداً لمثله عن البذاءة على الرسول ، والجرأة على الغمز فيه . .

ولكن النبى منع عمر ، وجنح به إلى الملاينة ، وقال له : (دعه ، فإن له أصحاب ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) .

يريد الرسول : أن شأن النفاق - بذاءة ، وطعن فى العدالة ، وتجاهل للحق والإنصاف ، وأنانية عمياء ، وأن هذا المنافق أهون من سواه شأناً ، فهناك من يسبقونه تظاهراً بالإسلام ، وهم أسرع منه إلى الكفر الصراح .

فلا عجب أن يسمع عمر وغيره مثل ما سمع من المنافق أو أشد مما سمع.

ولكن سياسة الإسلام، ومنهج الدعوة الإصلاحية ألا يضيق صدر الداعي بما يصادفه من خشونة، وأن يجنح كثيراً إلى الصبر، والتلطف مع الناس، حتى تستجيب نفوسهم إلى الاقتناع، أو يحيق بهم مكرهم السيء، فلا تكون لهم معذرة عند الله أو الناس، ويكون منتهاهم عبرة لغيرهم ويكون التلطف معهم، والحلم بهم أمارة لدى العقلاء على أن النبي لا يريد بهم إلا خيراً لأنفسهم، دون تحكم فيهم، أو إعنات بهم، فتكون الموادة الرحيمة معهم وسيلة من وسائل الدعوة إلى الحق.

وإذا لم يفطن إليها البعض، فسيفطن إليها الكثيرون، ويدخل الدين عندهم في صدور رحيبة له، مطمئنة إليه.

وكانت هذه الوصيلة منهج محمد دائماً: لولا أن الكافرين به حسبوها ضعفا منه، وهيبة لهم، واستمرءوها في العدوان.

فكان لابد من مقاومتهم بما يفهمونه من لغة السلاح والحروب..

وفي ذكر النبي لموسى وما لقي من عنت قومه توجيه للصحابة والمسلمين إلى أن النفاق غير حديث في أمة محمد، بل هو أصيل في بني إسرائيل مع موسى ومن جاء بعده حتى نشر الإسلام لواءه فتسرب نفاق بني إسرائيل تحت ظلاله، وفعلوا ما ملئوا به صفحات التاريخ من مهازلهم النكراء، إذ نشروا سمومهم في البيئة العربية، فكان فيها منافقون.

٢ - وإنما كانت سياسة الإسلام ألا يقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - المنافقين سراعا، لما أسلفنا من مطاولتهم بالإمهال عليهم، ومجاراة لهم في تظاهرهم باعتناق دينه، وحفاظا على السمعة الإسلامية أن تحوم حولها شبهات..

فإن قتل الواحد منهم قد يتيح للآخرين أن يشنعوا على الرسول بأنه يقتل أصحابه.

وربما أثر هذا التشنيع على ضعاف العقول فيخرجون من الإسلام إن كانوا فيه، أو ينحازون عنه قبل الدخول، بسبب هذه الشائعات وتكون هذه فتنة، أو من قبيل الفتنة في الدين، والفتنة أشد من القتل أثراً، وسوء مغبة.

وإنها لقدوة رشيدة لمن أخذ بها في حياتنا العامة، وسياستنا الاجتماعية، عند المناسبة اللائقة.

٣ - وأنت ترى في موقفنا هذا أن البذاءة زلة فاضحة من زلات النفاق - وكثير ما هي،

وترى أنها زلة تتعلق بشهوة البطن، ولا تتعلق بمبدأ: فيكون فيها شيء من التعليل المحتمل.. !!

وهكذا تجد النفاق يثير جذوة الحقد في النفوس المريضة لأتفه سبب، حتى ولو كان السبب مطمعا في مأكل، وكان الاعتراض فيه على صنع رسول معصوم عن الهوى، وكان أثر هذا الحق مروقا من الدين كما يمرق السهم من الرمية.

ولو لم يكن النفاق مستحوذا على أهله، لكان القليل من الإيمان كافيا في رد المرء إلى صوابه، وتذكيره أن الأرزاق ليست وراء الجشع والطموح، وأن تقسيم النبي لها بهذا كان تنفيذاً لما جرى به قدر الله في تحديد النصيب، وأن العطاء من الله لا من غيره.

وأن النبي قاسم عادل في عطاء الله.

وإنكار ذلك، أو تجاهله هو المظهر البغيض من مظاهر النفاق المردي.

على أن هذا الاعتراض من المنافق تجاوزاً للأدب إلى أبعد غاية.

فلم يمتزج به شيء من الحياء، ولو كان الحياء نفاقا وتصنعا كنفاقهم، وتصنعهم في الدين ؟؟!.

فقد كان في الجمع كثيرون يرغبون في وفرة العطاء.

ولكن إيمانهم الحق عصمهم من التبجح ورجع بهم إلى الرضا، والقناعة فرضوا «ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا حسبنا الله»، ثم علقوا أملهم بالله فيما بعد وقالوا «سيؤتينا الله من فضله ورسوله»، وجددوا عهدهم بالله فقالوا: «إنا إلى الله راغبون».

وكذلك يكون الإيمان البريء من الشوائب ويكون الترفع عن الذبذبة والهبوط وراء المنافع المادية، حتى يكون المرء في وضع إنساني تستريح إليه النفس الكبيرة إلى حد ما.

٤ — ولكن النفاق الديني أو الخلقي إذا دب في النفس كان المقياس المأخوذ به عند المنافق هو منفعته الذاتية الجامحة.

فإن ظفر ولو بغير استحقاق: رضي وابتهج.. وإن حرم ولو لعدم استحقاقه بسبب ما: سخط وأنكر، وسفه، ومرق من دينه...

لهذا كانت آيات الله ناعية على النفاق وأهله كل بادرة تبدر منه على لسان المرء، أو في عمله، أو في أي ظاهرة شخصية تتعلق به.

فإن كل بادرة من النفاق: قولا، أو عملا أو سواهما: لها مساس مشئوم بنظم الاجتماع في قليل أو كثير.

والله يريد للناس عامة.. وللمسلمين خاصة

مجتمعاً طيباً، شديد الأركان، خالصاً من شوائب الفساد، وعبث المفسدين.

٥ — ولعلك تشهد من سياق الآيات الوفيرة أن الله رمى المنافقين بكل نقيصة حتى ليخيل إليك أن الحديث عنهم بلغ مداه ولكنك تجد القرآن يوجه إليهم الاتهام بالسوء كله، في غير تحديد، فيقول الله تعالى لرسوله: «ولا تزال تطلع على خائنة منهم»، فشر هؤلاء المنافقين يمتد كحديث الأفاعي.

وأكثرية هؤلاء المنافقين قديما وحديثاً هم اليهود وقد حذر الله منهم أكثر مما حذرنا من غيرهم، فقال لرسوله، ولكل مخاطب: «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا: اليهود، والذين أشركوا»، وعرفنا الله أن الكذب من خصالهم، الذاتية، وأنهم كانوا يمعنون في الكذب فيحلفون الأيمان الأكيدة على براءتهم من النقص، والنقص شاخص في كل نبرة من نبرات أصواتهم، وفي كل خلجة من خلجات صدورهم، وفي كل ظاهرة مما يصدر عنهم.

وحسبك في هذا أن الله ذكر عنهم في سورة التوبة وحدها تسعة ألوان من الحلف.

وانظر الآيات: ٤٢ - ٥٦ - ٦٢ - ٦٧ - ٦٨ - ٧٤ - ٩٥ - ٩٦ - ١٠٧.

فهل ترى بعد ذلك البيان في كتاب الله أن النفاق هين الخطر، وأن اليهود، وهم أهله مظنة الخير في المجتمعات: إلا بقدر ما يستغلون، وبقدر ما ينفثون من سموم.

٦ — هذا — ونحن في مجتمع أصيل في تدينه.

ولكننا بيننا بالقرب من اليهود: قديما وحديثاً، فتسربت إلينا ألوان من نزعاتهم، وغدونا نتعثر في تقاليد نفاقهم، حتى صار طابعا ظاهراً في مسلك بعضنا أن يسخط على كثير من شئون الحياة أو يطعن على الزمن في كل ما يأتي به، ولا يرضيه من الدنيا إلا أن تكون في قبضته ناسيا أن هذا بعينه هو النفعية التي دفعت بالمنافقين إلى مساقط الجشع.. وناسيا أنه في جانب غير جانب الدين وفي عزلة من توجيهات الله.

حتى إذا ظهرت بيننا نزعة إلى الخير، وانطلق فينا هاتف الإصلاح، ونهض منا من يؤذن بالدعوة إلى الفلاح: وجدت حوله غبارا يثار، ووجدت في سبيله معوقين هنا، أو هناك.. حتى يشعر المنادي بالإصلاح أنه يعمل في جهتين - إحداهما: مقاومة العابثين، وتنحية المعوقين عن طريقه، وإسكات المرجفين بين قومهم بالأباطيل التي يضللون بها.

والثانية: إيقاظ الوعي من جديد وتوجيه

العزائم نحو أهداف الحياة المنشودة ...
وفى كلتا الوجهتين يبذل المجاهدون ما يبذلون من تضحيات ، ومتاعب لا يتحملها عادة غير أولى العزم من الرجال الذين تقوم على كواهلهم معالم الحياة فى الأمم الواعية .
أرأيت أن الجهاد الذى تحتاجه حياتنا الحاضرة هو الجهاد الذى ينشده الدين منذ أشرقت شمسه فى دنيانا ؟ .

وإذا كان جهاد الأنبياء قديما وفى حدوده البدائية ، للأخذ بالأمم إلى جانب الهداية ، فإن جهاد المسلمين من أول عصرهم كان لغايات أرفع وأفسح مما سبقهم ، وهو جهاد لتركيز دعوة خالدة ، وإقامة أمة تنهض بدينها فى حياة متجددة ، ناهضة على أوضاع مكفولة البقاء .
هذا هو الجهاد المتماسك فى معنوياته ، وفى وسائله ، وأهدافه ، وفى كل ما يتطلبه الوطن من حصانة بالعلم ، والصناعة ، والأخلاق ، والكفاح ومضاعفة الجهود المتضامنة . .

هذا هو الجهاد المعتبر رسالة ، وأمانة فى ذمة الشعوب الإسلامية ، وبه تسلم الشعوب من عدوان العادين ، وترهب به الطامعين .
وهذا هو ما نحن بسبيله فى نهضتنا الحاضرة التى بدت طلائعها فى جمهوريتنا العربية .

وهو جانب بل هو أبرز جانب تتلاقى فيه توجيهات الدين للدين وللدنيا جميعا . وما يسوغ أن يتجاهل ذلك إنسان منا .

ولا يسوغ أن نقيس حياتنا فى هذه الفترة بمقياس المنفعة الشخصية ، كما كان يصنع المنافقون ، وكما يفعل ذلك بعض منا ، وهم الأنانيون فيحمدون السوق إذا ربحوا ، ويسخطون إذا لم يأكلوا حتى يبشموا .

فإن ذلك هو التخاذل .

والحياة إذا تعرضت لهذا التخاذل فهى وشيكة الانهيار .

وتكون الجناية جناية أفراد لا يدينون بدين ، ولا يشفقون على وطن ولا يكترثون بتاريخ .

جدير بهؤلاء الذين يتعامون عن واقع الحياة أن يتبصروا ، ويستجيبوا قبل أن تطويهم الأيام فى غير تكريم لحياتهم ، ولا اكتراث بذكرام .

ولن يجدوا أمامهم - بعد - غير ظلمات ، وصحائف سوداء - فاللهم طهرنا جميعا من شوائب النفاق ووحد بين قلوبنا على صفاء .

عبد اللطيف السبكى

شيخى محمود شلتوت

للأستاذ محمود الشرقاوى

بدأنا عامنا الدراسى فى « القسم العالى » سنة ١٩٢٨ ونحن نشمخ ونتيه ونمرح .

فقد جاء « الإمام المراغى » إلى مشيخة الأزهر ومعه إصلاحاته التى أعلنها فى « مذكرته » التاريخية المشهورة ، وزاد شموخنا وتيهنا وفرحنا أن دخلنا فرأينا مجالسنا فى داخل الأزهر ، حتى عند القبلة القديمة ، مفروشة « بالسجاد » بعد « الحصير » .

وكان اسم « الشيخ شلتوت » له دوى وضجيج يوم ذاك يصل إلى أسماعنا من تلامذته وإخوانه ، وتراه أعيننا فيما نقرأ له من بحوث تجديدية وفصول إصلاحية على صفحات « السياسة الأسبوعية » رائدة صحافة الفكر والحرية لذلك العهد .

وجلسنا إلى شيوخنا نستمع . ولكن سوء الإلقاء وسوء المنظر عند بعضهم وتشويش « الكتب » و« الملازم » ، فيما نتلق من العلم صرفنى ــ أو زاد فى انصرافى ــ عن الإصغاء وعن الاستماع وعن المتابعة . بل عن معرفة مادة « الحصة » ، واسم « الكتاب » .

ولم يكن اسم « شلتوت » ، ولا دوى ذكره شفيعين لى لأرفع وجهى ، أو أمد له سمعى . فى كل « حصة » ـ ووقتها كان يمتد إلى ساعتين ـ لم أكن أرفع رأسى عن كتاب جديد من كتب الأدب ، أو مجلة صدرت من مجلات الثقافة ، وكنت أختار لمجلسى الصف الأخير من « الحلقة » ، حتى أكون بعيداً عن عيون الشيخ .

وفى « حصة » ذات صباح سمعت شيخنا يقطع حديثه فى العلم وينادى بصوت غاضب : « إنت يالى هناك » ، « إنت يالى فى آخر الفصل ومعاك مجلة » ، وكرر ذلك مرة ومرة ، وأدركت بعد مرة أو مرتين أنى أنا مقصوده ولكنى لم أجب ، ولم أرفع رأسى عن مجلة « المقتطف » . فعلا صوته وزادت نغمة الغضب فيه وهو يقول : « إنت يا ... يالى هناك » . فلم أجب ولم أرفع رأسى . عند ذلك نادى « الملاحظ » ، وأمره بأن يخرج هذا « الولد » ، وجاء « الملاحظ » ليخرجنى فأبيت ، وزاد هياجه وغضبه وهم أن يقوم ـ لا أدرى ليجرنى بالقوة أم ليترك الدرس غاضبا ، ولكن سمعنا جميعا « التصفيق » الذى كان علامة على انتهاء الدرس ، فانصرف شيخنا وانصرفنا ، ولكن الشيخ مر إلى جانبى مسرعا ، وخطف ، من يدى المجلة . وكان شيخ القسم العالى يوم ذاك الشيخ الطيب

القلب عبد المجيد اللبان . وفى ضحى اليوم التالى جاء من يطلبنى إليه ، ولم أفزع ولم يخطر ببالى أنه حادث الأمس ، فقد كانت بيننا وبين الشيخ اللبان علاقة ود قديم وخلطة ، وكثيراً ما كان يستدعينى ليسأل عن حالى وحال إخوتى بعد وفاة أبى .

دخلت على الشيخ اللبان حجرة المشيخة فى « الرواق العباسى » فحدثنى بغضب أبوى عن حادث الأمس ، ثم استبقانى عنده . وبعد قليل دخل شيخنا شلتوت ولم ينظر إلىّ . وقال الشيخ اللبان إنه استدعانى ورجا الشيخ شلتوتا أن يحضر لنلتقى عنده ، ونظرت إلى مكتب الشيخ اللبان فوجدت « المقتطف » الذى كنت لم أتم قراءته ولم أكن استطيع دفع ثمنه مرة أخرى . ووجه الشيخ اللبان حديثه إلى الشيخ شلتوت معرفاً إياه بى ، وأنى ابن شيخ له عليهم حق الزمالة والصداقة والأستاذية ، ولا بد أنك تعرفه ، فهو شيخنا الشيخ على الشرقاوى ، وابنه هذا يجب أن تعرفه وتصفح عنه وأن ينتفع بعلم شلتوت ورعايته ، ثم وجه الشيخ اللبان كلامه لى ، أو أمره الأبوى ، قائلا : قبل يد شيخك يا محمود . ولم أبرح مكانى بل أسرعت بجوابى : لا . لا أقبل يد أحد . وبهت الشيخ اللبان وظهر على وجهه الغضب والألم وهمّ بأن ينهرنى ويقسو علىّ . ولكن مفاجأة أذهلته وأذهلتنى . فقد مد الشيخ شلتوت يده إلى وقد بان على وجهه الرضا بعد التجهم والغضب ، ووجه حديثه إلى الشيخ اللبان يقول : لست غاضبا من رفضه تقبيل يدى . بل لقد أحببته لذلك وسأتخذ منه صديقا . تلامذتى لا أريد منهم ولا أرضى أن يقبلوا يد أحد ، ولو كان شيخهم .

ثم قام وهو يمسك يدى ، فقلت له سأخرج بعد أن يعطينى فضيلة الشيخ اللبان مجلتى لأتم قراءتها فقال : خارج الحصة . ! قلت : خارج الحصة طبعاً . وعاند الشيخ اللبان فى إعطائى المجلة ولكنى وقفت وألححت ، والشيخ شلتوت واقف إلى جوارى ينتظرنى . وألقى شيخنا اللبان « المقتطف » إلى نهاية الحجرة فتلقفتها وخرجت مع شيخنا شلتوت وهو يمسك بيدى يضحك .

وبدأت بعد ذلك أستمع إلى حصة علم « الأصول » الذى كان يدرسه لنا من كتاب : « الإحكام فى أصول الأحكام » للآمدى . وأحببت منه هذا العلم حتى كنت أعيده لمن تخلف عن الدرس أو لمن قصر به فهمه عن علم شلتوت ووضوح بيانه وغزارة مادته . .

هذه القصة ، التى أعتذر من طولها ، كانت بداية معرفتى بالشيخ شلتوت ، وبداية صلة دامت خمساً وثلاثين سنة كانت بيننا فيها فجوات من الخصام والخلاف وشىء من القطيعة والمغاضبة . ولكنى ، أنا وتلامذته وإخوانه ،

تعلمنا منه أشياء كثيرة ، وأفدنا منه دروساً وعبراً . وهذه القصة نفسها بعض ما يجب أن نفيد منـه فهى درس أراد أن يعلمه لى ولغيرى فى احترام الذات والحرص على الكرامة وتقدير الشجاعة من تلامذته .

كان ذلك فى وقت عرفنا فيه بعض كبار الشيوخ يتحدى تلامذته النجباء فى الامتحان لأنهم لم يتملقوه أو يقبلوا يده .

تعلمنا من شيخنا شلتوت شجاعة القول والكتابة والإصرار على الرأى الذى يعتقده الحق ، عرفنا منه ذلك وهو ينصر الشيخ المراغى فى إصلاحه ، وعرفناه فى موقفه من إباحة الترجمة لمعانى القرآن الكريم ، وأحاديثه عن قصة عيسى وموته ، وفى تقريره حقوق المرأة كما فهمها من الإسلام ، وفى تقريره دراسة الفقه المقارن بعد أن كان بعض رجال الفكر الدينى يسأل عن صلاة الحنفى هل تجوز خلف الشافعى أم لا تجوز ..! وعرفنا شجاعته أكثر من ذلك فى موقفه من بعض المذاهب الإسلامية وحديثه عنها فى مجلة الرسالة [1] .

لسنا جامدين أمام التطور :

كان هـذا عنوان حديث صحفى تحدث به شيخنا شلتوت وهو شيخ للأزهر . وهـذه المسايرة للحياة والتطور ومطاوعة الشريعة لها كانت منهج حياته كلها منذ نشأ وتعلم وكتب ودرس وحاضر وألف . وكان ، فى مشيخته يحاول بقدر ما يستطيع ، أن يوفق بين هذا المنهج وبين أوضاع المنصب وقيوده ومتطلباته وما يحيط ومن يحيط به من الملابسات والناس وقد عرفت وأدركت أنه لقى من ذلك كثيراً من الحرج والصراع النفسى ، ولو طاوعته ظروف حياته وميول نفسه لكان أكثر جرأة من الشيخ محمد عبده .

وقد كتب مقالا عنوانه « الدين المعاملة » جعل فيه الناس أمام التدين ، ينقسمون إلى طوائف ثلاث . طائفة منهم : (ليس لها من التدين إلا كلمة يلوكها بلسانه عند المقتضيات والمناسبات ، أو نسبة يعرف بها عند تعداد السكان . وهم بذلك بعيدون عن الدين وعن الانتفاع بهديه والإفادة من ثمراته طول حياتهم ، وسيبعثون بعيدين كذلك عن الدين غير معدودين فى أهله ، ولا مستظلين بظله الظليل يوم لا ظل إلا ظله ، وفى أمثال هؤلاء يقول الله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

وطائفة ثانية وصفها بأنها : (... ترى

---

(١) مقال : « هل انبعث الأزهر ..؟ » وحى الرسالة الجزء ــ ٣ .

أن التدين يقع فى دائرة مادية مرسومة هى : صـــلاة وصوم ، وهمهمة وتسبيح ، وسمت خاص ، وزى خاص ، وخطو خاص ، ونظرات خاصة ، وكلمات معينة تقال فى مناسبات ، وتحسر وتباك على الأخلاق التى ضاعت ، وعلى الدين الذى أهمل ، ولوم وتقريع لكل من تحدثه نفسه بالخروج على شئ من المظاهر التى رسموا بها حدود الدين وجعلوها علامة على الإيمان والتدين ... أما من الناحية العملية فتراهم أبعد الناس عن آثار التدين الصحيح ، وأبطأ الناس عن تلبية الدعوة إلى الخير . يقبضون أيديهم عن البذل والعطاء ، ويثقل عليهم أداء الحقوق : «إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون» . يقطعون الأرحام ولا يصلون الفقير ولا يخففون عن مكروب ثم يصفهم بأنهم المقصودون بقوله تعالى : «أرأيت الذى يكذب بالدين : فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون» .

والطائفة الثالثة هم المؤمنون حقا ، الذين : امتلأت قلوبهم بخشية الله وسلطانه ، وظهر أثر ذلك الإيمان فى أخلاقهم ، فلا غل ولا غضب ولا بغضاء ولا شح ولا قطيعة ، ولا جبن ولا أثرة ، هؤلاء هم المؤمنون الذين : «إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون» .

هـذا هو الدين : عقيدة نقية ، ونفس سخية ، وأخلاق رضية ، وقلوب وفية»[1] .

• • •

وقد ذكرت هيئات غير إسلامية ، عند نعيه ، أنه كاد أن يبلغ فى عاطفته وفهمه المستوى الإنسانى . وفى ذلك شىء من الصحة ، فبعده عن التعصب كان شاملا فسيحا ولـكن ذلك لم يضعف من قوة العاطفة الإسلامية عنده وقد شهدت واقعة ندرك منها ذلك .

كان ذلك فى بيته بمصر الجديدة ، واستأذن فى الدخول عليه كبير أمريكى من المشتغلين بشئون الشرق والإسلام والأديان . فلما جلس بدأ يحدث الشيخ عن العلاقة بين الإسلام والمسيحية ، وعن العالم الغربى ، وأمريكا خاصـــة ، وعلاقتهما بالبلاد الإسلامية ، ثم قال : إن القرآن الكريم مجد السيد المسيح إلى أبعد غايات التمجيد ، وفى بلده «أمريكا» جمعيات كثيرة ومثقفون كثيرون يريدون أن تقوم علاقة جديدة بين

---

(١) حديث الجمعة جريدة «الشعب» فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٥٩ . أنظر أيضا كتابه : «الإسلام عقيدة وشريعة» ص : ٣٩١ ـ ٣٩٢ .

الإسلام والنصرانية ، أو يقوم على الأقل تمهيد لهذه العلاقة ، وأن هذه الجمعيات وهؤلاء المثقفين يسعدهم أن تكون لشيخ الأزهر وإمام المسلمين مشاركة فى ذلك . ولو كانت هذه المشاركة كلمة صغيرة يعلن فيها أنه يشجع هذا الاتجاه ويباركه ، أو لا يعترض عليه ، وكان المتحدث الأمريكى يتحدث عربية سليمة ويحفظ بعض آيات القرآن فى السيد المسيح .

وبدأ شيخنا شلتوت حديثه ، أو جوابه ، وكانت نبرات صوته تنم عن الغضب ، فقال : ما ذا يراد من شيخ الأزهر أن يقول فى ذلك ، ليس عندى إلا أن أذكر قول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » ثم قال : هذا عن العلاقة بين الإسلام والمسيحية . أما عن العلاقة بين العالم الغربى وأمريكا خاصة ، وبين العالم الإسلامى ، فإنى أترك الحديث فيها لأحد تلاميذى الجالس معنا : محمود الشرقاوى .

وذكرنا قضايا العالم العربى : الصهيونية والجزائر والاستعمار والشر الكثير الذى توقعه أمريكا والعالم الغربى بالمسلمين والعرب وبلادهم .

وقد اختصر الزائر الأمريكى الكبير حديثه ومجلسه بعد ذلك ، واستأذن فى أن يعود مرة أخرى ليتحدث إلى الشيخ الأكبر ، وإلى الشرقاوى ، ولكنه خرج ولم يعد .

* * *

ومما تعلمناه من شيخنا محمود شلتوت الحرص على روابط الزمالة والصداقة : كلما جلست اليه أخذ يحدثنى عن زملائى فى الجلوس اليه ، وعن تلاميذه الذين تقطعت بهم الأسباب وباعد بينهم الزمن ، ويردد أسماءهم وأوصافهم وبلادهم بما كان يحيرنى ويخجلنى حين أجد أنى نسيت كثيرا من هذه الأسماء والبلاد والأوصاف ، وكان حديثه عنهم مفعماً بالفرح والرضى وسعادة الأبوة الصادقة العطوف ، وقد بقى يذكرهم ويتحدث عنهم لم يمنعه من ذلك المرض ولا المنصب ولا تباعد الزمن .

وقد لقى شيخنا شلتوت محنة شديدة من مرضه ، وأخرى يعرفها الخاصة من أبنائه وتلاميذه فصبر على المحنتين صبر الرجال ، حتى اختاره الله والله غالب على أمره ؟

محمود الشرقاوى

عجل الذهب الذى عبده بنو إسرائيل

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

تنكب بنو إسرائيل الصراط المستقيم ، وخرجوا على تعاليم دينهم ، فى عهد موسى نفسه ومن بعده ، وبعث الله فيهم من بعد موسى وهارون عدة رسل وأنبياء يهدونهم سواء السبيل ، ويحاولون إنقاذهم مما كانوا يقعون فيه من زيغ وضلال ، فما كانوا يلاقون منهم فى الغالب إلا الإعراض والتكذيب ، بل كانوا يلاقون منهم أحيانا التعذيب والتقتيل.

وفى هذا يخاطبهم القرآن الكريم إذ يقول: « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون »(١)

ويقول مبيناً تكذيبهم للقرآن ولأسفارهم نفسها وتمردهم على الرسول والأنبياء : « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » (٢) .

ولم يقف بهم الأمر عند حدود المخالفة لأحكام شريعتهم ، بل لقد كفروا بإلاههم نفسه ، ورجعوا إلى وثنيتهم الأولى أكثر من مرة ، وعبدوا ، العجل وهارون بين ظهرانيهم ، وموسى يتلقى الألواح من ربه .

وقد أورد سفر الخروج ، وهو أحد أسفار توراتهم المزعومة ، قصة عبادتهم لهذا العجل فى صورة غريبة تدل على أن محررى هذه الأسفار لا يرعون لأنبيائهم حرمة ، ولا يرجون لهم وقارا ، ولا يتورعون من أن ينسبوا إليهم أية نقيصة ، حتى خيانة الرسالة نفسها التى بعثوا من أجلها ، ودفع قومهم إلى الشرك بالله ، فقد نسب هذا السفر إلى هارون نفسه عليه السلام أنه قد يسر لبنى إسرائيل سبيل الشرك ودفعهم إلى الوثنية وعبادة الحيوان والأصنام ، فصنع لهم بيديه فى سيناء عجلا من ذهب ليعبدوه من دون الله فهو يذكر فى إصحاحه الثانى والثلاثين أن موسى لما غادر قومه لتلقى الألواح من ربه ، وطال أمد غيابه عنهم ، طلبوا إلى هارون أن يجعل لهم إلاها تدركه أبصارهم ويمشى أمامهم ، لأنهم لا يعلمون ما انتهى إليه أمر موسى ،

---

(١) البقرة الآية ٨٧ .

(٢) البقرة الآية ٩١ .

ولا يدركون الإله الذى يحدثهم عنه ، فطلب إليهم هارون أن يجمعوا له أقراط الذهب المدلاة من آذان نسائهم وبناتهم وغلمانهم فجمعوا له هــذه الحلى ، فصهرها بنفسه وصنع منها عجلا ذهبا ليتخذوه إلاها ، فخر بنو إسرائيل سجداً له ، وقدموا له الأضحية والقرابين ، وقالوا هذا إلاه إسرائيل الذى أخرجهم من مصر .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قصة هــذا العجل إشارة مجملة فى عدة آيات ، منها قوله تعالى : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين »[1] .

وذكر تفاصيلها فى سورتى طه والأعراف مبينا كذب ما نسبه محرر وسفر الخروج إلى هارون ، فقرر أن الذى قام بصنع هذا العجل وأغراهم بعبادته وفتنهم عن دينهم فى أثناء غياب موسى عنهم لتلقى الألواح من ربه رجل سامرى ، أى منسوب إلى طائفة يقال لها السامرة وهى جماعة من غير بنى إسرائيل اعتنقت اليهودية وامتزجت بالإسرائيليين ، وكان الإسرائيليون ينظرون إليها على أنها أحط منهم كثيراً قدراً ومنزلة ، أو يرجع أصله إلى إقليم السامرة ، وهو أحد أقاليم فلسطين ، وأن هارون لم يأل جهداً فى نهيهم عن ضلالهم والعمل على رجعهم إلى دينهم الحق ولكنهم لم يستمعوا له ، وأن كل ما أخذه موسى على هارون أنه لم يتركهم ويلحق به ليبلغه ما انتهوا إليه أو لم يقاتلهم بمن عسى أن يكون معه وأن هارون قد برر موقفه بأنه خشى إذا قام بذلك أن يفرق بين بنى إسرائيل ويضرب بعضهم ببعض ، وذلك إذ يقول فى سورة طه : « ... فكذلك ألقى السامرى ، فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار » ، (أى من الحلى التى أشار إليها فى الآية السابقة ، وهى الحلى التى أهداها إليهم المصريون قبل خروجهم أو التى اختلسوها منهم ، وقد صهرها السامرى على صورة عجل بداخل فمه تجاويف إذا مر فيها الهواء أحدث صوتاً كصوت الخوار) ، « فقالوا هذا إلاهكم وإلاه موسى فنسى . . وقد قال لهم هارون من قبل « يا قوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ ! » ، (أى أن تتركهم وتلحق بى أو أن تقاتلهم مع من عسى أن يكون معك) ، « أفعصيت أمرى ؟ ! قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ،

(١) الآيات ٩٢ ، ٩٣ من سورة البقرة .

إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى »[١].

وإذ يقول فى سورة الأعراف : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، اتخذوه وكانوا ظالمين . . . ولما رجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى ، أعجلتم أمر ربكم ، وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى ، فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين »[٢] .

وأما قصة طلبهم من نبيهم أن يجعل لهم إلاها يحسونه وهى التى ذكرها سفر الخروج فى حادث العجل زاعماً أنهم قد طلبوا ذلك إلى هارون ، وأن هارون قد أذعن لرغباتهم الآثمة ، فقد ذكرها القرآن الكريم على وجهها الصحيح فقرر أن الطلب كان موجها إلى موسى نفسه لا إلى هارون ، وأن موسى قد نهرهم وبين لهم ضلالهم ، وسخافة تفكيرهم ، وسوء فهمهم لذات الإلاه ، وذلك إذ يقول : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا إلاها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلاها وهو فضلكم على العالمين ؟ ! »[١] .

* * *

هذا ، وكثيراً ما كنا نسمع من الألمان فى مرحلة عدائهم لليهود ، وهى المرحلة السابقة للحرب العالمية الثانية فى أثناء الحكم النازى ، دعاية ساخرة يفسرون بها قصة العجل الذهبى الذى عبده بنو إسرائيل ، فكانوا يقولون إن ما عمله هارون كان بناء على اتفاق مع موسى ، وكان غرضهما أن يجمعا من بنى إسرائيل الذهب الذى حملوه من مصر (فكانا فى ذلك — على حد كلام الألمان حينئذ يهوديين أكثر من اليهود) وأن موسى قد تظاهر بالغضب مما فعله أخوه ، وأخذ عجل الذهب وحرقه ونثره ، ولكنهما عادا لجمعا فلزاته ، لأن الذهب لا يتغير ولا يمتزج بغيره ولا يبيد ، وأن اليهود قد وجدوا فى هذا العجل إلاههم الحقيقى الذى لم ينفكوا يعبدونه وهو الذهب الأصفر الرنان !! ...

ولعمرى إن ما ذكره سفر الخروج فى قصة العجل الذهبى هو الذى فسح المجال

---

(١) الآيات ٨٣ ، ٩٨ من سورة طه .
(٢) الآيات ١٤٨ إلى ١٥٢ من سورة الأعراف .

(١) الآيات ١٣٨ إلى ١٤٠ من سورة الأعراف .

لمثل هذه الدعايات الساخرة الكافرة ، وإنها لا تزيد كفراً فيا تنسبه لموسى وهارون عما تنسبه أسفار اليهود لأنبيائهم ورسلهم بل عما تنسبه لإلاههم نفسه من صفات الكذب والغش والنهم والغفلة والخداع .

* * *

ومن أسف أنه مع هذا الخلاف الكبير بين قصص القرآن وقصص توراتهم المزعومة وبين نور الحق فيما جاء به الكتاب الكريم وظلمات الباطل والزيف والتحريف فيما جاءت به أسفارهم ، لا ينفك كثير من المستشرقين ومن يدور فى فلكهم يزعمون أن محمدا قد نقل قصصه من قصص اليهود « كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، وصدق الله العظيم إذ يقول لرسوله: « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » . « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

دكتور على عبد الواحد وافى

من حكم الإمام على

من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حرم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرياسة صبر على السياسة ، ومن أبصر عيب نفسه عمى عن عيب غيره ، ومن احتفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته ، ومن كابر فى الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تجبر على الناس ذل ، ومن تعمق فى العمل مل ، ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه ، ومن حسن كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استفاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصر أمله ثم أنشأ يقول :

ألبس أخاك على عيوبه واستر وغط على ذنوبه
واصبر على بهت السفيه والزمان على خطوبه
ودع الجواب تفضلا وكل الظلوم إلى حسيبه

من معاني القرآن

> « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون » . قرآن

تقلب الوجه ، تردده وتحوله من جهة إلى جهة.
ولاه كذا . معناه أعطاه إياه ومكنه منه .
وجعله والياً عليه . أو جعله يليه ويحاذيه .

القبلة : الجهة التي يقبل عليها من يريدها ، وكل ما يستقبله الناس بوجوههم ، وقد غلب استعمالها في الكعبة لأن المسلمين يستقبلونها في صلاتهم ويحجونها .

شطره . معناه نحوه . وجهته ، وحيث اسم للمكان المبهم .

المعنى : يقول الله لنبيه عليه الصلاة والسلام : نحن نرى كثرة تقلب وجهك في السماء وتطلعك إليها وأنت تردد بصرك فيها تستشرف إلى وحي يهبط عليك بالاتجاه إلى قبلة ترتاح إليها وتجد فيها رضاك . وتجعلها جهة تجمع المسلمين على الاتجاه إليها في كل مكان يكونون فيه . فتأكد أننا مولوك هذه القبلة التي ترضاها . فوجه وجهك جهة المسجد الحرام فإنه القبلة التي تتطلع إليها وترجوها . وفي أي مكان تكونون أيها المسلمون وجهوا وجوهكم جهة هذا المسجد . وتأكدوا أن أهل الكتاب يعرفون ذلك من كتابهم ، ويعلمون أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام هو الحق من ربهم ، وهو البشارة السارة التي يجدونها في كتبهم دليلا على صحة رسالة خاتم النبيين محمد عليه السلام ، ولكنهم يخفون ذلك ، ويعملون بغير ما يعلمون . والله مطلع عليهم لا يغفل عنه خافية منهم .

وقد كان النبي والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس في أول العهد بالإسلام وظلوا على ذلك إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة بستة عشر شهرا . ثم شعر عليه السلام بالحنين إلى المسجد الحرام . وتطلع إلى أن يكون قبلته وقبلة المسلمين معه ومن بعده .

١ - لأنه في أحب أرض الله إلى الله كما يفهم من قوله وهو يودع مكة مهاجراً إلى المدينة : والله إنك لأحب أرض الله إلى الله وإنك لأحب أرض الله إلي ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك .

٢ ـ لأنه قبلة أبيه إبراهيم أبى الأنبياء وإمام الناس كما يفهم من قوله تعالى : « وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما » .

٣ ـ لأنه أول بيت جعل متعبداً لله فى الأرض كما يفهم من قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » .

٤ ـ لأن الله جعله حرما آمناً ومثابة للناس كما يفهم من قوله : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » .

٥ ـ لأن الله قرن به الخير واليمن كما يفهم من قوله : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

٦ ـ لأن الله سماه البيت العتيق . وجعله بيته كما يفهم من قوله تعالى : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

لهذا ـ ولغيره ـ كان عليه السلام مع تعظيمه واحترامه لبيت المقدس وإسراء الله به إليه ، يقلب بصره فى السماء ويستشرف إليها بالدعاء ، حتى أرضاه الله بالحق الذى ينشده والاتجاه الذى يرجوه ... وكان ذلك فى منتصف شهر شعبان كما يذكر الرواة ؟

عبد الرحيم فودة

قال ابن عبد ربه فى وصف الحرب :

الحرب رحى ثفالها الصبر ، وقطبها المكر ، ومدارها الاجتهاد ، وثقافها الأناة وزمامها الحذر ، ولكل شىء من هذه ثمرة ؛ فثمرة الصبر التأييد ، وثمرة المكر الظفر ، وثمرة الاجتهاد التوفيق ، وثمرة الأناة اليمن ، وثمرة الحذر السلامة ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، والحرب بين الناس سجال ، والرأى فيها أبلغ من القتال .

نظرات فى الأدب والتصوّف :

تطوّر التصوّف

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

أشرنا فيما سبق إلى أن حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى عزوفه عن الدنيا ، وتركه الطيبات ، وأخذه نفسه بالزهد والتقشف ، وانقطاعه فى كثير من أوقاته للتأمل والتفكر ، كل هذا كان فيه القدوة التى تأثرها زهاد الأمة ، ومن أتى بعدهم من التابعين ، وكانت أنماط الحياة التى ينهج عليها الصحابة وتابعوهم امتداداً لتعاليم النبى عليه السلام ، فلما جاء الصوفية تأثروا هذا الطريق ، وساروا على ذاك النهج ، حتى بلغوا ما بلغوا من نقاء السريرة ، وطهر القلب ، وصفاء النفس ، والقدرة على الكشف ، بفضل ما أخذوا به أنفسهم من الزهد فى الملذات ، والبعد عن الشهوات ، ومحاربة النفس ، والعكوف على التعبد .

التصوف فى القرن الأول والثانى :

ويلاحظ على هذا الزهد أنه كان خاضعا لسلطان الحزن والبكاء وهذان يدلان على مبلغ خوفهم من النار وآلامها ، وعلى الندم الناشئ عن معصية الله سبحانه .

ونستطيع أن نقول : إن الطابع العام للزهد فى القرن الأول الهجرى وفى بعض القرن الثانى كان الحزن والخوف وغلبة البكاء ، حتى وجد من عرفوا بالبكائين من زهاد هذا العصر ، وأكبر مثل لذلك فى تلك الآونة الحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ هـ ، فقد كانت دعامة الحياة عنده الزهد فى هذه الدنيا والإعراض عن جاهها ، والإقبال على الله ، والتوكل عليه ، والخوف منه ، والتفكر الدائم فيما بينه وبين نفسه ، والتصفح المتصل لما تنطوى عليه النفس من نوازع وأغراض(١) .

فالحسن البصرى يمثل عندى فترة الانتقال من الزهد إلى التصوف ، والتصوير الحق له قول أبى نعيم الأصبهانى فى حلية الأولياء « حليف الخوف والحزن ، أليف الهم والشجن عديم النوم والوسن ، أبو سعيد الحسن ابن أبى الحسن ، الفقيه الزاهد ، المشمر العابد ، كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا ، ولشهوة النفس ونخوتها واقذا »(٢) .

ففى هذا النص تصوير دقيق لمقدار استشعار الحسن رضى الله عنه الخوف ، وأثره فى حياته ، حتى لقد روى أنه رؤى قاعدا كأنه أسير قدم لتضرب عنقه ، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة ، فيخبر عن مشاهدتها ،

(١) الحياة الروحية فى الإسلام ص ٧٢ .
(٢) حلية الأولياء ص ١٣١ ، ١٣٢ .

فإذا سكت كأن النار تسعر بين عينيه [1] ، وعوتب فى شدة حزنه وخوفه ، فقال : ما يؤمننى أن يكون الله تعالى قد اطلع فى على بعض ما يكره فمقتنى ، فقال : اذهب ، فلا غفرت لك ، فأنا أعمل فى غير معمل [2] .

كل ذلك يصور ما كان عند الحسن من زهد وخوف ، وأنه كان دائب البحث عن خفايا النفس والسعى فى تطهيرها مما يشينها ، مبعدا عنها الغفلة حتى لا تنسى الله تعالى لحظة .

وكان إلى جانب هذا الخوف الذى يمثله الحسن البصرى ، نوع آخر يصحبه بكاء ودموع وخوف أيضا ، ولكنه ليس ذلك البكاء والحزن الناشئ عن الخشية والرهبة ، وإنما كان مبعثه الضيق من كثرة الحجب المتراكمة على النفس ، فتحول بينها وبين مشاهدة الخالق والتمتع بجماله الأزلى ، واجتلاء طلعته الكريمة ، كان حزنا وبكاء يهيجهما الشوق والحنين إلى الله ، فبكاء الأول كان بكاء الخائف ، أما بكاء هذا فبكاء المهجور أو الشباع المحب الذى لم يستطع الوصول إلى من يحب .

وقد غلبت هذه النظرة إبان القرن الثانى للهجرة ، ومن هنا نرى الحياة قد لونت بلون جديد ، وهو الحب للذات الإلهية والهيام بها ، والشوق إلى لقائها .

وقد حمل لواء هذه الدعوة الجريئة ، والنزعة الجديدة شهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية ، فترددت فى أقوالها فيما ورد إلينا عنها من نثر ونظم ، ثم شاع فيما بعد على ألسنة الصوفية جميعا .

قال الدكتور محمد مصطفى حلمى : « وكما طبع الحسن البصرى الحياة الروحية الإسلامية فى القرن الأول الهجرى بطابع الزهد والخوف والحزن فقد طبعتها كذلك رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٨٥ هـ بهذا الطابع ؛ إذ كانت فى حياتها زاهدة عابدة خائفة حزينة ، باكية ، غير أنها زادت على هذا كله عاملا جديدا ، كان له آثار خصبة قوية فى توجيه الحياة الروحية وجهة جديدة ، وذلك أن رابعة لم تصدر فى زهدها وعبادتها عن الخوف والحزن فحسب ، كما كان يصدر الحسن البصرى وغيره من زهاد عصره ، بل صدرت عن ذلك الخوف والحزن : الخوف من النار ، والحزن مما يحتاج إلى الاستغفار ، وعن الحب : حب الله لما يخصها به من نعمه وآلائه ، وحبها لذاته » [1] .

وهذا التفصيل الذى أورده الدكتور عن حب رابعة هو الذى عبرت عنه فى أبياتها المشهورة .

أحبك حبين حب الهوى
وحباً لأنك أهل لذاكا

(١ ، ٢) الإحياء جـ ٤ صـ ١٨٤ .

(١) الحياة الروحية صـ ٢٥ . التصوف وفريد الدين العطار صـ ٢٥ ، ٢٦ .

فأما الذى هو حب الهوى
فشغل بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له
فكشفك لى الحجب حتى أراكا

وصفوة القول: إن رابعة حملت راية الحب الإلهى، وأسلمتها لمن أتى بعدها من الصوفية فاندفعوا بها فى بحر لجى لا ساحل له حتى غرقوا فى عمقه، وذابوا فى محيطه، وقطعوا المسافات الطوال والأشواط البعيدة، وقد حفلت كتبهم بالتغنى بالحب الإلهى، وحوت من الطرائف ما يبهج النفس، ويثلج القلب، ويشرح الصدور، وينعش الفؤاد، وسنفيض فى حديث هذا الحب عندما نتكلم عنه باعتباره مظهراً أدبياً من مظاهر الأدب الصوفى.

وحياة رابعة صورة لما تحس به، وتصوير صادق لمشاعرها ووجدانها، فقد حدثوا أنها كانت دائمة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر الله غشى عليها زمانا، وكان موضع سجودها كهيئة المستنقع من دموعها، كما يروى الشعرانى [١].

أما حب رابعة فكتب الصوفية حافلة بأخبارها فيه من شعر ونثر، والحق أن رابعة فتحت فتحا جـــديداً فى التصوف الإسلامى، وكشفت فيه عن منبع ثجاج، لما للحب من سلطان على القلوب، واستهواء إليها على مدى الأزمان، ومن قولها فى ذلك:

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى
وأبحت جسمى من يريد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس
وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

هذه هى السمات الغالبة على التصوف فى أول أمره، وفى فترة انتقاله من الزهد إلى أن بلغ استقلاله وهى الخوف والحزن والبكاء، ثم الحب على يدى رابعة.

التصوف فى القرن الثالث والرابع:

كان التصوف فى القرن الأول والثانى لا يكاد يخرج عن دائرة الكوفة والبصرة، فلما أقبل القرن الثالث ظهر التصوف فى كثير من الأقطار الإسلامية الأخرى، والمدن المتعددة كبلخ، ونيسابور، ومصر، والشام، وبغداد وغيرها من البلدان الإسلامية، إلا أن بغداد كانت تعد أقوى المراكز الصوفية.

وقد لوحظ على التصوف فى الفترة الماضية، أنه كان أشبه بعلم الأخلاق، فكان يتحدث عن الأخلاق الإسلامية وفضائلها وميزاتها فلما أقبل القرن الثالث لم يكتف بذلك، بل أخذ الصوفية يفيضون فى شرح أحوال النفس الإنسانية، والكلام عن مداخلها، وبيان مراتبها، وتحليلها تحليلا دقيقاً، على أن الحب كما كان طابع التصوف بعد رابعة العدوية، ظل كذلك من أهم خصائص التصوف فى القرن الثالث، وقد دار على

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ١ ص ٧٢.

ألسنة شيوخ الصوفية فى هذا القرن مثل معروف الكرخى ، وقال الجنيد فى المحبة كلاما يعدونه خير ما قيل فيها ، واستعملها ذو النون فى كلامه ، وليس أدل على مبلغ تسلط نظرية المحبة على صوفية القرن الثالث من هذا الكتاب الذى بعث به يحيى بن معاذ إلى أبى يزيد البسطامى المتوفى ص ٢٦١ هـ يقول فيه :

« سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السموات والأرض ، وما روى بعد ، ولسانه خارج يقول : هل من مزيد . وأنشد عجبت لمن يقول ذكرت إلفى

وهل أنسى فأذكر ما نسيت
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا
ولولا حسن ظنى ما حييت
فأحيا بالمنى ، وأموت شوقا
فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحب كأسا بعد كأس
فما نفد الشراب وما رويت »(1)

فهذا تسام عجيب فى الحب ، واتجاه رفيع فى فلسفة المحبة ، فهو يعجب لمن يقول ذكرت إلفى ، وينكر هذا لأن الذكر يعقب النسيان والنسيان لا يليق بالمحبين .

وهكذا تتابعت هذه النظرية ، وتداولتها أذواق الصوفية على مر السنين حتى جاء الحلاج ، وقد خلف فى المحبة وما يتصل بها من حلول واتحاد ، وبقاء وفناء نفحات مشرقة وآثار خالدة ، ولقد بلغ من اهتمامهم بها أن المحاسبى جعل لها فصلا خاصا أشبه ما يكون برسالة صغيرة تحدث فيها عن أصل محبة العبد لربه ، وأن هذا الحب منة إلهية أودع الله بذرتها فى قلوب المحبين .

وإن نظرة فى تاريخ التصوف ترينا أن هذا القرن ظهر فيه مشايخ الصوفية الذين وضعوا معالم التصوف ، وأرسوا قواعده على أساس منظم ، وشرحوا للناس سبيله وأبانوا مناهجه .

ومنهم أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٣ هـ ومنهم ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ قال عنه السيوطى إنه أول من تكلم بمصر فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ، ولذى النون كلام كثير يدور حول المعرفة والمحبة ، وله فى المعرفة نظرية خاصة .

وكان لآثاره صدى بعيد فى نفوس من أتى بعده من صوفية المشرق ولا ننسى أن نشير إلى أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هـ ذلك الصوفى الذى انتهت به أذواقه ومواجيده إلى الفناء عن نفسه والاستغراق فى الله وقد أضاف إلى قاموس الصوفية لفظ السكر فكان لها وللمحبة والحب والعشق أثر بعيد المدى فى التصوف الإسلامى ؟

محمد ابراهيم الجيوشى

(1) رسالة القشيرى ص ١٥٩

الأوزاعى عالم أهل الشام

للأستاذ محمد عبد الله السمان

سواء أكان اسم الأوزاعى نسبة إلى أوزاع وهو بطن من ذى الكلاع من اليمن، أو بطن من همدان، أم نسبة إلى الأوزاع وهى قرية من دمشق على طريق باب الفراديس ...

وسواء أكان الأوزاعى قد ولد فى بعلبك وفى عام ٨٨ ﻫ وتوفى عام ١٥٠ ﻫ، أم قد ولد ببغداد وفى عام ٩٣ ﻫ وتوفى عام ١٥٧ ﻫ.

فإن الذى لا ريب فيه أن الإمام الأوزاعى قد توفى ببيروت وفى قرية على بابها يقال لها حنتوس، ومدفون فى قبلة المسجد وأهل القرية يتبركون به إلى اليوم.

والذى لا ريب فيه أيضا، أن الأوزاعى كان إمام يقتدى به كما يقول الإمام مالك، وكان إمام أهل زمانه كما يقول سفيان بن عيينة، وكان، كما يقول يحيى بن معين، أحد العلماء الأربعة الذين أجمع الناس على إمامتهم «الثورى، وأبى حنيفة، ومالك، الأوزاعى».

لقد نشأ الأوزاعى يتيما فى حجر أمه، التى كانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب بنفسه وتفقه على كثير من الشيوخ الفقهاء والحفاظ فى عصره، حتى ساد سائر البلاد فى الفقه والحديث، وحدث عنه مالك والثورى والزهرى وغيرهم من الأئمة المشهورين.

وإمامة الأوزاعى فى الفقه لا تحتاج إلى تعريف فهو أصحاب المذاهب الفقهية التى سبقت الفقهاء الأربعة المشهورين، وإن كانت مذاهبهم درست وبقى إلى اليوم شىء من آثارها.

يقول الدكتور عمر فروخ فى كتابه «تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون» بعد أن تحدث عن أهم المذاهب السائدة إلى اليوم:

«وقد كان لأهل السنة والجماعة مذاهب بادت أى ترك الناس العمل بها، منها: مذهب ابن أبى ليلى المتوفى عام ١٤٨ ﻫ، ومذهب الأوزاعى المتوفى عام ١٥٧ ﻫ، ومذهب الثورى المتوفى عام ١٦١ ﻫ، ومذهب شريك النخعى المتوفى عام ١٧٧ ﻫ ومذهب سفيان ابن عيينة المتوفى عام ١٩٨ ﻫ، ثم مذهب أبى ثور المتوفى عام ٢٤٦ ﻫ».

ولا شك أن مذهب الإمام الأوزاعى كان من أشهر هذه المذاهب، فقد انتشر فى الشام، ثم تسرب إلى الأندلس فى عهد الحكم الأموى وظل سائدا هناك حتى جاء عهد هشام بن

عبدالرحمن الداخل ، فانتقل إلى الأندلس مذهب الإمام مالك .

ويعتبر الإمام الأوزاعى من أئمة الحديث أيضا ، فقد صنف فيه بالشام ، كما صنف الإمام مالك بالمدينة ، وابن جريج بمكة ، والثورى بالكوفة ، وحماد بالبصرة ، والأوزاعى كتابه « السنن » فى الحديث ، كما له كتابه « المسائل » فى الفقه .

بل إن الأوزاعى كان من أوائل المصنفين فى الحديث فى النصف الآخر من القرن الثانى للهجرة بالشام .

وكان يعنى كل العناية بالإسناد ، ومن أقواله المشهورة :

« ما ذهاب العلم إلا ذهاب الإسناد » .

وقد عمد فى أواخر حياته - بعد أن كان يملى على طلابه الحديث ويصحح لهم ما يكتبونه عنه ليجيزهم بروايته - عمد إلى التنفير من الاعتماد على الكتابة ؛ لأنه تشاءم مما سيئول إليه الحفظ ، فلم يسره الميل عن طريق السلف الذين كانوا يتلقون الحديث من أفواه العلماء ، وقال : « كان هذا العلم شيئا شريفا إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه ويتذاكرونه ، فلما صار فى الكتب ذهب نوره ، وصار إليه غير أهله »[1] .

ونحن إذا تركنا الأوزاعى أحد كبار الأئمة فى الفقه والحديث ، فإنما لنعرض الإمام الأوزاعى العالم الذى اجتمعت فى شخصه أخلاق العلماء فى مثاليتها وعظمتها ، حتى قال بعضهم - كما جاء فى الجزء العاشر من البداية والنهاية لابن كثير :

« لم يكن فى أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه ، ولا أورع ولا أعلم ، ولا أفصح ولا أوقر ، ولا أحلم ولا أكثر صمتا منه ... ما تكلم بكلمة إلا كان المتعين على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها » .

أما شجاعة العالم وهى ألزم ما تكون له ، فقد بلغ الأوزاعى فيها الذروة ، هذه الشجاعة التى قامت عنده على أساسين :

الأول : خشيته لله وحده ، حتى قال بشر بن الوليد : « رأيت الأوزاعى كأنه أعمى من الخشوع » .

الثانى : تعففه عن دنيا الناس ، حتى حدث عنه ابنه محمد فقال : « قال لى أبى : يا بنى ، لو قبلنا من الناس كلما يعطونا لهنا عليهم » .

على هذين الأساسين كانت شجاعة الأوزاعى وكان - كما يقول صاحب الحلية : لا يخاف فى الله لومة لائم ، ولا يقول إلا بالحق لا يخاف سطوة العظام .

---

(١) السنة قبل التدوين للأستاذ محمد عجاج الخطيب مطبعة مخيمر - القاهرة ص : ٢٣٤، ٢٣٥ .

حين تغلب العباسيون على بنى أمية ، استدعاه عبد الله بن على عم السفاح ، فتأخر عنه أياما ثلاثة ، وفى مثل هذا الظرف يتسابق الناس إلى مجالس المنتصرين ليعلنوا ولاءهم لهم ويتطوع ضعاف النفوس لتأييدهم إن حقا وإن باطلا ورغم أن المنتصرين استولوا على زمام السلطة ، وقضوا على معظم منافسيهم ، إلا أنهم كانوا فى مسيس الحاجة إلى مساندة آراء عالم له مكانته كالأوزاعى ، ولكنهم خاب أملهم ، فما كان مثل الأوزاعى يقول غير الحق ، أو يسخر دين الله لمخلوق مهما بلغ من المنعة والسلطان .

قال له عم السفاح :

يا أوزاعى : ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلمة عن العباد والبلاد أجهادا ورباطا هو ؟ فأجاب الأوزاعى : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » : قال عم السفاح :

يا أوزاعى : ما تقول فى دماء بنى أمية ؟ .

فأجاب : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » :

قال عم السفاح :

« ما تقول فى أموالهم ؟ » .

فأجاب : إن كانت فى أيديهم حراما فهى حرام عليك أيضا ، وإن كانت حلالا فلا تحل لك إلا بطريق شرعى » ...

قال عم السفاح :

« ألا نوليك القضاء ؟ » .

فأجاب : إن أسلافك ـ يعنى الأمويين ـ لم يكونوا يشقون على فى ذلك ، وإنى أحب أن يتم ما ابتدءونى به من الإحسان » .

هذه شجاعة الأوزاعى التى جعلت القلوب تلتف حوله ، وتجمع على الوقوف بجانبه ، حتى لقد هم به أحد الولاة . فقال له أصحابه : « دعه عنك ، والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك » .

وهذه مكانة الأوزاعى ، الذى حج مرة ، ودخل مكة ، وسفيان الثورى ـ وهو من هو مكانة وعلما ـ آخذ بزمام جمله ، ومالك ابن أنس ـ وهو ممن لا يحتاج إلى تعريف يسوق به ، والثورى يقول : أفسحوا للشيخ حتى أجلساه عند الكعبة ، وجلسا بين يديه يأخذان عنه .

رحم الله الأوزاعى الفقيه المحدث ، إمام أهل زمانه ، الذى ما رؤى ضاحكا متهقها قط ، وكان يعظ الناس فلا يبقى أحد فى مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه .

رحم الله الأوزاعى ، الذى أجمع المسلمون على عدالته وإمامته ، فأفتى فى سبعين ألف مسألة ، والذى مات فلم يترك للدنيا شيئا

من المتاع الزائل ، وإنما ترك علما ، ومثلا أعلى للعلماء الجديرين بأن يكونوا ورثة الأنبياء ...

إن أحد الولاة جلس على قبر الإمام الأوزاعي ، فقال : « يرحمك الله ، فوالله لقد كنت أخاف منك أكثر مما أخاف الذي ولاني » .

• • •

هذا هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو ابن محمد الأوزاعي ، إمام أهل الشام الذي تخرج في مدرسة أولئك الصحابة الذين نزلوا بالشام ، أمثال أبي عبيدة بن الجراح وبلال وشرحبيل ، وعوف بن مالك الأشجعي ، والعرباض بن سارية ، والذي رفعه علمه إلى قمة العلماء ، ورفعته عفته عن الدنيا إلى قمة العظماء ، ورفعته ثقته في الله إلى قمة الأصفياء .

ذكر الحافظ بن عساكر في تاريخ دمشق : أن الإمام الأوزاعي ، دخل الحمام ببيروت ، فشغل عنه صاحبه ، وأغلق الحمام عليه ، وذهب ثم جاء ففتح الباب فوجده ميتا ، قد وضع يده اليمنى تحت خده ، وهو مستقبل القبلة .

إن الشاعر الذي رثا عالم أهل الشام أجاد حين قال :

جاد الحيا بالشام كل عشية
قبراً تضمن لحده الأوزاعي
قبر تضمن فيه طود شريعة
سقيا له من عالم نفاع
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعا
عنها بزهد أيما إقلاع

محمد عبد الله السمان

من جيد شعر الخنساء قولها في رثاء أخيها :

إذا القوم مدوا أيديهم ... إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا
ترى الحمد يهوى إلى بيته ... يرى أفضل الكسب أن يحمدا

حياة سلمان الفارسيّ وإسلامه

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

جلس المسلمون يتذاكرون حوادث موقعة الخندق بعد أن نصرهم الله على عدوهم فذكروا مشورة سلمان الفارسى وبلاءه فى القتال، فقال الأنصار (سلمان منا) وقال المهاجرون (سلمان منا) ولكن الرسول قال قولته التى شرف بها سلمان على الزمان (سلمان منا أهل البيت).

* * *

فى قرية يقال لها (جى) إحدى قرى أصبهان من أعمال فارس، ولد سلمان فى بلاد المجد والسؤدد التى قال فيها الشاعر:

قومى استولوا على الدهر فتى
ومشوا فوق رءوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم
وبنوا أبياتهم بالشهب
وأبى كسرى علا إيوانه
أين فى الناس أب مثل أبى

وتفتحت عيناه على المجد المؤثل والعز التالد، إذ كان أبوه زعيم فلاحى قريته، يعيش فى بحبوحة من العيش وسعة فى الرزق.

ويظهر أن أباه لم يرزق غيره، فأحبه أشد الحب، حتى لقد بلغ حبه إياه وإيثاره له وخوفه عليه درجة عظيمة، جعلته يحبسه فى البيت كما تحبس الجارية مخافة أن يقع له مكروه.

فلما شب الصبى عن الطوق، تعهده أبوه بالتربية والتعليم، فعلمه المجوسية التى كان يدين بها، فلما عرف شيئاً عن دين آبائه وأجداده، ترك حياة اللهو واللعب، وعكف على دراستها، حتى أصبح سادن النار، فهو الذى يوقدها ويتعهدها فلا تخبو ساعة فى البيت ... وهكذا شغل الفتى المدلل وقته فى تعلم دينه والبحث عن دقائقه، وما كان أغناه عن هذا العناء لو لم يكن هناك تدبير علوى هو الذى وجهه هذه الوجهة، فجعله يطرح حياة اللهو واللعب التى كان يتمتع بها أشباه له وأنداد.

كانت لأبيه ضيعة كبيرة شأنه شأن ذوى الجاه والسلطان، وقد شغل عنها حيناً ببناء له فى داره، فاستدعى ابنه سلمانا وقال له:

يا بنى قد شغلنى ما ترى وأخاف إن نحن أهملنا أمر ضيعتنا أن يصيبها التلف، فانطلق إليها لترى ما صار إليه أمرها. ولكن لا تغب حتى لا تشغلنى عن كل ضيعة بهمى بك.

لقد كان الأب يخشى أن تنوشه الوساوس من أجل ابنه الذى لا يقوى على فراقه ...
وقصد سلمان ضيعة أبيه ليرعى شئونها وينفذ ما أمره أبوه ، وفى طريقه إليها مرَّ بكنيسة من كنائس النصارى ، وكانوا فى تلك اللحظة يصلون ، فسمع أصواتهم ، فدفعه حب الاستطلاع إلى دخولها ليرى ماذا يعملون ويعرف ما يقولون ، ونظراً لأنه لم يكن يعرف عن مثل هذه الأمور شيئاً ، ولم يكن له بمخالطة الناس ومعرفة أحوالهم عهد ، إذ أنه قضى قضى معظم أيامه رهين البيت ، فلما رأى صلاتهم وسمع أقوالهم أعجب بما رأى ، وما سمع ، ورغب فى التدين بدينهم والسير على نهجهم ، حتى إذا فرغوا من صلاتهم سألهم عن أشياء فى الدين أخبروه عنها ، فأدرك بفطرته أن هذا الدين خير من الدين الذى كان عليه آباؤه وأجداده ، ولما سألهم عن منبع دينهم وأين يوجد سدنته والعارفون به ، أخبروه أنه يستطيع أن يجد طلبته فى بلاد الشام .

ومكث عندهم يرى ما يفعلون ويسمع ما يقولون حتى غربت الشمس ونسى ما كان قد خرج من أجله ، وغفل عن كل شىء إلا عن وجوده مع القوم فى كنيستهم ، لقد أراد سلمان أن يروى نفسه الظمأى التى يحس توقها إلى دين تجد فيه مطالبها العليا .

ولما أقبل الليل ولم يعد سلمان إلى بيت أبيه شغل الرجل بأمر ابنه ، وبعث الرسل فى طلبه ، واستمر فى البحث عنه وتتبع أثره واستقصاء خبره ، وقد ملأ الحزن قلبه واستولى عليه هم ثقيل ، وما زال الرجل دائم السؤال عن وحيده يحدوه الأمل ويدفعه الرجاء ، حتى عثر عليه .

فلما مثل بين يدى أبيه عاتبه أبوه على اختفائه رغم وصيته له ، واستعلمه حقيقة أمره وسبب غيبته ... فقال له سلمان :

ـ يا أبت إنى مررت بقوم يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت من أمرهم ، وهزنى ما عرفت من خبرهم ونزل دينهم من نفسى منزلا حسناً وعلمت أن دينهم خير من ديننا .

فنزل هذا القول على الأب نزول الصاعقة ، وظهر الغضب فى عينيه وبان الألم فى وجهه وقال :

ـ أى بنى إن دينك ودين آبائك خير من ذلك الذى فتنك بزخرفه وتسلط على حسك بتهويمات يقوم بها قوم يتخذون الشعوذة حرفة لهم يغوون بها السذج أمثالك .

ـ يا بنى عليك أن تعبد ما كان يعبد آباؤك وأن تسير على ما ساروا عليه فلسنا بأنضج منهم تفكيرا ولا أكثر تعقلا .

فسكت سلمان ولم يجب ، ورأى الأب على وجه ابنه علامات تدل على عدم الاقتناع ، فساورته الهواجس وخاف أن يفتن ابنه فى دينه ويميل إلى تلك الدعوة التى اجتذبته ، وحبسه فى الدار كما كان يحبسه من قبل .

لم يقتنع سلمان بما قال أبوه ولم يرقه هذا التقليد الأعمى ، فقال فى نفسه ، كلا والله : إن ما رأيت لخير من ديننا الذى ورثناه عن أسلافنا ، والذى اعتنقناه بلا تفكير ، وتبعنا تعاليمه دون تدبر ، وإنه لجدير بالإنسان الذى وهبه الله العقل الناضج والفكر الثاقب ، أن ينظر فى الأمور ويحكم فيها عقله ويعمل فكره ، وأن يستقصى الأمور ويختار منها أيها خير .

وأخذ يحتال لنفسه حتى اتصل بهؤلاء النصارى مرة ثانية واستمر يراسلهم ويتعرف أخبارهم ويستوحيهم أسرار دينهم ، حتى إذا اقتنع بأن ما يعبدون خير مما يعبد هو وآباؤه ، أرسل إليهم يطلب إذا قدم عليهم من الشام قافلة من تجار النصارى ، وقضوا مآربهم ، ثم عولوا على العودة إليها ، أن يخبروه ليصحبهم إلى هناك حيث يتلقى من تعاليم دينهم ما يشفى غليل نفسه ...

وانتهز هؤلاء النصارى قدوم قوم إليهم من الشام واعتزامهم العودة ، فأرسلوا يخبرون سلمانا بذلك ، فاحتال على التخلص من قيده ، ثم لحق بالقوم وصحبهم فى رحلتهم حتى وصل إلى أرض الشام ، وهناك أخذ يتنقل من مكان إلى مكان ، يسأل عن أهل هذا الدين ويختلط بهم ويبحث عن أفضلهم علما وأوسعهم خبرا وأكثرهم معرفة ، حتى سمع بأحد الأساقفة وأنه سادن هذا الدين وفقهيه وخبير فى أدق شئونه ، فقصد إليه سلمان ، فلما التقى به قال له: إنى قد ملت إلى هذا الدين ، فأحببت أن أكون معك ، أقوم على خدمتك وخدمة كنيستك وأتعلم معك علوم هذا الدين ، وأصلى وترشدنى إلى خير الطرق ، فرحب به الأسقف وقبل ما عرضه عليه سلمان وضمه إلى معيته فى كنيسته .

عاش سلمان معه يلحظ تصرفه ويتعرف أمره ويتتبع خطاه ، وقد رأى من صفات هذا الأسقف مالم يعجبه فهو يجمع الصدقات التى يقدمها أصحابها ، لتنفق على فقراء القوم ، وبدلا من أن ينفقها على مستحقيها فإنه يكنزها لنفسه ، حتى بلغ ما جمعه منها سبع قلال مملوءة ذهبا وفضة .

لقد رأى سلمان هذا الرئيس الدينى الذى ملكه الناس أمرهم ، يؤثر نفسه على الآخرين فيحرم الفقير حقه ويحبس عن المسكين رزقه ، فكادت عقيدته فى هذا الدين الذى عشقه ،

تتزعزع وإيمانه بالنصرانية يتحول، لولا أن انتهى أمر هذا الأسقف سريعاً، فقد ثار عليه القوم وأبغضوه بغضاً شديداً وصلبوه ورموه بالحجارة، بعد أن كشف لهم سلمان أمره.

ثم تولى أسقف أخرى يعرف حق الدين وحق الفقراء ويرعى شئون الناس، فهو زاهد فى متاع الدنيا راغب فى الآخرة.

كان هذا الأسقف تقيا صالحا ورعا أمينا، مثابرا على عبادة ربه فى الليل والنهار منصرفا عن كل ما تشتهى النفس إلى ما أعده الله فى الآخرة لعباده المتقين.

وعرف سلمان فيه كل هذه الخلال، فأحبه حبا عظيما، إذ رأى فيه الصفات التى كان يتخيلها لدين يدعو إلى الحب والسلام، ورأى فيه خير مثل يحتذى فى الصلاح والقدوة الحسنة، فأقام معه ما شاء الله له أن يقيم مطمئنا إلى جواره، راضيا برعايته متفانيا فى خدمته، حتى إذا قربت منية الأسقف وظهرت عليه علامات الموت وأحس سلمان أن الرجل مفارق له، جلس إليه وقال له:

أيها الراعى الصالح، إنى كنت معك وأحببتك ملء قلبى، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى. وإنى لأرجو أن توصينى وتدلنى على رجل ألحق به.

فقال له: يا بنى والله ما أعلم اليوم أحداً من أهل زماننا يتوفر فيه ما تريد، فقد ذهب الصالحون، وأما الباقون فقد بدلوا، وتركوا ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل (سماه له) ستجد فيه طلبتك فإنه على نور من ربه وعلى هدى من شريعته... حتى إذا فارق الأسقف الحياة، رأى سلمان أنه لا بقاء له فى هذه المدينة، فشد رحاله إلى الموصل، ولما بلغها ألقى عصا التسيار وأخذ يسأل عن صاحبه حتى عرف مكانه والتحق بخدمته، وأقام عنده ما بقى هذا الناسك على قيد الحياة، وقبل أن يخلى مكانه أوصى سلمانا أن يلحق بزميل له فى بلدة نصيبين، فذهب إليها وأقام عند كاهنها حتى حضرته الوفاة فأوصى سلمانا أن يلحق برجل فى عمورية فهو من بقى فى هذه الدنيا، فذهب إليه سلمان وأخبره عن كل ما وقع له، وذكر له كل ما سمع من وصايا الرجال الذين التحق بخدمتهم وما كان من أمرهم، وطلب منه النصيحة، فقال له:

يا بنى، أما أمثالى وأمثال من ذكرت من الصالحين فلن يوجد ما آمرك أن تلحق به، ولكن قد أظل زماننا نبى يبعث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب وهجرته إلى أرض بين حرتين[1] بينهما نخل، وبه آيات وعلامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل

---

(١) الحرة بالفتح أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار.

الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق به فى تلك البلاد فافعل .

ولا غرابة فى ذلك فقد عرف كثير من كهان الشام وغيرها قرب ظهور الدين الجديد وبشروا بالنبي ومكان ظهوره . كما حدث من بحيرا الراهب ، عند ما رأى محمداً مع عمه فى طريقه إلى بلاد الشام للتجارة ، وشاهد علامات النبوة ، جعل يلحظه لحظا شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفاته حتى إذا تأكد من ذلك ، طلب من عمه أبى طالب أن يرجع بابن اخيه إلى بلده وحذره من اليهود وقال له : « لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم » ...

وبعـــد أن تحدث الكاهن إلى سلمان ووصف له العلامات التى لابد أن توجد فى النبي ، وبعد أن نصحه باتباعه ، لأن هذا الدين الذى سيأتى به هو خير الأديان ، وأن النبي هو خاتم الأنبياء ، وهو الذى بشر به الأنبياء السابقون .

التحق بالرفيق الأعلى وبقى سلمان فى عمورية أياما طالت أو قصرت ، حتى أقبل ركب من قبيلة (كلب) ببادية الشام طلب منهم أن يصحبوه معهم إلى أرض العرب على أن يدفع لهم أجرهم ، فصحبوه معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ، ضاقوا بصحبته فاستولوا على ما معه ، ثم باعوه لرجل يهودى فأقام معه صابراً على ما حل به من بلاء ، يعمل له ما يؤمر به ، شأنه شأن الموالى ، ومع ذلك فقد كان عيشه فى هذا المكان طيباً ونفسه عنه راضية ، إذ رأى فيه نخيلا بعث بعض الأمل إلى نفسه علة يكون البلد الذى وصف له والذى سيكون مهاجر النبي الجديد وغالبا ما يخفف الأمل شاق الحياة ويبعث فى النفوس قوة الاحتمال والصبر على ما يلقى من عنت سيده وإرهاقه له .

وذات يوم قدم رجل من قريظة بينه وبين اليهودى الذى عنده سلمان صـــلة قرابة فاشتراه منه وأخذه معه إلى المدينة ، فلما وقع عليها بصره عرفها من وصف الكاهن إياها ، فاطمأنت نفسه وارتاح فؤاده ، وحمد ربه أن هداه إلى بغيته ، وهكذا استقر به الحال فى المدينة ينتظر ما تسفر عنه الأيام .

* * *

صفقت حوله القلوب ابتهاجا
لسناه وصاح يشد والزحام
طلع البدر من قباء علينا
وجب الشكر أشرق الإسلام

عبد الموجود عبد الحافظ

صوت من بغداد :

جامعة الدين وجامعة اللغة

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

لقد شاء الله سبحانه - وله الحمد والمنة - أن أكون مبعوث جامعة الأزهر إلى جامعة بغداد للتدريس بكلية الشريعة بها هذا العام ، وهى تقع بجوار مسجد الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان فى حى الأعظمية ببغداد ، وهى كلية قديمة حديثة : أما حداثتها فباعتبار انضمامها إلى جامعة بغداد بهذا الاسم فى السنوات الأخيرة واعتبارها كلية من كليات الجامعة ، أما قدمها فلأنها ترجع إلى القرن الخامس الهجرى فقد بناها أبو سعد محمد وابنه السلطان عضد الدولة ملك شاه السلجوقى بجوار قبر الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - وكان ذلك سنة ٤٥٦ هـ الموافقة ١٠٦٦ م ، وكانت تسمى فى هذا العصر مدرسة الحنفية وقد عين لها المدرسون ، ورصد لهم وللطلاب المخصصات المالية الكافية كما كان متبعاً بالنسبة لبقية المدارس الشهيرة المعاصرة ، ثم سميت فى العهد العثمانى وقبيل الحرب العالمية الأولى « كلية الإمام الأعظم » ، ثم سميت « دار العلوم الدينية والعربية » ، ثم « دار العلوم » ، ثم انتهى الأمر بها إلى أن سميت « كلية الشريعة » وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٦٠ ثم ضمت إلى جامعة بغداد (دليل كلية الشريعة ببغداد ص ٨ وما بعدها) .

وقد جاء على هذه الكلية وقت كانت وحدها فى العراق الشقيق تزوده بالمثقفين ، وقادة الرأى وبما قد يحتاج إليه من موظفين يقومون على شئونه ، وإنا لنرجو لها - إن شاء الله - أن تزدهر وتترعرع حتى تتبوأ مكانتها اللائقة بها ، وتؤدى رسالتها على خير وجه .

وقد كنت أعتقد عن يقين أن جامعتنا الدينية الكبرى التى وحدت بين قلوبنا هى الإسلام وأن جامعتنا العربية التى وحدت بين ألسنتنا هى القرآن ، حتى قدر لى أن أكون مبعوث جامعة الأزهر إلى الحجاز أو على التدقيق إلى بلد الله الحرام « مكة » من منذ بضعة عشر عاماً وإلى العراق هذا العام ، فرأيت هذا الاعتقاد حقيقة ماثلة فى دنيا الواقع .

ويشهد الله أنى لم أشعر بغربة ولا بوحشة فالدين هو الدين ، والتحية هى تحية الإسلام ، والوجوه هى الوجوه ، والطباع هى الطباع ،

والتقاليد هي التقاليد على تفاوت يسير لا يؤثر في الجوهر ، كنت أسير في الطريق فأقرئ الناس السلام وهم يقرئونني ، ويؤثرونني عليهم في الركوب في المركبات العامة وفي الجلوس ، وإذا سألتهم سؤالا عن مكان أو شيء ما ابتدروا في الإجابة ، وقد يتطوع بعضهم بصحبتي ليدلني على ما أريد ، وذهبت إلى المسجد فإذا الناس يتراصون ويتصافون صفوفا ، ويقتدون بإمام واحد ، وإذا هم بعد الصلاة يتصافحون ويتعارفون ، وسمعت الأذان فإذا هو الأذان الذي كنت أسمعه في القاهرة وفي الحجاز ، ولو قدر لي أن أذهب إلى باكستان ، أو أندونيسيا ، أو الملايو ، أو في أي قطر من أقطار الإسلام فسأجد ما وجدته في مكة ، وفي بغداد من ألفة ومودة ، وإعزاز وتكريم ، وإحساس بوحدة الدين والقلوب والمشاعر اللهم إلا ما يكون من إعواز في اللغة العربية وعجمة في اللسان هم جادون في التغلب عليه إن شاء الله بفتح المدارس والمعاهد لدراسة اللغة العربية : لغة القرآن .

فما الذي صنع هذه الرابطة القوية وهذه العروة الوثقى التي لا انفصام لها ؟ ليس من شك في أنه الإسلام جامعتنا الدينية الكبرى وموحد قلوبنا وموحد غاياتنا وآمالنا هذه الوحدة الدينية الكبرى ، هي التي صدع بها الحق تبارك وتعالى في قوله :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١). وقوله سبحانه : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٢) .

وهذه الوحدة الإسلامية هي التي دعا إليها نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وما أروع هذا من تمثيل وتشبيه فالبنات إذا كانت كلها قوية فهي بانضمامها تزداد قوة ، وصلابة ، وإذا كان بعضها ضعيفا ، فالضعيف بانضمامه إلى القوى يصير قويا فالهيكل الكلي على أية حال قوى متماسك يصمد أمام عوامل الهدم والتفريق ويقول صلى الله عليه وسلم منبها إلى وحدة المسلمين في الآمال والآلام ، والمشاركة في السراء والضراء والعسر واليسر : « مثل المؤمنين في توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » رواه مسلم ويبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حقوق هذه الأخوة الإسلامية بين

---

(١) آل عمران ١٠٣ .

(٢) الحجرات ١٠ .

الأفراد والجماعات وهي إقامة العدل لا التظالم والنصرة على الأعداء لا التخاذل والتكريم والاحترام لا التحاقر فيقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » وفى رواية « لا يسلمه » يعنى للأعداء .

وامل فى هذا بلاغا لبعض المسلمين الذين يتظالمون ويتخاذلون بل وينحازون إلى الأعداء ضد إخوانهم المسلمين ولا يسعون فى سبيل هذه الوحدة التى هى من صنع الرحمن لا من صنع الإنسان، لقد حاول المستعمرون أعداء الإسلام والعروبة أن ينالوا من هذه الوحدة ويقضوا عليها واستعملوا فى هذا السبيل العنف والإرهاب حينا والترغيب والإغراء حينا آخر . ولم يدعوا وسيلة من وسائل الدس والتفريق إلا لجأوا إليها . وهم وإن كانوا قد وصلوا إلى بعض ما يريدون بمساعدة صنائعهم المأجورين فلم يصلوا إلى كل ما يريدون ولن يخلى الله سبحانه الأمة الاسلامية فى كل عصر وقطر من رجال مخلصين يبطلون ألاعيبهم ويردون كيدهم فى نحرهم ويعملون على بقاء هذه الوحدة أبد الآبدين . إن هذه الوحدة لن ينفصم فاصم مادام المسلمون على الصراط المستقيم صراط الله وهو الإسلام وصدق الله حيث يقول : « ... فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (١) .

وكما وحد الله بين المسلمين بالإسلام وحد بينهم فى اللسان بالقرآن، وبفضل لغة القرآن تمكن المسلمون من المحيط إلى المحيط أن يجيدوا اللغة العربية الفصحى نطقا وكتابة وتأليفا فهذا الكتاب هو الذى صير من هذه الأمة الإسلامية على اختلاف ألسنتها وشعوبها عربا باللسان ، ونبغ فى العربية وعلومها فى كل قطر علماء كثيرون من الفرس والروم ، والعجم والبربر، بل نبغ فى لغة القرآن كثيرون ممن لا يدينون بالإسلام ولكنهم يعيشون على أرضه وتحت سمائه والشواهد على هذا كثيرة فى القديم والحديث .

وبفضل لغة القرآن بقيت اللغة العربية هى الرباط القوى بين العرب جميعا على اختلاف دياناتهم وتباعد أقطارهم ، وتعدد لهجاتهم العامية التى قد تتقارب أو تتباعد .

لقد كنت أمقت الدعوة إلى اللغة العامية فى التأليف والتعليم وأعتبرها دعوة شعوبية ودسيسة على العرب يراد بها الفرقة اللغوية وأعتبرها أيضا إفلاسا من دعاتها فى العربية وقواعدها ، وفهم أسرارها وأساليبها ، وما تبينت واقعا ملموسا فضل الفصحى فى التوثيق بين الشعوب العربية إلا بعد أسفارى إلى الحجاز ثم إلى بغداد ، لقد كانت الوسيلة

---
(١) البقرة ٢٥٦ .

المجتمع الاشتراكى فى ظل الإسلام

للأستاذ عبد الرحيم فوده

٧ — حب التملك

الملك - بكسر الميم وضمها - حيازة الشىء والاستيلاء عليه . والانفراد بالتصرف فيه ، ولا شك أن النزوع إليه من الميول الفطرية التى تنشأ عن غريزة حب الذات ، بل إنه فى الإنسان غريزة من الغرائز التى فطره الله عليها . وجعلها فيه أظهر منها فى غيره من بقية أنواع الحيوان ، ذلك لأن الحيوان كما

يقول الأستاذ محمد حسنين الغمراوى فى كتابه « الغرائز » : « بعيد عن مطامع الملك . يستغنى عن اللباس يستر به جسمه ، ويكتفى بالنزر اليسير من الطعام الذى يجده بلا عناء ويرضى من السكنى بالمأوى الحقير يكمن فيه سواد الليل ويحفظ فيه نسله . سواء أكان على فرع شجرة بعيدة المنال . أم فى أرض

(بقية المنشور على صفحة ٧٠٤)

للتفاهم التام بينى وبين الطلاب هى العربية الفصحى ، وأخذت نفسى وطلابى بهذا فتم تفاهمنا على خير وجه وأوجدنا جوا عربيا سليما . وكان تدريبا للطلاب على النطق العربى الفصيح ، وحبذا لو أخذ المدرسون طلابهم بهذا فى كل قطر حينئذ ستتربى ملكة اللغة الفصحى فى نفوس الطلاب ويستعذبون النطق بها بدل أنهم اليوم يستصعبونها ويعتبرون التزامها تكلفا وتفيهقا .

وكذلك لمست فائدة الفصحى فى مخاطبة الطلاب المسلمين والطالبات المسلمات الوافدين والوافدات من أقطار إسلامية غير عربية إلى جامعة الأزهر وغيرها من الجامعات العربية ، لقد كانت وسيلة التفاهم فى قاعات الدرس والبحث بيننا وبينهم هى اللغة العربية الفصحى ماكان الواحد منهم قط يفهم بالعامية مهما كانت واضحة حتى إذا خوطب بالفصحى فهم ، وهكذا ظهرت حكمة الله سبحانه فى التوحيد بين المسلمين فى العقيدة والشريعة كما وحد بينهم فى اللغة وكان الفضل فى هذا وذاك للقرآن .

فليكف دعاة العامية عن دعوتهم الهدامة وليدعوا اللغة العربية الفصحى لغة القرآن تعمل عملها فى التوحيد اللسانى بين المسلمين والعرب فى كل مكان .

د . محمد محمد أبو شهبة
الأستاذ بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر
وكلية الشريعة - جامعة بغداد

جدباء لا تتطلع إليها أنظار الأعداء ، ثم إن في الملك استجابة لمعنى نفيس يحرص عليه كل إنسان . ويجد فيه مظهرا لكرامته وسمو إنسانيته وهو الحرية ، لأنه يهيئ للمالك حرية التصرف في الشيء المملوك على الوجه الذي يرضي ذوقه . ويمضي إرادته . ويحقق غرضه ، وهو إلى ذلك القوة المحركة للسعي والعمل . وتحصيل أسباب الرزق وتوفير وسائل الرفاهية والرخاء .

ولكن هذه الغريزة إذا انحرفت عن اتجاهها السليم وطريقها القصد كانت علة العلل فيما يقع بين الناس من تفاخر وتكاثر وعداوة وبغضاء . وأحقاد وشحناء ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال . والحرص على العمر ، وكان مما دخل به إبليس على آدم ليغريه بالمعصية . ويقصيه عن الجنة أن قال له فيما حكاه الله عنه : « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ، كأنما كان على علم بما فطر عليه الإنسان من حب التملك . والرغبة في تجديد ما يطول به إلفه ، ويتكرر أمام عينيه مرآه : فحرك في نفسه الشوق إلى ما منعه الله منه ونهاه عنه ، وما زال به يغريه ويستهويه حتى انطلى الزور عليه . ونسى عهد الله إليه . كما يفهم من قوله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » . ثم كان ما ذكره القرآن حيث يقول الله فيه « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى » .

ويمكن بقليل من التفكير أن نجد في جموح هذه الغريزة التفسير لكثير من المآثم والمظالم التي تقع بين الناس كالسرقة والغصب والنهب وما إلى ذلك مما يدخل في معنى أكل أموال الناس بالباطل ، ويفهم من قوله تعالى : «كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حبا جما » . أن هذه الرذائل مردها إلى البخل والشح والحرص على المال ، وقد بين سبحانه أن الشعور بالاستغناء يدفع الإنسان إلى الكبر والجور والطغيان ، كما يفهم من قوله تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » . وقد ذكر من أمثلة ذلك قارون : « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي » .

وبين جل شأنه موقف المترفين من دعوات الأنبياء والمرسلين حيث يقول سبحانه : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » .

ومن ذلك يتبين أن لغريزة حب التملك أثرها الخطير فى حياة الأفراد والجماعات ، فهى من جانب منشأ لكثير من النزعات المنحرفة ، والاتجاهات الضارة ، ولهذا يجب أخذها بالتوجيه الراشد والتقويم السليم حتى لا تنحرف بأصحابها إلى الشح والظلم والبغى والعدوان ، وهى من جانب آخر تثير فى النفس دوافع الجد والعمل ، وتوجه نشاط الإنسان الى استثمار الأرض وتعميرها والانتفاع بما سخره الله له . ولهذا يجب أن يفسح لها مجالها لتؤدى وظيفتها فى خدمة الأفراد ومصلحة المجتمع .

وعلى هذين الأساسين نجد الإسلام ، وهو دين الفطرة لا يحرم الإنسان لذة الانتفاع بالملك ، ولا يطلق له حرية التصرف فيما يملك ، لأن ملكيته فى الحقيقة ملكية نسبية ناقصة لا ملكية حقيقية تامة ، فإن هذه لله الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، والغنى الذى يحصل عليه الإنسان إنما هو من الله كما يقول سبحانه : « وأنه هو أغنى وأقنى » ، وقد ذكرنا فى المقال السابق أن المال مال الله ، وعرضنا من الشواهد القائمة فى واقع الوجود والحياة ، وفى كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ما لا يدع مجالا للشك فى صحة ما ذهبنا إليه .

أما مظهر الملكية النسبية للإنسان فى المال فيمكن ملاحظته فيما شرعه الله من الميراث والزكاة والوصية والنفقة ، فإنها مظهر من مظاهر الملكية أو ثمرة من ثمراتها ، وقد أضاف الله المال إلى الناس فى كثير من الآيات كقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » . وقوله سبحانه : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وقوله جل شأنه : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، فدلت هذه الإضافة على الملك بالمعنى الذى ذكرته أو أشرت إليه ؛ وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الإضافة وأمثالها كإضافة أموال السفهاء واليتامى إلى الأولياء فى قوله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما » . لكنى رأيت فى هذا التأول شيئا من التكلف والتعسف ، وقياسا مع الفارق الكبير ، إذ ليس للأولياء فى أموال اليتامى ما لكل مالك رشيد من حرية التصرف فى ماله ، ويمكن ملاحظة ذلك بالتأمل فى قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا » ، وقوله سبحانه : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » .

ولعل مما يؤيد ذلك أن الترغيب فى الإنفاق والوعد بالثواب عليه أضعافا مضاعفة لا يمكن فهمه على استقامته إلا على أساس تقرير مبدأ الملكية ، إذ كيف

يتصور الثواب على الإنفاق والصدقات ، والعقاب على الشح وكنز الأموال إذا لم يكن للإنسان حرية التصرف فيما يحصل عليه ، أو بعبارة أخرى حرية التصرف فيما يملك أو بعبارة أدق حرية التصرف فيما رزقه الله وجعله فيه مستخلفاً عليه . . ؟ وكيف يفهم الأجر على إحسان العمل وإتقانه إذا لم يصر هذا الأجر ملكا لصاحبه ينتفع به على الوجه الذى يراه ، ولا يخرج به عن طاعة الله ، ويدخر منه لغده ولأهله وأولاده من بعده.

ثم إن استثمار الأموال فى المشروعات التى تعود على الفرد والمجتمع بالخير المشترك والربح الحلال لا يمكن تحققه مع إهدار مبدأ الملكية ، فإذا لوحظ مع هذا أن معظم أبواب المعاملات فى الفقه الإسلامى تقوم على هذا المبدأ كالوديعة ، والإعارة ، والإجارة ، والشفعة والقراض ، والمساقاة والمزارعة ، عرفنا إلى أى حد يحترم الإسلام مبدأ الملكية ، ويضع له الضمانات التى تصونه وتشيع بين الناس الأمن على حقوقهم والاطمئنان على أموالهم ، ويكفى لبيان ذلك أن نشير إلى حد السرقة ، فقد أمر الله بقطع يد السارق والسارقة حيث يقول سبحانه : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » . وقد بينت السنة القدر الذى يستوجب القطع وهو ربع دينار فأكثر ، ولا عبرة بالتفاوت فى القيمة لعدم التفاوت فى الجريمة ، ولأن الغرض من إقامة الحد هو صيانة حرمة المال وحماية أمن المجتمع وإحلال الأمانة محل الخيانة ، وقد تساءل أحد الشعراء عن يد تدفع ديتها خمسمائة دينار كيف تقطع فى ربع دينار . وقال فى ذلك :

يد بخمس مئين عسجد وديت
ما بالها قطعت فى ربع دينار

فرد عليه آخر بقوله :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها
ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

ونخلص من ذلك بما ذكرته وكررته ، وهو أن ملكية الإنسان للمال ملكية نسبية ناقصة ، وأنها بهذه المثابة وعلى أساس هذا الاعتبار تتعلق بها حقوق يجب أن تؤدى وتناط بها أحكام يجب أن تحترم وتلتزم . أما وسائل التملك المشروعة فأهمها العمل بكل أنواعه . والميراث كما بينه الله فى كتابه ، والوصية ، والهبة ، وإحياء الأرض الموات التى لا مالك لها . واستخراج ما فى باطن الأرض من معادن ، وهو ما يعرف باسم « الركاز » ، وإقطاع الإمام أو ولى الأمر بعض الأرض لمن يزرعها ويستثمرها .

ولا يتسع المجال اليوم لتفصيل كل ذلك . . فإلى عدد قادم بإذن الله ؟

عبد الرحيم فودة

من مؤلفات الإمام الراحل

الإسلام .. عقيدة وشريعة

للأستاذ عبد الجليل شلبي

يعتبر هذا الكتاب من أهم كتب المرحوم الشيخ محمود شلتوت وأوسعها انتشاراً. وهو أكثر شيوعا فى الأقطار الإسلامية الشقيقة فى آسيا وإفريقية مما يدل على أنه لبى رغبة فى نفوسهم وسد ثغرة فى ثقافتهم الدينية.

كان الشيخ قد بدأ بنشره مقالات مبسطة فى حلقات أسبوعية بجريدة الشعب وفى الإذاعة ثم زاد عليها بعد ذلك وأكملها - وكان الغرض منها إيصال هذه المعلومات الدينية إلى القراء والمستمعين الذين لم يؤتوا حظاً واسعاً من الثقافة الدينية بقصد تغذية عواطفهم وعقولهم بها ودفعهم إلى الاستزادة منها - وقد عمد إلى تبسيط أسلوبها وتهذيب عبارتها لتكون قريبة التناول خالية من جفاف عبارة الفقهاء، بل لقد اتسمت فى كثير من الأحيان بسمة اللهجة الخطابية ويظهر أن الشيخ فى هذا الوقت كان يملى ولا يكتب، وعلى أى حال نجحت هذه الطريقة فى اجتذاب السامعين وإقبال القراء على الكتاب وجعلته فى أكثر من مواضيعه يرضى ذوق العامة والخاصة على السواء.

ولن يتسع هذا الحديث الموجز لتشريح هذا الأثر الكبير وتحليله، وإنما هى لمحات عابرة تلق ضوءاً على طريقته وأفكاره.

تضمن عنوان الكتاب قسمين رئيسيين: قسم يعرض العقيدة الإسلامية والأساس الذى بنيت عليه، وقسم يوضح أحكام الشريعة الإسلامية وما فيها من عدالة ودقة ويسر، ويبدو أن القسم الأول ذكر استبقاء البحث حتى يكون الكتاب شاملا لجانبى الإسلام عقيدته وأحكامه لأننا نجد الأفكار التى فيه ومسائله العلمية تزدحم ازدحاما كان يتطلب شيئاً من البسط والتحليل كالذى نجده فى القسم الثانى ولو فعل ذلك لكان هذا الجزء وحده كتاباً وليته فعل فربما أخرج منه رسالة توحيد ثانية.

نهج فى هذا البحث منهج الكلاميين فاضطره هذا إلى الاحتكاك بالخلافات المذهبية بين طوائف المتكلمين ولكنه لم يشأ أن يتقيد بمذهب منها أو يذكر ما ينصره على مذهب آخر بل رأى أن يعرض عما لا ضرورة إليه من الخلافات، وهو المنهج الذى نهجه الشيخ محمد عبده فى رسالته. ولخص فكرته فى هذه الخلافات فى قوله: « إن النظريات التى لم ترد

بطريق قطعي ، أو وردت عن طريق قطعي ، ولكن لابسها احتمال في الدلالة فاختلف فيها العلماء ليست من العقائد التي يكلفنا بها الدين والتي تعتبر حداً فاصلا بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون » [1] ، ولكنه وهو يلخص مسائله المتشعبة اضطره البحث أن يلم ببعض هذه الخلافات فلم يتورط في ذكر التفاصيل أو ينحرف عن منهج الكتاب ، وإنما ذكر أساس الموضوع وأحال على الكتب الأخرى فقال : « ... وقد ذكرت كتب التوحيد ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه ، وأوردت الأدلة التي استدل بها كل على ما يرى » ، أما هو فاقتصر على القدر الضروري ، لأن الموضوع تكميلي ، ولأن الخلافات المذهبية وراء ما وضحه القرآن والسنة لا حاجة به لعامة المسلمين .

وأما القسم الثاني من الكتاب وهو قسم الشريعة فيبدو أنه كان الغرض الأساسي منه عرض فيه فروع الشريعة وأحكامها العامة وتوسع في بعض منها وأوجز في البعض الآخر مراعيا في هذا حاجة جمهور المسلمين والرد على المتعصبين ضد الإسلام والطاعنين عليه من غيرهم ، وشخصية المؤلف واضحة قوية في هذا الجزء فهو حين يبين وجهة الشريعة في تقنين الأحكام ويشرح فلسفتها وما فيها من جلب نفع ودفع ضرر يعتمد على تفكيره الخاص ويطول وقوفه عند الفكرة حتى تتضح وتعمق بكثرة الأدلة وجمال العرض وقوة الدليل ، وهو يتخذ أدلته من القرآن والسنة قبل كل شيء ثم من قوانين الاجتماع وسنن التطور ، وحين يحتمل الأثر أكثر من وجه أو يكون محل خلاف بين الفقهاء لا يعرض عن تشريعه كما فعل في القسم الأول ولكنه يعرض الآراء ويوازن بينها ويرجح مايختاره منها وإذا تأملنا موقفه من هذه الخلافات نجده يميل غالبا إلى اختيار الأيسر من الآراء بما يجعله رجل تسامح لا رجل تشديد .

لم يكن من همه أن يجعل كتابه من كتب الفقه أو أصول الفقه ، لهذا لم يقف عند كل باب من أبوابه ولم يستقص ما ذكره من الأبواب ، وإنما همه فيما ذكره أن يبين حكمة تشريعه وسر فلسفته وضرورة مراعاته ، بهذا كان الكتاب دعوة للإسلام ودفاعا عنه وردا على المفترين عليه ، وأهم الأبواب التي أولاها عناية هي الأبواب التي تحدث فيها عن المسئولية الدينية والمسئولية الجنائية وما يدخل فيها من عقوبة وقصاص والتي تحدث فيها عن الأسرة ومكانة المرأة من أسرتها ومكانتها من المجتمع كله وما خصص لها الشرع من وظائف والتي عليها من مسئوليات .

وقد رتب على البحث في الأسرة والمجتمع بحثه في تكوين الأمة الإسلامية ووحدتها وعلاقة المسلمين بعضهم ببعض وعلاقتهم بالأمم والدول الأخرى وما يتصل بهذا من

(١) ص ٦٦ .

قوانين المعاهدات فى الحرب والسلم وشئون التجارة والمعاملات وختم الكتاب بالبحث فى مصادر التشريع الإسلامى وهى الكتاب والسنة والقياس والإجماع .

ويطول بى القول لو ذهبت أحلل منهجه فى كل قسم من هذه الأقسام ، ولكن ما منزلة الكتاب بين مؤلفات العصر ، وهل زاد شيئاً فى الفكر الإسلامى الحديث ؟

أهم ميزاته أنه مدن الفقه الأزهرى فرفعه من جفاف الأسلوب وضيق الفكرة وجمود الرأى ، وهو بما يذكر من سر التشريع وفائدة العمل به يجمع بين القلب والعقل ويهيج العاطفة والشعور بجانب تلقين المعرفة وتبيين المنطق ، فتراه فى العبادات يذكر تاريخ كل عبادة ويصف ما كانت عليه عند الأمم الأخرى ، ويبين أثرها فى نفس الفرد وسلوكه وفائدتها له وللمجتمع الذى يعيش فيه ، وفى الحديث عن المرأة يبين مزية القانون الذى شرعه لها الإسلام وما حدث من ضرر بسبب الخروج عليه فيقنعها بالدليل العملى بأنه قدرها وحافظ عليها وأنصفها ـ وهكذا يفعل فى بقية الأبواب .

والحق أنه لم يأت فى كل هذا بجديد لم يسبق إليه أو مبتكر لم يخطر على بال الآخرين ولكن ذلك لا يغض من قيمة الكتاب فهذا العمل فى ترتيبه وجمعه ومزج فقهه بفلسفته يعتبر جديداً . وشىء آخر وهو أنه لم يتقيد بمذهب معين وإذ لم يكن له مذهب جديد ـ فالعمود الذى يدور عليه بحثه هو الفقه الحنفى ولكنه يستأنس بآراء الآخرين ويستعين بها وكثيراً ما يرجحها ويأخذ بها ـ ويبدو تأثره بالشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا أكثر من غيرهما ، فحديثه عن الأولياء وما يرجو العامة من بركتهم أو شفاعتهم هو حديث الشيخ رضا ، وإذ شئت قلت مدرسة ابن تيمية بأتباعها القدامى والمحدثين ، وقد جمعت هذه المدرسة من قبل مفكرين بارزين أمثال ابن القيم والألوسى صاحب روح المعانى ، والشيخ عبد المجيد سليم وهو أستاذ شلتوت .

أما حديثه عن الإجماع وأثره فى التشريع فيكاد يكون رداً على الأستاذ على عبد الرازق أو تعديلا لفكرته وإن كان بينهما كثير من الوفاق .

هذه نظرة الطائر إلى هذا الكتاب الكبير من كتب الشيخ ، وهو عصارة أفكاره وخلاصة تجاربه وزبدة قراءاته ، وقد اشتقت منه مؤلفات أخرى أصغر اعتمدت عليه فى الفكرة وزادت عنه بسط العبارة وكثر الأدلة وإفاضة الحديث ، منها أثر القرآن فى بناء المجتمع ، وأثر القرآن فى بناء الأسرة ، والقرآن والمرأة ، والتكافل الاجتماعى فى الإسلام ... ويدل كل هذا على ما فى الكتاب من تركيز وإحاطة وشمول .

رحمه الله تعالى ونفع بعلمه المسلمين ؟

عبد الجليل شلبى
عضو المكتب الفنى لمجمع البحوث الإسلامية

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ٣ —

ومما يلفت النظر في شعرنا الحديث، شيوع الملاحم والمطولات.

وأول من بدأ المطولات ذات الطابع الإسلامي في العصر الحديث هو محمود سامي البارودي فقد أنشأ قصيدة كبرى بلغت أبياتها أربعمائة وأربعين وسبعة أبيات بعنوان: «كشف الغمة في مدح سيد الأمة». وهي على وزن وروي قصيدة البردة المشهورة للبوصيري وموضوعها السيرة النبوية أيضاً، إلا أن البارودي قد شرح وفصل وضمن قصيدته معارف أكثر مما تضمنته قصيدة البوصيري ومطلع مطولة البارودي:

يا رائد البرق: يمم دارة العلم
واحد الغمام لأقمار بذي سلم [(1)]

ومن المشاهد التي فصلها، وافتن في عرضها: مشهد الهجرة النبوية إذ صوره في ستة عشر بيتاً، ووقف طويلا عند غار ثور حتى لكأنه مصور يرصد حركات معركة، وبرز في ذلك التصوير ما كان للبارودي من صفات عسكرية مثل قوله:

وسجف العنكبوت الغار مختفيا
بخيمة حاكها من أبدع الخيم
قد شد أطنابها، فاستحكمت ورست
بالأرض، لكنها قامت بلادعم

ثم ظهرت بعد البارودي عدة مطولات منها: نهج البردة للمرحوم أحمد شوقي ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم [(1)]

وقد بلغت أبياتها تسعين ومائة بيت.

ثم عمرية حافظ إبراهيم ومطلعها:

حسب القوافي وحسبي حين ألقيها
إني إلى ساحة الفاروق أهديها [(2)]

وقد بلغت أبياتها سبعة وثمانين ومائة بيت.

ثم بكرية عبد الحليم المصري ومطلعها:

---

(1) مطبوعة مستقلة عن الديوان، مطبعة الجريدة سنة ١٣٢٧ هـ.

(1) الديوان ج ١ ص ٢٣١ أنشدت سنة ١٩١٠.

(2) الديوان ج ١ ص ٧٢ أنشدت عام ١٩١٨.

أفضى أبا بكر عليهم قوافيا
وأمطر لسانى حكمة ومعانيا [١]

وقد بلغت أبياتها أحد عشر ومائة بيت .

ثم علوية عبد المطلب ومطلعها :

أرى ابن الأرض أصغرها مقاما
فهل جعل النجوم بها مراما [٢]

وقد بلغت أبياتها سبعة وثلاثمائة بيت .

ثم مقصورة السيد رشيد رضا بلغت أبياتها أربعة وتسعين ومائتى بيت [٣] ، وقصيدة كبرى للمرحوم أحمد محرم أنشأها أبان اشتعال ... الحرب العالمية الأولى عندما بدأ فى الأفق انتصار الجيوش الإسلامية ، وقد بلغت أبياتها تسعة وعشرين ومائتى بيت ، وهى ضمن مخطوطات محرم الكثيرة ، ثم ظهرت فى عام ١٩١٩ « أرجوزة العرب الكبرى » للمرحوم أحمد شوقى التى بلغت أبياتها ستة وعشرين وسبعمائة وألف بيت ، ثم همزية العرب فى مدح سيد العجم والعرب وقد بلغت أبياتها مائتى بيت وبيت [٤] .

ومما يلاحظ فى هذا المقام أن هذه المطولات قد أنشدت فى فترة من الزمن كانت سطوة المستعمر فى مصر قد بلغت منتهاها ، كما كانت الوطنية المصرية ، والدعوة إلى العزة العربية الإسلامية قد شقت طريقها إلى القلوب ، فأراد الشعراء أن يسهموا بنصيب ، فراحوا يبرزون أمجاد الأمة العربية ، والأبطال الإسلاميين ، ويصورون ما كان لنا من عزة وسيادة فى ظلال الدولة الإسلامية الكبرى فيما مضى ليكون من ذلك قدوة للشباب .

يقول المرحوم عبد الحميد العبادى : « ولا ندرى بالدقة الباعث لحافظ على نظم قصيدته العمرية — فلعل الباعث له ما رآه من التياث حال العالم الإسلامى ... — إبان الحرب العالمية الأولى ، وفساد أمر الخلافة ، فأراد أن يجلو على المسلمين صورة لأقوى شخصية ظهرت فى الدولة الإسلامية وهى شخصية عمر فيكون للناشئة منها مثال يحتذى ، وينسجون على منواله ، وقد يكون حافظ أراد بنظم هذه هذه القصيدة أن — يجرى فى غبار شوقى ولا سيما بعد أن نظم شوقى نهج البردة [١] » .

ونحن نرجح الباعث الأول ، لأنه هو الذى أوحت به الظروف ، ونرجح أنه نفس الباعث الذى أوحى إلى بقية الشعراء بالسير فى هذا المضمار فى تلك الفترة من الزمن .

وفى عام ١٩٣٥ ظهرت ملحمة المرحوم أحمد محرم الكبرى ، وكانت لها هزة فى عالم الأدب .

(١) نشرت بجريدة الأفكار بالعدد ٢٠٢٠ مايو سنة ١٩١٨ .
(٢) ص ٢٣٠ من الديوان ، أنشدت عام ١٩١٩
(٣) راجع رشيد رضا أو إخاء أربعين عاما للسيد شكيب أرسلان
(٤) المؤيد عدد مارس سنة ١٩١٠ .

(١) حافظ وشوقى للصيرفى طبعة ١٩٤٨ .

ولم يكن هدف شعراء المطولات والملاحم أن يظهروا براعة فنية أو افتنانا فى صناعة لفظية ... بل كانت هذه المطولات ظاهرة طبيعية أملتها الظروف ، إذا اصبح الشعراء حريصين على أن يعبروا عن ذلك الفيض من المعانى التى انبثقت من « البعث الإسلامى » الذى صاحب تطور الحياة الفكرية فى عصرنا الحديث ، فكان لابد لهؤلاء الشعراء من البسط والتفصيل ، وكان طبيعيا أن يكثر المعروض من شعرهم فكانت هذه المطولات والملاحم وعلى الرغم من أن إلياذة محرم الكبرى لم تطبع إلى يومنا هذا[1] فإنها أحدث تطورا فى المطولات إذ أنشأ بعدها كثير من الشعراء مطولات أطلقوا عليها « ملاحم » كما سنرى ، وهو ما لم نعهده قبل ظهورها فى شعرنا الحديث .

والآن ، نعرض ملحمة أحمد محرم لأهميتها دون إطالة ، ثم ننتقل إلى ما استجد بعدها من ملاحم .

ملحمة أحمد محرم :

ولئن أتاح الله ... سبحانه وتعالى إلى أحمد محرم شرف إنشاء الإلياذة فإن فكرة هذا العمل الجليل لم تنبت بادئ ذى بدء عنده ، وإنما الذى أوحى بها جندى من جنود العروبة والإسلام ، يعمل بجهد لا يعرف الملل ، ونشاط لا يعرف الكلال ، بعيداً عن ضوضاء الدعاية ... ذلك هو السيد محب الدين الخطيب .

لقد ود السيد محب الدين تنفيذ مشروعات إسلامية عديدة منها إيجاد ملحمة إسلامية كبرى تخلد أمجاد الإسلام الذى هو أجدر بالتخليد بما قام به رجال فى أمم أخرى بتخليد مآثرهم فى ملاحم كبرى كهوميروس والفردوسى .

* * *

ولقد بدأ السيد الخطيب بعرض فكرة الإلياذة الإسلامية على المرحوم شوقى بعد عودته من المنفى ، وظل يتصل به فى هذا الشأن إلى مدة طويلة ويبدو أن شوقى قد اكتفى بنظم أرجوزة العرب الكبرى (دول العرب وعظماء الإسلام)[1] . فاتجه السيد محب الدين إلى أحمد محرم ، ولم تكن الصلة بينهما وثيقة حينذاك ... وما زال به حتى اقتنع بالفكرة ، وتشبع بها وشرح الله لها صدره ، فأقبل بعقيدة راسخة ونفس راضية ، وأخذ على عاتقه القيام بهذا العمل الخطير مستلهماً القوة من وحى الرسالة النبوية الكريمة حتى هيأ الله له السبيل ، وتم على يديه ذلك العمل الأدبى الإسلامى الكبير ، ذلك التراث الخالد الذى مازال مطوياً إلى اليوم لم ينتفع به المسلمون ، ولم تزدن به المكتبات العربية .

---

(١) طبعت أخيرا فى يونيو ١٩٦٣ دار العروبة .

(١) راجع أصداء الدين ص ٢٣٣ فهناك عرض لهذه الأرجوزة (أسعد الدين الجيزاوى).

وقد فرح الخطيب باستجابة محرم، وأكبر فيه هذا الروح السامى، ورأى من باب التقدير أن يجعل «إهداء» الجزء الثالث عشر سنة ١٣٥٤ هـ من مجلة الحديقة إليه إذ قال:

«... لقد كنت فى مثل هذا اليوم من العام الماضى أدور بعينى فى آفاق ممالك الضاد متسائلا عن الشاعر الذى ادخره الله لتدوين عظمة الإسلام والإشادة بحقائقه، فى ديوان مجد تتألق به مكتبة الأدب العربى، وقد شاءت الأقدار أن تكون هذه المأثرة لشاعر مصر الأستاذ أحمد محرم، فشرح الله صدره للنهوض بأعباء هذا العمل العظيم».

وإذ كنت قد أهديت الجزء الماضى (١) من الحديقة لصاحب هذه المأثرة، وكان اسمه لا يزال محجوباً عنا وراء سجف الغيب، فإن ذلك لا يمنعنى أن أهدى إليه هذا الجزء وقد عرفه الناس، فعرفوا به الأيد والقوة، وباتوا يدعون الله له بطول العمر، ليتمتعوا معه وأحفادهم بترتيل «ديوان مجد الإسلام» إلى يوم الدين.

(١) جاء فى إهداء الجزء الثانى عشر من الحديقة «ولقد كنت حريصا على أن يكون هذا العمل المجيد من نصيب أمير الشعر شوقى، وسعينا لذلك أكثر من مرة ولكننا أردنا وأراد الله غير الذى أردنا لأنه ادخر هذه المأثرة الكبرى لشاعر آخر لايزال اسمه محجوبا عنا وراء سجف الغيب» ، كان شوقى قد انتقل إلى رحمة الله تعالى. وهذا الإهداء يبين لنا مدى اهتمام السيد الخطيب بتنفيذ الفكرة.

ولما ذاع نبأ الإلياذة، وإقدام محرم على إنشائها، ثم نشر القصيدة الأولى منها (١) ... استبشر المسلمون فى مصر، وفى العالم الإسلامى، وانهالت رسائل التهانى على الشاعر من مصر ومن العراق ومن الهند وغيرها.

ثم تلقت جريدة الفتح من مجلة «الضياء» الهندية أن شاعر الهند الإسلامى «حفيظ» قد شرع فى نظم «شاهنامة إسلامية» باللغة الأوردية، يسجل فيها مفاخر الإسلام، ثم أشادت الجريدة بما أذاعته الفتح من بشرى قيام شاعر مصر الكبير أحمد محرم بإنشاء إلياذة إسلامية.

وكان لهذا المقال أثره فى نفس محرم، وتشجيعه على المضى فى هذا العمل العظيم فأنشأ قصيدة يحيى فيها شاعر الهند الإسلامى ويتعهد بإتمام مشروعه ومنها (٢):

صوت تردد فى الآفاق يهتف بى
لا سرنى هاتف إن لم يجب أدبى
أجل، هو الخطب إن أمسى أوائلنا
فى الهالكين، وهم منا على كثب

* * *

للشاعر (٣) الفارسى العذر إن نزعت
به النوازع تغنى موطن الكذب

(١) كان ذلك فى سنة ١٩٣٥.
(٢) الحديقة ١٣ ص ٤٧.
(٣) يقصد الفردوسى فى الشاهنامة.

أثنى على قومه يبقى لهم شرفا
يرجو عمارته بالمنطق الخرب
إن الألى عصفوا (بالنوبهار) هم [1]
كانوا الغياث لهم من عاصف اللهب

* * *

قال الوشاة : وفى للفرس شاعرهم
وما وفى (شاعر الإسلام والعرب)
مهلا ، فإنى لقومى إن هم التمسوا
مستودع الودمن نفسى لذو حدب
لو لم يطعنى بيانى حين أنصرهم
نصرتهم ببيان من دم سرب

إلخ ...

وسار محرم فى نظم الإلياذة حتى أكملها أربعة أجزاء فى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام . وظن أن الهيئات الإسلامية ودور النشر ستتلقفها وتسارع إلى نشرها ، وإذاعتها ، وملء المكتبات الإسلامية بها . وأنه سيتمكن بذلك من إتمام مشروعه فى نظم الأمجاد الإسلامية ، وتسجيل عهد الراشدين والأمويين ... إلى عصرنا الحديث غير أنه صدم فى أول الطريق ، إذ طرق أبواب الأزهر ، ووزارة المعارف ، والقصر ، فلم يجدعونا . وأحجمت دور النشر بسبب ظروف الحرب وغلاء الورق ... وقد سجلت جريدة منبر الشرق تقاعد عظماء الإسلام عن مديد المعونة لهذا المشروع ولكن فى أسلوب لاذع [1] :

لا تعجبوا بما يكابد شاعر
بالعبقرية والحجا موصـــوف
أربى على (هومير) فى إليـاذة
فيها قلائد للنهى وشـــنوف
نسجت بأمجاد العروبة ما ادعى
ومفاخر الإسلام ، وهى صنوف
مرحى سراة المسلمين لبخلكم
فى (طبعها) بالمـال ، وهو ألوف
ما كان أكرمكم لوان وراءها
حسناء تحمل وردها وتطوف !!

وظلت الإليـاذة مطوية ضمن غيرها من إنتاج محرم فى ربع قرن [2] من الزمان ، وإن تعجب ، فإنه إلى يومنا هذا لم يكتب لهذه الإليـاذة أن تطبع وتنشر وأخيراً تفضلت دار الكتب بأخذ صورة فوتوغرافية لها موجودة بدار الكتب بقسم المخطوطات المصورة لمن يريد الاطلاع عليها [3] .

سعد الدين الجيزاوى

---

(١) يشير إلى الفتح الإسلامى وإخماد نار المجوس بالفرس .

(١) عن جريدة الصدق العدد ٤٤٤ فى ٦ يولية سنة ١٩٤٢

(٢) ١٩٢٠ - ١٩٤٠ حيث توفى الشاعر .

(٣) برقم (٢٩٤٦٨ ب) وكان ذلك عام ١٩٥٢ بعد جهود بذلتها مع المرحوم نعيم ودار الكتب والآن كبرت الصورة وصارت الأجزاء فى حجم متوسط واضح .

وأخيراً طبعت هذه الإلياذة ونشرت فى يونية سنة ١٩٦٣ (دار العروبة) .

الازهر وقضايانا القومية

للأستاذ تحسين عبد الحي

تجتاز الأمة العربية - فى مرحلتها النضالية الحالية - أعظم وأدق مرحلة فى تاريخها الحديث - فإلى جانب نضالها الطويل المستمر ضد الاستعمار نراها اليوم تتحرك تجاه نضال أعنف وأشد - هو نضال جماهيرنا من المحيط إلى الخليج من نفسها ...

ولا شك أن مرحلة النضال المعنوى القائمة فى أماكن متفرقة من وطننا - والتى تحكمها تيارات كثيرة - وافدة - تحتاج منا إلى العمل السريع المباشر - حتى لا تضيع أمتنا فى متاهات التناقض الذى يسود عالم اليوم .

إننا حملة رسالة - وأصحاب قيم ومثل عليا . وقيمنا تنبع من أننا أمة حملة رسالة المحبة والسلام والعدل والمساواة فى وقت كانت تصطرع فيه أكبر امبراطوريتين فى العالم هما امبراطوريتا الفرس والرومان - ومن خلال تمسكنا وإيماننا برسالتنا - استطعنا - أن نقدم إلى العالم وقتها أطول فترة من السلام القائم على العدل فى التاريخ ...

واليوم - يجتاح عالمنا - نفس الظروف - وإن اختلفت المسميات فمن الشرق تهب ريح المادية ... ومن الغرب تهدد أمواج السيطرة والتسلط - المدعمة بالتحلل الأخلاقى والمعنوى - محاولة ابتلاع كل من يقف فى طريقها ...

ووضعت النظريات - وفسرت المفاهيم - على أسس نفعية مصلحية - ولا نعتقد أن هناك من يختلف معنا على أن كلا من النظامين الماركسى والرأسمالى قد فشلا فشلا ذريعاً فى ضمان الحياة الروحية وصيانتها لإنسان اليوم ...

ولا أظننى مغالياً إذا ما ذكرت أن التاريخ يحملنا - مرة أخرى - مسئولية التوفيق بين المطالب المادية الذاتية للفرد وبين قيمه ومثله العليا - حتى يستطيع أن يحيا حياة إنسانية روحية .

ولقد وحد العرب صفوفهم وقضوا على الفتنة فيما بينهم فحاربوا المرتدين منهم - وأخضعوا بؤرة الفساد فى الجزيرة العربية - وهم اليهود - وذلك قبل أن يبدءوا العمل على نشر ما آمنوا به على غيرهم من الناس .

وكان الإيمان والوحدة - والقضاء على الدخيل - السبب الرئيسى فى مساعدتهم على نشر مبادئهم فى كل مكان ...

وكان الإيمان بمبادئ الإسلام كدين وحياة هو المنطلق الأساسي لكل منجزاتهم في مختلف الميادين ...

وأمتنا العربية - أقرب ما تكون في مرحلة تتشابه فيها مع مرحلة الكفاح ضد يهود الجزيرة العربية - وفترة حروب الردة .

وسوف يكون في مقدورها بعد الانتهاء من ذلك أن تكون مهيئة - فكرياً - وحضارياً لتقديم تجربتها الحيوية الجديدة كنموذج لما ينبغي أن تكون عليه حياة إنسان القرن العشرين ...

والفرق الوحيد - الخطير - بين أمتنا في حاضرها وبينها في ماضيها - هو ضعف عنصر الإيمان بالدين والقيم والمثل العليا الإسلامية .

ومن هنا تأتي مسئوليات الأزهر التاريخية كأقدم وأكبر جامعة إسلامية في العالم - تجاه قضايانا القومية ...

ولا شك أن مفهوم قضايانا القومية - يجب ألا ينحصر - إقليميا في الحدود الطبيعية لوطننا الممتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وبرغم - أن المجهودات البناءة - يمكن أن توجه وبالدرجة الأولى إلى ما بين تلك الحدود ... إلا أن طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية - التي يعيشها عالم اليوم تتشعب بصورة تلقائية في اتجاهات متعددة - تؤثر كل منها في الأخرى وكثيراً ما تؤثر الأعمال الخارجية - بنسب متفاوتة - في تدعيم أو خلخلة الأوضاع الداخلية الإقليمية ...

وقياساً على هذا المعنى فإنه - ما دمنا نحن متفقين على أن القضية الفلسطينية مثلا - قضية من أهم قضايانا القومية وأخطرها - والتي يجب أن نعد لها إعداداً علمياً منظما في مختلف المجالات - داخلياً وخارجياً ... وإذا كنا متفقين كذلك على أن وضع اليهود في قلب وطننا العربي على هذه الصورة - بغض النظر - عن ظروف وجوده وملابساته إنما يشكل بالنسبة لنا - خطراً - متحركا يستطيع أن يؤثر مستقبلا في وجودنا نفسه . كما كان يمثل خطراً على - الإسلام في مراحل الدعوة الأولى - في الجزيرة العربية ...

آمن المسلمون - وقتذاك - أن القضاء عليه هو واجب من صميم واجبات الجهاد في سبيل الله ... فإن من الأجدر بنا الآن ألا نعطي - وجود اليهود - في قلب وطننا - وفي أرض فلسطين المقدسة طابع العداء القومي العربي - فقط - وإنما يجب أن نؤمن بذلك كقضية قومية - ودينية - يكون لها نفس الطابع والمستوى الذي نظر به المسلمون الأوائل إليها ... ونود أن نؤكد أن مجرد تطبيق هذه النظرة من الوجهة الدينية على اليهود - برغم تأثيره المباشر في الداخل - سوف يكون ذا تأثير بعيد المدى في الخارج أيضاً .

والخارج الذي أعنيه ... هو الشعوب الإسلامية والمسلمون في جميع أنحاء العالم .

ففى نطاق العمل الداخلى ... يستطيع الأزهر أن يتزعم الدعوة إلى إقامة - أسبوع - من كل عام يطلق عليه - أسبوع فلسطين - وذلك بالتعاون مع وزارة الأوقاف ووزارة الثقافة والإرشاد القومى ... ودور الأزهر فى ذلك يكون دور القيادة الفكرية - وعلى هاتين الأخيرتين تنفيذ ذلك بوسائلهما الخاصة والعامة وكل منهما تخاطب جمهورها الذى تتعامل معه ... بالأجهزة التابعة لها ...

وفى هذا الأسبوع المقترح - تدرس القضية الفلسطينية من وجهة النظر القومية والدينية فى المساجــــد - وفى جميع قرى الجمهورية العربية المتحدة - ويخطب لها فى جمعتين - الجمعة الأولى فى بدايته - والجمعة الثانية فى نهايته ... ومن خلال ذلك سوف يتفهم أولئك الذين ما زالوا لا يعرفون شيئاً عن القضية الفلسطينية - فى أعماق الريف - الكثير عنها - وفى مجال العمل الخارجى . يستطيع الإيمان بوجهة النظر الدينيـة الإسلامية فى اليهود - وفى القضية الفلسطينية - أن يقف حجر عثر فى سبيل الدعاية الصهيونية - اليهودية فى أماكن متفرقة من العـــالم . . وبخاصة فى آسيا وإفريقيا .

إن اليهود الصهاينة - يعتمدون الآن - على بعض الدول الإفريقية مثلا - فى كسر حلقة الحصار العربى - الذى يكاد يودى بها اقتصادياً وذلك عن طريق منظماتهم المتعددة فى القـــارة . . والذين ينتظمون فى سلك الجمعيات اليهودية الآن - كل مؤهلاتهم فى الانضمام إليها - هو أنهم يهود . . أى الطابع الدينى - أولا - فلماذا لا نواجههم بنفس سلاحهم ولنا القدرة المادية . . والغلبة البشرية - وذلك لكثرة المسلمين فى إفريقيا .

إن عدد المسلمين فى إفريقيا يتراوح اليوم بين ٨٥ ، ٩٥ مليوناً من المسلمين أى بنسبة ٣٤ أو ٣٥ ٪ تلك النسبة التى تشكل على وجه التقريب حوالى ثلث سكان القارة .

والدول الإسلامية التى يتخذ فيها الإسلام طابع الأغلبية المطلقة والذى يصبح فيها تلقائيا - الدين القومى . . كثيرة تبلغ - اثنتى عشرة دولة مستقلة فى إفريقيا الشمالية - هى الدول العربية الست ثم ، دول الصحراء والساحل مثل - موريتانيا ، ومالى ، والنيجر والصومال ، والسنغال ، وغينيا - ومن الملاحظ أنها جميعاً عدا الصومال - تمثل كتلة واحدة متصلة - مشتركة الحدود .

والصومال - تنفرد بميزة خاصة وهى أن ٩٩ ٪ من سكانها مسلمون - وفى نيجريا الشمالية - حوالى ٨٠ ٪ مسلمون ويبلغ المسلمون نصف سكان أثيوبيا - وفى شرق إفريقيا - وفى موزمبيق ما يقرب من ثلاثة ملايين مسلم .

فإذا استطاع الأزهر - بما يمثله فى أذهان مسلمى العالم - وفى إفريقيا بنوع خاص - أن يقود الدعوة المضادة ضد اليهود فى فلسطين

دينيا .. عند مسلمي إفريقيا - فسوف يكون لذلك تأثيره المباشر في مجال القضاء على النفوذ اليهودي الإسرائيلي - في أجزاء متعددة من القارة - مما يدعم قضيتنا - قومياً - وعالمياً . وذلك تمهيداً للقضاء عليها - والجهاد ضدها - في سبيل دعم الإسلام والقومية العربية .

وكما نطالب - بتكتيل قوى الإسلام والمسلمين في الجهاد ضد اليهود في فلسطين - نطالب بألا يترك - أولئك المسلمون - نهباً لنشاط الإرساليات التبشيرية - التي ثبت للجميع بطريقة لا يتطرق إليها الشك - أنها لا تخدم أغراضا - دينية إنسانية - بقدر ما تخدم أغراضا اقتصادية احتكارية - تبغى السيطرة على أرزاق المسلمين الإفريقيين ومقدراتهم - في الوقت الذي يبارك فيه كثير من هذه الإرساليات التبشيرية - التفرقة العنصرية - في إفريقيا - وتدعمها . بل تسخر المسلمين الإفريقيين في إنشاء الكنائس الضخمة والأحياء السكنية . .

ونشاط هذه الإرساليات في بلد - مثل الصومال - واضح أشد الوضوح فهي تحاول - نشر المسيحية بين المسلمين من أهالي البلاد - حيث لا توجد وثنية ولا ديانات أخرى - مستغلة في ذلك فقر الشعب وحاجته إلى الخدمات العامة والرعاية الصحية - وبالرغم من ذلك فلم يتح لها إلا نجاح محدود ! !

وتنتشر في الصومال المسلم - الآن ، الإرساليات البروتستانتية الأمريكية ... والتي بمهاجمة الإسلام وعقائده علنا وكذلك اللغة العربية وثقافتها - أصبحت هذه الإرساليات مركزاً للدعوة الاستعمارية السياسية التي تهدف إلى كتابة اللغة الصومالية بحروف لاتينية .

وقد اتضح أن جميع الإرساليات التبشيرية الأمريكية التي تزاول نشاطها في الصومال تخضع لإشراف سفير الولايات المتحدة في أديس أبابا . إنها تعتبر نقطة ارتكاز للولايات المتحدة في قلب قارة إفريقيا ، وإن سفيرها في أديس أبابا - كان قسيسا من رجال الإرساليات التبشيرية . إننا لسنا ضد المسيحية .. ولكننا ضد أولئك الذين يستخدمونها وسيلة لخدمة المصالح الاستعمارية .

ومن ثم وجب علينا - وعلى الأزهر بالذات - أن يدخل المعارك الكثيرة المتعددة - وبقدم راسخة - وبأسلوب مرن حتى يستطيع أن يوفي بالتزاماته القومية ، تلك الالتزامات التي تتلخص في تكتيل المسلمين وتقويتهم في جميع أنحاء العالم إزاء اليهود في فلسطين كخطر يهدد الإســـلام في أرض مقدسة له ... ويدعم الإسلام والمسلمين بالفكر الديني المستنير ليواجهوا - حركات الالتفات الجديدة حول القيم والمثل العليا الإسلامية ... والأزهر في هذا المجال إنما يخدم قضايا الدين الإسلامي والحرية ، والسلام ، والإنسان في العالم .

تحسين عبد الحي

عبد القاهر الجرجاني وآراؤه في الشعر والشعراء

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ٢ —

والبحتري في بعض الأحيان من الشعر ما يشبه السحر ، كقوله :

وسأستقل لك الدموع صبابة
ولو ان دجلة لى عليك دموع [١]

وهو من أجل ذلك يكثر من الاستشهاد بشعره ، والوقوف عنده لتحليله ، وبيان سر جماله ، فتراه مثلا عند ما أراد أن يبين أثر (التمثيل) في النفس ، وأنه يحرك القلوب ويملك أعنتها ، أورد قول البحتري :

دان على أيدي العفاة ، وشاسع
عن كل ند في الورى وضريب
كالبدر : أفرط في العلو ، وضوءه
للعصبة السارين جد قريب

وشرح ذلك قائلا : فكر في حالك وحال المعنى معك ، وأنت في البيت الأول ، لم تنته إلى الثاني ، ولم تتدبر نصرته إياه ، وتمثيله له فيما يملى على الإنسان عيناه ، ويؤدى إليه ناظراه ، ثم قسهما على الحال ، وقد وقفت عليه ، وتأملت طرفيه ، فإنك تعلم بعد ما بين حالتيك ، وشدة تفاوتهما في تمكن المعنى لديك ، وتحبيبه إليك ، ونبله في نفسك ، وتوفيره لأنسك [١] .

ويقف معجبا بقوله :

إذا ما نهى الناهي ؛ فلج بي الهوى
أصاخت إلى الواشي : فلج بها الهجر [٢]

وقوله :

إذا احتربت يوما ؛ ففاضت دماؤها
تذكرت القربى ؛ ففاضت دموعها [٣]

ويحلل قوله :

إذا بعدت أبلت ، وإن قربت شفت
فهجرانها يبلى ، ولقيانها يشفى

إذ يذكر أنه قد علم أن المعنى : إذا بعدت عنى أبلتني ، وإن قربت منى شفتنى ؛ إلا أنك تجد الشعر يأبى ذكر ذلك ويوجب اطراحه وذلك لأنه أراد أن يجعل البلى كأنه واجب في بعادها ان يوجبه ويجلبه ، وكأنه كالطبيعة فيه ، وكذلك حال الشفاء مع القرب ، حتى

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٢١ .

(١) أسرار البلاغة ص ٩٨

(٢) و (٣) دلائل الإعجاز ص ٧٤ .

كأنه قال : أتدرى ما بعادها ؟ هو الداء المضنى . وما قربها ؟ هو الشفاء والبرء من كل داء ، ولا سبيل لك إلى هذه اللطيفة ، وهذه النكتة إلا بحذف المفعول البتة ، فاعرفه [1] .

ويجد البحترى يصل إلى معان نادرة ، عند ما يحذف أو يذكر ؛ فيرى من النادر اللطيف الذى ينطوى على معنى دقيق ، وفائدة جليلة قوله :

قد طلبنا . فلم نجد لك فى السؤ
دد ، والجد ، والمكارم مثلا

فإن المعنى قد طلبنا لك مثلا ، ثم حذف ، لأن ذكره فى الثانى يدل عليه ؛ ثم إن فى المجىء به كذلك من الحسن والمزية والروعة ما لا يخفى ، ولو أنه قال : طلبنا لك فى السؤدد والجد والمكارم مثلا ، فلم نجده ، لم تر من هذا الحسن الذى تراه شيئا [2] .

ويجد من الجناس الجيد قول البحترى :

يعشى عن المجد الغبى ، ولن ترى
فى سؤدد أربا لغير أريب [3]

ويفسر عبد القاهر رأى البحترى فى جوهر الشعر ، ويوجه قوله :

كلفتمونا حدود منطقكم
فى الشعر ، يكفى عن صدقه كذبه

فيرى أن البحترى أراد كلفتمونا أن تجرى مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا بالقول المحقق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويلجىء إلى موجبه ، مع أن الشعر يكفى فيه التخييل ، والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل [1] .

وإذا كان المتنبى يحتاج فى بعض شعره إلى التريث ليفهم ، فكذلك للبحترى بعض شعر من ذلك النوع ، كقوله :

ضحوك إلى الأبطال وهو يروعهم
وللسيف حد حين يسطو ورونق [2]

ولم يورد عبد القاهر شعراً معقداً للبحترى تعقيد شعر المتنبى .

وعقد عبد القاهر بعض الموازنات بين البحترى وأبى تمام حيناً ، وبينه وبين ابن الرومى حيناً آخر .

وهو ممن يرون تقديم البحترى على أبى تمام ، وهو لذلك ينقل عن الآمدى مايفصح عن هذا الرأى ، كما فعل عند ما روى قول البحترى :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورق
وحاك ما حاك من وشى وديباج

وأورد قول الآمدى : صوغ الغوث وحوكه النبات ليس باستعارة ، ولكنه حقيقة ، ولذلك لا يقال : كأنه صائغ ؛ وكذلك

(1) المرجع السابق ص ١٢٥ .
(2) دلائل الإعجاز ص ١٢٩ .
(3) أسرار البلاغة ص ٨ .

(1) المرجع السابق ص ٢٣٠ .
(2) المرجع السابق ص ١١٩ .

لا يقال : كأنه حائك ؛ على أن لفظة (حائك خاصة فى غاية الركالة ، إذا أخرج على ما أخرجه عليه أبو تمام فى قوله :

إذا الغيث غادى نسجه خلت أنه
مضت حقب حرس له وهو حائك[1]

وهذا قبيح جداً . والذى قاله البحترى : (حاك ما حاك) حسن مستعمل ، فانظر ما بين الكلامين ، لتعلم ما بين الرجلين[2] .

ينقل عبد القاهر ذلك مقراً له ؛ كما يوازن بينهما حين يعرض قول أبى تمام :

قريب الندى نائى المحل كأنه
هلال قريب النور ، ناء منازله

ويرى تنكير كلمة (هلال) مستكرها نابيا يتظلم منه المعنى وينكره ، ويرى سبب ذلك يعود إلى أنه يوهم بظاهره أن ههنا أهلة ليس لها هذا الحكم ، أعنى أنه يتناءى مكانه ، ويدنو نوره ، وذلك محال ؛ لأن وصف النكرة بصفة يقيد هذه النكرة ، ويخرج ما لا يتصف بهذه الصفة ؛ ولذلك كان تنكير (هلال) هنا فى غير موضعه ، وكان الذى يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفا ، على حده فى بيت البحترى .

كالبدر أفرط فى العلو ، وضوءه
للعصبة السارين جد قريب[3]

ولكن حب عبد القاهر للبحترى لم يحل بينه وبين أن يفضل عليه ابن الرومى فى معنى تواردا عليه معا ، حين شبه البحترى الليل بالمداد ، فقال :

على باب « قنسرين » والليل لاطخ
جوانبه من ظلمة بمداد

فقال : إن هذا المعنى ضعيف ، لأن المداد ليس من الأشياء التى لا مزيد عليها فى السواد ، كيف ورب مداد فاقد اللون . والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى أن يكون مثلا ؛ ولذلك فضل عليه عبد القاهر قول ابن الرومى :

حبر أبى حفص لعاب الليل
يسيل للإخوان أى سيل

فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل ..

ومع ذلك يلتمس العذر للبحترى ؛ فيرى أن البحترى كأنه نظر إلى قول العامة فى الشئ الأسود : هو كالنفس ، ثم تركه للقافية[1] .

وكذلك يروى أيضا نقد الآمدى للبحترى فى قوله :

فكأن مجلسه المحجب محفل
وكأن خلوته الخفية مشهد

من أن المكان لا يسمى مجلسا إلا وفيه قوم[2] .

(١) الحرس (بفتح الحاء) : الدهر .
(٢) أسرار البلاغة ص ٣٢٩
(٣) أسرار البلاغة ص ٢٧٢ .

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٠٠ .

هذا وعبد القاهر معجب بوصف البحترى البلاغة ، إذ يقول :

في نظام من البلاغة ما شـ
ـك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا
حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ
ـلقه عوده على المستعيد
حجج تخرس الألد بألفا
ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافى
هجنت شعر جرول (١) ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا
وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب ، فأدركـ
ـن به غاية المرام البعيد (٢)

وإعجابه بهذا الوصف يدل على اتفاقه مع البحترى في نظرته إلى البلاغة .

ويستشهد عبد القاهر بشعر أبي تمام ، كما استشهد بشعر المتنبى والبحترى ؛ فى باب الاستعارة يستشهد بقوله :

وقد نثرتهم روعة ثم أحدقوا
به ، مثلما ألفت عقدا منظما (٣)

(١) جرول : هو الحطيئة .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٩٧ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٤٢

وعندما تحدث عن أثر التمثيل فى النفس أورد شعر البحترى الذى سبق أن ذكرناه ، وأورد شعر أبى تمام قائلا : تأمل بيت أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود

مقطوعا عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرف قيمته ، على وضوح معناه وحسن مزيته ، ثم أتبعه إياه :

لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يعرف طيب عرف العود

وانظر هل نشر المعنى تمام حلته ، وأظهر المكنون من حسنه وزينته ، وعطرك بعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس ونبله ، واستحق التقديم كله ، إلا بالبيت الأخير ، وما فيه من التمثيل والتصوير (١) .

وكذلك يستشهد بقوله :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق
لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
فإنى رأيت الشمس زيدت محبة
إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد (٢)

إلى غير ذلك من أمثلة يسوقها فى غير موضع .

(١) أسرار البلاغة ص ١٠٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٦ .

ويقف كذلك عند شعره يشرحه ويحلله ، فعند ما عرض قوله :

وغيرى يأكل المعروف سحتا
وتشحب (١) عنده بيض الأيادى

قال : لم يرد أبو تمام أن يعرض مثلا بشاعر سواه ، بل ليس إلا أنه نفى عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ، ويلوم (٢).

ولكن عبد القاهر يرى أنه قد وقع فى ضرب من التهوس عندما قال : « وأنت أنزر من لا شىء فى العدد » (٣).

ويرى أنه قد جنى عليه التهاون ، وفساد الذوق ، وحتى صار ما ينعى عليه منه أبلغ شىء فى بسط لسان القادح فيه ، والمنكر لفضله ، وأخصر حجة للمتعصب عليه ، وذلك أنه لم يبال فى كثير من مخاطبات الممدوح بتحسين ظاهر اللفظ ، كقوله :

وإذا ما أردت كنت رشاء
وإذا ما أردت كنت قليبا (٤)

فصك وجه الممدوح ، كما ترى ، بأنه رشاء وقليب ، ولم يحتشم أن قال :

ما زال يهذى بالمكارم والعلا
حتى ظننا أنه محموم

فجعله يهذى ، وجعل عليه الحمى ، وظن أنه إذا حصل له المبالغة فى إثبات المكارم له ، وجعلها مستبدة بأفكاره وخواطره ، حتى لا يصدر عنه غيرها ، فلا ضير أن يتلقاه بمثل هذا الخطاب الجافى ، والمدح المتنافى (١).

ويسجل له التعقيد فى قوله :

يدى لمن شاء رهن لم يذق جرعا
من راحتيك درى ما الصاب والعسل (٢)

ويراه يركب الوعر ، ويسلك المسالك المجهولة ، عندما قال :

سيف الإمام الذى سمته هيبته
لما تخرم أهل الأرض مخترما (٣)

قرت « بقران » عين الدين ، وانتشرت
بالأشترين عيون الشرك ، فاصطلما (٤)

وعندما قال :

ذهبت بمذهبه السماحة ، والتوت
فيه الظنون : أمذهب أم مذهب (٥)

(البحث بقية)

الدكتور أحمد أحمد بدوى

---

(١) شحب لونه : تغير .
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٠٧ .
(٣) أسرار البلاغة ص ٩٥ .
(٤) الرشاء : حبل الدلو . والقليب : البئر .

(١) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .
(٢) دلائل الإعجاز ص ٦٦ . والصاب : شجر مر .
(٣) تخرمهم : استأصلهم .
(٤) قران : مدينة . والأشتران : مالك ابن الحارث وابنه . واصطلمه : استأصله .
(٥) دلائل الإعجاز ص ٢٠٢ .

الثورة الثقافية في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

تشهد حركة التاريخ وما سجلت صفحاته من وقائع وأحداث أن دعوة الإسلام التى بشر بها محمد عليه الصلاة والسلام فى القرن السابع الميلادى ، كانت ثورة اجتماعية شاملة بأجلى معانيها ، قصد بها المشرع الحكيم أن يربط الأرض برسالة السماء من طريق صلاح النفس وصلاح المجتمع . فلا غرو أن تقترن الدعوة منذ بدايتها بالنهضة الثقافية ، وأن تكون هذه النهضة إحدى السبل الجوهرية لتحطيم الطغيان ، وإقامة العدل ، وإتاحة فرص الحياة للمحرومين ، وإرساء مبادىء الحق والمساواة بين العالمين .

ذلك أن نشر الثقافة الصحيحة والمعرفة الشاملة هو الدعامة القوية التى يستند إليها الإيمان الحق بالإسلام ، وهو السلاح الذى يفل أباطيل المضللين ويكشف زيف المرجفين ويمهد السبيل لخلق واقع جديد للمجتمع يسير فى هداه حتى يبلغ غايته السامية فى توحيد أفراده وضمان الخير والعزة لهم .

لقد وعت رسالة الإسلام الدور الضخم الذى يؤديه العلم فى بناء الفرد وهو وحدة الأسرة التى تشكل خلية المجتمع ، وأدركت ما يفتحه العلم من آفاق رحيبة نحو مستقبل كريم للإنسان ، وما يفجره من طاقات خلاقة فى الأفراد والجماعات ، ففتحت المغالق والسدود التى كانت تقف حائلا فى سبيل العلم ومهدت له الطريق ليتسلل إلى كل عقل كى يتهيأ لاستقبال الدعوة الإسلامية والإيمان بها ، فإذا تمت له نعمة الهداية أصبح عضواً نافعاً فى مجتمعه واستطاع أن يشارك فى العمل الجماعى لتطوير هذا المجتمع الذى يسعى بدوره إلى تطوير المجتمعات الأخرى لأنه يؤمن أن العالم وحدة واحدة وأن رسالة الإسلام رسالة إنسانية شاملة .

تلك هى المقاصد الرئيسية التى توخاها الإسلام فى ثورته الثقافية ، فالعلم الحق هو الطريق القويم إلى معرفة الله والإيمان به ، وهو سبيل الدولة حكوما وشعبا إلى الرفعة والعزة والرخاء ، وهو أمل البشرية كافة فى تحررها وتقدمها ووحدتها ، ومن ثم كان العلم ـ وهو أكبر روافد الثقافة ـ حجر الزاوية فى الدعوة الإسلامية .

والشواهد على قيام الدعوة الإسلامية على أساس من العلم والثقافة لا تقع تحت حصر ، وحسبنا أن نشير هنا إلى أن آية الرسول الأولى ومعجزته الخالدة هى « القرآن » الذى حوى من العلم كل شئ « كتاب فصلت آياته » وأن أول ما أنزل من آيات البيانات على رسوله الكريم قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم » .

ومن ثم فإن العلم هو دعامة أساسية فى بناء العقيدة الإسلامية ، وهو نقطة انطلاقها إلى آفاق العالم الفسيحة لتصبح حضارة إنسانية خصبة تغنى البشرية وتهديها سواء السبيل .

ولقد تواتر ذكر العلم فى القرآن الكريم تنبيها للأذهان وحثا لها على التفكير ، فن خلال التأمل فى خلق السموات والأرض وإعمال الفكر فى أسرار الوجود وما تدل عليه من وجود الله يولد الإيمان الحق ، ويثبت فى النفوس معناه وتزدهر حكمته .

رسالة الإسلام عقيدة وحضارة .

ولا عجب أن يبدأ الإسلام بالدعوة إلى العلم والإشادة بأصحابه ، إذ كانت الرسالة التى بعث بها محمد رسالة عقيدة وحضارة جاءت لتهدم القيم البالية والمعتقدات الزائفة وترسى على أنقاضها قيما صحيحة ومفاهيم رشيدة .

وكانت الخطوة الأولى فى سبيل نشر هذه الرسالة تحرير الجزيرة العربية وبعثها من ظلمات الضلال والأوهام إلى نور الحقائق الدينية والدنيوية ، إذ كان العرب فى جاهليتهم بمعزل عن التيار الحضارى السائد فى بعض مناطق العالم فى ذلك الحين بحكم بيئتهم الصحراوية المغلقة ، وانعدام السبيل إلى موارد الثقافة البعيدة ، فضلا عن طبيعة الحياة الفطرية وما تتسم به من عدم الاستقرار بحثا عن أسباب العيش .

ولئن أثبت التاريخ أن العرب قبل الإسلام كانوا على صلات تجارية بدولتى الفرس والروم المتاخمتين الجزيرة العربية ، فمن الثابت كذلك أن حضارة هذه الشعوب كانت تمر بمرحلة غروب واحتضار كما يطلق عليها فى المصطلح الحديث ، ومن ثم كانت عاجزة عن النهوض العلمى بأهلها بل بالغرباء من أبناء الشعوب المجاورة .

وهكذا خيمت ضلالات الجهالة على العرب قبل الإسلام حتى كان المتعلمون منهم قلة بلغت من الندرة حداً لا يقاس عليه ، وكان حظها من التعليم نزراً يسيراً لا يتجاوز الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة ، فهو لا يتعدى القشور .

أما ما عرف عن العرب فى عصر الجاهلية من بلاغة القـــول فى خطبهم ومواعظهم

وأشعارهم التى كانوا يرتجلونها فى المواسم والأسواق ، فتلك موهبة فطرية لا ترقى بهم إلى مصاف العلم ، وليس بوسعها — وحدها أن تشكل ثقافة عميقة تنبع منها جداول الفكر والحضارة .

التدوين عماد النهضة العلمية :

ذلك أن عماد العلم والثقافة هو التدوين ، وكان قاصراً على رجال معدودين من قريش وردت أسماؤهم فى التاريخ على سبيل الحصر ، منهم الخلفاء الراشدون : عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى ابن أبى طالب وأربع عشرة رجلا غيرهم . ولقد أصبح هؤلاء الرجال بعد إسلامهم أوائل الرواد المسلمين فى النهضة العلمية بإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم فقد اختار منهم كتاب الوحى ، وأوفد طلائعهم لبث الدعوة إلى الدين الجديد .

كرامة العلم والعلماء :

ولقد أقسم الله فى كتابه العزيز بالقلم ، ووصف ذاته سبحانه فى كثير من الآيات بالعليم ، وقال تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « وما يعقلها إلا العالمون » . « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . وكفى بهذا تكريما للعلم وتعظيما للعلماء .

وبوحى من آيات الله البينات ، جاءت الأحاديث الشريفة داعية إلى العلم سبيلا لبلوغ الغايات السامية فى الإسلام وهى هداية الناس وتحقيق الخير والرفاهية لهم فى ظل العقيدة السمحة فحث الرسول الكريم على طلب العلم بقوله : « لا بارك الله فى يوم لا أزداد فيه علماً » : وجاء فى الأثر حثاً على التماس العلم فى مظانه مهما بعدت المناهل وشق السبيل « اطلبوا العلم ولو فى الصين » .

وإذا ذكرنا المدى الشاسع الذى كان يفصل الجزيرة العربية عن الصين ، واعتماد الاتصال بين الشعوب فى ذلك العصر على الوسائل البدائية ، وما يعانيه المسافر ، فضلا عن مخاطر الطريق من فرقة الأهل والأحباب ، والبعد عن موارد الرزق ومواطنه ، أدركنا قيمة العلم الكبرى فى الإسلام .

ويكفى مصداقا لذلك أن نذكر ما عرضه الرسول على أسرى المشركين فى غزوة بدر من إطلاق سراح من يفتدى منهم نفسه بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، فى الحق أنها أشبه بفدية النفس بالنفس كما تقضى قواعد الفداء التى شرعها الإسلام فالجهل عدو النفس البشرية وملقيها فى ركام العدم ، ولكى تبنى دولة عليك أن تحرر النفوس من عبودية الجهالة وتضىء بصيرتها بنور المعرفة فتبعثها من الموت إلى الحياة .

معركة فى سبيل العلم :

وفى سبيل هذه القضية الكبرى ، قضية العلم والثقافة ، شحذ الإسلام أمضى أسلحته لقهر أعدائها وفتح الطريق لأنصارها من أبنائه

المخلصين ، ووجه هؤلاء الأبناء لخوض معركتهم الجليلة فى كل مكان حتى يرتفع بناء الفكر المتحرر المستنير ، وينقشع ضباب الجهل المخيم على بقاع كثيرة فى الأرض ، وكافح هؤلاء الأبطال كفاحا متصلا حتى أصبح منهم القادة الهداة والعلماء المصلحون .

ولا عجب إذن أن يدعو الإسلام إلى العلم والثقافة دعوته إلى الجهاد فى سبيل الله ، وأن يشترط فى داعية الفكر ما يشترطه فى المجاهد من الإيمان بقداسة الرسالة العلمية ، أسلوبا وعملا وغاية ، وأن يجعل منزلته إذا أدركته منيته وهو يزود عن رسالته منزلة الشهداء فى معارك الدفاع عن الإسلام .

وحسبنا فى هذا المقال أن نذكر قول الله عز وجل : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » ، ونذكر قول رسوله عليه السلام : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعلمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة » . وقوله : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة) .

ولقد فضل الإسلام العالم على العابد فى قوله صلى الله عليه وسلم (ساعة عالم متكىء على فراشه ينظر فى علمه خير من عبادة العابد ستين يوما) ، وقوله : (حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة ، وعيادة ألف مريض ، وشهود ألف جنازة) ، قيل : « يارسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ » ، فقال عليه الصلاة والسلام : (وهل ينفع القرآن إلا بالعلم) .

ويقول الرسول فى فضل العلماء (إن مثل العلماء فى الأرض كمثل النجوم يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة) ، (لموت قبيلة خير من موت عالم) .

بل لقد جعل الإسلام مرتبة العلماء تعقب مرتبة الأنبياء وتسبق مرتبة الشهداء ، فقال صلى الله عليه وسلم (يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء) ومن قوله عليه السلام فى فضل العلماء حين يتولون مراكز القيادة وخسارة الأمة بفقدهم : (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العلماء ولكنه يقبض العلم بموت العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) .

التثقيف العلمى فى بيوت الله :

ومن آيات الإسلام فى تكريم العلم والعلماء أن جعل من بيوت الله المقدسة مدارس التعليم والتثقيف ، وتلك أبلغ دلالة على إدراك قيمة العلم فى تثبيت العقيدة

والاتصال بالله ، وهى دلالة كذلك على قدسية المعرفة ودورها الكبير فى تعميق وعى الفرد والجماعة بشئون العقيدة والحياة رفعا لمستوى الإنسان وإعلاء لشأن المجتمع ، وليس أشرف من المسجد مكانا للعلم ، ولا أدعى من الترغيب فى تحصيل المعرفة من جعله منزلا لها .

وغنى عن الذكر ، ما أفاضت به صحف التاريخ من الإشادة بالرسالة العظمى التى اضطلعت بها المساجد فى النهضة العلمية عبر العصور الإسلامية الزاهرة ، إذ كانت مراكز إشعاع للعلوم والحضارة العربية استفاضت فى العصر الوسيط حين بلغت الدولة الإسلامية أقصى مراحل التطور الحضارى ونمت من أصولها شجرة المدنية الحديثة .

ولع المسلمين الأوائل بالبحث العلمى :

كان من أثر حث الإسلام على العلم والدعوة إليه ورفع قيمته حتى جعله فى مرتبة الفرائض أن اتجه المسلمون الأوائل إلى التماسه أنى وجدوا إليه سبيلا ، بل تشربت أرواحهم بحبه حتى أصبح البحث العلمى ديدنا لهم ومصدرا لثقتهم فى أنفسهم وفخارهم بما حصلوه من معارف ، فسعوا إلى مناهل الفكر مهما بعدت المسافة وشقت الطريق فى عالم لم تكن تربطه وسائل المواصلات أو تتاح له سبل المعرفة التى نشهدها فى عالم اليوم .

والعربى بفطرته وبحكم نشأته الصحراوية شغوف بالأسفار مولع بارتياد الآفاق ، وكان يفرغ طاقته هذه فى طلب المنافع الدنيوية العاجلة وإشباع غرائزه بالاتجار فى الأسواق ومبادرة اللذات . فلما جاء الإسلام وجه تلك الطاقة إلى العمل المثمر البناء وانتجاع موارد المعرفة بحثا عن كل طريف ومستحدث فى العلوم والآداب والفلسفات والفنون .

وقد تعمقت أصول الدين الحنيف فى نفوس العرب حتى جد روادهم من الفقهاء والعلماء والفلاسفة فى طلب العلم وتحصيله من كل فج عميق . وكان البحث العلمى فى سبيل تفسير القرآن أكبر غاية يتلمسها المسلم فى دنياه ويأمل بها المثوبة فى أخراه . ونستطيع فى ضوء هذا الفهم أن نتبين مفهوم قول أبى الدرداء : « لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفتحها علىّ إلا رجل ببرك الغماد (موضع بأقصى اليمن كان يضرب به المثل فى البعد وصعوبة الوصول إليه) لرحلت إليه » . ومن أجل هذا الهدف النبيل الذى يبتغيه طالب العلم يقول الشعبى : « لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع » ؟

(للحديث بقية)

حسن فتح الباب

دولة الإسلام والعالم

على الحدود ... بين دولتين وحضارتين

مناطق الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري

للأستاذ فتحي عثمان

— ٢ —

جاء الإسلام يستحث المسلمين بدافع العقيدة والإيمان لحفظ الثغور والرباط في سبيل الله ، فكان هذا تعزيزاً للظروف الجغرافية والسوابق التاريخية ، ذكر ابن كثير في تفسير الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » : « قيل المراد بالمرابطة مرابطة الغزو في نحور العدو ، وحفظ ثغور الإسلام ، وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين » وقد أورد الآثار التي ترغب في ذلك ، فنها حديث النبي الذي رواه البخاري : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها » ، وروى أحمد : (من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزأت عنه رباط سنة) ، (حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها) وقد خلف هذا المعنى الديني أثره على كلمة (الرباط) من الوجهة اللغوية إذ غدت اصطلاحا للجهاد المقدس ، ففي اللسان : « الرباط والمرابطة ملازمة ثغر العدو أو الجهاد وأصله أن يربط فيه الخيل » ، وفي القاموس المحيط : « والمرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغرة ، وكل معد لصاحبه ، فسمي المقام في الثغور رباطا » . ومن هنا لا نجد غريباً في أخبار الرشيد سنة ١٨٧ هـ أنه : « أغزى ابنه القاسم الصائفة ، فوهبه لله وجعله قربانا له ووسيلة ، وولاه العواصم » ورأى الفقهاء المسلمون ألا بأس بسكنى نساء المسلمين وأطفالهم الثغور ، وإن لم يكن بين الثغور وبين أرض العدو أرض للمسلمين ، لأنهم يندبون إلى المقام في الثغور ، وإنما يمكنون من المقام بالنساء والذراري ، فالنساء سكن للرجال ولأنهم إذا أقاموا في ذلك الموضع بالنساء والذراري ، كثروا بمرور الزمان حتى يصير ذلك الموضع مصراً من أمصار المسلمين ، ويتخذ المسلمون وراء ذلك ثغراً بالقرب من العدو .

ولكن هذا إذا كانوا بحيث لو نزلت بهم جلبة للعدو قدروا على دفع شرهم عن أنفسهم وعن ذراريهم ... » - كما ورد

فى شرح السير الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى أملاه السرخسى .

وأعطت الاحتكاكات الأولى للمسلمين مع أطراف الدولة البيزنطية وأحلافها من (روم العرب) نذيراً عن الخطر البيزنطى وخبرات عن دور أطراف الدولة البيزنطية وأحلافها فى نظام الدفاع البيزنطى . وقد كانت المقاومة البيزنطية فى الشمال تبرز أهمية المنطقة خاصة وأنها كانت أقرب مناطق الشام إلى بلاد الروم ، فقد استمرت هجمات الروم على المسلمين من شمالى الشام ومن الجزيرة ، ومن هنا اتخذ المسلمون الشام قاعدة للهجوم على الجزيرة فأرمينية ، ثم اتخذت بعد ذلك قاعدة للغارات الدورية على آسيا الصغرى ، وهكذا نشأ التنظيم الإدارى الحربى الإسلامى .

ويروى عن عمر بن الخطاب أنه زار الشام سنة ١٧ هـ : « فقسم الأرزاق وسمى الشواتى والصوائف ، وسد فروج الشام ومسالحها ، وأخذ يدور بها ، وسمى ذلك فى كل كورة » . كما أنه : « اتخذ فى كل مصر من الأمصار على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين معدة لكون إن كان » ، كما يذكر الطبرى . وكان الأصل أن يعتمد كل إقليم على نفسه فى الدفاع إلا إذا دعت الضرورة « فقامت مسالح الشام ومصر والعراق على ذلك إلى اليوم ، لم تجز أمة إلى أخرى عملها ، إلا أن يقتحموا عليهم بعد كفر منهم ، فيقدموا مسالحهم بعد ذلك ، فاعتدل ذلك سنة ١٧ هـ » ـ كما يروى الطبرى .

ويروى البلاذرى : « وكان المسلمون كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج بها إليه من المسلمين » ، « وولى أبو عبيدة كل كورة فتحها عاملا ، وضم إليه جماعة من المسلمين وشحن النواحى المخوفة » ، « ولما ولى معاوية الشام والجزيرة لعثمان أمره أن ينزل العرب مواضع نائية عن المدن والقرى ، ويأذن لهم فى اعتمال الأرضين التى لا حق فيها لأحد ... وألزم المدن والقرى والمسالح من يقوم بحفظها ويذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم من عماله » ، « فبعث معاوية لحبيب بن مسلمة ألفى رجل أسكنهم قاليقلا ، وأقطعهم بها القطائع وجعلهم مرابطة بها » ، « وبعث معاوية ـ إلى قبرص ـ باثنى عشر ألفاً كلهم أهل ديوان فبنوا بها المساجد ، وبنى بها مدينة ، وقاموا يعطون الأعطية » .

وما كادت أقدام المسلمين تستقر فى الشام حتى سارت أول (مدربة) فى الإسلام ، أى حملة سلكت الدرب إلى بلاد الروم ويروى أن ذلك كان سنة ١٦ هـ ، ويبدو أن كلا من الفريقين قد عمل على تخريب

الحصون الواقعة على الحدود بينهما لخلق شقة حرام بين الدولتين No man's land وكان الروم قد بدأوا ذلك حين انسحابهم من الشام ، وجرى المسلمون على (تشعيث) الحصون أول الأمر ، فلما ثبت أقدامهم وتتابعت حملاتهم شعروا بحاجتهم إلى مراكز عسكرية عند الحدود ، فتطلع المسلمون إلى مد نفوذهم إلى الثغور وتحصينها وشحنها بالجند ، وتعلموا من السوابق التى قدمها أعداؤهم بين أيديهم فى فنون القتال والتحصين والتنظيم وقد سجل ابن النديم فى (بغية الطلب) بوادر هذا التطور الهام ، فذكر أن جند حمص كان الجند المقدم وكانت قنسرين يومئذ ثغرا ، والناس كانوا يجتمعون بالجابية لقبض العطاء وإقامة البعوث من أرض دمشق فى زمن عمر وعثمان ، حتى نقلهم إلى معسكر دابق معاوية بن أبى سفيان لقربه من الثغور ، وكان والى الصائفة وإمام العامة فى أهل دمشق لأن من تقدمهم من أهل حمص وأهل قنسرين وأهل الثغر مقدمة لهم وإلى أهلها يئولون إن كانت لهم جولة من عدوهم ، وبدأت العواصم الخلفية والثغور الأمامية تأخذ مكانتها المتميزة فى نظام الدولة الإسلامية ، لجرى ترتيب (الروابط) ببعضها وإرسال (الطوالع) إلى بعضها الآخر لتعسكر فترة فى تعود ،

وأعانت ولاية معاوية على الجزيرة والشام معا ثم خلافته بعد ذلك على وضع سياسة حربية متكاملة للثغور الشامية والجزرية وقد أقدم المسلمون فى عهد عثمان على فتح أرمينية من جهة ، وتكوين الأسطول وغزو جزر البحر المتوسط من جهة أخرى ، وصار مقياس المد والجزر فى النفوذ الإسلامى أرمينية بالنسبة للجبهة البرية على حدود الروم فى آسيا الصغرى وقبرص بالنسبة للجبهة البحرية فى حوض البحر المتوسط ، واتجه الأمويون إلى غزو الروم فى مقر عاصمتهم القسطنطينية ، كما بدأ المروانيون يتجهون إلى إقامة تحصينات عسكرية ثابتة على الحدود الإسلامية البيزنطية بعد أن كان أسلوب الدفاع المتحرك والحملات الفصلية من صوائف وشواتى هو السائد عند المسلمين من قبل ، وهكذا ظهرت تحصينات المصيصة والمثقب وقطرغاش ومورة وبوقا وبغراس . وبينما كانت (الثغور) الإسلامية تتطور على هذا النحو ، كانت (البنود) البيزنطية ـ وهى وحدات التنظيم الإدارى الحربى عند البيزنطيين التى كان يجمع القائد strategas فى كل منها بين السلطتين المدنية والعسكرية ـ تشهد تطورا آخر من أبرز معالمه قيام بند كيبرايوت البحرى للدفاع عن سواحل آسيا

فى ذمة الله "إمام المسلمين"

للأستاذ عباس طه

كان فقيد الإسلام والمسلمين الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت موسوعة علم ودين وأدب ومعرفة ذخرت بعلوم اللسان والفقه الأكبر والفقه الأصغر، وشتى المعارف الإسلامية.

وكان شأن الفقيد مع أبناء وطنه فى عالم الإسلام والعروبة: يعمل فى صمت أبلغ من كل كلام، وأفصح من كل لسان، وينشئ لأبناء جيله ومعاصريه وأعقابهم من بعدهم مثالا يحتذى، وقبسا يستضاء به إذا عميت السبل على الحكماء وشملت الحيرة قلوب أهل الخبرة، فإذا نعينا فقيد العالم الإسلامى إلى طلاب العلم ورواده وقصاده ونشاده، فإنما ننعى إليهم فقيها عالما كانت البلاد

على الحدود بين دولتين

الصغرى والجزر المحيطة بها لمواجهة الخطر البحرى الإسلامى، كما أنشىء من قبل البند البيزنطى البرى الأرمنى (الأرميناق) لمواجهة الخطر البرى الفارسى، كما حدثت تعديلات فى تنظيم البنود البحرية البيزنطية لمواجهة الهجمات الإسلامية التى هددت العاصمة ذاتها.

وجاء العباسيون فتابعوا سياسة المروانيين فى تحصين الحدود بالجند والمعاقل، يقول ابن العديم فى (بغية الطالب): « اعلم أن دابق كانت مجمعا لعساكر الإسلام فى كل صائفة من زمن معاوية بن أبى سفيان، فكانوا يجتمعون بها، وإذا تكامل العسكر وقبضوا أعطاءهم دخلوا حينئذ من الثغر إلى جهاد العدو، واستمر ذلك فى أيام بنى أمية، لاسيما فى أيام سليمان بن عبد الملك فإنه أقام بدابق سنين وسير أخاه مسلمة لغزو القسطنطينية وكان يمده بالعساكر إلى أن مات سليمان بدابق، وبعد زوال ملك بنى أمية تتبع بنو العباس مدن الثغور وحصونها فعمروها وحصنوها، وغزوا غزوات مذكورة من نواحى حلب، لا سيما أمير المؤمنين الرشيد رحمة الله عليه، فإنه اجتهد فى إقامة الجهاد، وأنفق الأموال الوافرة فى الثغور وأهلها، وكان يقدم حلب ويرتب أمر الغزو منها، وكذلك فعل المأمون بعده ومات غازيا بطرسوس، وجاء المعتصم كذلك وفتح عمورية ».

فتحى عثمان

فى أشد حاجة إلى الإفادة من مناهله العذبة وعقله الخصيب ، وفكره الناضج .

عرفت الفقيد منذ أربعة عقود من السنين ، فوالله ما لمحت فيه نقيصة تجافيها الأخلاق الكريمة ، ولا أدركت فيه انحرافاً عن الجادة الواضحة ، ولا تمرداً على السجايا السليمة . كان الفقيد عالماً متواضعاً ، سكوتاً ولكنه إذا قال بز القائلين بزهم بنظرياته العلمية وبحوثه الخالدة التى ستبقى له فى سجل الصالحات من الأعمال أبقى على الزمن الباقى من الزمن وأخلد فى صحيفة الأيام أثراً وأعطر ذكراً . عرفته فى ساعة النوازل جلداً على الهموم ، تقرع الخطوب صفاته فترتد عنهـا نابية كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها. عرفته صامتا لا يشغل نفسه بالدعاية العجاجة ، ولا يدل الناس على مبلغ ما أوتى من رسوخ فى العلم وتفرد بما لم يتفق لأحد من أشباهه ونظائره . عرفته وقد وجه إليه هذا السكوت العميق فى صدر حياته سنوات معدودات ولكن وضح أن صمته كان غير مطابق لواقع هؤلاء بعد أن استبان لهم أن الفقيد لم يكن صامتا على المعنى الذى تواضع عليه سواد الناس ، بل كان منصرفاً إلى وضع الخطوط الرئيسية فيما تمخضت عنه البحوث العلمية الحديثة وكشفت عنه النظريات الفلسفية التى لا قوام العالم الإسلامى الجديد المتحرر بدونها ، فكم وضع الراحل الفقيه من كتب . ورتب من نظريات بعث فيها روح الإقدام والكشف عن المجهول من المعارف الإنسانية والقضايا الدينية التى لا يزال علماء المسلمين فى العالم الإسلامى يسمون لها من أقوم الطرق وأجداها سلوكا إلى المقاصد العالية . وحسبنا دليلا على أصالة ما نقول ، كتبه القيمة فى العقيدة والشريعة التى زخرت بها مكتبات الجامعات ودور الكتب لينهل منها الصادون ويسير على هديها السالكون وفى الصدارة منها : تفسير القرآن ، والفتاوى ، والإسـلام والوجود الدولى للمسلمين ، والإسلام عقيدة وشريعة ، والقتال فى القرآن ، والمرأة فى القرآن ، بالإضافة إلى آرائه فى الصحف الواسعة الانتشار ، التى تلقفها العالم الإسلامى وطلاب الحقيقة بالقبول فى كل مكان .

وقصارى القول : أن الراحل الكريم لا يزال فى قلوب خلصائه وعارفى فضله حياً بآثاره وجليل أعماله ، ولئن أضحى اليوم فى عداد الراحلين فهو فى طليعة الأحياء ، والناس موتى وأهل العلم أحياء .

رحم الله الفقيد وأجزل له المثوبة .

عباس طه

ما يقال عن الإسلام

أسبانيا المغربية

بقلم : انريك سوردو

للأستاذ عبّاس محمود العقاد

كتاب « أسبانيا المغربية » موضوع فى وصف حضارة الأندلس على عهد الدول الإسلامية ، وأكثر العناية فيه منصرفة إلى وصف حضارة العمران وحضارة المعيشة وما تتسع له من مظاهر العرف والعادة ومظاهر العلاقات بين أبناء المدينة وأبناء الأسرة ، وأكثر ما يكون ذلك فى مدنها الثلاث الكبرى ، وهى قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، وإن كان المؤلف يلم أحيانا بما يتصل من قريب بهذه الحضارة فى المدن الأخرى من قبيل طليطلة وقادش وبلفسية ، وما عداها من أطراف الريف .

ويعجب القارىء وهو يتصفح هذا الكتاب ويقلب ما احتواه من الرسوم والنقوش والصور والتماثيل التى يولع فى الاعتناء بها على مثال لا يقع النظر على ما يشبهه فى غير الآثار المقدسة عند أبناء الغرب من المسيحيين .

ماذا يزيد عليه الكاتب العربى الأصيل لو كتب فى هذا الموضوع وأراد أن يودع فصوله وثنايا سطوره ما يجيش فى صدره من خوالج الحنين والفخر والإعجاب بآثار ذلك الماضى العزيز على بنيه ، إذ يكاد القلم العربى أن يقصر عن الزيادة عما أودعه المؤلف كتابه من تلك الخوالج الناطقة خلال السطور فى غير تكلف ولا انتباه ، ولولا خطرات هنا وهناك يلوح فيها أن المؤلف يخالف العرب فى دينه ولغته وجنسه لسبق إلى ذهن القارىء أنه يستمع إلى أغنية من أغانى الحنين الذى قيل فى زمانه :

جادك الغيث إذا الغيث همى
يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما
فى كرى ، أو خلسة المختلس

ويبدو مما يورده المؤلف من بعض الأمثال الجارية على الألسن إلى اليوم أنه ليس بالغريب

المنفرديين أبناء قومه بتلك الأحلام التاريخية، فإنه يذكر أن أبناء غرناطة فى هذا العصر لا ينسون الأسوة بمصاب غرناطة العربية كلما حزبتهم فاجعة قومية يتطلبون فيها حسن الأسوة، فإنهم يرددون بينهم كلمة تسهو فى لفظها وأنمتها مسير الأمثال، ويقولون: «لقد كانت البلية بغرناطة أفدح وأنكى»...

كأنهم ورثوا هذه الكلمة عن ألسنة العرب ثم تناقلوها بغير تبديل فيها، أو كأنهم ذكروا البلد ونسوا من هم أولئك المصابون فيه، ولا حاجة بهم إلى جهد من الذاكرة يلفتهم إلى هذا النسيان، لأن معالم المعيشة البيتية فى أكبر العواصم الأسبانية على عهد العرب لا تزال على ذلك العهد إلى اليوم، سواء فى تنظيم طرقاتها أو تقسيم بيوتها والانتفاع بمساكنها، وكأنما بقيت محارم الحجاب على حالها كما كانت تبنى فى أيام العرب، فلا تزال المنافذ بين الغرف والحجرات وبين الشارع والسوق كأنها تلك المنافذ التى تستر وراءها مقاصير الحريم.

ويحاول المؤلف، لو استطاع، أن ينسى من سبق العرب إلى إقامة الحضارة بتلك البلاد، ومنهم أسلاف من الرومان والقوط، ولكنه ينازع القلم إلى ذكراهم ليقول: إن العرب قد صنعوا ما لم يصنعوه، وقد سبقوهم فى شوط الارتقاء وإن لحقوا بهم فى أزمنة التاريخ، فيقول عن صناع الأندلس اليوم إنهم لا يزالون ينتفعون بما تعلموه من العرب والبربر من صناعات النسيج والفخار والآنية والجلود وصياغة المعادن وتزيين الأخشاب، ويثبت للرومان فضلهم فى تنظيم موارد الماء للرى والشرب والسقاية، ولكنه يعود فيقول إن غلبة «الماء» فى النوافير وفى الجداول المصنوعة وفى الحدائق العليا والسفلى إنما كان ظاهرة «الصحراء» التى يبلغ الماء فيها ما ليس يبلغه فى مكان، من أرواء غلة الأعين والصدور.

ويشيد المؤلف بما اتسمت به الحضارة العربية من قوة الشعور بالحياة الحسية والحياة الفكرية فى آن.

ويطيل الوقوف عند ظاهرة «الطرب» للسماع ونغمات الأصوات والآلات، فيروى ما يرجحه بعضهم من أنها أصل كلمة «الطربادور» التى تطلق على الشعراء المنشدين بين جنوب فرنسا وشمال البلاد الأسبانية، ويشير إلى ما تخيله بعضهم من أنها تتصل بمادة «طاب» العربية بمعنى «طيب العيش وطيب الشعور»، ثم يعود فيقول إن هذا الشعور الذى يدل على قابلية النفس للامتلاء بالحيوية والإحساس بجمال الحياة لم يخلفه اليوم غير ثورة الحس فى حلبات مصارعة الثيران، وغير أناشيد الرقص فى الحانات،

تخللها صيحات « وولى . وولى . » عند النشوة والاستحسان ، وما هى إلا تحريف لكلمة الجلالة التى كان من عادة العربى أن يهتف بها لإبداء إعجابه بكل جميل : الله . الله .

ويسرف المؤلف فى تعظيم هذه « الحماسة » الجميلة عند العربى فيروى من أقاصيصها ما يصدق وما لا يصدق من أخبار الخلفاء والأمراء ، وينقل من ذلك ما قيل عن شق الثياب والصياح بنداء الباعة والخروج عن الحشمة والعربدة على الندماء ، ويضيف إلى ذلك ما يرويه عن أمراء بغداد ودمشق وأمراء المغرب وإفريقية ، وأعجبه ما رواه عن رجل من حاشية الملوك التى تحسن ضبط الشعور فى موقف الطرب والغضب ، فنقل عن أحدهم أنه نسى نفسه فهجم على المغنى فى حضرة الملك وأخذ فى تقبيله ... وعرض نفسه بذلك القتل العاجل ، لأن ذلك المغنى كان سجيناً متهماً بالخروج على الأمير ، واحتال على أسماع الملك ببعض غنائه لعله يعفو عنه ويستبقيه ...

أما الحياة الفكرية فقد أطنب المؤلف فى سرد أخبارها كما أطنب فى سرد أخباره عن الحياة الحسية ... ومن ذلك أن قرطبة كان فيها مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن بنسخ الكتب غير الرجال ، وأن المدينة كانت تخرج فى كل سنة ما لا يقل عن ستين ألف كتاب من المصنفات المنسوخة أو المنقولة أو المؤلفة ، وأن عدد الكتب فى بعض المكتبات التى جمعها خليفة من الخلفاء لم يكن يقل عن أربعمائة ألف كتاب ، وكانت منها كتب كثيرة فى غير المباحث الدينية ، أثارت جماعة من الفقهاء المزمتين فأرضاهم المنصور بإحراق المئات منها .

ويرى المؤلف أن الثقافة العربية غلبت على كل ثقافة تقدمتها فى بلاد الأندلس المغربية ، ولكنها كانت فى بعض المدن تنتزع المدينة من صبغتها الرومانية التاريخية لتقيم فيها نمطاً من الحضارة يغلب فيه التوازن بين الغرب والشرق كما غلب من قبل فى القسطنطينية وعواصم الدولة البيزنطية .

وانتقل المؤلف من الثقافة عامة إلى ثقافة الفنون الجميلة فنفى كل ما يشاع فى الغرب عن تحريم الإسلام للاشتغال بالفن الجميل . وقال : « إن الغرب تشيع فيه فكرة عامة فحواها أن الديانة الإسلامية تحرم كل التحريم صور الأحياء ، وكل ما ثبت ثبوت اليقين فى هذا المعنى أن التماثيل الدينية محرمة فى هذه الديانة ، وفيما عدا ذلك لم يرد فى القرآن آية واحدة تؤيد ما يشيع بين الغربيين ، وإنما ورد فى الأحاديث النبوية التى ترجع استقصاء الكثير منها إلى القرن الحادى عشر الميلاد ما يفيد استنكار النحت والتصوير » .

ثم يتوسع المؤلف فى بيان المواضع التى تقبل فيها الرسوم والنقوش مع انتفاء شبهة العبادة والتقديس .

ويشتمل الكتاب على أكثر من مائة صفحة كبيرة حلاة بالصور الملونة أو بالنقوش الهندسية المحكمة ، تلحق بها الشروح التاريخية والتحليلات الفنية ، ويوشك أن تحيط بكل ما بقى فى بلاد الأندلس من الآثار الإسلامية ولا سيما المساجد والقصور ، وتظهر فى بعضها نقوش الكلمات العربية واضحة القراءة مع تتبع الخطوط بينها وبين ما حولها من رسوم الزينة وعقود البناء ، وهى - فيما نرى - أفصح من كل ما اقترن بها من الشروح والتحليلات فى الارتفاع بإعجاب المعجبين إلى ذروة الشعور بجمال تلك الحضارة ، وغاية الاستحسان لذلك الذوق الفنى الذى انبعثت منه ، وفرط الحنين إلى تصور العهد الذى كانت فيه هذه الآثار عماراً حيا يزدحم بمن فيه ، وتحيط به الدنيا المقبلة وهى مترعة بالنعمة والرخاء .

* * *

وكتاب «أسبانيا المغربية» الذى أخرجه طابعوه فى هذا الوضع من الزخرف الجميل والأناقة الفنية إنما هو حلقة من سلسلة متناسقة معدة لإبراز الآثار الفنية فى مثل هذا الموضوع ، ونعنى به موضوع المخلفات المأثورة فى مدن الحضارات التى يطول الحنين إليها بين أبناء العصر الحديث حنين القلوب والضمائر تارة وحنين العقول والأذواق تارة أخرى ، ومنها أثينا اليونانية ، والبندقية وبومبى اللاتينيتين ، وبكين الصينية ، ومن العواصم الإسلامية مكة المكرمة Mecca the Blessed والمدينة المنورة Maidena the Radiant ملحوظا فى ترجمة اسميهما أن يكون كل منهما متبوعا بصفته التى اشتهر بها فى اللغة العربية .

ولم - نطلع - بعد على هذين الكتابين الأخيرين ، ولا ندرى كيف يهتدى مؤلفاهما إلى التمييز بين ما فى المدينتين من معالم القداسة ومعالم الحضارة ، ولكننا نعتقد عما اطلعنا عليه من نماذج هذه السلسلة أن عرض الحضارة العربية على هذه الصورة فى الغرب أصلح لتعريف الغربيين بمفاخرها من نشر التواريخ المفصلة ، لأن الالتفات إلى مظاهر الفخامة المحسوسة وآيات الفن الرائعة أعم وأقوى بينهم من الالتفات إلى مآثر الروح والضمير .

عباس محمود العقاد

مختارات من الشعر القديم والحديث

في عيد النصر :

تحية لبورسعيد

للأستاذ حسن جاد

سلام على أرضها الطاهرة
ووقفتها الحرة الباهرة
مثال الفداء ، ورمز الإباء
وعنوان وثبتنا الظافرة
وقلعة أحرارنا الثائرين
على سطوة الدول الغادرة
مماليك صهيون وأحلافها
وثالثة في الخنا تاجرة
تصدت لحلمهم بور سعيد
بعزمة أبطالها الثائرة
شبابا وشيباً وطفلا صغيراً
وأنثى على غدرهم صابرة
فطاروا هباء ، وولوا سراعا
ودارت على المعتدى الدائرة

° ° °

لقد أقسمت قبل ألا تهون
وألا يدنسها المعتدون
فهبت لتحصدهم في الفضاء
وفي ضفة البحر أو في السفين
وفي كل فج ، وفي كل بيت
وبين مخابئهم والحصون
وكانت لهم رصداً كالمنون
ومقبرة لحصيد المنون
فكانوا على موعد للفناء
مظلاتهم كفن الهابطين

وبرت مدينتــنا باليمين ولما أبادت فلول الطغاة
وما خفضت للطغاة الجبين مشت فوق أشلائهم والرمم
وقامت وأصغى إليها الزمان * * *
تردد أنشودة الظافرين سلام لأرضك يا بور سعيد
* * * وبورك هذا الكفاح المجيد
لقد أصبحت مثلا فى الأمم سحقت الظلام ، وصنت السلام
لعز الإباء وحر الشمم بعزم الأسود وبأس الصمود
وصبر الكفاح ، وبأس النضال ودافعت عن مصر كيد الطغاة
ونار الحميـــة فى المصطدم وحققت بالنصر حر الوعود
فما راعها زحف دبابة وسطرت بالدم فوق ثراك
ولا مدفع قاذف بالحمم سطور الفدا فى سجل الخلود
ولا طائرات تصب الفناء فقوى انهضى واصنعى للوجود
على الآمنين بها ، والعـــدم حياة السلام وأمن الوجود
على سمعها كان قصف المدا وفى ذمة الشرق يا فخر مصر
فمع أحلى رنين وأشجى نغم دماء الجريح وروح الشهيد
لقد صمدت فى الكفاح المرير سلام لشـــعبك فى الخالدين
وروعت الظـــلم حتى انهزم وبورك نصرك يا بور سعيد

حسن جاد حسن

فقيد الإسلام

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

للأستاذ حسن جاد

أذهلني الخطبُ فعيَّ الكلامْ
وجلَّ عن نجوى المقال المقامْ

قد يُفحم القولُ إذا أطبقت
على دياجيه الغواشي الجسامْ

يا شاعر الفصحى أقِلِّ الثنا
أفصحُ شيء في الوجود الحِمامْ

آمنتُ بالله .. ومقدورِه
فما لحي غيره مِن دوامْ

نسير في الدنيا إلى موعد
على بساط أريحي المدامْ

ساقيه لا يُخطىء نُدمانه
وكفه تترع جاماً بجامْ

وكلنا غاد على وِرْده
كأنه صادٍ يروي الأوامْ

ونقتل العمرَ احترابًا وما
في الموت من بغض ولا من خصامْ

يُعانق الظالم مظلومه
ويجمع الأعداءَ فيه السلامْ

حياتنا ومضٌ وأعمارُنا
خيالُ أطياف ورؤيا منامْ

ما بين مهد المرء أو لحده
دنيا رضاع والمنايا فِطامْ

والحي ميتٌ إذ يحث الخطا
إلى المصير الحتم بين الزحامْ

ويستوي المختال فوق الثرى
حياً ومَن يرقد تحت الرجامْ

وعبقري بين أهل النهى
وجاهلٌ يمرح بين السوامْ

* * *

يا عاديَ الموت بأي الورى
أوديتَ؟ أصميته قلوب الأنامْ

طويت من أروع أعلامنا
عنا إماماً، يا له مِن إمامْ؟

العالمُ الثبت الفقيه الذي
كان لدين الله أقوى دعامْ

والثائر الحر الذى لم يبال
فى الحق أو يأخذه فيه الملامْ
والساطع الرأى يجلى به
مشاكل العصر ويجلو الظلامْ
والدامغ الحجة يصمى بها
مشابهَ الشك ويغرى السهامْ
وواسعُ الأفق ، بعيد المدى
وساحرُ القول ، فصيحُ الكلامْ
يجلجل الصوت الرحيب الصدى
كزأرة الضرغام بين الآجامْ
كم هز أسماع الورى رجعه
فاستيقظ الغافل وهبَّ النيامْ
يا راقداً فى الخلد تحت الثرى
وذكره يسطعُ فوق الغمامْ
ما فل من عزمك غيرُ الردى
وربما فل الحسام الحسامْ
حتى إلى ساحك فى غفوة
فأسكت الصوت الشديد العرامْ
وصاح ناعيك بسمع الدنى
فأعول البيت وضج الشآمْ
أبكيك للإسلام فى رزئه
وقد دهاه اليوم خطب جسامْ

أبكيك للخائر فى دينه
عززته الحقَّ فصلى وصامْ
أبكيك يا (محمود) ، ليت البكا
يجدى انتفاعاً أو ينيل المرامْ
فيا عصىَّ الدمع أسعف لظى
مهجتى الحرى وأطف الضرامْ
بعض الوفاء الحر من شاعر
يُجل فيك الأريحى الهمامْ
أوليتنى الحب ، ويا طالما
أطربت شعرى فى بديع النظام
وكنت تبغى عبرة فى الردى
فهل وعيت اليوم وعظ الحمامْ ؟
يا ساهر الشكوى على جُرحه
نمْ فالمنايا للجراح التئامْ
ويا حليف السهد من سقمه
لا تفك بعد اليوم سهد السقام
بلغت أقصى راحة فاسترح
لدى حمى الله بدار السلامْ
الله يجزيك بإحسانه
عنا ، ويلقاك بحسن الختام

حسن جاد حسن

الكتب

الحياة الأدبية في ليبيا (*)

تأليف: الدكتور محمد طه الحاجرى

عرض وتحليل: الأستاذ فوزى عبد الغفار الميلادى

الأستاذ الدكتور محمد طه الحاجرى أستاذ الأدب العربى بجامعة الإسكندرية قضى بضع سنوات فى الجامعة الليبية كأستاذ بكلية الآداب بها وقد أتاحت له هذه السنوات فرصة دراسة الحياة الأدبية فى ليبيا ماضيها وحاضرها عن قرب كما يسرت له مهمة الاطلاع على كثير من المراجع والمؤلفات التى سجلت جوانب مختلفة من هذه الحياة فلا غرو حينما يعود إلى أرض الوطن ويدعى إلى إلقاء محاضرات على طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة أن يكون موضوعه المفضل (الحياة الأدبية فى ليبيا) (الشعر) ولعل الأستاذ الدكتور يعمد فى سنوات قادمة إلى إعداد دراسة أخرى عن النثر وهذا بحق هذا الفرع الهام من فروع الأدب وهذا بحق الحياة الأدبية فى ليبيا ذاتها .

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة يقرر المؤلف حقيقة هامة تبدو غريبة لدى الكثيرين : (يعتبر قيام السنوسية فى ليبيا مبدأ تاريخها الحديث ـ وكذلك هو مبدأ الحياة الأدبية الحديثة فيها ...) .

ويقسم المؤلف هذه الحياة إلى مراحل ثلاث :

الأولى : مرحلة العهد السنوسى الأول منذ قيام السنوسية حتى الغزو الإيطالى :

الثانية : مرحلة الاستعمار الإيطالى .

الثالثة : مرحلة ما بعد هذا الاستعمار منذ سقوط الحكم الإيطالى حتى اليوم .

ووجه الغرابة فيما تقدم أن تاريخ الحركة السنوسية يكاد يكون مجهولا فى العالم العربى إلا من بعض مواقف خاصة بكفاح الاستعمار الإيطالى فى فترة ماقبل الحربين العالمية الأولى والثانية يشعر المؤلف مدى الغموض الذى يحيط بهذه الدعوة وعلى الأخص فى مراحلها الأولى فيجلو ما غمض من ذلك التاريخ بالقدر الذى يسمح به منهج الدراسة الأدبية .

(*) مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ... جامعة الدول العربية ... مطابع دار النشر للجامعات المصرية ١٨٠ صفحة من القطع الكبير ..

ففى القسم الأول من الكتاب وهو الذى خصصه المؤلف للرحلة الأولى يعرفك المؤلف بصاحب الدعوة السنوسية السيد/محمد ابن على السنوسى ويبين لك كيف أن حياته تقع فى أربع مراحل تبدأ فى مسقط رأسه ومرباه ومنشئه فى الجزائر والمغرب وتنتهى فى ليبيا وتنتقل فيما بين ذلك بين بلاد السودان والمغرب الأدنى ومصر والحجاز واليمن .

وبعد أن ينتهى المؤلف من عرض حياة صاحب الدعوة ومنشئها يقف قليلا ليقرر أن (النهضة الحديثة التى أتيحت للشعوب الإسلامية فى القرن التاسع عشر كانت تقوم على عاملين رئيسين : أحدهما الاتجاه نحو القديم ومراجعته وإحياؤه والآخر تأثر بالحياة الأوربية فى مناهج تفكيرها وإنماط سلوكها وكان أمر هذين العاملين متفاوتا بين هذه الشعوب كما كان متفاوتا فى ميادين النهضة المختلفة بالقياس إلى الشعب الواحد) ...

ويتساءل بعد ذلك ؟ ما هو موقف النهضة الليبية من هذين العاملين وتطورها ؟ ويجيب على ذلك بأن ارتباط هذه النهضة بالبداوة كان من الطبيعى أن ينأى بها عن العامل الثانى وإنها إنما كانت تقوم على إحياء القديم وذلك بالرجوع إلى المناهل الدينية الأولى والمصادر الأصيلة للإسلام ، ومن خلال القسم الأول للكتاب تعرف أنه كان فى ليبيا أكثر من بيئة علمية كان فيها الزوايا التى أنشأتها السنوسية وجعلت منها مراكز دينية وثقافية وكان فيها الحلقات التى تنعقد فى المساجد تلقى فيها دروس الفقه وتقرأ فيها كتب التفسير والحديث وما إلى ذلك وكان فيها المدارس النظامية التى أنشئت فى العهد التركى الأخير كما كان فيها إلى جانب ذلك بعض المدارس التى أنشأها الإيطاليون فى بعض مدن طرابلس .

وينتقل معك المؤلف بعد ذلك فى رياض الشعر الليبى فى مراحل نهضته المختلفة وهو أساسا موضوع البحث ، ويبدأ بقصيدة منسوبة إلى مؤسس النهضة نفسه السيد / محمد بن على يقول فى مطلعها :

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة
إذا اخضر منها جانب جفا جانب

هى الدار : ما الآمال إلا فجائع
علينا ولا اللذات إلا المصائب

وما هذه الأولاد والمال والمنى
لدينا ولا الآمال(؟) إلا المصائب

فلا تكتحل عيناك يوما بعبرة
على ذاهب منها فإنك ذاهب

ومن شعراء المرحلة الأولى الذين عاصروا صاحب الدعوة فالح الظاهرى الذى قدم الحجاز مع أستاذه سنة ١٨٤٦ م ويشير المؤلف إلى أن معظم شعر فالح قد ضاع شأنه فى ذلك شأن غيره من آثار هذه المرحلة لكن ما بقى منه يدل على شاعرية صادقة وقدرة على صياغة الشعر صياغة عربية جزلة ، ويدلل المؤلف

على ذلك بأبيات من قصيدة له فى الحنين بعث بها من الحجاز إلى ليبيا :

سوى طيفكم ليلا فما تاه فى المسرى
على بعد ما بين الجلابيب والحمر
عجبت له أنى اهتدى لى وبيننا
مهامة ينبو الوهم عن جعلها مسرى
أأحبابنا والله ما غير النوى
وداوى ولا أخلت بلادى لكم ذكرا
أشم ريح الجربياء إذا سرت
وإن أضرمت فى القلب من ناركم جمرا

ويبدأ المؤلف الحديث عن المرحلة الثانية بسطور باكية دامية عن الاعتداء الوحشى الذى وقع من إيطاليا على الشعب الليبى فى خريف سنة ١٩١١ ، ويرد ضعف الحياة الأدبية فى هذه المرحلة ـ مرحلة الاستعمار الإيطالى . إلى أن الشاعر أو الأديب عامة كان بين أمرين إما أن يتملق السلطات الاستعمارية فيقول الشعر فى تمجيدها والإشادة بها ، أو يدبج الفصول فى تبرير أخطائها . وإما أن يسكت سكوت الصبى العاجز حتى لا يعرف عنه أنه شاعر أو أديب ، وحتى لا يتعرض لهذه السلطات وتهدده فى حياته أو أرزاقه .

وقد اضطر بعض شعراء العصر تحت ضغط الظروف إلى مدح الدولة الباغية وزعيمها موسولينى ، لكن الشاعر منهم ما كاد يخلو إلى نفسه حتى يحس بوخز الضمير يقض مضجعه فيبرر مسلكه بأنه إنما كان يداهن ويمالىء لأنه لا يملك إلا ذلك ، ولكن قلبه يمتلىء حقداً وكراهية لجلاديه .

والعجيب أن هذا الصراع الذى دار فى أعماق كثير من الشعراء فى ذلك الوقت ظهر بصورة جلية فى بعض قصائدهم ، ومن ذلك قصيدة للشاعر محمد الحنقارى يقول فيها :

تكلفت مدحا للئيم ولم أكن
مواليه والله يدرى دخائلى
مدحت لئيم النفس لا عن محبة
ولكنه المبغوض عند الأماثل
ركبت الذى يخفى على الناس سره
وتفسيره قول لبعض الأفاضل
إذا ما يد عزت عليك تنالها
بقطع فقبلها وذا فصل عاقل
ركبت ذنوبا فى مديحى وربما
أجاب إليها توبتى عن رسائل
فما قلت قولا من ضميرى وإنما
يكلفنى الخنزير شر الخصائل
يكلفنى أن نمدح الشاه ذئبها
وتشكره إن تاثها بالمخاتل
ألا قبح الله الوظيفة أنها
تكلفنى أطراء أهل الرذائل

وفى بداية الحديث عن المرحلة الثالثة وهى المرحلة التى تلت هزيمة الإيطاليين يبرز المؤلف أهمية الدور الذى لعبته جمعية عمر المختار التى أنشئت فى مدينة بنغازى فى شهر ابريل سنة ١٩٤٣ ، وكانت تضم مجموعة من

الشبان المتحمسين العائدين من المهجر والذين شاركوا فى الحياة المصرية بجوانبها المختلفة سياسية وثقافية ويتوثبون نحو مجد سياسى وأدبى يحققونه لبلادهم ومجموعة من الشبان الذين عانوا الاستعمار الإيطالى .

ويتحدث المؤلف عن هذه الجمعية فيقول (لا يملك دارس الحياة الأدبية فى ليبيا فى هذه الفترة أن يغفل هذه الجمعية فإن تاريخ ليبيا فى فترة الانتقال هذه مرتبط بها أوثق الارتباط لا فى الناحية السياسية فحسب بل فى الناحية الثقافية عامة الأدبية خاصة .

ويلخص بعد ذلك نشاطها الثقافى فى أصول ثلاثة : التعليم ... الأندية ... الصحافة ويقسم المؤلف شعراء هذه المرحلة فريقين فريق الشعراء الشيوخ الذين يطلق عليهم الشعراء المخضرمين إذ كانوا قد ادركوا العهدين وفريق الشعراء الشبان الذين ظهرت مواهبهم فى هذه الفترة وأن كانت نشأتهم فى العهد الإيطالى .

ومن الشعراء الشبان الذين لمعوا فى هذه الفترة ابراهيم أوسطى عمر وقول المؤلف عنه (قد لا يكون هناك غيره اتيح له أن يغالب الأمية والجهالة فغلبهما وصار من بعد شاعرا فيكون ابراهيم هذا نمطا على حدة وطرازا فى هذه الفترة) .

ومن قصيدة انسانية لهذا الشاعر نظمها وهو فى مخيم الجيش الليبى فى وادى النطرون هذه الأبيات ...

أيها البلبل ما هذا الجمود
أين تغريدك بين الشجر
ابعث الألحان فى هذا الوجود
واملأ الدنيا نشيدا وسمر
لا تطق بها لحرب أو سلام
واترك الدنيا بأهليها تموج
فى عراك دائم أو فى خصام
تحت سطح البحر او فوق المروج
سيمرون كما مر الكرام
فى طريق مالهم منه خروج
هى نفسى هل ترى الخير يسود
فيه عدل الله ما بين البشر
أو يسود الشر والدنيا تعود
لحياة ليس فيها مستقر

وبعد فإذا كانت اقامة الدكتور الحاجرى بليبيا قد أتاحت له فرصة نادرة للاتصال بأسباب النهضة الأدبية ومراجعها كما أشرنا إلى ذلك فى بداية المقال فإن القارئ يشعر بعد أن يفرغ من قراءة الحياة الأدبية فى ليبيا أن مؤلفه قد بذل جهدا ضخما فى سبيل الوصول إلى مادة هذا الكتاب ولم شعث الآثار المتناثرة لشعراء هذه الفترة وأنه بذل أيضا جهدا أكاديميا صادقا ليخرج من هذه الآثار بدراسة علمية متكاملة تؤرخ لفترة هامة من تاريخ الأدب العربى المعاصر وتستحق أن تأخذ مكانها عن جدارة بين المؤلفات الأدبية الجادة فى المكتبة العربية الحديثة .

فوزى عبد القادر الميلادى

تاريخ المغرب الكبير

تأليف : محمد على دبوز

عرض وتقديم : الأستاذ على يحيى معمر

ثورة أخرى تنبعث فى الجزائر ، ثورة على ظلم التاريخ ، هذا الظلم الذى طال أمد حكمه وامتد زمن سلطانه، وتوطأت له الأكناف ، فعاش فى المغرب الإسلامى الكبير ، حقبة طويلة من الزمن ، تغذيه الملكية المتحجرة ، وتحدو له العقول المتحجرة ، وتساعده أيدى الاستعمار الخفية ، التى تسعى فى الظلام ، كما تسعى الأفاعى لتنفث السم فى أجسام الضحايا الأبرياء .

ولئن قام أبطال الثورة المسلحة فى جبال أوراس يحطمون رؤوس الاستعمار ، الذى حكم البـــلاد بالحديد والنار ، فلقد انبعث من القرارة أبطال ثورة أخرى يحطمون ما دسته الأفكار المنحرفة ، والدعاية المغرضة ، والأقلام المستعبدة ، التى تحدو الظلم ، وتسير فى ركاب البغى ، وتزين البدعة ، وتنشر بين الناس الكذب والزور والبهتان ، وتذيع ما يبعث الخلاف والفرقة بين أمة تدين بدين واحد ، منذ دخل الفاتحون برسالة الله إلى المغرب الإسلامى الكبير .

ولئن كبل الاستعمار أمس أيدى هذه الثورة فلم تنطلق بما تحمل من حق وحجة وبرهان ، فإن النصر الذى أحرزته الثورة المسلحة ، فأنهت به عهود الظلم والظلام ، قد فتح المجال لثورة العلم التى انطلقت تذيع حقائق النصر ، وتكشف عن دسائس الاستعمار الخارجى والاستعباد الداخلى التى أدخلت فى تاريخ المغرب الكبير قديماً وحديثاً .

والمغرب الكبير هو النصف الثانى من العالم الإسلامى ، هذا النصف الذى مد مشعل النور والعلم والحرية ، ومبادىء الكرامة البشرية إلى الغرب ، فاختطف منه عن طريق إيطاليا وأسبانيا وفرنسا .

ثم تنكر له ووقف فى وجهه موقف الوقح الجحود ، الذى تجرد من الحياء والإنسانية ، ثم تجاوز ذلك فرجع إلى هذه الأمة التى مدت له قبس النور والحياة ـ رجع إليها بالبهتان والعدوان وزعم الأستاذية ...

قلت إن ثورة أخرى انطلقت فى الجزائر ، تحطم الظلم ، ظلم التاريخ الذى زيفته أقلام

تحدو بالنغم الرتيب لجوقة عسكرية تسير فى ركاب الاستبداد الذى يعطى كل الحقوق لنفسه ويحرم أصحاب الحقوق من كل حقوقهم .

وكان فى طليعة هذه الثورة العلمية هذا الكتاب القيم الذى صدر حديثاً فى القاهرة تأليف العالم الأديب الأستاذ « محمد على دبوز » أحد المحاضرين فى معهد الحياة بالقرارة فى الجزائر .

قرأت الكتاب فوجدته ثورة لاهبة تكاد تسمع فيه صليل السيوف فى ثورات ماضية ، وأزيز القنابل فى الثورة الحاضرة التى حطمت القيود ، وطردت الاستعمار ، وأذلت فرنسا الباغية فطأطأت من رأسها وأنزلت من شموخ أنفها ، وجردتها من الغرور .

إن « تاريخ المغرب الكبير » كتاب تاريخ ولكن المؤلف سكب فيه حرارة دمه ، ونبضات قلبه ، وعصارة روحه ، وأجيج عاطفته ، هذه العاطفة الجياشة التى تزخر بالحب وتزخر بالبغض ، وتزخر بالاحتقار .

تزخر بالحب لأولئك الذين حملوا مشعل النور والهداية ، وميزان العدل والحق والحرية والمساواة ، إلى هذا الشعب المغربى الكبير .

وتزخر بالحب لأولئك الذين دافعوا عن هذه المبادئ فى مختلف مراحل التاريخ ، فلم تخضعهم الملكية المتسلطة ، ولا الإمارة المتسلطة من أبناء العم ، ولم تقتل فيهم روح الكفاح غطرسة أجانب يعتزون بالقوة ، ويتسلحون بالبغى ، ويعبثون بالدم البشرى عبث السباع بدم الفرائس . حتى استخلصوا حقوق الأمة ، وأنهوا عهود الملكية ، وطردوا الاستعمار كما يطرد اللص الحقير فارغ اليدين من بيت عامر بالثروة والمال .

وتزخر بحب الأقلام القليلة التى لم تنخدع بالبريق ، ولم تغتر بالمظاهر فسجلت الحق للحق ، ووصفت الواقع للواقع دون تحيز أو زيغ أو ميلان .

وتزخر بالبغض ، بغض أولئك الملوك الذين جلسوا على كراسى الحكم باسم الدين ، ثم ادعوا لأنفسهم حق التسلط والتملك ، فخانوا الله فى أماناتهم ، وعاثوا فى مقدرات الأمة ، ينهبون ويسرقون ويقتلون .

وتزخر بالبغض لأولئك الذين منحهم الله قوة فى البدن ، وشجاعة فى القلب ، وصبراً على المكاره ، فسخروا هذه القوى لعبيد الشهوة ، يزيدونهم بها ترفا على ترف ، وفساداً على فساد .

وتزخر بالاحتقار لأولئك الذين وهبوا نعمة الذكاء فباعوا ذكاءهم بمتاع قليل من الحياة الدنيا .

وتزخر بالاحتقار لأولئك الذين أوتوا علماً وأقلاماً فانحدروا عن كرامة العلم ،

وأمانة العلماء ، إلى حواشي للملوك وعمالهم وعملائهم ، يروجون أكاذيبهم وينسبون لهم من الفضل ما هم بعداء عنه ، ويبرئونهم من جرائم قذرة ارتكبوها يأباها عليهم الدين والضمير . فشوهوا نصاعة التاريخ ، وغيروا وجه الحقيقة ، وظلموا من يستحق الشكر والثناء .

عاش المؤلف فى الجزائر يكافح الاستعمار الفرنسى بكل أساليبه وحيله ودعاياته وأكاذيبه ، فدرس نفسية الجبابرة ، وعرف مقدار أمانة التاريخ عندما يسير فى ركاب الظالمين ، ولذلك فقد استطاع أن يتفهم كل العصور التى كتب عنها ، ويعرف صدق الحوادث وزيفها ، كأنما كان يعيش فيها ، ويفرق بين المؤرخين فيعرف من يثق فيهم ومتى ينزع منهم تلك الثقة حسب التوجيه السياسى فى عصر كل واحد منهم .

وعلى هذا الأساس رجع إلى التاريخ القديم يبحث عن الحقيقة فى نفسية الشعوب ورجال الحكم ، ولا يقتصر فى تصحيح التاريخ على أقوال المؤرخين فحسب

وقد استطاع المؤلف بما أوتى من صحة الاطلاع ، والصبر على الدراسة ، والتنقيب الخفايا ، والدراسة النفسية للجتمعات ، والدول والأفراد ، استطاع بكل الينا اليوم مجهوداً رائعا يعتبر لها نهضة المغرب الكبير .

وفتحا جديدا فى التاريخ الاسلامى ، هذا التاريخ الذى تضافرت على تشويهه ـ دون اتفاق ـ جهود المؤرخين الأقدمين الذين يسيرون حداة فى مواكب الملوك الظالمين ، والحكام المستبدين . وجهود المستشرقين الذين يعرضون خدماتهم على الإسلام بسوء نية ، وخبث طوية . وجهود أولئك الذين يحملون ألسنة فصيحة ، وأقلاما بليغة ، ولكنها مفتونة بالمادية الغربية ، فهم يجهدون أن يستروا جمال الإسلام فى الدولة المسلمة ، وأن يكشفوا عن عيوب ألصقت بالإسلام وليست منه ولا من نظمه ، ثم يدعون إلى فتنة الغرب فى متع الحياة ليغزوا بهذا السراب هذا الشباب المتطلع إلى حياة كريمة .

وقد حفل هذا الكتاب الكبير الذى ألفه الأستاذ محمد على فى فترة من تاريخ المغرب . حفل هذا الكتاب بتصوير بشاعة الظلم ، وتنفير النفوس عنه ، كما حفل بالدعوة إلى دراسة تاريخ الإسلام ، التاريخ النظيف . تاريخ المغرب الذى وقف يتحدى الذمن بالصراع الطويل حتى تم له النصر ، فحطم الاستعمار بثورة السلاح ، ونظف البلاد من أدرانه ، وحطم كيد الملوكية والاستعمار فى تشويه حقائق التاريخ بثورة العلم ، فنظف الأذهان من أخطائه وإننا لننتظر من الجزائر ما هو أكبر وأجدى .

على يحيى معمر

أنباء وآراء

حول تراجم الأعلام

كتب أخي الباحث الأستاذ حسن جاد كلمة في عدد رجب عن كتاب « الأعلام الشرقية » جاء فيها أنه منذ الزمن القديم ومعاجم الأعلام تواكب الأيام وتصاحب القرون حتى القرن الثالث عشر ، وذكر الأستاذ معاجم وضعت في تراجم هذه القرون ثم قال إن كتاب « حلية البشر في القرن الثالث عشر » للبيطار يترجم لأعلام القرن الثالث عشر . وإن المكتبة العربية بقى فيها فراغ القرن الرابع عشر يتطلع إلى من يملؤه ، حتى لا يطوى النسيان أعلامه في مجاهل الزمن ، وإن الأستاذ زكى مجاهد قد نهض بهذا في كتابه « الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية » .

ومع تقديرى لجهود الأستاذ مجاهد أحب أن أذكر إنصافا للحقيقة والتاريخ أن المرحوم أحمد تيمور باشا - وهو أشهر من نار على علم كما يقولون - له كتاب عنوانه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر » ، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠ م ، وقد ترجم فيه المؤلف لطائفة من الأعلام شهدوا جانبا من القرن الرابع عشر ، ومنهم المشايخ : محمد الأشمونى ، وحسونة النواوى ، وأحمد الرفاعى ، ومحمد العباسى المهدى ، وعلى البيلاوى ، ومصطفى السفطى ، وأحمد أبو خطوة ، وغيرهم .

رحمة الله على الجميع .

أحمد الشرباصى

تعليق على نقد :

السيد رئيس تحرير مجلة الأزهر

بعد التحية ... والتقدير

فى عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨٣ من مجلة « الأزهر » قرأت نقد لكتابى « المرأة فى الإسلام » بقلم الأستاذ محمد عبدالله السمان .

ومع أننى من المقدرين لما يكتبه الأستاذ السمان على صفحات الصحف ؛ وبما يذيعه فى البرنامج الثانى ، وبما يخرجه من سلاسل وكتب تنتزع الثناء والتقدير .

مع كل هذا أرجو أن يفسح لى صدره لمناقشته فى وجهة نظره ، وأن توسع لى مجلة الأزهر ركنا صغيراً فى بنائها السابق أوضح فيه أيضا وجهة نظرى .

ولن أتعرض للجانب الذى استحسنه الناقد من كتابى ؛ فهذا يعنى أننا متفقان عليه ، ولكنه من ناحية أخرى يدل على أن الأستاذ السمان ليس مغرضا ، فتى استحسن شيئا أذاعه ، ومتى لم يرض عن شىء أزاحه.

لن يضيرنى فى شىء أن الموضوع ، تعاورته مئات المؤلفات كما يقول الأستاذ الناقد ، إذ أننا مازلنا نعيش فى أوضاع مريضة ونعانى سلوكا عفنا . . ولا عجب فى أن نسمع ونقرأ أن « لجنة تعديل قانون الأحوال الشخصية » تجتمع وتوالى اجتماعاتها عسى أن تلتمس حلا لتعديل هذه الأوضاع وتخفيف هذا السلوك . وأنها بالفعل قد وضعت مشروع قانون نشرته جريدة الجمهورية يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٦٣ .

وكل هذا يعنى أن بيت الطاعة ، وتعدد الزوجات ، والطلاق ، مشكلات نعيشها ، وأنها تستحق مئات المؤلفات حتى نصل إلى حل مقنع يجعل مجتمعنا أسمى من أن تسيره الرغبات والشهوات .

ثم إن عنوان الموضوع ليس ميزانا للكتاب ، وإنما الميزان «جوانية » الموضوع هل هى مسخ مهزوز لآراء السابقين ، أم أنها خلق جديد واضح السمات ؟ !

الأستاذ السمان يرى أنها مخلوق صفاح آباؤها كتب السابقين ، ويستشهد على ذلك بالتمهيد فقد طمست معالمه بالاستشهاد الكثير وشوهت خلقه بالآباء العديدين .

بيد أن من أول شرائط البحث التمهيدى استعراض آراء السابقين ، بصورة حيادية لا تتدخل فيها ذاتية الكاتب ، حتى يتبين الباحث الأرض التى يسير عليها ، وبعد ذلك يحدد موقفه من تلك الآراء ، فقد يخالفها ، ولكنه أحيانا يوافقها ، وهذا ما حدث بالنسبة للتمهيد ، فقد رضيت عن الآراء التى سقتها ، فمن ثقل الدم إذن أن تكون لى شخصية فى أمر أوافق فيه هؤلاء الباحثين تمام الموافقة .

ثم إن التمهيد ليس هو صلب الموضوع ، فما هو إلا تمهيد يشبه « البرنس » الذى يلبسه المولود و « البرنس » قد يدل على الوليد ، ولكنه ليس هو نفسه ولا روحه .

أما روح الكتاب فإنى أزعم أن لى فيه شخصية ، يمكن أن تشتم من نقد الناقد نفسه إذ أنه أقر ما قلته عن بيت الطاعة ، ورفض ما قلته عن الطلاق ، وهذا ينبئ عن أن فى الكتاب شيئا يستحق الإقرار تارة ، ويتعرض للرفض تارة أخرى ، ويمكن أن تلمحها أيضا من عرض البرنامج الثانى لهذا الكتاب مساء ٥/١١/١٩٦٢ . فقد لقى من « مجلة أخبار الأدب » القبول لبعض جوانب شخصيته ، والضيق ببعض هذه الجوانب .

ثم إن الأستاذ السمان يضيق برأيي الذي يوجب جعل الطلاق بيد القاضي ، ويكتفي - حرصا على أسرار الزوجية - بإصلاح الحكمين اللذين أشار إليهما القرآن .

وكفاه الله شر هذا الضيق ، فإن تدخل القضاء في شئون الأسرة أمر له سوابقه في الشريعة الإسلامية المنظمة ، فمن حق القاضي أن يفرق بين الزوجين بالملاعنة ، وفي حالة إصابة الزوج بالعنة أو بغيرها . الخ . فالإسلام يبيح تدخل القضاء في أمثال هذه الأمور ، مع أن بعضها حساس ، كالملاعنة التي يرمي فيها الرجل امرأته بالزنا ، أو بنفي حملها منه ، وكالإصابة بالعنة التي تمس جانب الرجولة من الرجل ، فهذه الأسرار الحساسة لا تمنع تدخل القضاء ... إذ أن القاضي - ومن حقه أن يجعل الجلسة سرية - لن يعود عليه شيء في معرفة هذه الأسرار ، ولن يضيق المتخاصمين أن يعرف القاضي عنهما شيئا ، فلا تربطهما به صلة سوى تلك اللحظة القصيرة التي يقفان فيها أمامه ، على أنه إذا كان من حق الحكمين - كما قال الأستاذ السمان : التفرقة بين الزوجين فإنهما في هذا يشبهان القاضي ، ويصبح الخلاف بيني وبينه خلافا لفظيا ، فليسمهما هو حكمين من حقهما التفريق ولأسمهما أنا قاضياً ومستشاره من حقهما التفريق أيضاً .

وختاما أبدي تقديري للأستاذ السمان ولآرائه ، وشكري لمجلة الأزهر لسعيها الملح في خدمة العلم والدين ؟

عبد الحميد إبراهيم محمد
ليسانس دار العلوم — جامعة القاهرة

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراد
فلا هطلت علي ولا بأرض سحائب ليس تنتظم البلاد

أبو العلاء

تعازى العالم الإسلامىّ بوفاة الإمام الأكبر

سلام عليك أيها الإمام الأكبر :

نداء إلى الله كان يصدع به صوتك ، ونداء من الله كانت تستجيب له روحك ، فني وداع مستبشر من آثار علمك ذهبت إلى الله نفسك ، وبين يدى نور أعمالك اختارك الله إلى جواره .

فسلام الله عليك - أيها الإمام العظيم - عالما ، وسلام عليك داعية إلى الله ، وسلام عليك مجتهداً فى دين الله ، وسلام عليك فى الملأ الأعلى .

كنت على موعد مع لقاء الله ، وكان المسلمون على موعد مع حديثك عن إحدى آيات الله .

كانت روحك تسبح إلى الله ، وكان المسلمون يسبحون فى دلائل القدرة ، وجلال العبرة التى كان يجليها فهمك ويصورها بيانك ، ويجذب القلوب إليها صوتك القوى المؤمن .

فاهنأ بالقبول ، ولك الفوز والكرامة بشهادة صادقة من أثر لك فى الإسلام خالد ، وعمل منك فى سبيل الله عظيم .

قبل وفاته - رحمه الله - باثنتى عشرة ساعة أو تزيد - أجلس إليه كبير أطبائه يشهده على ما قام به من عمل فى سبيل الله ... قال ووثوق المؤمن بربه المقبل عليه بنفسه : إننى أفنيت العمر فى الدعوة إلى الله ، مفسراً لكتابه ، مبصراً بدينه ، مبلغاً لرسالته لتسكون كلمة الله فى كل قلب . لتكون فى قلب الطبيب ، وفى قلب العالم ، وفى قلب السياسى ، وفى قلب الوطنى ... !

قال الطبيب : أشهد والمسلمون جميعاً يشهدون ... قال : الحمد لله .

وانطلق الطبيب من مكانه ، وخلا الإمام الأكبر إلى أهله يوصيهم ويوجههم ... وكلما دعوا له بالشفاء وطول البقاء علت وجهه ابتسامة مؤمنة راضية وقال : إن الروح تعرف طريقها إلى الله ... ! !

ولم تنتصف الساعة العاشرة من ليلة الإسراء والمعراج حتى عرفت روحه الطاهرة طريقها إلى الله .

ومن الجامع الأزهر الذى تخرج فيه عالما ، مكافحاً عنه ، وقياله شيعت جماهير المسلمين جثمانه يلفهم جلال الموت وجلال

العلم ... جموع من الناس فى موكب الوداع وسيل دافق من الخلق لا يمنعهم من متابعة السير زحام، ولا يوقف تدافعهم بعد الطريق وطول الزمن ... ولكنهم فى إصرار عنيد أبوا إلا أن يحملوا جثمانه على الأعناق وإلا أن يكونوا بين يدى أعماله فى مستقر الصالحين.

إنها الروح المؤمنة تجد فى قلوب المؤمنين مكانها، وقداسة العلم تنزل من القلوب منزلها، وجلال العلماء العاملين يحل من النفوس محل الإجلال والتكريم.

والإمام الراحل عرفته الدنيا بعلمه وعمله، واجتهاده وفهمه قبل أن تعرفه شيخاً للأزهر بلقبه ووصفه.

عرفه علماء الإسلام على اختلاف مذاهبهم حجة ثبتاً، وعرف فيه رجال الاجتماع مصلحا فذا، وعرف فيه رجال القانون والاقتصاد والطب عالما متحرراً، واسع الأفق، لطيف الفهم يمزج الدين بالحياة، ويشد الحياة إلى الدين فليس عجيباً أن يأسى العالم كله لفقده، وأن يستشعر الخسارة والفراغ بموته، وأن يتقبل كل مسلم العزاء فيه.

فسلام عليك أيها الإمام العظيم يوم ولدت ويوم مت ويوم تبعث حيا.

محمد النادى البدرى

* * *

كان لوفاة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر رنة أسى تردد صداها فى كل نفس، ومس وقعها كل قلب، وأحس الفراغ العظيم بفقده كل مجلس علم، كان له من اجتهاده نصيب، وكل مؤتمر كان له من رأيه الناضج وفهمه الصادق حظ، وكل مشكلة وجدت فى سعة أفقه ونفاذ بصيرته الحل.

وعلى امتداد أربعين سنة أو تزيد عاشت فى جلال نداءاته إلى الله الملايين، واستمعت إليه محدثا وموجها ومجددا ومجتهدا وقرأت له باحثا فى الدين ومنقبا واستمتعت بسعة علمه وفقهه، وسماحة بحثه وشجاعة رأيه.

وفى وفاة مؤمن بكته جماهير المسلمين فى كل بلد إسلامى، وتقاسمت الحزن عليه والعزاء فيه:

ففى جريدة الأخبار كتب الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد تحت عنوان «إمام التوفيق والتقريب» قال:

... كانت رسالته أوفق رسالة لمن يتولى مشيخة الأزهر فى زمانه، وهو الزمان الذى حق فيه لهذا المعهد الخالد أن يصبح فى العالم الإسلامى كعبته العلمية مع كعبته المقدسة فى مكة المكرمة، وتلك هى رسالة التقريب بين المذاهب [1]، وتقدير مواضع الخلاف

---

(١) كان فضيلة الإمام الأكبر أحد المؤسسين لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة عام ١٩٤٧ م.

بينها بقدرها الصحيح الذى يتنزه مع العلم والإخلاص، وشجاعة الرأى عن جمود التقليد وغلو المحافظة بغير وعى ولا دراية، والذى لا يمنعه عرفان الحق لإمام المذهب أن يعرف للمخالفين بعده حقهم فى التعقيب عليه والموازنة بين صوابه وما ليس بصواب بعد عصره أو فى إبان عصره عن خطأ لا عصمة منه الإنسان ...

ثم قال: ولقد كان يسعدنا الوقت فى الفترات بين مواعيد اللجان أحيانا أن نستمع إلى رأى الشيخ فى خلافات الأئمة، فلا نذكر أننا سمعنا من شيخ من شيوخ الدين رأياً خيراً من هذه الآراء فيما اتفق لها من حرية الفكر، ومن حسن الأدب فى تقدير السلف الصالح، من خالفه منهم، ومن وافقه على سواء».

وكتب الأستاذ محمد زكى عبد القادر قال:

التقيت بالمرحوم الشيخ شلتوت فى أكثر من مجلس وأكثر من مناسبة، وجرت لى معه مناقشات كثيرة عن الإسلام ومضمون دعوته، وفى كل هذه المقابلات والمساجلات لمحت فى الشيخ بصيرة متفتحة، وذكاء وقاداً، وتحررا لا يبلغ به حد أيعاب ولم ألمح فيه جموداً عند نص أو حكم، ولكن لمحت دائما رغبة فى التوفيق بين الدين والحياة، إيمانا منه أن الدين هو الحياة.

وفى جريدة الأهرام كتب الأستاذ صلاح دسوقى قال:

«لقد التقيت بالإمام الأكبر على صفحات مؤلفاته، والتقيت به عن قرب، وكان لقائى به فى كلتا الحالتين لقاء إعجاب وإكبار. كنت أراه رجل الحق والحقيقة، رجل السلام والجهاد ... رجل العقيدة والعمل.

كان يؤمن بأن الدين يبارك التطور الإنسانى والتقدم البشرى، وكان يؤمن بأن الدين لا يقف أبداً أمام الاتجاهات التحررية التى يقوم بها البشر من أجل الحياة الأفضل ما دامت هذه الاتجاهات لا تمس جوهر الدين والعقيدة».

* * *

وفى أخبار اليوم كتب الأستاذ كامل الشناوى قال:

«كنت كلما التقيت بالإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت أحسست أنى أواجه تقوى ثائرة تؤمن بالله والإنسانية والحياة. فقد كانت عقليته متفتحة للمعرفة على اختلافها، وكان تبحره فى العلوم الإسلامية وفهمه لحقيقة الدين يثير الانتباه إليه، ولم أعرف بين رجال الدين من يفوقه فى قوة الجدل، وسلامة المنطق، والقدرة على الإقناع، والاستعداد للإصغاء إلى الرأى المعارض بسماحة ذهنية وصدر رحب».

وفى جريدة «وطنى» كتب الدكتور أحمد عبد المنعم البهى قال :

«كان الإمام الأكبر يرى أن رسالة العالم الإسلامى لا تقتصر على أداء دروسه، أو إلقاء محاضراته على طلبته فحسب، فربما كان هذا فى نظره أقل واجباته. أما مهمته الأولى فهى هداية الناس وإرشادهم ونصحهم وتوجيههم بإلقاء المحاضرات وجمع الكلمة والقضاء على المنازعات وذلك لا يكون إلا باندماج العالم فى هذه المجالات».

* * *

وفى جريدة الثورة السودانية :

فقيد الإسلام الشيخ شلتوت :

قضت القاهرة أمس الأول يوما حزينا وانتشر الحزن منها إلى جميع أرجاء العالم العربى والإسلامى لوفاة فقيد الإسلام والمسلمين الشيخ الأكبر والإمام الأشهر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر رحمه الله.

سكت الصوت الذى كان يدوى بنور المعرفة ويجلجل بالدعوة إلى الله ولكن صداه لن يخفت وجرسه لن ينقطع وأثره لن يموت.. سكت القلب الذى كانت تنبعث منه الدعوة إلى - الإسلام دين الحياة.

ولكن الحركة التى بعثها لن تهدأ والشرارة التى أوقدها لن تخبو. اختفى وراء الغيب ذلك العقل المؤمن الذى طبع الله فيه العلم وعبأه بالحكمة ولكن آثاره ستظل باقية وروائعه ستبقى خالدة.

كان الشيخ محمود شلتوت وارثا أمينا لتعاليم جمال الدين وشجاعته. وحافظا مؤمنا لفلسفة محمد عبده وجهاده. ولقى بعدهما من عنت القصور واستبداد الحكام وغلو الرجعية مثل ما لقيا فكان مثلهما فى صبره فى تمسكه بالحق فى قيامه بأوامر الدين ووقوفه مع نواهيه مثلهما مجدداً شجاعا أقصاه الحكام يوما عن وظائف الدرس وأقصوه عن حرمه المحمى وعرينه الأشب فى صحن الأزهر الشريف ولكنه كان ينافح فى كل مكان ويجاهد فى كل مقام ولا يخضع لذوى المقامات مهما طغوا.

إلى أن عاد إلى مكانه فى الأزهر ومقامه فى معاهده واعتباره بين المسلمين مع ثورة الشعب العربى.. فى نطاق قضائها على جمود الفقه وركود العقل واستغلال الدين..

لقد حرر الشيخ شلتوت رحاب الأزهر فدخلته الفتاة. ووسع مجال هدايته فجاء إليه شباب أوربا وأمريكا.. ورفع صوته فبلغ مشارق الأرض ومغاربها.. وأوضح سبيل الدين فوجدت كل دعوة جديدة أصولها فيه وانتماءها إليه.. رحمه الله وعوض الأمة الإسلامية عن فقده الضخم.

وفى جريدة الرأى العام السودانية :

رحم الله العالم الجليل الشيخ شلتوت..

تتلمذنا عليه عن بعد ومن زمن طويل منذ أن بدأ يكتب فى مجلة الرسالة فى عهدها الأول الزاهر ، يكتب عن الدين بأسلوب جديد مشرق ويعرض قضاياه الفقهية فى تبصر وفهم لأصولها ، وتبصر وفهم لقضايا الحياة الاجتماعية المتجددة من حوله ، ذلكم هو العالم العامل الجليل محمود شلتوت التى نعته الأنباء يوم أمس الأول والذى شاء الله له أن يغادر هذه الدنيا فى يوم من أيام الإسلام المقدسة ، فى ليلة الإسراء والمعراج .

وما أحسب أن عالما من علماء الدين الإسلامى جذب اهتمام الناس إليه وحببت إليهم الدراسات الدينية كهذا العالم الجليل الذى فقدناه بالأمس لما امتاز به من فهم عميق لشئون دينه ونظرة حرة صادقة لهذه الشئون ، فكل ما جاز فيه أعمال الرأى والاجتهاد لم يتردد فى أن يعمل رأيه ويجتهد ، رائده فى ذلك مصلحة المسلمين وتحقيق الخير لهم يساعفه فى أعمال الرأى ثقافة إسلامية واسعة النطاق ، وعلم واسع أحاط بدقائق الفقه الإسلامى وبآراء من سبقوه ممن يعتد بهم من الباحثين والعلماء .

وقد خلف وراءه ـ رحمه الله رحمة واسعة وأثابه الجنة ـ مكتبة إسلامية عظيمة تتحدث بمدى علمه الغزير وآرائه الثاقبة ، فما من موضوع أثار نقاشاً واهتم به الناس إلا تصدى له بالقول الفصل عن دراسة صائبة وبحث على مستوف وقدم فيه كتاباً يعتبر مرجعاً لهذا الموضوع .

وهو فى كل ما يكتب يؤكد حقيقة هذا الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان ، وإنه دين ودنيا ...

ولعل القراء يعرفون أنه بدأ فى تفسير القرآن وأنه أكمل حتى الآن تفسير العشرة الأوائل من القرآن ، وماكان أروعه من تفسير دقيق على مبسط يقرب فهم آى القرآن لكل ذى فهم عادى .

وكم تمنينا لو امتدت به الأيام حتى يكمل أداء هذه الرسالة السامية ويصدر تفسيره الكامل للقرآن كله ... ولما كان أجدره بتحقيق هذه الرسالة وأخلقه بها .

والمغفور له الشيخ شلتوت يذكرنا بهؤلاء العلماء الأفذاذ الذين برزوا فى التاريخ الاسلامى أخيراً ، كجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده رحمهم الله جميعاً ، الذين تعمقوا فى فهم رسالة الدين وأحاطوا بدقائق الرسالة الاسلامية واجتهدوا فيما يحق فيه الاجتهاد ، وأثار ذلك عليهم سخط الذين يكرهون التطور فى أى صورة جاء ويفسرون كل ما اختلف فى فهمه أو لم يرد فيه نص جازم بما يوحى بالجمود والوقوف عند صورة معينة من الحياة الاجتماعية لم يعد لها وجود فى واقع الناس .

وسيظل اسم هذا الرجل العظيم خالداً فى التاريخ من بين الشوامخ الذين يهتدى بهم المصلحون ، ويحذون حذوهم ، وهم يحملون رسالة الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان .

وستكون كتبه العظيمة التى خلفها بعده مدرسة كاملة لطلاب المعرفة والباحثين عن الحقيقة كلما أبهم عليهم شأن من شئون الدين ، أو دار خلاف حوله .

وإلى رحاب الخلد روحه الطاهرة لقاء ما قدم للدين الاسلامى والمسلمين من جهاد صادق لانارة الطريق لسالكيه ، وتحبيب هذا الدين للقلوب ، وارتباطه بكل جديد نافع فى حياة الناس .

* * *

بهذه الكلمات المخلصة نعى الكتاب الإمام الأكبر إلى العالم الإسلامى ، وبهذه العبارات المتاعة بعث ملوك ورؤساء الدول الإسلامية برقيات التعزية إلى مشيخة الأزهر ، وأسرة الإمام الأكبر . كما ورد لدار التقريب بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة كثير من الرسائل والبرقيات التى تواسى فى فقيد الإسلام ورجل التقريب وفيما يلى بعض برقيات رؤساء الدول والهيئات العربية والإسلامية .

قال الرئيس عبد السلام عارف رئيس جمهورية العراق : إن فقدان الشيخ شلتوت مصيبة عمت العروبة والإسلام ، نشاطركم الأسى ، وباسمى وباسم الشعب العراقى نقدم تعازينا لكم ولأسرة الفقيد بل وللعروبة والإسلام سائلين البارى أن يسكنه الجنان وللجميع الصبر والسلوان .

• ومن الهيئة العلمية الإسلامية بالقدس :

لقد فجع العالم الإسلامى بوفاة علم من أبرز أعلام الإسلام ، المرحوم العلامة فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الذى وقف حياته على خدمة الإسلام ودفع الشبه عنه ، وبين حكم الله فى كثير من الأمور التى كان يحيط بها الخفاء بفضل آرائه السديدة وأفكاره الثاقبة ، فعزاء للعلم وأهله وللأمة جميعها ، وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين وعن الإنسانية كلها خير الجزاء .

• ومن مؤسسة التربية الإسلامية بأندونيسيا :

فى هذه الأوان العصيبة الحرجة التى تعانى فيها الفكرة الإسلامية شتى ألوان الضغط والتى تزيغ فيها أبصار المسلم العادى باحثة عن المنقذين فى أشخاص الرواد الذين لا يجود بهم الزمان إلا نادراً ، فى هذه الآونة تلقينا نبأ انتقال فضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت إلى جوار الرفيق الأعلى ، فكان نبأ موجعاً للقلب ، ومزلزلا لكيان أولئك الذين يحملون نفس الرسالة ، ويسيرون فى نفس الاتجاه ، كما كان له رنة حزن فى مؤسسة التربية

الاسلامية التي ما تزال تذكر أياديه البيضاء عليها بالشكر والتقدير والعرفان .

* * *

ومن جامعة مدينة العلم ببغداد :

إن جامعة مدينة العلم المفجوعة بفقد إمامها الشيخ الخالص قدس الله سره تعزى الأزهر الشريف بفقيد العلم والدين الشيخ محمود شلتوت صنو إمامنا الراحل في الدعوة إلى وحدة المسلمين تغمدهما الله برحمته الواسعة ، ووفق المسلمين للسير على نهجهما في الاعتصام بحبل الله المتين .

* * *

ومن الكلية الإسلامية العليا بالملايو :

لست أدرى كيف أكتب معزيا فيمن مصيبتنا فيه مصيبة الإسلام ، وفجيعتنا بموته فجيعة المسلمين ، ولكن مما يسرى عنها قليلا أن الله تعالى قبض إليه تلك الروح الكريمة يوم ذكرى الاسراء والمعراج المباركة ، وما نتوقعه له عنده تعالى جزاء ما قدمت يداه للإسلام والعلم من إرشادات ومعارف يسترشد بها ملايين المسلمين ،

* * *

ومن علماء الشيعة بالعراق أبرق سماحة الإمام السيد محسن الطباطبائى الحكيم :

فاجعة الأزهر الشريف بوفاة شيخه الجليل خسارة نسأل الله تعالى أن يتداركه بلطفه ، تعازينا للعلماء الأعلام ، ونبتهل إلى الله أن يجعلهم كما يريدهم الإسلام في الهداية والإرشاد .

* * *

وقال سماحة العلامة السيد محمد الشيرازى :

نعزى رجال العلم والدين لفقد العلامة الأكبر الشيخ محمود شلتوت ونسأل الله تعالى أن يجعل خلفه حاذيا حذوه في الاهتمام بجمع الكلمة .

* * *

وأبرق سماحة العلامة السيد كاشف الغطاء :

نشاطركم الأسى والأسف لفقد الإمام الراحل .

* * *

ومن علماء الشيعة بإيران أبرق سماحة العلامة الامام السيد كاظم آل شريعتمدارى قال :

لقد خسر الاسلام والمسلمون عالما كبيرا هو الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر .

* * *

وقال سماحة العلامة السيد محمد هادى الحسنى الميلانى :

خسر العلم ركنا من أركانه بوفاة سماحة العلامة الشيخ محمود شلتوت نشاطركم المصاب وبكم السلوى ، وفقكم الله لخدمة الإسلام .

جماعة المسلمين الأمريكية فى توليدوا وأوهيو يبعثون إليكم بحزنهم العميق

ويشاطرونكم الحزن لفقد الإمام الأكبر محمود شلتوت .

* * *

فوجئت بعد منتصف الليل بإذاعة القاهرة تعلن وفاة طود العلم الراسخ . والمجد الشامخ شيخ الإسلام وعلم الأعلام . وقدوة الأنام وأحد أولياء الله الكرام .

اصبرنا الله وإياكم ورحمه الله وغفر له ورضى عنه وقدس روحه فى أعلى فراديس الجنان .

شيخ الإسلام
إبراهيم نياس
السنغال ـ كولاخ

* * *

إننا نشاطر الأزهر حزنه العميق لفقد شيخه الجليل محمود شلتوت وقد كرسنا جزءا من دروسنا ومحاضراتنا لتأبينه والإشادة بفضله وعرض تراثه الخصيب .

ودعواتنا أن يعوض الله العالم الإسلامى عن فقده خيرا .

الفاضل بن عاشور
عميد الكلية الزيتونية ـ تونس

* * *

جمعية الهداية والإرشاد الإسلامية ببيروت وقد أصابتها الكارثة بفقد علم من أعلام الإسلام ناضل عنه بقلمه ولسانه تتطلع إلى العلى القدير أن يكون الخلف كالسلف فى توحيد كلمة الإسلام وتوحيد صفوف المسلمين .

أمين السر
حسين الخطيب

* * *

ارتحل العلامة الشيخ محمود شلتوت إلى جوار ربه الكريم ففقد الإسلام ابنا بارا وفقد المسلمون زعيما مخلصا طالما دعا إلى الوحدة الإسلامية .

نرجو الله أن يستخلفه من يقفو أثره ويتابع رسالته ؟

كراتشى ـ نيو تان

الشيخ محمد
رئيس علماء العشيرة الإسلامية

* * *

تلقى مسلمو الاتحاد السوفيتى خبر وفاة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت بالحزن العميق ، أسكنه الله فسيح جناته وبارك مثواه ، وإن المسلمين بالاتحاد السوفيتى يعتبرون فقده خسارة عظمى للعالم الإسلامى ويعزون أساتذة الأزهر وتلاميذه وجميع أفراد الأسرة الكريمة .

المفتى
زين الدين باباخان

* * *

تقبلوا خالص العزاء من الجماعة الإسلامية وشعب باكستان لفقد العالم الكبير الشيخ محمود شلتوت رحمه الله رحمة واسعة

لاهور - توفيق محمد

سكرتير عام الجمعية الإسلامية

لاهور - باكستان

* * *

كان لوفاة الأستاذ الأكبر العلامة الشيخ محمود شلتوت وقع أليم وحزن عميق وخسارة عظيمة حلت بالعالم الإسلامي والعربي، وإنني وجميع علماء سورية نشاطركم الأسى في هذا المصاب الأليم.

تغمد الله الفقيد الراحل بواسع رحمته وعوض المسلمين والعرب خيرا بفقده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

عبد الرازق الحمصي

المفتش العام للجمهورية السورية

* * *

كشف

بأسماء السادة رؤساء الروابط الاسلامية وأساتذة الجامعات الأجنبية ورؤساء العشائر الذين شاركوا في تعزية مشيخة الأزهر والأسرة في فقد الإمام الأكبر

١ — الدكتور ذاكر حسين - نائب رئيس جمهورية الهند.

٢ — السيد / فالترفيبر - سفير جمهورية ألمانيا الاتحادية بالقاهرة.

٣ — السيد / محمود عزيز سير بجار - رئيس جمعية الطلبة الأندونيسيين بالقاهرة.

٤ — فضيلة زين الدين باباخان - مفتي طشقند - الاتحاد السوفيتي.

٥ — السيد / ليمن علام - الجمعية الاسلامية الموريتانية.

٦ — السيد / حسن السعيد - مسجد طهران.

٧ — الأستاذ أبو الحسن علي الندوي - لكهناو.

٨ — فضيلة الشيخ محمد - رئيس علماء العشيرة الاسلامية - كراتشي - نياناون.

٩ — الأستاذ حسيم عميرى - رئيس الجمعية الاسلامية - قرطبة.

١٠ — الأستاذ السيد كاظم الشيرازي (قطر).

١١ — صاحب السعادة محمد أمين أزهري - القائم بأعمال سفارة أندونيسيا.

١٢ — رئيس جمعية رابطة العلماء ببغداد.

١٣ — الأستاذ أمين السمر حسين الخطيب - بيروت.

١٤ ــ الفاضل بن عاشور ــ عميد الكلية الزيتونية بتونس .
١٥ ــ عميد كلية الفقه ــ بغداد .
١٦ ــ الأستاذ عبد العزيز الشواف ــ رئيس جمعية الهداية الإسلامية ــ بغداد .
١٧ ــ الأستاذ إسماعيل الأيوبى ــ بغداد .
١٨ ــ الأستاذ محمد الشيرازى ــ كربلاء .
١٩ ــ الأستاذ محسن الطبطبائى الحكيم ــ نجف .
٢٠ ــ الأستاذ الدكتورى ف . فويك ــ مدير معهد الاستشراق ــ جامعة جوتنبرج (برلين) .
٢١ ــ سعادة يون شان بلاك ــ سفير كبوديا ــ القاهرة .
٢٢ ــ غبطة بطريرك الأرستولية المسيحية ــ القاهرة .
٢٣ ــ سعادة رازى ميرز ميدور ــ سفير بولونيا ــ القاهرة .
٢٤ ــ سكرتير بطريركية الأرمن الكاثوليكية الآب يوسف صبأ ــ القاهرة .
٢٥ ــ غبطة اسطفانوس الأول ــ بطريرك الأقباط الكاثوليك ــ القاهرة .
٢٦ ــ غبطة البطران بطرس هيرا مطران طائفة الغربال ــ الكاثوليك ــ القاهرة .
٢٧ ــ سعادة سفير إيطاليا ــ القاهرة .
٢٨ ــ سعادة سفير يوغوسلافيا ــ القاهرة .
٢٩ ــ الدكتور لوثر راثمان ــ مدير معهد كارل ماركس للاستشراق ــ ليبزج ــ ألمانيا .
٣٠ ــ سعادة فلاديمير بوردانوف ــ مدير المركز الثقافى السوفيتى ــ القاهرة .
٣١ ــ سعادة سفير بورما ــ القاهرة .
٣٢ ــ الدكتور اسكندر أبادير ــ سمالوط ــ المنيـــا .
٣٣ ــ أسرة مدرسة الفرنسيسكان للبنين ــ الفيوم .
٣٤ ــ غبطة البـــابا كيرلس السادس ــ بطريرك الأقبـــاط الأرثوذكس ــ الأسكندرية .
٣٥ ــ سعادة سفير بريطانيا .
٣٦ ــ سعادة سفير الهند .

فتاوى مختارة..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

[الإجابة للجنة الفتوى بالأزهر ولفضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين]

فى ذمة الله :

على هذه الصفحات من المجلة طالما طالع السادة القراء أجوبة - لفضيلة الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر - كانت رشداً للحائر وهديا للمتردد ، وجوابا شافياً للسائل ، فحق على الباب أن ينعى فيه علما من أعلام الحق ، ومناراً أشع بالهدى والعلم ، وأضاء بالموعظة والحكمة واستضاء بالكتاب والسنة .

أسلم - رحمه الله - الروح فى ليلة من ليالى الله المعدودة بعد حياة كريمة حافلة بالتحصيل النافع ، والجهاد الدائب ، والتبيين الواضح ، والشرح المستفيض ، مع إجمال إعمال الفكر ، وإجالة الرأى فعد - بحق - فى الأئمة المجتهدين - ولقد شيع جثمانه الطاهر الخاصة والعامة ، وبكاه القريب والبعيد وصعدت مع الزفرات عليه دعوات حارة له ، فنتوجه بأسى مع الداعين إلى المولى جل وعلا أن يجزل له المثوبة فى جواره ، وفاق ما قدم لأمته من خير ، وبذل فى سبيلها من جهد . هذا وسنوالى إن شاء الله من حين لآخر نشر مختار من فتاويه المدونة فى المسائل التى يستفسر عنها السادة القراء وعرض فضيلته لها من قبل بالاجابة والتفصيل .

السؤال :

ما حكم شرب البيرة والاتجار بها - وشرب الكينا للتقوية والتداوى بالخمر ؟

اسماعيل عبد الرحمن اسماعيل - القوات المسلحة

الجواب :

جاء فى تقرير المؤتمر الدولى لمكافحة المسكرات عام ١٩٣٩ عن البيرة قوله :

« إن إنتاج هذا الشراب وغيره من أنواع الخمور لا يستفيد منه إلا صانعه وبائعه ، أما ضحاياه فهم : أولئك الذين أغوتهم الأهواء بإدمانه وتعاطيه » .

لقد اعتبر هذا المؤتمر أن البيرة من أنواع الخمر وهى على كل حال حسبما تذكر التقارير تحتوى على نسبة من الكحول تتفاوت كثرة وقلة . وإذا لم يكن قليلها مسكراً فكثيرها لا شك مسكر . وقد قال صلوات الله عليه فيما رواه الإمام أحمد وابن ماجه والدارقطنى « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

وقد روى البخارى ومسلم « أن رسول الله عليه وسلم حرم المزر ، وهو شراب كان يتخذه أهل اليمن من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد ، وهذا نص فى البيرة فيقول صلوات الله عليه فيما رواه ابن ماجه « إن من الحنطة خمرا ومن الشعير خمرا » . وروى مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل مسكر خمر وكل مسكر حرام » من هذا تبين أن البيرة خمر ، وأنها حرام .

وكذلك حكم الكينا المخلوطه بالخمر ، ولا عبرة باختلاف الأسماء ، فقد قال صلوات الله عليه : (يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها) .

أما الاتجار فيها فهو داخل فى نطاق اللعنة التى صبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : « لعنت الخمر على عشرة أوجه : بعينها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها وشاربها وساقيها .

أما شربها للتداوى : فقد سأل طارق بن سويد الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخمر يصنعها الدواء ، فنهاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك وقال هذه الكلمة التى هى الحكمة كل الحكمة : إنه ليس بدواء ولكنه داء .

وفيما رواه ابن ماجه فى صحيحه قوله صلوات الله عليه : إن الله لم يجعل شفاؤكم فى حرام » :

(أجاب عن هذا السؤال فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود عميد كلية أصول الدين) .

المسح على اللزقة :

السؤال :

هل يمنع وجود اللزقة الأمريكانية على الجسد بمكان به ألم من رفع الجنابة إذا أراد الإنسان الغسل منها ؟

عيد الصردى ـ اسكندرية

الجواب :

مذهب الحنفية يجب على الجنب غسل كل جزء من أجزاء البدن ، فإن ضره الغسل بالماء مطلقا ولو ساخنا مسح الجزء الذى يضره الغسل ، فإن ضره مسحه أيضا مسح على الجبيرة أو الخرقة ومثلهما اللزقة ، فإن ضره المسح على ذلك أيضا سقط عنه هذا الواجب وبهذا يعلم حكم هذه الحادثة فإنه إن ضره غسل موضع اللزقة وضره أيضا مسحه أو ضره حلها ، ليغسل ما تحتها أو يمسحه ، مسح على اللزقة ، فإن ضره المسح عليها لم يجب عليه شىء بالنسبة إلى هذا الموضع ، ويكفى فى معرفة الضرر التجربة أو إخبار طبيب موثوق به ولو غير مسلم ، على ما ذهب إليه بعض العلماء .

عدة المتوفى عنها زوجها مع ادعاء الحمل :

السؤال :

امرأة توفى زوجها منذ سبعة أشهر والآن لم تخرج من عدة الوفاة بسبب حمل موهوم لازمها زمناً طويلا إذ تدعى هذه السيدة أن الحمل ضاع فى ظهرها فى حياة زوجها أكثر من سنتين .

وبناء على دعواها تكون مدة الحمل الموهوم سنتين وسبعة أشهر ولم يحصل عليها أثر هذا الحمل لا فى بطنها ولا فى ظهرها كما تدعى .

فنرجو التكرم ببيان المدة التى تنتهى فيها عدة وفاة امرأة توفى زوجها ؟

عثمان صالح عمر ـ أرتريا

الجواب :

دعوى هذه المرأة وجود حمل عندها طول هذه المدة سنتان وسبعة شهور مع عدم ظهور آثار الحمل تعتبر من قبيل الدعاوى المشكوك فى صحتها ، خصوصاً أنها تقول إن الحمل انتقل إلى ظهرها وذلك أمر غير معروف .

وعلى هذا يجب عرضها على أهل الاختصاص من رجال الطب العدول فإذا تبين أنها حامل أو غير حامل أمكن تطبيق الحكم الشرعى عليها فيما يتعلق بانتهاء عدتها أو عدم انتهائها .

بناء القبور بالآجر :

السؤال :

جرت العادة فى سيام على بناء قبور الموتى من الطوب الأحمر ـ وذلك صيانة لها من تسرب مياه الأمطار الغزيرة إليها . ثم يقام بناء من نفس الطوب فوق القبور لحمايتها من المطر وفى الغالب يجعل جزؤها الأعلى من الأسمنت .

وقد اختلف المسلمون هنا فى شأن الطوب الأحمر المحروق لأنه دخل النار ـ فقال فريق منهم لا ينبغى أن يبنى قبر الميت بشىء دخل النار ـ وبناء على ذلك أوقف دفن الموتى فى هذه القبور التى تم بناؤها حتى يأتى لنا رأى فى جواز الدفن فيها أو تحريمه . لقمان مايولين ـ سيام

الجواب :

الشافعية لا يفرقون بين اللبن وغيره ومنه الآجر أى الطوب المحروق فى بناء القبور . وأما الحنفية والحنابلة فقد كرهوا البناء بالآجر كراهة تنزيه إلا إذا كان منع تسرب المياه متوقفا على البناء به فعند ذلك يجوز بلا كراهة

وأما بناء القبر فوق الأرض فنص الشافعية على حرمته إذا كان فى أرض غير مملوكة وعلى كراهته إذا كان فى أرض مملوكة وعند الحنفية يكره بناء القباب على ما نقله ابن عابدين .

ومن ذلك يعلم أن الأجدر بالمسلمين أن يتبعوا فى القبور السنة النبوية ولا يبنوا قبابا أو نحوها فوق القبور التى فى المقابر العامة .

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : عبد الرحيم فوده

ترجمة القرآن

وكانت ترجمة القرآن العظيم إلى غير لسانه العربى وهما يطوف بالأحلام ، ونجوى يتخافت بها المتناجون فى الظلام ، حتى ضجت الجوانح والقلوب حينما أمر بالترجمة ودعا إليها إمام من أئمة المسلمين كان شيخاً للجامع الأزهر ، إذ دعا دعوته إلى الترجمة فثارت أمام دعوته عواصف قاصفة ، وزوابع هاتفة ، وإذا بعلماء يكتبون ويطبعون وينشرون تقدم الدعوة إلى الترجمة وزرايتهم عليها ، وبدا الإمام غضبان أسفا ، فلم يكن النقد قاصداً ، ولم تكن المجادلة بالتى هى أحسن

ولما هدأت العواصف ، وسكنت الزوابع وتهافتت ثائرة المعارضين ، ولما سكت عن الإمام الغضب ، وكنت أصفيه مودة صدق ، وكان كريما أثيرا لدى ، سألته ولم أكن ظاهرته ولا ظاهرت عليه ، كأنما أستشيره وأستنصحه .

أترى أن لدعاة ترجمة القرآن إلى اللغات الأعجمية قدرة تنقل إلى العجمة ديباجة القرآن فى صفائها وجلائها ، وأسلوبه فى براعته وروعته ، ونصح القرآن فى حكمته وهدايته ، ووعظه فى قوته ومتانته ، وزجره فى شدته ونقمته ، وتبشيره فى حسنه وحليته .. ؟

وهل يقدرون أن ينقلوا إلى الأعجمية قوله الحق ووعده الصدق ، وكلماته فى فصاحتها وبلاغتها ، وقصصه فى رونقه وبهائه ، إلى حديثه بالغيوب ، وإلى آيات أحكامه فى جليل حكمتها وعلو آدابها ، وإلى إعجازه بكل أولئك للناس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . « وإنه لتنزيل من رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين » . .

وهل فى الأعجمية بيان العربية ، وهل تتفتح على قارئى التراجم ما يتفتح على الذين يتلون كتاب الله كلما تلوه من كنوز الهداية والحكمة ومن جواهر المعانى كأنها كوكب درى وكأنها اللؤلؤ المكنون . وكأنها الياقوت والمرجان ؟ أوهل تنغلق هذه الكنوز وترتج أبوابها . فلا تنفتح إذا جمدت الترجمة على المعنى الذى فهمه المترجم حقا أو باطلا ، جليلا أو ضئيلا ، « وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

أو ليست ترجمة القرآن إلى الأعجمية باطلا

قضى الله ألا يأتى كتابه العزيز من بين يديه ولا من خلفه ..؟

وأنصت الإمام يستمع رزينا مطمئنا، ثم أجاب فى وقاره وسكينته (وددت) أن يوضع كتاب جامع فى دين الإسلام تكون ترجمته لغير اللسان العربى أيسر وأقرب من ترجمة القرآن العظيم.

الأستاذ عباس الجمل

من كتابه آية البر

التعليق: إن ترجمة القرآن إلى غير اللغة العربية باطل قضى الله ألا يأتى كتابه من بين يديه ولا من خلفه. كما قال صاحب هذه الكلمة - رحمه الله - وقد انعقد الإجماع على استحالة هذه الترجمة. وكل ما كان يقال كان يدور حول ترجمة تفسير القرآن كما انتهى إلى ذلك الرأى وحتى ذلك الرأى قضى الله أن يظل مجرد رأى فى مصر، بلد الأزهر وعلوم القرآن.

خلف كل شىء..

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة جاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله، فقال له عمر: مالى ولك؟ تنح عنى، إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد فصعد المنبر، واجتمع الناس إليه فقال: أيها الناس، إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه. ولا طلب له. ولا مشورة من المسلمين، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون، فصاح المسلمون صيحة واحدة: قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا، رضينا كلنا بك، فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال: أوصيكم بتقوى الله. فإن تقوى الله خلف كل شىء وليس من تقوى الله خلف، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات، وأحسنوا الإستعداد له قبل نزوله، وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى كتابها ولا فى نبيها، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم، وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا، ولا أمنع أحدا حقاً

للأستاذ أحمد حمدان عبد الوهاب

من مجلة نور اليقين - بغزة

ليلة النصف:

فليلة النصف لم يصح فى صلاتها حديث، والاجتماع لإحيائها فى المساجد وغيرها لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وحديث النزول فيها إلى السماء الدنيا راويه وضاع، ودعاؤها الذى يتلقنه الناس بعضهم من بعض ويحفظه متعلمهم وجاهلهم على خلل فى التلقين دعاء يحتوى على أمرين كلاهما يؤدى إلى تفسير القرآن بما لا يشهد بصحته نقل ولا عقل.

المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في تحريرها
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزءان السابع والثامن - السنة الخامسة والثلاثون - رمضان وشوال سنة ١٣٨٣ هـ - فبراير ومارس ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مدى التجديد المقبول في الأدب

بقلم : أحمد حسن الزيات

التجدد والتجديد طبيعة في الحياة والحي . سنة الله في كونه . . لا تجد شيئاً يثبت على وضع ، ولا إنساناً يدوم على حال . إنما هو التطور الحتمي الذي يخرج بالخليقة من النقص إلى الكمال ومن الحسن إلى الأحسن ، تبعاً لعوامل تؤثر في الفكر الاجتماعي من دين وعلم وحضارة وخلق .

واللغة علومها من أدب وقواعد وأساليب محكومة بهذا القانون الطبيعي لا تستطيع أن تجمد والإنسان يتطور ، ولا أن تقف والعالم يسير . ولقد ظلت أداة التعبير وما يصدر عنها من نثر ونظم جارية على سنن الجاهليين والإسلاميين في الألفاظ والتراكيب والأساليب لا يختلف فيها شاعر عن شاعر ولا خطيب عن خطيب ، اللهم إلا ما اقتضاه التحضر من إيثار اللفظ الرقيق وتوخي الأسلوب العذب .. لذلك كان النقاد الأقدمون إنما يختلفون في شكل الشعر لا في مضمونه . فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك ، والأسلوب الرصين والمهلهل ، والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد

والردىء، والتخلص الحسن والقبيح. ويجرون فى كل أولئك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والأجناس. وعذرهم فى ذلك واضح. فإن الشعراء لأسباب فطرية واجتماعية لم يقدموا إليهم إلا نوعا واحداً من الشعر هو ما يتصل بالوجدان والعاطفة. فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربى ونقصه مسوقين إلى أن يحصروا جهودهم فى لفظه. والشكل الخارجى حكمه حكم اللباس والأثاث والآنية: يتغير بحكم الزمان والمكان والحالة، ليس لأحد فى ذلك حيلة.

لم يحدث التجديد الحق فى الأدب إلا حين ازدهرت الحضارة العربية فى العراق والأندلس واقتضت الأحوال الاجتماعية تطور النثر والنظم فاستحدثوا فى فنون الكتابة الرسائل والمقالات والمقامات والقصص، وفى فنون الشعر الموشح والزجل والدوبيت والمواليا. وزادوا فى العروض المستطيل والممتد، وفى القافية المسمط والمزدوج. ثم انحسرت ظلال الأدب العربى قبل أن تعبد طرقه وتمحص قواعده ويكمل نقصه. وطمت سيول العجمة على ما بذر عبد القاهر وابن الأثير من بذور البلاغة والنقد فأعاقته عن النماء والتفرع. وأخذت الألسنة العيية تتحرك فى هذا التراث المضاع بالهراء والهذر، فعفوا طرائقه وشوهوا حقائقه، ثم ألقوه بين أيدينا جثة يتردد فيها ذماء، وصورة لا يجول فيها رونق ولا ماء. فنظرنا فيه فإذا هو مسيخ الخلق منكر الطلعة لا إلى القديم ولا إلى الحديث. فأخذنا نجدد هذا الأدب البالى بالشرح والتلخيص والدرس دون أن ندعم أساسه الواهى ولا أن نرفع بناءه المنقض.

لقد اختلفت مذاهب الكلام وتعددت أغراض الكتابة وتنوعت فنون الشعر، ورأى شبابنا فى الأدب الأوربى صوراً حقيقية حية لما يجول فى نفوسهم من الهوى والأمل والفكر فأقبلوا عليه وتركوا أدبنا الصناعى التقليدى يدوى على ألسنة المحافظين وأقلام الجامدين من بقايا العهد القديم.

فالحال إذن تنادى بإعادة النظر فى علوم الأدب ليصلح منها الفاسد، ويتم الناقص، ويفصل المجمل حتى تتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر وحاجات الناس، فإن الأدب أصبح اليوم شعبيا فيه لكل نمط نصيب ولكل حال صورة ولكل غاية مسلك.

وأما التجديد فى اللغة فيكون بقبول ما وضع المولدون والمحدثون من الألفاظ والتراكيب والمصطلحات؛ لأن اللغة ألفاظ يعبر بها كل

قوم من أغراضهم وأفكارهم ، والأغراض لا تنتهى والمعانى لا تنفد ، والناس لا يستطيعون أن يعيشوا خرسا وهم يرون الأغراض تتجدد والمعانى تتولد والحضارة ترميهم كل يوم بمخترع والعلوم تطالبهم كل ساعة بمصطلح . ولا علة لهذا الخرس إلا أن البدو المحصورين فى حدود الزمان والمكان لم يتنبئوا بحدوث هذه الأشياء ، ولم يضعوا لها ما يناسبها من الأسماء . بذلك ينهار السد الذى أقامه اللغويون والأدباء الأولون بين الفصحى والعامية فتكسب الفصحى من العامية السعة والمرونة والجدة ، وتكتسب العامية من الفصحى السلامة والصيانة والسمو ، فيكون لنا من تداخل اللغتين وتفاعلهما لغة تجمع بين محاسن هذه ومحاسن تلك . أما مساوئ الفصحى أو عنجهيتها فتموت كما يموت الحوشى المهجور فى كل لغة . وأما مساوئ العامية أو حثالتها فتبقى على الألسنة التى تستذيقها من دهماء العامة ، وتكون هى العامية التى لا بد منها فى كل لغة من لغات العالم ، ولكن بالنسبة الضئيلة التى لا تطغيها على الفصحى ولا تفرضها على الناس .

وأما التجديد فى قواعد اللغة من نحو وصرف وبلاغة فيكون بحذف الغث من التقديرات والتعليلات التى فلسف بها النحاة النحو ، ونبذ الأوجه الإعرابية التى بقيت فى اللغة أثراً من اختلاف اللهجات فى الجاهلية فبلبلت الألسن وهوشت القواعد وجعلت كل صواب خطأ وكل خطأ صواباً . وكان من أثر هذه الفوضى فى القواعد وسوء تعليم اللغة فى المدارس أن زهد النشء فيها وانصرفوا إلى استعمال العامية فى الصحافة والإذاعة والتمثيل ، لأن العامية حرة تنبو على القيد ، وطبيعية تنفر من الصنعة ، فهى تقبل من كل إنسان وتستمد من كل لغة ، وتصوغ على كل قياس . وبذلك اتسعت دائرتها لكل ما استحدثته الحضارة من المفردات المولدة والمقتبسة فى البيت والحديقة والسوق والمصنع والحقل . والناس فى سبيل التفاهم يؤثرون السهل ، ويستعملون الشائع ، ويتناولون القريب . وتخلف اللغة عن مسايرة الزمن وملاءمة الحياة معناه الجمود ، والنهاية المحتومة لجمود اللغة اندراسها بتغلب لهجاتها العامية عليها وحلولها محلها ، إذ تكون بسبب مرونتها وتجددها أدق تصويراً لأحوال المجتمع ، وأوفى أداء لأغراض الناس .

على أن تيسير القواعد العربية لا ينبغى أن يبالغ فيه حتى يجردها من خصائص القوة والخصوبة والبراعة فتصبح أشبه بالهيكل

العظمى فيه الخفة والبساطة والشكل، وليس فيه العضل والعصب والروح.

وأما التجديد في العروض والقافية فسبيلنا إليه سبيل الشعراء العباسيين والأندلسيين في عصرنا الأدبي الذهبي: نبتكر أوزاناً تكون أنسب للمسرحية والأغنية في سرعة الحركة وحلاوة النغمة. وتعدد البحر وتنوع القافية في المطولات، وتوحدها في المقطوعات وتعالج القصيدة باعتبارها كائناً حياً تتساعد أعضاؤه على أداء تجربة معينة. وكل أولئك مع المحافظة على سلامة الوزن وتساوى التفعيلات ولزوم القافية. فإن النظم بدونها يفقد الشعر موسيقيته وهى كل شيء فيه، ويجعله ضرباً عجيباً من الكلام لا هو نثر ولا هو نظم.

ولا بأس باستعمال الشعر المرسل في نظم المسرحية كما فعل الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى في مسرحية (جميلة)، ولا باصطناع الزجل والمواليا وما يشبههما من الأوزان التى استحدثت بالعامية. فإن الأدب الشعبي يجب أن يرد إليه اعتباره حتى لا نقع فيما وقع فيه الأقدمون. فقد احتقر اللغويون لغة المولدين فلم يدونوها، واحتقر الأدباء أدب العامة فلم يحفظوه. ولو أنهم فعلوا لوفروا للغة الفصحى وللأدب العالى مورداً ثراً مما دار على الألسنة في جميع الطبقات والبيئات من الأمثال والحكم والمجازات والكنايات والطرف فإن العامة كانوا تسعة أعشار الأمة العربية وهى في أوج سلطانها، واستبحار عمرانها، وأكثرهم أعقاب أمم مختلفة الجنسية والعقلية والعقيدة قد اتخذوا العامية لغة لهم أودعوها معانيهم، وتصوراتهم، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم، فكانت أمثالهم تسير، وأقاصيصهم تحكى ومصطلحاتهم تنقل، ومواضعاتهم تذاع. فليس مما ينفع الأدب إذن ألا يفتح للأدب الشعبي باباً فيه ما دام الازدواج اللغوى حقيقة واقعة. والتقريب الذى يعمل له مجمع اللغة العربية بالقاهرة ابتغاء المصالحة بين الفصحى والعامية لتأخذ كل منهما محاسن الأخرى، كفيل بأن يرفع مستوى الأدب الشعبي إلى الأفق الذى يستسيغه فيه الرجل المثقف.

تلك هى الحدود التى لا يجوز في رأيى أن يتعداها تطوير اللغة ولا تيسير القواعد ولا تجديد الشعر، وهى حدود تفرق بين الجمود والتمييع، أو بين التزمت والاستهتار، والطبيعة في قضايا التطور هى القانون. والمنطق في مشكلات التجديد هو الحكم.

عن مجلة قافلة الزيت.

أحمد حسن الزيات

الشيوعية عند قدامى اليهود

بقلم : الدكتور على عبد الواحد وافى

انقسم اليهود فى العصور الأخيرة السابقة للميلاد إلى عدة فرق ، منها فرقة كانت شيوعية فى شئونها الاقتصادية وغريبة فى كثير من نظمها الأخرى ومختلفة كل الاختلاف عما عداها من فرق اليهود ، تلك هى فرقة الحسديين (من كلمة « حسديم » العبرية بمعنى المشفقين ، وقد يطلق عليهم اسم « الإسينيين » أو « الآزيين » Esseniens) .

وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه عنها الفيلسوف فيلون (Philon فيلسوف يونانى من أصل يهودى ولذلك اشتهر باسم فيلون اليهودى ، ولد حوالى سنة ٢٠ قبل الميلاد) والمؤرخ اليهودى يوسف فلافيوس يوسف Flavius Joséphe من أقدم وأشهر من كتب فى تاريخ اليهود ولد سنة ٣٧ وتوفى سنة ٩٥ بعد الميلاد) ؛ وقد أشار كذلك إلى هذه الفرقة مشيداً ببعض نظمها العلامة الفرنسى مونتسكيو فى كتابه « روح القوانين » .

ومن أهم ما تمتاز به هذه الفرقة نظامها الشيوعى وذلك أنها حرمت الملكية الفردية وأوجبت أن تكون جميع الملكيات ملكيات جماعية ، وطبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلى وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت فقد ألغوا فيما بينهم نظام الملكية الفردية ، وجعلوا جميع ما تحت أيديهم من أرض ومنقول وملابس وأطعمة ومتاع ملكا جماعيا شائعاً يحفظ ما يزيد منه عن الحاجة العاجلة فى مخازن عامة ، ويشرف على شئون إدارته وتوزيعه حراس يختارون من بينهم بطريق الانتخاب العام المباشر ، ويتفرغون كل التفرغ لأعمال وظيفتهم هذه . وحتى المنازل نفسها اعتبروها ملكا جماعيا ، وتركوها فى كل قرية من قراهم مفتحة الأبواب لكل « رفيق » من جماعتهم سواء أكان من أهل القرية أم قادما من خارجها وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت تجيز الملكية الفردية وتحيطها بسياج من الحماية ، وقد خصص لأحكام الملكية الفردية وطرق انتقالها وحقوقها وواجباتها حيز كبير فى أسفارهم .

وبجانب هذا النظام الشيوعى أخذت هذه الفرقة أتباعها بأوضاع اقتصادية غريبة ، فمن ذلك أنها حرمت عليهم التجارة لما تبعثه فى النفوس من جشع وحرص على جمع المال

وجنوح إلى ابتزاز الناس ، كما حرمت صناعة الأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب لتنافر الغاية التي تقصد من هذه الصناعات مع أهم مبادئهم وهو أن يعيش الناس في سلام دائم . وحرمت استخدام الذهب والفضة والتعامل بهما ، لما يبعثانه في النفوس من زهو وما يحملان عليه من جشع وشح ، ولذلك اقتصر نشاطهم الاقتصادي على الزراعة والصيد وما يحتاجان إليه ويتصل بهما من صناعات ، وهي في ذلك تختلف اختلافا جوهريا عن سائر فرق اليهود ، فقد كان من أهم مظاهر النشاط الاقتصادي لهذه الفرق شئون التجارة وصناعة السلاح والتعامل بالذهب والفضة ، بل لقد كانت هذه الفرق تنظر إلى هذين المعدنين نظرة تقرب من التقديس ؛ بل إنهم حينما عبدوا العجل لم يعبدوا في الحقيقة إلا الذهب المصنوع منه .

ومن أهم ما تمتاز به هذه الفرقة فيما يتعلق بالشرائع والنظم الإنسانية العامة أنها تنكر التفرقة العنصرية وتقرر مبدأ المساواة بين الناس في القيمة الإنسانية المشتركة ، وتحرص على التعايش السلمي بين جميع الشعوب .

فمن مبادئها العمل على إلغاء الحروب وأن يعيش العالم في سلام دائم ، ومجانبة الإضرار بالخلق وعدم إيذاء أي إنسان حتى لو كان ذلك لتربيته وتعويده الامتثال والطاعة ، ومراعاة الصدق والأمانة والوفاء بالعهد حيال جميع الناس سواء في ذلك الإسرائيليون منهم وغير الإسرائيليين ، وتحريم طرائق الكسب غير المشروع وابتزاز الناس واستغلال عوزهم وحاجتهم سواء في التعامل مع اليهودي أو غير اليهودي ، وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التي كانت نظمها تقوم على التفرقة العنصرية ، فتجعل اليهود الشعب المختار الذي اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة في سلم الإنسانية وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شئون الاجتماع ، وتبيح لأفرادها في علاقاتهم ومعاملاتهم مع غير اليهود ما لا تبيحه في علاقاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض فمن ذلك مثلا أنه ما كان يجوز للإسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلي ولا أن يأخذ منه رهنا بدينه وإذا أخذ منه في الصباح رهنا من المتاع الذي لا يستغنى عنه في حياته اليومية كالرحا وما إليها وجب أن يرده إليه في المساء ، أما غير الإسرائيلي فيباح للإسرائيلي أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش (١) .

ومن أهم ما تمتاز به هذه الفرقة فيما يتعلق بمبادىء الحرية أنها تحرم نظام الرق وتحظر أن يملك الإنسان أخاه الإنسان وأن يحرم

(١) انظر فقرة ٣ إصحاح ١٥ ، وفقرة ٢٠ إصحاح ٢٣ من سفر التثنية .

أى فرد من حريته . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت نظمها تقوم على الرق ، وقد خصص للرق وأحكامه حيز كبير فى أسفارهم . بل إن أسفارهم لتقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه فى الأزل أن يكون رقيقاً لبنى إسرائيل ، وأنه لاينبغى أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما فى الحياة غير هذه الوظيفة ، فإن تمردوا عليها أو طمحوا إلى الحرية وجب على بنى إسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف . وتقرر أسفارهم أن هذا الوضع قد فرض عليهم لدعوة دعاها نوح على كنعان ونسله وذلك أن نوحاً - حسب ما يزعمه سفر التكوين - قد شرب مرة نبيذ العنب الذى غرس كرمه بيده بعد الطوفان بدون أن يعلم خاصته المسكرة ففقد وعيه ، وانكشفت سوأته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه ، وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث ، ولكن هذين كانا أكثر أدباً منه ، فحملا رداءاً وسارا به القهقرى نحو أبيهما حتى لا يقع نظرهما على عورته ، وستراه به ما انكشف من جسمه ، فلما أفاق نوح وبلغه ما كان من موقف أولاده حياله ، لعن كنعان بن حام ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث [1] .

ومن أهم ما تمتاز به هذه الفرقة عن بقية فرق اليهود فيما يتعلق بالعبادات أنها تحرم الأضحية والقرابين ، مع أن الأضحية والقرابين كانت تعتبر عند الفرق الأخرى من أهم العبادات ، وقد خصص لها قسم كبير من سفر من أسفار توراتهم المزعومة ، وهو سفر اللاويين ، بل إن هذا السفر ليذكر فى أكثر من موضع أن « الضحايا المحرمة » (وهى التى تحرق أجزاؤها فى المذبح تحت إشراف أحد اللاويين) يرتاح لها الإله ويفيد منها وينتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه أو إذا قدمت إليه فى صورة غير الصورة المقررة فى شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين فيرسل عليهم ناراً تحرقهم كما فعل مع ولدين من أولاد هارون ، قدما الأضحية على غير وجهها المقرر وعلى مزاعمهم هذه يرد القرآن الكريم إذ يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ومن أهم ما تمتاز به هذه الفرقة فيما يتعلق بنظام الأسرة أنها تحرم الزواج وتوجب التبتل والبعد عن النساء . وهذا على عكس الفرق اليهودية الأخرى التى كانت ترى أن الزواج واجب دينى على كل قادر عليه ، وأن من يحجم عن الزواج مع القدرة عليه لا يقل جرمه عن جرم القاتل ، لأن كليهما ، على حد تعبيرهم : « يطفىء نور الله ، وينتقص ظله من أرضه ، ويبعد رحمته عن إسرائيل » .

---

(١) فقرات ٢٠ - ٢٩ إصحاح ٩ من سفر التكوين .

من ذكريات النصر فى تاريخ الإسلام

للأستاذ محمد محمد المدنى

من ذكريات النصر فى تاريخ الإسلام يومان خالدان أراد الله أن يكونا فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن .

هذان اليومان هما : يوم بدر ، ويوم الفتح .

فأما يوم بدر فهو ذلك اليوم الذى أسس فيه مجد الإسلام ، وانبنى عزته ، وأصبح المسلمون دولة تخشى وترجى ، ويستمع إلى كلمتها ، ولا يقضى أمر فى جزيرة العرب دون أن يحسب حسابها .

وأما يوم الفتح فهو ذلك اليوم الذى استقر فيه الأمر للمسلمين ، وبطل الشرك وحطمت الأوثان ، وطهر البيت الحرام ، وارتفعت راية الإسلام ، ودان العتاة والطغاة بالطاعة والخضوع ، وأصبح الحكم لله وحده ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

* * *

لم يكن المسلمون قبل غزوة بدر إلا فريقا من الناس نبا بهم وطنهم ، ونبذهم قومهم

(بقية المنشور على الصفحة السابقة)

ومع أن مبادئ الحسديين فيما يتعلق بالتبتل لم يتح لها الانتشار بين اليهود ولم تطبق إلا بين الحسديين أنفسهم وفى مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها تركت آثاراً ذات بال فى الديانة المسيحية التى جاءت بعد ذلك . فقد ساد فى المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن الحصور أدنى إلى الله ممن يقرب النساء .

ومن أهم ما تمتاز به فرقة الحسديين فيما يتعلق بالحياة الفردية أنها تحارب الترف والحياة الناعمة وتدعو إلى الزهد والتقشف والبعد عن جميع متع الجسم وتنظر إلى هذه المتع على أنها شرور .

ومن هذا يظهر أن هذه الفرقة تخالف فى معظم ما تذهب إليه تعاليم توراتهم المزعومة وتلمودهم ، على الرغم من أنها تعتبر نفسها ويعتبرها المؤرخون من فرق اليهود . والحقيقة أنه لا يربطها ببقية فرق اليهود إلا رابطة الجنس ، لأن أفرادها كانوا من بنى إسرائيل .

ولم تعمر هذه الفرقة طويلا ، فقد انقرضت فى أواخر القرن الأول الميلادى ، أى إنها لم تعش إلا نحو قرنين أو ثلاثة قرون .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن يوحنا المعمدان (هو سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام) كان من هذه الفرقة . ولكن لم يقدم أصحاب هذا الرأى بين يديه دليلا يعتد به . ؟

دكتور على عبد الواحد وافى

وأهلوهم ، خرجوا تاركين الوطن والمال والمساكن والمنافع والمتاع، وانضموا إلى فريق آخر آمن بمثل ما آمنوا به ، يقاسمونهم بلدهم ومنازلهم وأموالهم ويربطون مصيرهم بمصيرهم.

وكان أمر أولئك وهؤلاء فى الجزيرة العربية عجبا : فلم يألف الناس أن يروا أشخاصا من البداة الرعاة تملكهم فكرة تتغلغل إلى هذا الحد فى أعماق نفوسهم ، وتجعلهم يستهينون فى سبيلها بالصعاب ، ويستعذبون العذاب ، ويضحون بالنفس والنفيس ، فكان أمرهم حديث الناس ، عليه تجتمع الأسمار ، وبه تفيض الأخبار ، بين شامت بهم، ومستهزىء بدعوتهم،ومتربص لفشلهم

وكان أهل مكة يومئذ فى عنفوان طغيانهم واستكبارهم،ومالهم ولا يطغون ولا يستكبرون وقد طوحوا بهؤلاء المعارضين لهم إلى حيث الفقر والبؤس والقلة والذلة ، وصفا لهم جو مكة ، أصبحوا سادة البيت الحرام ، وظنوا ان الدهر لن يزال لهم مواليا ، وبحظوظهم مواتيا ، وأنه لا سلطان يغلب سلطانهم ، ولا كلمة تعلو كلمتهم ، وهكذا تعبث القوة دائما بعقول الطغاة والمستكبرين فلا يفكرون إلا فى يومهم ، وتعمى أبصارهم فلا يرون إلا ما أمامهم ، بينما يعمل القدر عمله فى تقويضهم وزلزلتهم، لأنهم أهل الباطل ،وأعوان الظلم، وليس للباطل ولا للظلم فى سنة من بقاء .

ولم يكن المسلمون يظنون أنهم سيلتقون بالمشركين فى ذلك اليوم ، وإنما كانوا يتطلعون إلى قافلة تجارية لقريش يريدون أن يصادروها فى مقابل ما فعلته قريش من مصادرة أموالهم ومساكنهم ، ولكن الله - جلت حكمته - أراد أمرا هو أسمى من ذلك وأعلى ، ولو أنهم فوجئوا به دون هذا التدبير الإلهى لكان عليهم شديدا ، ولظنوا أنهم عليه غير قادرين ، ذلك الأمر هو أن يلتقى الخصمان وجها لوجه فى أول معركة بين الحق والباطل ، وسيعلم المؤمنون أن من الممكن أن تنتصر القلة على الكثرة ، وأن الباطل لا يلبث أن تدركه رهبة الحق فيخر صريعا مجندلا ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

فالله تعالى قد وعدهم أن يفوزوا بإحدى الطائفتين : إما طائفة العير ، وهى القافلة التى كان على رأسها أبو سفيان ، وكانت راجعة إلى مكة من رحلة تجارية ، وإما طائفة النفير، وهى طائفة المحاربين الذين نفروا من مكة لملاقاة النبى وأصحابه والدفاع عن تجارتهم وأموالهم ، وكان المسلمون يودون أن يفوزوا بالطائفة الأولى ، لأنها كسب سهل لا يكلفهم حربا ، ولأنهم ليسوا مستعدين لخوض غمراتها ،

ولكن الله قضت حكمته بأن يتلاقى المسلمون والمشركون . فقرت طائفة العير ، ونجت الأموال والتجارة ، ولم تر قريش أن ترجع إلى مكة طائفة الحرب والنفير ، بل قالوا لا بد لنا من أن نرد بدراً ونقيم عليه ثلاثاً ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها .

واستعد المسلمون بعد أن فاتتهم طائفة العير ، فنزلوا بدراً وتمكنوا فيها تمكنا حربياً ملائماً ، وبنوا للنبي صلى الله عليه وسلم عريشاً ، حتى إذا لم يكن النصر فى هذه الموقعة للمسلمين لحق النبي بأصحابه الباقين فى يثرب ، ولم يقع فى يد المشركين .

ثم شجر القتال بين المؤمنين والمشركين لأول مرة ، ووقفت القلة المؤمنة ، أمام الكثرة المغترة بقوتها وعددها ، وشهد التاريخ كيف استطاعت هذه القلة أن تتحدى قوة تفوقها مرات ، وأن تغلبها ، وأن تحطم هاماتها ، وتفلق رءوسها بما تسلحت به من سلاح الإيمان ، وقوة الحق ، وعزيمة اليقين ، وهكذا تمت كلمة ربك الحسنى على المؤمنين بما صبروا ، وأحق الله الحق ، وأبطل الباطل بتدبير من الله ليس لأحد يد فيه !.

وعاد المسلمون إلى المدينة ، وقد أمر أمرهم وتنبهت الأذهان إلى قيمتهم وخطرهم ودعوتهم ، وأصبح الذين كانوا بالأمس يستهزئون بهم ، أو يتربصون لفشلهم ؛ خائفين منهم ، يحسبون حسابهم ، ويعدون العدة لهم ، وأصبح المسلمون من جانبهم لا ينظرون إلى أنفسهم كأنهم قوم مشردون مستضعفون ، ولكن على أنهم رجال دعوة وجيش فكرة ، قد بدأ بينهم وبين خصومهم أول عراك ، ولا بد أن خصومهم فكروا فى الانتقام لأنفسهم ، فهى الحرب إذن ، وهو الجهاد والجلاد ، فليأخذوا لهم أيضا أهبتهم ، وليستيقظ وعيهم ، وليحسبوا لكل أمر بعد اليوم حسابه .

إن هذا التنبه والتيقظ ، وما كان من تجربة المسلمين لأمر المشركين فى ساحة القتال وتجربتهم عليهم ، وهذا الشعور الجديد الذى شعروا به فى أنفسهم ؛ لهو أساس النصر الحقيقى الذى تكونت به هذه الدولة الفتية الناشئة التى اختارها الله لإعزاز دينه ، وإعلاء كلمته .

* * *

ظلت الحرب بعد ذلك سجالا بين المؤمنين والمشركين ، حتى أذن الله للنور أن يعم ، وللبناء أن يتم ، فهيأ الله للفتح المبين ، كما هيأ من قبل الأساس المتين ، وذلك أنه كان بين المسلمين والمشركين عهد رضى به المسلمون على مضض ، وذاقوا فى شروطه كثيراً من المرارة ، حتى حسبه بعضهم عارا ومذلة وضعفاً واستكانة ولكن الله دبر به للمسلمين

تدبيراً محكما ، فقد امتلأت نفوس المسلمين غيظا على المشركين ، وحماسة الدعـــوة الإسلامية ، نتيجة للكبت والشعور بالظلم والضيق بسلطان الباطل ، والتبرم بعدوانه المتلاحق ، والحذاق يشئون الحروب ، وظروف القتال يرون ذلك كسبا معنويا عظيما بل يعملون عليه إذا لم تسمح به الظروف والأحوال ، فيخلقونه خلقا ، ثقة منهم بأن نفعه عظيم ، وبأنه إذا لم تظهر فى أول الأمر آثاره ، فستظهر تلك الآثار فيما بعد ، حين ينفجر المرجل بعد غليانه ، فتراه حينئذ يقذف بالحمم ، ويرمى بالموت فى ثورة جامحة غاضبة لا تبقى ولا تذر !.

بهذا هيأ الله المسلمين لأمر أراده ، وبهذا نفسه هيأ الكافرين لتلقى الضربة الحاسمة وهم أضعف ما يكونون احتمالا ، ذلك بأنهم زعموا لأنفسهم أنهم قد ظفروا بالمسلمين فى هذا العهد ، وغلبوهم سياسة وختلا ، وأنهم بغير حاجة إلى أن يتقوا بعد اليوم بأسهم ، وبذلك أهملوا فضعفوا ، ثم أسلمهم هـذا الغرور والاستنامة لآمال السلامة والأمن إلى أن نقضوا عهد رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك أعانوه على أنفسهم ، ومكنوه من توجيه ضربته لهم وهكذا فتحت مكة بأيسر جهد ، بل فتحت بما يشبه أن يكون معجزة محمدية بهرت النـاس ، وهذا هو أبو سفيان بن حرب ، تدركه رهبة ذلك اليوم العظيم حين وقف إلى جانب العباس ، وفى حمايته ، بمضيق الوادى عند خطم الجبل ، ينظر إلى جنود الله تمر أمام عينيه كتيبة بعد كتيبة ، حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الدروع والحديد ـ يرى ذلك فتدركه الرهبة ، وتنطقه الحقيقة السافرة ، فيقول : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما ! » .

ثم لا يلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل الكعبة فيأمر بأصنامها أن تحطم وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

* * *

هؤلاء هم الطريدون المشردون عادوا قادة فاتحين ، وجندا مظفرين ، هذا هو الباطل الذى علا فى الأرض حينا حتى حسبه الناس ذاهبا فى السماء ، وظنوا أن لن يناله خفض ولا زلزال ، ها هوذا جاثيا على منخريه فى الرغام ، ضريع اليدين والفم ، يستجدى العفو ، ويلتمس الصفح الجميل .

لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ؟ ...

محمد محمد المدنى

نفحات القرآن

تأليف القلوب وتوحيد الصفوف مقصد من مقاصد الزكاة

للأستاذ عبد اللطيف السبكي

> إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم .

١ - لم يكن تشريع الزكاة فى الإسلام لمجرد المواساة لأرباب الحاجة : وإن كان ذلك من أهم مقاصدها .

وإنما فرضت الزكاة بجانب هذا لأهداف تتعلق بكيان المجتمع الإسلامى .

والناظر فى آية الموضوع يرى أسباب الاستحقاق متنوعة : ما بين فقر ، ومسكنة ، وخدمة فى تحصيلها ، وتوزيعها إلخ .

ولكنه يرى جميع الأسباب تهدف إلى غرض رئيسى واحد ، تلتقى عنده وجوه الاستحقاق .

فإن يكن الفقر - مثلا - سببا يبرر الأخذ منها لسد الحاجة ، وإشعار المحتاج أنه مكفول برعاية الجماعة الإسلامية واحتسابه فى عدادها بجانب المياسير من قومه ، حتى لا يتخلف عن موالاة المجتمع فى المجال الإنسانى العام بسبب شعوره بالمذلة ، أو بسبب الحقد والتمرد على النظام ، والتطاول على الأموال بدافع الحاجة .

إن يكن ذلك : فهناك مصارف أخرى ، يكون الاستحقاق فيها لغير الحاجة الشخصية فحسب .

وأعنى بها .. المؤلفة قلوبهم ... والغارمين وابن السبيل .

(ا) والمؤلفة قلوبهم : هم الذين يدخلون فى الإسلام على شىء من وهن العقيدة أول أمرهم ...

(ب) والذين لم يدخلوا فيه ، ويتأثرون بدعوة الإحسان أكثر من تأثرهم بالرمح والسنان ...

(حـ) والذين لهم فى قومهم سلطان ويمكنهم أن يدرءوا عنا أذاهم ، وشرور من يتابعهم .

هؤلاء جميعاً يستحقون العطاء من الزكاة : لا لفقرهم : ولكن ترغيباً لهم فى التثبت على

الذين إن كانوا ضعافا فيه ، أو فى الجنوح إلينا ، أو درء ما يدرءونه عنا ، أو بالدعاية لنا ولو إلى حين .

هؤلاء المؤلفة قلوبهم موجودون غالبا فى المواطن الإسلامية ، أو حولها .

وكانت سياسة المسلمين جارية على إعطائهم من مال الزكاة منذ صار للمسلمين جماعة ، وصارت لهم حصيلة من الزكاة تقسم العطاء ، وذلك تشريع القرآن بصريح عبارته .

وقد بلغ عطاء النبى - صلى الله عليه وسلم - الواحد منهم مائة من الإبل ، أو بقدر ما يرجى منه فى الخير ، حسب نظرة الإمام المتولى أمور المسلمين .

٢ - غير أن هـذا العطاء للمؤلفة كان موضع اجتهاد بين الصحابة فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

رأى عمر أن المسلمين صاروا ذوى قوة عددية يعتمدون عليها فى نشر دعوتهم عند الحاجة إلى القوة الدفاعية ، وأن تأليف المؤلفة من غير المسلمين لم تعد إليه حاجة كما كان : فيكون الحكم بإعطائهم منتهيا لانتهاء علته ، ووافقه أبو بكر ، ولم ينكر عليهما أحد من الصحابة يومذاك ، ولا فى عهد عمر - رضى الله عنهم جميعاً - .

ولكن أئمة الفقه بعد هـذا نظروا ، واعتبروا الحكم باقياً ، فإن التشريع فيه لم يتعطل بنسخه ، أو بانتهاء علته ، وإنما وقف العمل به حين الاستغناء عن المؤلفة .

فإذا رأى ولى الأمر فى وقت ما أن تأليف القلوب نافع لنا ، فله أن يعود إلى الإعطاء من حصيلة الزكاة ، كما له فى اعتبارنا أن يعطى من بيت المال ما دام فى ذلك صلاح لأمر المسلمين .

وقد عرف أن امتناع عمر كان أولا فى عهد أبى بكر ، ثم فى عهده .. وعرف أن الامتناع كان تعززاً بكرامة المسلمين ، وشموخا عن ذلة الحاجة إلى غيرهم ... وهذه غيرة عمر فيما يعهد عنه .

ولكن العطاء فى حقيقته ، وفى اعتبار العلماء وسيلة لإعزاز الدين . فإن يكن التعزز بالمنع عن المؤلفة وقت صولة المسلمين ، فإنه يكون بتأليف القلوب كذلك عندما يبدو لولى الأمر هذا .

وهو كلام معقول ، ومرونة فى السياسة الشرعية ، والاجتماعية مع مقتضيات الظروف .

٣ - كذلك نظر القرآن إلى الغارمين .. وهم الذين استدانوا لأنفسهم حتى ركبهم الدين ولا يجدون وفاء .. أو الذين تحملوا عن الغير حمالة مالية للصلح بين المتخاصمين ولو كان الغارم غنياً .. فالإسلام يعطى الغارم من مال الصدقات ما يسد به دينه كله ، أو بعضه بقدر ما يستطاع .

والشرط فى استحقاق الغارم ألا يكون سفيها فى تصرفه ، وألا يكون دينه فى شهواته

المحرمة ، وفى هذا الاشتراط حيطة رشيدة ، حتى لا يستهين الناس فى تصرفاتهم ، معتمدين على معونة الصدقات . . فإن القصد إصلاح . لا تشجيع على الإتلاف .

وظاهر أن إعطاء الغارم رحمة إنسانية بمن ركبه الدين ، حتى لا يستسلم للذلة بين الناس ، فضلا عن مساورة الهم للمدين فى كل آونة .

كما يعتبر إعطاء الغارم لإصلاح ذات البين تخفيفا عنه وتقديرا لمروءته ، وتشجيعا على عمل المعروف والتعاطف بين الجماعة الإسلامية وصونا للعزة القومية أن تنال منها دسائس الأعداء .

• • •

٤ — ثم عطف القرآن على - ابن السبيل - وهو المسافر المنقطع عن ماله ، ولو كان فى ذاته من أهل اليسار . . وفى معناه عند الفقهاء من كان مقيما وغاب عن ماله فى بعد ، أو فى أيدى الناس ، ولو ببلده . . فذلك موضع المواساة من مال الصدقات ، حتى لا يشعر بالإعراض عنه ، وبالقطيعة المنافية لعاطفة الإخاء وإذا تصورنا غارما ، أو ابن سبيل وأنه فى عزلة عن التراحم المنشود له أدركنا ما يشعر به من جفاف الحياة ، وقسوة القلوب ، وتفاوته من ناحية مجتمعه الذى يعيش فيه .

ثم إذا تصورناه مشمولا برعاية المجتمع له ، ومستأنسا بتوجيهات الإسلام نحوه حتى جعله صاحب حق معلوم فى أموال الموسرين ، وتصورناه حاصلا على ذلك الحق فى غير كد ، ولا امتنان من أحد أدركنا فى وضوح ما يريده الإسلام لأهله من تعزيز ، وتكافل ، وترفع عن الأنانية ، والإمساك عن القدر اليسير الذى فرضه الله لرأب تلك الثغرات فى حياة الأفراد ، وفى صفوف الأمة .

لقد عنى الإسلام بتلك الجوانب فيما عنى به من تشريع الزكاة ، وفيما أهدف إليه من تلك المقاصد حتى كرر القرآن دعوته إلى إيتاء الزكاة ، وقرنها فى كل مقام بذكر الصلاة كركن فى الدين .

وأشاد كثيرا بمن يستجيب لدعوته ، ويتق شح نفسه ، ولا يكتنز المال بخلا به عن وجوه الإحسان ولا يعرض نفسه لأن يكوى فى جهنم بماله الذى بخل به اليوم ، حينما يحمى عليه بالوقود من ماله هذا ، ويوبخ بالتأنيب المرير بما فرض الله عليه من شىء ليس كل ماله ، ولا نصف ماله ، ولا ثلث ماله : وإنما هو العشر ، أو نصف العشر - مثلا - فيما يحصده من زرع . . أو هو ربع العشر فيما يملكه من النقود المدخرة الفاضلة عن حوائجه مدة عام .

لقد اهتم القرآن بجانب الإحسان فى تصريف الأموال ، حتى أفسح دعوته للعطف بالصدقات المندوبة على غير المسلمين من أهل الكتاب . . فإن ذلك رحمة بالإنسانية ، وتقويما لروابط المجتمع العام .

٥ — وغايتنا من هذا الحديث – على إيجازه – أن نلتمس من تشريع الإسلام للزكاة على جهة الفرضية كل غاية نبيلة يتوخاها ، لتحقيق الخير للفرد ، وللمجتمع ، لندرك فى اطمئنان أن البناء الاجتماعى فى اعتبار الإسلام إنما يقوم على المؤاخاة ، والمواساة ، والأخذ بالفضيلة من طريق البذل عن طيب نفس .

وليس يكفى أن نقف عند الجانب الروحى فى الصلاة أو نحوها من شئون التعبد الشخصى وكأن هذا الجانب المادى من قبيل الجهاد ، أو هو فى حقيقته جهاد .

وطالما تحدث القرآن عن شأن المجاهدين بالنفس ، وبالمال . والجهاد بالمال يكون فى كل سبيل خيرة .

وأولاها ما يكون نفعه متصلا بالناس ، وبالدين جميعاً كالزكاة .

ويبدو ذلك كله فى نهاية الآية . . حيث ختمها الله تعالى – بقوله : « فريضة من الله ، والله عليم حكيم » .

فذلك تأكيد قاطع بأهمية الصدقات المفروضة ، وتأكيد لمقاصدها عامة ، وعلى النحو الواسع الذى عرجنا عليه .

فليس صوابا أن يفهم الناس فى الزكاة أنها مجرد مواساة للمحتاج .

ولو كان شأنها على هذا الضيق كما يتوهم الواهمون لكان يكفى فى الدعوة إليها بعض ما ورد فى شأنها من نصوص التشريع ، ولكن أهميتها عند الله آكد مما يدرك قصار النظر ، فالإكثار من الحديث عنها مطابق لما يقتضيه مقامها فى حياة الناس .

٦ — وقديما تخلف عن دفع الزكاة أقوام فى بعض جهات من البلاد العربية ، وحسبوها موقوتة بزمن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتحكم فيهم الشح ، ولعب بعقولهم النفاق ، وتهجموا العاملين على تحصيلها منهم فى أول عهد أبى بكر – رضى الله عنه – فجهز لهم جيوشه ، وأعمل فيهم سيوفه ، حتى أرضخهم لحكم الله ، وعرفهم أن كلمة التوحيد – الشهادتين – لا تكون سياجا لمن ينكر الزكاة أو نحوها من معالم الدين وأن هذا الإنكار ردة صريحة عن الإسلام .

ودماء المرتدين هدر ، وقتلهم واجب ، وبهذا أزهقت أرواح الكثيرين منهم ، فى غير إبقاء عليهم ، ولا رحمة بهم ، حتى رشد من رشد منهم عن بينة ، وهلك من هلك عن بينة .

واستقام فى الناس جميعاً حكم الزكاة على ما شرح الله – ورضى الله عن الصاحبين : أبى بكر ، وعمر وعن بقية أصحاب الرسول .

٧ — ويمكن أن ندرك من هذا فى سهولة ما يملكه ولى الأمر من حق مشروع فى تحصيل الزكاة ، وفى صرفها فى مصارفها أو بعض مصارفها الثمانية المبينة فى الآية ، لتحقيق

ما يناط به من القيام على أمر المسلمين ، وتحقيق ما يراد بالزكاة من أغراض

وهذا لا يمنع من حق المعطى للزكاة أن يتولى بنفسه بذلها فيما يريد من مصارفها ... إذ القصد إيصال هذا الحق إلى أربابه ، وأن تسدد به ثغرات المسلمين على ما رسم الله فى تشريعه وحينما يرى ولى الأمر أن يهيمن على تحصيل الزكاة ، ويضعها فى مواضعها يكون حقا على الأمة أن تظاهره فى هذا ، ليستخلصها من أيدى البخلاء ، والمتهربين بها ، والجاهلين لشأنها ... فى الحق أن كثيرين من أرباب الأموال التجارية ، وأصحاب المحاصيل الزراعية ، والمدخرين للرصيد لا يشعرون بحكم الزكاة ، ولا يقدرون لأثرها قدراً فى حياة المستحقين ، ولا فى دعم النظام العام : حتى إن بعضهم يبخل بها عن ذوى القرابة منه وإن كانت حاجتهم بادية له ولعل هذا من أسباب الضائقة التى يعانيها المجتمع ، وتعانيها الأسر الفقيرة : فضلا عن جفاف المودة ، وتحجر العواطف بين ذوى الأرحام ... وما هكذا تكون المودة فى الله ، وفى القربى ! !

كنا قبل اليوم فى رضوخ لسياسات دخيلة أو لسياسات تتعثر فى خطاها العملية ، ففترت فينا مشاعر المودة ، وخمد الوعى الدينى ، وتغلبت الأنانية وتباعدت القلوب وتقطعت حبال يريد الله توثيقها فينا ويحضنا على الاعتصام بها ليظل بيننا ولاء ، وتعاطف ، ونكون أقوياء البنيان .

وقد أصبحنا ـ والحمد لله ـ بفضل ثورتنا الإسلامية فى حياة أصيلة ، تقوم على وعى جديد ، وعزم أكيد .

وهذه بوادر الأمل الصادق، وملامح الرجاء الموفق ، يلاحق بعضها بعضا فى كل وقت ، وفى كل ما نرى ، ونسمع .

ومن بين ذلك ـ فيما يتعلق بموضوعنا أن بادرت ثورتنا إلى إنشاء مؤسسة الزكاة فى ضاحية المرج ، وهى دار تقوم على أكثر من مائة فدان من الأرض وفيها أجنحة ، وجوانب ومصانع تبهر الناظر وتسر الخاطر ورسالتها إيواء الأحداث المهملين والعجزة المتعطلين ، وتثقيفهم بالتعليم ، وإعدادهم للحياة الكريمة ، وللإنتاج فى المجال العام .

فإذا توافرت لهذه المؤسسة أسباب النجاح من كل وجه فإنها ستمحو عارا كان لاصقا بمجتمعنا قديما ، وسترفع جمهرة منا إلى المستوى المنشود .

وإنها لوثبات رشيدة ، ومحاولات مجيدة وحفظ الله للعروبة رجلها المجاهد ، وصحبه وأيدهم بتوفيقه حتى تظل مصر وشعبها فى طليعة الأمم الناهضة ؟

عبد اللطيف السبكى

من أمجاد العلماء

قضاة المذاهب يجبهون الطغاة

للأستاذ محمد رجب البيومي

لم يكن قانصوه الغورى وقد شارف الستين من العمر يظن أنه سيصبح سلطان البلاد، تسلم له القيادة عن رهب وامتثال ، فالرجل قليل الحول ، ضعيف الأتباع ، وهناك من الأمراء الأفذاذ من يجمعون حولهم الحشود والعدد ، ليفوز أعظمهم خطراً بسلطة الديار ، فالتزاحم على أشده بين ذوى القوة من مماليك الجركس ! وماذا عسى أن يصنع شيخ كبير لا يقاس حوله بأقل المتنافسين خطراً ومهابة ، ولكن هذا الحول الضعيف كان عامل الترجيح فى اختيار قانصوه ، لأن المتزاحمين الأشاوس قد تعادلت بهم القوى فى كفة واحدة ، ولم يستطع أحدهم أن يميل ببعض الضغط إلى كفته فاتفقوا على تولية قانصوه كحل مؤقت للصراع الملتهب ، فالرجل شيخ مسن لا يظن أن الزمن سيتنفس بعمره غير مدى محدود ! وفى مكنة كل أمير أن ينتهز بقاءه المحدود فرصة مواتية ليحصن قلاعه ، ويميل بمركز الثقل إلى جانبه ، لذلك فوجىء السلطان الغورى ذات يوم مفاجأة صعبة ، حين تقدم إليه الأميران الخطيران مصرباى وقيت الرحبي وهما أبرز المتصارعين جميعاً على السلطنة يطلبان منه أن يلى العرش عن سماحة واكتفاء ، وارتعد الشيخ وتخاذل إذ أنه يعرف أن هذا المنصب الخطير محاط بالمؤامرات والدسائس ، وهو بعد قليل النصير والحول فلا يعدم من يثور عليه فجأة ، فيسيل دمه هدراً دون موجب ، وقد عاش بعيداً عن هذه المؤامرات المملوكية طيلة حياته ، فلماذا يقف فى مهب العاصفة بعد الستين ! وطال امتناع الرجل وتأبيه ، حتى التهبت حماسة الحاضرين ، فأقسموا على المصاحف أن يطيعوا السلطان ، وألا يفكر أحدهم فى التآمر والاغتيال ، وبكى الشيخ طويلا وهو يرتدى الجبة البنفسجية والعمامة السوداء مما يسمونه شعار السلطنة ، ثم يركب فرسه الأصيل ومن فوقه المظلة السلطانية ذات الطيور الفضية يحملها فى ركابه الأمير قيت الرحبي نفسه ! وسار الموكب السلطانى ، وفى نفس الشيخ خواطر وشجون !

وقد أظهرت الأيام أن تباكى الشيخ المتمنع كان خديعة ماكرة ، يعرف بها من أين تؤكل الكتف ، فقد عمد إلى مسلك حاذق يوطد به دعائمه ، إذ أوهم كلا من مصرباى وقيت الرجبي أنه يمهد لسلطانه !

وأخذ يخلو بكلهما خلوات مفرضة حيث يملى لهما فى الأمانى ، ويخلق من الحيل ما يخدم سياسته ، حتى أوهم قيت الرجبي أنه بسبيل التخلص من مصرباى ، لأجل خاطره ، فمال المخدوع إلى طلائه وساعده على استئصال شأفة غريمه ، وإذ ذاك أخذ الغورى يلوذ بأتباع مصرباى ، مستعيناً بهم فى الخفاء على قيت ، حتى تم له التخلص منه أيضا ! وأصبح سيد الموقف دون شريك !

ولئن كان تاريخه السياسى فيما بعد ذلك من الذيوع والاشتهار ، بحيث لا يخفى عن الدارسين فإننا سنميل بالحديث هنا إلى ملكات الرجل العلمية ، ومكانه فى الأدب والشعر ، فقد تناقلت عنه فى ذلك مبالغات مغرقة ، وكنا بصدد تصديقها لو لم ينشر الدكتور عبد الوهاب عزام رحمه الله طرفا من مجالسه الأدبية ، كما دونها اثنان من كبار مريديه ، فهذه المجالس وحدها تحدد مركز السلطان العلمى ، وإن نحكم عليها بثقافة عصرنا الراهن فهى بإزائه لا تساوى شيئا بالمرة ، ولكننا حين نحكم عليها بثقافة عصره المملوكى نجدها لا ترتفع أيضا إلى مستوى مشرف ، وأكبر الظن أن الدكتور عزاما قد نشرها ليعرض على الناس صوراً من تفكير السلاطين فى بعض العصور السالفة ، لا ليرى بها مظنة استفادة وتثقيف ! وحسبها أن تكون وثيقة تاريخية ينتفع بها فى تشخيص البيئة المملوكية من ناحية ، والعقلية السلطانية من ناحية أخرى ، وإن كان الشيخ حسين بن محمد الحسينى وهو أحد من دونا هذه المجالس ، يذهب فى تقدير السلطان من الجهة العلمية تقديراً لا يستبعد إغراقه من متجول يتكسب بلقاء الملوك فهو يقول عنه بعد ثناء حفيل :

« وكل هذه الأوصاف والمناقب بما قرن به من محبة العلم والعلماء ، والتفتيش عما وضعته الحكماء فى كل نوع من العلوم ، لو يقول البشر فى وصف هذا المظهر إنه هو سلطان العلماء المحققين ما هو كذب فى حقه ، أو يقول فى مدحه إنه سلطان العارفين ما هو عيب فى وصفه » .

وإذا كان قول الرجل إنه سلطان العلماء المحققين مبالغة فيما نسب إليه من العلم فإن قوله سلطان العارفين بمدلولها الصوفى مبالغة مضحكة فيما ينسبه للرجل من المعرفة الربانية والولوع الإلهى ! إذ أن ما أغرق فيه مصر من المظالم ومصادرة الأموال وسفك الدماء ،

والاستخفاف بأقدار الناس حتى إنه كان يفرض على الخليفة المستمسك بالله العباسى أن يركع أمامه ويقبل الأرض بين يديه ! ويدعى بعد ذلك أنه يستمد السلطنة من تأييده الروحى ! كل ذلك لا يجعلنا نقبل ما سطره رواد هذه المجالس عن جامعى البدو وآكلى الموائد إلا بتهوين كثير ...

وسنعرض الآن حادثة تاريخية كان لها صداها الرنان فى عصره ، لنستدل بها على مبلغ تضامه الفقهى تارة ومدى احترامه لنصوص الشرع تارة ثانية ثم لنسجل بها عظمة نفر من العلماء لا يخشون فى الحق لومة لائم ، بل يجبهون السلطان فى مجلسه بما يردع أهواءه فتثور ثائرته ، ويعلن نقمته ، ثم يخرجون من مجلسه وقد أخلصوا ضمائرهم لله صادقين !

لقد نمى إلى (صاحب الحجاب) وكان يقوم بمهمة مدير الأمن فى المحافظة ، أن رجلا من الناس يأتى بيت صديقه فى غيبته وأنه على صلة منكرة بزوجته ، فأخذ الحاجب للأمر أهبته وراقب المنزل حتى داهم الصديق مع معشوقته ، وما زال بهما ضرباً وتبريحا حتى أقرا بالفاحشة ، وإذ ذاك حملا معاً على حمارين وطيف بهما فى ملاء من الصبية والرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس ، جرياً على المألوف من تقاليد هذا العصر ، ثم فرضت عليهما غرامة فادحة قاما بأدائها فى أسف نادم وخزى شنيع ! وكان من الميسور أن ينتهى الموقف دون أن يعقب صداه فى دائرة السلطان !

ولكن بعض الذين يحبون أن تشيع أصداء الفاحشه فى كل مجلس ! حتى فى نفس مجلس الغورى نفسه !

قد نقل الأمر إلى الرجل ، وهو ـ بعد ـ ليس غريبا عن سمعه ، فقد رأى أمثاله فى عمره المتطاول ، ولكن الناقل المغرض أردف ذلك بأنه يأمل أن يصدر السلطان أمره برجم المذنبين فيكون أول من أحيا شريعة الإسلام من المماليك ! وقد راقت الفكرة لدى الغورى فحول المسألة إلى القضاء وطلب أن يصدر قرار الرجم سريعاً لتقوم به الدولة على ملأ مشهود بحضره السلطان !

وقد طار النبأ إلى المذنب المسكين فأشار عليه بعض ناصحيه أن يعدل عن إقراره لأنه اعترف بالزنا تحت سياط الحاكم ، والرجوع عن الإقرار حتى ولو لم يكن مع الإكراه بل لدى الاختيار الكامل يمنع الحد كما أجمع عليه العلماء ، ولهم بصدد ذلك نصوص وأقيسة ووقائع لا تقبل التأويل ! ! وقد أثمرت النصيحة ثمرتها فرجع الرجل عن إقراره ، وكتب صاحبه فتوى طاف

بها على العلماء بهذا الشأن فأجابوا جميعا بتوقيعاتهم الواضحة وأعلنوا أن الرجوع عن الإقرار يسقط حد الزنا دون نزاع! وكان من الطبيعى أن ينتهى الأمر للسلطان، ولوكان ذا بصر فقهى لأدرك مغزى الشارع العادل فى هذا الحكم الصائب ، ولعرف ما روى عن ماعز وغيره ممن راودهم الرسول على الإنكار ، مؤكداً أن مجرد الرجوع يمنع الحد ! ! فالإسلام لا يريد اشتهار الفاحشة بل يحاصرها فى مكانها الضيق بعد أن يتعقبها تعقب الحريص الدءوب فإذا نزوة طائشة من بعض المتهورين كان من الصون للجماعة الإسلامية بأجمعها أن تدرأ الحدود بالشبهات فلا تفاجأ أمة القرآن كل حين بمرجومة ومرجوم ، وفى التقرير ما يكفى للتأنيب والردع ! تلك هى وجهة الشارع ملخصة فى سطور يعوزها البسط والتحليل - إذ ليس مجالها هذا المقال - نقول لو كان الغورى ذا إلمام بنصوص الشرع ما ارتكب الشطط حين صمم على الرجم ، ودعا القضاة والعلماء لمناقشة الموضوع فى مجلس خطير تصدره السلطان !! واكتنفته الأسنة والحراب .

كان العلماء على بينة مما يحاك ، فأجمعوا أمرهم على أن يقولوا كلمة الحق دون مبالاة وكان شيخهم الأكبر زكريا الأنصارى عضدهم فى حومة الجدال ، وثقوا فى همته واطمأنوا إلى مؤازرته فله من المكانة فى بلاد الإسلام والرسوخ فى علم الشريعة والأستاذية لمن تلاه من الشيوخ ، والمؤلفات الذائعة فى شتى العلوم مع ما اشتهر عنه من النزاهة البريئة فى القضاء والسيرة العاطرة فى الناس ، والسعى الدائب فى الإصلاح ... له من ذلك كله ما لا يستطيع السلطان أن يعصف به فى مجلس علمى يعتمد على الحجة ويلوذ بالدليل ، والحق أن رأى شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى هذه القضية مما صعب على الغورى أن يهجنه ببعض التحامل أو الادعاء فقد أجمع من كتبوا سيرة الشيخ الأكبر على ثنائه وتقديمه ، إلا كلمات خطها السخاوى فى ضوئه اللامع وهى من التناقض والتأرجح بين الحمد والمؤاخذة بحيث تكون فى مجموعها حجة لشيخ الإسلام ودليلا على تحامل المؤرخ الصديق كما يصف مودته للأستاذ ! وأى عظيم سلم من السخاوى حتى يسلم منه الأنصارى على جلاله وبعد مرقاه ! لقد ادخر الحق لخذلان الغورى سهاما صائبة وقد فتح لها صدره فى غطرسة كاذبة حين دعا العلماء إلى النقاش وفى مقدمتهم شيخ الإسلام .

كان المجلس رهيبا رائعا ، وقد شاء السلطان أن يوجه كلامه لزكريا الأنصارى بادىء ذى بدء بعد أن نظر فى غضب إلى من حوله من العلماء ، فصاح فى غضب :

كيف ياشيخ زكريا يضبط رجل فى منزل صاحبه مع عشيقته ويقر بالجريمة ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع !

فسكت زكريا الأنصارى قليلا ، وقال أحد تلاميذه من القضاه فى اعتداد : للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله يراجع المعترفين فيقول لأحدهم لعلك كذا ولعلك كذا ليفسح له السبيل ! !

فاحمر وجه الغورى وتوقدت عيناه من الغيظ وصرخ يقول أنا ولى الأمر ، لى الحق فى إصدار الحكم بالرجم وليس لكم أن تقفوا أمامى باسم الدين .

فانبرى قاض متحمس يقول : نعم لك الحق أن تصدر الحكم إذا كان متفقا مع الشرع الكريم فإذا أصررت على رجم المتهمين فأنت مذنب وعليك ديتهما .

ارتج المجلس الحاشد ، إثر هذه العبارة ، ارتجاجا عنيفا ، فأظهر بعض أمراء المماليك كلمات نابية منكرة ، وتطور أحمقهم فسحب العالم من ثيابه ، وأجبره على الخروج ، أما السلطان فقد وقف مغيظا يضرب الأرض بقدمه ، ويلوح بسيفه مهددا متوعدا ، وقد ندت منه عبارات ما كانت تصدر من شيخ محنك كبير ثم التفت إلى الشيخ زكريا وصاح وأنت ياشيخ الإسلام ما تقول فرد زكريا الأنصارى ، وكان قد جاوز التسعين ، لكنه احتفظ بقوة الأداء ، وارتفاع الصوت وكأن الحق أعاد إليه شباب حنجرته فقال :

إن الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحق وجمهور الأئمة على ذلك،وفى مقدمتهم صاحب المذهب رضى الله عنه .

فأظهر السلطان استهزاءه ، وصاح متهكما. هل هذا ما ترتضيه ذمتك ياشيخ الإسلام افرد الأستاذ زكريا الأنصارى يقول فى لباقة : ليس هذا ما ترتضيه ذمتى وحدى ولكنه ما ارتضته ذمة ساكن مصر الإمام الشافعى ! صاحب المذهب وذمته الشريفة لا تقبل التجريح بحال!

فزاد غضب الغورى ورد متعجلا : أنت شيخ قد كبرت وضعف عقلك ، أما أنتم أيها القضاه فلا أحب أن أراكم بعد الآن ، وقد عزلتكم جميعا عن القضاء !

وخرج السلطان مزبدا سابا لاغيا فانفض المجلس أسوأ انفضاض ! ! ثم هتف الغورى ببعض أعوانه فأصدر أمره بمصادرة أموال البعض ، ونفى البعض الآخر إلى الواحات وضرب نائب مـــذهب الشافعى الشيخ الزنكلونى مع أولاده بالعصا ، حتى كادوا يموتون لأنه فى اعتقاد السلطان قد هيأ للمتهم سبيل الرجوع عن الاعتراف وبذلك أمكن القضاة من معارضته على رءوس الأشهاد .

أما المهمان فقد صدر الأمر بشنقهما علنا وعلقت جثتهما يومين كاملين ليرى الناس فى مصر قلة حيلة القضاة وهل استطاعوا أن ينتصروا على السلطان ! !

هذا وقد لبث الشعب المصرى يتحدث زمناً غير قصير عن هذه المشادة المحرجة ، فأذاعت الجماهير مختلف النكات عن الغورى وأخذت تتحدث عنه بما برعت فيه من أساليب التورية والفكاهة ، وكان كل ذلك يصل إلى السلطان فيزيد من أزمته النفسية ، ولكنه لا يستطيع أن يتخذ إجراء رادعا لأن الكلام ذو وجهين ، ومحاولة التحقيق فيه بما يثبت الوجه المذموم فى الأسماع ، فيعظم تداوله ، ويساعد السلطان بذلك على إذاعة ذمه ، فيحقق ما يبتغى مناوءه .

بنى مسجده الشهير بالغورية ، وأنفق من الأموال المصادرة فى تشييده وزركشته ما كان موضع حديث الناس ، وقد سئل عن جدواه فقيه ممن اضطهدهم السلطان ، فقال فى ملأ من الناس إنه المسجد الحرام ! فضج الجمهور بالتصفيق ، وطار النبأ إلى الغورى فانفجر غيظا ، وأمر بإحضار الفقيه ليؤاخذه على قولته ! وكان المتهم لبقا فقال فى ثبات : أردت أنه شبيه بالمسجد الحرام فى مكة وعلى الناس أن يخصوه بالتعظيم والإجلال ، فهز الغورى رأسه وقال فى ضيق : لقد أردت شيئاً آخر أيها الخبيث !

فنظر الفقيه فى شجاعة وقال : لماذا يحاول السلطان أن يعرف كلام الناس ! فكظم الغورى غيظه وصاح به : لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن .

ومضت الأيام فإذا حادثة القضاة مفخرة باهرة تسجل فى كفاح العلماء ، فتصبح مثلا خلقيا فى الاعتداد بالحق ومجابهة الطغيان !

محمد رجب البيومى
المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله

تداخل المذاهب الفقهية

للدكتور علاء الدين شلبى

معروف أن مذاهب الفقه الإسلامى لا تقف عند هذه المذاهب الأربعة التى تدرس الآن بالأزهر ومعاهده وإنما هى مذاهب متعدده كانت هذه المذاهب أشهرها وظفرت دونها بالبقاء وقد انقرضت المذاهب الأخرى قبل نهاية القرن السابع الهجرى عدا مذهب الظاهرية الذى ينسب لداود بن على الأصبهانى فقد بقى بالأندلس وبعض بلاد المغرب حتى القرن الثامن الهجرى وكان بقاؤه وانتشاره هناك رد فعل للدعوة الباطنية التى أذاعها الفاطميون وكان فى القرنين الثانى والثالث وأيضا فى القرن الرابع مجتهدون أمثال البخارى والأوزاعى والطبرى وغيرهم لم يقدر لمذاهبهم البقاء والانتشار .

وقد تردد كثيراً على ألسنة فئة من رجال الفقه الإسلامى فى العصر الحاضر فكرة إدماج هذه المذاهب الأربعة وجعلها مذهباً واحداً يقوم على الرأى الأنسب والأقوى من أى منها وتبقى آراء الأئمة وآراء المجتهدين فى كل مذهب روافد تمد هذا المذهب الموحد وتغذيه ثم يكون له من اختلاف الآراء وتباين وجهات الرأى مرونة تجعله أكثر قابلية للتطورات وأدنى إلى مجارات الأحداث وتقلب الحضارة ولتنمية هذا المذهب الواسع وتغذيته لا يقف به عند المذاهب الأربعة بل تتخذ من درس المذاهب التى انقرضت والأخرى الشيعية الباقية إلى الآن عناصر لسعته وشموله ما وجدنا فيها قوة وصلاحية لذلك غير أن هذا الرأى ما زال فكرة بين جدران الجامعات ولم يجد مجالا لتنفيذه .

حقاً إن مدرسى الشريعة الإسلامية فى كليات الحقوق جميعا لم ينظروا إلى تفرقة مذهبية وكذلك قانون الأحوال الشخصية المعمول به الآن ولكن هذا كله يعد مجالا ضيقا ما دامت الجامعة الكبرى التى تتوفر على درس الفقه الإسلامى والتى إليها المرجع فيه لم تأخذ بهذا الرأى وأظن أنه فى ظل التطور الجديد للأزهر وبأخذ كلياته بالنظم الجامعية الحديثة سيجد هذا الرأى مجالا لتنفيذه فى المعاهد الثانوية والإعدادية وهذا فضلا عن أن توحيد الرأى والفتيا يخفف على الطلاب عبئا ثقيلا من درس الفقه على الطريقة القديمة وفى الكتب المعقدة الملتوية .

ولا ندعو بطبيعة الحال إلى طرحها وإنما نستبقها إلى مرحلة أعلا يكون التلميذ فيها قديراً على فهمها ومناقشتها والاستفادة منها . وإننا إذ نرجع إلى تاريخ هذه المذاهب وظروف نشأتها نجد فيها تداخلا يدعو إلى هذا التوحيد . وقبل أن نلم بهذا التاريخ نلاحظ أن التعصب والتنازع الشديد بين أتباع المذاهب إنما حدث بين المتأخرين ولم يكن بين الأئمة أنفسهم .

وكلما امتد الزمن وغفل الاتباع عن تواريخ أئمتهم اشتد التعصب بينهم وزاد العداء .

وقد كان التزاحم على المناصب وخصوصا منصب القضاء مما أذكى هذه الخصومة ودفع كل جماعة إلى الإشادة بإمامهم وانتقاص منافسه حتى أفتى بعض الأحناف مرة بأن الفتاة الشافعية ليست كفئا للفتى الحنفى ثم اشتهرت هناك قاعدة هى أن يعتقد تابع كل مذهب أن مذهبه صحيح يحتمل البطلان وأن مذهب غيره باطل يحتمل الصحة وكثيراً ما قام بين أتباع المذاهب مجادلات أدت إلى شجار ومعارك ولم يكن هذا فى الأزهر فقط بل كان قبله أيضا .

كان أبو يوسف صاحب أبى حنيفة أثيراً لدى الرشيد وكان الخليفة جعل إليه تعيين القضاة فكان يؤثر فقهاء المذهب الحنفى ويفضلهم على غيرهم وجرى خلفاء بنى العباس على هذه السنة طوال عهدهم - ولا شك أن هذا كان يغيظ الفقهاء الآخرين . ولما جاءت الدولة الفاطمية جعلت قضاتها من الشافعية لأول مرة فى مصر وكان من قضاتها أيضا مالكية ولم يعين قاض حنفى فى عهدهم حتى ردهم لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبى ولعله كان من حسنات الظاهر بيبرس أن جعل القضاة أربعة من كل مذهب واحد .

هذه بعض الأسباب التى دعت إلى التفرقة أما إذا رجعنا إلى نشأة كل مذهب وصلته بالآخر فإننا نجد تداخلا وقربا .

كان مذهب أبى حنيفة أول هذه المذاهب ظهوراً نشأ بالكوفة بعيداً عن مشرق الدعوة ولم يكن أبو حنيفة غزير المادة من الحديث فاعتمد على الرأى ومال إلى القياس والاستنتاج وكان شديد الذكاء واسع الحيلة . أعجب مالك بذكائه وفهمه وقال : إنه لو أراد أن يقيم الدليل على أن سارية المسجد من ذهب لفعل . وتأثر المذهب الحنفى ببيئة العراق تأثراً جعله يختلف عن مالك اختلافا كبيراً فهى بيئة متحضرة تتلون فيها الحياة وتتجدد الأحداث وهى مهد لفلسفات قديمة وحياة عقلية لم يهيأ مثلها لبيئة الحجاز فكان أبو حنيفة يميل إلى كثرة الافتراض وتشقيق الآراء بينما كان مالك يكره ذلك كل الكراهية ولكن لم يحدث أن طعن واحد منهما الآخر أو أزرى بمذهبه .

ومذهب مالك هو المذهب الثانى فى الظهور وكان مالك معاصراً لأبى حنيفة وهو على خلافه حدث له محصول غزير من الحديث وله بصر برجاله وعلم بسنده فهو يعتمد عليه ويتحفظ فى الأخذ بالرأى فإذا أشكلت عليه مسألة رجع إلى عمل أهل المدينة وهى قاعدة انفرد بها فى اجتهاده ويسرت له دون أبى حنيفة .

ولم يكن من أصحاب الرأى وأتباع الأثر على طرفى نقيض ولم يكن أحدهما يعيب الآخر . فذهب أبى حنيفة لا يخلو من أثر وقد زاد عليه أبو يوسف فى هذا وخالف الإمام فى مسائل كثيرة محتجا لرأيه بأحاديث صحت عنده ولم تصح عند الإمام ومذهب مالك أيضا لا ينكر الرأى ولا يتخلى عنه بل أغناه عن كثرة الاعتماد عليه وجود ما يغنيه عنه من الآثار . وقد وجه مالك كلا من محمد بن إدريس الشافعى وإسحق ابن الفرات بعد أن فرغا من القراءة عليه إلى العراق ليستفيدا من مذهب أبى حنيفة ورأيه وفى هذا كله خطوة تقريبية بين هذين المذهبين وإن كانت ضئيلة الأثر .

نجد خطوة أوسع عند محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة والرأس الثانى من المجتهدين فى مذهبه ـ قرأ محمد على كل من أبى حنيفة وأبى يوسف فلما قضى وطره بما عندهما رحل إلى المدينة فمكث بها أكثر من ثلاثة أعوام يتلقى عن مالك وعن شيوخ المدينة فلما رجع إلى العراق كان يحمل عناصر جديدة للاجتهاد واستقاها من فقهاء المدينة ومن مالك على الأخص . . هذا سر ما نجده من مخالفاته الكثيرة لكل من أستاذيه وفى أكثر هذه المخالفات نجده يتفق مع مالك أو مع مذهبه بوجه عام والواقع أنه مزج بين المذهبين مزجا قرب بينهما وإن كان ميله الأكبر إلى مذهبه الحنفى . وهذا أمر طبيعى لأن البيئة العراقية أكثر تلاؤما مع هذه الأفكار .

أما عمل ابن الفرات فكان أوسع دائرة من هذا ، فقد قام برحلة واسعة بين المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق ، وفى هذه الرحلة قرب بين هذين المذهبين وكون منهما وأيضا من فقه الأوزاعى مؤلفاحسنا فى الفقه ولكن مذهب مالك هو الغالب عليه على عكس ما فعل محمد الشيبانى .

فى رحلته إلى المدينة قرأ على مالك ثم اتجه إلى العراق بعد أن فرغ من القراءة على مالك فلقى كلا من أبى يوسف ومحمد صاحبى أبى حنيفة وغيرهما ، وكان يحمل مجموعة من المسائل المتفرقة من فتيا مالك عرضها هناك ونوع فيها ، وهى التى عرفت فيما بعد باسم المدونة ومن يقرؤها الآن يجد أثر المذهب العراقى

واضحا فيها كل الوضوح فهى مسائل فرعية تنحو منحى أبى حنيفة فى مسائله ، ولكنها مطبقة على مذهب مالك .

قامت المدونة فى التقريب بين آراء الفقهاء بدور لم يهيأ لغيرها من الكتب حتى إنه من التجاوز أن تنسب لمالك أو ابن الفرات أو سحنون أو ابن القاسم من المالكية .

عاد ابن الفرات بمدونته إلى مصر فعرضت على فقهاء المالكية فاستفادوا من فروعها ، وأصدروا فتاويهم عليها ، ولعل اسم المدونة لم يطلق عليها إلا فى هـــذا الوقت ، وكان ابن القاسم إذ ذاك رئيس المذهب المالكى بمصر ، وقد أبدى كما أبدى تلاميذه اهتماما كبيراً بها ، ورحل ابن الفرات بها بعد ذلك إلى المغرب ، فلما قرأها منافسه سحنون أعجب بها ، ولكنها لم تكن مرتبة فرتبها وبوبها وزاد فيها ، ولكى يستوثق من عمله عاد بها إلى مصر ، ليعرضها مرة ثانية على شيوخ المذهب بعد الذى جد عليها من الترتيب والتبويب والزيادة ، وزاد إعجاب ابن القاسم بهـا ، فأنشأ على نسقها مدونته التى ظفرت بشهرة أكثر ، حتى نازع بعضهم سحنون فى مدونته ورأى أنها لابن القاسم وعلى نسق المدونة ، جاءت تآليف المالكية فى مصر والمغرب والناظر فى هذه الكتب يجد توسعا فى الافتراض وإسرافا فى تخيل الحوادث يبدو أنه لم يأت إلا من الفقه الحنفى لأن مالكا نفسه كان يكره هذه الطريقة .

من هذا العرض الموجز نجد تداخلا قويا بين هذين المذهبين يأذن بإزالة الخلاف بينهما ويسمح باندماجهما .

كانت هناك عوامل تدعو إلى نشر المذهب الحنفى بين العراقيين هى التى أشرنا إليها من قبل ، ومن أجلها لم يلق المذهب المالكى بينهم رواجا ، أما المصريون فهم أميل للعبادة وأبعد عن التفلسف وأشد هوى إلى عالم المدينة ، ولكن فى الوقت الحاضر تقاربت الحياة وتشابهت الظروف وتساوى العلم فى مختلف العواصم فلعل هذا أدعى إلى الوحدة وأقرب إلى الالتئام .

أما صلة مذهب الشافعى بكل من الأحناف والمالكية وصلة المذهب الحنبلى بهؤلاء جميعا فأرجو أن أتحدث عنه فى العدد القادم ؟

علاء الدين شلبى

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوى

— ٤ —

٣ — والآن ، نعرض فى إيجاز ديوان « مجد الإسلام » والإلياذة الإسلامية :

يحتوى هذا الديوان على أربعة أجزاء شملت الثلاثة الأولى منها ذكر الوقائع والملاحم منذ أعلن النبي الكريم دعوته إلى أن أتم الله هذه الدعوة ، واستقر الإسلام بالمدينة وجاءت الوفود من كافة بلاد العرب مؤمنة مسلمة .

وفى هذه الأجزاء الثلاثة ذكر غزوات الرسول جميعاً ، والأحداث التى جرت خلال مقاومة المشركين ، وتسجيل الأمكنة ، والشخصيات البارزة فى الصراع .

وقد افتتح الجزء الأولى بقصيدة كبرى بعنوان : « مطلع النور » ، « من أفق الدعوة الإسلامية » واستهلها بقوله :

املأ الأرض يا محمد نوراً
واغمر الناس حكمة والدهورا

حجبتك الغيوب سراً تجلى
يكشف الحجب كلها والستورا

عبّ سيل الفساد فى كل واد
فتدفق عليه حتى يغورا

وهكذا يسير واصفا هذا النور وأثره إلى أن يصف موقفه العظيم من عمه أبى طالب حين شكاه فريق من قريش إليه ... :

جاءه عمه يقول : أترضى
أن يقيموك سيداً أو أميراً ؟

ويصبوا عليك من صفوة المال حيـ
ـاً ما طار وغيثاً غزيراً ؟

قال : يا عم ، ما بعثت لدنيا
أبتغيها ، وما خلقت حصوراً

لو أتونى بالنيرين لأعرضـ
ـت أريهم مطالبى والشقورا

إن يشيروا بما علمت فإنى
لأدع الهوى ، وأعصى المشيرا

دون هذا دمى يراق ونفسى
تطعم الحتف رائماً محذوراً

ثم يشير إلى حماية المطعم بن عدى له ... وإلى ذهابه إلى غار حراء ثم دار بن الأرقم . ثم إلى الهجرة وما سبقها وما صاحبها حتى وصل إلى المدينة ، ثم إلى مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ... وبناء مسجده هناك إلى آخر ما ورد فى عناوين السيرة النبوية كما وردت فى « ابن هشام » الذى اعتمد عليه

الشاعر كما جاء فى المقدمة ، ثم ذكر غزوتى بدر وأحد .

وانتهى هذا الجزء بعودة النبى الكريم إلى المدينة بعد غزوة أحد ، والشاعر فى تصوير هذا الجزء من السيرة كان دقيقاً شديد الحرص على ألا يترك شيئاً مما ورد فى السيرة دون تصوير كخيمة أم معبد ... وسراقة بن مالك وبناء مسجد قباء ... والعهد الذى تم بين النبى الكريم واليهود بالمدينة ...

وهذا الجزء يقع فى ٨١ صفحة ، وعدد أبياته ١٢٣٥ بيتاً ، ولكن ليست جميعها من بحر واحد ، ولا من قافية واحدة ، بل هى قصائد يتلو بعضها بعضا ويصل بينها تسلسل الأحداث .

وتتفاوت هذه القصائد فى الطول إذ تتحد فى الوزن والقافية حسب الحادث الذى يدور حوله الحديث ، فمثلا نجد القصيدة الأولى من بحر واحد وقافية واحدة [١] ، وهى من خمسة وثمانين ومائة بيت ، وكذلك وصف غزوة بدر فى عشر ومائة بيت [٢] . فى حين أنه ذكر غزوة « السويق » فى أربعة وثلاثين بيتاً فقط [٣] ، وجاءت غزوة أحد فى خمسة من خمسين مقطعاً ، وبعض هذه المقطوعات أكثر من خمسة أبيات . وهكذا نعل فى بقية أجزاء الإلياذة من حيث عدم التزام قافية واحدة أو بحر واحد .

فإذا ما انتقلنا إلى الجزء الثانى : وجدناه استمرار الغزوات ، وهو فى ٤٤ صفحة وعدد أبياته ٩٤١ ، ويبدأ بذكر غزوة حمراء الأسد التى كانت عقب غزوة أحد ، وينتهى بغزوة بنى قريظة ، وذكر مدح سعد ابن عبادة رضى الله عنه .

ولقد اعتاد محرم أن يذكر فى مقدمة وصف الأحداث والغزوات بكلمة يعرف فيها المناسبة التى سينشد فيها (فمثلا عند حديثه عن غزوة ذات الرقاع قال :

(كانت سنة ٤ هجرية ـ سببها تأليب بنى محارب وبنى ثعلبة أهل نجد على النبى وصحبه ، وقد حدثت فيها عجائب حتى سميت بغزوة العجائب ، وقيل سميت « بذات الرقاع » لأن المسلمين نقبت أقدامهم ، وسقطت أظفارهم ، فلفوها بالخرق ... ولما بلغ نجداً أراد المشركون أن يوقعوا به فى صلاة الظهر ، فترقبوا صلاة العصر ، ولكن نزلت آيات صلاة الخوف : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة » ثم يذكر القصيدة وهى ٧٤ بيتاً وهى :

إلى القوم الألى جمعوا الجموعا
إلى نجد ، كفى نجداً هجوعا
أبت شمس الهدى إلا طلوعا
فقاض شعاعها يغشى الربوعا

(١) الخفيف ، والقافية رائية .
(٢) الكامل ، والقافية (حاء) .
(٣) الطويل ، والقافية (دال) .

ويسطع في جوانبها سطوعاً
إلى غطفان : إنهم استبدوا
وظن غواتهم أن ان يهدوا
بني غطفان : جدوا ، ثم جدوا
جرى القدر المتاح ، فلا مرد
بني غطفان : صبراً أو هلوعا الخ

والجزء الثالث : كان استمراراً لبقية الغزوات وهو في ٧٧ صفحة وعدد أبياته ١٧٥٦ وأول غزوة ذكرت به هي غزوة بني لحيان في السنة السادسة الهجرية .. وآخر غزوة تبوك ، وهي آخر غزواته عليه الصلاة والسلام ، وآخر قصيدة وردت بهذا الجزء كانت عن « مسجد الضرار » ..

وقد ذكر أسباب غزوة « بني لحيان » .. وعذرهم برسل النبي الكريم .. ووصف فزعهم وهروبهم إلى قمم الجبال عندما أحسوا بإقبال النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه عليها ومن ذلك :

بني لحيان : لوذوا بالجبال
وقوا مهجاتكم حر القتال
أمن غدر ، إلى جبن ؟ لعمري
لقد ضقتم بأخلاق الرجال
بني لحيان : واعجبي لبأس
خبت جمراته بعد اشتعال
فررتم تنقوت الموت زحفا
على القمم الشواهق والقلال
هو المسخ المبين ، فمن أسود
تصيد القانصين إلى وعال ؟؟
دعوا الشرك المذل إلى حياة
من الإسلام وارفة الظلال
هو الدين الذي يحيي البرايا
ويصلح أمرهم بعد اختلال
يظل النور في الآفاق يسري
ويسطع ، ما تلا القرآن تال

وعند منصرف النبي عليه الصلاة والسلام من تبوك جمع أصحابه وخطبهم ناصحا ومزوداً إياهم بقواعد الإيمان فوصف محرم ذلك الموقف :

خطب الرسول ، فكل سمع منصت
في الخافقين ، وكل قلب خاشع
قل يا محمد : كل شيء مطرق
يرجو المزيد ، وكل شيء سامع
قل ما يعلمك الذي هو عالم
إن النفوس إلى الفساد نوازع
أدب بدين الله قومك أنه
دين لأشتات الفضائل جامع
هذا تراث العالمين بأسرهم
يجري عليهم نفعه المتتابع
فلكل عصر منه ورد سائغ
ولكل جيل منه كنز نافع

أما الجزء الرابع : فقد خصص لذكر الوفود التي جاءت في العام التاسع بعد فتح مكة تبايع النبي الكريم من مختلف الجهات ، ثم كتب النبي إلى الملوك ، ثم السرايا .

وقد ذكر في مقدمة الجزء الثالث أنه لم يذكر السرايا بحسب ترتيبها التاريخي ، وأنه آثر

أن يفرد لها قسما خاصا ، وأن يتحدث عن الغزوات والملاحم فى مجموعة واحدة احتفاظا بالوحدة النوعية فى كل باب .

وهذا الجزء يقع فى ١١٥ [1] صفحة وعدد أبياته اثنان وأربعون وثلاثمائة وألف بيت.

وقد بدأ ذكر الوفود بوفد « بنى نجران » الذين جاءوا فى حلى من الديباج وعليهم آثار النعمة . . فتشوفت نفوس بعض المسلمين إلى الدنيا ... فأنزل الله تعالى فى ذلك « قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم .... » وقد رضى وفد نجران بالجزية . ولم يقبلوا الإسلام :

وفد نجران : إن أردت الرشادا
فاتق الله ، واتبع ما أرادا
وتأمل ، فتلك حجته البيـ
ـضاء لم تبق ظلمة أو سوادا

... ...

وفى ختامها يقول مخاطباً المؤمنين الذين كادت أبصارهم تزيغ :

أيها المؤمنون : توبوا إلى الله
وكونوا لدينـــه أوتادا
أرغبتم إذ أقبل الوفد فى الدنيا
وكنتم من قبله زهادا .. ؟؟
إن خيراً من ذلكم ، جنة الله
فلا تعدلوا بتقواه زادا . .

(١) منها ٣٩ صفحة للوفود ، و ٦ للكتب ، و ٧٠ للسرايا .

ما لنفس من غبطة أو سرور
بمتـــاع تخشى عليه النفادا

* * *

وهكذا يأخذ فى الحديث عن الوفود وفداً وفداً إلى آخر هذه الوفود وما يتميز به كل وفد ويختمها بالقصيدة الآتية : —

توالت وفود الله تختار دينه
وترضاه رباً ، مالها غيره ربا

وبعد :

فهل نكون عابثين إذا نحن وضعنا « ديوان مجد الإسلام » هذا فى عداد الملاحم ؟ ؟

وإذا ما أخرجناه من عدادها أفلا نكون ظالمين ؟ ؟

إنه من المستحيل على شاعر بل إسلامى أن يتذكر ماذكره هو ميروس ولا سيما فى عمل شعرى يتناول ناحية إسلامية ألا وهى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد سار محرم فى ملحمته على سنن الشعر العربى من حيث الخيال والعاطفة والتصوير الفنى مع إيراد الحقائق .

ولا ينبغى أن يغيب عن ذهننا فى هذا المقام أن المعلومات المختزنة فى عقل الشاعر هى من أهم منابع الخيال وأن العاطفة هى التى تسيطر على الصور التى تبرز فى التشبيهات ؟

دكتور سعد الدين الجيزاوى

بحث في علم الجنس

للأستاذ عبد الله كنون

من طرائف اللغـــة العربية التي تفردت بها عن غيرها من اللغات هذا النوع من الأسماء الذي يسمى «علم الجنس» وهو معرفة لفظا ومعنى لأنه ضرب من العـــلم لا ريب فيه، وأخطأ من عده من قبيل النكرة وجعله كاسم الجنس في المعنى، وإن كانت تجرى عليه أحكام المعرفة، وقد استأثر هذا النوع من الأسماء بانتباه النحاة، فتحدث عنه سيبويه في الكتاب بقوله: «هذا باب من المعرفة يكون فيه الاسم الخاص شائعا في الأمة ليس واحدا منها أولى به من الآخر، ولا يتوهم به واحد دون آخر له اسم غيره، نحو قولك للأسد أبو الحارث وأسامـــة، وللثعلب ثعالة وأبو الحصين وسمسم إلخ...

وقد أشار له أبو القاسم الزجاجي في الجمل بهذه العبارة: «ومن المعارف ما يكون تعريفه بالجنس نحو قـــولك سام أبرص وابن قترة لضرب من الحيات، وابن آوى وما أشبه ذلك، فأما ابن لبون فنكرة، وإذا أردت تعريفه أدخلت عليه الألف والـلام فقلت ابن اللبون، قال جرير:

وابن اللبون إذا ما لز في قرن
لم يستطع صولة البزل القناعيس

وتطرق إليه الزمخشري في المفصل بعد أن تكلم على أسماء الأعلام التي أطلقت على ما يتخذ ويؤلف من الخيل والإبل والغنم والكلاب وغـــير ذلك فقال: «فصل وما لا يتخذ ولا يؤلف فيحتاج إلى تميز بين أفراده كالطير والوحوش وأحناس الأرض وغير ذلك، فإن العلم فيه للجنس بأسره، ليس بعضه أولى به من بعض، فإذا قلت أبو براقص وابن دأية وأسامة وثعالة وابن قترة وبنت طبق، فكأنك قلت الضرب الذي من شأنه كيت وكيت».

أصل الوضع:

وهذه التفرقة التي ألمع إليها الزمخشري بين ما يتخذ ويولف من الحيوان فيطلق عليه علم شخص وما لا يتخذ ولا يولف فيقتصر فيه على «علم» هو مما يدخل في تحديد معناه وكأنها هي أصل وضعه ثم توسع فيه فأطلق حتى على ما يتخذ ويؤلف من حيوان وغيره، وأصلها لسيبويه فإنه قال في الباب المذكور «وإنما منع الأسد وما أشبهه أن يكون له اسم معناه معنى زيد، أن الأسد وما أشبهها ليست بأشياء ثابتة مقيمة مع الناس فيحتاجون إلى أسماء يعرفون بها بعضها من بعض ولا تحفظ حلاها كحفظ ما يثبت مع الناس ويقتنونه

ويتخذونه ، ألا تراهم قد اختصوا الخيل والإبل والغنم والكلاب وما ثبت معهم واتخذوه بأسماء كزيد وعمرو ؟ .

عبقرية :

وعلى كل حال فهل تكون هذه محاولة من العرب فى ماضيهم السحيق للخروج بلغتهم من نطاق اللغة الساذجة التى لا تعبر إلا عن المدلولات الحسية والخارجية إلى مجال اللغة العلمية التى تعنى بتحديد المعانى والحقائق الذهنية ، إذ كان ذلك هو ملحظهم الأول فى وضع علم الجنس؟ إن هذا إذا صح يكون من أعظم الأدلة على عبقرية الفكر العربى حتى فى عصر الجاهلية .

تعريفات وشروح :

ومما يلاحظ أنه بعد تخطى عتبة القرن السادس ، بدأ النحاة يتعثرون بالتعريفات المنطقية المعقدة التى يضعونها لعلم الجنس ، وانتهى أمر تلك الحدود البسيطة التى تعتمد على الأحكام اللفظية والخواص التقريبية .

فابن مالك وإن قال فى الألفية :

ووضعوا لبعض الأجناس علم
كعلم الأشخاص لفظا وهو عم

فلم يخرج فى الظاهر عما قاله النحاة قبله من أنه علم موضوع للجنس وهو كعلم الشخص فى اللفظ تجرى عليه أحكامه وإن فارقه معنى فى كون دلالته عامة بموجب وضعه للجنس ، إلا أنه عاد فوضح مذهبه هذا فى شرح التسهيل بقوله : « إن أسامة ونحوه نكرة معنى ومعرفة لفظا وإنه فى الشياع كأسد » ، وقد وافقه على ذلك الرضى وغيره . وعليه يكون علم الجنس مرادفا لاسم الجنس النكرة فى المعنى ، فلا فرق بين أسامة وأسد إلا فى الأحكام اللفظية ، فإطلاق اسم العلم عليه حينئذ تجوز .

ولكن المرادى رد ذلك بأن تفرقة الواضع بين أسامة وأسد فى الأحكام اللفظية ، تؤذن بفرق من جهة المعنى . ومما قيل فى ذلك أن أسداً وضع ليدل على شخص معين ، وذلك لا يمتنع أن يوجد منه أشكال ، فوضع على الشياع فى جملتها . ووضع أسامة لا بالنظر إلى شخص بل إلى معنى الأسدية المعقولة التى لا يمكن أن توجد خارج الذهن ولا يمكن أن يوجد منها اثنان أصلا فى الذهن ، ثم صار أسامة يقع على الأشخاص لوجود ما هو ذلك المعنى الكلى فى الأشخاص .

قال : والتحقيق فى ذلك أن تقول : اسم الجنس هو الموضوع الحقيقة الذهنية من حيث هى ، فأسد موضوع للحقيقة من غير اعتبار قيد معها أصلا ، وعلم الجنس كأسامة موضوع للحقيقة باعتبار حضورها الذهنى الذى هو نوع تشخص لها مع قطع النظر عن أفرادها ونظيرها المعرف باللام التى للحقيقة . ثم قال : « وفى كلام سيبويه إيماء إلى هذا الفرق ، فإنه قال فى ترجمة هذا باب من المعرفة يكون الاسم الخاص

فيه شائعاً فى أمته ليس واحد منها بأولى من الآخر ما نصه : (وإذا قلت هذا أبو الحارث فأنت تريد هذا الأسد أى هذا الذى سمعت باسمه أو هذا الذى عرفت أشباهه ، ولا تريد أن تشير إلى شئ قد عرفه بعينه قبل ذلك كمعرفته زيداً ، ولكنه أراد هذا الذى كل واحد من أمته له هذا الاسم) انتهى .. لجعله بمنزلة المعرف بالألف واللام التى للحقيقة .

زيادة بيان :

وبهذا يعلم أن علم الجنس هو من قبيل اسم الجنس المعرف بلام الحقيقة لا من قبيل اسم الجنس النكرة . فأسد الموضوع لفرد غير معين من أفراد الجنس هو غير الأسد المعرف باللام ، إن هذا يشير إلى الحقيقة أى الأسدية كما يشير إليها أسامة ، غاية الأمر أن هذه الحقيقة تستفاد فى علم الجنس من جوهره وفى مصحوب أل منها ، فإذا قلنا أسامة أجرأ من ثعالة ، فكأننا قلنا الأسد أجرأ من الثعلب ، فمن أين يتعارق إليه التنكير ؟ .

رجوع إلى الأصل :

ولا نمعن فى هذه الخلافات النظرية ، وهى طويلة عريضة . لاسيما وقد أصبحت عناية العرب كلهم موجهة إلى تبسيط قواعد النحو وتجريده من مماحكات العلل وأحكام المنطق . وقد قام باستنكار هذه المباحث نحاة سابقون ، كانوا لا يرون فيها إلا خروجا عن السذاجة الأصلية للنحو العربى ، وتنادوا بالرجوع به إلى بساطته الأولى . ومن هؤلاء أبو حيان الذى علق على تحقيق المرادى المتقدم بقوله : « إنه رأى بعض من يميل إلى المعقول ، ويريد أن يجرى القواعد على الأصول . يروم به أن يوجد لأسامة ونحوه وجها يدخل به فى المعارف ، وهو بعيد عما تقصده العرب » .

وسأل الأستاذ عبد المهيمن الحضرمى ، وهو من شيوخ ابن خلدون ، الإمام أبا عبدالله المقرى ما الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس؟ فقال له : زعم الخسروشاهى أنه ليس فى الديار المصرية من يعرفه غيره ، وأنا أقول : ليس فى الدنيا عالم إلا وهو يعرفه غيره ، لأنه حد لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعدل عمر عن عامر . فاستحسنه عبدالمهيمن .

كتاب فى علم الجنس :

ونظراً لهذه الأقوال المضطربة فى علم الجنس ، فقد ألف فيه أبو جعفر بن خاتمة من علماء الأندلس كتاباً نبيلا سماه إلحاق العقلى بالحسى فى الفرق بين الكلى والعلم الجنسى وهو يعنى بالكلى اسم الجنس كانسان وأسد وفرس . ولم نقف على هذا الكتاب وإنما ذكره ابن غازى فى حاشيته على الألفية ، وقال إنه أجاد فيه ما شاء ونقل منه نقولا مفيدة ومن جملة ذلك قوله فيه : « يظهر لى أن هذا المعنى استأثر به اللسان العربى دون اللسان اليونانى ،

لاتساع عباراته ولطائف إشاراته ، إذ لو كان فى اللسان اليونانى لوجد فى كتب المنطق المترجمة وتداولته مناطقة الإسلام فى كتبهم كأبى نصر الفارابى وأبى على بن سينا والقاضى أبى الوليد بن رشد الحفيد وغيرهم .

أحكام :

وقد علم أن علم الجنس يساوى علم الشخص فى أحكامه اللفظية ، وهذه الأحكام هى أنه لايضاف ولا يدخل عليه حرف التعريف ولا ينعت بالنكرة ، ويبتدأ به وتنصب النكرة بعده على الحال ويمنع من الصرف مع سبب آخر زائد على العلمية كالتأنيث فى أسامة ووزن الفعل فى بنات أوبر وابن آوى وزيادة الألف والنون فى كيسان علم على الغدر .. ومن أحكامه الخاصة أن ما كان منه مبدوءا بابن كابن عرس وابن آوى وابن أوبر يحمل فى الجمع على لفظ المؤنث فيقال بنات عرس وبنات آوى وبنات أوبر ، وكذلك فى العدد فيقال ثلاث أو أربع أو خمس بدون تاء . وفى نوادر اليزيدى يقال أبناء آوى وبنات آوى بالوجهين .

تقسيمات : ينقسم علم الجنس :

أولا : باعتبار وضعه إلى قسمين ، عربى ومولد كما ذكر ذلك ابن خاتمة فى كتابه المشار إليه على ما نقله عنه ابن غازى . ولم نر من ذكر هذا التقسيم غيره وبمقتضاه يكون علم الجنس غير مقصور على السماع . وهو خلاف مايفهم من كلامهم وماصرح به بعض الشراح عند قول الألفية (ووضعوا لبعض الأجناس علم) والأمثلة التى مثل بها ابن خاتمة لهذا القسم الثانى أعنى المولد هى أبو زياد للحمار وأبو دغفل للفيل وأبو المضاء للفرس وأبو خداش للسنور وأبو اليقظان للديك قال : « وهذا النوع غير منحصر » وهذه العبارة أيضاً من كلامه تفيد أنه لا يختص بالسماع .

والملاحظ أن الأمثلة التى أتى بها كلها مبدوءة بأب ، وأنها لما يؤلف من الحيوان على خلاف الأصل فى علم الجنس ، فهل المولد منه هو الذى من هذا القبيل ؟

ثم إننا نسجل أن أبا المضاء عندهم مما جاء قليلا لما يولف من الأجناس على خلاف الأصل ، فهل يكون ذلك هو الداعى إلى الحكم بتوليده عند ابن خاتمة ، ويكون كل ما ضاهاه كذلك ولو لم يبتدأ بأب كهيان بن بيان للمجهول ؟

ومصداقا لقول ابن خاتمة أن هذا النوع غير منحصر ، نجد فى كتاب المزهر للسيوطى فى النوع السادس والثلاثين وهو المخصوص بمعرفة الآباء والأمهات والأبناء والبنات والإخوة والأخوات والأذواء والذوات ، عدداً كثيراً من هذه الأسماء التى تذكر فى علم الجنس مبدوءة بأب أو أم أو ابن أو بنت ، ومن بينها أمثلة ابن خاتمة ما عدا أبا اليقظان فإنه أورد بدله أبا حماد ، وبعضها مما يلوح عليه أثر الأعرابية وبعضها الآخر مما يحمل

طابع التوليد ، فهل كل هذه الأسماء مما يندرج فى علم الجنس ، وما يكون منها لما يؤلف بعد من قبيل المولد ؟ .

إن هذه مباحث بحاجة إلى التمحيص ، وإن أول ما نستفيده منها هو فتح هذا الباب أيضاً فى وجه العاملين على نمو اللغة العربية وتوسعها ومسايرتها لروح العصر فى النهضة والتقدم .

ثانياً : وينقسم باعتبار مدلوله إلى قسمين أيضاً عند ابن خاتمة : قسم خاص بالأعيان ، وقسم خاص بالمعانى ، وجعله غيره ثلاثة أقسام فاستخرج من قسم الأعيان قسما خاصا بما يؤلف منها وهو القسم الذى استبعده ابن خاتمة وجعله من قبيل المولد .

أمثلة من القسم العينى

أم غياث للسماء ، وذكاء ويوح بالمثناة ويوح بالموحدة وبراخ للشمس ، وبنات نعش للنجوم الشمالية المعروفة ، وبنات بخر للسحاب ، وبنات مخر وبحر لسحائب تجىء قبل الصيف منتصبات رقاق وأم راشد للفارة ، وأم الظباء للفلاة ، وأم صبار للحرة وابن النعامة الطريق ومخاوض الثعلب وملاحس البقر ووحش أسمت وبلد أصمت وعين دبار لأبعد الأرض الذى يحار السائر فيه عن القصد ، وبنات أوبر لضرب من الكمأة ردىء ، وتبدة لمائة من الابل ، وبنات رباط للخيل ، وبنات صعده للحمر الوحشية وأم حلس وأم الهنبر للأتان ، وأم فروة للنعجة وأبو الحارث وأسامة للأسد وذؤالة ودألان بفتح الهمزة وإسكانها وأبو جعدة وأبو جعادة الذئب ، وثعالة وأبو الحصين وسمسم للثعلب ، وجيأل وألفاظ كثيرة للضبع ، وابن آوى وابن عرس لنوعين من السباع وابن مقرض لدويبة تقتل الحمام ، وسام أبرص وأبو بريص الوزغ ، وحمار قبان لدويبة كشهرة الأرجل تتقمص عند ما تلمس ، وبنات وردان لنوع من الحشرات يكون فى البيوت ، وأبو براقش لطائر فيه ألوان يتلون ريشه فى النهار عدة ألوان ، وأبو جعران لذكر الخنافس ، وأبو حباحب لدويبة صغيرة تضىء ليلا ، وأم قشعم وشعوب للمنية وبنت المطر لدويبة حمراء تظهر غب المطر ، وشبوة وأم عريط وأم العريط باللام للعقرب وأم العوام للسلحفاة ، وأم حفصة وأم جعفر للدجاجة ، وأم مهدى للحمامة ، وأبو المرقال وابن دأية للغراب ، وعامر بن عامر للبرغوث ، وأبو هذرها المخترع للشىء ، وابن أحذار للحذر ، وابن أقوال للمنطيق ، وأبو ذبان للأبخر ، وابن صبراء للص ، وأبو دراص وأبو ليلى وأبو الدغفاء للأحمق وابن أبى وهيان ابن بيان للمجهول الذى لا يعرف ، وجابر وابن حبة ويقال جابر ابن حبة للخبز إلى غير ذلك .

ولا يخفى أن فى هذه الأمثلة كثيراً مما هو للمألوفات من الأناسى والحيوانات وقد

ذكرها ابن خاتمة فى قسم الأعيان من علم الجنس العربى ولم يستشعر أى فرق بينها وبين ما حكم عليه بأنه مولد وهذا هو موطن الغرابة .

أمثـلة للقسم المعنوى

برة للبرة ، وفجار للفجور ، ويسار لليسر ، وسبحان للتسبيح على ما فيه من خلاف . وكيسان للغدر ، ومنه سموا الضربة بالرجل على مؤخر الإنسان بأم كيسان وبنات غير للكذب وقيل للباطل ، وحاط بن باط للتخليط والكذب ، وأبو عمرة وأبو مالك للجوع ، وأم ملدم بالدال والذال وأسماء أخرى للحمى وأم الربيق كزبير وبنت طبق وألفاظ أخرى للداهية ، وأم دفر وألفاظ أخرى للدنيا ، وابنا سمير وابنا جمير الليل والنهار ، وابن ذكاء للصبح ، وابن جلا لأول النهار في قول ، وفينة بمعنى الحين بعد الحين وغدوة وبكرة وسحر إذا قصدت من يوم بعينه وقيل مطلقاً فى الأولين . والأعداد إذا قصدت معانيها مجردة من المعدودات نحو ثمانية ضعف أربعة والأمثلة التى يوزن بها كقولك فعلان فعلى صفة لا تنصرف .

تعقيب :

مما يلاحظ فى هذه الأعلام أن صفة ما لوحظت فيها مع العلمية ، كحضاجر للضبع فيه معنى انتفاخ البطن ، وابن دأية للغراب لوقوعه على دأية البعير ونحو ذلك وقد ألمع إلى ذلك سيبويه حين قال : « ومن ذلك ابن قترة وهو ضرب من الحيات فكأنهم إذا قالوا هذا ابن قترة فقد قالوا هذه الحية التى من أمرها كذا وكذا » الخ .

ويلاحظ أيضاً أن بعض هذه المسميات مما له اسم وكنية ، وبعضها ليس له إلا أحد الأمرين ، وبعضها وهو غريب ليس له اسم جنس ، وإنما يعرف بعلمه كحمار قبان وابن مقرض .

ومما يستشكل كون ذكاء ويوح وما إليها علم جنس الشمس ، فإذا كان معناه الحقيقة الذهنية فإنها هنا واحدة فى الذهن والخارج ، ولا أفراد لها فيما تراه العين إلا ما يقوله الفلكيون من أن هناك شموساً عديدة ، ولكن الواضح لم يقصد ذلك قطعاً على أن اسم يوح يحدثنا أنه كان يطلق فى غير العربية من اللغات السامية على الشمس ، ولا ندرى أهو فيها معرفة أم نكرة ؟ وأياً ما كان فإن الاستشكال قائم بالنسبة إلى صفته فى العربية وهى العلمية الجنسية ، إلا أن نقول أن الجنسية هنا معتبرة بالنظر إلى الزمن وتنقلات الشمس فى أبراجها .

والخلاصة أن علم الجنس موضوع طريف فى اللغة العربية وهو يقتضى تضافر الجهود لتحقيق مباحثه .

عبد الله كنون

عباد الرحمن

للأستاذ محمود الشرقاوى

رمضان سنة لا شهر، كما كتب مرة أستاذنا الزيات. فإذا كنا نتلو قول الله تعالى: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان». فنعرف أن الله كرم رمضان نخصه بأن بدأ نزول القرآن فيه، وجعلناه لذلك شهر العبادة والقرآن والخير. وإذا كنا نعرف من حديث الرسول الكريم أنه: «كان أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان». فجعلناه نحن أيضا شهر البر والمعروف والصدقة، إذا نحن قرأنا ذلك وعرفنا ووعينا ثم أطعنا وعملنا فلن نكون عاملين طائعين إلا إذا كان رمضان وكان عملنا هذا فيه يشمل أيامنا كلها ويستوعب الشهور كلها والعمر كله أى أن يكون ذلك وكد حياتنا ومحور أعمالنا ذلك وأساس كل تصرف نقدم عليه وكل فكرة لنا أو خاطر.

إذا التزم كل منا ذلك فى رمضان وغيره كان ذلك دليلا على صدق الإيمان وصفاء القلب ونقاء الضمير، وإيذاناً بأننا قد التزمنا «مكارم الأخلاق» التى بعث النبى عليه السلام لإتمامها. وأننا انتهينا عن الفحشاء والمنكر، اللذين جعل الله الصلاة ناهية عنهما. وهذا الالتزام لمكارم الأخلاق والانتهاء عن المنكر والفحشاء، هما ثمرة الإيمان، فى رمضان وغير رمضان.

ومن منا نحن الصائمين العابدين المطيعين فى رمضان وغيره لا يريد أن يكون من عباد الرحمن..؟

ولكن: من هم عباد الرحمن هؤلاء الذين نريد أن نكون منهم..؟

لقد نسبهم الله إلى صفة «الرحمة» فسماهم: «عباد الرحمن»، ووصفهم فكان أول ما ذكر لهم من الأوصاف اثنتين من فضائل الأخلاق: التواضع والسماحة وكرم الخلق: «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاما». ثم عقب فذكر صلاتهم وعبادتهم المخلصة الخالصة: «والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما». ثم ذكر خشيتهم لله ودعاءهم أن يصرف عنهم غضبه وسخطه وعقابه: «والذين يقولون: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما». ثم ذكر أنهم السويون العادلون المعتدلون «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا

وكان بين ذلك قواما » . والذين يؤمنون بالله وحده فلا يخشون أحداً غيره ولا يخضعون لأحد سواه : « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر » . والذين يقدرون الحياة الإنسانية حق قدرها والشرف والعرض : « ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون » . والذين يعرفون للحق حرمته ويتجاوزن عن إساءة المسيء ، تفضلا وكرما وصيانة : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » . والذين يسمعون آيات الله بآذانهم فتتأثربها نفوسهم وتخشع قلوبهم ، « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » . وأنهم الذين يدعون ربهم أن يهبهم ، من زوجاتهم وأزواجهم ، قرة الأعين من الأبناء والبنات ، وأن يجعل منهم القدوة الخيرة للمتقين : « والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما » .

من منا ، نحن الصائمين المطيعين ، فى رمضان وغيره ، لا يريد أن يكون واحداً من عباد الرحمن هؤلاء الذين بشرهم الله بأكرم بشارة : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما » (١) .

(١) عباد الرحمن : الآيات ٦٣ ـ ٧٧ من سورة الفرقان .

هذه العبادات التي أمر بها الله وأوجبها على كل مكلف لابد أن توجد فى النفس ملكة « التقوى » والرعاية لله والخلق والفضائل حتى لا تكون حركات لا تؤدى غاية ولا توصل إلى ثمرة .

فقد أمر الله بالبر والصدقة ، مثلا ، ولكنه جعل لهذا البر وهذه الصدقة « آدابا » لا بد أن تراعى وتلتزم . وفقدان هذه الرعاية وهذا الالتزام يحبط هذا العمل الصالح ـ كما قال الله تعالى ـ لأن العمل نفسه قد تكون له دوافع غير كريمة من الأثرة والأنانية والتظاهر والمن : « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى . كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين » (١) .

فنحن نعلم من هذه الآيات الكريمة أن الفضائل والآداب التي تلابس الصدقة والبر وبذل المال ، والدوافع التي تحرك النفس لها ، قد تكون أهم من المال المبذول نفسه ، على حب النفس للمال وحرصها عليه . فسر الصدقة واصطحابها بالكلمة الطيبة المواسية التي تباعدها عن المن والأذى ،

(١) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة .

أو بالصمت المهذب العطوف ، مقصد أسمى تدعو إليه هذه الآية الكريمة عند البذل والصدقة وتقديم المعروف . أما من يصحب بذله بالمن والأذى فمثله كما صورت الآية الكريمة ، ونتيجة عمله وبذله أنه كمن لم يكسب ثواباً ولم يعمل خيراً ولا معروفاً ، مع أنه أنفق وبذل وتصدق . ولكنه قد امتن وآذى فحبط عمله .

ثم نعرف من حديث الرسول الكريم أن امرأة تكثر من الصلاة والصيام والصدقة وقد تتطوع بالأيام تصومها وبالليالى تقومها وهى مع ذلك من أهل النار . ولا عجب فى ذلك فى مقياس الحقائق والنتائج والثمرات هذه المتصدقة المتطوعة بالصوم الكثير والتهجد الطويل من أهل النار لأن عبادتها لم تكن صادقة ولا خالصة فلم تهذب نفسها ولم تحجزها عن أذى جيرانها كما سنجد فى الحديث الشريف ، الذى نعرف منه أيضا أن امرأة أخرى قليل صيامها قليلة صلاتها قليلة صدقتها وهى مع ذلك من أهل الجنة ، لأن صيامها هذا القليل وصلاتها القليلة وصدقتها القليلة أيضا كانت صادقة خالصة لله فهذبت نفسها ومنعتها من أذى جيرانها وعصمتها من إيقاع الشر بهم .

عن أبى هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله فلانة ، يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها . قال - أى النبى عليه السلام - هى فى النار . قال الرجل : يا رسول الله : فإن فلانة يذكر من قلة صيامها وصدقتها وصلاتها ، وأنها تتصدق بالأثوار[1] من الأقط[2] ولا تؤذى جيرانها بلسانها . قال عليه السلام : هى فى الجنة[3] .

ولا بد أن يكون المراد بالصلاة والصوم والصدقة فى الحديث ما زاد على الصلاة المفروضة وصوم رمضان والزكاة المفروضة أيضا .

* * *

والآن نذكر نماذج ثلاثة من هؤلاء المؤمنين الذين امتثلوا أوامر الله فصاموا وصلوا وتعبدوا وأطاعوا ، فأثمر هذا كله ثمرته فى قلوبهم وضمائرهم ، ثمرة من الإيمان والتقوى تحجزهم عن كل شهر وتدعوهم إلى كل خير ، فهى رقيبة على كل ما يأتون ويدعون من عمل :

(ا) كان أبو حنيفة ، كما نعلم ، تاجراً . ولكن حب المال وشهوة الكسب لم تطغ

---

(١) فى النهاية من غريب الحديث والأثر : النور : إناء من صفر أو حجارة قد يتوضأ منه وقد يشرب فيه يشير الحديث إلى أنها كانت تتصدق بالشىء القليل

(٢) الأتط ، أو الأقط : طعام يتخذ من اللبن المخيض ، وهو من ألبان الإبل خاصة أو المعز .

(٣) مسند أحمد ج ٢ ص ٤٤٠ .

على قلبه ، ولم تفسه حق الله والدين والخلق ولم تجعله من الذين قال الله فيهم : « الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »[1] . فلم يخدع ولم يرض بالخداع ولو كان من ورائه ربح جزيل .

كان حفص بن عبد الرحمن شريكا له في التجارة ، وترك أبو حنيفة لحفص ثوبا معيباً وأخبره بعيبه وأن ينقص من ثمنه بما يساوى هذا العيب ، وأن يبين لمن يشترى الثوب ما فيه من عيب حتى يشتريه عن بينة . وباع حفص الثوب ونسى أن يبين لمن اشتراه عيبه ، واستوفى منه الثمن كاملا . وعرف أبو حنيفة ما كان من أمر شريكه فأرسل إليه أن يبحث عن المشترى ليخبره بعيب الثوب ويرد له بعض الثمن ، وبحث حفص عن المشترى فلم يجده ، ولم يرض أبو حنيفة أن يقبل ثمن هذا الثوب ولا أن يضمه إلى ماله ، بل تصدق به كله ، وفض ما بينه وبين حفص من الشركة ، تحرزاً وحيطة وتقوى .

(ب) وكذلك كان محمد بن المنكدر تاجرا غاب عن متجره فلما عاد وجد غلامه باع ثوبا بعشرة دراهم ثمنه خمسة ، فظل يبحث عن المشترى نهارا كاملا حتى وجده فقال له لقد أخطأ الغلام في ثمن الثوب الذى اشتريته باعه لك بعشرة وثمنه خمسة فلك نصف ما دفعت ، وقال المشترى : إنى قد رضيت بالثمن وما شكوت غبنا . فقال ابن المنكدر : وإن رضيته ، فإنا لا نرضى ، ورد إليه ما دفع من الزيادة .

(ج) ومثل ذلك فعل يونس بن عبد الجليل كان في متجره أثواب وحلل متفاوتة الثمن بعضها بمائتين من الدراهم وبعضها بأربعمائة و وذهب يوما إلى المسجد وترك أخيه في الدكان وجاء زبون يشترى فعرض عليه الأثواب فاختار منها ثوبا بمائتين راقه واستحسنه ، وتقاضى منه ابن أخى يونس أربعمائة ، وانصرف المشترى يحمل حلته على يده فالتقى به يونس وعرفها ، فاستوقفه يونس وسأله عن ثمنها فأخبره ، وقال له يونس : إن ثمنها مائتان لا تزيد ، فأجابه المشترى : إنها في بلدنا تساوى خمسمائة ، وقد اشتريتها ورضيت ثمنها واخترتها بنفسى ولا أجدنى مغبونا ولكن يونس لم يتركه حتى عاد معه إلى المتجر وهو يقول : إن النصح في الدين والأمانة في الربح خير من الدنيا وما فيها ، ورد عليه مائتى درهم واختصم ابن أخيه في ذلك لائماً زاجراً يقول : أما تتق الله في بيعك ؟ تربح ضعف الثمن ... ؟ فأجابه : إن المشترى قبلها راضيا عنها وعن ثمنها ، فقال له يونس : وإن كان إنا لا نرضى لغيرنا إلا بما رضينا لأنفسنا .

* * *

(1) الآية : ٢ ـ ٣ للمطففين .

كلنا يريد أن يكون من عباد الرحمن ، ولذلك سعى وعمل وصدق إيمان لا يصل إليه أولئك : (الذين تراهم أبعد الناس عن التدين الصحيح ، وأبطأ الناس عن تلبية الدعوة إلى الخير ، يقبضون أيديهم عن البذل والعطاء ، ويثقل عليهم أداء الحقوق ، يقطعون الأرحام ولا يصلون الفقير ولا يخففون عن عن مكروب ، يصفهم الله فيقول : « أرأيت الذي يكذب بالدين ... ؟ فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » [1] .

عباد الرحمن الذين يريد كلنا أن يكون منهم هم الذين وصفهم الله تعالى بأوصافهم وذكرناهم أولئك الذين (أمتلأت قلوبهم بخشية الله وسلطانه ، وظهر أثر ذلك الإيمان فى أخلاقهم فلا غل ولا غضب ولا بغضاء ولا شح ولا قطيعة ولا جبن ولا أثرة ، هؤلاء هم المؤمنون الذين : « إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون [2] » .

هذا هو الدين : عقيدة نقية ، ونفس سخية ، وأخلاق رضية ، وقلوب رقية) [3]

محمود الشرقاوى

(١) سورة الماعون :

(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال

(٣) للمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت

قال عمر بن الخطاب : ثلاث يثبتن لك الود فى صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب الأسماء إليه .

وقال : كفى بالمرء غياً أن تكون فيه خلة من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه .

نظرات فى الأدب والتصوف :

تطور التصوف

للأستاذ محمد ابراهيم الجيوشى

التصوف فى القرن الرابع والخامس :

وعندما أقبل القرن الرابع كانت هذه التعاليم قد انتشرت فى آفاق العالم الإسلامى ، وكان كل شيخ من هؤلاء قد وفد إليه المريدون والأتباع ، ونشطوا فى إشاعة مبادئهم وإذاعة آثارهم وظهر فى خلال هذا القرن كثير من الطرق والفرق الصوفية .

من هذا العرض السريع رأينا كيف نما التصوف وازدهر خلال القرنين الثالث والرابع بكثرة مشايخه وانتشارهم ، ولم يقف عند هذا الحد ، بل كان له مظهر آخر ، ذلك أن الصوفية أخذوا ينظمون أنفسهم ، ويجتمعون على شكل فرق لكل منها لون خاص وتقاليد متميزة ، يخضعون لها ، ويلتزمون مراعاتها ، وأساس ذلك أن يجتمع طائفة من المريدين والأتباع حول شيخ يعلمهم طريق السلوك ، ويرشدهم إلى ما يجب على المريد التزامه حتى يتحقق له كمال العلم وكمال العمل ، وكان من نتيجة ذلك أن وجدت الفرق الفرق الآتية :

(ا) السقطية نسبة إلى السرى السقطى .

(ب) الطيفورية نسبة إلى أبى يزيد طيفور البسطامى

(ح) الجندية نسبة إلى الجنيد .

(د) والخرازية نسبة إلى أبى سعيد الخراز .

(ه) والملامتية أو القصارية نسبة إلى حمدون القصار [١] .

وفى زحمة هذه الفرق التى أشرنا إليها ، وبين عجيج آرائها المتسمة بالجرأة الفائقة ، من مثل ما ظهر على لسان الحلاج والبسطامى الذى كان يقول : « سبحانى ما أعظم شأنى » . ويقول : « رفعنى مرة فأقامنى بين يديه ، وقال لى : يا أبا يزيد إن خلقى يحبون أن يروك فقلت : زينى بوحدانيتك ، وألبسنى أنانيتك ، وارفعنى إلى أحديتك حتى إذا رآنى خلق قالوا : رأيناك ، فتكون أنت ذاك ، ولا أكون أنا هناك » .

هب الفقهاء يردون على هذه الأقوال التى تدل دلالة صريحة على كفر قائلها . وتناولوها وقائليها بالرد العنيف والتجريح القاسى لأن الأمر فى اعتقادهم يتعلق بالعقيدة التى يجب أن تظل نقية من الشوائب ، خالصة من الأدران ، ولم يقف الصوفية أمام هذا الهجوم العنيف من جانب الفقهاء مكتوفى الأيدى ،

(١) الحياة الروحية فى الإسلام .

بل انبرى منهم فريق يردون اتهام الفقهاء ، محاولين تبرئة شيوخهم مما لصق بهم ، أو تأويل كلامهم بما يتفق مع معتقدات الجمهور وآرائهم ، واستعرت نار الحرب بين الفريقين ، واتسعت شقة الخلاف ، ومنذ ذلك الحين أخذ كل من الفريقين ينأى عن الآخر بجانبه ، ويشيح عنه بوجهه ، وألقيت الاتهامات العريضة من جانب الفقهاء على الصوفية يرمونهم بالكفر والزندقة ، وانبرى الصوفية يقولون إن هذه مقامات لم يصل إليها الفقهاء ، ولم يبلغوا إدراكها ، ولو وصلوا لعرفوا ، ومن ذاق عرف - كما يقولون - وظل الخلاف على أشده بين الفريقين ، ونجم عن ذلك ظهور فكرة علم الشريعة والحقيقة ، والعلم الظاهر والعلم الباطن

وذهب الصوفية إلى أن النفس بدوام المجاهدة والرياضة تصفو وتشف حتى تستطيع أن تصل إلى مراتب من العلم والمعرفة ، يطلعهم الله فيها على كثير من من الأسرار ، لا يستطيع الوصول إليها أهل العلم الظاهر ، كما ذهبوا إلى أن العقل الذى يعتمد عليه الفقهاء فى إثبات الأشياء ليس سفيراً أمينا قوياً يستطيع أن يصل إلى هذه المدارك .

بل الذوق والقلب هما الطريق المأمون ، وأقبل القرن الخامس وحمل فيما حمل من العباقرة والعظماء أبا حامد الغزالى ، وأطلعه فى أفقه شهابا ساطعا ، فوجد هذا الخلاف المستعر وأخذ ينظر فى أسبابه ودواعيه ، وأى الفريقين على حق وأى على باطل ، ثم أخذ يتنقل فى أطوار البحث والعلم من طريق إلى طريق ، ومن مذهب إلى مذهب ، كما عبر عن ذلك فى كتابه « المنقذ من الضلال » فقد كشف فيه عن حيرته ، حتى انتهى به الأمر إلى تفضيل طريق الصوفية ، وأنه هو الطريق إلى السعادة والنجاة وصرح الغزالى بذلك بعد أن درس الفلسفة وعلم الكلام ، وانتهت إليه الرياسة فى علوم الشريعة ، ثم أقبل على طريق الصوفية فحذقه علما وعملا ، واستطاع بما أوتى من قوة البيان ، ونصاعة الحجة والقدرة على الجدل والحوار ، ونفاذ البصيرة أن يمزج بين علوم الشريعة والتصوف وأن يدخل كثيرا منه فى مباحثها ، وأبان أن هذا متمم لذلك ، وقد تقبل أهل السنة بعده خلال القرنين السادس والسابع هذا الصنيع بالقبول الحسن ، وخفت حدة الخلاف بين الفريقين .

القرن السادس والسابع :

اختلط الصوفية فى القرنين السادس والسابع بالشيعة الإسماعيلية ، وتلقوا كثيرا من الفلسفات التى غزت العالم الإسلامى آنذاك ، فبدا فى كلامهم القول بالقطب ، وهذا الاتجاه مأخوذ عن الشيعة فى قولهم بالإمام المستور .

وذهبوا إلى القول بكشف حجاب الحس ، والاضطلاع على الأمور قبل وقوعها

والتصرف فيها وأن ذلك إنما يكون بالمجاهدة والرياضة، وقتل نزعات النفس، وإماتة قوى الجسد، حتى تقوى الناحية الروحية فى الإنسان فتستطيع أن تفعل ذلك.

وظهرت أيضا فكرة الاتحاد والحلول والوحدة، ونظرية الإنسان الكامل، مما يعد مزيجا من آراء الفرق الدينية والفلسفية المنتشرة فى ذلك العصر، وأوضح مثال لذلك السهروردى المقتول فى كتابيه «حكمة الإشراق» و «هياكل النور».

ومن عمالقة الصوفية فى هذا القرن محيى الدين ابن عربى، وفى كتبه بين نظم ونثر فيض من هذه الآراء الجريئة.

وفى شعر ابن الفارض وخاصة التائية الكبرى أوضح بيان لمذهب الوحدة عند الصوفية.

وقد لجأ الصوفية إلى الرمز فى التعبير عن هذه الآراء، وحتى من تناول كلامهم بالشرح لم يخرج عن هذا الفلك الذى داروا فيه بما أرادوا من رموز، وأقوى مثل على القول بوحدة الوجود محيى الدين بن عربى فى قوله: سبحانه خالق الأشياء وهو عينها. وقوله:

يا خالق الأشياء فى نفسها
أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كونه
فيك فأنت الضيق الواسع

وكان التصوف خلال هذين القرنين يجمع بين الناحيــــة العملية والناحية النظرية، وقد تعددت فيهما الطوائف الصوفية أكثر من ذى قبل، ويعتبر هذا غاية ما وصل إليه التصوف من أفكار وآراء ونظريات.

أما بعد ذلك فالتصوف لم يعد أن يكون شرحا لهذه النظريات أو اختصاراً لها، أو تعليقا عليها، إلى غير ذلك، ولم يكن له أثر يذكر، وإن كان التصوف فى القرون المتأخرة قد قام بدور كبير فى تكييف الحيـــــاة الاجتماعية.

بهذا التطواف السريع مع الصوفيـة فى تاريخهم ومراحلهم المختلفة نكون قد وقفنا على أهم التعاليم والمبادئ والنظريات والمثل التى آمنوا بها وعملوا من أجلها وكانت منطلق تفكيرهم وإحساسهم، ونستطيع أن نقول إن أظهرها وأقواها. الخوف، والحزن، والزراية على الدنيا والزهد فيها والشوق إلى الله، والحب لذاته، ثم الفناء فيه، والاستغراق فى وجوده، وكذلك القول بوحدة الوجود، والتجلى والشهود والاتحاد.

وسنرى فيما بعد أن أدب الصوفية يدور حول هذه المعانى، ويجول فى ساحات هـذه الأغراض، فما هو ذلك الأدب؟ وما مظاهره؟! وما مدى الصلة بين الأدب والتصوف؟

سنحاول أن نجد إجابات عن هذه الأسئلة إن شاء الله.

محمد ابراهيم الجيوشى

رأى فى بعض القواعد النحوية

مفاعل ومفاعيل

للأستاذ أحمد مختار عمر

المشهور بين الباحثين أن كل ما بدىء بميم زائدة من أسماء الفاعلين والمفعولين لا يصح جمعه جمع تكسير ، وإنما يجمع جمع مذكر سالما . أو جمع مؤنث سالما . ولا يستثنى شىء من ذلك . وقد نص الزمخشرى على أن هذا النوع مما « يستغنى فيه بالتصحيح عن التكسير » وأيد ابن يعيش هذا الزعم واعتبر أن ما جاء من هذا النوع مكسرا من قبيل الشاذ الذى يحفظ ولا يقاس عليه[1]

ولكن سيبويه يفصل ، فيجيز فى مفعل (بضم الميم وكسر العين) الذى يكون للمؤنث ولا تدخله الهاء أن يكسر ؛ وذلك نحو مطفل ومطافل ، ومشدن ومشادن ويمنع تكسير ما عدا ذلك[2] .

ومع ذلك نلاحظ على سيبويه أن عبارته ليست صريحة فى المنع ، فهو يقول : « قالوا مكسور ومكاسير ، وملعون وملاعين ، ومشئوم ومشائيم ، ومسلوخة ومساليخ .. فأما مجرى الكلام الأكثر فأن يجمع بالواو والنون ، والمؤنث بالتاء . وكذلك مفعل (بضم وفتح) ومفعل (بضم وكسر) . إلا أنهم قد قالوا منكر ومناكير ، ومفطر ومفاطير ، وموسر ومياسير » . فكلمة الأكثر تفيد أن جمع التكسير كثير لا قليل .

وهذا الذى اشتممته من كلام سيبويه ، كان حافزى إلى محاولة درس هذه القاعدة من جديد ، وتتبعها فى كتب اللغة والنحو والأدب . وبعد جولة طويلة فى عشرات من أمهات مصادرنا ، تبين لى أن هذا المنع لا مسوغ له ، ولا يستند إلى واقعنا اللغوى ؛ ودليلى على ذلك ما يأتى :

أولا : أنى وجدت من اللغويين من صرح بصحة التكسير ، ومن هؤلاء الفارابى (أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم صاحب ديوان الأدب . وقد توفى سنة ٣٥٠ هـ) فقد قال : « وإذا كانت الزيادة ميما مفتوحة فهو اسم الزمان والمكان والمصدر . هذا إذا كانت العين مفتوحة . . وإذا كانت العين مكسورة

(١) شرح المفصل لابن يعيش ٥ ـ ٦٧ .

(٢) الكتاب ٢ ـ ٢٠١

مع فتح الميم فهو اسم المكان والزمان مما كان مستقبله على يفعل بكسر العين . وما كان بضم الميم وفتح العين فهو اسم المكان والزمان والمصدر والمفعول من أفعل يفعل . وإذا كسرت العين منه فهو اسم الفاعل من هذا الباب . . وإذا كانت الميم مكسورة والعين مفتوحة فهو ما يعتمل به وينقل [1] . . . وجمعها جميعا بالهاء كان أو بغير الهاء . على مفاعل [2] » .

وقد وجدت هذا الرأى كذلك عند الميدانى صاحب « السامى فى الأسامى » إذ يقول : « وإذا كان أول حرف منه ميما زائدة جمع على وجه واحد سواء كانت الميم مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة ... وكذلك القياس فيما رابعه حرف مد ولين نحو مملوك ومماليك ومفرود ومفاريد ... وكذلك إن كان مثقل الحشو نحو مخنث ومخانيث »[3]. فهذا صريح فى جواز هذا الجمع .

كذلك يؤخذ من كلام ابن سيدة فى مقدمة « المحكم » قياسية هذا الجمع إذ يقول : « ولا يلزم إذا كان لفظ الجمع مفاعل أن يكون الواحد مفعلا (بفتح وكسر) ، بل قد يكون مفعلا (بفتح وكسر) ومفعلا (بفتح الميم والعين) ومفعلا (بضم وكسر) فى بعض المواضع » .

ويقول بعد أن عدد منهجه فيما تركه : « ومنه أنى لا أذكر تكسير المزيد من الثلاثى ولا تكسير بنات الأربعة ، ولا إمتل على بذكرى متائم فى جمع متأم ونحوه ، فإنما أذكر ذلك لأشعر أن مفعلا (بضم وكسر) فى نية مفعال » [1] . ومفهوم هذا أن جمع متأم على متائم قياس .

ثانيا : أن هذا الجمع قد تردد كثيراً فى كلام اللغويين الثقات ، دون أن يكون مثاراً للنقد ، رغم كثرة ما ألف فى نقد اللغويين وتتبع زلاتهم ، ومن ذلك قول ابن قتيبة فى كتابه « أدب الكاتب » بعد أن ذكر بعض الكواكب ومنازلها « فهذه الكواكب ومنازل القمر مشاهير الكواكب » [2] .

ويقول الفارابى فى معجمه « ديوان الأدب » : « وإبل دقاق أى مهازيل ، ويقول « ابن مناذر (بضم الميم) شاعر ، وبعض يفتح الميم منه فيقول مناذر يريد جمع منذر » ، ويقول : « وحفتهم الحاجة إذا كانوا محاويج ، ويقول « الخذف بالحصى الرمى به بالأصابع ، وهو أحد مناكير قوم لوط » [3] . وقد استعمل

(١) يعنى به اسم الآلة .
(٢) ديوان الأدب الورقة السادسة .
(٣) السامى فى الأسامى . لوحة ٣ .

(١) مقدمة المحكم ص ٧ ، ١١ .
(٢) ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٣) ديوان الأدب . ورقة ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦

الفير وزآبادى فى قاموسه كلمة «المشاهير»(١) واستعمل الزبيدى فى مستدركه كلمة المشاكل(٢)

ثالثا : أن هذا الجمع قد تردد فى كثير من الشواهد النثرية والشعرية ، ومن ذلك قوله تعالى : «وحرمنا عليه المراضع من قبل» ، وقول الشاعر :

قالت سليمى لا أحب الجعدين
ولا السباط إنهم مناتين

وقول الآخر :

ترى أنفا دغما قباحا كأنها
مقاديم أكيار ضخام الأرانب(٣)

وقول الهذلى :

كأن مصاعيب غلب الرقا
ب فى دار صرم تلاقى مريحا(٤)

وقول الفرزدق :

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة
ولا ناعب إلا يبين غرابها(٥)

وقول أبى ذؤيب :

وإن حديثا منك لو تبذلينه
جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

(١) ١، ٢٢ .
(٢) تاج العروس ـ مادة شكل .
(٣) لسان العرب مادة تين وكير .
(٤) ديوان الهذليين ١٣٠ .
(٥) كتاب سيبويه ١، ٤١٨

وقول الراجز :

ألا انهماها إنها مناهيم(١)

وغير ذلك .

رابعا : أننى رجعت إلى كثير من كتب اللغة لأحصى ما جمع من هذا النوع جمع تكسير ، فأحصيت ما يربو على الثمانين كلمة .

ولا أزعم أننى أحصيتها كلها ، كما لا أزعم أنها كل ما جمع من هذا النوع جمع تكسير ، وهذه هى الكلمات مرتبة ترتيبا هجائيا بحسب حرفها الأول :

همزة : مؤتمر (بضم وكسر ومعناه شهر المحرم) ومآمر ومآمير ـ مأسور ومآسير .

باء : مبسق (بكسر السين من أبقت الناقة وقع فى ضرعها اللبأ قبل النتاج) ومسابق ومباسيق ـ مبهلة (بكسر الهاء ، الناقة لا خطام عليها) ومباهيل .

تاء : متهم (بضم وكسر) ومتام ومتاهيم ـ متأم ومتائيم .

ثاء : مثلوج ومثاليج ـ مثقوب ومثاقيب .

جيم . مجالح (بكسر اللام ، الناقة تدر على الجوع) ومجاليح ـ مجهض (بكسر الهاء) ومجاهيض ـ مجسد (بفتح السين ، ما أشبع صبغه من الثياب) ومجاسد ـ مجرع (بكسر

(١) ديوان الأدب ورقة ١٠٦ .

الراء ، الناقة ليس فيها ما يروى) ومجاريع - مجهولة ومجاهيل - مجنون ومجانين .

حاء : محنق (بكسر النون ، وهو الضامر) ومحانيق - محدث (بكسر الدال ، الناقة دنا نتاجها) ومحاديث - محرم (بتشديد الراء وفتحها) ومحارم ومحاريم - محتاج ومحاويج .

خاء : (مخرط بكسر الراء ، الناقة تفقد لبنها) ومخارط ومخاريط .

دال : مدنية ومدان .

ذال : مذهب (بفتح الهاء) ومذاهب

راء : مرد (بكسر الراء وتشديد الدال ، الناقة شربت الماء فورمت) ومراد - مرء (الناقة استبان حملها) ومراء - مرسل بفتح (السين) ومراسيل . مرضع (بكسر الضاد ، النخلة لها فراخ) ومراضيع - مرجوع ومراجيع .

زاي : مزمور ومزامير .

سين : (مسند بفتح النون) ومساند - مسلوخة ومساليخ - مسنفة (بكسر النون ، متقدمة) ومسانيف .

شين : مشرق (بتشديد الراء وفتحها) ومشارق - مشئوم ومشائيم - مشدن (بكسر الدال ، الظبية شدن ولدها أى طلع قرنه) ومشادن ومشادين .

صاد : مصعب (بفتح العين) ومصاعب ومصاعيب .

ضاد : مضمون ومضامين .

طاء : مطفل ومطافل ومطافيل - مطرف (بفتح الراء ، رداء من حرير مربع) ومطارف .

عين : معضلة ومعاضيل - معجل (بكسر الجيم) ومعاجيل - معصر ومعاصر ومعاصير - معوز (بكسر الواو) ومعاوز .

غين : مغد (بكسر الغين وتشديد الدال) ومغاد - مغتلم ومغاليم .

فاء : مفرق (بكسر الراء) ومفارق - مفيق ومفاويق - مفطر ومفاطير .

قاف : مقعنس ومقاعس - مقلوب ومقاليب - مقرب (بكسر الراء) ومقاريب - مقطوع ومقاطيع - مقيد ومقاييد - مقدم ومقدم (بكسر الدال) ومقاديم .

كاف : مكسور ومكاسير - مكعر (بكسر العين ، ولد الناقة إذا نبت فى سنامه الشحم) ومكاعير - مكبون (من صفات الفرس) ومكابين .

لام : ملعون وملاعين - ملقح (بكسر القاف) وملاقح - ملقوحة وملاقيح .

ميم : مملط (بكسر اللام ، الناقة ألقت جنينها) ومماليط - مملص (بكسر اللام)

وعماليص - عمغر (بكسر الغين ، الناقة تحلب لبنا خلطه دم) وعماغير - عمجر (بكسر الجيم ، الشاة التي لا تستطيع النهوض) وعماجر - علوك وعماليك .

نون : منغر ومناغير - منهوم ومناهيم - منجد ومناجد - مفسوب ومناصيب - منزوح ومنازيح - منقية (سمينة) ومناق - منتن ومناتين - منجب ومناجبة - مندب ومنادبة منكود ومناكيد - منكر (بفتح الكاف) ومناكير .

هاء : مهرع (بفتح الراء) ومهارع - مهذب (بتشديد الذال وفتحها) ومهاذيب ومهاذبة - مهزول ومهازيل .

واو : موقرة (بكسر القاف وفتحها) وموقر (بكسر القاف وفتحها) وموقرة جمعها مواقر - مومس وموامس ومياميس ومياميس .

ياء : ميسور ومياسير - ميمون وميامين - موسر ومياسير .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجل على النحاة تناقضهم مع أنفسهم بخصوص هذا الجمع ، فمع أنهم يمنعونه - كما سبق النقل عنهم - نجدهم عند حديثهم عن حذف بعض حروف المفرد التي تخل بالجمع ، لم يلتزموا ما قالوه من عدم جمع هذه الكلمات جمع تكسير ، وابن مالك نفسه يقول في ألفيته :

والسين والتاء من كمستدع أزل إذ بينا الجمع بقاهما مخل
والميم أولى من سواه بالبقا والهمز واليا مثله إن سبقا

ويقول ابن عقيل في شرح الألفية : إذا كان الخماسي مزيدا فيه حرف ، حذفت ذلك الحرف إن لم يكن حرف مد قبل الآخر ، فتقول في فدوكس فداكس وفي مدحرج دحارج . ويقول تعقيبا على بيتي ابن مالك السابقين : مستدع تقول في جمعه مداع ، فتحذف السين والتاء وتبقى الميم لأنها مصدرة وبجودة للدلالة على معنى . ويقول الخضرى : كلام المصنف يشمل ما كان رباعي الأصول زيد فيه حرف كمدحرج أو حرفان كمتدحرج فيقال دحارج . ويقول : حرف اللين الأصلي كمختار ومنقاد لا يقلب بل يحذف . ويقال : مخاتر ومناقد . وفيه نظر ظاهر ، إذ القياس أن يقال : مخاير ومقايد .

وأظننا - الآن - بعد هذه الجولة الطويلة لا نجد حرجا في استعمال كلمات مثل معاجيم ومشاكل ومواضيع ومفاهيم ومضامين ومشاريع ومراسيم ومظاريف وغيرها ، مما شاع استعماله على ألسنة المتحررين من الكتاب ؟

أحمد مختار عمر
ماجستير في فقه اللغة

عبد القاهر الجرجاني وآراؤه في الشعر والشعراء

للأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي

— ٣ —

ويرى عبد القاهر أن أبا تمام لم يوفق في استخدام كلمة (الأخدع) (١) في قوله :

يا دهر ، قوّم من أخدعيك ، فقد
أضججت هذا الأنام من خرقك

كما وفق الشاعر الحماسي في استخدامها ، عند ما قال :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني
وجعت من الإصغاء ليتا (٢) وأخدعا

وكما وفق البحتري في استخدامها في قوله :

وإني وإن بلغتني شرف الغنى
وأعتقت من رق المطامع أخدعي

فإنك تجد للكلمة عند أبي تمام من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير ، أضعاف ما تجد للكلمة عند الشاعرين من الروح والخفة ، والإيناس والبهجة (٣) .

بل إن الكلمة عنده قد تجمل في موضع دون آخر ، مثال ذلك أنك تنظر إلى لفظة (الجسر) في قوله :

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته
بالقول ما لم يكن جسراً له العمل (١)

وقوله :

بصرت بالراحة الكبرى ، فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب

فترى لها في الثانى حسناً لا تراه في الأول (٢) .

وبرغم أن أبا تمام مولع بالصنعة ، وبالإسراف فيها ، وقد يدفعه ذلك إلى الغموض والتعقيد ، فإن عبد القاهر يعترف بما يأتي به من جيد هذه الصناعة ، كقوله :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم
فيا دمع أنجدني على ساكني نجد (٣)

كما يثني على ما يقرضه أبو تمام من الشعر الجيد ، فيرى من الكناية النادرة قوله :

أبين ، فما يزرن سوى كريم
وحسبك أن يزرن أبا سعيد (٤)

* * *

(١) الأخدعان : عرقان في جانبي العنق .
(٢) الليت : صفحة العنق .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٨ .

(١) يجتاب : يقطع . واللجة : معظم الماء .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٦٢ .
(٣) أسرار البلاغة ص ١٠ .
(٤) دلائل الاعجاز ص ٢٤١ .

وكان عبد القاهر معجباً بتشبيه ابن الرومى وحسن تعليله ، فعندما يصف المصلوب قائلا :

كأن له فى الجو حبلا يبوعه
إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل

يعانق أنفاس الرياح مودعا
وداع رحيل لا يحط له رحل

يرى فى هذا الشعر لونا من الدقة التى تعطى صورة المصلوب على وجهها الصحيح ، فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه حبل آخر يبوعه ، يستوفى الشبه ؛ لأنه إذا كان لا يزال يبوع حبلا لم يقبض باعه ، ولم يرسل يده (١) .

ومما وقف عنده وقفة إعجاب وتقدير قوله فى تفضيل النرجس على الورد :

خجلت خدود الورد من تفضيله
خجلا توردها عليه شاهد

لم يخجل الورد المورد لونه
إلا وناحله الفضيلة عاند (٢)

للنرجس الفضل المبين وإن أبى
آب ، وحاد عن الطريقة حائد

فصل القضية إن هذا قائد
زهر الرياض ، وأن هذا الطارد

شتان بين اثنين : هذا موعد
بتسلب الدنيا ، وهذا واعد (١)

اطلب بعقلك فى الملاح سمية
أبداً ، فإنك لا محالة واجد

والورد إن فكرت فرد فى اسمه
ما فى الملاح له سمى واحد

هذى النجوم هى التى ربتهما
بحيا السحاب ، كما يربى الوالد

فانظر إلى الأخوين من أدناهما
شبهاً بوالده ، فذاك الماجد

أين الخدود من العيون نفاسة
ورياسة ، لولا القياس الفاسد

ويشرح عبدالقاهر جمال هذا النص ، فيقول :

ترتيب الصنعة فى القطعة أنه عمل أولا على قلب طرفى التشبيه ؛ فشبه حمرة الورد بحمرة الخجل ، ثم تناسى ذلك ، وخدع عنه نفسه ، وحملها على أن تعتقد أنه خجل على الحقيقة ، ثم لما اطمأن ذلك فى قلبه ، واستحكمت صورته طلب لذلك الخجل علة ، فجعل علته أن فضل على النرجس . ووضع فى منزلة ليس يرى نفسه أهلا لها ، فجعل يشوب من ذلك ، ويتخوف عيب العائب ، وغميزة المستهزئ ، ويجد ما يجد من مدح مدحة يظهر الكذب فيها ،

(١) أسرار البلاغة ص ١٦٤ .

(٢) عاند : مخالف الحق . وناحله : من نسب إليه .

(١) أى أن النرجس للفضل عند الشاعر يظهر فى أول الربيع ، فكأنه يعد بأن الأزهار والرياحين ستتلوه ؛ أما الورد للفضول فيظهر آخر الربيع فكأنه يتوعد الطبيعة بسلب بهجتها

ويفرط حتى تصير كالمزء بمن قصد بها ، ثم زادته الفطنة الثاقبة ، والطبع المثمر فى سحر البيان ما رأيت من وضع حجاج فى شأن النرجس ، وجهة استحقاقه ، الفضل على الورد ؛ فجاء بحسن وإحسان لا تكاد تجد مثله إلا له [1].

والجملة الأخيرة تدل على ما يحمله عبد القاهر لابن الرومى من الإكبار والتقدير .

* * *

ووجد صاحب الدلائل والأسرار فى شعر ابن المعتز معينا لا ينضب لما يريده من أمثلة للتشبيه . وابن المعتز مشهور بتشبيهاته فى الأدب العربى .

فمن التشبيهات التى أعجبت عبد القاهر عند ابن المعتز قوله :

وكأن البرق مصحف قار
فانطباقا مرة ، وانفتاحا

وإعجابه بهذا التشبيه لا يعود إلى أن المشبه به والمشبه مختلفان فى الجنس أشد الاختلاف فقط ؛ بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه ؛ فبمجموع الأمرين : شدة ائتلاف ، فى شدة اختلاف ، حلا وحسن ، وراق وفتن [2] .

ويجد التشبيه فى قوله يصف البنفسج :

ولا زوردية تزهو بزرقتها
بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها
أوائل النار فى أطراف كبريت

غريبا عجيبا ، لأنه شبه نباتا غضا يرف ، وأوراقا رطبة ترى الماء منها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس . ومبنى الطباع ، وموضوع الجبلة على أن الشىء إذا ظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صبابة النفوس به أكثر وكان بالشغف منها أجدر . ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبها فى شىء من المتلونات ، لم تجد له هذه الغرابة ، ولم ينل من الحسن هذا الحظ (١) .

ولهذا البعد بين المشبه والمشبه به كان تشبيه البنفسج بالنار أعجب وأغرب من تشبيه النرجس فى قول ابن المعتز أيضا :

كأن عيون النرجس الغض حولها
مداهن در حشوهن عقيق (٢)

ويطول بى القول إن أوردت الأمثلة الكثيرة التى مثل بها عبد القاهر من شعر ابن المعتز فى باب التشبيه وحسن التعليل ، وغيرهما .

ولكنه يأخذ عليه أنه لا يحتاط فى تنقية عبارته ، فيرد فيها من الألفاظ ما ينبغى أن يحترز منه ، ويرى ذلك سببا يلحق الضيم

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٧ / ٢٤٨ .
(٢) أسرار البلاغة ص ١٣٠ .

(١) المرجع السابق ص ١١٠ .
(٢) المرجع السابق نفسه

بشعره . بل إنه يجعل ابن المعتز تلميذاً لأبى تمام ، ولا يراه من الشعراء المطبوعين (١) .

وإلى جانب تشبيهات ابن المعتز أورد كذلك من تشبيهات أبى فراس ، وأبى نواس ، وغيرهما من الشعراء .

٤ — وعبد القاهر لا يتعصب لشاعر قديم ، ولا يفضله على محدث لقدمه ، فهو يروى للشعراء الجاهليين والإسلاميين والمحدثين ، ويروى المشهورين والمغمورين ، فتراه يستشهد بشعر امرئ القيس وعلقمة وذى الرمة ، إلى جانب ابن لنكك وأبى الفتح البستى .

ولعله كان يرى هؤلاء الشعراء أساتذة تؤخذ قواعد البلاغة عنهم ، وربما كانت هذه النظرة ، برغم ذوقه المرهف ، سبباً فى إعجابه بشعر لا يصل إلى أن يرضى عنه ، فضلا عن أن يعجب به ؛ وخذ لذلك مثلا موافقته على استحسانهم قول الخليل فى انقباض كف البخيل :

كفاك لم تخلقا للندى ولم يك بخلهما بدعة
فكف عن الخير مقبوضة كما نقصت مائة سبعة
وكف ثلاثة آلافها وتسع مئيها لها منعة

فهذا النظم الذى هو أشبه شىء بالألغاز لا يعد من الشعر فى شىء ، فضلا عن أن يكون شعرا جيدا ، ولن يغنى عنه ما أطال به عبد القاهر فى شرحه ، وبيان سر جماله (١) .

وعبد القاهر يرى أن الشعراء يأخذ بعضهم من بعض ، فمنه أخذ ظاهر ، كما ترى فى قول البعيث :

أترجو كليب أن يجىء حديثها بخير ، وقد أعيا كليبا قديمها ؟ !

فقد أخذه من قول الفرزدق :

أترجو ربيع أن تجىء صغارها بخير ، وقد أعيا ربيعا كبارها (٢)

ومنه خفى كقول البحترى :

ولن ينقل الحساد مجدك بعدما تمكن رضوى ، واطمأن متالع

وقول أبى تمام :

ولقد جهدتم أن تزيلوا عزه فإذا أبان قد رسا ويلملم

فقد احتذى كل منهما على قول الفرزدق :

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل (٣)

ويرى الأخذ قسمين : قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا ، وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦٢ .

(١) المرجع السابق ص ١٣٣ .
(٢) دلائل الاعجاز ص ٣٦١ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٦٢ .

وتعجب ؛ وقسم أنت ترى كل واحـــد من الشاعرين قد صنع فى المعنى وصور ، فمن القسم الأول الذى يكون المعنى فى أحد البيتين غفلا ، وفى الآخر مصورا مصنوعا ؛ ويكون ذلك إما لأن متأخرا قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخر لشىء لم يهتد إليه المتقدم .

ومثال ذلك قول المتنبى :

بئس الليالى ، سهرت من طربى
شوقا إلى من يبيت يرقدها

مع قول البحترى :

ليل يصادفنى ومرهفة الحشا
ضدين : أسهره لها ، وتنامه (١)

وذلك لأن البحترى لم يزد على أن تحدث عن نوم حبيبته وسهره ، فى حين أن المتنبى أبدى عجبه وسخطه على تلك الليالى التى يبيت فيها أرقا ، شوقا إلى حبيبة غافية .

ومن النوع الثانى الذى ترى فيه كل واحد من البيتين صنعة وتصويراً وأستاذية على على الجملة ـ قول رجل من الخوارج أتى به الحجاج فى جماعة من أصحاب قطرى ، فقتلهم ومنّ عليه ليد كانت عنده وعاد إلى قطرى فقال له قطرى : عاود قتال عدو الله الحجاج ، فأبى ، وقال :

أأقاتل الحجاج عن سلطانه
بيد تقر بأنها مولاته

ماذا أقول إذا وقفت إزاءه
فى الصف واحتجت له فعلاته ؟

وتحدث الأقوام أن صنائعا
غرست لدى ، فحنظلت نخلاته

مع قول أبى تمام :

أسربل هجر القول من لو هجوته
إذاً لهجانى عنه معروفه عندى (١)

فكلا الشاعرين قد أبدع فى عرض معناه .

ولا يرى عبد القاهر السرقة فيما اشترك الناس فى معرفته ، وكان مستقراً فى العقول والعادات ، وإنما تكون السرقة فيما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويصل إليه بطلب واجتهاد .

ولم يعر عبد القاهر السرقة والأخذ كبير اهتمام ، اللهم إلا على أنها لون من ألوان اشتراك الشعراء فى المعنى ، وسبب يمهد للموازنة بين المعانى ، ويرى الفرق فى الصور التى يتناول بها الشعراء معنى واحداً .

وكانت دراسة لها وسيلة لدراسة ألوان المعانى الشعرية ، وأصول هذه المعانى (٢) ؟

دكتور أحمد أحمد بدوى
أستاذ بكلية دار العلوم

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٧٤ .

(١) المرجع السابق ص ٣٨٣ .

(٢) عبد القاهر الجرجانى ص ٣٧٣ ـ ٣٧٨ .

الدّعــوة الزّاحفـة

للأستاذ محمد محمّد خليفه

اختلست الدعوة خطاها بين دروب مكة إلى مضاجع الأرقاء والفقــراء فعانقتها أحلامهم حين بدأت فكرة لها إشراقة الفجر ، ثم صارت عقيدة لها قوة الاستهانة بالوثنيين فى هذا الوجود فى سبيل الإيمان برب الوجود .

وتحسست الدعـــوة كذلك سبيلها إلى بعض السادة ممن رأوا فى الوثنية الصماء مهانة لإنسانيتهم الرشيدة ، فلما همست أصاخوا إلى همساتها وهى تتسرب بين قلوبهم فيتلقاها الوعى الواثق مرجعا همسها : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وعاشت الدعوة أول ما عاشت فى جو الوثنية الخانق تخطف أنفاسها التى تعيش بها وهى ماضية فى بناء النفوس وفى ملئها باليقين الذى يخلق فيها قوة قادرة على مجابهة الكثرة العاتية حول الأصنام تعيى قواها للنيل ممن يسفهون الأصنام .

كذلك عاشت الدعوة حتى أمر الله نبيه أن يصدع بها وأن ينذر الناس ، فعلا جبل أبى قبيس – وليس للرهبة إلى نفسه المدرعة باليقين من سبيل – فصاح ورجعت الأصداء صيحته وهرع السادة والعبيد جميعاً إلى صوت النذير ، فلما اكتملت الحشود خطب وأنذر .

ومن هنا بدأت الدعوة حياتها المكافحة فثبتت للعواصف الذارية حينا ، وللرمضاء الحارقة حينا ، وللضرب والشج أحيانا ، بل ثبتت للقتل فاستشهد فى سبيلها الرجال بل النساء ، وكان للنساء فخرهن أن كانت سمية أم عمار بن ياسر أول شهيدة فى الإسلام .

ولبثت الدعوة فى مكة تصارع أمواج البغى والعدوان أعواما وأعواما حتى أذن الله لها أن تزحف إلى يثرب لتتخذها معقلا ، ثم لتبدأ منها زحفها إلى الدنيا ، وكانت بيعة العقبة بمثابة الدعامة الأولى فى المعقل اليثربى كما كانت مفتاح الهجرة التى غيرت وجه التاريخ فهاجرت الدعوة من القيود التى ضربتها حولها الوثنية ، وانسلخت عن الدم الذى ضرجت به ، وفارقت استضعاف أعدائها لها إلى رحاب يثرب الفسيح وإلى صفو الأمن وإلى الشموخ الذى ذلت له كبرياء

الوثنيـــة يوم عادت الدعوة إلى مكة تحطم أصنامها ، وتطلق بالعفو عبادها فكانت الدعوة فى انطلاقها من سجنها المكى كالشمس حين تنزع نفسها من وراء الأفق فتجتاز جوه الدامى وتخلصه لتغمر الدنيا بضحاها المتلألىء وهكذا زحفت الدعوة زحفها الأول إلى يثرب لتغمر الدنيا بنور الهدى كما أرادت وكما أرادلها الله فكانت فى إشعاعها قوة خطفت أبصار اليهود فمدوا أيديهم يحالفونها ثم ينافقونها ثم يخادعونها حتى إذا ما سكن روعهم لسماحتها راحـــوا يتارثونها ويجادلونها ، وأخيراً شاء الله نصر المسلمين عليهم : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديراً » .

وكما كانت الدعوة القوة الخاطفة المروعة لليهود كانت الرعب المخيف للقبائل الضاربة على مسيرة شهر من يثرب أو على مسيرة شهر من الدعوة حيث حلت فبعثت القبائل الوفود تتحالف مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وتتعاهد معه ، وكان فى الدعوة عندئذ قوة الطوفان الذى يخيف الوديان ولا تعصم منه الجبال .

وفزعت قريش وهالها ما تكسبه الدعوة كل يوم من قوى ، وما قد تتمخض عنه بعد من الخطر الجتاح فلم تكد تستنفر لإنقاذ العير حتى نفرت جموعها إلى بدر فلاقتها القوة التى ردتها على الأعقاب تطلب لنفسها على الصحراء النجاة حيث لم يواتهـــا النصر .

وانسلخت قريش من معركة بدر لتعود فى آلافها مرة ثم لتعود فى آلافها ثانية وإنها وإن انتصرت فى الأولى فقد عادت وفى كل قلب شعور عميق بالخوف من بأس المسلمين واستماتتهم فى سبيل نصر الدعوة .

أما فى الثانية فقد حاربتها الطبيعة وحدها فأطارت الرياح الخيام ومزقت الجموع فرجع القرشيون وغيرهم وأكثرهم يؤمن بأن وراء هؤلاء المسلمين تأييداً لا ينكرونه وإن لم يؤمنوا بمصدره .

ثم زحفت الدعوة إلى مكة مرة وأخرى فكان فى الأولى صلح الحديبية الذى سماه الله « فتحا مبينا » وكان فى الثانية دخول مكة من آفاقها فى قوة كالسيل تدفقت بين دروبها لتجتاح كل أثر لقوة الباطل ولتغسل عن أم القرى ماضيها المظلم ولتمحو عنها أرجاس الشرك . .

وهتفت الدعوة فى قوة روحية هزت الأرض والسماء وهى فى طريقها إلى البيت العتيق : لبيك اللهم لبيك . لبيك لاشريك لك لبيك ...

وهتف صاحب الدعوة فى القرشيين الذين خشعت رءوسهم وخضعت نفوسهم لهذا الجلال : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ... ذلك محمد السمح الكريم الذى أوذى فى مكة فخنق وألقيت عليه سلا الجزور وعذب أصحابه فطرحوا على الرمضاء وسالت دماؤهم بل قتل منهم من قتل ذلك الرحيم القلب لم يقل ما قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » ولكنه قال : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ودمغ الحق الباطل فإذا هو زاهق وتحطمت أرباب قريش واستسلمت مكة ثم أسلمت ، ومن ثم تفتحت أمام الدعوة السبل إلى آفاق الجزيرة العربية فتقدمت زاحفة إلى الطائف ثم إلى نجد ثم إلى غير هذى وتلك من أنحاء الجزيرة حتى أتم الله ما أراد .

ثم انطلقت الدعوة من حدود الجزيرة فى قوة كاشفة إلى أرض الشام ، وهى تحت حكم الرومان ، وإنها وإن لم تحرز نصراً أولا غير أنها كانت بمثابة تهديد وإنذار لقوتين تحكمتا فى مصير العالم قرونا : قوتى الفرس والروم ، وكانت كذلك بمثابة إذن من الرسول لانطلاق الدعوة بعده إلى العالم لتدحر الوثنية والإلحادية اللتين تغلغلتا فى بلاد الفرس ، ولترد اليهودية والمسيحية إلى الحق الذى جاءت به التوراة والإنجيل قبل أن تمتد إليهما يد التغيير والتحريف .

وتوفى الرسول ومضى الشيطان يوسوس فى الصدور ويغريها بالردة فارتد الكثير عن الإسلام وزحفت الدعوة من جديد تعيد إلى الحق من عبدوا الله على حرف ، فانطلقت جيوش الحق تموج فى بوادى الجـــزيرة وحضرها ترجع فى الناس صيحة الخليفة الأول : من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله حى لا يموت : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » ، ودفعت قوة الحق ضلال المرتدين فأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وسلمت الجزيرة من خبث الشيطان ، وخرجت الدعوة فى جيوشها من الصحراء لتظهر دين الله على كل دين ولو كره المشركون ولتحقق وعد الرسول فى تاج كسرى فلاقت قوى أكثر عـــددا وأعظم عددا ولكن سلاح الإيمان الماضى لن تفله قوة فى الأرض ، والصبر الذى نسج الله منه لنفوس المؤمنين دروعا مضاعفة لن تنفذ منه إلى تلك النفوس ما صنعت يد البشر ولا ما صنع الشيطان وحقق الله النصر بعد معارك رهيبة وملكت يد العربى الذى كان يبيت على الطوى تاج

كسرى وجلجلت فى إيوانه صيحة الحق : الله أكبر الله أكبر ثم دان الفرس بالإسلام بل كانوا من أعلام علماء الإسلام ...

ولم تقنع الدعوة بذلك النجاح فتركن حينا إلى الدعة ولكنها مضت فى سبيلها لا يصدها جلال القياصرة ولا تردها رهبة جيوشهم التى روعت الزمن لأن القوة التى تنصر دعوة الله لن يخذلها الله ولن يعلو جاهها جاه .

وأمام جيوش الدعوة لزاحفه طارت قلوب الروم فى بلاد الشام بعد جولة وجولة كان فيها للحق صولة أى صـــولة ، ومكن الله للإسلام الاستقرار فى بلاد الشام بعد فتحها .

وتقدمت الدعوة فى أربعة آلاف مقاتل بل أربعة آلاف داعية إلى مصر لقاء الرومان الذين كانوا يحكمونها ولكن أصداء المعارك الماضية كلها وقعقعة سلاحها كانت ما تزال ترن فى قلوب الرومانيين فى مصر فاعتقدوا حين زحفت الجيوش الإسلامية إلى مصر أن هؤلاء ليسوا أربعة آلاف مقاتل فيهم طبيعة المقاتلين وكرهم أو فرهم ولكنهم أربعة آلاف جائع قذفتهم الصحراء المجدبة على هذه البلاد ليلتهموها ومن ثم لم يجد الرومان بدا من أن يطلبوا الحياة لأنفسهم وراء الأسوار والحصون وأعمل العرب حيلتهم لاستدراجهم من الحصون ولم تلبث المعركة غير قليل حتى تمزق الرومان كل ممزق ولقيت الدعوة فى مصر النفوس الخصيبة ولم تجد من الاستقرار فى بلد ما وجدت فى مصر ثم تقدمت الدعوة بعد حين إلى شمالى إفريقية فانسالت عبر الصحراء حتى بلغت المحيط ، ووقف عقبة بن نافع قائد الجيوش الإسلامية على شاطىء المحيط يلقى بصره فوق أمواجه العاتية الصاخبة ثم يهتف : والله يارب لولا هذا البحر لمضيت مجاهداً فى سبيلك وكانت الدعوة تؤذن حيث تكون :

الله أكبر الله أكبر .

وبعد مائة عام أو يزيد قليلا من عمر الدعوة عبرت مضيق طارق إلى أوربا حيث أقامت فى الأندلس ثمانية قرون لم تترك فيها شبراً من الأرض لم تمسه جباه المصلين ، وإن آلاف المساجد التى أقامها المسلمون هنالك أدت رسالة المسجد فكانت مدارس لدعوة الله وتحفيظ القرآن ولغته وعلومه كما كانت محاريب للصلاة وبهذه وتلك حققت تلك المساجد ما تريده دعوة الله .

ثم طوردت الدعوة بعد الثمانية القرون من هذه البلاد فلم تستطع النفوس التى أضعفها الترف أن تضمن لها هنالك البقاء أو الحياة التى ضمنتها لها النفوس الصابرة المؤمنة التى فتحت تلك البلاد والتى مهدت للدعوة الحياة الصالحة الهادية ...

ولكن الله عوض الدعوة الخير فى غير الأندلس حيث انفتحت أمامها آفاق وآفاق التقت مع البلاد السابقة فولت وجوهها معها شطر المسجد الحرام .

أيها المسلمون :

لقد آمن بالدعوة أول من آمن رجل وامرأة وغلام ثم زادوا قليلا ، ولكن هذه القلة كان لها من قوة الإيمان والاحتمال والتأثير ما جعلها تندفع بعد فتخلق القوى المحركة التى تصنع الكثير وتحى الكثير ، فكانت كقوة الماء المندفع من الشلالات ، فتخلق القوى الكهربية الجبارة ، ونحن الآن مئات من الملايين ولكننا الكثرة الراكدة التى لم تعد تحرك الدنيا وتصنعها بل يستغلها سواها ويصنع منها الخير الذى يريده لنفسه .

إن الدعوة التى عاشت بمعانيها فى عشرات النفوس ومئاتها وامتدت فى الآلاف فخلقت من كل أولئك القوة الغازية تعيش الآن فى مئات الملايين ألفاظا تجرى على الألسنة ماتت فيها المفاهيم والدلالات وكأنها لم تحمل تلك المعانى التى حملتها إلى المسلمين الأولين وحق لهذه المئات من الملايين الإسلامية التى تعيش الدعوة بينها غريبة أن تغزى وتستضعف وتستذل .

أيها المسلمون :

إن الأخوة فى الله أعظم ما يعتمد عليه نجاح الدعوة ، وقد قضت الأهواء والأنانية وحب السلطان ودسائس الاستعمار على تلك الأخوة فأصبحنا فى دنيا أشبه بقطيع الغنم منا بالمسلمين يجزر منا كل يوم شعب وتسلخ عنا فى كل حين بلاد .

لقد فقدنا كياننا كأمة واحدة كان لها بأسها حين كانت تستغيث المرأة فى عمورية فيلبيها المعتصم بجيشه الجرار ليثأر للكرامة العربية ممن جرحوا العزة العربية .

فما أحوجنا اليوم إلى أن نعود إلى دعوة الحق نتفهم معانيها ومراميها ثم نسلم أرواحنا إلى تلك المعانى والمرامى لنتفاعل معها لعلنا نؤمن بها بعد الإيمان الصانع لا المستضعف السالم لا المستسلم ، الإيمان الذى يجعل من مئات ملايين المسلمين قوة داعية إلى الله هادية إلى الحق كقوة المئات التى صنعت المعجزات ومزقت قوتى الفرس والروم .

إننا يوم نؤمن بهذه الدعوة ونعيش فيها ولها ستجد فينا القوة المندفعة فى العالم لتقوده كله إلى قبلة واحدة يسلم فيها الجميع الوجوه إلى رب الناس ملك الناس .

فمتى نؤمن لنقود الدعوة الزاحفة ؟

محمد محمد خليفة

حياة سلمان الفارسي وإسلامه

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

— ٢ —

كانت هجرة الرسول إلى المدينة خيراً وبركة على الأوس والخزرج فقد أصلح الله بالنبي بينهم وأزال العداوة والبغضاء التي ظل اليهود يذكونها بدسائسهم ليستغلوا عداء أبناء العمومة في مصالحهم الخاصة .

وبينما يعيش سلمان في أحد جوانب المدينة يقوم على خدمة مولاه ، إذ ارتجت جنبات المدينة واهتزت أركانها بقدوم الرسول وصاحبه وباحتفاء الأنصار بهما فقد صار قدومهما حديث المدينة أوسها وخزرجها ، يهودها ومشركيها .

وذات يوم وسلمان يقوم لسيده بعمل في رأس نخلة إذ سمع سيده الجالس تحته وقد أقبل عليه ابن عم له ووقف عليه قائلا يا فلان (قاتل الله بني قيلة (١) لقد مررت بهم فوجدتهم مجتمعين بقباء على رجل قدم عليهم من مكة ويزعم أنه نبي) .

فلما سمع سلمان هذا وهو فوق النخلة أخذته رعشة شديدة وأحس النخلة ترتجف به حتى كاد يسقط من فوقها ، فنزل سريعاً يسأل ابن عم سيده وجعل يقول له ما هذا الخبر ؟ . ماذا تقول ؟ ، فغضب منه سيده ولكمه قائلا له : مالك ولهذا أقبل على عملك ... فليس هذا من شأنك ، فعاد سلمان إلى عمله وقد انصرف كل تفكيره إلى ما سمع ، حتى إذا كان المساء أخذ سلمان شيئاً مما جمع لنفسه وذهب إلى قباء حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام عند أصحابه ، فلما دخل حيا الرسول وقال : إنه بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب ذو حاجة ، وهذا شيء كان عندي للصدقة وقد رأيتكم أحق به من غيركم فأتيتكم به ، ثم وضعه بين يدي الرسول ، فكف الرسول يده عنه وقال لأصحابه : كلوا ، فأكلوا .

فلما رأى سلمان ما فعل محمد عليه السلام ، من إمساكه الصدقة وعدم مشاركته أصحابه رغم ما كان عليه الرسول من حاجة ، ولا سيما وقد ترك ماله وأهله في مكة . قال في نفسه : هذه واحدة .

وترك مجلس الرسول يفكر فيما رأى من محمد العظيم ، فمال إليه وإلى من يلتفون حوله ، وأحب أن يكون منهم ، ولكن أنى له هذا وهو عبد رقيق لا يملك من أمر نفسه

(١) أصل الأوس والخزرج .

قليلا ولا كثيراً وسيده قد يغضب عليه إن علم أنه مال مع محمد ويقسو فى معاملته .

ليته حر يتمتع بالحرية التى تخوله هذا المقام الرفيع ، بعيداً عن عنت سيده وفظاظته واستبداده به وقسوته عليه .

وبعد أيام جمع شيئاً من زاد وذهب به مرة أخرى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما دخل إلى مجلس الرسول ألقى السلام ! ثم قال بعد أن وضع المال بين يدى الرسول ، إنى رأيتك لا تأكل الصدقة ، فأحببت أن أهديك هدية تكريما لك ، فمد الرسول يده وأكل منها ودعا أصحابه فأكلوا معه . عند ذلك امتلأت نفس سلمان غبطة وسروراً وقال : هذه ثانية ، وعاد من حيث أتى يعمل فيما يكلف به .

ومرة ثالثة أتى الرسول عليه السلام ، فوجـــده قد تبع جنازة فى بقيع الغرقد وحوله أصحابه فسلم عليه ، ثم استدار خلف الرسول فلم يستطع رؤية خاتم النبوة الذى وصفه له الكاهن من قبل : فلما لحظ الرسول عمله هذا أدرك أنه يريد أن يرى شيئاً ربما وصف له ، فألقى رداءه عن ظهره الشريف ، فانكشف خاتم النبوة ، فلما رآه سلمان انكب عليه وقبله ثم بكى ، فقال له الرسول : تحول إلى يا سلمان ، ثم أجلسه بين يديه وسأله عما يريد فأخبره سلمان بقصته من يوم أن ترك بلده مفارقاً أهله ، وقد استهوته عقيدة المسيحية ، وما كان بينه وبين الكهان الذين عاش معهم ، فامتلأت نفس النبى إعجاباً به وإكباراً له وذلك فى سبيل الوصول إلى الحقيقة كاملة .

* * *

وفى هذه المرة تحقق سلمان من محمد وعرف أنه طلبته وهو الرجل الذى وصف له وسعى للقائه وأنه هو النبى المرسل الذى حدثه عنه الراهب ، فمد سلمان يده ليبايع الرسول ويدخل فى دين الله ، وامتلأ قلبه بالإيمان وأشربت نفسه حب رسول الله ، فأخذ يتردد على الرسول يسمع منه ويروى نفسه العطشى من تعاليم الإسلام .

ولم يمض وقت طويل على إسلام سلمان حتى اشتبك المسلمون مع الكفار فى معارك دامية وصراع جبار ، ولم يستطع سلمان أن يشارك المعركتين الأولتين إذكان لا يزال علوكا يرسف فى قيد العبودية ويتجرع آلامها ويحتسى من كئوسها فى خدمة ذلك اليهودى .

كان سلمان يريد ألا يفوته شيء من شرف القتال ، فشكا إلى رسول الله شوقه هذا ، وألم نفسه لهـــذا الحرمان القاتل ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : كاتب يا سلمان عن نفسك فعاد سلمان إلى سيده وما زال يحتال حتى كاتبه على أن يحضر له ثلثمائة نخلة ، ثم يحفر أرضها

ويزرعها ويتعهدها حتى تخضر وعلى أربعين أوقية من ذهب .

إنه ثمن باهظ لا شك ومتى كان ثمن الحرية رخيصا ، وأنى لعبد لا يملك من أمر نفسه شيئا ، القدرة على كل هذا ، ولكن كل ذلك هان على سلمان فى سبيل الدين الجديد الذى أضاءت له جوانب قلبه ، وتحركت من أجله عواطفه وحسه ، فأخذ يعمل جاهدا فى سبيل استكمال حريته .

ولما أخبر رسول الله بما كان بين سلمان وبين سيده وكان جالسا بين أصحابه ، نظر إليهم وقال لهم عليه السلام : « أعينوا أخاكم بالنخل » ، فتسابق الصحابة إلى جمع النخل ومساعدة سلمان ، حتى اجتمع له العدد المطلوب ، فقال له الرسول اذهب يا سلمان واحفر لها الأرض ولا تضع واحدة منها حتى أضعها بيدى ، فذهب سلمان هو وبعض الصحابة وأعدوا الحفرات ، عند ذلك حضر الرسول وزرع النخل بيده ، فلم تتخلف واحدة عن الظهور . قال سلمان : (كنت آتيه بالنخلة فيضعها ويسوى عليها ترابا ، فانصرف ، والذى بعثه بالحق ما ماتت منها واحدة) .

بقى الشق الثانى من مكاتبة سلمان ، وإنه لأعز الشقين وأكثرهما مشقة ، وبينما الرسول جالس ذات يوم حضر أحد أصحابه وقدم إليه قطعة من الذهب ، كان قد وجدها فى منجم ، فقال الرسول لأحد الحاضرين : ادع سلمان المسكين المكاتب ، فلما حضر قدم له قطعة المعدن ، وقال له : خذ هذه فأد ما عليك ، فأخذها واستطاع أن يجمع إليها شيئاً آخر حتى أكمل الأربعين أوقية ، ثم دفعها إلى سيده ، الذى أخذها فرحاً مسروراً وفك أسره ، وبذلك أصبح سلمان حرا ، واندمج فى صفوف المسلمين وصار من كبار الصحابة المقربين .

* * *

استقر المقام برسول الله والذين آمنوا معه بالمدينة وتوافد المهاجرون عليها ، فعز على المشركين أن تجد الدعوة الإسلامية مكانا حصينا تأوى إليه ، وتخرج منه شعاعها ، فاشتبكوا مع المسلمين فى معارك حامية يذكرها التاريخ الذى سجل صفحات مشرقة خالدة للمسلمين ، ولم يكن المشركون وحدهم هم الذين يناوئون الإسلام ، بل كان هناك اليهود الذين يحقدون على النبى ودعوته ويعملون على استئصالها .

ففى السنة الخامسة للهجرة ذهب وفد من بنى النضير وبنى وائل ليعقدوا مع قريش محالفة ضد محمد ، وقد رحبت قريش بالفكرة وفرحت أشد الفرح ، أن تجد من يعينها على حرب محمد وأصحابه ، فاستجابت لدعوتهم وانضم إلى قريش غطفان وفزارة وغيرهما من قبائل العرب ، وخرجت قريش وحلفاؤها

فى جيش كبير متجهين إلى مدينة الرسول آملين أن يستطيعوا دكها على من فيها وأحاطوا بها من كل جانب وفى ذلك نزل قول الله تعالى : « إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا .. » .

ولما علم النبي بذلك جميع أصحابه يستشيرهم فيما يعملون ، ثم أقنعهم أن الأفضل هو انتظار العدو وراء حصون المدينة لأنها محصنة من كل جانب بالسدود والقلاع والبساتين ، وليس على المسلمين إلا أن يحموها من الجانب الشمالى لأنه ضعيف التحصين .

عند ذلك انبرى سلمان مشير على النبي بأن يحفر من هذه الجهة الضعيفة خندقا كالذى رآه فى بلاده واستعرض محمد وأصحابه الفكرة وناقشوها وعندما اقتنع المسلمون بوجاهتها وقوة نفعها ، شمروا عن سواعدهم فى حفر الخندق ، وشارك النبي فى حفره مع بقية المسلمين .

وكان السائر بالقرب من المدينة تصافح أذنيه أصوات موسيقية تنبعث عن لحن واحد يبعث الخشية والروعة فى النفوس وهى تقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

فإذا دنا من مصدر الصوت شاهد المسلمين يحفرون دائرة حول المدينة ، كل يؤدى عمله حتى الرسول يشارك فى الحفر ، فإذا سكت المسلمون سمعته عليه السلام يقول مرتجزاً :

باسم الله وبه بدينا
ولو عبدنا غيره شقينا
يا حبذا ربا وحسب دينا

واستمر المسلمون فى عملهم هذا حتى أتموا حفر الخندق ووقفوا خلفه على استعداد لصد أعدائهم بينما فى مكان آخر ليس بالقريب من المدينة وليس بالبعيد ، أقيم معسكر ضخم يضم المشركين وحلفاءهم الذين أخجل فرسانهم طول الانتظار فتهيئوا للقتال ، وخرجوا فى كوكبة مندفعة إلى المدينة كالسيل الجارف ، ولكن سرعان ما توقفوا أمام الخندق وقد جمد الدم فى عروقهم ، وهالهم ما رأوا فصاحوا مندهشين : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها .

• • •

حدث سلمان قال :

كنت أضرب فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة عالجت كسرها مرارا فلم أستطع

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا منى فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على، نزل فأخذ المعول من يدى، وضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، ثم ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى.

قال سلمان: فلما رأيت ذلك، قلت بأبى أنت وأمى يا رسول الله، ما هذا الذى رأيته لمع تحت المعول وأنت تضرب.

قال رسول الله أوقد رأيت ذلك ياسلمان؟.

قلت نعم.

فقال عليه السلام: ضربت ضربتى الأولى فبرق الذى رأيت أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذى رأيت، أضاءت لى منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها، قال ثم ضربت ضربتى الثالثة فبرق منها الذى رأيت فأضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها.

فأبشروا بلوغهم النصر، وأبشروا ببلوغهم النصر، وأبشروا ببلوغهم النصر.

فلما سمع المسلمون هذا الكلام استبشروا بنصر الله لهم.

وقد عاش سلمان حتى رأى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحقق، فقد من الله على المسلمين وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها ودخلت جيوشهم معاقل الفرس غازية منتصرة رافعة راية الإسلام ناشرة لواء الحرية والعدل.

فزلزلت عرش كسرى وبددت شمل جيوشه وأصبحت بلادهم تحت حكم المسلمين فنشروا فيها العـــدل والطمأنينة، فاغتبط أهلها ورحبوا بالإسلام دين المساواة، ودخل كثير منهم فى الإسلام.

رأى سلمان كل هـــذا سرت به نفسه، وخاصته عندما بعثه الخليفة أميرا على المدائن فعاد إلى موطنه الأصلى ينشر بين قومه تعاليم الدين الذى ظل شطـرا طويلا من حياته يبحث عنه.

وسار بين أهـــل المدائن سيرة حسنة مكنت حبه من قلوبهم، فقد كان يتصدق بعطائه الذى كان يناله من الدولة، وينسج الخوص ليأكل من عمله به وظل بها حتى مات سنة ٣٤ هـ.

لقد كان سلمان علما من أعلام الإسلام صحيح الرأى، عالما بالشرائع قرأ الكتاب ووعاه وسمع الحديث ورواه، وقد روى له البخارى ومسلم ستين حديثا رضى الله عنه وأرضاه.

عبد الموجود عبد الحافظ

وقفة مع رمضان

للأستاذ عبد الرحيم فوده

يقترن شهر رمضان بذكريات لا يمل الحديث عنها ، وله فى تاريخ العرب والمسلمين شأن لا يرقى إليه شأن . ولا شك أن أعظم تلك الذكريات ذكرى نزول القرآن فيه ، وفى ليلة مباركة من لياليه ، كما يفهم من قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، وقوله سبحانه : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم » . والمتأمل فى وصف هذه الليلة بأنها مباركة كثيرة الخير وبأنها يفرق فيها كل أمر محكم فلا يلتبس به غيره ، وبأنها كانت زمن الرحمة المرسلة من الله يدرك أنها هى الليلة التى وصفها الله بأنها ليلة القدر ، وذكر أنها خير من ألف شهر ، وأخبر أن الملائكة والروح تتنزل فيها من أجل كل أمر ، ثم وصفها بأنها سلام ، وأنها إلى مطلع الفجر ، وأى شىء فى تاريخ العرب والمسلمين يعدل هذا القرآن الذى رفعهم إلى السماء ومكن لهم فى الأرض وجعلهم فى فترة لا يحسب لها حساب فى عمر الأمم « خير أمة أخرجت للناس » ، بل أى شىء فى تاريخ الوجود كله يعدل هذه المعجزة التى تحدى بها الله الإنس والجن ، وجعلها باقية على الزمن جديدة على الأيام يطالع فيها الناس جمال صنع الله ، وجلال قدرته ، ومنهج شريعته ، ويرون فيها دليلهم إلى الخير وسبيلهم إلى الفلاح .

ثم إن القرآن مع أنه للناس جميعاً كما يفهم من قوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » هو الذى ضمن للغة العرب الخلود وجعلها اللغة الرسمية التى يتخاطب بها المسلمون ، وزينها بالعلوم التى نبتت على شواطئه وتعهدها المسلمون من كل لون وجنس بالرعاية والعناية والتقديس .

وقد وصف الله القرآن بأنه نور حيث يقول سبحانه « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » ، ووصف الرسول الذى تلقاه بأنه نور فقال تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » . وقال جل شأنه

« يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » وقد كان إشراق هذا النور على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فى هذا الشهر . فكان وكان نور الله فيه كما يقول تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء » .

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن صحف إبراهيم أنزلت فى أول ليلة من رمضان ، وأن التوراة أنزلت لست مضين منه ، وأن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت منه ، وأن القرآن أنزله الله لأربع وعشرين مضت منه ، ومن ذلك ندرك مكانة هذا الشهر عند الله . وما ينبغى أن تكون عليه مكانته عند الناس ، وقد بين الله الليلة التى أنزل فيها القرآن ، فكانت أفضل ليلة فى هذا الشهر ، لأنها ليلة القدر ، ومن ثم كان الكتاب الذى أنزل فيها كما يقول الله « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » ، وكان الدين الذى نبع منه كما يقول الله « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » .

ومن ذلك كذلك يتبين لماذا اختص الله هذا الشهر بالصيام ، ويمكن ملاحظة الصلة الوثيقة بين هذا الشهر وهو شهر رمضان وبين الكتاب الذى أنزل فيه وهو القرآن إذا تأملنا قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، فإن الثمرة المرجوة من الصيام هى التقوى والتقوى هى سبيل الهداية والاستمتاع بهذا الكتاب كما يقول الله « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » ، فإذا ذكرنا مع ذلك أن التقوى خير زاد كما يقول الله « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » ، وخير لباس كما يقول الله تعالى « ولباس التقوى ذلك خير » ، وخير مقياس تعرف به أقدار الناس كما يقول سبحانه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، ثم هى إلى ذلك مفتاح الخير والبركة كما يفهم من قوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، إذا ذكرنا ذلك وما إليه مما جاءت به السنة النيرة المطهرة من بيان فضل صيام رمضان عرفنا أى قدر يتمتع به هذا الشهر ، وقد روى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامه) يقول الصيام أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه ويقول القرآن منعته النوم بالليل فشفعنى فيه

قال : فيشفعان . وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتاكم رمضان ، شهر مبارك فرض الله عز وجل عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء ، وتغلق فيه أبواب الجحيم . وتغل فيه مردة الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر . من حرم خيرها فقد حرم) ، كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم (أن الصوم جنة وأن دعوة الصائم مستجابة ، وأن من صام رمضان إيمانا واحتسابا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه وأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك) .

وقد اقترن اسم هذا الشهر فى تاريخ المسلمين بكثير من المواقف المشرفة والانتصارات الحاسمة ، ففيه كانت غزوة بدر . وفتح مكة . وغزوة تبوك ، وفيه كانت انتصارات المسلمين على القوط فى الأندلس وعلى التتار فى عين جالوت ، وعلى الفرنسيين فى معركة المنصورة وهكذا نرى من آيات الله . وأحاديث رسوله ووقائع التاريخ الإسلامى ما يزيد نفوسنا إيمانا بيمن هذا الشهر وقيمته العظيمة بين الشهور والأيام ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يستقبل هلاله بهذا الدعاء الطيب الحبيب : « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربى وربك الله هلال رشد وخير » فكان ما كان مما ذكرناه وأشرنا إليه . واستجاب الله لدعائه صلى الله عليه وسلم . فجعله شهر يمن ورشد وخير وبركة على المسلمين ، وقد اقترن مقدمه فى هذا العام بهذا المؤتمر الموفق الميمون ، إذ أجتمع رؤساء الأمة العربية وملوكها فى القاهرة العامرة ، وأجمعوا أمرهم على عمل حاسم يصد عدوان أعداء العروبة والإسلام والإنسانية والمسلمين ، ولا شك أن جهودهم ستكلل بالنجاح ، وأن حقهم سيدفع باطل الصهيونية ، ومن يمدونها بالعون . أو يعدون لها فى البغى .

ولا شك أن واجب المسلمين فى كل بلد يعيش فيه مسلم أن يقفوا مع الأمة العربية فى كفاحها ضد أعدائهم وأعداء دينهم ، وأن يذكروا - إذا كانوا مسلمين حقا - أن الولاية لا تكون إلا لله ولرسوله وللمؤمنين . كما ينطق بذلك القرآن الكريم حيث يقول الله فيه : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » ، وأن يذكروا - مع ذلك - أن الله وعدهم بالنصر ، والأمن ، والخلافة فى الأرض . والتمكين لدينهم الذى ارتضاه لهم حيث يقول سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » ، والله لا يخلف وعده ، وقد حقق ذلك للمسلمين الأولين ، وسيتحقق ذلك للمسلمين ما آمنوا بالله ، وعملوا صالحا .

عبد الرحيم فوده

من دروس الصوم

صوم اللسان

للأستاذ علي العماري

وقفت طويلا عند قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه) .

وجعلت أمعن النظر ، أى علاقة وثيقة بين الصوم والصدق فى القول والعمل حتى يجعل الرسول قائل الزور ، والعامل به يجرد تارك الطعام والشراب فى صومه ؟ وكأن الصوم ليس إلا أمرين : أحدهما ظاهر شكلى وهو ترك الطعام والشراب ، والآخر حقيقى خفى وهو ترك الزور ، والعمل به .

حقيقة أن المقصود الأسمى من الصوم هو تهذيب النفوس ، والارتفاع بها عن صغائر الرذائل وكبائرها ، وحقيقة أن الصوم - إذا كان صادقا - يروض النفوس على كثير من الفضائل ، التى منها الصبر على المكاره ، والإحسان إلى المحتاجين ، والصدق فى القول والعمل ، وكف الأذى باللسان أو باليد عن الناس ، ولكن لماذا لم يقل الرسول - مثلا - لا صوم لجزوع ، ولماذا لم يقل : لا صوم لبخيل ، وإنما شدد النكير على الكاذب حتى جعله بعيداً عن الله ، وجعل الحق - سبحانه - وهو الغنى عن كل شىء مستغنيا عن صومه ، وليست له - سبحانه - حاجة فى أن يدع هذا الكاذب طعامه وشرابه ؟

وقد ذهب بى التفكير مذاهب فى الإجابة عن هذا السؤال : قلت : إن الكذب من الرذائل التى تجمع بين الدلالة على تأصل الشر فى النفس ، وعلى حقارتها فى آن واحد ، لأن الذى يتخذ الكذب عادة له إنما يفعل ذلك للإضرار بالناس ، والاستهانة بهم ، ولأنه فى الوقت ذاته يهبط بنفسه ، ويرخص قدرها لأنه يعرف - حق المعرفة - أنه كاذب ، ومع ذلك لا يحملها على الصدق ، ولا يروضها على قول الحق ، وقد قيل : ليس لكذب مروءة ، ولعل مما يدل على ذلك أوضح دلالة قول ابن السماك - غفر الله لنا وله - ما أرانى أوجر على ترك الكذب لأنى إنما أتركه أنفة .

فهذا الزاهد الكبير صاحب نفس عالية ، وهو يغالى بها أن تنزل إلى حضيض الكذب فهو حين يترك الكذب لا يكون فى نفسه

إلا أنه غير لائق بمثله ، فهو لا يتركه لأنه رذيلة كسائر الرذائل ، وإنما يتركه لأنه لا يليق بالإنسان العارف قدر نفسه .

لا يكذب المرء إلا من مهانته
أو عادة السوء ، أو من قلة الورع

وقلت : لعل فى نفى الإيمان عن الكذاب كما ورد فى قول الرسول حاسما واضحا ما يصح أن يكون جوابا عن هذا السؤال ، قال عبد الله بن جراد : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك ، قلت : يا نبى الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى : « إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » . وفى رواية أخرى ، قيل يارسول الله ، أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم ، قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم قيل : أفيكون كذابا ؟ قال : لا .

ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم : كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب .

وقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيقون أشد الضيق بالكاذب ، ويبغضونه أشد البغض ، قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب .

ولكن نفسى قالت لى وأنا أحاول أن أقنعها بصرامة هذا الجواب ، وحسمه للتساؤل الذى يملك عليها حسها ، قالت : إن النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يشدد فى النكير ، وفى التنفير من بعض الرذائل ، كى يحمل أمته على تركها ، فينفى الإيمان ، مثلا ، عن مقترف هذه الرذائل ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن ، أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه وقوله : والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من ، يارسول الله ؟ قال : الذى لا يؤمن جاره بوائقه .

إلى كثير من هذه الإرشادات العالية .

قلت إنى ألمح إختلافا فى طبيعة هذه الأخبار النبوية الكريمة مما يجعل الكذب رذيلة متفردة من بين الرذائل ، فالنبى فى الأحاديث الأخرى ينفى الإيمان عمن يحب أن يستأثر بالخير ، وعمن يؤذى جيرانه ، ولكنه فى أحاديث الكذب ينفى أن يطبع المؤمن على هذه الخصلة ، وكأنه يقول : إن الكذب يتنافى مع حقيقة الإيمان ، لأن طبيعة المسلم الذى يؤمن بالله ورسوله ، ويصدق بالمغيبات التى لم يرها ،والتى لا دليل عليها إلا ما يقرؤه فى كتاب الله وأحاديث رسوله ، طبيعة المسلم هذا أن يصدق فالصدق طبيعة فيه ،وبغير ذلك لا يسهل عليه التصديق

بما جاء به الإسلام مما لا مشاهدة له فيه ، ومن السهل على من يتعود الكذب أن يكذب كل ما يساق إليه من خبر ، بل هذا هو الأشبه بطبيعته ، ولذلك يقولون : الكذاب يعتقد أن كل الناس كاذبون ، وما ذلك إلا لما وقر فى نفسه من الاستهانة بالصدق ، والاستعذاب للكذب ومن ذلك ماروى من أن رجلا قال الحكيم : ما رأيت صدوقا . فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين .

ورذيلة الكذب تكمن فى أسر وراء كل هذه الأشياء ، ذلك أنه من الرذائل التى ترسخ فى النفس ، وتصبح طبيعة فيها ، فلا يتمكن الكذاب من التفلت ، والانفكاك من أسر هذه الرذيلة ، وقد أكد لنا رسولنا الكريم هذا المعنى ، فى بيان واضح لا لبس فيه ، فى حديث مشهور هو قوله صلى الله عليه وسلم : عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، ومايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا

وإذا كتب عند الله كذابا فقد ثبتت نفسه على هذه الرذيلة ، وأصبح من العسير أن يتحول عنها ، بل ، إنه لا يحاول الخلاص منها .

وقد أدرك بعض العارفين هذا المعنى بوضوح فقال : الصدق والكذب يعتركان فى القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه .

ومعنى هذا أن الذى يخرج بعد العراك ، والمدافعة لا يستطيع أن يعود ، لأنه قهر فاستكان ، وخرج من وطنه ، والذى ينتصر فى هذه المعركة النفسية العنيفة يثبت ، ويوطد أقدامه فى مكانه فلا تستطيع قوة بعد ذلك إخراجه .

والحكماء العارفون الذين صفت نفوسهم ووعوا ما يشاهدون ، وانتفعوا بالتجارب قد أدركوا هذه الحقيقة التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال أحدهم من استحلى الكذب عسر عليه فطام النفس ، وقال آخر وقد رأينا شارب خمر أقلع ، ولصا نزع ، ولم نر كذابا رجع ، وقال ثالث : من عرف بالكذب لم يجز صدقه .

على أن أوضح كلام وأشمله قرأته فى هذا المعنى قول العالم الأندلسى محمد بن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) : « وما أحببت كذابا قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عيب وإن كان عظيما ، وأكل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظهر من أخلاقه ، حاشى من أعلمه يكذب فهو ــ عندى ماح لكل محاسنه ومعف على جميع خصاله ، ومذهب كل مافيه ، فما أرجو عنده خيرا أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن

الاستتار به والتوبة منه حاشى الكذب ، فلا سبيل إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان ، وما رأيت قط ، ولا أخبرني من رأى كذابا وترك الكذب ولم يعد إليه ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلا أن أطلع له على الكذب فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والتعرض لمتاركته » .

والصوم نفســـه عرضة لخطر عظيم من الكاذب ، فإن الذى يتعود الكذب فى قوله يسهل عليه الكذب فى عمله ، فن الهين عليه أن يظهر أمام الناس صائما قائما ، فإذا خلا إلى نفسه انتهك حرمة صومه ، وارتكب ما يتحاشى أمام النـاس أن يحوم حوله ، أو يذكره حتى بلسانه ، وهو شر ممن يترك الصوم علانية ، لأن هـذا يرتكب جريمة واحدة هى ترك فريضة من فرائض الإسلام التى لا يصح التهاون فيها ، أما الكاذب المرائى فيرتكب جريمتين : إحداهما ترك هـذه الفريضة ، والأخرى رذيلة النفاق التى تعد من أشنع الرذائل ، ولذلك كان متعارفا مشهوراً أن المنـافق فى العقيـدة شر من الكافر .

وهذا الخلق لا يقتصر على المجاهرة بالصوم ، والإسرار بالإفطار ، بل يتعداه إلى كل مخالفة بين السر والعلانية ، وإذا اعتاد إنسان هذه العادة لم تذهب عنه حقيقة الإيمـان فحسب ، بل حكم على نفسه بالتجرد من حقيقـــة الإنسانية ، وأى وجود لإنسان لا يصدق باطنه شيئاً من ظاهره ، وأى خطر عظيم يرزأ به المجتمع البشرى من مثل هـــذا المخلوق . .

أما إذا اعتـاد المسلم أن يجاهد نفسه حين يخلو بها فتحدثه أن يمس صومه بأذى ، فإنه بذلك يروضها على الصدق ، ومن تكرار هذه الرياضة يصبح الصدق طبيعة فيه ، فكما أن الصوم يمنى من الكاذب بانتهاك حرمته هو كذلك يغرس فضيلة الصدق فى النفوس المتهيئة لها .

وبذلك تدرك العلاقة الوثيقة فى طبيعة النفس الإنسانية بين الصوم والصدق وأن أحدهما لا يكون على حقيقته إلا بصاحبه ، كما تدرك المعنى البعيد الذى يتضمنه قول الرسول الكريم فى حديثه الذى افتتحنا به هذه الكلمة .

على العمارى

أبو جعفر الطبري
شيخ المفسّرين وإمام المؤرّخين

للأستاذ الحسيني عبد المجيد هاشم

فى ظلال بلدة « آمل طبرستان » فى مطلع فجر سنة خمس وعشرين ومائتين من هجرة الرسول عليه السلام ولد أبو جعفر محمد بن جرير بين يزيد بن كثير بن غالب وازدهر وترعرع على لبان التقوى متزودا بخير زاد سائرا تجاه الهداية والرشاد توفرت له أسباب النبوغ فى العلم وتحصيله .

عنصره الكريم الطيب ممثلا فى والده يوجهه إلى طلب العلم واستعداده القويم وهمته العالية يطيران به فى آفاقه ورياضه على حفظ القرآن الكريم فى صدر حياته أشرقت آماله وبتلاوته تقوم لسانه . وبنفحاته وأسراره زكت روحه وتفتحت ذاكرته ، وكبر الوليد وأدرك جلال القرآن وتلاقت روحه الصافية مع صفائه وقداسته فأصبح قرآنيا .

أتجهت طاقته الفكرية الهائلة إلى دراسة القرآن واستجلاء أسراره وتحصيل معارفه وعلم أن القرآن قد حلق فى سماء البيان وتعددت أغراضه هداية وتشريعا وسمت مقاصده نبلا وإحسانا ، وقف بهدية الحق الألهى فوق قمم العلوم والمعارف فلا بد من تحصيل البيان وأساليبه بمعرفة لغة العرب ودلالاتها وأوجه النحو وتوجيهاتها والعلوم وفروعها حتى تكون عونا على المهمة الجليلة ودراسة القرآن دراسة واعية فحصل ابن جرير علوم اللغة وآدابها وقواعدها وبيانها .

ونظرة واحدة فى أى موضوع من تفسيره الزاخر بالشواهد العربية يتبين منها مقدار علمه وسعة معارفه ، ولم يقنع بهذه الثروة الطائلة لتكون عونا له على التفسير لكتاب الله فقدم إلى ساحة السنة النبوية الفيحاء الزاخرة فهى المبينة للقرآن « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » ، وبذهنه الواعى وإدراكه السليم عاش مع السنة حافظا لأسانيدها ومتونها مدققا فى معانيها وجمالها راحلا يجوب البلاد طولا وعرضا فى سبيل تحقيق غايته السامية تتلمذ على أعلام عصره طالبا لعلم الحديث رواية ودراية مستعينا بذلك على فهم كتاب الله ورسوله ومن أساتذته فى مقتبل حياته محمد بن حميد الرازى وموطنه الذى بخراسان وأحمد بن حماد الدولابى يقول الطبرى : كنا نكتب عند

محمد بن حميد الرازي فيخرج إلينا في الليل مرات ويسألنا عما كتبناه وكنا نمضي إلى أحمد بن حماد الدولابي ، وكان من قرية من قرى الري بينها وبين الري قطعة ثم نعدوا كالمجانين حتى نصير إلى ابن حميد فنلحق بمجلسه كما سمع العلم من محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب وأحمد ابن منيع الضبوي وأبا همام الوليد بن شجاع وأبا كريب محمد بن العلاء .

وحصل ما عند علماء خراسان وبغداد والشام ومصر من أدب ولغة وحديث وتاريخ ومذاهب فقهية وكلامية .

فتدفقت في ذهنه ينابيع العلوم وجرت على لسانه واطمأن قلبه للقدوم على تفسير جامع لكتاب الله فكان ذلك العمل العظيم خالد في سماوات التفكير الديني الذي جعله شيخ المفسرين . « جامع البيان عن تأويل القرآن » .

كما تصدى للتأليف في التاريخ من عهد آدم إلى وقته فكان ذلك العمل التاريخي الجليل الذي أصبح به أمام المؤرخين « تاريخ الأمم والملوك » .

مكانته العلمية :

زخر ابن جرير بالعلم وامتاز بدقة الفهم وجمال الأسلوب فتوفرت له أسباب الثقة وعوامل علو الرحلة .

يقول ابن السبكي في الطبقات الكبرى : « إن أبا جعفر قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا كم يكون قدره ؟ فقال ثلاثون ألف ورقة فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه فاختصره في نحو ثلاث آلاف ورقة ، ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم عليه السلام إلى وقتنا هذا ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ فذكر نحو مما ذكره في التفسير فأجابوه بمثل ذلك فقال إنا لله ماتت الهمم ، فاختصره في نحو ما اختصر التفسير » .

ويروى عن علي بن عبيد الله السمني في معجمه الأدباء « أن ابن جرير مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة » .

ويحدث أبو علي الحسن الأهوازي المقرىء في كتاب الإقناع في إحدى عشرة قراءة يقول : « كان أبو جعفر الطبري عالما بالفقه والحديث والتفاسير والنحو واللغة والعروض وله في القراءات كتاب جليل كبير ... ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه واختار بها قراءة لم يخرج بها عن المشهور » .

ويقول الطبري : حفظت القرآن ولي سبع سنين وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين وكتبت الحديث وأنا ابن تسع ... وقد كان عازفا عن الدنيا تاركا لها ولأهلها يرفع نفسه عن التماسها وكان كالقارىء الذي لا يعرف إلا القرآن وكالمحدث الذي لا يعرف

إلا النبوغ فى الحديث والفقيه الذى لم يعكف إلا على الفقه وكذلك فى علم النحو والحساب فهو العالم الجامع لشعب العلم المتفوق فى أقطار المعارف ويتجلى ذلك فى تفسيره العظيم .

(جامع البيان عن تأويل آى القرآن) .

إن أروع ما قدم ابن جرير للإسلام وأهله كتابه الجليل جامع البيان عن تأوى آى القرآن فقد جمع البيان وأفاض بالتبيان فكم أفاد المفسرون من روائعه ودرره فساروا على هديه ونهجه إذ هو من أقدم التفاسير بالنسبة للكتب المتداولة بيننا كالألوسى وأبى السعود والبحر وغيرها وقد جمع فى كتابه الأسانيد بآثارها مرجحا القوى منها على غيره فى معنى الآى مدعما لها بالشواهد العربية مما جعل تفسيره مرآة لها مصقولة بالأدب العربى ولغته وأحاديث خير البلغاء وآثار الصحابة والتابعين بإحسان وإذا كان تفسير ابن جرير يعد فى مقدمة التفسير بالمأثور فهو أيضا فى مقدمة التفسير بالرأى مميزا عنها بأن الرأى والاجتهاد فيه منبثقا فى ضوء المأثور مستأنسا بهديه فكان عمدة المتأخرين وقدوة فى كتاب الله وهو شرف يقدرله ويحمد عليه .

منهجه فى التفسير :

عند تفسيره لآيات الكتاب يبتدىء بقوله : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا » ويفسر الآية عليها بما يروى من أسانيد عن الصحابة والتابعين ويستشهد بأشعار العرب لتوضيح المعنى للكلمات إذا كان ثمة شاهد على ذلك من كلامهم فيقول مثلا القول فى تأويل قوله عز ذكره : « ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، يقول تعالى ذكره : « لكل قوم منكم جعلنا شرعة » ، والشرعة هى الشريعة بعينها تجمع « الشرعة » و « شرعا » والشريعة « شرائع » ولو جمعت الشرعة شرائع كان صوابا لأن معناها ومعنى الشريعة واحد فيردها عن الجمع إلى لفظ نظيرها وكل ما شرعت فيه فهو شريعة ... وأما المنهاج فإن أصله الطريق البين الواضح يقال فيه : « طريق نهج ومنهج » ، كما قال الراجز :

من يك فى شك فهذا فلج

ماء رواء وطريق نهج

ثم يستعمل فى كل شىء كان بينا . فمعنى الكلام لكل قوم منكم جعلنا طريقا إلى الحق يؤمه وسبيلا واضحا يعمل به . ثم بعد هذا العرض الشائق يأتى بكلام أهل التأويل معددا لرواياتهم فى معنى الآية مثل حدثنا الحسن ابن يحى قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن قتادة قوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » ، قال الدين واحد والشريعة مختلفة ويتبع ابن جرير الرواية

بروايات حتى يخرج الدارس من دراسة الآية بثروة علمية أدبية تقر بها ويطمئن لها قلبه وقد ابتدأ تفسيره بمقدمة جامعة لعلوم القرآن فى إعجازه وبلاغته والقراءات وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه إلى ما يتعلق به من أفانين العلوم فكانت مقدمة للدخول فى التفسير على هدى وبصيرة فهو بحق عمدة المفسرين ومنهل الراشدين .

تاريخ الطبرى :

برز ابن جرير الطبرى فى ميدان التاريخ فنسق كتابه « تاريخ الأمم والملوك » تنسيقاً فريداً وجمع فيه ما يدل على سعة الأخلاق وقوة البيان فكان حجة فى التاريخ الإسلامى ومرجعاً هاما من المراجع الكبرى يشرق فيه أسلوبه الأدبى معززاً وقائعه بأسانيد رواتها فيما يتعلق بالوقائع ابتداء بالكلام على حدوث الزمان والأيام والليالى مدللا على أنها حادثة مربوبة الخالق سبحانه وتعالى وحده لا شريك له . وذكر أول ما خلق وهو القلم وما بعده مستدلا بالآثار الواردة فى ذلك . ثم تحدث عن قصة آدم وحواء عليهما السلام منذ كانا فى الجنة وما كان من موقف إبليس اللعين ثم ما كان بعد الخروج إلى الدنيا لآدم وزوجته وطرد إبليس واستمر الكتاب يحكى قصة الإنسانية ذاكرا قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم وأحوالهم فى أوطانهم مستنيراً بما فى القرآن كما ذكر أحوال ما وجد على ظهر المعمورة من ملوك وأحوالهم مع قومهم وموقفهم من الشرائع الإلهية إلى أن وصل إلى خاتم المرسلين نبينا عليه السلام فأرخ للسيرة النبوية فصولا ممتعة فى مولد الرسول ونسبه وأولاده وأزواجه ومبعثه وسياسته وغزواته وسرياه وأحوال الصحابة رضى الله عنهم والتابعين وذكر الخلفاء الراشدين المهديين . ثم ما كان من أخبار بنى أمية وبنى العباس .

كما أن له كتاب (ذيل المزيل) به تاريخ من قتل من الصحابة وأحوالهم وأخبارهم وكل الكتابين من المراجع التى طبقت شهرتها الآفاق فاستحق أن يكون إمام المؤرخين كما هو شيخ المفسرين .

وهذه لمحة خاطفة عن الإمام الجليل ابن جرير الطبرى المفسر المؤرخ المحدث اللغوى الرحالة فى طلب العلم الجامع لكثير من العلوم والمعارف السابق فى الفضل رضى الله عنه ونفعنا بعلمه ؟

الحسينى عبد المجيد هاشم
المدرس بمعهد الزقازيق

شرب الخمر وحده في التشريع الاسلامي

للأستاذ محمد عطية راغب

---

١ — شرب الخمر من الكبائر المنهى عن تعاطيها ، بالكتاب ، وبالسنة ، وبالإجماع .

أما الكتاب فقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

وأما السنة فقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : (لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه) .

وقوله صلوات الله عليه وسلامه : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (مدمن الخمر كعابد وثن) .

وأما الإجماع فقد اتفقت كلمة المجتهدين من السلف والخلف على تحريم شرب الخمر .

٢ — وحكمة تحريم تعاطى الخمر قائمة في التشريع الإسلامي على رغبة المشرع في حفظ عقول البشر ، فضلا عن أنها تفسد الأبدان ، وتتلف الأموال ، ونتيجة ذلك هدم كيان المجتمع .

تعريف الخمر :

١ — ذهب أكثر علماء اللغة إلى أن الخمر هي ، كل شراب مسكر سواء أكان متخذا من ثمرات النخيل والأعناب أم من غيرهما . وذهب فريق آخر إلى أنها ما أسكر من عصير العنب خاصة .

ونحن نرى أن ما ذهب إليه أنصار الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب ، لقوله صلى الله عليه وسلم ، إن من الحنطة خمراً ، ومن الشعير خمراً ، ومن الزبيب خمراً ، ومن التمر خمراً ، ومن العسل خمراً ، فإنه يفيد أن الخمر كما يطلق على عصير العنب يطلق على غيره من كل مسكر . والأصل في الإطلاق الحقيقة .

أما في اصطلاح الفقهاء ، فقد اختلفوا في بيان حقيقة الخمر . فذهب الشافعية ،

والمالكية، والحنابلة، إلى أنها كل شراب مسكر، سواء أكان عصيراً للعنب أو لأى مادة أخرى، كالبلح، والزبيب، والقمح، والشعير، والأرز، لما رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من الحنطة خمراً، ومن الشعير خمراً، ومن الزبيب خمراً، ومن التمر خمراً، ومن العسل خمراً) ولما رواه مسلم من قوله صلى الله عليه وسلم (كل مسكر خمر) ولما رواه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجة، والنسائى، عن أبى كثير، قال سمعت، أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (الخمر من هاتين والشجرتين النخلة والعنبة).

وذهب الحنفية إلى أنها ما أسكر من عصير العنب، لما رواه البخارى عن ابن عمر أنه قال: حرمت الخمر وما بالمدينة منها شئ. فإن ابن عمر أخبر أن الخمر حين حرمت لم يكن بالمدينة منها شئ مع وجود أنبذة كثيرة فيها حين نزلت آية التحريم، فنفيه وجود الخمر مع وجود أنبذة كثيرة دلّ على أن الأنبذة لا تسمى خمراً، وإلا ما ساغ له نفى وجود الخمر. فعلم من ذلك أن المراد بالخمر فى الآية الكريمة هى النئ من عصير العنب المشتد.

ونحن نأخذ بالرأى الأول، لأن تسمية كل مسكر خمرا إنما جاءت عن النبى صلى الله عليه وسلم، يؤيد ذلك مارواه البخارى عن أنس قال: كنت أسقى أباعبيدة وأبا طلحة وأبى بن كعب، من فضيخ زهو وتمر فجاءهم آت فقال، إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة، قم يا أنس فاهرقها فهرقتها.

أركان جرم شرب الخمر:

٢ — لجريمة شرب الخمر ثلاثة أركان، أولها فعل الشرب، وثانيها الشارب، وثالثها القصد الجنائى الواجب توافره لدى الشارب لإمكان عقابه.

فالركن المادى لجريمة شرب الخمر هو تعاطى الخمر عن طريق الفم فقط، بحيث يصل إلى الحلق ولو لم يصل إلى الجوف.

فإذا كان التعاطى من طريق الفم، ولم يصل إلى الحلق، أو كان عن طريق غير الفم كالأنف ونحوه، أو الحقن، سواء وصل إلى الحلق أو الجوف أم لم يصل فإنه لا يعتبر شربا للخمر يترتب عليه الحد.

ولا خـــلاف بين الحنفية والحنابلة، والشافعية، والمالكية، فى أن من شرب من نئ عصير العنب المشتد يجب حده سواء شرب قليلا أم كثيراً، وسواء سكر أم لا.

ولكنهم اختلفوا فيمن شرب النبيذ المسكر. فذهب الشافعية، والحنابلة،

والمالكية ، ومحمد ، إلى أن من شرب النبيذ المسكر قليلا كان أو كثيراً يجب حده سكر أو لم يسكر ، لما رواه مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال إنى وجدت من فلان ريح شراب فزعم أنه شراب الطلاء وأنا سائل عما شرب فإن كان يسكر جلدته فجلده عمر الحد تاما .

وذهب أبو حنيفة ، وأبو يوسف ، إلى أن العقوبة لا تجب فى الأنبذة المسكرة إلا بالسكر ، لما رواه الدار قطنى أن أعرابيا شرب من إداوة عمر نبيذا فسكر به فضربه الحد ، فقال الأعرابى إنما شربته من إدواتك ، فقال عمر إنما جلدناك على السكر .

وذهب أبو ثور إلى أن من شربه معتقدا تحريمه تجب عقوبته ومن شربه تأولا لا تجب عقوبته ، لأن التأويل شبهة كعدم العلم بالحرمة .

ونحن نرى أن ما ذهب إليه جمهور الفقهاء ، هو الأقرب إلى الصواب ، لأننا لو لم نعاقب كل من شرب النبيذ المسكر من أى مادة اتخذ قليلا كان أو كثيرا سكر أو لم يسكر ، لفتحنا الباب للمفتونين الذين لا يردعهم عن المعاصى إلا أن يروا العذاب رأى العين .

ولإمكان توقيع حد الشرب أوجب الحنفية ، والحنابلة ، والمالكية ، والشافعية ، أن يكون الشارب ، بالغا عاقلا .

ولذا لاعقاب عندهم إذا كان الشارب صبيا ، أو مجنونا ، وذلك لعدم التكليف .

٣ — كما أوجب جمهور الفقهاء أن يكون الشارب مسلما لإمكان عقابه ، فلا حد عندهم إذا كان الشارب كافرا ، أو ذميا ، ولو رضى بحكمنا ، لإعتقاده إباحة الشرب ، ولأنه لم يلتزم بالذمة ما لا يعتقده .

وذهب ابن حزم ، والحسن بن زيادة ، إلى أنه يحد إذا سكر .

ونحن نأخذ بالرأى الأول ، لأنه أقرب إلى الصواب .

٤ — كما ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه لاحد عندهم على الحربى ، والمعاهد لأنهما لم يلتزما أحكام الإسلام .

٥ - واتفق الفقهاء على عدم إشتراط الذكورة ، والحرية ، والبصر ، فى إقامة الحد على الشارب .

ولذا يجب إقامة الحد على الشارب ، ذكراً كان أو أنثى ، حراً كان أو رقيقاً .

٦ — وذهب أبو يوسف ، ومحمد ، والحنابلة ، والشافعية ، إلى أن السكران الذى يجب عقابه هو الذى يخلط فى كلامه مخالفاً عادته حال صحوه ، لقوله عز وجل : « يا أيها

الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » ، ولما روى أن علياً قال : إذا شرب سكر وإذا سكر هذى .

وذهب أبو حنيفة إلى أن السكران الذى يجب عقابه هو الذى لا يعرف السماء من الأرض ولا الأنثى من الذكر ، لأن عقوبة السكران حـــد والحدود يؤخذ فى أسبابها بأقصاها ، وأقصى السكر أن يغلب السرور على العقل فيسلبه التمييز بين شىء وآخر .

وذهب مالك إلى أن السكران الذى يجب إقامة الحد عليه هو الشخص الذى يستوى عنده الحسن والقبيح .

ونحن نرى أن ما ذهب إليه أنصار الرأى الأول ، هو الأقرب إلى الصواب .

ولإمكان إقامة الحد على الشارب ، أوجب جمهور الفقهاء ، أن يكون عالما بتحريم شرب الخمر .

فإذى ادعى الشارب الجهل بالتحريم ، فإن كان ناشئا ببلد الإسلام لم تقبل دعواه ، لأن هذا لا يكاد يخفى على مثله ، إما إذا كان حديث عهد بالإسلام ، أو ناشئاً ببادية بعيدة عن بلاد الإسلام ، قبل ادعاؤه لاحتمال ما ادعاه .

وذهب مالك إلى عدم قبول دعوى الجهل بالتحريم ، لأنه ظهور الإسلام وانتشاره يبعد معه جهل تحريم شرب الخمر ، وإلى هذا ذهب أيضاً فقهاء الشيعة .

ونحن نأخذ بما ذهب إليه مالك ومن وافقه لأنه أقرب إلى الصواب .

وذهبوا أيضاً إلى أنه يشـــترط أن يعلم الشارب أن ما يشربه خمر . ولذا لا حد على من جهل أن ما يشربه خمر ، لأن الشارب فى هذه الحالة يكون جاهلا بحقيقة المشروب .

وإذا شرب شيئاً يعتقد أنه خمر فتبين أنه غير خمر فلا حد عليه ، ولكن عليه إثم الجراءة .

٧ — ولتوقيع الحـــد على الشارب أوجب ، الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، والحنابلة ، والشيعة ، أن يكون مختارا ، لقوله صلى الله عليه وسلم ، (عفى لأمتى عن الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه) .

ولا حد على الشارب المكره ، لانعدام الرضا عنده ، سواء أكره بالوعيد من قادر أو بالضرب ، أو الجئ إلى شربها بأن يفتح فوه وتصب فيه .

٨ — وذهب الحنفيـة ، والحنابلة ، والشافعية وأكثر المالكية ، والشيعة ، إلى اشتراط ألا تكون هناك ضرورة لشربها .

ولذا لا حد على من غص باللقمة ، وخاف على نفسه الهلاك ، ولم يجد سائلا يسيغها به ولو نجسا سوى الخمر ، لقوله عز وجـل ، « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » .

وذهب ابن عرفه إلى وجوب إقامة الحد فى

هذه الحالة ، لعموم النصوص الدالة على النهى عن شرب الخمر .

ونحن نأخذ بالرأى الأول ، لأن العموم قد خص بحالة الاضطرار .

١٩ – وذهب الحنفية ، والظاهرية ، والشافعى فى رواية عنه ، إلى أنه لا حد إذا شربت الخمر لدفع الجوع أو العطش الشديد الذى يخشى صاحبه الهلاك على نفسه ولم يجد ما يسد به رمقه أو يزيل به ظمأه ولو نجا إلا الخمر ، لقوله تعالى « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم اليه » .

وذهب المالكية ، والشافعى فى رواية أخرى ، والحنابلة ، إلى وجوب اقامة الحد فى هذه الحالة ، لأنه لا فائدة فى شرب الخمر لدفع الجوع والعطش .

وذهب بعض الحنابلة إلى أن شرب الخمر لعطش ينظر فيه فإن كانت الخمر ممزوجة بما يروى من العطش أبيحت لدفعه عند الضرورة كما تباح الميتة عند المخمصة ، وإن كانت صرفا أو ممزوجة بشىء يسير لا يروى من العطش حرمت وعلى شاربها الحد .

ونحن نرى أن ما ذهب إليه بعض الحنابلة هو الأقرب إلى الصواب .

١٠ - وذهب الحنفية ، والحنابلة ، والمالكية ، والشافعى فى رواية عنه ، إلى وجوب إقامة الحد على من اضطر إلى شرب الخمر للتداوى ، وخاف على نفسه الموت ، سواء أكانت الخمر صرفا أم ممزوجة ، لما رواه أحمد عن مخارق أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على أم سلمة وقد نبذت نبيذا فى جرة فخرج والنبيذ يهدر فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما هذا ؟ فقالت فلانه اشتكت بطنها فنقعت لها ، فدفعه برجله فكسره ، وقال عليه الصلاة والسلام ، إن الله لم يجعل فيما حرم عليكم شفاء ، ولما رواه أبو داود عن أبى الدرداء قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء فتداووا ولاتداووا بالحرام .

وذهب الشافعى فى رواية عنه ، والظاهرية إلى جـــواز التداوى بالخمر صرفا كانت أو ممزوجة ، لقوله عز وجل « وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه » ولأن المضطر إلى التداوى بها كالمنصوص المضطر إلى شربها فكما أبيحت للثانى فتباح للأول .

ونحن نرى أن ماذهب إليه أنصار الرأى الأول هو الأقرب إلى الصواب ، لعموم النصوص الواردة فى تحريم الخمر ؟

ـ البحث بقية ـ

محمد عطية راغب

من معانى القرآن

> « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » . قرآن كريم

الاستماع : إدراك الأصوات بحاسة السمع والإنصات حسن الاستماع .

والرحمة : رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، وهى من الله تفسر بما ينشأ عنها من النعم .

المعنى : إذا تلى القرآن عليكم أو قرىء أمامكم أو بعيداً عنكم فاستمعوا له وأحسنوا الاستماع إليه ، فإن ذلك يرجى منه أن تنالوا رحمة الله ، فالواجب عند قراءة القرآن هو الاستماع له والإنصات إليه ، لأنه كلام الله . فيجب أن نتلقاه حين يقرأ بما ينبغى له من خشوع وإصغاء وانتباه ، ثم إن الاستماع إليه فوق أنه واجب يمليه الشعور بالواجب أمام الله ، وضرورة امتثال أمره هو كذلك السبيل إلى رجاء رحمته ونعمته كما يفهم من قول الله : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » . وقوله : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

فالقرآن شفاء لما تصاب به النفوس من علل الشك والشبهات ، وموعظة مؤثرة ترطب المشاعر الجافة وتلين القلوب الجامدة ، وهدى لا يضل من اتبعه ، ونعمة تنبع من رحمة الله وتطيب بها حياة المؤمنين .

وقد ذكر الله أن فيه أحسن القصص حيث قال : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » . وأنه أحسن الحديث كما يفهم من قوله : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى » ، وأنه كما يقول سبحانه « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، بل هو كما يقول تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .

ويفهم من قوله : « فاستمعوا له وأنصتوا » وجوب الاستماع له والإنصات عند قراءته فى كل زمان ومكان لا فى الصلاة وحدها كما قيل ، أما الإعراض عنه وصد الناس عن الاستماع إليه . ومحاولة تعكير جوه باللغو فيه فإنه من أعراض الكفر وعمل الكافرين ، كما يفهم من قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ، وقوله فيهم « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم » .

نسأل الله أن يفتح قلوبنا للقرآن ، ويشرح صدورنا بنوره ، وينفعنا بخيره وبركته ، فإنه كما يقول الله : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

عبد الرحيم فودة

الموروثات والأدب عند ت. س. اليوت

للأستاذ رشاد محمد خليل

— ٢ —

سبق أن تكلمنا عن الدين وعلاقته بالأدب عند ت . س . إليوت (١) وبينا فيه حق العلاقة التي تربط بين الأدب والدين في رأى اليوت ، وكان هذا العرض جانبا واحداً من الصورة ، أما الجانب الآخر فهو رأى إليوت في العلاقة بين الموروثات « Traditions » وبين الأدب المعاصر ؛ وهو الأساس الذى تقوم عليه نظرية المعادل الموضوعى ؛ وقد ذكر إليوت رأيه في مقال له وقد ترجم الدكتور رشاد رشدى في كتابه « مختارات من النقد الأدبى المعاصر » كلمة « Traditions » بكلمة التقاليد ، بينما قصد اليوت بهذه الكلمة مدلولا أكثر اتساعا وعمقا ، ومن الأفضل أن نحتكم إلى إليوت نفسه في تفسير هذه الكلمة ؛ يقول إليوت « إن ما أعنيه بالتقاليد يشمل كل عادات السلوك . عادة فردية ، أو عرفا سائداً شعيرة تعبدية أو طريقة في التحية ... » (٢) ، وهو ينقل الكلمة بمفهومها المتسع من استعمالها الاجتماعى إلى استعمالها الأدبى ، فلا تقتصر كما ذهب الدكتور رشاد رشدى على مجرد التقاليد الأدبية ؛ وإنما تتسع لتشمل التراث جملة ؛ ويعبر عنها إليوت تعبيراً دقيقا فيسميها « الحس التاريخى » .

« فالتقاليد لها معنى أوسع من هذا وأشمل وهى لا يمكن أن تورث وتحتاج منك فى الحصول عليها إلى جهد شاق ، فهى تتطلب أولا وجود الحس التاريخى اللازم لاستمرار كيان الشاعر فيما بعد الخامسة والعشرين من عمره ، وهو يتطلب بدوره إدراك الماضى فى الحاضر ؛ ويضطر الكاتب وهو يكتب إلى ألا يحس بجيله فحسب بل بالأدب الاوربى عامة ، وأدب شعبه خاصة خلال الأجيال التى سبقته من عهد هوميروس إلى عهده ، وهذا الحس التاريخى الذى يتضمن الإحساس بالماضى والحاضر وبهما معا هو الذى يجعل الكاتب تقليدياً ، وهو فى الوقت ذاته ما يجعله يشعر بمكانه بالنسبة إلى من سبقه ومن يعاصره ... » (١) .

(١) مجلة الأزهر ص ١٠٢٩ مقال الدين وعلاقته بالأدب .

(٢) Seelcted prose, tradition T.S. Eliot

(١) مختارات من النقد الأدبى المعاصر ص ٤٦ د : رشاد رشدى .

والتقاليد فى تعريف إليوت هى ما يعبر عنه بالحس التاريخى ، وهو تعبير أوسع كثيراً من المدلول اللغوى لكلمة التقاليد ، ومن المدلول الاجتماعى والأدبى لها لأن هذا التعبير يدخله عنصر زائد عن مجرد وجود الشىء ألا وهو الإحساس بوجوده ، وهذا الإحساس لا يرصد الشىء فى حالة سكونه وإنما فى حالة حركته ليس فى الماضى فقط وليس فى الحاضر فقط ، وإنما عبر الأجيال إلى أن يصب فى الحاضر ويتحرك فيه.

ونظرية « الحس التاريخى » عند إليوت لم تلق عند أدبائنا ونقادنا حتى المغالون منهم فى التعصب لإليوت وآرائه ما هو جدير بها من الاهتمام ، فالدكتور رشاد رشدى رغم ترجمته لمقال إليوت الذى تعرض فيه لهذه النظرية لم يدخلها فى اعتباره وهو يتحدث عن « المعادل الموضوعى » فى كتابه « ما هو الأدب » وعندما تعرض الأستاذ صلاح عبد الصبور فى مقال له تحت عنوان « مختارات فى فهم الشعر ونقده » إلى هذه النظرية ذهب إلى شىء آخر ليس هو المقصود بالدرجة الأولى ، فقد أخذ منها الجانب الذى وضعه إليوت كاحتراز فى التطبيق حتى لا يتبادر إلى الذهن أن إليوت يدعو إلى اتباع الماضى اتباعا أعمى ؛ فدعا إلى نقد الماضى وأخذ الصالح منه ، فماذا فعل الأستاذ عبد الصبور ؛ لقد أخذ الجزء النقدى من النظرية قائلا « ماذا نصنع بأدب العصور السالفة ... هنا أسبق القول فأستفيد من ت . س . إليوت نظريته فى الموروث الأدبى Tradition لأستعين بها أوسع مما استعان بها إليوت ، إن نظريته فى الموروث ليتلخص أحد وجوهها فى محاكمة آثار الماضى فى ضوء التجربة الحاضرة . ولقد نظر إليوت إلى التراث الانجليزى فأعجبه ملتون وبليك ودن وبروك فضلا عن شكسبير ولم يعجبه بوب وسوينبرن . وقد قاسهم جميعا بمفهومه المعاصر ، واستخرج منهم ما يصلح — من وجهة نظره — ليعيش من جديد وإلى الأبد »[1].

ثم يطالب بتطبيق النظرة على تراثنا من امرئ القيس إلى إبراهيم ناجى لنستبق من هذا التراث ما نراه ملائما لأذواقنا وأنفسنا .

ثم يعقب على ذلك قائلا : « متى نفهم أن حق الحياة على الأحياء ، أعظم من الموتى حق عليهم ، وهذه الدعوة فى ذاتها لا غبار عليها ، فنقد الماضى عملية ضرورية لا بالنسبة لهذا الماضى وحده ، ولكن بالنسبة لوجودنا الحاضر أيضا ، فلكى ينمو هذا الحاضر نموا سليما ، لا بد من عمليات

(١) المجلة عدد ٧٧ مختارات فى فهم الشعر ونقد . صلاح عبد الصبور .

المراجعة الدائبة للماضى ، وكشف العناصر التى فقدت صلاحيتها للاستمرار وعزلها ، وتطوير الصالح للاستمرار منها ، وإعطاؤه روح العصر ، وقد أكد إليوت ضرورة النقد للموروثات لأنه « يختلط فيها الخير بالشر ، وكثير منها يستحق النقد كما أن الموروثات ليست مجموعة من المشاعر فقط ، وليس من الممكن أن نربط أنفسنا بمجموعة من الموروثات النامية دون أن نمتحنها امتحانا عسيراً فما هو صالح لعصر من العصور - ما لم يكن من القواعد الأساسية - قد يكون ضاراً بعصر آخر ... إن ما نريده هو أن نستعمل عقولنا ، لأن الموروثات بدون ذكاء لا تستحق شيئا ، وعلينا أن نعرف ماذا يستحق الاحتفاظ به من الماضى وما يستحق الإهمال ... » [1]

لكن إليوت لا يختصر هذا الماضى ، ولا يعبر عنه بروح الازدراء التى عبر بها الأستاذ عبد الصبور ، بل على العكس من ذلك ينظر إلى هذا الماضى باحترام ، بل يربط مصير الحاضر به ويلزم الشاعر كما يقول بأن « يحس بالتيار الرئيسى الذى يسرى سريان الشريان عبر الأجيال والعصور السابقة ، وأن يدرك أن الفن لا يتقدم . ولكن المادة التى يصاغ منها لا تستقر على حال ... وعليه أن يدرك أن هذا التطور أو الارتقاء أو التعقيد على الأصح لا يعنى أى تقدم فى نظر الفنان أو العالم النفسانى . وأنه ربما كان فى النهاية نتيجة لعصر الآلات والاقتصاد المعقد الذى نعيش فيه ، على أن الفرق بين الحاضر والماضى هو أن الحاضر المتيقظ ليس إلا وعيا بالماضى فى شكل وإلى مدى لا يمكن وعى الماضى بنفسه أن يبين عنه ... فالمهم أن يحس الشاعر بالماضى إحساسا عليه ألا يكف عن تنميته خلال أطوار حياته المختلفة » [1] .

إن الماضى مرتبط بالحاضر بصورة متبادلة لدرجة « أن ما يحدث ساعة خلق أثر فنى جديد يحدث فى نفس الوقت لكل ما سبقه من آثار وهى الآثار التى تكون فيما بينها نظاما قائما يغيره دخول الأثر الجديد ضمنها ، ويترتب على هذا أن يتبدل وضع كل أثر فنى بالنسبة للمجموع من حيث قيمته وصلته به ، وهذا ما نسميه بالتوفيق أو التناسق بين القديم والجديد ، وإن كل من يؤمن بأن هناك نظاما يسود الأدب العربى أو الأدب الانجليزى لا يصعب عليه تصديق أن الماضى يتغير بالحاضر قدر ما يتأثر الحاضر بالماضى ،

(1) Selected Prose ; Trodition, T.S.Eliot.

(١) مختارات من النقد الأدبى المعاصر د : رشاد رشدى

والشاعر الذى يدرك هذا يدرك أن أمامه مسئوليات وصعوبات جمة ، لأنه لا يمكن لشاعر أو لفنان ما أن يكون له معناه مستقلا عن كل شىء وآخر ، فقيمته يجب أن تقوم على تقدير المصلحة عن سبقه من الشعراء والفنانين، فأنت لا تستطيع أن تقدره وحده بل يجب ، لأن تفهمه ، أن تقارن أو تفرق بينه وبين أسلافه ، على ألا يكون هذا مبدؤنا من الناحية التاريخية فحسب ، وبل من الناحية الجمالية أيضا [١] .

فنحن إذن أمام نهر يتدفق فيه تيار من الأمد السحيق ، وهذا التيار لا يتوقف لحظة عن الجريان ، ولا تفتأ تصب فيه كل لحظة روافد من الحاضر الذى يتحول باستمرار إلى ماضى ، وهذا التيار يتدفق بالماضى فى الحاضر باستمرار ، فيتغير شكله بالحاضر ، كما يتغير شكل الحاضر به .

لقد رأينا كيف تجاهل نقادنا نظرية الموروث عند اليوت كما تجاهلوا من قبل نظرية الدين والأدب ، لا عن جهل طبعا بهذه النظرية فقد ترجمت إلى العربية .

ورأينا حين تعرضوا لها كيف انحرفوا بها عن مدلولها الأساسى إلى مدلول فرعى يرضى نزعاتهم الخاصة .

والآن نحب أن نتسائل ،لماذا تجاهل نقادنا مع سبق الاصرار نظرية الموروثات رغم تحمسهم لنظرية المعادل لموضوعى هل لأن موروثاتنا أعجز من أن تتخطى عتبة الحاضر؟

أم لأننا نرى أن حاضرنا يمكن أن يقوم وحده وأن ذواتنا لا تحتاج إلى جذور ؟

أم أننا اكتشفنا مسائل أخرى نستورد منها جذورا أقدر على تنمية الحاضر ، ألا يستوقف هذا الصمت المريب النظر . ! ! ؟

إن موروثنا يعيش فينا ولا نملك خلعه أو استبداله بإرادتنا ، وقد حاولت أوربا مرة يوم أرادت أن تخلع مسيحيتها فماذا كانت النتيجة ؟ لقد ثارت فرنسا على الكنيسة باسم الروح المسيحى ، وكان الشعار الذى اعلنت تحت لوائه تمردها ، الحرية ، والإخاء والمساواة ، هو صوت المسيح الذى صرخ به فى البرية ... ؟

إن الماضى يتكشف فى أصلابنا منذ اللحظة التى نبضت فيه الحياة نبضها الأول على ظهر الأرض ، وكلما عبرت الأجيال خالقا أو ارتادت مجهولا ازداد التكشف تركيزا ، وتعمقت خطوط الماضى فى نسيج الحاضر .

إن لنا موروثنا كما أن لإليوت وجيله فى فى الغرب موروثه الإنجليزى الأوربى إن لنا مثله موروثنا العربى الإسلامى، لا أقصد بذلك الموروث الشعرى وحده الذى يبدأ بأمرئ القيس وينتهى بابراهيم ناجى ،

---

(١) المصدر السابق

كما يذهب الأستاذ عبد الصبور ، فذلك جزء من رصيد هائل هو موروث الحضارة العربية الإسلامية بكل ما فيه من أدب وعلم ودين وفلسفة الخ . من قمنا نبك إلى فاتحة الكتاب.

ومن شعائر الصلاة إلى ترنيمات المتصوفة ، إلى تقسيمات بن رشد إلى نقوش « الأربسكو » لقد كشف الغربيون تراثهم من قرون وراجعوه ورتبوه وحللوه ، وأخذوا منه ما يصلح لهم .

ونحن ماذا صنعنا بتراثنا ؟ هل كشفناه وراجعناه ورتبناه وحللناه ، وأخذنا منه ما يصلح لنا .

إن بعضا من العناية قد بذل للشعر - بعضاً فقط - فالشعر يحتاج إلى أضعاف الجهود التي بذلت وتبذل في دراسته .

ولكنا نسأل ؟ هل يعرف جيلنا عن مالك والمسيب ، والغزالي ، وابن سينا ، والطبرى وابن خلدون .. بعضا مما يعرفه جيل الغرب عن هوميروس وسوفوكليس ، وهيرودت ، وهيرودت وأرسطو وتوماس الأكويني ! !

وهل يعرف جيلنا عن الموطأ ، وسيرة ابن هشام ، وإحياء علوم الدين ، وتهافت الفلاسفة ، وتهافت التهافت ، ومقدمة ابن خلدون ، بعضا مما يعرفه جيل الغرب عن الإلياذة ، وأوديب ، والكون ، والفساد ، والمدينة الفاضلة ؟ ! !

هل يعرف جيلنا شيئاً عن حركة التاريخ العربي الإسلامى وعوامل المدد والانحسار وعن الصورة التي أخذتها كل مرحلة من مراحله ، كما عرف جيل الغرب تاريخ أوربا ووضع يده على نبضه في جميع مراحله ؟ !

ثم هل قدر جيلنا بصورة واعية مكانة القرآن في تاريخ الأمة العربية الإسلامية والحركة الهائلة التي وضعها في هذا التاريخ ، ثم هل قدروا أى مسئولية يتحملها جيلنا حين يستهين بقوة الدفع التي يستطيع هذا الكتاب أن يضعها في حاضرنا ؟ ! !

هذه أسئلة أضعها تحت الأنظار ، ولكني أكتفي الآن بأن أقول بأنه لو لم يكن في موروثاتنا شيء سوى القرآن يجب أن يوضع في وعى الحاضر بكل طاقاته وانفجاراته ، لكان وحده كافياً لأن نحمل بإزائه مسئولية خطيرة لا بالنسبة لحاضر جيلنا وحده ، وإنما بالنسبة للأجيال التي سوف تخلفنا ، وبالنسبة لمستقبل الإنسانية التي تنفتح فيه اليوم هوة رهيبة تطل على العدم لا يستطيع شيء أن يملأها غير كتاب الله : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » .

رشاد محمد خليل

من شخصيات فجر الإسلام
ابن أبي

للأستاذ محمد فناوي عمر

في حديث (بصراحة) الذي يكتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل في جريدة الأهرام كتب ما يأتي : في اليمن مثلا كان ابن الشيخ الزايدي شيخ حدواح هو الذي تقدم وقطع رأس أبيه بخنجره بعد أن غدر بضابط مصري وعشرة من جنوده وأطلق النار عليهم من لوراء بعد أن كان بينه وبينهم عهد الأمان . وحمل الابن رأس أبيه بيده ومشى بها فوق الجبال من صرواح إلى صنعاء وعلقها بنفسه على باب العاصمة المشهور باسم باب اليمن لكي يراها الناس .

ودال الكاتب بهذا الحادث على قوة العقيدة وأنها فوق كل اعتبار - صحيح أنه ليس من السهل على الابن أن يقطع رأس أبيه لأنه خان ، ولكنه من الصعب أن يتحلل الإنسان من عقيدة آمن بها وملكت عليه كل حواسه وكان لهذه العقيدة في نفسه مركز الأفضلية لما تنطوي عليه من خير عام للناس كافة . وفي مجال المفاضلة يمكن الجزم بأن التضحية بالمصلحة الشخصية ميسور في سبيل الحفاظ على المصلحة العامة .

ولا شك أن هذا العمل البطولي قليل في سير التاريخ . ولا يكاد تظهر إلا في فترات قليلة متباعدة . فترات يظهر فيها في منطقة ما دعوة دينية أو سياسية لها من القوة ورسوخ القدم ما يمكنها من قلوب أصحابها فتظهر على مسرح الأحداث مثل تلك البطولات التي يسجلها التاريخ وكأنها قطع فنية نادرة تزيد على مر الأيام وضوحا وجلاء . وتتخلص بمرور الوقت من تلك الشوائب النفسية التي تعلق بها . فيظهر العمل على حقيقته مجردا من كل اعتبار على أساس أنه العمل المثالي الكامل الذي كان يجب أن يحدث حتى يتم الفناء الحتمي بين الشعور والعقيدة الواحدة والمصير الواحد.

والإسلام — كعقيدة دينية وسياسية واجتماعية - ملك على أنصاره أنفسهم ومشاعرهم . لم تقف في سبيله عقيدة أخرى معارضة ولم يبق أمامه أي تقليد من تلك التقاليد البالية التي ورثها العرب والتي كانت لها في نفوسهم مكان التقديس والافتخار . لقد كان أشراف المسلمين أسبق في التضحية من عامتهم بأرواحهم وأموالهم ، ولم تكن التضحية بالمال مهما كثر مما يكون مجالا للبن والافتخار ، ولم تمنع أي علاقة عائلية

أو شخصية من التضحية بها فى سبيل الدعوة .

وتاريخ صدر الإسلام حافل بأروع الأمثلة على ذلك والتى لم تكن أقل روعة وجلالا مما أورده الأستاذ هيكل .

وقد اخترت لنفسى بين هذه الأمثلة شخصية ابن أبى الأب والابن ، مع عرض موجز لكل منهما .

لقد كان عبد الله بن أبى بن سلول الأب من أشراف المدينة وزعماء الخزرج ودخل فى الإسلام ، إلا أنه كان منافقا غاية النفاق مصلحته الذاتية لها الدرجة الأولى من تفكيره وفى سبيل بلوغ غايته كان يخادع وينافق ، منتهزا لغدره ونفاقه أسوأ أوقات المسلمين وأشد الفترات حرجا فى حياة النبى بالمدينة .

أما ابنه عبـــد الله فكان مؤمنا خالص الإيمان ، صفت نفسه للإسلام وامتلأ قلبه بدعوة الإيمان ، وكان فى مجال العمل الإسلامى يسمو بنفسه وبعاطفته فوق كل علاقة واعتبار .

بعد انتهاء النبى صلى الله عليه وسلم من غزوة بنى المصطلق ، ازدحم أجير لعمر بن الخطاب مع أحد رجال الخزرج على الماء ، ثم اقتتلا وتصايحا . يقول الخزرجى : يا معشر الأنصار ويقول أجير عمر : يا معشر المهاجرين وسمع عبد الله بن أبى النـــداء وكان قد خرج مع المنافقين فى هذه الغزوة ابتغاء الغنيمة ، فثار ما فى نفسه على المهاجرين وعلى محمد من حفيظة وقال لجلسائه .

لقد كاثرنا المهاجرون فى ديارنا ، والله ما عدنا وإياهم إلا كما قال الأول (سمن كلبك يأ كلك) (أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل) ثم قال لمن حضر من قومه (هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم . وقاسمتموهم أمـــوالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم)

ولما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم مقالته ؛ قال عمر بن الخطاب (مر به بلالا فليقتله) هنا ظهر النبى كدأبه القائد المحنك ، والحكيم البعيد النظر ، والتفت إلى عمر وقال (فكيف ياعمر إذا تحدث الناس وقالوا إن محمدا يقتل أصحابه) .

وترامى إلى عبد الله بن أبى ما بلغ النبى عنه فأسرع إلى حضرته ينفى ما نسب إليه ، ويحلف بالله ما قاله وما تكلم به ، ولما بلغ المسلمون المدينة وأقام ابن أبى بها لا تهدأ له نفس حسدا لمحمد وللمسلمين وإن تظاهر بغير ذلك كما أصر على إنكار ما نقل عنه لرسول الله أثناء ذلك نزلت سورة المنافقين وفيها قوله تعالى : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . ولله خزائن السموات والأرض . ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين . ولكن المنافقين لا يعلمون » .

هنالك فهم قوم أن فى هذه الآية قضاء

على عبد الله بن أبي وأن محمداً لا ريب آمر بقتله . فذهب عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال له (يا رسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه . فإن كنت فاعلا فرني به فأنا أحمل إليك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني . وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله . فأقتل رجلا مؤمنا بكافر) . فأجابه رسول الله (إنا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا) .

هذا الحادث يدلنا على ما كان عليه الأب من نفاق وكذب . وكم أعماه حقده وحسده فجعله يختار أحرج أوقات المسلمين للنيل منهم أما الإبن فكان شديد الإيمان صادقا غاية الصدق فيما ذهب يعرض على الرسول من قيامه شخصيا بتنفيذ حكم الإعدام في والده وألا يدع لغيره أن يقوم بهذا العمل . فهو يشعر أن قتله لأبيه في سبيل إحقاق الحق أهم عنده من عاطفة الأبوة حتى ولو كان معروفا عنه أنه أبر الناس بوالده . وقد كان رسول الله كريما كبير القلب فترفق بالابن والأب .

وليقين النبي من صدق إيمان الابن فقد ولاه أمر المدينة عند ما خرج لملاقاة قريش في غزوة بدر الثانية .

ولم تكن الحادثة التي ذكرتها آنفا هي الأولى والأخيرة في حياة عبد الله بن أبي . فقد كان تاريخه حافلا بالمؤمرات والكيد . وكان الله ورسوله يفضحان أمره . وفي حديث الإفك وجد ابن أبي فيه مرعى خصيبا لشفاء ما في نفسه من غل وجعل يذيعه جهد طاقته .

قدمت امرأة مسلمة إلى سوق اليهود من بني قينقاع عند صائغ منهم . وثبت واحد من اليهود طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها . فلما قامت انكشفت سوأتها . فضحكوا بها . فصاحت . فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي . فقام عليه اليهود فقتلوه . فلما استصرخ المسلمون بالنبي طلب من اليهود أن يكفوا عن أذى المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادعة حتى لا ينزل بهم ما نزل بقريش ببدر . فاستخفوا بوعيده وتحدوه . فحاصر المسلمون بني قينقاع في دورهم حتى نزلوا على حكم محمد وسلموا بقضائه . فأشار عليه نفر من أصحابه بقتلهم جميعا . وهنا قام عبد الله بن أبي - وكان حليفا لليهود كما كان حليفا للمسلمين - وطلب من النبي عدم تنفيذ ذلك في حلفائه من اليهود . وألح في طلبه . فرأى النبي في إلحاحه ما جعله يعود إلى سكينته وأن يسدي هذه اليد إلى ابن أبي ومن معه من المشركين موالي اليهود حتى يصبحوا مدينين لإحسانه ورحمته ، واكتفى بمغادرتهم المدينة إلى الشام .

وفي غزوة أحد أشار عبد الله بن أبي على النبي أن يبقى بالمدينة ويقوم بتحصينها .

ورغب غالبية المسلمين فى الخروج لملاقاة العدو ، ونزل النبى عند رأيهم وخرج معهم . حتى إذا بلغوا مكانا يسمى الشيخين رأى النبى كتيبة من اليهود من حلفاء ابن أبى . فقال (لا يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك ما لم يسلموا) . فانصرف اليهود عائدين إلى المدينة . إذ ذاك جعل حلفاء ابن أبى يقولون له (لقد نصحته وأشرت عليه برأى ثم أبى أن يقبله وأطاع الغلمان الذين معه) . فصادف قولهم هوى فى نفسه . فلما أصبحوا انخذل مع كتيبته من أصحابه وبقى النبى ومعه المؤمنون حقا .

وبعد غزوة أحد وما أصاب المسلمين فيها ، ضعفت هيبة محمد والمسلمين فى نفوس اليهود . ورأى النبى ببصيرة السياسى الثاقبة أن يمتحن هؤلاء اليهود فذهب فى عشرة من كبار المسلمين إلى يهود بنى النضير الذين تظاهروا بحسن استقباله . وقد أحس النبى أنهم يأتمرون به فانسحب من مجلسهم وعاد إلى المدينة دون أن يشعروا به . ثم أمرهم بمغادرة البلاد فى مهلة عشرة أيام . وقال لهم رسوله (إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا فمن رؤى بعد ذلك ضربت عنقه) .

وأثناء تجهيز بنو النضير أنفسهم لتنفيذ أمر النبى جاءهم رسولان من عند عبد الله ابن أبى يقولان : « لا تخرجوا من دياركم وأموالكم . وأقيموا فى حصونكم . فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون من آخرهم قبل أن يوصل إليكم) . وتشاور بنو النضير فى مقالة ابن أبى . وانتهوا إلى التحصن بحصونهم وقاتلهم المسلمون عشرون ليلة . وكان عبد الله بن أبى كاذباً منافقاً فلم يقدم اليهود شيئا ولم يكن حظهم معه بأحسن من بنى قينقاع قبلهم فتصالحوا على أن يتركوا المدينة حسبما رأى النبى .

وكان لهذا النصر أثر كبير فى قطع دابر الفتنة وأثر على المنافقين حتى لا يرفعوا رؤسهم كلما أصاب المسلمين شر ومن قيام التهديد بالحرب الأهلية إذا غزا المسلمين غاز من الأعداء . وقد نزل فى ذلك قوله تعالى : « ألم إلى تر الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبدا . وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » ؟

الرائد محمد فاوى عمر
مفتش دائرة الأحوال المدنية مرسى مطروح

دولة الإسلام والعالم

على الحدود ... بين دولتين وحضارتين

مناطق الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى

للأستاذ فتحى عثمان

— ٢ —

وهكذا بلغ نظام الدفاع الإسلامى عن حدود الدولة فى أعالى الشام والجزيرة مرحلة النضوج ، وتميزت ثغور الشام عن ثغور الجزيرة ، وكان الخط من ملطية إلى عين ذربة (عين زربى) يمثل تحصينات الدفاع عن الجزيرة ويتضمن مرعش والحدث ، بينما كانت المراكز الرئيسية فى تحصينات الدفاع عن الشام هى المصيصة وأذنة وطرسوس ، وكانت هذه المواقع العسكرية الهامة وثيقة الصلة بالممرات الجبلية عبر جبال طوروس ، وقيل أن معاوية هو الذى جعل قنسرين فى شمال الشام وحدة إدارية حربية مستقلة بعد أن كانت داخلة فى نطاق جنـــد حمص ، كما أن عبد الملك ابن مروان هو الذى جعل الجزيرة جندا مفردا بذاته ، ثم تزايد الإحساس بأهمية مناطق الحدود فى عهد العباسيين ، فأفردوا العواصم عن قنسرين والجزيرة وجعلوها ولاية بذاتها ، وينسب الطبرى بداية ذلك التطور إلى معاوية ، بينما ينسبه البلاذرى إلى ابنه يزيد ، وهو يتابع التطور فى مراحله المتتالية فيقول « واستتم أمر حمص ، فكانت حمص وقنسرين شيئاً واحداً ، وقد اختلفوا فى تسمية الأجناد ، فقال بعضهم : سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كورا ، وكذلك دمشق وكذلك الأردن وكذلك حمص مع قنسرين وقال بعضهم سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جنـدا ، وذكروا أن الجزيرة كانت إلى قنسرين فجندها عبد الملك بن مروان أى أفردها فصار جندها يأخذون أطماعهم بها من خراجها وأن محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعـل ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جندا فلما استخلف أمير المؤمنين الرشيد هارون ابن المهدى أفرد قنسر بكورها فصير ذلك جنداً واحداً ، وأفرد منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكيه وقنسرين وسماها العواصم لأن المسلمين معتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم

إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وجعل مدينة العواصم منبج فسكنها عبد الملك ابن صالح ابن علي في سنة ثلاث وسبعين ومائة وبنى بها أبنية » ، « ... كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة والسواحل ، فلما ولى أبو جعفر المنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبنى ما احتاج إلى البناء منها ، وفعل مثل ذلك بمدن الثغور ، ثم لما استخلف المهدى استتم ما كان بقي من المدن والحصون وزاد في شحنها ، وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هرون في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيما ، أقام من الصناعة ما لم يقم قبله ، وقسم الأموال في الثغور والسواحل ، وأشجى الروم وقمعهم وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل ، وأن تشحن بالمقاتلة ، وذلك في سنة سبع وأربعين ومائتين » .

• • •

على أن الحدود الإسلامية البيزنطية في أعالي الجزيرة والشام لم تكن ميدان قتال بين الدولتين فحسب . لقد كانت مجال اتصال بين حضارتين أيضا ...

يذكر الفارابي المسعودي وابن أبي أصيبعة نبأ انتقال « مدرسة الاسكندرية » إلى أنطاكية وحران في عهد عمر بن عبد العزيز ويعلل مايرهوف ذلك بأن هذا الموقع نفسه قد جعل من السهل إحضار المخطوطات اليونانية من آسيا الصغرى لأن حركة التبادل كانت نشيطة على الحدود في الفترات الخالية من الحروب .

وكانت هناك سفارات علمية توفد خصيصاً لجلب المخطوطات من بلاد الروم . وفي (أخبار الحكماء) أن الرشيد « ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون » كما يروى ابن النديم في (الفهرست) أن المأمون كتب إلى ملك الروم « يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع » . وقد سافرت بعثة في عهد الواثق لزيارة موضع أهل الكهف

كما كان الأسرى من وسائط للتبادل الثقافي بين المسلمين والبيزنطيين ، فقد كان لمسلم ابن أبي مسلم الجرمى وهارون بن يحيى فضل لا ينكر في تقديم مادة طيبة للمسلمين عن الروم ويبرز ابن النديم في (بغية الطلب) كيف تخللت احتكاكات القتال اتصالات الحضارة فيقول : « كنا معشر أهل الشام وإخواننا من أهل مصر وإخواننا من أهل العراق نغزو فيعرض على الرجل منا أن يحمل من أرض الروم قفيزا بالصغير من فسيفساء ، وذراعا

فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق إلى العراق ، وأهل حلب إلى حلب ، ويستأجر على ما حملوا إلى دمشق .

وجاء أدب الحرب سجلا لمعارك الفريقين ، ونحن نجد مثلا نموذجياً للبطل القومى عند الروم فى شخصية مجاهد الحدود البيزنطى ديجنيس أكريتاس Digenis Akritas الذى دارت حول بطولاته فى منطقة الثغور ملحمة شعبية ويفترض مافرو جورداتوا Wavrogordato لوقائع الملحمة القرن الواقع بين عامى ٨٦٠ ، ٩٦٠ م وقد جرت أحداثها فى أعالى الجزيرة بين سميساط وملطية وفى كبادوكيا . ومن سلالة عرب الشام وحلفائهم النصارى البيالقة (البولسيين Poulicians الذين اضطهدهم الروم لخلاف مذهبى وكان مركزهم تفريك وهى أبريق عند العرب) .

جاء والد البطل ديجنيس الذى أنجب ولده هذا من زواجه برومية . وهكذا جاءت الملحمة بمثابة « رسالة الإسلام » على حد تعبير مافروجورداتو ، إلى الحدود التى أكلتها الحروب فى شرق الامبراطورية البيزنطية ، وإن تغنت بأمجاد البطولة البيزنطية فى جهاد المسلمين . كما نجد قصص البطولة العربية فى أخبار حصار القسطنطينية أيام الأمويين ، وفى القصص التى تدور حول شخصية عبد الله البطال من مجاهدى العصر العباسى ، وقد وصلت آثارها إلى قصة الفروسية العربية (ذات الهمة) ، (ألف ليلة وليلة) فضلا عن القصص الشعبى التركى كما أثبت ماريوس كنار Marius Conard على أن معارك الروم قد نالت اهتماما أكبر فى الشعر العباسى ، وسجل أبو تمام والمتنبى وأبو فراس كثيراً من صفحات الجهاد الإسلامى على الحدود . وجاء شعر الحرب سجلا للمعالم الجغرافية والوقائع الحربية وكثيراً ما استند إليه ياقوت فى مادته الجغرافية عن بلدان الثغور . وظهر فى الأدب الرسمى للدولة الإسلامية (كتب الجهاد) التى ترسل إلى الأطراف للاستنفار للقتال وكانت العمارة الإسلامية الأولى بيزنطية فى تصميمها وزينتها بقدر ما تسمح بذلك تعاليم الإسلام - على حد رنسيمان Runciman ، كما كانت قصور الأمويين نفسها أحيانا قلاعا بيزنطية .

* * *

هذا هو خطط الحدود الإسلامى البيزنطى فى أعالى الشام والجزيرة .

أرض تموج بالحركة ، وحياة تجد فى روح الجهاد المقدس أسباب القوة لا عوامل الفناء .

وهذه صورة ترسوس كما أبرزها الاصطخرى وابن حوقل تكاد تنطق :

« فأما مدينة طرسوس : فالمدينة المشهورة

المستفى بشهرتها عن تحديدها ، كبيرة عليها سوران من حجارة ، كانت تشتمل على خيل ورجال وعدة وعتاد وكراع ، وكانت من العمارة - والخصب بالغاية ، إلى رخص عام على مر الأيام وتعاقبت الأعوام . وكان بينها وبين حد الروم جبال متشعبة من اللكام كالحاجزين العملين . ورأيت غير عاقل مميز ، وسيد حصيف مبرز ، يشار إليه بالدراسة والفهم واليقظة والعلم ، يذكر أن بها مائة ألف فارس ، وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التى أدركتها وشاهدتها . وكان السبب فى ذلك : أنه ليس من مدينه عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب إلا وبها لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلاة وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان السلاطين يتكلفونه وأرباب النعم يمانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ، ولم يكن فى ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس إلا وله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع أو مسقف من فنادق . » .

هكذا كانت الحدود . . . بين دولتين ، وحضارتين !

حدود تموج بالحياة . . . لأنها تقف على أطراف أرض تسكنها أمة حياة ، وحضارة كلها حياة !

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » ؟

فتحى عثمان

من امثال العرب

ه « لم يذهب من مالك ما وعظك » معناه : إذا ذهب من مالك شىء فحذرك أن يحل بك مثله فتأديبه إياك عوض من ذهابه .

ه « رب عجلة تهب ريثا » ومعناه : أن الرجل يعمل العمل فلا يحكمه للاستعجال به ، فيحتاج إلى أن يعود فينقضه ثم يستأنف عمله .

ه « أن ترد الماء بماء أكيس » يقال لمن مر بماء فلا يحمل منه اتكالا على ماء آخر يصير إليه ، فيقال له : أن تحمل معك ماء أحزم لك ، فإن أصبت ماء آخر لم يضرك ، فإن لم تحمل خففت من الماء عطبت .

أبغض الحلال إلى الله

للأستاذ أحمد على منصور

شرع الإسلام الزواج لأغراض سامية ، فى مقدمتها التناسل ، وبقاء النوع الإنسانى لعمارة الأرض ، وليسكن كل زوج إلى زوجته وتقوى بينهما أواصر المودة والرحمة ، وبهذا يتم الوئام بين الزوجين ، ويتعاونان على السراء والضراء ، فتصلح الأسرة وبصلاحها يصلح المجتمع ، ويبلغ أعلى الدرجات .

ولا يتحقق ما يهدف إليه الإسلام من الزواج ، إلا إذا بنيت الحياة الزوجية ، على الائتلاف والإخلاص ، وتوافق الطباع ، وحسن المعاملة ، أما إذا تنافرت الطباع ، واستحكمت أسباب النزاع ، وعز الوفاق ، بات الفراق أسلم السبل ، وأبعدها عن الضرر والإرهاق . وقضاء على هذه الأمور التى يجوز أن تعترض الحياة الزوجية ، فتعكر صفوها ، وتجعلها أشبه بأتون مستعر ، أباح الإسلام الطلاق ، لأن سد بابه عند الحاجة إليه ، إضرار بالزوجين ، وإعنات يجر إلى الأذى ، ويجعل الحياة بغيضة ، ثقيلة الوطأة ، كثيرة الشرور والآثام .

على أن الإسلام ، مع إباحته الطلاق ، اعتبره علاجا قاسيا ، ودواء مرا ، وحث الأزواج على عدم طرق بابه ، إلا عند الضرورة القصوى ، كما يفهم من قول الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، وقد صح عنه ، عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ، أنه قال « ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق » ويتبين من هذا أن الشرع الشريف ، لا يحب فصم عرا الحياة الزوجية ، ولا يدعو إليه ، بلا موجب قوى ، لأن فى التفريق بين الزوجين ، بلا مبرر تفريقا لشمل أسرة كانت آمنة مجتمعة ، وتخريباً لبيوت كانت آهلة عامرة .

ولقد حرص الدين كل الحرص ، على الوفاق بين الزوجين وحسم ما قد ينشأ بينهما من خلاف أو نزاع ، بوسائل شتى ، حتى فى الأحوال التى تركب المرأة فيها رأسها وتخرج عن طاعة زوجها ، فقد دعا الرجال إلى التزام جانب الحكمة والروية ، وأرشدهم إلى سلوك السبيل المحقق للأمل المنشود ، بحزم وأناة ، وفى ذلك يقول الله جل علاه :

« واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ،

فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان عليا كبيرا » (١).

فالعلي القدير - سبحانه - يأمرنا بالتدرج في المعاملة والتأديب ، بالوعظ ، ثم بالضرب الشرعي غير المبرح ، فأن أدى ذلك إلى الطاعة والوفاق ، فليس وإلا فالتحكيم الذي أمر به تبارك وتعالى- بقوله .

« وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله . وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا » (٢).

أما إذا كان النشوز أو الأعراض ناشئا من جانب الزوج ، فقد حث العزيز الحكيم على الوفاق ، بقوله عز من قائل : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير ، وأحضرت الأنفس الشح ، وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . (٣) .

فالإسلام جد حريص على الوفاق ، ودوام الألفة بين الزوجين ، واستمرار الحياة الزوجية ، ولا يبيح الطلاق ، إلا إذا استفحل الشقاق ، وأمسى لم الشمل مستحيلا ، أو في حكم المستحيل ، وقد تكون المراة عقيما لا تلد فللزوج في هذه الحالة أن يجمع بين زوجتين إن كان قادراً ، فإن عجز عن ذلك فليس هناك ما يؤدي إلى التناسل ، الذي عليه عمارة الكون ، إلا مفارقة زوجه العقيم وقد تكون الزوجة سيئة الخلق لا ترعوى ، فتحيد عن أوامر الدين ، فالطلاق حينئذ أضمن وسيلة للابتعاد عن الوقوع في أحضان الشر.

ومن هذا يتضح جليا أن الشرع الشريف لم يجز الالتجاء إلى الطلاق إلا عند الضرورة الملحة ولقد كان كثير من الأمم غير المسلمة يعيبون نظام الطلاق في الشريعة الاسلامية ، ويرون فيه حطا من كرامة المرأة ، وتلاعباً من جانب الرجل بالحياة الزوجية ، ولكن الأيام كشفت لهم عن صوابه والحكمة منه ، فأيقنوا أن منعه منعا باتا مخالف لسنة الاجتماع وقواعده ، وتضييق ، وخطر على الحياة الزوجية ، وفتح لباب الجرائم الخلقية ، واختلاق الأسباب التي تزلزل كيان الزوجين ، فأخذوا به وأباحوه ، وأصبحوا يطلقون ، ولا يرون في ذلك غضاضة ولا عيباً .

والدين الأغر حين أباح الطلاق ، أجاز رده مرة ومرة ، وفي ذلك يقول مولانا جلت حكمته : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» (١) فإن جاوز المرتين إلى

---

(١) الآية رقم ٣٤ من سورة النساء .

(٢) الآية رقم ٣٥ من سورة النساء .

(٣) الآية رقم ١٢٨ من سورة النساء .

(١) الآية رقم ٢٢٩ من سورة البقرة .

ثالثة ، دل هذا على أن الحياة الزوجية قد باتت مصدعة الأركان ، وأن المعاشرة قد أمست عسيرة ، فلا يجوز الرجوع إلا بشروط أخرى شديدة ، هي بمثابة التأديب لكل من الزوجين ، وفي هذا يقول اللطيف الخبير : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون [1] » .

وبهذ التشريع الحكيم قضى الإسلام على فوضى أهل الجاهلية ، فقد كان الرجل منهم يطلق زوجته ثم يراجعها ، ويفعل ذلك مراراً ، لا لغرض سوى التنكيل بها ، فجاء الدين بهذا النظام المتين ، الذي يرفع الظلم عن كاهل المرأة ، ويجعل الحياة الزوجية أكثر ثباتا واستقرارا .

وإنما جعل الدين الشريف الطلاق بيد الرجل ، لأنه أصبر على المكاره ، وأملك لنفسه عند الغضب ، ويقدر التبعات الناجمة عن الفرقة ، ويحرص على بقاء الزوجية ، ويقدر على معالجة الخلاف بحزم وبعد نظر ، وما يتحمله من أعباء مالية في الإنفاق على مطلقته أثناء العدة ، ودفع مؤخر الصداق ، وما يتكلفه من مهر جديد إذا أراد التزوج ثانية ، كل ذلك يجعله أكثر حذراً وتبصراً في العواقب .

أما المرأة فإنها سريعة الانفعال والتأثر ، تستسلم كثيراً للأهواء ، وليس عليها من الأعباء المالية ما يدعوها إلى الإحجام عن الطلاق ، ولم يرض لها الدين أن تقيم في أحضان الذل والهوان وسوء المعاملة ، بل أمر الزوج أن يعاملها بالحسنى ، ويترفق في معاشرتها ، فإن نأى عن ذلك جاز لها أن تطلب من القاضي الفراق .

وأخيراً - فإن من أهم الوسائل التي تجعل الحياة الزوجية ثابتة مستقرة ، أن يعني من يرشح نفسه للزواج ، العناية الكبيرة باختيار زوجه ، وأن يتقارب الزوجان في السن ما أمكن ، وأن تتحقق الكفاءة بينهما بقدر المستطاع .

ولا يند عن أذهان الرجال ، قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « تنكح المرأة لأربع لمالها ، ولجمالها ، وحسبها ، ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » ؟

أحمد علي منصور

(١) الآية رقم ٢٣٠ من سورة البقرة :

رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصي

— ٢ —

مساجد ذات أثر :

إن نظرة سريعة نلقيها على تاريخ المساجد الكبرى في المجتمعات الإسلامية ترينا أنها كانت مناهل ثرارة للثقافة والتعليم والحضارة ، لجامع عمرو الذي بناه سنة إحدى وعشرين ، ثم زيد فيه بعد ذلك ، صار مدرسة ثقافية ، ومحكمة للقضاء ، وكان سليمان بن عتر التجيبي يسرد فيه القصص الوعظ ، وشاهد فيه محمد ابن عبد الرحمن الحنفي - قبل سنة تسع وأربعين وسبعمائة - أربعين حلقة لتدريس العلوم .

وكان فيه - كما يروى المقريزي - ثمان زوايا لتدريس العلوم ، منها زاوية الشافعي المنسوبة إلى الإمام الشافعي ؛ لأنه درس فيها ، وكان قد سمع بجامع عمرو قبل مجيئه إلى مصر ، وتطلع إلى التدريس فيه ، بسبب شهرته وحديث الناس عن الأئمة الذين يدرسون فيه ، ولما جاء الشافعي إلى مصر ، جلس في المسجد ، وعرض على الناس مذهبه وفقهه ، وتكاثر من حوله التلاميذ والمستمعون والمستفتون ، وذاعت شهرة الشافعي ، وكان يملي ما يريد في تعمق وتوسع ، ومن وراء هذه الدروس كان كتاب « الأم » الجليل في الفقه ، وكتاب « السنن » في الحديث .

وكان يبدأ تدريسه عقب صلاة الصبح ، فيجلس إليه أولا طلبة الحديث ، فإذا ارتفعت الشمس انصرفوا ، وعقدت حلقة المناظرة والمذاكرة ، فإذا ارتفع النهار أقبل عليه طلاب اللغة والشعر والنحو ، ويظلون هكذا حتى الظهر .

* * *

وبقي الشافعي يفيض على الناس من علمه في جامع عمرو حتى مرض مرضه الأخير ، ولم يستطع الانتقال إلى المسجد ، وتنافس على أن يخلفه في التدريس « البويطي » و « ابن عبد الحكم » ، واستاء أبو بكر الحميدي من هذا الصراع ، وكان من المقربين إلى الشافعي ، فذهب إليه الحميدي ، وسأله عن أحق الناس بمجلسه ، ورجع ليقول للقوم : إن الشافعي يقول : ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بن يحيى ، وليس أحد من أصحابي أعلم منه ! .

وغضب البويطى وابن عبد الحكم ، واتهما الحميدى بالكذب ، وحدث بين الثلاثة صراع وجدال ، وأعرض ابن عبد الحكم ، واتخذ له مجلسا ، واهتبل البويطى الفرصة وجلس مكان الشافعى ، وواصل التدريس للناس !.

* * *

ومن الزوايا الثمانية المشار إليها الزاوية المجدية التى درس بها قاضى القضاة عبد الوهاب البهنسى ، والزاوية الصاحبية لمذهبى المالكية والشافعية .

ويروى ياقوت أن شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى جلس فى هذا الجامع - يطلب من أبى الحسن بن سراج - وأملى دروساً فى التفسير والفقه والحديث واللغة والشعر والنحو . كما أنه قد درس فى هذا المسجد طائفة من الأئمة الأعلام : أمثال عبد الله ابن وهب ، والليث بن سعد ، ويوسف ابن يحيى ، وأبو بكر الحميدى .

* * *

وهذا جامع الكوفة نراه يؤثر تأثيراً واضحاً فى الحضارة العراقية ، إذ كان مركزاً من مراكز الحياة العامة - كما يقول بعض المؤرخين - ويجتمع فيه الناس ، وتذاع منه قرارات الدولة ، ويعلن منه الحاكم سياسة حكمه ، كما كان لهذا الجامع أثر واضح فى الحياة الأدبية والعلمية ، إذ كان الشاعر « الكميت » يقوم بالتدريس فيه ، وكان الشاعر نصيب ابن أبى رباح ينشد أشعاره فيه ، وكذلك أمر عبد الملك بن مروان الشاعر الأخطل بأن يمدحه على منبر هذا المسجد .

* * *

وكان المسجد الأموى بدمشق مركزاً ثقافيا ضخما ، فيه زوايا للتدريس ، ومساكن للطلبة الغرباء ، ومقاصير لتدريس المذاهب الفقهية ، وزوايا للانفراد ولنسخ الدروس فيها ، وكان للخطيب البغدادى حلقة كبيرة بهذا المسجد سنة ست وخمسين وأربعمائة للهجرة وكانت حلقة تنعقد كل يوم .

وكان جامع المنصور ببغداد مدرسة كبيرة تتجه إليها عيون العلماء والطلاب ، حتى إن الخطيب البغدادى ذكر فى كتابه « تاريخ بغداد » أنه لما حج وشرب من ماء « زمزم » سأل ربه تبارك وتعالى أن يحقق له ثلاث أمنيات ، من بينها أن يملى الحديث فى جامع المنصور ببغداد .

وكان الكسائى يقرأ علوم اللغة فى هذا المسجد ، ومن تلاميذه فيه الفراء ، والأحمر ، وابن السعدان ، وفى هذا الجامع أملى أبو عمرو الزاهد كتابه « الياقوت » وقد بدأ تدريسه ومحاضرته فيه فى شهر المحرم سنة ست وعشرين وثلاثمائة للهجرة ، ولما أتم إملاء الكتاب المذكور

رجع فأعاد قراءته ، وهذبه ونقحه وزاد عليه .

وفى هذا المسجد كان الشاعر المعروف أبو العتاهية يملى شعره ـ كما ذكر ذلك أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ـ ولقد قص علينا أبو الفرج فى الجزء الثالث من كتابه مثلا أن أبا العتاهية أنشد فى جامع المنصور على جماعة من الناس الأبيات التالية :

لهفى على ورق الشباب
وغصونه الخضر الرطاب
ذهب الشباب ، وبان عنى
غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا
ب ، وطيب أيام التصابى
ولأبكين من البلى
ولأبكين من الخضاب !

وكان ينشدها والدموع تسيل على خديه ، والناس من حوله تكتب الأبيات !

* * *

وأما الجامع الأزهر الشريف فالحديث عنه يطول ويطول ، ولو أردنا أن نلخص ما كان له من آثار فى نشر الثقافة الإسلامية خلال أكثر من ألف عام لاحتاج التلخيص إلى مؤلف مستقل ، فكيف بحديث التفصيل والتحليل ؟ .

ويمكن أن ندرك ملامح لهذه الآثار إذا رجعنا ، إلى ما كتبه الأساتذة محمد عبد الله عنان ، وعبد الحميد يونس ، ومحمود أبو العيون ومحمد عبد المنعم خفاجى ، وغيرهم من مؤلفات عن الأزهر الشريف .

وحسبنا على سبيل المثال أن نعرف أنه قد درس فى الأزهر الشريف جماعة فى كل علم إسلامى ، ومنهم أبو القاسم الرعينى الشاطبى ، وابن خلدون ، وابن الدماميني ، والفخر البلبيسى ، وابن الملقن ، وابن حجر ، والسيوطى ، والمقريزى ، والقلقشندى ، وشرف الدين المناوى ، والبلقينى والسخاوى وغيرهم ، وغيرهم .

ولجلال الرسالة التاريخية الممتدة للأزهر الشريف خلال التاريخ الإسلامى نجد « ميثاق العمل الوطنى » يقول عن الشعب المصرى : إنه « تحمل المسئولية الأدبية فى حفظ التراث العربى الحضارى وذخائره الحافلة ، وجعل من أزهره الشريف حصنا للمقاومة ضد عوامل الضعف والتفتت » .

ويقول : « ولم تكن الحملة الفرنسية مع مطلع القرن التاسع عشر هى التى صنعت اليقظة المصرية فى ذلك الوقت كما يقول بعض المؤرخين ـ فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر الشريف يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة فى مصر كلها » .

وأما جامع قرطبة فحسبنا أن ننقل عنه ما جاء فى الجزء الثانى من كتاب « مساجد ومعاهد » وهو :

« إن جامع قرطبة كان يعد أعظم جامعة غربية فى أوربا فى العصر الوسيط ، وقد قيل إن الراهب (جيربير) الذى أصبح فيما بعد (البابا سلفستر الثانى) أتم دراسته فى جامع قرطبة . ولا نشك فى أن كثيرين من نصارى الأندلس الذين كانوا يعيشون تحت ظل المسلمين قد تعلموا فيه علوم العربية ، واستعربوا - أى تثقفوا بالثقافة العربية - إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، رغبة فى تقلد المناصب الكبرى فى الإدارة ودواوين الحكومة ، وقد نبغ بعضهم فى آداب اللغة العربية ، وظهر منهم الشعراء والكتاب » .

* * *

ولو انتقلنا إلى جنوب وادى النيل - السودان - لوجدنا أن المسجد هناك قد قام برسالة كبيرة فى مجالات الثقافة والتوجيه ، فقد عرف السودان - كما جاء بكتاب دور المساجد التاريخى - نظام « الخلاوى » وهى أمكنة يؤمها الطلاب لحفظ القرآن المجيد ، وتعلم أحكام التجويد ، فإذا انتهى الطالب من حفظ القرآن ، وتعلم أحكام ترتيله ، شرع يتلقى العلم والتصوف من بعض العلماء .

ثم جاء من عمل على أن تختص « الخلاوى » بتحفيظ القرآن وتعليم التجويد ، وأن تختص المساجد بتدريس العلوم الأخرى ، فصارت المساجد معاهد علمية يقوم بالتدريس فيها علماء أجلاء لم يكونوا من أبناء السودان فقط ، بل رحل إلى السودان علماء من أقطار شتى ، وجلسوا فى المساجد هناك يعلمون الناس ، ومن هؤلاء محيى الدين بن عربى ، والجنيد ، والحلاج ، وأبو الحسن الشاذلى ، ولما كان الكثير من هؤلاء من أعلام الصوفية فقد انتشر التصوف فى السودان انتشاراً كبيراً .

أحمد الشرباصى

بين ربيعة الرأى وأعرابى

تكلم ربيعة الرأى يوما بكلام فى العلم فأكثر ، فكأن العجب داخله ، فالتفت إلى أعرابى إلى جنبه فقال : ما تعدون البلاغة يا أعرابى ؟ قال : قلة الكلام وإيجاز الصواب . قال : فما تعدون العى ؟ قال : ما كنت فيه منذ اليوم ! فكأنما ألقمه حجراً .

الثورة الثقافية فى الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

العلوم الإسلامية تتناول الدين والدنيا :

لا يقتصر مفهوم العلم فى الإسلام على الجانب الدينى منه ، بل يشمل جانبه الدنيوى كذلك ، تشهد بذلك حقائق العقيدة الإسلامية وتاريخها المجيد ، ذلك أن الإسلام يتميز عن الرسالات السماوية السابقة بأنه دين ودولة ، فلا رهبانية فيه وهو دين العمل والكفاح الإيجابى فى سبيل العيش الكريم ، حتى لقد رفع قيمة العمل على قيمة العبادة وحدها لأن العمل نفسه عبادة . والعمل مرتبط بواقع الإنسان ، وقد حث الإسلام على العمل الصالح فى سبيل سعادة الإنسان فى الحياة الدنيا والآخرة ، وجاءت الآيات القرآنية فى أكثر من موضع تشير إلى هذا المضمون وتؤكده .

ومن ثم كانت الدعوة العلمية فى الإسلام تنصرف إلى الحث على تحصيل العلوم الدينية والدنيوية جميعا ، لأن الهدف من نشر العلم هو هداية الفرد وإصلاح المجتمع ، لما فى ذلك من تحقيق لمصلحة العمران فى العالم . وإذا تأملنا تلك الحكمة التى وردت فى الأثر : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، وجدنا دلالة أخرى على هذا المعنى ، إذ لا يستقيم فى المنطق أن يتكبد المسلم مشاق الرحلة إلى الصين والبعد عن مهبط الوحى فى الجزيرة العربية ليلتمس التفقه فى الدين على أيدى قوم لم تبلغهم دعوة الرسول ، وإنما القصد أن يحيط بما أوتيه أهل الصين من علوم ومعارف تصلح بها أمور الدنيا .

كما نجد مصداق ذلك فى حث الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة على تعلم السريانية ، وهى لغة أجنبية لا يستزيد بها المسلم علما بدينه وإنما ينتفع بها فى دنياه . وفى قوله ، عندما سئل عن النخل وتلقيحه ، ما معناه أن هذا من أمور الدنيا التى يرجع فيها إلى التجارب والعقل ، وأن الناس أعلم بأمور دنياهم .

ولقد نبغ كثير من المسلمين الأوائل فى العلوم الدينية والدنيوية معا ، فكانوا

فقهاء فى الشريعة وعلماء فى الفلسفة والرياضيات، ومنهم من كان يجمع بين التفقه فى الدين والعلم الراسخ فى الطب.

والإسلام دين حضارة، فلا غرو أن يدعو إلى التعمق فى شتى العلوم والفنون وأن يفتح النوافذ ويفسح المجال للأخذ من كل علم بطرف.

ولقد استندت الحضارة الإسلامية إلى دعائم من علوم الدين والدنيا معا ولا تفضيل لعالم على آخر بنوع ما يحصله من علم، وإنما بإخلاصه فيه واستخدامه فى سبيل خير الناس ورفاهيتهم. ذلك أن العلم فى الإسلام سبيل لخدمة الدين والمجتمع معا، فأما علوم الدين فهى تبين أحكامه للهداية إلى حقيقة العبادات وأما علوم الدنيا فللإرشاد إلى أصلح المعاملات.

الفتوح الإسلامية أحداث ثقافية كبرى

ولقد أثمرت تلك التعاليم الرائدة التى بثها الرسول فى نفوس المسلمين تمجيداً للعلم وتكريما للعلماء. فما أعقب العهد الأول للإسلام من عصور زاهرة ارتفعت فيها أعلام دولة فى أقاصى العالم وطبقت حضارته الآفاق.

فالواقع أن الفتوح الإسلامية لم تكن أحداثا سياسية أو حربية فحسب، إذ تبلورت فى شكلها إلى أحداث ثقافية رائعة. وآية ذلك ما أعقب الفتح العربى لشبه جزيرة أيبريا «الأندلس» من نهضة علمية أهلت العقل البشرى لاكتشاف الكثير من المجاهل التى لم يطرقها من قبل، ثم حفزت هذا العقل على التنقيب والاختراع والابتكار وأفسحت له الطريق ليسير بأبحاثه واكتشافاته بما لم يتيسر للإنسان فى يوم ما، يشهد بذلك ما أنتجته العبقرية الإسلامية فى أسبانيا تحت رعاية الخلفاء وأرباب الدولة الأموية فى أعوام قليلة إذا قيست بعمر التاريخ المديد.

ومن الثابت كذلك أن من العناصر الأساسية التى جعلت سرعة الفتوح الإسلامية أشبه ما تكون بالأساطير، أن العرب كانوا يحملون لواء حضارة جديدة تفوقت على حضارة الدول المغلوبة فانساب الفتح الإسلامى فى طريقه كالسيل الدافق فى أفريقيا وآسيا، وحطم دولتين عظيمتين كان بيدهما زمام العالم ومصيره إذ ذاك، ثم اتجه إلى أوروبا فأمدها بحضارة إنسانية زاخرة ظل يحمل مشعلها فى جميع أرجاء العالم عشرة قرون من الزمان.

المبادىء والقيم العلمية والثقافية فى الإسلام

لم يكد يبزغ فجر الإسلام، حتى برزت

العالم إشراقته الفكرية ، فكانت الدعوة إلى التأمل فى خلق السموات والأرض أساس الدعوة إلى الإيمان بالله واعتناق شريعته السمحة وكان منهاج الإسلام فى نشر المعرفة بث التوعية بحقائق الحياة والعقيدة فى النفس البشرية بقصد تهذيب هذه النفس ورفعها من ظلمات الجهالة إلى آفاق الفكر المستنير ، حتى تصبح طاقة قوية قادرة على مشاركة مجتمعها فى معركة الإيمان والبحث والتقدم .

ومن أجل تحقيق هذا الغرض وهو إصلاح النفس والجماعة فى سبيل إصلاح العالم كوحدة واحدة متماسكة ، نهج الإسلام سبيل العمل الشورى فى نشر رسالته الفكرية حتى يتكافأ أسلوب العمل مع أهمية تلك الرسالة وخطرها .

وإذا كان المقصد الأسمى للعلم والثقافة فى الإسلام هو جعلهما سبيلا إلى هداية الفرد واتصاله بالله ، وإلى تقويم الأسرة البشرية جميعا وتحقيق آمالها فى العيش الحر الكريم ، فلا يجب أن تساير هذه الغاية الجيدة وسيلتها بين الناس ، فتحاط تلك الوسيلة بسياج من المثل العالية يحميها من التردى فى وهدة الإثم والانحراف .

وهكذا وضع الإسلام للنهضة العلمية والثقافية دليلا للعمل منبثقا من دعوته السماوية وغايته المثالية فى الدين والدنيا ، وأقام هذا الدليل على أسس ثابتة ودعائم وطيدة حتى يرتفع البناء شامخا خالدا على مدار الأجيال والأحقاب .

وكان هذا المنهاج فى سداده وقوته مرشدا أمينا قادرا على الدلالة على أهدافه الصالحة ، باعثا على الإيمان بها ؛ ومن ثم أرسى الرسول الكريم مستلهما كتاب الله عز وجل أصلح المبادىء وأشرف القيم والتقاليد للنهوض بالجانب الثقافى من رسالته ، فأمر بمكارم الأخلاق فى طلب العلم ، ونهى عن دنايا الخلال وقبائح الفعال .

فالإسلام يحرم الرأى القائل بأن الغاية تبرر الوسيلة ، ويضرب على أيدى الآخذين بتلك « الميكافيلية » الخادعة ، لأنه دين الحق والخير والفضيلة . ومهما عظم الهدف ودعت الحاجة إلى العجلة فى بلوغــــه ، فلا سبيل إلى ذلك إلا بانتهاج الطريق القويم وإن كلف السائرين فيه ضروبا من المشقة والعناء ، بل إن القصور أو التأخير فى تحقيق الأهداف السامية لأهون فى الإسلام من أن يسعى إليها على مركب وعر محط بشرف الإنسان ويزرى من شأنه ، فما قيمة العلم والثقافة بغير رصيد من نبل السجايا وسمو المناقب ؟ .

وإذا كانت رسالة البحــــث العلمى ترمى إلى تحرير العقل البشرى وتطهيره من رواسب الجهل وزيف الباطل وخداع الأوهام وتيسير

الطريق له للاهتداء إلى الحق ، فكيف يستقيم أن يكون السبيل إلى تأدية هـــذه الرسالة هو اطراح المثل الفاضلة والانحـراف عن القيم الخلقية الرفيعة ؟ .

وليس أدل على ذلك من أن انتشار الثقافة الصحيحة لا يصحبه أزمات اجتماعية ، فإذا نشأت هذه الأزمات برغم النهوض العلمى والثقافى كانت تلك ظاهرة على قلق العصر ودليلا على أن العلم لم يقم بدوره فى تأمين البشرية فى مواجهة الأخطار التى تتعرض لها .

وقد نبعت الأسس والشروط التى وضعها الإسلام صونا لشرف الرسالة التى يضطلع بها العلم والثقافة ، من المبادىء الإسلامية العليا التى جاءت بها شريعته الغراء ، والتى استقرت أصولها فى ظل الدولة الإسلامية الأولى ، ثم آتت ثمارها فى الدولتين العباسية والأندلسية فأبدعت للعالم حضارة زاهرة خصبة أغنت وجدان العالم كله لقرون طوال ، ودفعت صـــلالات من الأحياء فى طريق التقدم واكتشفت آفاقا جـديدة من طبيعة الكون والحياة .

ويجمل بنا قبل أن نتناول تلك القيم والتقاليد التى أرساها الإسلام فى رسالته الثقافية أن نقدم ملامح من مبادىء الإسلام الخالدة التى شكلت التربة الصالحة لهـذه القيم والجو الذى أنتلك التقاليد .

وقد كانت تلك المبادىء بمثابة الأسس والقواعـد التى التزم بها المسلمون الأوائل فى طلب العلم والضمانات التى استوحوها من عقيدتهم السمحه للنهوض بالثقافة فى البيئة الإسلاميه وفقا لروح الإسلام وشريعته .

ومن هـذه القواعد والضمانات التى تقوم عليها الثقافة ما تلتزم به الســـلطة الحاكمة أو الدولة ، ومنهـــا ما يلتزم به الأفراد أو الشعب .

المبادىء الإسلامية
فى المجال العلمى والثقافى

إن العلم حق للفرد وواجب على الدولة ، وينبثق هـذا المبدأ من القانون الدستورى الإسلامى الذى يلزم الحاكم بالعمل على إشباع الحاجات المادية والمعنوية المشروعـــة للرعية ، فلا يحجم عن كفالة هذه الحقوق الدستورية للجماعة ـ ومنها حق العلم والثقافة ـ غير الحاكم الظالم ولا طاعة لمخلوق فى معصية .

والإسلام شريعة الحق والعدل ، ومن العدل أن تتحقق المساواة بين الناس فيما تخلعه عليهم الدولة من حقوق ، فلا تمييز فى حق التعلم والتزود بالثقافة بين فرد وآخر ، وإنما الفرصة متاحـة للجميع على قدم التكافؤ

والمساواة ، ولا تفرقة بين فئة وغيرها لأنه لا طبقية ولا عنصرية ولا امتياز لجماعة دون غيرها فى الإسلام ، بل الأكرم والأفضل عند الله هو الأتقى .

والضمان الحقيق لعدم استغلال هذا الحق أو التمتع بتلك المساواة هو الإخاء والتعاون ، فنى ظل التكافل والمشاركة تعم وسائل العلم والمعرفة وتؤتى ثمارها لصالح الأفراد والجماعات ، ومن ثم دعا الإسلام إلى اشتراكية الثقافة وخطط لهذا الاتجاه فى كافة الميادين كيلا يصبح العلم وقفا على أفراد معينين ، وسداً لمنافذ احتكار العلم والانتفاع به فى تحقيق مغانم ذاتيـــة أو أطماع طائفية .

تلك هى المبادىء الإسلامية الإساسية التى تلتزم بها الدولة فى المجال الثقافى ، وتحرص على كفالتها وحمايتها ودعمها فى المجتمع إيمانا برسالتها وتحملا لمسئوليتها غير أنها فى سبيل إرساء هذه المبادىء ، وتأكيدها لا تمتد إلى القهر والعسف ، ولا تقيم من نفسها وصية أبدية على الناس فى جميع شئونهم الفكرية ، وإنما تكتفى بالإشراف الأعلى ضماناً لهذه المبادىء ، فلا تتدخل إلا حيثما تدعو الحاجة إلى الذود عن هذا البناء فى مواجهة خطر طارىء أو شر يطل برأسه ولا طاقة للرعية بدفعه ومكافحته ، ومن ثم حرصت الدولة الإسلامية فى ضوء تعاليم دينها الحنيف على أن تبث فى نفوس رعيتها الإيمان بقيمة الثقافة فى النهوض بالفرد والمجتمع من طريق الإقناع بالحسنى ، حتى تستقر فى نفوسها تلك المفاهيم وتتبلور قيما وتقاليد يستطيع بفضلها الشعب أن يشارك دولته فى تحقيق أهدافها العلمية والثقافية منبثقاً من إرادته الحرة ودوافعه الوجدانية .

القيم والتقاليد الإسلامية فى الثقافة

وقامت فلسفة الإسلام فى هذا المجال على أساس أن الفرد من أجل المجموع ، والمجموع من أجل الفرد ، فلا ارتفاع لأحدهما على حساب الآخر ، فالمجتمع بناء هرمى متماسك فى قمته أجهزة الدولة الموجهة ، وفى قاعدته الأفراد العاملون ، ولا قيام للقمة بغير قاعدة كما أنه لا قاعدة بغير قمة .

وتطبيقاً لهذه الفلسفة جعل الإسلام من التربية الاستقلالية التى تهدف إلى بث الثقة بالنفس والاعتماد عليها منهاجا لتقويم الأفراد حتى ينشئوا كراما أعزة فى ظل مجتمع حر ، يفتدونه بأرواحهم إيماناً منهم بعظمة الحرية التى تشبعت بها نفوسهم فجرت فيها مجرى الدماء فى العروق .

الإسلام دين العلم والعمل :

وهكذا دعا الإسلام إلى التوسل فى طلب الثقافة بالقيم الأخلاقية المثل فهى الدرع الواقى لمبادئه والباعث على تحقيق غاياته . وتتسق هذه الوجهه التى انتهجتها الدعوة الثقافية مع روح الدعوة الإسلاميه وطبيعتها ذلك أن الإسلام ينفرد دون سائر الديانات السماوية بهذا المنهاج البين الرشيد الذى رسمه لعلاج ما يعانيه المجتمع من مشكلات علاجا موضوعيا جذريا يقوم على العلم والعمل فلم يكن اهتمام الإسلام بوضع النظرية أقل منه فى ملاحظتها فى مرحلة التطبيق ، إذ كان من توجيهات الرسول التى أتبعها الخلفاء والأئمة من بعده أن يتسلح المؤمن بالوعى الذى يتاح له من التأمل فى عالم فى عالم النفس والكون ، والخبرة التى يحصلها من ممارسته للحياة وما يخوضه من علاقات مع الآخرين .

ومن هنا كان الإسلام ديناً ودولة ، عبادة ومعاملة ، وكان العلم - وهو من دعائم هذا الدين وأركان هذه الدولة - يجمع بين النظرية والتطبيق فلا غرو أن يحدد الإسلام الملامح الرئيســية للمفهوم العلمى والثقافى حتى لا ينحرف به مريدوه عن مقاصده الجليلة ، وأن يوجه طلاب الثقافة وقادتها إلى الطريق الصحيح الذى يصل بهم إلى غاياتهم فى إطار الروح الإسلامية ، وأن يبين لهم المناقب النبيلة التى ينبغى أن يتحلوا بها ، وفى وصف العلم الحق الذى يحث الرسول على انتهاجه ، يقول صلى الله عليه وسلم : « إنه الأنيس فى الوحشة ، والصاحب فى الغربة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، وبه يعرف الحلال من الحرام وهو إمام العمل والعمل تابعه ».

حسن فتح الباب

بلاغة إياس المبكرة

دخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام : فقدم خصما له إلى قاض لعبد الملك ، وكان خصمه شيخاً كبيراً ، فقال له القاضى : أتقدم شيخاً كبيراً ؟ فقال له إياس : الحق أكبر منه . قال له : اسكت . قال : فمن ينطق بحجتى ؟ قال : ما أظنك تقول حقاً حتى تقوم . قال : أشهد أن لا إله إلا الله . فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر . فقال : اقض حاجته الساعة ، وأخرجه من الشام حتى لا يفسد على الناس .

موقف الإسلام من النظريّات الإنسانيّة في أصل الكون ونشأة الحياة

للأستاذ سعد السيد عمر

من المسلم به أن البحث والنظر، وإعمال الفكر في الكون أرضه وسمائه هو طريق المعرفة الصحيح، والكشف عن بعض ما أودع الله في هذا الكون من أسرار هو الذي أدى إلى السير بالحياة، في طريق النهوض والكمال.

والدين الإسلامي لم يحجر على العقول أن تنظر وتفكر في هذا الكون، بل هو على العكس من ذلك فقد حطم الحواجز والسدود من طريق الفكر الإنساني، ودفعه إلى النظر في ملكوت الله من هذا الكون بأقوى ما عرف في تاريخ الأديان السماوية. يقول الله تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شئ قدير»، ويقول في آيات أخرى «قل انظروا ماذا في السموات والأرض»، و «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا».

هذا وغيره من أساليب الدفع إلى النظر وإعمال الفكر قد وصل إلى حد أنه وجه اللوم والتقريع إلى الذين يهملون استخدام وسائل المعرفة والنظر فشبههم بالأنعام بل وسمهم بأنهم أضل منها في قوله تعالى في سورة الأعراف: «ولهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون».

وما ذلك إلا لأن إعمال فكر الإنسان فيما حوله ونظره الصحيح قد يهديه في النهاية إلى الإيمان برب هذا الكون، والإسلام ينظر إلى المعرفة على أنها طريق الإيمان الثابت الراسخ، فكلما قطع الإنسان في طريقها الصحيح شوطا حصل بنفس النسبة على القدر المناسب لذلك من اليقين، فإذا كنا نعيش في عصر ظفرت فيه العلوم والمعارف وسارت إلى أبعد مدى في دنيا البحوث والكشوف والتطبيق والنهوض بالحياة، فإننا نأمل

أن يكون فى مجال هذا التقدم مدد من اليقين يزداد به المؤمن إيمانا، ويشهد فيه غير المؤمن ناحية من نواحى التقاء العلم بالدين حين يفصح الكشف العلمى عن حقيقة من الحقائق العلمية التى تضمنها نص من النصوص الدينية، فمثلا نقرأ قول الله تعالى من سورة الحجر: «وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين»، ثم نربط بين ما نفهمه من الجزء الأول من الآية وبين ما أثبته الكشف العلمى من تلقيح النبات عن طريق حمل الرياح مواد التلقيح من الذكور للإناث ليتم الإخصاب.

وفى ضوء ما تقدم وأشباهه ندرك موقف الإسلام من الكشوف العلمية الصحيحة التى وصل إليها الإنسان عن طريق البحث والنظر ومدى تحريره للعقل الإنسانى فى البحث فهو لا يحول بينه وبين البحث لمعرفة أصل الأرض أو نشأة الكون وأصل الحياة، بل إنه ليطلق له العنان لينظر ويبحث، وقد يصل وقد لا يصل.

كذلك ندرك على قدر فهمنا وجه تكريم القرآن العلماء فى قول الله تعالى من سورة فاطر: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء». وكثيراً ما يتساءل الناس عن وجود نص فى القرآن وهو دستور الإسلام، يصل الإنسان فى ضوئه إلى معرفة أصل الكون ونشأة الحياة.

ونحن بادئ ذى بدء نوجه الأنظار إلى ما هو معروف من أن القرآن وغيره من الكتب السماوية لها رسالة أبان القرآن الكريم عنها هى الهداية والإرشاد والتذكير والإنذار كما أنه دستور لتنظيم الحياة المثلى للمجتمع الإنسانى.

وإذاً: فليس القرآن مرجعاً علميا لجغرافية الأرض ومعرفة أصلها وتاريخ نشأة الحياة عليها بالمعنى الذى يفهم من كلمة المراجع، كما أنه ليس مرجعا لعلم الطبيعة أو الكيمياء أو الجيولوجيا يبحث فى قياس الإشعاعات وتحليل الضوء أو فى العناصر وامتزاجها وتحللها أو يبحث فى طبقات الأرض، وإنما المراجع الصالحة لذلك كله هى مجموعة البحوث الإنسانية التى كان لها نتائجها والتى عن طريقها نهض الإنسان بأعباء الحياة، فكان جديراً بالخلافة على هذه الأرض.

فإذا كان قد اشتمل على قدر من الحقائق التى شرحتها هذه العلوم فإننا نلحظ أنه قد اكتفى بالإشارة أو التلميح إلى هذه الحقائق فى الجملة بالقدر الذى يحتاج إليه صاحب الرسالة أو الداعى لغرضه فى مقام العظة والتذكر

بنعم الله على العباد لحملهم على الإقرار بربوبيته ووحدانيته والإذعان لقدرته، والقرآن الكريم فى معرض العظة والتذكير لم يخل من التعرض لذكر شىء عن مادة الكون وأصل الأرض وبدء الحياة، فمثلا يذكر القرآن الكريم فى سورة فصلت عن مادة الكون قوله تعالى: «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض، ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين». ويذكر أيضا فى معرض الكلام عن أصل الأرض فى سورة الأنبياء قوله تعالى: «أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى».

وكثير من أصحاب النظريات العلمية فى هذا الصدد يرون أن السموات والأرض أى الكون بأرضه وسمائه تكون من مادة كانت مبعثرة فى الفضاء بدت فى صورة غازية أخذت تتكتل مكونة سحابة هائلة أو سديما كان أشبه ما يكون بقرص ضخم أو دوامة عظمى كانت تدور فى الفضاء، وأنه قد نشأ عن ذلك كل الكواكب ومنها الأرض، وعلماء الفلك يذكرون أن الأرض كانت قطعة من الشمس انفصلت عنها ثم بردت قشرتها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها، ونحن إذا قارنا ذلك بما ورد فى الآيتين الكريمتين نرى أنه يمكن الربط بين ما جاء فى هذه النظريات وما أشارت اليه آيات القرآن الكريم فى هذا الصدد، ولذلك نجد كثيرا من متأخرى المفسرين يستأنسون بهذه الآراء فيوردونها فى مسألة تفسيرهم لمضمون هذه الآيات.

وهنا نحب أن نبادر إلى التنبيه على أن حمل النص القرآنى على فهم بعينه تبعا لما تقول به نظرية من هذه النظريات على أن هذا الفهم هو الحق الواقع ولا شىء سواه، أمر لا يجيزه البحث العلمى الصحيح، وذلك لما فيه من تقييد النص القرآنى العام وربطه بعجلة هذه النظريات الإنسانية وهى فى جملتها قابلة للنقض أو البطلان مهما كانت درجتها من الصحة والسلامة فى نظرنا، إذ أنها لا تخرج عن كونها معارف إنسانية، ومعارف الإنسان محدودة بطاقاته وما يسر له من الوسائل التى تساعده فى هذه المهمة، وهذه الطاقات وتلك الوسائل محدودة قاصرة، اقرأ قوله تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»، وقوله «وفوق كل ذى علم عليم».

وكثير من النظريات العلمية اعتقد السابقون صحتها وكانوا فعقب عليها اللاحقون بما يثبت بطلانها أو نقضها ونحن نلاحظ أن البحوث الإنسانية فى نشأة الكون ومادته وأصل الأرض والحياة عليها كلها أو معظمها تخضع

للفروض والاحتمالات ، كما يتجلى لنا ذلك عند قراءة البحوث التى ظهرت فى هذا المجال .

فهذه الاحتمالات تمنع حسب القواعد العلمية الصحيحة من القطع بأن ما وصل إليه باحث فى هذا المضمار هو الحق ولا شىء سواه ، فمن يدعى ذلك وهو لم يحضر هذه النشأة ولم يمسك بقطعة من الشمس أو الكواكب الأخرى فحللها ووقف على العناصر المكونة لها حتى يتأتى له أن يدعى أن ماذهب إليه هو الحق الواقع فينكر ما عداه .

وأما عن أصل الحياة على الأرض فإننا نضع أمام القارئ فى إطار واحد هذه النصوص الكريمة من كتاب الله عز وجل : « والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا » ، « وجعلنا من الماء كل شىء حى » ، « ومن كل شىء خلقنا زوجين » مع قصة خلق الإنسان الأول وزوجه المذكورة فى مواضع عدة من القرآن ، ومع ملاحظة ما فى هذه الآيات من إسناد الخلق والإيجاد والتسوية إلى الله تعالى ، ومع ما أشار إليه القرآن فى غير موضع من أن سر الحياة نفحة من الله لا دخل لكائن من كان فيها ، نقرأ هذا فى قول الله تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ثم نعود بالقارئ إلى الأبحاث الإنسانية التى ظهرت فى هذا المجال فنلخصها فيما يأتى :

١ — نظرية التولد الذاتى :

ومجملها أن الأحياء على اختلاف أنواعها نشأت هكذا من نفسها بطريق التولد الذاتى من مواد الأرض دون تدخل قوى أخرى خارجية . وهذه النظرية أبطلها العلماء المنصفون وألحقوها بغيرها من الخرافات التى كانت تتردد فى عصور الخرافة عن أصل الحياة ، ولعل القول بأن الحياة بدأت باتحاد غاز الميثان بالمياه فى أبسط الصور ثم تسلسلت إلى أعقدها من غير تدخل قوى خارجية يكون محاولة جديدة لبعث الحياة فى هذه النظرية التى بادت .

٢ — نظرية الحياة من الحياة :

ويقول أصحاب هذه النظرية أن الحياة لا تأتى إلا من الحياة ، ثم اختلفوا فى أن الحياة التى على أرضنا انتقلت إليها من جسم سماوى آخر . وقد عرف هذا بـ « الأصل الكونى للحياة » ، وقد وقفت الصعوبات التى تعترض إمكان احتفاظ الخلايا بحيويتها أثناء انتقالها من كوكب آخر إلى كوكبنا الأرضى دون صمود هذا الرأى لتحقيقات البحث العلمى فلحق بغيره من الآراء التى درست .

أم أن الحياة نبتت عليها ابتداء من عناصرها وقد عرف هذا الرأى بـ « الأصل

الأرضى للحياة ، وأهم المدارس المتعددة لهذا الرأى تلك المدرسة التى تقول بظهور الحياة على الأرض ابتداء من مادتها عن طريق تدخل قوى غير عادية خارقة للطبيعة لا تخضع لسيطرة قوانين المادة ولا للمصادفة . هذه القوى أرادت النشأة للحياة على هذه الأرض فعينت السبيل إليها وجعلت الحياة تندفع فى هذا السبيل الذى سلكته من التطور حتى الآن . وأنه لولا تدخل هذه القوى لما نشأت الحياة على الأرض من تلقاء نفسها كما يزعم الماديون .

ولعل هذه النظرية لهذه المدرسة أقرب إلى الحقيقة التى يعتنقها أصحاب العقائد الدينية من أن الحياة على الأرض تكونت من عناصرها وأن سرها نفحة من الله البارى جل وعلا ، وليس ذاتياً كما يزعم الماديون .

وبعد ما تقدم نعود إلى القول بأن الأبحاث الإنسانية فى أصل الكون ونشأته ، وأصل الحياة على الأرض لم تتخلص هذه الأبحاث فى مرحلة من مراحلها من أغلال الاحتمالات والفروض التى يضرب فى بيدائها خيال الباحث . وهذا ما يجعل نتائجها لا تقوى على الثبوت الجازم ، كما يجعلها دائما عرضة للنقض بأبحاث أخرى تكون أوفى وأشمل .

وإذاً فمن يدعى الوصول إلى الحقيقة فى هذا المضمار يكون ادعاؤه ضرباً من المبالغة الممقوتة التى لا يرضاها البحث العلمى الصحيح وصدق الله إذ يقول فى كتابه الكريم : « ما أشهدتهم خلق السموت والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » .

فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

محمد السيد عمر

عضو المكتب الفنى لمجمع البحوث الإسلامية

إخوان الصدق

قال الأحنف بن قيس :

خير الإخوان إن استغنيت عنه لم يزدك فى المودة ، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها ، وإن كوثرت عضدك ، وإن استرفدت رفدك وأنشد :

أخوك الذى إن تدعه لملمة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

مفهوم العدل فى الاسلام

للأستاذ عباس طه

إن الدراسات الدينية التى توالت فى العالم المتمدن كشفت عن أمور كثيرة جديرة بإنعام النظر ، أولها أن التدين صفة عامة لجميع بنى البشر حديثهم وقديمهم فلم يعثر على أمة لا دين لها ، ولا على قبيل من القبائل البائدة قبل أن يدون التاريخ إلا ولها آثار تدل على أنها كانت تدين لنحلة ، وأنها كانت تعرف أن وراء المحسوسات عالماً محجوباً عن الأنظار فيه كائنات ترجى معونتها ، وتستدر رحمتها . وقد استغلت العقائد الدينية فى أنظمة الحكم آماداً طويلة حتى قام الكتاب والفلاسفة بالدعوة إلى التخلص من حكم الملوك الذى كان يستند على العقيدة الدينية . وكانت النظريات التى تبرر السلطة للملوك تغفل ناحية العدل ، أما الإسلام فيعتبر بحق دين العدل .

العدل فى مفاهيمه الإسلامية :

مفهوم العدل التساوى بين الناس :

وهو ضد الجور والعنت والظلم غير أن علماء الأخلاق بحثوا فى معنى العدل بشتى مناحيه فقرروا : أنه صفة من الصفات النفس الخلقية الفاضلة التى يترتب عليها أداء الحقوق المشروعة لمستحقيها كاملة بحيث لا يظلم أحد فى شىء من الأشياء التى أقرها له الدين وجعلها مقصورة عليه .

وهذه الصفة الخلقية الفاضلة تظهر آثارها فى ثلاث قوى نفسية : وهى القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العقلية . ولهذا عرفوا العدل بأنه التوسط بين طرفى الإفراط والتفريط فى هذه القوى الثلاث ، فمتى اعتدلت هذه القوى كان صاحبها عادلا ، مثال التوسط فى الشهوات هو أن يقف معها عند الحد الذى أمره به الدين والعقل ، فلا تحمله شهوته على الاعتداء على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم ، ولا تذهب به إلى ما يضره فى خلقه أو دينه أو بدنه ، ولا تحمله على ما نهاه عنه الدين من حقد وحسد وغير ذلك . فمن توسط فى هذه الشهوة سواء كانت شهوة جاه أو مال أو منصب أو لذة من اللذات البدنية ، واقتصر على ما هو مشروع منها ، فقد ملك زمام العدل مع نفسه ومع الناس . أما إذا طغت عليه شهوته فحملته على

الخروج عما أمره الله به ، وزينت له الاعتداء على الناس وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم العامة والخاصة فقد باء بأقبح الآثام وكان من الظالمين الباغين الطاغين ، هذا هو نتيجة الإفراط فى الشهوات ويسمى عند علماء الأخلاق خلاعة أو مجوناً .

وأما الإفراط فى ترك الشهوات الطبيعية التى خلقها الله تعالى لمصالح وحكم ، كإهمال الجسم من الغذاء الحلال الضرورى والنظافة وغيرهما ، فإنه يترتب عليه السقم الذى يحول بين المرء وبين أداء وظيفته المطلوبة منه للمجتمع الإنسانى .

ومثال التوسط فى الغضب ، هو أن يضبط نفسه ولا يطيع غضبه فى الخروج عما يقتضيه العقل والدين ، فلا يغضب إلا إذا انتهكت الأعراض العامة أو الخاصة ، والتوسط فى الغضب يسمى شجاعة ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، ومن كان كذلك فإنه يملك نفسه ويصرفها عن إيذاء الناس وظلمهم ، والتعدى على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ويحمله على إعطاء كل ذى حق حقه ، ويدفع عن نفسه ودينه وعرضه عدوان الناس ، وبذلك ينجو من عار الجبن وعدم الغيرة على عرضه وماله ودينه .

ومثال التوسط فى القوة العقلية هو أن يقف الإنسان مع عقله وتفكيره موقف المتدبر للأمور على ما هى عليه ، المتأمل فى أسرار الكون ونظمه وما جاءت به الشرائع الإلهية من حكم واعتقاد ، فمن وقف مع عقله هذا الموقف كان وسطاً بين البلادة والغرور ويشتمل ذلك على أمور ثلاثة : حكمة الاعتقاد ، وحكمة العمل ، وحكمة الأخلاق .

فأما حكمة الاعتقاد : فأولها توحيد الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به . وهذا متوسط بين رذيلتين : الأولى نفى الألوهية رأساً ، أو اعتقاد إلهين أو أكثر .

وأما حكمة العمل : فهى أداء الواجبات بلا إفراط أو تفريط ، وهذا متوسط بين ترك العمل رأساً والمبالغة فيه كما إذا ترك التمتع بما أباحه الله من حلال طيب .

وحث الدين الإسلامى رجاله على القيام بالعدل فى كل صغيرة وكبيرة ، فكان الرئيس منهم ينسى شخصه وولده وأعز شىء عليه فى سبيل إقامة العدل وإعطاء كل ذى حق حقه . ولو شئنا من ذلك أن نذكر أمثلة لذلك من عدل حكام المسلمين الأولين لطال بنا المقام

كثيراً . ولكن لا بأس من أن نورد شيئاً من ذلك عسى أن يكون فيه عظة وعبرة للمسلمين الذين ينالون حظاً من الرياسة .

فن ذلك ما روى عن الحسن قال : جيء إلى عمر رضى الله عنه بمال فبلغ ذلك حفصة أم المؤمنين ، فجاءت ، فقالت : يا أمير المؤمنين أنشدك حق أقربائك من هـذا المال ، وقد أوصى الله بالأقربين . فقال : يا بنية : حق أقربائى فى مالى ، وأما هذا فمال المسلمين ، غششت أباك ، ونصحت أقرباءك ، قومى ! فقامت والله تجر ذيلها .

ومن ذلك ما روى أنه رضى الله عنه جمع عماله ، وجمع رؤساء القبائل معهم ، ثم قال لهم : إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا وجوهكم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم ، ويحفظوا دماءكم وأعراضكم ، ويقسموا بينكم فيئكم ، فمن فُعل معه سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! فوثب عمرو بن العاص وقال : أفرأيت إن كان رجـل من المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته إنك لمقصه منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه ! وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم (الغياض جمع غيضة ، والغيضة مكان يجتمع فيه الماء ثم يقل فينبت فيه الشجر) ، وكان رضى الله عنه يباشر أحوال رعيته بنفسه ليقيم بينهم العدل بقدر ما يستطيع ، وكان يؤثر رعيته على نفسه وولده عند نزول الشدائد والإحن .

وما نحن بقادرين على أن نذكر فى هـذا المقام ما كان عليه عمر رضى الله عنه من عدل شامل لجميع أفراد الرعية .

ولكن من آثار هـذا العدل أن قامت الدولة الإسلامية فى عهده على أساس ثابت قد وضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل ، فقوى الإسلام فى عهده وانهارت الدولتان اللتان كانتا تسودان العالم يومئذ ، وهما الفرس والرومان .

وبالجملة ، فالدين الإسلامى قد أمر المسلمين بإقامة العدل بينهم أمراً صريحاً ، وهدد الظالمين تهديداً شديداً ، ولعنهم لعناً كبيراً ، قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » . والله يهدى المسلمين إلى سواء السبيل ؟

عباس طه

الكتب

الإمام الدّهلوى في حجة الله البالغة

للأستاذ محمد عبد الله السمان

كان لقبه : « شاه ولى الله » أما اسمه فهو أحمد بن عبد الرحيم الفاروقى الدهلوى ، إنه أحد علماء الهند الأفذاذ ممن تعمقوا فى مفاهيم الفكر الإسلامى ، وأسهموا بأكبر قسط فى تمكين العقل من أن يؤدى دوره فى صياغة الشريعة الإسلامية داخل إطار من المنطق والحجة .

ولد وتوفى بدهلى ، وكان مولده عام ١١١٠ هـ ووفاته عام ١١٧٦ أو ١١٧٩ هـ ، ولم يغادر مسقط رأسه إلا حين رحل إلى الحجاز فى طلب العلم عام ١١٤٣ ، وظل هناك قرابة عامين يتلقى العلم ويتزود بالمعرفة من كبار علماء الحجاز .

له مؤلفات عديدة ترجمت إلى لغات كثيرة من البلاد الإسلامية منها : الفوز الكبير فى أصول التفسير ، وفتح الخبير بما لابد من حفظه فى علم التفسير ، وإزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء ، والانتباه فى سلاسل أولياء الله ، وإنسان العين فى مشايخ الحرمين ، والقول الجميل والدر الثمين فى مبشرات النبى الأمين ، وفيوض الحرمين وأنفاس العارفين والتفهيمات الإلهية ، والإنصاف فى أسباب الخلاف وعقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد ، ثم هذا الكتاب النادر : حجة الله البالغة .

كان الدهلوى فقيها حنفى المذهب وكان محدثا بارعا ، له مؤلفات وأعمال فى الحديث النبوى له الإرشاد إلى مهنة الإسناد ، والنوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر والمسوى فى فقه الحديث باللغة العربية رتب فيه أحاديث الموطأ ، والمصفى باللغة الفارسية شرح فيه الموطأ ، وله شرح تراجم أبواب صحيح البخارى ، وبالاضافة إلى عمله فى الحديث النبوى قام بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة

الفارسية على شاكلة النظم العربي وسمى : فتح الرحمن فى ترجمة القرآن . كما نسج ابنه عبد القادر من بعده على منواله فقام بترجمة القرآن إلى اللغة الهندية .

الحق أن العلامة الدهلوى كان ذا باع واسع فى الحديث الشريف ، حتى عده صاحب اليانع الجنى رئيس المحدثين فى عصره ، وقال عنه الكتانى صاحب : فهرس الفهارس .

« أحيا الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند بعد موتهما وعلى كتبه وأسانيده المدار فى تلك الديار » .

واهتمام الإمام الدهلوى بالحديث النبوى كان دافعا أساسيا له إلى تأليف كتابه العظيم الذى بين أيدينا (حجة الله البالغة) حتى إنه يقول فى أول مقدمته :

« إن عمدة العلوم اليقينية ورأسها ، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذى يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين من قول أو فعل أو تقرير » .

ولم يكن العالم الجليل مقلدا غيره ممن سبقه من علماء الحديث والمشتغلين به ، فنراه يرتب أعمالهم فيقول :

« وإن أقرب القشور إلى الظاهر فن معرفة الأحاديث صحة وضعفا واستفاضة وغرابة وتصدى له جهابذة المحدثين والحفاظ من المتقدمين ... ثم يتلوه فن معانيه الشرعية واستنباط الأحكام الفرعية والقياس على الحكم المنصوص فى العبارة والاستدلال بالإيماء والإشارة ومعرفة المنسوخ والمحكم والموجوح والمبرم وهذا بمنزلة اللب والدر عند عامـــة العلماء ، وتصدى له المحققون من الفقهاء .

وإن أدق الفنون الحديثة بأسرها عندى وأعمقها محتدى وأرفعها منارا ، وأولى العلوم الشرعية عن آخـــرها ـ فيما أرى ـ وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارا ، هو علم أسرار الدين الباحث عن حـــكم الأحكام ولمياتها [1] . وأسرار خواص الأعمال ومكانها فهو والله أحق العلوم بأن يصرف فيه من أطاقه نفائس الأوقات » .

وكان أن سلك الإمام الدهلوى المرتبة الأخيرة ، وأفنى حياته فيها ، وما كتابه : (حجة الله البالغة) إلا دليلا وشاهدا .

إن العلامة الدهـــلوى يشير فى مدخله إلى الكتاب قضية وهو يقول : « قد يظن أن الأحـــكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح ، وأنه ليس بين الأعمال وبين ما جعل الله جزاء لها مناسبة ، وأن مثل التكليف بالشرائع كمثل سيد أراد أن يختبر طاعة عبده فأمره برفع حجر أو لمس شجرة مما لا فائدة فيه غير الاختبار ، فلما أطاع

(١) لمياتها : حقائقها ، مفردها : لمية .

أو عصى جوزى بعمله ، وهذا ظن فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير ، ومن عجز أن يعرف أن الأعمال معتبرة بالنيات والهيئات النفسية التى صدرت منها ... فإنه لم يمسه من العلم إلا كما يمس الإبرة من الماء حين تغمس فى البحر وتخرج .

وإزاء هذه الشبهة التى دحضها الدهلوى بقوة منطقه ، تراه يجعل كتابه فى قسمين كبيرين اختص الأول منهما بالقواعد الكلية التى تنتظم بها المصالح المرعية فى الشرائع ، وأكثرها - كما يذكر - كانت مسلمة بين الملل الموجودة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيها اختلاف بينهم وكان الحاضرون مستغنين عن سؤالها ، فنبه النبى عليها كما ينبه على الأصول المفروع عنها عند إفادة الفروع فتمكن السامعون من إرجاع الفروع إليها لما رسوا من نظائرها فى العرب المنتسبين إلى الملة الإسماعيلية ، واليهود والنصارى والمجوس .

وفى هذا القسم ، يرى الدهلوى أن أسرار الشرائع ترجع إلى أصلين مبحث البر والإثم ومبحث السياسات الملية ، والبر والإثم لا تكتنه حقيقتهما إلا بعد أن يعرف قبلهما مباحث المجازاة وطرق الارتفاقات والسعادة النوعية .

أما القسم الآخر من الكتاب فقد اختص بشرح أسرار الأحاديث من أبواب الإيمان وأبواب العلم وأبواب العبادات ، وأبواب الإحسان ، وأبواب المعاملات ، وأبواب تدبير المنازل ، وأبواب سياسة المدن وأبواب آداب المعيشة وغير هذه من الأبواب

يبحث الإمام الدهلوى فى القسم الأول من الكتاب أسباب التكليف والمجازاة ، وكيفية المجازاة فى الحياة وبعد الممات ، وكيفية استنباط طرق الارتفاق ، ثم حقيقة السعادة ، والسياسات الملية ، واستنباط الشرائع من حديث النبى ، وبيان أسرار ما جاء عنه صلوات الله عليه تفصيلا .

أما القسم الثانى ، فيبحث فيه حكمة التشريع فى العبادات كلها ، والمقامات والأحوال جميعها وفقه المعاملات ، والخلافة والقضاء ، والجهاد والفتن وأشراط الساعة .

وفى شتى جولاته فى كتابه هذا ، يبدو فقيها متمكنا ، وفيلسوفا متأملا ، ومنطقيا متعمقا ، وصوفيا متنسكا ، وباحثا متدفقا .

إن الكثير من الفقهاء تركوا موسوعات فى الفقه ، ولكنهم قدموا الفقه جسدا لا روح فيه ، أما الإمام الدهلوى فقد امتاز عليهم بأن قدم فى كتابه روح الفقه ، وأبان عن أسراره وفلسفته ، وأزاح عنه كل جمود ألصق به . ورفع عن كاهله عبء الخلافات العديدة فى شكليات الفروع وتوافه الأمور .

وكون الإمام الدهلوى فقيها حنفى المذهب ليس معناه تجريده من الاجتهاد ، أو طبعه لطابع التقليد ، فهو يرى : أن البحث عن المسائل الاجتهادية أو تحقيق الأقرب منها للحق ليس بدعا من أهل العلم ، ولا طعنا فى أحد منهم ، كما يرى أن أولئك الباحثين بالتخريج والاستنباط من كلام الأوائل المنتحلين مذهب المناظرة والمجادلة ، لا يجب علينا أن نوافقهم فى كل ما يتفوهون به ، ونحن رجال وهم رجال ، والأمر بيننا وبينهم سجال .

وأسلوب الدهلوى الأدبى الرائع ، لا يجعلك تحس بشىء من الثقل حين تقرأ له ، ولا يجنح بك إلى الغموض فتنفر منه ، فهو يجمل ويفصل فى عبارات سهلة لا تكلف فى ألفاظها ، متلاحقة المعانى حتى لا يتداخل بعضها فى بعض فيشق عليك استيعابها .

إن الذى لا ريب فيه أن الإمام الدهلوى فى كتاب (حجة الله البالغة) متأثر بعض التأثر بمدرسة الإمام الغزالى فى روحانيته ومنطقه ، كما هو متأثر بعض التأثر أيضا بشيخ الإسلام ابن تيمية فى عقيدته وليس فى عنف أسلوبه وقسوة جدله ، وقد دافع عنه أيما دفاع فى كتابه (التفهيمات الإلهية) قائلا :

« فإنا قد تحققنا من حاله أنه عالم بكتاب الله ومعانيه اللغوية والشرعية ، أستاذ فى النحو واللغة ، محرر لمذهب الحنابلة فروعه وأصوله فائق فى الذكاء ، ذو لسان وبلاغة فى الذب عن عقيدة أهل السنة ، لم يؤثر عنه فسق ولا بدعة اللهم إلا فى هذه الأمور التى ضيق عليه لأجلها ، وليس شىء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيز الوجود فى العالم ، ومن يطيق أن يلحق شأوه فى تحريره وتقريره ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى » .

إن اتجاه ولى الله الدهلوى إلى الدفاع عن فقهاء المسلمين الأمجاد فى غير تعصب لهم أو تجن على مخالفيهم ، يقدم لنا صورة مضيئة لفقيه مستنير واسع الأفق ، وإن كتابه حجة الله البالغة موسوعة فقهية ذات طابع خاص لم يسبق إليه ، فقد فلسف الفقه الإسلامى ، وبعث فيه الحركة والحياة ، وقدمه فى صورة أدبية رائعة امتزجت بالمنطق السليم والحجة القاطعة .

رحم الله الإمام الدهلوى لقد كان أبرز فقهاء القرن الثانى عشر ومحدثيهم وفلاسفتهم وإن آثاره التى تركها ولا سيما (حجة الله البالغة) لتحتل اليوم مكانا مرموقا فى المكتبة العربية والإسلامية ، فى شتى بقاع العروبة والإسلام ؟

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

تهنئة مشيخة الأزهر للمسلمين بشهر رمضان المبارك :

أيها الإخوة المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها .

لقد شرف الله رمضان بنزول القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وكرم عباده فكلفهم أن يصوموا نهاره ، ويقوموا ليله ، ليصحبوا زمان نزول الهدى بصفاء نفس وإشراق روح ، وبذلك يفهمون عن الله مراده ، ويعشقون تكاليفه ويقبلون على أوامر ربهم إقبال من يعلم الخير فيها لدنياه ويتيقن حسن الجزاء عليها فى أخراه .

وليس لله حاجة فى أن يدع عباده الطعام والشراب ، لكنه سبحانه راض عباده بهذا الشهر فى كل عام ليدربهم على جهاد نفوسهم جهاداً يقويها فلا تضعف أمام الشهوات ، ولا تنقاد للنزوات ، وحينئذ يتخلى المؤمن عن الرذائل التى نهى الله عنها ، ويتحلى بالفضائل التى أمر الله بها .

وإن مشيخة الأزهر ليسرها أن تهنئ المسلمين جميعاً به ، وتسترعيهم حسن استقبال له بالعمل الصالح وتأمل أن يجعلوا احتفاءهم به تهذيب نفس ، وتقوى قلب ، وورع سلوك وطموح آمال .

وإن بشائر الخير كانت على ميعاد مع هذا الشهر المبارك ، لجمع الله حكام العرب على قلب رجل واحـــد ليسدوا على الأعداء ثغرات التفرقة ويسودوا بأمة العرب لتصبح كما أراد الله خير أمة أخرجت للناس تحمل الدنيا كلها على فضائل دينها القويم وصراط الله المستقيم .

(دكتور محمد عبد الله ماضى)
وكيل الأزهر

الإسلام فى القرن العشرين

من صدى قاعة الشيخ محمد عبده

لقد كان العنوان المذكور أعلاه محاضرة الدكتور عبد الحليم محمود . تحدث فيها عن واقع المسلمين اليوم وما هم عليه من بعد عن روح الإسلام ، وحدد أسباب هذا البعد وأرجعها إلى حقيقة واحدة وقال إن التخلى عنها كان مصدر العلل التى لحقت بالأمة

الإسلامية ، ألا وهى العبودية الخالصة لله ، ومن هذه العبودية تتحدد مكانة الإنسان فى هذا الوجود - بأنه عابد ، وتتجلى عظمة الرب - بأنه معبود وهذا هو الوضع اللائق بالإنسان بوصفه أفضل مخلوقات الله « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » آية كريمة ترى فيها صدق العقيدة الإسلامية ، والمعين الذى انبثقت منه عالميتها منذ فجر الإسلام فرأيناها ، توحيداً فى الإلهيات ورحمة فى الأخلاق وعدالة فى الحكم وبهذه المبادىء جاء الإسلام وعليها لايزال فى القرن العشرين لا تغيير فيه ولا تبديل ، شهد بذلك أعداء الإسلام أنفسهم حين قرروا « أن القرآن الموجود الآن بين المسلمين هو نفسه القرآن الذى نزل على « محمد » فى مهد الدعوة ، هذه هى شهادة المستشرقين ، وذلك هو التصور الحقيق الذى تقوم بمثله عالمية الإسلام .

فما موقف المسلمين من هذه الحقيقة التى شهد بها الأعداء ، وما مكانتهم على ضوء ذلك التصور والجواب على ذلك يؤخذ من واقع المسلمين أنفسهم وفى هذا القرن بالذات . حقيقة إنهم لازالوا يعتقدون أن قرآنهم هو نفس القرآن الذى تلاه نبيهم وصحابته وذلك حق ، أما وإن الشك قد أخذ يساور نفوسهم فى صحة أحاديث الرسول عليه السلام فذلك باطل يجب أن يقفوا به عند حد على أن يحكموا بصحة الحديث أولا وبعد النظر فيه إن تبين ضعفه - لسبب من الأسباب المعروفة فى مكانها لمن أراد ذلك ضعفوه - لا أن يحكم على الحديث بالضعف سلفاً ثم يلتمس له أسباب الصحة . وهنا أشاد المحاضر بالجهد الذى كان يبذله المحدثون فى جمع الأحاديث ومعرفتها كما كشف عن نوايا المتحاملين على الأحاديث وهى المصدر الثانى بعد القرآن ، هذا من ناحية ومن أخرى فإن ما عليه المسلمون اليوم من تدهور فى السلوك والأخلاق يحدد موقفهم تجاه العبودية الخالصة لله فلو كانوا على صلة تامة بالله لما ساورهم الشك الدائم فى مصادر دينهم ولما لحق بهم الضعف والوهن . وهذا البعد هو الذى حداهم إلى أن يستجيبوا لمبادىء الثورة الفرنسية والتى لا تزال رواسبها راسخة فى عقلية القرن العشرين .

والمبادىء التى قامت عليها الثورة هى : الحرية المساواة : وهنا كان المستمعون يتوقعون من المحاضر أن يقول إن الإسلام قد جاء منذ أربعة عشر قرنا ومن مبادئه الحرية والمساواة ولذلك فالثورة الفرنسية لم تأت بجديد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » ، وهنا يصفق الجميع ولكن المحاضر فاجأ المستمعين

وأتى بالغريب على أسماعهم عندما قال « إن الحرية والمساواة كلاهما مبدأ فاسد لأنه قام على أساس فاسد ، فليس الإنسان حراً ما دامت هناك عوامل تخضعه لها حينا فيهبط إلى مستوى الحيوانية ويتمرد عليها حيناً فينتصر ويرتفع إلى الملائكية . وليست هناك مساواة ما دامت فى الطبيعة البشرية جملة فروق تلتقى فى أفراد لتفترق عند آخرين وحتى الذين تلتقى فيهم إذا أمعنا النظر وجدناها عادت كما كانت افتراقا لا التقاء واختلافا لا مساواة ومثال ذلك الذكاء الذى نجده مختلفاً بين شخصين مرت بهما نفس الظروف وقطعا مراحل تعليمية واحدة .

وكصورة مادية لفساد مبدأ الحرية والمساواة استشهد المحاضر بالوجودية فى مقابل الحرية وقال عنها إنها فلسفة اللامبالاة والهروب من المسئولية ولذلك فهى مذهب فاسد لا قاعدة له واستشهد بالشيوعية فى مقابل المساواة وقال « إنها فلسفة القطيع والرعاة ، فهى أعجز من أن تحقق أبسط صور المساواة لأنها قامت على الإلحاد . ورغم هذه الصورة والدلائل المادية تبدو آراء المحاضر عن الحرية والمساواة غير مقبولة ولكننا أخيراً نراها على حق عندما نسمع المحاضر يقرر وفى صوفية بدت لنا متزنة نستشف منها طريقته فى عرض أفكاره حين يقول « إن وظيفة الإنسان فى هذه الحياة عبودية خالصة لله تنتهى به إلى التوحيد بالحق المطلق ومن هنا تبدأ الحرية الحقيقية من كل شىء سوى التزامات العبودية لله وحده ، ومن هنا أيضا تنبعث الرحمة من كل قلب أسلم وجهه لله ، وبذلك يتحقق التكافل بين الناس وتبطل المساواة ويبقى العدل » .

ما تقدم كان هو التصور السليم لمكانة الإنسان ولعالمية الإسلام ولتصحيح مفهوم الحرية والمساواة ، ولذلك أدى بعد المسلمين عن هذا الفهم إلى تدهورهم نظرياً وعملياً .

ومن ذلك أنهم جاروا الحركات العلمية التى تبحث عن أى شىء وتريد أن تخضعه للعقل سواء كان فيما وراء الطبيعة أو فى الأخلاق ولهذه النزعة رأينا « علم الكلام » قام ليبحث عن التوحيد فاختلف المسلمون فى هذا العلم وكان الأجدر بهم أن يقفوا بالعقل أمام النص القرآنى موقف المتفهم أولا والمؤيد له ثانياً والمدافع عنه أخيراً ، وكالمجاراة التى دفعت المسلمين على كتابة تاريخ للإسلام وللعقيدة نفسها وهنا يجب أن يقال إن الإسلام كعقيدة وكدعوة لا يؤرخ له من البشر لأنه قد أرخ لنفسه بمجرد ظهوره أما الإسلام كواقع يعيشه المسلمون يترجم لنا بطولاتهم فى الحق ، فهذا ما لا ينفيه أحد من المسلمين ؟

دفع الله الأمين يوسف

فتاوى مختارة..

باب يقدمه:

ابراهيم محمد الأصيل

فرضية الصيام :

السؤال :

يشكك بعض الضالين فى هذه البلاد فى فرضية الصيام على المسلمين فالمرجو الكتابة عن هذا بما يرد كيدهم .

عبد الله سيانج ـ كولومبو

الجواب :

قال الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه . الخ الآية الكريمة .

ليس فى بلاد الإسلام من يجهل معنى الصوم الذى طلبه الله من المسلمين فى هذا الشهر وليس فيها من يجهل أن صومه ركن من أركان الإسلام ، وفريضة من فرائضه الأولى التى بنى عليها . وقد عبر القرآن عن فرضيته « بمادة » لا تحتمل غير الإثبات والإيجاب والتحتيم ، بمادة لم تعرف لغير الصوم من أركان الإسلام . بمادة كان أكثر ما ورد التعبير بها فى الدلالة على التحتم والثبوت لمقتضيات الذات الإلهية ، أو لمقتضيات النظام الكونى الذى قدره الله فى سابق علمه للكائنات . ولا يمتريه فى سنته تغيير ولا تبديل . وإنك إذا قرأت فى الدلالة على تحتم تلك المقتضيات قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » وقوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » . وقوله : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . وقوله : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » فإنك ترى القرآن لم يقف فى شرع الصوم وطلبه من المؤمنين عند « المادة » المألوفة

فى طلب الشىء ، أو الأمر به نحو « فليصمه » أو نحو « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » أو نحو « ولله على الناس حج البيت » . بل سما به إلى مادة « الكتب و الكتابة » التى عرفت عنه فى مقام التعبير عن مقتضى الألوهية ، أو مقتضى التقدير الإلهى فى النظام الكونى ، الثابت المتقرر ، ترى القرآن سما بالصوم إلى هذه المادة . ممهدا له بالنداء الموقظ للشعور ، وبوصف الإيمان الباعث على الامتثال ، ومشيراً فى الأسلوب نفسه إلى أن الصوم تكليف الله العام لهؤلاء ولمن مضى من عباده السابقين « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم » ، ثم حدد وقته وفصل أعذاره على نحو لم يوجد فى غيره من الفرائض والأركان .

ومن هنا أجمع المسلمون من عهد التشريع على أن من أنكر فرضية الصوم أو أول طلبه ، أو حرف وضعه ، أورده إلى مجرد الشوق إليه والرغبة فيه خارجا عن ربقة الإسلام ، لا تجرى عليه أحكامه ولا يعد من أهله . وهذا هو حكم الله فى الصوم وفى سائر ما ثبت فرضيته أو حرمته بمصدر تشريعى قطعى فى ثبوته عن الله ، ودلالته على معناه . وتناقل جميع المؤمنين العلم به هكذا ، جيلا عن جيل ، وطبقة عن طبقة ، ولقد استقر فى ضمير المؤمنين أن ما ثبتت فرضيته أو حرمته على هذا النحو ليس محلا للرأى ، ولا مجال للاجتهاد الذى أباحه الله للعباد ، واستقر كذلك فى ضميرهم أن من يعبث بشىء من تلك الأحكام القطعية ، ويتخذ ذلك العبث باسم - « حرية الرأى » ، أو بتوجيه خارجى مدبر - سبيلا إلى فتنة الناس فى دينهم أو زعزعة إيمانهم للحصول على شهرة زائفة مفتعلة ، أو للتمهيد بالقضاء على أركان الإسلام لصرف المؤمنين به عن الاعتقاد فيه كل من يريد ذلك جدير بالمؤمنين الصادقين أن يتصدوا له بالحجة أولا لكشف تزييفه ثم محاربته بعد ذلك بالطرق الممكنة والمشروعة ، فهم حينئذ فى موقف دفاع عن عقيدتهم التى من أجلها بذل المؤمنون السابقون الأرواح رخيصة حفظا لها فوصلت إلينا سليمة كما شرعها الله .

* * *

السؤال :

تعجيل الفطر وتأخير السحور :

أرجو بيان مدى صحة الأحاديث الدالة على تعجيل الفطر وتأخير السحور .

محمد الشيبانى - العامرية

الجواب :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال

الناس بخير ما عجلوا الفطر » متفق عليه من حديث سهل بن سعد .

وروى أحمد من حديث أبى ذر أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما تزال أمتى بخير ما أخروا السحور وعجلوا الفطر ، ولكن فى إسناده سليمان بن أبى عثمان قال أبو حاتم مجهول . وقال صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : إن أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا » رواه أحمد والترمذى ، وقال حسن غريب .

وعن أبى هريرة قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر لأن اليهود والنصارى يؤخرون » . رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

وروى عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودى قال : كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أسرع الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً قال الحافظ ابن حجر إسناده صحيح .

ولقد حسم الحافظ ابن عبد البر التردد فى هذا الباب حين قال : أحاديث تعجيل الإفطار وتأخير السحور صحاح والعمل بها متواتر .

* * *

السؤال :

حكم الصيام فى البلاد الذى يطول النهار فيها طولا غير عادى .

هل يصام رمضان حيث النهار ستة أشهر وكيف يصام ؟ .

أحمد زوار المجلة

الجواب :

الصوم فرض على جميع المؤمنين دون فرق بين قطر وقطر وعلى أهل البلاد المشار إليهم فى السؤال أن يقدروا أيامهم ولياليهم وأشهرهم بحساب أوقات أقرب البلاد المعتدلة إليهم ، أى بحساب البلاد القريبة منهم التى تتميز فيها الأوقات ويتسع كل من ليلها ونهارها لما فرض من صوم وصلاة على الوجه الذى يحقق حكمة التكليف دون مشقة أو إرهاق . ولا ريب أن أهل هذه الجهات لا بد أن يكونوا قد اتخذوا طريقا لتقدير الأيام والأشهر فيما يختص بحياتهم العامة من أعمال وعقود .

وإذن فمن السهل أن يتخذوا فى تحديد أوقات عبادتهم ما عرف فى أقرب البلاد المعتدلة إليهم ؛ وبهذا يستطيعون أداء فروضهم الدينية من صلاة وصوم على وجه محدد كامل لا عسر فيه ولا إرهاق : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

* * *

السؤال :

صدقة الفطر :

أرجو بيان الأحكام المتعلقة بصدقة الفطر .

عبد المعطى سالم - طنطا

الجواب :

كلمة صدقة اسم لما يخرجه المسلم من ماله

سدا لحاجة أخيه الفقير بقصد التقرب إلى الله وكلمة فطر يقصد بها الإفطار من صوم رمضان . وهو إنما يكون بغروب شمس يومه الأخير ومن هنا كان الانتهاء من صوم رمضان ، هو السبب الظاهر لوجوب تلك الصدقة .

والحكمة التي قصدت من تشريعها تبين من قول ابن عباس رضى الله تعالى عنه : « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » .

وتجب على الصائم عن نفسه وعمن تلزمه نفقته ، فتجب عن زوجته وأبنائه وخدمه الذين يلي أمرهم وينفق عليهم ولا يتوقف وجوبها على أن يكون الصائم مالكا لنصاب الزكاة المفروضة ، بل يكفي أن يكون عنده ما يفضل عن قوت يوم وليلة لنفسه وأهله ، ومن المأثور في ذلك : « أما غنيكم فيزكيه الله وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى » . وفي هـذا التشريع إشعار بوجوب عموم التضامن وأنه كما يطلب أن يكون بين الغنى والفقير ، يطلب أن يكون أيضاً بين الفقير والفقير ، وفيه أيضاً إشعار الفقير بمعنى العزة حين يعطى ، ويمد يده عالية بالعطاء ، فيدفعه ذلك إلى العمل على التخلص من ظاهرة الفقر التي يمد بها يده متواضعة للأخذ « واليد العليا خير من السفلى » .

ويندب إخراجها بعد فجر يوم العيد وقبل الذهاب لصلاة العيد ويجوز إخراجها قبل يوم العيد بيوم أو يومين ليتمكن الفقير من الانتفاع بها في يوم العيد والمقصود تحقيق قوله صلى الله عليه وسلم : « اغنوهم في هذا اليوم عن السؤال » .

والقدر الذي يخرج على مذهب الإمام الشافعي صاع (قدحان بالكيل المصرى) . أي تجزئ الكيلة عن أربعة أشخاص ولا تجزئ القيمة عنده .

ومذهب الإمام مالك يؤول الصاع (بقدح وثلث بالكيل المصرى) فتجزئ الكيلة عنده عن ستة أشخاص .

ومذهب الإمام أبي حنيفة المقدار الواجب إخراجه قدح وسدس عن كل فرد فتجزئ الكيلة عنده عن سبعة أفراد إذا زيد عليها سدس قدح .

ويجوز على مذهبه أن يخرج المزكى قيمة الزكاة الواجبة نقوداً وهذا أفضل ولا بأس بتقليد غير الحنفي للحنفي فيه إذ أنه أكثر نفعا للفقراء وأكثر تمشيا مع حاجة الزمن .

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق : عبد الرحيم فودة

علوم القرآن :

... ويمكن أن نجتزئ الكلام . ونلتزم حدود ما وقف عنده أسلافنا فنقول : إن علوم القرآن هى كل علم يخدمه أو يعتمد عليه ، وبذلك يشمل علم التفسير وعلم القراءات وعلم الرسم العثمانى ، وعلم أسباب النزول . وعلم الناسخ والمنسوخ وعلم إعراب القرآن . وعلم غريب القرآن . وعلوم الدين واللغة على كثرتها كما ذكر الشيخ الزرقانى ، وقد نقل عن السيوطى أنه توسع فيها حتى اعتبر منها علوم الهيئة والهندسة والطب ونحوها .

وهكذا لا نكاد نجد ضابطا يمكن أن نحصر به العلوم التى تدخل فى مفهوم علوم القرآن ، وقد كان من الخير ألا يكلف الباحثون أنفسهم عناء التحديد ، فالقرآن كتاب الله وقد جعله الله كتاب الكون والحياة ، وها نحن أولاء نجده يشغل اهتمام العلماء الطبيعيين ، ونجد سيلا دافقا من الكتب العلمية التجريبية الكونية تكشف عن جوانب فيه لم تكن معلومة . وتفسر حقائق فيه لم تكن مفهومة .

فإذا حدثك إنسان بأنه رأى شجرة تحمل من الثمر الشهى والزهر الندى ما يوجد فى كل أنواع الشجر من ثمر حلو الطعم طيب المذاق فتذكر القرآن . وتذكر أن السورة منه سميت سورة لأنها تضم ألوانا من الفنون والعلوم كما يضم السور مدنية سعيدة يجد أهلها فيها كل ما يشبع حاجاتهم ويمتع حياتهم . أو كما يضم السور بستانا ناضر الزهر . ناضج الثمر . موشى بمختلف روائع الألوان . فإذا نظرت إلى سورة منفردة ومجتمعة فاذكر قوله تعالى : « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » ، وقوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ، وقوله تعالى : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

ع . ف

عن دائرة معارف الشعب

تشويه الثقافة العربية الإسلامية :

رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الإسلامية . وأنها مصدر عزة الشرق والعرب والمسلمين ، ثم إنهم أيقنوا أن أمة

لها هذه الثقافة لا يمكن أن تخنع أو تذل أو تبيد ، فعمدوا إلى تشويه وجه هذه الثقافة وإلى الحط من شأنها فى نفوس أصحابها ، وكان العمل عليهم سهلا . أو هكذا ظنوه . فقسموا العمل قسمين : قسما يتناول حقيقة الرسالة التى أديناها نحن الشرقيين العرب والمسلمين . وما فيها من أوجه العظمة والحقائق التى كانت أساس الرقى الإنسانى . أو ما فيها من الآراء الصحيحة الخالدة على الدهر . ثم قسما من الحقائق التى لم تعرف قبل العصر الحاضر .

أما القسم الأول فساروا فيه ينحلون حقائقه الصحيحة وآراءه الصائبة لغير العرب ولغير المسلمين ، يجمع هذا كله قول أرنست رينان الفرنسى : « الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية ، فكل مظهر عزيز فى الفلسفة الإسلامية عند رينان وأتباع رينان إنما هو للفرس أو لليونان أو للنساطرة واليعاقبة ، أو أنه مشكوك فيه ، وكتب المبشرين والمستعمرين مملوءة بمثل هذا الإنكار على العبقرية العربية ...

ونحن لا ننكر أن يكون العرب - فى الفلسفة - قد بنوا فلسفتهم على أساس ما قدمه اليونان للعالم ، ولكن من غير الإنصاف أن نقول إن العرب لم يكونوا سوى نقلة . سوى حمالين حملوا الفلسفة كما هى من اليونان إلى العالم . إن العرب قد زادوا فى الفلسفة وناقشوا ونقحوا وصححوا وشرحوا وأدوا رسالة قل أن أدت مثلها أمة فى التاريخ ، وأى قول أوضح وأصوب فى العلم من قول الدكتور جورج سارطون أحد ثقات «تاريخ العلم» فى العالم ، حينما قال فى هذا الشأن نفسه :

« غير أن أولئك الذين ينكرون محاسن العرب ويبخسونها قيمتها ليحتجون مرة ثانية بقولهم : إن الأخذ من مصادر متعددة ليس - على كل حال - خيراً من الأخذ من مصدر واحد . تلك طريقة فى المجادلة مضللة . وخصوصاً إذ كان الكلام يتناول الرياضيات ، ثم إن الرياضيين العرب فى تينك الحالتين المذكورتين آنفا - لم ينسخوا من المصادر اليونانية والسنسكريتية نسخا ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما جاءوا بفائدة ، ولكنهم جمعوا بين المصدرين . ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية . وإذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكاراً فليس فى العلم إذن ابتكار على الإطلاق ، فالابتكار العلمى فى الحقيقة إنما هو حياكة الخيوط المتفرقة فى نسيج واحد ، وليس ثمت ابتكارات مخلوقة من العدم » .

الدكتور مصطفى خالد
والدكتور عمر فروخ
من كتاب التبشير والاستعمار
فى البلاد العربية



الرئيس جمال عبد الناصر

يُحيِّي أعضاء مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية ويقول :

إن الإسلام يُنادي بالحرية والإخاء والمساواة والمُثُل العُليا ، ولكن المؤامرات السياسية التي نعرفها كلنا تستطيع أن تفسد بين الأخ وأخيه فسيروا على بركة الله وليكن هذا المؤتمر هو البداية لجمع كلمة المسلمين على الخير والعمل من أجل الإسلام .

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في التحرير
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء التاسع - السنة الخامسة والثلاثون - ذو القعدة سنة ١٣٨٣ هـ - أبريل ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

١٢
٢٢٢٢٦
دوريات

مؤتمر علماء الإسلام

بقلم : أحمد حسن الزيات

انتهى منذ أسابيع المؤتمر الأول لرؤساء العرب ، ثم ابتدأ منذ أيام المؤتمر الأول لعلماء المسلمين .

وإذا كان مؤتمر الرؤساء قد نظر في شئون الوحـــدة السياسية على أرفع مستوى ، فإن مؤتمر العلماء سينظر في شئون الوحدة العقيدية على أبعد مدى . فالمؤتمران يكمل أحدهما الآخر . وكلاهما كان رجعاً قويا للثورة الكبرى التي انبجس نبعها من نيل عمرو ، ثم فاض في بردى خالد ، ثم طمى في دجلة سعد ، ثم حمت بخيرها ونورها سواحل الجزائر وجبال اليمن ، فأنعشت ما ذوى من الآمال ، وحركت ما سكن من العزائم ، ووصلت ما انقطع من الأسباب . ثم كانت كنفخة الصور انبعثت على صوتها المدوى حياة جديدة في الوطن العربي تبشر بالكيان المتحد والمستقبل الضخم كما يبشر الربيع المزهر بالثمر الطيب والريع المبارك . . وما كان للجسد أن يعيش بغير روح ، ولا للركب أن يسرى بغير نجم ، ولا للثورة أن تبلغ بغير دين . فإنها استطاعت أن تلين الحديد وتزرع الصخر وتقهر النيل وتصنع الصاروخ وتفشر المعرفة

وتبسط الرخاء، ولكنها لا تستطيع بغير الدين أن تضع التقوى فى القلوب الغلف، ولا أن تبعث الحياة فى الضمائر الميتة. لذلك رأت قيادتها أن المجتمع الثورى الجديد لا يصلح إلا بالدين، وأن الدين لا يتجدد إلا بالأزهر، وأن الأزهر متى استكمل أداة التعليم وساير حاجة العصر، نهض بالشرق نهضة أصيلة حرة تنشأ من قواه وتقوم على مزاياه وتتغلغل فى أصوله؛ لأن ثقافته المشتقة من مصدر الوحى وقانون الطبيعة متى اتصلت بتيار الفكر الحديث تفاعلت هى وهو فيكون من هذا التفاعل ما يريد به الله تجديد دينه وكفاية شرعه وإدامة ذكره..

رأت إذن أن تطور الأزهر وتصحح مفهومه وتوسع أفقه وتبعد مداه فسنت له القانون الجديد، وكان مما سن فيه إنشاء مجمع علمى للبحوث الإسلامية يمثل أمة محمد فى علمائها من كل بلد، ويقف من أدلائها موقف العلم فى كل سبيل، ويحرر الفكر الإسلامى من التقليد الأعمى والتسليم العاجز، ويطهر السنة المحمدية من الأحاديث المكذوبة والأقوال المشوبة، ويطور الشريعة فى حدود ما أنزل الله وبلغ الرسول، وينقى العقيدة من المذاهب الباطلة والبدع الضارة، وينشر الإسلام الصادق الصافى على الناس فى معرض واضح ومظهر جاذب ومنهج قويم. وفى ضوء هــذا المنهج الذى رسم له يحدونا الأمل فى أن يرى المجمع رأيه الفصل فى هذه الأمور الثلاثة التى أعوزتنا فشوه عوزها العقيدة وفرق الوحدة وعوق الدعوة، وهى توحيد العقيدة وتنقية الشريعة وفتح باب الاجتهاد.

فأما وحدة العقيدة والشريعة فلأن الأهواء السياسية والنوازع العصبية والمطامع الدنيوية قد عبثت بها حتى بلغت الفرق المتعارضة المتعادية اثنتين وسبعين فرقة كان بعضها يجادل بعضا بالأحاديث المفتعلة والأقاويل المتسفة، ثم اعتراها وهن الباطل فانقرضت قبل نهاية القرن السابع للهجرة فلم يبق منها إلا المذهب الظاهرى فى الأندلس وفى بعض بلاد المغرب. ثم انتهى الأمر بالمذاهب الفقهية المتعددة إلى المذهب السنى والمذهب الشيعى، فانحصر الخلاف المذهبى بينهما، واشتد الصراع والنزاع حولها. حتى بلغ من بعده وضراوته أن أفتى بعض الأحناف بأن الفتاة الشافعية ليست كفؤا للفتى الحنفى، وأفتى بعض الشيعة بأن الرجل السنى ليس عدلا للمرأة الشيعية !!. ثم ضاق الخلاف بينهم قليلا فقالوا: إن أتباع كل مذهب يجب أن يعتقدوا أن مذهبهم صحيح يحتمل البطلان، وأن مذهب غيرهم باطل يحتمل الصحة. ثم ظهرت بوادر الوفاق بين الفقهاء المعاصرين من أتباع المذهب السنى

قالوا إلى التوفيق بين المذاهب الأربعة وإلى التقريب بينها وبين المذاهب الشيعية . فإذا أعان المجمع على هذا الاتجاه انقطعت أسباب الخلاف وانسدت أبواب الفرقة .

* * *

وأما تنقية العقيدة والشريعة مما علق بهما من الأحاديث الموضوعة، والأخبار المصنوعة، والأساطير الموروثة ، والتقاليد الدخيلة ، والصوفية الزائفة ، فهي ضرورة من ضرورات الإصـــلاح ووجيبة من وجائب المجمع ؛ فإن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة ، وسرت إليه كل علة ، وتراءت فيه كل حالة . فكل امرئ واجد فيه ما يلائم استعداده ويمالئ هواه . حتى كان من أثر ذلك أن وقر في نفوس المسلمين المضللين أن الإسلام ليس من شأنه الدنيا ، وأن المسلم ليس من همه المادة ، وأن ما هم عليه من رنق العقيدة وظلام الفكر وخدر الشعور إنما هو روح الدين وطريق الجنة ورضا الله ، ثم لا يعجزهم أن يجدوا مصداقا لما يتوهمون في حديث زائف يسمعونه ، أو في كتاب ملفق يقرءونه .

* * *

وأما فتح باب الاجتهاد سواء أكان اجتهاداً في الدليل - وهو أضعف ما نرى ، أم اجتهاداً في الرأي وهو أفضل ما نريد . فهو الطريق القاصد إلى بلوغ الغاية التي يتوخاها المجمع من تطوير الفقه وتجديد الشريعة ومسايرة النهضة ؛ لأن رسالة الإسلام بحكم دوامها وطبيعة عمومها صالحة لكل مكان وزمان ، والأمكنة تختلف، والأزمنة تتغير ، والقضايا الاجتماعية والاقتصـادية تتولد . وليس من المعقول أن يتنبأ بحدوثها الفقهاء الأقدمون فيضعوا لها الأحكام الصائبة والحلول المناسبة . ومهما تتسع النقول والأحكام فإن مقتضيات الحضارة ومستحدثات العصر أوسع وأمرع .

* * *

أما بعد فإن أيسر السبل إلى الإصلاح وأدناها من النجاح أن ينظر مجمع البحوث الإسلامية في التراث الإسلامي المتفرق المشوش فيجمعه في ثلاثة مراجع : مرجع للتفسير تشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الرواية الصحيحة والعلم الثابت ، ويجمع بين ما صح من أقوال السلف وما صلح من آراء الخلف . ومرجع للحديث يدون به ما لا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ والاجتماع والأخلاق والفلسفة . ومرجع للفقه يشمل ما تواتر من الأحكام وصح من المذاهب وسلم من الآراء . ثم يوضع متنه مواد كالقانون ويشرح شرحا فنيـــاً يستوعب أصوله

ويستقصي فروعه في غير حشو ولا استطراد ولا غموض .

هذه المراجع الثلاثة ستكون مادة الدراسة ومرجع القضاء ومصدر الفتوى . ثم تجرد منها مختصرات تدرس في المدارس وتنشر في الجمهور وتترجم مع المطولات إلى أكثر لغات الشرق وأشهر لغات الغرب ، ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسـلام أو يريد أن يعرفه .

أما ما عدا ذلك فما كان صحيحاً بقي في المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ . وما كان زائفا صنع به ما صنع عثمان بكل مصحف غير مصحفه ، فإن الإبقاء على الزائف من الأحاديث والآراء لبس للحق بالباطل ، وطمس للنور بالظلام ، وتعمية الطريق على السالك !

إن مجمع البحوث إذا فعل ذلك وهو حرى أن يفعله طهر شريعة الله من سموم البدع ، ونقاها من شوائب الفرق والشيع ، وجعلها صالحة لأن يردها الناس صافية كقطرة المزن ، خالصة كفطرة الله ، ثم يصدروا عنها بالمجتمع المثالي الذي يسير على صراط الله بقيادة الحق ورعاية العلم ورقابة الضمير .

أحمد حسن الزيات

• • •

في ذمة الله الأستاذ العقاد

قضى الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه أن يسكن العقل المفكر ، ويقف القلب المحرك ، ويجف القلم السيال ، ويموت العقاد الإنسان ، بعد ستين سنة قضاها في سبيل الفكر العميق الصافي لا يفتر في نهار ولا ليل ، ولا يكل في صحة ولا مرض ، ولا يهن في رخاء ولا شدة . نزلت به صرعة الموت في الساعة الثانية من صباح يوم الخميس الثاني عشر من شهر مارس سنة ١٩٦٤ وقد ترك من ورائه عقولا كان يغاديها بالمعرفة ويراوحها بالحكمة . وشيعة كان يسددها بهديه ويوجهها بوحيه ، ولغة كان يحييها بدراسته ويجددها بكتابته ، ونهضة كان ينفخ فيها من روحه ويفيض عليها من عقله ، وأسرة من الكتب تجاوزت السبعين كانت ترجو المزيد من عمره لتنال المزيد من فضله ، وسمعة خالدة على وجه الدهر بالفهم الثاقب ، والاطلاع الواسع ، والعلم المحيط ، والعمل المثمر ، والإباء الأشم ، والحفاظ المر ، والخلق الصريح .

ومجلة الأزهر التي غذاها بأدبه ورواها بعلمه ست سنين كوامل إذ تنعيه لقرائها العرب والمسلمين في جميع بقاع الأرض لا تملك للفقيد الكريم إلا أن تسأل الله له أن يتغمده برحمته ، وأن ينزله منزلة العاملين المخلصين في نعيم جنته .

مجمع البحوث الإسلامية وأمل المسلمين فيه

بقلم : عبد الرحيم فوده

لكي يأخذ القراء صورة واضحة الملامح من مجمع البحوث الإسلامية ومجال نشاطه. وآمال المسلمين فيه يحسن بنا أن نعود بهم إلى الأساس الذي قام عليه، والظروف التي أوحت به والحاجة التي دعت إليه، فقد نصت المادة السابعة عشرة من قانون الأزهر الجديد على أن الأعضاء الحاليين في جماعة كبار العلماء يعتبرون مستوفين للشروط التي يجب أن تتوافر في عضو مجمع البحوث ومعنى هذا أن مجمع البحوث لم يقصد به هدم جماعة كبار العلماء، وإنما قصد به البناء عليها والتمكين لها. وتوسيع مجال نشاطها، وهو بالصورة الكبيرة التي رسمها قانون تطوير الأزهر، وبالإمكانيات التي تزوده بها الدولة وبالثقافات المتنوعة الواسعة التي تتوافر بين أعضائه يستطيع كما جاء في المذكرة الإيضاحية لمشروع قانون إنشائه أن يعمل على تجديد الثقافة الإسلامية، وتجريدها من الفضول والشوائب، وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة، وبيان الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا أضيف إلى ذلك أن القانون جعل من مهمة المجمع أن يتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامي من بحوث الأجانب ودراساتهم للانتفاع بما فيها من رأي صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرد، كما جعل من مهمته أن يقوم على رسم نظام بعوث الأزهر إلى العالم الإسلامي ومن العالم الإسلامي، وأن يعاون في توجيه الدراسات الإسلامية العليا لدرجتي التخصص والعالمية في جامعة الأزهر. أمكن القول بأن هذا المجمع ليس مجرد امتداد لجماعة كبار العلماء. وتجديد لنشاطها، فإن الفارق بعيد. والبون واسع بين ما كان لها من مجال ضيق ونشاط مقيد محدود، وما سيكون لهذا المجمع من مجالات واسعة. وثقافات متنوعة. ونشاط في متابعة مختلف المذاهب والاتجاهات

وعلاج ما جد . وما يجد . وما سيجد على المجتمع الإسلامى من قضايا ومشكلات .

ولا شك أن الجو الذى تكون فيه مجمع البحوث الإسلامية ، والبيئة التى سيزاول فيها نشاطه غير الجو والبيئة التى تكونت وعملت فيهما جماعة كبار العلماء ، وأن عمله - وقد تهيأ له الجو الصالح والبيئة الصالحة - سيكون استجابة طيبة طيعة لحاجة المسلمين فى كل بلد يعيش فيه مسلمون ، فقد تحررت مصر - الجمهورية العربية المتحدة - من النفوذ الأجنبى بفضل الثورة الحرة المباركة التى قاد معاركها الرئيس جمال عبد الناصر ، والتزمت فى سياستها الخارجية موقف الحياد الإيجابى بين المعسكرين الكبيرين اللذين يتطلعان إلى السيطرة ويتنازعان العالم ، ولا شك أن فى ذلك استجابة لبعض ما يفهم من قول الله فى كتابه الكريم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، كما أن فيه استجابة لنزعة الحرية والرغبة فى السلام عند جميع الشعوب التى تتطلع إلى الحرية وترغب فى السلام ، فإذا لوحظ مع هذا أن مصر - الجمهورية العربية - تمثل - بأزهرها الذى قام أكثر من ألف عام على حراسة اللغة وصيانة التراث الإسلامى - الكعبة الثقافية لجميع المسلمين ، وأنها منذ دان أهلها بالإسلام . ولأن لسانهم بلغة القرآن تبذل كل ما فى طاقتها من جهد فى المحافظة عليه ، والكفاح دونه والدعوة إليه والجهاد فى سبيله ، أمكن القول بأن الجو الذى نشأ فيه هذا المجمع هو أنسب الأجواء لخدمة أغراضه ولتحقيق الآمال التى يتطلع إليها المسلمون من ورائه ، بل إنه أنسب الأجواء للدراسات الإسلامية الحرة التى تجلو حقيقة الإسلام وتعرضه على سلامته واستقامته كما أنزله الله وقال فيه « ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، وكما قال فيه « وأن هـــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

على أن مصر - الجمهورية العربية - وهى تقوم بدورها التاريخى التقليدى فى خدمة الإسلام لا تشعر بأن لها منة على أحد من المسلمين ، بل تشعر أعمق الشعور بأن الله من عليها بهذا الدين الذى هداها إليه ، وشرفها به وجعلها معقلا من معاقله المنيعة ، ومنارة من منائره الرفيعة ، وذلك بعض ما يجب أن يشعر به كل مسلم فى كل بلد يعيش فيه ، لأنه بعض ما يفهم من قوله تعالى « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن

هداكم للإيمان إن كنتم صادقين » وقوله سبحانه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فالإسلام نعمة أتمها الله علينا يجب أن تقابل بما ينبغى لها من ذكر وشكر ، وشكرنا لله على هذه النعمة التامة والرحمة العامة يجب أن يكون الشعور به فوق ما نبذل من جهد ، بجهد ، وجهاد موصول .

ولا شك أن الحاجة إلى مجمع البحوث الإسلامية فى هذا العصر الذى نعيش فيه قد أصبحت شديدة ، فقد جدت على المجتمع العربى والإسلامى مشكلات كثيرة تحتاج إلى حلول حاسمة سريعة ، وهذه المشكلات من الأهمية بحيث يجب ألا يستقل فرد بإبداء الرأى فيها مهما يكن حظه من العلم والبصر بشئون الدين والحياة ، وقد كتبت فى هذا المعنى مقالا بجريدة الشعب منذ عدة سنوات وطلبت إنشاء هيئة علمية إسلامية ، وقلت فيما قلت : لقد ورثنا تراثا ضخما من الأفكار والآراء ، والنظريات يختلط فيه الفاسد بالصالح ، والسليم بالسقيم ، ويجد فيه أى خابط أو حاطب ما يرضى هواه ، ثم إن هذا التراث كان ـ ولا يزال ـ مصدر الرخاء العقلى للإنسانية جمعاء ، فواجبنا ألا نهمله ، وألا ندعه مشوبا بما يكدره ويعكره ، إن فوائد القروض مثلا لا تزال حتى الآن موضع القيل والقال ، هل تسمى ربا مهما تكن قليلة ..؟ وهل تستوى فى ذلك قروض الإنتاج وقروض الاستهلاك ، وإذا كانت ربا فهل تتيحه الضرورة الاجتماعية ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ..؟ وإذا كان ذلك كذلك فمن الذى يحدد معنى الضرورة الاجتماعية ..؟ هل هم علماء الدين وحدهم ..؟ أم لابد أن ينضم لهم علماء الاقتصاد والقائمون على شئون الأمر فى البلاد ..؟ وهل يمكن أن نشرع لنا نظاما اقتصاديا يخالف نظام الائتمان هذا .. الذى ابتدعه اليهود من قديم الزمان ...؟

والمذاهب السياسية والاقتصادية التى تفد إلينا من الخارج هل يمكن أن نفهمها ونهضمها وننتفع بما فى بعضها من اتجاهات إذا كانت تتفق مع شخصيتنا العربية وطابعنا الإسلامى ؟ أم نقنع بما لدينا من بضاعة فكرية ، ونستخلص منها مذهباً أوضح وأصرح ..؟ الطرق الصوفية .. كيف نعالج ما فيها من أوضاع فاسدة .. واتجاهات منحرفة ..؟ وهل يمكن أن نستغل ما فيها من طاقات روحية لخير العرب والمسلمين ..؟

مسائل الزواج والطلاق . وما إلى ذلك من مئات المسائل والمشاكل التى أصابت رأس

المجتمع الإسلامى بالدوار لكثرة ما اصطخب حولها من حوار . . كل هذه تحتاج إلى هيئة علمية كبرى تبحث وتدرس وترسم الحلول على ضوء ما لديها من ثقافات متنوعة ، أما أن ينفرد كل واحد بفتوى أو دعوى فذلك سر ما نعانيه من فوضى . .

هذا بعض ما عرضته من الأمثلة والقضايا التى يحتاج المسلمون إلى رأى حاسم فيها ، يطمئنون إليه ويعملون على هداه ، ويلتقون على الأخذ به . ولا شك أن المجمع بصورته التى رسمها القانون يعد تلبية لهذه الحاجة الماسة ، أما جماعة كبار العلماء فكانت بحكم قانون تكوينها ، وحكم الظروف التى تحيط بها وحكم الدائرة الضيقة التى كانت تعمل فيها أضعف من أن تحتمل الأعباء التى ألقيت على هذا المجمع ، ويكفى لتصور ذلك أن نذكر المادة التى حددت لها مجال عملها ، وهى المادة العاشرة بعد المائة من القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١ فقد جاء فيها أنه يجب على كل من حضراتهم (أعضاء الهيئة) أن يلقى فى كل أسبوع بالجامع الأزهر أو بالمعهد الموجود به ثلاثة دروس على الأقل فى العلم الخصيص هو به .

وأن يكون إلقاء الدرس فى وقت يتمكن فيه العدد الأكبر من العلماء من حضوره ، وله أن يلقى درسا عاليا آخر فى العلوم المنصوص عليها فى المادة الرابعة بعد المائة ، أما هذه العلوم فهى الفقه وأصول الفقه والحديث ومصطلح الحديث ، وتفسير القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية والتوحيد والمنطق والتاريخ والسيرة النبوية والأخلاق الدينية ، ولا شك أن هذا المجال أضيق من أن يسع حاجة المسلمين والمجتمع الذى يعيشون فيه ، وأن هذا العمل مع ما له من قيمة عظيمة ، ومع ما للقائمين به من مقام عظيم لايكاد يخرج عن كونه عملا فنيا معهديا أو جامعيا بالمعنى الذى يراد من أستاذ جامعى ، وسيرى القراء بالتأمل فى قانون إنشاء مجمع البحوث وقانون إنشاء هيئة كبار العلماء ، وهو لم يدخل عليه منذ صدوره إلا تعديل قليل ، مدى الفارق أو مدى التطور الذى انتقل بهذه الجماعة إلى مستوى الحاجة ومستوى المشكلات ، ومستوى القضايا الهامة والعامة التى يشعر بها المسلمون ، وإذا كان المجمع لم يكتمل تكوينه من حيث عدد أعضائه ومن حيث الكفايات التى يجب أن تكون فيه ، فإننا نرجو ، مخلصين ، أن يتم ذلك فى أقرب فرصة ممكنة حتى يكون مستواه العام متناسبا مع ما ينبغى لمكانة الأزهر ومكانة الإسلام ؟

عبد الرحيم فوده

الدّعوة إلى المؤتمر

أخذت الأمانة العامة للمجمع فى الإعداد لانعقاد هذا المؤتمر من زمن بعيد واشتركت معها فى هذا الإعداد وزارة التعليم العالى ومحافظة القاهرة .

وقد وجهت الأمانة الدعوة إلى ما يربى على الثمانين من رجال الفكر المعنيين بالثقافة الإسلامية وشئون المسلمين فى أربعين دولة آسيوية وإفريقية وأوربية لتشهد هذه الصفوة افتتاح الدورة الأولى لمؤتمر هذا المجمع الذى نرجو له النجاح ليحقق أمل المسلمين فيه .

وهذا بيان بأسماء المدعوين من دول العالم الإسلامى :

دول إفريقيا

١ ــ المملكة الليبية	١ ــ الشيخ منصور المحجوب	شيخ الجامعة السنوسية .
	٢ ــ » محمد صبحى	نائب سابق .
	٣ ــ » عبد الحميد الديبانى	شيخ الجامعة الإسلامية .
	٤ ــ » عبد الرحمن القلهود	عضو مجمع البحوث .
٢ ــ الجمهورية التونسية	٥ ــ مصطفى كمال التازى	
	٦ ــ السيد / الحبيب نويرة	الوزير المفوض بالقاهرة .
	٧ ــ الشيخ الفاضل بن عاشور	عضو المجمع .
٣ ــ الجمهورية الجزائرية	٨ ــ الحاج محمد توفيق المدنى	وزير الأوقاف .
	٩ ــ الشيخ نعيم النعيمى	مفتش الأوقاف .
	١٠ ــ » الجلالى فارس	
٤ ــ الجمهورية السودانية	١١ ــ » على عبد الرحمن	وزير الداخلية السابق وعضو المجمع
	١٢ ــ السيد / محجوب عثمان إسحاق	قاضى القضاة سابقاً .
	١٣ ــ » حسن مدثر الحجار	قاضى القضاة سابقا .

تابع دول إفريقيا :

٥ — الصومال	١٤ - السيد/ إبراهيم حاجى محمود	رئيس حزب نصر الله
٦ — نيجريا	١٥ - الحاج بشير أوجستو	سكرتير عام عموم مسلمى نيجريا
	١٦ - « أبو بكر جوجى	كبير قضاة نيجيريا
٧ — موريتانيا	١٧ - السيد/ محمد سالم عبد الودود	أستاذ بالمعهد الإسلامى بتلميد
٨ — السنغال	١٨ - الحاج إبراهيم نياس	زعيم مسلمى غرب إفريقيا
	١٩ - السيد/ عبد العزيز سى	
	٢٠ - السيد/ محمد المصطفى	
٩ — مالى	٢١ - السيد/ أحمدو هامباتى با	سفير
	٢٢ - السيد/ عبد الوهاب بكورى	القائم بأعمال سفارة مالى فى جدة
١٠ — غينيا	٢٣ - الحاج شريف بنائيو	سفير غينيا فى جدة
	٢٤ - السيد/ بايشو نو عبد الرحمن	حاكم منطقة لابى
	٢٥ - السيد/ باكابا	أستاذ لغة عربية
١١ — سيراليون	٢٦ - الحاج سورى إبراهيم كانو	رئيس جمعية الأخوة الإسلامية
	٢٧ - السيد/ إدريس العلوى	مرافق
١٢ — توجو	٢٨ - الحاجى محمد شعبان كرى كرى	
	٢٩ - السيد/ قاسم مناء	مرافق
١٣ — أوغندا	٣٠ - الأمير بدر	زعيم المسلمين
	٣١ - الحاج موسى كاسولى	من زعماء المسلمين ووكيل الأمير بدر
	٣٢ - السيد/ أبو بكر ماينجا	وزير معارف أوغندا
	٣٣ - الشيخ كعب نامبو	شيخ مسلمى أوغندا السقيين

تابع دول إفريقيا :

١٤ — كينيا	٣٤- السيد/ عيد فرج النجومى	من أنصار التوحيد الإسلامى
	٣٥- « علوى قاسم علوى	« « « «
	٣٦- « أبو بكر محمد	« « « «
١٥ — جنوب إفريقيا	٣٧- السيد/ عمر خبير	

دول آسيا

١٦ — الجمهورية العراقية	٣٨- الشيخ أمجد الزهاوى	قاضى القضاة سابقا
١٧ — الجمهورية اليمنية	٣٩- السيد/ قاسم غالب	رئيس دائرة أوقاف تعز
١٨ — الكويت	٤٠- الشيخ خالد أحمد الجسار	مستشار بمحكمة الاستئناف العليا
	٤١- الأستاذ عبد الله العيسى	قاضى بمحكمة الكويت
١٩ — عمان	٤٢- الأمير غالب بن على	حاكم عمان
	٤٣- السيد/ سليمان بن حمير النبهانى	مرافق
٢٠ — المملكة العربية السعودية	٤٤- الشيخ عبد العزيز عبد الله ابن حسن آل الشيخ	وزير المعارف
	٤٥- الشيخ محمد الحركان	قاضى المحكمة الكبرى فى جدة
٢١ — الأردن	٤٦- « عبد الله غوشة	رئيس الهيئة العلمية بالقدس
	٤٧- « عبد الحميد السايح	« محكمة الاستئناف الشرعية بالقدس
	٤٨- « فهمى هاشم	مقيم بالقاهرة
٢٢ — لبنان	٤٩- « نديم الجسر	عميد كلية الحقوق وعضو المجمع
	٥٠- السيد/ وفيق القصار	مفتى طرابلس وعضو المجمع

تابع دول آسيا :

٢٣ ــ قطاع غزة	٥١ـ الشيخ محمد ناجي سعيد أبو شعبان	رئيس المحكمة الشرعية العليا
	٥٢ـ الشيخ محمد حسن عواد	عضو المحكمة الشرعية العليا
٢٤ ــ البحرين	٥٣ـ الشيخ عبد اللطيف محمد سعد	قاضي القضاة
	٥٤ـ « محمـد الشيخ عبد اللطيف آل سعد	(نجله)
٢٥ ــ أفغانستان	٥٥ـ السيد/ محمد شاه أرشاد	رئيس دائرة التبليغات بوزارة المطبوعات
	٥٦ـ « عبد الغفور بهير	
٢٦ ــ باكستان	٥٧ـ مولانا مفتي محمود	عضو اللجنة الوطنية عن منطقة الحدود الغربية
	٥٨ـ « غلام غوس	عضو اللجنة الإقليمية بغرب الباكستان
	٥٩ـ « تاج الإسلام	بكلية براهمان بادى بشرق الباكستان
	٦٠ـ « محمد يوسف بوري	مدير المدرسة الإسلامية العربية بكراتشي
٢٧ ــ الهند	٦١ـ « فخر الدين أحمد	رئيس جمعية علماء الهند
	٦٢ـ « منة الله الرحماني	قاضي الشريعة الإسلامية بولاية بهار

تابع دول آسيا :

	٦٣ ـ الشيخ فارس محمد طيب	عميد دار العلوم بالديوباند
٢٨ ـ أندونيسيا	٦٤ ـ السيد/ سيف الدين زهرى	وزير الشئون الدينية
	٦٥ ـ مرافق	
	٦٦ ـ الدكتور محمود يونس	
٢٩ ـ سيلان	٦٧ ـ السيد/ أبو بكر محمد عبد العزيز	زعيم طائفة المليح
	٦٨ ـ السيد/ زارق فريد	زعيم طائفة المورز
٣٠ ـ الفيليبين	٦٩ ـ السناتور أحمد ألنتو	رئيس جمعية مسلمى الفيليبين
٣١ ـ الملايزيا	٧٠ ـ السيد وان عبد القادر إسماعيل	رئيس قسم الشئون الدينية بمصلحة الاستعلامات
	٧١ ـ السيد تنكو أحمد تاج الدين	رئيس قسم الشئون الدينية بولاية قدح
٣٢ ـ اليابان	٧٢ ـ السيد/ عبد الكريم ساتيو	
	٧٣ ـ السيد/ طاهر تشوكى	
٣٣ ـ تركيا	٧٤ ـ السيد/ مصطفى رونيون	نائب سابق
	٧٥ ـ السيد/ على وصفى أناغان	محام بأنقرة

دول أوربا وغيرها

٣٤ — يوغوسلافيا	٧٦ - الحافظ الحاج عبد الحميد بدرى	مدير الرياسة الإسلامية بجمهورية مقدونيا
	٧٧ - السيد/ حسن سياجوزو	من العلماء
٣٥ — المجر	٧٨ - الدكتور عبد الكريم جرمانوس	عضو البرلمان المجرى
٣٦ - هولندا	٧٩ - الدكتور رضا مصطفى ملما	رئيس القسم الإسلامى فى معهد العلوم الاستوائية « امستردام »
٣٧ — انجلترا	٨٠ - الحاج أبو بكر سراج الدين	أستاذ سابق بجامعة القاهرة
٣٨ — روسيا	٨١ - الشيخ زين الدين بخانوف	مفتى المسلمين بطشقند بالاتحاد السوفيتى
٣٩ — اليونان	٨٢ - الشيخ سليمان كاسليوجلو	مفتى رودس
٤٠ — جزيرة موريشيس	٨٣ - السيد محمد عبد الرزاق	وزير الإسكان والشئون المحلية ورئيس الجالية الإسلامية

وقد لبى الأكثرون هذه الدعوة، واستقبلهم فى المطار مندوبون عن الأزهر ووزارة التعليم العالى، ثم عادوا بهم إلى الأماكن التى أعدت لراحتهم فى أفخم فنادق القاهرة « هيلتون ، وأطلس ، الكونتننتال ، عمر الخيام ».

فى الجامع الأزهر

وقد التقى هؤلاء أول لقاء فى الجامع الأزهر لأداء صلاة الجمعة وكان فى استقبالهم السادة وزير الأوقاف وشئون الأزهر ووكيل الأزهر ، والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، وعدد كبير من علماء الأزهر ، ثم ألقى خطيب المسجد الشيخ عبد الرحمن محمود خطبة الجمعة فكان مما قاله :

إن المصلحة فى جو التشريع الإسلامى لها اعتبار وأى اعتبار وهى لا تعنى انطلاق الهوى وتحكيم الغرض وتصادم الرغبات ولكنها تعتمد على جلب المنافع ودفع المضار .

قال : أبو حامد الغزالى فى كتابه المستصفى ، إن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم لكننا نعنى بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع ، ومقصود

الشرع من الخلق خمسة ، وهو أن يحفظ عليهم دينهم، وأنفسهم، وعقولهم، ونسلهم، ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ودفعها مضرة .

وهكذا تنساب فيوضات الرحمة من نصوص هذه الشريعة التي تميزت باليسر في أحكامها ونفى الحرج في تعاليمها سواء في ذلك العبادات أم المعاملات أم العقوبات « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » ، « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » ، « ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ، الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

أما الخطأ في فهم مقاصد الشريعة الذي أصاب بعض القائمين عليها وأساء إليها وكاد أن ينفر منها ... فمنشؤه ضيق الأفق والبعد عن الكتاب والسنة والإغراق في الفروع والاشتغال بالرجال عن الحق والضرب في المتاهات من غير دليل وقد أقر النبي معاذ ابن جبل على الاجتهاد في الرأي ، وسمعنا من بعض أئمة المذاهب تطبيقا لهذا التوجيه .

يقول الإمام مالك رضى الله عنه « كل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا صاحب هذا القبر الشريف » وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم . وقال : الإمام أبو حنيفة رضى الله عنه هذا أحسن ما وصلنا إليه فمن رأى خيرا منه فليتبعه ، وقال لتلميذه أبي يوسف وقد رآه يكتب عنه كل ما يقول : ويحك يا يعقوب أتكتب كل ما أقول ؟ إني قد أرى رأيا اليوم وأخالفه غدا وقد أرى الرأي غدا وأخالفه بعد غد ...

وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه : « إذا صح الحديث فهو مذهبي وقال أيضا : أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا جاء حديث رسول الله وخالفته » ، وقال أيضا ... مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كحاطب ليل يحمل حزمة من حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري » ، وقال : الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه « لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الثوري ولا الأوزاعي ولكن خذ من حيث أخذوا » نعم ... إن الإسلام دين الحرية في أعمق معانيها ... في التجرد الخالص لرب العالمين . وفي تمزيق الحجب عن وجه العقل حتى يفهم وظيفته والغاية التي وجد من أجلها .

جلسة افتتاح المؤتمر

كان حفل الافتتاح فى دار محافظة القاهرة بالصالة الكبرى للمحاضرات والاجتماعات ، وقد دعى إلى هذا الحفل عدد كبير ، من أساتذة الكليات فى جامعة الأزهر . وجامعة القاهرة وعين شمس . وكثير من أعضاء الجمعيات الدينية ، ومراسلى الصحف العربية والأجنبية وقد حضر نائب الرئيس السيد حسين الشافعى والدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر والسيد صلاح الدسوقى محافظ القاهرة والدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر والدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية ، وقد بدىء الحفل بآى من الذكر الحكيم من الشيخ محمود خليل الحصرى ، ثم ألقى السيد حسين الشافعى كلمة الافتتاح نائبا عن الرئيس جمال عبد الناصر وتبعه الدكتور محمد البهى ثم الدكتور محمد عبد الله ماضى . ثم قام فضيلة الشيخ ابراهيم نياس رئيس وفد السنغال فألقى كلمة من وفود أعضاء المؤتمر ، وتبعه الدكتور محمود حب الله فألقى كلمته . . ثم ختم الحفل كما بدىء بالقرآن الكريم . ومر السيد حسين الشافعى على الأعضاء فصافحهم واحداً واحداً ورحب بهم أجل ترحيب وفيما يلى كلمة السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة :

كلمة السيد حسين الشافعى
نائب رئيس الجمهورية

السلام عليكم ورحمة الله

بسم الله الرحمن الرحيم — والحمد لله رب العالمين — والصلاة والسلام على سيد المرسلين

السادة : أعضاء مجمع البحوث الإسلامية وضيوف الجمهورية العربية المتحدة فى اجتماع هذا المجمع لأول مرة على هيئة مؤتمر فى ظل التنظيم الجديد للأزهر الشريف ... أرحب بكم باسم السيد الرئيس جمال عبد الناصر .

أيها السادة :

لقد كان الاستعمار ، وما زال يتربص بالعالم الإسلامى ويعمل على تفتيت قواه ، حتى يكون هدفا سهلا للتحكم فيه والسيطرة عليه والقضاء على مصادر قوته ، وحتى لا تكون هناك عقبة فى طريق استغلاله واستعماره ... واستعان فى ذلك بالأنصار والأعوان ليمهدوا له السبيل وليعبدوا له الطريق . وكان لا بد من أن تتولد إرادة التغيير والثورة عليهما تنفيذاً



الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية يلقى كلمته
وعلى المنصة الرئيسية يرى السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية
وحوله كبار المسئولين بالأزهر وممثل الوفود الإسلامية

لسنة الله « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ...

وهنا فى الجمهورية العربية المتحدة ، تجلت إرادة الله وقدرته فأعانت ونصرت إرادة الثورة ، إرادة التغيير ... وقد تناولت هذه الإرادة ... كل مرافق الحياة .

فقضى على الاستعمار تحريراً للوطن . وقضى على الإقطاع وسيطرة رأس المال تحريراً للوطن والمواطن ، وأقيمت العدالة الاجتماعية بإذابة الفوارق بين الطبقات ... وأقيم الجيش الوطنى القوى ، ليحمى الوطن والمواطن ... ويدافع ضد أى تدخل لعرقلة تنفيذ إرادة التغيير ... وأصبح الأمر مهيئاً لقيـــام الديمقراطية السليمة التى يصادف اجتماعكم بشائرها فى قيام أول مجلس أمة اشتراكى ...

أيها السادة :

إن الثورة ، إيماناً منها بالأزهر وقيمته ، وبالدور الذى قام به فى ماضيه ... والذى يمكن أن يقوم به كذلك ، فى مجتمعنا الحاضر سواء فى الجمهورية العربية المتحدة أو فى الوطن العربى والعالم الإسلامى الكبير ... أقدمت جادة على تطوير الأزهر وتمكينه من أن يؤدى رسالة الإسلام فكراً ، وبحثاً ، وعلماً ، وعملا ، ليشمل كل نواحى الحياة .

وكان من بين الهيئات التى نظمها ، قانون تطوير الأزهر ، مجمع البحوث الإسلامية ، فوضع نظامه : « بحيث يكون هو الهيئة العليا للبحوث ، وليقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب ، وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالص ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما جعل من مهمة المجمع أن يتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى ، وبحوث لأجانب ودراستهم للانتفاع بما بها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح أو الرد ويعاون فى توجيه الدراسات الإسلامية العليا لدرجتى التخصص والعالمية فى جامعة الأزهر والإشراف عليها والمشاركة فى امتحاناتها ، وجعلت شروط العضوية فى هذا المجمع بحيث يضم أصلح العناصر لأداء مهمته » .

وأنتم أول رعيل بين أعضائه بعد تنظيمه الجديد ، ومهمته ملقاة على عاتقكم أنتم العلماء فى جمهوريتنا العربية المتحدة أو فى الوطن العربى والعالم الإسلامى .

إن الإسلام يواجه تحديات قوية وصريحة فى مجتمعنا اليوم ، تحديات تريد أن تنال منه وتقضى عليه ولولا وعد من الله جل شأنه فيما قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » لكان

لوضع الإسلام شأن غير شأنه اليوم ، ولكن تحقيق وعد الله جل شأنه مرهون بالإيمان بالكتاب والعمل على حفظه من المؤمنين به .

وهنا دور العلماء فى حفظ الإسلام وكتاب الله دور خطير ، إذ ينتظر منهم المسلمون أن يكشفوا حقائق الإسلام وتعاليمه وأن يعرضوها للناس واضحة جلية خالية من الشوائب والتعصب ، وأن يكون عرضهم إياها ترجمة لإيمانهم ، وأن يكون حملهم لهذه القيم انفعالا بأنها طاقات يجب أن تبدد ظلام الخوف والفقر والجهل فى كل مجتمع يؤمن بها .

إن التحديات التى يواجهها الإسلام اليوم ليست تحديات من الخارج فحسب وإنما هى تحديات من الداخل كذلك .. تحديات الإلحاد والانحراف فى الفهم أو الانحراف فى السلوك .

والاستعمار لم يتحد كتاب الله وقيمه ومبادئه يشوه جانبا منها وينكر جانبا آخر ، ويدفع على السخرية ببعضها وينال باسم العلم بعضا آخر فحسب - وإنما تحدى كذلك وحدة المسلمين ففرق بينهم وجعلهم شعوبا وطوائف وجماعات ، وجعل مذاهبهم أديانا ، ولغاتهم حواجز ، وأرضهم فواصل وأجناسهم حدوداً تحول بين اتصال الأبدان والتقاء القلوب والنفوس . تحدى الاستعمار إيمان المسلمين وفهم المسلمين لكتاب الله فجعل أفهامهم أنواعا مختلفة من الإسلام فأصبح لكل بلد إسلام ، « إن الدين عند الله الإسلام » منذ أن أوحى بالرسالة وأرسل الرسل ، فدين الله واحد وكتابه واحد وقرآنه بلسان عربى مبين .

ومع ذلك فقد نال الاستعمار من وحدة الأمة الإسلامية كما نال من تعاليم الإسلام ومبادئه .

ولكى يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس يجب أن تزول الفواصل والحدود ويجب أن يرجع المسلمون إلى كتاب الله وإلى لغته .

وكما ذكرنا أنتم أعضاء مجمع البحوث البحوث الإسلامية عليكم تبعة هذه المهمة وأداء رسالتها .

والله موفقكم ولن يتركم أعمالكم .

والسلام عليكم ورحمة الله ...

صبحى الشافعى

كلمة الدكتور محمد البهى

وزير الأوقاف وشئون الأزهر

السادة رئيس وأعضاء المجمع

السادة ضيوف المجمع

نحييكم فى هذا المكان ، فى عاصمة الجمهورية العربية المتحدة .

ونحييكم أيضاً بمناسبة انعقاد أول مؤتمر لمجمع البحوث الإسلامية بعد صدور القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر .

ولا يفوتنى قبل بدء الحديث أن أرجوكم فى مشاركتنا فى الدعاء للمغفور له الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت . فهو يستحق منا فى هذا الاجتماع أن نذكره بكل خير لما بذله من مجهود فى سبيل إعادة تنظيم الهيئة التى توكل إليها العناية بالبحوث الإسلامية ، وبإصدار الرأى فى ما يهم المسلمين فى مشاكلهم مستمدة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وآراء الفقهاء الناضجين والمخلصين فى إيمانهم وفى تفقههم ، سند الرأى وحجة الفتوى ،

وهذه الهيئة هى التى تجتمع اليوم فى صورة مؤتمر لمجمع البحوث الإسلامية .

أيها السادة :

إن الجمهورية العربية المتحدة عندما أعادت النظر فى تنظيم الأزهر وهيئاته ، وأصدرت القانون المعروف رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الذى تشكلت على أثره هذه الهيئات :

جامعة الأزهر .

مجمع البحوث الإسلامية .

الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية .

المجلس الأعلى للأزهر وأمانته العامة .

استهدفت بعث الحياة والحركة من جديد فى نشاط الدعوة والدراسات الإسلامية والعربية ، كما استهدفت استئناف البناء فى أمجاد المسلمين بعد إحياء تراثهم الدينى والعلمى والإنسانى ، وتصفية ما علق بهذا التراث من شوائب نتيجة لضعف أصاب المسلمين فى وحدتهم وترابطهم كما أصابهم فى تخريجهم وتفقههم وفى نظرتهم للحياة .

هذا القانون لم يقصد أن يخرج الأزهر عن رسالته ، وعن تاريخ هذه الرسالة فى العلم والمعرفة والفقه والدعوة . وإنما قصد تأدية لهذه الرسالة تأدية قوية ، بحيث يصل شعاعها النافذ إلى حياة الملايين من المسلمين فى ترابطهم وتوادهم ، وفى وعيهم للقيم الإسلامية وتطبيقهم إياها فى حياتهم الخاصة والعامة .

لم يقصد هذا القانون بهذا التنظيم الجديد أن يجعل الأزهر حاكياً لهيئة تعليمية أو علمية فى الداخل أو الخارج بل قصد أن يعيد ما كان عليه المسلمون أيام مجدهم وعزهم ، وأيام أن كانوا أصحاب التفوق فى ملكات العلم المختلفة سواء فى علوم القرآن والحديث أو علوم اللغة العربية أو العلوم العقلية والإنسانية أو العلوم الطبيعية أو الرياضية . قصد أن يعيد للعرب والمسلمين عهد الإمامة الفكرية والريادة العلمية على نحو لا يقل عما عرف للمسلمين فى صلاتهم بغيرهم من حيث تزويد هؤلاء بالفكر الحر الرائد ومنهج البحث المستقيم .

ولم يكن غريباً فى حياة الأزهر العلمية أن كان له عهد من عهود الريادة فى البحث والدراسة فى هذه الجوانب كلها ، وإن كان من علمائه من نبغ وتفوق فى ضروب المعرفة الأخرى كما تفوق أقران لهم فى علوم القرآن والحديث أو علوم اللغة العربية .

وكان أهم ما عنى به هذا القانون إعادة تكوين الهيئة التى يناط بها البحث والتوفر على الدراسة العميقة الأصيلة ، لتزويد المسلمين بالرأى فيما يعرض لهم من مشاكل ، وفيما تدفع إليه ظروف الحياة من ضرورات تحتم عليهم الوقوف على ما ينصح به إسلامهم وتطمئن به نفوسهم وتتزود به طاقاتهم فى الحياة نحو العمل المثمر ونحو المحافظة على الكرامة والسيادة .

وإذا قضى هذا القانون فى تكوين مجمع البحوث الإسلامية بأن يضم إلى العلماء الباحثين المتخرجين فى الأزهر علماء باحثين متخرجين فى جامعات الجمهورية ومعاهدها العليا وعلماء وباحثين آخرين عرفوا فى العالم العربى والإسلامى بسعة الأفق وعمق التفكير وأصالة الرأى - فإنه لم يقصد بذلك رغبة فحسب فى ضم عناصر من أصحاب الثقافات المختلفة والاتجاهات المتنوعة فى المعرفة ، بل مع ذلك رغبة فى إحياء سنة السلف وتمهيداً لبعث ما كان عليه وضع العلماء المسلمين والفقهاء المستنيرين من إجماع فى الرأى فى قضية من القضايا أو مشكلة من المشاكل .

وإذا لم يشهد مؤتمرنا اليوم مجموعة أخرى من العلماء الذين يمثلون البلاد الإسلاميه غير العربية كأعضاء فيه ـ فإن المؤتمر القادم سيشهد بإذن الله ، بعد أن تتخذ الإجراءات طريقها إلى التنفيذ .

إن مؤتمر مجمع البحوث الإسلاميه فى دورته الحاضرة سيواجه كثيراً من المشاكل والقضايا والأحداث والتطورات ، جدت أو ترسبت فى حياة المجتمعات الإسلامية ، منذ أن وقف الفقهاء عن التفقه واكتفوا بالتبعية لمذهب من المذاهب الفقهية السائدة أو بالسلوك مسلك التلفيق بين جملة من الآراء منها . سيواجه هذه المشاكل والقضايا مطلوبا منه أن يتناولها بالبحث والدراسة . ويستخلص من ذلك الرأى الإسلامى الواضح ، حتى يعود الاتصال من جديد بين حياة المسلمين فى سيرها العملى ومبادئ الإسلام فى رعايتها لتوجيه الإنسان وجهة سليمه ، تحفظ عليه حياته وتقيه من عوامل الضعف ، وتدفعه إلى اجتياز العقبات وتحميه من البطالة ، وتحضه على العمل والإنتاج .

وهذه القضايا والمشاكل التى تواجه مؤتمر المجمع فى دورته القائمة تشكل مهمة ، شاقة ، وخطيرة فى الوقت نفسه ، شاقة فى تناولها بالدراسة والبحث ، فى تأصيل حلولها والرأى فيها ، لأن الفجوة الزمنية بين ركود الفكر الإسلامى وفى تفقهه وبين وقتنا الحاضر طال مداها ، ومن أجل طول هذا المدى استقر فى الأذهان أنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وخطيرة لأن الرأى الذى سيتكون ويعبر عما يهدف اليه الإسلام سيكون أثره واسع المدى وعميقا فى النفوس ، فالمسلمون فى حاضرهم كثرة فى العدد لا يستهان بها ، وفى الوقت نفسه بقدر إرغامهم على البعد عن الإسلام عن طريق التشكيك فى قيم هذا الدين بالوسائل المختلفة والاتجاهات الفكرية المتنوعة يتوقون إلى العمل به وتطبيقه فى حياتهم .

وثورة الجزائر فى قيامها ونجاحها آية واضحة على هذه الظاهرة التى ذكرناها . فقد حاول الاستعمار فى الجزائر ـ على وجه خاص ـ كما حاول فى أى أرض إسلامية أخرى على وجه عام أن يبعد عرب الجزائر عن هذا الدين وأن يقوض من وراء ظهورهم هذا السند التاريخى الإيمانى القوى ، وافتن فى الإبعاد فنونا عديدة وسلك لهذه الغاية طرقاً مختلفة طوال المائه والثلاثين عاماً التى قضاها فيها : ومع ذلك فثورة الجزائر قامت تنفيساً للإيمان بالإسلام والعروبة واستمر عمادها فى الكفاح ، الاعتقاد بالجهاد فى سبيل الله وعندما نجحت

واستقر الأمن كان أول مبدأ عبر عنه دستور الجزائر هو أن الاسلام الدين الرسمي للدولة ، وأن اللغة العربية - وهي لغة القرآن الكريم - اللغة الرسمية للدولة .

ولكن تشكيل مجمع البحوث الإسلامية على هذا النحو وفي اختيار أعضائه من القادة والرواد في الفكر الإسلامي ومن أصحاب اليقظة والوعي لظروف الحياة المعاصرة وأحداثها ومشاكلها - يزيد الأمل في التغلب على ما يصادف البحث والدراسة من مشقة وفي تطمين المسلمين على أمر دينهم وتبصيرهم بقيمته في الحياة الانسانية وأنه وإن كان قد ولد في الصحراء فهو للإنسان وللصفات الإنسانية الفاضلة في أي مكان وفي أي عصر : عصر الإبل وعصر الآلة على السواء .

ويقيني أنه لو لم تقم هناك ثورة في الجمهورية العربية المتحدة ولو لم تكن هذه الثورة ثورة صادقة لخلق مجتمع له تاريخ وماض في الكفاح وفي حمل رسالة القيم وفي الحفاظ على القرآن لغة ودينا وإيمانا ، ولو لم يكن جمال عبد الناصر هو رائد هذه الثورة ومخططها لما برز هـــذا المجمع في صورته الحاضرة إلى الوجود ولما توفرت له إمكانيات تعاونه على العمل في سبيل خير الأمة العربية والإسلامية وفي سبيل الله .

إن العصر الذي فجر أنفاق السد العالي في الصخور ، والذي طوع الصحراء ورمالها في خدمة الإنسان بعد أن كانت ضده ، والذي نزع الاستعمار إلى غير رجعة من شريان الحياة في جسم الأمة العربية والاسلامية كلها وهو شريان قنال السويس ليضيف مفخرة إلى تلك المفاخر ، وهي لا تقل شأنا وأثرا عنه ، مفخرة إعادة تنظيم الأزهر ووصل العاملين فيه بالحياة وإعداده ليؤدي دوره في قيادة الأمة العربية والإسلامية .

وإنكم أيها السادة ستشهدون هذه المفاخر في إقامتكم بالقاهرة كما ستشاركون في تحقيق مفخرة هذا التطوير بالإقدام على حـــل المشاكل والقضايا التي ستواجهكم وهي قضايا المسلمين عامة وسيكون لصوتكم ولرأيكم الذي تجمعون عليه الأثر النافذ في حياة الملايين التي ترقب مؤتمركم اليوم وتتجه نحو القاهرة ونحو الأزهر فيها كما هو العهد بها كما تتجه بعد قليل من الأيام نحو مكة أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين .

وفقكم الله وسدد خطاكم ووفق قادة الشعوب والأمم الإسلامية والعربية إلى ما فيه الخير وأيد قائدنا وزعيمنا جمال عبد الناصر بنصره دوماً .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

دكتور محمد البهي

كلمة الدكتور محمد عبد الله ماضى
وكيل الأزهر

الحمد لله الذى جمعنا على حق التوحيد له، وهدانا إلى شرف الإيمان به والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد، الذى أرسله الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وبعـــد:

فعلى اسم الله تعالى وبركته، نفتتح المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية.

وباسم الأزهر أحييكم، وأرحب بكم وأدعو الله سبحانه أن يبارك جهودكم ويوفق مؤتمركم، ويقود خطاكم على طريق الخير والسداد:

وإن الأزهر الذى حمل رسالة الإسلام ألف عام ويزيد، واضطلع بنشر الثقافة الإسلامية فى شتى أنحاء العالم ... ليعتز اليوم بكم وأنتم تلتقون فى رحابه، فيكتمل بكم عقد هذا المؤتمر الإسلامى العظيم.

أيها السادة:

لقد كان الأزهر دائما لكم جميعا، وبكم جميعا، فقد اتخذ منذ إنشائه فى القرن الرابع الهجرى طابعا إسلاميا عاما.

لم يكن - رغم ما أريد به عند قيامه - لطائفة من الطوائف أو لمذهب من المذاهب وإنما كان - كما أراده الله - معهداً للفقه الإسلامى، وللعلوم الدينية بمختلف فروعها وفنونها.

كذلك لم يكن الأزهر لمصر وحدها، وإنما كان لأبناء العالم الإسلامى جميعا، يفدون إليه من شتى الديار والأقطار، فيتزودون من علومه ومعارفه ويتفقهون فى أمور دينهم، ثم يعودون إلى أوطانهم لينشروا الوعى الدينى بين أهليهم. فيتحقق فيهم وبهم داعى الحق، حيث يقول جل شأنه: « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ».

ولم تقف علاقة الأزهر بطلابه الوافدين إليه من بلدان العالم الإسلامى عند مجرد تلقين العلم، أو منح الشهادة، ثم تتفرق به وبهم سبل الحياة، وإنما تجاوزت العلاقة هذا الحد إلى تنمية الروابط والصلات بين الأزهر وسائر الشعوب الإسلامية بواسطة هؤلاء

الحريصين الذين كانوا يرجعون إلى أقوامهم وقد ارتبطوا بالأزهر عن طريق الروح والإيمان بعد أن تزودوا من معارفه وحملوا معهم المشاعل التي تحدد لهم معالم الطريق ، فعادوا إلى أوطانهم ومعهم نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ،.

ولم يقصر الأزهر في تزويد الوافدين إليه بمختلف الثقافات والعلوم ، فإلى جانب دراسة الدين الإسلامي واللغة العربية بسائر فروعهما كانت تدرس بالأزهر علوم الحياة جميعها ، وبخاصة حين وفد إليه كثير من العلماء بعد أن عفت معاهد بغداد وقرطبة ، فغدا الأزهر مركز الدراسات الإسلامية العامة والمسئول عن حياطة الدين واللغة .

ومن هنا كانت مسئولية الأزهر أمام كافة المسلمين الذين أحاطوه بعواطفهم وأولوه ثقتهم ، واستودعوه آمالهم . باعتباره المنارة التي تتعلق بها أبصارهم ، ومركز الإشعاع الروحي والثقافي لهم .

ومن هنا أيضا كان حرص الأزهر على النهوض برسالته خلال هذه القرون العشرة . رغم ما استهدف له في بعض الأحايين من عسف وعنت واضطهاد .

وإذا كان الأزهر قد انتابه في فترات من تاريخه بعض ما أصاب الحركة الفكرية كلها من التدهور والضعف - خلال محنة الاحتلال لمصر - فإنه استطاع أن يكون ملاذاً أخيراً للتراث الإسلامي ، ومعقلا حصينا للغة العربية - لغة القرآن - يدرأ عنها عادية التدهور الخطير ، ويمكنها من مغالبة لغة الفاتحين ... وتمكن الأزهر مع ذلك من أن يبقى بابه مفتوحا لطلاب العلوم الإسلامية والعربية ، حتى إنزاح كابوس الاحتلال ، ودبت الحياة في الحركة الفكرية من جديد ، فعاد الأزهر يمارس نشاطه وفاعليته في هذا المجال ، ويحمل إلى الناس رسالة العلم والإيمان .

على أن الأزهر لم يكتف بما أحدثه من تأثير في حياتنا الروحية والثقافية ، وإنما كان له في تاريخ نضال شعبنا صفحات مشرقة ومواقف مشهودة .

فقد نهض الأزهر بدوره الكبير في إذكاء الحماسة الوطنية وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، وقام علماؤه متأثرين بمبادىء الإسلام بالدفاع عن مصالح الشعب وتوجيه الناس إلى المحافظة على حقوقهم والتضحية في سبيل حرياتهم وكرامتهم .

وظل الأزهر طوال عصر الاحتلال قلعة الكفاح الشعبي ، وحصنا للجهاد الوطني . . رغم ما استهدف له من ألوان العنت والاضطهاد .

أيها الأخوة :

وكان لابد للأزهر بعد هذه المرحلة الطويلة من الكفاح الشاق ، والجهاد الطويل ، وبعد أحقاب اضطر خلالها إلى التزام الموقف الدفاعى ذودا عن الدين ، وحفاظا على العقيدة كان لا بد له من أن يحظى بقسط من الرعاية يعينه على الحركة المتجددة التى تلائم بينه وبين عصره وتمكنه من أداء رسالته على أكمل وجه ، مع احتفاظه بخصائصه التى تساعد على قيامه بمهمته فى حياطة الدين ، ودعم الثقافة الإسلامية .

وتتمثل هذه الرعاية المنشودة فى القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الخاص بإعادة تنظيم الأزهر ، والذى جاء نفحة كريمة من نفحات الثورة المؤمنة للأزهر باعتباره « الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ، ودراسته ، وتجليته ، ونشره ، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر ، وكفالة الأمن والطمأنينة للناس فى الدنيا والآخرة » .

وإن اجتماعكم - أيها السادة علماء المسلمين وقادة الرأى الفقهى الإسلامى - فى هذا المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية نتيجة من النتائج الطيبة التى تتحقق إن شاء الله بقانون تطوير الأزهر .

فمجمع البحوث الإسلامية هيئة من الهيئات التى استحدثها ذلك القانون للعمل على تجلية الثقافة الإسلامية فى جوهرها الأصيل ، وتوسيع نطاق العلم بها ، وبيان الرأى فى المشكلات المذهبية والاجتماعية التى تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد نص القانون على أن يضم المجمع علماء الإسلام من مختلف ديار المسلمين ليشاركوا فى أداء رسالته ، فيتمنى بهذه المشاركة العودة برسالة الإسلام إلى ماضيها الأصيل ، وتكون هذه المشاركة وسيلة إلى توحيد الرأى واتقاء شرور التفرقة ، كما تكون مظهراً لوحدة الإسلام والمسلمين « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » .

أيها الإخوة علماء المسلمين :

بارك الله مؤتمركم ، ورعى جهودكم ، وأجرى الخير على أيديكم ، وحقق لكم وبكم الآمال ، وجعل منكم كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

دكتور محمد عبد الله ماضى

كلمة الوفود لفضيلة شيخ الإسلام
الحاج ابراهيم نياس السنغالى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين . وبعد :

فخامة السيد نائب رئيس الجمهورية حسين الشافعى .

معالى الأستاذ الدكتور محمد البهى وزير الأوقاف وشئون الأزهر .

أيها السادة :

إنه لشرف عظيم لا يدانيه شرف أن أتيحت لى هذه الفرصة النادرة للتحدث باسم الوفود الإسلامية بمناسبة افتتاح المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، هذه الوفود التى ضمت نخبة ممتازة من العلماء الأعلام ومشايخ الإسلام ، ومن المفكرين من دعاة الحق الذين لهم سوابق فى هذا الميدان المقدس تحسم كل جدل فى إخلاصهم العمل لله ، وتجندهم لخدمة الدين الحنيف .

أيها السادة : إننا معشر الوفود المجتمعة هنا فى هـــذه القاعة نهتز ونفتخر بتلبية دعوة الأزهر الشريف إلى هذا المؤتمر العظيم حقا ، العظيم بأهدافه السامية ، والعظيم بأعضائه المجاهدين ، والعظيم بمكانه المناسب وزمانه الذى هيأته لنا الأقدار ، والعظيم برئاسته الواعية البصيرة : فالقاهرة أنسب مكان لهذا العمل الجليل ، وفيها الأزهر الخالد الذى يعتبر بحق قة الشريعة الإسلامية منذ أجيال ، والزمان كذلك أنسب زمان نظراً للأثر الطيب الملموس الذى تركه مؤتمر القمة العربى فى النفوس من المحيط إلى الخليج ، وصفاء الجو بين الإخوة العرب خطوة جبارة نباركها جميعا ، لأن أهمية العرب والعربية فى الدعوة الإسلامية لا يختلف عليها اثنان .

أيها السادة :

إن أنظار المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها متجهة إلينا بآمال عراض ، فلنستشعر المسئولية العظمى الملقاة على عواتقنا فعلماء الأمة المحمدية هم ورثة الأنبياء ، ومن

خير أمة أخرجت للناس ، وهـــذا الدين أحيط فى العصر الحاضر بأخطار جسيمة ، وبأعداء له واقفين له بالمرصاد ، لا يألونه خبالا ، ولا يألون جهدا فى الدس والخديعة والتضليل والإغواء ، بالإضافة إلى التركة الثقيلة البغيضة التى خلفها لنا الاستعمار الغربى الكافر ، فى مناهج للتربية سقيمة ، ومذاهب فى الحياة هدامة ، واستبعاد لشريعة الله ، واكتفاء بالقوانين الأجنبية فى معظم بلداننا إنها لمعركة تستوجب منا أن نجند كل الطاقات والإمكانيات ، والسلاح الأول الكفيل بالنصر والغلبة فى هذه المعركة إنما هو العود إلى إسلامنا نقيا صافيا ، مستقى من كتاب الله وحى السماء الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومستقى من سنة النبى الكريم « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » ، فهذا هو سلاح المؤمن الذى يغلب القنابل الذرية والصواريخ المدمرة .

أيها السادة :

فلنحي هذه الفرصة السعيدة التى سوف تقيح للعلماء والمفكرين من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب الاجتماع للبحث فى الدعوة الإسلامية وفى أحوال المسلمين من جديد ، فإن الله ليبعث فى كل قرن مجددين يجددون هذا الدين ، وليس على الله بعزيز أن نكون منهم ، فلنول هذا المؤتمر ما يستحقه من عناية جادة ، ولا ننس الطابع العلمى الذى يجب أن يسيطر على أعمالنا جملة وتفصيلا ، فإذا وصلنا إلى نتائج علمية سليمة بفضل الله رفعنا بها عقيرتنا وأبلغناها إلى كل بيت فى العالم غزته جاهلية ، أو لوثه مستشرق أو زلزله انحراف ، أو دمرته ماديات ، أو أشقاه جمود وضيق أفق خصوصا فى أوربا الحائرة وفى مجاهل إفريقيا المتطلعة إلى النور ، « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

هذا ـ ولا أنهى كلمتى حتى أعبر عن شكرنا العميق للأزهر الشريف ، ولوزيره المفكر الكبير على الجهود الجبارة التى بذلت والتى ستبذل فى سبيل رفع الإسلام ، ونشر تعاليمه فى سائر أنحاء العالم خصوصا فى عهد الرئيس المسلم الغيور جمال عبد الناصر ، وفقنا الله جميعا لما فيه الخير للإسلام والمسلمين ، وكتب لمؤتمرنا النجاح التام وجعله فاتحة عهد جديد فى عمر الدعوة الإسلامية يكون له ما بعده ، وما ذلك على الله بعزيز والسلام ؟

ابراهيم نياس السنغالى

كلمة الدكتور محمود حب الله
الأمين العام للمجمع

بسم الله الرحمن الرحيم ... وبفضل الله وعونه وتوفيقه . وفى رحاب الأزهر الشريف ، أزهر الإسلام والمسلمين ـ تلتقى اليوم صفوة مختارة من أعلام الإسلام والمسلمين فى الفكر ، والشريعة ، والقانون ـ لتشهد الدورة الأولى من أعمال مجمع البحوث الإسلامية ، وهو ولا ريب غرس ناشئ ، وبناء جديد لم يمض على نشأته حولان ، ولكنه قام ليعمل ، وليعيش ، ويقوى : تحيطه الجمهورية العربية المتحدة وتحيطونه أنتم والعالم الإسلامى بكل مقومات الحياة والقوة لأنه وليد الحاجة ، وحلم كل مسلم وأمل كل غيور .

فالمسلمون كما ترون وتشهدون فى حاجة إلى منبر أو بناء يرى العالم به ، وفى بحوثه الراشدة القويمة حقيقة الإسلام ، فى روحه ، وجوهره ، مبرأ من كل دخيل ، مستوعبا لقضايا الزمان ، وما يجد فيه من أحداث ، ومصححاً لمعايير الحياة فى شتى ألوانها الفكرية ، والعقدية ، والوجدانية لكل من الفرد ، والجماعة على السواء ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

واجتماعنا اليوم ـ وقد جشم الكثير منكم المشاق والصعاب ، وتحملتموها فى سبيل الله بما لديكم من قوة الإيمان ـ دليل واضح على صدق النية وعقد العزم على خطة جديدة ، يعمل المسلمون فيها متكاتفين ، ومتعاونين ، فى سبيل تحقيق غاية مشتركة ستكون لها إن شاء الله آثار بعيدة المدى فى حياة شعوبنا المجيدة .

نجتمع اليوم ـ أيها الأخوة ـ استجابة لدعوة الله ، وقياما بواجب دينى ، تفرضه علينا كذلك أحداث الحيـــاة ، والرغبة فى البقاء ، فى عزة ، وكرامة تليق بنا ، وبما نحمله ، وندعو إليه من رسالة سماوية خالدة ، تدعو أول ما تدعو إلى وحدة الخالق المعبود ، وإلى لزوم تكريم بنى الإنسان ، « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

بجتمع اليوم لنبحث معا عن الوسائل ، والسبل ، التي تساعد على أن تظهر كلمة الحق ، وتسود الفضيلة في المجتمع ، وينتشر الوعي الديني الرشيد ، وعلى أن يفسح المجال الثقافة الإسلامية الأصيلة فتصبح كتاباً مفتوحا يقرأه كل الناس في كل المستويات وفي مختلف البيئات .

والآن نقدم إليكم - أيها الأخوة - موجزاً عن المجمع ونشأته ، وعما نحن بصدده من أعمال :

أنشىء مجمع البحوث الإسلامية بقانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ : (ليكون الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ويقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية ، وتجريدها من الفضول والشوائب ، وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى ، وفي كل بيئة ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات ، مذهبية ، واجتماعية ، تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، كما يتتبع المجمع ما ينشر عن الإسلام ، والتراث الإسلامي من بحوث الأجانب ودراستها ، للانتفاع بما فيها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرد إلى ما هنالك من أغراض ومقاصد أخرى للمجمع) .

ولقد صدرت بعد ذلك قرارات جمهورية بتعيين سبعة وعشرين عضواً ، وبتحديد مكافآت الأعضاء ثم بتعديل بعض مواد القانون ، كما صدرت قرارات وزارية بتفريغ بعض أعضاء المجمع إلى أعماله .

ولقد شاء الله أن يختار إلى جواره عضوين من أعضاء المجمع قبل أن يلتقيا بنا في هذا الاجتماع : كان أولهما المغفور له الأستاذ ابراهيم مصطفى الذى أسهم بجهد مخلص في رعاية لغة القرآن بنوع خاص ثم مضى من بعده إلى جوار ربه الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق ونعلم جميعاً جهاده ، واجتهاده في فقه الإسلام ، رحمهما الله رحمة واسعة وأنزلهما منازل الصديقين والشهداء وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولقد أخذت الأمانة العامة للمجمع بجهدها المحدود المتواضع في الإعداد لهذا المؤتمر من زمن بعيد ، بجانب ما لديها من كثير من التبعات والأعمال وعرضت موضوعات علمية ، حيوية ، كنماذج يمكن أن يختار منها السادة الأعضاء مادة أولى للبحث والدرس إلى أن يقوم المجمع : بأروقته ، ومجلسه ، ولجانه ، فيحدد لنفسه ما يشاء من موضوعات وقد لاقت هذه الاقتراحات قبولا لدى السادة الأعضاء ، ووردت إلينا بحوث مستفيضة

فى بعض هذه الموضوعات ، وستعرض كلها على حضرات الأعضاء للبحث والدرس فى الأسبوعين الأخيرين من هذه الدورة للمؤتمر ، وسيلقى من هـذه البحوث فى الأسبوعين الأولين ما سمحت ظروف سكرتارية المؤتمر بترجمته ، وإعداده ، وتجهيزه نظراً إلى أن الكثير منه لم يصل إلى أيدينا إلا من أيام قلائل .

وقد وضع نظام المؤتمر على أساس أن يشترك السادة الأعضاء والمدعوون جميعاً مدة أسبوعين فى الجلسات ، والندوات ، والحفلات ، والزيارات ومشاهدة معالم النهضة الحديثة فى الجمهورية العربية المتحدة ، وبعد هذين الأسبوعين ينفرد أعضاء المجمع بالاستمرار فى مؤتمره أسبوعين آخرين ، يتحول فيهما المؤتمر إلى لجان للبحث والدراسة والاقتراح فى كل ما قدم إليه من موضوعات ، كما يرسم الخطة لمجلس المجمع الذى لا بد أن ينعقد - بحكم القانون - مرة على الأقل كل شهر ، وما إلى ذلك من أعمال أخرى يحددها القانون .

ومن ذلك ترون - أيها السادة أنه قد ألقى علينا - نحن أعضاء المجمع - عبء ثقيل ووكلت إلينا تبعة أمانة جليلة ، تتجه إلينا من أجلها أنظار المسلمين ، تنتظر القول الفصل فى كثير من المشكلات التى طرأت على حياة الناس ، وأصبحت كأنها جزء مقوم لهذه الحياة ، كما يرتبط بجهودنا اليوم مستقبل الأجيال المقبلة التى قد تجد نفسها مكبلة بأغلال المادية الجارفة ، والفردية الهدامة القاتلة .

وما دامت قد قويت منا الهمة ، وصدقت منا النية ، وعاهدنا الله فى صدق ، وإخلاص أن نحيا لله ، فالأمر ليس جد عسير ، وسيكون لنا ما نسعى إليه - إن شاء الله « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وسيتحقق للمسلمين بجهدكم المبارك ما يبغون من عز ، ومنعة ، فى الدين ، والدنيا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » والله ولى التوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؟

دكتور محمود حب الله

هـــذا وفيما يلى ننشر بعض البحوث المهمة التى ألقيت فى المؤتمر بترتيب الجلسات التى ألقيت فيها :

الجلسة الاولى

عوامل انتشار الإسلام

للسيد الأستاذ على عبد الرحمن

تحدث فضيلة الأستاذ على عبد الرحمن عن عوامل انتشار الإسلام وردها إلى عوامل ذاتية وعوامل خارجية . فالعوامل الذاتية ترجع إلى بساطة العقيدة الإسلامية وخلوها من الغموض والتعقيــد ومرونة التشريع الإسلامى وصلاحيته للتمشى مع تطورات الحياة، والدعوة الملحة للأخذ بمكارم الأخلاق والبعد عن سيئاتها والعوامل الخارجية ترجع إلى اختلاط المسلمين بغيرهم فى الحروب وغيرها ، ثم ذكر أن الحروب الإسلامية لم يكن يقصد بها إكراه الناس على الدخول فى الإسلام فإنه لا إكراه فى الدين ، وقد أفاض فى بسط الحديث عن هذا الموضوع ثم انتقل إلى واجب المسلمين الآن إزاء نشر الإسلام فقال :

واجب المسلمين الآن إزاء نشر الإسلام :

أشرنا فى الفصلين السابقين إلى العوامل



الذاتية التى أدت إلى انتشار الإسلام بسرعة وشمول ، والعوامل الخارجية التى ساعدت على نشر الإسلام ، ومهدت الطريق أمام زحفه ، حتى عم الآفاق .

ونريد فى هذا الفصل ، أن نشير إلى أن المجتمع الإسلامى بعد أن تمزقت الدولة

الإسلامية بعد العصر العباسى إلى دويلات متعددة، وممالك متفرقة، بدأ الاستعمار يزحف على الأقطار الإسلامية وينيخ عليها بكلكله، وبدأت روح المسلمين المعنوية تهبط، وتهبط، حتى أصبحوا أخيراً نهباً مقسما، وقطيعا مستسلما، تسوقه الدول الأوربية سوق الأنعـــام، ويتسلط المستعمرون على إمكانياته المادية والأدبية، فاستدار المسلمون، وولوا تعاليم الإسلام ظهورهم، وأرهبتهم قوة الغرب، واستهوتهم مدنيته فانجرفوا يسيرون، وفق تخطيط المستعمرين، وخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، واستمروا على هذه الحال قرونا عديدة، وهم يتخبطون فى هـذا الليل البهيم، حتى فقدوا الثقة بأنفسهم، فاعتقد الكثيرون منهم أن الإسلام هو سبب انحطاطهم، وأن المستعمرين وتعاليمهم، وتربيتهم، وتعليمهم، هو الطريق الوحيد لنهضتهم ورقيهم، إلى أن تكشفت لهم الهاوية التى ظلوا يقتربون منها، وأدركوا أن الاستعمار يسوقهم إليها بخيله ورجله، فبدأ المسلمون أخيراً يحسون ويتألمون ثم أخذوا يقولون، ويتمردون، ثم وقفوا يعملون لطرد المستعمرين، ويتجهون إلى ماضيهم المجيد، ويرجعون إلى كتابهم الرشـيد، فبدأت فى كل قطر نهضة، وفى كل أمة يقظة، ومع أن الإسلام من القوة بحيث لم تؤثر فيه عهود الاضمحلال، وما أصاب المسلمين من تأخر وذل واستعباد، بل ظل محتفظا بقوته، وصفاء جوهره، ينتظر عودة المسلمين إليه ورجوعهم إلى تعاليمه، ليصعد بهم الدرج الذى صعد به أسلافهم، فكانت لهم الكلمة فى الأرض، وانتهت إليهم قيـادة الأمم والشعوب ـ ومع أن المسلمين الآن كما قلنا قد استيقظوا من سباتهم، ونهضوا من كبوتهم، وبدءوا يرجعون إلى الإسلام وتعاليمه وتربيته وتشريعه، إلا أن هناك أمراً مقدساً هو أيضاً من تعاليم الإسلام التى أمر بها وطالب بالعمل بموجبها ـ وذلك الأمر: هو واجب المسلمين نحو نشر الإسلام والدعوة إليه إذ لا ريب أن الرسالة الإسلامية وهى موجهة إلى البشر أجمعين مهما اشتملت عليه من عوامل الانتشار واحتوت من الحجة والبرهان هى دائمـا فى حاجة إلى من يقومون بعرضها بأسلوب يتمشى مع كل بيئة ويتخذ من الوسائل ما يتوفر لكل عصر. والقرآن قد أهاب بالرسول الكريم بأن يبذل ما فى وسعه لنشر الدعوة بين البشر.

والمسلمون مأمورون تبعاً لذلك بحمل الشعلة إلى كل ركن وإيصال تعاليم القرآن إلى كل مكان «يأيها النبى إن أرسلناك



صورة لأعضاء الوفود الإسلامية فى جلسة الإفتتاح

شاهداً ومبشراً ونذيرا. وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » ، « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وبهذه الدعوة القوية بما اشتملت عليه من تبشير وإنذار وبهذا الهدى الذى يشع نوره سراجا منيرا وبهذا الأسلوب فى نشر الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وبهذا الجدال العادل الهادئ المتزن بذلك كله أمر القرآن وعمل الرسول الكريم بقوله وفعله وتقريره فإذا تصدى للدعوة الأعداء يريدون إطفاء نورها أو صدها عن السبيل المستقيم أو يحاولون إقامة العقبات والعراقيل فى طريقها أو يحاولون إيجاد الفتنة وبث روح التخاذل فى صفوف المسلمين ، فحينئذ لابد من إشهار السيف ، واتخاذ العدة وحمل السلاح لحماية الدين والذود عن حياضه وإحاطة الدعوة إليه بسياج متين من القوة والمنعة ـ فنحن مأمورون بسلوك هذا الطريق وحمل هذا المشعل فواجبنا أن نضع التخطيط الملائم لحال العصر الذى نعيش فيه ـ وواجب المسلمين كشعوب أن تشرع فى إنشاء المنظمات المختلفة وأن تجند لتلك المنظمات الشخصيات المفكرة العاملة الواعية ، وأن تضع تحت تصرفها الإمكانيات الواسعة من الأموال ووسائل الإعلام والدعاية والنشر ـ وواجب الحكومات الإسلامية أن تتجه نحو التشريع الإسلامى ففيه كل أسباب النهضة والرقى ، وأن تعمل بكل ما لديها من قوة ونفوذ على نشر تعاليم الإسلام ، وأن تساعد تلك المنظمات الشعبية مساعدة فعالة وتحيطها برعاية كاملة وعناية واضحة وأن تعمل على تربية الأجيال القادمة تربية إسلامية ، وأن تحارب هذا النفوذ الاستعمارى الذى يسيطر الآن على عقول المسلمين ويؤثر على كل حركاتهم وسكناتهم من حيث يشعرون أو لايشعرون ـ وإنى أحصر الميادين التى ينبغى أن يتجه إليها العمل الآن فى ثلاثة :

١ ـ تبليغ الدعوة لأولئك الذين لم تبلغهم بعد ـ أو على الأصح ـ لم تبلغهم واضحة جلية وذلك فى المناطق التى تتجه نحو الوثنية فى إفريقيا وآسيا واستراليا .

٢ ـ عرض الدعوة على وجهها الصحيح ؛ وبالأسلوب الملائم على أولئك الذين لم يتعرفوا على الإسلام وأخذوا من واقع المسلمين وتخلفهم دليلا على عجز الإسلام عن الصعود بالإنسان إلى مدارج الحضارة والحياة الكريمة ـ وذلك فى أوروبا وأمريكا.

٣ - إرجاع المسلمين أنفسهم إلى جوهر الإسلام وعقيدته السليمة وتشريعه الحكيم وتعميق ذلك فى نفوس المسلمين ونفى ما علق بالإسلام من خرافات وأباطيل ومن جمود وركود ، وإيضاح موقف الإسلام مما جد من تصرفات وأحوال ومعاملات لم تكن معروفة أيام نهضة الإسلام واستنباط الأحكام والتشريعات التى تقضى بها روح الإسلام وقواعده التشريعية العامة وتدعو إليها مصلحة المسلمين فى نطاق المبادئ الإسلامية التى اختطها القرآن الكريم ، وفصلها الرسول العظيم وأبرز كبار العلماء المتقدمين معالمها ورفعوا مناراتها هدى للباحثين المجتهدين.

إن هذه الحقول الثلاثة تحتاج إلى عمل جاد وفى المسلمين من العلماء الخبراء بطبيعة كل حقل العدد الوفير ، وفى متناولهم الآن من وسائل العلم ، ومخترعات العصر ، وأجهزة الإعلام ، وسهولة المواصلات ، ما يجعل مهمتهم سهلة ، وعملهم منتجا إن شاء الله .

الميدان الأول . نشر الدعوة الإسلامية بين الوثنيين وأولئك الذين لا دين لهم إلا نوع من الفتشية هو إلى التقاليد والعادات أقرب منه إلى الدين ، وهؤلاء هم أغلبية شعوب العالم ، فالملايين من سكان آسيا ومن سكان إفريقيا واستراليا هم من هذا النوع ، فإذا أنشئت منظمة للقيام بهذه المهمة تعتمد على رجال أقوياء من مختلف البلاد الإسلامية ، واتخذت لها فروعا فى مناطق متعددة من إفريقيا ومراكز متفرقة فى آسيا ، وحلقات متنوعة فى استراليا لتدرس هذه المنظمة طبيعة الحياة فى كل منطقة ، وأحوال سكانها وتقاليدهم وعقائدهم ، ثم تتخذ الأسلوب المناسب لهدايتهم إلى الإسلام وإدخالهم فى حظيرته بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن وبالقدوة الحسنة ، والسلوك الحسن ، والمعاملة الرقيقة ، وإنى واثق من أن مهمة هذه المنظمة سهلة ميسرة إذا توفرت إمكانيات النشر ووسائل الدعاية وأخلص الدعاة المرشدون . وإنى أقول ذلك عن علم وتجربة وقد قضيت نحوا من ست سنوات وأنا أتنقل فى أرجاء المديريات الجنوبية الثلاث (أعالى النيل والاستوائية وبحر الغزال) وأتصل بالمواطنين البدائيين الضاربين بين منابت الأحراش والغابات ومواطن الحشائش والمستنقعات وزرت مراكز المبشرين من كاثوليك وبروتستانت محاولا - فى أوقات فراغى - أن أعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين أولئك البدائيين متعاونا مع بعض الغيورين من التجار والموظفين - مع دراسة لأحوال المبشرين المسيحين وتتبع لأساليبهم وأنشأنا جمعية (المؤلفة قلوبهم) فاستطعنا أن نبث الدعوة الإسلامية حسبما نملك من إمكانيات ومن جهد ووقت ومال ، واقتنعنا بأن العمل فى هذا الميدان سهل ميسور ، وأن

ما يبذله المبشرون المسيحيون من مجهود لو بذل المسلمون عشر معشاره لأثمرت جهودهم أضعاف ما تثمره جهود المبشرين ، ومع أن المتتبع لسير الدعوة الإسلامية يجد أن التجار المسلمين الذين تجولوا فى المناطق التى يسكنها البدائيون من الوثنيين أو الذين يأخذون الدين مأخذ العادات والتقاليد هم الذين يرجع إليهم الفضل فى إيصال العقيدة الإسلامية إلى الأرجاء المترامية الأطراف ، فإذا استعرضت سير الدعوة الإسلامية فى إفريقيا فإنك تجد زوايا المتصوفين من السنوسيين فى حدود الصحراء شمالا وأتباع الحاج عمر بن قدية فى حدود الصحراء غربا ، وطلائع العلويين فى سواحل إفريقيا الشرقية والرواد المتعددين من الجلابة السودانيين المنتشرين فى جنوب السودان وأواسط إفريقيا ، إذا استعرضت ذلك فى الماضى وتتبعت ما تقوم به جمعية التبشير الإسلامى فى السودان ، والشيخ عبد القادر الجفرى فى يوغندا والكنغو ، وغير هؤلاء ممن لم يسعدنى الحظ بمعرفتهم من الدعاة .

علمت أن المسلم مبشر بطبيعته ، فأينما حل ولأى سبب كانت رحلته لابد أن يقوم بمجهود كبير لإبلاغ الدعوة إلى أولئك الذين يتصل بهم فى المناطق غير المسلمة وإذا تعقبت ذلك المسلم وجدت أثره واضحا ، ومفعوله كبيراً ، وسعيه مشكوراً ، هذا بالرغم من أن هذه مجهودات فردية ومحاولات شخصية لا تستند إلى تنظيم ولا تعتمد على سند أو معين ، ولا تتخذ من الوسائل والأساليب إلا المنهج البدائى البسيط ، وهذه الحال تبعث فى نفسك الاقتناع التام بأن الدعوة لو نظمت واستندت إلى هيئة ترعاها واتخذت الوسائل اللازمة من أجهزة النشر والإعلام ، ومن وسائل الدعاية والبيان ، ومن مناهج التربية والتعليم فلا بد أن تجنى ثمرتها وتؤتى أكلها وتعلو كلمتها .

ومع أنى لم أتجـــول فى آسيا الوثنية ، ولا أعرف عنها إلا النزر اليسير ، ولكنى أعتقد أن مجرد المقارنة الهادئة بين الإسلام وغيره من الأديان الوثنية السائدة فى الشعوب الآسيوية ، هذه المقارنة التى يعرضها الدعاة المسلمون لأولئك القوم بالتى هى أحسن ، وبالموعظة الحسنة ، وبالأسلوب الذى لا يجرح كرامتهم ، ولا يمس شعورهم ، هذه المقارنة لا بد أن تؤدى إلى نشر الإسلام واعتناق عقيدته ، والاعتصام بحبله ، فلو وجدت المنظمة التى تهيء الأذهان لهذه المقارنة لعم الإسلام.

الميدان الثانى : عرض الدعوة بالأسلوب الملائم على أولئك الذين لم يتعرفوا على الإسلام كذلك فى الأمة المسيحية فى أوربا وأمريكا فإن انتشار العلوم والمعارف بين أولئك القوم قد كشف مزايا الإسلام وسمو تعاليمه ، وتطور تشريعه ، اللهم إلا غشاوة رقيقة لا تزال تحجب عن أعين أولئك نور الإسلام وضياءه فلو اتجه كبار العلماء المسلمين

بلغات أوربا وأمريكا، المتضلعين فى العلوم الحديثة، الواقفين على روح الإسلام وأسراره ومرونته، لو اتجه بعض هؤلاء العلماء إلى تعريف أولئك القوم بالإسلام لاستطاعوا رفع تلك الغشاوة الرقيقة ولوجد الأوربيون والإمريكان أن الإسلام متمشيا مع الكثير من أسباب حضارتهم وقوتهم، فهو لا يتنافى مع العلوم التى حذقوها، ولا مع التشريعات والقوانين التى يسيرون عليها فى ميادين الحياة المختلفة، ولا مع الأسس القديمة التى تقوم عليها الحضارة، بل على العكس من ذلك فسيجدون فيه العلاج لما يشعرون به من أمراض اجتماعية، وارتبكات اقتصادية وظلمات مادية ومشاكل كثيرة فى هذه الحياة المعقدة، ولقد كان لى شرف الاجتماع ببعض أعضاء جمعية التعريف بالإسلام بدار الشبان المسلمين بالقاهرة، تلك الجمعية التى أقامها كبار المسلمين بأمريكا للتعريف بالإسلام بين الأمريكان، والتى حدثنى عما قامت به صديقى الدكتور محمود يوسف الشوارى أحد مؤسسيها وكبار العاملين فيها، كما أنى قرأت كثيرا عن نشاط إخواننا الهنود والباكستانيين فى نشر الإسلام بأوربا فلو وجدت المنظمة العليا، ووجدت هذه التيارات، ونظمت وسائل الدعوة واختارت الدعاة المخلصين لها لأمكنها نشر الإسلام فى وقت قصير بين تلك الشعوب الكبيرة ومما يقوى هذه الآمال شهادة أحد كبار المستشرقين الألمان - وهو «الدكتور مارتن هارتمان» إذ يقول: وإذا قابلت ما أتوا به من العظائم فى هذا السبيل بإدخالهم فى دينهم الملايين من أمم شديدة الاعتزاز بقوميتها، كثيرة التمسك بدياناتها، بما قام به فى القرون الأخيرة دعاة الملل الأخرى على حذقهم فنون الدعوة، واعتمادهم على الجاه والمال، وتمرسهم بأساليب الأخذ والتأثير، تعجب غاية العجب، ولا تجد تعليلا يقبله العقل إلا فى أن للإسلام سلطانا على العقول خارقا للعادة، تنقاد إليه، متى عرض عليها، فلا تجد بدا من الإذعان له، بل ومما يجعل هذه الآمال أقرب ما تكون إلى الحقائق شهادة الفيلسوف البريطانى المعاصر «برنارد شو» إذ يتنبأ بأن أوربا - جميعها ستدخل فى دين الإسلام فى القرن التالى فيقول:

«لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار الثانى بسبب حيويته المدهشة فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس، ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال «كارلايل وجوته وجيبون» القيمة الذاتية لدين «محمد»، وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الإسلام، ولكن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى

هذا السبيل كثيرا فبدأت تمشق عقيدة محمد وفى القرن التالى ربما ذهبت إلى أكثر من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل معضلاتها فبهذه الروح يجب أن تفهموا أن كثيرين من أبناء أوربا دخلوا فى دين محمد حتى يمكن أن يقال إنه ربما تتحول أوربا كلها إلى الإسلام ».

ومما يجعل طريق الإسلام إلى أوربا وأمريكا وآسيا ممهداً معبدا هذا التراجع الذى أشرنا إليه ، تراجع نحو اليسار فى العالم الرأسمالى ، وتراجع نحو اليمين فى العالم الشيوعى وبما أن الإسلام يقف فى الوسط بين هذين الطرفين فهذا التراجع استعداد كبير إلى التلاقى مع الإسلام وسيجد أولئك القوم فى الدعوة الإسلامية منقذاً لهم من مضار المذهبين، وبالتالى سيجدون فى هذه الدعوة السبب القوى لإسراع خطوات التراجع ذات اليمين وذات اليسار حتى يتلاقوا مع الإسلام فى الطريق الوسط : طريق الحق والعدل والصدق ، وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

الميدان الثالث : إرجاع المسلمين إلى جوهر الإسلام وعقيدته السليمة وتشريعه الحكيم وتعميق ذلك فى نفوسهم ونفى ما علق بالإسلام من خرافات وأباطيل ومن جمود ، وركود . وإيضاح موقف الإسلام مما جد من تصرفات وأحوال ومعاملات لم تكن معروفة أيام نهضة الإسلام .

كان المسلمون فى العصور الأولى متشبعين بروح الإسلام عالمين بأسراره قد تربوا تربية إسلامية صحيحة فصفت نفوسهم واستنارت بصيرتهم فأخذوا بتعاليم القرآن وتأسوا بأحاديث الرسول وفهموا القواعد الأساسية للتشريع الإسلامى واجتهدوا وعملوا رأيهم فى نطاق ما وضعه الإسلام من قواعد عامة فاستطاعوا بذلك أن ينهضوا نهضة عظيمة فى وقت قصير مما لم يشهد له العالم مثيلا وأقاموها حضارة زاهية سداها ولحمتها تعاليم الإسلام وأحكامه وتشريعاته ومجتمعا متماسكا متين الأخلاق قوى التربية وكانت تلك الدولة الإسلامية التى أسسها الرسول العظيم واستمرت حتى أفلت شمس العباسيين فى المشرق وانحصر ضوء الأمويين فى المغرب كانت هى المدينة الفاضلة التى يحلم بها الفلاسفة ويرسمون خطوطها فى عالم الخيال ثم مرت بالمسلمين الليالى السود واستمروا قرونا طويلة وهم ضعفاء أذلاء تفرقت كلمتهم وتصدع بنيانهم وتداعت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع فذهبت ريحهم وانهارت دولهم ولم يكن ذلك عن قلة ولكنهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل فزحفت عليهم الأمم المستعمرة فاستعبدتهم وأذلتهم

ففقدوا الثقة بأنفسهم واستحال الإسلام فى مجتمعهم ألفاظا خالية من المعانى ورسوما لا حياة فيها واتجهوا صوب المستعمرين يأتمرون بأمرهم ويتبعون طريقهم فغاص الاستعمار فى عقولهم ونفذت تربيته إلى قلوبهم فأصبحوا فريقين: فريقا انطفأ نور الإسلام فى قلبه فانصرف عنه إلى نوع من الإلحاد والشك فى صلاحية الإسلام للحياة واعتقد أن الأخذ بأسباب المدنية الغربية والانغماس فى بهرجها والاستمتاع بشهواتها هو الحياة كل الحياة وأن الإسلام دعوة رجعية بدليل تأخر المسلمين وانحطاطهم فى كل الأقاليم — وفريقا اكتفوا من الإسلام بالظهر واستعملوا الإسلام شبكة يصطادون بها الدهماء وتمائم وتعاويذ يستهدون بها الجهلاء وخرافات وأباطيل يضلون بها البسطاء فضاع الإسلام بين الملحدين المنغمسين فى الملاهى والملذات والرجعيين المستغرقين فى البدع والخرافات ولم يبق فى كل قطر إلا قلة ظلوا مستمسكين بجوهر الدين كالقابض على الجمر وأولئك هم الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس وأولئك هم محط الأمل، وموضع الرجاء. والمتتبع للحركات الإسلامية فى عصرنا هذا يشعر بأن أولئك الغرباء فى كل قطر إسلامى قد شرعوا يقومون بحملة الإصلاح وقد سرت حركتهم فى أوصال المجتمع فوجدت تجاوبا فى كل مكان فاتسعت دائرتها فى كثير من البلدان ولا ريب أن هذا المجمع المنعقد اليوم والذى يلتف حوله هذا المؤتمر العظيم الذى يضم الصفوة من علماء المسلمين وأولى الأمر فى العالم الإسلامى هذا المؤتمر إنما هو بداية المرحلة الحاسمة لهذه الحركات الإصلاحية التى تطل من كل قطر إسلامى فواجب هذا المجمع أن يقوم بمهمته التى تمليها عليه حركة الإصلاح الشاملة وأن يلتفت إلى حال المسلمين اليوم فيوضح لهم ما هم فيه من انحراف ويرجع بهم إلى حظيرة الإسلام ويبصرهم بجوهر تعاليمه وينزع عن الإسلام ما علق به من خرافات وأباطيل وما لصق به من بدع وضلالات ولن يتم ذلك إلا بأمرين.

١ — الرجوع إلى التربية الإسلامية الصحيحة وذلك بتعديل برامج التعليم ومناهج التربية فى المدارس والمعاهد والجامعات حتى ينشأ جيل جديد يفهم الإسلام ويتأثر بتعاليمه ويسير وفق هديه.

٢ — باتخاذ الوسائل لتربية الجمهور وتوجيه الوجهة الإسلامية فى حياته العائلية وأخلاقه الاجتماعية ومعاملاته الاقتصادية حتى يلجأ النشء خارج المدارس والمعاهد إلى جو إسلامى يتفاعل مع تربيته وبذلك يتحول المجتمع فى فترة قصيرة إلى مجتمع إسلامى صحيح. أمام العالم الإسلامى اليوم مشكلات كبيرة اجتماعية واقتصادية لم تكن معروفة فى العهد الأول، فإن تطور الحياة وما أحدثته المواصلات والمبتكرات الحديثة من طائرات، وراديو وتليفزيون، من اتصال

قوى بين البلدان وارتباط وثيق بين الأمم وتشابك شديد بين المصالح واحتكاك مستمر بين الآراء والأفكار، كل ذلك قد أحدث بعض المعاملات الاقتصادية، والمشكلات الاجتماعية والنظريات العلمية مما لا تجد له حكما فى الكتاب والسنة، وما استنبط من أحكام فى المذاهب المختلفة لأنه لم يكن معروفا للعلماء والباحثين حتى يجتهدوا ويبذلوا جهدهم لتحديد موقف الإسلام منه - فعلى المجمع أن يدرس هذه الأحداث ويتتبع تلك المشكلات ويستجلى هذه النظريات، ثم يعمل على عرضها على قواعد الإسلام ومبادئه وأسس تشريعه ليوضح للمسلمين الحيارى حكم الإسلام فى هذه التصرفات ليخرجهم من هذه الحيرة وهذا الارتباك.

وإنى أختم هذا البحث - استخلاصا لما وضحته - باقتراح عملى منقذ والأخذ به يجعل من هذا المجمع أداة فعالة فى تحقيق بعض الأهداف التى يشعر العالم الإسلامى الآن جميعه أنه وجد من أجلها: وهو أن ينشئ المجمع منظمتين من كبار العلماء والإخصائيين سواء من أعضاء المجمع أو من غيرهم من المختصين من أرجاء العالم الإسلامى.

١ - منظمة مركزية للقيام بنشر الدعوة الإسلامية على وجهها الصحيح فى المناطق الوثنية وبين البدائيين الذين لا دين لهم ممن يتخذون العادات والتقاليد أو ممن يدينون بالفتشية أو الطوتمية - كما تقوم بعرض الإسلام والتعريف به فى أواسط الشعوب الأوربية والأمريكية - وتنشىء لتنفيذ مهمتها اللجان المختلفة والفروع المتعددة فى أرجاء العالم ما أمكن ذلك وتتخذ من الوسائل ما يمكنها من أداء مهمتها.

٢ - منظمة من كبار العلماء المحققين الواقفين على أسرار الشريعة العالمين بأصولها وفروعها وروحها ومدلولها، الملمين بأحوال العصر وما يسود المجتمع الإنسانى اليوم من تيارات وتصرفات ومعاملات وعلوم ومخترعات ليستنبطوا حكم الشرع ورأى الإسلام فى كل مشكلة أو نظرية أو تصرف أو معاملة وجدت أو نشأت بعد ركود المسلمين وعجزهم عن الاستنباط وقفلهم لباب الاجتهاد مما لا وجود لحكمه أو الإشارة إليه فى كتب الفقه وأبحاث العلماء المتقدمين. هذا - وأسأل الله أن يوفقنا جميعا لما فيه خير الإسلام والمسلمين - والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته؟

على عبد الرحمن
عضو مجمع البحوث الإسلامية

هذا وقد خصص بعض جلسات المؤتمر لمناقشات الأعضاء حول البحوث التى ألقيت وسننشر ملخصا لهذه المناقشات عقب البحوث.

الجلسة الثالثة

الاجتهاد في ماضيه وحاضره

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد نور الحسن

كان هذا موضوع بحث فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن وقد تحدث فيه عن الاجتهاد حديثاً مستفيضاً ، فعرفه لغة واصطلاحا كما عرف المجتهد ، ثم بين المعانى التى يطلق عليها الاجتهاد عند الفقهاء ، وقال إن الاجتهاد إذا أطلق فى عباراتهم ينصرف إلى الاجتهاد المطلق سواء كان مستقلا أم منتسباً .

وفى الفصل الثانى أبان عن شروط الاجتهاد المتفق عليها بين الفقهاء ، والمختلف فيها ، ورجح رأى الأكثرين من أهل العلم القائلين بأنه لا بد للمجتهد من حفظ القرآن كله ، كما رجح الرأى القائل بأنه لا يشترط الإحاطة بجميع السنن خصوصاً بعد أن دونت الأحاديث فى الكتب ، وبوبت تبويباً فقهياً بحيث يسهل الرجوع إليها .

وفى الفصل الثالث بين حكم الاجتهاد ، وقال إنه يكون واجباً عينياً ، ويكون واجباً على الكفاية ، ويكون مندوبا ويكون حراما والحرام - كما قال - هو ما كان فى مقابلة دليل قاطع من نص أو إجماع .



وبين فى الفصل الرابع المصيب فى الاجتهاد ، وقال فى ذلك - على ما ذهب إليه الأكثرون من العلماء - إن لله حكما معيناً فى الحادثة قبل الاجتهاد فمن صادفه كان مصيبا ، ومن لم يصادفه كان مخطئا .

وفى الفصل الخامس تحدث عن زمن الاجتهاد ، وذكر أنه مما لا شك فيه أن الاجتهاد وقع فى زمن الرسول .

أما اجتهاد الصحابة فى زمن الرسول فمنهم

من قال بجواز وقوعه مطلقاً سواء كان المجتهد فى حضرة الرسول أم كان غائبا . ومنهم من أجازه لمن غاب عن حضرته صلى الله عليه وسلم دون من كان فى حضرته .

وفى الفصل السادس تكلم عن تجزء الاجتهاد وذكر اختلاف الأصوليين فى ذلك .

أما الفصل السابع وهو الأخير فكان عن :

لا يخلو عصر عن مجتهد :

اختلف الأصوليون هل يجوز شرعا خلو العصر عن المجتهد ؟

قال الزركشى فى البحر المحيط يجوز خلو العصر عن المجتهد عند الأكثرين ، وجزم به فى المحصول .

وقال الرافعى الخلق كالمتفقين على أنه لا مجتهد اليوم ولعله أخذه من الإمام الرازى .

ومن قول الغزالى فى الوسيط فقد خلا العصر عن المجتهد المستقل .

ونقل الاتفاق فيه عجيب ، والمسألة خلافية بيننا وبين الحنابلة وساعدهم بعض أئمتنا .

والحق أن الفقيه الفطن للقياس كالمجتهد فى حق العامى لا الناقل فقط .

وقالت الحنابلة لا يجوز خلو العصر عن مجتهد وبه جزم الأستاذ أبو اسحاق والزبيرى فى المسكت .

فقال الأستاذ وتحت قول الفقهاء لا يخلى الله زمنا من قائم بالحجة أمر عظيم ، وكأن الله ألهمهم ذلك ، ومعناه أن الله تعالى لو أخلى زمانا من قائم بالحجة لزال التكليف إذ لا يثبت إلا بالحجة الظاهرة ، وإذا زال التكليف بطلت الشريعة .

وقال الزبيرى لن تخلو الأرض من قائم لله بالحجة فى كل وقت ودهر وزمان ، ولكن ذلك قليل من كثير ، فأما أن يكون غير موجود كما قال الخصم فليس بصواب لأنه لو عدم الفقهاء لم تقم الفرائض كلها ولو عطلت الفرائض كلها لحلت النقمة بذلك فى الخلق كما جاء فى الخبر « لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس » ونحن نعوذ بالله أن نؤخر مع الأشرار . انتهى زركشى .

وقال ابن دقيق العيد هذا هو المختار عندنا لكن إلى الحد الذى تنتقض به القواعد بسبب زوال الدنيا فى آخر الزمان ، وقال فى شرحه خطبة الإمام : « والأرض لا تخلو من قائم بالحجة والأمة الشريفة لا بد لها من سالك إلى الحجة على واضح المحجة إلى أن يأتى أمر الله بأشراط الساعة الكبرى » .

قال الزركشى ومراده بالأشراط الكبرى طلوع الشمس من مغربها مثلا وله وجه حسن وهو أن الخلو من مجتهد يلزم منه إجماع الأمة على الخطأ وهو ترك الاجتهاد الذى هو فرض كفاية ، وقال والده العلامة مجد الدين فى كتاب تلقيح الأفهام عن المجتهد فى هذه

الأعصار وليس ذلك لتعذر حصول آلة الاجتهاد بل لإعراض الناس فى اشتغالهم عن الطريق المفضية إلى ذلك ، وتوقيف الفتيا على حصول المجتهد يفضى إلى حرج عظيم ، فالمختار قبول فتوى الراوى عن الأئمة المجتهدين المتقدمين .

ثم قال الزركشى : وأما قول الغزالى «وقد خلا العصر عن المجتهد المستقل فقد سبقه إليه القفال شيخ الخراسانيين فقيل المراد مجتهد قائم بالقضاء فإن المحققين من العلماء كانوا يرغبون عنه ولا يلى فى زمانهم غالبا إلا من هو دون ذلك ، وكيف يمكن القضاء على الأعصار بخلوها من مجتهد والقفال نفسه كان يقول للسائل تسأل عنه مذهب الشافعى أما عندى ؟ وقال هو والشيخ أبو على والقاضى الحسين لسنا مقلدين للشافعى بل وافق رأينا رأيه ، فهذا كلام من يدعى رتبة الاجتهاد ، وكذلك ابن دقيق العيد كما نقله ابن الرفعة ، قال الزركشى والحق أن العصر خلا عن المجتهد المطلق لا عن مجتهد فى مذهب أحـــد الأئمة الأربعة ، وقد وقع الاتفاق بين المسلمين على أن الحق منحصر فى هذه المذاهب وحينئذ فلا يجوز العمل بغيرها . انتهى . زركشى فى البحر المحيط ملخصا .

والحق أنه لا يجوز شرعا خلو العصر عن المجتهد لأننا قد علمنا أن الشريعة المحمدية خاتمة الشرائع فإنها متكفلة ببيان أحكام أفعال العباد إلى قيام الساعة وحكمة الله جلت قدرته تأبى أن يترك الناس سدى من غير مرشد يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، ويبين أحكام الحوادث المتجددة والدائمة ما دامت السموات والأرض ، وقد تقرر عند الكل أن الاجتهاد فرض كفاية ولا يختص ذلك بعصر دون عصر ولا بزمان دون زمان فالواجب على العلماء أن يحصلوا من شروط الاجتهاد التى تقـــدم ذكرها ما يتأدى به فرض الكفاية ، فإذا درسوا الكتاب والسنة والإجماع والقياس ودرسوا اللغة العربية دراسة تيسر عليهم فهم الكتاب والسنة ، ودرسوا علم الأصول دراسة تؤهلهم لاستنباط الأحكام من الأدلة الشرعية ، وحصلت عندهم الملكة التى يقتدرون بها على استنباط الأحكام ، وجب عليهم استنباط أحكام الحوادث المتجددة ، فإذا قام بذلك بعضهم سقط الإثم عن الباقين ، وإذا لم يقم به واحد منهم أثم الجميع ، وهذا الحكم ثابت ودائم ما دامت الدنيا ، فالقول بجواز خلو العصر عن المجتهد المطلق شرعا ، وأن الحق ينحصر فى هذه المذاهب الأربعة وأنه لا يجوز العمل بغيرها تحجير على فضل الله وتضييق فى رحمته الواسعة التى وسعت كل شىء .

هذا :

والذى يظهر لى أن النزاع فى خلو العصر من المجتهد وعدم خلوه عنه نزاع لفظى لم يتوارد فيه النفى والإثبات على محل واحد فورد النفى غير مورد الإثبات فمن قال بالخلو أراد الخلو من المجتهد المطلق المستقل الذى يبنى اجتهاده على الأصول التى وضعها هو ، ولا شك أن الأصول التى يبنى عليها استنباط الأحكام قد فرغ منها وليس لأحد أن يزيد عليها ، ومن قال بعدم خلو الزمان من المجتهد أراد المجتهد المطلق المنتسب الذى يبنى اجتهاده على أصول إمامه الذى ينتسب إليه أو المجتهد فى المذهب وهو الذى يعرف الأحكام الفقهية التى استنبطها إمامه ويعرف أدلتها ومآخذها ، ويرجح منها ما يقضى الدليل بترجيحه أو المجتهد فى الفتوى وهو الذى يعرف الراجح من مذهب إمامه فيفتى به فهو لا يرجح وإنما ينقل الراجح من مذهب إمامه فيفتى به .

فمن قال بعدم الخلو أراد أحد هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة .

ومن قال بالخلو أراد المجتهد المطلق المستقل وفى هذا الذى ذكرنا بيان لحال الاجتهاد فى الماضى والحاضر توخينا فيه الإيجاز مع بيان ما نعتقده حقا .

وقبل أن نختم البحث ننقل كلام جماعة من علماء الأصول المحققين الذين يعتمد برأيهم يؤيد ما ذهبنا إليه من أن باب الاجتهاد مفتوح إلى قيام الساعة .

قال العز بن عبد السلام : « ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً وهو مع ذلك يقلده فيه ويترك من شهد له الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة جمودا على تقليد إمامه بل يتحيل لدفع ظاهر الكتاب والسنة ويتأولها بالتأويلات البعيدة الباطلة نضالا عن مقلده ، وقال لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد لمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها من المقلدين فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة مقلداً له فيما قال كأنه نبى مرسل ، وهذا نأى عن الحق وبعد عن الصواب لا يرضى به أحد من أولى الألباب » .

وقال الإمام أبو شامة : « ينبغى لمن اشتغل بالفقه ألا يقتصر على مذهب إمامه ويعتقد فى كل مسألة صحة ما كان أقرب إلى الكتاب والسنة المحكمة ، وذلك سهل عليه إذا كان أتقن معظم العلوم المتقدمة ، وليجتنب التعصب والنظر فى طرائق الخلاف فإنها مضيعة للزمان ولصفوه مكدرة ، وقد صح عن الشافعى أنه نهى عن تقليده وتقليد غيره » .

وقال أستاذنا المحقق الشيخ محمد بخيت المطيعى فيما كتبه على شرح الاسنوى لمنهاج

البيضاوى قال الإمام ابن السبكى صاحب جمع الجوامع فى كتابه ترشيح التوضيح بيانا بأن والده كان من المجتهدين فإن قلت ما ادعيت من بلوغ الشيخ الإمام درجة الاجتهاد المطلق مردود بقول الغزالى فى الوسيط وقد خلا العصر من المجتهد المستقل وهذا لم ينفرد به بل سبقه إليه القفال شيخ الخراسانيين ، وذكره النووى والرافعى عن الوسيط ساكتين عليه قلت :

قد نظرت فى هذا الكلام وفكرت فيه فظهر لى أنه ومن سبقه إليه أرادوا خلا من مجتهد قائم بأعباء القضاء فإنه لم يكن فى القضاء فى زمانهم مرموق ولا منظور إليه بكثير علم بل كانت جهابذة العلماء منهم يربأون بأنفسهم عن القضاء وكيف يمكن القضاء على الأعصار بخلوها عن مجتهد ؟ هذا منكر من القول ، والقفال نفسه كان يقول للسائل فى مسألة الصبرة تسألنى عن مذهب الشافعى أما عندى ؟ وقال هو والشيخ أبو على والقاضى الحسين وغيرهم لسنا مقلدين للشافعى بل موافقون وافق رأينا رأيه فما هذا بكلام من يدعى زوال رتبة الاجتهاد . وقد قالت طوائف لا يخلو كل عصر عن مجتهد وهى مسألة خلافية بين الأصوليين يعجبنى فيها قول المجتهد المطلق تقى الدين بن دقيق العيد « إنه لا يخلو العصر عن مجتهد إلا إذا تداعى الزمان وقربت الساعة وهذا القرن الذى نحن فيه قد كان فيه هذان الإمامان وهما الوالد وقبله شيخه ابن الرفعة ، وكان من أقران ابن دقيق العيد مجتهداً لا شك فيه وما اختلف تلامذة ابن عبد السلام فى أنه بلغ رتبة الاجتهاد ، وهكذا لا يعهد عصر إلا وقد أقام الله فيه الحجة بعالم بين أظهر المسلمين ولن تبرح حجة الله قائمة وإن تفاوتت مراتب القائمين وشريعة الإســـلام ظاهرة وإن اختلف ظهورها ولله الحمـــد والشكر انتهى كلام ابن السبكى .

وقال فى فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت : « ثم إنه قد استدل بما خرج به حجة الإسلام قدس سره والرافعى والقفال بأنه وقع فى زماننا هذا الخلو وفيه ما فيه لأن وقوع الخلو ممنوع وما ذكره مجرد دعوى والإمام حجة الإسلام وإن كان من جملة الأولياء لا يصلح حجة فى الاجتهاديات ثم إن من الناس من حكم بوجوب الخلو من بعد العلامة النسفى ، واختتم الاجتهاد به وعنوا الاجتهاد فى المذهب . وأما الاجتهاد المطلق فقالوا اختتم بالأئمة الأربعة حتى أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء الأربعة وهذا كله من هوساتهم لم يأتوا بدليل ولا يعبأ بكلامهم وإنما هم من الذين حكم الحديث أنهم أفتوا بغير علم وضلوا وأضلوا ولم يفهموا أن هذا إخبار

بالغيب فى خمس لا يعلمهن إلا الله . انتهى كلام شارح مسلم الثبوت .

وقال الشوكانى فى إرشاد الفحول ، وما قاله الغزالى رحمه الله من أنه قد خلا العصر عن المجتهد قد سبقه إلى القول به القفال ولكنه ناقض ذلك فقال : إنه ليس بمقلد للشافعى وإنما وافق رأيه كما نقل ذلك عنه الزركشى وقال قول هؤلاء القائلين بخلو العصر عن المجتهد مما يقضى منه العجب فإنهم إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم فقد عاصر القفال والغزالى والرازى والرافعى من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد على الوفاء والكمال جماعة منهم ومن كان له إلمام بعلم التاريخ والاطلاع على أحوال علماء الإسلام فى كل عصر لا يخفى عليه مثل هذا بل قد جاء بعدهم من أهل العلم من جمع الله له من العلوم فوق ما اعتده أهل العلم فى الاجتهاد وإن قالوا ذلك لا بهذا الاعتبار بل باعتبار أن الله عز وجل رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأمة من كمال الفهم وقوة الإدراك والاستعداد للمعارف فهذه دعوى من أبطل الباطلات بل هى جهالة من الجهالات ، وإن كان ذلك باعتبار تيسر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين وصعوبته عليهم وعلى أهل عصورهم فهذه أيضا دعوى باطلة فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيراً لم يكن للسابقين لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت وصارت فى الكثرة إلى حد لا يمكن حصره والسنة المطهرة قد دونت وتكلم الأئمة على التفسير والتجريح والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد .

وقد كان السلف الصالح ومن قبل هؤلاء المنكرين يرحل الحديث الواحد من قطر إلى قطر فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين ولا يخالف فى هذا من له فهم صحيح وعقل سليم وإذا أمعنت النظر لوجدت هؤلاء المنكرين إنما أوتوا من قبل أنفسهم فإنهم لما عكفوا على التقليد واشتغلوا بغير علم الكتاب والسنة حكموا على غيرهم بما وقعوا فيه واستصعبوا ما سهله الله على من رزقه الله العلم والفهم ، وأفاض على قلبه أنواع علوم الكتاب والسنة ولما كان هؤلاء الذين صرحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية فها نحن أولاء نذكر لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم ممن لا يخالف مخالف فى أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد فنهم ابن عبد السلام ، وتلميذه ابن دقيق العيد ثم تلميذه ابن سيد الناس ، ثم تلميذه زين الدين العراقى ثم تلميذه ابن حجر العسقلانى ثم تلميذه السيوطى . فهؤلاء ستة أعلام كل واحد منهم تلميذ من قبله

قد بلغوا من المعارف العلمية ما يعرفه من يعرف مصنفاتهم حق معرفتها ، وكل واحد منهم إمام كبير فى الكتاب والسنة محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة متضاعفة عالم بعلوم خارجة عنها ثم فى المعاصرين لهؤلاء كثير من المماثلين لهم ، وجاء بعدهم من لا يقصر عن بلوغ مراتبهم والتعداد لبعضهم فضلا عن كلهم يحتاج إلى بسط طويل .

وقال الزركشى فى البحر ولم يختلف اثنان فى أن ابن عبد السلام بلغ رتبة الاجتهاد وكذلك ابن دقيق العيد ثم قال الشوكانى ، وبالجملة فتطويل البحث فى مثل هذا لا يأتى بكثير فائدة فإن أمره أوضح من كل واضح ، وليس ما يقوله من أسرار التقليد بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال . ثم قال ومن حصر فضل الله على بعض خلقه وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره فقد تجرأ على الله عز وجل ثم على شريعته الموضوعة على كل عباده ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب والسنة ثم قال فان هذه المقالة تستلزم رفع التعبد بالكتاب والسنة وأنه لم يبق إلا تقليد الرجال الذين هم متعبدون بالكتاب والسنة كتعبد من جاء بعدهم على حد سواء ، فان كان التعبد بالكتاب والسنة مختصاً بمن كانوا فى العصور السابقة ولم يبق لهؤلاء إلا التقليد لمن تقدمهم ولا يتمكنون من معرفة أحكام الله من كتاب الله وسنة رسوله فما الدليل على هذه التفرقة الباطلة والمقالة الزائفة وهل النسخ إلا هذا سبحانك هذا بهتان عظيم » انتهى شوكانى » .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

محمد نور الحسن

الجلسة الرابعة

فلسفة الحرية في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ نديم الجسر

هذا موضوع البحث القيم الذى تقدم به سيادته لمؤتمر المجمع فى دورته الأولى ، وقد مهد له بذكر الحافز له على اختياره وأوجزه فى أمرين :

أولهما : نظرة غير المسلمين من مواطنين وأجانب إلى الإسلام من خلال منظار مسلط على واقع حياة المسلمين مع ما قد يكون من تجافى هذا الواقع مع مبادئ الإسلام الصحيحة السامية وأوضح خطأ هذه النظرة

وثانيهما : ما يراه من أن دعوة الإصلاح يجب أن تقوم على أساس من حرية الفكر الذى تتلاقى عليه العقول السليمة . وهو يتلاقى دائما مع ما فى الإسلام من حق وخير وجمال وكمال .

ثم أوضح سبب قيام المشاكل فى المجتمع وعرض لأهمها فى العصر الحاضر وإمكان حلها فى ضوء تعاليم الإسلام والفكر الإسلامى وتلك المشاكل التى عرض لها فى هذا البحث هى مشكلة الصراع المستمر بين رغبة الفرد بحكم غرائزه فى ممارسة حريته المطلقة وبين رغبة المجتمع بحكم العقل فى تقييد هذه الحرية كلما دعت لذلك حكمة الحياة الاجتماعية والفوضى



الأخلاقية والعائلية والتمييز العنصرى والإيمان والإلحاد ، والملكية بين الإطلاق والتقييد .

وقرر فى كلامه أن الأديان السماوية وفى مقدمتها الإسلام لا تختلف مع العقول السليمة فى تحديد الأخلاق الكريمة وتميزها من الفاسدة قائلا : وتعاطى المسكر ولعب الميسر والسفه والتبذير كلها أمور مرذولة يمقتها العقل ، ومفهوم الحرية فى الإسلام يقضى بمنعها لما فيها من الضرر بالفرد والأسرة والمجتمع .

وتناول فى كلامه عن مشكلة الأسرة حرية المرأة وحرية الطلاق وتعدد الزوجات وتحديد النسل ، فذكر عن حرية المرأة

فى الإسلام أنه لا يوجد شرع ولا قانون قديم أو حديث بلغ فى تقديس حريتها مبلغ الإسلام وأوضح ذلك بعقد مقارنة بين ما منحه الإسلام لها من حق حرية التزوج بمن تريده وحرية التصرف فيما تملكه ، وحرية طلب الطلاق عند الضرر وحرية الخدمة والعمل وبين ما كانت عليه المرأة الغربية إلى عهد قريب من الحرمان من التصرف فى مالها إلا بإذن من زوجها وحرمانها من تعاطى الأعمال وحق طلب الطلاق .

وأما حرية الطلاق وتعدد الزوجات وتحديد النسل فقد قرر فى وضوح لا مزيد عليه أن المفكر المنصف لا يمكنه الاقتناع بسلامة الرأى القائل بمنع الطلاق أو تقييد الحرية فيه إلى الحد الذى يقلب جنة النعيم الزوجى إلى جحيم . كما لا يمكنه المماراة فى أن إباحة التعدد بمعناها الصحيح الذى حدده الإسلام قد تصبح ضرورة لحل مشكلة من أعظم المشاكل من الناحية الصحية ، أو العائلية ، أو الخلقية . حين تنقلب فى هذه الحالات غايات الزواج ومباهجه إلى آلام وكروب ، وهكذا الأمر فى تحديد النسل فإن علاج الإسلام لهذه المشاكل يمكن اعتباره متوائماً مع مفهوم الحرية الصحيح الذى اعتبره الإسلام حقاً طبيعياً للإنسان .

* * *

وأما مشكلة التمييز العنصرى ومشكلة الإيمان والإلحاد . فقد أوضح الباحث فى كلامه عنهما أن حل الإسلام لها يقوم على أساس مفهوم الحرية الطبيعية والضرورية للإنسان من حيث هو إنسان . فمن حيث التمييز العنصرى أثبت أن هذا المفهوم واضح مقرر فى آيات كثيرة من القرآن عددها وذكر منها - الآية ١٣ - من سورة الحجرات : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومن جهة الإيمان والإلحاد يتضح هذا المفهوم أيضا فى دعوة الإسلام الإنسان إلى الإيمان عن طريق الفكر والنظر . وفى صيانته لأهل العقائد التى لا تصطدم بالحق والخير عن الإكراه . وعلى هذا الأساس عومل أهل الكتاب والمجوس . وأيضا فى اكتفائه بعرض وجهة نظره فى الوحدانية الحقة المبرأة عن كل شائبة عرضا مهذبا « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

* * *

وذكر فى علاج الإسلام لمشكلة الملكية بين إطلاقها وتقييدها على ضوء مفهوم الحرية الذى قرره أن حرية التملك وحرية التصرف فى المملوك عقاراً أو منقولا أو نقداً ، وحرية التعاقد بين الناس كلها حقوق طبيعية ما لم تصادم هذه الحرية حقا أو خيراً لصالح الفرد أو المجموع ، فإذا حصل ذلك توقفت هذه

الحرية وأمكن الحد منها . وأيد ذلك بذكر موقف الإسلام من مشكلة سوء التصرف فى استعمال الحق وكيف عالجها علاجا يدل على سمو نظرته فى فهم معنى الحرية الفردية فهما سبق به الإسلام كل التشريعات المعاصرة . ونفذه الرسول صلى الله عليه وسلم عمليا بقضائه للأنصارى صاحب الحائط ضد سمرة بن جندب الذى أساء استعمال الحق

وختم السيد الباحث هذا الباب بالكلام على تحديد ملكية الأرض الزراعية ومدى إمكان حل مشكلاتها فى ضوء مفهوم الحرية المقررة فى الإسلام وإليك نص بيانه فى ذلك :

تحديد ملكية الأرض :

وتقودنا هذه الأبحاث فى حرية التملك وحرية التصرف إلى البحث الأعظم وهو تحديد ملكية الأرض الذى يعالج فى بعض بلاد الإسلام باستملاك قسم من الملكيات الزراعية الكبيرة بثمنها وتوزيعها على الفلاحين الذين لا يملكون من أرض الوطن شبرا واحدا ، بدلا من معالجته بالطريقة الشيوعية المتطرفة التى تنزع الأراضى كلها وتعتبرها ملكا للدولة.

لقد كثرت الأقاويل والحجج والاعتراضات والردود حول جواز تحديد الملكية الزراعية فقال بعض المجيزين إن الأرض وخيراتها ملك لله ونحن مستخلفون فيها ، وقال بعضهم إن الأرض ملك الدولة تقطعها من تشاء ولها الحق فى الرجوع عن هذا الإقطاع ، وقال آخرون هذه الملكيات الكبيرة باطلة فى أساسها ، لأنها ما تكونت وتضخمت إلا من الغصب والإكراه والعدوان على صغار المالكين ، فللدولة أن ترد الحق إلى نصابه ، وزعم غيرهم أن الملكية وظيفة اجتماعية).

وقال المانعون إن حق الملكية فى الإسلام حق مقدس لا يجوز مسه أبدا .

وهكذا تتردد الآراء بين الإفراط والتفريط فما هو الحل الوسط العدل المعتدل الذى تجيزه شريعة الأمة الوسط ؟.

لا ريب فى أن حجج المنكرين لحق الملكية من أساسه تتناقض مع حرية التملك التى أوضحنا بإسهاب أنها حرية طبيعية وبديهية ونافعة وضرورية فى نظر الإسلام .

أما رأى القائلين بإبطال الملكيات الكبيرة لأنها تكونت من الغصب والإكراه والسرقة فإن حجتهم فيه ليست بالحجة القاطعة الشاملة لكل الملكيات ، والتحقيق عن الغاصب وغير الغاصب يصطدم بصعوبات كبيرة تجعله كالمستحيل بسبب قدم العهد وتفرق الحصص بين وراث الغاصبين والمشترين منهم ، وهى صعوبات تشبه الصعوبة التى أدركها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه حين أراد أن يسترد أراضى الدولة التى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أبقاها فى أيدى أصحابها أهل البلاد

المفتتحة لينتفعوا بها ويؤدوا خراجها من غير أن يبيعوها، ثم أباح بنو أمية بيعها.

فقد وجد ثانى العمرين أن الأراضى قد توزعت فى المواريث وانتقلت بالبيع لأيد كثيرة، وفى استردادها صعوبة لا تتحقق معها العدالة فصرف النظر عن استردادها ومنع بعد ذلك من بيعها.

أما المانعون لتحديد الملكية فإنهم يجمدون أمام حكمة الآية الواردة فى سورة الحشر ويجمدون أمام حكمة القاعدة الشرعية السامية القائلة: (إن الضرورات تبيح المحظورات).

إن تجمع الملكيات الكبيرة وتركزها فى أيدى أفراد قلائل مع حرمان ٩٩ بالمائة من الشعب من الملكية لشىء من أرض الوطن، كان وما زال يؤلف المشكلة التى تنبه لها وحال دونها عمر بن الخطاب والصحابة حين أبوا أن يعطوا أراضى البلاد المفتتحة إلى المسلمين الفاتحين، كى لا تكون دولة بينهم فتحرم من الملكية بالمرة الأجيال القادمة من المسلمين، فجعلوها ملكا خراجيا للدولة كما سبق القول. وهى مشكلة اجتماعية كبرى أصبحت تطوى فى الأعماق خطراً كبيراً على الدولة الإسلامية بل على الإسلام كله.

فهل تعتبر أحكام الإسلام جامدة عاجزة عن حل هذه المعضلة؟.

كلا. إن الإسلام لم يجمد أمام هذه المعضلة ولم يعجز عن حلها، بل أوجد لها الحل الصحيح الحكيم عندما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم».

فانحصار الثروة الأرضية فى أيدى الأغنياء يتداولونها بين بعضهم دون أن يكون لغيرهم من الفقراء أى حصة فيها أو أمل فى تداولها هو أمر لا يرضاه مالك الملك الرزاق العليم الحكيم لأنه يعلم بحكمته أنه مخالف لمصلحة المجتمع.

وسيان أن يكون هذا الانحصار حاصلا بتملك سابق لنزول الآية أو بتملك جديد بعد نزولها لأن العلة فى منع الانحصار قائمة فى الحالتين.

والحالة الاجتماعية فى كل بيئة هى التى يدور عليها الحكم فإذا بلغت الحد الذى يجعل الشعب طبقتين: طبقة تملك كل الأرض وطبقة لا تملك شبرا من الأرض كما كان واقع الأنصار أهل المدينة مع المهاجرين إليها نشأت من هذا التفاوت العظيم ضرورة اجتماعية تقضى المصلحة العامة بمعالجتها معالجة معقولة لا يقصد بها حصول التساوى بين

الناس فى الثروة فالتساوى أمر اقتضت حكمة الله ، الذى فضل بعض الناس على بعض فى الرزق ، أن يكون مستحيلا ولكن يقصد بتلك المعالجة تخفيف أثر الطبقية التى تجعل فئة أسياد الأرض وفئة أقنان الأرض بل أقنان الأغنياء ، لكى لا تنقطع الصلة بالمرة ، بين المواطنين وأرض الوطن ، وليحل التواد والتراحم والتشاد محل التباغض والقسوة والتنافر بين أعضاء الجسد الواحد الذى إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

فهل نحن المسلمين فى واقعنا الاجتماعى بهذا التفاوت العظيم الذى يستوجب المعالجة ؟ إن الصورة الواقعية لكل قطر من الأقطار الإسلامية منـــذ تكأكأت علينا الأمم وتألبت علينا جيوش المستعمرين تكاد تكون على الوجه الآتى :

قطر مترامى الأطراف ، غنى التربة ، غزير المياه ، عظيم الكنوز ، يملك جزء من ألف جزء من سكانه تسعين بالمائة من أرضه والباقى من السكان لا يكادون يملكون شيئا .

والأغنياء مالكو الأرض هؤلاء أكثرهم أصبحوا من المترفين السفهاء المبذرين المتخنثين المتفككين الزناة المقامرين المحتكرين لموارد الثروة المفسدين لضمائر الحكام بالرشوة ، الساخرين من شعائر الإسلام المفاخرين بتقليد الأجانب المتآمرين مع المستعمر على الدولة ، قد أورثهم نعيم الترف ليناً فى عظامهم وترهلا فى جلودهم ، ورقة فى أخلاقهم وخوراً فى قلوبهم . . . فإذا اجتاحت البلاد جائحة ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ، ...

أما الذين يؤلفون السواد الأعظم من الشعب ، الذين يقدمون إلى الموت عند الذود عن الوطن والذين كان من شأنهم فى أيام عز الإسلام ، أن يكونوا حماة الحمى ، لأن الإيمان ربط على قلوبهم والعمل قوى سواعدهم ، والشدائد شددت عزائمهم ، فقد أصبحوا ، بحكم هذا الظلم الاجتماعى الذى رافقهم طيلة دور الانحطاط الإسلامى ، يقبعون فى أركان من الفقر والبؤس والذل ، جياع البطون ، عراة الأبدان حفاة الأقدام ، مراض الأجسام قلوبهم محشوة بالحقد على المترفين الذين عبدوهم وأذلوهم ، وعلى الدولة التى لا تعرفهم إلا عند الخدمة العسكرية ، وعلى الأقدار التى يتهمونها ، فهم إلى الكفر بالله أقرب منهم إلى الإيمان .

هذا هو حال المسلمين وبه استطاع الأجنبى المستعمر أن يطأ بنعاله رقابهم ويمتص منابع الثروة فى بلادهم ، ويتخذ من مساجدهم مرابط للخيول ومن بناتهم خادمات ،

ومن شبابهم خدما وجنودا يقذفهم إلى خطوط النار الأولى ، ويحتكر لنفسه النفط الذى ينبع من أرضهم ليحرقهم بناره ...

فهل يجوز بعد هذا أن نقول لمن يريد إصلاح هذا الحال بشىء من العدل الاجتماعى إن حق الملكية حق مقدس لا يجوز مسه ؟

وبعد فإن الإسلام يبيح استملاك العقار بل استملاك المسجد وهدمه لتوسيع الطريق وكل قوانين العالم تجيز ذلك اليوم فهل نقول بجواز الاستملاك لتوسيع الطريق، وهو أمر تافه فى الإصلاح ، ولو كان العقار المستملك لأيتام لا يملكون سواه ، ثم ننكر على الدولة استملاك قسم من أرض فرد غنى يملك ألوف المكترات ، إذا كانت مصلحة الأمة والدولة والمجتمع كلها فى خطر محقق واقع أو وشيك الوقوع ؟.

إن جميع الشرائع السماوية والأرضية متفقة على وجوب تضحية الأفراد بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن شرف الوطن أو عن حق تافه من حقوقه فهل ننكر على الدولة حقها فى استملاك قسم من أملاك الأغنياء بثمنه إذا كان الوطن بأرضه وسكانه أمام خطر الاستعباد ... ؟

إننا إذا دام هذا الحال صائرون إلى أحد المصيرين : الاستعمار أو الشيوعية وإنى لأعلم أن المترفين يفضلون الاستعمار الرأسمالى الذى يحميهم من تحديد الملكية ويحفظ عليهم ترفهم ولكن خاب فألهم فالاستعمار قد ذهب من العالم إلى غير رجعة . ولكن الشيوعية هى التى ستأتى إذا دام هذا الظلم الأسود يلف سواد الشعب الكادح ...

وليت المترفين الذين يبخلون بقسم من أراضيهم وأموالهم يدركون حكمة الغزالى رحمه الله حين يقول فى (المستصفى) : —

إذا خلت الأيدى من الأموال ، ولم يكن من مال المصالح ما يفى بخراجات العسكر ، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الإسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر ، جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين وما يؤديه كل واحد من الأغنياء قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله ، لو خلت خطة الإسلام من ذى شوكة يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور) .

ألا رحم الله الغزالى فقد كان وهو فى (طوس) يشم ريح الشيوعية تهب من مكان قريب . والسلام عليكم ورحمة الله .

نديم الجسر
عضو مجمع البحوث
مفتى طرابلس ولبنان الشمالى

الجلسة الخامسة

قضية الاجتهاد

للأستاذ الفاضل بن عاشور

تناول فضيلة الباحث موضوع الاجتهاد على نحو آخر، غير النحو الذى تناوله عليه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن، فأرخ لهذا الفصل من الفقه الإسلامى، وتتبع الاجتهاد منذ نشأ فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى أن قوى واشتد فى القرون الثلاثة الأولى، إلى أن أصابه بعض الوهن والضعف فى القرون المتأخرة ثم ظهرت فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر الدعوة التجديدية الإصلاحية التى نادى بها السيد جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده.

ثم تساءل: هل انقطع الاجتهاد؟ أو استمر مطردا؟ فإذا كان قد انقطع، فماذا نعنى بتجديده؟ وإلام نهدف من ذلك؟ وإن كان لم ينقطع فما الذى نشكوه من أمرنا اليوم؟ وما هو السبيل إلى علاج ما نشكو؟

إن وضع هذا السؤال المفرع، فى خاتمة المطاف، ليعود بنا إلى ما كنا عرجنا عليه: من مسألة صور الاجتهاد ومراتبه التى قال بها أكثر علماء الأصول.

ولقد أحسن ضبطها وتلخيصها أبو إسحاق الشاطبى فى كتاب الاجتهاد من الموافقات: إذ



جعل الاجتهاد على مراتب، منها ما يمكن أن ينقطع ومنها ما لا يمكن أن ينقطع، وقد بين الاجتهاد الذى لا يمكن أن ينقطع وهو من تحقيق المناط: بما هو حاصل بعد ثبوت الحكم بمدركه الشرعى، وهو راجع إلى إدخال جزئيات القضايا تحت الحكم، لا إدخال جزئيات الأحكام تحت الدليل، فليس هو من الاجتهاد الذى نقصده، وإنما هو عمل القاضى فى تنزيل الحكم المدون على القضية النازلة، والمفتى المقلد عندما يبين انطباق حكم مقرر من قبل على الصورة المسئول عنها، وقد صرح ابن قاسم فى «الآيات البينات» بأن صاحب هذه المرتبة ليس من الاجتهاد فى شىء.

وأما الصورة التى فوق هذه، مما جعله

الشاطبي قابلا للانقطاع ، فهي محل بحثنا ، وهي التي رأينا أنها انقطعت بتنازل متتابع درجة فدرجة عند جمهرة الفقهاء ، ولكننا رأينا أيضا أن ذلك التنازل لم يشمل جميع الفقهاء ، لوجود قلة تدافع في كل عصر حكم التنازل الذي أتى على الأكثرين ، والذي بمقتضاه اعتبر المجتهدون درجات على ما بينه الأصوليون : فالدرجة العليا وهي درجة الاجتهاد المطلق هي التي أيقنا بانقطاعها وتعطل سبيلها منذ ألف سنة ، وما أمكننا أن نجد بعد القرن الرابع من بلغ إليها ، على كثرة ما تطلع الناس إلى مقام الاستقلال في الاستدلال لأننا وجدنا قصارى ما بلغ إليه البالغون : اختيارا لقول من بين أقوال ، على طريقة الإنصاف ، أو رجوعا إلى دليل لاستنباط حكم لم يستنبطه واحد من السابقين ، لكن على المناهج التي كانوا قد سلكوها من قبل للاستدلال . وأعجب ما في ذلك أن الذين دعوا إلى الاجتهاد ، من القدماء والمحدثين ، وأتوا بما عدوه ، وعده الناس عليهم اجتهادا ، لم يكونوا فيما أتوا إلا في المراتب الدنيا من مقامات المجتهدين ، فهل زاد الواحد منهم على الاستقلال بالفتوى في مسائل معدودة ؟ أو الانتصار لمذهب غير مذهبه ؟ أو لقول متروك أو ضعيف أو مرجوح ؟

فالحق أن الانقطاع الذي قال الشاطبي بإمكانه قد حصل بالفعل ، وأن العلماء والعامة من المسلمين قد قنعوا بحالة انقطاعه ولم يحدث لهم اختلالا في أمرهم ، ولا اضطرارا ، كالذين نحن فيهما اليوم .

وإنما كان هذا الاكتفاء ـ في الحقيقة ـ راجعا إلى أن أوضاع الحياة الفردية والاجتماعية قد استمرت منذ أن انقطع الاجتهاد المطلق ، إلى أن ظهرت الحركة الإصلاحية الحديثة صدر القرن الحاضر متحدة أو متقاربة جدا ، في عامة مقوماتها فكانت التقادير والاعتبارات التي أخذ بها الفقيه في القرن الثالث والقرن الرابع ، باقية بعينها ، لا يستطيع فقيه في القرن الثامن أو التاسع أن يأخذ إلا بها ، وإذا كانت صور تقدير الحوادث النازلة قد بقيت متشابهة فإن الرجوع بها إلى الدليل لا يكون إلا من الطرق التي رجع إلى الدليل منها عند المتقدمين فيكون تشابه الحوادث قاضيا بتشابه الأدلة ، وتقارب مسالك الاستدلال ، فبذلك لم يتهيأ تكون دافع يدفع بالفقيه إلى النظر في الأدلة ومسالك الاستدلال ، بحيث أصبحت أكثر الصور التي تعرض لحياة الناس بعد استقرار المذاهب وتمام التفريع فيها سابقا حدوثها تقرير الحكم لها إذا أكد الفقيه ذهنه بوضع حكم لما لم يتنبه به كده إلا إلى تحصيل الحاصل ، وقد نقل عن إمام الحرمين أنه قال :

يبعد أن تقع مسألة لم ينص عليها فى المذهب ولا هى فى معنى المنصوص ولا مندرجة تحت ضابط فتبقى المسائل القليلة ، التى لا تبعد كثيرا عن أخواتها بحيث لا تحتمل التخريج أو الترجيح ، ولذلك فإن تعطل الاجتهاد المطلق وتنازل الاجتهاد فى المراتب ، لم يكن فيما قبل القرن الثالث عشر إلا نقصا علميا يحق لمن شكوا أن يشكوا ، لكن لم يترتب عليه خلل اجتماعى.

أما بالنسبة للقرنين الأخيرين فإن الأوضاع انقلبت انقلابا تاما بحيث أصبحت المسائل المدونة فى كتب الفقه قليلة النظائر فى الحياة العملية الحاضرة ، وذلك هو الذى جعل مشكلة الاجتهاد مصورة فى يومنا الحاضر بما لم تتصور به فى القرون الغابرة ولا يمكن أن تتصور به ، فقد أصبحت مظهرا لانعزال الدين عن الحياة العملية ، وأندفاع تيار الحياة بالأمة الإسلامية فى مجـــرى الهوى ، الذى ما جاء الدين إلا ليخرج بالمكلفين عن داعيته فإذا استطاعت الدولة الإسلامية أن تلفق قوانين للأحـــوال الشخصية ، تستمد من المذاهب المختلفة ، نصا أو تخريجا ، فأين هى من بقية القوانين العامة والخاصة ؟ وأين الدارسون للشريعة ؟ والباحثون فى الأحكام والداعـــون إلى الاجتهاد فيها من مبالغ الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية التى تطفح على بلاد الإسلام بكل نظام أجنبى مستعار ، دخيل على الملة ، غريب على الدين ؟

وقد رأينا أن كل ما سبقت محاولته فى هـذا الباب راجع إلى مسائل جزئية أكثرها نازل بمراتب عن مرتبة الاجتهاد المطلق الذى تكلمنا على انقطاعه ، وقد قال والدنا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور فى كتابه : « مقاصد الشريعة الإسلامية » ، «قد اشتدت الحاجة إلى إعمال النظر الشرعى والاستنباط والبحث عما هو مقصـد أصلى للشارع وما هو تبع ، وما يقبل التغيير من أقوال المجتهدين وما لا يقبله » . وبين أن الطريق إلى ذلك هو جمع مجمع علمى يحضره من أكابر علماء كل قطر إسلامى على اختلاف مذاهب المسلمين ليبسطوا بينهم حاجات الأمة ويصدروا فيها عن وفاق فيما يتعين عمل الأمة عليه .

فها هو حاضر الاجتهاد اليوم بين يدى هذا المجمع الجليل فأى طـــريق هو سالك إلى تحقيق ما لم يزل ينادى به المصلحون الصادقون فى أمر الاجتهاد .

إن الطريق الأقوم إلى تحقيق تلك الغاية إنما هو الشروع فى عمل علمى صحيح ينبغى - قبل كل شىء - على أن الذى يراد بعثه أو تجديده إنما هو اجتهاد حق ، وليس نقضا للاجتهاد أو عبثا فيه . وذلك بتبصير الباحثين بأن الاجتهاد حركة عقلية فى أحكام الدين المشروعة لمصالح الأمة ، كما بينا عليه أول البحث ، وليس الاجتهاد مجرد حركة عقلية تتجه مباشرة إلى المصالح . فنصوص الوحى

هي مادة الاجتهاد الأولى ، ومنها تستمد القواعد التي تكون مباني للأنظار المتحرية تطبيق الدين على حياة العصر ، بما يترجح به الظن أنه مراد الله من مصلحة الأمة اليوم وإذا كان الاستنباط من الأدلة يعتمد - من جهة - على مسالك الاستدلال التي بحث فيها القدماء ، وتضمنها علم أصول الفقه ، فإن تلك الجهة ليست إلا نصف أصول الشريعة فقط ، كما بينه شهاب الدين القرافي في أول كتابه في الفروق وأما النصف الآخر فهو الذي ذكر القرافي أنه لم يذكر منه شيء في أصول الفقه : وهي القواعد الفقهية الكلية . ولعل مسالك الاستدلال ، المذكورة في أصول الفقه ، الراجعة إلى مفاد الألفاظ ، وما يعرض لها ، وما يرجع إليها ، لا تقتضي منا جديدا كثيرا ، وهي ليست الأهم من النصفين ، وقد جعلها الشاطبي خادمة للنصف الآخر . ولكن لنأتي النصف الآخر : نصف القواعد ، صبحا طويلا ، لأنه - كما قال الشاطبي في المسألة الثالثة من كتاب الاجتهاد في الموافقات - مبني على فهم مقاصد الشريعة ، وتلك المقاصد مبنية على اعتبار المصالح ، والمصالح معتبرة من حيث وضع الشرع ، لا من حيث مطلق إدراك المكلف . قال الشاطبي : فإذا بلغ الإنسان مبلغا به يفهم عن الشارع قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة وفي كل باب من أبوابها فقد حصل له وصف هو سبب في تنزله منزلة النبي صلى الله عليه وسلم في التعليم والفتيا » وقد خط الشاطبي - في كتاب المقاصد من الموافقات - بين يدينا منهجا واضحا في اعتبار المصالح ، واقتضاء الشرع إياها ، وطريق جلبها بالأحكام الشرعية ، وإن سبقه إلى الإلمام بذلك الشيخ عز الدين بن عبد السلام في مقدمة « القواعد » ، ونجم الدين الطوفي فيما كتبه في شرحه على الأربعين النووية ، على حديث « لا ضرر ولا ضرار » ، وهو ما أبرزه في عرض وتلخيص محكمين الأستاذ مصطفى زيد في رسالته التي أحرز بها درجة الأستاذية في الشريعة من كلية دار العلوم . وبناء على مراعاة المصالح التي قصد الشرع إلى اجتلابها بعد ضبطها وتفصيلها يقع تقرير القواعد الكلية التي نوه بشأنها القرافي .

وهذه القواعد قد سبق الاعتناء بها من قديم ، من فقهاء المذاهب الأربعة . فألف فيها القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي في القرن الخامس كتابا سماه : « الجموع والفروق » ، لم نقف عليه ، ولكن ذكره تلميذه مسلم بن علي الدمشقي في كتابه « في الفروق » ، وهو كتاب توجد نسخة مخطوطة منه أو من مختصر له في خزانة جامع الزيتونة الأعظم بتونس ، وجاء عز الدين بن عبد السلام في القرن السابع ، فألف كتاب القواعد ، وطبق فيه في جزئيات

المسائل معنى انبناء الشريعة على جلب مصالح المكلفين . وتبعه تلميذه شهاب الدين القرافى فألف كتابه الشهير فى الفروق ، وأبدع فيه ما شاء . وألف فى القرن الثامن زين الدين رجب الحنبلى كتابا فى القواعد ، ورتبه على الأبواب وفرع عنها جزئياتها ، وعالم فاس الكبير أبو عبد الله المقرى كتابا فى القواعد الضابطة لأوجه الخلاف وفى القرن التاسع ألف أبو العباس الوانشريسى التلمسانى كتابا سماه القواعد أيضا جعله معاقد لمسائل الخلاف وألف فى القرن العاشر الشيخ زين الدين بن نجيم الحنفى كتاب « الأشباه والنظائر » فجعله أصولا للمذهب الحنفى استنبطها من استقراء الجزئيات ، وجعلها مداراً للاختلاف الأصلى بين المذهب الحنفى وغيره .

وهؤلاء الأئمة جميعا ، وإن أبدعوا فى إبراز القواعد إلا أنهم نظروا فيها إلى الناحية الاختلافية ، فمنهم من جعلها لضبط المذهب وتناسب فروعه : مثل القرافى وابن رجب ، ومنهم من جعلها مرجعا لبيان مبانى الاختلاف مثل المقرى الذى يقول أول كتابه : « قصدت إلى تمهيد ألف ومائتى قاعدة هى الأصل القريبة ، لأمهات مسائل الخلاف المبتذلة والغريبة . رجوت أن يقتصر عليها من سمت به الهمة إلى طلب المبانى ، وقصرت به الأصول عن الوصول إلى مكان النصوص من النصوص والمعانى » فإذا كان استقراؤهم قد انتهى بهم إلى قواعد خلافية بين المذاهب ، فإن هذا الاستقراء لو سلط عليه استقراء لأمكن أن يستخرج به من تلك القواعد الجزئية قواعد اتفاقية ، تكون أصولا مشتركة بين المذاهب ومبانى عامة للفقه الإسلامى من حيث هو ، وبذلك نسمو عن النظريات الظنية ، إلى القطعيات اليقينية كما يريد الشاطبى من أصول الفقه ، ولعله لهذا القصد وضع كتاب الموافقات فى مقابلة كتب الفروق . وقد حاول المروزى منذ القرن الرابع وضع هذه القواعد ولكنه سما بها إلى الأصل العالى ، فجاءت قليلة مجملة ، وهى الأربعة التى فى خاتمة كتاب الاستدلال من « جمع الجوامع » : (اليقين لا يرفع بالشك ، والضرر يزال ، والمشقة تجلب التيسير ، والعادة محكمة) .

ففى الوسط بين التفصيل النازل : الذى درج عليه أصحاب القواعد والفروق ، والإجمال العالى : الذى اعتصم به القاضى الحسين ، نجد القواعد الكلية القطعية ، التى هى ملاك مقاصد الشريعة ، فنبعث بها النصف الثانى من أصول الفقه ، ونجدد الاجتهاد الرشيد فى أفقه الأعلى ونمكن للدين سلطانه على حياتنا بعد أن انفلتت عنه ، والله المستعان .

الفاضل بن عاشور

التلفيق بين أحكام المذاهب

للأستاذ محمد أحمد فرج السنهوري

استهل الأستاذ الفاضل كلامه قبل الدخول إلى الموضوع فبين أن المسألة الملفقة أو التلفيق في التقليد أو تخير المقلد من أحكام المذاهب ما يعمل به في عباداته أو غيرها يعتبر من المسائل التي لم يبدأ الخوض فيها إلا في العصور الإسلامية المتأخرة. وقد ظهرت العناية بها واضحة في نطاق العبادات ومسائل الزواج والطلاق. ثم ذكر أنه منذ ظهور الاتجاه إلى تخير الأحكام من المذاهب الفقهية لتكون قانونا يعمل به في هذا العصر والحاجة إلى هذه العناية تقوى وتشتد ليكون في بحث هذه المسألة والاهتمام بها كشف للحقائق وتبصرة لعامة المسلمين.



ثم مهد لبحثه بالكلام على نشأة الفقه الإسلامي وتطوره. فذكر. أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لأنها خاتمة الشرائع السماوية فهي تتسع لحاجات الناس وتساير مصالحهم في شتى البقاع ومختلف العصور. فقد كانت تلك القواعد المرنة ميدانا للاجتهاد ظلت أبوابه مفتحة على مصاريعها بعد انقضاء عصر التشريع ولجها من هو أهل للدخول فيها، وكان هذا في العصر الأول من عصور الاجتهاد إلى أن ظهر فقهاء الأمصار وكان لكل منهم مدرسته ولكل مدرسة طابعها في الاجتهاد والتخريج والفتوى وبظهورهم ظهرت المذاهب الفقهية الجماعية وتبلورت هذه المذاهب بتدوين كل مذهب أقوال الإمام الذي ينسب إليه المذهب وأقوال أصحابه وكبار أتباعه من المجتهدين الذين ساروا على منهج إمامهم في الأصول والتفريع والتطبيق فنما ببحوثهم واجتهادهم مذهبهم الفقهي خاصة والفقه الإسلامي عامة واتسع نطاقه اتساعا عظيما غطى حاجة المجتمع الإسلامي في ذلك العصر. ثم تلا ذلك عصر التقليد والمقلدين الذين لم يستندوا في تقرير المسائل على أقوال واضحة منقولة عن الأئمة المجتهدين. وإنما التمسوا لها المأخذ في أقوال

غامضة والشواهد فى أحكام فقهية متناثرة فى المذاهب . فظهر بهذا العمل التلفيق بين أحكام المذاهب الذى هو موضوع البحث .

وقد حصر كلامه فى ثلاث شعب للتلفيق هى شبه مستقلة على ما بينها من الارتباط الوثيق والتسلسل وهى :

١ — التلفيق فى الاجتهاد .
٢ — التلفيق فى التقليد .
٣ — التلفيق فى التشريع .

بدأ كلامه فى هذه الفروع الثلاثة ببيان معنى التلفيق ، فذكر أن المعنى اللغوى لهذه الكلمة هو : «ضم الأشياء والملاءمة بينها لتكون شيئاً واحداً أو السير على وتيرة واحدة» . وأن هذا المعنى لها هو الأكثر استعمالا ، وهو مراد الفقهاء والأصوليين والمحدثين عند استعمالهم لها .

ثم أعقبه بالكلام على التلفيق فى الاجتهاد المعروف بالاجتهاد المركب ، ومثل له بأن يجتهد اثنان أو أكثر فى موضوع فيكون لهم فيه قولان أو أقوال ، ثم يأتى من بعدهم من يجتهد فى الموضوع نفسه ويؤدى اجتهاده إلى الأخذ من كل قول ببعضه ، ويكون مجموع ذلك مذهبه فى الموضوع ، وبذلك يكون اجتهاده اجتهاداً مركبا بالنظر إلى ما سبقه من اجتهاد .

وقد عرض لهذا النوع من التلفيق فى أحوال عدة وفى نهاية مطافه ذكر أن الأخذ بهذا النوع اختلف فيه الأصوليون ، بين قائل بالجواز مطلقا ، وبين قائل بالمنع مطلقا ، وبين قائل بالتفصيل ، وأوجز ما يستند إليه كل فريق فيما يذهب إليه .

ثم ثنى بالكلام على التلفيق فى التقليد ، فبين حال المقلد من كونه عاميا صرفا وذكر أن هذا الصنف من المقلدين لا مذهب له ، وأن مذهبه فى كل نازلة هو مذهب من أفتاه فيها ، أما إذا كان ذا نظر وبصر بالمذاهب لم يبلغ به مرتبة الاجتهاد فذكر أن هذا الصنف إذا تمذهب بمذهب إمام معين كان معنى هذا أنه متبع له فى المعرفة والاستدلال وفى العمل إذا ما دعت إليه الحاجة ، ولا يلزمه ذلك بالتزام هذا المذهب بعينه ، بل له الانتقال عنه كلية أو فى بعض الأحكام وقد نقل عن كثير من العلماء تحولهم عن المذاهب المقلدين لها إلى الأخذ بغيرها ، فليس من واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ولم يثبت أن الله أوجب على أحد من الناس التمذهب بمذهب رجل معين من الأمة بحيث يقلده فى دينه فى كل ما يأتى ويذر دون غيره .

وبين أن التلفيق فى التقليد يقع على ضربين :

أولهما : يكون بتخير الأحكام الكلية للعمل والمعرفة والاطمئنان على أرجحيتها دون نظر إلى جزئيات تلك الأحكام .

وثانيهما : يكون بتخير الحكم للعمل به فى نازلة معينة . وقد قال فى كلامه عن الضرب الأول أنه لم يعرف أحداً ممن أجازوه قيده

بقيد أو اشترط فيه أي شرط . أما الضرب الثاني وهو تلفيق التقليد في العمل عند النوازل المعينة الذي تكلموا في منعه أو في جوازه بشروط بينها مع ما فيها من اختلاف في العلماء وبعد سرد طويل وعرض مفصل . لما ورد في المذاهب الفقهية أو أثر عن العلماء في هذه بالشروط أتبعه بقوله :

بعد هذا كله ظهر لنا أن الاستناد إلى إجماع المسلمين للاستدلال على بطلان التلفيق استناد غير صحيح .

ثم ختم بحثه بالكلام على العنصر الثالث وهو التلفيق في التشريع . وهاك نص بيانه فيه .

* * *

التلفيق في التشريع

لا أعني بالتلفيق في التشريع إلا تخير ولي الأمر من أحكام مختلف المذاهب الفقهية المعتبرة مجموعة من الأحكام لتكون قانونا يقضي ويفتي به بين من يخضعون له . ولا أعلم أن شيئا من الأحكام الفقهية جمع ليكون قانونا قبل الذي كان في عهد الأتراك العثمانيين من إصدار المجلة العدلية كقانون . وهذه المجلة لم يكن فيها تخير من أحكام المذاهب بل كانت كل أحكامها من مذهب أبي حنيفة والتخير من أحكام المذاهب الأربعة لتكون قوانين قد وقع فعلا في مصر منذ سنة ١٩٢٠م ثم اتسع نطاقه بعد ذلك في لجنة الأحوال الشخصية التي شكلت سنة ١٩٣٦ ميلادية ولا يزال التخير في حدود هذا النطاق جاريا حتى الآن .

ولما ألفت لجنة الأحوال الشخصية كان فيها صفوة مختارة من كبار العلماء ورجال القضاء الشرعي وشيوخ المذاهب الأربعة الذين اتسعت معارفهم وقويت مداركهم ، وتوافرت لهم المدارسة والتحقيق ، واكتملت تجاربهم ، فكانوا هيئة ممتازة لها ما لها من القدرة والمكانة في الفقه الإسلامي وقد رأوا أن الزمان تغير تغيرا عظيما ، وأن الحياة الاجتماعية تطورت تطورا واسع المدى ، وأن المصالح قد تضاربت وتشابكت وأن الأوضاع المستحدثة قد كان من ورائها مشكلات متكاثرة ، هي أحوج ما تكون إلى المواجهة السريعة التي ترعى المصالح أتم رعاية ، وترفع الحرج وتستنبط الحلول الميسرة في نطاق الفقه الإسلامي

ورأوا أن في الفقه الإسلامي كنوزا عظيمة ترتفع فوق كل تقويم ، وفيه ثروة ضخمة لا تدانيها أي ثروة فقهية أخرى ، وفيها الكفاية وما هو فوق الكفاية للوصول إلى شتى المقاصد وخير الغايات إذا أحسن استعمالها ، ولن يكون هذا الإحسان اليوم إذا وقفنا عند أحكام مذهب بعينه ، ولن يكون إلا إذا كان التخير من أحكام المذاهب المعتبرة ، فهذا يحقق المصالح ، ويهدي إلى الحلول الموفقة وهو في الوقت نفسه يقي الفقه الإسلامي شر المزاحمة العاتية والصراع العنيف مع الشرائع الوضعية ، ويدفع عنه همز الأفاكين ولمزهم ، ويحمي الأقطار الإسلامية من الاستعمار التشريعي الذي تغلغل

فى أحشائها جميعها ، رأوا هذا فأقدموا على التخير مؤمنين بأن جميع الائمة على هدى من ربهم ومؤمنين بأن فى اختلافهم رحمة وأن هذه الأزمان هى الأوقات التى يجب أن تتجلى فيها هذه الرحمة بأعظم مظاهرها فبدت طلائع البشرى تحقق الأهداف كلها .

ورأوا أن تخيرهم هذا ليس تخير اجتهاد وليس إلا تخير مقلدين . ورأوا أنه تخير لأحكام كلية لم ينظر فيـــه إلى الجزئيات وما عسى أن ينشأ عنه حين العمل فهو تخير لم يعترض عليه أحد ولم يمنع منه أصولى ، ولا فقيه ، وهو أبعد ما يكون عن أحداث القول الثابت واضرابه وما ثار حوله من الخلاف وهو أبعد ما يكون عن التلفيق فى التقليد محلا وما ثار حوله . ومن ظن أنه منه فقد تشابهت عليه الأمور ، ولم يوفق إلى الفرق بين المفاهيم المختلفة فاختلطت عليه الأمور وفيما أسلفته فى هذا البحث ما يكشف الغطاء ويمحو الغشاوة .

ورأوا أن الكثرة الغالبة من الأحكام الكلية التى يتخيرونها لا تفضى عند العمل إلى التلفيق الذى تكلموا فيه وقالوا : إنه تلفيق قادح ، ولم تتفق كلمتهم فيه . فهى أحكام الأمور مختلفة لا تجمع بينها رابطة ، فلا شأن لها بما يسميه بعضهم التلفيق القادح أما فى النادر فإن هذا التخير قد يفضى إلى هذا التلفيق حين العمل كالإبقاء على الأحكام التى تقول بصحة الزواج بلا ولى وبعبارة النساء ، مع الأخذ بأن من طلق ثلاثا بلفظ واحد لا يقع طلاقه إلا واحدة رجعية ، فمن تزوج على هذه الصفة وطلق مثل هذا الطلاق وراجع زوجته كان مستديما لعصمتها على وجه يتحقق فيه ما سمى بالتلفيق القادح ، غير أنه تلفيق قد وقع اتفاقا فى هذه الجزئية ولم يقصد إليه بخصوصه فى التقليد ولا حين التخير فكان تلفيقا لا حرج فيه وجائزا حتى عند من يمنعون التلفيق القادح .

ورأوا أنه حتى لو جاروا من يخلطون بين الأمور ، فأعطوا تخير الأحكام الكلية من غير نظر إلى الجزئيات حكم التلفيق القادح إذا أفضى إليه هذا التخير وجعلوه منه فإن المسألة خلافية - إن صح هذا التعبير - وليس العمل بقول المانعين أولى من العمل بقول المجوزين بل العكس هو المتعين لقوة دليل المجوزين ولما فيه من المصالح العظمى للأفراد والجماعة المسلمين ولا يترتب عليه أى مفسدة من المفاسد التى اتقاها المانعون من التلفيق المقصود فى الجزئيات والملحوظ عند التقليد ولو قدرنا أن المنع أقوى فإن التخير لا يكون قانونا إلا إذا أمر ولى الأمر باتباعه وأمره مرجح قوى ، ولذلك وجبت طاعته فيما يأمر به متى كان فى صالح الرعية ، إلا أن يأمر بمعصية متيقنة .

هذه هى سبيل المتخيرين أو الملفقين فى التشريع ، وهى أفضل السبل فى أيامنا ، وفيها الخير كل الخير للإسلام والمسلمين ، والله سبحانه هو الهادى إلى الرشاد . . .

محمد أحمد فرج السنهورى
عضو المجمع

الجلسة الثامنة

نظام الحسبة في الإسلام

للدكتور إسحاق موسى الحسيني

تبين في الإسلام ، في ضوء تاريخ الأديان البدائية والسماوية جميعا ، فضيلتان : الأولى النظر الشامل إلى الحياة ، باعتبارها وحدة مؤلفة من عناصر متداخلة . فالجانب الروحي لا يقل خطراً عن الجانب المادي ، وأدب النفس لا يقل عن أدب الجماعة . والمعاملات تعتمد على أسس أخلاقية ، اعتماد العبادات على أسس روحية ، وللفرد ما للجماعة من حقوق ، والفضائل جميعها متساوية في الاتباع لا تغني واحدة عن الأخرى ، وبعبارة أخرى دعا الإسلام إلى السعادة الكاملة في الدارين ، وإلى إقامة مجتمع فاضل مشترك في السراء والضراء متعاون على البر والتقوى آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، قال الله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» .

والفضيلة الثانية : النظر إلى الناس جميعا أسرة واحدة تتعارف وتتعاون ، لا تفاضل بينها إلا بالتقوى ، والنظر إلى وحدة



الرسالات السماوية وأخوة الأنبياء جميعا دون تفريق بين أحد منهم ، ونجم عن ذلك النظر سماحة في المعاملة ، وعدل وإحسان وأخذ الحكمة حيثما كانت والفائدة حيثما وجدت ، وانتشار الإسلام في الأرض ، واستيعاب الحضارة الإسلامية خير ما في الحضارات الإنسانية .

ووردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق ، وإلى الفضائل الاجتماعية ، وإلى التعامل بالحق والعدل كالبر بالوالدين ، وإيتاء المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين ، وإطعام البائس الفقير ، والرفق بالضعفاء والمرضى ، والعفو والصلح ، والصبر ، والصدق ، والوفاء ، والصدقة والتعاون على البر والتقوى ، والانتشار فى الأرض ابتغاء فضل الله .

ووردت آيات كثيرة تنهى عن مساوئ الأخلاق والرذائل كالجهر بالسوء من القول وظن السوء والكذب ، والخيانة ، والظلم ، والبغى ، والعدوان ، والفحشاء ، وأكل الأموال بالباطل ، وأكل أموال اليتامى وقهرهم ، والتطفيف فى الكيل والميزان ، والتبذير ، أما أحاديث الرسول عليه السلام وآثار الخلفاء والصحابة فكثيرة جدا ، وهى جميعا مستوحاة من المبادئ القرآنية ومؤيدة إياها وشارحة لها (١) .

والحسبة أثر من آثار الفضيلتين السابقتين لاعتمادها على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولشمول اختصاصها بالأخلاق الفردية والفضائل الاجتماعية وبتحقيق العدل والحق والإنصاف فى جميع المعاملات .

لا شك فى أن الحسبة منبثقة من الإسلام نفسه ، قائمة على القواعد الشرعية والاجتهاد العرفى وأنها نمت بنمو المجتمع الإسلامى حتى أصبحت نظاما دقيقاً فريدا . ولذا عدها بعض المؤلفين كالماوردى (١) المتوفى سنة ٤٥٠ هـ . وابن الأخوة (٢) المتوفى سنة ٧٢٩ هـ . من قواعد الأمور الدينية ، وعدها ابن خلدون (٣) المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وظيفة دينية .

والحسبة لغة ـ كما فى لسان العرب « مصدر احتسابك الأجر على الله . تقول : فعلته حسبة ، واحتسب فيه احتسابا والاحتساب طلب الأجر . والاسم الحسبة وهو الأجر . واحتسب فلان على فلان أنكر عليه قبيح عمله . » وهى فى الشرع ـ كما قال الماوردى ـ « أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله » (٤) وعرفها الغزالى بأنها « عبارة عن المنع عن منكر لحق الله صيانة للممنوع عن مقارفة المنكر » (٥) .

(١) أثبت ابن الأخوة فى (معالم القربة فى أحكام الحسبة) بعض هذه الآيات والأحاديث ص ١٥ ـ ٢٠ مطبعة دار الفنون بكمردج سنة ١٩٣٧ .

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٤٥ : القاهرة ١٢٩٨ هـ
(٢) معالم القربة ص ٧ .
(٣) المقدمة ج ٢ ص ٥٢٦ لجنة البيان العربى بالقاهرة ١٠٥٨ .
(٤) الأحكام السلطانية ص ٢٢٧ .
(٥) إحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٧٦ للطبعة اليمنية بالقاهرة .

وواضح من كتب الحسبة أن الرسول عليه السلام وخلفاءه من بعده ونفراً من العلماء المتطوعين في القرنين الأولين للإسلام ، كانوا يرشدون إلى أمور دينهم ودنياهم ، يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، قبل أن تكون الحسبة منصبا من مناصب الدولة يتولاها محتسب [١] وورد في الأحاديث والآثار أن الرسول عليه السلام وخلفاءه ولوا على السوق عاملا . وولى الرسول سعيد ابن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة . وولى عمر بن الخطاب السائب بن يزيد مع عبدالله بن عتبة بن مسعود على سوق المدينة [٢].

وفي منتصف القرن الثاني للهجرة - في بداية العصر العباسي - اتسعت الدولة ، وترامت أطرافها ، ونشطت الصناعة والتجارة ، وكثرت الأسفار ، فانفرد بالوظيفة محتسب يتولاها بأمر الخليفة أو أحد ولاته . وربما حدث ذلك في زمن الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أنشئت في عهده مدينة بغداد ونظمت أسواقها وطرقها . فقد ذكر الخطيب البغدادي أن المنصور ولى الحسبة يحيى بن زكريا ثم غضب عليه لاستغوائه العامة وقتله سنة ١٥٧ هـ [١] .

وذكر أبو الفداء في حوادث سنة ١٦٩ هـ أن نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم القارئ أحد القراء السبعة ، توفي في تلك السنة وأنه كان « محتسبا » الخليفة الهادي [٢] وذكر الغزالي في الإحياء [٣] قصة « محتسب » زمن المأمون ، حفيد المهدي ، أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فأحضره المأمون وعزره لاحتسابه من غير أمره . فسقط من المأمون كتاب وصار تحت قدمه فاحتسب عليه الرجل ورفع المأمون الكتاب وقبله ثم قال له : لم تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا أهل البيت ، ونحن الذين قال الله تعالى فيهم: « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » فرد عليه الرجل بأنه من أعوانه وأوليائه وله الحسبة اتباعا لقوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

فأعجب المأمون بكلامه وأذن له بالمضي على ما كان عليه بأمره .

واستعمل الغزالي في القصة لفظة المحتسب .

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٤٥ ، وإحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٢١١ - ٢١٤ .

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ج ٢ ص ٥٧٥ سنة ١٣٣٦ هـ والتراتيب الإدارية للكتاني ج ١ ص ٢٨٥ الرباط ٣٤٦ هـ .

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧٩ القاهرة ١٩٣١ .

(٢) المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٢ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

(٣) ٢ - ٢٨ .

ويبدو من كلام ابن خــلدون . أن المسلمين فى شمال إفريقيا والأندلس أدخلوا الوظيفة فى عمـــوم ولاية القاضى يولى فيها باختياره ، إذ قال : « وقد كانت الحسبة فى كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والأمويين بالأندلس داخلة فى عموم ولاية القاضى يولى فيها باختياره . ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخليفة ، وصار نظره عاما فى أمـــور السياسة ، اندرجت فى وظائف الملك وأفردت بالولاية.

والماوردى [1] وهو صاحب أقدم فصل وصل إلينا عن الحسبة جعل الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم ، وأثبت فروقا بينهما، الأمر الذى يدل على أن الحسبة فى القـــرن الخامس هـ ـ على الأقل ـ كانت مستقلة عن القضاء فى المشرق .

وقد استمرت الحسبة منذ القرن الثانى إلى نحو أواسط القرن الثالث عشر لهجرة ، قال المرحوم محمد كرد على فى المقتبس [2] تنقسم الحسبة إلى دينية ومدنية ، فالدينية منها قد بطلت من بلاد الإسلام منذ أصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات وأما المدنية بقى أثر ضئيل منها فى مصر خصوصا إلى نحو أواسط القرن الثالث عشر للهجرة ، واستعيض عنها فى بعض البـلاد العثمانية بمجالس المـــديريات ، ونقل فى المقتبس [3] عن (المجلة التونسية الفرنسية) دون ذكر العـدد والتاريخ تطور الحسبة فى تونس قائلا : « وقد انتهت الحـال بأن جعلت بعض أعمال المحتسب فى تونس بين مجلس العشرة الأعيان... وكان من خصائصه النظر فى غش البضائع ،وهو يحكم على الجيد منها والردىء فيما إذا حدث اختلاف بين البائع والمشترى وذلك بوساطة أمين التجار ولم يكن أعضائه هذا المجلس يقبضون راتبا وكان لأعضائه امتيازات خاصة . كأن يكون له حق التصدر على سائر التجار ويجلسون فى بعض الأحوال بالقـرب من « الباى » وقد تولت محكمة العرف اليوم ما كان يتولاه مجلس العشرة سابقا من أمـور الاحتساب . وكانوا يحكمون فيما يعرض من المسائل كما يحكم أهل الخبرة . وهذه المحكمة مؤلفة من أمين التجار وعشرة معاونين .

وقد أخـذ شيخ المدينة ينظر فى بعض الأعمال التى كان يتولاها المحتسب سابقا . وهو يرأس نقابة الحرف وحكمه لا يقبل النقض فيما يحدث من الاختلافات فى مسائل الصناعات وهو المكلف بحجز أموال المفلسين وبيعها فى تونس ، وتوزيع ما حصل من أثمانها على أرباب الديون على اختلاف تابعيتهم ...

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٢٨ .

(٢) مجلد ٣ ج٩ سنة ١٩٠٨ ص٥٢٦ .

(٣) المجلد ٦ سنة ١٩١١: ص١٥٨-١٦٠ .

ومشايخ الحارات هم اليوم مضطرون إلى أن يقدموا بيانا مطبوعا عمن يولد ويتوفى فى أحيائهم من المواطنين وهؤلاء المشايخ صورة مصغرة من المحتسبين أمس. وقد أثبت النص لأهميته.

وتتبع الحسبة فى مصر الدكتور السيد الباز العرينى منذ نشأتها إلى نهايتها. وخلاصة ما وصل إليه أنها تطورت باختلاف العصور، وأنها بقيت فى مصر، فى نطاق الالتزام حتى سنة ١٢٣٤ هـ (١٨١٩ م) حين ألغى التزامها وأصبح المحتسب موظفا تابعا لديوان الخديوى منذ سنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) ودخلت مظاهر الوظيفة فى وظائف أخرى [١].

ولم يبق من الوظيفة اليوم إلا الاسم. ففى بعض القرى الفلسطينية يطلقون «الحسبة» على السوق الذى يقصده الباعة من القرى، وهو خلاف سوق القرية الثابت.

لقد عنى المسلمون بالحسبة عناية كبيرة، فألفوا فيها الفصول والكتب، ولكن معظم ما كتب ضاع ولم يصلنا إلا قليل. وأقدم ما وصلنا الفصل الذى كتبه أبو الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى كتابه الأحكام السلطانية، ثم الفصل الذى كتبه الإمام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ فى كتابه إحياء علوم الدين [٢].

أما الكتب التى وصلت إلينا أسماؤها فتبلغ نحو الثلاثين [٣]، المطبوع منها حسب علمنا:

(١) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر الشيزرى القاهرة ١٩٤٦ م.

(٢) معالم القربة فى أحكام الحسبة لمحمد ابن محمد بن أحمد القرشى المعروف بابن الأخوة كمبردج ١٩٣٧ م.

(٣) فى آداب الاحتساب لأبى عبد الله محمد بن أبى محمد السقطى الأندلسى باريس ١٩٣١ م.

(٤) الحسبة لابن عبدون التجيبى الأندلسى (نشرت فى المجلة الآسيوية ضمن ثلاث رسائل) باريس ١٩٣٤ م.

---

(١) أعارنى الدكتور العرينى مخطوطه مشكورا. وهو الذى حقق ونشر (نهاية الرتبة فى طلب الحسبة) القاهرة ١٩٣٦. والنقل من المخطوط ص ٤٩. ويرجع إلى بحث المرحوم عبد الحميد العبادى فى مجلة: مجمع اللغة العربية الجزء الثامن ص ٤٢٢ - ٤٢٧ لسنة ١٩٥٥.

(٢) ذكر كوركيس عواد الفصول والنبذ التى كتبت فى الحسبة فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق مجلد ١٧ ص ٤٣٣ - ٤٤٤، سنة ١٩٤٢.

(٣) المصدر السابق ومقال الحسبة فى الإسلام لمحمد كرد على فى مجلة المقتبس مجلد ٣ ص ٥٣٦ - ٥٥٤، سنة ١٩٠٨.

(٥) الحسبة فى الإسلام لابن تيمية القاهرة ١٣١٨ هـ وغيرها ـ ١٩٠٠ م .

(٦) الحسبة لجمال الدين يوسف بن عبد الهادى المعروف بابن المبرد الدمشقى بيروت ١٩٣٧ م .

(٧) الإشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى القاهرة ١٣١٨ هـ ، ١٩٠٠ م .

(٨) المختار فى كشف الأسرار وهتك الأستار لعبد الرحمن بن أبى بكر الدمشقى المعروف بالجوبرى بيروت ١٩٠٩ م .

(٩) الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية لأبى الحسن الخزاعى تونس .

(١٠) التراتيب الإدارية لمحمد الحسينى الإدريسى الكتانى الرباط ١٣٤٦ هـ ١٩٢٧ م .

(١١) ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب لابن عبدون وابن عبد الرءوف والجرسيفى القاهرة ١٩٥٥ م .

(١٢) الحسبة لعبد الرزاق الحصان بغداد ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦ م .

أما المخطوطات فتبلغ سبعة عشر كتابا [١] وأقدم ما وصلنا اسمه الحسبة الكبير (الكبرى) لأبى العباس أحمد بن محمد بن مروان السرخسى المتوفى سنة ٢٨٦ [١] . ويذكر له كتاب آخر اسمه الحسبة الصغير (الصغرى) ولهذا الكتاب أهمية خاصة لأنه أقدم ما وصلنا اسمه ، ولأن صاحبه تولى الحسبة ببغداد زمن المعتضد . ولكنه مفقود [٢] .

وكتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى أقدم الكتب المطبوعة ، وقد توفى مؤلفه سنة ٥٨٩ هـ ، واعتمد عليه معظم الذين ألفوا بعده كابن الأخوة المتوفى سنة ٧٢٩ هـ ، وابن بسام من رجال القرن الثامن الهجرى ، ومن المحتمل أن يكون الشيزرى قد تولى الحسبة ، إذ فى كتابه من التفصيل والتدقيق وسعة الاطلاع ما لا يتحقق إلا لصاحب هذه الوظيفة .

ولهذه المؤلفات شأن كبير فى تاريخ الحضارة الإسلامية لثلاثة أسباب : الأول : لأنها تكشف عما بلغته الحضارة الإسلامية من البسطة والرفعة بباعث دينى أصلا ، وتبين الحرف والصناعات التى حدثت فى عصور الرقى وتخصصت فى دقائق الصناعة ، والثانى : لأنها تكشف عن براعة المؤلفين المسلمين فى درس الحرف والصناعات الكثيرة وتتبع

---

(١) كوركيس عواد فى المرجع السابق .

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ، ط ١٠ استانبول ، ج ١ ص ٦٦٥ ، سنة ١٩٤١ م .

(٢) كوركيس عواد ، مجلة المجمع العلمى العربى المذكورة سابقا .

أسرارها ، وإظهار وسائل الغش فيهـــا ، والثالث : لأنها تضم ذخيرة لغوية لا وجود لها فى المعاجم ، وتثبت أن اللغة العربية وسع صدرها مئات الألفاظ الدخيلة (١).

إن الحسبة ـ سواء أكانت «أمراً بالمعروف أم نهياً عن المنكر» تلزم كل مسلم ، أم وظيفة فى الدولة ينهض بها وال ـ دلالة بليغـة على نوع المجتمع الذى أراده الله للمسلمين .

وإن الآيات القرآنية والأحاديث النبوية صريحـة فى الدعوة إلى إقامة مجتمع فاضل ، لكل عضو فيه حق الإرشاد إلى ما هو حق وخـير ، وحق الاعتراض على كل ما هو باطل وفاسد .

ولذلك أجيزت الحسبة التى بمعنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكل مسلم مكلف قادر وإن لم يكن مأذونا (٢) . ودلل الغـــزالى على جوازها للفاسق والرقيق والمرأة (٣) . كما دلل على إثباتها للولد على الوالد ، والعبد على السيد ، والزوجة على الزوج ، والتلميذ على الأستاذ ، والرعية على الراعى ، مع فروق (١) لطيفة ، وهى بذلك وظيفة اجتماعية قبل أن تكون وظيفة حكومية ، وشملت الحسبة جميع مظاهر الحياة الدينية والدنيوية ، كما شملت الأخلاق الفردية والقيم الاجتماعية والمعاملات .

أما الدين فحق الله على الناس ، وأما الدنيا فحق الناس بعضهم على بعض ، وأداء حق الله مقدم على أداء حق النـاس ، لأن الدين هو الوازع الدائم الذى يغنى عن الوازع المدنى . وما لم يقم فى الإنسان ضمير حى ينبض بحب الله ويتبعه إلى مرضـاته ، فى جميع الحركات والسكنات، فإن الوازع المدنى يعجز عن أداء عمله كاملا ، ولذلك كانت الدعوة إلى العبادات جزءاً لا يتجزأ من الحسبة ، كى يبقى الضمير حيا متوجهاً إلى الله تعالى فى كل حال . وعلل ابن تيمية أمر المحتسب من العامة بالصلوات « بأن الصلاة هى أعرف المعروف من الأعمال وهى عمود الإسلام وأعظم شرائعه ، وهى قرينة الشهادتين » (٢) . ولهذا المعنى قال الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٣) .

---

(١) دعا المرحوم عبد الحميد العبادى مجمع اللغة العربية فى القاهرة إلى جمع هذه الألفاظ وشرحها فى مجلة المجمع ، ج ٨ ، ص ٤٢٧ ، طبعت سنة ١٩٥٥ .

(٢) الإحياء ٢/٢١٤ .

(٣) الإحياء ٢/٢١٤ .

(١) الإحياء ٢/٢١٨ .

(٢) الحسبة فى الإسلام ، ص ٩ .

(٣) العنكبوت ٤٥ .

وعناية الحسبة بالأخلاق تظهر فى مواطن كثيرة ، منها أنه يجوز للمحتسب أن يأمر الجماعة الذين دون الأربعين عدداً أن يقيموا صلاة الجمعة ، لئلا ينشأ الصغير على تركها فيظن أنها تسقط مع زيادة العدد كما تسقط بنقصانه »[1] . وللمحتسب أن يأمر بتعجيل الصلاة لئلا يفضى تأخيرها بالصغير الناشىء إلى اعتقاد أن هذا هو الوقت دون ما تقدم[2] ومما يأخذ المحتسب بمراعاته تقصير المعلمين فى أداء عملهم خشية أن ينشأ الصغار على طرائق يكون نقلهم منها بعد الكبر عسيرا فيقر منهم من توافر هله وحسنت طريقته ويمنع من قصر وأساء مما تفسد به النفوس وتخبث به الآداب[3] . ويطلب من المحتسب نفسه التحلى بالأخلاق الكريمة كالرفق، والحلم، والصبر لما جاء فى الأثر «لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، ورفيقا فيما يأمر ، ورفيقا فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر ، حليما فيما ينهى عنه »[4] .

وللمحتسب أن يمنع المؤدب استخدام الصبيان فى حوائجه وأشغاله التى فيها عار على آبائهم كنقل الزبل وحمل الحجارة وغير ذلك ، وأن يتحرى بأن يكون السائق لهم - المكلف بأخذ الصبيان يومياً إلى المكتب - أميناً ثقة أهلا ، لأنه يتسلم الصبيان فى الغدو والرواح ، وأن يمنع المؤدب من تحفيظ الصبيان الشعر المسترذل والنظر فيه (١) ، وأن يأمر الأولاد ببر الوالدين والانقياد لهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما وتقبيل أيديهما عند الدخول عليهما (٢) ، وألا يضرب الصبى إلا تحت قدميه ثلاثا أو خمسا (٣) .

وللمحتسب أن يأخذ السادة بحقوق العبيد والإماء ، وألا يكلفوا من الأعمال ما لا يطيقون وإذا استعداه العبد فى امتناع سيده من كسوته ونفقته جاز أن يأمره بهما ويأخذه بالتزامها (٤) .

ويجب عليه أن يراعى سيرة أهل الأسواق المختصين بمعاملة النساء وأماناتهم . فإذا تحققها منهم أقرهم على معاملتهن ، وإن ظهرت منهم الريبة وبان عليهم الفجور منعهم من معاملتهن وأدبهم على التعرض لهن (٥) .

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٢٣٠ .

(٢) الأحكام السلطانية ، ص ٢٣١ .

(٣) الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٢ .

(٤) الحسبة فى الإسلام لابن تيمية ص٦٢ .

(١) نهاية الرتبة ، ص ١٠٤ .

(٢) نهاية الرتبة ، ص ١٠٣ .

(٣) فى آداب الحسبة السقطى ، ص ٦٨ .

(٤) الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٤ .

(٥) الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٤ .

وتعدى عمله الرفق بالإنسان إلى الرفق بالحيوان . إذ عليه أن يأخذ أرباب البهائم بعلوفتها إذا قصروا وألا يستعملوها فيما لا تطيق (١) . ويروى ابن تيميـــة عن الرسول قوله : «هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى له أجر فرجل ربطها تغنيا وتعففا ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها» (٢) .

وعلى المحتسب أن يأمر جلابى الحطب والتبن وغـــيرهم إذا وقفوا فى العراص أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدواب ، لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتها ، وكان فى ذلك تعذيب لها . وقد نهى الرسول عن تعذيب الحيوان لغير مأكلة (٣) . ويذكر الشيزرى فى الحسبة على الجزار ألا يجر الشاة برجلها جـــرا عنيفا وألا يذبح بسكين كالة ، لأن ذلك تعذيب للحيوان (٤) ويشترط على من يتعاطى البيطرة أن يكون ذا علم بعلل الدواب وعلاجها ، ذا دين يصده عن التهجم عليها بفصد أو قطع أو كى أو ما أشبه ذلك ، بغير خبرة فيؤدى ذلك إلى هلاكها أو عطبها ؛ لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم (١) .

وأما عناية الحسبة بالقيم الاجتماعية وصلاح الجماعة وكفالة خيرها وأمنها وسلامتها فشواهده كثيرة .

منها ما رواه السقطى فى آداب الحسبة ، أنه وجد فى الكوفة محتسب لم يترك مؤذنا يؤذن فى منار إلا معصوب العينين من أجل ديار الناس وحريمهم (٢) .

وعلى المحتسب أن يأخذ حمالى اللحم ألا يحملوه إلا فى أوعية يضعون اللحم فيها كل ليلة ، ويغسلونها من الغد (٣) ، وأن يمنع الجزارين من نفخ الذبيحة عند سلخها لئلا ينفخ فيها من به بخر فيتغير طيب اللحم (٤) .

وأبعد من هذا فى المحافظة على رقة الإنسان ألا يأكل المزين ما يغير نكهته كالبصل والثوم والمسكرات وأشباه ذلك لئلا يتضرر الناس برائحته عند الحلاقة (٥) . وقد بلغوا حد الترف حين قرروا أن يأمر المحتسب

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٢٣٤ ، ٢٤٣ .
(٢) الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٢ .
(٣) نهاية الرتبة ص ١٤ ، ١١٧ .
(٤) نهاية الرتبة ، ص ٢٧ .

(١) نهاية الرتبة ص ٨٠ .
(٢) ص ٧٠ .
(٣) فى آداب الحسبة للسقطى ص ٦٧ .
(٤) فى آداب الحسبة ص ٣٢ .
(٥) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ٨٨ .

المدلك أن يدلك يده بقشور الرمان لتصير خشنة فتخرج الوسخ من ناحية، ويستلذ بها الإنسان من ناحية أخرى (١). وأوجبوا على العجان ألا يعجن إلا وعليه ملقبة - ثوب من غير كم - أو بشت - رداء من الصوف مقطوع الأكمام - وأن يكون ملثما أيضا ، لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه فى العجين . وأن يشد على جبينه عصابة بيضاء لئلا يعرق فيقطر منه شيء فى العجين . وإذا عجن فى النهار فليكن عنده إنسان فى يده مذبة يطرد بها الذباب عنه (٢) .

وأوجبوا على الحلوانى ألا تبرح المذبة فى يده يطرد بها الذباب عن حلواه (٣) . وأوجبوا على السمانين (البقالين فى مصر) أن تكون بضائعهم مصونة فى برانس وقطامير لئلا يصل إليها شيء من الذباب ، وهوام الأرض أو يقع عليها شيء من التراب والغبار ونحو ذلك ، وأن تكون المذبة فى أيديهم لدفع الذباب عن البضاعة وأن تكون أثوابهم ومغارفهم وآنيتهم وموازينهم نظيفة مغسولة (٤) . وأوجبوا على القصاب

(١) نهاية الرتبة ص ٧٨ .
(٢) نهاية الرتبة ص ٢٢ .
(٣) نهاية الرتبة ص ٤٠ .
(٤) نهاية الرتبة ، ص ٦٠ .

بعد الفراغ من البيع ، أن ينثر ملحا مسحوقا على القرمية التى يقصب عليها اللحم لئلا تلحسها الكلاب ، أو يدب عليها شيء من هوام الأرض : فإن لم يجد ملحا فالأشنان المسحوق يقوم مقامه . ومنعوا القصابين من إخراج توالى (أعجاز) اللحم من حد مساطب حوانيتهم لئلا تلاصقها ثياب الناس فيتضررون بها (١) .

وإنى ، وقد طوفت معظم بلاد الغرب ، أقول : أية حضارة هذه التى بلغها المجتمع الإسلامى حين كانت أوربا فى عصور الظلمات ! وبوسعى أن أستمر فى إيراد أمثال هذه القواعد التى تدهشنا وتدهش القارئ الغربى . ولكنى أنتقل إلى ناحية أخرى ، وأحيل المستزيد إلى (نهاية الرتبة فى طلب الحسبة) للشيزرى .

لقد كان تنظيم الجماعة وتوحيد كلمتها هدفا من أهدافهم (٢) . ولذلك قرروا وجوب التأمير على الجماعة حين يكون عددها ثلاثة ، اتباعا لقوله عليه السلام : « إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم » (٣) وقوله : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض

(١) نهاية الرتبة ، ص ٢٨ .
(٢) الحسبة فى الإسلام لابن تيمية ص ٣ .
(٣) الحسبة فى الإسلام ، ص ٥ .

إلا أمروا أحدهم » ، وإذا وجب ذلك فى القلة فهو أوجب فى الكثرة .

وقرروا وجوب تنظيم الجماعة لأداء صلاة الجمعة . وأوجبوا على المحتسب أن يأخذهم بإقامتها ويؤدبهم على الإخلال بها إن كانوا عدداً قد اتفق على انعقاد الجمعة بهم كالأربعين فما زاد . وإن لم يبلغ العدد الأربعين أمر بها إذا اتفق رأيه ورأى القوم على انعقاد الجمعة بذلك العدد (١) .

وجعلوا لأصحاب كل صنعة سوقا يختص بهم ، ونقابة تجمعهم ، وجوزوا للمحتسب أن يجعل لأهل كل صنعة عريفا من صالح أهلها خبيرا بصناعتهم مشهورا بالثقة والأمانة يكون مشرفا على أحوالهم ويطالعه بأخبارهم (٢) .

وجعلوا للفقير والمحتاج حقا فى مال الغنى وملكه . فإذا اضطر قوم لا مكان يأوون إليه إلى السكنى فى بيت إنسان فعلى المحتسب أن يسكنهم فيه ، ولو احتاجوا إلى أن يعيرهم ثيابا يستدفئون بها من البرد أو إلى آلات يطبخون بها أو يبنون أو يسقون يبذل هذا مجانا لهم . وإذا احتاجوا إلى أن يعيرهم دلوا يسقون به أو قدرا يطبخون فيها أو فأسا يحفرون بها وجب بذل ذلك لهم مجانا — حسبما قرر ابن تيمية (١) . اتباعا لقوله تعالى : « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون » (٢) .

وجوز ابن تيمية للمحتاج إلى إجراء ماء فى أرض غيره ، من غير ضرر لصاحب الأرض ، أن يجريها (٣) وأوجب بذل المنافع عند الحاجة كتعليم العلم والإفتاء وأداء الشهادة (٤) واعتبر الصناعات الضرورية للمجتمع كالفلاحة والنساجة والبناية فرضاً على الكفاية ، إلا أن يتعيين فيكون فرضا على الأعيان ، لأنه لا تتم مصلحة الناس إلا بها (٥) ولولى الأمر أن يجبر أهل هذه الصناعات على ما تحتاج إليه الناس من صناعتهم . وأن يقدر أجرة المثل ، وكان ذلك من التسعير الواجب .

وأوجبوا على ذوى المكنة عمارة المساجد وبناء الأسوار ، وإصلاح أماكن الشرب ، ومراعاة بنى السبيل ، إذا لم يف بذلك بيت المال . ومن أعوزه المال أعان بالعمل .

---

(١) الأحكام السلطانية ، ص ٢٣٠ .
(٢) نهاية الرتبة ، ص ١٢ .

---

(١) الحسبة فى الإسلام ص ٣١ .
(٢) سورة الماعون ، ص ٧ .
(٣) الحسبة فى الإسلام ، ص ٣٢ .
(٤) السابق ، ٣٢ .
(٥) السابق ، ص ١٧ .

وإذا تعرض للمسألة ذو جلد وقوة على العمل ، زجره المحتسب ، وأمره أن يتعرض للاحتراف بعمله ، فإن أقام على المسألة عزره حتى يقلع عنها .

ومد محتسب تونس - زمن أبى زكريا الحفصى - يد العون للأندلسيين الذين نزحوا من ديارهم إلى تونس ، وجعل فقراءهم عند أناس من أهل البلاد يعملون لهم ، وأذن لغيرهم أن يسكنوا حيث أرادوا .

وجروا هذا المجرى فى إقامة المجتمع الفاضل فى كثير من الأمور يطول شرحها كأخذ الأولياء بنكاح الأيامى من أكفائهن إذا طلبن ذلك ، ومنع زيادة حمولة السفن خشية غرقها ، ومنع انتهاك حرمة البيوت ، ومنع التجسس على الناس لكشف ما لم يظهر من المحظورات [١] .

أما المعاملات فى المجتمع الإسلامى فتكشف كتب الحسبة عن قواعدها وأول ما يلاحظ أن تلك القواعد عامة يقصد بها جميع الناس دون تمييز فى الدين أو الجنس أو المنصب . فليس للخليفة أو القاضى أو أرباب الولاية امتياز . وللمحتسب أن يحتسب عليهم جميعاً [٢] ولا فرق بين المسلم والذمى فى المعاملة . فكلاهما مكلف بتنفيذ ما عليه من واجبات ، وأخذ ماله من حقوق حسب الشرع والعهد .

(١) السابق ص ٢٤٤ .

(٢) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١١٤

وأساس المعاملات جميعها مراقبة الله (١) والحكم بين الناس بالعدل (٢) والمحافظة ، على أموال الناس وأعراضهم وأرواحهم . والمتاجرة بالأمانة والصدق ، وما إلى ذلك من قواعد نص عليها الشرع ، ولذلك قال الشيزرى : « إن الضابط فى أمور الحسبة هو الشرع المطهر ، فكل ما نهت الشريعة عنه محظور ووجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله ، وما أباحته الشريعة أقره على ما هو عليه (٣) وقرروا أن يكون والى الحسبة فقيهاً عالماً بأحكام الشرع (٤) ، وأن يكون حراً عدلا ذا رأى وصراحة وخشونة فى الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة (٥).

واتباعاً لهذه القواعد منع المحتسب احتكار الطعام ، وألزم التجار المحتكرين بيعه إجباراً (٦) ومنع الغش فى جميع المبيعات ، ووضع لذلك قواعد غاية فى الدقة ، كأن يزن الخياط الثوب الثمين ليرده إلى صاحبه بوزنه (٧) وأن يفرد القصاب لحوم المعز عن الضأن

(١) نهاية الرتبة ص ٧٨ .

(٢) الحسبة فى الإسلام ص ٥ .

(٣) نهاية الرتبة ص ١١٨ .

(٤) السابق ص ١١٨ .

(٥) الأحكام السلطانية ص ١٢٨ .

(٦) نهاية الرتبة ص ١٢ .

(٧) السابق ص ١٧ .

ولا يخلط بينها (١) . وألا يخلط القطان جديد القطن بقديمه (٢) ، وأن يتخذ البائع الأرطال والأواني من الحديد (٣) ، وأن يعرف الصائغ المشترى مقـــدار ما في الحلى المغشوشة من الغش ، وألا يسبك أحد في الكور شيئاً من الحلى إلا بحضرة صاحبه (٤) وللمحتسب أن يختار الكيالين والوزانين ، إذا اتسع البلد ، من الأمناء الثقاة ، وأن يدفع أجورهم من بيت المال إن اتسع لها (٥) وله أن يتيقن في بعض الصناعات من علم أصحابها وأن يختبرهم ، فالبزاز ينبغي ألا يتجر بالبز إلا إذا عرف أحكام البيع وعقود المعاملات وما يحل له وما يحرم عليه وقد قال عمر بن الخطاب : « لا يتجر في سوقنا إلا من تفقه في دينه والواجب ألا يتعاطى الصيرفي الصرف إلا بعد معرفته بالشرع وألا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصده عن التهجم على الدواب بفصد أو قطع أو كي وينبغي أن يمتحنه المحتسب في علمه ويجب ألا يتصدى للفصد إلا من اشتهرت معرفته بتشريح الأعضاء والعروق والعضل والشرايين وينبغي للمحتسب أن يأخذ على الأطباء عهداً وأن يحلفهم ألا يعطوا أحداً دواء مضراً ولا يركبوا له سما ، ولا يصفوا التمائم عند أحد من العامة وألا يفشوا الأسرار وألا يهتكوا الأستار .

وقرر ابن تيمية التسعير في الأموال والأعمال في كثير من الحالات ، كأن يمتنع أرباب السلع عن بيعها مع ضرورة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة ، أو أن يختص بشراء طعام وبيعه فهنا يجب التسعير عليهم بحيث لا يبيعون إلا بقيمة المثل ، ولا يشترون أموال الناس إلا بقيمة المثل أو أن يحتاج الناس إلى سلاح للجهاد فعلى أهل السلاح أن يبيعوه بعوض المثل ، أو أن يحتاج الناس إلى الصناعة والفلاحة والحياكة فيجبر المحتسب أهلها عليها ويقدر لهم أجرة المثل ، أو إذا احتاج الناس إلى من يصنع لهم آلات الجهاد من سلاح وجسر الحرب وغير ذلك ، فيسعر بأجرة المثل .

وهكذا قامت المعاملات على الدين والعلم والمصلحة والمنفعة المشتركة دون ضرر ولا ضرار ولا تفريط ولا إفراط ، ولا جور ولا تضييق

إسحاق موسى الحسيني

---

(١) السابق ص ٢٨ .

(٢) السابق ص ٦٩ .

(٣) السابق ص ١٩ .

(٤) السابق ص ٧٧ .

(٥) الأحكام السلطانية ص ٢٤٠ .

الجلسة التاسعة

الإسلام والعلاقات الدولية

للأستاذ : محمد أبو زهرة

يقوم هذا البحث الذى أعده وألقاه فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبوزهرة على الموضوعات الآتية :

١ — الوحدة الإنسانية كما جاءت فى القرآن والسنة ، وأسباب النزاع فى هذا الوجود .

٢ — القواعد التى تقوم عليها العلاقة بين الناس وتطبيقها على الدول كما تطبق على الآحاد.

٣ — العلاقات فى حال السلم ، والأصل فى العلاقات بين المسلمين وغيرهم .

٤ — العلاقات فى حال الحرب ، والقيود التى يتقيد بها المؤمن فى حربه ، ثم أعقاب الحرب .

وإلى القراء الموضوع الأول من هذا البحث الواسع المستفيض :

١ — الوحدة الإنسانية :

عبرت آيات كثيرة فى القرآن عن الناس بأنهم أمة واحدة ، وأنهم يبتدئون فى الوجود من أصل واحد ، وينتهون إلى نهاية واحدة وهى لقاء الله الذى خلقهم ، وإنما تختلف الجزاء خيرا أو شرا ، نعيما مقيما أو عذابا أليما.



قال تعالى : « هو الذى خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها » .

وإن النبى صلى الله عليه وسلم صرح بهذه الوحدة ، فقال عليه السلام : « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى »

وقد بين القرآن فى خلق آدم أن الناس جميعا ينتهون فى نسبهم إليه ، وأن الناس مع هذه النسبة الواحدة قد اختلفوا فى اللون واللسان ، وتباينوا قبائل وشعوبا ، وأجناسا ، وكل ذلك من آيات الله تعالى فى الكون ومظاهره ، فاختلاف الأماكن يوجد اختلافا فى الألوان والألسنة ، ولذلك ربط

سبحانه وتعالى بين اختلاف الألوان والألسنة وخلق السموات والأرض ، فقال تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » ثم إن اختلاف الظاهرة الإنسانية عن أصلها وهو التراب صحبه بلاشك الاختلاف فى كثير من المظاهر ، ولذا يقول سبحانه : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

وليس ذلك الاختلاف معارضاً لأصل الوحدة ، ولا يصح أن يكون سبباً للنزاع ، بل يجب أن يكون سبباً للتعارف والتواد .

ولذا قال سبحانه : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فهذا الاختلاف للتعارف ، لا للتناكر ، ولا يستحقر بعض الشعوب غيرها ، وإن التعارف ليس هو المعرفة المجردة ، بل المعرفة المثمرة التى تتلاقى فيها كل القوى الإنسانية لخير الإنسان وإنما يكون التعارف لخير الإنسانية إذا قدم أهل كل إقليم ما عندهم من خيرات الأرض وثمراتها لغيرهم ، وبذلك تتبادل المنافع ، وينتفع أهل كل إقليم بما عند غيره ويقدم له ما عنده من خير ، وبذلك ينتفع ابن الأرض بخير الأرض كلها ، وذلك هو التعارف الذى أشار إليه النص الكريم ، ولكن انحرفوا عن هذا المقصد ، فكان الاختلاف سبباً للتناكر ثم التناحر ، ثم كان من هذا أن شح أهل كل إقليم بخير ما عنده ، وقامت المنازعات على ما رزق الله الناس فى الأرض ، وما سخر من أكوان .

ولقد أثبت الله سبحانه ذلك الاختلاف مع إثباته سبحانه وتعالى الوحدة فقال تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

أثبت الله سبحانه وتعالى الوحدة الإنسانية من حيث إن الناس جميعا أمة واحدة ، وإن هذه الوحدة تتضمن وحدة الأصل ، كما تتضمن وحدة التكوين ، وكما تتضمن وحدة الغرائز ، ووحدة الاستعداد للخير والشر ، فالغرائز كلها واحدة ، فغرائز الإنسان فى أقصى الشمال هى غرائزه فى أقصى الجنوب ، والله سبحانه وتعالى ذكر أن كل نفس فيها نزوع إلى الخير وفيها نزوع إلى الشر ، كما قال تعالى : « وهديناه النجدين » أى نجد الخير

ونجد الشر، وقال تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » .

وإنه من هذه الوحدة فى الغرائز ، ومن الوحـــدة فى الاستعداد للخير والشر كان اختلاف الناس ، فمنهم من غلبت عليه شقوته ، فسار فى طريق الشر مستجيباً لداعيه ، مغلبا له على داعى الخـــير ، ومنهم من سعدوا فغلب عليهم جانب الخير ، فكان لا بد من أن يختلف الفريقان بسبب اختلاف المنزعين ، ولذلك جاء النبيون لبيان الخير وتوضيح معالمه ، ومع ذلك استمر الاختلاف ولم يحسم ، فمن الناس من استجاب لدعوتهم ، ومنهم من عصى واستمر فى الغواية ، وتنكب عن طريق الهداية . وكانت حينئذ العداوة بين الأخيار والأشرار ، أو بعبارة أدق عداوة الأشرار للأخيار .

وإنه منذ امتنع إبليس عن السجود لآدم وأحس إبليس بأنه ضل وغوى ، ولم يرجع إلى الحق وقال : « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين » منذ ذلك الوقت ، وإبليس يغرى بالشر ويزينه ، ويجلب من الناس لغوايته فريقاً كبيراً ، ويستعصم ويتقى فريق آخر ، ولذلك كان النزاع المستمر بين أهل الخير وأهل الشر ، كما قال تعالى مخاطبا الناس ومن يغويهم : « وقلنـــا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .

اختلف الناس مع أصل الوحـــدة والتكوين ، وتوزعتهم الأرض ، وتباينت أجناسهم وألوانهم ، وفى طبيعتهم حب الغلب وحب السلطان ، وحب الاحتلال آحاداً وجماعات ، ودولا .

وجرى بينهم التغالب على السلطان وعلى الأرض وعلى المال ، فصار أهل كل إقليم يريدون أن يحكموا الآخر أحيانا باسم العصبية القبلية ، وأحيانا باسم الاقتصاد والثروة ، وأحيانا باسم الدين ، والمسوغ لكل هذا قوة فيمن يريد التغلب ، وضعف ولو كان نسبيا فيمن يدافع الغلب أو يستخذى له .

ومن هـذا الوقت جرى التناكر بدل التعارف ، والتعاون على الاعتداء والإثم بدل التعاون على البر والتقوى ، والعدل .

ولا شك أن التعارف الذى دعا إليه القرآن ، واعتبره غاية فاضلة لاختلاف الشعوب والقبائل فى العنصر والأرومة ، وتوزعهم فى الأرض كان وحده كافيا لحل كل نزاع ، ولكن الناس فى جماعاتهم ودولهم ، كما هم فى آحادهم تسيطر عليهم الغواية التى أخذبها الشيطان نفسه فكان لابد من التعاون لتنظيم هذا التعارف وجعله مسيطراً فى العلاقات الإنسانية بين الجماعات البشرية فى كل الأرض .

وقد ثبت فى ماضى الإنسانية وحاضرها أنها لم تثبت دعائم التعارف فيما بين دولها ، لأن حب الغلب وحب الامتلاك وحب السلطان ، كل هذا جعل التعارف الذى يقوم على التعاون يختنق ، وتحل محله الرغبة فى التحكم باسم العنصرية أحيانا ، وباسم جهل بعض الشعوب أحيانا ، وباسم تسخير بعض الأجناس البعض الآخر زعما بالباطل ، وباسم الاقتصاد أحيانا ، ووراءه احتياج بعض الأقاليم للبعض الآخر ، وهكذا .

وإذا كان التناكر هو الذى يسود العلاقات الإنسانية ، إذا استقلت هى بتنظيم هذه العلاقات ، فلا بد إذن من هداية من السماء تنظم التعارف الإنسانى وتهدى التى هى أقوم وبذلك جاءت الرسالات السماوية ، وبعث النبيون مبشرين بالخير إن اتبعوا ، ومنذرين بالعذاب إن عصوا .

وجاء الإسلام ، وهو آخر الأديان السماوية الذى جاء به محمد خاتم النبيين ، وآخر لبنة فى صرح الرسالة الإلهية منظما قواعد العلاقات الإنسانية بين الآحاد والدول على أمثل طريق وجعل أساس العلاقة الدولية التعارف الذى جاء به النص القرآنى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وقد ذكرناه من قبل .

٢ - قواعد العلاقات الدولية :

الأساس الذى تقوم عليه كل الأسس فى تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام هو التعارف الذى جعل الغاية العالية من اختلاف الناس عناصر وقبائل .

١ - المساواة : وإن هذا التعارف لا يكون إلا بين متماثلين ، ولا يكون بين أدنى وأعلى ، لأنه كان هناك أعلى وأدنى فإن التحكم يكون ، وحب السلطان يعلو ، وبذلك يكون التناكر ، وتنمر الإنسان للإنسان ، وبذلك وجبت المساواة فى المعاملة وطالب بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكرهه لها » . وإن هذا الحديث ينطبق على الجماعات والدول كما ينطبق على الآحاد ، فلا فرق فى قانون العدل والمساواة بين الآحاد والجماعات بل إن ما يطالب به الواحد يطالب به الجميع ممثلا فى الدولة ، وإن اختلفت أساليب تحقق المطلوب فتحقيق المطلوب فى الواحد أسهل من تحققه فى الجماعة ، وإن كانت الغاية واحدة فاختلاف الطرق مشقة وتعبيداً لا يغير من الغاية .

وإذا كان التحكم هو الذى أفسد على الناس الأخذ بطريق المعاملة بالتساوى فقد اتخذوا

ذريعة له اختلاف الناس فى الألوان ولكن حارب ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فقد سمع بعض الناس يعير الآخر، فيقول له : « يا ابن السوداء » فغضب عليه السلام وقال : لقد طف الكيل - قالها ثلاثة، ثم قال ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى.

كما اتخذ الناس فى هذا العصر الجهل سبيلا لتحكم المتحضرين فى المتخلفين علما أو حضارة ولكن المنطق الإسلامى حارب ذلك فأوجب على العالم أن يعلم الجاهل، واعتبر العالم الذى لا يعلم كاتما للعلم، وكاتم العلم ملعون فى القرآن الكريم، ولقد قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « لا يسأل الجهلاء لم لم يتعلموا، حتى يسأل العلماء لم لم يعلموا ».

ومن أسباب التحكم الذى يقطع سبيل المعاملة العادلة، ثم يقطع سبيل التعارف الإنسانى التعصب للقبيلة أو للوطن تعصبا ظالما، ولذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العصبية، فقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ».

ولكن هل يتضمن النهى عن العصبية النهى عن الوطنية ؟ إنه بلا ريب يتضمن النهى عن الوطنية التى تؤدى إلى الظلم أما التى لا تؤدى إليه، فإنها غير منهى عنها، فإنه إذا أدت العصبية أو الوطنية إلى أن يصلح كل قوم أحوالهم وينمو مواردهم من غير اعتداء يكون ذلك خيرا لا شك فيه ويؤدى إلى خير الإنسانية، وإلى التعاون على الخير. ولقد سأل بعض الصحابة النبى وقد رآه ينهى عن العصبية ويشدد فى النهى، فقال : « أمن العصبية يارسول الله أن يحب الرجل قومه ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم ». ولقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم من ينصر قومه على الظلم ببعير يتردى فى ركية من النار، فقال النبى الذى آتاه الله الحكمة : « مثل من يعين قومه على الظلم مثل البعير المتردى فى الركى فهو ينزع بذنبه ».

وإن ذلك التشبيه صادق كل الصدق تؤيده الوقائع والأحداث فى زمننا، فإن مبالغة القادة والزعماء فى نصرة أقوامهم بإغوائهم، وإعانتهم على الظلم، ليلتهموا الأرض ويستغلوا ما فيها ومن فيها قد جعل العالم يتلظى فى أتون من نيران الحروب، حتى إذا أطفأ الله نارا أجج ابن الأرض أخرى، وذلك بسبب التعصب المردى للأقوام.

٢ — التعاون الإنسانى :

وإن أول مظهر للتعارف الذى هو الغاية المثلى من اختلاف الأجناس والألوان هو التعاون - وإن التعاون هو مظهر التلاقى النفسى فى المجتمعات صغيرها وكبيرها، وهو مظهر التلاقى النفسى، والتعارف العملى

فى الأسرة الإنسانية ، وإن قوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . قد خوطب به المؤمنون بالنسبة لجميع بنى الإنسان ، والنص الكامل « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

ولقد نفذ عليه السلام مبدأ التعاون الدولى عند ما جاء إلى المدينة ، وعقد حلفا مع اليهود وأساسه التعاون على البر وحماية الفضيلة ، ومنع الأذى . ولكن اليهود نقضوا العهود ، ودبروا الأمر مع المشركين على الاعتداء عليه ، مع أن أساس هذا التعاون كان التضافر على إقامة الحق ودفع الاعتداء .

وكان عليه السلام يعقد العهود مع القبائل العربية مسلمها وغير مسلمها للتعاون على الخير وما يسمى بلغة عصرنا التعايش السلمى . ولما ذهب حاجا لبيت الله الحرام ، ومعه جند كثيف وحاولت قريش أن تمنعه ، مد إليهم يد السلام ، ولم يثر فى هذه الحال حربا أو خصاما ، بل أثار دعوة إلى التعاون على احترام بيت الله المعظم وقال النبى الحكيم « لو دعتنى قريش إلى أمر فيه رفعة البيت لأجبتهم » .

وأقوى أحوال التعاون ما يكون أساسه التعاون على نصرة الضعيف . ولقد حضر وهو شاب فى مقتبل عمره حلفا لبعض أشراف قريش عقد فى دار عبد الله بن جدعان تعاقدوا فيه لينصرن الضعيف على القوى ما بل بحر صدفة ، وما رسا ثبير وحراء ، وقال الهادى الأمين ما معناه : « لقد حضرت بدار عبد الله بن جدعان مالا أزن به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت » .

وإنه فى الوقت الذى يشعر فيه كل بنى الإنسان أنهم متعاونون فى استغلال كل ينابيع الثروة فى الأرض ، وأنهم متلاقون بقلوبهم المحبة ، وأعمالهم المتعاونة تختفى روح النزاع ، ويختفى مبدأ التناحر على البقاء الذى ينادى به الظالمون ، وهو الذى جر على العالم كله الويلات ؛ إذ حسب كل قوم أن بقاءهم هو فى الاعتداء على غيرهم فإنه حيث ساد ذلك المبدأ كان قانون الغابة هو الذى يحكم ويسيطر .

إن الإسلام لا يدعو إلى التنازع على البقاء لأنه يقرر أن التعارف والتلاقى نفسيا وعمليا هو سبيل البقاء ، ولذلك جعل التعاون الإنسانى هو الأساس ؛ لأن فيه عمران الأرض ، ونشر المحبة بين الناس .

٣ – الكرامة الإنسانية :

وردت النصوص القرآنية التى تصرح بأن الإنسان خليفة فى هذه الأرض، وأن الله سبحانه وتعالى سخر له الكون وما فيه، وآتاه استعدادا عقليا يستطيع به معرفة الأشياء وطرق الانتفاع بها، وقد قال تعالى فى بيان بدء الخلق : « وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر، وكان من الكافرين، بهذا الاستعداد العلمى الذى مكن الله به لابن الأرض من تسخير ما فى الأرض كان ابن الأرض مستحقا لأن يسجد له الملائكة ومستحقا لهذه الكرامة فى الأرض، ولقد صرح القرآن الكريم بها، فقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم، وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ».

وهذه الكرامة يستحقها الإنسان لأنه إنسان، لا لأنه أبيض، أو حضرى، أو متعلم أو متقدم، فهى حق لكل الألوان، وحق لكل الأجناس، ولكل الناس حضرهم وبدوهم، متقدمهم ومتخلفهم، وعلى القادر أن يعين الضعيف، وعلى المتعلم أن يعلم الجاهل وعلى المتقدم أن يأخذ فى قافلته المتخلف.

وإن الكرامة يقتضيها قانون التعارف والتعاون، فليس من التعاون أن يكون أحد الفريقين مستعليا، والآخر مستخذيا وإنما التعارف والتلاقى الروحى والعملى، والتعاون هو أن يكون الواحد فى عون الآخر.

وإن التمييز بين الناس بالحضارة والبداوة، واللون والعنصر سبب جوهرى من أسباب النزاع فى هذه الأرض فإنه منذ أن استهينت كرامة الإنسان، واتخذ الأقوياء المتحكمون فى سياسة العالم الملونين والمتخلفين يستغلونهم وقد قام النزاع على من يتحكم فيهم، كما يتنازع الناس على بضائع بين أيديهم يريد كل واحد أن يغتصبها، ولما بدأ المستغلون فى أرضهم وديارهم انبعث نزاع بينهم وبين المتحكمين، وهو من جانب الذين استضعفوا فى الأرض دفاع عادل أوجبته الفطرة، وأوجبته الكرامة، وأوجبته الشرائع العادلة، وأوجبه الدين الإسلامى الذى يربى الكرامة والعزة فى قلوب معتنقيه، ويحملهم على احترام الكرامة فى غيرهم.

وأخبار النبى صلى الله عليه وسلم فى تكريم الإنسان متضافرة، وأعمال الصحابة فى ذلك

واضحة بينة ، وهى أوضح ما تكون فى عهد عمر رضى الله عنه .

وإنه لا يمكن أن يكون سلام عادل فى هذه الأرض من غير احترام الكرامة الإنسانية فى كل إنسان، وفى كل أرض، وكيفما كان اللون ، ومهما اختلف العنصر والجنس .

٤ — التسامح :

كان لابد لاستجابة دعوة التعارف الإنسانى العام من التسامح ، لتتلاقى القلوب على غير عداوة أو إحن ، ولذلك دعا الإسلام إلى التسامح غير الذليل ، فهو يبقى العلاقات الإنسانية سواء أ كانت بين الآحاد أو كانت بين الجماعات والدول على التسامح من غير استسلام للشر ، ولذلك أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصفح الجميل عمن يعاديه فقال تعالى : « فاصفح الصفح الجميل » والصفح الجميل هو الصفح فى عزة وقوة ومن غير استخذاء أو استسلام .

وقد طبق النبى صلى الله عليه وسلم مبدأ التسامح فى علاقته بالمشركين وغيرهم فى معاهداته وحروبه ، فتراه فى صلح الحديبية وهو الصلح الذى عقد بينه وبين المشركين عندما أراد أن يحج فنعوه ، وأبوا أن يدخل البيت الحرام ، وكان الصلح فيه شطط من جانب المشركين ، وسماحة من جانب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد أصروا على أن يمنعوه من الحج فى عامه هذا ، فقبل هذا الشرط ومعه جيش يستطيع أن يدك عليهم ديارهم ، واشترطوا مع ذلك أن من يخرج من مكة مسلما لاجئا بالنبى والمؤمنين يرد إليهم إن لم يكن ذلك برضا من أهله ، وأن من يخرج من عند النبى مرتداً إلى مكة يقبلونه ، فقبل النبى الكريم ذلك الشرط ، حتى ضج بعض المؤمنين ، ووقف عمر بن الخطاب يقول : « لماذا نرضى بالدنية فى ديننا » ، ولكنها الحكمة النبوية ، إذ آثر الصبر والسماحة وحقن الدماء ، ولم يكن ذلك قبولا للدنية ، ولكنه الهدى الإسلامى الذى حث على الصبر بدل القتل والقتال ، والرفق بدل العنف وتأجيل فى رفق خير من تعجيل فى عنف . وسمى الله سبحانه ذلك الصلح فتحاً مبينا ، فقد قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما . وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

وقد كان ذلك فتحا للقلوب التى كانت مغلقة على الشرك ، فإنه فى أثناء هذه الهدنة أسلم كثيرون من دهاة قريش وصناديدها ، وحسبك أن تعلم أنه أسلم داهية قريش عمرو بن العاص وصنديدها خالد بن الوليد وما استطاعت من بعد ذلك أن تشن حربا

على النبي صلى الله عليه وسلم مع هنجهيتها وعنف لجاجتها ، فكان ذلك الصلح المقاسح فتحا مبينا .

وإن التسامح الذى رطب القلوب وهداها ، هو ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فتح مكة ، وغلب على المشركين الذين أرادوا قتله ، وأخرجوه وأصحابه من ديارهم فقد قال : للملأ من قريش فى أول لقاء بعد النصر العزيز : « ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم الرسول السمح الكريم : « أقول لكم : ما قاله أخى يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » .

ولقد كان ذلك شأنه عليه السلام فى كل حروبه يعالج القلوب بالصفح والتكريم بدل أن يورث الإحن بالإذلال والانتقام . ولنضرب لذلك مثلا بغزوة بنى المصطلق ، فقد أسر المسلمون مائة بيت من بيوتهم ، واسترقوهم ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يمن عليهم جميعا ، فجاء وتزوج جويرية بنت الحارث ، فأطلق كل من فى يده أسير من فى يده منهم ، وتحرروا جميعا من الرق ، وقالت : عائشة رضى الله عنها « ما كانت امرأة أبرك على قومها من جويرية ، لقد عتق بها مائة من بيوت العرب . وما كان الزواج إلا لهذا التصرف السمح ، فما كان لشهوة يبتغيها كما يدعى الجهلاء الكاذبون ، إذ لو أرادها لملكها بملك اليمين ، لأنها تكون أمة تملك ، وتباح لمالكها بملكيته لها .

وبهذا يتبين أن التسامح هو السياسة التى رسمها النبي صلى الله عليه وسلم فى العلاقة بين الناس بعضهم مع بعض ، وهى السياسة الشافية للقلوب المجروحة فى أعقاب الحرب ؛ لأن القلب المجروح يجب أن يرقأ جرحه بدل أن ينكأ قرحه .

٥ — الحرية :

إن الحرية ثمرة من ثمرات التعارف الإسلامى الذى دعا إليه القرآن الكريم ، فإن التعارف الحقيق لا يكون إلا بين الأحرار ، فلا يكون سيد وعبد ، ولا مسيطر ومقهور ، بل يكون بين أحرار على قدم المساواة ، ولا تكون المساواة إلا على أساس التعادل فى الحرية .

والحرية الحقيقية أن يقدر الحر الحرية فى غيره كما يقدرها فى نفسه ، والحرية والهوى والأنانية لا تجتمع ، فإن الحرية سيادة الإنسان على نفسه وأول مظهر من مظاهرها كبح الرجل لأهوائه وشهواته ، والحرية معنى اجتماعى يظهر فى علاقة الإنسان بغيره ومراعاته لحقوق غيره كما يراعى حقوق نفسه فهى والأثرة نقيضان لا يجتمعان ، تتلاقى مع الإيثار ولا تتلاقى مع الأثرة .

ولقد وجدنا فى هذا الزمان زعماء للأمم يصفونهم بوصف الأحرار ، ويصفون أممهم بأنها الأمم الحرة ـ ووجدنا هؤلاء يحكمون أهواءهم فى شئون غيرهم ، فنرى العالم الآن يخضع لشهوات حكام ، وأهواء مجالس نيابية ، قد جانبت حكم العقل الحر المستقيم ، وهذا لا يراه الإسلام إلا استعباداً لأهواء النفوس والشعوب وليس من الحرية فى شىء .

ولقـــد احترمت النظم الإسلامية فى العلاقات الإنسانية حرية العقيدة احتراما كاملا . فنفى القرآن الكريم أن يكون الإكراه طريقا لاعتناق دين ، ومنع المؤمنين أن يكرهوا أحدا على الدين فقال تعالى : « لا إكراه فى الدين » ، وخوطب النبى صلى الله عليه وسلم مطالبا بمنع الإكراه فى الدين ، فقال تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ولقد أراد أحد الصحابة أن يكره ابنين له على الإسلام فنهاه النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وتلا قوله تعالى : « لا إكراه فى الدين » .

وإن الإسلام اعتبر امتحان المؤمن فى عقيدته فتنة هى أكبر من القتل ، فقال تعالى : « والفتنة أشد من القتل ، وما فتح باب القتال فى الإسلام إلا لحماية الحرية الدينية ، ولمنع فتنة المؤمنين فقال تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

وإن حرية التدين لا تتحقق من منع الإكراه فقط . بل إنها تبتدىء من ذات نفس الشخص ، بأن يكون تفكيره فى العقيدة متحررا ، فيحكم العقل غير مقيد بأوهام ، ولا خاضعا لأهواء ، ولذلك نقرر أن حرية الاعتقاد تتكون من عناصر ثلاثة :

أولها : تفكير سليم غير مأسور بتعصب لجنسية أو تقليد أو شهوة فكثيرا ما تتحكم الأهواء والعنصرية باسم التدين .

ثانيها : منع الإغراء أو الإكراه للحمل على عقيدة ، فليس بحر من يعتقد اعتقادا دينيا تحت تأثير الإغراء بالمال أو المنصب أو الجاه ، وإنه من أشد أنواع الإكراه تسليط المخدرات والمسكرات كما يفعل بعض المبشرين بالمسيحية فى إفريقية .

ثالثها : العمل على مقتضى العقيدة . وتسهيل ذلك لكل معتنق لدين من غير إرهاق .

ولقد حمى الإسلام هذه العناصر فمنع التقليد من غير دليل ، وحث على أن يكون العمل على مقتضى الاعتقاد ، وعمل على حماية عقيدة الذين يستظلون بظله ، أو يعقدون معه عهدا ، أو لا يثيرون عليه حربا ، بل إنه سهل لهم القيام بشعائر دينهم ، وقد قرر الفقهاء فيما استنبطوه من نصوص قرآنية ونبوية ، ومن أعمال الصحابة قاعدة تقول : « أمرنا بتركهم وما يدينون ، وبهذه العقيدة المجمع عليها من

الفقهاء حيث حرية الاعتقاد ، فلا يضار غير المسلم ، بل يقيم شعائر دينه حراً غير مضطرب.

ويروى في ذلك أن عمر بن الخطاب عندما ذهب إلى بيت المقدس رأى رضي الله عنه هيكلا لليهود قد ستره التراب ، ولم يبق منه إلا أعلاه ، فجاء بفضل ثوبه ، وحمل بعض التراب المتراكم عليه ليزيله ، فاقتدى به جيش المسلمين ، فزال كل ما ستر الهيكل وبدا واضحا ليقيم اليهود عنده شعائرهم.

وفي هذه الرحلة المباركة حضر وقت الصلاة، وعمر قريب من الكنيسة ، فصلى خارجها ، فقيل له لا يجوز الصلاة فيها ، فقال الإمام الحر : « خشيت أن أصلي فيها فيزيلها المسلمون من بعدي ، ويتخذوها مسجداً » .

وإن فقهاء المسلمين إذ يقررون الحرية على ذلك النحو السمح يفبمشون من فكرة صحيحة، وهي أن من له دين خير ممن لا دين له ؛ لأن من له دين ولو مخطئا له ضمير ديني يزجره .

ولقد ضمن الإسلام الحريات الإنسانية كلها ، فضمن حرية الإقامة ، وحرية القول ، وحرية الرأي وحرية العمل كما ضمن حرية تقرير المصير .

ولنعرج على حرية تقرير المصير بكلمة موجزة . لقد ضمن الإسلام حرية تقرير المصير للمؤمنين به ، وحرية تقرير المصير أما بالنسبة للمسلمين ، فإنه لا يجوز للمؤمن أن يخضع لدولة غير إسلامية ، ولا يجوز للمسلمين أن ينضموا تحت لواء غير إسلامي لأنه لا يمكن من تنفيذ أحكام دينه في المعاملات وإقامة الحدود .

وأما بالنسبة لغير المسلمين فإن الإسلام حرم الاعتداء على حرياتهم ، وإخراجهم من ديارهم ، ما داموا لا يعتدون على المسلمين ولا يقاتلون إلا إذا اعتدوا كما سنبينه إن شاء الله تعالى عند الكلام على إباحة القتال.

وإنه في حال القتال وتوقع الاعتداء منهم نخيرهم بين عهد يوثقونه ، أو دخول في الإسلام ، أو القتال فإن اختاروا العهد كان لهم عهدهم ، وإن اختاروا الإسلام دخلوا في زمرة المسلمين .

٦ — الفضيلة :

ختم الله سبحانه وتعالى الآية التي تبين أن الغاية المثلى من اختلاف الناس شعوبا وقبائل هي التعارف بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والتقوى هي جماع الفضائل الإنسانية كلها ، فالتعارف يجب أن يكون مع الفضيلة ، والفضيلة كما هي مطلوبة بين الآحاد هي مطلوبة بين الجماعات ، ولقد حث القرآن الكريم على التمسك بالتقوى جماع الفضائل في حال السلم وفي حال الحرب وكان التشدد في الدعوة إليها عند قيام الحرب فقد قال تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا

عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ، والسبب فى ذلك هو أن النفوس عند القتال تندفع فى حال احتدام الحرب وقد تقع فيما يخالف الفضيلة وخصوصا إذا كان العدو ينتهك حرماتها .

ولا يصح المسلمين أن يجاروا أعداءهم إن اعتدوا على الفضيلة ، بل ليلتزموها هم فإذا كان العدو يمثل بالقتلى لا يمثل المسلمون بهم ، وإن كان العدو يقتل النساء والذرية لا يصح أن نقتلهم ، وإذا كان العدو ينتهك حرمات النساء لا تنتهك حرماتهن .

وقد حدث فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم أن جارى بعض المسلمين الأعداء فقتل بعض الأطفال فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما بال أقوام جاوز بهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ألا لا تقتلوا الذرية ، ألا لا تقتلوا الذرية » .

ويوصى عليه السلام ألا يقتل الأسير ، فيقول : « لا يعترض أحدكم أسير أخيه فيقتله » .

وهكذا تكون معاملة المسلمين لغيرهم على أساس الفضيلة يتجاوزون حدودها مهما يستحكم شر الأعداء .

٧ — العدالة :

قامت العلاقات الإنسانية كما ينظمها الإسلام على أساس من العدالة سواء أكانت المعاملة مع الأولياء أم كانت مع الأعداء .

وصرح القرآن الكريم بأن العدالة مع الأعداء هى أقرب للتقوى فقد قال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، ويقول تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » .

والعدل فى كل صوره هو نظام الإسلام الأمثل ، فقد قال تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . وقد قال العلماء إن هذه أجمع آية لمعانى الإسلام .

وإذا كان لكل دين سمة ، فسمة الإسلام العدالة ، فالعدالة هى الميزان المستقيم الذى يحقق العلاقات بين الناس فى حال السلم وحال الحرب ، ففى السلم يكون حسن الجوار قائما على العدالة ، وفى الحرب يكون الباعث عليها العدالة ، وإن كل المبادئ الإنسانية من تسامح وحرية يكون فى ظل العدالة ، فالتسامح الذى يؤدى إلى ضياع الحقوق لا يكون تسامحا ولا يكون رحمة ، بل يكون ظلما ويؤدى إلى أشد أنواع القسوة ، فالتسامح مع الظالمين آحاداً أو جماعات قسوة على الذين ظلموهم وأكلوا حقوقهم .

وإن العالم لا يصلح إلا إذا كانت العدالة ميزان العلاقات الإنسانية فى كل أحوالها ،

فلا يبغى قوى على ضعيف، ولا يضيع حق خضوعا لأمر الواقع، كما هو منطق هذه الأيام حتى صرنا نرى العلاقات الدولية تقوم على مجموعة من الظلم متكاثفة.

وإن العدالة هى ميزان التعارف الإنسانى الذى نصت عليه آية التعارف العام بين الأجناس والشعوب.

٨ — المعاملة بالمثل:

وهذه متشعبة من العدالة غير منفصلة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به».

وبمقتضى ذلك القانون العادل كان على المسلم أن يعامل من يعتدى عليه بمثل ما يعامله، ولا يزيد عما يفعل إلا بمقدار ما يحميه من تكرار الاعتداء عليه، وإذا كان الاعتداء ظلما، فرده عدل.

ولا يتنافى ذلك مع مبدأ التسامح والفضيلة لأن التسامح يجب ألا يؤدى إلى شيوع الظلم، وإن شيوع الظلم فساد لا ريب فيه، وإن الفضيلة الإسلامية ليست فضيلة مستخذية مستسلمة، بل هى فضيلة إيجابية دافعة، لا تخضع للشر والأشرار، بل تستعلى عليهم جميعاً.

وإن العدالة لا تنافى الرحمة، بل إنها تلازمها فحيث كانت العدالة كانت الرحمة، ولا توجد رحمة مع الظلم، والمعاملة بالمثل أعظم دفعاً للظلم.

ولكن المعاملة بالمثل مقيدة بالفضيلة، كما أشرنا من قبل، فإذا كان العدو ينتهك حرماتها لا يصح لجيش الفضيلة أن يحاربه فيها، وقد روينا من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ما يؤيد ذلك.

وفوق ذلك فإن المعاملة بالمثل يجب ألا تتجاوز الذين يقاتلون فى الميدان، فلا يصح لجيش العدل أن يقتل الذين لا يقاتلون.

٩ — الوفاء بالعهد:

إن الطريقة المثلى لاستقرار السلام، وجعل التعارف على أساس سليم هو معاهدات الأمان وعدم الاعتداء. وإن المعاهدات لا تستمد قوتها من نصوصها فقط، بل من عزم عاقديها على الوفاء بها، ولذلك حث الإسلام على الوفاء بالعهد، وقرر أن الوفاء بالعهد قوة فى ذاته، والنكث فى العهود من أسباب الضعف، وقد وثق الله سبحانه وتعالى العهد بأن قرر أن من عاهد من المؤمنين فقد اتخذ الله عليه كفيلا، وقرر سبحانه أنه لا يصح أن تكون الرغبة فى زيادة رقعة الدولة، أو زيادة قوتها مسوغا للغدر، والآية الجامعة لهذا قوله تعالى: «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله

يعلم ما تفعلون ، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون » .

فقد شبه الله سبحانه الذى ينقض العهد من الرؤساء بالحمقاء التى تغزل الغزل ثم تنقضه وتجعله شعراً متناثراً ، بعد أن قوى بالفتل وبين سبحانه أنه لا يصح أن تتخذ الغش والخديعة للرغبة فى أن تكون أمة أربى من أمة ، أى أكثر عددا ونماء وسعة فى الأرض من أمة أخرى ، فإن القوة التى تكون من نقض العهود مآلها الزوال .

وقد بين عليه السلام أن خيار الناس هم الموفون بعهودهم فقال صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بخياركم ، خياركم الموفون بعهودهم » وقال عليه السلام : « أنا أحق من وفى بعهده » وقد عقد مع المشركين صلح الحديبية على ألا يقاتلوه ويوادعوه ، عشر سنين كما أشرنا من قبل ، فقال بعض المسلمين للنبى أنهم على نية الغدر ، وأنهم يعدون لقتاله ، فقال عليه السلام : « هم ونواياهم ونستعين الله تعالى عليهم » .

١٠ — المودة :

إن الأخوة الإنسانية العامة التى أوجب الإسلام بها التعارف عند ما يختلف الناس أجناسا وقبائل يجب وصلها بالمودة والعمل على الإصلاح ومنع الفساد ، ولو اختلف الناس دينا وأرضا وجنسا : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وإن المودة الموصولة لا يقطعها الحرب ، ولا الاختلاف فى الدين ، ويروى أنه فى مدة الحديبية بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أن قريشاً أصابتهم جائحة ، فأرسل عليه السلام إلى أبى سفيان زعيم الشرك فى مكة خمسمائة دينار ليشترى بها قمحا ويوزعها على فقراء قريش .

ففى أثناء الحرب تنقطع العلاقات بين الدولة الإسلامية والدولة المحاربة ، ولكن لا تنقطع الصلات بين رعايا الأعداء الذين لا يشتركون فى القتال ، ولذلك لا يمنع قيام الحرب أن يقيموا فى ديار الإسلام ولا يؤذون فى أنفسهم ولا تمس أموالهم ، والمستأمنون فى تعريف الفقهاء هم الذين يقيمون فى الديار الإسلامية مدة محدودة بأمان يعقد للاتجار وتبادل المنافع .

وفتح باب المودة للشعوب قد ينهى الحرب ويفتح باب السلام العزيز الكريم .

وإذا كانت المودة موصولة غير منقطعة فالرحمة تلازمها ، بيد أنها أعم شمولا إذ أن المودة تكون بين الشعوب ، أما الرحمة فإنها تكون بين الشعوب ، وفى ميدان القتال ، فلا يجهز على جريح ولا يقتل أسير ، ولا يقتل مستسلم معلنا لاستسلامه .

ومن مظاهر الرحمة العادلة ، والمودة الواصلة العمل على نصر الضعفاء ، لأن الإسلام دين سماوى يحكم بأوامر الله تعالى وكل الأديان حثت على حماية الضعفاء من الأقوياء سواء أكانوا آحاداً أم كانوا دولا وجماعات ، ولقد قال تعالى : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » .

والإسلام لا ينظر فقط إلى حماية الدولة الضعيفة من الدولة القوية ، بل يعمل على حماية الشعوب التى أرهقها الطغيان وأضعف النخوة فيها الاستبداد .

وإن كتب النبى صلى الله عليه وسلم التى أرسلها إلى الملوك والرؤساء متضمنة دعوتهم إلى الإسلام ، وجاء فيها النص على أن عليهم التبعات فيما يتعلق برعاياهم ، وأن ذلك يقتضى أن عليهم أن يطلقوا حرياتهم ليفهموا الإسلام وليعتنقوه إن أرادوا مختارين ، ولذلك جاء فى رسالته إلى هرقل ملك الروم « أسلم تسلم ، وإلا فعليك إثم البريسيين » ، والبريسيون ، هم الزراع والعمال وغيرهم ممن لا سطوة لهم .

ولهذا المبدأ الجليل كان الإسلام حريصاً على حماية حريات الضعفاء وخصوصا حرية التدين وما كان قتال المسلمين إلا لحماية هذه الحرية ، فما قاتل المشركين إلا لأنهم فتنوا المؤمنين فى دينهم ، وما قاتل الروم إلا لأنهم قتلوا الذين آمنوا من أهل الشام ، ووازن بين هذا المبدأ وما عليه الدول الآن .

محمد أبو زهرة

مناقشات المؤتمر
عرض وتعليق
للأستاذ على العمارى

— ١ —

لعل أكثر أعمال المؤتمر فائدة . وأولها على ما يعتلج فى نفوس المسلمين فى العالم الإسلامى ، هى هذه المناقشات التى دارت حول الأبحاث التى ألقاها أعضاء مجمع البحوث الإسلامية .

ذلك أن هذه الأبحاث وقف على أعضاء المجمع ، وليس من حق غيرهم أن يتقدم ببحث لهذا المؤتمر ، أما المناقشة فإن لكل عضو فى المؤتمر الإسلامى الكبير أن يعلق على أى موضوع بما يعن له .

ولذلك فلا نبعد إذا قلنا إن هذه المناقشات أعطتنا صورة صحيحة إلى حد كبير لما يشغل بال المسلمين فى شتى أقطارهم ، كما أعطتنا بجانب الأبحاث - آراء علمية ناضجة ، وأفكارا إصلاحية مخلصة .

ورغبة منا فى أن نعطى القارئ صورة تقريبية لما دار فى المؤتمر من ناحية ولما يهم المسلمين من ناحية أخرى رأينا أن نعرض لأهم ما دار فى هذه المناقشات :

كان أول بحث ألقى فى المؤتمر بحث فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ على عبد الرحمن من كبار علماء السودان حول «عوامل انتشار الإسلام» .

وقد دار حول هذا البحث من المناقشات ما يشعر بأن موضوعه هو أهم ما يشغل المسلمين ، وأهم ما يشغل مجمع البحوث ، بل لقد قال فضيلة الشيخ فرج السنهورى إن هذا الموضوع هو صميم عمل المجمع .

وكثير من المناقشات تناول جزئيات جانبية فى الموضوع ، ومع ذلك فالمناقشة التى تناولت الموضوع الأصلى كان لها مع إجابات فضيلة الأستاذ صاحب البحث من الفائدة ما لعله لا يقل أهمية عن البحث ذاته .

تكلم بعض الأعضاء عن الإسلام فى إفريقيا السوداء ، فذكر أن المسلمين هناك يواجهون مشاكل كثيرة ، وعداوة زرقاء من المسيحية والأحمدية ، والقديانية ، والبهائية ، وأتباع أغاخان ، وعلاوة على

الفقر والمرض ، وقال إن على أعضاء المؤتمر أن يجدوا حلولا لنشر الإسلام فى هذه المناطق من العالم .

وتحدث أحد علماء العراق عن الإسلام فى الأرجنتين ، وقال إن هناك نحو مليون ونصف مسلم ، وإنه بقى داعية هناك نحو عشر سنوات ، ووجد نفوس المسلمين شديدة التمسك بالإسلام غير أنه يخشى على أبناء هؤلاء من التبشير فإنه يحاول أن يميل بهم عن دين آبائهم ، وإذا لم يتداركهم العالم الإسلامى فيرسل إليهم الدعاة ، وتؤلف كتب فى الموضوعات التى تشغل أذهانهم مثل رأى الإسلام فى المسيح عليه السلام وفى السيدة مريم - لأن المبشرين يوهمون المسلمين بأن الإسلام يحط من قدرهما وفى الطلاق وتعدد الزوجات ... وما إلى ذلك ، ثم ترسل هذه الكتب لتوزع هناك ، يقول إذا لم يفعل العالم الإسلامى ذلك فإنه فى شك كبير أن تبقى ذرية هؤلاء المسلمين على الإسلام .

وأشار متحدث من الشرق الأقصى إلى أن تلك الجهات تواجه موجة مضادة من الأديان الأخرى ، وإنها بحاجة إلى دعاة ، وإلى إرشاد وتعليم ، وأن أعداء الإسلام يعيبون الإسلام بأن فيه تعدد الزوجات ، وفيه الاسترقاق ، كما ذكر أن بعض أعداء الإسلام فى أوربا وفى آسيا يوهمون الناس أن الإسلام حرم لحم الخنزير لأن المسلمين يعبدون الخنزير ، كما يحرم الهنود - مثلا - أكل لحم البقر لأنهم يعبدونها .

وأبرز تعليق على هـــذا الموضوع كان من الدكتور إسحاق الحسينى إذ قال : إننا يجب أن نبدأ من حيث انتهى المبشرون ، فننشىء معاهد خاصة لتدريس الأديان ، فى البلاد الإفريقية والآسيوية وأشار إلى أن القدوة الحسنة أهم عامل فى نشر الإسلام وقد أفاض فضيلة الأستاذ الباحث فى بسط هذا الموضوع وقال أولا إنه يوافق الدكتور الحسينى موافقة تامة فى أننا يجب أن نبدأ من حيث ابتدأ المبشرون ، وذكر أن له بعض التجربة ، وأنه زار بعض بلاد أواسط إفريقيا ، وعاش زمنا فى جنوب السودان ، ورأى طرائق المبشرين وأساليبهم وقال إن المبشرين يأتون من أوربا وأمريكا حيث الحياة الصاخبة ، والمتع الميسرة ، ثم يمكثون وسط الزنوج فى الغابات مددا تتراوح بين ست وعشر سنوات لا يملون ولا يسأمون وقال إن السر فى ذلك أنهم يعدون فى بلادهم لهذا العمل فيراضون على العزلة وعلى الابتعاد عن أضواء الحياة ، ثم إن المبشرين ينشئون المدارس فى المناطق الإسلامية ويتظاهرون بأنهم لا يتعرضـــون فيها للمسائل الدينية وهدفهم من ذلك أن يخرجوا متعلمين مسلمين يشعرون بأن لهذه المدارس فضلا عليهم

حتى إذاما سارت إليهم أو إلى بعضهم مقاليد الأمور فى بلادهم هادنوا التبشير وغضوا الطرف عن أخطاره .

وينشىء المبشرون كذلك المدارس والمستشفيات فى المناطق الوثنية ، ويأخذون الأطفال ويلقنونهم مبادىء المسيحية ، ويترفقون حتى يعطوا آباءهم هذه المبادىء لا رغبة فى تحويلهم إلى المسيحية فحسب ، بل تمهيدا لأن يجد الطفل الذى يتربى فى مدرسة تبشيرية جوا ملائما فى المنزل فترسخ مبادىء المسيحية فى نفسه فترى أن المبشرين عالجوا المرضى ، وعلموا الجاهلين ، وخالطوا أهل البلاد وعاملوهم معاملة رقيقة، وكانت بأيديهم إمكانيات عظيمة أعانتهم على أن يؤدوا رسالتهم على أكمل وجه .

ثم قال يجب أن نبدأ فى مهمتنا الإسلامية بالمنظمات الشعبية ، وأن نحث الحكومات الإسلامية على أن تمدهذه المنظمات بالمعونات وأن تفسح لها المجال لكى تؤدى رسالتها . كما ينبغى أن تعتمد هذه المنظمات ـ أولا على أبناء البلاد التى يراد نشر الإسلام فيها. فإنهم أعرف بأبناء عمومتهم ، وأصبر على أداء الرسالة ، ثم تستعين بالرواد الأوائل الذين نزحوا إلى هذه البلاد ، وكونوا لهم صلات خاصة بأهلها ثم يأتى بعد ذلك دور الدعاة الذين يوفدون لهذه الغاية ، وعلى أن يكون الداعية مؤمنا برسالته متحمسا لها ، وأن يكون قدوة حسنة ، ومثلا طيبا .

أما العقبة الكبرى وهى الناحية المالية فيجب أن تساعد فى تيسيرها الحكومات الإسلامية. والهيئات التى تعنى بنشر الإسلام .

ثم قال فضيلته إن هذا يتعلق بنشر الإسلام بين الوثنيين ، أما نشره بين الأوربيين والأمريكيين ومن إليهم فيحتاج إلى وسائل أخرى . ذلك فإن هؤلاء يعرفون . ويعقلون، ولكنهم يجهلون الإسلام ، فهم لا يحتاجون إلا إلى إيضاح الدعوة ، والتعريف بها .

أما خدمة الإسلام بين المسلمين أنفسهم فتكون بالعمل على الرجوع بهم إلى جوهر الإسلام ، وعلى المجمع أن يهتم بهذه الناحية فيضع الكتب والنشرات ، ويستعين بوسائل الإعلام الأخرى .

وعادقاً كد أننا أقدر من المبشرين بالمسيحية على التبشير بالإسلام ، ذلك أنهم يجيئون من أقصى الأرض ، ونحن حين نذهب إلى جنوب السودان مثلا إنما نلتقى بأبناء جلدتنا ، وهم يأنسون إلينا لأننا نشبههم ، ومن اليسير علينا أن نتعلم فى زمن وجيز لغاتهم المحلية. ومصداق ذلك أن من زار مناطق التبشير ، وقد زرتها يتأكد أن المسيحية لا تجد تجاوبا صحيحا ، ولا تلق أرضا خصبة ، فإذا صدقت نياتنا ، ووجدنا العون على أن ننشىء المستشفيات ،

والمدارس الصغيرة ، والصناعات الخفيفة استطعنا أن ندخل أكبر عدد من هؤلاء فى الإسلام فى زمن قد لا يطول كثيرا

* * *

وتأتى بعد هذه النقطة فى الأهمية النقطة التى أثارها الدكتور عبد الحليم محمود عضو المجمع وعميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر فإنه علق على كلمة الأستاذ الشيخ على عبد الرحمن التى يقول فيها إن من عوامل انتشار الإسلام مرونته بحيث يشمل جميع الأسس القانونية اللازمة لإقامة مجتمع فاضل ، وأن يضع القواعد العامة التى تكفل صيانة حقوق الأفراد والجماعات ، فقال الدكتور عبد الحليم بعد أن ذكر أن المحاضرة جمعت الموضوع من أطرافه فى أسلوب جميل ، وفكرة واضحة ، وأن كل هذا يتناسب مع المركز الذى يحتله الشيخ على فى العالم الإسلامى ، قال إن التطور أمر غريب فالإسلام لا تطور فيه ، الإنسانية لم تتطور عقليا ، العقل الإنسانى باعتباره مجرد عقل لم يتطور ، نعم تطورات المادة ، ليست هناك حقيقة قابلة للتطور ، ليس هناك مرونة فى فى التشريع ، يجب أن تنفى فكرة التطور من العالم الإسلامى باعتبار التشريع ، وباعتبار العقل ، وباعتبار الأخلاق وهنا انتقلت المناقشة عن الموضوع الأصيل إلى كلمة الدكتور عبد الحليم ، فقال الأستاذ نديم الجسر مفتى لبنان وعضو المجمع : أستغرب أن يقول الدكتور محمود أن الدين لا يقبل المرونة ، والحقائق لا تقبل التحليل فنحن نعتقد أن دين الإسلام يرتكز على عمود واحد هو العقل ، وكل حقيقة تتناقض مع العقل تناقضا صحيحا ظاهرا نحن مأمورون بتركها .

نعم الآيات البينات لا تقبل التحوير لسيما مع العقل ، أما إذا عرضت قضايا فى الدين أو فى المجتمع أو فى السياسة فإننا نحتاج إلى الرأى ، وختم كلمته بأن سلطان العقل أقوى من سلطان النص .

وقال الدكتور مهدى علام : لولا المرونة فى فهم الإسلام لما استطعنا أن نجلس هنا بهذا الزى (الإفرنجى) ثم ذكر حديثاً قال عنه إنه دستور فى المرونة ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (من وجد منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان) .

وقال أحد الأعضاء : إذا فقد الإسلام مرونته فقد فقد عنصر خلوده ، وأهم خصائصه وهو صلاحيته لكل زمان ومكان ، ولا أفهم للاجتهاد معنى إلا المرونة فى حدود معينة ، وقد أظهر علماء المسلمين من المرونة ما كان له أثر كبير فى انتشار الإسلام ، وسيادته ، وأقترح أن يفسح المؤتمر صدره للتحقيق فى مسألة المرونة .

وتكلم أحد أعضاء المؤتمر - وهو مسلم انجليزى - فقال : إن مسايرة العصر كلمة خطيرة ، فالعصر هو الشيطان ، وإن نتيجة ذلك ترك السنة ، وترك الحضارة الإسلامية ، وقد سألته فى أثناء الاستراحة عن بيان أوفى لمقصوده قال : إن علينا أن نكيف حياتنا بالروح الإسلامية ، ثم نتطلب من الإسلام حلولا لما يعرض لنا فى هذه الحياة ، وليس علينا أن نخضع لصور الحياة المختلفة التى خلقتها المجتمعات ثم نلتمس من الإسلام أن يسايرها ، ثم قال إنه يشكر الدكتور عبد الحليم محمود ، وذكر أن كل مسلم لا يشك فى مرونة الإسلام فى حدود معينة ، لكن ينبغى أن نعرف أن المبالغة فى المرونة هى الخطر الأكبر.

وعاد الدكتور عبد الحليم محمود للموضوع فقال : إنه مسرور لفتح المناقشة فى هذا الموضوع ، وإن من المعروف أن للإسلام ثلاثة جوانب : العقيدة ، وهذه باتفاق لا تطور فيها ، والأخلاق ومعنى المرونة فيها أن الصدق - مثلا - يكون فضيلة فى زمن دون زمن ، والتشريع - وهو موضوع المنازعة - وهو عبارة عن قرآن وسنة ، وإجماع وقياس ، وإدراج حكم جزئى تحت قاعدة كلية أصلية لا يخرجها عن أن تستمر قاعدة ، والدين قد أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير .

وانتهى النقاش حول هذه النقطة باقتراح يطلب إلى الدكتور محمود أن يعد بحثا فى هذا الموضوع .

ولكن الأستاذ المحاضر الأصلى عاد فقال إنه دهش لقول الدكتور عبد الحليم محمود كما دهش لقول الدكتور حزين إن الإسلام لا يعرف دعوة المحترفين ثم قال : إننا إذا استبعدنا هذين يجب أن ينفض الجمع لأنه لا يمكن أن يؤدى أية وظيفة بعد ذلك وأنه قصد من المرونة أننا نستطيع أن نرجع إلى الإسلام كثيراً من المعاملات التى تحدث فى عصرنا أو فى أى عصر قادم ، فنستخلص منه ما يناسب التصرفات المستحدثة .

وجاء دور تعدد الزوجات ، فكان من الطريف أن علق عليه بعض العلماء من البلاد الآسيوية الشقيقة ، فقال إن التعدد هو الأصل وإنه فى القرآن غير مشروط بشرط ، فى حين شرط زواج الواحدة بخوف عدم العدل ، وذلك فى قوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » ، وقال إن الأنبياء والصحابة كان أكثرهم متزوجا بأكثر من واحدة .

ولم يرق لهذا العالم أن يقال إن التعدد ضرورة، وأنه كالجرعة من الدواء، وقال إن ذلك علالة للذين يعيبون الإسلام بهذا التعدد، وهو فى حقيقته ليس بعيب، بل هو أمر مباح ككل الأمور المباحة، وفيه خير كثير.

ودارت مناقشة حول الاسترقاق فى الإسلام تناولت أكثر ما هو معروف فى هذا الموضوع، ولكن الدكتور عبدالحليم محمود اعترض على أن يبرر الرق فى الإسلام بأنه كان متفشياً فى الأمم السابقة، وقال إن لقائل أن يقول إن الخطأ لا يبرر الخطأ، ورد الشيخ على بأنه إنما ذكر ذلك ليبين أن الرق كان أمراً متمكنا فى النفوس فلم يكن من الخير أن يلغى طفرة، ففتح الإسلام بابا واحدا ضيقاً لدخول الرق منه، فى حين أنه فتح أبوابا كثيرة واسعة لخروج الأرقاء إلى الحرية كما أحسن الإسلام معاملة الرقيق، وذكر فى ذلك بعض الآيات وبعض الأحاديث وبعض الوقائع.

وعلق عالم شرقى فقال إن الذين يعيبون الاسترقاق فى الإسلام لا يفهمون. ذلك أن رجلا دعوته إلى دينى – وهو الدين الحق – فرفع على سيفه يريد أن يقتلنى فرفعت عليه سيفى وكان يمكننى أن أقتله، ولكننى بدل أن أقتله مننت عليه بالحياة أفيكون أمراً عظيما أن استرقه وقد أبقيت عليه حياته؟

وتحدث الأمير غالب عن مأساة عمان والجنوب العربى، وتسلط الاستعمار هناك وتحدث رئيس الوفد الفلسطينى عن مأساة فلسطين، ودعا كل منهما إلى أن يهتم المسلمون فى جميع أقطارهم بهذه المشاكل الخطيرة. فإن فى بقاء الاستعمار فى أى مكان، وفى بقاء اليهود فى فلسطين خطراً على الإسلام نفسه.

ولم يفت المؤتمرون أن يعلقوا على مسائل علمية فى نقد بعض الألفاظ، أو بعض الشروح والتفاسير، أو أن يثيروا من ناحية الشكل إلى الاستطراد، أو التقصير فى الشرح أو فى إهمال بعض الجوانب.

وكان من أبرز ذلك ما قاله الشيخ السايس معلقا على شرح الأستاذ الشيخ على عبدالرحمن لقول النبى صلى الله عليه وسلم (بدأ الإسلام غريبا) وهذا نص ما جاء فى البحث «غير أنه – يريد الإسلام – من حيث العمق ظل يخبو ضوءه حينا، ويشرق وجهه أحيانا وسيظل على هـــذه الحال حتى يعود غريبا كما بدأ، وحينذاك «فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس».

وإذا كان بعض المحققين من العلماء قد فسروا هـذا الحديث بأن الإسلام قد بدأ

غريبا ، ضعيف الأثر ، خافت الصوت ، قليل النصراء ، وسيعود بعد قوته إلى حالته الأولى غريبا ، ضعيف الأثر ، خافت الصوت قليل النصراء ، ويميل أولئك العلماء تبعاً لهذا التفسير إلى جميع رواية الحديث القائلة فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس مشيرين إلى الثناء على تلك القلة من المخلصين الذين سيحافظون على قوة إيمانهم حينما تفسد عقائد الكافة من المسلمين ، إذا كان بعض العلماء قد فسروا الحديث على هذا النحو ، فإني أميل إلى ما ذهب إليه المتفائلون من العلماء الذين يقولون إن الإسلام في أول عهده قفز قفزة قوية تغشت على جميع الصعاب وتخطت كل الحواجز والأشواك ، وارتفع مناره كعمود الصبح في مدة وجيزة ، فعمت أنواره كل الأجزاء المعمورة من الأرض في ذلك الزمان ، وأخذ بيد تابعيه ، فاخترق بهم الصفوف حتى احتلوا مكان الزعامة في الأمم وتولوا قيادة الشعوب وتسلموا أزمة الأمور وسيعود الإسلام بعد ضعفه ، وخفوت صوته وتكاثر أعدائه الحاقدين من المغضوب عليهم ... سيعود إلى قوته السابقة ، فتعلو كلمته ، ويقوى ساعده .

قال الشيخ السايس : أرى أن هذا الرأى لا يتفق مع المعنى اللغوى لكلمة (غريب) فهى من الغربة أو من الغرابة ، فالتفسير لا يتفق مع المادة .

وقد رد الشيخ على بأنه يختار التفسير الثانى للكلمة ، وأن الغريب من الغربة ، ومعنى الغربة الدهشة والذهول الذين أصابا الأمم المعاصرة حينذاك من قفزة الإسلام ، وأن هذا الفهم تؤيده الرواية الأولى للحديث وهى فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس .

فهؤلاء لا يكونون إلا مع قوة الإسلام ، وأنه يرى بشائر هذه القوة فى استعداد المسلمين لاسترداد مركزهم السليب فى كل مكان ، وأن تلك القفزة الأولى للإسلام هى الآن على الأبواب ، وأنه يرجو أن يكون فى أعضاء المجمع من كبار العلماء الطليعة التى تتقدم صفوف أولئك (الغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس) .

على العمارى

مناقشات المؤتمر
عرض وتعليق

للأستاذ على العمارى

– ٢ –

فى مبدأ هذه الجلسة ألقى الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر ، ورئيس المؤتمر كلمة موجزة أثنى فيها على طريقة المناقشة التى انتهجها أعضاء المؤتمر فى الجلسة الماضية ، وشكرهم على هذه الطريقة المثلى التى هم أحق بها وأهلها ، فهم علماء المسلمين ، وقادة الرأى فيهم ، وهى الطريقة الإسلامية الصحيحة ، فقد أبدى كل منهم رأيه بصراحة ، وإخلاص وفهم عميق لرسالة المؤتمر ، وبشعور بالغ بالمهمة الملقاة على عاتقه ، وفى الوقت ذاته كان كل متحدث – مع اعتزازه برأيه – يحترم آراء الآخرين.

ثم بدأت المناقشة حول الاجتهاد : ماضيه وحاضره) وقد تحدث فى هذا الموضوع عالمان جليلان ، أولهما الشيخ محمد نور الحسن وكيل الأزهر السابق وعضو المجمع ، وثانيهما الشيخ الفاضل بن عاشور مدير جامعة الزيتونة وعضو المجمع وانتهيا منه إلى أن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحا

وقد دارت المناقشة فى الموضوعات الآتية.

١ – جدل فقهى حول الاجتهاد :

وابتدأ الحديث أحد أعضاء المؤتمر فوجه أسئلة تضمنت الاستفسار عمن اشترط الشروط المتفق عليها لتحقيق الاجتهاد ، وهل لمن اشترطوها مستند؟ وما هو ؟ وهل اتفاق الأصوليين غير المجتهدين يعتبر حجة فى الدين؟

وهل الأئمة الأربعة أو أحدهم اشترطوا تلك الشروط فى الاجتهاد ؟ ثم قال : إن الشافعى قال : لا تقلدونى فى كل ما أقول و انظر لنفسك. وإن الشوكانى قال : بوجوب الاجتهاد .

ثم تكلم الدكتور عبد الحليم محمود فقال : لا يسعنى إلا شكر الأستاذين الفاضلين ، غير أنى أريد إضافة كلمات ، الاجتهاد ليس اختراعا ، ولا مجال للرأى الشخصى فيه . إذا قال مجتهد هذا رأيى فمجرد التعبير يزيل الثقة به ، الاجتهاد هو المحاولة المستميتة الجاهدة لتوضيح رأى الإسلام ، أو لكشف ما عساه يكون رأى الإسلام ، ليس هناك مجال لما يمكن أن يسمى رأيا شخصيا . الاجتهاد اتباع ، وأمر الرسول عام مطلق : اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .

قام بعد ذلك الشيخ محمد أبو زهرة فقال إنه

وإن لم يكن أحد الباحثين إلا أنه باعتباره عضوا في المجمع يرى أن من حقه أن يرد على ما يوجه إلى البحوث التي يتقدم بها الأعضاء ، وتحدث عن الأسئلة التي وجهت حول شروط الاجتهاد ، وذكر أن السائل يقول: إن الشافعي قال بالاجتهاد من غير شروط ، وإن الشوكاني دعا إلى الاتباع وهو غير التقليد وأحب أولا أن أقول حقيقة مرة ، هي أن الشوكاني رحمه الله وعفا عنه ، قال أن اتباع الأئمة شرك ، بل قال إن اتباع الصحابة شرك ، ولذلك فسأدع كلامه ، ولا أعول عليه .

أما عن شروط الاجتهاد فقد ذكرها الإمام الشافعي عند الكلام في القياس ، وقد ذكر في الرسالة . أن الاجتهاد هو القياس ، ومما ذكره من شروط : العلم بالقرآن ،

وبالسنة، وباللغة وباختلاف الأئمة. ومن أهم شروط الاجتهاد ، النية ، الحسنة وهذه الشروط هي التي تمليها الطبيعة الإسلامية أو المنطق الإسلامي، فهل يسوغ أن يجتهد الرجل دون أن يعرف هذه الأمور ؟ الشافعي وأبو حنيفة قررا أن المجتهد أو صاحب القياس لا بد أن يعرف اختلاف الفقهاء والصحابة ، ومن كلام أبي حنيفة : أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس .

ونحن في اجتهادنا لا نقطع السلسلة الفقهية بل نضيف إليها بعض الحلقات فهل يصح أن نضيف إلى السلسلة دون أن نعرفها ؟ .

ثم علق على كلام الدكتور عبد الحليم فقال : إن ورع الدكتور يمنعه إذا توصل إلى أمر جديد في الدين أن يقول : هذا رأيي بل عليه أن يقول هذا رأى الإسلام ، وأنا أقول : إن ورعي يمنعني — إذا توصلت إلى مثل هذا الأمر — أن أقول : هذا رأى الإسلام بل ينبغي أن أقول : هذا رأيي ؛ لأني حين أقول هذا رأى الإسلام أحمل الإسلام خطئي وقد كان ابن مسعود — رضي الله عنه — وهو إمام من أئمة المجتهدين إذا وصل إلى حل مسألة يقول فيها هذا رأيي ، ولكن سيدنا عمر ينهى الناس أن يقولوا هذا هو الإسلام أو هذا هو القرآن .

وقال : إن له ملاحظة على بحث الشيخ نور وملاحظتين على بحث الشيخ ابن عاشور ، أما الأولى فهي حول اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في شئون الدنيا ، فإن الباحث لم يحرر الفرق بين شئون الدين وشئون الدنيا ، ويرى أن المراد بشئون الدين ما يتكون منه حكم كلي يسير عليه الناس ، أو ما يكون تطبيقا لحكم شرعي ، وأن النبي قد يخطئ في شئون الدين لما يدل عليه قوله : (إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض

فأقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار) .

أما عمل النبي في شئون الدنيا فإني لا أسمى ذلك اجتهادا . والحديث المشهور (أنتم أعلم بشئون دنياكم) يروى ناقصا لغرض سيء ، ويجب أن نرويه كاملا ، وهو ما كان من أمور دينكم فإلى ، وما كان من أمور دنياكم فأنتم أعلم به .

والنبي قد اجتهد في بعض الأحكام . ثم قال : ومن الغريب أني وجدت بعض كبار المشايخ يقول : إن اجتهاد النبي ليس بحجة وإنه من الانحراف ألا نعتبره حجة .

قلت لعل ملحظ هذا القائل أن النبي إن لم يقر على اجتهاده امتنع العمل به ، وإن أقر كانت الحجة هي الوحي لا اجتهاده صلى الله عليه وسلم .

وأما الثانية فهي عن قول الشيخ ابن عاشور : إن الطوفي سبق إلى القول بأن الشريعة مبنية على مصالح العباد فالحق أن الغزالي سبق الطوفي في هذا ، والطوفي مخطيء كل الخطأ حين يقول إذا ثبتت المصلحة المقطوع بها ينسخ بها النص المقطوع به .

وأما الثالثة فهي قول الباحث : إن من علم الأصول القواعد ، والحق أن الأصول غير القواعد ، فهذه ضبط للأحكام التي وصفت بالفروع ، وهي ليست من الأصول ، فهما مختلفان من حيث المنطق ومن حيث الزمن .

ثم وقف الدكتور عبدالحليم فقال : إنهما قضيتان بمعنى واحد : الاجتهاد كشف وليس اختراعا ، الاجتهاد اتباع وليس ابتداعا ، وشرح ما أراده بكلمة . ليس هذا رأيي . فقال موضحا : أني أحاول جاهدا أن أخضع رأيي للنصوص ، وألا أقحم شخصي عليها ، ثم قال : ليس في الدين جديد ولا تجديد ، وكل ما نعمله إما كشف لما كان عليه الرسول ، وإما محاولة لإدخال حادثة جزئية تحت قاعدة كلية ، ومرد هذا عندي إلى قول الله تعالى : «اليوم أكملت لكم دينكم» وقول النبي صلى الله عليه وسلم : (اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم) ، وهذه العبارة الأخيرة لها مدلولها العظيم فيما نحن بصدده .

وأما حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - حين أرسله الرسول إلى اليمن ، وسأله بماذا يحكم ، فقال بكتاب الله ، ثم بسنة رسول الله ثم أجتهد رأيي فهو حديث لا يفهمه كثير من الناس ؛ ذلك أن معاذاً أرسل إلى اليمن في وقت لم يكن الدين قد كمل فيه ، وإذن فليس في الحديث دليل ولا شبه دليل فيما يتعلق بالرأي أو الفكرة ، ثم ختم كلامه قائلا في صرامة : ليس في الدين رأي شخصي باعتباره رأيا شخصيا .

ثم قام الشيخ الفاضل بن عاشور ، وقال : إن فضيلة الشيخ نور قد اعتبر بحثى مكملا لبحثه ، وإنه لذلك فوضنى فى الرد على ما ورد من ملاحظات على البحثين ، وقال إنه سعيد بهذا التقدير وهذه الثقة . ثم قال : إن كل المناقشات التى دارت حول البحثين تشتمل على أمر واحد هو استحقاقها الشكر .

أما ما قاله الدكتور عبد الحليم فهو أمر قد جاء به البحثان ، واتجهت نحوه جميع المناقشات فالرأى الشخصى الذى لا يستند إلى دليل لا يقره أحد ، وإنما الرأى طريق للكشف ، وهو لابد أن يرجع إلى موارد الأدلة ، وليس فى المسلمين من يقول: إن الاجتهاد أمر مطلق لإرادة الشهوات ، وليس من يقول : إن النصوص تقتضى الحكم بدون استنباط ، وإذن فالخلاف لفظى .

وللمجتهد أن يقول : هذا حكم الله ، وله أن يقول : هذا رأيى ، أى فى تحصيل حكم الدليل ، والإمام مالك يردد كثيراً فى الموطأ قوله : هذا هو ما نرى .

أما إجماع الأصوليين فلا مجال له فى الدين ، وإنما المهم هو إجماع المجتهدين . ثم بين أن الأحكام الشرعية على مراتب ، فمنها المعلوم من الدين بالضرورة ، ومنها الحكم المجمع عليه ، وهذان لا مجال للاجتهاد فيهما ، ومنها ما كان محل خلاف فهو مجال للترجيح ، وما هو غير منصوص عليه أصلا فهو الذى يكون موضوعا للاجتهاد والحكم .

ومن أفعال النبى ما يكون جبليا ، وهذا ليس موضوعا للاتباع ، نعم كان ابن عمر يتحرى ألا يسير فى المدينة إلا فى السكك التى مشى فيها رسول الله . ولكن هذا كان للتبرك لا للاتباع ، وفعل النبى إذا كان يرجع إلى التعبد فإنه يكون حجة على المشروعية ، وتعليق التكليف الدينى بأمور الدنيا على معنى أنه قد يشمل الإباحة .

٢ — باب الاجتهاد لم يغلق أبدا :

وهذا ما انتهى إليه الباحثان الفاضلان ، وقد أيده بعض أعضاء المؤتمر فقال مندوب المغرب : إن عندنا مجموعة فى اثنى عشر مجلداً فيها فتاوى الأندلس وإفريقيا والمغرب ، وفيها الكثير الطيب من الاستنباط للنوازل الحادثة .

وأعاد مندوب الجزائر إلى الأذهان الحديث الذى يتضمن أن الله يرسل كل مائة عام لهذه الأمة من يجدد لها دينها ، وأخذ يذكر المجددين فقال : إن عمر بن عبد العزيز كان صاحب المائة الأولى ، لأنه توفى سنة ١٠١ هـ وأن الشافعى كان صاحب المائة الثانية لأنه توفى سنة ٢٠٤ هـ .

وأن الغزالى كان مجدد المائة الخامسة ... وهكذا .

ثم ذكر ما ورد فى الكتب من النهى على التقليد والمقلدين ، من مثل قولهم : التقليد لا يثمر علما ، والمقلد لا يسمى عالما إلا على سبيل المجاز . والاجتهاد مرادف للعلم ، والتقليد مرادف للجهل والعامية ، ثم قال : حتى المتأخرون يقولون : التقليد والاتباع والعامية أمور مترادفة ، وقد أجمع المسلمون الأولون على وجوب الاجتهاد ، وما أجمع عليه المسلمون لا يصح خرقه .

ويقصر مندوب يوغوسلافيا الاجتهاد على السلف فيقول : إن السلف أدركوا حقيقة كونهم ورثة الأنبياء ، فنظروا إلى الحياة ومشاكلها ، وإلى القرآن والسنة ، وكلما جدت مشكلة من أى نوع اجتهدوا واستنبطوا من أصول الإسلام حلا لها ، وبذلك اتسع الفقه الإسلامى ، ولكن مع الأسف الشديد بل العميق أن المسلمين لم يسايروا تطور الحياة ، وقد تعصبوا للمذاهب خلال ذلك دون النظر فى القرآن والسنة .

وبذلك استولى الجمود والتقليد وانعدمت الأصالة ، واستولت الخرافات والبدع ، ووجد الاستعمار بيئات صالحة لبث سمومه ضد الإسلام والمسلمين ، وقد تضافرت العوامل الداخلية ، والخارجية ضد الإسلام للقضاء عليه ، لكنه ثبت أمام كل المحاولات .

٣ - الاجتهاد الجماعى :

وقد برزت فى المناقشات فكرة الاجتهاد الجماعى ، فقد قال مندوب الأردن : إن شروط الاجتهاد ربما لا يتفق تحققها فى شخص واحد ، وقد يتيسر تحققها فى عدد من الأشخاص يشكلون بمجهودهم مجتهدا ، فأرجو أن يتوصل المجمع إلى فكرة الاجتهاد الجماعى ، والسير عليها . وإذا أقرت الفكرة فستكون أساسا لمنع مدعى الاجتهاد ، ونجاحها يتوقف إلى حد بعيد على تمثيل أكبر عدد ممكن من الأقطار الإسلامية ، وتكون هذه المجموعة مرجعا أعلى تتولى نقد الاجتهاد الفردى أو إقراره ، وأيد هذا الاقتراح الشيخ على عبد الرحمن مندوب السودان ، وقال : إن تحقق هذه الشروط صعب . ولاسيما (صدق النية) فهو أمر لا يمكن التحقق منه بسهولة ، ولا يمكن ضبطه وسيحدث الاختلاف فى الحكم على تحقق الشروط قطعا ، وإن فى المجموعة التى تحدث شخصا معنويا ما يحقق ذلك ، وما يبعد سوء النية كما أيده علماء آخرون منهم . الشيخ الفاضل بن عاشور والسيد عبد الغفور باهر مندوب أفغانستان .

٤ - مهمة المجمع :

بدا فى كل مناقشات أعضاء المؤتمر اعتزازهم بمجمع البحوث الإسلامية ، وآمالهم الكبيرة

فيه ، وقد قال مندوب يوغسلافيا . المجمع حادث تاريخي خطير ، له من الخطورة وسيكون له من النتائج ما لا يمكن تقديره في هذه اللحظة . إنه سيرجع مجد المسلمين ، وقال : إن للمجمع مهمة أخرى غير البحث والدرس ، وهي جمع شمل المسلمين ، وتوحيد كلمتهم وتحقيق الوحدة الإسلامية .

والحقيقة المرة أن المسلمين افترقوا فرقا مختلفة ، دينية وحزبية ، وضعفت بينهم الروابط الإسلامية حتى غدوا لا يعرف بعضهم بعضاً فمن الواجب أن يربط المجمع الأجزاء المتفرقة من العالم الإسلامي برباط واحـــد .

وعلى المجمع أن يضع الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الجديد ، حتى لا يضطر الساسة إلى استيراد النظم والقوانين من الخارج .

وإذا كان قد انتهى الاستعمار العسكري والاقتصادي فلا يزال الاستعمار الفكري قائما وهو أخطر من كل استعمار ، وعلى المجمع أن يطهر أذهان المسلمين من هذا الاستعمار .

إن معظم ما سمعناه يدور حول ما قام به العلماء السابقون . وهو شيء جليل ، ولكن كنت أحب أن أسمع ما يجب علينا أن نقوم به أمام مشاكلنا المتعددة ، كنت أود أن أسمع جديدا في الاجتهاد ، أما حكم الإسلام في الاجتهاد وشروطه ، وأنواعه فكل ذلك مدون في الكتب يمكن الرجوع إليه ، ومن الغريب أننا تحدثنا في الاجتهاد بطريق التقليد ، فهل آن الوقت لأن نقوم برسالتنا ، علينا أن نبدأ من حيث انتهى السابقون .

وقال الشيخ ناجي أبوشعبان مندوب فلسطين : لسنا في حاجة إلى القول ، وإنما نحن في حاجه إلى العمل ، ولقد أخذنا في المقدمات وقتا طويلا ، وهذا يؤخر الوصول إلى الهدف ، مثلا كلمة (المرونة) أخذت وقتا لا داعي له ، إن عمل المجمع تنفيذ القرارات ووظيفة المؤتمرين هنا هي حل المشاكل الدينية ، وكيفية البحث ليست من هذه المشاكل .

وقال الشيخ حسن مدثر قاضي قضاة السودان سابقا : المهم الآن أن نعرف الأمور المستحدثة التي يعرضها المؤتمر لنرى رأى الدين فيها .

وقال مندوب تونس الأستاذ كمال التارزي : الاجتهاد فرض كفاية ، ولكن لم يقم به أحد - يريد في عصرنا الحاضر - فهل سبب ذلك توانى الهمم أو عدم توفر شروط الاجتهاد؟ .

أرى أن على المجمع أن يبحث الأسباب التي قعدت بعلماء المسلمين عن القيام بهذا الفرض عليه أن يتبنى موضوع الاجتهاد ، ويكون له لجنة من كبار العلماء حتى يوجد المجتهد .

وقد علق رئيس الجلسة على بعض ما قيل فقال : إن هذا المجمع يسمى مجمع البحوث الإسلامية ، فمهمته الأولى البحوث الإسلامية ، ومنها بل من أهمها الاجتهاد .

وقال الأستاذ سعيد العريان : أسأل لماذا اجتمعنا هنا ؟ لماذا أنشئ مجمع البحوث ؟ ما الدوافع التي حملت الشارع على إنشاء المجمع ؟ أبان القانون بوضوح حاجة المسلمين ، كل المسلمين إلى الرأي الجديد تلغى وجودنا إذا أنكرنا حق المسلمين أن يتدبروا وجودهم ، ومشاكلهم ، ويلحقوا كل ذلك بنصوص الإسلام نصاً وروحاً .

٥ — مركز الشريعة الإسلامية :

وقد بدا بوضوح اتجاه كل أعضاء المؤتمر إلى إحلال الشريعة الإسلامية محل القوانين الوضعية فى دساتير البلاد الإسلامية ، وقد مر قريبا ما قاله مندوب يوغوسلافيا من أن على المجمع أن يضع الأسس التي يقوم عليها بناء المجتمع الجديد .

وممن تكلموا فى هذه المسألة الأستاذ الدكتور إبراهيم اللبان ، وقد قال : النقطة الهامة هى مركز الشريعة الإسلامية ، والاجتهاد فرع منه ، وقد كان هدف الاستعمار الأول هو تعطيل الشريعة ، وقد حقق هذا الهدف فى كثير من البلاد ، بوضع قوانين وضعية موضع الشريعة الإسلامية .

وبعض الناس يقولون إن التشريع الوضعى خير من الشريعة الإسلامية ، ويجب القضاء على هذه الفكرة ، فينبغى أن تؤلف لجان وتخرج لنا قوانين إسلامية ، وحينئذ تكون الطريق معبدة لوضع الشريعة الإسلامية فى وضعها الصحيح .

وطالب مندوب الجزائر بوضع دستور مختصر ذى مواد مرقمة مبسطة منتزعة من الفقه الإسلامى وتطبع وتوزع على العالم الإسلامى خصوصا ما يتعلق بالنظم الاقتصادية .

وأيد ذلك مندوب (موريتانيا) وزاد بأن الحكومات إذا وافقت فسنكون سعداء لأننا نرى بلادنا تسير على هدى الإسلام ، وإذا لم توافق فقد قمنا بواجبنا .

وقال مندوب تونس : إن الأزمة الحقيقية هى أزمة التشريع . إن قوانين البلاد الإسلامية مستوردة من الخارج ، فهل فتح باب الاجتهاد يحل هذه المشكلة ، إن واحداً من علماء المسلمين لم يجرأ أن يضع قوانين ونظما مستمدة من روح الإسلام لحل هذه المشكلة .

وهكذا ظهرت هذه العزيمة واضحة ، وربما كانت من الأهداف الأولى لمجمع البحوث الإسلامية ، ونرجو أن تجد طريقها إلى التنفيذ فى أقرب وقت ؟

على العمارى

«العالم الاسلامى فى المؤتمر»

إعداد الأستاذين :

على العمارى و محمد عمر

في القاهرة كعبة الثقافة الإسلامية ، وقبلة أنظار العالم الإسلامى ، ومناط الرجاء فى وحدة المسلمين وبعث مجد الإسلام. وفى أجمل مكان من الضفة الشرقية لنيلها الخالد . انعقد أول مؤتمر لمجمع البحوث الإسلامية وقد مثل دول العالم الإسلامى فى هذا المؤتمر علماء أجلاء لأكثر من اثنتين وأربعين دولة آسيوية وإفريقية وأوربية . برزت فى كلمات هؤلاء العلماء ومناقشاتهم أثناء انعقاد جلساته صور معبرة عن أحوال الإسلام والمسلمين فى بلادهم .

ونحن نأمل أن ننقل إلى القارئ الكريم طرفا من هذه الصور فى خلاصة موجزة لبعض الحكايات التى ألقيت من بعض الصفوة وقادة الفكر فى بلاد الإسلام . إذ أن تجلية أحوال المسلمين والتعرف على مشاكل المجتمعات الإسلامية من أجل دراسة هذه المشاكل ومحاولة إيجاد الحلول المناسبة لها يعتبر جانبا مهما من جوانب رسالة المجمع . عبر عنه أحد السادة من أعضاء الوفود بقوله : « إن التعريف بالوطن الإسلامى جزء مهم من أعمال المؤتمر » .

السنغال

خلاصة ما قاله مندوبها :

يوجد فى العالم الإسلامى فراغ يجب أن يسده المجمع ، فالمبشرون قد استطاعوا بنشاطهم المزود بكل الإمكانيات وضعنا فى موقف الدفاع وتجميدنا فى هذا الموقف . وهم يتلمسون المطاعن على الإسلام حتى ننشغل بها عن الأعمال الإيجابية فعلينا ألا نلتفت لمزاعمهم . فهم يثيرون الغبار على تشريع الإسلام الرق ، مثلا ، ولا داعى أن نرد على ذلك فالمسلمون عاشوا فترة من حياتهم يسترقون أسرى الحرب وليس ذلك عيبا يؤخذ على الإسلام فالرق فى عصر الفتوحات الإسلامية كان من الخطط الحربية التى لا غبار عليها .

ونحن نعلق على هذا المأخذ الذى يتذرع به هؤلاء المضللون الذين يلبسون مسوح التبشير للطعن على الإسلام . بأن الرق الذى شرع فى الإسلام وفتح الإسلام فيه الأبواب العديدة للرقيق على مصاريعها يخرج من أيها شاء بأبسط الوسائل وأيسرها . هذا الرق فى أسوأ صوره ، خير من الحرية فى قيودها البغيضة التى يفرضها الرجل الأبيض على عبيد الأرض والمصانع والمناجم من الملونين .

هذه القيود التى تسلبهم أبسط مبادئ الحرية والمساواة » .

ثم قال إن الجزء الأكبر من أفريقيا شديد الرغبة فى الانسجام والتعاون مع بقية أجزاء العالم الإسلامى ليقوى ساعد المسلمين به ويشتد فى مواجهة سيل المبشرين الذين يستعينون بالصهيونية فى محاربة الإسلام والكيد له .

ومن أمثلة ذلك ما حدث فى بعض دور التعليم فقد سأل أحد الأساتذة تلاميذه « هل نحن فى حاجة إلى الإسلام فى القرن العشرين ؟ » ولم ينتظر جوابا بل استطرد قائلا : « إن الحياة تتطلب أن يكون الإنسان حرا والإسلام يحيل على القدر فيحد من حرية الإنسان » وبالبحث ظهر أن هذا الأستاذ صهيونى .

« ونعلق على هذا الحادث وأشباهه بأن جهود الصهيونية فى محاربة الإسلام معروفة وأقربها ما أثبته التحقيق فى ثورة جنوب السودان من تحريك أصابع الصهيونية القائمين بها قد كان قائد هذه الثورة يتلقى تدريباته فى إسرائيل » .

كينيا

خلاصة كلمة مندوبها :

إن هناك قوى شريرة تتجمع لتحطيم الإسلام وإن من واجبنا كسفراء لهذا الدين أن نقف أمام هذه القوى الشريرة ونعمل يداً واحدة على دفعها بل تحطيمها . وهذا لا يكون إلا بالوحدة الإسلامية وإذاً فهى أسمى الغايات .

لقد قيل لنا إن الإسلام متخلف عن ركب الحضارة وإنه يقعد بأهله عن السير فى طريقها . ولكنا رأينا هنا كيف استطاعت مصر المسلمة أن تحول الصحارى إلى جنات خضراء ، فإذا كنا نؤمن بالقرآن فعلينا أن نعمل به . فنحن تواجهنا مشاكل عديدة فى حياتنا ويجب حل هذه المشاكل على ضوء تعاليم الإسلام .

والغالبية العظمى من شعبنا لا يؤمنون بدين أى دين ، وقد فشلت المسيحية فشلا ذريعاً فى نشر دعوتها فى بلادنا . حتى أولئك الذين يزعمون أنهم مسيحيون لم يتعمق الدين المسيحى فى نفوسهم ، وإذا فعلينا أن ننشط فى نشر دعوة الإسلام من أجل زيادة عدد المسلمين فى العالم وتعميق هذا الدين فى نفوس المسلمين .

سيراليون

مما قاله مندوبها :

من واجب كل مسلم أن يتحدث بصراحة فليس من شأن هذا المؤتمر الدعاية السياسية ولا من شأنه أن يكون موضعاً للتنافس بين أعضاء الوفود فى تعداد مفاخرهم ومفاخر بلادهم ولا ينبغى أن يكون للحكومات المختلفة أى تأثير على المؤتمر وتوجيهه

ونحن أبناء إفريقيا الغربية حضرنا إلى هنا ومعنا آمال المسلمين هناك ، ومن وراءنا القلوب تنتظر فى لهفة ماترجع به .

وإنى لأقولها صريحة : الإسلام فى بلادنا وفى بلاد كثيرة فى حاجة ملحة إلى ما يقويه ويعينه على بث دعوته ونشرها ، وأجدر من يقومون بذلك هم العرب . فكلنا نجلهم لأننا نعتقد أنهم عشيرة النبى ، وأن القرآن نزل بلغتهم .

ثم نعى على القديانية وحذر من الشيوعية وعاب مسلك كثير من مشايخ الطرق المجافى للدين والأخلاق لتكالب بعضهم على جمع المال بطرق غير مشروعة ، وذكر أنه حضر إلى البلاد شيخ تيجانى جمع ما يربى على ٤٠ ألف ليرة وذهب بها إلى غير وجهة ، وحض على تطهير المجتمع الإسلامى من أمثال هؤلاء الذين يجلبون على الإسلام والمسلمين العار والنكال .

وكان مما قاله مندوب إفريقيا السيد / إدريس العلوى : إننا نواجه مشاكل كثيرة منها المسيحية والأحدية والفقر وما يرد من الدول الأمريكية ، وإنى أطلب من المؤتمر العمل على إيجاد حلول لدرء أخطار تلك المشاكل والعمل على نشر دعوة الإسلام فى هذه المناطق البعيدة من العالم .

غيـــانا

مما قاله مندوبها : السيد/ عبد الغنى شاكر :

جاء الإسلام إلى بلادنا عام ١٨٤٥ عن طريق الجالية الهندية . ومنذ ذلك التاريخ لم يأت مبشرون بهذا الدين. فالدعاة لهذا الدين المثقفون بثقافته يكاد وجودهم أن يكون معدوماً من ديارنا ، كما أن الكتب المؤلفة بالانجليزية عن الإســـلام ، هذه الكتب نادرة ، ولذلك فالمسلمون فى بلادنا يواجهون خطراً كبيراً على عقيدتهم من المبشرين المسيحيين لقلة حظ هؤلاء المسلمين من الثقافة الإسلامية ويبدو ازدياد عجز المسلمين عن حصولهم على حظهم من هذه الثقافة يكون خطر هؤلاء المبشرين ولذلك فنحن فى حاجة إلى مثقفين مسلمين مزودين بكل الإمكانيات من قبل المجمع ليقوموا على تدريس مواد الدين واللغة العربية ، لأن التعاليم الإسلامية وإن كانت تدرس عندنا فى المدارس الابتدائية وتنفق عليها مئات الألوف من الدولارات . إلا أنها دراسة سطحية لا تؤدى إلى التعمق فى هـذا الدين ولذلك فحاجتنا ملحة إلى البعثات الإسلامية ليؤدى المبعوثون دورهم فى حمل رسالة الإسلام ، ونشرها فى ديارنا التى تعتبر من أكثر بقاع العالم استعداداً لتقبل مبادئ الإسلام، نظراً لأن الناس هناك لا يستجيبون

فى هذه الأيام لدعوة التبشير بالدين المسيحى رغم ما يبذل فى سبيلها من جهود وأموال لاعتقادهم بأن هذا الدين مستورد من أمريكا وانجلترا . وغدوا يتطلعون إلى الإسلام الأمر الذى دفع بكثير ممن اعتنقوا المسيحية إلى التحول إلى الإسلام ؛ لأن الإسلام دين عقل يدعو إلى التحرر .

ويمكن لدعوة الإسلام أن تشق طريقها فى بلادنا بنجاح عظيم عن طريق الإذاعة والتعليم فى المدارس وإصدار الكتب والنشرات الدينية . وإمكانياتنا العلمية والمادية لا تمكننا من أداء ذلك على ما ينبغى ولذلك فنحن فى حاجة إلى مديد المساعدة . ونأمل أن يتحقق قريبا رؤية هؤلاء المبشرين المسلمين المجيدين للغة الانجليزية ليتمكنوا من أداء رسالتهم فى يسر . ثم ذكر فى ختام كلمته ما يقوم به غلام أحمد فى هذه البلاد من قيادة جماعة من المأجورين والمضللين لتشويه معالم العقيدة الصحيحة .

الصومال

يجمل ما قاله مندوبها السيد / الأستاذ إبراهيم حاجى محمود فى تصوير مشكلة المشاكل التى يعانى منها الصوماليون فى هذه الأيام : إن الهجوم الحبشى على حدود الصومال لا يعد نزاعاً على الحدود كما يذاع وإنما دافعه الحقيقى هو عصبية الأحباش الدينية ضد مسلمى الصومال البالغ عددهم نحوا من ستة ملايين ونصف مليون مسلم يشن عليهم الأحباش حربا صليبية يلقى فيها كثير من المسلمين فى قراهم الآمنة حتفه بقنابل الجيش الحبشى الغادرة .

ولقد ظهر فى العدوان الحبشى الأخير مدى التعاون بين الأحباش وإسرائيل فى العمل على تحطيم هذه الجمهورية الإسلامية ١٠٠٪ جمهورية الصومال الفتية الناشئة ومن الأدلة على ذلك المشهود على طيارين من اليهود فى بقايا الطائرات الحبشية المحطمة ومما يؤسف له أن تجارى حكومة كينيا الحبشة فى موقفها من الصومال منساقة مع العصبية الدينية ومتجاهلة ما يوجبه عليها قانون الوحدة الإفريقية .

ولذلك فإنى أعلن هنا أن واجب المسلمين يدعوهم إلى الوقوف فى جانب مسلمى الصومال ومساندتهم فى رد العدوان الآثم عن حدودهم . واسترداد الجزء السليب من وطنهم الذى يسكنه شعب مسلم ثائر لا يرضى بغير حريته بديلا .

نيجــــريا

مما قاله مندوبها : إنى أعتقد أن الإسلام سينتصر فى آخر الأمر مهما كانت الصعوبات

التى تعترض طريقه ومهما يلاقى من الإجحاف على يد من ينتسبون إليه أو غيرهم ممن يدينون بغيره أو من لا دين لهم .

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره » . فهو دين الفطرة الإنسانية تعاقب الرسل على تدعيم أسسه وإرساء قواعده . وواجبنا أن نعمل لأنفسنا ولديننا . فالله شاهد على عملنا « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

علينا أن نعيش حياة المسلمين فى ظل تعاليم الإسلام إذا أردنا أن نكون أعزاء أقوياء فى هذه الحياة ولا ينبغى أن ننظر فقط إلى الآخرين .

المبشرون الغرباء يأتون إلى وطننا ويسلكون شتى الطرق متذرعين بالوسائل التى يريدون بها التمكن من تحويل أبنائنا إلى النصرانية . هذا هو ما يحدث فى بلادى . فعلى المسلمين أن ينشطوا التبشير بتعاليم الإسلام فى هذه البلاد . وأن تتابع أمواجهم التبشيرية فى أفواج متلاحقة لتعليم أبنائنا فى أفريقيا مبادئ الدين الإسلامى وتبصيرهم بالمقومات الخلقية التى تزخر بها مبادئ هذا الدين ، وإننا ـ معشر المسلمين ـ لا نبذل جهودا كافية فى دراسة التوراة والإنجيل لنقف على ما فيهما .

وجهلنا بالأمور المتصلة بالتوراة والإنجيل يؤدى بنا إلى عدم معرفة كثير مما أشار إليه القرآن الكريم .

وإذا كان الإسلام هو دين الحقيقة الثابتة وكتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإن كثيرا من بنى الإنسان يجهلون ذلك وعلينا ـ معاشر المسلمين ـ تجلية هذه الحقيقة لهؤلاء . فدين الله الحق واحد « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

جنوب إفريقيا

ذكر ممثلها فى المؤتمر السيد / عمر خبيرى أن المسلمين فى بلاده صامدون لما يلاقونه من ألوان العسف والقهر مستلهمين من عقيدتهم روح النضال والتمسك بالحق . فلم تستطع التيارات المعادية للإسلام تحويل المسلمين عن دينهم أو فتنتهم فيه إذ بجنوب إفريقيا قيادات إسلامية تؤدى واجبها بكل ما تملك من طاقة ، منها المجلس القضائى الذى عنه تصدر مجلة أسبوعية إسلامية تقوم بدور كبير فى الدفاع عن قضايا المسلمين . ومنها جمعية الشباب الإسلامية التى تقف بجهوداتها العظيمة سداً منيعاً فى وجه التيارات المعادية للإسلام من المبشرين ومن أصحاب المذاهب المنحرفة . هذا الجهد المشكور الذى يجعلنى أقوى على القول بأن الأمر قد استقر لأهل السنة والجماعة فى بلادنا وكان مما قاله : إن

آمال المسلمين الذين يعيشون فى بلاد غير إسلامية تتجه إلى هذا المؤتمر خاصة . ترجو منه الخير الكثير للإسلام والمسلمين . وإذا كان المسلمون فى بقاع الأرض ينشدون الوحدة الإسلامية . فإن ذلك سيظل ضربا من الوهم مالم تتخلص الدول الإسلامية من السيطرة الاستعمارية .

وإن مشاكل الاقتصاد من أهم ما يشغل بال المسلمين . فعلينا أن نعمل على تحرير النظام الاقتصادى فى المجتمع الإسلامى ليقوم على أساس من تعاليم الإسلام ، الدين الصالح لكل زمان ومكان .

توجو

وقد ذكر مندوبها فى كلمته الأخطار التى تهدد عقيدة الطفولة الإسلامية . المتمثلة فى لجوء بعض المسلمين إلى تثقيف أبنائهم فى المدارس المسيحية هذه المدارس التى كثيراً ما تكون من مهمتها غير الظاهرة فتنة هؤلاء الأطفال بما تتخذه من الوسائل الملتوية لتحويل هؤلاء الصغار بل والشباب منهم عن عقيدتهم الإسلامية .

ومن أجل هذا يجب أن ننزل إلى المعركة ونحن مسلحون بسلاح الثقافة حتى نتمكن من الانتصار على المسيحية فى هذا الميدان وفى غيره من ميادين التبشير التى تمكن للعقيدة من نفوس المسلمين وتضىء الطريق أمام غير المسلمين ليأخذوا طريقهم إلى اعتناق هذا الدين . ثم تساءل قائلا لماذا لا تدرس الانجليزية والعربية والفرنسية لنتمكن من الإلمام بكل الثقافات ؟ ؟

ثم قال : وعندنا رابطة مسلمى توجو تعمل جهدها على توصيل الثقافة لكل مسلمى البلاد . كما تعمل على تنفيذ قرارات المجلس الأعلى القائم على شئون الثقافة الإسلامية . ثم ذكر أن مسلمى توجو على استعداد لتقبل قرارات مؤتمر المجمع من أجل صالح الإسلام والعمل على تطبيقها . وآمل فى المجمع أن يبذل من الجهود ما يصل به إلى حل لمشاكل العالم الإسلامى فى نطاق تعاليم دينه .

تونس

طلب مندوبها السيد كمال التازى من المجمع توجيه عناية خاصة إلى :

دراسة المشاكل التى تعترض التشريع الإسلامى فى العصر الحاضر دراسة وافية .

فقد رأى من غالب أعضاء المؤتمر استجابة الدول بفتح باب الاجتهاد بعد الإعداد له إعداداً كافيا . ولا شك أن هذا شيء خطير . إذ ليس من الحق فى شىء بل ليس من مصلحة المسلمين عزل الدين عن الحياة وقصره فقط على الأحوال الشخصية والعادات . ولذا يجب التوجه أولا إلى ميدان الاقتصاد حيث إن معاملات كثيرة لا تخضع التشريع

الإسلامى . فابتعاد المسلمين عن مبادئ الإسلام فى ميدان التعامل الاقتصادى يضع فى أذهان الأجيال القادمة أن الإسلام غير صالح للعصر الحاضر .

ثم نادى بأنه ينبغى أن تكون لنا عزيمة أسلافنا من العلماء فى فهم تعاليم الإسلام التى لا تضيق بالحلول لمشاكل العصر وذكر أن عالما قيروانيا عظيما اتخذ كلبا للحراسة فلما قيل له إن الإمام مالكا كره اتخاذ كلب الحراسة قال : يحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا : لو كان مالك فى زماننا لاتخذ أمام داره أسداً ضارياً

العراق

قال ممثل النجف الأشرف البلد العلمى الشيعى بعد أن بلغ تحية علمائه إلى أعضاء المؤتمر :

إن من واجب المجمع وضع دستور إسلامى ، ونحن طالبنا بهذا كثيراً بعد أن جربنا كثيراً مبادئ غير إسلامية مستوردة فماذا استفدنا منها ؟ !.

فقد تخلت عنا السعادة يوم تخلينا عن تعاليم الإسلام . والذى نحتاج إليه لاسترداد هذه السعادة هو وضع دستور إسلامى منتزع من واقع تعاليم الإسلام. فلم يعد لهذه المؤتمرات من فائدة إذا لم نخرج منها بعمل إيجابى ، ولم يعد كافياً أن نقول ونكثر من القول ، بل علينا أن نقول ونعمل بما نقول .

وفى اعتقادى أن كلمة « شيعة » لم يعد لها مايبررها . فقد كان ذلك عند مافرقتنا الأهواء والأحزاب والتعصب البغيض ، أما الآن فلا داعى لترديد مثل هذه الكلمات .

وقال مندوب الكاظمية السيد/ محمد الخالصى:

يجب أن نكون عند مستوى مسئولياتنا هدفنا العمل الإيجابى من أجل أن تكون السيادة للإسلام وتعاليمه ، فالحكم بغير ما أنزل الله كفر وظلم وفسق ، كما جاء وآياته البينات من سورة المائدة .

سيلان

قال مندوبها السيد / عبد العزيز :

يوجد فى سيلان ٧٠٠ ألف مسلم يكونون ٧ ٪ من عدد سكانها ، ونحن من أقدم المجموعات التى تعيش فى سيلان من نسل مسلمى العرب الذين عاشوا فى القرن السادس الهجرى والذين ظل سهمهم فى صعود إلى أن أصيب بضربة قوية على يد الاستعمار الذى حاول بكل الوسائل عزلنا عن العالم الإسلامى ، ويقول: إن مسلمى سيلان قد استفادوا كثيراً من زعماء مصر المسلمين الذين نفاهم الاستعمار إلى بلادنا ، وعلى رأس هؤلاء الزعيم المصرى الخالد الذكر أحمد عرابى الأزهرى الثقافة ، والذى كان فى الفترة التى قضاها بيننا إماما لنا يبصرنا بأمور ديننا ويوجهنا فى أمور دنيانا

فكان لنا المرشد والناصح الأمين ، فقد كنا نشفق من تعلم الانجليزية فشجعنا على تعلمها ، وعن طريقه عرفنا الأزهر .

ونحن - المسلمين - نعمل الآن بتقدم وشجاعة لنلعب دورنا الهام فى النهوض بجزيرة سيلان لأن ديننا الإسلام هو الدين الحق ، الدين العظيم الذى استطاع أن يمدنا بالقوة التى مكنتنا من مجابهة الاستعمار بفضل تعاليمه القويمة التى كشف لنا الأزهر عن سناها الهادى إلى طريق الحق .

* * *

ولعل المتحدث اقتصر على التنويه بمجهودات الزعيم أحمد عرابى كرمز لإخوانه من المصريين الذين نفاهم الاستعمار إلى هذه البلاد النائية ليوقف نشاطهم ويثبط عزيمة الثوار ضد هؤلاء المستعمرين ، وما درى الاستعمار وأصحابه أن الإسلام لا يعرف له وطنا ، فوطنه العالم كله ، والمسلم أين حل يكون مغزله وطنه يؤدى فيه رسالة الإسلام إلى أهله ، والمرحوم سامى البارودى مكث فى منفاه سبعة عشر عاما يقوم بواجبه الدينى والوطنى . فكان هذا النفى له ولإخوانه من الزعماء خيراً لدينهم ووطنهم من حيث أراد الاستعمار بهم الضرر والتنكيل .

اليابان

مما أفاض به مندوبها فى وصف حال التدين فى بلاده قوله :

« إن اليابان بأسرها أصبحت تتطلع إلى دين جديد . وأنها تحللت من البوذية . ومن الممكن بمجهود مخلص تحويل اليابان إلى الإسلام » .

الفيلبين

ذكر مندوبها : أن ببلاده نحو ثلاثة ملايين من المسلمين من عدد السكان البالغ عددهم ثمانية وعشرين مليون نسمة منهم أربعة وعشرون مليونا مسيحى كاثوليكى وأن اللغة السائدة هناك هى اللغة الانجليزية ورغم بعد موقع هذه البلد عن حدود العالم الإسلامى بنحو ٦٠٠ ميل من حدود شرق آسيا . فقد زحف إليها الإسلام فى القرن الرابع عشر عن طريق أحد العلماء المشاهير . وفى القرن السادس عشر وصلت إليها أول بعثة عربية إسلامية بعد أن كان الإسلام قد بذر بذوره فى هذه البلاد ونما حتى وصل إلى الطبقة الحاكمة .

ولقد حاول الاستعمار الأسبانى جاهدا تحويل هؤلاء المسلمين إلى مسيحيين كاثوليك ولكن المسلمين ثبتوا على دينهم وجاهدوا جهادا عنيفا فى سبيل المحافظة على هذا الدين وبذلك استطاع الإسلام أن يبقى رغم كثرة الكاثوليك

ومحاولاتهم المتكررة للضغط على المسلمين . وفى نهاية القرن التاسع عشر خرج الأسبان على أثر اشتباك الأمريكان معهم وغدت أمريكا هى الحاكمة وناهض المسلمون الحكم الأمريكى ، وبالرغم من أنهم كانوا يعيشون فى جهات متفرقة من البلاد فقد ظلت هذه المقاومة عشر سنوات . وقد حاول الأمريكان من جانبهم إبعاد المسلمين عن دينهم بواسطة الدعايات المضللة التى تأثر بها المسلمون زمنا نظرا لتفشى الأمية بينهم إذ ذاك وادعاء هؤلاء أنهم لم يجيئوا مبشرين بل قدموا لتنظيم هذه البلاد والنهوض بها .

وعندما نالت الفيليبين استقلالها فى سنة ١٩٤٦ كان المسلمون يعتبرون من المجتمعات المتخلفة . وكانت معلوماتهم من الإسلام سطحية نظرا لبعدهم عن الوطن الإسلامى . وعلى أثر هذا الاستقلال قدم إليها المبشرون بالإسلام من الهنود المسلمين فكانوا سببا فى تقوية المسلمين بها وزيادة عددهم ويقظتهم والآن يوجد بالجمهورية العربية المتحدة مائة طالب فليبيى ينهلون من الثقافة الإسلامية والعربية .

ثم قال فى ختام حديثه : نحن نود دعاة مسلمين للتبشير بالدين الإسلامى فى بلادنا ، وتبصير المسلمين فيها بأمور دينهم .

الباكستان

تقدم مندوبها بشكره للأزهر على دعوته علماء المسلمين لدراسة مشاكل العالم الإسلامى ومحاولة إيجاد الحلول لهذه المشاكل التى يرى أنها لا تحل إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام لاستنباط هذه الحلول ثم أخبر وفود المؤتمر بأن البرلمان الباكستانى قرر وضع دستور تحكم به الباكستان تستمد أصوله من تعاليم الإسلام . ثم توجه بالدعوة إلى شعوب العالم الإسلامى من فوق منبر المؤتمر إلى التأسى بالباكستان فى هذه الخطوة المباركة وذكر أن الحكومات لا يصح أن تسمى حكومات إسلامية إلا إذا عملت هذه الحكومات بتعاليم الإسلام فالله يقول فى كتابه الكريم : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فإذا كان المسلمون مسلمين بذلك ، فلا صلاح لهم إذا إلا برجوعهم إلى تعاليم الإسلام . وبذلك تتقارب جميع الشعوب الإسلامية فى حكمها بقانون واحد هو قانون الإسلام فدينهم واحد ورسولهم واحد .

وعندئذ تظهر حاجة العالم الإسلامى الشديدة إلى هذا المجمع الذى يجب أن تمثل فيه جميع الدول الإسلامية ، ليضع القرارات والقوانين التى تبلغ إلى جميع الدول الإسلامية ، ويكون من مهمته الرد على الاعتراضات والطعون التى يوجهها أعداء الإسلام إليه ممثلة فى تشريعه

للطلاق وتعدد الزوجات وما إلى ذلك من الطعون التى يظهر لكل ذى بصيرة فيها وجه البطلان . كما تكون من مهمته بحث مسائل الربا وغيرها من أمهات المشاكل التى تسود العالم الإسلامى .

ثم نادى بوجوب عمل المسلمين صفا واحد لحل مشكلة فلسطين ونوه بأن الباكستان على أتم الاستعداد لبذل الدم والمال فى سبيل تحريرها وتطهيرها من رجس الصهيونية . كما ناشد الدول الإسلامية مساهمتها فى حل مشكلة كشمير البلد المسلم .

إندونيسيا

كان مما قاله السيد / محمود يونس ممثل إندونيسيا :

اسمحوا لى بإلقاء كلمة صغيرة . فقد قرأت قانون إنشاء مجمع البحوث الإسلامية . رقم ١٠٣ وفى المادة ١٥ منه أنه الهيئة العليا للبحوث الإسلامية وهو المهيمن على تجلية الثقافة الإسلامية ونشرها وإذاً يكون هذا المجمع وحيداً فى موضوعه وحيداً فى غرضه . وهو الأول من نوعه فى بلاد الإسلام جميعها فهو بعد الإسلام مناط الربط بين بلاد الإسلام جميعهـا .

ومن مهامه الأساسية التقريب بين المذاهب الإسلامية . وتجلية الثقافة الإسلامية والسير بدعوتها فى أحسن طريق تحقيقا لقول الله فى كتابه الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فالدعوة الإسلام واجب حتمى وكتمان ما فى كتاب الله يستحق الإنسان عليه اللعنة .

والمبشرون يشتغلون ليل نهار غير مبالين بالعقبات التى تعترض سبيل دعوتهم ولهم جمعيات كبيرة تزودهم بالأموال الكثيرة التى لا تقف عند حد . فعلى المسلمين ألا يكونوا أقل من هؤلاء جهداً فى نشر دعوة الإسلام وتعاليمه السمحة .

ثم حمد الله على إنشاء هذا المجمع الذى يعد من الهيئات الإسلامية الكبرى فى مهمتها وتبعاتها الثقيلة وهو يرجو له التوفيق فى هذه المهمة ليتمكن من إحياء التراث الإسلامى ونشر الثقافة الإسلامية بكل وسائل الإعلام والنشر . وخاصة إرسال البعوث التى تقوم بنشر هذه الثقافة .

وفى النهاية أعلن مناصرة إندونيسيا لقضية فلسطين بكل ما تملك وأنهـا لن تعترف بإسرائيل . وستقف مع العرب باذلة جهدها ومالها ودمها فى سبيل نصرة قضية فلسطين العادلة .

يوغوسلافيا

من كلام مندوبها فى المؤتمر :

نحن نعيش فى منطقة بعيدة عن أرض

الإسلام ، ويهمنا أن نحيا بالإسلام لا أن نتعبد به فحسب . وإذا فعل المجمع أن يتجه إلى دراسة نظام الحياة الراهنة وأن يجد حلا للمشاكل التى تتكاثف سحبها فى سماء حياة المسلمين ، فليس هناك ما يدعو إلى الخوف من مسايرة الزمن ، فمن المقرر أن التطور من سنن الحياة والمعنى الذى أقصده من مسايرة الزمن ، هو المحاولة الجادة لصبغ حياة المسلمين بصبغة إسلامية .

* * *

انجلترا

فى كلمة قصيرة عبر مندوبها السيد أبو بكر سراج الدين عن مشاعره ومشاعر إخوانه المسلمين هناك نحو العالم الإسلامى والآمال التى يرقب تحقيقها فى لهفة للنهوض بالجامعة الإسلامية ، كان منها قوله :

أيها العرب : أنتم فى دار الإسلام هنا تفعلون ما تشاءون ، ونحن فى ديارنا البعيدة ننتظر منكم الكثير من الأعمال فى النهوض بدعوة الإسلام والأخذ بيد المسلمين ، فلا تخيبوا آمالنا .

إن التجديد فى الدين هو عبارة عن إحياء وتعميق الشعور بهذا الدين ، وإرجاع الناس إلى أصوله .

* * *

هولندا

قال ممثلها السيد / رضا مصطفى :

إنى أمثل بلدا صغيرا سكانه من المسلمين لا يتجاوزون ألفا ومائتى مسلم تقريبا ، وذكر فى كلمته أنه حضر إلى القاهرة فى سنة ١٩١٩ وكان شديد الإعجاب بالأزهر وجامعته واعتذر فيها عن التحدث بلغة غير عربية لأنه لا يجيد التحدث بها وإن كان يجد لذة فى الاستماع عند ما تطرق أذنيه أصوات تتحدث بالعربية . وقال : إنه قد حضر إلى القاهرة بعد مضى أربعين عاما تقريبا يملؤه السرور بالعودة إلى نفس المكان ، القاهرة العظيمة ، وبدعوة من أزهرها المتيد .

ثم أخبر فى كلمته عن وجود جمعية فى هولندا تحت اسم « جمعية أصدقاء المسلمين » ومن أهدافها نشر الإسلام فى ربوع هولندا وقد حصلت على كثير من التقدم فى هذا الاتجاه فى السنوات العشرة الأخيرة ولذلك فهو يأمل فى اعتناق كثير من الناس هناك للدين الإسلامى إذا ما وجد الدعاة له المؤهلون للتبشير بدعوته .

وفى نهاية كلمته توجه بالرجاء إلى الله أن يكلل أعمال المجمع بالنجاح حتى يكون لإنتاجه المدى البعيد فى نشر دعوة الإسلام وتخليص تعاليمه من الشوائب التى كدرت صفاء هذه التعاليم .

مع أعضاء الوفود

للأستاذ سعد عمر

وإتماما للصورة السابقة نتبع ما تقدم ببعض الأحاديث التي جرت مع بعض أعضاء الوفود خارج قاعة المؤتمر .

موريتانيا

مع : الشيخ محمد سالم بن محمد على بن عبد الودود . رئيس المحاكم الابتدائية للفقه الإسلامى التى تقوم بالفصل فى قضايا الأحوال الشخصية والقضايا المدنية التى يكون الخصوم فيها من أهل البلاد . أما قضايا الجرائم وقضايا الحقوق المدنية التى يكون طرفا النزاع فيها من الأجانب . فيفصل فيها نوع من المحاكم يعرف بمحاكم القانون الوضعى والشيخ محمد سالم ثقافته عربية إسلامية تلقاها على والده ثم سافر إلى تونس فى دورتين تدريبيتين على أعمال المحاكم . وله إنتاج على فى فروع القانون العام المطبوع بالطابع الإسلامى والقانون الإدارى . كما أن له تحقيقا فى بعض المسائل الفقهية والشرعية والقانونية .

أجاب عن سؤال بشأن عدد سكان الجمهورية الموريتانية ونسبة المسلمين بينهم ، ووصول الدعوة الإسلامية إلى هذه البلاد . بأن الدعوة الإسلامية وصلت إليها فى القرن الرابع الهجرى عن طريق القيروان وأن عدد سكانها الآن مليونان ونصف تقريبا كلهم مسلمون إذ لا يوجد بها من غير المسلمين إلا بعض الأجانب الذين تدفع إلى وجودهم الحاجة إلى المساعدات الفنية فى بعض المصالح . ويذكر أن موريتانيا تمتاز عن غيرها من بلدان العالم الإسلامى بأنه لا يوجد فيها يهودى واحد . والغالبية العظمى من السكان يتكلمون العربية والقليل عاميتهم زنجية ، أما لغة الصلاة للجميع فهى العربية الفصحى .

والمساجد منتشرة فى المدن والقرى . وربما تعددت المساجد فى المدينة أو القرية الواحدة ولكن الجمعة بها لا تتعدد . هذه المساجد منها ما هو قديم يغلب عليه الطابع العرفى ومنها ما هو حديث يغلب عليه الطابع العصرى فيما يحيط به من الشوارع الفسيحة المغروسة بالأشجار على الجانبين .

والتعليم فى البلاد نوعان من المدارس : أهلى يقوم بتحفيظ القرآن والمواد الأخرى دون تقيد بنظام معين وهذا النوع منتشر

فى كل القرى تقريبا . وآخرمدنى تشرف عليه الحكومة . وكان هذا النوع فى عهد الاحتلال مصبوغا بالصبغة الفرنسية . تطور فى عهد الاستقلال الذى حصلت عليه البلاد فى سنة ١٩٦١ فدخلته العلوم الدينية والعربية . ويعتبر المعهد الدينى بالجمهورية الموريتانيه من أهم دور التعليم بها . توليه الدولة عناية فائقة . وللأزهر به الآن مبعوثان يؤديان واجبهما على أكمل وجه .

والثقافة الإسلامية كانت تصل إلى هذه البلاد عن طريق الكتب والمطبوعات الدينية التى تجلب من القاهرة والبلدان الأخرى . ونجد فى كل بيت غالبا مكتبة تحوى كتب الدين تاريخ الإسلام والمؤلفات المحلية القديمة التى توارثها السلف عن الخلف ومعظمها من المخطوطات وهو يرى لبعث النهضة الدينية فى بلاده أن تكثر الحكومة من إرسال البعوث المتبحر فى علوم الدين واستقدام المعلمين إلى البلاد لنشر الثقافة الدينية المستنيرة. حتى يمكن القضاء على الخرافات التى تشوب عقائد كثير من الناس ومقاومة بعض الانحراف فى سلوك من تشيعوا لثقافة الغرب وهم قلة فعن طريق هؤلاء المعلمين بتعاليم الدين وأخلاقه الصحيحة يمكن أن نشق طريق الدعوة فى وسط الأحراش والغابات لإنقاذ من ضللتهم ثقافة الغرب اللادينية أو من خالط عقائدهم الخرافات التى لا تمت إلى تعاليم الإسلام بسبب .

وأجاب عن سؤال بشأن انفعال الموريتانيين بالأحداث التى تجرى فى العالم العربى وعما ، يراه لتقوية روابطهم بالأمة العربية .

بأن كل ما يجرى فى العالم العربى له أثره وصداه الذى يهز أوتار قلوب الموريتانيين فهم ينفعلون بأحداثه إلى درجة أنهم يعيشون فيها ، وخاصة ما يتعلق منها بالجمهورية العربية فهم يقرضون الشعر فى المناسبات السارة والأحداث المؤلمة ، التى جرت وتجرى فى العالم العربى : مثل حرب السويس ، وقيام الوحدة بين مصر وسوريا ، ووقوع كارثة الانفصال ، ونجاح مؤتمر الملوك العرب ، ولكى تزداد الروابط قوة بينهم وبين شعوب الأمة العربية ، لا بد من البعوث المتصلة التى تستقدم إلى الجمهورية العربية وغيرها من الدول العربية المستنيرة حتى ينهل الموريتانيون من مناهلها العذبة ، ويذكر أن الخطوة الأولى فى هذا الطريق بدأت بزيارة السيد / محمد النبوى المهندس لموريتانيا على رأس وفد يمثل سائر المصالح المختلفة ، واتفاقه على إرسال موريتانيا لعدد كبير من أبنائها إلى الجمهورية العربية ليتثقفوا بالثقافة العربية والإسلامية فى شتى فروعها المختلفة ، وهو يذكر أن الطلاب الموريتانيون الآن يتحرقون

شوقا لتلبية أول إشارة لهم بالقدوم إلى هنا، وليكونوا النواة لحل أعباء النهضة فى بلادهم التى بدأت حكوماتها فى استغلال ما تزخر به أرضها من الثروات فى الظاهر والباطن بتعاقدها مع بعض الشركات لاستخراج هذه الثروات، والتى من أهما النحاس والبترول والثروة الحيوانية وغيرها.

وهو يرقب للمؤتمر نجاحه فى مهمته الجليلة حتى يكون له فعاليته فى توحيد صفوف العرب والمسلمين، وحتى يمكنه حل مشكلات الحياة التى يعانى منها المجتمع الإسلامى، حلا تقوم أسسه على تعاليم الدين الإسلامى الحنيف.

الصومال

مع: - الأستاذ إبراهيم حاجى محمود. مدير القسم العربى بوزارة الاستعلامات الصومالية ومن أهل منطقة أوجادين المتنازع عليها بين الصومال والحبشة.

ولقد درس بالأزهر وحصل على عالية اللغة العربية فى سنة ١٩٢٦، ثم دبلوم كلية التربية بجامعة عين شمس سنة ١٩٥٧ وله نشاط سياسى ودينى واسع المدى، فهو الآن رئيس حزب نصر الله الصومالى الثورى الذى يعمل بكل قواه للتخلص من الاحتلال فى هذه المنطقة هذا الاحتلال الذى يلبس على جسده ثوب الاحتلال الحبشى بينما العنصر اليهودى يخبوء تحت هذه الثياب.

وقد قام هذا الحزب بثورته فى أوائل سنة ١٩٦٣ وهى ماضية فى طريق النصر للتخلص من الاستعمار وأذنابه نهائيا كما أنه عضو فى لجنة الدستور التى تستخلص مواده من الفقه الإسلامى

وله مؤلفات كثيرة - منها - الصومالية بلغة القرآن. عبارة عن كتابة اللهجة الصومالية بلغة عربية. ومنها - كفاح الحياة - وكتاب التعليم فى الصومال - وكتاب منهجى فى النظم القانونية للمرافعات الشرعية. كما أنه يحاضر فى المعهد الجامعى بمقديشو فى مادة اللغة العربية.

وقد أجاب عن سؤال بشأن التطورات التى لاحظها فى حياة المجتمع المصرى فى المدة التى غاب فيها عن القاهرة بأن التطور الذى رآه من الوهلة الأولى يعتبر تطوراً ثوريا شاملا لكل مرافق الحياة فى هذه البلاد بل شاملا للإنسان العربى نفسه فى كيانه ووجوده.

كما أجاب عن سؤال بشأن عدد المسلمين بالصومال والجمعيات الدينية الإسلامية بها ومدى نشاطها ونشاط الجمعيات التبشيرية الأخرى. بأن نسبة المسلمين فى الصومال تكاد تكون ١٠٠ ٪. إذ لا يوجد إلا عدد من غير المسلمين ضئيل يقيم فى جيبوتى له كنيسة فى مقديشو تشرف على نواحى النشاط الكنسى الكاثوليكى فى إفريقيا..

ويوجد من الجمعيات الإسلامية بالصومال جمعية حماة الدين الإسلامى . والرابطة الإسلامية . ولها نشاط واسع المدى . كما لرجال الدعوة الدينية من مبعوثى الأزهر نشاط غير محدود وله أثر عظيم فى تبصير المسلمين بأمور دينهم . وإضاءة طريق الخير والمعرفة لهم .

أما النشاط التبشيرى هناك فقد أصبح منحصراً داخل حدود كنيسة مقديشو بل داخل جدرانها . أما خارج بنائها فقد قضى عليه نهائياً على إثر مقتل المبشر الأمريكى إذ منعت الحكومة أى نشاط للتبشير المسيحى فى هذه البلاد التى نص فى دستورها على أن الفقه الإسلامى هو الذى تستخلص من قواعده أسس التشريع فى البلاد .

وأمل السيد إبراهيم حاشى فى المجمع أن يكون نواة لجامعة إسلامية كبرى أعضاؤها من كل أقطار الإسلام . وأن يصبح له أثره فى توجيه المجتمع الإسلامى توجيها دينياً صحيحاً ليستعيد الإسلام والمسلمون سالف مجدهم وعزهم . وأن تحظى قرارات هذا المجتمع بالاحترام حتى يكون لها أثرها فى سلوك الحكومات الإسلامية . كما يرجو أن يعمل المجمع على تقوية التبشير بالدين الإسلامى فيرسل الدعاة إلى المناطق النائية مزودين بكل الإمكانيات التى تعينهم على أداء هذه الرسالة على أكمل وجه . حتى يتمكنوا بعملهم هذا من صد تيار التبشير والإلحاد الذى يمده المستعمرون بكل الإمكانيات .

وفى نهاية حديثه توجه إلى المولى بالدعاء رجاء أن يكلأ هذا الغرس الناشئ برعايته فيمده بروح من عنده حتى يقوى على النهوض بتبعة مهمته الثقيلة على خير وجه .

السودان

مع : فضيلة الشيخ حسن مدثر قاضى قضاة السودان السابق والذى مارس هذه الوظيفة من سنة ١٩٥٢ إلى أن أحيل إلى التقاعد فى سنة ١٩٥٨ .

وقد أجاب سيادته عن الأسئلة التى وجهت إليه بشأن مذكرته التى تقدم بها إلى البرلمان السودانى لوضع دستور الحكم فى السودان على أساس من مبادئ الشريعة الإسلامية بما يأتى :

كان الحافز له على وضع هذه المذكرة مايراه ويراه غيره من الناس من أن السودان بلد يقوم نظام جماعته على العادات العربية والنظم والتقاليد الإسلامية وأكثر سكانه يدينون بالإسلام . وإذا فالضرورة والواجب يحتمان فى بلد كهذا أن تكون الأسس العامة لدستوره قائمة على قواعد الاسلام وأن تكون القوانين التى يحكم بها المجتمع الاسلامى فى نطاق دستور إسلامى لايتعارض العمل بها مع مبادئ

الإسلام الذى قام عليها نظام هذا المجتمع . وأنه كرجل يمارس القضاء يؤسفه ويسوءه أن تحكم بلاده بقوانين مخالفة لشريعة الإسلام ومبادئه العامة سنها المستعمرون ؛ لا لتحمى عقائد هذا المجتمع وتقاليده كما هو المفروض فى قوانين كل دستور بل شروطها القضاء على هذه العقائد وتلك التقاليد . وقد زال الاستعمار وأصبح أمر الأمة السودانية بيدها وهى أمة إسلامية بحكم الكثرة المطلقة للسلمين فيها . وإذا فلا عذرلها فى عدم إلغاء تلك القوانين الدخليه والرجوع إلى الإسلام لوضع دستور إسلامى فيه من القوانين ما يحمى عقيدة هذه الأمة وآدابها العامه وعاداتها العربية الأصيلة .

وقد انتهيت من وضع هـــذه المذكرة فى ربيع الثانى سنة ١٢٧٦ هـ الموافق نوفمبر سنة ١٩٥٦ : تقدمت بها إلى الوزراء ولجنة الدستور فور الانتهاء من إعدادها ووزعتها على أعضاء البرلمان السودانى لحظيت بالتأييد المطلق من معظم أعضاء المجلس إذ أيدها أكثر من مائة وستين عضوا من أعضاء البرلمان ، إلا أن المشروع لم يتم نظرا لحل المجلس على إثر قيام الثورة السودانية والعمل بالدستور المؤقت الذى تحكم به البلاد فى فترة الانتقال .

وكنت أرى الخطوط العامة للدستور الإسلامى الذى يمنح المجتمع المسلم العدالة الاجتماعية ، والحرية ويحل مشاكل هذا المجتمع السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية التى تعانى منها الإنسانية فى هـذه الأيام الكثير ، واضحة فى المبادئ العامة للإسلام كمبدأ الأخوة والمساواة التى قررها القرآن وأكدتها سنة الرسول وكمبدأ الشورى الذى يرتكز عليه الحكم الديمقراطى فى الأمم المتمدينة ، وكضمان الحريات الأساسية : حرية التفكير ، وحرية القول ، وحرية العقيدة ، وتقرير مبدأ العدالة ، ومبدأ التعاون والتضامن الاجتماعى ، ومبدأ تكافؤ الفرص ، وصيانة حرمة التملك والاقتصاد ، إلى غير ذلك ، مما يدل فى وضوح على أن الإسلام ليس دين عقيدة وعبادة فقط وإنما هو عقيدة ونظام ودولة .

وفى نهاية حديثه تمنى للمؤتمر كل نجاح وتوفيق فى مهمته المقدسة ، رجاء إيجاد الحلول المناسبة لمشاكل المجتمع الإسلامى فى ضوء تعاليم الدين الإسلامى المجيد .

* * *

العراق

مع : فضيلة الشيخ كمال الدين الطائى : سكرتير جمعية الآداب الإسلامية ببغداد ،

ومدرس بمدرسة الحضرة القادرية ، الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وإمام وخطيب جامع المردية ، وصاحب مجلة الكفاح التى بدأ ظهورها فى سنة ١٩٣٠ ، واحتجبت عن الظهور كلية فى عهد عبد الكريم قاسم ١٩٦٠ وكان اسمها يتغير أحيانا تبعا لتغير الظروف السياسية فى مدة ظهورها .

له مؤلفات ومباحث دينية . منها :

١ — مباحث قرآنية ، وهو عبارة عن موجز لبعض الدراسات التى تختص بالقرآن

٢ — كيف عالج الإسلام مشكلة الفقر .

٣ — أحاديث التفسير التى ألقيت فى الإذاعة وغيرها من المنتديات الدينية .

سئل عن رأيه فى مجلة الأزهر فأجاب بأنه يشترك فيها منذ إنشائها وتصله تباعا وقال : إنها مجلة سائرة تخدم ناحية معينة هى الثقافة العربية والإسلامية . ومديرها الأستاذ الزيات من الإخوان الأعزاء على العراقيين وهو ينصح بأن تعنى بنشر أخبار العالم الإسلامى كافة كما ينصح المشرفين على تحريرها بأن يعملوا على العودة بها إلى المستوى العلمى الرفيع الذى كان طابع هذه المجلة منذ زمن بعيد .

وأجاب سيادته عن سؤال بشأن موضوع البحث الذى سيتقدم به إلى المؤتمر فى دورته الأولى بأنه حضر إلى القاهرة ظهر اليوم ولم يعرف بموضوع البحث من قبل ، وهو يرى أن تكون الموضوعات التى يتقدم بها الباحثون فى هذه الدورة شاملة لكل المشاكل التى تجابه المجتمع الإنسانى فى حياته الحاضرة سواء أكان ذلك من الناحية الاجتماعية كمشكلة الانحلال الخلقى فى المجتمعات الإسلامية ، ومشكلة تعدد الزوجات ومشكلة الطلاق أو من الناحية الاقتصادية كمعاملات البنوك ، وصندوق التوفير ، والتأمين على الحياة ، والأوراق المالية ، وغير ذلك من المشاكل .

إندونيسيا

مع : السيد / البروفسور إبراهيم حسين : عميد كلية الشريعة بجامعتى فلبن ، وجامبى بسومطرة الجنوبية وسومطرة الجنوبية الغربية .

سئل سيادته عن الوسائل التى تمكن الدعوة الإسلامية من صد التيارت التبشيرية التى أخذ نشاطها يزداد فى هذا البلد الإسلامى فى العصر الحاضر فأجاب بأن هذه الوسائل تتلخص فى الآتى : —

أولا : — يجب العمل على عودة الطلاب الأندونسيين الذين أتموا دراستهم هنا بالأزهر ليؤدوا رسالتهم فى تعميق الإسلام فى نفوس المسلمين ونشر دعوته فى صفوف البقية الباقية

غير المسلمة، وهو يرجو مساعدة الجمهورية لهؤلاء الطلاب بدفع نفقات سفرهم وتزويدهم بالكتب الإسلامية التى تساعدهم على أداء مهمتهم فى نشر الثقافة الإسلامية والتمكين لها فى هذه البلاد .

ثانيا : أن تقوم البلاد العربية الإسلامية وخاصة الجمهورية العربية بإنشاء مراكز إسلامية لها فى أنحاء متفرقة من إندونسيا لتقوم هذه المراكز على الدعوة الإسلامية ورعاية شئونها بحيث يتبعها معاهد للوعظ والإرشاد ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم الدين ويكون لها مستشفيات وملاجىء الأيتام بحيث لا تقل هذه المراكز الإسلامية فى مستواها عن الجمعيات التبشيرية التى أخذت تغزو البلاد بدعوتها التبشيرية من أقصى البلاد إلى أقصاها حتى يكون لهذه المراكز فعاليتها فى صد تيار التبشير الذى يجتاح هذه البلاد .

ثالثا : الإكثار من البعوث الإسلامية لنشر دعوة الإسلام والعمل على تكوين جمعيات إسلامية تبشيرية فى المدن والقرى لمقاومة النشاط التبشيرى الذى تقوم به جمعيات التبشير الأخرى على أن تستخدم الجمعيات الإسلامية كل الوسائل التى تمكنها من أداء رسالتها على الوجه الأكمل .

هذا ما يراه سيادته لتمكين الدعوة الإسلامية من أداء رسالتها فى هذه البلاد وهو يرجو من المعنيين بشئون هذه الدعوة فى مختلف البلاد الإسلامية . العمل السريع الجاد المخلص . والله لا يضيع أجر العاملين .

الارجنتين

مع فضيلة الشيخ ساطع أحمد رفيق الجيلى .

وهو من أصل عربى إذ ينتمى لعشيرة بنى جميله السعدنانية بالعراق . ولد بها ودرس المرحلة الابتدائية والثانوية بمدارسها .

وبجانب هذه الدراسة قد درس العلوم العربية والشرعية والفلسفية على أستاذ الجيل فضيلة الشيخ أمجد الزهاوى وغيره من علماء العراق وفى سنة ١٩٤٩ حضر ضمن بعثة الأوقاف العراقية إلى القاهرة فدرس فى كلية الشريعة بالأزهر وحصل على الشهادة العالية منها ثم على العالمية مع إجازة التدريس من تخصص التدريس . وعاد بعد ذلك فى سنة ١٩٥٤ إلى بغداد حيث مكث بها فترة وجيزة رحل بعدها إلى أمريكا الجنوبية .

ويقول الأستاذ ساطع الجيلى أنه بعد هجرته تجول فى معظم ولايات أمريكا اللاتينية متفقدا شئون المسلمين فى هذه الولايات ودارسا لأحوالهم فكان من الأمور التى لفتت نظره حال الطفولة الإسلامية فى هذه البلاد التى توشك على الفناء مما دفعه على التفكير فى خطة لإنقاذها وتعريفها

بأمور دينها فلما استقر به المقام فى قرطبة بالأرجنتين سنة ١٩٥٦ كان أول عمل قام به هو :

تأسيس معهد للتربية الإسلامية لتدريس اللغة العربية قراءة وكتابة ومحاكاة . مع تحفيظ القرآن الكريم وتجويده . وتدريس مبادىء الإسلام وأحكام الشريعة ، والتاريخ الإسلامى والسيرة النبوية الشريفة . عدا المواد التثقيفية الأخرى . وبالمعهد الآن مائة وأربعة وعشرون تلميذاً وتلميذة يدرسون باللغة الأسبانية كل المواد إلا ما يرتبط منها باللغة العربية والقرآن الكريم .

والمال اللازم للإنفاق منه على هذا المعهد يقوم على تبرعات المسلمين هناك وهذه التبرعات لما لم تكن وافية بسد نفقات الأغراض التى أنشىء من أجلها المعهد والتوسع فيها بمرور الزمن فإنه قام بإصدار جريدة أسبوعية تحت اسم « صوت الإسلام » نصفها إسبانى ونصفها تطبع بالرنيو لعدم وجود مطبعة عربية . توزع هذه الجريدة فى كل أنحاء أمريكا اللاتينية وقد وصل آخر الأعداد التى طبع منها فى الأسبوع الأخير إلى ٧٣٠٠ نسخة نفذت كلها عقب ظهور الجريدة .

كما تفرع عن المعهد جمعية تحمل اسم الشبيبة الإسلامية يجتمع أعضاؤها يوم الأحد من كل أسبوع لمناقشة القضايا الإسلامية فى هذه البلاد وما يجب عمله لها .

وأهم المناطق التى بها مسلمون فى أمريكا اللاتينية الأرجنتين ـ فنزويلا ـ البرازيل ، ثم بوليفيا وأرجواى والمكسيك . ثم عدد ضئيل فى شيلى . وعدد المسلمين فى أمريكا اللاتينية حوالى المليون ونصف منهم ٥٥٠ فى الأرجنتين وحدها .

والشعب الأرجنتينى ميله شديد إلى الإسلام ولا سيما الشباب المثقف فقد دخل فى الإسلام منهم حوالى ثمانية عشر شابا . أحدهم « سيف الدين درك والتر موسخ » الذى أسلم على الرغم من معارضة والده له . وعلى الرغم من تهديد هذا الوالد المليونير له بالحرمان من ثروته الطائلة .

ولقد استطاع هذا الشاب المؤمن المكافح أن يؤثر على والدته فأسلمت كما قام بتأسيس معهد لدراسة الإسلام فى جامعة نيو مكسيكو تحت اسم « معهد نور الإسلام » ، وهو شاب مثقف ثقافة عالية ويتكلم عدة لغات منها الألمانية . وأعظم أمنية له أن يكون له حظ واف من الثقافة الأزهرية التى تؤهله لأن يكون مبشراً إسلامياً كبيراً .

ويقول الشيخ ساطع إن الحرية مكفولة للمسلمين فى أمريكا يمارسون فى ظلها أمورهم التعبدية بل الحكومات اللاتينية تحميهم

وتحمى عقائدهم ولهم مساجدهم التى يؤدون فيها صلاتهم . وفى سان باولو بالبرازيل مسجد البرازيل الشهير الذى أنشأته « الجمعية الخيرية الإسلامية » ، وهى القائمة على شئونه . ولكن يصعب تنشئة الأطفال بهذا المقر الدينى بسبب بعد مساكن آبائهم عن هذا المسجد الذى يعتبر المركز الثقافى الإسلامى للمسلمين فى هذه البلاد . ويقول إن أكثر مسلمى البرازيل من مهاجرى لبنــــان من سهل البقاع وهم رغم حداثة عهدهم بالهجرة إلا أنهم أغنياء كرام . وعدد المسلمين بالبرازيل نحو ١٨٠ ألف مسلم موزعين فى أنحاء البرازيل .

وهو يرى أن أهم مشاكل المسلمين فى أمريكا اللاتينية عموماً هو جهل كثير من المسلمين هناك بأبسط أمور العقيدة الإسلامية مما يؤدى فى كثير من الأحيان إلى موافقتهم على زواج الشابات المسلمات من غير المسلمين . بل بعض هؤلاء المسلمات ضللها يهودى وخدعها وتزوج منها . وإزاء هذه الحادثة وأشباهها فإنه أرسل استغاثة فى سنة ١٩٥٨ إلى رؤساء وملوك الدول الإسلامية وقادتها تحت عنوان « استغاثة الذرية الإسلامية فى أمريكا الجنوبية » ، رجاهم جميعاً فى هذه الاستغاثة مد يد العون والمساعدة لانتشال هذه الذرية من الفناء .

وخير وسيلة لذلك كما يراها الشيخ ساطع هى إعداد المدرسين الأكفاء لتعليم هـؤلاء اللغة العربية والدين وإرسالهم إلى هذه البلاد ولكى تنجح الدعوة الإسلامية والتبشير بها فى هذه البقاع لا بد من الاستئناس بآراء الخبيرين من المسلمين هناك بوسائل نشر الدعوة الإسلامية لخبرتهم العملية وممارستهم السابقة التى وضعت أيديهم على أنجع الوسائل لنجاح هذه الدعوة .

وأمنيته لمجمع البحوث التوفيق والسداد . وإمداد الله له بكل القوى التى تمكنه من حمل تبعة أعباء مهمته الثقيلة . حتى يؤدى رسالته على خير وجه . فى جمع كلمة المسلمين . وحل مشاكلهم وإحياء تراثهم الإسلامى الخالد .

اليابان

مع : السيد / عبد الكريم ساتيو الأستاذ جامعة تاكوشوك . والذى يقطن فى كوتيباسى طوكيو .

يذكر السيد الأستاذ أنه من أهل جزيرة فى اليابان عدد سكانها ٢١١ كلهم مسلمون . وكان إسلامهم من ثلاثة أعوام فقط على يد أحد التجار الباكستانيين . الذى التقى بالأستاذ عبد الكريم ولمس من مخالطته له صدقه فى الحديث . والدقة فى الأمانة . وحسن معاملته للناس . وقد لاحظه وهو يصلى ويحافظ على أداء الصلاة فى أوقاتها . فسأله عما يعرف

من تعاليم دينه : الإسلام ، فأجاب بالقليل الذى يعرفه منها لأنه غير واسع الثقافة والمعلومات عن الدين الإسلامى . ورغم هذا القليل الذى حدثه به من هذه التعاليم السمحة . فقد أعجب بها وأسلم هو أولا ثم دعا الآخرين إلى الإسلام فأسلمت طائفة منهم وكانت الطائفة التى تسلم تدعو غيرها إلى الإسلام بعد أن تأخذ نفسها بالصفات التى يتصف بها هذا الباكستانى المسلم . وبذلك كانوا قدوة حسنة تجتذب الآخرين إلى الإسلام حتى أسلم كل من بالجزيرة رجالا ونساء وصبية وفتيانا .

وهؤلاء المسلمون الحديثو العهد بالإسلام يحفظون بعض آيات القرآن الكريم ، ولكنهم لا يفهمون لها معنى وإنما يرددونها على حد تعبيره كالببغاوات . ولذلك فحاجتهم ماسة إلى شخص واسع الثقافة بالدين الإسلامى يرشدهم إلى تعاليمه السمحة ويعمق أثر الإيمان فى نفوسهم . ويعدهم لحمل دعوة الإسلام فى اليابان كلها ، إذ اليابانيون بوجه عام لا دين لهم ، وهم أكثر تقبلا لدعوة الإسلام من غيرها لأن الإسلام دين الفطرة ، إذا وجد الإنسان الكفء للقيام بهذه الدعوة وهو يبدى أسفه لعدم وجود هذا الداعية للآن فى بلاد اليابان .

ويذكر أن دعوة التبشير بالدين المسيحى فى بلاد اليابان لا تلقى بها نجاحا واسعا رغم ما يبذله المبشرون هناك .

ولما سئل عن قضية فلسطين ومدى ما يعرفه اليابانيون عن مشكلة اللاجئين العرب وشعورهم نحو هؤلاء اللاجئين .

أجاب بأنه كان يعتقد حتى قدم إلى هنا أن الإسرائيليين جزء من الشعب العربى ظلمهم إخوانهم وعاداهم المصريون خاصة ، نظراً لما يقوم به اليهود من دعاية قوية تطمس معالم الحقيقة ، والتى يسلكون فيها كثيراً من الطرق الملتوية ، والشعب اليابانى كله على هذا النسق الذى كان يعتقده السيد/ عبد الكريم قبل قدومه إلى هنا تضلله الدعاية اليهودية ويؤازرها النفوذ الأمريكى فى هذه البلاد والحقيقة قد تكشفت له بعد أن حل بأرض الجمهورية العربية وسمع بحقيقة المشكلة ورأى ظلم الصهيونية والمؤازرين لها بحسبما عند ما رأى هؤلاء اللاجئين المشردين عند زيارته لقطاع غزة ، ولذلك فهو يرى أن تنشط الدعاية العربية والإسلامية فى كشف تضليل اليهود وتعريف العالم كله بمشكلة فلسطين هذا البلد الذى حول الصهاينة والمستعمرون أهله الأصليين إلى شعب من المشردين اللاجئين .

وهو كفرد مسلم يهيب بكل المسلمين وخاصة العرب منهم الوقوف صفا واحدا لنصرة هذه القضية العادلة حتى يعود الحق لأصحابه بطرد هذه الفئة الباغية من اليهود وعودة البلاد لأصحابها الحقيقيين .

توصيات المؤتمر

إن علماء الإسلام الذين قدموا إلى القاهرة من شتى بلاد العالم للمشاركة فى أول مؤتمر لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر يحمدون الله سبحانه وتعالى أن هيأ لهم هذا اللقاء المبارك فى رحاب الأزهر الشريف وبدعوة من مشيخته الموقرة . ليتدارسوا الأمور التى تتعلق بالدعوة الإسلامية وليبحثوا المسائل التى تهم المسلمين فى جميع الأقطار والأوطان، وليدعموا أواصر الأخوة والمودة بينهم وليوحدوا جهودهم لنشر الثقافة الإسلامية حتى تواصل رسالتها فى الحركة الفكرية الإنسانية .

وإنهم ليتقدمون بصادق التحية والتقدير إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة لرعايته الكريمة لهذا المؤتمر وتفضله بإيفاد السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية لافتتاحه .

كما يتقدم أعضاء المؤتمر بالشكر إلى حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، وشعبها الكريم وإلى السيد الدكتور وزير الأوقاف وشئون الأزهر لما أحاطوهم به خلال انعقاد المؤتمر من حفاوة وتكريم .

ويعرب المؤتمر عن ترحيبه واعتزازه بإنشاء مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر لدعم الأخوة الإسلامية ولتوطيد أواصر التعاون بين علماء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ولنشر الثقافة الإسلامية والقيام بالدعوة إلى سبيل الله فى جميع البلاد والأقطار امتثالا لقوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » وقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

ويسجل المؤتمر تقديره البالغ للتجاوب الكامل الذى تلقى به علماء المسلمين وقادة الرأى فيهم دعوة الأزهر إلى هذا المؤتمر الجليل . مما يؤكد يقظة العالم الإسلامى وحرصه على التعاون لإحياء مجد الإسلام بتوضيح مبادئه وتجلية تعاليمه ونشر مفاهيمه ليسهم برسالته السمحة فى إنقاذ البشرية من عوامل الشر والانحراف وليقودها إلى الأمن والسلام .

كما يسجل المؤتمر تقديره الخطوة التى اتخذتها الجمهورية العربية المتحدة للنهوض

بالأزهر ويرى فيها خطوة على الطريق الصحيح لإعداد رجل الدين المزود بالعلم وبالخبرة الفنية والعملية التي تمكنه من أداء رسالته الدينية والإنسانية .

ويعرب المؤتمر عن سروره البالغ أن صاحب اجتماعه الأول وضع الحجر الأساسي للمبنى الجديد لكل من دار القرآن وجامعة الأزهر ويسجل بمزيد من الغبطة ما أتيح لأعضائه من فرصة المشاركة في هذين الاحتفالين ويرجو أن يتحقق بإنشائهما مزيد من الخير للإسلام والمسلمين .

ويوصى المؤتمر بأن يخص مجمع البحوث الإسلامية المسائل الآتية بمزيد من العناية والبحث في المرحلة التالية من دورة انعقاده الحالية وفي أعماله المقبلة :

أولا : وضع خطـــة إيجابية لتكوين الشخصية المسلمة على أساس من المبادىء الإسلامية التي تدعو الى العزة والحرية والكرامة ، وتمكن المسلمين من مواجهة قضاياهم ، وتهيئهم لرد أى عدوان على حقوقهم في أى قطر من الأقطار . فالمسلمون أمة واحدة وهم متضامنون بوحي من دينهم وإيمانهم في حمل مسئولية العمل لصالح الأمة الإسلامية .

ثانياً : تعريف المسلمين في مختلف أنحاء العالم بخطر قيام إسرائيل على الإسلام والمسلمين ، ودعوتهم إلى مؤازرة شعب فلسطين في حقه في العودة الى وطنه السليب باعتبار ذلك كله واجباً دينياً مقدساً .

ثالثاً : وضع خطة حكيمة للدعوة الى سبيل الله ومقاومة التحديات التي تواجه الإسلام ودحض الشبهات التي تثار حوله .

رابعاً : تشخيص مواطن الضعف في المجتمعات الإسلامية والعمل على علاجها .

خامساً : العمل على إصـــدار الفتاوى والأحكام المستمدة من أصول الإسلام وتعاليمه في المشكلات التي جدت وتجد في حياة المسلمين حتى تسير نهضتهم على هدى من دينهم الحنيف .

سادساً : اتخاذ الوسائل الكفيلة بزيادة عناية الشعوب الإسلامية جميعاً باللغة العربية لغة القرآن ، عناية تيسر لهم الوقوف المباشر على ما اشتمل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية وما وصل اليه أئمة الدين .

سابعاً : العمل على دعم الروابط بين المسلمين وتوثيق صلاتهم بمجمع البحوث الإسلامية الذى أنشىء ليكون ملتقى لقادة الفكر الإسلامي لينهض بمهمة التوجيه في نشر الدعوة وإعداد الدعاة الذين يستطيعون النهوض بواجبهم الديني الكبير .

« إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » .

والله ولى التوفيق .

كلمة الختـام

للأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى
رئيس المؤتمـر

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين .

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

أيها الإخوة الكرام :

نحمد الله سبحانه وتعالى إليكم ، فقد هيأ لنا الأسباب التى مكنتنا من دعوتكم للاشتراك فى المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية .

وستتم إن شاء الله بهذا الاجتماع الفترة الأولى من انعقاد المؤتمر ، الذى يواصل جلساته إن شاء الله بالسادة العلماء من أعضاء المجمع حتى يتم عمله فى هذه الدورة .

وإن مشيخة الأزهر لتقدم إليكم جميعاً خالص الشكر وعظيم التقدير : فقد رأينا منكم الاستجابة الكريمة الطيبة لتلبية دعوة المشيخة لحضور هذا المؤتمر حيث أقبلتم هنا الإقبال المحمود على المساهمة فى حمل الأمانة وأداء الرسالة ـ رسالة الأزهـر وهى رسالة الإسلام ـ ولا عجب فأنتم علماء الإسلام وفقهاؤه وقادة الرأى بين المسلمين ، ولقد كان من الظواهر الطيبة الكريمة أن بالغ حرصكم على المساهمة فى هذا الواجب الإسلامى إلى درجة أن تغلبت إرادتكم القوية ووثبتكم فى تلبية الدعوة على كل العوائق والظروف ، فحرصتم على الحضور ولو فى آخر لحظة .

وإن اجتماعنا فى هذا المؤتمر ـ أيها الإخوة الأفاضل ـ لهو بداية خير وبركة للإسلام والمسلمين ، فقد التقينا لقاء الإخوة المتعاونين فى سبيل البر والتقوى ، وساهمنا جميعا فى البحث والمناقشة وبدأنا الطريق الذى ينبغى أن نسير فيه قدما لنجد الحل لمشكلاتنا وقضايانا من مبادئ الإسلام وعلى هدى من تعاليمه السمحة التى ينبغى علينا أن نحمل مشعلها الوضاء ونسير فى الطليعة حتى نهدى البشرية إلى الخير والسلام .

ستعودون أيها الإخوة إلى بلادكم سالمين بإذن الله بعد أن أكدنا الروابط ووثقنا الصلات التى تجمع بين كافة المسلمين وخاصة بين علمائهم وذوى الرأى منهم الذين يدركون ويقدرون المسئولية الملقاة على عواتقهم تجاه ديننا وتجاه أمتنا .

وإن مجمع البحوث الإسلامية ليرجو منكم جميعاً أيها الإخوة العلماء أن تؤازروه ببحوثكم وآرائكم واقتراحاتكم وأن تدعموا صلاتكم به ؛ فالمجمع - شأنه شأن الأزهر - لكم جميعاً وبكم جميعاً ، ومسئوليته أمانة فى أعناقكم جميعا . . ويد الله مع الجماعة .

وإن هذه البداية المباركة الطيبة لمؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية التى التقيتم فيها جميعا باسم الله وعلى بركة الله لتبشر بأن المجمع سيحقق إن شاء الله الآمال المعقودة عليه فى تجديد الثقافة الإسلامية ، وتنشيطها ، وتنقيتها من الشوائب والفضول، لتبعث من جديد تأثيرها وفاعليتها فى الحركة الفكرية الإسلامية .

وإننا لنتجه بالشكر أيضاً إلى جميع الإخوة الذين ساهموا معنا فى إنجاح هذا المؤتمر . . . سواء أكان ذلك ببحوثهم التى قدموها ، أو بآرائهم واقتراحاتهم التى أبدوها ، أو بمناقشاتهم القيمة التى فتحت الأبواب المغلقة، وهدت إلى الطريق المستقيم وسوف نستفيد من ذلك كله ، ونصل إلى وضع الخطط المناسبة وإيجاد الحلول اللازمة لما يعرض لنا معشر المسلمين فى الحياة من مشكلات وصعاب . . . وسيخرج المجمع فى النهاية إن شاء الله كتاب المؤتمر الذى يضم جميع الأعمال التى تمت فى هذه الدورة ، وسوف نوافى حضراتكم بهذا الكتاب فور صدوره .

ومن بشائر الخير ودلائل التوفيق أن تتم الفترة الأولى من انعقاد المؤتمر فى هذه الليلة المباركة التى صدر فيها الإعلان الدستورى فى الجمهورية العربية المتحدة وهو ينص على أن الإسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية .

وفى ختام هذه الكلمة أرجو أن أتقدم باسم حضراتكم واسمى إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر بخالص الشكر وعظيم التقدير لما أحاط به سيادته المؤتمر وأعضاءه من رعاية وتكريم .

حفظ الله السيد الرئيس ورعاه ، وأبقاه ناصراً للإسلام والمسلمين ، وعاملا فى جمع كلمة الأمة الإسلامية والأخذ بيدها إلى الطريق السوى المستقيم حتى يتبوأ المسلمون مكانتهم العزيزة الكريمة بين الأمم والشعوب .

والله يبارك جهودكم وجهادكم أيها الإخوة علماء الإسلام ، ويهديكم ويهدينا سواء السبيل ؟

دكتور محمد عبد الله ماضى
وكيل الأزهر

بيان
المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن الدين عند الله الإسلام »

والإسلام عقيدة وشريعة : عقيدة تحكم صلة الإنسان بربه وشريعة تنتظم سلوك الناس أفرادا ومجتمعات ودولا .

وإذا كان الإسلام هو الدين عند الله إلى آخر الدهر ، كان لا بد أن تواجه شريعته كل حاجات الناس أفرادا وجماعات ، وتنظم جميع صور العلاقات الإنسانية فى المجتمع الإسلامى .

وأساس الشريعـــة هو الكتاب والسنة والفهم الصحيح لهما ، لمواجهة الصور الإنسانية التى تتعاقب على البشر بتعاقب الأزمنة .

وقد اجتهد أئمة الفقه الإسلامى فى فهم الكتاب والسنة واستنباط الأحكام منهما ما وسعهم الجهد ، وكانوا من دقة الفهم ونقاء النفس وسعة الأفق بحيث وضعوا قواعد وأصولا للأحكام تعد تراثا إنسانيا ومرجعا عاما لكل المشتغلين بالفقه والقانون فى كل المجتمعات وفى كل العصور ، وصار للفقه الإسلامى أثر واضح فى تشريعات المشترعين من كل أمم الأرض ، وارتقت به الحضارة الإنسانية إلى آفاق بعيدة المدى . . .

ولكن هذه الانطلاقة الواثبة لم تلبث أن تراخت ، حين تكالب الاستعمار على المسلمين بصور من العدوان نالتهم بالأذى فى أنفسهم وفى أموالهم وفى أرضهم وفى العلاقات التى تربط بين بعضهم وبعض فعنائم ذلك أكثر من كل ما عداه من شئون دنياهم وآخرتهم ، والتزم كل منهم ثغره للدفاع عن مقدساته ، فوقفوا مكانهم لا يكادون يتقدمون خطوة إلى أمام ، والحياة من حولهم ماضية فى طريقها إلى ما أراد الله .

ومضت القرون وهم وقوف فى مكانهم ذاك يكافحون بدرجات متفاوتة وصور مختلفة لرد ذلك العدوان والتخلص من آثاره ، وتعاقبت أجيالهم على الكفاح للخلاص من عدوهم ، حتى صار انتصارهم فى معركته هو الغاية ، كل الغاية ، لا يكادون يذكرون وراء ذلك غاية ...

فلما انتهى كفاحهم بالنصر بعـــد قرون وقفوا يجيلون النظر فيما حولهم من صور الحياة وألوان السلوك وأنواع المعاملة ، فوقعت أعينهم على فنون من الحضارة وصور من النشاط وألوان من المعاملة لا عهد لهم

ببعضها فيما يعرفون ، فمنهم من أنكر ذلك كله ورآه بدعة يضل بها المسلم عن سبيل الله، ومنهم من ولغ فيه ولوغ الظمآن في ماء آسن لا يبالي أن يكون ما يشربه طيبا أو خبيثا ، ومنهم من توقف ليسأل نفسه أو ليسأل غيره الرأي في حلال ذلك وحرامه ، ومنهم من تجرأ على الفتوى لنفسه أو لغيره ، بأهلية للإفتاء أو بغير أهلية ، وانبهم الأمر على الكثرة الغالبة من المسلمين فوقفوا حيارى لا يدرون ما يأخذون من ذلك وما يدعون ، ولعل بعضهم قد حاول مخرجا من حيرته ، بإيهام نفسه عن اقتناع أو عن غير اقتناع ، بأن الدين عبادة وحسب ، وأن للعلاقات الإنسانية قوانين أخرى يضعها الناس ، وهو خطأ كبير يوشك — إن عم — أن يوصل القطيعة بين الشريعة الإسلامية والمجتمع .

ولكن الله — سبحانه — قد جعل الإسلام دين الناس إلى آخر الدهر لصلاح دنياهم وآخرتهم ، ومن ثمة كان في كل جيل من المسلمين — برغم جلبة الحوادث وتزاحم الأخطار — علماء أخيار ذوو رأي وبصيرة يفقهون كتاب الله وسنة رسول الله ، فيعرضون عليهما كل ما يجد من الأحداث والصور في حياة الناس ليروا فيه رأي الإسلام فيحلوا ما أحل الله ويحرموا ما حرم ويعدلوا المعوج من سلوك الناس ويقيموا المائل ، تصديقا وطاعة لقول الله :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

هؤلاء الأمة هم برهان لهذا الدين السمح الخالد المتجدد بقوته الذاتية وعلى أساسه الأزلي الثابت لمواجهة كل حاجات الإنسانية المتطورة إلى كمالها .

ولتجميع هؤلاء الصفوة على صعيد واحد ليروا رأي الإسلام فيما يهم المسلمين من شئون دنياهم وآخرتهم ، كان إنشاء مجمع البحوث الإسلامية .

ليكون هذا المجمع هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ...

وليقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث ...

وليعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص ...

وليوسع نطاق العلم بالإسلام الصحيح لكل مستوى وفي كل بيئة ...

وليرى الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ...

وليحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ...

وليتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث ودراسات ...

وليرسم نظام بعوث الأزهر إلى العالم الإسلامى ومن العالم الإسلامى ...

وليعاون فى توجيه الدراسات الإسلامية العليا فى جامعة الأزهر .

وقد أتيحت لهذا المجمع فرصة ليرى صورة من المجتمع الإسلامى المعاصر باجتماع هذا المؤتمر الذى التقى فيه ممثلون لبضعة وأربعين بلداً تبادلوا الحديث عن شئون بلادهم ، وعرضوا الكثير من مشكلات المسلمين فى تلك البلاد ، وجلوا صورة لا ينقصها الوضوح عن أحوالهم فكان ذلك مثل عملية مسح واستبانة لابد أن يكون لها أثرها عند التصدى لعلاج مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر .

وقد انتهت المرحلة الأولى من ذلك المؤتمر بطائفة من التوصيات تكون جزءاً من خطة العمل للمجمع فى مستقبل نشاطه .

وقد استأنف المؤتمر مرحلة أخرى بأعضاء المجمع خاصة ، فعكف على دراسة الصورة التى تكشفت لأعضائه من الأحاديث والآراء والتوصيات التى عبر عنها ممثلو البلاد الإسلامية الذين حضروا المرحلة الأولى للمؤتمر .

وقد استشعر أعضاء مجمع البحوث الإسلامية مسئولياتهم الكاملة لمواجهة المشكلات التى تجلت فى الصورة المذكورة ، وانتهت مداولاتهم ودراساتهم إلى إمكان تصنيف أهم المشكلات التى تواجه المجتمع الإسلامى المعاصر تحت أربعة عناصر رئيسية هى :

— مقاومة العدو المشترك للإسلام والمسلمين .

— وتجريد الإسلام عما علق به من الفضول والشوائب .

— وتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين المسلمين على أساس إسلامى سليم .

— والعمل على توحيد كلمة المسلمين ومحو أسباب التقاطع بينهم وإزالة أسباب الخلافات المذهبية .

ذلك لأن :

١ — أعداء الإسلام يحاولون بكل ما يملكون من وسيلة أن يزعزعوا العقيدة الإسلامية فى قلوب المسلمين لصرفهم عن روح الدين وبلبلة أفكارهم بما يتيح لهم السيطرة عليهم واستذلالهم .

٢ — وأن معارك القرون قد خلفت غباراً كثيفاً ستر الرؤية الواضحة لكثير من مبادئ الإسلام وشوه بعضها وألصق بها شوائب يبرأ منها الإسلام .

٣ — وأن الحياة الاجتماعية للمسلمين وما تعتمد عليه من فنون الاقتصاد

والمعاملات المالية ، قد ملأت قلوب المسلمين بالقلق وأوقفت كثيراً منهم على حافة الإثم ، بسبب التطور السريع البعيد المدى فى اقتصاديات العالم .

ومما لا شك فيه أن التعاون الاجتماعى يقتضى إبداء رأى الإسلام واضحا سليما فى هذه المشاكل لتعود إلى القلوب طمأنينتها ويثبت إيمانها بدينها ، وصلاحه للحياة الحديثة المتجددة .

٤ — ومن نافلة القول إن : تقاطع المسلمين واستمرار الخلافات المذهبية بينهم قد أحدثا فى المجتمع الإسلامى فرقة نكرت وجوه بعضهم فى نظر بعض ، وغلفت بالشك والريبة قلوب بعضهم بالنسبة لبعض ، فظهروا أمما والإسلام يوحدهم أمة ويربط بينهم بأخوة ويريدهم جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وبناء على هذا قرر المؤتمر ما يأتى :

أولا : أن الاستعمار وأعوانه ـ سواء فى البلاد التى لم تزل ترزح تحت نيره أو فى البلاد التى جلا عنها مخلفا آثاره ـ هو الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفرادا وجماعات ودولا أن يجاهدوه بالمقاومة الجادة المستمرة حتى يتم تحرير المسلم قلبا وضميرا ، ووطنا ومعرفة ، وأن كل تقصير فى مقاومة ذلك العدو هو عصيان لله تعالى وإثم كبير ، لأنه يقوى يد العدو على إنزال الأذى بالملايين من المسلمين . فهو جهاد متعلق بحق الله وحق الملايين لا بذات الآثم .

وأن الصهيونية التى يحاول الاستعمار بعد أن تحطمت أسبابه الظاهرة أن يخلف بها أهدافه تحت ستار جديد ، هى داء استعمارى خبيث يستهدف به الاستعمار أن يتمكن بآثاره فى حياة المسلمين وتستمر سيطرته عليهم ، ومن ثمة كانت مجاهدتها فرضا كذلك على كل مسلم حيثما كان وكل تخلف عن ذلك عصيان لله تعالى وإثم كبير .

ثانيا : يقرر المؤتمر أن الكتاب الكريم والسنة النبوية هما المصدران ـ الأساسيان للأحكام الشرعية ، وأن الاجتهاد لاستنباط الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة ، وكان اجتهاده فى محل الاجتهاد .

وأن السبيل لمرعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة ، هى أن يتخير من أحكام المذاهب الفقهية ما يفى بذلك ، فإن لم يكن فى أحكامها ما يفى به فالاجتهاد الجماعى المذهبى ، فإن لم يف كان الاجتهاد الجماعى المطلق .

وينظم المجمع وسائل الوصول إلى الاجتهاد الجماعى بنوعيه ليؤخذ به عند الحاجة .

ثالثا : يقرر المؤتمر :

(ا) أن موضوع الزكاة والموارد المالية فى الإسلام وطرق الاستثمار ـ وعلاقتها

بالأفراد والمجتمعات وحقوق الملكية العامة والخاصة هي موضوعات الساعة لأنها ملتقى شعبتين من شعب الشريعة الإسلامية ، وهما العبادة والسلوك الاجتماعي ، ومن أجل ذلك يقرر المؤتمر أن تكون هذه الموضوعات محور نشاط المجمع في دورته المقبلة .

(ب) ويقرر المؤتمر بعد الدراسة المستفيضة لموضوع الملكية أن حق التملك والملكية الخاصة من الحقوق التي قررتها الشريعة الإسلامية وكفلت حمايتها ، كما قررت ما يجب في الأموال الخاصة من الحقوق المختلفة وأن من حق أولياء الأمر في كل بلد أن يحدوا من حرية التملك بالقدر الذي يكفل درء المفاسد البينة وتحقيق المصالح الراجحة ، وأن أموال المظالم وسائر الأموال الخبيثة والأموال التي تمكنت فيها الشبهة — على من هي في أيديهم أن يردوها إلى أهلها أو يدفعوها إلى الدولة ، فإن لم يفعلوا صادرها أولياء الأمر ليجعلوها في مواضعها ، وأن لأولياء الأمر أن يفرضوا من الضرائب على الأموال الخاصة ما يفي بتحقيق المصالح العامة ، وأن المال الطيب الذي أدى ما عليه من الحقوق المشروعة إذا احتاجت المصلحة العامة إلى شيء منه أخذ من صاحبه نظير قيمته يوم أخذه ، وأن تقدير المصلحة وما تقتضيه هو من حق أولياء الأمر ، وعلى المسلمين أن يسدوا إليهم النصيحة إن رأوا في تقديرهم غير ما يرون .

رابعاً : يقرر المؤتمر أن واقع المجتمع الإسلامي المعاصر يفرض على المجمع أن يلتمس الوسائل لتوثيق الصلة بين المسلمين في شتى بلادهم ليجمعهم كلمة ، ويوحدهم رأياً ، وينظمهم صفاً ، يتعاونون آحاداً وجماعات على البر والتقوى ، ويتعاضدون في العمل لما فيه خيرهم وخير الإنسانية من غير إقليمية ولا مذهبية ولا تنازع .

كما يقرر أن استكمال المجمع لأجهزته الكفيلة بنشر رسالة الإسلام وتجلية حقائقه والدفاع عن مثله ، وتخطيط الوسائل لهذه الواجبات وتمويلها ورسم مناهجها والإعداد لها — أمر ضروري تجب المبادرة له لينهض المجمع بمسئولياته الكثيرة التي يفرضها واقع المجتمع الإسلامي المعاصر .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

ENGLISH SECTION

EDITED

BY

A. M. MOHIADDIN ALWAYE

AND

IBRAHIM MOHAMED EL - ASSIL

English Section

CONTENTS

subjects for discussions at the next session of the Academy.

b) After exhaustive study of the subject of ownership the conference resolves that private ownership is one of the rights granted by the shariah as it has also allowed rights of others in private property.

The conference further resolves that the ruler in every country has the right to curtail freedom of ownership to the extent necessary to avoid evils and to ensure the interests of the country; that the wealth acquired wrongly and through illicit means, and wealth of doubtful ownership should be returned to the owner or to the state, and in case it is not done, the state should forfeit all such wealth in order to restore it to the owner ; that the ruler has the right to impose such tax on the private wealth as may be necessary for the public good; that the state has the right to take away any part of the private property in lien of compensation when such acquision becomes neeassary in the public interest ; that the determination of what public interest is the right of the ruler, and that the Muslims have a right to suggest to the ruler what they deem right.

iv) The conference resolves that the present condition of the Muslims imposes a duty on the Academy to explore ways and means of unifying Muslims of all the countries so that they may form a united front cooperating individually and collectively in virtue and piety and working together for their own good and the good of humanity.

As it also resolves that the Academy should as early as possible equip itself with all the means necessary for the spread of Islam, and its defence, and the planning necessary for carrying out these duties as also the pooling of resources. This is a matter of utmost importance demanded by contemporary Muslim life.

"Hold fast to the cable of Allah and do not be devided. Remember the favour of Allah on you : You were enemies and he united your hearts and you became brethren with the favour Allah."

separation which estranged Muslims from their own brethren and filled their hearts with suspicion Thus they appear to be different nations in spite of the fact that Islam has united them.

Based on this the Conference has resolved as follows :

i) Colonialism along with its supporters — both in lands which Continue to be under its yoke and in lands from which it has departed leaving behind its effects — constitutes the first danger which Muslims must individually and collectively resist with continous efforts till the heart, the conscience, the country and the learning of the Muslims are liberated. Any dereliction of this duty is disobedience to Allah and a great sin because it ensules the enemy to harm millions of Muslims. It is, therefore, a struggle relating to the sight of Allah and the right of millions of Muslims not confined to the right of the sinner alone.

Zionism under which colonialism seeks to cover its aims after the destruction of all its overt means, is a malicious disease with the help of which Colonialism aims at continuing its sway over the Muslims. To struggle against Zionism is, therefore, the duty of every Muslim wherever he may be, and its avoidance is disobedience of Allah and a great sin.

ii) The Conference resolves that the Book of Allah and the Apostolic Practice are the basic sources of Islamic legislations and the use of personal interpretations to deduce laws from these sources is the right of all those who possess the qualifications of a mujtahid.

To solve modern problems principles should be sought from the legal schools. By no principles are found in them collective ijtihad should be exercised within the framework of the existing legal schools. Should this also prove fruitless, independent collective ijtihad should be exercised.

The Academy will fecilitate the exercise of ijtihad in both these kinds whenever the need arises.

iii) The Conference resolves :

a) that the problems of Zakat, the sources of wealth in Islam, the ways of investment, the relation of wealth to individuals and societies and the rights of ownership, these are pressing problems because in them meet two sections of the shariah, viz., worship and social behaviour. The conference, therefore, resolves that these problems be the

between Al-Azhar and the Muslim world and to co-operate with Al-Azhar in directing higher Islamic studies.

The conference in which representatives of more than forty countries participated and exchanged views on various problems facing Muslims in their countries, provided for the Academy an opportunity to have a glimpse of contemporary Muslim Society.

The first stage of the Conference made Certain recommendations which will form part of the plan for the future activities of the Academy. The second stage of the conference confined to the members of the Academy only studied the papers, the views and the recommendations of the representatives of Muslim countries who participated in the conference. The study revealed that the important problems facing the Muslims at present can be grouped under the following foar heads :

i) to resist the common enemy of Islam and the Muslims.

ii) to purge Islam from accretions and encrustations,

iii) to regulate social and economic relations amongst Muslims on sound Islamic lines.

iv) and to work for the unity of the Muslims, and for ending differences based on legal interpretations.

This is because :

i) the enemies of Islam are trying with all the potentialities at their disposal to weaken the faith in the heart of the Muslims in order to wean them away from the spirit of Islam and to confuse their thought - all this to enslave them and rule over them.

ii) the conflicts of centuries have left a thick layer of dust on many of the principles of Islam, thus obstructing a clear view of these principles, and disfiguring others with encrustations from which Islam is free.

iii) modern social life involving various economic trowsactions filled the Muslims with anxiety and pushed them to the brink of sin on account of quick and far-reaching developments in the economic field.

Needless to say that social cooperation demands sound and clear views of Islam on these problems so that Muslims might rest assured of Islam's validity in the changing Conditions of life.

iv) and finally disunity of Muslims and the continuous existance of legal differences created a

of them regarded these as innovations that would mislead the Muslims from the path of Allah, some rushed into this new life as one dying of thirst would rush to drink dirty water, some others tarried to ask Themselves or to enquire from others which of these new forms of life were lawful and which unlawful, and yet some others dared to issue fatwas for themselves as well as for others whether they had the necessary qualification or not, The majority of the Muslims stood confused. Some tried to get out of this confusion by suggesting to themselves, with or without conviction, that religion consisted only of worship and that there were rules other than religions to regulate human relations. This is a serious mistake, and if it becomes common, it will totally estrange Shariah from Muslim Society.

But since Allah has appointed Islam to be the religion of the people till the end of the world for their welfare in this world and the hereafter, the raises in every generation scholars with learning and insight who understand the Book of Allah and the Sunna ; they seen the guidance of thes two sources in determining what is right and wrong in modern life, and they rectify what is wrong in human behaviour. This confirms the word of Allah wich says : " Let there be a section from you who call (others) to good, enjoin what is right and prohibite what is wrong : they alone are the successful ".

This section constitutes the proof of this everlasting faith which renews itself from within to face all the varying needs of evolving humanity.

The Academy of Islamic Researches was founded to bring together on one platform this distinguished section so that they might find out the views of Islam regarding problems that concern the Muslims in this world and the hereafter.

The Academy was established to serve as the highest body for Islamic researches which undertakes the study of all that pertains to Islamic heritage, and works towards the reorientation of the Muslim culture, its purging from accretions, and its presentation in its true element, while fecilitating knowledge of and acquaintance with it on all levels and in all climes. It also aims at findig solutions for legal and social problems pertaining to faith, to take up the task of calling to the path of Allah with wisdom and goodly admonition, to follow up all the studies and researches published about Islam and its heritage, to plan exchanges of deputation

STATEMENT

ISSUED BY

The First Conference of Academy of Islamic Researches

In the Name of Allah, The Merciful, the Compassionate.

"Verily Religion with Allah is Islam."

Islam consists of faith and legislation; faith to regulate Man's relation with his Lord and legislation to regulate human behaviour in the capacity of an individual, a society and a nation.

Since Islam is the only religion acceptable to Allah, it is imperative that its legislation should take into consideration all the needs of the people, individually and Collectively, and should regulate all kinds of human relations in the Muslim society.

The basis of legislation is the Book and the Sunna and the correct understanding of both. Scholars of Muslim Jurisprudence strove hard to understand the Qur'an and the Sunna, and to deduce rules from them. Their understanding was so precise, their hearts so sincere, and their vision so broad that the principles they formulated are considered a valuable human legacy and an authority for the study of law and jnrisprudence in all societies and in all ages. Further, the Muslim jurisprudence has greatly influenced legislations of all the nations of the world, and has contributed to the advancement of human civilization.

This activity, however, was short-lived. Its speed was stowed down by Colonialism. The affliction caused by colonialism engaged the minds of the Muslims more than any problem of this world or the hereafter, and every one held fast to a fortress defending his sacred belongings. Thus they stood where they were without stepping one step forward while life around them was going ahead.

Thus they stood for centuries struggling, in many ways and with varying degrees of success, against this agression. Finally, when victory came to them after centuries, they watched life around them in its varigated forms and found some of them to be quite new to them. Some

b) Remains of ancient cities and abandoned capitals, as well as changes in caravan routes in what has become dry areas in both the Syrian desert and the region of Hadhramut and Yemen. The change in the altitude of a succession of capital cities over the Yemen plateau is another indication.

c) Historical documents left by both Graeco-Roman and early Arab writers. From these documents one may infer the slow and gradual onset of aridity in both Southern and Northern Arabia.

The final conclusion the author reaches is the fact that the Arab movement of spread had its origins in t e face of increasing aridity in the few centuries preceding the appearance of Islam. It was also moulded by the effect of the geographical environment and the geographical situation. In its origins the Arab movement was to be similar to the earlier movements of exponsion by the nomads.

The arid regions during oscillations of climate. Like previous movements of expansion it should have been more prompt and vigorous, and should have led to destruction in the neighbouring and perhaps far areas. It may be noticed that the power of both the Persian and the Roman empires has helped contain the nomads of the Pre-Islamic era within their increasingly drying deserts. This retarded Arab emigration, though it did not prevent turmoil and local wars within Arabia itself. When differences between Persians and Romans weakened both giants, the Arabs had their chance to carry their new mission to the outside world. At this time, however, Islam did not only unify Arab community; but is also bestowed upon the Arabs new spiritual values, new moral ideals and new norms of behaviour. The old turmoil and disintegration of the Pre-Islamic era soon gave way to unity of aim and action. The new heavenly guidance, as well as the new outlook gave the Arab movement and its leadership an entirely new philosophy of thought and action It was the spread of a mission and not the conquest of new lands. With the Qur'an in their right hand the Arabs spread west, east and south east both by land and by sea. The rôle of the "merchant-missionary" from Arabia was a particularly significant feature in the spread of the new creed from what became the geographical lighthouse in the heart of the old world. Thus, in the unique movement of the spread of Islam both natural, historical and spiritual factors gave their contribution to make the movement of the Islamic spread from Arabia what it was and what it remained to be until our present day.

forward a new, and rather unusual approach namely the geographical aspect of this movement of spread. In other words, we should like here to outline the contribution that could be made through the study of what may be called the "spiritual geography" of the Arab movement of spread at the dawn of Islam. This, we hope, should help us appreciate more closely the complementary nature of the natural, the human and the spiritual factors affecting that movement of spread.

The main points we shall bring forward in more detail in our communication are as follows :

1) The effect of the "geographical situation" upon the movement of spread both locally and universally. The fact that the mission was revealed in the liking region of Hidjaz helped in the process of unification of the Islamic community of the Arabs and in the spread of the new creed. Also the geographic situation of Arabia itself in the heart of the old world and the easy access from it to the outside world in all directions both by land and by sea have greatly facilitated the movement of spread.

2) The natural geographical environment of Arabia has also had its lasting effect upon this movement of spread both from the social and political points of view. By this natural environment we mean the land, the climate, the flora and the fauna of the region. Sslected exampless and illustrations of the effect of this environment will be given in our communication.

3) The author will also attempt to give what he hopes to be a new interpretation of the Arab Movement just before and at the dawn of Islam, in the light of a hypothesis of climatic change at that time. It is claimed that this change took place gradually from about the middle of the third century A.D., until it reached its climax in the sixth century. It was an oscillation of climate leading towards more pronounced aridity. The change was not great in extent; but being already a desert or semi-desert country, any drop in the amount of rainfall, however small, led to desiccation and to the need for emigration and spread. The indications upon which the author builds up this hypothesis of a phase of aridity are as follows :

a) Indications from antiquities from the early centuries of the Christian era, such as cisterns and other antiquities both in Yemen and in North East Africa. The lowering of the level of underground water in wells from the early Roman period in Jordan also points out in that direction.

THE ARABS AND THE SPREAD OF ISLAM

(A Comparison between Natural, Human and Spiritual Factors)

RESUME OF COMMUNICATION

by

DR. SULIMAN HUZAYYIN

(Member of the Academy and Rector of Assiut University)

The spread of Islam from Arabia represents a unique phenomenon in history. It can be distinguished from other movements of spread by the following features :

1) Its immense widespread along a belt extending from the Atlantic to India and over to the Pacific.

2) Its dual nature of being both terrestial and maritime, this latter feature being represented especially in East Africa and the Island World of South East Asia.

3) Its far reaching effects in both the racial, social and cultural spheres.

4) Its spiritual mission with its deep, far-reaching and permanent effect.

5) Its vitality and continuity which were represented in the relatively recent outlayers of Muslim communities reaching the Americas.

Through these characteristics this unique human phenomenon of spread proved its effectiveness both as a "creed" and as a "movement". It continued over many centuries, thus proving again its vitality. This latter feature may perhaps be noticed in the cultural and spiritual, rather than the political history of the Arabs and Islam. The Arabic language, for example, has been used as a living language for over sixteen centuries. In that respect, it can perhaps be matched only by the Chinese language, though this latter never attained the universality or the spirituality of the Arabic language. The spiritual aspect of the spread of Islam was further characterised by the fact that it was always coupled by solidarity of Islamic thought, inspite o differences in environments.

The movement of spread of Islam has attracted the attention of students and researchers of all ages. Most of their attention, however, was directed towards the political, social or spiritual aspects of the history of Islam. It is the aim of this humble communication to put

all through the ages. Further, Divine Wisdom requires thata humanity should not be left without a teacher to guide them regarding matters of this world and the hereafter and to provide them with solutions to the varigated problems that will continue to arise as long as as the heavens last. It has been agreed upon by all that ijtihad is a "sectional duty" (fard kifaya) and that it is not confined to any particular age. It is the duty of the scholars, therefore, to acquire the qualifications for ijtihad to enable them to discharge the duty. Those who have studied the Qur'an, the Sunna, the ijma and qiyas and have a good knowledge of the Arabic language to enable them to understand the sources, and are well-versed in the principles of deducing laws, ought to exercise ijtihad. If one of more of such scholars dischage this duty, others are absolved of the responsibility; but if none of them takes up the task, all will be sinners.

Those who hold that mujtahids are found in every age, and those who hold an opposite view are not actually far a part from each other. The difference lies only in the type of mujtahid each group has in mind. Those who deny the appearance of mujtahids in every age mean by a mujtahid an independent doctor of law who bases his deductions on principles he himself has formulated. As for those who profess the appearance of mujtahids in every age, they mean by a mujtahid one of the following :

i) an independent doctor who bases his deductions on the principles formulated by his imam.

ii) a limited doctor, i.e., one who knows the rules deduced by his imam and prefers one to the other in the light of arguments.

iii) a doctor who knows which of the deductions his own imam has preferred and issues fatwas accordingly.

In support of his view that "the gate of ijtihad is open till the end of the world" the author finally cites quotations from eminent scholars such as Al-Izz bin Abd Al-Salam, Imam Abu Shamah, Shaikh Muhammad Bakhit etc.

Ijtihad : its past and Present

BY

SHAIKH MOHAMMED NUR AL-HASAN

In Chapter One the author explains the word Ijtihad etymologically and defines it as a technical term. He then dafines the term mujtahid and discusses the different connotations of the word.

In Chepter Two he discusses the qualifications of a mujtahid, those qualifications that are agreed upon by all the jurists as well as those regarding which opinions differ. He prefers the view held by the majority of jurists that a mujtahid should get by heart the Quran. He does not, however, hold that a mujtahid should memorize all the hadith, as their scientific codification has greatly fecilitated reference work.

In Chapter Three he enumerates the various types of ijtihad, viz., wajib, mandub and haram. The last type of ijtihad consists of an opinion which contradicts a clear text or the consensus of the scholars.

In Chapter Four he discusses the basis of success or failure of a mujtahid. He holds, as the majority of jurists have held, that each problem has only one particular solution. He who gets at it has succeeded in his ijtihad, and he who misses it has failed.

In Chapter Five he speaks about the age of ijtihad. He is sure that it started during the time of the Prophet himself. Opinions differ as to the validity of the Companions' ijtihad. Some jurists claim validity for their ijtihad whether it was exercised in the presence of the Prophet or in his absence while others hold only such of their ijtihad valid as was exercised in the Prophet's absence.

In Chapter Seven, which is the last, the author dwells at length on the validity of mujthids appearing in every age. In support of his view he argues as follows :

The appearance of a mujtahid in every age is a religious necessity, for being the final dispensation, Islam is expected to guide the people

Dealing with the solutions to these problems that Islam can offer, the author says that there is nothing in the ethical teachings of Islam or any other heavenly faith that sound minds will reject.

Speaking about woman's freedom he says that Islam has given her freedom to marry whom she likes, to demand divorce from her husband when such a step becomes necessary, freedom to spend her wealth as she wills and the freedom to work. He then describes how the Eastern woman till recently was deprived of these freedoms which Islam has granted her in the interest of a happy family life. Regarding divorce, polygamy and birth control he has the following to say. Divorce has been deviced to avoid the evil effects of an unhappy marriage; health and family reasons justify polygamy; and birth control should be viewed in the light of Islam's idea of individual freedom.

Speaking about racial segregation he says that Islam has declared equality of all human beings. Save virtue Islam recognizes no basis for superiority.

Regarding the problem of unbelief, he says that the only way of calling people to faith is through study and discussion without the use of force or compelsion. (There is no compelsion in faith; the right has now become evident from the wrong).

Discussing the problem of land ownership, he says Islam follows a via media avoiding the extremities of total abolision of ownership as enunciated by Communism and of unlimited ownership as enunciated by Western Capitalism. In support of this view the author quotes from Ghazali's al-Mustasfa. Ghazali says :

"When hands are empty of wealth and there is no money to maintain the army, and there is fear of the enemy entering the land of Islam or fear of disturbance from miscreants, it is permitted to the imam to impose on the rich a tax to maintain the army. For we all know that when two evils are found at one and the same time, the law permits us to end the greater evil with the help of the lesser one. And what every rich man pays will be less than what he will have to spend to defend himself were there no government to maintain order and to cut at the root of evil."

Philosophy of Freedom in Islam

by

SHAIKH NADIM AL-JISR
Mufti of Tripoli and Northern Lebanon

At the outset the author mentions two reasons that led him to choose this topic. Firstly, the impressions that non-Muslims have of Islam by watching Muslims as they are. The life that the Muslims lead is, in certain respect, far away from the noble principles of Islam. Secondly, The author thinks that any call for reformation shonld be based on freedom of thought.

Difficulties in human society are a result of the constant conflict between the individual's desire to enjoy complete freedom and the society's desire to check this freedom in the interest of social life. The most important problems that Society faces to day are the followiong : ethical and social anarchy, racial segregation, faith in God versus atheism and limited ownevship versus unlimited ownership.

---

achieved by the following important factors :

1) Creation of concord among Muslim nation.
2) Exchange of cultural delegations.
3) Agreement on a common language.
4) Commercial and economic co-operation.
5) Creation of a forum of scholars from various countries to engage in ijtihad.

Shaikh Hussain Salyan Jose of Yugoslavia commented on the apprehension of the delegates regarding Islam's adapting itself to the changing times. He said that he saw no need for apprehension, for evolution was one of the Divine laws. Islam's keeping pace with the time did not mean blindly following the materialistic society and rejection of spiritual values, but it meant casting life into the Islamic mould and the creation of a new soceity based on the principles of Islam. He added that humanity which was precariously poised on the brink of a nuclear war could only be saved by Islam.

These are only a few of the many opinions that were expressed by the delegates. The one thing that is evident from these discussions is the need for the Muslims to unite, to consult each other and to gather round the principles of Islam " holding fast to Allah's cable ".

to carry out this task is a reinforcement to al-Azhar which for centuries has remained the hope of Muslims everywhere. Though Allah has blessed Egypt with al-Azhar, it is in fact the property of all the Muslims. Seekers of light and learning repaire to it from every part and students from all the countries where Muslims are found gather under its roof - a true representaion, indeed, of the unity of the Muslim world. This high position that al-Azhar occupies played a great part in attracting Muslim scholars to this historic conference. The discussions that the scholars carried on and the papers that they read in the many sessions of the conference not only point to the great intsrest of the scholars in the problems that face us, but also give us a true picture of these problems. We wish, therefore, to refer briefly to some of the discussions and publish summaries of some of the important papers :

The first paper read in the conference dealt with the factors that helped the spread of Islam. From the discussions that followed it was clear that it was the most important problem that has been engaging Muslim minds as it was also the foremost object of the Academy. As one of the delegates put it, "It was the core of the Academy's activities". The discussions regarding various details of the problem and the replies given by the author of the paper proved to be of great value, no less valuable than the paper itsef. One of the delegates spoke on Islam in Africa and referred to the difficulties that the Muslim face there, and to the hostile attitude of Christianity, Ahmadism. Qadianism and Bahaism. He called upon the delegates to find out effective means of spreading Islam in this region.

Shaikh Mustapha Kamal al-Tazi of Tunis emphasized the need to study the problems that arise in our daily life, especially in the economic field and to explain Islam's view vis-a-vis these problems. This would prove to the coming generations that Islam is suited to all times and climes. Some of the problems that he referred to are : tax versus Zakat, unification of the lunar calendar, utilization of the animals sacrificed on the occasion af the hajj etc. Shaikh Abd al-Karim Saito of Japan called for the starting of missionary movement in Japan. The Pakistani delegate, Shaikh Ghulam Ghauth said that Muslim unity could be

(Cont. P. 26)

The Academy of Islamic Researches :

Meetings and Discussions

By

IBRAHIM MOHAMED EL-ASSIL

SUB - EDITOR

On March 7, 1964 History was eagerly watching Cairo, the seat of al-Azhar to witness an epoch-making event in the history of Islam and its fallowers. For on that day was held, under the auspices of the Academy of Islamic Researches, the first international Conference of Muslim scholars. Religious dignitaries from every nook and corner of the Muslim world responded to the historic invitation to attend the Conference which represented the unity of Islam in the real sense of the word. After the Arab Summit which was held at the beginning of this year and which unified the Arabs, came the internatioal conference of Muslim scholars to unify the Muslims, to look into their needs, to solve problems of the day that face them and to find out the most effective means of spreading the message of Islam. Muslim unity which was the hope of every Muslim has now almost become a reality just as Aarb unity itself has materialized. Both these unities are interdependent : for in the might of the Arabs is the might of Islam, and their weakness is tantamount to the defeat of Islam. This explains why Muslims everywhere evinced so keen an interest in both the Conferences.

I am not far from the truth when I say that the International Islamic Conference has created a confidence in the heart of every Muslim who is looking forward to a bright future for the Muslim Nation.

The conference has emphasized the importance and the utility of Academy of Islamic Researches. It is a forum for the Muslim Community to which Muslims will turn for solution to the various religious problems that face them at present. The Academy that has been created

The programme of the conference has been drawnup as follows: The members and the delegates will take part during the first two weeks in meetings, parties and visits to various places to see the progress the United Arab Republic is making. During the next two weeks the members of the Academy will hold meetings. The conference will then turn into committees for study and discussion. The members will also draw up programmes for the meeting of the Academy which according to its constitution, should be held at least once every month.

Thus you see, Gentlemen, that we, the members of the Academy, have been charged with a great responsibility. The eyes of Muslims are, therefore, directed towards us, expecting to hear our verdict in many of the problems that they meet in their daily life and have become part of their life. In the same way, on our efforts rests the future of the coming generations who may find themselves fettered with the bonds of sweeping materialism and fatal individualism.

As long as we have strength of will and sincerity of purpose, the problem is not difficult, and God willing, we shall achieve what we aim at ("Verily Allah does not change the state of a people unless they themselves change it.") and the hopes of the Muslims to live with honour in this world and the hereafter shall become a reality as a result of your efforts. "Say: Work; Allah and His Apostle and the believers shal soon see what you do; you will certainly be returned to the Knower of the unseen and the seen and He shall inform you as to what you did."

And Allah's is the guidance.

Peace and blessings of Allah be on you.

to prevail in the society, to spread the understanding of religion and to widen the scops of Islamic culture in such a way that it becomes an open book to be read by people in every walk of life.

Brethren,

I shall present before you a brief account of the Academy and its growth and the task that we hope to achieve. The Academy was to instituted by Law No. 103/1961 to be the highest body for research, It will work to revitalize Islamic culture, to cleanse it from unwelcome foreign elements, and to bring it back to its pristine purity. It will express its views on juristic and social problems connected with the dogma. It will call the people towards the Path of Allah with wisdom and goodly admonition. The Academy has also been charged with the task of studying all that is published about Islam and the researches carried out by non-Muslims to benefit from what is good and to refute what is wrong etc.

Later on laws were passed appointing twenty-seven members of the Academy and laying down qualifications of the members, then modifying certain clauses of the original law. The Ministry also passed laws relieving certain members of their other duties to devote all their time exclusively for the Academy.

Allah willed to take away two of the members to His proximity before they could meet us in this assembly. One is Ustadh Ibrahim Mustapha who contributed sincere efforts to the language of the Qur'an and the other is the Grand Shaikh Mahmud Shaltut, the former Rector of Al-Azhar. All of us know his intrepretations in the field of fiqh. May Allah shower His choicest blessings on both of them and rank them with the righteous and the martyrs ! Allah certainly does not waste the reward of those who do good.

The General Secretariat of the Academy pooled its humble resources since a long time in preparation for this conference and presented some vital issues from which members could choose topics for study. These proposals were acceptable to the members and exhaustive discussions on these topics have reached us. These papers will be presented to the members for study during the last two weeks of this session of the Academy, and during the first two weeks of the session such of the papers wil be read as have been translated and scrutinized. As many of the papers reached us during the last few days the Secretariat could not look into all of them.

Speech

by Dr. MAHMUD HUBB ALLA

General Secretary of the Islamic Researches Academy.

In the name of Allah, the Merciful, the compassionate, and by the grace of God, His help and guidance, and under the auspices of Al-Azhar - Azhar of Islam and the Muslims - meet today a distinguished group of Muslim thinkers and scholars in the Shariah and law to attend the first session of the Islamic Researches Academy which just now is a tender plant or a newly built edifice whose age does not exceed more than two years. But it has come into being to work, to live and to grow from strength to strength and it will do so as it is surrounded by the United Arab Republic, and by you and the world of Islam, and because it is a result of necessity and the dreams of every Muslim.

The Muslims, as you see, are in need of a forum in whose sound researches the world will see the truth of Islam as they really are, free from all foreign elements, offering solutions to contemporary problems, and rectifying the concepte of life in its various aspects of thought, faith and intuition both for the individual as well as the society. "On that day shall the Muslime rejoice in Allah's succour."

In our assembling here today, inspite of the many difficulties and hardships which most of you have suffered, is a clear indications of your sincerty and determination to carry out with cooperation a new plan for a success that will, God willing, leave far-reaching effects in the life of our glorious nation.

Brethren,

We meet today in response to the call of Allah and to the call of our religious duty. The meeting is also an expression of our will to live with honour and glory that befit us and befit the heavenly message we preach which calls the people towards the unity of the Creator and the glorification of mankind. "Verily We have honoured the sons of Adam, and have carried them on land and sea and have provided them with goodly food and have preferred them to many of what we have created."

Today we have met to discuss together ways and means to exalt the word of truth, to cause goodness

people ". Our religion at the present time is surrounded by grave dangers with bitter enmies lying in wait for it. In addition to this are the evil effects left by the unbelieving western colonialism in the form of unwholesome educational set-up, fatal modes of life, removal of the divine Shariah and introduction of foreign laws in most of our countries. This is a conflict in which we must mobilize all our forces and resources, and the first weapon that will ensure succour and victory in this battle is our return to Islam in its true element, based upon the Book of Allah, the heavenly revelation which is inacessable to falsehood from any direction, and based on the Sunnah of the noble Prophet - (Allah raises the status of those that believe and of those that have been given knowledge). This is the weapon that will outdo the atomic bombs and destructive rockets.

Gentlemen:

Let us salute this happy opportunity that will soon provide to scholars and thinkers from the farthest east to the farthest west an occasion to meet and discuss fresh ways and means of disseminating the message of Islam. For Allah raises in each century people who rejuvenate this religion and it is not difficult for Him to make us from them. Let us, therefore, evince in this Conference the interest that it deserves and let us not forget to maintain an academic spirit in all our deliberations. When we arrive at sound academic conclusions we shall make them known to every country in the world which has been attacked by heathenism, or spoilt by orientalists, or Shaken by spiritual deviation or estroyed by materialism or hit by mental stagnation, especially in the puzzled Europe and in the unknown corners of Africa which are eagerly waiting for light to dawn upon them. "And Allah shall certainly help those who help Him and Allah is mighty and powerful".

I shall not end my speech without expressing our thanks to the blessed AL-AZHAR and its thoughtful Minister for their mighty efforts to raise the banner of Islam and to spread its teaching in all parts of the world specially in the reign of the zealous Muslim President Gamal Abdul Nasser.

May Allah guide all of us to do what is good for Islam and its followers and make this conference a grand success and render it the opening of a new era in the life of Islamic mission. And this is not diffuciult for Allah

Peace be with you.

SPEECH

BY

SHAIKH AL-ISLAM AL-HAJJ IBRAHIM NAYAS

OF SENEGAL

On behalf of the delegates to the First Conference of the Academy of Islamic Researches on March 7th 1964

Praise be to Allah to the Lord of the Worlds, and blessings and salutation be upon the Seal of the Prophets and the Leader of the Apostles.

Your Excellency the Vice-President, Honourable Minister for Waqfs and Al-AZHAR and Gentlemen:

I deem it a great honour to have been given this unique opportunity to speak on behalf of the Muslim Delegates on the occasion of the inauguration of the first Conference of the Islamic Researches Academy. These delegates on whose behalf I stand to speak are a distinguished group of Muslim scholars, dignitaries and thinkers who have sincerely devoted their lives for the noble cause of Truth and the service of Islam.

Gentlemen:

We, the delegates assembled here in this place are indeed proud of having accepted the invitation extended to us by AL-AZHAR to attend this really great Conference. It is great in its noble objectives, great in its heroic delegates, great in its venue, great in its timing and great in its far-sighted leadership. For this place is the most suitable venue for this noble task as here on this soil stands the age-old AL-AZHAR which is rightly considered the bastion of Islamic Shariah since many centuries, and the time likewise is the most suitable one on account of good feelings created by feelings created by the Arab summit in the hearts of people from the Atlantic Ocean to the Arabian Gulf. The creation of better relations between the Arab Brethren is indeed a great achievement which we all bless, for no two persons differ on the importance of the Arabs and the Arabic language in the spread of Islam.

Gentlemen:

The eyes of Muslims all over the world are directed towards us with hopes. Let us, therefore, realise the great responsibility that has been placed on our shoulders. We, the scholars of the Muslim Nation are heirs of the Prophets and " the best Community raised for the

awarding degrees, after which they part with their Institution. The relationship has strengthened the ties between Al Azhar and all the Islamic peoples through those graduates who return to their native lands being spiritually and faithfully attached to Al-Azhar where they have acquired what will shed light on the right path. They return to their native lands with "Their light between their hands and in their right ones; and they said: O Lord, complete our light."

Al-Azhar has become the rightful custodian of the Islamic heritage, It has afforded its students the opportunity to delve deep into studies, the Arabic language as the various human sciences at large.

Although Al-Azhar, during certain periods of its history, was afflicted with some of what befell the intellectual movement, as a whole, particularly during the foreign occupation of Egypt, could yet manage to guard Islamic Heritage and protect the Arabic language — the language of the Qura'n — against the intrusion of the foreign tongue. Al-Azhar could, therefore, manage to keep its door wide open for all learners wishing to study Arabic and Islamic Sciences till the occupation was over and the intellectual movement was once again revived. Al-Azhar, then, resumed its function and effectiveness in this respect, thus, bearing to all people the message of Knowledge and Faith.

To help Al-Azhar fulfil its mission and adapt itself to the needs of modern times Law No. 103 was issued in 1961 with the aim of re-organizing Al-Azhar. Thanks to the government of the Revolution Al-Azhar has become: The Supreme Islamic Organisation that preserves the Heritage of Islam, makes a clear study of it, propagates it and stands as the true bearer of the Islamic Message to all peoples pointing out the Truth about Islam and its influence in the progress of humanity, and maintaining security and satisfaction for the people in this world and hereafter.

Gentlemen, the Learned Men of Islam and the Leaders of Islamic Thought:

Your meeting at this first Congress of the Academy of Islamic Researches is an outcome of the law of the Evolution of Al-Azhar.

This Congress is also a manifestation of the Unity of Islam and the Muslims.

" This, your Nation, is but one Nation. And I am your Lord; worship me."

Brothers, the Learned Men of Islam:

May God bless you, guard your efforts, help you achieve righteousness, and guide you along the right path.

May God's peace, mercy and blessings be upon you.

The speech

Ddelivered by Dr. MOHAMED ABDULLA MADI
Vice-Rector of Al Azhar and President
of the Congress of the Academy of
Islamic Researches

Praise be to God who has caused us to rally round the Truth and guided us to the honour of having Faith in Him; and may God's peace and blessings be upon our Holy Prophet whom God sent to be a bearer of good tidings and a warner, and one who calls to God's grace by His leave, and a lamp spreading light.

It is in the name of God, the Merciful the Compassionate that we inaugurate the first Congress of The Academy of Islamic Researches. And in the name of Al-Azhar, I greet and welcome you and pray to God Almighty, that He shall bless your efforts and lead your conference to success and guide you on the path of righteousness.

As a matter of fact, Al-Azhar, that has undertaken to carry out the message of Islam over a thousand years, thus propagating Islamic culture throughout the world, has the Privilege of having convened this congress.

Gentelmen:

Al-Azhar has always been of you and for you. Since its inception in the Fourth Century, it has adopted a general Islamic attitude; It has never stood, for any particular group or sect, but has stood, according to God's will, as an Institution for the study of Islamic Law and the Religious Sciencesin all their various branches.

Besides, Al-Azhar has not been for Egypt alone, but has belonged to the Islamic World at large. From all countries and lands Muslims flock to it to acquire knowledge and study Religious Sciences. Then they go back to their countries to awaken religious consciousness amongst their compatriots, therefore having the principles of Truth realized in and through them.

The relationship of Al Azhar with its guest students who come to it from various parts of the Islamic World is not confined to instruction or

Al-Azhar to preform its role in guiding the Arab Nation and the Islamic world.

Gentlemen,

You will witness these glories during your stay here. You will participate in realising the development of Al-Azhar through helping to solve the questions and issues that will face you - the problems of Muslims at large.

The decisions and opinions you are going to take will undoubtedly have deep effect on the millions who watch the news of this conference, as they usually do, with their eyes turned towards Cairo and Al-Azhar just in the same way as they will turn after few days, to Mecca, the First House set up for the worship of Allah.

We implore God to crown your efforts with success, guide the leaders of Islamic and Arab Nations to the path of righteousness and always support our guide and leader, President Gamal Abdel-Nasser.

Wassalamu alaikum
warahmatu Allah.

evidence of the afore-mentioned phenomenon. Emperialism has endeavoured in Algeria, in particular, and in every other Islamic land, in general, to separate the Arabs of Algeria from their religion and to cause this strong support of history and belief to collapse. It had derived different arts and followed, for one hundred and thirty years, different methods to achieve its aim. Nevertheless, the Algerian Revolution has broken up as an outlet for the Algerian's belief in Islam and Arabism. Its main support, in its hard struggle, was its belief in a a fight for the Word of God. When its success was achieved and its affairs settled, its constitution declared, in its first articles, that Islam is the official religion and that Arabic, the language of the State.

But the formation of the Islamic Researches Academy in this way and in the choice of its members from among the leaders and pioneers of Islamic thought and from among the keen observers of the conditions of present life, with its events and problems, increases our hope in overcoming the diffculties which research work and study face, assuring the Muslims about their religion, explaining its value in human life and showing that Islam, though the desert was its birthplace, is meant for Man and Human virtuous qualities in every age and place: the age of the camel as well as age of the machine.

I firmly believe that had not a revolution taken place in the United Arab Republic, had not this revolution aimed at creating a society that has a history and glorious past in struggle, a society that has undertaken the message of ideals and the preservation of the Holy Qur'an as a religion and creed, and had not President Gamal Abdel-Nasser been the pioneer planner of this Revolution, this society would have neither emerged in its present form nor the potentialities that enabled it to cooeperate with others for the sake of the Arab Nation, the Islamic world and God's sake would have been possible.

The era wherein the tunnels of the High Dam are dug among rocks and desert to be made serviceable to man instead of being an enemy to him, this era which has eradicated, once and for all, colonialism from its domination over the Suez Canal, the vein of the entire Arab Nation as well the Islamic world, adds up a new glory to the list another important achivement the reorganisation of Al-Azhar - in a way that enables graduates and member to participate in life and prepares

among its members, new figures representing different cultures and various attitudes of knowledge but, added to this, it aims at the revival of the traditional teachings of the formers and the pavement of the way for the renewal of the attitude of brilliant Islamic Ulama and jurisprudents in coming to agreement about any case problem.

If some other Ulama, representing Non-Arab Islamic countries, do not witness to-day's Conference as members, the following conference, if God wills, will include them after the necessary steps have been taken.

The Conference of the Islamic Researches Academy, in its present session, will face many difficulties, cases, events and developments which have appeared for the first time or precipitated in the lives of the Islamic communities after the jurisprudents have stopped to give their opinion and satisfied themselves by adhering to one of the creeds prevalent or by trying to come to a compromise concerning varying creeds. The conference will face such difficulties and cases and it is bound to deal with them by research and study to select the clear Islamic opinion. This will help to the return anew of the relation between the lives of the Muslims in their practical passage under the protection of the principles of Islam so as to guide man correctly towards the clear direction which will guard his life, protect him from the elements of weakness, help him to overcome obstacles, save him from idleness and urge him to work and production.

These difficulties and cases which face the conference in its present session from a hard and serious job. It is hard because it will have to study and give original solutions to them, because the gap of time between the time of stagnation in the Islamic thougt and its jurisprudence and the present has been so great. And because of this big gap it has been believed that nothing better could be achieved.

It is serious because the opinion which will be fromed and will explain the aim of Islam will have a wide and deep effect on the souls. The Muslims at present are quite a considerable number which cannot be ignored. The more they are forced to deviate from Islam through shaking their belief and understanding of this religion by dfferent means and different intellectual tendencies, the more they yearn to stick to its principles and to apply them in their lives.

The Algerian Revolution, in its break and success, is a clear

befallen the Muslims in their unity as well as in their jurisprudence and outlook for life.

This Law does not mean that Al-Azhar would deviate from its message or the history of this message in science, knowledge, jurisprudence and preaching. It is meant to enable Al-Azhar to fulfil its message in an effective way so as to help its penetrating rays to reach the life of millions of Muslims in their unity, friendship, and apprehension of the Islamic values and applying them in their private and general lives.

By the reorganization of Al-Azhar the Law does not mean to make Al-Azhar mimic any other educational or scientific institution inside or outside it. It means to renew the status of the Muslims in the days of glory and greatness when they surpassed everybody else in their faculties for learning whether in the subjects of the Qur'an and the Hadith or in Arabic, intellectual and human sciences or in physics and mathematics. The Law means to restore to the Arabs and Muslims the age of intellectual patronage and scientific leadership in no less a way than what had been known of the Muslims in their relations with others and supplying them with the leading free thought and the scientific method.

It is not strange in the intellectual history of Al-Azhar to have an age of leadership in research and study in all the previous spheres, and to have among its men Ulama who have excelled in other fields of knowledge, just as they have excelled in the sciences of the Qur'an or Sunnah or the Arabic language.

One of the most important interests of the Law is to reform this body, which is in charge of research and devotion to original deep studies, to supply the Muslims with opinions about the problems which face them and which the necessities of life has put forward and made it urgent for them to know what their Islam advises, what relieves their souls and what supplies their capacities in life, to urge them towards effective work and the preservance of their dignity and superiority.

If this law has enacted that the formation of the Islamic Researehes Academy should include research Savants graduated from Al-Azhar, research Savants from theUniversities, higher institutes of the Republic and other research Savants, well-known in the Arab and Islamic world for their broad outlook, deep thought and original opinion, the Law does not express a mere desire to have,

Speech

by

DR. MUHAMMAD AL-BAHAY

Mr. President,

Dear Members and Guests of the Academy.

In the Name of God, the Merciful, the Beneficent.

You are welcome here, in the Capital of the United Arab Republic.

We welcome you on the occasion of the meeting of the first Islamic Researches Academy Conference after the issue of Law No. 103 for 1961 concerning the reorganization of Al-Azhar.

Before starting my speech, I would like to ask you to join us in invoking the Almighty God to bless the eminent Shiekh Mahmoud Shaltout, Rector of Al-Azhar.

He really deserves to be remembered in this conference by us for all the good he has done and for the effort he has given to organize the body which is in charge of Islamic researches and which gives opinion about the problems concerning Muslims; an opinion derived from the Qur'an, the verified Sunnah and the opinion of the mature jurisprudents who are honest in their belief and jurisprudence, the three of them being the reference and criterion.

This body meets to-day in the form of a conference for the Islamic Researches Academy.

Gentlemen,

When the United Arab Republic reconsidered the organization of Al-Azhar and its institutions and issued Law No. 103 for 1961, the following institutions were formed :

Al-Azhar University, Islamic Researches Academy, General Department for Al-Azhar Institutes, the High Council for Al-Azhar and its General Secretariat. By so doing, the United Arab Republic aims at prompting life and movement anew in the activity of preaching and Islamic and Arabic Studies. It aims also at the resumption of building up the glories of the Muslims, after reviving the religious, scientific and human heritage and at clarifying this heritage from the blemishes caused by the weakness that had

Today Islam is facing many strong challenges which aim at doing away with Islam. Had it not been for Allah's promise contained in His words : " We have revealed the Reminder and We shall protect it, " the position of Islam would have been different from what it is today. But realisation of Allah's promise rests on our faith in the Book and our effort to preserve it.

The role of the Scholars, therefore, in preserving Islam and the Book of Allah is indeed great. Muslims expect them to expound the truths of Islam and its teachings and to present them to the people in their pristine purity and to explain them to the people in clear terms and in an unbiased way. This exposition of the Scholars should be an expression of their faith, and it should create in the minds of the people a feeling that Islamic values are forces that will end the darknesses of fear, poverty and ignorance in every society that believe in them.

The Challenges that Islam faces today are not only external but also internal; not only challenges from colonialism and its tricks, but also challenges from atheism and deviation in undestanding and deviation in character. Colonialism not only challenged the Book of God and its values and its principles, distorting some of them and rejecting the others, mocking at some and doing away with other in name of science, but also challenged the unity of Muslims. It divided them into nations and sections and groups, and transformed their legal school into religions, their languages into barries, their land into distances, and their races into frontiers, all of which stood in the way of their physical as well as spiritual contact. Colonialism challenged the faith of the Muslims and their understanding of the Book of God, and created for every country an Islam, though "religion with Allah is Islam" since He revealed His message and sent messengers. Religion of Allah is therefore, one and His Qur'an is one which is in the clear Arabic tongue. Albeit colonialism did away with the Muslim Unity as it distorted the teachings of Islam and its principles.

If Muslims are to be "the best Community raised for the people" it is imperative that these barriers between them should end and it is also imperative that Muslims should return to the Book of God and to its language.

And as we have mentioned before it is for you the members of the Islamic Researches Academy to carry out this task.

May Allah guide you. Your deeds will never forsake you.

Peace and blessings of God, be on you.

an easy prey to its occupation and exploitation. To do this it sought the help of its supporters who could pave its way. In spite of all this, it was but natural that the will to change should be born and that it should revolt against this exploitation in accordance with the law of Allah "that Allah does not change the state of a people unless they change it themselves."

Here in the United Arab Republic appeared the will and power of Allah and supported the will of the Revolution, i.e., the will to change, and this will has entered every walk of life. As a result colonialism was ended so that the Country might be free, and feudalism and capitalism were ended so that the country and the citizen might enjoy freedom. Social justice was then established by banishing claass's difference. A strong national army was created to defend the country and the citizen and to meet any interference in the carrying out of the people's will to change.

Gentlemen :

Realising the value of Al-Azhar and the part it had played in the past, and the part it can play in our present society, not only in the United Arab Republic and the Arab Countries, but also in the whole wordl of Islam, the Revolution strove seriously to reorganize Al-Azhar and to render it fit to spread the message of Islam by thought, research, learing and deed in such a way that Islam covers all walks of human life.

Among the other institutions brought into being by the law of the Reorganization of Al-Azhar is the Islamic Reserches Academy. This Academy is meant to be the highest body for research. it will work to revitalize Islamic culture, to cleanse it from unwelcome foreign elements, and to bring it back to its pristine purity, It will make it known to the people in every walk of life, It will express its views on juristic and social problems connected with the dogma ; it will call the people towards the Path of Allah with wisdom and goodly admonitions. The Academy has also been charged with the task of studying all that is published about Islam and the legacy of Islam and the researches carried out by non-Muslims to benefit from what is good in them and to refute and rectify what is wrong, The Academy will also help in directing higher studies at Al-Azhar for the students of Specialization and Alamiyyah, in supervising such studies and in holding examination in them.

Conditions that have been fixed for membership of the Academy will ensure envolment of persons best suited to carry out these tasks.

You are the first batch of scholars to be amongst the members of the Academy after its inception and on you - the Scholars of the United Arab Republic, the Arab Countries and the Muslim world - rests the responsibility of translating into action the objects of the Academy.

The Inaugural Session of the Conferenee

The Inaugural seesion of the Conference was held in the conference hall of the Cairo Governorate. A large number of university professors, members of several cultural organizations and Arab and foreign press reporters were present. Mr. Hussein Shafi, Vice-President, Dr. Muhammad al-Bahay, Minister for Awqaf and al-Azhar, Mr. Salah al-Dosuqi Governor of Cairo, Dr. Muhammad Abdullah Madi deputy Grand Shaikh of al-Azhar and Mahmud Hubb Allah, secretary general of the Academy of Islamic Research, participated in the session. The deliberations Commenced with the recitation of the holy Quran. Mr. Hussein Shafi then delivered the inaugural addrese on behalf of President Gamal Abdul Nasser. Latter Dr. Muhammad al-Bahay, Dr. Muhammed Abdullah Madi Dr. Mahmud Hubballah, and Shaikh Ibrahim Nayas addressed the Conference. Shaikh Ibrahim Nayas spoke on behalf of the delegates participating in the Conference. The session ended, as it had begun, with the recitation of the holy Quran. At the end of the session Mr. Hussein Shafi Shook hands one after another, with the Delegates and welcomed them.

Following are the texts of the speeches delivered in the session:

SPEECH

BY Mr. HUSSEIN El-SHAFI
VICE - PRESIDENT

On the occasion of the first Conference of the Islamic Researches Academy in 7th March 1964.

As-Salamu Alaikum wa Rahmat Ullah :

In the name of Allah, the Compassionate, the Merciful. Praise be to Allah, the Lord of Worlds and peace and blessings be on the Leader of the Apostles !

Members of the Islamic Researches Academy, and guests of the United Arab Pepublic attending the first meeting of this Academy in the form of a Conference held under the auspices of the Al-Azhar after its reorganization, I welcome you all on behalf of President Gamal Abdul Nasser.

Gentlemen :

Colonialism has been lying in wait for the Muslim World to divide its strength so that it may fall

emigrants were facing. He further added that the Indian people considered the Palestine question a human problem for which an urgent reasonable solution must be sought.

From all this we can see how important this international conference was. The aims of the Conference have been briefly summarised in the following words by Dr. Muhammad Abdullah Madi, Deduty Grand Shaikh of Al-Azhar : " It is the greatest Conference of the Scholars of Islam who shoulder the responsibility of spreading Islam and solving dogmatic and social problems, and this under the auspices of the Academy of Islamic Research which is the highest body for Islamic research and which undertakes the study of all that pertains to Islamic heritage, and which comprises distinguished scholars of Islam representing all the schools of Islamic thought.

It remains to be seen how far the Academy succeeds in achieving these aims but there can be no two opinions about the importance of what it has actually achieved : it has given the Muslem scholars a forum to meet and an opportunity to share each other's views. This indeed is no mean achievement.

1 — Revenue and the right of state to Taxation in Islam.

2 — Arab and Muslim Expansion : a consideration of the natural and human factors.

3 — Land-owing by the individual and its benefits in Islam.

4 — The claim of the poor to the property of the rich.

5 — The system of ihtisab or 'Moral Control' in Islam and the right of the individual to the State.

6 — Ijtihad or Individual Interpretation : its past and present.

7 — International Relations in Islam.

In all one hundred and twenty delegates, all great scholars, representing forty - two countries attended the Conference. In addition to these, professors of AL - AZHAR, presidents of societies and Islamic centres all over the world were also present. The countries that participated in the Conference were as follows :

From ASIA : Iraq, Yemen, Kuwait, Oman, Afghanistan - Pakistan, Lebanon, Indonesia, India, Ceylon, Philippine, Malasia, Turkey, Jodran, Saudi Arabia, Soviet Union, Japan, Gaza and Bahrein.

From AFRICA: Libya, Tunis, Algeria, Sudan, Somalia, Nigeria, Mauritania, Senegal, Mali, Guinea, Sierra Leone, Togo, Union of South Africa, Uganda, Kenya and Maritius.

From Europe: Greece, Yugoslavia, Hungary, Holland and Britain.

From Amerca: Trinidad.

Before the Conference ended the delegates paid a visit to the Gaza Strip on an invitation from the Governor General who extended the invitation to the delegates on behalf of the sons of the Arab Palestine. During their visit the delegates held a meeting and issued a communiqué re - iterating that Palestine is An Arab country whose sons have been wrongfully driven out. The Communiqé called upon the Muslim World to take necessary steps for restoring the right of people of Palestine. It also thanked the Arab Kings and Heads of States for their support to the Palestine problem in the Arab Summit Conference. Of the non - Arab delegations, the Indian Delegation evinced special interest in the Palestine problem. Shaikh Maulana Muhammad Tayyib, the head of the Indian Delegation said in reply to a question that the partition of Palestine would be a heinous crime. He added that the Indian people were deeply concerned with the economic and social problems that the Palestinian Arab

and that Islam knows no conflict between religion and learning in the widest sense of the word.

Secondly, AL-AZHAR had always remained an international seat of learning. It has welcomed in the past, as it does now, students from all parts of the world irrespective of race, colour, language and even religion. These students drawn from different countries and speaking different languages have always met in harmony and unity, studying, discussing and arguing in a purely academic spirit. There is hardly any country in the world where the alumni of this great University are not found sharing with others the wisdom they have acquired at Al-Azhar.

The Academy decided this year to hold under its auspices the first international conference of Muslim Scholars from all over the world.

On Shawal, 22, 1382 (March 6, 1964) the Conference Commenced in Cairo which, in addition to being the capital of the United Arab Republic, has been the centre of Islamic Culture and the bastion of Islamic heritage for many centuries; It was a dream come true, for it was the cherished hope of Muslims all over the world that such a conference of international character be held to realise the aspiration of sincere Muslims for the establishment of intellectual and cultural contact between the sons of the Islamic nation dwelling in the far corners of the world.

The Conference discussed papers prepared by members of the Academy, and dealing with various topics. These pepers, and those which the Academy will continue to prepare and publish will be of two types:

a) The first type deals with subjects, which, although not entirely new, need a new presentaion in the new social set up created by the Industrial Revolution. Researches carried out in this field will aim at knocking the rust off the minds enslaved to material welfare and lifting the screen from our eyes blinded by the glare of modern life.

b) The second type deals with problems created by modern inventions and scientific advancement. It is hoped that this Academy will provide solutions to many of these problems in the light of the Quran and the Sunna.

of the papers that were read and discussed in the Conference, the following deserve special mention :

this century, created a hiatus between Islam and the modern life. Those that clung to the old ways of life were denied acquaintance with modern thought, and on the other hand those that were brought up in the new tradition were totally ignorant of Islam and its glorious heritage. The need to bring about a harmony between Islam and to the modern life was never greater than it is now. It was AL-AZHAR that came forward to do this.

In 1961, under the auspices of AL - AZHAR was established an Academy of Islamic Research to serve as the highest body for Islamic research. This Academy undertakes the study of all that pertains to Islamic heritage, and work on international level towards the rejuventation of the Muslim culture, its purging from accretions, and its presentation in its true element, while facilitating knowledge of and acquaintance with it at all levels and in all climes. It

also aims at following up all that is published loy Muslims and non-Muslims alike - about Islam and its legacy to benefit from what is right in it, and to repute and rectify what is wrong.

The Academy is an international body and comprises a select number of scholars with profound knowledge of Islam and its heritage. To help strengthen the unity of Islam and to bring out the academic character which has distinguished AL - AZHAR, all Muslim countries and all schools of Islamic thought are represented in the Academy. This is also to ensure that the views expressed and the resolutions adopted by the Academy may suit the different localities and the varying societies in the Muslim World.

It was in the fitness of things that AL - AZHAR should take up this task of rejuvenating Islamic culture and bridging the gap that has been growing between Islam and the modern thought. For AL-AZHAR is "the first house that was built for knowledge", and since it was founded ten centuries ago it has kept the torch of Islamic sciences burning. It has been stimulating faith through knowledge and it has kept alive learning by study and research with perseverance, patience, deliberations and endurance.

The fact that this great and glorious university was first housed in the mosque and remained so far many centuries is proof positive that in Islam worship and learning go hand in glove with each other

THE FIRST INTERNATIONAL CONFERENCE OF THE "ISLAMIC RESEARCHES ACADEMY"

by :

A. M. MOHIADDIN ALWAYE

Islam is not a religion in the sence in which it is used to denote christianity, Judaism, Buddism etc, but it is a complete system of life suited to all times and climes and acceptable to all those that dwell under the sun. It is but natural for such a universal message to adapt itself to the varying conditions of life. Since its inception, thirteen hundred years ago, Islam has been a living force, grappling with every new situation that arose and solving every new problem that it faced. Great doctors of law known as mujtahids have flourished in the past and with their profound knowledge of the sources of legislation in Islam, viz. the Quran, the hadith, the qiyas and the ijma they have interpreted Islam in the light of the changing patterns of life in every age.

But unfortunately during the past few centuries of Muslim downfull, mental inertia, deterioration in educational standards, lack of patronage of scholars and divines - all this conspired to put an end to ijtihad. This and the ever-growing inventions and discoveries in the fields of science and technology that commenced from the dawn of

---

supplied to all the countries which know Islam or wish to know it.

As for the existing writings, the authentic from them will remain in libraries for study by research Scholars and specialists; and the false and unauthentic from them will meet the fate which the unofficial Qur'an met at the hands of Uthman, for its existance is a constant danger to authenlic report and will misguide those that seek the truth.

If the Academy fulfils this task — and it can do it — then it will have cleansed the Shariah from the harmful innovations, and unwelcome encrustations, and will have made the religion of Islam a "well of guidance undefiled". People drinking deep of it will create an idead society which will march on the straight path under the guidance of Truth, the protection of Science and the supervision of Conscience.

The second task before the Academy is the purging of the faith and practice of Islam from false and unauthentic traditions and teles that have come down from one generation to another, from customs and manners that have crept into our faith and practice from outside, and from beliefs that corrupt mysticism has injected into Muslim minds. During the centuries of Muslim downfall Islam was forced to Accept and absorb beliefs and practices which were far from being Islamic and sometimes were actually anti-Islamic. Thus entered into the framework of Islamic thinking the hatred of everything material. Monasticism became the dominant feature of Islam. Muslims were taught to look down upon worldly life. Islam was considered to be a bundle of beliefs that opens the gates of paradise.

The third task before the Academy is the problem of personal interpretation (ijtihad), This alone is the path that will lead to the goal that the Academy strives to attain viz. The reorientation of fiqh and the modernization of the Shariah. The message of Islam is for all times and climes. The living fiqh of Islam has to mould itself with the changing conditions in the social and the economic fields. We cannot therefore expect the early doctors to have fore-seen the modern problems and to have worked out their solutions.

The nearest and the easiest way for the Academy to reform the existing conditions would, therefore, be to study the legacy of Islam which comprises various elements and to codify it into three authoritative encyclopaediae : the first for the study of the Qur'an, the second for the study of Hadith and the third for the study of Fiqh. The Qur'an will here be explained in the light of authentic sayings and modern scientific knowledge. Due place will be given to the sound explanations of the later Scholars side by side with those of the early savants. The Hadith will be codified from the authentic collections of Hadith, and explained in the light of researches in the fields of History, Sociology, Ethics, and philosophy. Fiqh will be codified from the practice that has come down to us and from the sound interpretations of the legal Schools.

These three collections will form an authority for legal decisions and the basis for all fatwas. Summeries of these will then be bublished for study in education l institutions; and these along with the origionals will be translated into most of the Eastern languages and the most important western languages, and copies

(Cont. P. 4)

Azhar should be reorganized and broad-based. With this object in view the Revolution passed the new law for the reorientation of this great centre of Muslim learning. Among the other new institutions established by this Law, is the Islamic Researches Academy which brings together Muslim Scholars and savants from all the countries. This new forum will strive to liberate Muslim thought from blind following, to purge the sunna from spurious and unauthentic traditions, to modify the Shariah within the framework of the Quran and the Sunna, to cleanse the faith from encrustations and harmful innovations and to present the faith of Islam to the peoples of the world in clear terms and on scientific lines. We hope that the Academy will give us its considered view on the three following issues, viz. Uniformity of belief, purging of the Shariah and permission to the use of personal interpretation. The lack of these factors has greatly distorted our religion, torn asunder our unity and hindered the progation of Islam.

The uniformity of belief fell a prey to political parties, and worldly gread till the number of schisms in Islam reached seventy-two. Each one of these Schisms tried to overcome the other, and to do so it sought to prove its validity with spurions and unauthentic traditions. But, however, all these schisms disappeared one by one before the end of the seventh century of the Hijrah, except the Zahiri School which held its sway in Spain and certain parts of Morocco. As for the legal Schools, they finally resolved into four Schools of the Sunnites and some Schools of the Shiites. The differences among the various Schools of the Sunnites on the one hand, and the Sunnites and the Shiites on the other hand grew in intensity with the passage of time till finally they were estranged from each other so much that some Hanfite doctors held that a Shafii girl was not a kufu (suitable) for a Hanifite boy, and in the same way some Shiite doctors held that a Sunnit boy was not a Kufu for a Shii girl. Later these differences narrowed down and this attitude of hostility towards each other gave way to one of tolerance. It was then said that the followers of each School Should believe that their School was basically right though it might be wrong; and that the other Schools were basically wrong though they might be right. Recently doctors of the various Sunnite Schools have Shown signs of unity and rapproachment not only among the various Sunnite Schools but also between these, and the Shiites.

CAIRO CONFERENCE OF MUSLIM SCHOLARS

BY A. H. AL-ZAYYAT

EDITOR - IN - CHEIF

Just a few weeks ago ended the summit Conference of the Heads of Arab States, and has now commenced the Conference of Muslim Scholars. While the former conference discussed at the highest level issues relating to political unity, the latter will seek to pave the way for religious uniformity. In fact these two conferences compliment each other.

Both these Conferences are an echo of the Great Revolution that started on the banks of the Nile of Amr bin al-As, then moved to the banks of the Burdi of Khalid bin Walid and later to the banks of the Tigris of Sa'd; it echoed in the mountains of Yemen and its light shone on the shores of the Mediterranean bringing life to Algeria. It created hopes and kinddled courage. It connected the bonds that were broken. In short it awakened the Arabs to a new life of unity and a brilliant future.

A revolution cannot usrvive without a faith even as a body cannot live without a soul, and a ship cannot reach the goal without the guidance of the pole-star. The Revolution can certainly soften iron, grow fields on stones, harness the Nile, Manufacture rockets, spread Knowledge and provide amenities for the people, but without the moving force of faith can it stimulate hearts that are dying to a life of piety and responsibility ? The leaders of the Great Revolution were alive to this need : they were sure that the new revolutionary society would not live without religion. They also knew that religion would not keep pace with the changing times without the guidance of Azhar. When the educational needs of Azhar are complete and when it adapts itself to the new situation, it will usher in the East a free and original Renaissance that will reorientate the entire East, for when its culture, derived as it is from Revelation and the laws of Nature, will come into contact with the modern thought, they will react on each other, and this fusion of the ancient culture with modern thought will give birth to reorientation of religion as Allah wills it.

It was, therefore, necessary that

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٩٠٥٩١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض خاص

الجزء العاشر - السنة الخامسة والثلاثون - ذو الحجة سنة ١٣٨٣ هـ - مايو ١٩٦٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزير الدين والخير

بقلم : أحمد حسن الزيات

شاء العليم الخبير صاحب الدين وواهب الخير أن يتولى أمور الأوقاف وشئون الأزهر في مرحلة الانطلاق الثورى العالم الأديب أحمد عبده الشرباصى نائب رئيس الوزراء فكانت هذه الولاية توفيقا من فضل الله، وتحقيقا لأمل المسلمين، وتصديقاً للقول المأثور : لا يزال الناس بخير ما ولوا خيرهم أمرهم . والمهندس الشرباصى بإجماع الرأى متميز بالدين والعلم والخلق والكفاية ، فليس عجيبا أن تعقد عليه الآمال في تعميم الخير في الأوقاف عن طريق العدالة ، وتجديد الدين في الأزهر عن طريق الدراسة .

ولقد لقيته يوما من أيام الصيف الأسبق في مصيف بلطيم ، وكنت قد عرفته من قبل بالسماع ، والسماع بسراوة خلقه وسمو أدبه مستفيض ، فلا يجرى ذكره على لسان مثقف إلا روى عن مجالسه ونوه بمواهبه وحدث عن أياديه .

راعنى وأنا أحدثه سعة اطلاعه على الأدب وطول باعه في البلاغة ، فقلت له : إن ما أصبته من علوم الهندسة ، إنما جاءك عن طريق المدرسة ، فمن أى طريق جاءك هذا الذوق الصافى لروائع الأدب ، وهذا العلم الوافى ببدائع الفن ؟ فقال في لهجة المتواضع

الكبير : جاءنى من نشأتى الأولى بين شباب الأزهر أيام الطلب ، فكنت آخذ فيما يأخذون من اللغة والأدب ، وأحمل نفسى على مجاراتهم فى الاطلاع والبحث ، حتى تحرك فى فطرتى النزوع إلى فقه الدين وعلم العربية .

وهذه النشأة وإن كانت كنشأة حافظ إبراهيم بين طلاب الجامع الأحمدى لا تكفى وحدها لتجعل من المهندس الشرباصى أديبا ولا من الضابط حافظ إبراهيم شاعرا ، وإنما كانت فى الرجلين تنبيها لملكة غافية ، وتوجيها لاستعداد موهوب ، وقد استمر أثر هذه النشأة فى حياة المهندس العاملة حتى وثق الصلة الفكرية بينه وبين الفقيه الأديب الأستاذ الباقورى ، فكان لهما فى كل ليلة ندوة أدبية يغدو إليها صفوة المفكرين والباحثين من رجال الأزهر وغيرهم ، فيتذاكرون فيها دقائق المسائل ورقائق الأحاديث وطرائف النوادر ، ثم ينصرفون عنها وفى أذهانهم أقباس من الهدى والنور تشع فى كل مجلس ، وتشيع فى كل عمل .

هذا الأدب الذى استفاده الشرباصى من مناشئ فطرته ، ومن طبائع نشأته ، قد استحال فى حياته العاملة أدبا فى نفسه يتخلقه ويعمل به ، وأدبا على لسانه يتذوقه ويتصرف فيه ، وأدبا على سمعه يعيه وينضح عليه . فكان بهذا الأدب النفسى واللغوى والفنى عظيما تتجلى عظمته أكثر ما تتجلى فى دماثته ، فأنت تتقلب منه فى مثل أعطاف النسيم لينا ورقة ، وفى مروءته ، فهو يشبع الفضل إشباعا هادئا فلا من ولا زهو ولا تكلف ، وفى تواضعه ، فأنت تحدثه حديث الصديق للصديق أو الند للند فلا تشعر أهو الوزير أم أنت .

* * *

إن للأزهر بفضل هذه الشمائل فى نائب رئيس الوزراء نواشئ من الأمل لن تكذب ، وبوادر من الظن لن تخطئ . وإن الأزهر فى مرحلة الانطلاق الثورى غاية لن يعوقه عنها تخلف من ماض ولا تعسف من حاضر ؛ فإن الثورة العامة لن تبلغ مداها البعيد إلا فى هداية العقيدة ورقابة الضمير ، ومن أجل ذلك رأت قيادتها تطوير منهجه وتصحيح مفهومه فسنت له القانون الجديد . والقانون ميت ما لم يحيه التنفيذ ، والتنفيذ باطل ما لم تحققه العدالة ، والعدالة التى يأمر بها الله ويرجوها المسلمون أن يبقى الأزهر كيانه وسلطانه ، ولن يبقى له هذا الكيان وذلك السلطان إلا إذا قام بنيانه الجديد على أركانه لا على أنقاضه . والأركان التى بنى عليها الأزهر العتيق هى تبليغ الرسالة العظمى ، وحماية اللغة الفصحى ، وتصحيح العقيدة العليا ، وتوجيه الأمة الكبرى ،

فإذا توسع فى ضروب العلم وأحاط بفنون المعرفة فذلك ليتسع أفقه فى فهم الرسالة ، ويبعد مداه فى نشر الدعوة . وتلك الأركان هى التى رسخت أصولها فى نفوس المسلمين تحت كل أفق فليس من الخير أن تنقض ولا أن تزعزع ، والأزهر بهذا المعنى زعامة روحية كسبها لمصر علماؤه الأخيار وأبناؤه الأبرار فى مدى عشرة قرون .

* * *

إن الجمع بين شئون الأزهر وأمور الأوقاف فى يد واحدة تصرفها على خطة مرسومة لغاية معلومة حسنة من حسنات الثورة . وهى سياسة يقتضيها منطق الأشياء ويؤيدها حكم الواقع ، فإن الأزهر يفقه فى الدين ويدعو إلى الخير بالدرس والنظر والاجتهاد والتعليم والتأليف والحجة ، وجهاز الأوقاف ينفذ ويطابق بالإمامة والخطابة والوعظ والإحسان والإيمان والعمل . فالتلاؤم فيهما واقع ، والتلازم بينهما تام . فى تولتهما يد مصرفة ورأى نضيج ونية صادقة وعزيمة نافذة انطلقا معاً فى الآفاق التى كشفها التحويل الثورى انطلاق النور الهادى من بؤرة الشمس ، أو الروح السارى من كلمة الله ، فيتهيأ الإصلاح بالروح والمادة ، ويتحقق الكمال بالدين والدنيا ، وتكتمل الوسائل للنهوض والعمل .

وفى رأى المراقبين من رجال الأوقاف والأزهر أن الله قد حمل الشرباصى هذه الأمانة فى هذه المرحلة ، ليوفق بين قديم الجامع وجديد الجامعة ، وينسق الأمر بين كراسى الدرس ومنابر الدعوة ، وينظم الإحسان بين واقفيه ومستحقيه ، ويمهد السبيل للتعاون المثمر بين مجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى الأوقاف ليجمعا القلوب والشعوب على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة عن طريق التعارف والتآلف والتشاور ، ذلك لأن سلطان الدين أكمل وأشمل من سلطان السياسة وقوة الحكم ، فإن هذين لا يتجاوزان بقعة من الأرض ولا أمة من الناس . ولكن ذاك ينبسط على كل مكان فيه لله ذكر ، ويهيمن على كل إنسان له فى الإسلام فكر . وعلماء الدين هم الطوائف التى نفرت من كل فرقة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم . فإذا تفقهوا ولم ينذروا أنكروا ما خلقوا له ، وعصوا ما أمروا به . وليس الإنذار أن يلهجوا بذكر الحساب والعذاب ، وإنما الإنذار أن ينهوا المخطىء ، ويوجهوا الحائر ، ويرشدوا الغوى ، وينصبوا فى مجاهل الأرض أعلام الطريق .

ولو كان علماء الإسلام يعملون لكان لهم مثل ما للمبشرين والمستعمرين والمستشرقين من

المؤتمرات التى تعقد العـــام بعد العام ، فى الدولة بعد الدولة !

ولقد كان من سنة التحويل التى استنتها الثورة أن قضت على هذا الجمود بإنشاء مجمع البحوث ومؤتمره ، ودعم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وجهازه ، ليكون منهما للإسلام مؤتمران يجمعان زعماء الرأى فى أهله ، ليجددوا ما درس منه ، ويوضحوا ما التبس فيه ويتفقوا على ما يجرى العمل عليه ، وينفوا عنه ما غشيه من أباطيل القرون وأضاليل النحل ، ويجلوه للناس كما كان صالحاً للحياة ، حافزاً على العمل ، كافلا للفوز ، ضامناً للوحدة .

ذلك بعض ما يرجوه كل عربى ويأمله كل مسلم من وزير الدين والخير ورجل الإصلاح والعمل ، وما ذلك على العامل الصادق بعزيز .

أحمد حسن الزيات

السد العــــــالى

احتفل فى يوم الجمعة الموافق ١٥ مايو سنة ١٩٦٤ بتحويل النيل عن مجراه الأصلى إلى قناة التحويل احتفالا تاريخيا لم تشهد له البلاد مثيلا حضره مع الرئيس جمال عبد الناصر القادة العرب ورئيس حكومة الاتحاد السوفيتى وممثلون من جميع أنحاء العالم .

وبذلك تكون قد تمت مرحلة هامة من مراحل تنفيذ هذا المشروع العظيم يمكن عندها حجز مياه إضافية أمام السد الجديد يستفاد منها فى تحويل رى الحياض إلى رى دائم الأمر الذى يؤدى إلى التوسع الزراعى وهذه أولى ثمرات المشروع .

ومن المزايا الكبرى التى حققها مشروع السد العالى الكسب العالمى العظيم لشعب الجمهورية العـــربية المتحدة ، إذ تغلب بإرادته وإصراره على أعتى الدول الاستعمارية التى وقفت فى وجه المشروع وكان الدرس المستفاد من وراء هذا أن بإمكان الدول الصغيرة التى حباها الله بالقيادة المخلصة والشعب المؤمن أن تحقق النصر الكامل على أقوى الدول ذات العتاد والسلاح والقوى البشرية الكبيرة ، وفى هذا يقول السيد الرئيس فى إحدى خطبه : « إن السد العالى لن يبنى بالصخور ولكن بإرادة مصر وتصميم شعبها » .

ولعله من المناسب أن نشيد بالمعونة الصادقة التى قدمتها حكومة الاتحـــاد السوفيتى للمساهمة فى إقامة المشروع الذى سيوفر بعد تمامه زيادة على ما ذكر طاقة كهربية هائلة تبلغ ١٠ مليار كيلووات ساعة سنويا كما سينتزع ما يقرب من مليونى فدان من أراضى الصحراء ويحولها إلى مزارع خضراء .

التطورات التشريعية للطلاق

للأستاذ محمد محمد المدنى

— ١ —

الطلاق فى اللغة :

هو فك القيد عن المقيد حسا أو معنى .

يقال : أطلقت البعير من قيده ، أى حللته عنه ، وأطلقت الأسير من إساره ، أى خليت سبيله ، والطليق أيضا : العبد الذى نال حريته فخرج بها من قيود الرق .

ويستعمل الطلاق أيضا فى معنى الترك والمفارقة ، فيقال : طلق البلاد ، أى فارقها ، وطلق القوم ، أى تركهم .

واستعماله فى إنهاء عقد الزوجية ملاحظ فيه كل من هذين المعنيين .

فالرجل يطلق زوجته ، أى يحلها من قيد الزواج ويفارقها ويتركها ، فهى طالق .

وقد سئل بعض العرب فقيل له : أطلقت امرأتك ؟ فقال : نعم والأرض من ورائها !

ويقال : رجل مطلاق ، أى كثير التطليق للنساء ، ومنه حديث على كرم الله وجهه : « إن الحسن مطلاق فلا تزوجوه » .

الطلاق فى اصطلاح الفقهاء :

والطلاق فى اصطلاح الفقهاء ينظر إلى هذا المعنى اللغوى مع إضافة بعض القيود : فهو « رفع القيد الثابت بالنكاح فى الحال أو المآل بلفظ مخصوص » .

فرفع هذا القيد فى الحال يكون بالطلاق البائن ، ورفعه فى المآل يكون بالطلاق الرجعى .

والمراد باللفظ المخصوص هو ما كان :

صريحا فى إفادة معنى الطلاق وحل العصمة مثل طلقتك ، أو أنت مطلقة أو أنت الطلاق .

أو كناية ، وهو ما يحتمل الطلاق وغيره ويترجح فيه معنى الطلاق بالقرائن ، أو بالنية كأن يقول لها : « أنت خلية » أو « برية » أو « مطلقة » بسكون الطاء من الإطلاق ، أو « حرام » .

والفرق بين « مطلقة » بتشديد اللام وفتح الطاء ، و « مطلقة » ـ بسكون الطاء : أن الأول من « طلق » وقد غلب استعماله فى حل العصمة ، فصار حقيقة عرفية ، أما الثانى فمن « أطلق » ويغلب استعماله فى الإطلاق من القيود الحسية ، فلا ينصرف إلى حل العصمة إلا بمرجح لذلك .

الطلاق فيما قبل الإسلام :

مبدأ الطلاق معروف ومسلم به إجمالا فى الأمم والشعوب قبل الإسلام .

فقد كان جائزا عند قدماء اليونان ، وكان للرجل أن يطلق المرأة ، وليس لها أن تطلب التطليق .

ودلت بعض العقود التى عثر عليها عند الجرمان على أن الطلاق كان جائزا عندهم إذا اتفق عليه الزوجان .

وأجاز قدماء الرومان الطلاق للزوج والزوجة كليهما ، ثم أدركته بعض التطورات التشريعية عندهم ، فألغى حق الزوجة فيه وقصر على الزوج ثم أعيد هذا الحق مرة أخرى للزوجة ، ثم جعل بالاتفاق بين الزوجين .

« والشريعة اليهودية تجيز الطلاق ، ولا تمنع الرجل من طلاق زوجته ولو بغير سبب سوى رغبته فى التزوج بأجمل منها ، إلا أنه لا يليق برجل من أهل الخير والمعروف أن يقدم على الفراق بدون سبب يستوجب الطلاق ، والأسباب التى يحل معها الطلاق هى الزنا والعقم وعيوب الخلقة أو الخلق .

بل أوجبوا على من لم يرزق من زوجته بذرية بعد معاشرتها عشر سنوات أن يفارقها ويتزوج بغيرها .

وإذا طلقت الزوجة ، ثم اقترنت بزوج آخر ، ثم طلقت منه أو مات عنها ، فلا يجوز للأول أن يتزوجها مرة ثانية ، وقد ورد فى سفر التثنية (إصحاح ٢٤ - ١ عدد ١ - إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه ، لأنه وجد فيها عيب شىء ، كتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته عدد ٢ فإن أبغضها الرجل الأخير كتب لها كتاب الطلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة لا يقدر زوجها الأول الذى طلقها أن يعود ليأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست » .

٥ - أما الشريعة المسيحية فلا تجيز الطلاق إلا لعلة الزنا ، ومن نصوص إنجيل متى (الإصحاح الخامس) . عدد ٣١ : « وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا أقول لكم ، إن من طلق امرأته لا لعلة الزنا يجعلها تزنى ، ومن تزوج مطلقة فإنه يزنى » .

ويعللون هذا الحكم فى الشريعة المسيحية بأن الزواج سر مقدس من الأسرار الإلهية التى تتم مرتبطة بالطقوس الدينية تعبيرا عن ارادة الله ، فإذا كان انحلال الزوجية بإرادة أحد الزوجين أو باتفاقهما فقد غلبنا إرادتهما على الإرادة الإلهية .

ولقد ظهر لكثير من المشتغلين بشئون الأسرة أن هذا الحكم شديد ينبغى إعادة النظر فيه تيسيرا على الناس ، وبذلت بعض المحاولات للتوصل إلى نوع من هذا التيسير كأن يكون الاتفاق والتراضى بين الزوجين سببا من أسباب التطليق يعرض على سلطة فتجيزه أولا تجيزه ، ولكن هذا لم يستقر عليه الأمر بعد ، لأنه يصطدم بقواعد الشريعة المسيحية .

وهناك عادات وتقاليد وتشريعات وضعية غير هذا كله فى مختلف الشعوب قديما وحديثا تتفاوت قربا وبعدا فى شأن الطلاق بالنسبة

لما ذكرنا ، وليس من منهجنا فى هذا البحث أن نطيل ذكرها وبيان ما فيها من تفاصيل .

بيد أنه لا بد من ذكر خلاصة لما كان عليه أمر الطلاق عند العرب فى الجاهلية لشدة ارتباط ذلك بما ورد نقدا له أو نهيا عنه فى مصدرى الشريعة الأساسيين وهما القرآن والسنة .

فقد كان الطلاق معروفا مسلما به عند العرب فى الجاهلية ، وكانت لهم فيه عادات وانحرافات.

منها : أن الطلاق لم يكن له حد ولا عدد معين فالرجل يطلق امرأته كما يشاء ، وفى أى وقت يشاء ، ولو تكرر ذلك عشرات المرات

فإن كان الطلاق لمغاضبة عارضة عاد الزوج بعد أن يسكن غضبه وتهدأ نفسه ـ فراجع زوجته قبل انقضاء عدتها واستقر معها ، وإن كان لمضارة المرأة ومكايدتها ، طلقها ثم أعادها قبل انقضاء عدتها ثم طلقها ثم أعادها ... وهكذا .

وكان النساء يلاقين من ذلك حرجا كبيرا فلا تعد المرأة نفسها مطلقة ولا متزوجة ولا تشعر بأن حياتها سعيدة أو شقية ، إنما هى فى يد الزوج يتحكم فيها كما يشاء دون أن يكون لها أى حق فى الاعتراض عليه ومحاولة وقفه عن طغيانه .

ومما يدل على ذلك ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : « كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ، ثم يفعل ذلك يضارها ويعضلها أى يمنعها بذلك من أن تتزوج من غيره إذا تم طلاقها منه .

وقد استمر هذا يحدث حتى أبطله الإسلام .

روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : « كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلق وهى امرأته إذا راجعها وهى فى العدة ، وإن طلقها مائة أو أكثر ، حتى قال رجل لامرأته : والله لا أطلقك فتبينين منى ، ولا آويك أبدا قالت وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك ، فذهبت المرأة فدخلت على عائشة رضى الله عنها فأخبرتها بذلك ، فسكتت حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم فأخبرته ، فلم يقل شيئاً حتى نزل قوله تعالى : « الطلاق مرتان : فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون . فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره »

وفى رواية مما روى به ذلك عنها : « قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلا : من كان طلق ، ومن لم يكن طلق ، أى ساروا فى مستقبل أمرهم على ما شرعه الله تعالى من ذلك ، سواء منهم من كان قد سبق له الطلاق على غير هذا الحد ، ومن لم يكن طلق .

ومن انحرافات الجاهلية فى شأن الطلاق أيضا ، أن الرجل كان يطلق زوجته ثم يدعى أنه إنما طلقها لعبا ولهوا ولم يرد الطلاق ـ

ويدل على ذلك ما ورد فى أسباب النزول ، بما أخرجه ابن أبى عمر فى سنده ، عن أبى الدرداء قال : « كان الرجل يطلق، ثم يقول لعبت ، ويعتق ثم يقول ، لعبت ، فأنزل الله تعالى قوله : « ولا تتخذوا آيات الله هزوا » .

ولقد أنف بعض النساء فى الجاهلية تحكم الأزواج فى زوجاتهن بأسلوب العضل والمضارة الذى ذكرناه ، فكن يشترطن على أزواجهن أن يكون أمرهن بأيديهن ، إن شئن أقمن وإن شئن تركن معاشرتهم وأوقعن الطلاق، وذلك لقدرهن وشرفهن واعتزازهن بما لهن من كرامة ، ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو ابن زيد الخزرجية ، وفاطمة بنت الخرشب الأنمارية وعاتكة بنت مرة ، وغيرهن .

وكان لهؤلاء النساء وأمثالهن ممن جعلن أمرهن بأيديهن عادة طريفة إذا أردن تطليق أزواجهن ، وتلك هى تحويل باب الخباء ، فإن كان بابه قبل المشرق ، حولته المرأة قبل المغرب ، وإن كان بابه إلى جهة اليمن ، حولته إلى الشام، فإذا عاد الرجل إلى الخباء فرأى ذلك ، علم أنها قد طلقته، فرجع من فوره ولم يدخل .

وكان الجاهليون يعرفون أنواعا من الطلاق وهى :

١ — الطلاق المعروف ، ويكون بلفظ « أنت طالق، أو حبلك على غاربك، أو اذهبى، حيث شئت » ، أو « أنت مخلى كهذا البعير » .

٢ — الإيلاء وهو الحلف على ترك قربان المرأة مدة ، وغالبها عندهم سنة أو سنتان .

٣ — الظهار ، وهو تشبيه الرجل زوجته بمحرمة عليه ، حرمة تأبيد ، كأن يقول لها : « أنت على كأمى » ، أو « كظهر أمى » ، — ولما كثر التعبير الثانى فى هذا النوع سمى « ظهارا » .

٤ — الخلع وهو الطلاق فى نظير مال تبذله المرأة لزوجها ، أو فى نظير إعادة ما دفعه لها من مهر ، وقد رووا أن عامر بن الظرب زوج ابنته من ابن أخيه ، فلما دخل عليها نفرت منه ، فشكا إلى أبيها ، فقال له : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

* * *

ويتبين مما ذكرنا أن العالم قبل الإسلام كان يتنازعه مبدءان :

أحدهما : عدم الاعتراف بمشروعية الطلاق إلا فى حالة واحدة ، هى حالة الزنا من أحد الزوجين .

الثانى : الاعتراف بمشروعية الطلاق ، على تفاوت فى تقرير هذه المشروعية ، بالنسبة لصاحب الحق فيه ، وللظروف التى يستعمل فيها هذا الحق ، والأسلوب الذى يكون به ، وأن هذا التفاوت قد وصل فى بعض المجتمعات إلى حد التعسف من قبل الزوج ، رغبة فى اضطهاد المرأة ، وإهدار كرامتها الإنسانية وحقوقها الزوجية ، بل إلى حد التلهى بالطلاق واتخاذه هزوا ولعبا

فماذا كان موقف الإسلام ؟ (يتبع)

محمد محمد المدنى

الموطأ للإمام مالك

للأستاذ الفاضل بن عاشور

تمهيد :

لئن كان القرآن الكريم ، نبع نهر الثقافة الإسلامية ، فإن تحت القرآن كتبا فصلت حكمته ، وأشاعت هديه ، ثبتت ما أحكم فيه ، وفصلت ما تشابه منه .

وإن الثقافة الإسلامية لم يبلغنا سيلها سلسالا عذبا فراتا ، إلا بعد ما امتزجت ولائد تلك الكتب ، بأمهات الحكمة القرآنية فربتها وانقلبت بها كوثرا ـ وإن لم تكن بدونها ثمدا .

فهلم بنا نقف على تلك الكتب ، وقفات ترينا تكونها ، وتصرفها ، وصور ما ضمنت من معان تخريجية ، وتوجيهات تربوية ، هي التي تكاملت الثقافة الإسلامية بها بحيث لا ينفرد واحد منها بتكوين تلك الثقافة ولا تتقوم تلك الثقافة بالخلو عن واحد منها .

فإن الثقافة ليست المعرفة ، ولكنها كيفية نفسية تنطبع عليها المدارك والمعارف بحيث يكون إدراك كل ذي ثقافة لحقيقة من حقائق الوجود ، أو مطلب من مطالب المعرفة ، مختلفا في كيفيته ، عن إدراك ذي ثقافة أخرى ، فتختلف الثقافات ، ولا تختلف المعلومات ، ولذلك قيل : إن العلم لا وطن له ولا قومية ، أما الثقافة فهي بنت القوميات وربيبة الأوطان .

فالكتب التي نعتبرها ، روافد الثقافة الإسلامية ، لم يثبت لها هذا الاعتبار بجمعها معلومات عن الإسلام ، أو تقريرها أحكامه وآدابه ، ولكنها كتب ضمنت من الصور وجمعت من المثل ، وفصلت من الدقائق وقربت من الأذواق ، ما يتكون من مجموعه أثر نفسي ، يحصل من الاتصال بذلك الكتاب ترتقي به النفس على صورة من الإدراك ، تتكامل أجزاؤها من بين ذلك الكتاب وأمثاله حتى تحصل فيها الكيفية التي يختلف بها إدراك المسلم للمعاني والحقائق ، عن إدراك غيره فتلك هي الثقافة الإسلامية ، وتلك روافدها .

الموطأ للإمام مالك :

حقا ، إنه ليس لنا ، معاشر المسلمين ، فيما للأمم من كتب ، إلا كتاب واحد وهو القرآن وإن الحرص على أن يبقى ذلك الكتاب لا ريب فيه ، ساميا عن أن يدنو غيره من منزلته ، لم يزل شأن الملة الإسلامية ، أخلافا عن أسلاف .

ثم إن من يذكر ما وقع فيه أهل الأديان المتقدمة من زيغ وباطل وضلال ، حين كتبوا الكتب المتضمنة غير الوحي الإلهي فتعبدوا بكلمتها واتخذوها صحف الملة ، ومرجع الدين ، وقدسوها وعكفوا عليها وألزموا الناس باتباعها ، ومن نفذت إلى روحه قوارع القرآن العظيم في نعيه على هؤلاء فعلهم ، فاقشعر جلده من خشية الله أن يصيبه بما أصابهم ليشتد حذره من ذلك ، ويقوى حرصه على أن يباعد ما بينه وبين الشبه بهؤلاء الذين ورد فيهم مثل قوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » .

كذلك مضى السلف الصالح لهذه الأمة الإسلامية ، على أن يحموا عقيدتهم من أن تتعلق بأثارة من علم مكتوب تنزل من عقيدتهم منزلة الشيء المخالط لكتاب الله تعالى ، أو المعقب له مثل ما وقع في مخالط التوراة والإنجيل وعقب عليهما . من التلمود والمشنا بالنسبة إلى العهد القديم ، أو أعمال الرسل والرسائل بالنسبة إلى العهد الجديد .

ولما كتبت المصاحف ، كان الحرص قويا على أخذ الحيطة من أن يوضع مع كلام الله غيره ، مجموعا إليه بين دفتي مصحف واحد .

ومن ذلك ما يؤثر عن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، من أنه لم يرتض من سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فعله في كتب القنوت والتشهد وغير ذلك في مصحفه حاشاة للمصحف الكريم عن أن يشمل شيئا غير القرآن ، فإن عثمان وإن كان يعلم أن عبد الله بن مسعود لا يغلط فيعتبر من القرآن ما ليس منه ، وأن عبد الله لا يختلف مع عثمان في ذلك فإن فيمن سيأتي به الزمان من الأخلاف ، من قد يغلط في ذلك أو يبتدع فيه ، فيئول به غلطه أو ابتداعه إلى ان يختلط كلام الناس بكلام الله ، اختلاطا يلزم الأمة من أمر ذلك ما لا يلزمها في دين الله ، كما وقع من الذين مضوا قبلنا ممن جعلهم الله عظة لنا .

وكذلك كلما جاءت الرغبة في أن تجمع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأعماله تحسن لرجال من القائمين بخلافته في أمته من بعده ، كتابة ذلك ، قامت الخشية من الفتنة ، والحرج من البدعة ، ما نعا من إنجاز تلك الرغبة ، لاسيما إذا كانت الكتابة من الصحابة الذين جاء بتزكيتهم القرآن وأجمعت الأمة على أنهم قدوتها ، وأن أحدا من سواهم لا يبلغ مقامهم في الدين ولا يدانيه .

فكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كلما خطر له خاطر كتابة الأحاديث

والسنن النبوية ، استشار واستخار ، ثم أحجم عن ذلك شاكا ، وأعرض عنه قاطعا يقول . « ذكرت قوما من قبلكم كتبوا مع كتاب الله كتبا ، فاكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء » .

ولقد كان فى هذه الصرفة الإلهية ، قانون فاصل ناهيك به من فاصل ، بين القرآن العظيم الذى هو نبع نهر الثقافة الإسلامية ، وبين ما أتى بعده من روافد انصبت إلى ذلك النهر هو فاصل قرن كامل ، ينتظم ثلاثة أجيال من الأمة . الصحابة والذين يلونهم ، والذين يلونهم لم يكن فيه للدين من كتاب غير القرآن ، وكان مع ذلك انتشار الدين مطردا ، ودولته متسعة وفقهاؤه مجتهدين فى إقامة شريعته . وطريقة رسولهم الأعظم صلى الله عليه وسلم ، فى تقرير احكام الدين والاجتهاد فيه ، موقرة فى نفوسهم لا يرجعون فيها إلى سفر ، ولا ينشرون لأجلها صحيفة .

وكانت أقوال الرسول وأعماله وتقريراته ، تصل إلى المجتهدين بطريق الرواية الفردية معرضة إلى ما تتعرض إليه الروايات والأخبار من تحر فى النقد ، وحاجة إلى الأخذ والترك ، والتعديل والتجريح حتى حصل من تتابع ذلك ، جيلا فجيلا ، شعور بأن ليس للفقه فى الدين مرجع ضرورى بعينه ، إلا ماتطابقت عليه الروايات تطابقا أحله بمحل المنقول بالتواتر ، أو ما تواردت عليه أقوال المجتهدين تواردا تدرج به فى سلم مراتب الاجماع ، بحيث أصبحت العلوم المستند إليها فى تقرير الأحكام الفقهية وليست جزئيات قطعية الأعيان فى ذاتها يرجع إليها كما يرجع إلى نصوص القوانين ، ولكنها خلاصات كلية نشأت من استقراء موارد التصرفات النبوية فى تطبيق أحكام الدين ، من باب الفقه ، وما الفقه إلا استنباط من مدارك الشريعة أو أصولها التى هى الدلائل الإجمالية المستمدة من كلام الوحى . والسنة فى ذلك مثل القرآن لأنها أيضا وحى يوحى . ولكن ليست السنة مادة تلقينية للفقيه يجد فيها الأحكام مفصلة تفصيلا جزئيا ، ولكنها مادة تخريجية يستنبط منها الفقيه الأحكام التى يكون هو واضعها فى مجالها بصورة جزئية فممارسة السنة ، إذن ، أمر ضرورى لا يتم للفقيه عمل بدونه ولكن السنة لا تقرر بذاتها الحكم الشرعى تقريرا مباشرا جزئيا . حتى ينضم إليها عمل الفقيه ، الذى هو النظر والفهم ، وتحقيق الصور بمتفقاتها ومفترقاتها ، ونقد طرق الرواية وتأويل المختلف منها بالجمع أو بالترجيح ، فممارسة الفقيه لجزئيات السنة تكون فيه أثرا هو أقرب إلى الآثار التوجيهية التربوية ، بحيث لا يمكن أن يعتمد تلك الجزئيات جميعها

ولكنه يتصرف بالملكة الحاصلة من جميعها فالصرفة الإلهية التي تأخر بأمرها تدوين السنة إلى منتصف القرن الثاني هي التي هيئت الأمة لإدراك مقام السنة من التشريع حتى لا يخيل إليها أن هناك كتابا لازما لتقرير أحكام الدين لزوم القرآن أو قريبا منه حين تدرك أن السنة لم تدون بالكتابة إلا بعد مضي الفقه أشواطا مستندا إليها متصرفا فيها وبعد أن استوى الناس بانقراض الصحابة فلم يبق فيهم إلا راد ومردود عليه فبذلك تكونت داعية تدوين السنة ناشئة من الفقه، بعد أن أمن الفقهاء من أن يكون في كتابة السنة في منتصف القرن الثاني ما كان يخشى من ذلك في أوائل القرن الأول، فلما قام الفقه، واستقرت المذاهب، وتأصلت حركة الاجتهاد جاء تصنيف السنة تصويرا لعمل الفقهاء وشد للأثر بالنظر، وتقريبا للناس من إدراك مقام الاجتهاد، ومخالطة عمل المجتهدين، إذ يريهم ما أخذوا به من السنن، وكيف تصرفوا في فهمه التصرف الذي أنتج لهم ما قرروا من الأحكام. ولذلك لم يزل الناس يجدون في كتب السنة الأولى تجاذب ناحيتين: يتركهم متسائلين عن أيتهما تغلب، ويمثل ذلك نظروا إلى أول هذه الأوضاع السنية وأقدمها وهو الموطأ فلم يزالوا يتساءلون هل الموطأ كتاب فقه أو هو كتاب حديث.

«ليس العلم بكثرة الرواية وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء». بهذه الكلمة خط الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه منهجه في العلم، وعليها بنى صنيعه في كتابه الذي ابتدأنا به، في روافد الثقافة الإسلامية، كتاب الموطأ: فقد جعل هذا الكتاب قليلا من كثير، هو القليل الذي أثبته، وحدث به وأشاعه في الناس من الكثير الذي رواه وحفظه وكتبه، ثم تركه فلم يحدث به ولم يعتمده، وحال بينه وبين الناس وبذلك كان مالك لهذه الأمة إماما هاديا أراها كيف تخدم الفقه بالعلم وتجمع بين الأثر والنظر، وتقيم معيار النقد للأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يختلط عليها من أمر دينها، ما ينافي عصمته، ويخل بأحكامه.

فلقد شاع الاهتمام بآثار النبي صلى الله عليه وسلم، قولا وفعلا وإقرارا شيوعا ملأ القرن الأول اهتماما بالأثر، وانصرافا إلى السنة وشاع الاهتمام بآثار الصحابة وأقوالهم وهديهم شيوعا وسع نطاق الأثر، وضخم ثروة السنة في ذلك القرن وكان من طبع هذا الشيوع بما قارنه من قصد إلى ترك التدوين وانصراف عن كتابة الحديث بل وتحذير منها لما شرحناه من أسباب ذلك، أن النقل الذكرى للآثار السنية قد تعرض إلى شيء كبير من

الاختلاط أحوج إلى تمحيص دقيق و نقد عميق، و لقد اهتم العلماء ببيان مداخل الاشتباه وعوامل الضعف وأسباب الوضع بما أغنى ويغنى وقارن كثرة تلك العوامل من موجبات الاختلاط حب بليغ فى نفوس الأمة الإسلاميه لنبيها الأكرم وشغف بأخباره وآثاره على نحو ما قال سلطان العاشقين :

أسعد أخى وغنى بحديثه
وانثر على سمعى حلاه وشنف
لأرى بعين السمع شاهد حسنه
معنى فأتحفنى بذاك وشرف

وفى هذه العاطفة الكريمة ما يغطى على كثير من مداخل الخطأ فى الحديث منه . ويمهد سبلا لرواج أحاديث لم يتقنها ومواقع النقد حسن الظن ، وزيفها سوء القصد .

على أن فى المعارف المستخلصة من تأويل مختلف الحديث المختزنة فى قلوب أهل الفقه والرأى بما قذف الله فيها من أنوار ما هو كفيل بتخليص الزيف من الصحيح وتمييز الحق من الباطل وأنها حقا لطريقة مثلى ، ومنزع غريب تلك التى يتمكن بها فكر المستنير من تتبع جزئيات نظرية ظنية حتى يستخرج من استقرائها معارف يقينية ضرورية ثم يستمد من تلك المعارف التى صارت عنده ضرورية مقاييس نقدية سليمة ينعطف بها على نفس تلك الجزئيات التى استقراها أولا فيتمكن من تقويم بعضها ، وتعديل بعض وإلغاء بعض آخر مستمصما فى ذلك التقدير النقدى ، بما استقر فى خلده من معرفة يقينية حاصلة من مجموع تلك الآثار ، وليست ماثلة فى جميعها .

ذلك هو المنوال الذى نسج مالك ابن أنس عليه موطأه ، وذلك هو المهج الذى وصفه وقربه للناس فوثقوا به ، وأقبلوا عليه ، وقوموا به علما إسلاميا جليلا : هو علم الحديث الذى ليس هو كما يظن الواهمون رواية المتون والاسانيد ولكنه البصر فى نقدها ، وطول الباع فى تناول الثابت منها وطرح الزيف المخالط لها ، وقديما قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع » .

ومن هنا سلك المنوهون بكتاب الموطأ والمعرفون للناس بعظيم شأنه فى الدين مسلك المقارنة بين ما روى مالك وما خرج فيه وانتهجوا نهج التدليل على مكانته ببيان ما حذف منه بعد ما أثبت ، وما نقص بعد ما وفى فقد نقل القاضى أبو بكر بن العربى فى كتاب عارضة الأحوذى شرح صحيح الترمذى : أن مالكا روى مائة ألف حديث جمع منها فى الموطأ عشرة آلاف ثم لم يزل

يعرضها على الكتاب والسنة ويقارنها بالآثار والأخبار حتى رجعت إلى خمسمائة . ونقل القاضي عياض في المدارك أن مالكا وضع الموطأ وفيه أربعة آلاف حديث أو أكثر ومات وهي ألف حديث ونيف يخلصها عاما بعد عام بقدر ما يرى أنه أصلح للمسلمين وأمثل في الدين .

وكان هذا العمل التمحيصي النقدي الذي أتاه مالك في الموطأ مبنيا على أن بيئة الفقه في المدينة قد حوت من مختلف الآثار ورسوخ السنن المتصلة ما يمكن القائم على فقه مجتهديها أن يجعل من مجموع المروي عنهم سندا لتصرفه في الأحاديث بالنقد والتمحيص وذلك مرجع مذهبه في الاحتجاج بعمل أهل المدينة احتجاجا يسمو منزلة على منزلة أخبار الآحاد لأنه ليس شيئا مأثورا عن واحد، وإنما هو معرفة مستنبطة من مجموع أشياء مأثورة عن كثيرين ففي الموطأ أثر نبوي ، وفيه مدارك اجتهادية متلاقية بين الفقهاء من الصحابة فمن بعدهم ، وفيه سنن عملية مأثورة منقولة بطريق الاستفاضة عند أهل المدينة وفيه اجتهادات شخصية لمالك . فالآثار النبوية بعضها منقول بطريق الإسناد ، وهي ستمائة حديث موصولة سلسلتها من مالك إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذكر أسماء الرواة واحدا عن واحد ذكر تعيين وهي التي اعتمدها جميع المحدثين ، وزكوا أسانيدها وخرجوها عن مالك في كتبهم ، ورويت عنه في صحيحي البخاري ومسلم .

ومنها أحاديث لم تتصل أسانيدها إما لعدم التصريح بسماعها من النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي الموقوفة . أو لعدم تعيين الصحابي الذي سمعها منه ، وهي المرسلة وهذه الأحاديث الموقوفة والمرسلة التي في الموطأ ، وإن لم يروها رجال الصحيح ، بعد مالك عنه ، لأنهم يختلفون معه في الاستدلال بالمرسل والموقوف ، إلا أنهم رووها من طرق أخرى ليس فيها وقف ولا إرسال فثبتت من تلك الطرق عن غير مالك موافقة لما خرجها به مالك مرسلة أو موقوفة ، فكان ذلك آية توثيق ، وحجة تزكية زائدة لحديث مالك عند أهل الصحيح ، بحيث أن كل ماورد في الموطأ ، مرسلا او موقوفا . قد ثبت مسنداً عند أهل الصحيح ، إلا أربعة أحاديث معروفة . وأما المدارك الاجتهادية المتفق عليها فهي التي يقول مالك فيها « الأمر الذي أدركت عليه أهل العلم ببلدنا» ويقول «الأمر المجتمع عليه عندنا» . وأما السنن العملية المأثورة فهي التي يقول فيها : «الأمر عندنا» . وأما اجتهاداته الشخصية فهي التي يقول فيها « في ما نرى والله أعلم » .

وقد حمله جمعه لهذه الفنون من العلم على

اختلافها أن يسلك بينها مسلك الترجيح الذى لا يعتمد على سلامة الإسناد ، وثقه الرواة وإتقانهم فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى النظر فى المعانى . والاجتهاد فى الأقيسة والاستحسانات ، حتى ينتهى به ذلك إلى أن يروى الأحاديث مسندة من أوثق السلاسل عنده ، وهى السلسلة المشهورة عند علماء الحديث بسلسلة الذهب ، مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر ، فيخرج بها حديث « المتبايعان كل واحد منهما بالخيار على صاحبه ما لم يتفرقا » ثم يقول « وليس لهذا عندنا حد معروف ولا أمر معمول به » . فيبقى الحديث المروى بمنزلة التعطيل مع كونه سليم الإسناد عملا بمقتضى المعارض له من سنة عملية مشهورة ، واجتهاد بالرأى . فعلى ذلك بنى الموطأ على الاختيار ، والنقد ، وشد الأثر بالنظر ، ومعارضة الأخبار والأقيسة والآثار والاجتهادات بعضها ببعض . فروى عنه الآثار من وافقه على عاملها ومعانيها ، ومن خالفه فى ذلك . فكان الرواة عنه من المخالفين له فى المعانى والمحامل ، مجردين للأحاديث مما اتصل بها من فقه ، أو مصرحين بالمخالفة فيه ، فهم مقتبسون من الكتاب اقتباسا لا آخذون بجملته ، لأنه فى جملته كتاب فقه لا كتاب حديث ، لم يقصد منه تبيين ما روى ، وإنما قصد منه تحقيق ما اجتهد ، وإسناد ما نظر ، فما مورد الأحاديث فيه إلا مورد الأدلة للفقه ، والمدارك للأحكام .

« للبحث بقية »

الفاضل بن عاشور

محاورة بين الحجاج وأعرابى زاهد

قال الأصمعى : خرج الحجاج ذات يوم فأصحر ، وحضر غداؤه ، فقال : اطلبوا من يتغدى معنا ، فطلبوا فلم يجدوا إلا أعرابيا فى شملة ، فأتوه به ، فقال له : هلم : قال له : دعانى من هو أكرم منك فأجبته قال : ومن هو ؟ قال : الله تبارك وتعالى دعانى إلى الصوم فأنا صائم . قال : صوم فى مثل هذا اليوم على حر ؟ قال : صمت ليوم هو أحر منه . قال فأفطر اليوم وصم غدا . قال : ويضمن لى الأمير أن أعيش إلى غد ؟ قال : ليس ذلك إلى . قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل ليس إليه سبيل ؟ قال : إنه طعام طيب . قال : والله ما طيبه خبازك ولا طباخك ، ولكن طيبته العافية . قال الحجاج : تالله ما رأيت كاليوم أخرجوه عنى .

نفحات القرآن

مقام النبوّة فوق سفاهة السّفهاء

للأستاذ عبد اللطيف السّبكي

(ا) ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن .
(ب) قل أذن خير لكم يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم .
(ج) والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم .

١ — نرى للقرآن الكريم حملة مستمرة على النفاق والمنافقين .

وإذا شئت أن تتقصى معايب هؤلاء المسخوطين وجدت نفسك أمام ظلمات بعضها فوق بعض .

ووجدت من شنائعهم ما ينزل بهم عن المستوى الإنسانى ، بل ما يخرج بهم عن الآدمية المتعقلة .

كانوا لا يكفون عن سفه القول عامة ، ولا عن الغمز فى شخصية الرسول ولا أهله ولا أصحابه .

وكيفما استطاعوا فهم هدامون للإسلام قديما .

وعلى منهجهم يسير المنافقون المقلدون .

وطالما تكلمنا وتكلم أسلافنا ومعاصرونا عن المنافقين ، ومخازيهم فى الدين ، وفى المجتمع .

وفى الآيات التى معنا شىء من مساوئهم وهيهات أن تنتهى مساويهم إلى حد من الإسفاف .

٢ كانوا فيما بينهم يتناولون الرسول بالغمزات والمطاعن ، فقال قائل منهم - يوما لا تتحدثوا بهذا لئلا يبلغ محمدا ما نقوله ، فيفعل بنا ما نكره .

فأجابه من أجاب : إذا عرف محمد : أنكرنا وحلفنا له على النفى ، ومحمد يصدقنا فيما نقول له دائما . لأنه أذن ، يعنى يسمع ، ويصدق دون تمييز بين صدق وكذب .

ولفظ الأذن مبالغة منهم فى وصف النبى بكثرة ما يسمعه ، حتى كأنه كله أذن للسمع .

والله تعالى يكشف لرسوله عن هذه النجوى الممقوتة، ويلقنه الجواب الحاسم فى قوله :

(ب) قل : هو - الذى تتحدثون عنه فى نجواكم أذن حقا كما تصفونه ولكنه أذن خير لكم، يسمع من جانب الله ما يبلغكم ليهديكم به ، ويطاولكم بحلمه ، فيصدق ظاهراً ما تدعونه من الإيمان ، ويقبل اعتذاركم حينما تعتذرون عن الجهاد ، ويتيح لكم أن تجلسوا فى مجلسه ، ولا يفضح أمركم ولا يعاملكم بما تستحقون من تنكيل ..

وهذه مرونة الإسلام فى إمهالكم ، وسياسته فى الدعوة إلى الإيمان كما أمر الله ، حتى تكون منكم توبة وتصديق ، أو يكون لله شأن فيكم .. وذلك كله خير لكم لو تعقلتم !!

والنبى أعز مكاناً مما تسفهون به ؛ فهو يؤمن بالله أصدق الإيمان ، فلا يزيغ كما تزيغون ، ولا يكذب على الله كما تكذبون .

وهو يؤمن ويصدق المؤمنين غيركم ، ويستجيب لهم عن طمأنينة .. لأنهم آخذون بأدب الإسلام .. فلا يتناجون بالسوء ، ولا يتعنتون فى سؤال ، ولا يتحللون من تشريع .

وهذه تزكية للمؤمنين، وفيها تعريض واضح ببعض نقائص المنافقين ، فوق ما سبقت له الآيات من حديث النجوى .

٣ - وفوق ما تقدم من تبرئة النبى ، ووصفه برسوخ الإيمان ، واطمئنانه إلى المؤمنين فهو رحمة من الله بالنسبة للمؤمنين ظاهراً ، حيث يفسح صدره لهم ، ويتغاضى عن أخذهم بما يستحقون .

وهو رحمة - كذلك - للمؤمنين الصادقين ، حيث كان سبب هدايتهم .

غير أنه رحمة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة . ورحمة فى الدنيا فقط للمنافقين .

وإذا كان النفاق والسفه نقيصة منكرة ، فهما مع الرسول أشد نكراً ، ووضاعة .

وما يكون غمزاً فى الرسول من ناحية شخصه أو رسالته ، أو أهله ، أو أصحابه : فهو بالنسبة إلى جانب الله أقبح من كل قبيح ، لأنه تكذيب صراح لكل ما جاء من جانب الله تزكية للرسول فى هذا ..

ولن ينال محمداً شىء من هذا السفه : لأنه فى عصمة الله من شوائب النقص ، وفى رعاية الله أن يعلق به شىء مما يقال على ألسنة السفهاء .

٤ - والله - تعالى - يتولى بجبروته جزاء السافهين على رسوله فيقول :

(ج) « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

أرأيت : أن الله يتوعد بالعذاب الأليم كل من يؤذى عبده ورسوله محمداً ، وإن كان النبى فى نجوة من علوق الأذى به ؟؟

إن مقام النبوة لأكرم على الله أن يقربه إنسان بسوء. فالويل لمن يحاول الغمز فى هذا المقام، ولو بتلويح من منكر القول وزوره، ولو كان الغمز عن طريق غير مباشر: كأهله، وأصحابه.

٥ — وقد أفاض القرآن فى الثناء على رسول الله، وعلى أهله، وأصحابه: حتى لا يستهين إنسان بتوريط نفسه فى المساس بجانب النبى — صلى الله عليه وسلم — من أى ناحية تتصل به.

وصفه القرآن بمناقب ثلاث: فقال: «عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم. بالمؤمنين رءوف رحيم». فالنبى صلى الله عليه وسلم يشق عليه أن يقع الناس فى مخالفة شريعته الحقة... وهو حريص على تحقيق النفع للمؤمنين... وهو بالمؤمنين شديد الرفق، فلا يكلفهم ما يصعب عليهم ولا يختار لهم إلا الأيسر من الطاعات. وهو رحيم بهم، فلا يواجههم بمكروه، ولا يدع سبيلا لليأس إلى نفوسهم وإنما يهون عليهم، ويجنح إلى التيسير فى دينهم وفى دنياهم. فمن كانت هذه صفاته فلا يليق الغمز فيه، ولا الغض من شأن أهله أو أصحابه فهذا يؤذيه.

٦ — وقد كانت للمؤمنين — قديما — بعض هفوات لا يلحظونها إزاء الرسول، ولكن الله علمهم حكمها: حفاظا على الأدب مع الرسول حتى لا يناله الأذى منهم، ولو عن غير عمد وانظر إلى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى: إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، غير ناظرين إناه. ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق!..

إلى أن قال: «وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا، إن ذلكم كان عند الله عظيما».

فهذه آية تزجرهم عن هفوات لم يكونوا يفطنون لها، حتى لا يدخلوا بيت النبى إلا بإذن، فإذا دعاهم إلى الطعام، جاءوا على موعده دون مبادرة عن وقته كثيرا فإن ذلك مدعاة الانتظار.. وهو غير لائق، ومدعاة التطلع إلى ناحية الطعام، وقد يقع النظر على غير ما يراد أن يعرف من شئون البيت وفى الآية أمر بالانصراف بعد الطعام.. دون إطالة فى الحديث. فإن كل ذلك كان يؤذى رسول الله، لما يجر إليه من المحذور. وخاصة فى تلك البيوت الضيقة التى لا تسمح بالمكث لغير أهلها والنبى كان يخجل أن يصارحهم بالانصراف، والله لا يستحى من مصارحة عباده بما هو حق، ويعلمنا ألا نتحرج من قول الحق.

٧ — وفى الآية نهى للمؤمنين عامة عن التزوج بإحدى زوجاته ، بعد أن يفارقها الرسول : حيا أو ميتا .. فيقطع الله ، خواطر من كان يحدث نفسه بذلك من المسلمين قبل معرفة الحكم ، ويصرح الله فى القرآن بأن هذا الإيذاء يعتبر عند الله جرما عظيما .

وهل كان يليق بمسلم أن يستحوذ على من كانت حليلة لسيد الناس ، وخاتم رسله ؟ ؟ أو كان يليق بمن كانت فى حيازة الرسول أن تنزل عن مكانتها من معاشرة النبى إلى معاشرة من دونه منزلة ، وأبعد من مكانته إلى غير حد يحيط به الخيال ؟ ؟

ولقد رفع الله منزلة زوجات الرسول ، حتى اعتبرهن أمهات المؤمنين ، وليس فوق مكانة الأم سموا فى التقدير ، والصيانة ، والمهابة ، وواجب المحبة الخالصة .

كذلك كان من ثناء القرآن على رسول الله وعلى أهله « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » وكان الصحابة يحبونه أكثر من أنفسهم ، ويذودون عن شخصه بأجسامهم ، وأرواحهم ، بما يخافونه على حياته .

فإنه خير للجميع ، وأولى بالحياة من أى إنسان سواه .

وأما نفس الإنسان فتأمره بالسوء ، وتجنح به إلى الهوى ، وقلما يكون منها اتجاه إلى الخير إلا بمحاولة الأخذ بتشريع محمد عليه السلام . فكيف لا يكون النبى أجدر بحبنا له .

وإن كانت محبة الإنسان لنفسه أمرا فطريا فإن هذه الفطرة بحاجة إلى تهذيب وتثقيف ، حتى يعلم المرء ما له وما عليه فى جنب الله ، ورسوله .

٨ — وكما أشاد القرآن برسول الله ، وأهله : فقد أشاد بصحابته ، وبشر بعضهم بالجنة وهو على قيد الحياة .. وشهد لهم بالاستبسال فى مقاومة المشركين ، واعترف لهم برضوان الله عليهم لصدقهم فى بيعتهم النبى تحت الشجرة يوم الحديبية « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » .

كما أفاض فى الثناء على جهادهم معه ، ونصرهم له ، وبذلهم الأرواح ، والدماء ، وتضحيتهم بالأموال ، واحتمال فرقتهم للأهل ، والوطن فى تأييد النبى ، وإعلاء كلمة الله ..

وإلى جانب الآيات فى كتاب الله : أوصى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأصحابه ، وحضنا على الاقتداء بهم فى تدينهم ، وفى علمهم ؛ لأنهم الأمناء على تراث النبوة .. ولهم فى الفضل والتكريم ما يسمو بهم على الغمز فيهم ، أو التشكيك فى سياستهم ، وما كان منهم إلا متابعة للكتاب والسنة ، وما اجتهدوا بعد الكتاب والسنة إلا ليهتدوا إلى الحق

ما استطاعوا وإن يكن لبعضهم مواقف تتسع النظر والتعليق : فهو اجتهادهم ، ولهم عذرهم.

وليس من صالح المسلمين قديماً ، ولا حديثاً أن تثير حول الصحابة خلافا ، ولا أن نقحم أنفسنا فى تلك المقامات التى رفع الله من شأنها وأسبغ عليها رضوانه .

٩ - وإن ناسا من خلق الله تجاوزوا قدرهم ، وتشيعوا لصحابى ، على صحابى ، وخرجوا عن أدب الإسلام ، وتمذهبوا بمذاهب فيها عصبية جامحة ، وفيها إسراف فى الاختلاق ، حتى تجاوزوا توجيهات القرآن والسنة ، وانحرفوا كثيرا عن الصواب .

وحتى رفعوا بعض الصحابة إلى مقام فوق مقام الصحبة ، ونزلوا ببعض الصحابة إلى المقام الدون ...

والصحابة جميعا كالنجوم بشهادة النبى لهم ، ويجب أن نتق الله فيهم كما أمر النبى بذلك . .

وعلينا أن نقتدى بهم ، فان الاقتداء بهم سبيل التقوى لله ، كما هو الأمر المنشود ...

١٠ - هذا التشيع وما يتصل به من أوضاع عقورة ، وما تعلق بذلك من تهريج فى الدين ، واختراع ما لا يستسيغه العقل من أباطيل الباطنية ، ونحوهم . كان ذلك كله شؤما على وحدة المسلمين ، وكان افتياتا على أصحاب محمد الذين أفنوا حياتهم فى دعم الوحدة الدينية .

وما رضى واحد منهم لنفسه أن يشذ عن الجماعة : إلا باجتهاد لا يظنه خطأ ، ولا شذوذا .

تسربت هذه الجرأة فى التشيع وامتدت عدواها إلى مسلمين معاصرين .

فأخذ بعضهم يسفه ويتحدث عن سنة محمد ، ويشكك فيها دون روية ، أو مهابة أو أثارة من علم يعتمد عليها .

فإذا سمعوا حديثا لا يفهمونه قالوا : غير معقول أن يكون هذا تشريعاً للمسلمين ؟ ؟

وإذا وجدوا صحابيا كثير الرواية عن رسول الله قالوا : هذا الصحابى متهم فيما يحدث به .

بل تطاول بعضهم فنشر فى الناس كلاما ينفى فيه أن السنة كلها من عند الله ، ويقرر فى جهالة أن الدين الإسلامى قرآن فقط . .

وهكذا من إرجاف المرجفين ، فيما يتعلق بالنبى ، أو برسالته أو بأهله ، وأصحابه .

وكل ذلك إيذاء للرسول بوجه مباشر ، أو غير مباشر .

وإن أوعد الله ، ووعيده لحق ، وصدق الله فى قوله : « والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

عبد اللطيف السبكى

وحدة الوجود والفناء فى الله وتناسخ الأرواح فى عقائد الدين البرهمى

للأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى

تقوم العقيدة البرهمية الهندية المقررة فى الأسفار المقدسة لهذا الدين وهى أسفار « الفيدا » وفى قوانين مانوا، المتحدة من هذه الأسفار على الدعائم الثلاث الآتية :

١ — وحدة الوجود : فالموجود بحق فى نظر هذا الدين هو الله تعالى وحده (براهما) وليست هذه الكائنات الا مظاهر منه فقد صدرت عنه جميع هذه الموجودات ، وسرت روحه فى الجماد والنبات والحيوان .

وإلى هذا تشير أسفار الفيدا إذ تقول على لسان براهما : « إننى أنا الله نور الشمس ، وضوء القمر ، وبريق اللهب ، ووميض البرق ، وصوت الرياح ، والعرف الطيب ينبعث فى الأرجاء ، والأصل الأزلى لجميع الكائنات وحياة كل موجود ، أنا الأول والآخر ، أنا الحياة والموت لكل كائن » . وتقول فى موضع آخر : « إن الله واحد لأنه الجميع ، (أى جميع الكائنات ، فهى كلها مظاهر منه) فهو رب الأرباب ، مالك العالمين ، وخالق السموات والأرضين » . وتبدو فكرة الوحدة واضحة كل الوضوح فى سفر الفيدانتا ، وهو أحد شروح « الفيدا » ، فيقرر هذا السفر فى عبارة صريحة « أن الله والنفس الإنسانية وجميع الكائنات شىء واحد » .

وهذا هو ما يعبر عنه بنظرية وحدة الوجود التى سرت إلى التصوف الإسلامى ونظريات بعض فلاسفته وبخاصة ابن عربى الحاتمى والحلاج ، وتفسر عندهم هذه الوحدة على طريقتين :

(إحداهما) أن ذات القديم كامنة فى المحدثات متحدة بها ، وهى كلها مظاهر لها ، وهو القائم عليها ، أى المقوم لوجودها ، وبهذا يفسر بعضهم قول الحلاج إذ يقول مبينا حقيقة ذاته هو : « ما فى الجبة إلا الله تعالى » . وتفسير وحدة الوجود على هذا الوجه مطابق كل المطابقة لعقيدة البرهميين ، ومشبه للاتحاد الذى تدعيه النصارى فى المسيح .

(والأخرى) أن ذات القديم هى الموجودة وجودا حقيقيا ، أما المخلوقات فلا وجود لها إلا فى الحس ، وهو وجود وهمى ، ولا يريدون الوهم الذى هو قسيم العلم والظن والشك ، وإنما يريدون أنها كلها عدم فى الحقيقة ، وجود

فى المدرك البشرى فقط، ولا وجود فى الحقيقة إلا لله تعالى. ويتفق هذا التفسير كذلك مع بعض النصوص الواردة فى هذا الصدد فى أسفار البرهميين.

٢ — تناسخ الكائنات وتجوال الأرواح (الكارما) وتقرر العقيدة البرهمية أن أرواح الكائنات التى صدرت عن الموجود بذاته هو الله متجولة متناسخة، ينتقل بعضها إلى مواطن بعض، ويتقمص بعضها أجسام بعض، وهذا هو ما يعبر عنه بالتناسخ أو تجوال الروح، فهم يعتقدون أن الروح جائلة متنقلة فى أطوار شتى من الوجود، تنتقل من جسد إلى جسد، سواء أكان من الإنسان أم من الحيوان، فى طريقها إلى هدفها الأخير (الذى سنبينه فى الدعامة الثالثة) ويعتقدون أن كل ما يصيب الكائن فى أية مرحلة من مراحل تناسخه إنما هو نتيجة لمقدمات وأعمال حدثت فى مرحلة ما من مراحل وجوده، فما يصيب الإنسان مثلا من سعادة وآلام إنما يكون جزاء أو نتيجة لأعمال صالحة أو شريرة عملها فى وجوده الحالى أو فى وجود سابق، حينما كانت روحه متقمصة كائنا آخر، فكل عمل يأتيه الإنسان له ثمرته ونتيجته حتما. وهذه الثمرة لا بد أن تحدث فى دور من أدوار الميلاد المتكررة التى تنتقل فيها الروح، فإن لم تحدث فى الدور الذى حدث فيه العمل، فهى لا بد حادثة فى دور من الأدوار التالية له، ويعبرون عن هذه الفكرة بكلمة «كارما»، وإلى هذا يشير العلامة أبو الريحان البيرونى فى كتابه القيم الذى ألفه عن الهنود معتقداتهم وفلسفتهم وثقافتهم وجعل عنوانه هذا البيت من الشعر:

تحقيق ما للهند من مقولة
مقبولة فى العقل أو مرذولة

إذ يقول: «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية، كذلك التناسخ علم النحلة الهندية (يقصد البرهمية). فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد فى جملتها».

ويؤيد هذه القضية بنصوص من أسفارهم فيقول: «حقيق علينا أن نورد من كتبهم شيئا من صريح كلامهم فى هذا الباب... قال باسديو لأرجن يحرضه على القتال وهما بين الصفين: إن كنت بالقضاء السابق مؤمنا فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن معا بموتى ولا ذاهبين ذهابا لا رجوع معه، فإن الأرواح غير مائتة ولا متغيرة، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العود، وقال له: وكيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية

الوجود ، لا عن ولادة ، ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة ، لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل من بدنها إذا عتق . « بمعنى قدم أى أصبح قديماً ، لا يصلح لاحتمال الروح ، نحو آخر ليس كذلك ، كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق « أى بلى » فما غمك لنفس لا تبيد ؟ ! » .

وأما الطريقة التى يجرى بها هذا التناسخ فتتصل من بعض وجوهها بعقيدة البرهميين فى الجنة والنار . ويشرح البيرونى عقيدتهم هذه مبيناً اتصالها بمذهبهم فى التناسخ إذيقول:

المجمع يسمى « لوك » . والعالم ينقسم قسمة أولية إلى علو وسفل وواسطة . فيسمى العالم الأعلى « سفر لوك » ، وهو الجنة ؛ والعالم الأسفل « ناكلوك » ، أى بجمع الحيات وهو جهنم ، ويسمى أيضا « نرلوك » ، وربما سموه « پاتال » ، أى أسفل الأرضين ؛ وأما الأوسط الذى نحن فيه فيسمى « مادلوك » و « مانش لوك » ، أى مجمع الناس . والأوسط للاكتساب ، والأعلى للثواب ؛ والأسفل للعقاب . وفى هذين الأخيرين يستوفى جزاء العمل من استحقهما مدة مضروبة بحسب مدة العمل . والكون فى كل واحدة منهما للروح مجردة عن البدن . والقاصر عن السمو إلى الجنة أو الرسوب إلى جهنم « لوك » آخر ، يسمى « ترجكلوك » ، وهو النبات والحيوان غير الناطق : يتردد الروح فى أشخاصهما بالتناسخ إلى أن ينتقل إلى الإنس ، على تدريج من أدون المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة . وكونها فيه على أحد وجهين : إما لقصور مقدار المكافأة عن محلى الثواب والعقاب ؛ وإما لرجوعها من جهنم . فعندهم أن العائد إلى الدنيا ، من الجنة ، متأنس فى أول حياته . والعائد إليها من جهنم متردد فى النبات والحيوان إلى أن يبلغ مرتبة الإنسان» .

أى إن أرواح الناس فى حياتهم الأولى تكون فى المنزلة الوسطى وهى منزلة العمل والكسب فإذا ماتوا انتقلت أرواح الخيرين منهم إلى الجنة ، المنزلة العليا ، تستوفى فيها جزاء العمل مدة مضروبة بحسب قدر العمل وكماله ، وانتقلت أرواح الخاطئين منهم إلى جهنم ، المنزلة السفلى ، تستوفى فيها كذلك جزاء عملها مدة مضروبة بحسب مبلغ جرمها وبعد استيفاء جزاء عملها فى الجنة أو فى النار تنتقل الأرواح الخيرة من الجنة إلى آدميين آخرين فترجع إلى المنزلة الوسطى ، وأما الأرواح الخاطئة فتنتقل من النار إلى الحيوان والنبات ، ومنزلة الحيوان والنبات منزلة رابعة غير المنازل الثلاث السابق ذكرها ، تستغرقها فى بادئ الأمر الأرواح غير الآدمية لأنها قاصرة عن المنزلة الوسطى وعن السمو

إلى الجنة وعن الرسوب إلى النار ، وتستقر فيها كذلك أرواح الآدميين العائدة من جنهم. وهاتان الطائفتان من الأرواح المستقرتان فى الحيوان والنبات تتجولان فى أشخاص الحيوان والنبات بالتناسخ إلى أن تنتقلا إلى الإنس على تدريج من أدنى المراتب النامية إلى عليا المراتب الحساسة ، فتصبحا فى المنزلة الوسطى ... وهكذا دواليك . فالثواب والعقاب عندهم فى الجنة والنار إنما يكونان للروح وحدها مجردة من البدن ويكونان مؤقتين لأجل محدد لا دائمين .

وقد انتقلت عقيدة البرهميين فى التناسخ إلى كثير من العقائد الدينية الأخرى ، وتركت رواسب فى « الفولكلور » فى كثير من الشعوب ، حتى الشعوب الإسلامية نفسها ، فكثير من عامة المصريين أنفسهم ، وخاصة فى الريف ، يعتقدون انتقال أرواح النائمين والموتى إلى بعض الحيوانات والحشرات .

٣ — رجوع الأرواح إلى مصدرها الأول وهو الله والفناء فى ذاته . تقرر العقيدة البرهمية أن روح كل كائن تعود فى نهاية مطافها إلى مصدرها الأول الذى نشأت منه وهو الله .

والإنسان أحد هذه الكائنات ، فيعرض له ما يعرض لها ، وروحه قطرة من نور الله انفصلت عن الله إلى أجل محدود ، واتصلت به ، ثم تتصل بعده بكائن آخر وآخر وهكذا على طريق التناسخ وتجوال الروح ، ثم تعود فى النهاية إلى الله متى جاء الأجل ، كالقطرة من الماء العذب ، تصعد بخارا من البحر ، وترقى فى السماء ، وتنتقل من جهة إلى جهة ، وقد تتحول إلى قطع من الثلج أو البرد أو غير ذلك ، ثم تسقط على قمم الجبال ، وتجرى فى الأنهار ، ثم ترجع فى نهاية مطافها إلى البحر الذى انفصلت عنه فى أول الأمر .

أو كالهواء الحبيس فى قدح مقلوب ـ حسب تشبيه أسفارهم نفسها ـ يظل منفصلا عن الهواء الخارجى وإن كان منه ، حتى يتحطم القدح ، وحينئذ يزول الفاصل بينهما ويتحدان .

فمصير كل إنسان هو الاتصال بالله والرجوع إليه والفناء فيه . ومن ثم وجب أن يتجه كل إنسان ، فى أثناء حياته نفسها إلى غايته المقررة له ، وهى الفناء فى الله . وخير وسيلة لتحقيق هذا الفناء تتمثل فى إهمال مطالب الجسم وتعذيبه لتصفو الروح التى هى قبس من الخالق ، والإعراض عن متع الحياة والتقشف ، ومداومة العبادة ، والإكثار من الصوم بوجه خاص لما يتضمنه من حرمان الجسم من حاجاته الضرورية .

وقد انتقلت هذه العقائد والنزعات إلى التصوف الإسلامى ونظريات رجاله ، وما يأخذ به الصوفية أنفسهم من التقشف وتعذيب الجسم والعزوف عن متع الحياة ولذائذها

بقية المنشور على الصفحة التالية

من أمجاد العلماء :

عالم مثالي يتحدى ابن طولون

للأستاذ محمد رجب البيومي

كان أحمد بن طولون استثناء واضحا بين أبناء جنسه ، فعهدنا بجنود الأتراك منذ عهد المعتصم لا يفيئون إلى خلق فاضـــل ، أو يعتصمون بدين قويم ، فهم يربون تربية رياضية تقوم على الشجاعة والفروسية وتركن إلى أساليب الاحتيال والدهاء ، ومن يصل منهم إلى مكان القيادة في القصر يوجه اهتمامه إلى المكيدة والائتمار ، وينظر إلى الخليفة العباسي كدمية صماء يحركها أنى أراد ، فإذا عن له أن يضع الأمر في نصابه أو يتمسك ببعض حقوقه في التولية والعزل ، والإدارة والحكم ، مهدت له الدسائس السود ، لتجعله بين عشية وضحاها في غياهب السجون ! ثم يختار أمير ضئيل من بني العباس ليصير دمية أخرى يتلاعب بها الأتراك كما يشاءون !

هكذا كان جنود الأتراك ! ولكن ابن طولون قدر له أن يشب على رياضاتهم الحربية فيلتقي معهم في مضمار الصيال والعراك ثم ينفرد عنهم في ثقافته الدينية فيدرس القرآن والحديث ويتأثر بما تهديه إليه روح الإسلام من إنصاف وعدالة وإيثار للخير والمعروف !

« بقية المنشور على الصفحة السابقة »

ومداومة العبادة والتهجد والإكثار من الصوم وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام نهيا صريحا عن هذه المناهج المتطرفة في التدين ؛ فقال عليه السلام : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » ، وفي الصحيحين عن أنس ابن مالك أنه قال : « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها (أي عدوها قليلة في نظرهم) ؛ قالوا : أين نحن من رسول الله وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ! قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا . وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر أبدا ولا أفطر . وقال ثالث : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا . فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء . فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

دكتور علي عبد الواحد وافي

وقد ساعدت هذه الصفات النبيلة على تدعيم مكانته عند الناس ، فكان أبناء جنسه من الأتراك يثقون فى كرامته فلا يظنون فيه التآمر والإيقاع ، وإذا هم أحدهم بمكيدة ما تحاشى أن يلم بسرها رجل همام كابن طولون فيكون أداة لتحطيمها وعونا عليها لا لها ، أما أمراء العباسيين وخلفاؤهم فقد ركنوا إلى رجولته ، فحين خلع المستعين بالله وأبعد إلى منفاه ألح فى اصطحاب ابن طولون ليكون حارس غربته ورفيق وحشته !

فقام على حراسته مقاما كريما ، ثم جاءته إشارة شاذة من رؤسائه بالعمل على تدبير مصرعه ! فتعاظمه أن يكون غادراً بمن وثق فيه وأبى أن يخضع لما يريدون ! وكان أن اعتزل الحراسة ونيط بالمستعين سواه ليهدر دمه بعد سويعات ! وعاد ابن طولون إلى مقر الخلافة نظيف الخلق طاهر الضمير !

وقد تبسم له الحظ لبعض المصادفات السارة فاختير والياً على مصر من قبل سواه ، ولم يكن فى وهم أحد أن هذا الفتى التركى سيشذ عن ولاة الأقاليم فى عهد الخلافة العباسية ! فقصاراه أن ينهض على تحصيل الضرائب ، وسوق الأموال إلى عاصمة الحكم ! فإذا أحب أن ينال حظوة لدى الحاكمين ببغداد ضاعف الخراج وأجزل الهدايا من الفضة والنضار ، ليضمن بقاءه بضعة أعوام فى ولايته ! وإلا فهناك من يتطلع إلى مكانه وقد أخذ على عاتقه أن يجمع المال ما استطاع !

جاء ابن طولون إلى مصر وهو حرج الصدر ضائق النفس بما يقوم به أبناء جنسه فى قصور الخلفاء ! وقد عز عليه أن توكل لهم الأمور العليا فى سياسة الإسلام ثم لا يكونوا سادة كراماً يتقيدون بالمواثيق ! بل يتحولون إلى وحوش متنمرة تتصارع فى الظلام وقد يأكل بعضها بعضاً دون شمم أو إباء ! وهم بعد ليسوا بأفضل منه فى شىء حتى يصدر عن إرادتهم ! ولو كان الخليفة العباسى مسموع الكلمة نافذ السلطان لوجبت طاعته ولكنه خائر مستسلم لمن يسومونه الذلة والهوان ! فلا عليه أن يتزحزح عن كابوسهم الثقيل فيمهد الأسباب إلى استقلاله وانفصاله !

وهو من الحرص والحذر بحيث يستطيع أن يرسم الخطة البعيدة لتصل إلى الغاية متى تتاح دون استعجال ... درس الحاكم أحوال الإقليم . وقد استطاع فى زمن يسير أن يهدىء الفتن ويسكن الثورات ، ثم عمل بدهائه على أن يجمع فى يده أمور البريد والخراج ، فلا تستطيع الرسائل المغرضة أن تشى به عن طريق التلصص والوشاية ، ثم ليجمع من المال ما يسد ببعضه أفواه الطامعين فى بغداد ، وينشىء الدولة الجديدة بالبعض الآخر ، وقد واتته الأقدار بما يريد ، فجد من الحوادث السياسية ما ساعده على إبعاد صاحب البريد

وطرد صاحب الخراج ! وأصبح بذلك رجل مصر دون منازع ، فاتجه إلى تكوين جيش عربي كبير وأسطول بحرى قاهر ، وامتلك من النفوذ ما أعانه على أن يخلع نقاب الحذر عن وجهه فيقف من بغداد موقف القرين !

لم تسكت الخلافة عن طموح ابن طولون ! فقد كان الموفق ولى العهد صاحب السلطة الفعلية ببغداد ، جمع حوله الأتراك بما بذل من إقطاعات ومناصب ووعود ، وصار موضع الأخذ والرد ، وأخوه المعتمد أمير المؤمنين لا يملك من الأمر سوى اللقب وحده ! وقد تعاظم الموفق أن يقدم ابن طولون على الاستقلال ، وفهم الرجل على غير حقيقته ، فظنه ضعيفا مغترا لا يثبت لصدام ، وأرسل إليه خطابا يوحى بالتهوين والتحقير والاستعلاء ! ثم دعاه إلى تقديم الحساب والنهوض إلى بغداد فى رهبة وامتثال ! وقرأ ابن طولون كتاب الموفق وابتسم ! وكأنه أراد أن يغمزه من مكمن ضعفه ، فرد عليه بأن ولى العهد قد خلع الطاعة حين حاصر الخليفة الشرعى وسلب سلطانه ، فهو فى رأيه عاص ناشز مغتصب يتبوأ مركزاً يستلبه بالقوة لا بالحق ، وأولى به أن يذعن لأخيه بدل أن يطمح إلى مصر ! وليس له الحق فى بغداد ، فضلا عن التطاول إلى غيرها من الأصقاع ! وكان حتما أن تدور الحرب بين الرجلين ثم ينهزم الموفق فلا يبقى لديه سلاح غير الضجيج الصاخب ، فيعلن عصيان ابن طولون ، ويجاهر بلعنه على المنابر ، وخروجه على الدين !

ماذا يصنع ابن طولون وقد جاءته الأنباء أن اسمه يذكر مشيعاً باللعنات على منابر الجمع فى كثير من مساجد الإسلام ! لقد ساقه تفكيره إلى الدعوة إلى خلع الموفق من ولاية العهد والجهر بلعنه على منابر مصر والشام ! وأعد مؤتمراً من العلماء والوجهاء فأصدر قراره بخيانة الموفق ولعنه ! وظن ابن طولون ألا يشذ أحد عن ولايته عن رأيه ولكنه فوجئ بعالم خطير يعارض قرار الخلع ، ولا يجد لابن طولون حقا فى إصداره ذلكم هو القاضى الفقيه بكار بن قتيبة ! فقد استطاع أن يعلن رأيه المعارض دون أن يرهب أحداً ولو كان ابن طولون !

على أننا نقرأ ما دون من تاريخ هذا القاضى فنعجب لشعوره الدينى المرهف ، إذ رزق حساسية بالغة جعلته يستهول مواقع الزلل فى الأحكام ! ! كان نظام القضاء على عهده بدائيا يدخل المدعى فيعرض شكواه ويحضر شهوده ثم يستمع القاضى وينظر فإذا ارتاحت نفسه إلى حكم أصدره مستنداً إلى الدليل ، وتنتهى المسألة عند ذلك ، ولكن بكاراً كان يدون كل يوم جميع ما يصدر من أحكام ثم يتفرغ فى المساء إلى مراجعة أعماله ، ومحاسبة نفسه ليستدرك

ما فاته إن عن له بعض الرأى فيما كان ! وقد بلغ من تقديره لمركزه القضائى أن دموعه كانت تغلبه حين يشتبه الأمر عليه فيستعين بصلاة الليل ليلهمه الله السداد ، قال أحمد ابن سهل الهروى : كنت ألازم غريما لى إلى بعد العشاء الآخرة ، وكنت أسكن جوار بكار فانصرفت بعد العشاء إلى منزلى فإذا هو يقرأ بصوت عال « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » فوقفت أتسمع إلى تلاوته المعبرة طويلا ثم انصرفت فقمت فى السحر على أن أصير إلى منزل الغريم فإذا بكار يقرأ الآية ويبكى ، فعلمت أنه كان يقرؤها طول الليل !

هذه الحساسية البالغة كانت تجعله يحفظ للقضاء حرمته ويرى القاضى رجلا مثاليا يرتفع عن الميول والأهواء ويتخلق بأرقى ما سنه الإسلام من نبيل السجايا ورفيع الصفات ! قدم عليه قوم من أصحاب الحديث يروون عنه وكان محدثا إماما فى فنه يعرف مواضع الجرح والتعديل فى السند ووجوه الضعف والقوة فى المتن ، ويفيض فى ذلك بما ينبى عن رسوخ أصيل فيما يروى عن رسول الله ـ فسألهم القاضى من أى البلاد أنتم فقالوا من الرملة إحدى مدن فلسطين فسأل ما حال قاضيكم فقالوا : عفيف !! فضرب بكار كفا بكف وصاح إنا لله وإنا إليه راجعون أيقال قاض عفيف ، فسدت الدنيا ! وكأنه يرى العفة أمرا بدهيا مقررا لا ينص عليه فى جواب ! فإذا تميز بها بعض القضاة دون سواهم فقد حق البلاء ! ومن طرائفه فى ذلك أنه قال فى أحد مجالسه : ما حللت سراويلى على حـــلال قط ، يريد أنه لم يتزوج على الإطلاق فقال أحد الحاضرين ولا على حرام أيضا فصاح غاضبا : يا سبحان الله ! والحرام يذكر كأنه أمر يتوقع ! ! .

على أن تطرفه فى المحاسبة كان يلجئه إلى ما يشبه التزمت وهو بعد غير مستغرب من فقيه دقيق يستهول حرمة القضاء ويرى أن القاضى يذبح نفسه بغير سكين ، قدم عليه بمصر رجل من أهل البصرة كان رفيقه أيام الطلب بمساجد العلم هناك فأكرمه واحتفى به احتفاء عرفه الناس ثم احتيج إلى شهادة لديه فشهد عند القاضى مع رجل مصرى فتوقف عن الحكم وظن الناس أنه لا يقبل شهادة المصرى فسئل فى ذلك فكان عجيبا أن يقول : المصرى على عدالته ولكن السبب هو صديقه البصرى فقد أكل معه فى الصغر أرزا فى سمن وعسل فنفذ العسل من ناحية بكار ففتح من جهة صاحبه هذا حتى جرى العسل نحوه فقال البصرى متضاحكا : « أخرقتها لتغرق أهلها » فعلمت أنه يهزأ بالقرآن فى مثل هذا ، وبقى ذلك فى نفسى حتى ردت شهادته ! ! .

هذه طرائف تنبئ عن تحــرزه المفرط الذى جاوز كل حد ! وطبيعى أنه لم يكن يختص به فريقا دون فريق فقد كان يلتزمه مع ابن طولون نفسه دون تحرج أو خشية : مات رجل وعليه دين الأمير فطلب عامل الخراج من أحمد بن طولون أن يأمر القاضى ببيع داره فأرسل ابن طولون إلى بكار فى ذلك فقال حتى يثبت عليه الدين فأثبتوه وسألوه البيع فقال حتى يثبت عندى أنه ملكه ، فأثبتوه وسألوه البيع ، فقال حتى يحلف من له الدين فجاء ابن طولون وحلف أمامه فقال بكار أما الآن فقد أمرت بالبيع .

وقد كان ابن طولون يعلم من مواقف القاضى الصريحة أنه لا يحابيه فى شىء بل يجهر بالحق على رءوس الأشهاد لقد كان فى مجلسه ذات مرة فتخاصم رجلان فقال له احكم بينهما فنظر فى القضية وتوجهت اليمين على أحدهما فاستحلفه فلما فرغ قال له الخصم : استحلفه أيها القاضى برأس الأمير فصاح بكار غاضبا : ياهذا قد حلف بالله وهو أعظم من الأمير فقال بل استحلفه برأس الأمير فقال له بكار تحلف برأسه فقال الرجل لا ، فصاح القاضى ياعدو الله تحلف بالله خالق السموات والأرض وتمتنع أن تحلف برأس مخلوق مثلك ، وأخذ ينظر للأمير وهو يقلب كفا على كف ولا ندرى كيف أدرك ابن طولون إذ ذاك ضعف البشر وانهيارهم فابتسم للرجل وحظى عنده بعد ذاك ! !

إن رجلا مهيبا كبكار لا ينظر إلى الخلاف بين ابن طولون والموفق نظرة تتملق صاحب الأمر فى بلده بل نظر إليه من وجهة الحق كما يلوح فى نفسه ! فقد أدرك لفوره أن الحكم بخلع الموفق من ولاية العهد بعد أن أسندت إليه لا يرجع إلى ابن طولون وحده حتى يتصدون سائر رعايا الخلافة العباسية أمرا خطيرا كذلك الأمر ! وهو بعد أن يعقب غير فتنة مسلحة حمراء تقوم بين القاهرة وبغداد تسيل من ورائها أنهار الدماء وتتساقط آلاف الرقاب ! ! ثم إن خلع الموفق لن يغير من الأمر شيئا فسيخلفه إنسان على شاكلته ، وسينفتح مجال التآمر والدسائس لرؤساء القصر العباسى من جنود الأتراك وزعمائهم ؛ فإذا كانت مصلحة ابن طولون الشخصية تقتضى خلع الموفق فإن ما يعقبه من أهوال تشيب لها الرءوس يحتم على القاضى أن يجاهر بالمعارضة ؛ فليعلن ابن طولون استقلاله عن بغداد كما يشاء ، أما أن يحرض على التبعية الاسمية فى ظل خليفة دون ولى عهده فهذا ما تتسع له نوافذ الشر فيندلع اللهيب ويحترق الناس .

طمن الأمير فى آماله حين واجهه بكار بالرفض الصريح ! ووقع ابن طولون بين عاملين إما أن يرجع عن خلع الموفق فيثبت بذلك سيطرته الشرعية على حكمه ويصبح

فى نظر العامة عاصيا يجاهر بالثورة ويدعو إلى العناد ! وإما أن يقتص من بكار على ورعه وتقواه ! ونحن نفهم الآن أن أسطورة التبعية للخلافة العباسية بمنهجها الوراثى أبا عن جد لا تمت إلى الإسلام فلا على ابن طولون أن يشذ عليها دون أن يحتاج إلى سند من أمير المؤمنين ! ولكن ما نفهمه الآن فى القرن العشرين من هذه المسألة لم يكن واضحا مفهوما لدى العامة من المسلمين حتى تغير الزمن وزالت غشاوة السيطرة الوراثية عن العيون فتبينت الحقائق كما يجب أن تكون وهذا ما لم يتيسر لابن طولون فى زمنه ولعله كذلك لم يكن واضحا بمعناه الصريح فى عمل بكار ! ولقد كان من نتيجة هذا الموقف المتأزم بين القاضى وابن طولون أن غضب عليه غضبا شديدا ، فضربه بعود من حديد وأمر بتمزيق ثيابه وسحب على وجهه مسلوب الجلباب ثم أودع السجن ومكث أياما فى مكان ضيق لا يستطيع أن يمد به رجليه ثم نقل إلى محبس آخر أكثر رحابة ! ومما يذكر أن القاضى كان يحافظ على الصلاة سننا ونوافل فى محبسه وكان يلزم نفسه حين تأتى صلاة الجمعة كل أسبوع أن يغتسل ، ويلبس ثيابه ويجىء إلى باب السجن فيرده السجان ويقول أعذرنى أيها القاضى فما أقدر على إخراجك فيصيح بكار متجها إلى السماء اللهم فاشهد لقد صنعت ما على ! وقد طال محبس القاضى فطلب أصحاب الحديث إلى أحمد بن طولون أن يأذن لهم فى السماع منه فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاق المحبس وهم من حوله يسمعون فيكتبون .

وإذا كان الموت نهاية كل حى فقد مرض ابن طولون مرضه الأخير ، وأخذ يراجع أعماله فى لحظاته الحاسمة فكان شبح بكار فى سجنه يؤرقه ويأخذ عليه منافذ السماء والأرض فأمر بنقله إلى دار خاصة به وكأنه بذلك يكتفى بتحديد إقامته كما نقول فى عصرنا الحديث ثم هاجت نوازعه ، فكتب إليه يستحله ويستغفره فجاء ورد بكار يقول : « أنا شيخ كبير وأنت عليل مدنف والملتقى قريب والحكم الله » . فكان ابن طولون فى احتضاره يبكى ويردد هو شيخ كبير وأنا عليل والملتقى قريب والحكم الله ! ! ثم بلغ الكتاب أجله ، فمات الوالى وأعقبه بكار بعد أربعين يوما من وفاته ! وكان الملتقى قريبا كما حسب القاضى ووافقه الأمير ! !

لقد قرأت تاريخ ابن طولون فأعجبت به ، ولكن إعجابى ببكار يدفعنى أن أحنى رأسى لذكراه ، وأن أستمطر رحمات السماء على بطل نزيه جاهد فصبر ، وامتحن فشكر ! . .

وهكذا الرجال .

محمد رجب البيومى

المدرس الأول بدار المعلمات بالفيوم

عناية الإسلام بتربية النّاشئين

للأستاذ عبد الرحيم فوده

لا شك أن هدف التربية السليمة هو إعداد الفرد جسميا وعقليا وخلقيا ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع، وخلية حية فى جسم الأمة، وتربية النشء لهذه الغاية واجب اجتماعى كبير يشترك فى تبعته والتعاون عليه كل بيت وكل مدرسة وكل جهاز من أجهزة الإعلام والتوجيه فى الدولة، بل إن المؤمنين والمؤمنات بمقتضى إيمانهم كما يقول الله فيهم « بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله »، فهم - جميعهم - مطالبون بأن يتولى بعضهم بعضا بما يصلحه ويستقيم عليه أمره وتطيب به حياته.

ولا شك أن الأبناء والبنات بالنسبة لآبائهم وأمهاتهم وجودهم الممتد، وحياتهم المتجددة وعلمهم الموصول، ومستقبلهم المأمول، وقد قال صلى الله عليه وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، وقال تبارك وتعالى: « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء »، أما مكانتهم فى المجتمع فهم طور من أطواره ودور من أدواره، وصورة من صوره فى مرحلة من مراحل حياته، ثم إنهم إذا كانوا أطفال اليوم فهم رجال الغد. وبمقدار ما يبذل من العناية فى إعدادهم وإرشادهم. وتنمية مواهبهم وتزكية نفوسهم وتربية نوازع الخير فيهم يكون حظنا وحظ المجتمع فى المستقبل منهم بل إن ما يرجى منهم ويؤمل فيهم مع العناية بتربيتهم تربية صالحة وتوجيههم توجيها سليما يهون أمامه كل جهد، ويسهل بجانبه كل صعب، بل تعذب فى سبيله كل تضحية، فهم كما قال الشاعر:

وإنما أولادنا بيننا ... أكبادنا تمشى على الأرض

وعملنا معهم ينبغى أن يكون على الصورة التى نلمحها من قوله تعالى: « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ».

فإن النشء بالنسبة إلينا كالشطء بالنسبة إلى الزرع، يخرج من أصوله فراخا صغيرة فتؤازرها أصولها وتمدها بالماء والغذاء حتى تنموا وتغلظ وتمتد وتشتد. ثم تستوى على

سوقها، وتزهر وتثمر، فيكثر بها الخير ويعظم الرخاء.

ولا شك أن مرحلة الطفولة هي المرحلة الخصبة المناسبة لتربية الشخصية السوية وتوجيه الغرائز والميول. وتهذيب الأذواق والأخلاق، فإن الطفل كما يقول علماء النفس كالعجينة اللينة، يشكلها الإنسان كما يشاء، أو كما يقول الإمام الغزالى رحمه الله أمانة عند والديه. وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، فهو قابل لكل ما ينقش عليه. ومائل لكل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك، وكان الوزر فى رقبة القيم عليه والوالى له.

فالشر الذى ينشأ عن إهمال التربية لا يقع على الناشئين وحدهم، وإنما يتعداهم إلى المربين من أهليهم وذويهم وأولى الأمر فيهم، والجرائم التى تكدر صفو المجتمع، وتعكر جو حياته إنما ترجع أولا وآخراً إلى سوء التربية، أو إلى إهمال أمر الناشئين وتركهم مع قرناء السوء يخالطونهم ويتأثرون بهم وينهجون نهجهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»، والتضييع كما يكون بالتقصير فى توفير القوت للأطفال أو العيال يكون بالإهمال فى تهذيبهم وتأديبهم وتهيئة الجو الصالح لهم، وتوجيههم إلى ما ينفعهم وينفع مجتمعهم، ويفهم من قول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً». أن على كل مسئول أن يقى نفسه وأهله من السوء بحسن التربية وسلامة التوجيه والتزام أحكام الدين.

أما واجب المجتمع نحو الناشئين ممثلا فى الدولة أو الحكومة وأولى الأمر فيمكن أن نلحظه أو نلحظ جانبا منه فيما كان يعمله عمر رضى الله عنه بإزاء تربية النشء، فقد فرض لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض لكل مولود من زوجين، ولم يأخذ الأبرياء من اللقطاء بظلم المجرمين من الرجال والنساء، وكان ذلك استجابة لما يفهم من توجيه القرآن الكريم إذ يقول الله فيه: «فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم». أما اليتيم - وهو من فقد أباه ولم يبلغ مبلغ الرجال - فشأن العناية به فى الإسلام أشهر من أن يذكر ويكفى فى الإشارة إليه أن نذكر قول النبى صلى الله عليه وسلم: أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا.. (وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرج بينهما). وقد قال الله لرسوله عليه الصلاة والسلام بعد أن ذكره بفضله فى حال يتمه: «فأما اليتيم فلا تقهر» وقال الإمام محمد عبده فى تفسيره لهذه الآية: ولو علم الناس ما فى إهمال تربية

الأيتام من الفساد فى الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابه قدرها ، وليذلوا من سعيهم ومن مالهم فى إصـــلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا ولو أحس كل واحـد بأن الموت قريب منه ، وأنه هـدف لنباله . لا يدرى متى يأخـــذه عن ولده فيتركه إما غنيا يأكل ماله الأوصيـاء . أو فقيراً يستذله الأدنياء لتسابقوا إلى تقويم أمر اليتيم تسابقهم إلى اللذة والنعيم .

وتبدو عناية الإسلام بتربية النشء فيما أوجبه على الأم من رضاعة الطفل ، وما أوجبه على أبيه من النفقة عليه حتى يستطيع الكسب ، وما أوجبه لأمه من حق حضانته رعاية لصحته وتوفيرا لأسباب راحته ، هذا إلى ما يفهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم) . وقوله عليه السلام : (ليس منا من لم يرحم صغيرنا) ، فإكرام الأولاد وإحسان أدبهم ، والرحمة بهم فى المكانة الأولى من اهتمام الإسـلام ، وإذا كانت القدوة الحسنة والأسوة الطيبة أكبر مؤثر فى سلوكهم لأنهم فى هذه الفترة من حياتهم مولعون بالتقليد والمحاكاة . ظهر لنا مـدى ما يجب أن يكون عليه الآباء والأمهات فى البيت . والمعلمون والمعلمات فى المدرسة ، كما يظهر . ما ينبغى أن تتوخاه أجهزة الإعلام فيما تعرضه من صور وأفـــلام ، وقصص وتمثيليات . وروايات وأغنيات . فإن لهذه الأجهزة تأثيراً خطيراً فى سـلوك النشء ، وكيان الأسرة ، وحياة الأمة ، ولا شك أن المجتمع العربى والإسلامى . يستأنف حياة جديدة . ويستهدف قيما عالية يستعذب فى سبيلها الكفاح والعرق والأرق وبذل الأرواح ، وواجب المشرفين على هذه الأجهزة يتقاضاهم أن يتنبهوا لهذا الدور الخطير ، وأن يتعهدوه بما يزكيه ويقويه ويعينه على بلوغ أهدافه ، وأن يباعدوا بينه وبين عوامل الإغـــواء والإغراء والتحلل والتبـذل ، وأن يذكروا قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ، وقول الشاعر الحكيم :

ولا يبلغ البنيان يوما تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

عبد الرحيم فودة

حكم الله وحكم الفقيه

للأستاذ محمود الشرقاوى

كلما هممت بكتابة هذا البحث أو فكرت فى موضوعه ذكرت قصة من أيام الطفولة شهدتها فى بيتنا قبل دهر طويل .

كنا نقضى إجازة الصيف فى القرية ، وكان الناس يتوافدون على البيت يجلسون إلى أبى على « المصطبة » أو « المنظرة » ، يستمعون إلى ما يلقيه عليهم من حديث الفقه والدين ، ويسألونه فيما يريدون من فتيا ، وقد يشكون ما يلقون من تعب « الفلاحة » وشح الماء ويطلبون إليه « الدعوات الصالحة » لأولادهم ومحاصيلهم حتى يباركها الله . وكنت كثيراً ما أجلس وأسمع وأشارك بقلبي وعقلي .

ودخل فى إحدى الليالى رجل شيخ بعد أن انصرف الناس ، دخل مسرعا ملهوفا كأنما يفزعه شىء . فلما استقبله أبى قال يصيح : أنقذنى ياسيدى الشيخ وخذ بيدى وأنقذ بيتى من الخراب .

وكانت قصته ، كما حدث بها أبى ، أنه اختصم مع زوجه ، فلما غاضبته قال لها : « أنت طالق ثلاثا » وكان ذلك بالأمس . وتسامع الناس بذلك فأخذتهم الدهشة وعلاهم العجب : بعد هذا العمر الطويل وهذه العشرة الهنية ... وذهب إلى « المأذون » فقال له : زوجتك طالق لا تحل لك حتى تتزوج آخر وتطلق منه واستنجد بغيره من « طلبة العلم » والعارفين فقالوا له مثل مقالة « المأذون » وكلهم قال له : هذا حكم الله ...

ثم صاح الفلاح الشيخ : ياسيدى الشيخ : بيتى «ينخرب» لو خرجت منه زوجتى وحياتى تنتهى إذا فارقتنى ، والموت خير لى من أن أراها تعيش يوما واحدا فى بيت رجل آخر .

وقال له أبى وهو يداعبه ويضحك : أتحبها أيها الرجل العجوز ...! فأسرع يجيب : نعم أحبها ، أحبها ، زوجـــتى وأم أولادى . « شوف لك طريقة ياسيدنا الشيخ .. ! » .

فقال له أبى : هون عليك ياشيخ حفنى عد إلى زوجتك فراجعها وأعدها لعصمتك كأنه طلاق واحد ، وكأن الرجل لم يصدق أن هذا « المشكل » ينتهى بهذه السهولة وهذا اليسر فصاح : صحيح ياسيدنا الشيخ ... وأجابه أبى : نعم صحيح وأنا أفتيك ، ولكن لا تعد لمثلها .

وخرج الشيخ حفنى مهرولا مسرورا وعاش بعد ذلك سنوات طويلة زوجا وأبا وجدا مبارك الذرية .

وبقيت دهرا طويلا أتعجب كيف أفتاه

أبى هـــذه الفتوى ، وكل العلماء فى البلدة وكذلك « المأذون » قالوا له إن : « حكم الله » هو طلاق زوجه حيث لا تعود له « حتى تنكح زوجا غيره » .. حتى عرفت بعد هذا الدهر الطويل أن ما أفتى به هؤلاء ليس وحده « حكم الله » بل هو حكم الفقهاء قال غيرهم بغيره ، ثم جاء « قانون الأحوال الشخصية » بعد ذلك فجعل القاضى ملزما بالحكم الذى قال به هؤلاء . والفتوى التى أفتاها أبى قبل ذلك بعشرين سنة للشيخ الريفى الملهوف الجازع .

وعرفت بعد هذا الدهر الطويل أن هـذا الحكم أيضا هو مـذهب الإمام ابن تيمية ، وأنه هو الذى كان يجرى عليه عمـل الصدر الأول من المسلمين فى عهد أبى بكر وشطر من خلافة عمـر ، ولا يحكم بغيره الآن فى مصر قاض .

ثم ذكرت هذه القصة مرة أخرى ونحن نعالج فى ندوة « التليفزيون » مشكلة أسرة تريد أن تتحكم فى نسلها وتحتم عليها ظروفها الصحية وأوضاعها الاقتصادية أن تفعل ، وكلا الزوجين راض بذلك ملح فيـه ، ولـكن « العلماء » قالوا لهما عندما سألا عن « حـكم الله » : إنه حـــرام ، وهى قصة ذكرتها فى مقال سابق [1] .

وخطورة الأمر هنا أن أكثر المفتين والعلماء إذا سألهم سائل عن « حـكم الله » كما اعتاد الناس أن يسألوا ، أفتوهم برأى عرفوه أو قرءوه لا يعرفـون غيره ، وقد يكون هذا الرأى أصبح لا يساير روح العصر ولا يحقق صوالح الناس ، وغيره ، مما قال به الأئمة والعلماء أيضا ، هو الذى يساير ويحقق الصوالح ولـكن المفتين والعلماء لا يعرفونه ولا يجشمون أنفسهم أقل عناء فى البحث عنه أو التفكير فيه ، ويقف السائلون المستفتون حيارى ضيقة صدورهم أمام هـذا القرار الحاسم : « حـكم الله » كما سموا من وصفه .

ولكن الأمر كما نرى بعـد نهاية البحث مختلف جدا .

* * *

ذلك أن العلماء من سلفنا كانوا يخشون الله ويهابون أمانة العلم ، وكانت هذه الخشية وهذه المهابة تجعلهم يتواضعون فى جـزمهم بالأحكام ، ويتهيبون القول بأن هذا أو ذاك « حـكم الله » مع جزمهم بصحته وصوابه حسبما يرون ويعتقدون مما أدى إليه اجتهادهم الخاص واستقام أمامهم دليله .

وفى ذلك يقول ابن القيم هذه الكلمة الرائعة فى حديثه عن الإفتاء وأدب المفتى : (لا يجوز للمفتى أن يشهد على الله ورسوله بأنه أحـل كذا أو حرمه أو أوجبه أو كرهه إلا لما يعلم أن الأمر فيه مما نص الله ورسوله على إباحته

---

(١) مقال : تحديد النسل فى الإسلام : مجلة الأزهر عدد شهر رجب ١٣٨٣ هـ ديسمبر ١٩٦٣ م .

أو تحريمه أو إيجابه أو كراهته وأما ما وجده فى كتابه الذى تلقاه عمن قلده فى دينه فليس له أن يشهد على الله ورسوله به، ويغر الناس بذلك، ولا علم له بحكم الله ورسوله.

قال غير واحد من السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا، أو حرم كذا، فيقول الله له: كذبت، لم أحل كذا، ولم أحرمه. وثبت فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (.. وإذا حاصرت حصناً فسألوك أن تنزلهم على حكم الله ورسوله فلا تنزلهم على حكم الله ورسوله. فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك[1]).

وفى ذلك يقول الإمام مالك أيضا: «لم يكن الناس فيما مضى يسألون عن الغرائب. ولم يكن العلماء يقولون: هذا حلال وهذا حرام. ولكن أدركتهم يقولون: هذا مستحب وهذا مكروه».

فاجتهاد الفقيه والحكم الذى قال به هو رأيه هو وفهمه الخاص للشريعة، منسوب له لا إلى الله، هو حكمه، الذى أدركه من شريعة الله. وقد ذكر عالم مستنير مجتهد مثلا لذلك

(١) إعلام الموقعين الجزء ٤ ص ١٧٥ «مطبعة دار السعادة» بالقاهرة ١٩٥٥، والحديث رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

فقال عن مجتهدين - أو أكثر - وصلا إلى حكمين مختلفين فى مسألة واحدة: «فالمجتهدان مصيبان مثل رجلين قيل لكل واحد منهما أعط كل فقير وجدته درهما من مالى، قال: كيف أعرف أنه فقير.. قيل: إذا اجتهدت فى تتبع قرائن الفقر حتى تبين لك فقره فأعطه، فاختلفا فى رجل قال أحدهما هو فقير وقال الآخر، لا والمأخذان متقاربان يسوغ الأخذ بهما فكل منهما مصيب لأنه ما أدار الحكم إلا على من يقع فى تحريه أنه فقير وقد وقع فى تحريه ذلك من غير تقصير ظاهر»[1].

وكذلك يقول ابن القيم: «حضرت مجلسا فيه القضاة وغيرهم، فجرت حكومة حكم فيها أحدهم بقول زفر، فقلت له: صار قول زفر هو حكم الله الذى حكم به وألزم به الأمة.. قل هذا حكم زفر ولا تقل هذا حكم الله[2]».

وفى توضيح ذلك والاستدلال عليه، من الناحية الفقهية قال العلماء: «.. إن الاستفتاء لم يزل بين المسلمين من عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا فرق بين أن يستفتى هذا دائما ويستفتى هذا حينا بعد أن يكون مجمعا على ما ذكرناه كيف لا ولم نؤمن بفقيه أيا كان أنه أوحى الله

(١) شاه ولى الله الدهلوى رسالة «عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد» ص ٤ طبع حجر مجهول التاريخ والمكان.

(٢) إعلام الموقعين الجزء ٤.

إليه الفقه وفرض علينا طاعته وأنه معصوم ، فإن اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا أنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله فلا يخلو قوله: إما أن يكون من صريح الكتاب والسنة ، أو مستنبطا عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أن الحكم فى صورة ما منوط بعلة كذا واطمأن قلبه بتلك المعرفة فقاس غير المنصوص على المنصوص فكأنه يقول : ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا والمقيس مندرج فى هذا العموم . فهذا أيضاً معزو إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولكن فى طريقه ظنون[1].

ومن هنا ، فقط ، نستطيع أن ندرك كيف نجد للشافعى مذهبين قديمه فى العراق وجديده فى مصر ، وأن نجد له ، فى مسألة واحدة ، رأيين مختلفين وفتويين متغايرتين ، رأى وفتوى فى المذهب القديم ورأى آخر وأخرى من الفتاوى فى مذهبه الجديد ولا نستطيع أن نقول عن أى منهما : إنه « حكم الله » ، لأننا لو قلنا ذلك ، جعلنا لشريعة الله حكمين مختلفين فى مسألة واحدة . وحاشا لشريعة الله أن يكون ذلك . وإنما نقول إن كلا الحكمين هو « حكم الفقيه » الشافعى الذى أدركه بفهمه من شريعة الله . والعلماء الفاقهون يجيزون لكل مسلم أن يعمل بما تستريح له نفسه من الرأيين ـ إذا كان من أهل الفهم لأحكام الشريعة . ويجيزون لغيره أن يقلد ويعمل بالرأى الذى يراه أيسر لنفسه محققاً لصوالحه بل إن منهم من يجيز لنا أن نبحث عن الأيسر فى كل مذهب فنعمل به ما دمنا مقتنعين بصحة دليله . ومنهم من يجعل ذلك مستحبا وتيسيراً للعوام »[1] إذا سأل منهم سائل أو استفتى .

« حكم الله » كلمة كبيرة وأمانة عظمى كان العلماء والأئمة الذين يعرفون ما هى الأمانة العظمى يتحرجون منها ويخشون الله أن يقولوها أو يحملوها . لذلك كان مالك يقول : « ما كان شىء أشد على من أسأل عن مسألة من الحرام والحلال ، لأن هذا هو القطع فى حكم الله . ولقد أدركنا أهل العلم فى بلدنا وإن أحدهم إذا سئل عن المسألة كأنما الموت أشرف عليه » .

وقد كان « كبار علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مجتهدى السلف يتحاشون أن يسموا ظنونهم الاجتهادية : حكم الله ، أو شرع الله . بل كان أعظمهم قدرا وأوسعهم علما يقول : هذا مبلغ علمى واجتهادى ، فإذا كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمنى ومن الشيطان »[2] .

محمود الشرقاوى

(١) ص ٩ ـ من رسالة ولى الله الدهلوى .

(١) انظر ص ١٤، ١٦، ٢١ من رسالة الدهلوى .

(٢) الاستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى : ص ١٠٣ من كتابه « مالا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين » دار القلم بالقاهرة ١٩٦٢ .

ابن قتيبة الناقد

للأستاذ على العمارى

— ٢ —

لا أدرى لماذا يسخر بعض الكتاب من نقادنا القدماء ، ولو نظروا إليهم بعين الإنصاف لوجدوا عندهم بعض ما يعيبونهم بالغفلة عنه .

جاء فى كتاب ابن قتيبة (الشعر والشعراء) فى ترجمة (جران العود) . ويستملح قوله :

بان الأنيس فما للقلب معقول
ولا على الجيرة الغادين تعويل
يوم ارتحلت برحلى قبل برذعتى
والقلب مستوهل بالبين مشغول
ثم اغترزت على نضوى لأرفعه
إثر الحمول الغوادى وهو معقول

ويفهم من قوله (يستملح) أن أرباب الأذواق السليمة قبله ، وفى عصره يستملحون هذه الأبيات ، وقد سجل هو هذا الرأى ، ولم يعقب عليه بما يدل على أن هذه الأبيات مليحة عنده أيضاً .

وبدهى أن ملاحة هذه الأبيات لا ترجع إلى ما فيها من فكرة أو حكمة ، أو خلق حسن ، وإنما ترجع إلى هذه الصورة العجيبة الطريفة التى عبر بها الشاعر عن ذهوله ودهشته من فراق الأحبة ، فهو يضع الرحل قبل البرذعة ، ومن حق البرذعة أن توضع أولا ، لأنها تكون أسفل الرحل ، وهو يحط نفسه فوق جمله ليبعثه على المسير ، وينسى أنه لم يفك عقاله ، وخير ما يقال فى هذه الصورة إنها مليحة ، فهذه الكلمة تعبر تعبيراً دقيقا عما يحسه متذوق هذا الشعر .

بينما يثبت ابن قتيبة هذا فى كتابه يجىء ناقد حديث فيذكر بيتين من الشعر قريبين من هذه الأبيات ، ويبين ما فيهما من جمال لا يدرى ماذا يقول عنه ابن قتيبة ، ولنترك الناقد يتحدث عن فكرته ، لندع القارئ يتأمل ويعجب .

يقول الدكتور محمد مندور فى كتابه : (النقد المنهجى) : « وهذه نظرة الفقيه ابن قتيبة ، وهى بدورها نظرة ضيقة ؛ إذ من الواضح أن مادة الشعر ليست المعانى الأخلاقية ، كما أنها ليست الأفكار ، وإن

من أجوده ما يمكن أن يكون مجرد تصوير فنى ، كما أن منه ما لا يعدو مجرد الرمز لحالة نفسية رمزاً بالغ الأثر ، قوى الإيحاء ؛ لأنه عميق الصدق على سذاجته ، ولعل خير الأمثلة على ذلك قول ذى الرمة الشاعر الدقيق الحس وقد حط رحاله بمنزل الحبيبة وتفقدها فلم يجدها :

عشية مالى حيلة غير أننى
بلقط الحصى ، والخط فى الترب مولع
أخط وأمحو الخط ثم أعيده
بكفى ، والغربان فى الدار وقع

فأى معنى يريد ابن قتيبة من مثل هذه الصورة الجميلة الصادقة ؟ .

صورة شاعر أصابه الحزن بالذهول فجلس إلى الأرض منهمكا يائسا ، يخط ويمحو الخط بأصابع شرد عنها اللب فأخذت تعبث بالرمال وفى الغربان الواقعة بالدار ما يملأ الجو أسى ولوعة ، وهل أصدق من هذا وصفا ؟ وهل أقوى منه على إيحاء ؟ ثم من يدرينا ؟ لعل جماله فى خلوه من كل فكرة ، ولعل صدقه فى تناهى بساطته .

وهكذا يظهر لنا ما فى نظرة ابن قتيبة من ضيق عندما يتطلب معنى فى كل بيت من الشعر ، كما ظهر لنا فساد رأيه فى العلاقة بين اللفظ والمعنى .

أعتقد أن أى منصف يقرأ هذا الكلام وما نقلته عن ابن قتيبة لا يسعه إلا أن يحكم بمدى الظلم الذى يلحقه نقادنا المحدثون بنقادنا القدماء ، بل أعتقد أن الدكتور مندورا نفسه لو وقع نظره على حكم ابن قتيبة على الأبيات التى نقلنا عنه أنه كان يستملحها كما استملحها من قبله ، أقول لو وقع نظر الناقد على هذا الحكم لأعفى نفسه من السطور التى أراد بها أن يهون من شأن الرجل ، وأن يلزمه الحجة فى صورة بارعة خلت من (معنى) وهى جميلة حسنة .

فالصورة التى أشاد بها الدكتور هى نفس الصورة التى حكم لها ابن قتيبة بالملاحة ، صورة ذاهل لا يدرى ما يفعل ، وهو يقوم بأعمال تدل على شرود لبه ، واضطراب عقله غير أن صاحب ابن قتيبة دل عليها بوضع الرحل قبل البرذعة ، وبالوثوب على الجمل دون أن يفك عقاله ، وصاحب الدكتور مندور دل عليها بالخط على الرمل ، ثم محو الخط ، ثم إعادته ... وهكذا .

ومن يدرينا — بل هو ما نرجحه — لعل ابن قتيبة لو اطلع على بيتى ذى الرمة لاستحسنهما كما استحسن أبيات جران العود .

أليس الأمر كما قلت من أن نقادنا اعتمدوا على مقدمة ابن قتيبة وراحوا

يحاسبونه على ما ورد فيها ، وكان الواجب أن يقرءوا كل الكتاب بل أن يطالعوا كل كتبه الأخرى قبل أن يرموه بضيق النظر والسذاجة فى النقد إلى آخر ما رموه به من نقائص ؟ ! .

ثم نعود إلى مناقشة ابن قتيبة فيما أورده من شواهد فنقول :

لعل أبيات كثير : (ولما قضينا ...) أكثر الشواهد حظوة بنظر النقاد فيها ، فقد عرض لها أبو هلال العسكرى وكان رأيه فيها كرأى ابن قتيبة ، ثم عرض لها عبد القاهر الجرجانى ، فأبان ما فيها من صدق الشعور ، وجمال التعبير ، وروعة الخيال ، وهو يجرى على أصله الذى ظل يدافع عنه فى كل ما كتب فى البلاغة ، وهو أن جمال الكلام إنما يرجع إلى معناه ، فهو يذكر هذه الأبيات ويحللها ليثبت أن ثناء العلماء عليها من جهة ألفاظها ، ووصفها بالسلاسة لم يكن إلا لاستعارة وقعت موقعها وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان ، وبعد أن مهد هذا التمهيد شرع فى تحليل الأبيات فقال : فأول محاسن هذه الأبيات التعبير عن قضاء المناسك كلها ثم التنبيه على طواف الوداع فى الشطر الثانى ثم وصل الرحيل بمسح الأركان ، والدلالة بلفظة الأطراف على الصفة التى يختص بها الرفاق فى السفر من التصرف فى فنون القول ، أو على ما هو عادة المتظرفين من التلويح والإشارة ، وقد رأى أن ذلك ينبيء عن طيب النفوس ، وقوة النشاط ، وفضل الاغتباط لألفة الأحباب ، وتنسم روائح الأحبة والأوطان .

أما الاستعارة اللطيفة التى أصابت موقعها فهى فى جعل سلاسة سير الإبل كالماء تسيل به الأباطح ، وذلك إخبار عن سرعة السير ووطاءة الظهر ، وفيه ما يزيد من نشاط الركبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا ، والتعبير بأعناق المطى دون التعبير بالمطى يشير إلى أن السرعة والبطء يظهران غالبا فى أعناقها .

ثم يخلص عبد القاهر إلى رأيه وهو أنه لا توجد حسنة خاصة باللفظ حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ، ولو ذكرت بانفرادها فالحسن إذن فى النسج والتأليف وليست الألفاظ هى التى تحوز الفضيلة باجتماعها ، وإنما ذلك شأن المعانى .

ولا شك أن كثيرا من النقاد تأثروا بتحليل عبد القاهر لهذه الأبيات ، وأنحوا باللائمة على ابن قتيبة الذى لم يدرك ذلك التناسق التعبيرى الخاص ، وذلك الإيقاع الناشيء من

التناسق ، وتلك الصور التي يشعها التعبير كما يقول أحدهم (١) .

والحق أن الشيخ عبد القاهر حمل الأبيات أكثر مما تحتمل ، وأننا لو أخذنا بهذه الطريقة في تحليل الشعر لم يعوزنا أن نلتمس لأضعف الشعر فضائل من هذا القبيل فكلمة « ظلال الألفاظ » التي يلجأ إليها بعض النقاد كلمة مرنة ، ولا يمكن معها الضبط والتحقيق .

والحق - كذلك - أن هذه الأبيات تروعنا في سهولة ألفاظها ، وحسن مخارجها ، وأن المعنى الرائع الذي يقف عنده القارئ الحصيف لا يوجد فيها ، فالمتذوق للشعر قد يبهره معنى فيقف متأملا مفكرا معجبا كما نجده في شعر ابن الرومي وأبي تمام وكثير من الشعراء وقل أن نجد شعرا جيدا ولا نجد فيه من مثل ما ذكره عبدالقاهر وليست هذه هي المعاني التي ينوه بها ابن قتيبة على حد ما نوه بمعنى البيت :

يغضي حياء ويغضى من مهابته

فما يكلم إلا حين يبتسم

وليس من شك في أن الأمر الذي دعا عبد القاهر أن يطيل في استخراج معان لهذه الأبيات هو دفعه بشدة أن يكون حسن الكلام راجعا إلى لفظه ، كما أن من المسلم به أن في الأبيات ألفاظا موحية ككلمة (أطراف الأحاديث) ومثل كلمة ولم ينظر الغادي الذي هو رائح فهذه العبارة تدل على أن كل إنسان مشغول بنفسه عند الرحيل وهذا شأن من قضى وطره ، وأزمع العودة إلى أهله .

وبقدر ما أطال عبد القاهر في استخراج معان من هذه الأبيات قصر ابن قتيبة كما قصر أبو هلال في تحليلها ، وقد سلباها كل فضيلة غير فضيلة اللفظ ، فعندهما أنه لا طائل تحت هذه الأبيات ، ولا معنى فيها ، وهو - منها - وقوف عند المعنى الأول ، ولعل ما رآه عبد القاهر يجعلانه من محاسن الألفاظ وهو - في الجملة - نظر غير سليم .

وأما أبيات جرير : (إن الذين غدوا بلبك غادروا . . البيتان) و (إن العيون التي في طرفها حور . . البيتان) فقد علق بعض النقاد المحدثين على البيتين الأولين بأن فيهما خيالا بديعا ، وتصويرا رائعا ، وجمالا في التعبير ، وصدقا في الشعور وكل هذا حسن ، ويبدو من صنيع ابن قتيبة - وإن لم يصرح بذلك - أنه يجعل كل هذا من دلالات الألفاظ ، وقد قال عن هذين البيتين - كما سبق - إنهما من

---

(١) الأستاذ سيد قطب في كتابه (النقد الأدبي) ص ٤٩ .

الشعر الذى حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلا ، والحقيقة أن القصيدة كلها التى منها هذان البيتان رائعة النسج ، عذبة الألفاظ بديعة الخيال ، ولكن المعانى فيها نادرة .

وطبيعى أن كل كلام له معنى ، وإلا لكان خلقا من القول ، وكيف يمكن أن يتبادر إلى الذهن أن شعرا جميلا أو رديئا قد خلا من معنى يدل عليه ، غير أن المعنى الذى يقف عنده ناقد كابن قتيبة معنى خاص ، وهو الذى ينفيه عن مثل هذين البيتين .

وأبيات جرير تعجبنا وتروعنا ، وقد أعجبت الأوائل فكانوا يذكرونها فى معرض الإشادة بجرير وتفضيله ، قال بعض نقدة الشعر : رأيت أعرابيا فأعجبنى ظرفه ، فسألته : أجرير أشعر أم الفرزدق ؟ فقال الأعرابى : بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومديح وهجاء ، ونسيب ، وفى كلها غلب جرير . قال فى الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم
حسبت الناس كلهم غضابا

وفى المدح :

ألستم خير من ركب المطايا
وأندى العالمين بطون راح

وفى النسيب :

إن العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وفى الهجاء :

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وذكر بعضهم أن قول جرير (إن الذين غدوا . .) أغزل ما قالته العرب .

وأما بيت لبيد فقد ذهب فيه بعض النقاد والمحدثين مذهب ابن قتيبة ، فقال ، قول لبيد :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه
والمرء يصلحه الجليس الصالح

يقول ابن قتيبة فى هذا البيت : إنه جيد المعنى ، وقصرت الألفاظ عنه فهو قليل الماء والرونق ، وعندى أن هذا البيت قد استأثر العقل به فكان جيد المعنى ، ولكن تعوزه العاطفة التى كانت تبعده عن أن يكون نظما لحكمة معروفة ، وتبعث فيه خيالا جميلا ، وأسلوبا موسيقيا ، ولعلك تشعر بحاجة إلى شىء من التأويل لتصل بين الشطرين صلة شعرية ملائمة [1] » .

ونحن حين نحكم الذوق المجرد عن التعليل نحس فى هذا البيت بما أحس به ابن قتيبة ، فهو فعلا قليل الماء والرونق .

(١) الأستاذ أحمد الشايب فى كتابه : (أصول النقد الأدبى) ص ١١٦ .

ولست مع الناقد الفاضل فى أن الوصل بين الشطرين صلة شعرية تحتاج إلى شىء من التأويل ، بل الأمر من الوضوح بحيث لا يحوج إلى شىء من الفكر المتأمل ، إلا إذا كان الناقد يفهم من هذا البيت معنى غير ما نفهم .

لبيد يريد أن يقول : إنه لا يصلح الإنسان شىء أجدى عليه من نفسه ، فهى التى تحسن عتابه ، وتوجيهه إلى الخير ، وتنفيره من الشر ، ومع هذه الحقيقة الواضحة فإن الجليس الصالح يصلح الإنسان ، ولكن لا كنفسه ، وإن كان فيه بعض الغناء .

وأخيراً لعل ابن قتيبة أول من نبه من أصحاب الكتب المؤلفة إلى قصور أشعار العلماء وتخلفها ، وأنها ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة ، ثم ضرب مثلا مقنعا بشعر للخليل بن أحمد ، ولعله كذلك - كان منصفاً حين استثنى خلفا الأحمر ، وعده أجودهم طبعاً ، وأكثرهم شعراً ، وقد كان خلف كذلك ، فقد كان معلما للأصمعى ومعلما لأهل البصرة ، قال عنه الأخفش : لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف الأحمر والأصمعى ، ومع ذلك قال عنه بعض اللغويين : كان خلف يضع الشعر ، وينسبه إلى العرب فلا يعرف ، وله ديوان شعر .

وحدث عنه الناقد الذواقة على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب الوساطة ، فقال إنه كان مع حماد وابن دأب ينحلون القدماء شعرهم فيندمج فى أثناء شعر القدماء ، ويغيب فى أضعافه ، ويصعب على أهل العناية إفراده وتبصره .

وإذا كان خلف بهذه المنزلة كان شعره جيداً لأنه يشتبه على الناقد البصير فلا يفرق بينه وبين الشعر المطبوع .

وبعد قرون من وفاة ابن قتيبة جاء ابن خلدون فكان رأيه فى أشعار العلماء هو رأى ابن قتيبة غير أنه زاد فعلل ذلك بنوع المحفوظ ؛ لأنه يرى أن نوع المحفوظ له تأثير فى الملكة الأدبية ، والعلماء يعنون بحفظ القوانين العلمية ، وهى بعيدة عن الأساليب الأدبية فتكون ملكتهم قاصرة فى الأدب .

(وبعد) فإنه لم يكن ينبغى أن نطالب من ابن قتيبة أن يؤصل أصولا واسعة شاملة فى النقد ، فإن ذلك تكليف بما هو فوق الطاقة فى ذلك العصر ، وحسبنا أن الرجل فتح أبوابا واستعان بعلمه وذوقه وترك لنا مسائل أعانت النقاد بعده وأعانتنا ، وكانت حلقة لها قدرها فى مسير النقد الأدبى عند علماء العرب ، وكانت فصلا ممتعا من فصول (اللفظ والمعنى) .

على العمارى

تداخل المذاهب الفقهية

للدكتور علاء الدين شلبي

رأينا فيما سبق مدى ما بين المذهب الحنفي والمذهب المالكي من تداخل واتصال . ولعلنا لمسنا زوال التعصب للرأي بين كبار الأئمة المجتهدين ورأينا تقدير الإمام مالك رأي أبي حنيفة وإن كان هو نفسه لا يأخذ به كما رأينا الدور الذي قام به محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة في مزج المذهبين.

أما محمد بن إدريس الشافعي فله دور أوسع في هذا التقريب فقد تتلمذ أولا على مالك وكان أستاذه يحبه ويجله وكان هو ميالا للتفاريع وتوليد الجزئيات ولم يكن مالك يحتمل مثل هذا الإلحاح من غير الشافعي من تلاميذه فكان هؤلاء يوعزون إليه أن يسأل الإمام عما لا يجرءون عليه من الأسئلة التي لا يحبها الإمام وكثيرا ما كان الإمام يقول له أعراقي أنت أو أمن أهل الرأي أنت ؟ مستنكرا عليه هذا المذهب الجدلي ولكنه إذ فرغ من الدرس عليه وجهه إلى العراق ليغذي نزعة الرأي التي عنده بمنهج أبي حنيفة وفي مدرسته.

وقد تتلمذ الشافعي في العراق على محمد بن الحسن إذ كانت رياسة المذهب قد انتهت إليه بعد أبي يوسف وبهذا يكون الشافعي قد عاد إلى صنوه في التلمذة على مالك ، وقد كتب الشافعي هناك رسالته الأولى وحدد فيها مذهبه وهو مذهب وسط بين اتباع الأثر والاستنارة بالرأي ولكنه في وسطيته أكثر ميلا للمالكية .

ونظرا لأن العلاقة بين الشافعي وأستاذه العراقي لم تكن على وفاق تام قامت بينهما عدة مناظرات ظهرت فيها روح الجدل العراقي كما ظهرت مقدرة الشافعي على تشقيق الكلام واستنباط الأحكام ولكن مكانة الأستاذ هناك وقوة نفوذه وكثرة أتباعه كانت من أسباب مضايقة الشافعي ولم تكن هذه الخصومة ترجع إلى مجرد الخلاف في الرأي وطريقة الاجتهاد بل كان هناك عوامل أخرى وراء ذلك جعلت الشافعي يضيق بالعراق فرحل عنه بعد إقامة لم تطل أكثر من عامين .

كان الشافعي مثالا للإخلاص للعلم وكان إذا اقتنع برأي يهمه أن يجد له أنصارا وقد عرضت عليه بعض المناصب الكبرى في العراق فأعرض عنها مخافة أن تشغله عن العلم ولعله كان يهمه أن يظل بالعراق فإنه بعد رحيله

عنه عاد إليه ثانيا ولكن لم يستقر مقامه به ولم يكن العراق ولا الحجاز مستعدين لقبول مذهبه وفى كلا الإقليمين مدارس أساتذته وتلاميذتهم ورواج فقهم ولهذا اتجه إلى مصر.

دخل الشافعى مصر سنة ١٩٨ﻫ وكانت كلها من أتباع المذهب المالكى وكان بنو عبد الحكم هم القائمين على هذه المدرسة. وقد تعجب أن الشافعى هم بالرحيل عن مصر لولا أن أواه بنو عبد الحكم فأنزلوه دارهم وتبرعوا له بالمال وجمعوا له من ذوى الثراء وأفسحوا له فى المسجد بجانبهم وكان عبد الله بن عبد الحكم شيخ المذهب المالكى يجل علمه ويقدر اجتهاده والتف حول الشافعى طائفة من التلاميذ كانوا مالكيين قبل مقدمه وشجعه هذا كله على الإملاء والدرس والتأليف حتى أخرج فى خمسة الأعوام التى أقامها بمصر ثروة طيبة من الفقه الإسلامى وأحدث تموجات تجديدية فى الفكر المصرى لعله هو أول من أدخلها عليه ولم تكن بين الشافعى وبين مالكية مصر مناظرات كالتى قامت بينه وبين محمد بن الحسن فى العراق بل إن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم كان صديقا حميما له وكان المتعصبون من المالكية يشكون لأبيه حضوره على الشافعى وملازمته له فكان يقول لهم إنه: شاب طموح يحب أن يطلع على الأفكار والآراء الأخرى ولكنه كان إذا خلى بابنه حثه على التزام الشافعى والاستفادة منه ومن العجيب أن محمدا هذا كان يطمع أن يخلف الشافعى على كرسيه ورياسة مذهبه وكان الناس يتوقعون ذلك لما بينهما من محبة ولما كان يبديه الشافعى من إجلال وتقدير لذكاء محمد هذا وعلمه ولكن الشافعى آثر البويطى برئاسة مذهبه من بعده فعاد محمد إلى حلقة المالكية ولم تقم بينه وبين البويطى منازعات.

اعتمد فقه الشافعى قليلا على الرأى وكثيرا على الأثر ولكنه فى صوغه واحتجاجه يذهب مذهب العراقيين الجدلى وكتاب الأم بما فيه من اعتراضات ورود عليها وأسئلة وأجوبة يذكرنا بطريقة الزمخشرى فى كشافه وكلاهما من أثر المذهب العراقى فى الجدل.

يتضح من هذا العرض السريع أن هذه المذاهب الثلاثة ذات صلة كبيرة بعضها ببعض وعلى حظ من الوفاق فى الأصول، أما المذهب الرابع مذهب الحنابلة فقد قام على الحديث وجانب الرأى وكان ابن حنبل من تلاميذ الشافعى ولم يترك كتبا فقهية تحدد مذهبه ولهذا يعده الشافعية من رجاله ويعده المحدثون من رجالهم وكل ما تركه هو فتاوى خالف فيها كلا من الشافعى ومالك ثم كان أتباعه هم الذين حددوا المذهب وألفوا فيه ولم يكثر أتباعه فى هذا المذهب لتقيده بالحديث ونفوره من الرأى وهو على أى حال فرع من مذهب مالك والشافعى.

وقد أتاحت المقادير لهـذا المذهب في العصور المتأخرة رجالا عملوا على نشره وفتحوا فيه باب الاجتهاد – فابن تيمية وابن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني كل أولئك نشروا منحاه في إجلال الحديث والأخذ به ونفروا من التقيد بأقوال الفقهاء أي كان لونهم وطريقتهم وهم في الواقع نشروا مذهب الحديث ودعوا إلى الاقتداء بالسنة ومع ما هم عليه من محاربة البدع وتحريم كثير من الأشياء جعلوا الفقه الإسلامي فوق المذاهب وفرقوا بحق بين الشريعة وبين الفقه فالفقه اجتهاد أما الشريعة فهي ينبوع هذا الفقه ، ولكل قدير على الاجتهاد أن يجتهد ويفهم من النص غير ما يفهمه الآخرون وقد يعطى النص حكمين متباعدين ولكن لا بأس على أي من المجتهدين ما دام لهم سند من القرآن أو الحديث . وبهذا فتح الحنابلة باب الاجتهاد بعد أن أغلق زمنا طويلا وأعادوا إلى الفقه بعض المرونة وتشددهم الذي يعاب عليهم هو في واقعه دعوة إلى التسامح لأنهم تشددوا في تحريم التقليد وتقديس الأشخاص ودعوا إلى إعمال العقل والاتصال بالله مباشرة في العبادة والاتصال بشرعه مباشرة عن طريق الشريعة لا عن طريق الفقه فزجوا بين المذاهب جميعا ولم يفرقوا بينهـــا .

ولا يشذ الفقه الشيعي وخصوصاً فقه الفاطميين عن هذا ، فالفقه الفاطمي أنضج فقه شيعي وهو يكاد أن يكون صورة من فقه المالكية وأكبر الظن أنه استفاد منه كثيراً في مصر والمغرب ، أما فقه الشيعة الإمامية فإذا استثنينا بعض مخالفات في العبادات وقوانين الأحوال الشخصية وهي الصور التي تخالف مذاهب السنيين نجد أن قوانين ومعاملات وأحكام البيع والرهن وما إليها تصلح للاتفاق مع المذاهب السنية ونحن نخرج من حسابنا كل الأفكار الباطنية فهي في حقيقتها ليست إسلامية ، وقد كفانا كل من الغزالي وابن تيمية وابن حجر الرد عليهم في هذا . ولكننا نقبل طريقة اجتهاد الشيعة وخصوصا ما نجده في كتب داعي الدعاة الفاطمي كروافد الفقه الإسلامي ولنا أن نتقبل منها ما نتقبله ونرفض ما نرفضه ومنذ سنوات أدخل الأزهر في منهجه درس الفقه الشيعي وهو طبعا يدرسه للثقافة والتاريخ لا للعبادة والعمل وهذا الدرس يطلع أبناءه على لون من التفكير يفيدهم في منهجهم ويمدهم بزاد جديد ولكي تكون الدراسة الفقهية في الأزهر والكليات التي تعني بدرس الفقه الإسلامي دراسة موضوعية يجب أن تبحث أبوابه ومسائله الكبرى في جميع المذاهب التي تناولته فإذا كانت جزئية من جزئياته محل

تضارب الآراء واختلاف وجهات النظر كان لنا أن نأخذمنها ما يناسب حياتنا وليس الحتم أن يكون المناسب هو الإباحة بل قد يكون المنع هو المناسب وقد يكون المناسب غيره وقد قال عمر ذاك على ما قضينا وهذا على ما نقضى .

ونحن فى العصر الحديث عصر التوحد فى الاتجاهات المختلفة نرى أنه من المناسب أن نأخذ بمذهب فقهى واحد هو الفقه الإسلامى ولا داعى لأن يقسم الطلاب فى الأزهر والمسلمون فى الأقطار إلى شافعية وأحناف ومالكية وغيرهم فقد حالت هذه الطريقة دون اتحاد المسلمين على رأى واحد فى العبادة كما حالت بين طلاب الأزهر وبين الدراسة الموضوعية كما حجبت عنهم كتبا فى الفقه ما كان يليق أن تهمل من دراستهم . - فالدراسة المذهبية هى التى نحت كتب ابن حزم الظاهرى عن دراسة الأزهر وهى من غير شك أخصب ما كتبه وأكثر جدوى وما زلت آمل أن أرى كتاب المحلى ينقح ويصحح ويطبع بأيد أزهرية وأن يأخذ مكانه من دراسة الأزهريين ومراجعهم .

هذا المنهج الذى تحدثت عنه هو ما ينبغى (فيما أرى أن يكون أساس التطوير الجديد لدراسة الفقه الإسلامى) .

أحمد الدين شلبى

نزل بأعرابى من بنى سعد أضياف فقام إلى الرحى فطحن لهم فمرت به زوجته فى نسوة فقالت لهن : أهذا بعلى ؟ فأخبر بذلك فقال :

تقول وصكت صدرها بيمينها
أبعلى هذا بالرحى المتقاعس
فقلت لها لا تعجبى وتبينى
بلائى إذا التفت على الفوارس
ألست أرد القرن يركب ردعه
وفيه سنان ذو غرارين يابس
إذا هاب أقوام تجشمت هول ما
يهاب حمياه الألد المداعس
لعمر أبيك الخير إنى لخادم
لضيفى ، وإنى إن ركبت لفارس

رسالة المسجد في نشر الثقافة والحضارة

للأستاذ أحمد الشرباصي

— ٢ —

جامعات عامة :

يسمى كثير من الباحثين المساجد بالجامعات العامة ، وذلك لعدم الاختصاص فيها ، ولتفتح أبوابها للجميع ، حتى حلا لبعض أن يلاحظ وجه الشبه اللفظي والمعنوي بين كلمتي « الجامع » و « الجامعة » ، وقد قالوا إن كلمة « الجامعة » لها مدلولات عدة ، منها المدلول اللغوي ، وهو المجموع — أي كل العدد — والعموم . ومنها المدلول الموجود لكلمة في اللاتينية المتأخرة وهو الجماعة ، والشركة ، ومنها المدلول المفهوم من معنى مجموع الأساتذة والطلاب يجتمعون في مكان لتدريس العلم وتلقيه في الفروع العليا من المعرفة .

وأغلب هذه المدلولات موجود في معنى « الجامع » ، فالجامع يضم الناس وهم العموم والمجموع والجامع فيه معنى الاجتماع والتلاقي والجامع تدرس فيه العلوم المختلفة الشريفة التي يحلق فيها الفكر كثيرا من الأحيان في آفاق عالية سامية قد تبلغ أدق مسائل الفكر من أمور العقيدة والروح .

وإنا لنقرأ في الجزء الأول من كتاب « مساجد ومعاهد » هذه العبارة : « المساجد الجامعة وإن كان الهدف من إنشائها هو أداء الفرائض ، إلا أنها ساعدت على التآلف والتعارف ، ونشر التعليم وإذاعته ، ونشر أوامر الدولة وقوانينها ، وكانت تتخذ محاكم لفض المنازعات الدينية والمدنية ، وأقيم فيها بيت المال .

وكانت تعقد فيها الدروس ، كما أقيمت الكتاتيب لتحفيظ القرآن والتعليم الابتدائي فكانت بمثابة جامعة للطالب ، ينشأ فيها طفلا ويتخرج فيها عالما .

ونستطيع أن نلحظ النزعة العالمية في مدرسة المسجد ، لأننا لا نشترط في دخولها سنا معينة بل يدخلها الكبير والصغير ، والناشئ الفتى والشيخ الطاعن في السن ، ولا نشترط في دخولها غنى أو فقرا ، ولا حسبا ولا نسبا بل يدخلها الأبيض والأسود والغني والمعدم وليس هناك اشتراط لمصروفات أو نفقات بل التعليم هنا بالمجان ، وهو مبذول لكل طالب يطلبه بلا تفرقة بين شخص وشخص ، وليس هناك من تمييز بين فرد وفرد في المكان أو الزمان أو الإجابة أو غير ذلك من الأمور .

وإذا نظرنا إلى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى صدر تاريخه نجد أنه كان مفتتح الأبواب للجميع ، لا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، ولا بين نسب ونسب ، ولا بين مقام ومقام ، فأبو بكر القرشى ، وأبو ذر الغفارى ، وأبو موسى الأشعرى اليمنى ، ومنقذ بن حبان البحرينى ، وبلال الحبشى ، وصهيب الرومى ، وسلمان الفارسى ، وفيروز الديلمى ، الكل يتلاقون فى رحاب المسجد ، فلا يحس أحدهم بفارق بينه وبين غيره ، والكل يجلسون فى حلقة العلم الإسلامى يغترفون من مناهله ، كل حسب طاقته ومبلغ قدرته .

وجامعة المسجد مفتحة الأبواب للرجال والنساء على السواء ، فللمرأة الحق فى السعى إلى المساجد ، وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« لا تمنعوا إماء الله بيوت الله » وللمرأة المسلمة أن تشهد الجماعات والجمع ، وأن تسمع الخطب والدروس والعظات ، وليس هذا فقط ، بل للمرأة أن تشارك فى المناقشة ، ونحن نعرف كدليل على ذلك أن الفاروق عمر بن الخطاب أراد ذات يوم أن يضع حداً للمهور خشية مغالات الناس فيها ، فقامت امرأة من صف النساء فى المسجد تقول :

إن هذا أمر ليس لك يا عمر ، وكيف تفعل ، والله تعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً . أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » ؟ .

وتدبر عمر فيما قالت المرأة ، فاستبان له صوابها ، فلم يستكبر عليه أن يرجع عن رأيه وقال قولته التى رواها التاريخ ووعاها سمع الزمان : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! .

ومما يدلنا على أن المرأة كانت تأخذ حظها كاملا من ثقافة المسجد وتوعيته أن النساء حينما رأين أن الرجال يتغلبون عليهن فى أوقات الاجتماع المشتركة داخل المسجد ذهب وفد منهن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن له : يا رسول الله ، لقد غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما نلقاك فيه واستجاب الرسول لهن وخصص يوما يلقاهن فيه ! .

وفى تاريخ الإسلام كثيرات من النساء تألقن فى سماء الثقافة والعلم والمعرفة ، وبلغن درجة التعليم والتدريس ، وكانت أغلب الدروس منهن تلقى فى المساجد الجامعة التى أخذت روح الجامعات ، ففاض غيثها العلمى هنا وهناك ومن هؤلاء السيدة نفيسة بنت أبى محمد حسن التى يروى أن الإمام الشافعى لما دخل مصر سمع عليها الحديث ، وكانت وفاته سنة ثمان ومائتين للهجرة .

وأم المؤيد زينب بنت الشعرى التى سمعت من الكثيرين ، وأجاز لها الحافظ أبو الحسن

الفارسى ، والزمخشرى المفسر صاحب : « الكشاف » وغيرهما ، وكان من تلاميذها ابن خلكان صاحب « وفيات الأعيان » ، وقد توفيت بنيسابور سنة خمس عشرة وستمائة.

وشهدة بنت أبى نصر أحمد بن الفرج بن عمر الأبرى البغدادية ، التى سمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها ، وكان من تلاميذها الإمام المشهور ابن تيمية الحرانى الذى سمع منها الحديث ، وتوفيت سنة أربع وسبعين وخمسمائة .

ومنهن العروضية مولاة أبى المطرف عبد الرحمن بن غلبون الكاتب ، التى أخذت العلم عن مولاها ثم فاقته وسبقته ، وكانت تحفظ الكامل للمبرد ، والنوادر للقالى وتشرحهما ، وقرأ عليها هذين الكتابين أبو داود سليمان ، وتوفيت عام أربعين وخمسمائة .

وفاطمة بنت علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندى ، كانت فقيهة محدثة مدرسة زاهدة ، ذاعت مؤلفاتها ، وكان الملك العادل نور الدين يستشيرها ويستفتيها ويعضدها .

وفاطمة بنت جمال الدين سليمان الأنصارى الدمشقى. كانت عالمة محدثة ، وممن أخذ الحديث عنها الصفدى ، وكان لها مال كثير أنفقته فى وجوه الخير ، وتوفيت سنة ثمان وسبعمائة .

وست الوزراء حفيدة وجيه الدين الحنبلى وبنت عمر بن أسعد بن المنجا ، كانت محدثة مشهورة ، أخذت صحيح البخارى ومسند الشافعى عن الزبيدى ، وروى عنها الحديث الأمير عون والقاضى كريم الدين وغيرهما .

وزينب بنت يحى بن عز الدين بن عبد السلام السلمى ، وهى حفيدة الإمام المشهور العز بن عبد السلام ، وتفردت برواية « الجامع الصغير » للطبرانى ، وتوفيت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة .

وبنت الكمال زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسية . قال عنها الذهبى : إنها تفردت بقدر حمل بعير من الأجزاء بالإجازة ، وتزاحم عليها الطلاب واستفادوا منها كثيرا ، وماتت سنة أربعين وسبعمائة . وأخذ الإجازة عنها ابن بطوطة الرحالة المشهور ووصفها بأنها رحلة الدنيا.

وصفية بنت أحمد بن أحمد المقدسية الصالحية، سمعت من الكرمانى وابن عبد الدائم صحيح مسلم وغيره ، وحدثت بصحيح مسلم وغيره وماتت سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

وجويرية بنت أحمد بن أحمد بن الحسين ابن موسك بن موسى الهكارى ، سمعت من ابن الشحنة وست الوزراء وابن عمر الكردى وابن الطباخ ، وقال عنها ابن حجر : « وسمع منها بعض مشايخنا وكثير من أقراننا » . وماتت سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة .

وزينب بنت عبد الله بن عبد الحليم الحنبلية التى كانت من نساء الحديث المشهورات .

وزينب بنت محمد بن عثمان بن عبد الرحمن الدمشقية العالمة الفصيحة البليغة الفقيهة المحدثة، وكان من تلاميذها ابن حجر العسقلاني وكثيرون ، وأقبل على درسها الكثيرون .

وزينب بنت عثمان بن محمد لؤلؤ الدمشقية كانت عالمة فاضلة مبرزة فى علوم السنة ، وأخذ عنها ابن حجر العسقلانى ، ولها رسائل فى الفقه والسنة ، وتوفيت سنة ثمانمائة .

وعائشة بنت على بن محمد بن عبد الغنى بن المنصور الدمشقية ، كانت عالمة بالنحو والصرف والبيان والعروض والحديث ، وفتحت حلقة للتدريس ، وانتفع الناس كثيراً بعلومها ومعارفها .

وعائشة بنت محمد بن عبد الهادى بن عبد المجيد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد ابن قدامة المقدسى . كانت سيدة المحدثين بدمشق على عهدها ، وروى عنها ابن حجر، وقرأ عليها كتباً كثيرة ، وتوفيت سنة ست عشرة وثمانمائة .

وعائشة بنت يوسف بن أحمد بن نصر الباعونية الأديبة التقية ذات العلم والعمل ، صاحبة مؤلفات وأشعار ، وتوفيت سنة ثنتين وعشرين وتسعمائة .

وقد تحدث عن هؤلاء النساء ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » ، وابن كثير فى « البداية والنهاية » ، وابن حجر العسقلانى فى « الدرر الكامنة » ، وابن بطوطة فى رحلته وغيرهم ، كما يمكن العثور على أسماء عشرات من النساء اللائى تألقن فى سماء العلم ، وكانت لهن صلاتهن بالمساجد .

ويذكر التاريخ أن الأزهر الشريف كان يعقد فيه مجلس من مجالس الحكمة التى أنشأها الفاطميون لدراسة الدعوة الفاطمية ، وكان يعقد فيه مجلس للنساء . وفى صفحات تاريخ الأزهر الشريف ، والمعهد الأحمدى الدينى بطنطا ما يفيد وجود نساء تعلمن فى هذين المسجدين ونلن درجات علمية .

ومن الصبغة العامة للمسجد التى تجعل تأثيره الثقافى ذا ألوان أنه كان منبرا للأمور العامة ، فهذا مثلا عمرو بن العاص يقوم فى مسجده الجامع بالفسطاط ، فيشرح للناس ما يهمهم من أمور ، فيبدأ بالحمد لله والصلاة على رسول الله ، والحث على الزكاة وصلة الأرحام ، ثم يقول :

« يا معشر الناس ، إياكم وخلالا أربعا ، فإنها تدعو إلى التعب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة، وإلى الذلة بعد العزة : إياكم وكثرة العيال ، وإخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال .

ثم إنه لا بد من فراغ يئول إليه المرء فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وبين شهواتها ؛ ومن صار إلى ذلك

فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل ، ولا يضيع في فراغه نصيب العلم من نفسه ، فيحوز من الخير عاطلا ، ومن حلال الله وحرامه غافلا .

يا معشر الناس ، إنه قد تدلت الجوزاء وذكت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعي أن يحسن رعيته . فحي لكم على بركة الله تعالى إلى ريفكم تنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، وأربحوا خيلكم وسمنوها وصونوها وأكرموها ، فإنها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم ونصركم .

واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً وإياكم والمومسات المعسولات ، فإنهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم ، حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ستفتح عليكم من بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لهم فيكم صهراً وذمة) فكفوا أيديكم ، وعفوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه ، وأهزل فرسه .

واعلموا أني معترض الخيل (١) كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة ، حططت من فريضته قدر ذلك . واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية . . .

حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : ولم يا رسول الله ؟ فقال : « لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة » . فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم ، فإذا يبس العود ، وسخن الماء ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر فحي إلى فسطاطكم على بركة الله .

ولا يرجع أحد منكم ذو عيال إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم » .

وهـــذه الخطبة التي ألقاهـــا عمرو بمسجده في الفسطاط لا تقتصر كما نرى على التوجيه والتثقيف في شئون الدين والعبادة فحسب ، بل تدخل في صميم أمور الحياة والتوجيه فيها ، مما يدل على أن ساحة المسجد من طبيعتها أن تكون ميدان توعية ثقافية في كل شئون الدين والدنيا .

أحمد الشرباصي

---

(١) أي يقوم باستعراضها للتأكد من سلامتها وجودتها .

نظرات فى الأدب والتصوف :

المذهب الرّمزى فى أدب الصّوفيّة

للأستاذ محمّد ابراهيم الجيوشى

عرفنا فيما سبق أن الصوفية نهجوا فى الحياة منهجا خاصا ، واختلفت نظرتهم إليها عن نظرة غيرهم ممن يعاصرونهم على اختلاف القرون بهم ، ومع ذلك فقد شاركوا غيرهم فى كثير من الآراء والمشاكل التى عرضت لهم فى محيط حياتهم

والصوفية كغيرهم من الناس فى حاجة إلى التعبير عما يجول فى صدورهم ، ويضطرب فى حنايا قلوبهم ، وإلى تصوير ما يدينون به من الآراء والمعتقدات فى قالب فنى جميل ، من مناجاة ووجد وعشق ، وما يتراءى لهم فى رياضاتهم ومجاهداتهم من لمحات إلهية ، وجذبات روحية ، وإلهامات قلبية ، سواء ما انفردوا به دون سواهم ، أو ما شاركوا فيه غيرهم من الآراء والنظريات .

وهم إلى جانب ذلك فصلوا القول فى السلوك والأخلاق وخفايا النفوس ، وشرح خلجاتها والتعمق إلى أسرارها والبحث عن دفائنها ، تحدثوا عن هذا كله حديث المدقق الفاحص مما يدل على خبرتهم الواسعة بالنفوس وأحوالها .

وقد تركوا فى هذا كله المقالات الضافية والبحوث القيمة والقصائد الجياد التى بلغت الذروة فى الجمال الفنى والتصوير البديع ، ونظراً لصعوبة المعانى التى يرمون إليها ، ووعورة الوصول إليها ، وعمق موضوعاتها لجئوا إلى الرمز والإشارة فى تعابيرهم ، واستعانوا بالصور والتشبيهات والأخيلة يتخذونها وسيلة للإبانة عن أغراضهم ، والكشف عن خلجات نفوسهم ، فهم الذين أوجدوا المذهب الرمزى فى الأدب العربى بلا منازع ، وهم دعاته والواضعون لأسسه والناهجون سبيله تشهد بذلك آثارهم من شعر ونثر .

وقد دعاهم إلى ذلك اللون من التعبير أنهم كانوا يعرضون الكثير من النظريات المعقدة ويدركون أنهم إذا صرحوا بها هاجوا الفقهاء ضدهم ، فكانوا يلجئون إلى الرمز

خشية بأسهم ، وإيثارا للسلامة من شرهم ، وذراً للرماد فى العيون ، ومن السهل على من درس آثارهم الوصول إلى هذه النتيجة التى وصلنا إليها .

وقد ذهبوا فى الرمز مذاهب شتى : فمنهم من رمز بالخمر ، ومنهم من رمز بالحب ، وقال « نيكلسون » إن ذا النون المصرى هو أول من استعمل الرمزية « الباكوسية » التى أغرم بها شعراء الصوفية (١) ومن هذا نعرف أن الرمزية نشأت مع التصوف فى أول العهد به والصوفية أنفسهم قد أثر عنهم ما يفيد التجاءهم إلى الرمز لعمق المعانى التى يعبرون عنها ، وفى ذلك يقول ابن عربى: « ليس فى مستطاع أهل المعرفة إيصال شعورهم إلى غيرهم ، وغاية ما فى هذا المستطاع هو الرمز عن تلك الظواهر لأولئك الذين أخذوا فى ممارستها » (٢) .

ولابن عربى أيضا قصيدة يشير فيها إلى استعمال الرمز فى تعبيراته وكتاباته أوردها فى ترجمان الأشواق وهى :

كل ما أذكره من طلل
أو ربوع أو مغان كلما
وكذا إن قلت ها أو قلت يا
وألا إن جاء فيه أو أما
وكذا إن قلت قد أنجد لى
قدر فى شعرنا أو أتهما
وكذا السحب إذا قلت بكت
وكذا الزهر إذا ما ابتسما
أو أنادى بحداة يمموا
بانة الحاجر أو ورق الحمى
أو بدور فى خدور أفلت
أو شموس أو نبات أنجما
أو بروق أو رعود أو صبا
أو رياح أو جنوب أو سما
أو طريق أو عقيق أو نقا
أو جبال أو تلال أو رما
أو خليل أو رحيل أو ربى
أو رياض أو غياض أو حمى
أو نساء طاعيات نهد
طالعات كشموس أو دمى
كل ما أذكره مما جرى
ذكره أو مثله أن تفهما
منه أسرار وأنوار جلت
أو علت جاء بها رب السما
لفؤادى أو فؤاد من له
مثل مالى من شروط العلما
صفة قدسية علوية
أعلمت أن لصدق قدما

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٨ ترجمة عفيفى .

(٢) التصوف الإسلامى العربى ص ١٤٦

فاصرف الخاطر عن ظاهرها
واطلب الباطن حتى تعلما

وقد نشأ عن هذا اللون من التعبير أن انفرد الصوفية بلغة خاصة بهم ، واصطلاحات لاتتعداهم ، وأساليب تحمل سمتهم دون غيرهم ، حتى لقد دعا ذلك بعضهم أن يؤلف فى معانى هذه الاصطلاحات ، وآخر من عرفنا من هؤلاء الشيخ حسن رضوان « المصرى » من صوفية هذا القرن .

وكان النثر والشعر مجالا فسيحا للصوفية حينما يسجلون رأيا أو يعبرون عن لمحة من لمحات القلب ، وإشراقة من إشراقات النفس فآثارهم موزعة بين كل منهما إلا أن النثر قد ذهب بالجم الغفير من ذلك النصيب ، والشعر الصوفى بالنسبة للنثر قليل ، وإن كان فى الذروة من الجودة كما سنرى .

وكتب الصوفية حافلة بالنثر المنسوب إلى مشايخ الصوفية ، خاصة كتب التراجم منها مثل : حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ، وطبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمى ، ورسالة القشيرى وما أثر عنهم من أحزاب وأوراد وحكم : كالشاذلى وابن عطاء الله السكندرى وكثير سواهما .

وفى الشعراء أظهرهم ابن الفارض ، ومحى الدين بن عربى ، والنابلسى والسهروردى . هذا فى دائرة الأدب العربى ، ويقول الدكتور عبد الوهاب عزام : « إن الأدب الفارسى ويتبعه التركى والأردى قد ترجم عن فكر الصوفية ووجدانهم بالشعر لا بالنثر وبلغ شعراء الصوفية فى هذا السبيل غاية لم يدركها شعراء أمة أخرى »[1] .

هذا مقدار ما بين الصوفية والأدب من صلات ، والمذهب الأدبى الذى آثروه فى التعبير عن آرائهم وترجمة أفكارهم ، وتسجيل خواطرهم ولمحاتهم .

وبعد ، فما هو الأدب الصوفى ، وهل هناك بحق أدب يمكن أن يسمى الأدب الصوفى ، وإن كان فما هى مظاهر ذلك الأدب الذى نريد أن نتكلم عنه .

هذه أسئلة تدور بخاطرنا الآن ، وسنحاول أن نجعل من الفصول الآتية إن شاء الله إجابات عنها وإثباتا لها .

محمد ابراهيم الجيوشى

---

(١) التصوف وفريد الدين العطار ص ٤٢

الثورة الثقافية في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٣ —

الهدف الأسمى للثقافة :

تنبع مقومات الثقافة فى الإسلام - كما تقدم - من طبيعة رسالته وجوهر عقيدته فالإسلام هو الدين الحق الذى أنزله الله على نبيه هدى ورحمة للعالمين ، ومن ثم ينبغى ألا توضع حدود فاصلة بين العلم والدين ، إذ أنهما نشآ من منبت واحد وهو التفكير ، وهما يبتغيان غرضا واحدا هو إسعاد البشرية روحيا وماديا . والسبيل إلى ذلك أن يكون العلم هادفا إلى بلوغ الغرض الأسمى لدعوة الهداية وهو تأمين الناس من شر مايلقون من أنفسهم ومن تقلب الأحداث ، وأن يكون رب العلم إيجابيا بناءاً فى سعيه إلى بث الحكمة والمعرفة بين الناس ، فلا يركن إلى الصوامع والأبراج العاجية ، وإنما يهبط إلى أرض الواقع ليشارك الناس حياتهم ويفيدهم بما حباه الله من ثراء فكرى . قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وقال عليه الصلاة والسلام (لا رهبانية فى الإسلام) .

العلم عطاء وتوصيه :

والمؤمن المثقف الحق هو الذى ينتفع الناس بعلمه ، ولا يبخل به ، ذلك أن العلم أخذ وعطاء ، والله تعالى يسبغ علمه على الصالحين من عباده ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو إمام المعلمين ورائدهم ، وقد قدم أروع المثل فى سبيل تعليم المؤمنين وتثقيفهم فواجب العلماء ألا يدخروا وسعا فى هذا السبيل ، وأن يجعلوا من أنفسهم مراكز إشعاع لنور العلم والمعرفة .

ومصداق ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) ، و (ساعة عالم متكئ على فراشه ينظر إلى علمه خير من عبادة العابد ستين يوما) .

ولكى تؤتى الثقافة ثمارها ينبغى أن يكون العمل الجماعى دستورها ، فلا ينفرد عالم به ، وإنما يشارك الآخرين فى تحصيل المعارف وكشف الجديد منها ، ذلك أحرى أن يوثق الأواصر ويدعم الروابط الفكرية بين أهل

العلم ويعود على المجتمع بالخير العميم نتيجة لحفز الهمم وشحذ الجهود وحشد الطاقات .

وثمة مقوم آخر للثقافة الإسلامية الصحيحة ينبثق من طابعها الإيجابي ، وهو الحركة والمرونة وانفساح الأفق ، فالإسلام دين الحرية يأبى الجمود في العلم والثقافة ، ويحث على التحرر والانطلاق في ظل الشريعة السمحة والمبادئ الخالدة .

النهضة الثقافية تحرر في الرأى ونقد للذات :

ومن شأن هذا التحرر أن يخلق القيادات الرشيدة والخلايا الصالحة فى صفوف المجتمع فتزدهر الحضارة ويعم البشر بنتاجها الخصب ويعمر العالم بالقدرات الخلاقة والكفايات الموفورة وتتجدد الحياة ويطيب العيش فيها .

وعماد هذه النهضة الثقافية حرية الرأى والفكر فى إطار المثل العليا والتقاليد القويمة فى المجتمع الإسلامى ، فلا قيد على النقد الحر البناء ولا عقوبة على الخطأ اليسير مع حسن النية وكرم الطوية . وينبغى أن يبدأ الإنسان بنقد ذاته فلا يتعصب لقوله أو عمله ذلك أن العصمة لله وحده ، وإنما يكسب المرء من تجربة الخطأ فى حين أن الإصرار على الخطأ عن تعصب أو جهالة ينأى بصاحبه عن حظيرة المجتمع ، وقد يرديه فى موارد التهلكة .

والواقع أن القيادة الجماعية والنقد الذاتى كانا من أهم الضمانات التى أرساها الإسلام للنهوض بحركة الإحياء العلمى والثقافى ولكفالة التطوير الدائم للمجتمع . فالنقد الذاتى عملية موضوعية يواجه فيها الأفراد أنفسهم فيخلصون قلوبهم من نوازع الذاتية الفردية ويقهرون التطلعات والمطامع الشخصية ، وهى عملية تطهير مستمر للنفس تزيل ما يمكن أن يرسب فيها أثناء السعى فى ميادين الحياة ، والنقد الذاتى لا يتنافى مع الطموح الذى تحبذه الروح الإسلامية ، ولكنه ضد الانتهازية التى يقف دونها الإسلام مقلماً أظفارها .

والعلم عبادة ، فلا خير فى امرئ لا يلتزم بقدسية الفكر والمعرفة وإن حظا منهما بالنصيب الأوفى . وأوجب ما تستلزمه هذه القدسية الشجاعة والأمانة والدقة والبعد عن الغرض . ولقد قص الله علينا أحسن القصص فى كتابه الحكيم ، وبين فيه من المثل والعبر ما يهدى الناس إلى الآداب التى تصلح حياتهم وتحقق أمنهم ورفاهيتهم فيذكر القرآن فى سورة الكهف قصة موسى مع العبد الصالح ليرشد بها إلى ما ينبغى أن يكون عليه الإنسان فى طلب العلم من حسن التواضع والنأى عن الغرور واحتمال المشاق فى سبيله .

ويقول الرسول عليه السلام فى الحث على التزام الأمانة العلمية وتجنب التغرير والتمويه عن طريق التشاور بين أساتذة العلم ومريديه (تناصحوا فى العلم . فإن خيانة فى العلم أشد من خيانة فى المال) .

تلك هى المقومات الرئيسية للعلم والثقافة فى الإسلام وقد تطورت هذه المقومات بتواتر الأخذ بها وتدعيمها حتى أصبحت قيما علمية — وتقاليد ثقافية راسخة فى كل العصور الإسلامية الزاهرة ، فنتجت منها حضارته العظمى ، ونبغ من علماء المسلمين رواد وأبطال سموا فى الآفاق ينشرون نور العقيدة ويبشرون بمبادئها السامية ويرفعون ألوية ثقافتها الإنسانية الحقة أينما سلكوا أو أقاموا .

اللغة والثقافة من أركان الوحدة العربية :

ولقد كانت الثقافة الإسلامية وما زالت من المقومات الأساسية للقومية العربية ، وكانت وحدتها عاملا على دعم الوحدة العربية منذ أقدم العصور التاريخية ، إذ يرجع إلى الثقافة المشتركة فى العالم الإسلامى الفضل فى توحيده فى ظل الدولة الإسلامية ، ولقد اقترن ازدهار الدولة دائما بازدهار الثقافة ، وأصابها الوهن بالتقاعس عن نشر العلوم والثقافات بين أبنائها . ذلك أن وحدة الثقافة تؤدى إلى وحدة المشاعر والأفكار .

ولولا اللغة العربية التى سادت فى جميع أرجاء الوطن العربى على اختلاف العصور والدول ، لما أمكن للثقافة الإسلامية أن تنتشر هذا الانتشار الذى يعتبره المؤرخون من أبرز الظواهر فى تاريخ الإنسانية والذى يدل على خصوبة اللغة العربية وأصالتها وقدرتها على جمع شمل أهلها وتوحيدهم ، إذ كانت واسطة التفاهم بينهم وسبيلا إلى التقاء مشاعرهم .

وقد كانت اللغة العربية قبل الإسلام هى لغة الجزيرة العربية وبعض أطراف الشام والعراق ، فأصبحت فى ظله لغة سكان الوطن العربى من الخليج شرقا إلى المحيط غربا ومن جبال طوروس شمالا إلى أواسط إفريقيا جنوبا .

وقد وحدت هذه اللغة الخالدة العرب فى جاهليتهم ، فلما نزل بها القرآن دعم تلك الوحدة على أساس من الدين الحق ، وأخفى قداسته عليها وتطور بها العلماء المسلمون حتى صارت لغة حضارة تساير الحياة والزمن . ومازال اللسان العربى المبين لم يتغير فى أصوله منذ أربعة عشر قرنا برغم ما أصيب به العرب والمسلمون من نكبة الاستعمار والحكم الدخيل .

ولقد حاولت الشعوبية قديما الانتقاص من اللغة العربية وقدرتها على حمل مشعل الثقافة والمعارف العلمية المتطورة . وكانت ترمى بذلك إلى هدم الثقافة والحضارة العربية لإخلاء السبيل لأعداء العرب والمسلمين كى يغزوا بلادهم بلغتهم وثقافتهم ، ولكن العرب تمسكوا بلغتهم وثقافتهم وصمدوا فى تحدى خصومهم إدراكا منهم أن اللغة العربية هى وعاء ثقافتهم الإسلامية ولسان دينهم ، وهى أبرز الأسس فى نشوء قوميتهم وتكوينها ، وانتصر الإسلام والعرب بانتصار لغتهم ، ولم يفلح الفرس والأتراك فى عصور العباسيين فى زعزعة اللغة العربية وإحلال الفارسية أو التركية محلها أو مساواتها بها .

ثم جاء الاستعمار الحديث فتبنى أسلوب الشعوبية القديمة فى محاولة القضاء على اللغة العربية متوسلا بذلك إلى القضاء على الحضارة العربية والقومية العربية التى هى ثمرة تلك الحضارة ، ولقد عمد الاستعمار إلى استخدام مختلف الأساليب من وعد ووعيد وترغيب وترهيب لتحقيق مقاصده العدوانية فافترى على لغة القرآن الأكاذيب ونسج المؤامرات واستمال إليه بعض الفئات مغررا بدعوى أن اللغات الأوربية تفرعت عن اللغة اللاتينية الأم ، ومن ثم نادوا باستبدال العامية بالعربية ، وهو زعم باطل لا يستند إلى أساس ، ذلك لأن الشعوب العربية تتكلم لهجات قريبة من اللغة الفصحى ، على حين أن اللغات التى تفرعت من اللغة اللاتينية خرجت عليها فى قواعدها وضمت أخلاطا من لغات مختلفة ، فالألمانية على سبيل المثال مزيج من اللغات الجرمانية واليونانية واللاتينية ، أما اللغة العربية فلم تدخل فى تركيبها لغات أجنبية .

وهكذا كانت اللغة العربية وعاء للثقافة فى الإسلام وديوانا لأمجاد المسلمين وأداة لحضارتهم وواسطة لنقل المعارف بين الشرق والغرب نظرا لتوسط الوطن العربى فى موقعه من العالم .

واستطاعت هذه اللغة الأصيلة أن تنهض بدورها التاريخى فى الثورة الثقافية التى أشعلها الإسلام فى ظلمات التاريخ فشعت أنوارها الغامرة تهدى البشرية إلى سواء السبيل وتحقق أمل الإنسان فى التحرر والوحدة والرخاء .

حسن فتح الباب

الملاحم والمطولات الإسلامية في الشعر العربي

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

— ٥ —

نقد الدكتور شوقي ضيف وردنا عليه :

ولسنا نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور شوقي ضيف في ملحمة محرم من أنه « لا يكتب ملحمة كالملحمة التي كتب فيها هوميروس ، وإنما يكتب ، أو قل ينظم سيرة الرسول . وفرق بين نظم السير الشعر القصصي ، ذلك لأن الأول عمل آلي ، فالشاعر يقرأ التاريخ ، ثم يحوله شعراً ، أو قل يحوله نظما ، وهو لذلك لا يعالج حربا ولا ملحمة بعينها ، وإنما يعالج سيرة بطولة فيها الحرب ، وفيها غير الحرب .

« والخلاصة أن إلياذة محرم ليست كما يظن حدثاً جديداً في أدبنا ، بل هي عمل مسبوق ، وأن من الخطأ أن نسميها . أو يسميها صاحبها إلياذة وإنما هي مجموعة من القصائد في سيرة الرسول وغزواته ، وهي أشبه ما تكون بالقصائد الغنائية ومع ذلك فغنائيتها ضعيفة إذ ليس فيها مشاعر مثيرة ، ولا صور حية ناضرة ، فلا تقرؤها حتى تجد أنها زاخرة بالفتور وسرعان ما يملؤك السأم والملل ، وهي لذلك شيء بين الشعر الغنائي والشعر التعليمي الجاف الذي يسرد عليك مجموعة من المعارف في أعداد وأرقام ، أما الشعر القصصي فليس فيها منه شيء ، لأنها تفقد أهم أركانه وهو الخيال القوي النافذ الذي يقص عليك الأسطورة أو الحادثة التاريخية ، فيجعلك تستشعر ، وتلمسها بكل تفاصيلها وجزئياتها لمسا قوياً ، حتى لكأنها تحفر في ذهنك حفرا » .

فالدكتور ضيف يرى أن عمل محرم هذا لا يستحق أن يسمى ملحمة أو إلياذة . ويبني هذا الرأي على أمور أهمها :

١ — أن الشاعر لم يزد على أن حول سيرة الرسول إلى « نظم » فيه خصائص الشعر التعليمي الذي يسرد مجموعة من المعارف في أعداد وأرقام .

٢ — وأنه لم يعالج معركة بعينها ، وإنما تحدث عن عدة غزوات وحروب في عدة قصائد ضم بعضها إلى بعض .. كما أنه لم يستغل حادث غزوة بدر ونزول الملائكة فيطلق العنان لخياله ويجيد التصوير .

٣ — فقدان هذا العمل أهم أركان الشعر القصصي وهو الخيال القوى النافذ الذى يصلح للأساطير .

ومن أجل ذلك فهو يحكم على « إلياذة محرم » كما يسميها صاحبها أو غيره بأنها لا ترتقى إلى مرتبة الشعر الغنائى ، بل هى شىء شبيه به ، وأن ما فيها من آثار الغنائية ضعيف يبعث السأم والملل فى النفس إذ ليس فيها صور حية ناضرة تثير المشاعر . .

ولكننا الحقيقة والإنصاف نقول :

١ — إن « محرم » لم يعمل على تحويل السيرة النبوية إلى « نظم » أو « شعر تعليمى » وإنما هو صور سيرة الرسول تصويرا شعريا أدى معه إلى جانب العمل الفنى فى التصوير عرض الحقائق التاريخية فى أمانة ودقة وتفصيل مغن فى أسلوب أدبى لا تعليمى .

انظر مثلا إلى قوله فى مطلع الإلياذة :

املأ الأرض يا محمد نورا
واغمر الناس حكمة والدهورا
رفيدة : على الناس الحنانا
وزيدى قومك العالين شأنا
خذى الجرحى إليك فأكرميهم
وطوفى حولهم آنا فآنا
وإن هجع النيام فلا تنامى
عن الصوت المردد حيث كانا
أعينى الساهرين على كلوم
تورقهم ، فتلك من أعانا

* * *

فيالك خيمة للصبر فيها
جلال لا يرام ولا يدانى
جلال الله ألقاه عليها
يجملها بروعته وزانا
رفيدة : جاهدى ودعى الهوينى
فما شرف الحياة لمن توانى
ورب مجاهد بلغ الثريا
وما عرف الضراب ولا الطعانا
وكم هز الممالك فى علاها
فتى ما هز سيفا أو سنانا
الخ ...

هذا الروح الشعرى : بكل مقومات الشعر العربى الرصين هو طابع الإلياذة العام ، غير أن طبيعة الموضوع ، وطوله ، وكثرة المواقف ، وحرص الشاعر على التسجيل الشامل للسيرة النبوية . . كل ذلك قد اضطر الشاعر أن يضع عناوين كثيرة تسير مع تسلسل الحوادث حتى أن الرائى يخالها عناوين لكتاب تاريخ لا ديوان شعر ، وأحيانا تتقارب هذه العناوين فتزيد فى الإيهام ، ولكننا إذا قرأنا ما وراء هذه العناوين وجدنا ما يعد من أروع الشعر .

وقد رأينا فى النماذج السابقة ما يؤيد هذا الرأى ، وإليك نموذجا آخر عن شهداء بدر :

طف بالمصارع واستمع نجواها
والثم بأفياء الجنان ثراها
ضاع الشذا القدسى فى جنباتها
فانشق ، وصف المؤمنين شذاها
حلل يروع جلالها ، ومنازل
من نور رب العالمين سناها
حميت حماة الحق ، ما عرف امرؤ
عزالهم من دونه أرجاها
شهداء بدر أنتم المثل الذى
بلغ المدى ، بعد المدى ، فتناهى
علمتم الناس الكفاح فأقبلوا
ملء الحوادث يدفعون أذاها
أما الفداء ، فقد قضيتم حقه
وجعلتموه شريعة نرضاها
من رام تفسير الحياة لقومه
فدم الشهيد يبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم تر أمة
بلغت من المجد العريق مناها
أدنى الرجال من الممالك من إذا
عرضت منايا الخالدين أباها
وأجل من رفع الممالك مظهراً
بان من المهج السماح بناها

(فهل من الإنصاف أن نقول إن هذا « نظم » وليس شعرا ؟؟؟)

ولئن وجد فى بعض القصائد ما يشعر بالسرد التاريخى أحيانا ، فإن هذا لا يخرج الملحمة فى مجموعها عن كونها « شعرا » ، ولا يضعها بحال فى عداد « النظم » أو « الشعر التعليمى » .

وإذا نظرنا إلى عمل محرم فى إلياذته من حيث تصوير السيرة النبوية شعراً . ثم قارناه بعمل شوقى رحمه الله فى « أرجوزة العرب الكبرى » ، وجدنا البون شاسعا ولا سيما فى الجزء الخاص بالسيرة النبوية إذ غلبت طبيعة الموضوع على شوقى فكان فى عرضه ناظما .

وما لنا نذهب بعيداً ونتعسف كما تعسف الدكتور شوقى فى اعتباره إلياذة محرم « غنائية » ، وما بناه على عدم استكمال غنائيتها من تقليل قيمتها ؟

ومن قال بأن الملحمة ينبغى أن تكون غنائية ؟

نعم إن « الموضوعية » هى أهم خصائص الشعر القصصى ؟ استمع إلى أرسطو يتحدث عن « موضوعية » هوميروس فى الإلياذة :

« فالحق أن الشاعر يجب ألا يتكلم عن نفسه ما استطاع إلى ذلك سبيلا لأنه لو فعل غير ذلك لما كان محاكيا . أما سائر الشعراء فيزجون بأنفسهم فى كل موضع ولا يحاكون إلا قليلا ونادراً ، بينما هوميروس

يبدأ باستهلال موجز ثم يعرض على الفور رجلا أو امرأة أو أى شخص آخر يصور خلقه » .

ولا جدال فى أن « الشعر القصصى هو الذى يتحدث فيه الشاعر عن سواه وعن مظاهر الطبيعة ، والمجتمع البشرى بعاداته وتقاليده ، وأبطال الحروب من غير أن ينم عن شعوره إزاء كل ذلك » .

فإذا انفعل الشاعر وعبر عن ذاتية فى بعض أجزاء الملحمة ، فإن ذلك لا يقدح فى عمله ولا يخرجه عن شعر القصة ، فقد ورد فى إلياذة هوميروس بعض الشعر الغنائى كرثاء (أخيل) ووداع (هكتور) لزوجته وما شاكل هذا ،

فماذا فعل أحمد محرم إلياذته فى غير هذا ؟ إن طبيعة موضوعه قد اضطرته أن يكون « موضوعيا » يعبر عن غيره لا عن نفسه ، وأحيانا كان ينفعل فيعبر عن إعجابه عندما كان يمدح النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عن أمله مثلا عندما كان يرثى شهداء بدر أو غيرهم .

ومن الطبيعى ألا يجنح محرم فى إلياذته الإسلامية إلى ما يطلبه الدكتور شوقى من الحديث عن الآلهة واشتراكهم فى الغزوات فإن ذلك ينافى العقيدة ، ولا يقره الإسلام . بل قد رأينا أفلاطون يستنكر ذلك من هوميروس نفسه !!!

وإذن فمن الإجحاف أن نوافق الدكتور شوقى على رأيه فى تقليل أهمية إلياذة محرم لأنها ليست موضوعية لها ، ولأنها لا تصور كل ما صوره هوميروس ...

٢ — ولقد عنى محرم بعرض السيرة النبوية كاملة بأسلوب « الشعر » ، ولو قد وقف عند غزوة واحدة مثلا واستبحر بخياله فى أحداثها .. لكان عارضاً لجزء من موضوع كامل ، قصد هو أن يعرضه جميعه ، وهذا الموضوع هو سلسلة متصلة الحلقات من صراع رهيب غير وجه التاريخ واشترك فيه أشخاص ، وكانت فيه مواقف بطولة تستحق التخليد ، ويتلخص هذا الصراع فى « إعلان دعوة ، ثم المناخـة عنها ، ثم انتصارها واستقرارها » ، فهو موضوع واحد فلا بد أن يعرض جميعه ما دام هدف الشاعر تيسير دراسته وتداوله ..

أما إنه لم ينظم قصيدة واحدة بقافية واحدة ووزن واحد كما فعل هوميروس فإن طبيعة الشعر العربى ، وقيود القافية ألا تسعف « محرم » ولا غيره بإنشاء أكثر من خمسة آلاف بيت على قافية واحـدة . . وتعدد الأوزان والقوافى لا يقدح فى عمل محرم ما دامت هناك وحدة وتسلسل فى تصوير الأحداث . .

ولم يغفل محرم حديث نزول الملائكة في غزوة بدر ، بل إنه صور وأجاد ولكن في حدود ما تسمح به العقيدة الإسلامية إذ لم يكن بوسعه أن يترك العنان للخيال فيذهب مذهب هوميروس — استمع إليه في ذلك :

الله أرسل في السماء كتيبة
تهفو كما هفت البروق اللمح
تهوى بجلجلة ، تلهب أعين
منها ، وتقذف بالعواصف أجنح
الخيل حمحمة تراع لهولها
صيد الفوارس ، والعناق القدح
« حيزوم » : أقدم ، إنما هي كرة
عجلى تهاذيك العناق فتمرح
« جبريل » يضرب ، والملائك حوله
صف ترض به الصفوف وترضح
تلك الحصون المائمات ، بمثلها
تذرى المعاقل والحصون وتذرح
القوم في أعناقهم وبنانهم
نار تريك الداء كيف يبرح
جفت جذور الجاهلية والتوى
هذا النبات الناضر المسترشح
طفق الثرى من حولها لما ارتوى
من ذوب مهجتهم ، يجف ويبلح
ومن الدم المسفوح رجس موبق
ومطهر يلد الحياة ويلقح

قل (يا أبا سفيان) غير ملوح
فالسيف يخطب ، والخطوب تصرح
بيض على بلق ، تساقط حولها
سود مدممة تساف وترمح

٣ — ولعل فيما عرضناه من نماذج الإلياذة ما يشهد باستيفاء عنصر الخيال — كما يعرفه الذوق العربي الإسلامي — مستمدا من المعلومات التاريخية الإسلامية ، موجها بعاطفة إسلامية خالصة ، مصوراً في تلك الصور البيانية الرائعة وما نحسب أن أحداً يحكم على إلياذة محرم بأنها خالية من الألوان البيانية ، وما نشأ منها من صور قوية حية مؤثرة ذات إيحاءات تبعث على النشاط النفساني والذهني معا لا أنها تدعو إلى السآمة والضجر ، خذ مثلا غير ما مر بك وغير ما يشيع في الإلياذة جميعا ... تصويره لفزع « بني لحيان » الذي أصابهم عندما هلوا بالغزو — بعد أن كانوا يتحدون من يحدثهم عن قوة محمد وصحبه :

بني لحيان : واعجبي لبأس
خبت جمراته بعد اشتعال
فررتم تتقون الموت زحفا
على القمم الشواهق والقلال
هو المسخ المبين ، فمن أسود
تصيد القانصين إلى وعال ؟ ؟

ثم اقرأ كذلك تصويره فى غزوة أحد لذلك الحوار العنيف الذى دار بين المبارزين من المسلمين والمشركين ، ثم وصف مقتل حمزة تجد فنانا بارعا فى دقة التصوير .

وكيفما كان الأمر فإن « ديوان مجد الإسلام » لمحرم أو « إلياذته » أو « ملحمته » كما تسمى لم تعرض بعد على بساط البحث أمام الأدباء والنقاد كما ينبغى فى مصر وغيرها من الأقطار العربية إذ أنه لم يطبع ، ولم تعمر به المكتبات لذلك ينبغى ألا نأخذ برأى هادم لقيمته .

وسوف تنصف الأيام ذلك الشاعر الذى وقف حياته على خدمة العروبة والإسلام .

وإذا أردنا أن نعرف قيمة هذه الإلياذة بالنسبة لتراثنا العقلى ، وجدنا أنها ذات قيمة كبرى من الوجهتين الأدبية والتاريخية .

فإنها من الوجهة الأدبية قد أضافت ذخرا ثمينا إلى الشعر العربى يعتبر أكبر عمل من نوعه فى شعر العصر الحديث ، وقيمتها من هذه الناحية لا تقتصر على عدد أبياتها ، بل لأنها فى موضوع واحـــد له أهميته بين موضوعات التاريخ الإسلامى إذ يعتبر رأسها جميعا وهو السيرة النبوية ، وقد جمعت أشتات هذا الموضوع ، وعرضته عرضا شائقا مغايرا لأسلوب النثر المألوف فى رواية مثل هـذا الموضوع .

وإذ قد عرفنا أن هـذه الإلياذة تضمنت تصويرا لمواقف حاسمة ، فيها ألوان البطولة والفداء ، والصبر ، وتناولت شخصيات جديرة بالتخليد . فإن عرض هـذا اللون من الشعر على الشباب الإسلامى يخلق فيه ذلك الروح الوثاب إلى المثل العليا والقيم الإنسانية الرفيعة .

أما من الوجهة التاريخية فإن هذه الإلياذة قد سجلت فترة ناضرة من حياة المسلمين خاصة ، وتاريخ الإنسانية بعامة . تلك الفترة التى اصطرعت فيها مبادئ الإيمان والتوحيد ورسم الخطوط الأساسية العامة للعدالة والرقى الاجتماعى ... مع الوثنية والفوضى الاجتماعية ... فصرعتها وغيرت مجرى التاريخ .

وبالنظر إلى تدقيق محـــرم فى تصوير الأحداث مفصلة إلى حد كبير ، مع حرصه على ذكرى ما يتعلق بالسيرة ، واعتماده فى كل ذلك على مرجع هام من مراجع التاريخ الإسلامى ، فإن هذه الإلياذة تعتبر مرجعا من مراجع السيرة النبوية العامة التى تكون مصدر تثقيف عام بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وعبده المبارك .

ونكتفى بما تقدم عن محرم والإلياذة ، راجين أن تتاح الفرص الكثيرة ، وتتهيأ الظروف لدراسة هذا الذخر الثمين .

دكتور سعد الدين الجيزاوى

من بحوث مجمع البحوث

نظام الحسبة في الإسلام

للدكتور إسحاق موسى الحسيني

(بقيــة)

بقيت مسألة يستلزم الإنصاف ذكرها ، لأن كتب الحسبة تكشفها ، هى التفنن فى الغش ، مع أن أوامر الله صريحة بمنعه . فكيف وقع ذلك فى مجتمع فاضل قام على ما بينا من قواعد دينية وخلقية من أسمى ما عرفته المجتمعات الإنسانية ؟

أيرجع ذلك إلى طبيعة المدن الكبيرة التى يكثر قاطنوها وينحدر إليها الغرباء بائعين ومشترين ؟ يقول الشيزرى فى ختام الفصل الذى عقده على غش العطارين : « ولا يتجاسر على عمله وبيعه إلا الغرباء الأعاجم ومن يدور فى خلال الدروب . فلا يهمل المحتسب الكشف عن ذلك كله ، وإشهار فاعله بالتعزير على ما تقدم » (١) .

أيرجع إلى أن العرب أصلا كانوا يزورون عن الصنائع ويكلونها إلى فئات معينة كالنور واليهود حتى اضحى أكثر أربابها من أهل الذمة (٢) .

أيرجع إلى الترف الذى استفحل فى المدن ودفع الناس إلى كسب المال حلالا أو حراما ؟

أيرجع إلى تفشى الرشى والتكسب بالحسبة بعد أن أعرض عنها السلطان ، وندب لها من هان (١) .

أيرجع إلى أن المحتسب صار ملتزما ـ فى بعض الأزمنة ـ يشترى الحسبة بالمال ويمارسها بالقهر والسلطان ، ويجمع الأموال بالحلال والحرام ويوم ذاك سكت عن الغش حتى استفحل ؟

أيرجع إلى تفشى المذاهب الهدامة حتى أصبح المجتمع الواحد مجتمعات متناحرة يغش بعضها بعضا ؟

أيرجع إلى آفات الطبيعة من أوبئة وقحط وما ترتب عليها من خزن التجار الأرزاق وبيعها بالغلاء ، وانتشار الجوع والفقر ؟

كل هذه الأسباب أو بعضها جائز . ولكن الحقيقة التى ينبغى أن تقال هى أن المؤمن الذى يعرف حق الله وحق الناس لا يغش ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غشنا ليس منا) .

يضاف إلى ذلك أن الغش يقل ويكثر

(١) نهاية الرتبة ص ٢٣ .

(٢) « « ص « .

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٤٥ .

باختلاف البيئات . فهو كثير فى المدن قليل فى القرى والبادية . وهو كثير عند أصحاب الحرف والصناعات وقليل عند المزارعين . وهو كثير فى المدن التى يطرقها الدخلاء والغرباء. قليل فى المدن النائية القليلة المسالك.

٥ — وأخيراً هل اقتبس المسلمون الحسبة من البيزنطيين وصبغوها بالصبغة الإسلامية ؟

دعا المستشرق Gustar von Grunebaum فى كتابه Medieval Islam (١) إلى عقد موازنة بين الحسبة فى الإسلام ، وكتاب (والى المدينة) البيزنطى (٢) .
The Pyzantine Book of Perfect الذى ينظم شئون الصناع والتجار فى القسطنطينية . ولا ندرى الحافز إلى ذلك ، أهو اعتقاده أن المسلمين اقتبسوا الحسبة من البيزنطيين وصبغوها بالصبغة الإسلامية أم ما وجده من وجوه الشبه بين عامل المحتسب المسلم ووالى المدينة البيزنطى من ناحية وبين كتب الحسبة التى ألفها المسلمون ، وكتاب والى المدينة البيزنطى من ناحية أخرى .

وقد قرأنا كل ما وصل إلينا من كتب الحسبة وقرأنا كتاب والى المدينة البيزنطى وانتهينا إلى ما يلى :

(١) ص ٢٤ ، ط شيكاغو ١٩٤٧ .

(٢) نقله إلى العربية ونشره الدكتور السيد الباز العرينى فى مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٩ ، ج ١ ، مايو سنة ١٩٥٧ من ص ١٣٥ — ١٧٨ .

أولا : ألف كتاب والى المدينة البيزنطى فى القرن العاشر للميلاد ، والحسبة وإن تأخر التأليف فيها إلى أواخر القرن الثانى للهجرة أو أوائل القرن الثالث ، ترجع أصولها إلى نصوص فى القرآن الكريم وفى الأحاديث النبوية ، وإلى سنة رسول الله وخلفائه ، منذ فجر الإسلام ، أى قبل كتاب والى المدينة بنحو قرنين ، وأصاب ابن بسام بقوله : « ونجم عن ذلك علم خاص يدعى بعلم الاحتساب يبحث عن الأمور الجارية بين أهل البلد من معاملاتهم التى لا يتم التمدن إلا بها ... (١) .

ثانيا صدر كتاب والى المدينة بالعبارة التالية : « إن الله بعد أن خلق ما هو كائن من الأشياء وكفل للعالم الأمن والوفاق خط بإصبعه على الألواح القانون ، ونشره علنا حتى لا يتطاول الناس ، وقد اهتدوا به ، بعضهم على بعض ، ولا يطغى القوى على الضعيف ، بل ينبغى أن تسير كل الأشياء وفق ما هو مقدر لها من نظام(٢) . والمعروف أن الإنجيل لم يحتو على قانون ، ولم يتدخل فى شئون الدولة ، إذ قرر أن ما لله لله ،

(١) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة لابن بسام المحتسب ، مجلة المشرق سنة ١٠ عدد ٢١ ص ٩٦٢ سنة ١٩٠٧ .

(٢) ص ١٤٦ .

وما لقيصر لقيصر ، وما ذكر فى سفر التثنية من العهد القديم أضيق من أن يتسع للمعانى الواردة هنا ، والعبارة أشبه بما يعتقد به المسلمون من أن القرآن الكريم كتب فى اللوح المحفوظ .

ثالثاً : معظم كتاب والى المدينة يدور على الجواهريين والصيارفة وتجار الملابس الحريرية وتجار المنسوجات الحريرية السورية وتجار الحرير الخام وغزالى الحرير ونساجيه وتجار المنسوجات الكتانية وتجار العطور والروائح ، وصناع الشمع وصناع الصابون من ص (١٥١ — ١٦٧) وصناع الجلود وباعة الخنازير ، وأرباب الحانات ، وقليل جداً منه يدور على باعة المواد الغذائية ص ١٦٧ ٢٦٨ - والجزارين ص ١٦٩ - ١٧٠ وباعة السمك ١٧١ - والخبازين - ١٧٢ ومفتشى سوق الماشية ص ١٧٤ - ١٧٦ - وأرباب الحرفة كالسباكين والمزخرفين والرخامين والطلائين ص ١٧٦ - ١٧٨ .

وعناية والى المدينة بالقسم الأول الأكثر يرجع إلى أن مواد تلك الصنائع متصلة بالإمبراطور والأمراء والإقطاعيين ورجال الكنيسة الذين كانوا يحرصون على توفرها فى الأسواق وعلى أن يكون بعضها بأيديهم والحسبة تعتمد فى الأكثر على حاجات الشعب كالغذاء والكساء وبناء المساجد والأسواق والولاة ورجال الدين الأمر الذى يدل على اختلاف كلى فى القصد والوسيلة .

رابعاً : يندر فى كتاب والى المدينة ذكر العبادات والأخلاق فى حين تعنى الحسبة بها أكبر عناية ، وتجعل حقوق الله فى مقدمة ما ينبغى أن ينظر فيه المحتسب وقد أجمع مؤلفو الحسبة على أنها من الأمور الدينية وأن الضابط فيها هو الشرع (١) .

خامسا : كتاب والى المدينة يضع قيوداً على الأجانب واليهود والعبيد ، والحسبة على نقيض ذلك لا تحمل من هؤلاء فئات مقيدة وهى تطبق أحكام الشرع والعهد حتى اشتهر المسلمون بالتسامح ، واتخذ اليهود العالم الإسلامى ملجأ فى عصور الاضطهاد ومحاكم التفتيش ، واستأثروا ببعض الصنائع .

والخلاصة : أن الفروق جوهرية فى الهدف والأصول والفروع ، ولا مسوغ للقول أن الحسبة مقتبسة من البيزنطيين .

ولكن هل انطوى المسلمون على أنفسهم وحرموا الإفادة من الحضارات الإنسانية ؟ جميع القرائن تدل على أن الحكمة كانت ضالتهم ، والفائدة مطلبهم ، وأنهم كانوا كالطيور يلتقطون الحكمة والفائدة بعيون حادة البصر ويتجنبون الضار ما وسموم الحال .

---

(١) الأحكام السلطانية ، ٢٤٥ ونهاية الرتبة ص ١١٨ الخ .

وهذه القرائن موجودة فى كتب الحسبة نفسها .

١ — فالحرف والصناعات التى وجدوها مفيدة أذنوا بها فى بلادهم ، وتعلموها من أربابها ونبذوا ما لم يفدهم كالتنجيم والشعوذة (١) .

٢ — رووا فى كتبهم عن اليونان والفرس والهنود ونعتوا علماءهم بالحكماء (٢) .

٣ — ترجموا العلوم كالفلسفة والطب والصيدلة والكيمياء .

٤ — لم يجدوا محذورا فى اقتباس عهد (بقراط) وهو وثنى (٣) .

ولذلك شهد المؤرخون أن الحضارة الإسلامية فتحت فتوحات باهرات فى مختلف النواحى ، وأنها كانت القنطرة التى عبرت عليها الحضارة الإغريقية القديمة إلى أوربا فأيقظتها من سباتها .

(١) معالم القربة لابن الأخوة ص ١٨٢ ونهاية الرتبة ص ٩٨ .

(٢) نهاية الرتبة ص ٩٨ ومعالم القربة ص ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٩ .

(٣) نهاية الرتبة ص ٩٨ وبقراط طبيب يونانى أطلق عليه أبو الطب ولد حوالى سنة ٤٦٠ قبل الميلاد . انظر طبقات الأطباء ابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٢٤ — ٢٧ وحاشية نهاية الرتبة ص ٩٨ رقم ٣ .

ومن الثابت من الوثائق أن المملكة الصليبية فى بيت المقدس أخذت الحسبة وأعمالها من المسلمين حتى إنهم استعملوا لفظة « المحتسب » العربية فى كتاباتهم Mathessep (٢) .

وفوق كل ذى علم عليم ...

ونخرج من هذا البحث بثلاث نتائج :

الأولى : الدعوة إلى بعث ما اندرس من الحسبة ، لاسيما « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » اتباعا لقول الرسول : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، على أن يتولاها أصحاب العلم والكفاية . وذلك للقضاء على « السلبية » ومظاهر التفكك التى تبدو فى بعض المجتمعات الإسلامية .

الثانية : العناية بالتراث الإسلامى الذى يحتوى على جواهر فريدة والذى فرطنا فيه حتى خرج كثير منه من ديارنا .

الثالثة : العناية بتاريخ الإسلام والمسلمين والتأليف فيه بالعربية وباللغات الإسلامية والأوربية كما يفهمه الناس على وجهه الصحيح مصفى من الشوائب .

دكتور إسحق موسى الحسينى

(١) نشر الوثائق الدكتور السيد الباز العرينى بالفرنسية والعربية وألحقها بكتاب نهاية الرتبة ص ١٢٥ — ١٢٦ .

الملكية فى الاسلام

للأستاذ على الخفيف

— ١ —

التعريف بالملكية :

فى القاموس المحيط : ملكه ملكا ، مثلث الميم ، وملكة محركة ومملكة بضم اللام أو يثلث احتواه قادرا على الاستبداد به .

وكلمة الملكية على هذا اسم صيغ من المادة منسوبا إلى المصدر وهو الملك ويدل على معنى الاستئثار والاستبداد بما يتعلق به من الأشياء وذلك ما يلاحظ فيما انتهى إليه معنى الملك عند رجال الشرع والقانون إذ قد عرفوه بما لا يجافى هذا المعنى فعرفه الحاوى القدسى : بأنه الاختصاص الحاجز . أى الذى يخول صاحبه منع غيره وعرفه الكمال بن الهمام فى أول كتاب البيع من كتابه فتح القدير : بأنه القدرة على التصرف ابتداء إلا لمانع ـ يريد أنه قدرة مبتدأة لا مستمدة من شخص آخر وعرفه القرافى فى كتابه الفروق : بأنه حكم شرعى قدر وجوده فى عين أو فى منفعة يقتضى تمكين من أضيف إليه من الأشخاص من انتفاعه بالعين أو بالمنفعة أو الاعتياض عنها ما لم يوجد مانع من ذلك .

وعرفه صدر الشريعة فى شرح الوقاية بأنه اتصال شرعى بين الإنسان وبين شىء يكون مطلقا تصرفه فيه وحاجزا عن تصرف الغير .

وقد تضمنت هذه التعريفات جميعها معنى الاختصاص والاستئثار فهو مصرح به فى بعضها ولازم لما يدل عليه بعضها الآخر .

وهذا هو ما نجده فيما عرفه به رجال القانون إذ عرفه بعضهم بأنه سلطة تمكن صاحبها من استعمال الشىء والإفادة منه بجميع الفوائد التى يمكن الحصول عليها على نحو مؤبد وقاصر على المالك [1] وعرفه آخرون بأنه حق يعطى صاحبه سلطة على

---

(١) محاضرات فى القانون المدنى الفرنسى ح ١ بند ٣٩٢ .

الشىء تجعل له فيه ولاية ومكنة وتخوله جميع وجوه الاستعمال والانتفاع والاستهلاك ما لم يلزم من ذلك ضرر بالغير [1] .

وعرفه آخرون بأنه الحق فى الانتفاع بالمال المملوك على وجه التأبيد والتصرف فيه بطريقة مطلقة دون من عداه من الناس [2] .

ويرى فى بعض هذه التعريفات أن حق الملكية قد قيد بألا يترتب عليه إضرار بالغير وهذا ما انتهى إليه أخيراً نظر الفقه والقضاء إذ حدد فيه سلطان الملكية بعدم التجاوز إلى الإضرار بالغير وإن كان هذا الضرر محل خلاف فى تقديره وتحديد ما يراعى منه ونتيجة ذلك ألا يعد من آثار الملكية ما يترتب عليه الإضرار بغير المالك عند استعماله ، ذلك ما انتهى إليه التطور فى معنى الملكية على مرور الزمن واختلاف البيئات والأعراف ووصول التشريع إلى ما وصل إليه من تبلور ونضج .

ولم يكن هذا المعنى هو ما كانت عليه الملكية فى بداية نشأتها إذ لم تكن إلا مجرد انتفاع تدعو إليه الحاجة ثم ينتهى بسدادها . ولم يكن لعنصر الحيازة والاختصاص داعية تدفع إليه فى بداية وجود الإنسان ونشأته ولم يكن له من هم يومئذ سوى سد حاجته إلى ما يطعمه يتناول منه ما يشبعه وربما لا يفكر فى ادخار شىء منه لانعدام التزاحم عليه يومئذ ، ولذا كانت العروض فى ذلك شائعة بين الناس فائضة عن حاجتهم وفيها فوق كفاياتهم وكانت بسبب ذلك مباحة فيما بينهم فكانت صلة الإنسان بها هى الإباحة التى انتهت بالتطور إلى أن صارت ملكية بالمعنى السابق وذلك بمدمدة من الزمن وبعد حدوث التزاحم وتعارض الرغبات بما دعا إلى الحيازة ودفع إلى الادخار والاختصاص ومن هذا يرى أن أمر الناس فى البداية كان يقوم على الإباحة ثم تطورت بمرور الزمن إلى أن صارت ملكية تقوم على الاستئثار والمنع وكان لها بعد ذلك حين وجدت الشرائع من القواعد والحدود والتهذيب والخصائص والآثار ما اختلف باختلاف الشعوب والشرائع والأعراف وكان هذا الاختلاف مرتبطا ارتباطا وثيقا بالنظم الاجتماعية والمعتقدات الدينية .

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن الملكية لم تكن إلا تطورا أخيرا للإباحة التى كانت لجميع الناس فى عهدهم الأول فى مجال الانتفاع بما سخر لهم فى هذا الكون بما يحويه سطح الأرض ولم تنقلب ملكا

---

(١) حقوق بغداد فى القانون الفرنسى للدكتور الناهى الأستاذ بكلية حقوق بغداد .

(٢) دكتور محمد صالح فى كتابه أصول الاقتصاد

بالمعنى المعروف إلا باستئثار القائم على الحيازة والمنع ولا يزال هذا الوضع الأول أو هذه الصورة الأولى للملكية ماثلة إلى الآن فى الانتفاع العام بالماء والكلأ والثمار وغيرها مما تحتويه الفيافى والجبال والأنهار والبحار ومن هذا كانت النار من بين الإباحة والملك هو ما فى الملك من معنى الاستئثار والمنع.

وقد وجد هذا الاستئثار نتيجة لغريزة فطرية فى الإنسان هى حبه للاستئثار والحيازة فمن هذه الغريزة نشأت الملكية وتولدت فإن الإنسان الأول لم يكن ليسد حاجاته الضرورية إلا بوسيلة التناول والاحتياز وهو إذا ما احتاز تملك وإن كان تملكه يومئذ لا يعنى أمراً خلاف حيازته لما استولى عليه فى سبيل سد حاجته، ولذا كان مجال الملكية يومئذ ضيقا لا يكاد يتجاوز ما يتصل بالإنسان اتصالا مباشرا فى سبيل انتفاعه الخاص كالطعام واللباس وآلة الدفاع ونحو ذلك، ثم اتسع مجالها شيئا فشيئا بمرور الزمن إلى أن شملت سطح الأرض وما يحويه سطحها بل لقد تجاوزت فيما بعد المشاهد من الأشياء إلى الأمور المعنوية الاعتبارية كحقوق الاختراع والاكتشاف والتأليف مما يعرف بالملكية الأدبية والملكية الفنية.

وبناء على ما تقوم عليه الملكية من الاستئثار والتسلط يرى أنها حين نشأت ووجدت إنما نشأت وتعلقت بالفرد إذ هو الذى ابتدأ الحيازة لحاجته، والاستئثار فى سبيل سد خلته من طعام ونحوه فنشأت بذلك الملكية الفردية التى تختص بفرد معين وكان ذلك فى زمن لم تتميز فيه الملكية الجماعية ولم تتبلور، وبعد ذلك بمدة وجدت الملكية الجماعية وتميزت وذلك حين وجدت القبيلة وصار لها وجود تتميز فيه بالترابط والاستقلال والتعاون، والتناصر، ووحدة السكن والغرض والسعى للحصول على الرزق وتوفيره فظهرت بسبب ذلك ملكية القبيلة للأرض التى تقلهم وفيها نشئوا وفيها يسعون وللمراعى التى ترعى فيها أنعامهم، وملكيتها للأنعام التى ترعى فيها وذلك بجانب ملكية أفرادها لما هو من خصائص كل شخص من طعام وملبس وسلاح ونحوه. وبناء على ما كان لكل شخص من حق فى الانتفاع بما يجده أمامه حيث تدعوه حاجته إلى الانتفاع به على وجه من الوجوه وعلى ما انتهى إليه أمر الناس من إقرارهم مبدأ الاختصاص والاستئثار فيما تحوزه أيديهم بما يرون أنهم فى حاجة إليه وكان فى بداية أمره محلا لانتفاع الجميع وشيوع ذلك فيهم وانتشاره بينهم

نستطيع أن نقول إن إقرارهم هذا الوضع ليس إلا إقراراً لحق الملكية الفردية وإنه لم يكن إلا منحة منحها المجتمع بإقراره ونزل عنها لما رآه فيها من مصلحة ووفاء بالحاجة واتساق مع الرغبة ، وإنها قد أصبحت أساسا لقيام نظامهم الاقتصادى ، وقياما لحياتهم التى يعيشونها . وكانت الملكية الفردية بمراعاة هذا المعنى أقرب أن تكون خلافة يقوم بها الفرد مقام المجتمع ، وأنها ليست بالحق المطلق . وعلى ذلك يجب أن تؤسس حقوق المالك فيما يملك بحيث يكون الإنسان فيه مضطلعا بنيابة اجتماعية ، مطالبا بحقوقها متمتعا بحماية القانون فى نطاق حدودها ، فإذا ما تجاوزها حرم من تلك الحماية وهذه النظرة لا تخالف فى الواقع نظر الشريعة الإسلامية إلى الملكية الفردية بدليل ما قيدت به منها من قيود تهدف إلى عدم الإساءة فى استعمال حقوقها كما سيأتى بيان ذلك .

فى تاريخ الملكية :

الملكية ظاهرة من ظواهر المجتمع لا تنفك عنه ولا تزايله حتى إنها لتعد لازمة من لوازم الحياة وبما فيها من معنى الاستئثار تلاحظ فى الحيوان يستولى على قرته فيذود عنه بقوته ويحرص على الاستقلال به ، وهى فى الإنسان أثر لغريزة من غرائزه هى غريزة حبه للحيازة والاستئثار ولما جبل عليه من ميل ورغبة فى الحياة لا تكون له إلا إذا طعم ولا تطيب له إلا إذا سكن فإذا تناول ما يقيته أو استقر فيما يسكنه فقد ملك قوته وسكنه كما يمتلك ما يدفع به عن نفسه من سلاح ونحوه .

وهذا بالنظر إلى الملكية الفردية ، أما الملكية الجماعية فهى مظهر من مظاهر وجود الجماعة واستقلالها وتميزها ، ولما كان الفرد أسبق وجودا من وجود الجماعة كانت الملكية الفردية سابقة فى الوجود على الملكية الجماعية فوجدت الملكية الفردية بوجود الإنسان أولا ثم وجدت بجانبها بعد ذلك الملكية الجماعية وذلك بعد أن نشأت الجماعة وتميزت بروابطها وصفاتها . وقد ظل الأمر على هذا بجمع العصور التاريخية والأزمان المتعاقبة لم تنفرد إحداهما عن الأخرى ، وغاية ما يلاحظ أن إحداهما قد تطغى فى وجودها على وجود الأخرى فتكون أكثر شمولا وأظهر وجودا وأحرى أن تمد القاعدة التى يقوم عليها اقتصاد المجتمع ونظامه المالى والاجتماعى .

كان ذلك عند قدماء اليونان وقدماء الرومان وفى إسرائيل وفى المصريين وغيرهم من الأمم وكانت ملكية الأرض عندهم هى مجال

تداول المال والثراء ، لأنها كانت فى تلك العهود قبل النهضة الصناعية وانتشار التجارة على وضع واسع أهم مصدر للثروة إن لم تكن يومئذ المصدر الوحيد لها وكان هذا التداول نتيجة طبيعية لحال تلك الأمم الاقتصادية والاجتماعية وتغيرها بسبب ظروفها الاقتصادية المتطورة وما كان يطرأ على توزيع الثروة من تفاوت عظيم يؤدى إلى اكتنازها وتجمعها فى أيدى عدد قليل من أفرادها بينما يرى أكثر أفرادها فى فقر مدقع جعلهم فريسة لأطماع ذوى الثراء الواسع وشرههم فساموهم ذلا واستخدموهم آلات فاقدة الإرادة لتنفيذ أهوائهم ورغباتهم تحت تأثير عوزهم وحاجتهم .

الملكية فى بنى إسرائيل :

فى بنى إسرائيل وجدت الملكية بنوعيها فكان للشخص منهم ملكية خاصة تتناول حاجاته الشخصية وما يتصل بها من أدوات ، وكان لهم بجانبها ملكية جماعية تتمثل فى ملك الأرض ، وذلك حين استولوا على أرض الكنعانيين «أرض فلسطين» فقسموها بينهم على عدد قبائلهم فكان لكل قبيلة حظ معلوم يتناسب مع عدد أشخاصها وذلك وفقا لما شرع لهم ، كما جاء ذلك فى سفر العدد — وعلى ذلك كانت ملكية هذه الأرض ملكية جماعية ثم انتهت فى النهاية إلى ملكيات فردية تحت تأثير اختلاف الرغبات والقدرة على العمل والرغبة فى اختصاص كل بثمرة مجهوده ونشاطه ، وكذلك كانت ملكية الأنعام فيهم قبل دخولهم أرض كنعان ملكية جماعية أسرية لكل أسرة أنعامها وإن كانت مشوبة ببعض مظاهر الملكية الفردية ثم استحالت فيما بعد ذلك إلى ملكيات فردية لكل شخص أنعامه الخاصة به ، ويدل على ذلك أن الحديث الذى جاء فى العهد القديم عن أصحاب الأنعام ومنازعاتهم بشأن تلك الأنعام ، إنما كان حديثا عن أشخاص مالكين لها ممثلين لأنفسهم لا ممثلين لجماعات أو أسر .

أما ملكية المنقول من الأموال كالمتاع والنقود فقد كانت فيهم ملكية فردية كما يدل على ذلك ما جاء فى العهد القديم من قصص .

غير أن استقرار الأمور على هذا الوضع هيأ لهم الفرص العديدة لاستثمار الأموال ، وإنماء الثراء فطفقوا يعملون ويستثمرون ، ولاختلافهم فى القدرة على العمل والاستثمار والإحسان فيه وانتهاز الفرصة عند سنوحها تباينت ثرواتهم وعظم التفاوت بينهم واختل التوازن المالى بين طبقاتهم ، فاستعلى المثرون منهم على من هم أقل ثراء واستعبدوا الفقراء منهم فسلبوهم أموالهم وحقوقهم وظهر الإقطاع فيهم ، فاحتاز الأرض عدد محدود منهم

تكدست معظم الثروات في أيديهم واختفت الملكيات الصغيرة، وهوى أكثر أفراد الشعب إلى حضيض البؤس والشقاء مما دعا نبي الله أشعياء إلى أن يقول : ألا تعسا لأولئك الذين يمدون ملكياتهم من منزل إلى منزل ومن حقل إلى حقل حتى لا يكون موضع قدم لغيرهم وحتى يستأثروا وحدهم بسكنى هذه البلاد « الإصحاح الخامس » وكان ذلك سببا في ظهور أفكار اشتراكية اعتنقتها فرقة الحسديين في القرن الثاني قبل الميلاد فطفقت هذه الفرقة تندد بنظام الملكية الفردية وما لهذا النظام من آثار سيئة في المجتمع وتدعو إلى الملكية الجماعية والتسوية بين الناس والتقشف في المعيشة، وجعلوا جميع ما في حيازتهم من أرض ومنقولات وملابس وطعام ومتاع ملكا عاما شائعا يحفظون ما يزيد منه على حاجتهم في مخازن عامة ويشرف على إدارته وشئونه وتوزيعه أناس يختارون لذلك بطريق الانتخاب ولم يتح لهذه الفرقة ولا لمبادئها الدوام فانقرضت بعد مدة من الزمان .

الملكية عند اليونان :

وكذلك كان حال الملكية عند اليونان فسارت سيرها في إسرائيل وكانت الملكية عندهم من العوامل الهامة التي أثرت في حياتهم السياسية وكانت ملكية الأرض عندهم في بداية أمرها جماعية تختص بها القبائل ثم تحولت إلى ملكية أسرات كما يستفاد ذلك من الإلياذة ثم استحالت بعد ذلك إلى ملكيات فردية غير أنه قد أتى على إسبرطة بعد هذا التحول عهود كانت تلغى فيها الملكية الفرديه ويعاد توزيع الأرض بين الأسرات نتيجة لتضخم الثروات وصيرورة أكثر الأرض إلى فئة قليلة من السكان وسوء توزيع الثروة القومية وظهور الطبقات في الأمة وسيادة الإقطاع مما أدى إلى اضطراب الأمور وثورات النفوس، ودعا إلى معالجة هذه الحال وإصلاح هذا الفساد .

الملكية عند الرومان :

وعلى هذا الوضع أيضا كانت ملكية الأرض عند الرومان فكانت عندهم في البداية ملكية جماعية وظلت الحال على ذلك ردحا طويلا من الزمن ثم بدأت تتجزأ إلى ملكيات فردية وما لبثت بعد ظهورها في الوجود أن استخدمت في التسابق على جمع المال وإنماء الثراء وشراء الأرض ولم يمض وقت طويل حتى وصلت ملكية الأرض إلى درجة

من التجمع فى إيدى أناس قليلين بينما اضطر غيرهم تحت تأثير فقرهم وشدة عوزهم إلى العمل بالأجر الضئيل فى المزارع والحقول وكان من نتائج ذلك حدوث اضطراب وعصيان اقتضيا معالجة هذه الحال.

فى مصر :

أما فى مصر فقد كانت أيضا فى عهد الفراعنة ملكية جماعية إذ كان يعد الملك المالك الأول لجميع الأرض وما سواه من الرعية تابع له — غير أنه قد عثر على عقود يرجع تاريخها إلى حكم الأسرة الثانية عشرة ٣٠٦٤ ق.م تدل على اختصاص ورثة متوفى بما تركه من عقار وقد نص فيها على أن له حق التصرف فيها حسب إرادته .

الملكية عند العرب قبل ظهور الإسلام

لم يكن العرب قبل الإسلام أهل حضر جميعا ولا أهل بادية جميعا بل كان منهم من يسكن البادية ومنهم من يقيم فى الحواضر والقرى لا ينتقلون من نجع إلى آخر طلباً للماء والكلأ خلافا للأولين . وكانت الملكية الفردية موجودة فى الفريقين فكان كل فرد منهم يملك أمواله ومتاعه وسلاحه وخباءه وأنعامه ملكا خاصا وكان مع ذلك يتمتع فى ملكه هذا بحماية قبيلته فكان إليها جميعاً الدفاع عن أموال أفرادها وحمايتها عمن تحدثه نفسه بالإغارة عليها لا يختص بذلك صاحب المال .

أما الملكية الجماعية فلم يكن لها فيما يبدو مجال فى هذا النوع من الأموال عند العرب وإن جاز أن تكون قد وجدت فى أنعامهم فى وقت من الأوقات ملكا للقبيلة جميعا على سبيل الشيوع وبخاصة إثر الإغارات التى كانوا يشنونها على غيرهم قبل أن يتقاسموا الغنائم التى يغنمونها فيما بينهم .

وكذلك كانت الملكية الفردية موجودة فى الأرض والمساكن بالنظر إلى الحضريين سكان الحواضر والقرى كمكة ويثرب ونحوهما فكانوا يملكون دورهم ملكا خاصا كما كان لهم من الأرض ما يقومون على زراعته وجنى محصوله للانتفاع به وفيما روى من الآثار عن يثرب وساكنيها من الأوس والخزرج واليهود وعن خيبر ومزارعها ونخيلها وعن مكة ودورها أدلة عديدة على وجود هذه الملكية فى الدور والأراضى والنخيل بما لا يدع مجالا للريبة فى ذلك فمن ذلك ما ورد أن أسامة بن زيد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم — حين قدم مكة — أتنزل فى دارك ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور . وما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم حين هاجر

إلى المدينة أشرك المهاجرين مع الأنصار فى دورهم ومنه كذلك ما يدل على أنه كان للأنصار مزارع تشغل حياتهم اليومية وما يدل على أن عثمان رضى الله عنه قد اشترى من يهودى بئر معونة لتكون للمسلمين جميعا وفوق ذلك جاء فى الكتاب العزيز من سورة الحشر حديث عن المهاجرين ودورهم وأموالهم فقيها : « للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا » كما جاء فى الأحزاب حديث عن بنى قريظة عما كانوا يملكون من حصون ودار وأموال وأرض ففيها : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها » . وأهل الكتاب فى الآية هم بنو قريظة الذين كانوا يسكنون فى يثرب والآية نزلت فى غزوة الأحزاب أما بالنسبة إلى أهل البادية فلم يكن لهم فيما يبدو ملكية خاصة فى الأرض والدور إذ كانوا يقيمون فى الأخبية ولا يستقرون فى أرض بل ينتقلون من أرض إلى أخرى طلبا للماء والكلأ ومن مرعى نضب ماؤه وجف كلؤه إلى حيث يجدون ذلك وافرا ويؤيد ذلك انه لم يعرف عنهم أنهم غزوا غيرهم فى سبيل الاستيلاء على أرضهم وإنما كانت غزواتهم للاستيلاء على الأنعام والأموال فيأخذونها ملكا لهم ثم يعودون بها إلى نجوعهم . كما كانوا يعرفون حمى الأرض وذلك بجعلها حرما يمنع غير حاميها من الرعى والإقامة وكان من هذا الحمى ما يجعل حمى للقبيلة تمنعه من غيرها من القبائل بقوتها ويكون الانتفاع به مشتركا بين جميع أفرادها كما كان منه ما يكون خاصا بسيد من ساداتها فيكون الانتفاع به مقصوراً على أنعامه دون أنعام غيره قرب أم بعد وذلك حين يرى الرجل العزيز فى القبيلة أن يتخذ حمى لنفسه فينزل منزلا مخصباً يراه منتجعاً صالحا فيوفى بكلب على جبل أو مرتفع به ثم يستعويه ويقف من أتباعه من يتسمع لصوته فحيث انتهى صوته بالعواء حماه من كل ناحية فيرعى مع العامة فيما سواه ويمنعه من غيره اختصاصا به ولم يكن هذا تملكا بل كان الغرض منه مجرد انتفاع مقصور على الحامى مدة مؤقتة تتحدد بصلاحية المكان للرعى فإذا انتهت صلاحيته انتهت حمايته .

الملكية فى الإسلام :

ذلك كان الوضع فى جزيرة العرب أو الصورة العامة التى تمثل الوضع فيها فلا تجافيه ولا تبتعد عنه فلما ظهر فيها الإسلام والأمر على هذا الوضع لا تكاد تعرف

فيها ملكية الدور والأرض إلا بين أهل الحواضر والقرى والحوائط أقر القرآن ما للناس من هذه الملكية فأقر ملكيتهم لما في حيازتهم من أموال وملكيتهم لديارهم وأرضهم وقد ظهر هذا الإقرار في نسبتها إليهم في آيات عديدة مثل قوله تعالى: «فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم» «آل عمران ١٩٥» وقوله تعالى: «هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله» (الحشر ٢) وقوله: «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» الأنعام ١٥٢ وقوله: «وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون» البقرة ٢٧٩. إلى غير ذلك من الآيات التي لا تدع مجالا للشك في دلالتها على إقرار تلك الملكية.

وكذلك جاءت السنة بما يدل على ذلك، وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أظفره الله ببني النضير أجلاهم عن ديارهم بما استقلت به ركابهم عدا السلاح، أما ما تركوه بعد ذلك من أرض ونخيل وأشجار ومال فقد كان مما أفاءالله على رسوله فكانت له خاصة يضعه حيث شاء فاستبقى منه ما يدر عليه نفقة السنة وقسم الباقي بين المهاجرين الأولين دون الأنصار عدا سهل بن ضيف وأبا دجانة لظهور فقرهما وشكايتهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك على رأس ستة أشهر من وقعة بدر كما روى أنه صلى الله عليه وسلم قسم أموال بني قريظة على المسلمين بعد إخراج الخمس فجعل للفارس منهم ثلاثة أسهم وللراجل سهما، وحين فتح الله عليه خيبر سأله أهلها من اليهود أن يقرهم عليها على أن يكفوه عملها ولهم نصف الثمرة بما تنبته الأرض ويثمره الشجر والنخل، فقال صلى الله عليه وسلم نقركم بها على ذلك ما شئنا وعلى هذا عاملهم على أن يخرجهم منها متى شاء فكان صلى الله عليه وسلم يجعل ما يخرج منها نصفين نصفا لرسول الله والمسلمين ونصفا لمن ينزل منهم من الوفود والأمور ونوائب الناس، وكان للرسول في النصف الأول الخمس وباقيه لمن شهد فتحها الفارس منهم ثلاثة أسهم وللراجل سهم، وحين أجلاهم عمر رضي الله عنه لم يجعل لهم حظا في الأرض ولا في الثمر فكانت كلها للمسلمين، وتلا ذلك أن أرسل أهل فدك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم من اليهود أن يصالحهم على النصف من أرضهم ونخلهم فأجابهم إلى ذلك فكانت خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها نفقته وما بقي كان في سبيل الله وفي أبناء السبيل ولم يزل أهلها بها إلى أن

أجلاهم عمر حين أجلى اليهود من جزيرة العرب ، فوجه إليهم من قوم نصف الأرض وما عليها بقيمة عدل فدفعها إليهم وأجلاهم إلى الشام .

وقد سألتها فاطمة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم من أبى بكر بناء على أن النبى صلى الله عليه وسلم قد منحها إياها فى حياته فأبى عليها ذلك إذا لم تقم حجة عليه ولم تنتقل إليها ميراثا لما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

وفى هذه الآثار ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل لكل غاز مما شهد الفتح ملكية خاصة فيما شهد فتحه من الأرض . تطبيقا لقوله تعالى : « واعلموا إنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . أما الأربعة الأخماس فكانت للقائمين بالسنة كما حدث ذلك فى أرض خيبر إذ كان لكل من شهد فتحها ثمرة سهمه منها – وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم نصف فدك ملكا خالصا له إلى أن أجلى عمر أهلها عنها وأعطاهم عوضا عن نصفهم فيها فصارت كلها للمسلمين .

وفيما ورد عن صنيعه صلى الله عليه وسلم فى غنائم خيبر من تخصيص نصفها بما ينزل بالمسلمين من الوفود والأحداث إقرار للملكية الأرض ملكية جماعية إذ لم يكن ذلك النصف مملوكا لشخص معين وإنما كان ملكا لجماعة المسلمين تصرف غلته فى نوائبهم ووفودهم ومايتزل بهم من أمور فكان مصرفه مصرفا عاما فى شئون جماعية تخص المسلمين جميعا . وكان الأنصار فى زمنه صلى الله عليه وسلم أصحاب أرض وحقول يزرعونها ويكرونها كما روى عن رافع ابن خديج : كنا أكثر الأنصار حقلا فكنا نكرى الأرض . كما روى عن أسيد بن حضير : كان أحدنا إذا استغنى عن أرضه أو افتقر أعطاها بالنصف أو الثلث أو الربع إلى غير ذلك من الآثار . وإلى ذلك أيضا قال صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فهى له رواه الترمذى وهو يدل على أن الأرض الموات لا ملكية فيها لأحد وأنها تصير ملكا خاصا لمن أحياها .

« راجع الجزء الرابع من البداية والنهاية لابن كثير والجزء الخامس من نيل الأوطار صفحة (٢٣٠) إلى صفحة (٢٢٦) والأموال لأبى عبيد صفحة (٨) » .

« فدك قرية قريبة من خيبر » .

« يتبع »

علي الخفيف

الإيمان والإسلام

للأستاذ عباس طه

اختلف العلماء في معنى الإيمان والإسلام اختلافاً كثيراً ، وسبب ذلك يرجع إلى ما فهمته كل طائفة من ظواهر الأحاديث الصحيحة . فإن بعضها يدل على أن بعض الأعمال البدنية من صلاة وصيام وزكاة وحج وجهاد وغير ذلك داخلة في معنى الإيمان ، وبعضها يدل على اتحاد الإسلام والإيمان ، وبعضها يدل على تغايرهما ، وبعضها يدل على أن الإيمان هو التصديق فقط بدون ذكر للأعمال ، إلى غير ذلك مما سنكشف عنه .

عن أبي هريرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أي العمل أفضل ؟ فقال : إيمان بالله ورسوله ثم ماذا؟ قال الجهاد في سبيل الله . قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور » رواه البخاري

ويتعلق بشرح هذا الحديث أمور أحدها : معنى الإيمان والإسلام وشرح معنى قوله : الجهاد في سبيل الله ثم شرح قوله حج مبرور .

إن الذين يريدون الوقوف على معنى الإيمان والإسلام يجب أن يفرقوا قبل كل شيء بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحي ، والمعنى الشرعي الذي يوافق اصطلاح كل طائفة من الطوائف الآتي ذكرها .

فمعنى الإيمان في اللغة التصديق مطلقاً سواء كان بالله ورسله أو بغير ذلك . فمن صدق بالله كان مؤمناً في اللغة كمن صدق بإله آخر أو بآلهة متعددة كما هو الحال في المشركين الذين يعبدون الأصنام . أما معناه في الاصطلاح فإليك بيانه على الترتيب الآتي :

الأول : اصطلاح جمهور المتكلمين من الأشاعرة ، قالوا : الإيمان : هو التصديق بالقلب . فمن صدق بقلبه بأن الله إله واحد ، وأن محمداً عبده ورسوله إلى الناس ، كان مؤمناً لا يخلد في النار يوم القيامة . وقد اتفق معظمهم على أن من صدق بالله ورسوله ثم أدركه الموت قبل أن ينطق بلسانه أو يعمل بجوارحه فإنه يكون مؤمناً بينه وبين الله تعالى وحجتهم في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » . فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » .

فهذا يدل على أن الذي يؤمن بالله ورسوله

لا بد أن يخرج من النار وإن كان قد يعذب على ما كسبه من عمل سيء . ولا سبيل إلى جعل الإيمان فى الحديث بمعنى العمل الزائد على التصديق كما هو رأى بعض الأئمة ، لأن الحديث صريح فى أن المراد بالإيمان هو المتعلق بالقلب ، وهو التصديق فحسب .

ولا منافاة بين هذا الحديث وبين ما أخرجه البخارى عن أنس وهو : (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن برة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من خير) وفى بعض الروايات (وزن ذرة من إيمان) .

وذلك لأن حديث أبى سعيد الخدرى الذى يحتج به الأشاعرة معناه أن التصديق كان فى الخروج من النار بدون أى عمل ، وحديث أنس معناه أن التصديق ـ مهما كان وصفه ـ مع قوله لا إله إلا الله يكفيان فى الخروج من النار . وهو كذلك ، فإنه إذا صح أن يخرج منها من كان فى قلبه ذرة من الإيمان وإن لم يقل لا إله إلا الله صح أن يخرج منها من آمن وقال لا إله إلا الله من باب أولى فلا تنافى بين الحديثين .

هذا حكم من آمن بالله ولم يتمكن من النطق بالشهادتين ثم مات ، أما من آمن بقلبه وعاش مدة يستطيع أن ينطق فيها بالشهادتين وعلم بوجوب النطق بهما ، فحكمه عند جمهور الأشاعرة كحكم الأول فى كونه غير مخلد فى النار ، لأن المدار فى ذلك على الإيمان بالله ورسوله ، وقد أورد على هذين الوجهين أن فرعون موسى مؤمن لأنه أقر بلسانه ولا بد أن يكون فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فى هذه الحالة مع أن المسلمين يجمعون على أنه ليس بمؤمن ، نعم قال صاحب الفتوحات المكية : إن فرعون مؤمن بهذا القول ، ولكن رأى صاحب الفتوحات المكية هذا لا يخرق الإجماع ، والواقع أن سياق الآية لا يؤيد صاحب الفتوحات وأنصاره لأن الله سبحانه وتعالى لو علم منه الإيمان حقا لرد عليه ردا جميلا ، ولكنه رد عليه بما يفيد أن إيمانه فى هذا الوقت لا يجد به نفعا ، وكيف يصنع بقوله تعالى : «آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين» بهذا يدل على أن إيمانه لم يكن فى الوقت الذى ينفع فيه الإيمان كما قال تعالى : «وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن» . والرأى السديد فى بيان هذا الوقت هو أن يتأكد الإنسان من موته ولم يبق له أى أمل فى الحياة ، وقد ورد أن فرعون قال ذلك حين ألجمه الغرق وأصبح هالكا لا محالة على أن صاحب الفتوحات

المكية قرر أنه سيعذب بما كسبت يداه ولكنه لا يخلد فى النار إلى مالا نهاية وهذا مذهبه فى فرعون وغيره من الكافرين. فالواقع أنه لم يأت بجديد فى مسألة فرعون ، وذلك لأنه يرى أن الخلود والتأبيد الواردين فى القرآن معناهما طول المدة ، وقد وافقه على هذا الرأى ابن تيمية وابن القيم، واستدل ابن القيم على ذلك بأدلة كثيرة فى كتابه حادى الأرواح ، فمن أراد أن يعرفها فليرجع إليه.

ومن هذا فجمهور الأشاعرة الذين قرروا هذا لم يقولوا : إن مرتكب الجرائم التى نهى الله عنها لا يعذب عليها إذا مات ولم يتب ولكنهم يقولون إنه سيعذب على ما كسبت يداه ، والله يعفو عنه إذا شاء ذلك ، وما كان لأحد أن أن يقدم على جريمة من الجرائم وهو يعتقد أنه على حظ عظيم ، وأنه لا يدرى هل تغفر له هذه الجريمة ويكون داخلا فيمن يصح أن يشاء الله لهم المغفرة أولا فليس فى هذا الرأى تساهل فى الحث على أداء الواجبات الدينية والخلقية التى كلف الله بها العباد .

هذا وظاهر الأحاديث التى تقدمت يقتضى أن التصديق يزيد وينقص ، وهو كذلك ، ولكن التصديق يطلق على الاعتقاد الجازم الحاصل على دليل يقينى لا شبهة فيه ، وهذا لا يحتمل الزيادة والنقص ، ويطلق على التصديق الحاصل بالتقليد ولا شبهة فى أن مثل هذا التصديق قابل للزيادة والنقص فإن الواقع المحس هو أن المصدقين متفاوتون فى استمساكهم باعتقادهم وإن تساووا فى اتصافهم به ، فترى اثنين من العقلاء يعتقدان عقيدة واحدة سرت إليهم من آبائهم أو من البيئة التى نشئوا فيها ولكن يمكن تشكيك أحدهما دون الآخر ، ويرجع ذلك إلى قوة اعتقاد أحدهما دون الآخر ، فدل ذلك على أن التصديق لا يلزم أن يكون على حالة واحدة ، فاعتقاد القلب الجازم الذى لا يرتكز إلى دليل يقينى قابل للقوة والضعف . وهذا هو رأى كثير من السلف منهم الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ولهم على ذلك أدلة منها حديث أبى سعيد الخدرى وحديث أنس المذكورين ، ومنها قوله تعالى: «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا». أما الإمام أبو حنيفة فقد نقل عنه أنه قال : الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، وإن كان قد يتفاوت بأمور زائدة عليه خارجة عنه ، فقد تكون أسباب الإيمان أكثر جلاء عند بعض الأفراد دون بعض ، فإذا ظهر السبب بنسبة واحدة كان التصديق متساويا عند الجميع، مثال ذلك الحكم بحدوث العالم ، فإنه بعد معرفة أدلته ودفع الشبه الواردة عليها يصبح كالحكم بأن الواحد نصف الاثنين . والأمر فى ذلك هين ، فإن الحنفية يسلمون بأن الإيمان

يقوى ويضعف لا بحسب ذاته ، بل بحسب الأدلة الخارجة عن ماهيته . ولكن هذا تكلف لا حاجة إليه ، فإن الظاهر يؤيد جمهور الفقها. والمحدثين الذين لا يشترطون فى الإيمان أن يكون بمعنى التصديق الجازم الحاصل عن دليل يقينى لا يحتمل التشكيك . هذا هو اصطلاح جمهور المتكلمين الأشعريين .

الرأى الثانى : للمعتزلة ، وهؤلاء قالوا : إذا تعدى الإيمان بالباء كما إذا قيل . آمن به ، فإن معناه يكون منحصراً فى التصديق الجازم أما إذا ورد الإيمان بدون تعدية بالباء فإن معناه يكون شاملا للاعتقاد والأعمال والإقرار باللسان ، وهل أعمال الجوارح والإقرار باللسان داخلان فى ماهية الإيمان الشرعى أو هما شرطان فى صحته ؟ الظاهر أنهم يقولون إنها جزء من حقيقة الإيمان ، وإن كان بعض شراح الحديث نقل أنهم يقولون إنها شرط لصحته .

وعلى كل حال فإن المعتزلة يقولون لا يتحقق الإيمان إلا إذا اشتمل على ثلاثة أمور : التصديق بالقلب ، والإقرار باللسان ، والأعمال التى كلف بها العباد . فإذا ترك شيء من ذلك لم يكن العبد مؤمنا . وهل الأعمال التكليفية تشمل المندوبات أو هى مقصورة على الواجبات ؟ خلاف فيما بينهم . والمحققون منهم على أن المندوبات لا تدخل فى الإيمان .

وعلى كل حال فهم يجمعون على أن مرتكب الكبيرة لا يقال له مؤمن ، ويخلد فى النار إذا مات وهو مصر عليها وهو قول لا يلتقى مع كثير من نصوص الكتاب والسنة وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره». وقوله : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين» ، فهل من العدل أن يعمل الإنسان صالحاً فى كل أدوار حياته ثم إذا ارتكب كبيرة مرة واحدة ومات حبط كل عمله ؟ إن هذا فاسد لاشك فيه . نعم يحبط الأعمال كلها الردة عن الدين ، فإذا ظل عاملا طول حياته ثم ارتد عن دينه ومات حبط عمله بنص القرآن ، ومن الغريب أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة يقول : إن ترك المندوب يهدم الإيمان ، فمن فعل مكروهاً يخلد فى نار جهنم ، ومعنى ذلك أن معظم المسلمين يخلدون فى نار جهنم ، فإن المندوبات لا حد لها ، فإذا ترك الإنسان مندوباً ولم يفعل ما يكفره ثم مات يخلد فى النار . وهل يقول بهذا من به مسحة من تعقل ؟ .

الرأى الثالث : للخوارج وهؤلاء على رأى واصل بن عطاء فى هذا الموضوع فإنهم يقولون : إن الإيمان بالله معناه المعرفة بالله

وبكل ما وضعه الله عليها دليلا عقليا أو نقليا من الكتاب والسنة، ويتناول طاعة الله تعالى في جميع ما أمر به من فعل وترك صغيراً كان أو كبيراً، فمن ترك خصلة من هذه الخصال فإنه يكون من الكافرين، وهذا رأي واهن.

الرأي الرابع: للمرجئة، وهؤلاء كانوا مع المعتزلة على طرفي نقيض، فالمعتزلة أفرطوا، والمرجئة فرطوا، وقالوا إن كل الذنوب كبيرة كانت أو صغيرة لاقيمة لها بعد الإيمان، فمن آمن بالله ورسوله فقد نجا ولو كان زانيا سارقا قاتلا. وهذا فساد في الدين لاحد له.

ولعله قد سرى إلى هؤلاء من أن عقيدة الإيمان بالخلص تكفي في النجاة. ولئن صح هذا كانت التكاليف الشرعية عبثاً، وكانت الأوامر الإلهية التي وردت في كتاب الله وسنة رسوله لهواً ولعباً.

والرأي السديد الذي يقتضيه صريح الدين ويؤيده العقل: هو أن الناس يجزيون بأعمالهم من خير وشر، فمن عمل صالحا وهو مؤمن كان له على الله أن يدخله جنات النعيم، ومن عمل سوءاً وهو مؤمن فإنه يجزى عليه بالعذاب بقدر هذا العمل، والمؤمنون بالله ورسوله لا يخلدون في نار جهنم وإن كانوا يعذبون عن أعمالهم، والكتاب والسنة يؤيدان ذلك في كثير من المواضع، أبرزها قوله تعالى: « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره».

هذا أهم ما قيل في الإيمان، ولا يخفى أن الحديث الذي معنا يدل على أن الإيمان غير أعمال الجوارح، لأن السائل سأل عن العمل مطلقا سواء كان عمل القلب أو عمل الجوارح، فأجابه الرسول الأعظم أفضل الأعمال عمل القلب وهو الإيمان، فأطلق الإيمان على عمل القلب.

أما الجهاد والحج فهما من الأعمال الظاهرة وهو دليل لمن يقول: إن الأعمال خارجة عن حقيقة الإيمان.

أما الإسلام فمعناه لغة: التسليم وترك الاعتراض فيما لا يلائم: أما في الشرع فإنه قد ورد على ثلاثة أوجه، أحدها: أنه مرادف للإيمان، وثانيها أنه مغاير للإيمان ثالثها: أنه جزء من الإيمان داخل فيه.

مثال الأول قوله تعالى: « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين». ومعنى الآية: فأخرجنا آل لوط المؤمنين من القرية التي كان يسكنها قومه فلم نجد فيها غيرهم، إذ لم يكن بها قوم لوط مؤمن سوى آل لوط - باستثناء امرأته - فسماهم الله أولا مؤمنين، وسماهم ثانياً مسلمين فدل ذلك على أن الإيمان والإسلام

(البقية على صفحة ١١٢١)

جنات واعظة

للأستاذ الحسينى محمد أبو فرحة

(١) المال عصب الحياة الدنيا وزينتها ووسيلتنا إلى ضرورياتها وكمالاتها ، وهو صنو البنين . وكلاهما يحرص الإنسان عليه . ويرى فيه سعادة نفسه . وطمأنينة قلبه . قال تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

وقد قرنه الله بالبنين فى ثمان وثلاثين آية من آيات الكتاب الكريم . مقدما المال على البنين وفى ذلك إشارة إلى أن تعلق النفس بالمال أشد من تعلقها بالبنين .

والمال كان مصدر الصراع بين الأفراد والجماعات . فبسببه اقتتل الناس وتفرق الأحبة . وما كانوا ليقتتلوا ويتفرقوا فيقلبوا النعمة نقمة . ويجعلوا زينة الحياة سببا لشقائهم لو أنهم أنزلوه منزلته . وهى كونه وسيلتنا لسعادة الدارين . فلم يتخذوه صنما يعبد من دون الله ، ويتقربوا إليه بشتى الوسائل . غير مفرقين بين مشروع ومنكر . ولكنهم قد اتخذوه صنما . وتقربوا إليه بكل شىء : وعلى مذبحه أراق الأخ دم أخيه وقتل الأب بنيه . والابن أباه . وانتهكت الأعراض وديست الكرامات .

ويا عجبا أن يجعل وسيلة السعادة سببا للشقاء . ولكنه ضلال الإنسانية بسبب بعدها عن هدى السماء ، ورسالات الله . فما قيما الله على تنكب الطريق السوى وقد أرشدنا الله فى كتابه وسنة رسوله فى وضوح واضح إلى الطريق الصحيح للتعامل مع المال . اكتسابا وإنفاقا وادخاراً مصححا فى ذلك نظرة الناس إلى الأموال .

فلم يرض لهم أن يكونوا عبيد الدرهم والدينار ، كما لم يحب لهم أن يتنكروا لها ، قال تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » .

وقال صلى الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش) .

كما قال صلى الله عليه وسلم : (اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ،

---

(١) ملاحظة : هذا المقال والذى قبله ليسا من بحوث مجمع البحوث .

وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، ومن يستعف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه) .

وفى ذلك حث واضح على اكتساب المال ليصلح الإنسان به من شأنه وليحسن به إلى غيره ، وفى الحديث الذى قبله تنفير من الإسراف فى حب المال إسرافا يحمل الإنسان ينتقل من كونه سيداً مالكا للمال ، إلى كونه عبدا له .

هذا وقد لفتت نظرى أربع قصص واقعية ، ثلاث فى القرآن الكريم ، وواحدة فى السنة النبوية حول المال ، وتصحيح النظر إليه ، والتعامل معه ، وذلك عن طريق القصة وأثرها فى النفس عظيم ، واتخذ موضوعا لها فى جميع القصص لون من المال بعينه يغلب على النفس حبه والميل إليه ، ذلك هو البساتين الغناء والحدائق الفيحاء ، والجنان النضرة .

* * *

القصة الأولى : يدور الحوار فيها بين رجلين ، أوتى أحدهما جنتين من أعناب ، محفوفتين بنخل وجعل بينهما زرع ، وفجر خلالها نهر « وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلبا» .

إذن فقد كفر الرجل ، بعد أن بطر وركن إلى ماله مفتخراً به ، وبغى وطغى وتجبر ، واعتز بماله وجاهه ، وجعل المال ، وهو نعمة من الله عليه سبباً لطغيانه وكفرانه .

وصدق فيه قوله تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

وهنا ينبرى له صاحبه مسفها رأيه أن جعل المال سبب الكفران والفخر . مذكراً له بنعمة الله عليه فى خلقه فى أطوار شتى . طورا بعد طور . حاثا له النظرة الصحيحة لنعمة المال . بنسبتها لله وشكره عليها ، والتبرى من حوله وقوته فى كسبه . فكم من باذل لا ينال ، ولو كان جهد الإنسان هو كل شىء لما تخلفت ثمرة عن عمل .

قال تعالى : « قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيداً زلقا . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا » .

انتهى الحوار . ونحن الآن بإزاء رجل أوتى مالا : جنتين عظيمتين . فكفر بعد

أن بطر وافتخر وبغى وتكبر، فماذا كان من شأنه بعد ذلك، هنا موضع العظة والعبرة أهلك الله حديقتيه، فلم يعد أكثر مالا، وثاب الرجل إلى رشده بعد أن جرد من المال «يا ليتني لم أشرك بربي أحداً»، وبطل الجاه فلم يجد فئة تنصره من دون الله وما كان منتصراً ويصور الله ذلك أتم تصوير في قوله سبحانه وتعالى: «وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً.

ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً. هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا».

يا لله الناس، ألا يعرف الإنسان ربه إلا أن تنزل به جائحة تعيده إلى رشده، وتصلح من فكره ألا ما أجهل من يجعل نفسه عبد العصا. وبؤسا لإنسان يطغيه المال مهما كثر، ويقف حائلا بينه وبين النظر الصحيح، آمنت بالله، ما شاء الله كان لا قوة على أمر إلا بالله، تلك هي الجنة الأولى: وفيها دعوة لتصحيح النظر للمال بنسبته لله منعما به. وعدم اتخاذه وسيلة للمباهاة والفخر، والتبرى من الحول والقوة فى جمع المال وتثميره وحفظه، بل الأمر بيد الله وحده.

وأما القصة الثانية: فعن سبأ «جنتان عن يمين وشمال. كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور.

صدق الله العظيم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وهل طلب منهم كفاء ما أنعم به عليهم إلا أن يعرفوا له حقه، ويؤدوا له شكره والشكر لله على نعمه سياج لها يحفظها من الهلاك ويزيد فيها «لئن شكرتم لأزيدنكم»، ولكن القوم غلبت عليهم شقوتهم فأعرضوا فحقت عليهم كلمة الله «ولئن كفرتم إن عذابي لشديد».

وأى عذاب نزل بهم إنه السد الذى بنوه ليتحجزوا المياه خلفه لوقت حاجتهم، وليحميهم من غائلة الغرق قد تهدم بنيانه وتصدعت أركانه، فأغرق مساكنهم وأتلف بساتينهم، ثم أبدلهم الله من جنتيهم المغرقتين ما لا يسمن ولا يغنى من جوع وأسماه جنتين تهكما بهم وأى خير فى ثمر مر بشع وطرفاء لا ظل ولا ثمر، وسدر قليل النفع. ذلك جزاء كفرانهم وعدم شكرهم.

فإذا كان موطن العبرة فى القصة الأولى النهى من اتخاذ المال وسيلة للمباهاة والفخر والحث على عدم الركون إليه . والتبرى من الحول والقوة فى كسبه وحفظه ، فإن موطن العبرة هنا هو الحث على شكر الله على نعمة المال . بالاعتراف له سبحانه بأنه هو المنعم المتفضل ، وأداء حق الله فيها لأن ذلك هو تمام الشكر .

وأما القصة الثالثة : فخلاصتها أنه كان فيمن مضى رجل صالح يملك بستانا ، وكان ينادى الفقراء والمساكين وقت جنيه ، فلما مات الصالح قال بنوه إن فعلنا مثل ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ، فإن المال قليل والعيال كثير . وأقسموا ليقطعنها فى وقت الصباح الباكر حتى لا يتبعهم المساكين ولم يقولوا إن شاء الله فجمعوا بذلك بين العزم على حرمان المساكين والاعتماد على حولهم وقوتهم فحسب .

وهنا نزل على جنتهم ليلا بلاء مخصوص أحاط بها من جميع جوانبها فأصبحت كأنها قطعت ثمارها ، بحيث لم يبق فيها شىء ، أو صارت كالليل فى اسودادها واحتراقها . ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى حديقتهم مستخفين عن أعين المساكين ، مصرين على جنى ثمر الحديقة وحرمان الفقراء منها . فلما رأوها هالهم ما رأوا ، وظنوا لأول وهلة أنهم ضلوا طريقهم ، وأن الحديقة التى أمامهم ليست حديقتهم . ثم لما تأملوا فى أماراتها وجزموا بأنها حديقتهم أيقنوا بأنهم حرموا منها وهنا قال أعدلهم رأياً : ألم أقل لكم حين تشاوركم على حرمان الفقراء هلا تذكرون الله بالخير . وهنا . هنا فقط أدركوا خطئهم وعظيم جرمهم فتابوا وأنابوا .

قال تعالى « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » .

يا لله للمسلمين . فكم من بلاء نزل . وآفة حلت بزروعهم فى ضراوة العام بعد العام . وكم من جهد بذل لمكافحتها إن أفلح حينا .

غاب أحياناً . وهم فى كلتا الحالتين قد خسروا خسراناً مبيناً . أليسوا فى حال نجاح جهدهم فى مكافحة الآفة قد خسروا جهدهم الموجه لمكافحتها ، ومالهم المبذول ثمنا لمبيداتها .

والعلاج :

بذل ولا بخر . وشكر لله على ما أنعم به . شكر يدفع إلى صالح الأعمال . وكريم الفعال .

وأما القصة الرابعة : فيذكرها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . قصة واقعية عمن مضى قبلنا قصة تكمن فيها أبلغ عظة وعبرة لقوم يتعظون ويعتبرون .

قصة يؤمر فيها ماء السماء بالتوجه إلى حديقة معينة لريها . ويسمع ذلك الأمر إنسان بأذن رأسه حتى تكون الموعظة أتم والعبرة أكمل . ويتابع ذلك الرجل هذا الماء المأمور . فإذا به يتجه لحديقة يعمل فيها صاحبها ، فيسأله الرجل عما يعمل فى حديقته فإذا به يتصدق بالثلث . ويطعم هو وعياله الثلث . ويرد فيها الثلث . ومما يلفت النظر فى ترتيب ما يعمله أنه ابتدأ بالصدقة قبل أن يذكر طعمته وطعمة عياله . وبذلك يكون الرجل قد قدم حق الله على حقه . وأعظم الصدقة ما بادر به صاحبه . قال تعالى : « وآتوا حقه يوم حصاده » .

وهاهو حديثه صلى الله عليه وسلم المتضمن لهذه القصة . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا رجل فى فلاة من الأرض . فسمع صوتا فى سحابة : اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة . فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء . فإذا رجل قائم فى حديقته يحول الماء بمسحاته . فقال له ياعبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للاسم الذى سمع فى السحابة . فقال له ياعبد الله : لم سألتنى عن اسمى . قال : سمعت فى السحاب الذى هـذا ماؤه يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال أما إذ قلت هذا . فإنى أنظر إلى ما يخرج منها . فأتصدق بثلثه . وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيه ثلثه » .

وموضع العظة هنا يكمن فى تصدق الرجل بالثلث . وابتدائه به . فسخر له ماء السماء تسخيراً أسمعه الله لذلك الرجل فى الفلاة ، يا قوم : إن الباب مفتوح على مصراعيه لمن أراد الولوج .

فأيما إنسان بذل من ماله للفقير والمسكين وغير ذلك من وجوه البر . طيبة بذلك نفسه . فسحب الخير فى سماء الله تنتظر الأمر بالتوجه . سمعه من سمعه . ولا ضير إن لم يسمعه بأذن رأسه أحد . قال تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا

عليهم بركات من السماء والأرض ، وبالتأمل في القصص الأربعة نجد أن ثلاثا منها أهلكت. وواحدة منها فقط هي التي نجت من الهلاك . ولم تنج فحسب . بل سخر لها السحاب ذلك التسخير المثير .

والثلاث المهلكة وإن اتفقت في الإهلاك . فقد اختلفت أسبابه في كل منها .

فالأولى : أهلكت . بسبب الفخر بها . فخرا انتهى بصاحبها إلى البغي والكفر . والاعتماد على حوله وقوته . والثانية : أهلكت . بسبب عدم شكر الله عليها . بالاعتراف له سبحانه بأنه هو المنعم المتفضل . والثالثة : أهلكت بسبب العزم على فكرة فاسدة . نعم بمجرد العزم عليها . ألا وهي حرمان المساكين مما اعتادوا أخذه ، وأما الرابعة : فقد سخر لها السحاب وشملتها عناية الله ورعايته .

ذلك أن صاحبها كان نموذجا إسلاميا كاملا في نظرته للمال . فهو قد أخرج الثلث صدقة مبتدئا به ، وإذا دققنا النظر نجده قد أخرج النصف ، لأنه رد الثلث في الأرض بذرا وحرثا وخدمة . فكأنه شاطر الفقير ماله .

وذلك أكمل الشكر أن جادت نفسه . بنصف الثمر . فدل فعله على عقيدة سليمة ، وقلب مليء بالإيمان مفعم بالشكر لله سبحانه والرجل مع ذلك بعيد كل البعد عن مواطن الفخر والمباهاة بماله ، وبعيد أيضاً عن المن والأذى . فهو لم يعمل على إذاعة صنيعه بين الناس . يلتمس بينهم جاها كاذبا ومجدا زائفا . لا بل كان ضنينا بسره حريصا على عدم إذاعته .

أنظر إليه لم يجب الرجل المستفسر عن سؤاله إلا بعد أن أخبره بالآية التي شاهدها ولكن السماء كانت حريصة على إذاعة سر الرجل ونشره بين الناس . درسا عمليا بليغا . فأسمعت صاحب الفلاة ما سمع . وأرته ما رأى .

* * *

مما يتقدم يتبين لنا أنه لا يكفي المسلم أن يجمع المال من حلال . وأن يؤدي حق الله فيه للفقير والمسكين . بل يلزمه مع ذلك ما هو أهم منه . ألا وهو تصحيح النظر إلى المال . بنسبته إلى الله منعما به . والتبري من حوله وقوته في كسبه وحفظه ودوام الشكر لله عليه . وأداء حق الفقير والمسكين . شاعراً بأنه بإنفاقه إنما يسدي لنفسه معروفا أي معروف . يتحبب لربه ويحفظ بذلك ماله من الجوائح تنزل به . لا أقول ثورة الفقير والمسكين عليه ، ثورة تزلزل كيانه وتذهب بثروته . بل أهم منها وأشد وأنكى غضب الله عليه ، غضبا يتمثل في ثورة الطبيعة . صواعق ورعود وغرق

متفقان فى المعنى . وحرق ونضوب للماء . كما ورد فى قصصنا السابقة .

وعلى ذلك فالمسلم حين يتعامل مع المال إنما يمارس ضربا من العبادة . يجد فيه سعادة نفسه وطمأنينة قلبه . فهو حين يعمل لكسبه يتوكل على الله توكلا يحمله يبذل الأسباب . ويفرغ الجهد لإتقان العمل .

ثم هو لا يتعامل مع الطبيعة . وإنما يتعامل مع رب الطبيعة . خالق السبب والمسبب . فهو جرئ مقدام نتيجة إيمانه بقوة مولاه وعظمته . ولا يعرف الجبن والخنوع والرضا بالدون والخوف من مظاهر الطبيعة . خوفا يقعده عن العمل . ويسلمه الكسل .

تلك هى أهم الفروق بين نظر الإسلام للمال ، ونظر غيره من النظم . وشتان ما بين النظرين ، وبعد ما بين المذهبين . أسأله سبحانه أن يأخذ بنواصينا إلى هديه إنه سميع مجيب .

الحسينى محمد أبو فرحة
عضو بعثة الأزهر بالجمهورية الصومالية

(بقية المنشور على صفحة ١١١٤)

ومثال الثانى قوله تعالى «قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا» فإن معنى أسلمنا : أظهرنا الإسلام والخضوع وقلوبنا غير مصدقة ، فالإسلام هنا مغاير للإيمان .

ومثال الثالث : ما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : أى الأعمال أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الإسلام . فقيل له أى الإسلام أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم الإيمان . فدل ذلك على أن الإيمان داخل فى الإسلام وجزء منه

وأما الجهاد فى سبيل الله فهو فريضة من أهم الفرائض الدينية ، والعناية به ينبغى أن تكون فوق كل عناية ، وذلك لأنه يتوقف عليه عز الأمة وصيانة دينها وكرامتها ، ولقد كان المسلمون الأولون على شئ لا يحرصون فى الحياة الدنيا إلا على العزة والكرامة والمحافظة على دينهم بجميع الوسائل المشروعة ، وأولها الجهاد فى سبيل الله . ومقاومة المغيرين الذين يريدون أن يستذلوهم ويسلبوهم مجدهم وكرامتهم ويعبثوا بأخلاقهم ودينهم ، وإن لنا فى سيرة النبى الأعظم وأصحابه ومن حذا حذوهم من المؤمنين حقا أكبر العظات وأجل العبر .

وأما الحج المبرور : فهو من أجل وسائل التهذيب وأعظم قواعد الإسلام المبنية على ضرورة التعارف والاتحاد والتناصر والتواد ففى الحج خضوع لله عز وجل ، وذكر لعظمته التى لا تحدها العقول ، وفيه منافع للناس من تعارف وتواد وفيه ذكر لليوم الآخر .

عباس طه

نشأة الـكون

بين الدين والعـــلم

للدكتور شريف محمد شريف

من النـاس من يزعم أن الكون أزلى لا أول لوجوده إلا أن هذا الزعم لم يلق رواجاً فى أى عصر من العصور إذ أن فكرة خلق الكون كانت ولا تزال عقيدة السواد الأعظم من البشر ، وحديث الخلق فى ستة أيام معروف لدى كثير من شعوب الأرض.

ولقد تعرضت الأديان لفكرة خلق السموات والأرض بأوجه شتى ، بعضها موجز وبعضها مفصل ، وتجمع الأديان السماوية الكبرى على أن خلقهما استغرق ستة أيام ، فجاء بالقرآن الكريم قوله تعالى : « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » ، وقوله : « أأنتم أشد خلقاً أم السماء ، بنـــاها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها » .

ومن الآيات الموجزة فى خلق السموات والأرض فى ستة أيام قوله تعالى: « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش » ، ومن الآيات المفصلة قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » .

وفى هذا الشأن أيضاً ورد بالإصحاح الأول من سفر التكوين فى العهد القديم « التوراة » ما يأتى :

« فى البدء خلق الله السماوات والأرض ، كانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النـــور والظلمة ، ودعا الله النور نهاراً ، والظلمة دعاها ليلا ، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً .

وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وليكن فاصلا بين مياه ومياه ، فعمل الله الجلد ، وفصل بين المياه التى تحت الجلد والمياه التى فوق الجلد ، وكان كذلك ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء وكان صباح يوماً ثانياً .

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة ، وكان كذلك ، ودعا الله اليابسة أرضا ، ومجتمع المياه دعاه بحارا ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا ، وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه بزره فيه على الأرض ، وكان كذلك ، فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه ، وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مساء وكان صباح يوما ثالثاً .

وقال الله لتكن أنوار فى جلد السماء لتفصل بين النهار والليل ، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين ، وتكون أنوارا فى جلد السماء لتنير على الأرض ، وكان كذلك ، فعمل الله النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار ، والنور الأصغر لحكم الليل ، والنجوم وجعلها الله فى جلد السماء لتنير على الأرض ولتحكم على النهار والليـــل ، ولتفصل بين النور والظلمة ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وكان مسا. وكان صباح يوما رابعاً .

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية ، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء فخلق الله التنانين العظام ، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التى فاضت بها المياه كأجناسها ، وكل طائر ذى جناح كجنسه ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وباركها الله قائلا أثمرى وأكثرى واملئى المياه فى البحار ، وليكثر الطير على الأرض ، وكان مساء وكان صباح يوما خامساً .

وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها ، وكان كذلك ، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها ، وجميع دبابات الأرض كأجناسها ، ورأى الله ذلك أنه حسن ، وقال الله نعمل الإنسان فيتسلطون على سمك البحر ، وعلى طير السماء ، وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التى تدب على الأرض ، فخلق الله الإنسان ، ذكرا وأنثى خلقه ، وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض ، وأخضعوها ، وتسلطوا على سمك البحر ، وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض ، وقال الله إنى قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض ، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما ، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء ،

وكل دابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما . وكان كذلك ، ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا وكان مساء وكان صباح يوما سادساً .

على هذه الصورة أوضحت الأديان السماوية الكبرى كيفية خلق السماوات والأرض فى ستة أيام وهنا ينبغى لنا أن نقف قليلا لنتدبر هذه الآيات ولنتفهم بعض النقاط على النحو الآتى :

أولا : كم كان يقدر طول اليوم حين خلق السماوات والأرض ؟ أهو يومنا الذى يتكون من نحو أربع وعشرين ساعة على وجه التقريب أو ثلاث وعشرين ساعة وست وخمسين دقيقة وأربع ثوان على وجه التحديد ؟ وذلك هو الوقت الذى تستغرقه الأرض الآن لتتم دورة كاملة لها حول محورها أمام الشمس ، أم أن اليوم الذى يعنيه الله تعالى يوم آخر له طول آخر لا يعلمه إلا هو ؟ لا سيما وأن الله يقول فى كتابه : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . ويقول أيضاً : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . ولقد ثبت فلكياً أن دورة الأرض التى يعبر عنها بالحركة اليومية لم تبلغ طولها الزمنى الحالى إلا عندما تم تكوين الأرض واستقر وضعها على ما هو عليه الآن ! فقد كانت الأرض - فى رأى علماء الفلك - عند بدء تكوينها قريبة من الشمس وصغيرة الحجم وكان اليوم الكامل حينذاك قصيراً جداً على الأرض حتى لقد بلغ فى مرحلة معينة أربع ساعات فقط ثم أخذ طول اليوم على الأرض يتزايد كلما بعدت الأرض فى فلكها عن الشمس وتزايد حجمها ، حتى أصبح اليوم بطوله الحالى ، فهل كانت الأيام الستة قصاراً جداً أم طوالا جداً أم كانت من طول أيامنا هذه ؟ وحتى أيامنا على الأرض يختلف فيها طول الليل والنهار على مدار السنة لأن محور الأرض ليس عموديا على مستوى فلكها بل يميل عنه بزاوية مقدارها ثلاثة وعشرون درجة ونصف درجة ، وقد أدى هذا إلى تغير وضع الأرض بالنسبة للشمس على مدار السنة ، فاختلف طول كل درجة من الليل والنهار .

وفيما يلى بيان بأطوال النهار حسب دوائر العرض :

درجة العرض	طول النهار
صفر°	١٢ ساعة
٦٣°	٢٠ ساعة
٦٧°	شهر
٩٠°	٦ شهور

وفى المناطق التى يبلغ فيها طول النهار شهراً فأكثر أى فى أطراف الأرض تظل

الشمس ظاهرة طول مدة ذلك النهار فلا شروق لها ولا غروب بل تدور حول المنطقة على الأفق .

ومهما يكن من اختلاف فى أطوال الليل والنهار فى مختلف أنحاء الأرض فإن السنة دائما اثنا عشر شهراً حتى ولو كان نصفها نهاراً ونصفها ليلا ، وقد أكدت ذلك أيضاً الآية الكريمة : « إن عدة الشهور عند الله اثنا شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض » .

ومع ذلك فإن الزمن لفظ ذو معنى نسبي ، فقد رأينا أنه يختلف طولا من الليل والنهار على الأرض ، كما يختلف من كوكب إلى آخر فى مجموعتنا الشمسية ، وكذلك يختلف من نجم إلى نجم ، فنهـــار القمر مثلا يساوى أربعة عشر يوما بلياليها على الأرض ، وليله أربعة عشر يوما كذلك ، وسبب هذا أن القمر يتم دورته حول نفسه مرة واحدة كل ثمانية وعشرين يوما .

ولو أخذنا السنة مقياسا للمقارنة الزمنية فى مختلف الكواكب لرأينا عجبا ! ونمهد لبحث ذلك بتقديم السؤال الآتى : ما معنى السنة ؟ وبالبحث نجد أن السنة تعنى دورة واحدة للكوكب فى فلكه حول الكوكب أو النجم الذى هو تابع له ، فالسنة مثلا على الأرض ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، وهذه هى المدة التى تستغرقها دورة الأرض مرة واحدة حول الشمس على بعد معين ثابت يقدر فى المتوسط بنحو ثلاثة وتسعين مليونا من الأميال ، فلو أن هذا البعد زاد على ذلك أو نقص لزاد طول السنة أو نقص بمقداره ، ولذلك يمكن القول مثلا : إن سنة القمر ثمانية وعشرون يوما نصفها نهار ونصفها ليل ، وفيما يلى بيان بطول السنة فى كل كوكب بالمجموعة الشمسية هى مدة دورته مرة واحدة كاملة حول الشمس حسب بعده عنها :

الكوكب	طول السنة
عطارد	٨٨ يوما أرضيا
الزهرة	٢٢٥ يوما أرضيا
الأرض	سنة واحدة
المريخ	١٫٨٨ سنة أرضية
المشترى	١١٫٩ » »
زحل	٢٩٫٥ » »
أورانوس	٨٤ » »
نبتون	١٦٤٫٨ » »
بلوتو	٢٥٠ » »

هذا بالنسبة للكواكب السيارة فى المجموعة الشمسية التى هى بدورها تدور حول فلك

أو مدار أكبر وأعظم، وبالطبع تبلغ السنة حينذاك آلافا بل ملايين من السنوات على الأرض، أليس ذلك يحق مصداقا لقوله تعالى: «وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون».

على هذا الأساس يمكن البحث فى طول اليوم حين خلق السماوات والأرض، وأعتقد أن الوصول إلى رأى قاطع فى هذا الشأن جد عسير، وأرى أنه لا بد لنا من التسليم بأنها ستة أيام من أيامنا الأرضية فى منطقتنا العربية حيث يبلغ طول كل منها أربعاً وعشرين ساعة على اعتبار أن هذه المنطقة مهبط الأديان السماوية الكبرى، وأن الكتب المنزلة إنما تخاطب قاطنيها على أساس ترتيبى سليم مؤداه توجيه الفكر الإنسانى من المعلوم إلى المجهول، والمعلوم فى هذه المنطقة أن طول اليوم أربع وعشرون ساعة، وليس معنى هذا أن خلق السماوات والأرض كان بطيئا للغاية كما يبدو بالنسبة لنا أهل الأرض ومن وجهة نظرنا، ولكن هذه المدة المحددة بستة أيام بالنسبة لمن هو خارج نطاق كوكبنا الأرضى ليست إلا لحظة خاطفة «كلمح البصر أو هو أقرب»، ولا غرابة فى ذلك فقد استطاع رجل الفضاء الأول «يورى جاجارين» وهو يدور حول الأرض عن كثب أن يشهد يوما كاملا بنهاره وليله فى نحو الساعة ونصف الساعة بحساب زمننا الأرضى!! فكأن الأيام الستة لا تعادل فى رحلة «جاجارين» سوى تسع ساعات فقط، وقد تثبت رحلات الفضاء فى الغد القريب أن الستة أيام بمثابة لحظة خاطفة، وأن عملية الخلق الكونى على هذا الأساس سريعة جدا فيطابق ذلك قوله تعالى: «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»، وقوله «وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر».

ثانياً: أيهما أسبق خلقا؟ الأرض أم السماء؟

إن غالبية الآيات الخاصة بخلقهما تتضمن دائما سبقاً لخلق السماوات كما يبدو فى الآيات الآتية:

«إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش»، «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون. وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً». «الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن»، فإن قيل مثلا إن واو العطف فى هذه الآيات إنما هى لمطلق الجمع بحيث لا تفيد فى هذا الشأن ترتيباً فإنى أرد على ذلك بالآية الآتية التى صرحت تصريحا قاطعا بسبق خلق السماوات على الأرض وهى:

« أأنتم أشد خلقا أم السماء ، بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها » .

وبينما هذه الآيات جميعا تؤكد أن خلق السماوات أسبق من خلق الأرض نرى آيات أخرى تؤكد عكس ذلك أى أن الأرض خلقت أولا ثم خلقت السماوات ، من ذلك قول تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » ، وقوله أيضا : « أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » . إذا تدبرنا هذه الآيات جميعا وقارنا بينها وبين الإصحاح الأول فى سفر التكوين بالتوراة لاتضح لنا أنه خلال يومين تم انفصال الأرض من السماء بقدرة الله ، ومعنى ذلك أن بدء خلقهما كان فى وقت واحد ليس فيه سبق ولا تأخير .

أما المرحلة التى تلت ذلك فهى إتمام الخلق لكل منهما ، ويبدو أن إتمام الخلق للأرض من حيث تثبيت الرواسى وتقدير الأقوات ومباركة ما فى الأرض بالإكثار ، كل ذلك كان سابقا — فيما يبدو — على إتمام خلق السموات من شتى أمورها وتزيين السماء الدنيا بالمصابيح الممثلة فى النيرات كالشمس والقمر وإن كانت آية سفر التكوين توضح خطوات متبادلة فى إتمام الخلق بين السماوات والأرض وعلى ذلك فلا تعارض بين الآيات فى ترتيب خلق السموات والأرض ، ولئن كانت إحدى الآيات قد ذكرت أن الأرض بعد ذلك - أى بعد إتمام خلق السموات - دحاها ، فإنى أعتقد أن لفظ « دحاها » معناه جعل الأرض كالدحية أى البيضة بمعنى أن الأرض ليست تامة الاستدارة بل هى منبعجة عند دائرة الاستواء ومفرطحة عند القطبين وذلك من تأثير الدوران حتى أن القطر القطبى ينقص عن القطر الاستوائى بنحو ثمانية وعشرين ميلا ، ومصداق ذلك قوله تعالى : « أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » .

ومع ذلك فقد قطعت الآية الآتية بالرأى فى الأسبقية بين خلق السماوات والأرض مؤكدة انفصالها فى وقت واحد لا سبق فيه لأحد الطرفين على الآخر : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا

ففتقناهما » ، كما أن الآية التى ذكرت فى ظاهرها سبقاً لخلق الأرض على خلق السماء نصت على أن بدء خلقهما كان فى وقت واحد ، تدبر قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

ثالثاً : عدد السماوات والأرض :

فأما عن السماوات فقد جاء ذكرها فى بعض الآيات مفردة وفى بعضها جمعاً مبهم العدد بينما صرحت بعض الآيات بأن عددها سبع ، فلنتدبر هذه الآيات :

« الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » ، « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » ، « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه » ، « ويوم تشقق السماء بالغمام » ، « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمراً منيراً » ، « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ، « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ، « الله الذى خلق السماوات والارض ، وأنزل من السماء ماء » ، « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ، « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش » ، « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » ، « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن » ، « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق » ، « فقضاهن سبع سموات فى يومين » ، « الذى خلق سبع سموات طباقا » ، « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجا » .

وأما الأرض فقد ورد ذكرها مفردة دائما فى الآيات إلا آية واحدة فيها تلميح بسبع أرضين وهى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » .

فهل السماوات سبع حقاً ؟ وهل الأرض مفردة أم سبع أيضاً ؟ إذا أنعمنا النظر فى الآيات السابقة لوجدنا أن الآيات التى ورد فيها لفظ السماء مفرداً تعنى بالسماء هذه السماء الدنيا التى هى أقرب شىء للأرض بدليل أن لفظ السماء فى هذه الآيات غالباً ما يقترن بما ذلك من سحاب وغمام وبروج ومصابيح إلهية للزينة ، بل إن آية منها حددت موضع هذه السماء المقصودة بقولها : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » ، أما بقية الآيات فقد ورد فيها لفظ السماء إما جمعاً مطلقاً وإما محدداً فى العدد بسبع .

وفى اعتقادى أن السماوات كثيرة العدد جداً وليست محددة بسبع ، فقد أثبت علم الفلك الحديث تعدداً كبيراً للمجموعات النجمية والكواكبية ، وأما الرقم سبعة فإما

أن القرآن جارى العرب فى اعتقادهم الفلكى بأن الأرض مركز الكون وأن الأثير المحيط بالأرض توجد فيه النجوم والكواكب السبعة المعروفة آنذاك وهى بترتيب بعدها عن الأرض : القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشترى وزحل ، وأن هذا الأثير منقسم لكواكبه السبعة إلى كرات سبع طباق متماسة يحيط عاليها بسافلها فيختص كل كوكب بواحدة منها ثم تعلوها جميعاً كرة ثامنة فيها جميع الكواكب والنجوم الثابتة .

وإما أن القرآن جاراهم فى مدلول الرقم سبعة الذى يبدو أنه كان عند العرب يطلق على تعدد الأشياء بقصد الدلالة فقط على مجرد الكثرة دون أن يقصد به العدد ذاته حقيقة ، وجرياً على هذه العادة وردت بالقرآن آيات يدل الرقم « سبعة » فيها على مجرد الكثرة لا على العدد الحقيق ، فمن ذلك قوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء » ، وقوله « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » ، وقوله : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله » .

فهل يمكن للحبة عادة أن تنبت سبع سنابل؟ أو هل لجهنم سبعة أبواب فقط ؟ ثم لماذا يحدد عدد المدد من البحار بسبعة ؟ أليس هذا دليلا على مجرد كثرة العدد ؟ وفى القرآن الكريم مواضع ذكرت بها أعداد لا أظن أنها تراد لذاتها بل هى للدلالة على الكثرة فقط ؛ من ذلك قوله تعالى « والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ، وقوله « عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة . وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » .

هذا فيما يختص بعدد السماوات ، أما الأرض فأرى أيضاً أنها أرض واحدة وإن كان لها من الكواكب أشباه ونظائر ، ولئن نصت الآية على أن الله خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن فإنى أعتقد أن المقصود من ذلك أن الله خلق من نوع الأرض عددا كبيرا كما خلق من نوع السماء ، أو أن يكون المراد أن طريقة خلق الأرض كانت مماثلة لطريقة خلق السماوات كيفاً لا كماً ، وذلك بطريقة الفتق بعد الرتق كما تقضى بذلك النظرية السديمية .

هذا ما يقوله الدين فى نشأة الكون وخلق السماوات والأرض فماذا يقول العلم .

لقد ظهرت فى هذا المجال نظريات مختلفة أحدثها النظرية السديمية ولكن قبل عرضها يجمل الإلمام بشىء عن مدى معرفتنا بمادة تركيب الكون على ضوء التقدم العلمى الحديث .

ينشر في الفضاء الكوني غاز خفيف رقيق أشبه ما يكون بالدخان غير المرئي من خفته ، وحيث إن الغاز له خاصية الانتشار فهو دائما يملأ الفراغ وبناء على ذلك فالفضاء الكوني يملؤه هذا الغاز أو الدخان الأول ، وليس في الحقيقة سوى الأيدروجين الذي أخذ يتكتل لأسباب ما في مناطق فسيحة جداً فتكون مجاميع ضخمة من السحب ، ثم تمخضت كل سحابة عن سديم برمته ، وتبارك الله إذ يقول : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » .

فالأيدروجين إذن هو المادة الأساسية التي بني منها الكون ، ومن المعروف كيميائياً أن الأيدروجين هو أبسط أنواع المادة تركيباً وأهمها في تكوين الماء ، وإذا تفجر غاز الأيدروجين في سلسلة من التفاعلات الذرية تحت ظروف ملائمة تحول إلى الهليوم وانطلقت من ذلك طاقة كبيرة في صورة إشعاعات ، وهذا هو ما يحدث في الشمس والنجوم .

يمكن القول إذن أن الكون بدأ في صورة غاز الأيدروجين ، أما العناصر الأخرى فقد تولدت بعد ذلك تحت ظروف خاصة .

أما عن كيفية نشأة النجوم فأولى الخطوات في ذلك أن بعض الغاز المكون للمجرة ينقسم إلى مجاميع أو سحب تزداد داخلها الكثافة بفعل الجاذبية وتدور حول محاورها تبعاً لدورة المجرة ، ومن الدوران تتضاغف المجموعة تدريجيا وترتفع حرارتها من الداخل وتنتهي العملية بتولد نجم في مركز التضاغط .

وقد يصل حجم الغاز المتضاعف إلى جزء من مليون جزء من حجمه الأصلي ، وهذا يبين كيف أن النجوم رغم وفرتها إنما تشغل جزءاً ضئيلا جدا لا يكاد يذكر إذا قورن بحجم الفراغ الذي تولدت فيه ، وكيف أنها تبعا لذلك تستطيع التحرك في الفضاء الكوني بحرية كاملة .

أما عن نشأة الأرض فقد ظهرت بشأنها عدة نظريات أحدثها ثلاث لعلماء الفلك وتتلخص في الآتي :

١ - الأرض جزء من الشمس : يفترض أصحاب هذه النظرية اقتراب نجم غريب من الشمس فامتدت بفعل جاذبيته أجزاء خارجية منها وكونت انتفاخا كبيرا يزداد تضخما كلما ازداد الاقتراب به لأنه مر بسرعة هائلة ، وبعد ذلك أخذت الخيوط الغازية تتمزق إلى كتل تألفت منها الكواكب ، ثم فقدت هذه الكواكب منذ انفصالها عن أمها الشمس الطاقة التي تزود الأم بالحرارة ، وهكذا أخذت تبرد بالتدريج حتى أصبحت الغازات سوائل والسوائل أجساما صلبة كما نرى اليوم في غالبية المجموعة الشمسية من الكواكب التي تحوي الأرض .

٢ ـ كان للشمس قرين : تفترض هذه النظرية أن الشمس كانت نجما مزدوجا ثم انفجر النجم المصاحب للشمس فتكونت من بقاياه هذه الكواكب التى تدور حول الشمس ، وعلى هذا الأساس فليست الأرض وأخواتها من الكواكب السيارة بنات الشمس بل ربيباتها .

٣ ـ غبار سديمى فى رحلة الشمس : هذه أحدث نظريات اليوم ومفادها أن الشمس قد عبرت فى وقت ما سحابة سديمة فعلقت بها طبقة من الغبار لم تلبث أن اكتسبت حرارة شديدة وقوية على الدوران ، ومن هذا الغبار الحار الدائر تكثفت الأرض والكواكب السيارة الأخرى .

هذه النظريات العلمية الحديثة التى تفسر نشأة الكون وخلق السماوات والأرض وهى جميعاً نظريات افتراضية متفاوتة ، ولعل المستقبل القريب والتقدم العلمى يطالعنا بنظريات أخرى فى هـــذا الشأن فى أبحاث الفضاء ، فلنرتقب ولنتدبر . فالعلم لا حدود له ، وفوق كل ذى علم عليم ؟

دكتور شريف محمد شريف

من خطبة لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أوصيكم عباد الله ونفسى بتقوى الله ولزوم طاعته ، وتقـــديم العمل ، وترك الأمل فإنه من فرط فى عمله لم ينتفع بشىء من أمـــله ، أين التعب بالليل والنهار ، والمقتحم للجج البحار ، ومفاوز القفار ؟ يسير من وراء الجبال وعالج الرمال يصل الغدو بالرواح والمساء بالصباح ، فى طلب محقرات الأرباح ، هجمت عليه منيته ، فعظمت بنفسه رزيته ، فصار ما جمع بورا ، وما اكتسب غرورا ، ووافى القيامة محسورا .

سيارة يخترعها أزهرى

للأستاذ أبو بكر ذكرى

وفى عام ١٩٢٤ على التقريب كنت قد اتممت دراستى الثانوية بنجاح . وكان نظام الأزهر إذ ذاك يقضى بأن تكون الدراسة ، فى القسم العالى ، فى نفس مبنى الأزهر بالقاهرة .

وتحتم على كل طالب آخر مماثل لى أن ينتقل إلى القاهرة . ورحت أشعر بأسف عميق لفراق الإسكندرية ذات الشطآن الساحرة والطبيعة الرائعة والمياه التى تتلاقى على أمواجها الراقصة موجات بشرية من كل بلاد العالم .

وفى بدء العام الدراسى التالى كانت طرق المواصلات تقذف بالمئات منا إلى مدينة القاهرة لنتلاقى فى محيط واحد وأبناء جميع المعاهد الأزهرية من مختلف النواحى ونكون مجتمعا جديداً له طابعه الجديد .

ولست أنسى ما حييت حلاوة وسعادة النوم فى أروقة الأزهر نحو أسبوعين حتى يتيسر لنا الحصول على مسكن . إنها تجربة كانت تبدو لنا فرصة لم نمارسها من قبل . وكنا ليل نهار فى تلك التجربة أشبه بوفود فى جامعة الأمم تبدأ يومها وتختمه فى مشاهدة وجوه جديدة من أبناء الأمم الأخرى يبعث مرآها شتى المشاعر والأحاسيس .

وبعد أسبوعين تيسر لنا مسكن مجاور لتلال الدراسة الشامخة لا يفصله عنها غير طريق ترب لا يزيد عرضه عن بضع خطوات .

كنا أربعة من الأصدقاء أشبه بالإخوة الأشقاء السعداء بوحدتهم وتعاونهم . ولا أستطيع الآن أن أتذكر الدافع الذى دفعنا إلى عادة الصعود على تلك التلال الترابية العالية كلما لطفت النسائم وخفت حرارة الشمس وألقت ذهب الأصيل على كل معالم القاهرة العظيمة الواسعة . كل ما أذكره أن ذلك كان قد صار عادة لنا لا يقطعنا عنها إلا شاغل ذو أهمية . وكنت فى نفسى أتمنى أن لو شجرت هذه التلال وكسيت بالحشائش الخضراء لتمنح المنطقة نصيبا من سحر الطبيعة وجمالها وتدرأ عنها

سحب الغبار الخانقة التى تثور أحيانا فتغطيها بحجاب كثيف من الأتربة الناعمة ... ومن عجب أن يتحقق بعض أمنيتى بعد قرابة أربعين عاما فى عهد ثورتنا المجيدة لقد شجرت بعض تلك التلال وإن لم تأخذ الصبغة الكاملة للمتنزهات الأنيقة المبتكرة .

وكنت أتمنى أن لو أقيم بين أشجارها غرف عالية تجمع بين البساطة والجمال والهدوء تعطى لمن يطلبها من هواة الخلوة والفكر والتأمل لقاء أجور معتدلة فيقضون فيها أوقات فراغهم كما لو كانوا فوق قمم الجبال الخضراء الساحرة ، فى أجمل مناطق السياحة العالمية .

أما عند ما كانت أنظارنا تقع على مرتفعات جبل المقطم فقد كنا نجد لها جلالا ورهبة لا تخلو من الجمال رغم تجردها من كل دلائل الحياة . إنها صخور صلبة وعرة صماء لا تجد العين فوقها أثر لأية خضرة ولا لأية حياة تتحرك إلا أن تكون الضباع والوحوش القابعة فى مغائرها وشقوقها .

ولم تلبث نوازع النفس الطلعة أن دفعتنا إلى تلك القمم الصخرية الوعرة لنكشف من أسرارها ما يمكن كشفه . . ولم أجد من زملائى موافقا سوى الأستاذ الشيخ محمد سرور مقلد المدرس الآن بمعهد الإسكندرية كنا نتسف الطرق إليها لنرى هناك كيف ينسف العمال الكادحون كتل الصخور بالمتفجرات ثم يحطمونها لينقلوها إلى حيث تبنى بها بعض مبانى المدينة . وكم كان يروعنى أن أجد بين فتات هذه الصخور أصداف حيوانات بحرية مختلفة الأشكال مما لا يوجد إلا على سواحل البحار الملحة . وأعجب من ذلك أن نجد فى صفحات تلك الأحجار الجبلية نماذج كاملة لبعض الأسماك المعروفة لنا والتى نأكلها حتى اليوم . هل كان البحر الأبيض هنا يوما ثم تراجع فى ملايين السنين ؟

وكنا أحيانا - أنا وزميلى - نمضى فى تسلق هذه القمم وتنشى بروعتها حتى يلوح لنا شبح حيوان ينفلت من جحره إلى حيث لا ندرى فننطلق ونحن بين النشوة والخوف من عواقب أمر لم يكن سبق لنا أن تعودنا مثله . وكنت عند النوم أحلم بخيالات ساحرة عن هذا العالم العجيب وأتمنى أن لو نقلت أتربة تلال الدراسة إلى أغوار هذه القمم ثم صعد إليها الماء وزرعت وأقيمت عليها معابد ساحرة فى شكل مدينة أسطورية . . ومن العجب أن يتحقق هذا الحلم الخرافى وتوسس مدينة المقطم كذلك ، وإن يكن ذلك بطريقة أقرب إلى الاستغلال المألوف منها إلى الابتكار والاختراع . وأنا وإن لم يتح لى مشاهدة

المشروع حتى الآن لكثرة شواغلى ، فقد سمعت ناسا يذكرون العقبات التى تحول دون بلوغه ما كان يرجى منه . وما تذليل تلك العقبات بمستصعب لو استخدم فيها الأسلوب الابتكارى على مستوى المخترعات .

وقد يقال وما علاقة هذه التلال والقمم بمشروع العربة بلا وقــود وهى عنوان حديثنا ؟

والجواب أولا أن حديث العلم والاختراع كله ممتع لا نحب حرمان القارئ من فوائده وثانيا أن فكرة العربة أول ما علقت بخيالى إنما جاءتنى فوق هذه التلال ، كنت قد سمعت من المخترع الشعبى المرحوم الأستاذ إبراهيم مقلد من أهل ارمانية من مركز إيتاى البارود أنه يفكر فى عربة تجرى بدون أية قوة ميكانيكية على الإطلاق ، بمجرد ثقل من الأثقال المعدنية أو نحوها يوضع خلف محورها فيضغط على محور العجلتين الخلفيتين فتجرى بثقلها وبقائدها ، دون أية حركة من يديه ولا رجليه ودون أى وقود ... وصارحته إذ ذاك ، وأنا طفل وهو رجل ، باستحالة ذلك الاختراع ، وتوفى رحمه الله وهو لا يزال مقتنعا بفكرة تدل على غاية الطموح الذى هو خاصة المخترعين جميعا .

كنت قد أشرفت فوق حافة أحد هذه التلال فرأيت تحتى عمالا ينقلون منها الأتربة على عربات صغيرة ذات قضبان يسمونها (الترولى) وكم راعنى أن قائدها كان يجعلها تجرى به وبحملها جريا سريعا بوساطة عود من الخشب المتين متصل بنقطة فوق المحور الخلفى وبالضغط على طرف ذلك العود كانت العربة تنزلق إلى الأمام شيئا فشيئا ثم تجرى بسرعة مدهشة .

ومع أن هذه هى نظرية صديقى فى إطارها النظرى البحت فإنى لا أزال متمسكا باستحالتها لأنه يكل فى اختراعه قوة الضغط إلى ثقل من الجماد لا حس له ولا قصد ولا حركة أما فى هذا « الترولى » فإن عليه انسانا يضغط برجله خلف المحور ويتحيل لذلك حتى يتم انزلاق العربة أولا ، ثم تجــرى بنظرية الاندفاع الذاتى .

وانتقلت من القاهـــرة إلى الريف ، ولا يزال خيال العربة وفكرتها فى رأسى بشكل غامض ، واتفق بعد ذلك بسنوات أن اشترينا فى طـــرف الصحراء أرضا للاستصلاح ، وكنت أذهب إليها أحيانا لأرى ما هى عليه .وكان ذهابى وعودتى دائما بواسطة عربة أجرة كبيرة بعشرين كيلو مترا

ذهابا ومثلمـــا إيابا ... ورأيت أهـل الجهة المساكين يتكبدون هـذه المسافات فى أشـد أيام الصيف والشتاء مشاة وحفاة فى كثير من الأوقات . من أجل دواء يشترية أو طفـل يداويه أو قليل من الخضر يبيعه ليشترى سكرا أو شايا أو كيـلة من الحب يطحنها وبعد ثلاثة أيام تنتد ثم يعود لنفس العـذاب

ورحت أفكر فى فـــكرة عملية لجهاز مواصلات يستغنى عن « الموتور » الغالى الثمن ويمكن لأى رجل وامرأة ركوبه ليقيه من عوارض الجو القاتلة ويوفر زمنه فيكفيه ربع الساعة بدل الساعة ، على الأقل .

ورحت ألتمس لذلك كله طريقة تهدى إليه قواعد الطبيعة والميكانيكا ، وخصصت مكانا منعزلا لتجاربى وكلما دلت التجربة النموذجية المبسطة على إخفاق فكرة تحولت إلى غيرها .

وأخيرا تركزت فى رأسى فكرة استعمال الحدافة لتغنى عن « الموتور » . . إن الحدافة هى سر القوة الميكانيكية فى كل جهاز لتوليد الطاقة على أى شـــكل كان ذلك الجهاز . والمحرك الذى يعطى الف حصان لو نزعت منه الحدافة لم يعط حتى عشرة أحصنة بل ربما توقف واختل .

ولا يستثنى من ذلك سوى الأجهزة التى تدار بالكهرباء أو بدفع الماء . فانها لا تحتاج إلى الحدافة . وإن كانت معها تكون أعظم جهدا وأكبر إنتاجا .

وسنفكلم إن شاء الله مرة أخرى كيف أمكن نقل الحدافة من آلات الاحتراق إلى آلة (لا احتراقية) بلا قود إنها الفكرة التى لم يكن قد تنبه اليها عقل فى العالم فيما يختص بآلات المواصلات . والله نسأل أن يأخذ بيد العاملين لخير العروبة إلى ما فيه سعادتها وأن يوفق رائدها الفذ الرئيس جمال عبد الناصر بانى السد العالى . وإن طال الأجـل فستدار هذه العربة الفردية الخاصة بكهرباء السد العالى فى جميع القرى على نمط جديد لم يتح لمفكر حتى اليوم والحمد لله أولا وآخرا وإلى اللقاء .

أبو بكر محمد زكرى
الأستاذ المساعد فى كلية أصول الدين

العقاد في الدراسات اللغوية

للدكتور كمال بشر

أظن أن الجانب اللغوى عند العقاد لم ينل ما نالته جوانبه الفكرية الأخرى من البحث والدراسة ؛ بل قد نضيف إلى ذلك أن هذا الجانب لم يحظ حتى الآن بدراسة واعية جادة ، ومن ثم كان دورنا فى هذا المجال شاقا عنيفا ، ومما يزيد فى هـذه المشقة وتلك الصعوبة أمران مهمان ، أولهما يتعلق بمادة البحث ، وثانيهما يتعلق بالاتجاه الفكرى العام عند الراحل الكريم نفسه .

فالمادة اللغوية التى خلفها لنا العقاد كثيرة متنوعة ، تقتضى من الدارسين أناة وصبرا بالغين ، وتحتاج فى عرضها ومناقشتها إلى وقت أوسع وأفسح مما يحتمله هذا المقام ، وهـذه المادة - بالإضافة إلى ذلك - موزعة بين آثاره العديدة ، ومتناثرة هنا وهناك فى بطون تلك الآثار .

أما الاتجاه الفكرى عند العقاد فصعوبته توحده وتفرده ؛ فهو اتجاه أو - بالأحرى - منهج خاص بالرجل وحـده ، تلمس فيه بوضوح شخصيته وعقليته : شخصية قـوية لا تلين فى غير حق ، ولكنها دائما تعنف فى سبيل هذا الحق ، وعقلية جبارة تنفذ إلى أعماق النفوس والأشياء ، فتكشف عن أسرار لايدرك مغزاها أو معناها المتعجلون السطحيون ، ومن ثم يسمون أعماله تارة بالصعوبة والتعقيد ، وتارة أخرى بالإغراق فى تحليل الجزئيات دون النظر فى الكليات ، أو دون القيام بعملية تجريد لهذه الجزئيات ، والوصول منها إلى قضايا كلية .

كل هذه الصعوبات قد وعيناها وتدبرناها منذ شرعنا فى التفكير فى هذا الموضوع ، غير أن هـذه الصعوبات لم تمنعنا مطلقا من تتبع أعمال الرجل ومحاولة تقويمه من وجهة النظر اللغوية الحديثة . وأظنه ليس من الإنصاف فى حق العقاد أو فى حق نفسى على سواء أن أدعى أننى آت الآن بدراسة تفصيلية أو شبه تفصيلية لآثاره اللغوية . إن الذى أستطيعه فى هذا المقام لا يعدو أن يكون تخطيطا لدراسة أشمل ، ولا يجاوز أن يكون رسماً لإطار عام لبحث أوسع وأكثر استيعاباً .

وعندنا أن قيم البحوث اللغوية تقاس بثلاثة مقاييس مجتمعة غير منفردة .

ما سجله فى كتابه « أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب» وبعض فصول كتابه الآخر « اللغة الشاعرة » . أما الاتجاه المعيارى فيتضح بوجه خاص فى مناقشة المشكلات الخاصة باللغة العربية . والسر فى ذلك واضح ، وهو أن العقاد فى هذا المجال يريد أن يقنع المنحرفين والمتعصبين ضد اللغة العربية بالدليل الهادى الواضح .

وإذا كان لنا أن نربط منهج العقاد بمناهج لغوية أخرى غربية أو شرقية ، انصرف الذهن إلى العالم اللغوى الجليل أوتويسبرسن Otto Jespersen . وليسبرسن منزلة خاصة ومكانة ممتازة لا ينكرها عليه أحد من اللغويين المحدثين . ذلك أن الرجل قد أسهم بنصيب كبير فى إرساء قواعد البحث اللغوى ، وإليه يرجع الفضل فى تقريب مبادىء هذا البحث وأسسه إلى أذهان الدارسين . على أن هناك فارقين كبيرين بين الرجلين . أولهما أن العقاد كان أسعد حظاً من صاحبه ، فقد نجح فى عمله ولم يخلط بين منهجه فى بحوثه ، وإنما أفرد لكل منهج بحوثا من لون خاص أما يسبرسن فكلنا يعلم أنه لم ينجح من هذا الخلط الذى يعد من أكبر عيوبه فى الدراسات اللغوية . أما الفرق الثانى بينهما فهو أن يسبرسن لغوى فقط ، أما صاحبنا فهو مفكر وباحث يضرب بفكره الكبير إلى أعماق العلوم الإنسانية كلها وعلى مستوى واحد من حيث الإخاء والدقة ، فبعد الفرق بينهما واستوى العقاد عملاقا على قمة الفكر الإنسانى الواسع العريض ، واكتفى يسبرسن ببضاعته اللغوية التى لا تمثل إلا جانباً واحــداً من جوانب الثقافة الإنسانية .

فإذا ما انتقلنا إلى المقياس الثانى من مقاييس الحكم على أعماله اللغوية (وهو مجالات الدراسة) ، ألفينا العقاد يصول ويجول فى مجالات البحوث اللغوية الحديثة كلها .

لقد جرى العرف بيننا نحن اللغويين أن نقسم علم اللغة إلى الفروع التالية .

١) علم الأصوات . وهو نوعان أحدهما عام phonetics ، وثانيهما نسميه نحن بعلم الأصوات التنظيمى phonology .

٢) الصرف morphology .

٣) النحو ayntax .

٤) المعجم lexican .

٥) السيمانتيك semantics أو ما نسميه نحن بعلم المعنى [1] .

---

(١) علم المعنى يدرس معانى الكلمات والجمل والعبارات فى الكلام الحى المنطوق على مستوى اجتماعى صرف ، وهو فى ذلك يتفق مع المعجم فى شىء ويختلف عنه فى أشياء . كما أن علم المعنى يخالف ما يسمى بعلم المعانى عند علماء العربية ، فالأول أعم ، إذ الثانى يمثل جزءا من بحوث الأول عند بعض المدارس اللغوية ، أما عند البعض الآخر فهما علمان مختلفان ولكل منهما مجالاته الخاصة .

الكتب

تقديم وتعليق : محمد عبد الله السمان

---

١ — مركز المصحف في العالم الإسلامي

للأستاذ الشيخ محمد الغزالي

هذا عنوان كتاب جديد ظهر أخيراً للشيخ الغزالي ، نشرته دار الكتب الحديثة بعابدين ، في أكثر من ثلثمائة وخمسين صفحة من القطع المتوسط .

أشار المؤلف في مقدمته إلى : أن الله يأبى أن يكون بحبل صلته بخلقه لحظات هدوء أو سرحان ، أو مفاجأة في هذه البيوت التي أقيمت باسمه ، ثم ينطلق الناس بعدها في عرصات الأرض يحيون كيف يشتهون ، ويتعاملون بما يتواضعون عليه من قوانين وتقاليد . ثم ذكر : أننا نحن المسلمين نعتقد أن ما بين دفتي المصحف الشريف هو مراد الله من عباده ، وفي هذا المصحف صور رائعة للحق ، في العقيدة والخلق والعبادة والمعاملة تكفل للأمم معاشها هنا ، ومعادها هناك ، وليس لهذا المصحف بعد ذلك طابع إقليمي ، ولا نزعة خاصة ؛ لأن العالمية شائعة في آياته كلها شيوع الصفاء في وجه المرآة .

الكتاب يعرض موضوعات خمسة :

١ — المصحف للنفس والمجتمع والدولة ، ويرى المؤلف أن لا ضرورة هنا إلى الإشارة إلى شمول الإسلام واستيعابه بذكر شتى أحكامه ، ولا إلى القواعد والنصوص التي حفل بها وهو يبني عالما تذوب فيه الفوارق الجنسية ، لأنه يريد أن يتناول الجانب العبادي ومسئولية الدولة عنه ، هذه الدولة لا تكون مسلمة يوم تكون إقامة الصلاة وإماتتها مثلا سواء في نظرها .

٢ — مصير الإسلام بين المجتمع والدولة ، ويرى المؤلف أن الإسلام ليس شكل دولة وبرنامج حكم . . وحسب ، إنه دين متعدد التعاليم متسع الميادين ، وشعبه التي تتفرع في الحياة تفرع القنوات في الأودية ، وصفها الرسول بأنها بضع وسبعون شعبة ، وهذا عدد ليس للإحصاء . ولكنه لبيان استيعاب هذا الدين لمنازع النشاط الإنساني كله .

٣ — نحو تجديد الإسلام وتحرير أمته ويرى المؤلف أن تجديد الإسلام ليس أكثر من تجلية حقائقه الأصيلة ، وتجريد التراث السماوي من الشوائب العارضة وتمكين الأحرار العقلاء من اعتناقه عن إعجاب ورغبة

٤ - فى سلم النهوض ، ويرى المؤلف أن العودة بالمسلمين إلى الإسلام علما وعملا ، هى وظيفة المجددين لدين الله ، الناهضين بأمته كى تؤدى رسالتها الكبرى ، والعودة بالإسلام إلى ما كان عليه أيام الرسول ، تستدعى - إلى جانب تنقية الإيمان من الشوائب - قيام حكام من طراز عاقل عادل ، تختارهم الأمة اختيارا حرا ، وتختارهم الأمة اختياراً حرا ، وتحاسبهم إذا شاءت حسابا مراً .

٥ - الذين جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وفى هذا الموضوع الأخير ، تعرض المؤلف لموقفه المعروف فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية ، وموقف الذين اتخذوا من موقفه وسيلة إلى النيل من الإسلام ودعاة الإسلام ، والشيخ الغزالى فى هذا الموضوع لم يدافع عن نفسه وإنما دافع عن وجهات نظر الإسلام ، ضد لفيف من المنحرفين .

وختم المؤلف بعد ذلك كتابه بكلمة موجزة أشار فيها إلى أن الجماهير المسلمة لم تنس دينها على كثرة المنسيات ولكن خصوم الإسلام لا تنتهى محاولاتهم لهدم الإسلام . وأدواتهم لبلوغ هذه الغاية كثيرة خفيها أكثر من جليها ، وما كرها أحقد من ظاهرها ، وعلى المسلمين فى القارات الخمس ، أن يلمسوا هذه الحقيقة . . .

الحق أن الكتاب ثورة فوق أنه دراسة طرقت كثيراً من المفاهيم الإسلامية ، كانت فى مسيس الحاجة إلى الدراسة والإثارة .

* * *

٢ — بعث الدين واحياؤه :

الأستاذ عبد المنعم النمر

وهذا الكتاب الجديد للمؤلف نشرته الدار القومية بالقاهرة ، وأراده دراسة تحليلية تهدف إلى بيان منهج الإسلام فى علاجه لمشاكل الحياة ، وإلى تقديم المبادئ والتعاليم الإسلامية صافية ، وإلى تصحيح أفكار بعض الناس عما علق بها من تنافر بين الدين والحياة ، وإلى أن الإسلام يعمل على إيجاد الأمة القوية العزيزة فى كل جانب من جوانب الحياة المادية والروحية على السواء .

فى المقدمة ذكر المؤلف أن الغرب عند ما اتجه منذ قرون إلى الاستيلاء على الشرق ولا سيما قلبه النابض - العالم الإسلامى - اتخذ وسيلتين للهجوم عليه ، هما الهجوم الفكرى والهجوم المسلح ، وكان يعلم - كما علمنا - أن الهجوم الفكرى أشد خطراً وفتكا وأبعد أثراً من الهجوم المسلح ، ولذا وجدناه يركز هجومه على معالم الإسلام ومبادئه ، وأتاحت له قوته المادية فى السيطرة وفى أدوات النشر والإذاعة أن يروج لباطله ويبث الشكوك فى حقائق الإسلام ،

وما جاء به من مبادئ قويمة توفر السعادة للمجتمع ، وكان لهذا أثره على عقول بعض المسلمين المثقفين ، وأحيانا على قادة الفكر والثقافة . فانساقوا فى تياره ورددوا اتهاماته وانصرفوا عن مبادئهم .

وإزاء هذا يرى المؤلف أن من الواجب بعث الروح الدينية فى النفوس ومما يساعدنا على هذا أن نعيد النظر فى بعض الأفكار الدخيلة على الإسلام ، والتى تعتبر أثراً من آثار الانحلال أو الانحراف أو الجمود الفكرى فى العصور السابقة ، فنعمل على تنقية الإسلام من الشوائب التى نفرت منه بعض أهله ، ونقدم المبادئ والتعاليم والأفكار الإسلامية الصافية صفاء المنبع الذى نستمدها منه .

ونحن مع المؤلف أولا فى اتجاهه هذا ، فالغرب لم يسطع على الإسلام بالسلاح الفكرى إلا بعد أن وضع أصابعه على منافذ الضعف فى الأفكار الدخيلة على الإسلام ، والمدونة فى كتب التراث التى منحناها صفة القداسة ، وشهرنا عصا الإرهاب فى وجه من يحاول المساس بها والتى لم يزل لها تأثيرها فى حياتنا ولكننا إذا حاولنا من جانب آخر أن نناقش الكتاب فى مجمله ، فلن نجد ارتباطا كاملا بين العنوان والأبحاث الداخلية فيه فبحوث الدين والدنيا ، والإسلام وزينة الحياة الدنيا ، كيف نفهم الإسلام ، سنة الله فى رقى الأمم ، هذه البحوث لها ارتباط وثيق بعنوان الكتاب ، أما بحوث : رمضان ونزول القرآن ، الصيام ، ذكرى بدر ، أعيادنا ، الحج ، بين الأمس واليوم ، الدعوة إلى الله بالحسنى ، الوعد الحق ، الهجرة ، فهذه كلها لا ارتباط لها بموضوع الكتاب ، وإن كان كل منها يقوم دراسة مستفيضة جديرة بالاستيعاب ، ومع تقديرنا للمؤلف وهو عالم أديب ، وباحث مطلع ، وكاتب مستنير ، إلا أننا كنا نود أن يفرغ الجهد فيما يتصل بموضوع على جانب من الأهمية هو موضوع الدين والحياة .

* * *

٣ — العقائد الإسلامية :

للأستاذ الشيخ سيد سابق

أصدر هذا الكتاب المؤتمر الإسلامى بالقاهرة فى أكثر من ثلثمائة صفحة ، وكتب المؤلف مقدمة مسهبة له ، تناول فيها الإسلام إيمانا وعملا ، ومفهوم الإيمان ، ووحدة العقيدة وخلودها ، ومنهج الرسل فى الدعوة إلى الإيمان ، وآثار الانحراف عن منهج الرسل ثم ضرورة العودة إلى تجديد دعوة الإيمان .

وقد ألمت فصول الكتاب بعد ذلك بالعقيدة وفروعها : معرفة الله ووسيلتها ، وميادين التفكير وغايته ، والمعرفة عن طريق الأسماء والصفات ، والتقليد كحجاب للعقل ، ثم اسم الله الأعظم ، كما ألمت بالذات الإلهية ، وكون إدراكها مستحيلا وبالطبيعة وتأكيدها

وجود الخالق وبالفطرة كدليل على وجوده سبحانه، ودليل على أن لا سند للإلحاد يعتد به.

تعرض الكتاب لصفات الله ، فذكر من الصفات السلبية : الأول والآخر ، وليس كمثله شئ والوحدانية ومن الصفات الثبوتية : القدرة والإرادة ، والعلم والحياة والكلام ، والسمع والبصر ، وهذه الصفات الثبوتية هي صفات الذات . أما صفات الأفعال فصفة الخلق ، والرزق ، وعاب المؤلف الاختلاف في صفات الذات : هل هي عين الذات ، أي أن الله عالم بالذات وحي بالذات ، أو أنها صفات زائدة على الذات ، أي أنه عالم بعلم ، وحي بحياة ، وقادر بقدرة وهكذا واعتبر أن مثل هذا الاختلاف من الدخيل على الإسلام ومن البدع الطارئة على العقيدة ، ومن المنكرات التي يجب على المسلمين التنزه عنها فإن ذات الله أجل من أن تتناول على هذا النحو .

وعرض الكتاب لحقيقة الإيمان وثمرته والملائكة وحقيقة خلقتهم وطبيعة أعمالهم والجن وحقيقة وجودهم ، والكتب السماوية المدونة وغير المدونة ، والرسل وأعمالهم الكبرى ، والآيات الخارقة التي أيدوا بها ، والروح مع الجسد وبعد الجسد ، وأشراط الساعة الصغرى والكبرى ، والمهدي المنتظر والمسيح والدجال ، والبعث وشبهات منكريه ثم ختم المؤلف كتابه بفصل عن الجنة والنار والشفاعة للعصاة ، وبتعقيب موجز ذكر فيه أن سلوك الإنسان وتصرفاته في الحياة مظهر من مظاهر عقيدته ، فإذا صلحت العقيدة صلح السلوك واستقام ، وإذا فسدت فسد واعوج ، ومن هنا كانت عقيدة التوحيد والإيمان ضرورة لا يستغني عنها الإنسان ليستكمل بها شخصيته ويحقق آدميته وإنسانيته

الحق أن الكتاب عرض شامل للعقائد الإسلامية لمجرد الإلمام السريع بها ، وموجز مجد للكتب الضخمة التي استوعبت هذه العقائد ، وقد خلا هذا الموجز من الإسفاف وتجرد عن الجدل الممل ، إلا أنه خلا أيضا من المناقشة الجادة لما أثاره علماء الكلام والمتصوفة في كثير من القضايا العقائدية المعقدة ، ولم يستوعب كثيراً من الرد على الشبهات التي أثارها المتربصون بالإسلام من المستشرقين والمنحرفين .

وإذا كان هناك مثار عجب في الكتاب فهو أن المؤلف عرض قضية المهدي المنتظر ، ومجئ المسيح الدجال ليثير الفتنة في الأرض ونزول عيسى ليقاوم هذه الفتنة ويقضي عليها في آخر الزمان . عرض المؤلف كل هذه القضايا ، وكأنها من المسلمات التي لا تحتاج إلى نقاش مع أنها قضايا خلافية كأشراط كبرى للساعة ، وأمور عقيدية تحتاج إلى أدلة يقينية قطعية الدلالة والورود ، وليس في كتاب الله ولا في السنة المتواترة ما يؤيد ظهور المهدي ولا عيث الدجال ولا نزول عيسى آخر الزمان .

محمد عبد الله السمان

أنباء وآراء

صدى مؤتمر مجمع البحوث :

كان لانعقاد مؤتمر مجمع البحوث بالقاهرة صدى بعيد المدى فى أنحاء العالم الإسلامى ، وقد بعث كثير من الأعضاء بعد سفرهم برقيات ورسائل ننشر منها ما يلى :

من يوجوسلافيا

السيد/الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل شيخ الأزهر ورئيس مجمع البحوث الإسلامية .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد :

فإنه يطيب لى أن أتقدم إلى سيادتكم بعد العودة إلى بلادى بالشكر الجزيل على كل ما لاقيناه فى بلادكم من الحفاوة الكريمة والضيافة البالغة ، وعلى كل ما قوبلنا به من الإكرام والتعظيم من الأزهر الشريف ومن غيره من الهيئات والمؤسسات والجمعيات .

ولا شك أن تشرفنا بمقابلة الرئيس الجليل جمال عبد الناصر لمما سيبقى فى ذكرياتنا طول الدهر ، ومما لا ننساه أبدا .

ولقد استمعنا إلى البحوث القيمة وإلى المناقشات والتعليقات المفيدة التى كان الغرض منها إضاءة السبل التى تؤدى بالمسلمين إلى مستقبلهم الأفضل وإلى استرجاع ما كان للإسلام والمسلمين من المجد والعظمة وإلى خلق مجتمع جديد يقوم على المبادئ الإسلامية السامية .

والذى شاهدناه من حفل وضع حجر الأساس لدار القرآن ولجامعة الأزهر الجديدة ولوضع حجر الأساس لمدينة الأزهر فى غزة ومن زيارتنا لقطاع غزة والسد العالى فى أسوان ولمديرية التحرير .

كل ذلك أكد وعزز إيماننا بزعامة الجمهورية العربية المتحدة العالم الإسلامى وبأنها تقوم برسالة الإسلام خير قيام ، والفضل فى ذلك كله يرجع إلى بطل الإسلام والعروبة الرئيس جمال عبد الناصر نصره الله وأيده ذخرا للإسلام والمسلمين .

وأننى أحمد الله وأثنى عليه كل ثناء لما أتاح لى فرصة اشتراكى فى هذه الأعمال الجليلة التى لها أهمية تاريخية وستكون لها من النتائج ما لا يمكن تقديره فى هذه اللحظة

ومما سرنى غاية السرور ، وعلى وجه الخصوص ما رأيته من أن الأزهر أصبح فى يد رجال جمعوا بين الثقافتين : الثقافة

الإســـلامية الصحيحة والثقافة العصرية ، وبهذا استطاعوا أن يدركوا حقيقة الفكرة الإسلامية وأن يقوموا بواجبهم فى أداء رسالة الأزهـــر التى هى فى الواقع رسالة الإسلام .

ويقينى أن مجمع البحوث الإسلامية سيلعب دورا هاما فى حياة المسلمين وفى نهضتهم الحالية ، وندعو الله أن يوفق أعضاء المجمع فى أداء مهمتهم العظيمة والشاقة .

وتفضلوا بقبول فائق احترامنا ؟

حسين سليمان جوزو

من الأستاذ العوضى الوكيل

السيد صاحب الفضيلة الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر .

أقدم أخلص تهانى على نجاح مؤتمر المسلمين ونأمل أن يحقق الله لكم منه ما أملتم فيه .

والسلام عليكم ورحمة الله .

العوضى الوكيل

من البحرين :

حضرة الأجل السيد الأستاذ الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر الشريف المحترم حفظه الله ورعاه .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مع السؤال عنكم والدعاء لكم دمتم بحال جميل .

لقد غادرنا القاهرة العامرة فى الساعة الحادية عشرة من ليلة الخميس الماضية بالطائرة ووصلنا الوطن بالسلامة والراحة بعـــد ساعتين وربع . نشكر الله تعالى على ذلك ، وإننا لنشكركم على ما قمتم به نحونا مع أعضاء المؤتمر وجميع الوفود من الحفاوة والتكريم وتوفير وسائل الراحة ، سائلين المولى جل جلاله التوفيق والسداد لنا ولكم ولرجال المؤتمر والأزهر الشريف .. إنه سميع مجيب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد اللطيف بن محمد آل سعد

قاضى المحكمة الشرعية بالبحرين

من الأردن :

فضيلة الأستاذ رئيس مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية المحترم :

يسرنا وقد عدنا إلى الأردن بعد حضور المؤتمر فى القاهرة أن نقدم جزيل الشكر ، وعظيم الامتنان لفضيلتكم ولمجمع البحوث الإســـلامية ولمشيخة الأزهر الشريف والحكومة الجمهورية العربية على ما لقيناه من الجميع أثناء إقامتنا فى الجمهورية العربية من حفاوة وتكريم ، وما لمسناه من عواطف كريمة وشعور نبيل .

وإننا لنسأل الله تعالى أن يجزيكم جميعاً خير الجزاء ، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه خير المسلمين وصلاحهم ، والله من وراء القصد .

عبد الله غوشة

قاضى قضاة الأردن

سيادة الأخ الكريم الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الجامع الأزهر :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :

فقد رأيت أثر وصولى للوطن سالماً بحمد الله أن أزجى لكم شكرى الجزيل على الحكمة التى كانت تتجلى من إدارتكم مؤتمر مجمع البحوث الإسلامية الأول ، وعلى الحفاوة التى شملتمونى بها مدة إقامتى فى القاهرة راجياً من الله سبحانه أن يأخذ بناصركم ويوفقكم فى مجمع البحوث ، فإن المهمة شاقة والمسئولية أمام الله والتاريخ .

وإنه لتجربة نرجو الله أن يجعلها ناجحة فى حفظ قوة الإسلام ، وصلاحيته لكل زمان ومكان ومجابهة الأحداث ، وأن نخرج من هذا المعترك ظافرين ومنصورين بنصر الله وتأييده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

من المخلص
عبد الحميد السائح
عضو المحكمة الشرعية العليا بالأردن

من تونس :

جامعة القرويين - كلية الشريعة
ظهر المهراز - فاس - صندوق بريد ٦٠
فضيلة الأستاذ الكبير الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر الشريف ورئيس مؤتمر البحوث الإسلامية .

سلام تام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد ، فيطيب لى بعد عودتى إلى المغرب أن أتوجه إليكم بالشكر الجزيل على ما غمرتمونا به من عطف ورعاية وإكرام أثناء تشرفنا بالمقام بينكم ، بمناسبة حضورنا فى المؤتمر الأول الكبير للبحوث الإسلامية بدعوة مشكورة منكم .

كما يطيب لى أن أنوه بحصافتكم ومقدرتكم الفائقة وتفكيركم الفذ فى تسيير أعمال المؤتمر وحكمتكم فى حفظ توازنه وولايته والتقدم بحلقاته المتسلسلة من حسن إلى أحسن سواء فى أثناء عرض البحوث والكلمات أو فى أثناء المناقشات والمداولات والاقتراحات .

إن رجال الثقافة الإسلامية فى المغرب تتبعوا باهتمام كبير الخطوات الموفقة التى سجلها مؤتمر البحوث الإسلامية وإنهم ليعلقون على ذلك كبير الآمال فى تحقيق العزة الإسلامية والنخوة العربية ويباركون بإعجاب تلك التوصيات السبع التى انبثقت من حكمتكم وحكمة أعضاء المؤتمر صفوة علماء العالم الإسلامى والتى سيكون لها بحول الله أحسن الأثر فى توثيق عرى المسلمين وتنمية أواصر المودة والأخوة بينهم فى مشارق الأرض ومغاربها

حتى يكونوا صفا واحدا فى الإطاحة بخطر إسرائيل .

وتقبلوا فى الختام فائق احترامنا وتقديرنا والله يحفظكم ويرعاكم والسلام .

مدير كلية الشريعة

الحاج أحمد بن شعرون

من مالى :

الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر ورئيس المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية .

أرى من الواجب المقدس بعثى لكم هذه البرقية معبرا عن شكرى العميق للشعب العربى الكريم ورجال الأزهر الذين أتاحوا لمسلمى العالم الاجتماع التاريخى للنهوض بالإسلام ونطلب من الله سبحانه وتعالى أن يلهم أعضاء المجمع فى جلساته التالية ، وأن ينصركم والشعب العربى المؤمن فى جهاده تحت قيادة الرئيس المقدام جمال عبد الناصر !

عبد الوهاب دكرورى

قائم بأعمال سفارة جمهورية مالى فى جده

من العراق :

السيد الدكتور محمد عبد الله ماضى وكيل الأزهر الشريف كان للأجواء العلمية التى وفرها مجمعكم الموقر ، واللقاءات الفكرية بين أعلام السلام أعمق الأثر فى النفوس .

نشكركم ونحيى ما بذلتم فى إعداده من جهد ، وفقكم الله دائما لخدمة الإسلام وتعاليمه المقدسة .

محمد تقى الحكيم

هل يجوز نقل مقام إبراهيم من مكانه ؟

قال الله تعالى : « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » صدق الله العظيم .

لقد تواتر كلام المفسرين من السلف الصالح من معنى المقام بأنه محل إقامة الخليل عليه السلام ، وعلى هذا فإنه يشمل جميع الحرم وقال آخرون : إن المقصود بالمقام جميع المشاعر .

فعلى التفسير الأول : من صلى فى أية بقعة من بقاع مكة فقد اتخذ من مقام إبراهيم مصلى .

وعلى التفسير الثانى : من صلى فى أى مشعر من مشاعر الحج فقد اتخذ من مقام إبراهيم مصلى .

فكيف بمن يصلى داخل المسجد الحرام سواء كان فى الحادث منه أو القديم إنه من باب أولى قد اتخذ من مقام إبراهيم مصلى .

أما ما ورد من أن معنى المقام إنما هو محل القدم فى الصخرة القائمة داخل السياج الذى أمام المقام ، وإن معنى الصلاة إنما هو

الدعاء ، فإن ذلك بعيد التناول والمنى ، وعلى فرض صحته فإن جواز نقلها من محلها الضرورة القاهرة لا يوجد دليل على منعها .

بل لقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى أمر بنقلها من مكانها الأول بجانب الكعبة إلى هذا الموضع وقال آخرون ، إن الذى أمر بنقلها هو عمر رضى الله عنه .

ومفهوم من هذه الرواية أن النقل قد تم فعلا سواء بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من خليفته عمر رضى الله عنه وكان ذلك توسعة للطائفين فى الصدر الأول من الإسلام .

وأى مضايقة وازدحام أشد مما يتكلفه المسلمون اليوم فى موسم الحج . فهم فى يسر وراحة أثناء الطواف من جميع الجهات إلا عندما يحاذون الحجر الأسود فمن هناك يواجههم الضيق والعنف والمدافعة والمناقشة ، ولقد سمعت مسلما يسب أخاه بسبب الضيق فى الوقت الذى كان ينبغى أن يدعو له بالهداية والتوفيق .

ولعل من حكمة الله العلى العظيم فى تشريع الحج وحج المسلمين فى هذه المشاعر التآلف والتوادد فلذلك يجب أن يزال كل عامل يحدث الشقاق والتباغض بين المسلمين .

وليس هناك ما يمنع من نقل المقام إلى ما يحاذيه حتى يتسع المطاف ويرتفع الحرج عن المسلمين إذ أننا لم نقف على نص صريح يدل على إلزام المقام هذا الوضع .

أما ما ورد من أن الرسول صلى خلف المقام فإنه عليه الصلاة والسلام حينما صلى ، لم تكن الصخرة فى هذا الموضع بل كانت بجانب الكعبة ، فيحتمل أنه صلى إلى الكعبة حيث كان المقام أمامه (بينه وبين الكعبة) ومن القواعد الثابتة أنه إذا حصل الاحتمال سقط الاستدلال .

وقد نقل الأزرقى فى تاريخه أن المقام قد نقل من مكانه أكثر من مرة حينما كانت تجرفه السيول قبل أن يردم عمر رضى الله عنه الحرم الردم الأعلى . ثم جاء سيل عارم الذى عرف فى التاريخ بسيل أم نهشل فنقل المقام إلى أسفل مكة ، ثم رده عمر إلى محله الحالى بشهادة من رجل يقال له المطالب بن أبى وداعة .

وهذا الرد لا يثبت وجوب استدامته فى هذا المحل وليس هناك ما يمنع من نقلة إلى الموضع المناسب حتى يتسع المكان للطائفين .

لذلك فإنا نأمل من إخواننا العلماء إعادة النظر فى موضع نقل المقام . وأن يجتمعوا ويتفقوا على الرأى الصواب

عبد الله إبراهيم الأنصارى
الدوحة ـ قطر

فتاوى مختارة

تقديم : ابراهيم محمد الأصيل

استبدال النقود بالهدى فى الحج :

السؤال :

شاهدت كما شاهد غيرى من حجاج بيت الله الحرام تكدس لحوم الهدى فى منى فهل يجوز استبدال النقود بالهدى حرصا على المنفعة أرجو تفصيل القول فى هذا .

عبد المعطى سلمان ـ دميره

الجواب :

يظن كثير من الحجاج أنه يجب على كل حاج أن يذبح هديا فى حجه ، وأن يكون ذبحه فى أيام معينة هى : أيام النحر الثلاثة ، وفى مكان معين وهو منى خاصة . ومن هنا نرى الفقراء أو البخلاء يعمدون إلى ما قل ثمنه من هدى مريض أو هزيل فيذبحونه فلا يطيب لمه لآكل ولو كان فقيراً يتضور جوعا ، وبذلك تتكدس لحوم الهدايا فى منى وتتعفن ، وتنبعث منها الروائح الكريهة ، فتفسد الجو ، وتنتشر بها جراثيم المرض ، وفى ذلك من الأذى والضرر ما لا يرضاه الشرع ، الحريص على صحة الناس ، وطيب الحياة .

وبذلك وقعت مسألة « الهدى فى الحج » بين جهل فى التطبيق والعمل ، وبين نظر قاصر يحاول بهذا الجهل تغيير حكم الله فيها ، دون أن يتعرف واقع المشروع ويدعو الناس إليه ، فيبقى حكم الله على ما شرع ، ويسلم الجو من الأذى والضرر .

والله أرحم بعباده منهم ، وهو لا يشرع لهم إلا كل خير نافع ، وأجل من أن يتعبدهم بما فيه شر أو ضرر ، وتشريعه فوق ما يربطون به نظرهم من سوء التصرف المبنى على الجهل بأحكامه ، وشرائعه .

معنى الهدى :

والهدى اسم للحيوان الذى يهدى باسم الله إلى الحرم ويذبح فيه ، ويطعم منه الفقير والمسكين « فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون » . وقد أرشد القرآن إلى الروح الذى يقبل الله به الهدى ، وهو روح الإخلاص والتقوى ، شأن كل التكاليف ، لا يكفى فى تقبلها شكلها ولا صورتها ، وإنما يرفعها إليه ، الإخلاص ، وهو المعنى بقوله تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

ولكن يناله التقوى منكم ». كما لا يناله من الصلاة الحركات والسكنات، ولا من الصوم، ترك المأكولات والمشروبات ولكن يناله منهما ما يحملان من معانى الخشوع والإخبات، ومراقبة القلب وحسن النيات «إنما يتقبل الله من المتقين».

الهدى فى القرآن :

قد عرض القرآن للهدى من جهات ثلاث :

أولها : جهة التنويه بشأنه، فطلبه وطلب الإخلاص فيه لله، وجعله من الشعائر التى يجب المحافظة عليها، ويحرم إهمالها وإحلالها، ففى سورة المائدة «يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدى ولا القلائد، ولا آمين البيت الحرام» (١). وفى سورة الحج «والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير» (٢) وفيها «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» (٣).

ثانيها : جهة الحالات التى يطلب فيها، وهى: حالة الإحصار ومعناه، المنع عن إتمام الحج أو العمرة بمرض أو عدو، وهى المذكورة بقوله تعالى فى سورة البقرة : «وأتموا الحج والعمرة لله فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى» (٤).

وقد طلب الهدى فيها عينا متى تيسر.

وحالة الاعتداء على الإحرام بفعل محظور من محظوراته، كتغطية الرأس، أو لبس مفصل على الجسم أو قتل صيد الحرم، وهى المذكورة بقوله تعالى فى سورة البقرة : «فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك» (٥) وبقوله فى سورة المائدة : «يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً» (٦).

وقد طلب الهدى فى هاتين الحالتين على سبيل التخيير بينه وبين غيره من الصوم والإطعام، وقد بين الرسول أن المراد صوم ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين.

وحالة التمتع بالتحلل من الإحرام الأول على إرادة استئناف إحرام آخر للحج عند الخروج إلى عرفة، وهى المذكورة بقوله تعالى : «فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم» وقد طلب الهدى هنا، على أن يكون له بدل عند العجز.

(١) الآية ٢ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٣٦ من سورة الحج.
(٣) الآية ٣٢ من سورة الحج.
(٤) ٥) الآية ١٩٦ من سورة البقرة.
(٦) الآية ٩٥ من سورة المائدة.

زمان ومكان ذبح الهدى :

وكما عرض القرآن للهدى من جهة التنويه بشأنه ، ومن جهة الحالات التى يطلب فيها عينا أو تخييرا بينه وبين غيره ، عرض له من جهة المكان الذى يذبح فيه « ثم محلها إلى البيت العتيق » « هديا بالغ الكعبة » « حتى يبلغ الهدى محله» والمراد به ما دل عليه قول الرسول وعمله ، الحرم كله ، وقد صح عنه عليه السلام « أن منى كلها منحر وأن مكة وفجاجها منحر » وإذن ، فنى مكان ذبحه متسع ومتسع عظيم ، وليس خاصا بمنى كما يظن كثير من الناس .

أما الوقت الذى يذبح فيه الهدى ، فلم يعرض له القرآن ولم يصح فى تعيينه حديث وإذن ، فلمن وجب عليه الذبح عينا ، أن يذبح هديه فى أى وقت شاء بعد أن وجب عليه ، وليس هناك ذبح يتعين زمنه ، سوى « الأضحية » التى تكون فى أيام النحر الثلاثة وهى غير الهدى ، وهى لا تجب — إن صح أنها واجبة — على حاج أو مسافر .

وقد بين الفقهاء أن هدى التمتع يجوز ذبحه بمكة قبل الخروج إلى عرفة بل قبل الإحرام بالحج ، وهو أهم ما يجرى فيه الجدل بين الناس وأهم ما يحدث به تلك الظاهرة الكريهة .

الهدى من شعائر الله :

بهذا الذى ذكرناه نعلم أن الهدى من شعائر الله التى تجب المحافظة عليها ، ولا يصح التهاون فيها أو إغفالها حسبما « ولا تحلوا شعائر الله » والشعائر هى العلامات الواضحة الظاهرة التى اعتبرها الدين مظهرا من المظاهر العامة ، وهذا لا يتحقق إلا بعمل ظاهر يراه الناس فى مناسبات خاصة . وإذا أردت زيادة فى الإيضاح فانظر إلى موقف الشريعة من الأذان . إذا اعتبرته شعيرة من شعائر الدين يقاتل أهل القرية أو المدينة على تركها وإن لم تكن من الفرائض .

ألا وإن الشعائر فى نظر الإسلام مكانة الفروض المقدسة . وعلى هذا اتفقت كلمة الفقهاء فى ذبائح الحج ، ولم يرو عن أحد منهم خلاف فى ذلك ، نزولا على حكم تلك الآيات الصريحة الواضحة ، وتحقيقا للغرض المقصود ، وهو التقرب إلى الله بإراقة الدم ؛ ولله سبحانه وتعالى أن يتعبد عباده بما يشاء : بما يدركون حكمته وبما لا يدركون . وما كان اختلاف الفرائض فى عدد الركعات والكيفيات ، وتحديد الأوقات واختلاف مقادير الزكاة ، والكفارات ، وسائر ما دخله العد أو اعتبرت فيه الكيفية — إلا نوعا من هذا التعبد الذى يتجلى فيه بوضوح مقتضى العبودية الحقة ، وهو الامتثال لأمر الرب الحكيم ، عقل معناه أو لم يعقل .

من ثمرات الهدى الروحية والاقتصادية :

والعلماء يذكرون فى هذا المقام أن هذه القربة تذكر بحادث الفداء الذى حصل

لإبراهيم الخليل وولده عليهما السلام ، وتنبه النفوس المؤمنة إلى مبدأ التضحية فى سبيل الله وطاعته بأعز شىء لديها: «وفديناه بذبح عظيم».

على أن فى العمل بهذه القربة سراً اقتصادياً يرجع إلى سكان البادية . ولعله من مصداق دعوة أبيهم إبراهيم حين قال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . ذلك أن الماشية رأس مال أهل البادية ، وموسم الحج هو السوق التى تنفق فيه هذه السلعة ، عن رغبة لا مشقة فيها ، وبذا يحصلون على أرزاقهم من أعمالهم ، ومن ثمن أموالهم ، دون أن يتعرضوا لذل السؤال ، أو يترقبوا المن بالعطاء .

لا تغيير فى أمور التعبد

من هذا يتضح جليا أنه لا يجوز للمسلمين أن يفكروا فى استبدال النقود بالهدى أو الأضاحى التى طلبها الشارع بذاتها ، إقامة التصدق بثمنها مقامها ؛ إذ ليس القصد هو التصدق ، وإنما القصد ـ كما قلنا ـ التقرب بها نفسها وإننا لو أبحنا لأنفسنا هذا النحو من التفكير ـ بناء على ما نظن من حكم التشريع ـ لانفتح علينا باب التفكير فى التخلى عن الأعداد والكيفيات التى طلبت فى كثير من العبادات ، ولأمكن لقائل أن يقول : إن الغرض من الصلاة هو الخضوع ومراقبة الله وهما معنيان يحصلان بالقلب ، وبأى مظهر من مظاهر الخضوع والمراقبة ! فليست هناك حاجة إلى ركوع أو سجود أو غيرهما من كيفيات الصلاة الخاصة ، وبذلك ينفتح باب الشر على مصراعيه ، ولا يقف ضرره عند حد الأضاحى وفدية الحج .

الشريعة لا ذنب لها :

أما ما يبررون به مثل هذا التفكير من أن لحوم الذبائح تتكدس فى منى ، وتترك للتعفن المفسد للجو ، أو للنار المذهبة للأموال ؛ فهذه الحالة ـ إن صحت ـ ليست ناشئة عن أصل التشريع الذى هو خير كله ، وإنما نشأت عن عدم التنظيم ، وعدم الإلمام بأحكام الشرع ؛ فإن الشرع لم يطلب من كل حاج أن يذبح فالذى نوى الحج واستمر على إحرامه حتى أكمل حجه لا يجب عليه ذبح ، ولم يوجب أن يكون الذبح ـ فيما يطلب فيه الذبح ـ فى خصوص منى ولا بجزرتها ، ولا فى اليوم الأول من أيام النحر ، فأيام النحر كلها زمن للذبح . والحرم كله مكان للذبح ، والذبح لم يطلب عينا إلا فى حالات مخصوصة وما عداها فالحاج مخير بينه وبين غيره : من صدقة أو صيام .

فلو عرف الحجاج أحكام الله على هذا الوجه فيما يختص بالدماء ، فتصدق من لم يطلب منه الذبح ، وذبح من طلب منه الذبح ، وفرقوا

الذبح على الأماكن والأيام ، ثم نجيروا الذبيحة من غير المجاف والمرضى ، ونهيئوها بالسلخ والتقطيع - لما كان لهذه الشكوى موضع ; ولكن جرت سنتنا فى التفكير أن نعد الوضع الذى جرت إليه العادات - وإن كانت فاسدة - صورة للتشريع ، فنحكم عليه بالقبح ، ثم نحاول التخلى عنه بالقضاء على أصله ، وبذلك ندخل فى باب من التغيير والتبديل فى أحكام الله ، ولا نلبث بعد ذلك أن نترك الشريعة كلها جانباً ، باستحساناتنا الفاسد المبنى على واقع جر إليه الجهل وعدم التنظيم.

اقتراح لحل المشكلة

وبعد : فإن الكلام فى هذا الموضوع ليس وليد اليوم ، بل سبق أن تحدث فيه المرحوم المليباوى بك مع فضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، فأحال فضيلته بحثه من الوجهة الفقهية الشرعية ، على فضيلة الإمام الراحل الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر السابق فقرر فضيلته بعد البحث : بأن الفقهاء جميعا يعتبرون التعبد فى هذه المسألة بإراقة الدماء ، دون أن يرى فى كلام واحد منهم ما يشير - ولو من بعيد - إلى جواز استبدال النقود بها . فاطمأن الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى إلى هذا وأقره ، وقد عرض الشيخ شلتوت على الشيخ المراغى اقتراحا هو :

أنه على فرض تكدس اللحوم - كما يقولون بعد مراعاة الأحكام الشرعية فى زمان الذبح ومكانه ، وطلبه وعدم طلبه - يجب على المسلمين - وفيهم والحمد لله موسرون كثير - أن يعملوا على استخدام إحدى الوسائل الحديثة لحفظ هذه اللحوم وإدخارها طيبة ، ثم توزيعها على الفقراء والمحتاجين فى جميع الأقطار الإسلامية إن ضاق عنها القطر الحجازى ، أو بيعها بأثمان تصرف فيما ينفع الفقراء والمساكين ، أو فى سبيل الله العامة وإنى أعتقد أن هذا المشروع متى كفلته الدولتان العظيمتان : الجمهورية العربية ، والمملكة السعودية رأينا آثاره ، وانتفع الناس بثمراته ، فى المواسم المقبلة إن شاء الله

حكم تناول طعام متعامل بالربا :

السؤال : شخص يتعامل بالربا ودعانى فيمن دعا إلى طعام بمناسبة فما حكم الأكل من هذا الطعام؟

عبد الهادى مصطفى - شبرا الخيمة

الجواب : يقول النبى صلى الله عليه وسلم : كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به .

وعليه فلو كان دخل الداعى كله من الربا فالأكل من طعامه حرام وهو مسئول أمام الله عن ارتكاب هذا العمل المحرم وإذا كان بعض ماله من حرام والبعض الآخر من مورد حلال فالأكل منه جائز مع الكراهة شرعا لأنه أصبح مالا مشبوها وتناول المشبوه جائز وإن كان عدم تناوله أولى لقوله عليه الصلاة والسلام فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .

فهرس أبجدى عام

لموضوعات المجلد الخامس والثلاثين

